

٢٠٠٧

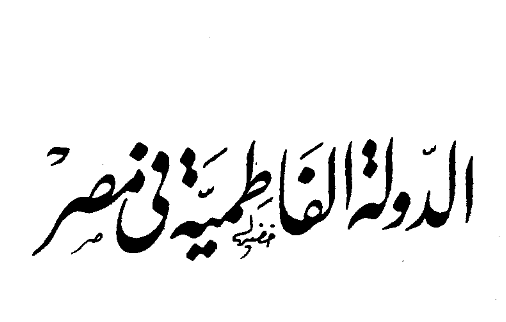
سلسلة العلوم الإجتماعية

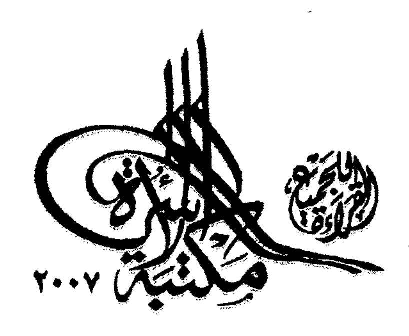
الدولة الفاطمية في مصر

تفسير جديد

الدكتور أيمن فؤاد سيد




الدولة الفاطمية في مصر



برعاية السيدة

سوزان مبارك

المشرف العام

د . ناصر الأنصارى

تصميم الغلاف

د . مدحت متولى

الإشراف الطباعى

محمود عبد المجيد

الإشراف الفنى

علوى أبو الخير

ماجدة عبد العليم

صبرى عبد الواحد

الجهات المشاركة

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة التنمية المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ

الهيئة المصرية العامة للكتاب

الدولة الفاطمية في مصر

تفسير جديد

الدكتور أيمن فؤاد سيد



٢٠٠٧

الدولة الفاطمية فى مصر

سيد ، أيمن فؤاد .
الدولة الفاطمية فى مصر: تفسير جديد/ أيمن فؤاد سيد . ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧.
٨٣٢ ص ؛ ٢٥ سم. (مكتبة الأسرة ٢٠٠٧- سلسلة العلوم الاجتماعية).
تدمك: ٤ - ٩٣٢ - ٤١٩ -٩٧٧.
١- مصر - تاريخ - العصر الفاطمى (٩٦٩ - ١١٧١).
٢ - الدولة الفاطمية
أ - العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٦٢ / ٢٠٠٧
I.S.B.N 977-419-932-4
ديوى ٩٥٣,٠٧٣٨

توطئة

تعتبر القراءة منذ فجر التاريخ أول وأهم أدوات المعرفة، وعنصرًا لا غنى عنه من عناصر بناء الحضارة، فمنذ نقش حكيم مصرى قديم وصية لابنه على ورق البردى: «يا بنى ضع قلبك وراء كتبك، واحببها كما تحب أمك. فليس هناك شىء تعلو منزلته على الكتب»، ومذ أطلق د. طه حسين مقولته: «إن القراءة حق لكل إنسان، بل واجب محتوم على كل إنسان يريد أن يحيا حياة صالحة» ومذ كتب العقاد جملته الآسرة: «إنما أهوى القراءة؛ لأن عندى حياةً واحدةً فى هذه الدنيا، وحياة واحدة لا تكفينى»، ومذ قررت السيدة الفاضلة **سوزان مبارك** تحويل الحلم إلى واقع مؤكد منذ ستة عشر عامًا: «إن الحق فى المعرفة يتصدر أولويات العمل، ولا يقل عن الحقوق الصحية والاجتماعية»، ومسيرة القراءة للجميع تمضى بخطوات ثابتة وواسعة لتحقيق أهدافها فيلتف القراء حول أضخم مشروع نشر فى الوطن العربى، ويطالبون خلال السنوات السابقة باستمراره طوال العام، وها هو المشروع يقرر الاستمرار طوال العام بعد انتهاء فترة العطلة الصيفية ليتحقق شعاره بالفعل.. **القراءة للحياة.**

لقد استطاعت **مكتبة الأسرة** خلال مسيرتها تمكين الشاب والمواطن من الاطلاع على الأعمال الأدبية والإبداعية والدينية والفكرية، التى شكلت وجدانه وحضارته، وعملت على إشاعة الأفكار التنويرية الحقيقية، التى عكست جهود

التنوير للشعب المصرى فى العصر الحديث، وحرصت على تقديم أحدث الإنجازات العلميـة بنشر أحدث مؤلفات العلماء التى تواكب التطور العلمى والتكنولوجى فى العالم، وأقامت جسرًا مع الحضارات الأخرى من خلال إعادة طبع كلاسيكيات ودرر العالم المترجمة، التى تعرض إنجازات الشعوب الأخرى فى المجالات الأدبية والفكرية والعلمية، وعملت على تأكيد الهوية القومية من خلال نشر التراث المستنير العربى والإسلامى، الذى مَثَّل نقطة انطلاق مضيئة فى مسيرة الإنسانية.

لقد أعادت **مكتبة الأسرة** للكتاب أهميته ومكانته كمصدر مهم وخالد من مصادر المعرفة، وأحدثت عبر عطائها المتميز وبنائها الدءوب الحقيقى صحوة ثقافية بالمجتمع المصرى تؤكدها المؤشرات العامة والأرقام، التى يتم رصدها وتحليلها منذ بداية المشروع، فالأرقام تسجل ارتفاعًا ملحوظًا فى نصيب المواطن المصرى من القراءة، وإصدار ملايين النسخ من الكتب ونفادها الفورى من الأسواق، وازدياد العناوين المطروحة عامًا بعد عام.

لقد بلغت عناوين **مكتبة الأسرة** أكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة عنوان فيما يربو عن واحد وأربعين مليون نسخة، كنتاج فكرى وإبداعى لعدد من الكُتَّاب والمترجمين والرسامين يزيد عن ألفى مبدع ومفكر.

وما زالت **مكتبة الأسرة** التى أصبح لها فى كل بيت ركن مميز تواصل تقديم إصداراتها للعام الرابع عشر على التوالى، كرافد رئيسى من روافد القراءة للجميع، وصرح شامخ فى المكتبة العربية، يفتح نوافذ جديدة كل يوم على آفاق تنشر الخير والمعرفة والجمال والحق والسلام.

مكتبة الأسرة

تقديم

اصطدم الفاطميون فى إفريقيا، بالعديد من الصعاب، كان على رأسها انقسام أهل الشمال بين مذهبى أهل السنة والخوارج، وتنافس القبائل البربرية شرقًا وغربًا، فضلا عن المشكلات الجغرافية المتمثلة فى الطبيعة الجبلية للشمال الإفريقى، والمشكلات الاقتصادية، الناتجة عن قلة الموارد، ولذا فقد وجهوا نظرتهم قِبل المشرق وصوب مصر بصفة خاصة، والتى اعتزموا جعلها مركزًا لنشر دعوتهم فى العالم الإسلامى، لما تتمتع به من موقع استراتيجى بالغ الأهمية.

ويتناول هذا الكتاب الموسوعى الدولة الفاطمية فى مصر منذ تطلع المعز لدين الله إلى انتقال الخلافة الفاطمية إلى المشرق؛ لتحقيق الأهداف الاستراتيجية، التى تتيح لهم السيطرة الكاملة على الحوض الغربى للبحر المتوسط، انطلاقًا من مصر بوصفها مفتاح الحوض الشرقى للبحر المتوسط، الذى يؤهلها للتدخل المباشر عن طريق البحر الأحمر واليمن وفى تجارات المحيط الهندى والشرق الأقصى.

ويشير المؤلف د. أيمن فؤاد السيد فى كتابه هذا إلى تمكن جوهر الصقلى الذى فوّضه المعز عسكريًا وسياسيًا وماليًا لقيادة الجيش المنطلق نحو مصر - من الدخول إلى مصر فى عام ٣٥٨هـ/٩٦٩م، ليصبح بذلك الفتح الفاطمى لمصر

بمثابة انقلاب دينى ثقافى اجتماعى، بعيد المدى، صحبه تحول ظاهر فى نظام الحكم، وبذا لم يكن هذا الفتح مجرد قيام حكومة مكان أخرى على أية حال من الأحوال.

ويعرض المؤلف فى كتابه تاريخ هذه الدولة فى مصر منذ فتحها جوهر الصقلى وإلى انتهائها، مطوِّفًا بنا حول أرجائها من شتى مظاهر النشاط الإنسانى، متناولا الحياة السياسية فى مصر إبان هذه الخلافة، وما تمخض فيها من مواجهات بينها وبين الخلافة العباسية، كما عرج بنا إلى بداية ظهور النظام العسكرى فيها إثر مقدمات الغزو الصليبى، وما تلاه من نهاية الاستقرار وبداية التدهور، الذى أدى إلى الاضمحلال السياسى لهذه الدولة، ثم انتقل بنا المؤلف إلى الحياة الاجتماعية للبلاد فى ظل الخلافة الفاطمية، حيث شهدت مصر مظاهر ومواسم للاحتفالات والأعياد، وخاصة الدينية، وانتقل بنا المؤلف من ذلك إلى الحياة الاقتصادية، التى شهدت تطورًا فى الزراعة والصناعة والتجارة، وما تطلبه من وضع نظام ضرائبى ينظم النشاط الاقتصادى.

وقبل أن ينتقل بنا المؤلف إلى الحديث عن الحياة العسكرية فى مصر فى ظل الفاطميين، ودور الجيش الفاطمى والبحرية فى هذه الدولة، وخاصة فى زمن الحروب الصليبية، تعرض إلى الإسهامات التى قام بها الفاطميون فى الثقافة والتعليم والعمارة والفنون.

ومكتبة الأسرة تعيد إصدار هذا الكتاب الذى صدرت طبعته الأولى عام ١٩٩٢، والثانية عام ٢٠٠٠، لأنه يؤرخ لحقبة زمنية كبيرة من تاريخ مضر، مقدمًا تفسيرًا جديدًا لتاريخ الدولة الفاطمية فى مصر.

المحتويات

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

عندما بدأتُ منذ نحو عشرين عامًا فى نَشْر مصادر جديدة لتاريخ الفاطميين فى مصر، وإعادة نَشْر مصادر أخرى اعتمادًا على مخطوطات كُشِفَت حديثًا أو مقابلتها على معلومات جديدة وَصَلَت إلينا (للمُسَبِّحى وابن الصَّيْرَفى وابن المأمون وابن الطُّوَيْر وابن مُيَسَّر وابن عبد الظَّاهِر والمَقْريزى)؛ فَتَحَت هذه النصوصُ الجديدة أمامى مجالًا رَحْبًا للبحث والتنقيب فى النواحى المختلفة للتاريخ الفاطمى خاصةً فى فترته المصرية. كان طبيعيًّا أن يدفعنى ذلك إلى كتابة تاريخ جديد للدولة الفاطمية فى مصر اعتمادًا على هذه المصادر وعلى إعادة قراءة المصادر التقليدية فى ضوء ما ظَهَرَ من مصادر جديدة، وأخيرًا على الدراسات المتخصِّصَة الحديثة التى تناولت بعُمْق مسائل جزئية من التاريخ الفاطمى الطويل.

كانت الحَفاوَةُ التى استَقْبَل بها المتَخَصِّصون هذه الدراسة وسرعة نفادها، مشجِّعًا لى على إصدار طبعة جديدة تأخُذ فى الاعتبار النصوص الجديدة والدراسات الحديثة. وفى هذه الطبعة عَدَّلْت فصولًا وأَضَفْتُ فصولًا جديدة عن الرُّسُوم والمواكب الاحتفالية، والتعليم والثقافة، والتاريخ العسكرى للدولة الفاطمية، ومَهَّدت للكتاب ببحث فى مصادر التاريخ الفاطمى وعن الوضع الراهن للدراسات الإسماعيلية والفاطمية.

والخطوطُ العريضةُ والحقائقُ المتعلِّقةُ بتاريخ الحركة الإسماعيلية وتاريخ الفترة الفاطمية فيها تكادُ أن تكون معروفة للدارسين، وأصْبَحَت مهمةُ الباحث فى تاريخ الفترة

الفاطمية بوجه خاص مهمةً صعبةً، فعليه أن يجمع كل المصادر المتوافرة ويتعرّف من خلالها على المصادر المُبَكِّرة التى ترجع حقيقةً إلى العصر الفاطمى، ويعرض من خلالها تاريخًا صحيحًا للدولة يقوم على أساس تفسير هذه الأحداث وتحليل الظواهر الرئيسة للتاريخ الفاطمى.

فالدولةُ الفاطميةُ تُعَدُّ نموذجًا واضحًا للدولة الثِّيوقراطية فى التاريخ الإسلامى، قامت على أساس ادِّعاء إيصال نَسَب أصحابها إلى النبى ﷺ عن طريق السيدة فاطمة والإمام علىّ. ويَغْلُب الغموض على تاريخ الحركة الإسماعيلية طوال المائة عام الأولى التى أعقبت وفاة الإمام جعفر الصادق سنة ١٤٨هـ/٧٦٥م.

واعتمدت هذه الحركة على نشاط مُكَثَّف للدعاة السريين الذين انتشروا فى أرْجاء العالم الإسلامى يَدْعون إلى قُرْب ظهور الإمام المهدى من آل فاطمة. وابتداءً من النصف الثانى للقرن الثالث الهجرى/التاسع الميلادى- بعد دخول الإمام محمد بن الحسن العَسْكَرى آخر الأئمة الاثنى عشرية فى السِّرْداب سنة ٢٥٥هـ/٨٦٩م- أصبحت الحركة الإسماعيلية هى الجناح الثورى الأكبر أهمية للشيعة، وظهرت كحركة ديناميكية ومنظمة مركزية اكتسبت سريعًا شهرةً فاقت شهرة أية حركة شيعية أخرى فى هذه الفترة.

وفى السنوات الأخيرة للقرن الثالث الهجرى نجحت الحركة الإسماعيلية فى إقامة دولة قوية فى إفريقية هى «الخلافة الفاطمية» التى هَدَّدَت لفترة أكثر من مائتى عام وَضْع العديد من الأُسرات الحاكمة فى العالم الإسلامى، كما أن أئمتهم اعتبروا الخلفاء العَبّاسيين مغتصبين لحقِّهم الشَّرْعى فى حُكْم هذا العالم.

ولا تُحَدِّثنا المصادر الإسماعيلية والفاطمية إطلاقًا عن (الإسماعيليين) أو (الفاطميين)، وهما مصطلحان يقابلان الباحث فى كتب الفِرَق والعقائد وعند المؤرِّخين. فقد أَطْلَق المؤرِّخون على الدولة التى قامت فى شمال إفريقيا فى أواخر القرن

الثالث الهجرى «الدولة (الخلافة) الفاطمية». أما كتب الدَّعْوَة نفسها والسِّجلّات الرسمية فتُطْلِق عليها «الدَّعْوَة الهادية» أو «دَعْوة الحق». وأصبح الدارسون يُمَيِّزون بين الفترة التى أُعلِنت فيها الدولة والفترة السابقة عليها أو اللاحقة لها؛ بأن أطلقوا على الدولة: الفترة الفاطمية (الدعوة– الدولة)، وعلى الفترة السابقة: الإسماعيلية المُبَكِّرة والفترة اللاحقة: الإسماعيلية. فلم ينشأ مصطلح «الفاطميين» إلَّا مع إعلان الإمام المهدى عبد الله قيام دولته سنة ٢٩٧هـ/ ٩٠٩م لتأكيد انتسابهم أولًا إلى السيدة فاطمة ابنة النبى ﷺ ثم إلى السيدة فاطمة زوجة الإمام جعفر الصادق وأم ولديه إسماعيل وعبد الله اللذين ينتسب إليهما الإسماعيليون.

وبينما جاء انتصارُ العبّاسيين سريعًا وحاسمًا واستقرُّوا فى الحكم طوال أكثر من خمسة قرون، فقد استغرق انتصارُ الفاطميين وَقْتًا أطول ، كما أن هذا الانتصار لم يكتمل أبدًا. وبينما قَطَعَ العَبّاسيون كذلك صلاتهم بالدَّعْوَةِ ورجالها فور استيلائهم على السُّلْطَة، فإن الفاطميين لم يستطيعوا الانفصال عن «الدَّعْوَة» لأنه كان لا يزال يُنْتَظَر منها الكثير، وكانت بمثابة السِّلاح الإيديولوجى للحركة. فقد كان هَدَفُهم إرساء دعائم المذهب الإسماعيلى والإمامة الفاطمية فى كل العالم الإسلامى.

ولم تكن إفريقية (تونس الحالية)، حيث أُعْلِنَ قيام الخلافة الفاطمية، لتفى بغَرَض الفاطميين وتُحَقِّق أحلامهم، فقد كانت أنظارُهم تتَّجه دائمًا إلى الشرق. ولجأوا فى سبيل ذلك إلى الدِّعاية السياسية ضد العَبّاسيين فى بَغْداد والأمويين فى قُرْطُبَة على السواء، ونشطت هذه الدِّعاية فى أيام المُعِزّ لدين الله رابع خلفائهم، وعَبَّر عنها بوضُوح شاعرهم ابن هانئ الأندلسى.

وتَحَقَّقَت أعظمُ انتصارات الفاطميين على يد الإمام (الخليفة) المُعِزّ لدين الله، فلا شك أن فتحهم مصر فى سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م هو أعظم إنجازاتهم التى حَفِظَت لهم مكانًا

بارزًا فى التاريخ. وفى مصر أنشأ الفاطميون عاصمةً جديدةً، هى «القاهرة»، تُعَبِّر عن كيانهم وعن اتجاهاتهم، وكانت آمالُهم ومحاولاتُهم التوسُّعية تَتَّجه دائمًا نحو الشرق وكان هدفُها الأول أراضى الخلافة العَبّاسية.

ورغم أن الفاطميين كانوا وهم بإفريقية بحاجة إلى «عَصَبِيَّة» تَمَثَّلَت فى قبيلة كُتامَة البربرية، فقد اختلف الوضع فى مصر حيث انفصلوا عن مجموع سُكّان الشعب وقرَّبوا أهل الذِّمَّة.

ومَرَّت الدولة (الخلافة) الفاطمية فى مصر بفترتين متميزتين: تبدأ الفترة الأولى مع وصول القائد جَوْهَر الصَّقَلّى إليها وإتمام عملية فَتْح مصر سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م، وتنتهى باندلاع الحرب الأهلية فى منتصف القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى فى زمن الخليفة المستنصر بالله. والفترة الثانية هى فترة الحُكْم المُطْلَق للوزراء العسكريين التى تبدأ بوزارة أمير الجيوش بدر الجمالى وتنتهى بوصول صلاح الدين يوسف بن أَيُّوب إلى قمة السُّلْطَة فى مصر سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م وسقوط الخلافة الفاطمية فى المحرم سنة ٥٦٧هـ/سبتمبر سنة ١١٧١م. فى الفترة الأولى- فيما عدا استثناءات قليلة- جَمَعَ الأئمة (الخلفاء) الفاطميون فى أيديهم السُّلْطَة السياسية المُطْلَقَة، أما الفترة الثانية فقد استَبَدَّ فيها بالحكم الحُكّام العسكريون المُطْلَقون الذين اغتصبوا السُّلْطَة السياسية من الأئمة.

وطوال المائة عام الأولى للتاريخ الفاطمى فى مصر، لم يُحاول الفاطميون اتخاذ إجراءات حاسمة لتحقيق حلمهم فى حكم العالم الإسلامى وتكوين الإمبراطورية العالمية التى حلموا بها، بل إن أئمتهم شَغَلوا أنفسهم بمشاكل عقائدية وطموحات شخصية خاصةً فى عهد الحاكم بأمر الله. وشهد النصف الأول من حكم الخليفة المستنصر بالله الطويل (٤٢٧-٤٨٧هـ/١٠٣٦-١٠٩٤م) أسوأ أزمة اقتصادية عرفتها مصر فى العصر

الإسلامى، بالإضافة إلى فوضى إدارية شاملة وحروب أهلية هَدَّدَت الأمن والاستقرار الذى عرفته مصر فى العقود الأولى للقرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى، وتطَلَّبت الاستعانة بقائد عسكرى قادر على حِفْظ الأمن وإعادة النظام.

ومع ذلك فقد ظَلَّ الفاطميون لفترة غير قصيرة، خلال النصف الأول للقرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى، أكبر قُوَّة فى العالم الإسلامى. فقد وَصَلَت الإمبراطورية الفاطمية فى أوائل حكم المستنصر بالله إلى أقصى اتِّساع لها وكانت تَضُمّ مصر والشام وشمال إفريقيا وصِقِلِّية والشاطئ الإفريقى للبحر الأحمر والحجاز واليمن وعُمان والبحرين والسِّنْد بحيث يمكننا أن نُطْلق عليها «العصر الذَّهَبى للإسماعيلية»، ولكنها سُرْعان ما هَوَت بعد ذلك خاصةً بعد ظهور السَّلاجِقَة كقُوَّة فَتِيَّة جديدة فى الإسلام ؛ فعند وفاة المستنصر بالله سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م كانت الدَّعْوَة الإسماعيلية قد تَمَزَّقَت إلى أجزاء.

ورغم أننا لا نعرف سببًا مباشرًا واضحًا لاندلاع الحرب الأهلية فى عصر المستنصر، فلاشك أنها كانت نتيجةً غير مباشرة لعدم الاستقرار الإدارى الذى أعقب التَّخَلُّص من الوزير القوى الحسن بن على بن عبد الرحمٰن اليازورى (٤٤٢-٤٥٠هـ/١٠٥٠-١٠٥٨م)، كما أَثَّرَت تأثيرًا هائلًا على الفترات التالية فى التاريخ الفاطمى. فأدخلت هذه الحرب الدولة والمجتمع وحتى الأسرة الحاكمة فى حَالَة من البؤس والشقاء والفوضى.

كان الرجلُ الذى أنقذ الدولة من هذا الانهيار هو أمير الجيوش بدر الجمالى القائد الأَرْمَنى الأصل، الذى استنجد به الخليفة المستنصر، والذى أقام فى مصر حُكْمًا عسكريًّا مُطْلَقًا، استمر أولًا فى أسرته حيث نَقَلَ سلطته إلى ابنه الأَفْضَل شاهنشاه (٤٦٦-٥١٥هـ/١٠٧٣-١١٢١م)، كما أن حفيده أبا على الأَفْضَل كُتَيْفات تولَّى السُّلْطَة فترة قصيرة أثناء الاضطراب الذى أعقب وفاة الخليفة الآمر بأحكام الله سنة ٥٢٤هـ/١١٣٠م. وتُعَدُّ فترة الحكم المُطْلَق لأسرة بدر الجمالى نقطة التَّحَوُّل فى صَبْغ السياسة

الفاطمية بالصِّبْغَةِ العسكرية، حيث وَصَلَ عددٌ من الوزراء إلى الحكم في القرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى بفضل مؤازرة الفِرَق العسكرية لهم، وساعد هذا التواجد العسكرى على خَلْق مواجهات عنيفة بين الفِرَق العسكرية المختلفة وإن لم يُؤَدِّ إلى حرب أهلية جديدة. وفى ظِلِّ هذا النظام أصبح الأئمة (الخلفاء) الفاطميون مُجَرَّد رؤساء صوريين لسلسلة متتابعة من الطُّغاة العسكريين، مثلما أضحى الخلفاء العبّاسيون فى بَغْداد بمثابة دُمًى عاجزة فى أيدى حماتهم من البُوَيْهيين والسَّلاجِقَة.

وأدَّى إبعادُ الوزير القوى الأَفْضَل بن بدر الجمالى لنِزار، صاحب الحق فى خلافة الإمام المستنصر بالله عند وفاته سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م، إلى انقسام الإسماعيليين إلى فرقتين: «النِّزارِيَّة» ويؤيِّدون نِزارًا الابن الأكبر للإمام المنتقل وانتشروا على الأخص فى بلاد فارس، و«المُسْتَعْلِيَّة» أتباع الإمام الجديد وانتشروا فى مصر والشام واليمن. وبعد وفاة الإمام الآمر بأحكام الله ابن المُسْتَعْلى سنة ٥٢٤هـ/١١٣٠م دون وريث وإعلان ابن عمه عبد المجيد لنفسه خليفة باسم «الحافظ لدين الله» سنة ٥٢٦هـ/١١٣٢م، ظهر انشقاقٌ جديدٌ فى الفرقة «المُسْتَعْلِية» التى انقسمت إلى «حافِظِيَّة» استمرت فى مصر و«طَيِّبِيَّة» استقرُّوا فى اليمن والهند. وقد استمرت إلى الآن الدعوة المستعلية- الطَّيِّبِيَّة المعروف أتباعها فى الهند باسم Bohora «البُهْرَة» وزعيمهم هو الداعى المُطْلَق الثانى والخمسون السلطان محمد برهان الدين بن طاهر؛ والدعوة النِّزارِيَّة التى أطلق عليها الأوربيون لَفْظ Assassins «الحَشّاشين» والموجود أتباعها فى سوريا وإيران وباكستان - ويعرفون بالطائفة الأغاخانية نسبة إلى زعيمهم الأمير (الشاه) كريم الحسينى الأغاخان الرابع والإمام التاسع والأربعين للإسماعيليين النِّزاريين؛ بينما انحلَّت الدعوة الحافظية فور سقوط الدولة الفاطمية فى مصر.

ومنذ اعتلاء الحافظ لدين الله كرسى الخلافة أصبح تاريخُ الفاطميين فى مصر تاريخًا محليًّا، فقد فَقَدَ الفاطميون كل ممتلكاتهم خارج مصر، فيما عدا عَسْقَلان التى لم تَلْبَث أن سقطت فى أيدى الفِرنْج سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م، ولم يُقِم الدَّعوة للفاطميين فى مصر

إلّا الزُّرَيعيون حُكّام عَدَن. وأصبح تاريخ الفاطميين صراعًا داخليًا بين ولاة الأقاليم حول منصب الوزارة، حيث أصبح الوزير هو السَّيِّد الفعلى للبلاد. وتعكس لنا هذا الوضع الوثائق التى وَصَلَت إلينا وترجع إلى هذه الفترة حيث أصبحت العرائض والشَّكاوى تُرْفَع إلى الوزير لا إلى الإمام (الخليفة).

وإلى هذه الفترة يرجع بداية استعانة الوزراء بملوك وأمراء الدول المجاورة من السُّنَّة والفِرِنْج على السواء، لتمكينهم من الحكم أو مساندة بعضهم ضد بعض، مما أدَّى إلى تَطَلُّع هذه القوى إلى الاستيلاء على مصر، حتى نَجَحَ صلاحُ الدين يوسُف بن أيُّوب - أحد هؤلاء الأمراء - فى وَضْع نهاية للدولة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م وإعادة مصر مرةً أخرى بعد انقطاع أكثر من مائتى عام إلى دائرة الأقاليم التى يحكمها أهلُ السُّنَّة.

ورغم النجاح والتَّوَسُّع الذى حَقَّقَته الدولة الفاطمية فى النصف الأول للقرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى، فإن هذا التَّوَسُّع تَمَّ عن طريق الدُّعاة والدِّعاية الدينية والسياسية ولم يكن للجيش الفاطمى أى دور فيه. فهذا الجيش لم يُخْتَبَر على الإطلاق بعد فَتْح مصر الذى تَمَّ دون مقاومة من المصريين، كما أن هذا الجيش تَعَرَّض لانكسارات كثيرة عندما واجه جيوشًا أكثر تنظيمًا منه وخاصةً فى نهاية القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى عند وصول الحملة الصليبية الأولى سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م.

وإذا كانت الدولةُ الفاطميةُ دولة ثيوقراطيةً ذات إيديولوجية خاصة، وكان هدفُها بَسْط نفوذها وسيادتها على كل الأراضى الإسلامية، فمع ذلك لا نجد واحدًا من أئمتهم أدَّى فريضة الحج رغم حرصهم الشديد على إقامة الدَّعْوَة لهم على منابر مكة والمدينة، وإنما وَجَّهوا اهتمامهم إلى إحياء بعض المظاهر الإسلامية بفخامة وبَذَخ داخل عاصمة ملكهم.

*
* *

وتنقسم هذه الدراسة إلى ثلاثة كُتُب وتَمْهيد ومَدْخَل. يتناول التمهيدُ مصادرَ التاريخ الفاطمى والوَضْع الراهن للدراسات الفاطمية والإسماعيلية. ويشتمل المَدْخَل على دراسة عن الإسماعيلية المُبَكِّرة حتى إعلان قيام الخلافة الفاطمية في إفريقية.

ويتناول الكتاب الأول فى تسعة فصول «الدَّعْوة - الدَّوْلة» أى التاريخ السياسى للدولة الفاطمية منذ قيامها فى إفريقية سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م وحتى سقوطها فى مصر سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م مع التركيز بشكل أساسى على الفترة المصرية فى هذا التاريخ؛ ويَدْرُسُ الكتاب الثانى فى ثمانية فصول «النُّظُم والحضارة» فى مصر خلال العصر الفاطمى، أما الكتابُ الثالث فيتناول فى فصلين جديدين «الجيش والبحرية» فى العصر الفاطمى.

وتَجنَّبت فى كتابة هذه الدراسة الخوض فى التفاصيل الدقيقة للأحداث، واستعضت عن ذلك بتقديم تحليلٍ لأطوار التاريخ الفاطمى وتوضيحٍ للخطوط العريضة والظواهر الرئيسة لتاريخ الدولة الفاطمية، وشَرْحٍ للإستراتيجية التى كانت تَحْكُم سياسة الفاطميين والأهداف التى كانوا يتطلَّعون إليها ومدى نجاحهم أو فَشَلهم فى تحقيقها.

ووَجَّهت اهتمامى إلى إظهار التطوُّرات والتَّغَيُّرات الإيديولوجية والاجتماعية التى طَرأَت على دولتهم، وشَرْح سياستهم الاقتصادية والضرائبية التى حَدَّدَت استراتيجيتهم فى النصف الثانى لتاريخ دولتهم.

ولم أكتف فى هذا العرض بالاعتماد على المواد والمصادر الجديدة أو التى اكتشفت حديثًا، بل أعدت النَّظَر فى المواد المتوافرة المعروفة والتى أظن أنه لم يُسْتَفَد منها الفائدة

المرجوة، كما أنها أصبحتْ بحاجة إلى نظرة تحليلية أَدَقّ فى ضوء ما ظهر من مصادر أدبية ومادية جديدة فى العقود الأخيرة. فقراءة متأنيّة لمصادر التاريخ الفاطمى من شأنها أن تجلو لنا الكثير من الحقائق التى كانت بعيدةً عَنَّا.

وحرصت كذلك على عدم معالجة الموضوع معزولًا عن قضايا العصر الأخرى مما ساعدنا على إبراز الترابط بين هذه القضايا المُعَقَّدة وتوضيحه.

وقمت كذلك بالاستشهاد بنصوص المؤرِّخين المعاصرين ، وخاصةً عند تناول وَصْف المواكب الاحتفالية ؛ فهذه النُّصُوص شهاداتٌ لا تُجَرِّح عن الطريقة التى كانت تتم بها هذه الاحتفالات الموكبية ذات الرُّسُوم المُعَقَّدَة .

وبعد، فأرجو أن أكون قد أَسْهَمْت فى تقديم عرضٍ وافٍ وتفسيرٍ جديدٍ لفترةِ الظُّهور فى تاريخ الدَّعْوَة الإسماعيلية والتى تُعَدُّ فى الوقت نفسه أحد أهم فترات تاريخ مصر الإسلامية ، اعتمادًا على المصادر الأصلية وما تَوَصَّلت إليه الدراساتُ الحديثة.

مصر الجديدة فى ١١ جمادى الآخر سنة ١٤٢٠هـ

٢١ سبتمبر (أيلول) سنة ١٩٩٩م

أيمن فؤاد سيّد



تمهيد

مَصَادِرُ التَّارِيخِ الفَاطِمِيِّ
وَالوَضْعُ الرَّاهِنُ لِلدِّرَاسَاتِ الفَاطِمِيَّةِ

لم يُخَلِّف لنا العصر الفاطمى، من ناحية القيمة، إنتاجًا أدبيًا يُضارِعُ ما وَصَلَ إلينا فى هذه الفترة من بغداد العَبّاسية أو حَلَب فى زمن الحَمْدانيين. إلّا أن أهم ما مَيَّزَ الإنتاج الأدبى لعصرَ الفاطميين هو ميلاد مدرسة مصرية جديدة فى التاريخ ترى فى مصر مقَرَّ خلافة ومركزًا للعالم الإسلامى، وتختلف آثارُها عما كتبه فى مصر قبل عصر الفاطميين مؤرِّخون مثل: ابن عبد الحَكَم والكِنْدى.

فشهد العصر الفاطمى ميلاد فن نما وَتَطوَّر فى مصر الإسلامية هو «فَنُّ التأليف فى الخِطَط»[1]، كما دُوِّن فيه أوَّل كتاب فى الكتابة الإنشائية، وظهرت المؤلَّفات التى تهتم بذكر نُظُم الحُكْم ورُسُوم الخلافة، بالإضافة إلى كتب التاريخ والحَوْليات التى أرَّخَت للدولة الفاطمية فى مصر والبلدان التى امتدَّ إليها النفوذ الفاطمى مثل: الشام والحجاز واليمن والهند وإفريقية.

وإذا كانت المصادرُ التاريخية (والحَوْليات بصفة خاصة) تنقسم عادةً إلى نوعين رئيسيين: نوع نجد فيه المؤلِّف يكتب عن أحداثٍ شاهدها بنفسه أو وَصَلَت إليه أخبارُها عن طريق الرِّواية. ونوعٍ آخر يَعْمَدُ فيه المؤرِّخ إلى النَّقْل عن مصادر قديمة وتضمينها فى كتابه. فمن المؤسف أن الإنتاج التاريخى الضخم لعصر الفاطميين - والذى يُمَثِّل النوع الأول - قد فُقِدَ ولم يصل إلينا منه سوى عددٍ قليلٍ لا يتجاوز الخمسة الكتب. ولم يُفْقَد

---

[1] راجع مقالى Fu'âd Sayyid, A., «L'évolution de la composition du genre des *Khitat* en Egypte musulmane» , *An. Isl.* XXXIII (1999) pp. 1-11 .

هذا التراث إلّا فى عصور متأخِّرة فقد كان بحَوْزَة المؤرِّخين المتأخِّرين- الذين عاشوا فى القرن الثامن والتاسع الهجرى/الرابع عشر والخامس عشر الميلادى- نُسَخٌ من هذه المؤلَّفات نَقَلُوا عنها نقولًا مُطَوَّلَة يمكننا من خلالها أن نتصَوَّر حجم المادة التى حَوَتها هذه المؤلَّفات وقيمتها. فالعديد من المؤلَّفات التاريخية المتأخِّرة، التى تناولت الفترات المبَكِّرة من التاريخ المصرى، تستمد أهميتها من قيمة المصادر التى نَقَلَت عنها والتى فُقِدَت اليوم والتى نستطيع من خلالها أن ندرس تاريخ هذه الفترات.

لذلك فقبل مرحلة التأليف يجب على الباحث أن يُحَدِّد المصادر التى وَصَلَت إلينا من العصر الفاطمى وتلك التى ترجع حقيقةً إلى هذا العصر وحَفِظَها لنا المؤرِّخون المتأخِّرون. ونظرة عامة على هذه المصادر تُظْهِرُ لنا أن تقسيم المصادر الفاطمية غير متكافئ؛ ففيما يخص الدور الإفريقى نجد أن مؤلَّفى القاضى النُّعْمان بن حَيُّون: «افتتاح الدَّعْوَة» و«المجالس والمسايرات» وكذلك «سيرة الأستاذ جَوْذَر» لأبى على منصور العزيزى الجَوْذَرى أهم مصادر هذه الفترة. وبالنسبة لتاريخ الفاطميين فى مصر فإننا نملك معلومات مُفَصَّلَة عن فترة خلافة كل من المُعِزّ لدين الله والعزيز بالله والحاكم بأمر الله بفضل مؤرِّخين من أمثال: ابن زولاق والمُسَبِّحى ويحيى بن سعيد الأنطاكى. أما فترة خلافة المستنصر بالله، على طولها وأهميتها والتى تُمَثِّل نقطة تَحَوُّل خطيرة فى تاريخ الدولة، فإن مصادرها قليلة ومفقودة تَتَمَثَّل فى مؤلَّفات القُضاعى وصاحب «الذَّخائر والتحف» و«سيرة المستنصر» و«سيرة اليازورى» اللتين لا نعرف أسماء مؤلِّفيها، بالإضافة إلى مصدر فارسى لم يعرفه المؤرِّخون المتأخِّرون هو «سَفَرْنامَة» رحلة الرَّحّالة الفارسى ناصر خُسْرو. وقد عَوَّضَت المصادر المادية والسِّجِلّات الرسمية، وخاصة قرب نهاية عَهْد المستنصر، نَقْص المصادر الأدبية لهذه الفترة.

وعلى العكس من ذلك فإن تاريخ الفاطميين المتأخِّرين قد رُوى بعد فترة قصيرة من سقوط دولتهم نقلًا عن مصادر مفقودة مثل «تاريخ خُلَفاء مصر» للمُرْتَضى المحَنَّك،

و«تاريخ» ابن المأمون، كما وَصَلَت إلينا من هذه الفترة مؤلَّفاتٌ هامة لابن الصَّيْرَفى وابن القَلانِسى وعُمارَة اليمنى وأُسامَة بن مُنْقِذ.

ووَصَفَ «النِّظام المالى والإدارى» و«رُسوم الفاطميين» مؤلِّفون عاشوا فى آخر عَهْد الدولة الفاطمية وأوَّل عَهْد الدولة الأيوبية وخَدموا فى دواوين الدولتين، مثل: المخْزومى وابن مَمّاتى وابن الطُّوَيْر والنابُلسى وكذلك ابن المأمون. كما سَجَّل تاريخهم السياسى مؤرِّخون من أمثال ابن ظافر الأزْدى ويحيى بن أبى طَىّ وابن الأثير الجزَرى وأبو شامَة المقْدسى وابن سعيد المغربى وابن خَلِّكان وابن واصِل الحَمَوى بالإضافة إلى ابن مُيَسَّر وابن أيْبَك الدَّوادارى.

وتُمَثِّل المصادر الإفريقية أهميةً خاصةً فيما يتعلَّق بدراسة علاقات الفاطميين بشمال إفريقيا، مثل مؤلَّفات ابن حَمّاد الصِّنْهاجى المتوفى سنة ٦٢٦هـ/١٢٣٠م، وابن القَطّان المتوفى فى القرن السابع الهجرى/الثالث عشر الميلادى، ومحمد بن عِذارى المَرّاكشى المتوفى سنة ٧١٢هـ/١٣١٣م.

وأوْسَعُ وأشْمَلُ المصادر التى وَصَلت إلينا عن تاريخ الفاطميين هى مؤلَّفات المؤرِّخين المصريين المتأخِّرين والتى استمدت أغلب معلوماتها من المصادر المُبَكِّرَة التى فُقِدَت اليوم، مثل مؤلَّفات النُّوَيْرى وابن الفُرات وابن دُقْماق والقَلْقَشَنْدى والمَقْريزى وابن حَجَر العَسْقَلانى وأبى المحاسن بن تَغْرى بِرْدى وجلال الدين السُّيوطى وأخيرًا ابن إياس الحنفى. كما أن كتاب «عيون الأخبار وفنون الآثار» للداعى عماد الدين إدريس، المعاصر لهم، يعد أشمل كتاب فى تاريخ الحركة الإسماعيلية يُمَثِّل وجهة نظر الدَّعْوَة.

أما المصادر الشامية والعراقية فلا يمكننا الاعتماد عليها فى دراسة تاريخ الفاطميين فى مصر، وعلى الأخَصّ مؤلَّفات أبى الفرج ابن الجَوْزى وسِبْط ابن الجَوْزى وشمس الدين الذَّهَبى والحافظ ابن كثير، فهؤلاء جميعًا مُؤلِّفون سُنِّيون ذوو ميول حنبلية يُعادون

الفاطميين. والذّهبى وابن كثير على الأخص من علماء الحديث المشتغلين بالتاريخ ولا يعترفون بشرعية الخلافة الفاطمية، ويسمونهم بـ «الخلفاء المصريين» أو بـ «العُبَيْديين». وقد تنَبّه إلى ذلك مؤرّخ مصر تقى الدين المَقْريزى وقال عن مؤرخى العراق والشام: «وغير خاف على من تَبَحّرَ فى علم الأخبار كَثْرَة تحاملهم على الخلفاء الفاطميين وشنيع قولهم فيهم، ومع ذلك فمعرفتهم بأحوال مصر قاصرة عن الرتبة العلية، فكثيرًا ما رأيتهم يحكون فى تواريخهم من أخبار مصر ما لا يرتضيه جهابذةُ العلماء ويردُّه الحُذّاقُ العالمون بأخبار مصر، وأهل كل قطر أعرف بأخباره ومؤرّخو مصر أدرى بماجرياته»[1]. وذكر فى موضع آخر أن الأخبار الشنيعة، لاسيما التى فيها إخراجهم من مِلّة الإسلام، لا تكاد تجدها إلّا فى كتب المشارقة من البغداديين والشاميين كـ«المُنْتَظم» لابن الجَوْزى و«الكامل» لابن الأثير و«تاريخ حَلَب» لابن أبى طَىّ و«تاريخ العماد» لابن كثير وكتاب ابن واصل الحَمَوى... أما كتب المصريين الذين اعتنوا بتدوين أخبارهم فلا تكاد تجد فى شىء منها ذلك البتة»[2].

مُؤَلّفاتُ العَصْر الفاطمى

١- الإسماعيلية المُبَكّرة والفترة الإفريقية

لم يَكْتُب الإسماعيليون قبل الفترة الفاطمية سوى بعض الرّسائل المجهولة المؤلّف وهى فقيرة جدًّا فى معلوماتها التاريخية. وظَهَرَت هذه المُؤَلّفات منذ فترة قريبة ونُسِبَ أكثرها إلى الداعى الإسماعيلى اليمنى ابن حَوْشَب المعروف بمنصور اليمن المتوفى سنة

---

[1] المقريزى: اتعاظ الحنفا ١: ٢٣٢.

[2] نفسه ٣: ٣٤٦.

٣٠٢هـ/٩١٤م[١] أو إلى ولده جَعْفَر، وهى تشتمل على تفاصيل مهمة عن العقائد التى كانت تُبَشَّر بها الدَّعْوَة المُبَكِّرة. وبالمثل فإن العديد من المُؤَلَّفات الإسماعيلية التى كُتِبَت فى الفترة الفاطمية نادرًا ما تشتمل على إشارات تاريخية تَتَعَلَّق بالفترة الإسماعيلية المُبَكِّرَة.

وأهم هذه المُؤَلَّفات «رسالة افتتاح الدَّعْوَة» للقاضى النُّعْمان بن حَيُّون المتوفى سنة ٣٦٣هـ/٩٧٤م[٢]، التى تَعرِضُ للمراحل المتتالية للدعوة الإسماعيلية المُبَكِّرَة والظروف السياسية والاجتماعية التى أدَّت إلى وصول أبى القاسم المنصور بن حَوْشَب إلى اليمن سنة ٢٦٨هـ/٨٨٣م ونجاحه فى إنشاء أول كيان إسماعيلى فى التاريخ مما أدَّى إلى خروج الدَّعْوَة من دور السَّتْر إلى دور الظهور وإلى إعلان الخلافة الفاطمية نفسها فى إفريقية بعد ذلك بنحو ربع قرن فى عام ٢٩٧هـ/٩٠٩م.

ويُمَثِّل كتاب «المَجالِس والمُسايرات» للقاضى النُّعْمان أيضًا مصدرًا هامًّا للتعرّف على العلاقة بين الدَّعْوَة والدَّوْلة فى عَهْد الإمام الفاطمى الرابع المُعِزّ لدين الله وهو يشتمل على المجالس التى كان يعقدها الإمام وسَجَّلها ورواها القاضى النُّعْمان[٣].

وتُوَضِّح لنا «سيرة الحاجب جَعْفَر بن على» سبب انشقاق فَيْرُوز داعى المَهْدى الرئيس عنه واتجاهه إلى اليمن واتباعه للقَرامِطَة عندما علم بِنيَّة المَهْدى فى عدم قَصْد اليمن. وهى تصف لنا بدقة رحلة المَهْدى من سَلَمِيَّة (سَلَمْيَة) ووصوله إلى مصر ثم اتجاهه

---

[١] عن هذا الداعى المؤلف راجع Madelung, W., *EI*² art. *Mansûr al-Yaman* VI, pp. 424 - 25.

[٢] نشرت مرتين: الأولى بتحقيق وداد القاضى وصدرت عن دار الثقافة بيروت سنة ١٩٧٠، والثانية بتحقيق فرحات الدشراوى وصدرت عن الشركة التونسية للتوزيع بتونس سنة ١٩٧٥ وعن القاضى النعمان انظر Dachroui, F., *EI*² art. *al-Nu'mân* VIII, p. 119-20.

[٣] حققه إبراهيم شبوح والحبيب الفقى ومحمد البعلاوى وصدر عن الجامعة التونسية - كلية الآداب والعلوم الإنسانية سنة ١٩٧٨ وراجع ما كتبته عنه سمية همدانى Hamdani, S., «The Kitab al-Majâlis wa'l- Musâyarât and Fatimid Da'wa - Dawla Relation» (تحت الطبع).

إلى إفريقية وانشقاق الدُّعاة عليه. وكَتَبَ محمد اليمانى -راوى هذه السيرة الذى لا نعرف عن شخصيته أى شيء- هذه المذكرات فى أوائل خلافة العزيز بالله الفاطمى وذكر فيها «رسالة افتتاح الدَّعْوَة» للقاضى النُّعْمان وهى مُؤَلَّفَة بعد سنة ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م[١].

وإذا كانت المصادرُ غير الإسماعيلية المُتَقَدِّمة مثل «تاريخ» الطَّبَرى لاتشير إلى تاريخ أو عقائد الإسماعيلية المُبَكِّرَة، فإن مؤلَّفات علماء الإمامية، وخاصةً النَّوْبَخْتى والقُمِّى الذين كتبوا بعد فترة قصيرة من انشقاق القَرامِطَة على الإسماعيليين، تُمَثِّل المصادر الشيعية المُبَكِّرة التى تعاملت مع فترة الانفتاح الإسماعيلى[٢].

ومن ناحية أخرى فإن الكتابات الجَدَلِيَّة مثل كتابات أبى عبد الله بن رِزام فى كتابه الذى رَدَّ فيه على الإسماعيلية وكَشَفَ مذاهبهم[٣]، والشريف أخى محسن الدمشقى (أبو الحسين محمد بن على بن الحسين) الذى ذَكَرَ نَسَب الفاطميين فى كتاب أَلَّفه فى نَسَب آل البيت[٤]، وهما كتابان لم يصلا إلينا بطريق مباشر، يشتملان على معلومات قَيِّمَة حول الفترة السابقة على قيام الدولة الفاطمية.

ويُعَدُّ كتاب «سيرة الأستاذ جَوْذَر» الذى صَنَّفَه فى زمن الإمام الفاطمى الخامس العزيز بالله، أبو على منصور العزيزى الجَوْذَرى مصدرًا غنيًّا بالمعلومات عن الأعمال التى

---

[١] محمد بن محمد اليمانى: «سيرة الحاجب جعفر بن على وخروج المهدى صلوات الله عليه وآله الطاهرين من سلمية إلى سجلماسة وخروجه منها إلى رَقّادَة»، تحقيق و. إيفانوف، مجلة كلية الآداب - الجامعة المصرية ٤ (١٩٣٦)، ١٠٧-١٣٣.

[٢] النوبختى: فرق الشيعة، تحقيق هلموت ريتر، إستانبول ١٩٣١؛ القمى: المقالات والفرق، تحقيق محمد مشكور، طهران ١٩٦٣.

[٣] ابن النديم: الفهرست فى أخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، تحقيق رضا تجدد، طهران ١٩٧٤، ٢٣٨-٢٣٩.

[٤] ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر ٦: ٦-٧.

قام بها الفاطميون فى شمال إفريقيا، وهى فترة كان فيها جَوْذَر متوليًا لمسئوليات عُلْيا كما كان على صلة وثيقة وشخصية بالأئمة الفاطميين[١].

ولكن أهم المصادر الإسماعيلية التى تناولت تاريخ الإسماعيليين منذ إسماعيل بن جعفر الصّادِق تاريخٌ عام كتبه مُؤَلِّف إسماعيلى متأخِّر فى سبعة مجلدات هو كتاب «عُيُون الأخبار وفنون الآثار» للداعى الطَّيِّبى التاسع عشر عماد الدين إدريس بن الحسن الأَنْف المتوفى سنة ٨٧٢هـ/١٤٦٨م. وترجع أهمية هذا الكتاب إلى أن مُؤَلِّفه استقى معلوماته ورواياته من أصول معاصرة للأحداث التى تناولها واطَّلع على سجلات الأئمة الفاطميين التى أرسلوها إلى دعاتهم فى اليمن، كما أنه يُمَثِّل وجهة النَّظَر الرسمية للدعوة الإسماعيلية حيث لا يشير إلى أيّة انقسامات تخالف الاعتقاد الرسمى للدَّعْوَة[٢].

٢- الفترة المصرية

أ - المُعِزّ- العَزيز- الحاكم- الظّاهِر

شهدت هذه الفترة جماعةً من المؤرِّخين تُمَثِّل مؤلَّفاتُهم مصدرًا هامًا لفترة حكم الخلفاء الفاطميين الأوائل[٣]؛ يأتى فى مقدمتهم أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن الحسين

---

[١] نشرها محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادى شعيرة فى القاهرة - دار الفكر العربى ١٩٥٤، ونقلها إلى الفرنسية ماريوس كانار Canard, M., *Vie de l'ustadh Jaudhar*, Algiers 1958.

[٢] عن هذا المؤلف وكتابه راجع، Poonawala, I.K., *Bibliography of Ismaili Literature*, Maliburn, California 1977, pp. 169- 175 .

[٣] كان أوّل من اهتم بدراسة مصادر تاريخ الفاطميين فى مصر - وخاصة الفاطميين المتأخِّرين - المستشرق الفرنسى كلود كاهن فى مقال رائد نشره سنة ١٩٣٧ Cahen, Cl., «Quelques chroniques anciennes relalives aux derniers Fatimides», *BIFAO* XXXVII (193-38), pp.1-27، وفى سنة ١٩٧٧ أثناء إعداد نشرتى العلمية للجزء الأربعين من كتاب «أخبـار مصر» للمُسَبِّحى كتبت مقالا مُطَوّلا عن مصادر تاريخ الفاطميين فى مصر Fu'âd Sayyid A., «Lumières nouvelles sur quelques sources de l'histoire fatimide en Egypte», *An. Isl.* XIII (1977), pp. I-41 وفى الصفحات التالية اعتمدت على ما كتبته فى هذ المقال مع تحديث معلوماته وإضافات أخرى توصَّلت إليها من خلال تعاملى المباشر مع هذه المصادر.

اللَّيثى المعروف بابن زُولاق المتوفى سنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م فى مطلع خلافة الحاكم بأمر الله[١]، والذى أَلَّف عِدَّة كتب فى تاريخ مصر وخِططها منها: «تتمّة كتاب أمراء مصر للكِنْدى» المعروف بـ «ذَيْل الولاة والقضاة» الذى نَقَلَ عنه كثيرًا ابن حَجَر العَسْقَلانى[٢]، و«تاريخ أسرة المَاذَرائيين» الذين وَلَوا بعض المناصب الكبيرة فى عَهْد الإخشيديين وأوائل عهد الفاطميين[٣]، وكتاب «تاريخ مصر» الذى ذَيَّل عليه ابنه أبو الحسين ثم حفيده ابن أبى الحسين المتوفى سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م[٤]، كما وَضَعَ كتابًا سَمّاه «الموازنة بين مصر وبغداد»[٥].

واعتنى ابن زولاق بوَضْع سِيَر للحكام الذين عاصرهم أو كانوا قريبى العهد منه، فكتب «سيرة أحمد بن طولون» وهى من مصادر ابن العديم فى بُغْيَة الطَّلَب[٦]، و«سيرة محمد بن طُغْج الإخشيد»[٧] و«سيرة كافور»[٨]. ولما آل الأمرُ للفاطميين وَضَعَ ابن زولاق

---

[١] ترجمته عند ياقوت: معجم الأدباء ٧: ٢٢٥-٢٣٠؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢: ٩١-٩٢؛ الصفدى: الوافى بالوفيات ١١: ٣٧؛ ابن الزيات: الكواكب السيارة ٦٣؛ المقريزى: المقفى الكبير ٣: ٢٨٤-٢٨٦؛ ابن حجر: لسان الميزان ٢: ١٩١؛ Gottheil, R., «Al-Hasan ibn Ibrahim ibn Zûlâq», *JAOS* 28 (1907), pp. 254-270; Sezgin, F., *GAS* I, 359-60, *EI*^{2} art. *Ibn Zûlâq* III, 1003 .

[٢] ابن حجر: رفع الإصر عن قضاة مصر ١: ٢؛ المقريزى: اتعاظ الحنفا ١: ١٠٢.

[٣] راجع عن هذه الأسرة Gattschalk, H., *Die Madara'ijjun*, Berlin and Leipzig 1931 ؛ سيدة إسماعيل كاشف: مصر فى عهد الإخشيديين، القاهرة ١٩٥٠. ٣٧-٥٢.

[٤] المسبحى: أخبار مصر ٩٤.

[٥] هو فصل من كتابه «تاريخ مصر» راجع مخطوطة المكتبة الأهلية بباريس رقم ar.1816 ورقة ٣٢و - ٣٧و؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة فى ذكر محاسن مصر والقاهرة، القاهرة ١٩٦٩، ١٣١، ١٤٣.

[٦] ابن العديم: بغية الطلب (مخ. أحمد الثالث) ٨: ٢٦٠ظ.

[٧] نفسه (مخ. فيض الله) ٢٤١ ظ، ٢٤٢و، وفيه «وجدت فى سيرة الإخشيد محمد بن طغج جَمْع الحسن بن إبراهيم بن زولاق». ونقل على بن سعيد المغربى نصّ هذه السيرة فى كتاب «المغرب فى حلى المغرب» فى السفر الرابع الذى سمّاه «العيون الدُّعْج فى حلى دولة بنى طُغْج» ونشرها لأول مرة تلكوست Talquist فى ليدن سنة ١٨٩٩، ثم أعاد نشرها مع السفر الثالث من الكتاب زكى محمد حسن وشوقى ضيف وسيدة إسماعيل كاشف (القاهرة - جامعة فؤاد الأول ١٩٥٣).

[٨] ياقوت: معجم الأدباء ٧: ٢٢٦.

«سيرة المُعِزّ لدين الله» قال عنها المقريزى:

«وقد وَقَفْت عليها بخطه حكى فيها أخبار المعز منذ دَخَلَ مصر إلى أن مات يومًا يومًا... فإنه كان حاضرًا ذلك ومشاهدًا له، وممن يَدْخُل عليه ويُسَلِّم مع الفقهاء عليه، ويروى فى هذه السيرة أشياء بالمشاهدة وأشياء حَدَّثه بها ثقات الدولة وأكابرها؛ كما هو مذكور فيها»[١].

ووَضَع ابن زُولاق كذلك «سيرة للقائد جَوْهَر» يرى الأستاذ إيفانوف أنها مستلة من كتابه السابق[٢]، و«سيرة للعزيز بالله»[٣].

ولم يصل إلينا من مؤلّفات ابن زولاق غير كتاب صغير عنوانه «أخبار سيبويه المصرى»[٤] وآخر فى «فضائل مصر وأخبارها»[٥] ذكر أنه اختصره من كتابه الكبير فى «تاريخ مصر»، وكلاهما لا يُمَثِّل شيئًا ذا قيمة بالنسبة للنقول المحفوظة عنه عند المتأخِّرين.

وألَّف أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جُنادَة العُتَقى المتوفى سنة ٣٨٤هـ/٩٩٤م كتاب «التاريخ الجامع إلى أيام العزيز» قبل سنة ٣٧٧هـ/٩٨٧م[٦]. وأطلق عليه ابن خَلِّكان «التاريخ الكبير المشهور»[٧] واكتفى الصَّفَدى بتسميته «تاريخ العُتَقى» الذى ربما كان نفس الكتاب الذى نسبه إليه بعنوان «سيرة

---

[١] المقريزى: اتعاظ الحنفا ١: ٢٣٢ والخطط ١:٦١، ٨٢، ٣٨٥، ٣٨٩، ٤٣٠، ٤٥١، ٤٧٠، ٤٩٣؛ ٢:١٠٠، ١٣٨، ١٧٠، ٢٦٩.

[٢] ابن حجر: رفع الإصر ١: ٧٤؛ المجدوع: الفهرست ١١٠؛ Ivanow, *Ismaili Literature* p.39 .

[٣] Sbath, P., « Choix de livres qui se trouveraient dans les Bibliothèques d'Alep au XIII siècle», le Caire, *MIE* 1946, n. 529.

[٤] نشره فى القاهرة سنة ١٩٣٣ محمد إبراهيم سعد وحسين الديب، وانظر محمد عبد الله عنان: مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية، القاهرة ١٩٦٩. ٢٥٠-٢٥٥.

[٥] منه عدة نسخ فى باريس وغوطا والأزهر وإستانبول ودار الكتب المصرية (Sezgin, F., *GAS* I 359).

[٦] القفطى: تاريخ الحكماء ٢٨٥؛ الصفدى: الوافى بالوفيات ٣:٢٤١.

[٧] ابن خلكان: وفيات الأعيان ١:٣٠٣، ٥:٦١.

العزيز»[١]،وقد نَقَلَ ابن حَجَر عن تاريخ العُتَقى فى ترجمة محمد بن النُّعْمان فى «رَفْع الإصر عن قضاة مصر»[٢].

ومن المؤرِّخين الذين يرجعون إلى هذا العصر وفُقِدَت مؤلَّفاتهم أبو محمد عبد الله ابن أحمد الفَرْغانى، أحد أبرز تلاميذ الإمام محمد بن جرير الطَّبَرى المؤرِّخ والمُفَسِّر المشهور. قدم إلى مصر فى النصف الأول للقرن الرابع الهجرى حيث وُلِدَ له ولده أبو منصور أحمد بن عبد الله واستقر بمصر مع عائلته وشغل منصبًا كبيرًا فى بلاط الإخشيديين[٣]. وَضَعَ الفَرْغانى الأب تكملة لتاريخ الطَّبَرى بعنوان «الصِّلَة» أو «المُذَيَّل لتاريخ الطَّبَرى»[٤] أكملها ولده أبو منصور بعنوان «صِلَة الصِّلَة»[٥]. ونحن لا نعرف هذين المؤلَّفين إلَّا من النقول التى عند المؤرِّخين المتأخِّرين كابن العديم وابن خَلِّكان والنُّوَيْرى. وألَّف أبو منصور (٣٢٧-٣٩٨هـ/٩٣٨-١٠٠٨م) بالإضافة إلى «صِلَة الصِّلَة» «سيرة كافور الإخشيد» و«سيرة العزيز الفاطمى»[٦] و«سيرة جَوْهَر القائد»[٧]. وقد فُقِدَت هذه الكتب جميعًا.

وكَتَبَ مؤلِّفٌ فارسى الأصل ولد فى القاهرة سنة ٣٦٣هـ/ ٩٧٣م هو أحمد بن الحسين بن أحمد الرُّوذْبارى[٨] كتابًا فى تاريخ خلفاء مصر عنوانه «بَلَشْكَر الأدباء» ذكر فيه

---

[١] الصفدى: الوافى بالوفيات ٣: ٢٤٠.

[٢] الكندى: الولاة والقضاة ٥٩٢.

[٣] مؤلف مجهول : العيون والحدائق فى أخبار الحقائق، تحقيق عمر السعيدى، دمشق - المعهد الفرنسى للدراسات العربية ١٩٧٣. ٢: ٣٩٩؛ الذهبى: سِيَر أعلام النبلاء ١٦: ١٣٢-١٣٣؛ الصفدى: الوافى بالوفيات ١٧: ٣٠؛ Rosenthal F., *EI*² art. *Farghâni* II,812.

[٤] انظر على سبيل المثال، السبكى: طبقات الشافعية الكبرى ٣: ١٢٣-١٢٥؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ١: ١٧٤، ٣: ٨٧.

[٥] ابن خلكان: وفيات ٣: ١٠١، ٤: ١٠٥، ٥: ٣٧٥.

[٦] ياقوت: معجم الأدباء ٣: ١٠٦؛ الصفدى: الوافى بالوفيات ٧: ٧٨.

[٧] ابن خلكان: وفيات ٥: ٤١٦.

[٨] ابن سعيد: النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة ٣٦٣؛ ابن الأثير: اللباب ١: ٤٧٩.

أنه شاهد أكثر أيام العزيز بالله وكان موجودًا لما مات. ويعد الكتاب مصدرًا هامًّا لخلافة الحاكم بأمر الله حيث نَقَلَ منه ابن سعيد المغربى وعنه المقريزى[١]. ولا ندرى إلى أيّة سنة انتهى الرّوذْبارى فى تاريخه، ولكننا نعرف من خلال ما نقله عنه القِفْطى وياقوت أنه عاصر خلافة الظاهر حيث يذكران أن محمد بن أحمد بن محمد، أبا سعد العَميدى كان يتولّى ديوان الترتيب وأنه عزل عنه فى سنة ثلاث عشرة وأربعمائة[٢].

ومن المؤرّخين الذين تُعَدُّ مؤلّفاتهم ذات قيمة كبيرة لعهد الحاكم بأمر الله، أبو الفرج يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكى (٣٧٠-٤٥٨هـ/٩٨٠-١٠٦٦م) صاحب «التاريخ» المعروف به. وهو مؤلّف مسيحى أمضى الأربعين عامًا الأولى من حياته فى مصر، واستطاع أن يُصَوِّر فى تاريخه الاضطهاد الذى لقيه أهل الذِّمّة فى مصر على يدى الحاكم. وتمكّن من مغادرة مصر بعد العَفْو الذى منحه الحاكم سنة ٤٠٤هـ/ ١٠١٣م حيث قدم فى السنة التالية إلى أنطاكيا فى الأراضى البيزنطية. ووَضَعَ يحيى كتابه ذيلًا على تاريخ سعيد بن البَطْريق (أوتيخيوس) المعروف بـ «التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق»[٣] وابتدأ فيه بالسنة التى انتهى عندها ابن البَطْريق وهى سنة ٣٢٦هـ/ ٩٣٨م[٤]. وقد حَرَّر يحيى تاريخه لأول مرة نحو سنة ٣٩٧هـ/١٠٠٧م- وكان وقتها بمصر- ثم وَقَعَت له بعد ذلك تواريخ لم يكن قد وَقَفَ عليها عند شروعه فى تأليفه، فغَيَّره بأجمعه وألّفه تأليفًا ثانيًا. وبعد انتقاله إلى أنطاكيا تحصَّلَت له تواريخ جديدة أخرى فأضاف إليه وغَيَّر ما ألحقه به وقَرَّر الأمر على هذه النسخة الأخيرة[٥].

---

[١] ابن سعيد: المغرب ٢٥٢ والنجوم الزاهرة ٥٤-٥٧؛ المقريزى: اتعاظ الحنفا ٢: ١٢٠.

[٢] ياقوت: معجم الأدباء ١٧: ٢١٢؛ القفطى: إنباه الرواه ٣:٤٦-٤٧.

[٣] نشره الأب لويس شيخو اليسوعى سنة ١٩٠٩، انظرها هامش رقم ٣ ص ٢٢ .

[٤] Historie de Yahya b. Said, *Patr.Or.* 18 (1924). p. 705.

[٥] *Ibid.*, p. 708.

ورغم أن وفاة يحيى بن سعيد كانت فى سنة ٤٥٨هـ/١٠٦٦م، فإن تاريخه لا يتعدّى بحال عام ٤٢٥هـ/١٠٣٤م. وهو يهتم فيه خاصةً بمصر والشام والدولة البيزنطية، وقليلًا ما يهتم بالعراق. وقد اعتمد يحيى فى تاريخه- بالإضافة إلى المصادر الإسلامية- على مصادر يونانية ومسيحية وَجَدَها فى أنطاكيا[١].

واهتم بهذا الكتاب- الذى لم يكن معروفًا حتى النصف الأول للقرن التاسع عشر الميلادى- علماء كثيرون[٢]، ولكننا لم نَظْفَر بطبعة كاملة له إلّا فى سنة ١٩٠٩ بفضل جهود الأب لويس شيخو اليسوعى[٣]. ولكن هذه الطبعة، وإن سدَّت فراغًا فى المكتبة التاريخية، جاءت مليئة بالأخطاء وكانت فى حاجة إلى مراجعة واستكمال لأصول الكتاب الخطية. وقد قام بهذا العمل كراتشكوفسكى وفازلييف حيث قاما بنشر قسم من الكتاب مع ترجمة فرنسية تنتهى بحوادث سنة ٤٠١هـ/١٠١١م[٤]، ثم أتمّه فرنسواز ميشو وجيرار تروبو[٥]؛ وأعد له مؤخّرًا عمر عبد السلام تدمرى نشرة كاملة.

أما أهم المُؤَلّفات الفاطمية المتقدِّمة فهى تلك الحَوْلِيّات المتعلِّقة بالخمسين عامًا الأولى من حكم الفاطميين فى مصر التى وَضَعَها الأمير المختّار عِزّ المُلْك محمد بن عبيد الله بن أحمد بن عبد العزيز المُسَبِّحى (٣٦٦-٤٢٠هـ/٩٧٦-١٠٢٩م)[٦]. وهى مذكرات يومية للفترة التى عاصرها وتُمَثّل قيمةً كبيرةً بالنسبة للنصف الثانى من خلافة العزيز بالله وكل

١ Canard, M., *EI*^{2}. art. *al- Antâkî* I, p. 532.

٢ *Histoire de Yahya,* p. 701.

٣ Annales Yahya ibn Said Antiochienis dans *Corpus Scriptorum Orientalium,* Scriptores arabici, Series III, t. VIII, 1909.

٤ «Histoire de Yahya ibn Said d'Antioche» éd. Kratchkowesky et Vasiliev dans *Patr.Or.* t. XVIII (1924), 699- 833; t.XXXIII (1932) pp.347- 504.

٥ Paris 1998.

٦ انظر ترجمته عند ابن سعيد: المغرب فى حلى المغرب (قسم مصر) ٢٦٤ - ٢٦٧؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤: ٣٧٧؛ الصفدى: الوافى بالوفيات ٤: ٨؛ المقريزى: المقفى الكبير ٦: ١٦٣-١٦٥؛ Brock., *GAL* I (408), *SI* 572; Bianquis, Th., *EI*^{2}. art. *Musabbihi* VII, 650-51.

خلافة الحاكم بأمر الله والسنوات الخمسة الأولى لخلافة الظَّاهِر لإعزاز دين الله. وعنوان هذا العمل هو «أخبار مصر وفضائلها وعجائبها وطوائفها وغرائبها وما بها من البقاع والآثار وسير من حَلَّها وحَلَّ غيرها من الولاة والقضاة والأئمة والخلفاء» ويقع فى نحو ثلاث عشرة ألف ورقة. ولا نعرف اليوم من هذا الكتاب الهام إلَّا الجزء الأربعين منه وهو محفوظ فى مكتبة دير الإسكوريال بأسبانيا برقم 534_2 ويحوى بقية أخبار سنة ٤١٤هـ ثم أخبار سنة ٤١٥هـ[1]. ويبدو أن طول الكتاب وصعوبة مراجعته لمن يطلب مادةً سريعةً، جَعَلَ من الصعب الاحتفاظ بمخطوط كامل منه، وإن كان يُظَنُّ أن قسمًا كبيرًا من الكتاب كان موجودًا عند أشخاص مختلفين فى عصر المقريزى.

ويعطينا المُسَبِّحى فى كتابه معلومات دقيقة عن طبقات الشعب المختلفة وحِرَفِهم وأعمالهم حتى إن ابن حَجَر العَسْقَلانى وصفه بأنه «من أعرف الناس بالمصريين لاسيما من عاصره»[2]؛ كما ذكر كثيرًا من الأزمات الاقتصادية التى تَعَرَّض لها المصريون فى وقته والتى أرجعها لانخفاض منسوب النيل الذى أدَّى إلى نَقْص الغِلال وارتفاع أسعارها وتَعذُّر الحصول على الخبز.

والكتابُ مصدرٌ هام للتعرُّف على رُسُوم الخلافة الفاطمية ونُظُمها فى بداية العصر الفاطمى، ومما يزيد من قيمة هذه المعلومات أن المؤلِّف نفسه كان حاضرًا ومشاركًا فى بعضها، ويبدو أنه ذكر فى الأجزاء الأولى- بتفصيل أكثر- ما جاء موجزًا فى الجزء الذى وَصَلَ إلينا من الكتاب. والكتابُ بالإضافة إلى ذلك مصدرٌ ذو قيمة كبيرة لدراسة الأدب المصرى فى أوائل العصر الفاطمى فى مصر. ولم يُقْصر المُسَبِّحى كتابه على مصر فقط، بل تعرَّض لعلاقتها مع الدول المجاورة لها والتى ارتبطت بها ارتباطًا مباشرًا كالشام والحجاز.

---

[1] نشرت هذا الجزء بالاشتراك مع المستشرق الفرنسى تيارى بيانكى بعنوان «الجزء الأربعون من أخبار مصر» وصدر عن المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٧٨م.

[2] ابن حجر: رفع الإصر عن قضاة مصر ١٠٠.

وترجع أغلب النقول التاريخية عن هذا الكتاب عند المتأخِّرين إلى الفترة الواقعة بين سنتى ٣٧٥هـ/٩٨٥م و٤١٥هـ/١٠٢٥م[١].

ب- المُسْتَنْصِر بالله

تُمَثِّل فترة حكم المُسْتَنْصِر بالله الفاطمى (٤٢٧-٤٨٧هـ/١٠٣٦-١٠٩٤م) مرحلة انتقاليةً فى تاريخ الحكم الفاطمى فى مصر. فشهد عَهْدُه نهاية عصر القوة وسيطرة الخلفاء أو العصر الذهبى للدعوة الإسماعيلية المُوَحَّدَة، وبداية ازدياد نفوذ الوزراء العسكريين واستبدادهم بالأمر وضعف الخلفاء، إضافة إلى التحرُّر من بعض أصول المذهب الإسماعيلى مما أدَّى إلى سقوط دولتهم فى النهاية.

وَصَلَ إلينا وَصْفان متعاصران لفترة حكم المستنصر بالله الطويلة، أحدهما والخلافة مازالت فى قُوَّتها، والآخر بعد أن بدأت مظاهر الضعف تَدُبُّ فى أوصالها. الأوَّلُ هو رحلة الرَّحّالة الفارسى الشهير ناصر خُسْرو «سَفَرْنامة» التى تقع حوادثها بين سنتى ٤٣٧-٤٤٤هـ/١٠٤٥-١٠٥٢م. بدأ ناصر خُسْرو رحلته من مَرْو فى بلاد خُراسان مارًّا بأذْرَبيجان وأرمينية وبلاد الشام وفلسطين حتى وَصَلَ إلى مصر التى عاد منها إلى بلاده عن طريق الحجاز ونَجْد وجنوب العراق ثم انتهى إلى مدينة بَلْخ فى خُراسان[٢].

---

[١] نشرت ما وجدته من نقول عن المسبحى عند المتأخرين بعنوان: «نصوص ضائعة من أخبار مصر للمسبحى»، مجلة حوليات إسلامية ١٧ (١٩٨١) ٣-٥٥.

[٢] كتب ناصر خسرو رحلته بالفارسية ونقلها إلى الفرنسية المستشرق الفرنسى شارل شيفر Charles Schefer, *Relation du Voyage de Nasiri Khosrau*, Paris 1881 ثم نقلها إلى العربية يحيى الخشاب ونشرت مرتين فى القاهرة - لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٦ ثم فى بيروت - دار الكتاب الجديد ١٩٧٠؛ ونقلها إلى الإنجليزية=

زار ناصر خُسْرو مصر فى المرحلة الثانية من رحلته التى بدأها فى ٧ صفر سنة ٤٣٩هـ واستمرت إلى أواخر جمادى الثانية سنة ٤٤٢هـ (١٠٤٧-١٠٥٠م). وَصَفَ ناصر خُسْرو المدن المصرية التى مَرَّ بها ابتداءً من المدخل الشمالى لمصر حتى وصل إلى القاهرة والفُسْطاط وَصْفًا دقيقًا، حتى إن وَصْفَه ليوم فَتْح الخليج يُعَدُّ أوفى وَصْف مباشر وَصَلَ إلينا لهذا العيد[١]. وأُعْجِبَ ناصر باستتباب الأمن والهدوء فى مصر ولاحظ أن أهل الذِّمَّة لا يلقون اضطهادًا فى ظِلِّ حكم المستنصر بالله، وظَنَّ أن الفَضْل فى ذلك وفى رخاء مصر راجعٌ إلى المذهب الإسماعيلى وأن هذا المذهب كفيلٌ بإنقاذ العالم الإسلامى. ويبدو أنه كان مبالغًا ومتعصبًا للمذهب الإسماعيلى حينما غالى فى الثناء على مصر وتمجيدها، فقد كانت هذه طبيعته فى بقية الكتاب، فهو يصف مثلًا أبا العلاء المعرى ومَعَرَّة النُّعْمان وَصْفًا يختلف تمامًا عمَّا أجمعت عليه المصادر الأخرى[٢]!

كَتَبَ ناصر خُسْرو رحلته بعد عودته إلى خُراسان مباشرةً بعد أن غاب عنها سبع سنوات. ويبدو أن نَصَّ الرحلة الذى وَصَلَ إلينا ناقصٌ اختصره بعض النُّسّاخ عن أصل أطول منه.

الكتابُ الثانى الذى وَصَلَ إلينا من عَهْد المستنصر هو «سيرة المُؤَيَّد فى الدين داعى الدُّعاة هِبَة الله الشِّيرازى»، وهى ترجمة ذاتية كتبها هذا الداعى الإسماعيلى الكبير يُقَدِّم لنا فيها صورةً دقيقةً صادقةً لما كانت عليه مصر فى وقته، فحرص على أن يُسَجِّل أحداث عصره التى لعب فيها دورًا كبيرًا دون مداراة أو مواراة لحاكم، ودون أن يتأثَّر بالمؤثِّرات الدينية التى يمليها عليه منصبه كداعٍ للدعاة[٣].

=تاكبتون .Thackston, W.M., Nâser-e Khosrow's Book of travels (Safarnama), Albany ny 1986
.Azim Nanji, EI^2. art *Nâsir-i Khusrow* VII, 1007- 1009

[١] ناصر خسرو: سفرنامة (ط. بيروت) ٩٣ - ٩٧.

[٢] نفسه ٤٥-٤٦.

[٣] نشرها محمد كامل حسين فى القاهرة - دار الكاتب المصرى ١٩٤٩؛ وعن المؤيد فى الدين انظر Poonawala, I.K., EI^2. art *al-Mu'ayyad fil Din* VII, pp. 272-73 .

بدأ المؤَيَّد فى الدين سيرته من سنة ٤٢٩هـ/١٠٣٨م وانتهى فيها إلى سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٩م. والقسم الأهم من هذه السيرة هو الخاص بالدور الذى قام به المؤَيَّد لتمهيد الطريق للدعوة الفاطمية فى بلاد العراق وإقامة الدَّعْوَة للإمام الفاطمى على منابر بغداد سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م عن طريق مؤازرة القائد أبى الحارث أرْسَلان البَساسيرى. وأدَّى ما جاء فى هذا الكتاب من إشارات إلى ضَعْف مركز الإمام (الخليفة) الفاطمى وتلاعب كبار رجال الدولة به- الأمر الذى يسىء إلى عقيدة الإمامة عند الإسماعيليين- إلى حرصهم على ستر هذا الكتاب رغم أنه لا يلم بعقائد الإسماعيليين إلّا إلمامًا يسيرًا، فلم ينتفع به الباحثون إلّا منذ فترة قريبة عندما نشره فى القاهرة عام ١٩٤٩ المرحوم الدكتور محمد كامل حسين.

ويرجع إلى هذه الفترة أهم مصدر ذَكَرَ ذخائر قصور الفاطميين وما خَرَجَ منها أيام الشِّدّة العُظْمى، أعنى كتاب «الذَّخائر والتُّحَف» الذى نُشِر منسوبًا إلى القاضى الرَّشيد بن الزُّبَيْر، أبى الحسن على بن إبراهيم المتوفى سنة ٥٦٢هـ/١١٦٧م[1]! ولكن هذا الكتاب مازلنا إلى الآن نجهل اسم مؤلِّفه الذى كان موجودًا بمصر فى سنة ٤٦١هـ/١٠٦٨م واهتم اهتمامًا خاصًّا بذكر «ما أُخرِج من خزائن قصر الإمام المستنصر بالله فى أيام الفِتْنَة فى سنة ستين وسنة إحدى وستين وأربعمائة». وهذا الكتاب من أهم مصادر المقريزى فى كتابيه «الخِطط» و«الاتعاظ» نَقَلَ عنه فى أحد المواضع بقوله: «وقال فى كتاب «الذَّخائر والتحف وما كان بالقصر من ذلك» وهو جَمْع بعض المصريين مجهول المصنف وفيه فوائد جمة ومنه نقلت»[2]. وذكر ابن مُيَسَّر أنه رأى مجلدًا يجىء فى نحو عشرين كُرّاسًا فيه ذكر ما خَرَج من القصر الفاطمى من التحف والأثاث والثياب والذهب

---

[1] نشره محمد حميد الله وصدر فى الكويت - سلسلة التراث العربى ١، ١٩٥٩.

[2] المقريزى: مسودة المواعظ والاعتبار ١٤١.

وغير ذلك[١]، وربما كان هذا المجلد هو نفسه كتاب «الذّخائر والتحف» الذى نَقَل عنه المقريزى تفاصيل ما أُخرِجَ من خزائن القصر.

وهناك مصدرٌ هامٌّ من نوع آخر لفترة حكم المستنصر خاص بانتشار الدعوة الإسماعيلية فى اليمن على يد الصُّلَيْحيين، هو مجموعة «السِّجِلّات المستنصرية» المكوّنة من ستة وستين سِجِلًّا كَتَبَ بها المستنصر بالله إلى دُعاته فى اليمن[٢]. وتُلْقى هذه السّجلات أضواءً هامة على الفترة المتأخّرة من حكم المستنصر بالله الطويل حيث نجد بها معلومات عن الأحداث التى جَرَت بمصر وبالبلاط الفاطمى فى هذه الفترة الهامة، وكذلك عن أحداث بعيدة عن مصر مثل دَعْوة المُعِزّ بن باديس فى إفريقية للعَبّاسيين.

وكَتَبَ أبو الوَفاء مُبَشِّر بن فَاتِك المتوفى نحو سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م[٣] «سيرة للخليفة المستنصر» ذكر ياقوت الحموى أنها تقع فى ثلاثة مجلدات لم تصل إلينا[٤]، فقد كان المُبَشِّر جَمّاعًا للكتب مكبًا على الاطلاع عليها مما أدّى إلى اشتغاله بها عن زوجته، كما كتب بخطه كتبًا كثيرة من مصنفات الأقدمين. فلما توفى نهضت زوجته وجوار لها إلى خزائن كتبه وجعلت تندبه وفى أثناء ذلك ترمى كتبه فى بركة كبيرة وسط الدار، وحُملت الكتب بعد ذلك وقد غرق أكثرها[٥]. ويبدو أن هذه «السيرة» قد غرقت فى هذا الوقت حتى إننا لا نكاد نجد أى نَقْل عنها عند المتأخّرين.

---

[١] ابن ميسر: أخبار مصر ٣٧ (وعنه المقريزى: اتعاظ الحنفا ٢: ٢٩٦).

[٢] نشر بعض هذه السجلات حسين همدانى سنة ١٩٣٣ Hamdani, H., «The Letters of al Mustançir», BSOS VII (1933), pp. 306-12 ثم نشرها كاملة عبد المنعم ماجد، القاهرة - دار الفكر العربى ١٩٥٤.

[٣] انظر ترجمته عند، القفطى: تاريخ الحكماء (ليبتسج ١٩٠٣) ٢٦٩؛ ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء فى طبقات الأطباء (بولاق) ٢: ٩٨-٩٩؛ عبد الرحمن بدوى: مقدمة كتاب «مختار الحكم ومحاسن الكلم» له، مدريد - المعهد المصرى للدراسات الإسلامية ١٩٥٨، ٥-١٠؛ Rosenthal, F., «Mubashshir ibn Fâtik», *Oriens* 13-14 (1960-61), pp. 132-58.

[٤] ياقوت: معجم الأدباء ١٧: ٧٧.

[٥] ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء ٢: ٩٩.

وكَتَبَ مؤلِّفٌ مجهولٌ «سيرة للوزير اليازورى»- الذى وَزَرَ للمستنصر بين سنتى ٤٤٢-٤٥٠هـ- نَقَلَ عنها المقريزى فى كتاب «الخطط» فى موضعين حول مسائل خراجية واقتصادية[١]، كذلك نَقَلَ عنها ابن العديم الحلبى وقال: «جمعها بعض المصريين ولا أعرف اسمه»[٢].

ومن مصادر هذه الفترة الهامة التى لم تَصِل إلينا أيضًا كتاب «المختار فى ذكر الخِطَط والآثار» لأبى عبد الله محمد بن سلامة القُضاعى المتوفى سنة ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م قبل سِنِىّ الشِّدَّة المستنصرية الذى اهتم فيه بذكر خِطَط مدينة الفُسطاط التى كانت فى هذا الوقت مركز العلماء والتجار والحرفيين، وتَسَبَّبت سنوات الشِّدَّة فى ضياع أكثر ما ذكره من خِطَط الفُسطاط وانتقال أهلها إلى القاهرة، حتى إن بدرًا الجمالى أباح للناس أن يعمروا ما شاء لهم فى القاهرة. ومن حسن الحظ أن مؤرِّخى القرن التاسع الهجرى القلقشندى والمقريزى وأبا المحاسن وَقَفُوا على هذا الكتاب ونقلوا عنه[٣].

ومن المصادر الهامة التى وصلت إلينا من هذه الفترة كتاب «دَفْع مضار الأبْدان بأرض مصر» لعلى بن رِضْوان الطبيب رئيس أطباء مصر المتوفى سنة ٤٥٣هـ/ ١٠٦١م[٤]. وجَعَلَ هذا الكتاب ابن رِضْوان رائدًا لطب الأمراض المتوطِّنة حيث وَجَّه فيه نقدًا شديدًا مُرًّا لأهل مصر وحاول رَبْط العيوب التى ذكرها عنهم بالظروف المناخية والجغرافية للبلاد. ومن أهم فصول هذا الكتاب الفصل السادس الذى جعله ابن رِضْوان فى «اختصاص المدينة الكبرى بمصر فى هوائها وجميع أحوالها»، وقد اعتمد عليه كثيرًا مؤرِّخ مصر الكبير تقى الدين أحمد بن على المَقْرِيزى ونَقَل أغلبه[٥].

---

[١] المقريزى: الخطط ١: ٨٢، ١٠٩؛ السخاوى: الإعلان بالتوبيخ، بغداد ١٩٦٣، ٥٥٣.

[٢] ابن العديم: بغية الطلب (مخ. أحمد الثالث) ٨: ٢١٦ ظ.

[٣] انظر أيمن فؤاد سيد: مقدمة مسودة كتاب المواعظ والاعتبار للمقريزى ١١*-١٣*.

[٤] راجع عنه، سلمان قطاية: الطبيب العربى على بن رضوان رئيس أطباء مصر، تونس - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ١٩٨٤.

[٥] المقريزى: الخطط ١: ٣٣٩-٣٤٠، ٣٦٥-٣٦٦، وانظر؛ Meyerhof, M., «Climate and Health in.

ج – المُسْتَعْلى إلى العَاضِد

تُمَثّل هذه الفترة الثمانين عامًا الأخيرة من حكم الفاطميين فى مصر والتى شهدت ازدياد نفوذ السَّلاجِقَة فى الشام وبدء وصول الفِرِنْج إلى سواحله وتَقَلُّص ممتلكات الفاطميين فيه التى استولى عليها كلٌّ من الفِرِنْج والنوريين. وفى الداخل بدأ بعد وفاة المستنصر انقسام الدعوة الإسماعيلية إلى مستعلية ونزارِيَّة ثم انقسام المستعلية إلى طَيِّبِيَّة وحافِظِيَّة، وتزايد نفوذ الوزراء العسكريين والتهاون فى أصول الدعوة الإسماعيلية إلى أن سقطت الدولة فى سنة ٥٦٧هـ/١٠٧١م على يد الأيوبيين السُّنِّيين.

فمن أوائل مصادر هذه الفترة «الرِّسالة المصرية» التى كتبها نحو سنة ٥٢٩هـ/١١٣٥م أبو الصَّلْت أُمَيَّة بن عبد العزيز الأندلسى[1] وسَجَّل فيها ما شاهده وعاينه فى مصر وملاحظاته على أهلها فى الفترة التى قضاها بها بين سنتى ٤٨٩هـ-٥٠٦هـ/١٠٩٦-١١١٢م فى أثناء وزارة الوزير القوى الأَفْضَل شاهنشاه. وأشار فيها إلى أنه لم يجد من علماء مصر فى الطب من يستفيد منه أو يستزيد بمذاكرته، وأن أكثر أطبائها المبرزين النَّصارى واليهود، كما ذكر أن المصريين هم أكثر الناس استعمالاً لأحكام النجوم وتصديقًا لها وتعويلًا عليها، وذكر فى نهايتها من لقيه من أدبائها وظرفائها وفضلائها وعلمائها وشعرائها وبعضهم غير معروف فى كتب التراجم. واستفاد من هذه «الرِّسالة» ياقوت الحَمَوى والعماد الأَصْفَهانى فى «الخريدة» والمقريزى.

= Old Cairo, according to ʿAli Ibn Ridwan», *Congrès International de medecine tropicale et d'hygienne*, le Caire 1928, pp. 211-235 ونشره عبد المجيد دياب فى الكويت – مكتبة ابن قتيبة ١٩٩٥.

[1] انظر عنه، ياقوت : معجم الأدباء ٧:٥٢-٧٠؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ١:٢٤٣؛ ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء ٢:٥٢ ; Brockelmam, *GAL* I 641, *S* I, 889 ؛ ونشر عبد السلام هارون «الرسالة المصرية» فى مجلة «الكتاب» سنة ١٩٤٧-١٩٤٨ ثم فى «نوادر المخطوطات»، القاهرة – مكتبة الخانجى ١٩٥١، ١:٣-٥٦.

ومن مؤلَّفات هذه الفترة التى لم تَصِل إلينا كتاب «تاريخ خلفاء مصر» للقاضى المُرْتَضى أبى عبد الله محمد بن الحسن الأَطْرابُلُسى المعروف بالمحَنَّك المتوفى سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م[١]. وهو أحد الذين تَوَلَّوا نَظَر الدواوين والخزائن فى الدولة الفاطمية وانتهى فى «تاريخه» عندِ الخليفة الحافظ، ولكن لا نعرف فى أية سنة بالتحديد. وهو يحتوى على معلومات أصلية وقَيِّمَة لمرحلة ضاعت مصادرها الأصلية. واعتمد على هذا «التاريخ» كل من ابن مُيَسَّر وابن ظافِر الأَزْدِى.

ونَقَلَ ابن ظافِر الأَزْدِى عن «سيرة للوزير الأَفْضَل» لا نعرف مؤلِّفها الذى كتبها على الأرجح فى السنوات القليلة التى أعقبت وفاة هذا الوزير[٢].

وفى مدة خلافة العَاضِد (٥٥٥-٥٦٧هـ) - آخر خلفاء الفاطميين- صَنَّف أبو عبد الله محمد بن سَعْد القُرْطِى[٣] كتاب «تاريخ مصر» قدَّمه للوزير شاور السَّعْدى (٥٥٨-٥٦٤هـ) واعتنى فيه بتاريخ مصر من أول ما عمرت إلى عصره، قال ابن سعيد، المؤلِّف الوحيد الذى نقل عنه: «وَقَفْت عليه من قِبَل النجم الرَّيْحانى المعتنى باقتناء الكتب- رحمة الله عليه- وقَيَّدت منه ما أودعته هذا الكتاب من الآداب المنسوبة إليه»[٤]، ولم يتحقَّق من تاريخ وفاته. واستفاد المقريزى فى «الخطط» و«الاتعاظ» من هذا التاريخ ولكن من خلال ما أورده عنه ابن سعيد المغربى[٥].

أما أهم مؤلَّفات هذه الفترة التى لم تصل إلينا أيضًا فكتاب «تاريخ» ابن المأمون، الأمير شرف الخلافة [المُلْك] جمال الدين أبو على موسى بن الوزير المأمون أبو عبد الله محمد بن فاتك بن مختار البطائِحى المتوفى بالقاهرة فى سادس عشر جمادى الأولى سنة

---

[١] ابن ميسر: أخبار مصر ١٥٣؛ المقريزى: اتعاظ الحنفا ٣: ٢٢٣.

[٢] ابن ظافر: أخبار الدول المنقطعة ٩٢.

[٣] ابن سعيد: المغرب فى حلى المغرب (قسم مصر) ٢٦٧-٢٦٨.

[٤] نفسه ٢٦٧.

[٥] المقريزى: الخطط ٢: ٣٦٧؛ اتعاظ الحنفا ١: ٢٩٧، ٢: ١٢٢.

٥٨٨هـ/١١٩٢م[١]. ويُمَثِّل هذا التاريخ أهميةً كبيرةً للفترة الممتدة بين سنتى ٥٠١ و٥٣١هـ بحيث يعتبر مصدرًا من الدرجة الأولى لفترة وزارة الوزير الأَفْضَل بن بدر الجمالى ووزارة المأمون البَطائِحى، وأيضًا للفترة اللاحقة على ذلك بما أن المقريزى ينقل عنه من أحداث سنة ٥٣١هـ[٢]! ولكن يبدو أنه ارتبط بالذات بأحداث السنوات من ٥١٥-٥١٩هـ التى تولَّى فيها والده المأمون البطائحى الوزارة للخليفة الآمر بأحكام الله، الأمر الذى يَسَّر له النفاذ إلى الدواوين والاطلاع على الوثائق الرسمية، مما يُضْفى على تاريخه أهمية كبيرة[٣].

ولا توجد نقولٌ عن هذا الكتاب سوى عند ابن مُيَسَّر وابن سعيد والنُّوَيْرى بالإضافة إلى المقريزى الذى نَقَلَ عنه نقولًا مُطَوَّلَة وأشار إلى اقتباسه عنه فى ثلاثة وخمسين موضعًا. وهذا «التاريخ» أحد ثلاثة كتب استفاد منها المقريزى فى «الخِطَط» بوجه خاص فيما يختص بالرُّسوم الفاطمية هو وكتاب «نُزْهَة المقلتين» لابن الطُّوَيْر وكتاب «الذَّخائر والتحف» المجهول المؤلِّف، فعن طريقه استطاع المقريزى أن يصف لنا باستمرار تفاصيل الاحتفالات التى تَمَّت فى فترة وزارة والده المأمون البطائحى فى خلافة الآمر بأحكام الله (٥١٦-٥١٩هـ).

ومن مصادر هذه الفترة التى لم تصل إلينا أيضًا كتابٌ مجهول المؤلِّف عنوانه: «أخبار الدولة المصرية وما جرى بين الملوك والخلفاء، والفِتَن والحروب من أيام الآمر إلى أيام شيركوه» وَقَف عليه المؤرِّخ ابن الفُرات وذكر أنه فى مجلد[٤]. ومن الممكن أن يكون

---

[١] المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك ١: ١١١ والخطط ١: ٤١١.

[٢] المقريزى: الخطط ١: ١١١.

[٣] جَمَعْتُ النصوص المنسوبة إليه عند المؤلِّفين المتأخرين ونَشَرْتُها باسم «نصوص من أخبار مصر» لابن المأمون، القاهرة- المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ١٩٨٣.

[٤] .Cahen, Cl., *BIFAO* 37 (1937), p. 15; id., *An. Isl.* VIII (1969) p.40

هذا الكتاب معروفًا لبعض المؤرِّخين المتأخِّرين إلّا أن ذلك غير مؤكَّد، ويبدو أن ابن الفُرات نقله بطريقة شبه كاملة. ورغم أن هذا النّصّ لا يضيف كثيرًا إلى معلوماتنا التاريخية إلّا أنه يعطى انطباعًا لا يرقى إليه الشك، على أن صاحبه كان معاصرًا لوزارة الوزير ضِرْغام[١].

ونَقَلَ المقريزى هذا الجزء مُلَخَّصًا فى «الخِطَط»[٢] وحرفيًا فى «اتعاظ الحنفا»[٣] سواء بطريق مباشر أو غير مباشر، وأغلب الظن أن المقريزى أخذ هذا النّصّ المُطَوَّل من «تاريخ» ابن الفُرات، فقد اطَّلَع المقريزى على النسخة الوحيدة من تاريخ ابن الفُرات التى وَصَلَت إلينا وهى بخطه ومحفوظة فى مكتبة ڤينا برقم ٨١٤ وعليها خط المقريزى وتوقيعه. ومن الممكن أيضًا أن يكون هذا النّصّ قد عُرِفَ لابن مُيَسَّر فى الجزء المفقود من كتابه.

ومن مصادر هذه الفترة الهامة التى وَصَلَت إلينا هذه المرة كتاب «الإشارة إلى من نال الوزارة» لتاج الرئاسة أمين الدين أبى القاسم على بن مُنْجِب بن سليمان الكاتب المعروف بابن الصَّيْرَفى المتوفى سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧م[٤]. وهو أوّل كتاب أُلِّف عن الوزراء المصريين بدأه بذكر ابن كِلّس أوّل وزراء الفاطميين فى مصر وانتهى فيه إلى وزارة الوزير المأمون البَطائحى (٥١٥-٥١٩هـ) وزير الخليفة الآمر بأحكام الله الذى أهدى له ابن الصَّيْرَفى الكتاب[٥]. ورغم أن ابن الصَّيْرَفى عاش بعد ذلك اثنين وعشرين عامًا فإنه لم

---

١ Cahen, Cl., *An. Isl.* VIII (1969) p. 28.

٢ المقريزى: الخطط ٢: ١٢-١٣.

٣ المقريزى: اتعاظ الحنفا ٣: ٢٦٤-٢٧١.

٤ ابن ميسر: أخبار مصر ١٣٨؛ المقريزى: اتعاظ الحنفا ٣: ١٨٥؛ Gamâl El-Din El- Shayyâl, *EI*² art. *Ibn al- Sayrafi III*, 950- 57.

٥ نشره عبد الله مخلص سنة ١٩٢٥ فى مجلة *BIFAO* XXV (1925), pp. 49-112; XXVI (1926). pp. 49-70 ثم أعاد نشره كاتب هذه السطور مع كتاب «القانون فى ديوان الرسائل» للمؤلف نفسه، القاهرة - الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٠.

يحاول أن يضيف إلى الكتاب بقية أخبار الوزراء الفاطميين فى هذه الفترة. ولكن يمكننا استدراك هذا النقص عن طريق مصدرين أساسيين هما: «أخبار الدول المنقطعة» لابن ظافِر الأزدى و«أخبار مصر» لابن مُيَسَّر إضافة إلى «نهاية الأرب» للنويرى و«اتعاظ الحنفا» للمقريزى اللذين اعتمدا على ابن مُيَسَّر ومصادر أخرى.

وكَتَبَ تقى الدين أحمد بن على المقريزى المتوفى سنة ٨٤٥هـ/١١٤٢م كتاب «تَلْقيح العُقُول والآراء فى تَنْقيح أخبار الجِلَّة الوزراء» ذكر أنه استقصى فيه سير الوزراء ووزراء مصر بصفة خاصة، وللأسف فلم يصل إلينا هذا الكتاب[١].

ولأبى المحاسن يوسف بن تغرى بِرْدى كتاب «الوزراء»- وهو من الكتب المفقودة- يقول عند ذكر وفاة الوزير الأفضل بن بدر الجمالى: «وخلَّف الأفضل من الأموال والنقود والقماش والمواشى ما يستحيا من ذكره كثرة. وقد ذكرنا ذلك فى كتاب «الوزراء» وهو محل الإطناب فى الوزراء وليس لذكره هنا محل»[٢].

وعاصر فترة خلافة الفاطميين المتأخِّرين ثلاثة من المؤرِّخين غير المصريين: اثنان من الشام هما ابن القَلانِسى وأسامَة بن مُنْقِذ، وواحد من اليمن هو عُمارَة اليمنى.

فكَتَبَ ابن القَلانِسى، أبو يَعْلى حمزة بن أسد بن على بن محمد التَّميمى[٣] المتوفى بعد سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م «ذَيْل تاريخ دمشق» انتهى فيه عند سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م متخذًا من مدينة دمشق محورًا للحوادث. وقد تولَّى ابن القَلانِسى رئاسة ديوان الإنشاء وديوان الخَراج فى ظِلِّ دولة أتابكة دمشق مما أتاح له فرصة الاطلاع على وثائق الدولة ومعرفة سياساتها. وقد جعل كتابه ذَيْلًا على تاريخ هلال بن المحَسِّن الصابىء الذى ينتهى

---

[١] المقريزى: الخطط ١: ٤٤٣، ٢: ٢٢٣.

[٢] أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٥: ٢٢٢.

[٣] راجـع عنه، أبا المحاسن: النجوم الزاهرة ٥: ٣٣٢؛ ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب ٤: ١٧٤؛ Cahen, Cl., *EI*[2] art. *Ibn al-Kalânisi,* III, p. 838.

إلى سنة ٤٤٨هـ/١٠٥٧م، ولكنه أضاف معلومات كثيرة إلى الفترة التي أرّخها الصابيء وخاصة بين سنتي ٣٦٣ و٣٦٧هـ ويحتوى الكتاب على تفاصيل هامة عن موقف خلفاء الفاطميين من أمراء الشام ومن الفِرِنْج الذين وَصَلوا إلى سواحل الشام مع نهاية القَرن الخامس الهجرى[1].

وسَجَّلَ أُسامَة بن مُنْقِذ، أبو المُظَفَّر مُؤَيَّد الدين أُسامَة بن مُرْشِد بن على بن مَقْلَد الشَّيْزَرى المتوفى سنة ٥٨٠هـ/١١٨٥م[2] -أحد فرسان هذا العصر الذى نشأ فى قلعة شَيْزَر وعمل فى بلاط أتابِكَة دمشق ثم سافر إلى القاهرة- سَجَّل فى سيرته الذاتية التى سمّاها «الاعْتِبار»- وهى من أوائل السِّيَر الذاتية فى الأدب العربى- تفاصيل كثيرة عما كان يجرى فى البلاط الفاطمى منذ قدومه إلى القاهرة مع أهله سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م وعلاقته بكل من الوزير عَبّاس الصِّنْهاجى وابنه نَصْر ودوره فى المؤامرة التى أدَّت إلى قتل الوزير ابن السَّلار والخليفة الظّافر[3].

أما عُمارَة اليمنى، نجم الدين أبو محمد عُمارَةَ بن على بن زَيْدان الحَكَمى المتوفى سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م[4] أحد شعراء اليمن ومؤرِّخيها المشهورين، فقد قدم إلى مصر فى سنة ٥٥٠هـ/١١٥٥م رسولاً من أمير مكة، فمَدَح الخليفة الفائز ووزيره الصَّالح طلائع

---

[1] نشره آمدروز فى ليدن سنة ١٩٠٨؛ ثم نشره سهيل زكار فى دمشق سنة ١٩٨٣؛ وترجم جب حوادث السنوات ٤٩٠-٥٥٥ إلى الإنجليزية Gibb, H.A.R., *The Damascus Chronicle 490- 555 of the Cruasades*, London 1932؛ كما نقل ليتورنو الحوادث من ٤٦٨-٥٤٩ إلى الفرنسية Le Tourneau, R., *Damas de 1075 à 1154 (468-549)*, Damas 1952 .

[2] ياقوت: معجم الأدباء ٥: ١٨٨-٢٤٥؛ العماد الأصفهانى: خريدة القصر (قسم الشام) ١:٤٩٨-٥٤٧؛ ابن خلكان: وفيات ١:١٩٥-١٩٩؛ الصفدى: الوافى ٨:٣٧٨-٣٨٣.

[3] نَشَرها فيليب حِتّى عن نسخة فريدة فى برنستون سنة ١٩٣٠؛ ثم نشرها قاسم السامرائى فى الرياض سنة ١٩٨٧؛ ولها ترجمات عديدة إلى الفرنسية والإنجليزية والألمانية والروسية والدانماركية والبولندية.

[4] انظر أيمن فؤاد سيد: مصادر تاريخ اليمن فى العصر الإسلامى ١٠٨-١١٠.

وعاد بجواب رسالته، ثم رجع إلى مصر مرة أخرىٍ واستقر بها وصار من جملة خُدَّام الدولة الفاطمية[١].

صَوَّرَ عُمارَة فى كتابه «النُّكَت العَصْرية فى أخبار الوزراء المصرية» العشرين عامًا الأخيرة من الحكم الفاطمى فى مصر تصويرًا واضحًا، فقد استطاع أن يكسب ثقة وزراء الدولة المتأخِّرين ومدحهم خاصةً الصَّالح طلائع، وأَمَدَّنا فى كتابه بمعلومات هامة عن العوامل الحقيقية التى أدَّت إلى سقوط الخلافة الفاطمية فى مصر[٢].

ورَثَى عُمارَة اليمنى الفاطميين بقصيدة من أعظم ما قيل فى رثاء الدول أوَّلها[٣]:

رَمَيْتَ يا دَهْرُ كَفَّ المجْدِ بالشَّلَل   وجِيدَهُ بعد حُسْن الحَلْى بالعَطَل

د- كُتُبُ الإنْشَاء

استلزم العَمَلُ فى ديوان الإنشاء (الرّسائل) الفاطمى سَنّ قواعد ونُظُم وآداب تتّفق ورسوم الدولة يلتزم بها من يخدم فى هذا الديوان، مما تطَلَّب وجود مؤلَّفات تكون مرشدًا لكُتّاب الإنشاء. فكتب أبو الحسن على بن خَلَف بن على بن عبد الوهاب الكاتب- الذى لا نعرف على وجه التحقيق تاريخ وفاته إلا أنه كان موجودًا فى سنة ٤٣٧هـ/ ١٠٤٦م وكان من كبار رجال الدولة الفاطمية[٤]- كتاب «مَواد البيان» قَنَّنَ فيه لفن الكتابة بوجه عام ولفن كتابة الإنشاء بوجه خاص، ويعد بذلك أوَّل من أَلَّف فى هذا الفن فى مصر الإسلامية.

---

[١] ابن ميسر: أخبار مصر ١٥٤.

[٢] نشره هرتويج درينبورج فى شالون سنة ١٨٩٧.

[٣] انظر نص القصيدة عند ابن سعيد: النجوم الزاهرة ٩٨ - ١٠٠؛ أبى شامة: الروضتين ١: ٥٧٠، ٥٧١؛ ابن واصل: مفرج الكروب ١: ٢١٢-٢١٦؛ القلقشندى: صبح الأعشى ٣: ٥٢٦-٥٢٨؛ المقريزى: اتعاظ الحنفا ٣: ٣٣٢-٣٣٤.

[٤] جمال الدين الشيال: مجموعة الوثائق الفاطمية ١: ١١٤ هـ١.

فقد وَضَعَ على بن خَلَف فى كتابه القوانين وقَعّد القواعد التى يجب أن تُتّبَع عند كتابة كل نوع من أنواع الرسائل والوثائق، كيف تبدأ وكيف يكون السياق فيها وكيف تُخْتَم، ويورد بعد كل قاعدة نماذج إيضاحية. ورغم أن القلقشندى لايُعِدُّ على بن خَلَف بين كُتّاب الإنشاء فى الدولة الفاطمية، فالواضح أنه شَغَل هذه الرُتْبَة فترةً طويلةً جعلته يؤلِّف كتابه «مَواد البيان»[١]. ومن يُطالع كتاب «صُبْح الأعْشَى» للقلقشندى يستطيع أن يلحظ أن هذا الكتاب من أهم مصادره عن ترتيب ديوان الإنشاء والمكاتبات فى العصر الفاطمى الأول، ونَقَلَ عنه أمثلة كثيرة مقتبسة من أصولها تُوَضِّح كيفية إنشاء مراسلات الخلفاء فى ذلك الوقت.

ولا توجد من هذا الكتاب الهام سوى نسخة خطية واحدة محفوظة فى مكتبة الفاتح بإستانبول تحت رقم ٤١٢٨ كتبت فى القرن السابع الهجرى تقريبًا. ويضم الكتاب فى الأصل عشرة أبواب ولكن هذه النسخة تنقص البابين التاسع والعاشر اللذين يمكن استكمال أجزاء منها من عند القلقشندى فى «صبح الأعشى»[٢].

وفى النصف الثانى للدولة الفاطمية كَتَب تاج الرِّئاسَة أمين الدين أبو القاسم على بن مُنْجِب بن سليمان المعروف بابن الصَّيْرَفى المتوفى سنة ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م، السابق الإشارة إليه[٣] كتاب «القانون فى ديوان الرّسائل» وهو على صِغَر حجمه مصدرٌ من الدرجة الأولى للتعرُّف على الشروط التى يجب توافرها فى موظفى ديوان الإنشاء وشَرْح

---

[١] راجع Abd al-Hamid Saleh, «Une source de Qalqashandi *Mawâd al-Bayân* et son auteur ʿAli b. Halaf», *Arabica* XX (1973), pp. 192-200 ؛ وكذلك الدراسة التى كتبها بونيبكر Bonebakker, S.A., «A Fatimid Manual for Secratories», *AION* 37 (1977), pp. 295-337 .

[٢] نشره حسين عبد اللطيف وصدر ضمن منشورات جامعة الفاتح - طرابلس ١٩٨٢؛ كما نشر منه أقسامًا حاتم صالح الضامن فى مجلة المورد العراقية اعتبارًا من المجلد ١٧ (١٩٨٨).

[٣] انظر فيما سبق ص ٥٠- ٥١.

نظامه الداخلى يقول فى مقدمته: «بَيَّنْت الأمر فيه على ما يقتضيه حكم البلاد المصرية المتعارف فيها الآن دون غيره من الأوقات»[١].

ودراسة ألقاب الوزير الذى أهدى له ابن الصَّيْرَفى هذا الكتاب تُثْبِت أنه الوزير أبو على الأَفْضَل المعروف بكُتَيْفات الذى قاد انقلابًا تولَّى فى أعقابه السلطة فى الفترة بين ذى القعدة سنة ٥٢٤هـ والمحرم سنة ٥٢٦هـ (١١٣٠-١١٣١م).

وللمقريزى مؤلَّفٌ فى التعريف بمن وَلِى وظيفة الإنشاء فى مصر الإسلامية، قال فى تعليق له على كتاب «المغرب فى حلى المغرب» لابن سعيد عند ذكر أبى منصور بِشْر بن سورين: «وقد ذكرته فيما أنا جامعه من التعريف بمن وَلِىَ وظيفة الإنشاء وكتابة السجلات فى مصر إن شاء الله، يَسَّر الله إتمامه وأعان على تبييضه وكتبه أحمد بن على المقريزى لطف الله به»[٢] ولا ندرى إن كان المقريزى أتم هذا الكتاب ولم يصل إلينا أم أن الله لم يُيسِّر له إتمامه.

المؤلَّفاتُ المتَأَخِّرَة

على عَصْــر الفــاطميين

تُمَثِّل المؤلَّفاتُ المتأخِّرة قيمةً كبيرةً لتاريخ الفاطميين فى مصر، فهى المؤلَّفات التى وَصَلَت إلينا كاملة تقريبًا، والتى نستطيع من خلالها القيام بدراسة تفصيلية لتاريخ الفاطميين فى مصر. وتستمد هذه المؤلَّفات قيمتها من حفظها للمؤلَّفات المتقدِّمة التى

---

١ نشره على بهجت فى مصر سنة ١٩٠٥ ونقله إلى الفرنسية سنة ١٩١٤ هنرى ماسيه – Massé, H., «Ibn al-Çairafi: Code de la Chancellerie d'Etat», *BIFAO* XI (1914), pp. 65-120، ثم أعاد نشره كاتب هذه السطور مع كتاب «الإشارة إلى من نال الوزارة» للمؤلف نفسه وصدر عن الدار المصرية اللبنانية بالقاهرة سنة ١٩٩٠.

٢ من تعليق للمقريزى على نسخة كتاب «المغرب فى حلى المغرب» لابن سعيد (ابن سعيد: النجوم الزاهرة ٢٤٩ هـ[٢]).

ضاعت عَنّا أغلب أصولها، وقد فُقِدَت كذلك المؤلَّفات التى كتبت فى عصر الأيوبيين وتناولت تاريخ الفاطميين؛ وبذلك استمدت المصادر المملوكية قيمتها- بالنسبة لتاريخ الفاطميين- من أنها المصادر الوحيدة الجامعة لدراسة تاريخ هذه الفترة.

الفَـترةُ الأيُّـوبيّة

أهم مصادر هذه الفترة التى استقى منها المؤرِّخون المتأخِّرون أمثال ابن الفُرات والقَلْقَشَنْدى والمَقْريزى وابن تَغْرى بِرْدى القسم الأهم من معلوماتهم عن النُّظُم والرُّسُوم الفاطمية كتاب «نُزْهَة المُقْلَتَيْن فى أخبار الدولتين، الفاطمية والصلاحية» لابن الطُّوَيْر القَيْسَرانى، أبى محمد عبد السلام بن الحسن بن عبد السلام الفِهْرى المصرى الكاتب (٥٢٥-٦١٧هـ/١١٣٠-١٢٢٠م) الذى تَقَلَّب فى الخدمة فى الدواوين الفاطمية ثم الأيوبية، وتولَّى «ديوان الرَّواتب» قرب نهاية العصر الفاطمى[1]، وينتمى ابن الطُّوَيْر إلى نفس طبقة المؤلِّفين الإداريين الذين أُوكِلَت إليهم الحكومة وظائف الإشراف العُلْيا على الدواوين الإدارية فى مصر فى أيام الفاطميين والأيوبيين التى ينتسب إليها: ابن الصَّيْرَفى والقاضى المُرْتَضى بن المحنَّك والمخزومى والنابُلُسى وابن مَمّاتى والقاضى الفَاضِل.

وكَتَب ابن الطُّوَيْر كتابه على الأرجح فى زمن السلطان صلاح الدين (٥٦٧-٥٨٩هـ/١١٧١-١١٩٣م)، وقَصَد عمل مايُشْبه الموازنة بين نظام الدولة الفاطمية الذى خبره جيدًا، ونظام الدولة الصَّلاحية، وهذا ما يُفَسِّر عنوان الكتاب. ولكن الغريب أننا لا نجد بين النقول التى حُفِظَت لنا عنه أية إشارة إلى نُظُم الدولة الأيوبية، فكل ما وَصَلَ

---

[1] المنذرى: التكملة لوفياتَ النقلة ٣: ٧-٨؛ الذهبى: تاريخ الإسلام، الطبقة الثانية والستون، ص ٣١٦؛ الصفـدى: الوافى بالوفيات ١٨: ٤١٧-٤١٨؛ Cahen, Cl., *EI*[2] art. *Ibn al-Tuwayr* III, 985 ومقدمة تحقيقى لكتاب ابن الطوير.

إلينا عنه يتعلّق بالدولة الفاطمية مما جَعَلَ المؤرِّخ أبا المحاسن بن تَغْرى بِرْدى يصفه بأنه «أَجْدَر بأخبار الفاطميين من غيره»[١].

ورغم الأهمية الكبيرة التى يُمَثِّلها كتاب ابن الطُّوَيْر لتاريخ الدولة الفاطمية فى مصر فقد ظَلَّ غير معروف أو على الأقل غير متداول بين مؤرِّخى دولة المماليك الأولى، فلا يشير إليه ابن مُيَسَّر أو النُّوَيْرى أو ابن أَيْبَك الدَّوادارى. ووجود بعض الاتفاق فى سرْد الأحداث بين هؤلاء المؤرِّخين والنقول المحفوظة عن ابن الطُّوَيْر لدى المؤلِّفين المتأخِّرين ليست دليلًا كافيًا للحكم بأن هؤلاء المؤرِّخين عرفوا كتاب ابن الطُّوَيْر. ولكن مع نهاية القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى أخذ اسم ابن الطُّوَيْر وكتابه «نُزْهَة المُقْلَتَيْن» فى الظهور فى مؤلَّفات كل من ابن الفُرات وابن خَلْدون والقلقشندى والمقريزى وأبى المحاسن.

والنُّقول التى حُفِظَت لنا عن ابن الطُّوَيْر- باستثناء بعض النصوص التاريخية- هى النصوص الوحيدة التى تصف لنا التفاصيل الدقيقة النموذجية للمواكب الاحتفالية للخلفاء الفاطميين وترتيب مجالسهم وأَسْمِطَتهم التى كانت تُمَدّ فى المناسبات والمواسم المختلفة.

وقَسَّم ابن الطُّوَيْر كتابه إلى فصول لا نعرف عددها على وجه الدقة وإن كان المقريزى قد ذكر لنا أسماء فصلين منها: الخامس عن «ركوب الفاطميين فى المواكب العظام» والعاشر عن «ذكر هيئتهم فى الجلوس العام بمجلس المُلْك». كما أن أغلب المادة التى سَجَّلها القلقشندى والمقريزى عن دواوين الدولة الفاطمية وترتيب وظائفها وعن خزائن الفاطميين وحواصلهم وأهراءاتهم نَقَلَها كذلك عن ابن الطُّوَيْر[٢].

---

[١] أبو المحاسن:النجوم الزاهرة ٥: ٢٤١.

[٢] أعدت بناء هذا الكتاب من خلال المصادر المتأخرة بعنوان «نزهة المقلتين فى أخبار الدولتين» لابن الطُّوَيْر وصدر فى سلسلة النشرات الإسلامية التى تصدرها جمعية المستشرقين الألمان، بيروت - شتوتغارت ١٩٩٢.

والمصدر الثانى الهام الذى كُتِبَ فى العصر الأيوبى- هو مؤلَّفات المؤرِّخ الشيعى الحَلَبى يحيى بن حَمِيد بن ظافر بن النَّجّار بن على بن عبد الله المعروف بابن أبى طَىّ (٥٧٥-نحو ٦٣٠هـ/١١٧٩-نحو ١٢٣٣م)[١]. كانت مؤلَّفات ابن أبى طَىّ مصدرًا هامًّا لكل من أبى شامَة وابن الفُرات والمقريزى. ولا نعرف الشىء الكثير عن ابن أبى طَىّ سوى أنه كان يتَعَيَّش من نَسْخ الكتب، قال ياقوت إنه «يأخذ كتابًا قد أتعب العلماء فيه خواطرهم فيقدِّم أو يؤخِّر أو يزيد قليلًا أو يختصر، ويخلق له اسمًا غريبًا وينتحله انتحالًا»[٢] وعلى ذلك فإن كثيرًا من الكتب التى تُنْسَب إليه فى المصادر يصعب تحقيق نسبتها. وبما أنه لم يصل إلينا شىءٌ من مؤلَّفاته التاريخية، فنحن نعتمد على ما نقله عنه المتأخِّرون أمثال أبى شامة الذى يرجع إليه باستمرار فيما يخص عصر الناصر صلاح الدين وينقل عن كتابه «كنز الموحدين فى سيرة صلاح الدين»، وابن خَلِّكان وابن الفُرات والمقريزى. ورغم أن الصَّفَدى نَسَب إليه كتابًا فى «تاريخ مصر» فإن النقول التى توجد عند ابن خَلِّكان والمقريزى الخاصة بمصر لا تُحَدِّد تحديدًا دقيقًا عنوان كتبه. أما ابن الفُرات فهو الوحيد الذى سَجَّل عنوان كتابه وهو «معادن الذَّهَب فى تاريخ الملوك والخلفاء وذوى الرُّتَب» ونَقَلَ عنه، وهو يوحى بأنه من ناحية تاريخ عام للعالم الإسلامى، ومن ناحية أخرى حوليات محلية لمدينة حلب مَسْقَط رأسه[٣].

ويُعَدُّ كتاب «أخبار الدول المُنْقَطِعَة» لجمال الدين على بن ظافِر الأَزْدِى المتوفى سنة ٦١٣هـ/١٢١٦م[٤] من أهم مصادر دراسة الفترة الفاطمية، ويتَّفق مع «أخبار مصر» لابن مُيَسَّر فى كثير من المواضع. واعتمد عليه كثيرًا النُّوَيْرى فى الأجزاء الضائعة من تاريخ ابن

---

[١] ابن شاكر: فوات الوفيات ٤: ٢٦٩-٢٧١؛ Cahen, Cl., «Une chronique chi'ite au temps des Croisades» *dans Comptes rendues des Scéances de l'Académie des Inscriptions*, Paris 1935, pp. 258- 69; id., *EI*[2] art. *Ibn Abi Tayy'* III, 715.

[٢] ابن شاكر: فوات الوفيات ٤: ٢٦٩.

[٣] ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك ٤/١: ٩٠.

[٤] ياقوت: معجم الأدباء ١٣/٢٦٤-٢٦٧؛ المنذرى: التكملة لوفيات النقلة ٢: ١٣٧٦؛ الصفدى: الوافى بالوفيات ٢١: ١٥٨-١٦٦؛ ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك ٥/١: ٢١٧؛ Cahen, Cl. *EI*[2] art. *Ibn Zâfir* III, 995.

مُيَسَّر وعلى الأخص فيما يخص الفترة الإفريقية من التاريخ الفاطمى[١].

ولا يقلّ أهميةً عن كتاب ابن ظافِر كتاب «الكامل فى التاريخ» لابن الأثير، عِزّ الدين أبى الحسن على بن محمد المتوفى سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٣م[٢]، فرغم أنه تاريخ عام للدولة الإسلامية خلال الستة قرون الأولى لها، فإنه لا يخلو من تفاصيل هامة عن تاريخ الدولة الفاطمية وعلى الأخص قرب نهايتها، وكذلك كتابه الآخر «التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية»[٣].

ومن أهم مصادر هذه الفترة التى تناولت تاريخ الفاطميين المتأخِّرين كتاب «الرَّوْضَتَيْن فى أخبار الدَّوْلتَيْن» لأبى شامَة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المَقْدِسى الدمشقى المتوفى سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٧م[٤]. وترجع قيمة المعلومَات التى يقدِّمها أبو شامَة عن الفترة الفاطمية المتأخِّرَة إلى النصوص والاقتباسات التى ضَمَّها بمهارة فائقة واستطاع أن يؤلِّف منها كتابًا تاريخيًا يعالج الفترة من العهد النُّورى التى تبدأ حوالى سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م إلى وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م وهما الدولتان اللتان قصدهما بعنوان كتابه: الدولة النورية والدولة الصلاحية[٥].

واعتمد أبو شامة فى الأساس فيما يخص أخبار الفاطميين على كل من أُسامَة بن مُنْقِذ وعُمارَة اليمنى والقاضى الفاضل وبصفة خاصة على تاريخ يحيى بن أبى طَىّ

---

[١] نشر أندريه فرّيه André Ferré القسم الخاص بالفاطميين بعنوان أخبار الدول المنقطعة وصدر عن المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة سنة ١٩٧٢.

[٢] نشر كتاب الكامل فى التاريخ لابن الأثير أكثر من مرة فى أوربا وفى مصر وفى بيروت.

[٣] نشره عبد القادر أحمد طليمات فى القاهرة سنة ١٩٦٣.

[٤] الصفدى: الوافى بالوفيات ١٨: ١١٣-١١٦ (وماذكر من مصادر)؛ Hilmy Ahmad, *EI*^{2} art. *Abû Shâma* I, 154.

[٥] طبع «كتاب الروضتين» لأول مرة فى مصر فى جزءين سنة ١٢٨٧هـ وأعاد نشر الجزء الأول فى قسمين والقسم الأول من الجزء الثانى محمد حلمى محمد أحمد وصدر فى القاهرة فى سنوات ١٩٥٦، ١٩٦٢، ١٩٩٨.

المفقود، وزَوَّد كتابه بالكثير من الوثائق الأصلية التى أوردها فى مواضع كثيرة لتوثيق تاريخه، مما يُضْفى على كتابه قيمةً أخرى.

ولا يقلّ أهمية عن كتاب «الرَّوْضَتَيْن» لأبى شامَة، فيما يخص العشرين عامًا الأخيرة من تاريخ الدولة الفاطمية فى مصر، كتاب «مُفَرِّج الكروب فى أخبار بنى أيُّوب» لابن واصِل الحَمَوى، جمال الدين محمد بن سالم المتوفى سنة ٦٩٧هـ/ ١٢١٧م[١] الذى اعتمد تقريبًا على نفس مصادر أبى شامة .

وإذا كانت معلوماتنا عن النُّظُم الاقتصادية فى العصور الإسلامية المتقدِّمة قليلة، فقد وَصَلَ إلينا حول نُظُم الخراج والنُّظُم المالية ثلاثة مؤلَّفات كتبت جميعها فى زمن الدولة الأيوبية إلَّا أنها تحتوى على معلومات بالغة الأهمية عن النُّظُم المالية للدولة الفاطمية.

أولها مصدرٌ لا نظير له هو كتاب «المِنْهاج فى أحكام خَراج مصر» أو «المِنْهاج فى علم الخَراج» للمَخْزومى، القاضى السعيد ثقة الثقات ذى الرياستين أبى الحسن على بن القاضى المؤتمن ثقة الدولة أبى عمرو عثمان بن يوسف القُرَشى الشافعى المصرى (٥١٢-٥٨٥هـ/١١١٨-١١٨٩م) صاحب النَّظَر فى ديوان مصر[٢]. قال المقريزى عن المنهاج «وهو كتاب جليل الفائدة» موضوعه وَصْف النظام المالى فى مصر فى آخر أيام الفاطميين وبداية الدولة الأيوبية.

ولم يُكْشَف عن هذا الكتاب إلَّا حديثًا حيث توجد منه نسخة وحيدة فى المكتبة البريطانية British Library برقم Add. 23483 تَوَفَّر على دراستها منذ أكثر من ثلاثين عامًا المستشرق الفرنسى الراحل كلود كاهن Claude Cahen (١٩٠٩-١٩٩١) وكتب عنها سلسلة من المقالات جَمَعَها سنة ١٩٧٧ فى كتاب واحد بعنوان «مَخْزومِيّات-

[١] نشر جمال الدين الشيال الأجزاء الثلاثة الأولى من الكتاب فى القاهرة بين سنتى ١٩٥٣-١٩٦٠ ونشر حسنين محمد ربيع الجزءين الرابع والخامس بين سنتى ١٩٧٢ - ١٩٧٧ وباقى جزءان لم يصدرا حتى الآن.

[٢] السبكى: طبقات الشافعية الكبرى ٧: ٢٢٧؛ Cahen, Cl., *EI*[2] art. *Makhzûmî* VI, 139

دراسات فى التاريخ الاقتصادى والمالى لمصر فى العصور الوسطى»[١]، ثم نَشَرَ القسم الأهم من الكتاب فى القاهرة سنة ١٩٨٦م[٢]. ويرى كاهن أن للكتاب تأليفين: واحدٌ انتهى منه المخّزومى عام ٥٦٥هـ/ ١١٧٠م زمن الفاطميين والآخر كتبه عام ٥٨١هـ/ ١١٨٥م زمن الأيوبيين.

وللفصل الذى عقده المَخْزومى عن الضَّرائب المفروضة على التجارة الخارجية قيمة خاصة، فنحن لا نملك إلى الآن معلومات عن تجارة البحر المتوسط فى مصر إلَّا عن طريق الأرشيف الإيطالى وفى الفترة بعد منتصف القرن السادس الهجرى. وساعد المخّزومى على دقة المعلومات التى أوردها حول جباية المكوس فى ثَغْر الإسكندرية (الخُمس الرومى) وضريبة الجِزْيَة (الجوالى) المفروضة على أهل الذِّمَّة أنه تولَّى ديوان المجّلِس أكثر من مرة فى العصر الفاطمى، فقد كان من طبقة القضاة الذين كانت تكل إليهم الإدارة المصرية وظائف المراجعة العليا للأعمال.

والثانى كتاب «قَوانين الدَّواوين» لابن مَمَّاتى، الأَسْعَد أبى المكارم ابن مُهَذَّب الملقب بالخطير أبى سعيد المتوفى سنة ٦٠٦هـ/١٢٠٩م[٣]. كان وأبوه من أقباط مصر وأسْلَما فى صدر الدولةِ الأيوبية. تولَّى ابن مَمَّاتى «ديوان الجَيْش» للسلطان صلاح الدين و«ديوان الإقطاعات» ثم كان ناظرًا للدواوين بالديار المصرية.

صَنَّف ابن مَمَّاتى كتاب «قَوانين الدواوين» للملك العزيز عثمان، يقول المقريزى: «يتعلَّق بدواوين مصر ورسومها وأصولها وأحوالها وما يجرى فيها وهو أربعة أجزاء

---

[١] Cahen, Cl., *Makhzûmiyyât - Etudes sur l'historie économique et financière de l'Egypte médiéval*, Leiden- Brill 1977.

[٢] المنتقى من كتاب المنهاج فى علم خراج مصر للمخزومى، تحقيق كلود كاهن ومراجعة يوسف راغب، القاهرة – المعهد العلمى الفرنسى ١٩٨٦.

[٣] ياقوت: معجم الأدباء ٦: ١٠٠ – ١٢٦؛ الصفدى: الوافى ٩: ١٩–٢٧؛ المقريزى: المقفى الكبير ٢: ٨٣–٨٧؛ Atiya, A.S., *EI*^{2} art. *Ibn Mammâti* III, 886 - 87.

ضخمة والذى يقع فى أيدى الناس جزء واحد اختصره منه غير المصنف فإن ابن مَمّاتى ذكر فيه أربعة آلاف ضيعة من أعمال مصر ومساحة كل ضيعة وقانون رَيِّها ومتحصلها من عَيْن وغَلَّة»[١]. ولا يوجد الآن سوى مختصر الكتاب الذى أشار إليه المقريزى ولعل أهم أجزاء المختصر الذى وَصَل إلينا هو ذكر المعاملات السلطانية والجهات الديوانية التى عَقَد فى أثنائها مقارنةً بين النظام الفاطمى والنظام الأيوبى[٢].

والثالث كتاب «لُمَع القوانين المُضِيَّة فى دواوين الديار المصرية» للنابُلسى، علاء الدين أبى عمرو عثمان بن إبراهيم بن خالد بن محمد القُرَشى المتوفى سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م[٣]. ورغم أن النابُلسى ألَّف كتابه سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٥م فى زمن سلطنة الصالح نجم الدين أيوب- أى قرب نهاية العصر الأيوبى- إلَّا أنه مِثْل ابن مَمّاتى كان يعقد دَوْمًا مقارنةً بين ما كان يجرى فى وقته وما كان يجرى فى زمن المصريين (أى الفاطميين)[٤].

الفَـــتْرَةُ المَمْـــلُوكِيَّة

لا تُمَثِّل مؤلَّفات هذه الفترة أيَّة أصالة لتاريخ الفاطميين فى مصر، فمؤلفو هذه الفترة يكتبون عن حقائق تفصلهم عنها ما بين ثلاثة وخمسة قرون، ولكنها تستمد أهميتها - كما سبق أن ذكرت- من احتفاظها بنقولٍ مُطَوَّلة لأغلب المصادر المفقودة التى ذكرتها فيما سبق، فقد وُجِدَت نُسَخٌ من هذه الكتب عند أفراد مختلفين فى عصر المقريزى فى منتصف القرن التاسع الهجرى/الخامس عشر الميلادى.

---

[١] المقريزى: الخطط ٢: ١٦٠.

[٢] نشره عزيز سوريال عطية وصدر عن الجمعية الزراعية الملكية بالقاهرة سنة ١٩٤٣.

[٣] اليونينى: ذيل مرآة الزمان ١: ٥٠٤.

[٤] نشر هذا الكتاب كلود كاهن وكارل بيكر Cahen, Cl. & Becker, C., «Kitab luma' al-Qawânin al-mudiyya...», *BEO* XVI (1961).

ومع ذلك فإن واحدًا من هذه المؤلَّفات يُعَدّ مصدرًا أصيلًا لدراسة تاريخ الفاطميين المتأخِّرين هو «أخبار مصر» لابن مُيَسَّر، تاج الدين أبى عبد الله محمد بن على بن يوسف بن جَلَب راغِب المتوفى سنة ٦٧٧هـ/١٢٧٨م[١]. تذكر المصادر أن مؤلِّفه أراد أن يجعله كالذيل على كتاب «أخبار مصر» للمُسَبِّحى ولكن بصورة أكثر تحديدًا من المُسَبِّحى. وكما ضاع عَنّا أغلب كتاب المُسَبِّحى فإنه لم يصل إلينا من تاريخ ابن مُيَسَّر إلّا جزء وحيد غير تام وفى صورة مختصرة هى انتقاء لتقى الدين المقريزى أتمّه فى سنة ٨١٤هـ/١٤١١م، بينما ذَكَرَ السَّخاوى أن الكتاب كان كاملًا فى وقته فى مجلدين، أولهما عند المحب بن الأمانة، وثانيهما عند البدر الشاذلى[٢].

وتَرْجِعُ أهمية هذا الكتاب إلى أنه كان المصدر الأساسى الذى استقى منه مؤرِّخو القرنين الثامن والتاسع للهجرة- وخاصة النُّوَيْرى والمقريزى- غالب معلوماتهم عن تاريخ الفاطميين المتأخِّرين. ومن السهل أن نحصل على المعلومات الناقصة من هذا الكتاب عن طريق ثلاثة مؤلِّفين، أولهما ابن ظافِر الأزْدى الذى استخدم تقريبًا نفس المصادر التى استخدمها ابن مُيَسَّر، والثانى شهاب الدين النُّوَيْرى المتوفى سنة ٧٣٣هـ/ ١٣٣٣م الذى اعتمد تمامًا على ابن مُيَسَّر وهو يكتب تاريخ الفاطميين فى موسوعته «نهاية الأرب فى فنون الأدب» بما فى ذلك الأجزاء التى لم تصل إلينا، وحرص على تسجيل فَضْل ابن مُيَسَّر عندما ترجم له فقال: «كان فاضلًا وجَمَع تاريخًا لمصر وقد نَقَلْتُ عنه مواضع فيما سلف من كتابنا هذا»[٣]. وتَتَبَّع النُّوَيْرى فى سَرْد أخبار الفاطميين المتأخِّرين بدقة تاريخ ابن مُيَسَّر- عدا الأخبار التى نَقَلَها عن ابن الأثير- حتى إنه يمكننا القول أن ابن مُيَسَّر وَصَلَ

---

[١] النويرى: نهاية الأرب ٣٠: ٣٩١؛ الصفدى: الوافى بالوفيات ٤: ١٨٨؛ ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك ٧: ١٢٧؛ المقريزى: المقفى الكبير ٦: ٣٩٥؛ Cahen, Cl., *BIFAO* 37 (1937), pp. 24-25; id., *EI*[2] art. *Ibn Muyassar* III, 918 ومقدمتى لأخبار مصر لابن مُيسر بتحقيقى.

[٢] السخاوى: الإعلان بالتوبيخ ٦٤٦.

[٣] النويرى: نهاية الأرب ٣٠: ٣١٩.

بكتابه إلى العصر الأيوبى، بل وإلى صدر دولة المماليك، وهو يشير إليه دائمًا باسم «المؤرِّخ». أما الكتاب الثالث فهو «اتِّعاظ الحُنَفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخُلَفا» للمَقريزى الذى تَتَبّع أيضًا رواية ابن مُيَسّر ولكن دون أن يشير إليه صراحةً فى أغلب المواضع.

ووَصَلَ إلينا «تاريخ» ابن مُيَسّر فى مخطوطة واحدة عبارة عن انتقاء من الكتاب الأصلى عمله المقريزى سنة ٨١٤هـ/١٤١١م كتبت فى القرن الحادى عشر محفوظة فى المكتبة الوطنية بباريس برقم ١٩٨٨ تحوى فقط الحوادث من سنة ٤٣٩ إلى سنة ٥٥٣هـ وسقطت منها حوادث السنوات ٥٠٢-٥١٤هـ التى استعيض عنها بنص مقحم لسَدّ هذا السَّقْط يحوى حوادث السنوات من ٣٦٢-٣٦٥ و٣٨١-٣٩٠هـ، وهى ليست من أصل الكتاب وإنما نُقِلَت عن ابن زولاق والمُسَبِّحى[١].

ويُعَدّ كتاب «وَفَيات الأعْيان وأنباء الزمان» لابن خَلِّكان، شمس الدين أبى العَبّاس أحمد بن محمد بن أبى بكر المتوفى سنة ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م[٢]، من أهم مصادر تاريخ الفاطميين- سواء فى إفريقية أو مصر أو الشام أو الحجاز- فرغم أن الكتاب كتاب تراجم إلّا أن كثيرًا من تراجمه نصوصٌ تاريخية ذات قيمة كبيرة لاعتماده على مصادر أصلية كثيرة فُقِد بعضها؛ حتى إن أبا المحاسن بن تَغْرى بِرْدى اعتمد عليه كثيرًا- هو و سِبْط ابن الجَوْزى والذَّهَبى- وهو يكتب تراجم الخلفاء الفاطميين فى «النجوم الزاهرة»[٣].

---

[١] نشر الكتاب لأول مرة هنرى ماسيه H.Massé فى المعهد الفرنسى بالقاهرة سنة ١٩١٩، ثم أعددت له نشرة محققة اعتمادًا على مصادر جديدة خاصة «اتعاظ الحنفا» للمقريزى و«نهاية الأرب» للنويرى ونشرتها بعنوان «المنتقى من أخبار مصر لابن ميسر» وصدرت أيضًا عن المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة سنة ١٩٨١.

[٢] الصفدى: الوافى بالوفيات ٧: ٣٠٨-٣١٦؛ المقريزى: المقفى الكبير ١: ٦١٥-٦١٩، ومقدمة إحسان عباس لنشرة «الوفيات» فى الجزء السابع من الكتاب؛ Fuck, J., *EI*[2] art. *Ibn Khallikân* III, 856.

[٣] النشرة المعتمدة للكتاب هى تحقيق إحسان عَبّاس له فى ثمانية مجلدات بيروت - دار صادر ١٩٦٩-١٩٧٢.

أما كتاب «المُغْرب فى حُلَى المَغْرب» لعلى بن موسى بن سعيد المغربى المتوفى سنة ٦٨٥هـ/١٢٨٦م[1]، فأحد أشمل تواريخ مصر الإسلامية حتى عصره، واعتمد فيه على مصادر أصلية كثيرة بالنقل الكامل أحيانًا وبالتلخيص أحيانًا أخرى، فحَفِظَ لنا بذلك نصوصًا هامة كاملة لابن الدَّاية وابن زولاق بالإضافة إلى الرُّوذْبارى وابن مُهَذَّب والقُرطى وغيرهم. كذلك قَدَّم لنا ابن سعيد وَصْفًا مستفيضًا لمدينتى الفُسْطاط والقاهرة اعتمد عليه المقريزى كثيرًا فى «خِطَطه» حيث طالع النسخة الوحيدة التى وَصَلَت إلينا من الكتاب وسَجَّلَ عليها بخطه استفادته منها.

أَتَمَّ ابن سعيد تأليف كتابه فى العشر الأواخر من جمادى الآخرة سنة ٦٤٦هـ وأهداه لخزانة الصاحب كمال الدين بن العديم- صاحب تاريخ حَلَب- الذى يسَّر له الاستفادة من خزانة كتبه العامرة، كما كان هو نفسه كثير التردُّد على الوَرَّاقين بمصر وخبيرًا بأسواق الكتب على عهده عارفًا بمواضعها[2].

ويأتى فى مقدمة مُؤَلَّفات القرن الثامن الهجرى/الرابع عشر الميلادى كتاب «نِهايَة الأَرَب فى فُنون الأَدَب» لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النُّوَيْرى البكرى الشافعى المتوفى سنة ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م[3]. ويشتمل الجزء الثامن والعشرون من الكتاب على أخبار الفاطميين سواء فى إفريقية أو فى مصر اعتمد فيها فى الأساس- فيما يخص مصر- على ابن مُيَسَّر إضافة إلى ابن الأثير، كما عَقَدَ فى الجزء الخامس والعشرين فصلًا عن انشقاق

---

[1] الصفدى: الوافى بالوفيات ٢٢: ٢٥٣ - ٢٥٩؛ المقرى: نفح الطيب (تحقيق إحسان عباس، بيروت - دار صادر ١٩٦٨) ٢: ٢٦٢-٢٩٠؛ Pellat, Ch., *EI*² art. *Ibn Sa'id al- Maghribi* III, 950 - 951.

[2] نَشَر الجزء الخاص بمدينة الفسطاط من الكتاب زكى محمد حسن وشوقى ضيف وسيدة إسماعيل كاشف، القاهرة- مطبعة جامعة فؤاد الأول ١٩٥٣؛ ونَشَرَ الجزء الخاص بالقاهرة من الكتاب حسين نصار، القاهرة - مركز تحقيق التراث ١٩٧٠.

[3] المقريزى: المقفى الكبير ١: ٥٢١، ٥٢٢؛ الصفدى: الوافى ٧: ١٦٥؛ ابن حجر: الدرر الكامنة ١: ٢٠٩؛ Mounira Chapoutot-Remadi, *EI*² art. *al-Nuwayri* VIII, 158-92.

القرامطة على الحركة الإسماعيلية المُبَكِّرة اعتمادًا على كتاب الشريف أخى محسن الدمشقى[١].

ويشتمل الجزء السادس من كتاب «كَنْز الدُّرَر وجامِع الغُرَر» لأبى بكر عبد الله ابن أيْبَك الدَّواداري المتوفى بعد سنة ٧٣٦هـ/١٣٣٥م على عرض كامل لتاريخ الدولة الفاطمية اعتمادًا على الكثير من المصادر الأصلية[٢]. وتَمَيَّز كتاب «تاريخ الدُّوَل والمُلُوك» لناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن على الحنفى المعروف بابن الفُرات المتوفى سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٤م[٣] باعتماده على مصادر فاطمية أصلية لم تصل إلينا مثل «نُزْهَة المُقْلَتين» لابن الطُّوَيْر وتاريخ يحيى بن أبى طَيّ[٤]. كذلك فإن كتاب «صُبْح الأَعْشَى فى صِناعَة الإنْشا» للقَلْقَشَنْدى، أحمد بن على بن أحمد الفزارى المتوفى سنة ٨٢١هـ/ ١٤١٨م[٥] أحد أهم الكتب التى تَمُدُّنا بمعلومات على قدر كبير من الأهمية عن نُظُم ورُسُوم القصر الفاطمى وأدب الكتابة الديوانية فى زمن الفاطميين اعتمادًا على المصادر الأصلية وعلى وثائق مستمدة من الأرشيف الفاطمى نفسه[٦]. ولا يقل أهمية عنه كتاب «النُّجوم الزَّاهرة فى ملوك مصر والقاهرة» لأبى المحاسن يوسف بن تَغْرى بِرْدى المتوفى سنة

---

[١] الجزء الثامن والعشرون بتحقيق محمد محمد أمين، القاهرة ١٩٩٢ والجزء الخامس والعشرون بتحقيق محمد جابر عبد العال الحينى، القاهرة ١٩٨٤.

[٢] نشره صلاح الدين المنجد بعنوان «الدرة المضية فى أخبار الدولة الفاطمية»، القاهرة – المعهد الألمانى للآثار ١٩٦٠.

[٣] ابن حجر: ذيل الدرر الكامنة (تحقيق عدنان درويش، القاهرة – معهد المخطوطات العربية ١٩٩٢) ١٦٣-١٦٤؛ السخاوى: الضوء اللامع ٨: ٥١؛ Cahen, Cl., *EI*[2] art. *Ibn al-Furât* III, 792.

[٤] نشر حسن الشمّاع بعض الأجزاء المتعلقة بتاريخ الفاطميين المتأخرين الجزء الرابع فى قسمين فى البصرة سنتى ١٩٦٧ – ١٩٦٩م والقسم الأول من الجزء الخامس فى بغداد سنة ١٩٧٠ ويمكن مراجعة بقية الكتاب فى المخطوطة الوحيدة الباقية من الكتاب بخط المؤلف والمحفوظة فى مكتبه الدولة بفينا برقم ٨١٤.

[٥] السخاوى: الضوء اللامع ٢: ٨؛ المقريزى: السلوك ٤: ٤٧٣، ٤٧٤؛ أبو المحاسن: المنهل الصافى ١: ٣٥١، ٣٥٢؛ Bosworth, C.E., *EI*[2] art. *al- Kalkashandi IV*, 531,33 ولنخبة من الأساتذة «أبو العباس القلقشندى وكتابه صبح الأعشى»، القاهرة ١٩٧٣.

[٦] نشرته دار الكتب المصرية فى أربعة عشر مجلدًا، القاهرة ١٩١٣-١٩١٩م.

٨٧٤هـ/١٤٧٠م[١] الذى اعتمد على كثير من المصادر المصرية المتقدِّمة مثل مؤلَّفات ابن عبد الظَّاهر وابن الطُّوَيْر إضافة إلى بعض المصادر الشامية والعراقية مثل مؤلَّفات ابن الجَوْزى وسِبْط ابن الجَوْزى والذَّهبى وابن خَلِّكان[٢].

أما أهم مؤلَّفات عصر المماليك التى حَفِظت لنا تاريخًا كاملًا للأسرة الفاطمية منذ نشأتها فى إفريقية وحتى سقوطها فى مصر، فمؤلَّفات شيخ مؤرِّخى مصر الإسلامية تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر المَقْريزى المتوفى سنة ٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م[٣] الذى اعتمد تقريبًا على جميع المصادر السابق الإشارة إليها سواء بطريق مباشر أو غير مباشر، وعلى الأخص فى ثلاثة كتب: «المَوَاعِظُ والاعْتِبار» و«اتِّعاظ الحُنَفَا» و«المُقَفَّى الكبير».

فكتاب «المَواعِظ والاعْتِبار فى ذِكْر الخِطَط والآثار» هو بإجماع آراء الباحثين أهم كتاب فى تاريخ مصر وجغرافيتها وطبوغرافية عاصمتها فى العصر الإسلامى. عَرَّف فيه المقريزى تعريفًا مفصَّلًا بكل ما يَتَّصل بمسقط رأسه القاهرة، بحيث لم يترك أثرًا أو مؤسَّسَة إلّا وَصَفَها بدقَّة متناهية مع الإشارة إلى الحوادث الهامة التى اقترنت به وحياة الأمراء والكبراء الذين باشروا بناءه. ويحتل تاريخ مصر فى عصر الفاطميين والمنشآت الدينية والحربية والمدنية التى أنشئت فيه نحو نصف الكتاب، اعتمد فيه المقريزى على

---

[١] السخاوى: الضوء اللامع ١٠: ٣٠٥-٣٠٨؛ Popper, W., *EI*² art. *Abû l-Mahâsin* I, 142 والمجموعة من العلماء «المؤرخ ابن تغرى بردى»، القاهرة ١٩٧٤.

[٢] نشرته دار الكتب المصرية بالقاهرة فى اثنى عشر جزءا بين سنتى ١٩٢٩-١٩٥٦، ثم نشرت الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة بقية الكتاب فى أربعة أجزاء بين سنتى ١٩٧٠-١٩٧٢م.

[٣] ابن حجر: إنباء الغمر ٤: ١٨٧-١٨٨ ؛ أبو المحاسن: المنهل الصافى ١: ٤١٥-٤٢٠؛ السخاوى: الضوء اللامع ٢: ٢١-٢٥؛ سعيد عبد الفتاح عاشور: «أضواء جديدة على المؤرخ أحمد بن على المقريزى وكتاباته»، عالم الفكر - الكويت ١٤ (١٩٨٦) ٤٥٣-٤٩٨؛ Rosenthal, F. *EI*² art. *al-Makrîzî* VI, 177-78; Garcin, J.-Cl., «Al-Maqrizi, un historien encyclopédique au monde afro-orientale», *Les Africains* IX (Paris1978), pp. 197-223 . ومقدمتى لمسودة كتاب المواعظ والاعتبار للمقريزى، لندن ١٩٩٥، ٣٥-٩٩؛ والمجموعة من الباحثين «دراسات عن المقريزى»، القاهرة ١٩٧١.

مصادر لم تصل إلينا فحَفِظَ لنا بذلك نقولًا ذات شأن للمؤلِّفين القدماء الذين فُقِدَت مؤلَّفاتهم اليوم[١].

وكتاب «اتِّعاظ الحُنَفَا بأخبار الأئمة الفاطميين الـخُلَفا» هو أَشْمَل كتاب تناول تاريخ الدولة الفاطمية منذ قيامها فى إفريقية وحتى سقوطها فى مصر، اعتمد فيه المقريزى على جميع المصادر الخاصة بتاريخ هذه الدولة والتى وَصَلَت إلى علمه ووُجِدَت منها نُسَخٌ فى وقته. وبذلك فإن كتابه هذا وسائر كتبه تعد معينًا لا يَنْضُب بالمعلومات عن الفاطميين فى مصر بصفة خاصة. وهذا الكتاب لم يكن معروفًا منه إلَّا قسمه الأول فقط الذى ينتهى بخلافة العزيز بالله فى نسخة بخط المقريزى محفوظة فى مكتبة غوطا Gohha بألمانيا تحت رقم ١٦٥٢ ونُشِرَ مرتين فى ليبتسج سنة ١٩٠٩ بتحقيق Hugo Bunz ، ثم فى القاهرة سنة ١٩٤٨ بتحقيق جمال الدين الشيّال رحمه الله. وكان للمستشرق الراحل كلود كاهن فضل اكتشاف نسخة كاملة من هذا الكتاب فى سنة ١٩٣٦ محفوظة فى مكتبة أحمد الثالث بإستانبول تحت رقم ٣٠١٣، لم يستفد منها استفادة كاملة إلَّا بعد اكتمال نشرها فى ثلاثة أجزاء فى مصر سنة ١٩٧٣م[٢].

أما كتاب «المُقَفَّى الكبير» فهو أهم كتب التراجم المصرية مثله مثل «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادى و«تاريخ مدينة دمشق» لابن عساكر. ترجم فيه المقريزى للعلماء والأدباء والشعراء والقُضاة والسلاطين والأمراء... إلخ الذين عاشوا فى مصر أو قدموا إليها منذ الفتح العربى وحتى أواسط القرن الثامن الهجرى. وللأسف الشديد فإن هذا

---

١ نشر فى بولاق فى جزءين عام ١٨٥٣؛ ونشر جاستون ڤييت قسما من الكتاب فى خمسة أجزاء، القاهرة – المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ١٩١١ – ١٩٢٧؛ ونشر كاتب هذه السطور «مسودة كتاب المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار»، لندن – مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامى ١٩٩٥.

٢ الجزء الأول بتحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٦٧، الجزءان الثانى والثالث بتحقيق محمد حلمى محمد أحمد، القاهرة – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٧١-١٩٧٣م.

الكتاب لم يصل إلينا كاملًا وإنما وَصَلَ إلينا منه أربعة أجزاء بخط المقريزى Autographe جزء فيه بعض حرف الطاء والظاء وحرف العين موجود فى المكتبة الوطنية بباريس برقم 2144، وثلاثة أجزاء بها بعض تراجم الهمزة وتراجم من حرفى الكاف واللام وأسماء المحمدين محفوظة فى مكتبة لَيْدن بهولندا تحت رقم 1366 وجزء خامس يشتمل على الحروف من الألف إلى الخاء منقول عن مُسَوَّدة المقريزى محفوظ فى المكتبة السليمية (برتف باشا) بإستانبول تحت رقم ٤٩٦، بالإضافة إلى جزء من مُسَوَّدَة المؤلِّف كُشِفَ عنه حديثًا واقتنته مكتبة ليدن بهولندا يحوى بعض الحروف الموجودة فى نسخة السليمية وحروفًا أخرى تُكْمِل الأجزاء الموجودة فى نسختى باريس وليدن.

وتشتمل تراجمُ الرجال الذين عاشوا فى العصر الفاطمى فى هذا الكتاب على معلومات جديدة حول تاريخ هذه الفترة لا نجدها فى «الاتعاظ» أو «الخطط»[1].

المَصَــــادِرُ غَيْرُ الإِسْــلامِيَّة

هى المصادر التى كَتَبَها أهلُ الذِّمَّة الذين عاشوا فى مصر الإسلامية، وتختلف هذه المصادر عن المصادر الإسلامية باهتمامها بتفاصيل وأحداث لا يتطرَّق إليها المؤلِّفون المسلمون، كما أنها تهتم برَبْط الحوادث التاريخية بسِيَر آباء الكنيسة القبطية فى مصر وذِكْر أسماء المُوَظَّفين الأقْباط الذين توَلَّوا مناصب إدارية أو مالية، وموقف الحكومات الإسلامية منهم وكذلك ردود أفعالهم عليها. وهى بذلك تعكس لنا العلاقات الدينية والاجتماعية والثقافية القائمة بين المجتمع القِبْطى وسائر المجتمع المصرى الإسلامى، وتعد من هذا الجانب مصدرًا إضافيًا هامًّا لمصادر التاريخ المصرى عمومًا.

---

[1] نشره فى ثمانية أجزاء محمد اليعْلاوى وصدر فى بيروت عن دار الغرب الإسلامى سنة ١٩٩١.

يأتى فى مقدمة هذه المصادر «تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى» السابق الإشارة إليه[١]. ثم كتاب «تاريخ بطارِكَة الكنيسة المصرية» المعروف بـ«سِيَر البِيْعَة المُقَدَّسَة» المنسوب لساويرس بن المُقَفَّع والذى يعد الكتاب التاريخى الرئيس للكنيسة القبطية المُدَوَّن باللغة العربية[٢].

ويتكوّن هذا «التاريخ» من سلسلة من سِيَر البَطارِكَة مقَسَّمة إلى العديد من الأقسام والفصول. وفى خلال هذا العرض نجد وَصْفًا لمختلف الأحداث التى تخص التاريخ الكنسى والسياسى والاجتماعى من وجهة نظر تعكس الموقف الرسمى للكنيسة القبطية بما أن المؤلِّفين الذين تولّوا كتابته كانوا فى العموم من الدائرة القريبة من البطاركة أنفسهم.

وهذا النَّصُّ الذى وَصَل إلينا هو نتاج تقليد طويل فى الكتابة التاريخية، حيث سَجَّل المؤلِّفون الأقباط فى فترات مختلفة تاريخ كنيستهم وبلدهم، وكان كلٌّ منهم يكمل عمل سابقه، وكَتَبَ أوّل هؤلاء المؤلِّفين باللغة القبطية ولكن متمِّمى هذا التاريخ ابتداءً من النصف الثانى للقرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى كتبوا باللغة العربية. وبذلك فإن «تاريخ بَطارِكَة الكنيسة» يعدُّ تأليفًا عربيًا مبنيًا فى الأساس على أعمال مُبَكِّرَة لمؤلِّفين أقباط وأتمه ابتداء من القرن الخامس الهجرى مؤرِّخون أقباط متأخِّرون باللغة العربية[٣].

ويتكَوّن «تاريخ البطاركة» فى الشكل الذى وَصَلَ إلينا من قسمين أساسيين: تاريخ باللغة العربية يعتمد فى الأساس على السِّيَر التى وَجَدَها مَوْهُوب بن مَنْصُور بن مُفَرِّج الإسكندرانى الشَّمّاس فى المحرم سنة ٤٨٠هـ/أبريل سنة ١٠٨٧م فى كلٍّ من دير السيدة

---

١ انظر فيما سبق صفحة ٣٩-٤٠ .

٢ راجع مؤقتًا Johannes Den Heijer, *CI* art. *History of the Patriarchs of Alexendria* IV, pp. 1238-1242; Aziz S. Atiya, *CI* art. *Sâwirus Ibn al-Muqaffa'* VII, pp. 2100- 2102 .

٣ Den Heijer, J., «Coptic Historiography in the Fatimid, Ayyubid and Early Mamluk Periods» *Medieval Encounters* 2/1 (1996), pp. 70-71 .

بنَهْيا (اثنين وأربعين بَطْرَكًا من مارى مرقص الإنجيلى إلى سيمون)، ودير الشهيد الجليل تادرس على المنهى بأبلاج (أربعة بطاركة من الاكسندروس إلى خايال)، وفى دير نَهْيا أيضًا (تسعة بطاركة من أنبا مينا إلى شنودة) ثم وَجَدَ فى دير أبى مَقّار (سيرة عشرة بطاركة من خايال إلى سانوتيوس) فنَسَخَها بخطه ثم بدأ فى التذييل عليها مبتدئًا بسيرة الأب خريسطودولوس البَطْرَك السادس والستين الذى جَلَسَ على الكرسى البَطْريَركى سنة ٤٣٨هـ/١٠٤٦م[١].

وسِيَرُ البَطارِكَة التى كَتبها بنفسه مَوْهُوب بن مَنْصور بن مُفَرِّج باللغة العربية مباشرة وهى سيرة كل من البَطْرَك خريسطودولوس والبَطْرَك كيرلس الثانى، وتلك التى كَتَبَها مؤلِّفون متأخِّرون فى القرنين السادس والسابع للهجرة/الثانى عشر والثالث عشر للميلاد بعد أن نسخوا السِّيَر التى كتبها سابقوهم بأنفسهم مضيفين الأحداث التى جَرَت فى زمانهم[٢].

ويُعَدّ القسم الذى كَتَبه مَوْهُوب بن مَنْصور بن مُفَرِّج والذى بدأ فى تسجيله فى آخر خلافة المستنصر ووزارة بدر الجمالى مصدرًا هامًّا للتاريخ السياسى والاجتماعى لخلافة المستنصر وعلى الأخص للسنوات التى أعقبت وصول بدر الجمالى إلى قمة السلطة فى مصر. أما الفترة التالية لذلك فقد كَتَبَها يوحنا بن صاعد بن يحيى بن مينا المعروف بابن القُلْزُمى[٣] نحو سنة ٥٢٥هـ/١١٣٠م أثناء انقلاب الوزير أبى على الأَفْضَل كُتَيْفات. وكَتَبَ مُرْقُص بن زُرْعَة- الذى أصبح البَطْرَك الثالث والسبعين- سِيَر الآباء من غُبْريال

---

[١] ساويرس بن المقفع: تاريخ بطاركة الكنيسة ٢/٢: ١٦٠-١٦١ ، وراجع عن منصور بن موهوب Den Heijer, J., *Mawhûb Ibn Mansûr Ibn Mufarrig et l'Historiographie Copto-Arabe*, Lovanii 1989.

[٢] Den Heijer, J., *Coptic Historiography*, pp. 71-72.

[٣] ساويرس بن المقفع: تاريخ بطاركة الكنيسة ٣/٢: ١٨٧، ٢٢٩، ٢٣٢، ١/٣: ٧.

ابن تريك إلى يُوحَنَّا بن أبى الفَتْح (٥٢٦-٥٦٢هـ/١١٣١-١١٦٦م) وقد عاصر بنفسه سقوط الخلافة الفاطمية واستيلاء الأيوبيين على السلطة[١].

ونَشرَت «تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية» المنسوب لساويرس بن المُقَفَّع أُسْقُف الأشْمُونَيْن جمعية الآثار القبطية بالقاهرة مع ترجمة إنجليزية بعناية يَسّى عبد المسيح وعزيز سوريال عطية وأسولد برمستر وأنطون خاطر فى ثلاث مجلدات بين سنتى ١٩٤٨ و١٩٧٤.

والكتاب المهم الثانى بين المصادر غير الإسلامية المعاصرة للفترة الفاطمية هو كتاب «تاريخ الكنائس والأَدْيِرة» الذى نَشَرَه Evetts فى أكسفورد سنة ١٨٩٥ عن نسخة المكتبة الوطنية فى باريس رقم 357 منسوبًا إلى من يُدْعى أبا صالح الأَرْمَنى[٢]. وهو كتاب يشتمل على وَصْف طبوغرافى لكنائس وأديرة مصر المهمة ومواضعها مُوَزَّعة جغرافيًا، وكل مدخل من مداخله يشتمل على وصف للموضع وفى بعض الحالات على ذكر لبعض الأحداث المرتبطة به. وفى سنة ١٩٨٤ نَشَر الراهب صموئيل السريانى نشرة جديدة للكتاب اعتبر فيها القسم الذى نشره Evetts الجزء الثانى للكتاب بالإضافة إلى جزء أول وجزء ثالث. الجزء الأول يشتمل على كنائس وأديرة الوجه البحرى وقسم من القاهرة، والجزء الثانى يشتمل على كنائس وأديرة قسم من القاهرة والوجه القبلى وتناول باختصار بعض المواضع خارج مصر، أما الجزء الثالث فيتناول سيناء وبلاد الشام والعراق والأناضول وروما[٣].

---

[١] ساويرس بن المقفع : تاريخ بطاركة الكنيسة ٣/١: ٣٧.

[٢] ***The Churches and Monasteries of Egypt and some Neighbouring Countries attributed to Abu Salih the Armenien,*** **edited and transleted by B.T.A. Evetts, with added notes by Alfred J. Butler, Oxford. Clarendon Press 1895.**

[٣] تاريخ الكنائس والأديرة فى القرن الثانى عشر الميلادى لأبى المكارم الذى نسب خطأ إلى أبى صالح الأرمنى، إعداد وتعليق الراهب صموئيل السريانى، (٤ أجزاء)، مصر - دير السريان ١٩٨٤.

اعتمد صموئيل السُّرْيانى فى نشرته على مخطوطة جديدة نَسَخَها بيده وعَلَّق عليها ولم يذكر مصدرها كما لم يقدم لها وَصْفًا كوديكولوجيًا ، وكان الجديد الذى قَدَّمته هذه النشرة هو تحديد مؤلِّف هذا الكتاب الحقيقى وهو شخصٌ غير معروف أيضًا يُدْعى الشيخ المُؤْتَمن أبا المكارم سَعْد الله بن جِرْجِس بن مَسْعُود؛ أما أبو صالح الأَرْمَنى الذى نُسِبَ إليه الكتاب فليس إلّا مالكِ الجزء الثانى من النسخة المحفوظة فى باريس، وكَتَبَ أبو المكارم سَعْد الله القسم الأساسى من الكتاب بين سنتى ٥٥٥هـ/١١٦٠م و٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، ثم أتَمّه بعده مجموعة من المؤرخين[١].

واستقرت المخطوطة التى اعتمد عليها الراهب صموئيل السريانى الآن فى Bayerische Staatsbibliothek فى ميونيخ برقم ٢٥٧٠، وكانت قبل ذلك فى ملك أحد أقباط طنطا هو جرجس فلتاؤس عوض وكتب عنها توفيق إسكاروس مقالًا نشره سنة ١٩٢٦م[٢]. كما أن على باشا مبارك عرف هذه المخطوطة واطّلَع عليها واستفاد منها كثيرًا فى الجزء السادس من كتابه «الخطط التوفيقية الجديدة» ، يقول عند حديثه عن كنيسة حارة زُوَيْلَة: «قد ذكر المؤتمن أبو المكارم سَعْد الله بن جرجس فى مجموع له بَيَّنَ فيه كنائس القاهرة والجهات البحرية فى أواخر الجيل الثانى عشر للمسيح»[٣].

وإذا كانت هذه المصادر وثيقة الصِّلَة بتاريخ الأقباط فى مصر فى العصر الفاطمى فإن «أوراق جنيزة القاهرة» Cairo Geniza Documents – التى كتبها اليهود المقيمون فى حوض البحر المتوسط بين القرنين الخامس والثامن للهجرة – تعد من أهم مصادر هذه

---

[١] راجع حول هذا الكتاب ومؤلفه Aziz S. Atiya, *CE* art. *Abû al-Makârim* I,23 & *Abû Sâlih* I, 33 Den Heijer, J., «The Composition of the History of the Churches and Monasteries of Egypt : Some Preliminary Remarks», in S.D.W. Johnson ed., *Acts of the Fifth International Congress of Coptic Studies*, Roma 1993, II/1, pp. 209-219; Zanetti, U., «Abul Makârim et Abu Sâlih», *BSAC* XXXIV (1995), pp. 85-138.

[٢] Iscarus, T. «Un nouveau manuscrit sur les églises et monastères de l'Egypte au XII sièclée dans *Congrès International de Gographie*, Avril 1925, Le Caire 1926, V, pp. 207-208.

[٣] على مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة ٦: ٧٤ (٢١٦)، ٧٥ (٢١٩)، ٧٦ (٢٢٠)، ٧٧ (٢٢٤)، ٧٨ (٢٢٦)، ٧٩ (٢٢٩).

الفترة وخاصة بالنسبة للتاريخ الاقتصادى والاجتماعى وما يَخصّ تجارة الهند. و«الجنيزَة» كلمة عبرية مأخوذة عن نفس الأصل الفارسى والعربى «جنازَة»، وهى تعنى مكانًا دُفِنَت فيه أوراقٌ مستهلكةٌ حتى لا يُدَنّس اسم الله الذى يمكن أن يكون فيها[١]. وأرى أنها ربما حُرِّفَت عن كلمة «كَنْز» العربية خاصةً وأن المقصود بها هو حِفْظ أوراق أيًا كانت أهميتها.

و«الجنيزَة» فى جوهرها مُسْتَوْدَع للأوراق المستهلكة المكتوبة باللغة العربية ولكن بحروف عبرية– وهى الكتابة التى كان يستخدمها اليهود فى بلاد العالم الإسلامى البحر أوسطية فى هذا الوقت– وتتصلُ هذه الأوراق فى الأساس بالنشاط الاقتصادى لليهود بين بعضهم البعض، وتشتمل على أوراق أسرية وغير أسرية تتعلّق بالمعاملات التجارية مثل بيع منازل أو ممتلكات عامة أو تأجيرها وإيصالات بسُلَف أو قروض وعقود الزواج (وعادة ما يصحبها بيان يُوَضِّح قِطَع الجهاز الذى تحضره العَروس) وقسائم الطلاق والإيجارات والأسعار والمقايضات والهِبات، بالإضافة إلى مئات الأوراق التى تحوى التماسات وشكاوى petitions مرفوعة إلى السُلْطات. واكتشفت هذه الأوراق المهملة فى نهاية القرن الماضى فى سيناجوج بِنْ عِذْرَة اليهودى بالفُسْطاط وكذلك فى مقابر اليهود بالبساتين جنوب القاهرة، وذلك عندما هُدِم المعبد اليهودى وأعيد بناؤه فى سنتى ١٨٨٩، ١٨٩٠؛ ويظن جويتين أن مجتمعات اليهود التى انتشرت فى مصر فى العصر الإسلامى من قوص والفيوم جنوبًا وحتى مدن الدلتا شمالا لابد وأنها تركت لها أيضا «جنيزات» قد تكشف عنها الحفائر. وعَرَفت الأوراق التى وجدت بهما طريقها إلى خارج مصر وسَعَت إلى شرائها مكتبات أوربا والولايات المتحدة المختلفة. وفى سنة ١٨٩٧ حمل سلومون شِشْتَر Salomon Schechter أكبر كمية من هذه الأوراق إلى مكتبة جامعة كمبردج Cambridge وكَوَّنَ بها مجموعة Taylor-Schechter الشهيرة حيث توجد أكبر مجموعة من هذه الأوراق فى هذه المكتبة (ما يزيد عن مائة ألف ورقة) وكذلك فى مكتبة البودليانا بأكسفورد، وتوجد الآن تسع عشرة مكتبة عالمية معروفة تحتفظ

---

[١] Goitein, S.D., *EI*[2] art. *Geniza* II, p.10 .

بوثائق الجنيزة، وإن كان من الجائز أنه توجد مجموعات أخرى يمتلكها أفراد[١].

ورغم صدور هذه الأوراق عن أوساط اليهود فإنها تمدّنا بمعلومات عن كثير من الأنشطة المتعلّقة بغير اليهود، وتُقَدِّم لنا صورةً للمجتمع اليهودى الذى كان يعيش فى مدن حوض البحر المتوسط فيما بين القرنين الخامس والثامن للهجرة/ الحادى عشر والرابع عشر للميلاد. ولا تقف أهمية هذه الأوراق عند الطائفة اليهودية وحدها بل تتعدّاها إلى كل المجتمع الذى تعايشت معه هذه الطائفة، خاصة وأن الفترة الفاطمية لم تعرف الـ Ghetto الدينى أو الحرفى، وبذلك فإن المعلومات التى نعرفها عن أحد فئات هذا المجتمع يمكن اعتبارها صالحة للتعرّف على بقية فئاته. ميزة أخرى لهذه الأوراق هى احتواؤها على وثائق أصلية مكتوبة باللغة العربية صادرة عن ديوان الإنشاء أو غيره من الدواوين، تَسَرَّبَت بطريقة أو بأخرى إلى أيدى اليهود الذين استخدموا ظهورها أو المساحات الشاغرة فيها فى كتاباتهم المختلفة[٢].

وتوفَّر على دراسة هذه الأوراق عالـمٌ يهودى أمريكى هو البروفيسير شِلومو دوف جويتين Shelomo Dov Goitein (١٩٠٠ – ١٩٨٥) الذى كتب سلسلة طويلة من المقالات والدراسات الاقتصادية الخاصة بتجارة الهند اعتمادًا على هذه الأوراق ابتداء من خمسينيات هذا القرن[٣]، ثم كتب مؤلَّفًا ضخمًا فى خمسة مجلدات عن مجتمع اليهود فى البلاد العربية المُطِلَّة على البحر المتوسط كما تُصَوِّرُه أوراقُ جِنِيزَة القاهرة صدر فى الفترة بين سنتى ١٩٦٧ – ١٩٨٩ وأعدت له بولاساندرز Paula Sanders كشافًا صدر سنة ١٩٩٥م[٤].

---

[١] طلبًا لمقدمة شاملة عن هذه الأوراق راجع، Goitein, S.D., *A Meditarranean Society,* University of California Press 1967, I, pp.1-28.

[٢] انظر Khan, G., *Arabic Legal and Administrative Documents in the Cambridge Genizah Collections,* Cambridge 1993.

[٣] أعاد جويتين نشر عدد من هذه المقالات فى كتابه Goitein, S.D., *Studies in Islamic History and Institutions,* Leiden-Brill 1966 ونَقَلَ قسمًا منها إلى العربية عطية القوصى بعنوان «دراسات فى التاريخ الإسلامى والنظم الإسلامية»، الكويت ١٩٨٠.

[٤] انظر ثبت المصادر والمراجع.

الوَضْعُ الرّاهِن للدراسات الفاطمية والإسماعيلية

بدأ الاهتمامُ بالدراسات الفاطمية والإسماعيلية على أيدى المستشرقين منذ النصف الأول للقرن التاسع عشر، وكان رائدَ هذه الدراسات أبو الاستشراق الفرنسى سِلْفِسْتَردى ساسى Silvestre de Sacy (١٧٥٨-١٨٣٨) بكتابه *Exposé de la religion des Druzes*, Paris 1938 وزميله إيتيان كاترمير Etienne Quatremère (١٧٨٢-١٨٥٢) بمقاله المُطَوَّل «Mémoire historiques sur la dynastie des Khalifes fatimites», *JA* (1836), 94-145, 400-459, 165- 208 . ثم تبعهما المستشرق الألمانى فرديناند وستنفلد Ferdinand Wüstenfeld (١٨٠٨-١٨٩٩) بكتابه «تاريخ الخلفاء الفاطميين» *Geschichte des Fatimiden Chalifen*, Gottingen 1881 . وفى سنة ١٨٨٦ نشر المستشرق الهولندى ميخائيل جان دى خوية M. J. de Goeje (١٨٣٦-١٩٠٩) أوّل دراسة عن قرامطة البحرين والفاطميين *Mémoire sur les Carmathes du Bahrain et les Fatimides* [Mémoires d'histoire et de géogrophie orientales n°1] Leiden-Brill 1886 ثم أعقبها فى عام ١٨٩٥ بمقاله عن نهاية إمبراطورية القرامطة «La fin de l'empire des Carmathes», *JA* série 9, v (1895) 5-30 .

وفى مَطْلَع القرن العشرين أخذت الدراسات الخاصة بتاريخ الفاطميين تتوالى فنَشَرَ جاكوب مان Jacob Mann دراسته عن «اليهود فى مصر وفلسطين زمن الخلافة الفاطمية» *The Jews in Egypt and Palestine during the Fatimid Caliphate*, Oxford 1920، وكتب بعده بثلاث سنوات دى لاسى أوليرى كتابه «تاريخ موجز للخلافة الفاطمية» O'leary, de Lacy , *A Short History of the Fatimid Caliphate* ,

London 1923 . أما أوّل دراسة علمية اشتملت على بحث تام مُفَصَّل عن الدولة الفاطمية وأسباب قيامها وسقوطها، وأعمالها السياسية والدينية وكذا نظام الحكومة والإدارة وموارِدها المالية اعتمادًا على المصادر الأصلية التى كانت معروفة وقت كتابتها فكتاب حسن إبراهيم حسن (١٨٩٢-١٩٦٨) «الفاطميون فى مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص»، القاهرة ١٩٣٢، وهو فى الأصل موضوع رسالته للدكتوراه التى تقدَّم بها إلى جامعة لندن سنة ١٩٢٨؛ وقد أضاف حسن إبراهيم حسن إلى هذا الكتاب وعَدَّل فيه وصدر فى القاهرة سنة ١٩٥٨ بعنوان «تاريخ الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب». وكَتَبَ كذلك زاهد على (١٨٨٨-١٩٥٨) كتابًا باللغة الأوردية عن الدولة الفاطمية فى مصر عنوانه «تاريخى فاطميينى مصر»، حيدرآباد ١٩٤٨ وكراتشى ١٩٦٣.

ولم تصدر بعد ذلك أية كتابات مستقلة عن تاريخ الدولة الفاطمية فى مصر، فيما عدا ما كتبه عبد المنعم ماجد (١٩٢٠-١٩٩٩) بعنوان «ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر- التاريخ السياسى»، الإسكندرية ١٩٦٨ ؛ ومحمد جمال الدين سرور (١٩١١-١٩٩٢) أولًا بعنوان «مصر فى عصر الدولة الفاطمية»، القاهرة - الألف كتاب ١٩٦٠، ثم بعنوان «الدولة الفاطمية فى مصر- سياستها الداخلية ومظاهر الحضارة فى عهدها»، القاهرة ١٩٧٠، وكُتِبَت جميع هذه الدراسات قبل الاكتشافات الحديثة للمصادر الفاطمية والإسماعيلية الجديدة. وأخيرًا الطبعة الأولى من كتابى هذا «الدولة الفاطمية فى مصر- تفسير جديد»، القاهرة ١٩٩٢. كما كتب إبراهيم رزق الله أيوب دراستيه «التاريخ الفاطمى السياسى» و«التاريخى الفاطمى الاجتماعى»، بيروت - الشركة العالمية للكتاب ١٩٩٦ ، ١٩٩٧ دون أن يتعرّف على المصادر الجديدة أو الدراسات الحديثة المتخصصة حول التاريخ الفاطمى .

وعَرَضَ ماريوس كانار Marius Canard (١٨٨٨-١٩٨٢) بطريقة ملائمة نتائج الدراسات والأبحاث السابقة بما فيها دراساته فى مقاله الشامل عن «الفاطميين» فى الطبعة

الثانية من دائرة المعارف الإسلامية EI^2 art. *Fatimides* II, 875-882 ، وضَمَّت نفس الدائرة المقالات التى كتبها كل من M. Canard, S. Stern, F. Dachraoui وغيرهم عن الخلفاء الفاطميين ووزرائهم.

كذلك قَدَّم محمد عبد الحَىّ شعبان تفسيره لتاريخ الفاطميين من خلال دراسته للفترة بين سنتى ١٣٢-٤٤٨هـ فى كتابه Shaban, M. Ab., *The Islamic History A.D. 750 1055 (A. H. 132- 448). A New Interpretation,* Cambridge 1976 .

وفى إطار كتابة تاريخ عام لمصر من الفَتْح العربى إلى الفَتْح العثمانى مازال ما كَتَبَه جاستون ڤييت Gaston Wiet (١٨٨٧-١٩٧١) فى كتابه *L'Egypte arabe de la conquête arabe à la conquête ottomane,* Paris 1937 يحتفظ ببعض الأصالة.

*

* *

وفيما يخص تاريخ الحركة الإسماعيلية فإن دراسات المستشرق الروسى فلاديمير إيفانوف Wladimir Ivanow (١٨٨٦-١٩٧٠) مازالت هى الأساس لأية دراسات أخرى وعلى الأخَصّ *Ismaili Tradition Concerning the Rise of the Fatimids,* London 1942; id., *Brief Survey of the Evolution of Ismailism,* Leiden 1952 بالإضافة إلى مقاله الشامل عن «الإسماعيلية» الذى كتبه فى ملحق الطبعة الأولى لدائرة المعارف الإسلامية EI^1 art. *Ismāʿiliya, Suppl. pp. 105-109* . *وكَتَبَ برنارد لويس سنة ١٩٤٠ عرضًا واضحًا ومثيرًا للجدل حول أصول الإسماعيلية* *Lewis, B., The Origins of Ismacilism : A Study of the Historical Background of the Fatimid Caliphate,* Cambridge 1940 ، وإن كانت النتائج التى توَصَّل إليها تعرّضت للدحض من جانب إيفانوف فى كتابه «المؤسّس المزعوم للإسماعيلية» Ivanow, W., *The*

Alleged Founder of Isma'ilism, Bombay 1946 . كما كَتَب محمد كامل حسين (١٩٠١-١٩٦١)- وهو أحد الباحثين العرب القلائل الذين تخصَّصوا في الدراسات الإسماعيلية- رسالةً مُرَكَّزَةً عن تاريخ الحركة الإسماعيلية بعنوان «طائفة الإسماعيلية- تاريخها، نظمها، عقائدها»، القاهرة ١٩٥٩. وحَدَّث ويلفِرد مادلونغ هذه المعطيات في مقاله عن «الإسماعيلية» في الطبعة الثانية لدائرة المعارف الإسلامية .Madelung, W., *EI*[2] art. *Ismâ'iliya* IV, 206- 215 .

ونلاحظ بوضوح التمييز بين تاريخ الدولة الفاطمية والمذهب الإسماعيلي فيما كتبه كلٌّ من كانار (عن الفاطميين) ومادلونغ (عن الإسماعيلية)، وكذلك فيما كتبه برنارد لويس Bernard Lewis عن تفسير التاريخ الفاطمي «An Interpretation of Fatimid History», *CIHC* وما كتبه صمويل شتِيرن S. Stern (١٩٢٠-١٩٦٩) عن القاهرة كمركز للحركة الإسماعيلية ,«Cairo as the Centre of the Isma'ili Movement *CIHC* pp. 437- 50 . وبالطبع فإن هناك دراساتٍ متعدِّدَةً عن تاريخ الحركة الإسماعيلية وعقائدها كتبها كل من بول كراوس Paul Kraus (١٩٠٤-١٩٤٤) وهنري كوربان Henri Corbin (١٩٠٣-١٩٧٨)، ولويس ماسينيون Louis Massignon (١٨٨٣-١٩٦٢)؛ إضافة إلى ما كتبه مؤلِّفون إسماعيليون مثل مصطفى غالب (١٩٢٣-١٩٨١) صاحب كتاب «تاريخ الدَّعْوَة الإسماعيلية»، بيروت ١٩٦٦ وعارف تامر صاحب كتاب «تاريخ الإسماعيلية»، ١-٤، لندن- رياض الريس ١٩٩١، وهي كتب يغلب عليها الطابع الدعائي. أما الكتب ذات الطابع الأكاديمي والبحثي بين مؤلَّفات الإسماعيليين التي اعتمدت على مخطوطات كانت محفوظة لفترة طويلة في مجموعات خاصة غير متاحة في اليمن والهند وآسيا الوسطى ولم تستخدم في البحث العلمي قبل ذلك، فهي دراسات حسين بن فَيْض الله الهَمْداني Husayn F. Hamdani (١٩٠١-١٩٦٢) وعَبّاس هَمْداني Abbas Hamdani وإسماعيل بوناولا Ismâ'il Poonawala ،

ثم الدراسات التى كَتَبَها خلال السنوات العشر الأخيرة فَرْهاد دَفْترى وخاصة كتابه Farhad Daftary, *The Isma'ilis Their history and Doctrines,* Cambridge 1990 ، الذى وصفه ويلفرد مادِلونغ فى تقديمه له بأنه أشْمَل دراسة تفصيلية عن التاريخ المُرَكَّب للإسماعيلية تعكس تمامًا تَطَوُّر ونُمُوّ الأبحاث الحديثة المبعثرة إلى حدٍّ بعيد فى النصوص المنشورة، والمؤلَّفات والمقالات التى نَجَحَ المُؤَلِّف فى دَمْجها فى رواية ممتعة سهلة القراءة. كما أنها غَطَّت موضوعات جديدة تمامًا فى بعض المجالات وعلى الأخص التَّطَوُّر الحديث للإسماعيلية. وقد اختصر دَفْترى هذه الدراسة فى كتاب جديد بعنوان *A Short History of the Ismailis,* Edinburgh 1998 . وفى إطار هذه الدراسات الأكاديمية يتولَّى دَفْترى الإشراف على سلسلة من الدراسات التى يُصْدرها «معهد الدراسات الإسماعيلية» Institute of Ismaili Studies الذى أُسِّس فى لندن تحت رعاية الأمير كريم الحسينى الأغاخان الرابع والإمام التاسع والأربعين للإسماعيليين النِّزاريين باسم Ismâ'ili Heritage Series .

وفى الوقت الذى يُوَجِّه فيه الإسماعيليون النِّزاريون (أتباع أغاخان) اهتمامهم إلى الدراسات الأكاديمية عن تاريخ الحركة الإسماعيلية، يهتم الفرع الآخر للحركة الإسماعيلية: المُسْتَعلية (البُهْرَة)- الذين يرأسهم الداعى المُطْلَق الثانى والخمسون السلطان محمد برهان الدين بن طاهر سيف الدين- بصيانة وترميم المنشآت الدينية التى خَلَّفها الفاطميون فى مصر واليمن وفلسطين.

وشَغَلَت العلاقَةُ بين الإسماعيليين والقَرامِطَة حَيِّزًا كبيرًا من اهتمام الباحثين، وكان أوَّل من تناولها de Goeje فى دراساته السابق الإشارة إليها ، ثم عَرَض لها فلاديمير إيفانوف فى مقال أوَّلى Ivanow, W., «Ismailis and Qarmatians», *JBBRAS* N. S. 16 (1940). pp. 43-85 ، وبعــده ويلفرد مادلونغ فى مقاليه Madelung, W.,

«Fatimiden und Bahrein-Qarmaten», *Der Islam* 34 (1959) , pp. 34-88 ; id., *EI*[2]
art. *Karmatî* III, pp. 687-92[١] ، وصمويل شتيرن فى مقاله Stern, S.M., «Isma'ilis
and Qarmatians», *L'élaboration de l'Islam*, Presses Universitaires de France ,
1961, pp. 99- 108 وأخيرًا فرهاد دَفترى فى مقاله Daftary, F., «A Major Schism in
the Early Isma'ili Movement», *SI* 77 (1993) , pp. 123- 139 .

وكتب ويلفرد إيڤانوف دليلًا للتراث الإسماعيلى *A Guide to Ismaili Literature,* 1933 ثم قدّم له طبعةً مزوّدَةً بالحواشى بعنوان *Ismaili Literature,* Teheran 1963 أصبحت قديمة الآن وحَلّ محلّها الدراسة الشاملة التى كتبها إسماعيل قربان بوناولا Poonawala, I.K., *Bibliography of Ismâ'ili Literature,* Maliburn, California 1977 .

وحتى وقت قريب كانت الفترة الفاطمية فى تاريخ إفريقية (تونس الحالية) تُمَثّل فراغًا كبيرًا فى الدراسات التاريخية. فقد كَتَبَ محمد طالبى تاريخ الدولة الأغلبية السابقة عليهم Talbi, M., *L'Emirat Aghlabide 184-296/800-909, Histoire Politique,* Paris- Adrien Maisonneuve 1966 ، كما كتب هادى روجيه إدريس تاريخ الزيريين الذين حكموا إفريقية بعد الفاطميين Idris, H.R., *La Berbérie Orientale sous les Zirides,* I-II, Paris-Adrien Maisonneuve 1962 ، ولم يُكْتَب تاريخ الفترة الفاطمية بتفصيل إلّا فى سنة ١٩٨١ مع دراسة فَرحات الدَّشْراوى «الخلافة الفاطمية فى المغرب» Dachraoui, F., *Le Califat fatimide au Maghreb 296-362/909-973. Histoire politique et institutions,* Tunis- STD 1981 ، وهى دراسة على نفس نمط دراسة هادى إدريس عن الزيريين ودراسة روبير برانشفيج Robert Brunschvig عن إفريقية فى

[١] صدرت ترجمة إنجليزية مراجعة لهذا المقال سنة ١٩٩٦ Madelung, W., «The Fatimids and the Qarmatis of Bahrayn» in Daftary, F. ed., *Mediaeval Ismaili History and Though,* Cambridge 1996, pp. 21-73 .

زمن الحفصيين والصادرة فى سنتى ١٩٤٠-١٩٤٧ ، تاريخ سياسى يتبعه معالجة للنظم والاقتصاد والمجتمع[١].

ولا شك أن أهم الدراسات التى تناولت تاريخ الفترة الإفريقية من التاريخ الفاطمى، إضافة إلى دراسات فرحات الدَّشْراوى، دراسات هانز هالم Heinz Halm التى بدأها بسلسلة من المقالات الهامة عن تاريخ الفاطميين قبل وبعد تأسيس دولتهم، ثم كتب مؤخرًا كتابه الهام Halm, H., *Das Reich des Mahdi. Der Aufstieg der Fatimiden,* Munchen 1991 الذى نقله إلى الإنجليزية سنة ١٩٩٦ مايكل بونر Michael Bonner بعنوان *The Empire of the Mahdi. The Rise of the Fatimids,* Leiden-Brill 1996 الذى يشير فيه، متتبعًا النتائج التى تَوَصَّل إليها كل من شتيرن Stern ومادلونج Madelung، إلى أصول الدولة الفاطمية فى المشرق قبل قيام ثورة أبى عبد الله الشيعى فى إفريقية والتى وَضَعَت نهايةً للدولة الأغلبية وأتت بالإمام المهدى ليُعْلِن قيام دولته فى إفريقية سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م، ثم يتناول فى بقية الكتاب فى أربعة فصول تاريخ الدولة الفاطمية فى إفريقية حتى انتقال الإمام المعز لدين الله إلى مصر سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م.

ودَرَسَ تاريخ الفاطميين فى بلاد الشام كلٌّ من خاشع المعاضيدى فى كتابه «الحياة السياسية فى بلاد الشام خلال العصر الفاطمى ٣٥٩-٥٦٧هـ/٩٦٩-١١٧١م»، بغداد ١٩٧٦؛ ودرويش النخيلى فى كتابه «فَتْح الفاطميين للشام فى مرحلته الأُولى من ٣٥٨هـ إلى ٣٦٢هـ (دراسة فى المصادر والمراجع)»، الإسكندرية ١٩٧٩؛ وكذلك أمينة البيطار فى كتابها «موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين حتى أواخر القرن

[١] توجد بعض دراسات عن بدايات الدولة الفاطمية فى إفريقية مثل دراسة لقبال موسى: دور قبيلة كتامة فى تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجرى، الجزائر ١٩٧٩؛ ودراسة عادلة على الحمد: قيام الدولة الفاطمية فى بلاد إفريقية والمغرب، الإسكندرية ١٩٨٠.

الخامس الهجرى ، دمشق ١٩٨٠ . وكتب أيضًا جاكوب ليف Jacob Lev مقالين هامين عن الوجود الفاطمى فى دمشق والشام فى نهاية القرن الرابع الهجرى Lev,Y., «Fatimid Policy towards Damascus (385/968-386/996): Military, Political and Social Aspects», *Jerusalem Studies in Arabic and Islam* III (1981- 82) pp. 165-183; id., «The Fatimids and the Ahdath of Damascus 386/996-411/1021», *Die Welt des Orients* 13 (1982) p.98-106 .

أما أهم وأحدث الدراسات المُوَثَّقة عن تاريخ الفاطميين فى بلاد الشام فكتاب تيارى بيانكى Thierry Bianquis عن دمشق وسوريا تحت السيطرة الفاطمية، وهو فى الأساس رسالة دكتوراه دولة مُقَدَّمَة إلى جامعة السُّرْبون Bianquis, Th., *Damas et la Syrie sous la domination fatimide (359-468/969-1076)*, I-II, Damas 1986-89 اعتمادًا على المصادر العربية.

وكَتَبَ عن تاريخ الدعوة الفاطمية فى بلاد اليمن حسين بن فَيْض الله الهَمْدانى وحسن سليمان محمود كتابهما «الصُّلَيْحيون والحركة الفاطمية فى اليمن (من سنة ٢٦٨هـ إلى سنة ٦٢٦هـ)»، القاهرة ١٩٥٥؛ وكاتب هذه السطور «تاريخ المذاهب الدينية فى بلاد اليمن حتى نهاية القرن السادس الهجرى»، القاهرة ١٩٨٨؛ كما كَتَبَ عَبّاس هَمْدانى A. Hamdani العديد من المقالات الهامة عن الدَّعْوَة الطَّيِّبِيّة؛ وأخيرًا سامر طرابلسى رسالة عن السيدة الحرة الصُّلَيحية Traboulsi, S., *Gender, Authority and Legitimacy in Medieval Yemen: the Case of Arwa bint Ahmad*, Beirut, AUB 1998 .

وإذا ما عُدْنا مرةً أخرى إلى مصر الفاطمية سنجد العديد من الدراسات المتخصِّصَة التى تناولت مسائل جزئية من التاريخ الفاطمى ، حيث كتب تيارى بيانكى مقالًا هامًا عن الفَتْح الفاطمى لمصر Bianquis Th., «La prise du pouvoir par le Fatimides en

Lev, Y., وكذلك ياكوب ليف فى مقالين ؛ Egypte», *An. Isl.* XI (1972, pp. 49-108
«The Fatimid Conquest af Egypt- Military, Political and Sosial Aspects», *Isr. Or. St.* IX (1979), pp. 315-328, id., «The Fatimid and Egypt 301-358/ 914-969», *Arabica* XXXV (1988), pp. 186-196 . وكان كارل هينريش بيكر Carl H. Becker قد كتب مقالاً مُطَوَّلاً عن فترة الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله اعتمادًا على تاريخ المُسَبِّحى ضمن القسم الأول من كتابه *Beiträge zur Geschichte Ägyptens unter dem Islam*, Strassburg 1903, pp. 32-80.

وفيما يخص دراسة «النُّظُم الفاطمية» نجد كتاب عطية مصطفى مُشَرَّفَة «نُظُم الحكم بمصر فى عصر الفاطميين»، القاهرة ١٩٤٨، والجزء الأول من كتاب عبد المنعم ماجد الهام «نُظُم الفاطميين ورُسُومُهم فى مصر»، القاهرة ١٩٥٣، وكتاب محمد حمدى المناوى «الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى»، القاهرة ١٩٧٠؛ ومقال ياكوب ليف Lev, Y., «The Fatimid Vizier Yaʿqub Ibn Killis and the Begining of the Fatimid Administration in Egypt», *Der Islam* 58 (1981), pp. 237-249 ، وكذلك دراسة ليلى سامى العماد al-Imad, L. S., *The Fatimid Vizierate 969-1172*, Berlin- Klaus Schwarz 1990 . ورغم كل هذه الدراسات فإننا مازلنا نفتقد إلى دراسة عن «الوزارة الفاطمية» تعادل دراسة دومنيك سورديل عن «الوزارة العباسية» Sourdel, D., *Le vizirat ʿabbâside de 749 à 936 (132 à 324 de l'hégire)*, I-II Damas 1959-60. وأخيرًا مقال تيارى بيانكى Bianquis, Th., «Le fonctionnement des Diwan financières d'après al-Musabbihi», *An. Isl.* XXVI (1992), pp. 47-61.

وكتب ويلفرد ماديلونغ مقالاً هامًا عن «الإمامة فى التعاليم الأولى للإسماعيلية» Madelung, W., «Das Imamat in der Frühen ismaʿilitischen Lehre», *Der Islam* 37 (1961), pp. 43-135، وبول ووكر مقالاً آخر عن «تتابع السلطة فى الخلافة الشيعية»

من الناحية العملية Walker, P.E., «Succession to Rule in the Shiite Caliphate», *JARCE* 32 (1995), pp. 239-64.

وكان أوَّلُ من دَرَس «رُسُوم الفاطميين فى مصر» المستشرق الروسى إنسترونزف فى دراسته الرائدة Inastrontsev,K. A., «Toryestvenni Viezd Fatimidiskikh khalifov», *Zap. vost. Otdyel.* Imp. Russ. Arckheol. Obshcestva XVll (St. Petersborg 1905) (بالروسية)، ثم ماريوس كانار فى مقالين هامين Canard, M., «Le cérémonial fatimide et le cérémonial byzantin- Essai de comparaison», *Byzantion* 21 (1951) , pp. 355-420; id., «La procession de Nouvel an chez les Fatimides», *AIEO* (1952), pp. 364-98 . وبعد ذلك وَصَف عبد المنعم ماجد رُسُوم الفاطميين فى الجزء الثانى من كتابه «نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر»، القاهرة ١٩٥٥. كما دَرَس كاتبُ هذه السطور رُسُوم الفاطميين من خلال إعادة بناء كتاب ابن الطُّوَير «نزهة المقلتين»، بيروت ١٩٩٢ المصدر الرئيس لهذه الأوصاف. وأخيرًا تناولت هذا الموضوع بولا ساندرز فى مقالين- نشرا فى الطبعة الجديدة لدائرة المعارف الإسلامية- الأول مادة *Marâsim* والثانى مادة *Mawâkib* ثم فى كتابها Sanders, P., *Ritual, Politics, and the City in Fatimid Cairo, Albany* SUNY Press 1994 .

وشَرَح برنارد لويس الاستراتيجية الاقتصادية للفاطميين فى مقال مازال يحتفظ بقيمته Lewis, B., «The Fatimid and the Route to India», *RFSE de l'Université d'Istanbul* XI (1949-50), pp. 50-54 ، كما كانت دراسة النُّظُم المالية والاقتصادية للفاطميين موضوع العديد من الدراسات لعل أوَّلَها دراسةُ راشد البَرّاوى «حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين»، القاهرة ١٩٤٨ ومما يُضْفى على الكتاب أهمية خاصة أن مؤلِّفه رجل اقتصاد معروف. ثم اهتم بهذه الدراسات بعد ذلك كلود كاهن Claude Cahen (١٩٠٩-١٩٩١) - خاصةً بعد اكتشاف مخطوطة كتاب «المِنْهاج» للمَخْزومى- ونجد تأثير ذلك فى مقالاته *Damân, Bayt al-Mâl, Kabâla* بدائرة

المعارف الإسلامية، ثم فى دراساته «Les marchands étrangers au Caire sous les Fatimides et les Ayyoubides», *CIHC*, pp. 97-101, id., *Makhzûmiyyat. Etudes sur l'histoire économique et financière de l'Egypte mediévale*, Leiden-Brill 1977 . وتُمَثِّلُ دراسات شلومو دوف جويتين Shelomo Dov Goitein (١٩٠٠-١٩٨٥) حول أوراق جنيزة القاهرة Cairo Geniza Documents أهمية كبيرة فى هذا المجال وعلى الأخص الجزء الأول من كتابه الهام *A Medetarranean Society : The Jewish Communities of the Arabe World as portrayed in the Documents of the Cairo Geniza*, I. Economic Foundations, University of California Press 1967 .

وكانت «الأزمات الاقتصادية» التى مرّت بها مصر– وخاصة فى النصف الأول من عصر الدولة الفاطمية– موضوع دراسات هامة، فكَتَبَ تيارى بيانكى Thierry Bianquis مقالًا عن أزمة القمح التى حدثت فى عهد الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله «Une crise frumentaire dans l'Egypte fatimide» *JESHO* XXIII (1980), pp. 67-101، وبواز شوشان دراسة عن سياسة القمح عند الفاطميين ووظيفة المحتسب Boaz Shoshan, «Fatimid Grain Policy and the Post of the Muhtasib», *IJMES* 13 (1981), pp. 181-189.، ودرس راضى داغفوس مظاهر الوضع الاقتصادى فى مصر فى منتصف القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى Daghfous, R., «Aspects de la situation économique de l'Egypte au milieu du Vᵉ siècle/milieu du XIᵉ siècle...», *CI* XXV (1977), pp. 23-50 ، كما كَتَبَ أحمد السَّيِّد الصّاوى أطروحة عن المجاعات التى مَرّت بمصر طوال العصر الفاطمى عنوانها «مجاعات مصر الفاطمية– أسباب ونتائج»، بيروت ١٩٨٨.

ودَرَسَ «التاريخ العسكرى للفاطميين ونظامهم الحربى» كلٌّ من كلود كاهن فى مقال هام اعتمادًا على كتاب «المِنْهاج» للمخزومى «L'Administration financière de

l'armée fatimide d'après al-Makhzûmî», *JESHO* XV (1972), pp.163-82 والسَّيِّد عبد العزيز سالم فى كتاب «تاريخ البحرية الإسلامية فى مصر والشام»، الجزء الأول- بيروت ١٩٧٢؛ وبشير إبراهيم بشير فى مقاله ، Beshir, B.I., «Fatimid Military Organization», *Der Islam* 55 (1978), pp. 36-56 ؛ وياكوب ليف Yacob Lev فى سلسلة من المقالات أهمها: «The Fatimid Army A.H. 358-427/768-1036 C.E: Military and Social Aspects», *Asian and African Studies* 14 (1980), pp. 165-92; id., «the Fatimid Navy. Byzantium and the Mediterranean Sea 909-1036 C.E./ 297-427 A.H.», *Byzantium* 54 (1984), pp. 220-252, id., «Army, Regime and Society in Fatimid Egypt 358-487/908-1094», *IJMES* 19 (1987), pp. 337-366، ثم جَمَعَ نتائج هذه الدراسات وأضاف إليها فى كتابه *State and Society in Fatimid Egypt*, Leiden 1991 ؛ كذلك كَتَبَ وليم هامبلين دراسة عن الجيش الفاطمى خلال الحرب الصليبية المبكرة Hamblin, W., *The Fatimid Army during the Early Crusades* 1984 ، ورضوان محمد رضوان البارودى رسالة عن «الجيش فى عصر الدولة الفاطمية» ، وعبد المنعم عبدالحميد سلطان رسالة أخرى عن «البحرية الإسلامية فى العصر الفاطمى» وهذه الدراسات الثلاثة الأخيرة لم تُنْشَر بعد.

وتناول جيرى باكاراك Jere L. Bacharach فى دراسة هامة انتشار العبيد الأفارقة فى الجيش فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى فى العراق ومصر «African Military Slaves in the Medieval Middle East : the Cases of Iraq (869-955) and Eygpt (868-1171)», *IJMES* 13 (1981), pp. 471-95 .

وكَتَبَ مُؤخَّرًا مايكل بريت Michael Brett مقالين عن نشأة نظام المماليك فى العصر الفاطمى، وعن تحليل معركة الرَّمْلَة الشهيرة بين الفاطميين والفِرِنْج «The Origins of the Mamluk Military System in the Fatimid Period»; id., «The Battles of

Ramla» المقالان فى كتاب Egypt and Syria in the Fatimid, Ayyubid and *Mamluk Eras*, Leuven 1995.

ودَرَس الانقسامات المذهبية للفاطميين فى مصر صمويل شتيرن فى مقال مُطَوَّل Stern, S.M., «The Succession to the Fatimid Imam al-Amir. The Claims of the Later Fatimids to the Imamate and the Rise of the Tayyibi Ismailism», *Oriens* 4 (1951), pp. 193-255 ، ومارشال هودجسون (١٩٢٢-١٩٦٨) فى كتابه Hodgson, M.G.S., *The Order of Assassins*, Netherland 1955 ؛ وكذلك برنارد لويس فى كتابه Lewis, B., *The Assassins. A Radical Sect in Islam*, New York 1968 ؛ وطه أحمد أشرف فى كتابه «دولة النّزارية أجداد أغاخان كما أسَّسها الحسن الصبَّاح (زعيم الإسماعيلية فى فارس)»، القاهرة ١٩٥٠؛ والسيد محمد العَزّاوى فى كتابه «فرقة النزارية، تعاليمها، ورجالها على ضوء المراجع الفارسية»، القاهرة ١٩٧٠؛ ومحمد السعيد جمال الدين فى كتابه «دولة الإسماعيلية فى إيران»، القاهرة ١٩٧٥.

وهناك دراساتٌ عديدة تناولت وَضْع أهل الذِّمّة فى مصر زمن الفاطميين ووَضْع اليهود بصفةٍ خاصة، أوَّلها دراسة جاكوب مان Jacob Mann السابق الإشارة إليها ، ثم دراسة ولتر فيشيل عن دور اليهود فى الحياتين الاقتصادية والسياسية فى مصر والعراق فى العصور الوسطى Fischel, W.J., *Jews in the Economic and Political Life of Mediaeval Islam*, N.Y. 1937 ، ودراسة مارك كوهن Cohen, M.R., *Jewish Self-Governement in Medieval Eygpt. The Origins of the Office of Head of the Jews, Ca. 1065-1126*, Princeton 1980 وكتابه «المجتمع اليهودى فى مصر الإسلامية فى العصور الوسطى» تل أبيب ١٩٨٧؛ إضافة إلى دراسة شلومو جويتين السابق الإشارة إليها؛ وكذلك دراسة قاسم عبده قاسم «اليهود فى مصر من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى»، القاهرة ١٩٨٧؛ وكتابى سَلّام شافعى محمود «أهل الذِّمّة فى مصر فى العصر

الفاطمى الأول»، القاهرة ١٩٩٥ و«أهل الذِّمّة فى مصر فى العصر الفاطمى الثانى والعصر الأيوبى (٤٦٧-٦٤٨هـ/١٠٧٤-١٢٥٠)»، القاهرة ١٩٨٢.

وكانت شخصيةُ الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمى السادس وفترة خلافته (٣٨٦-٤١١هـ/٩٩٦-١٠٢١م) موضوع دراسات متعدّدة، فبالإضافة إلى الترجمة التى خَصّصها له سلفستر دى ساسى فى كتابه *Exposé de la Religion de Druzes* التى مازالت تحتفظ ببعض قيمتها، كتب حديثًا محمد عبد الله عنان كتابه الرائد «الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية»، القاهرة ١٩٣٧، ١٩٥٩، وعبد المنعم ماجد «الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه»، القاهرة ١٩٥٨، كما كَتَبَ صادق أسعد Assad, S.A., *The Reigns of al- Hakim Bi Amr Allah (386/996-411/1021). A Political Study*, Beirut 1974 ، وجوزيف ڤان إس van Ess, J., *Chiliastische Erwartungen und die Versuchung der Gotlichkeit: Der Kalif al-Hâkim (375-411)*, Heddelburg 1977 وتيارى بيانكى Bianquis, Th. «al-Hâkim bi Amr Allâh ou la folie de l'unité chez un souverain fatimide», *Les Africains* XI (1978), pp. 107-133 ، وعرض ماريوس كانار بتركيز لفترة الحاكم فى مقاله Canard, M., *EI*[2] art. *al-Hâkim Bi Amr Allâh* III pp. 79- 84 ، كما دَرَس أخيرًا بول ووكر الدعوة الإسماعيلية فى عهد الحاكم فى مقال بعنوان Walker, P.E., «The Isma'ili *Da'wa* in the Reign of the Fatimid Caliph al-Hâkim», *JARCE* XXX (1992), pp. 161-182 .

وأوّل من دَرَسَ تاريخ التعليم والمؤسّسات الثقافية فى مصر الفاطمية خَطّاب عطية على فى كتابه «تاريخ التعليم فى العصر الفاطمى الأول»، القاهرة ١٩٥٠؛ ثم دَرَس يوسف العُشّ (١٩١١-١٩٦٧) فى دراسة رائدة عن تاريخ المكتبات فى العراق وسوريا ومصر فى العصور الوسطى Eche, Y., *Les bibliothéques publiques et sémi-publiques en Mésopotamie, en Syrie et en Egypte au Moyen-Age*, Damas-

IFD, 1967 خزانة الكتب الفاطمية ودار الحكمة؛ كما دَرَس رئيف جورج خورى خزانة كتب الفاطميين فى مقال مُطَوَّل Khoury, R. G., «Une description fantastique des fonds de la Bibliothèque *"Khizânat al-Kutub"* au Caire», *Proceedings of the Ninth Congress of the Union Europeénne des Arabisants et Islamisants,* Leiden 1981, pp. 123-140 ، وكاتب هذه السطور فى مقال بعنوان «خزانة كتب الفاطميين هل بقى منها شىء؟»، مجلة معهد المخطوطات العربية ٤٢/١(١٩٩٨)، ٧-٣٢. ودَرَسَ هانز هالم Heinz Halm من منظور تاريخى التقاليد الفكرية والتعليمية للفاطميين منذ قيام خلافتهم فى شمال إفريقيا وحتى تركُّزها فى الجامع الأزهر ودار الحكمة فى مصر الفاطمية Halm, H., *The Fatimids and their Traditions of Learning,* London 1997؛ كذلك فقد اهتم بول ووكر بدراسة المؤسَّسات التعليمية الفاطمية فى مقال عنوانه Walker, P.E., «Fatimid Institutions of Learning», *JARCE* XXXIV (1997), pp. 179-200. أما الأدب فى مصر زمن الفاطميين فقد درسه فى كتاب مازال يحتفظ بقيمته محمد كامل حسين بعنوان «فى أدب مصر الفاطمية»، القاهرة ١٩٥٠، ١٩٧٠.

وإذا كانت «الوثائق» (الأرشيف) تُمَثِّل أهميةً خاصة لدراسة التاريخ فإننا نَفْتَقِد للأسف الأرشيفات الخاصة بالفترة الإسلامية، فلا توجد لدينا أرشيفات كاملة للدولة الإسلامية إلّا ابتداءً من العصر العثمانى. ولكن لاشك أن المؤرخين وكُتّاب الحوليات قد اطَّلَعوا على وثائق كثيرة فى أثناء كتابتهم للتاريخ، وحَفِظَ لنا بعضهم نُسَخًا من هذه الوثائق التى فُقِدَت أصولُها اليوم. ومع ذلك فقد بقيت بعض الوثائق الأُصلية التى تعود إلى العصر الفاطمى ضمن وثائق ديرسانت كاترين وهى التى دَرَسَها صمويل شتيرن Stern, S.M., *Fatimid Decrees. Original Documents from the Fatimid Chancery,* London 1964 ، وضمن أوراق الجنيزة نَشَرَ بعضها شتيرن وجوفرى

خان وعلى الأخص فى كتابه Khan, G., *Arabic Legal and Administrative Documents in the Cambridge Genizah Collections,* Cambridge 1993 ؛ كما نَشَرَ كلود كاهن ومصطفى طاهر ويوسف راغب أقدم حُجَّة وَقْف وصلَت إلينا من العصر الفاطمى مؤرخة سنة ٥٥٤هـ Cahen, Cl., Ragib, Y.et Taher, M.A., «L'achat et le waqf d'un grand domaine égyptien par le vizir fatimide Talâ'i^c b. Ruzzik», *An. Isl.* XIV (1978), pp.59-126 . أما نُسَخ الوثائق التى حَفِظَها المؤرِّخون فقد اهتم بدراستها جمال الدين الشَّيَّال فى دراسته الهامة «مجموعة الوثائق الفاطمية»، القاهرة ١٩٥٨، ومحمد ماهر حمادة فى كتابه «الوثائق السياسية والإدارية للعهود الفاطمية والأتابكية والأيوبية- دراسة ونصوص»، بيروت ١٩٨٠.

وكان أول من درس ونشر «الكتابات التاريخية الأثرية» Inscriptions التى ترجع إلى العصر الفاطمى رائد علم الكتابات الأثرية المستشرق السويسرى ماكس فان بِرْشم Max van Berchem (١٨٦٣-١٩٢١) أولًا فى مقاله المطوَّل «Notes d'archéologie arabe. Monuments et inscriptions fatimides», *JA* 8ème série XVII (1891), pp. 411-495; XVIII (1891), pp. 46-86; XIX (1892), pp. 377-407 ثم فى كتابه الذى لا غنى عنه *Matériaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicum* Ière partie Egypte, *MMAFC* XIX (1894-1903) الذى أكمله جاستون ڤييت Wiet, G., *CIA* Ière partie Egypte II, MIFAO LII (1929-30) . كما نجد نَصّ الكتابات الأثرية سواء المنقوشة على الحجر أو على أية مواد أخرى فى كتاب Wiet, G., Combe, E. et Sauvaget, J., *Répertoire chronologique d'épigraphie arabe,* t. V-IX, Le Caire IFAO 1934-37.

أما الدراسات التى اهتمت بالعمارة الفاطمية ، سواء فى شمال أفريقيا أو فى مصر ، فكثيرةٌ جدًّا ، ولكن أشير منها هنا إلى ما كتبه كل من كريزويل Creswell, K.A.C.,

The Muslim Architecture of Egypt I. Ikhshids and Fatimids Oxford 1952 وأحمد فكرى: «مساجد القاهرة ومدارسها – العصر الفاطمى»، القاهرة ١٩٦٥، وفريد شافعى: «العمارة العربية فى مصر – عصر الولاة»، القاهرة ١٩٧٠ إضافة إلى المقالات المتعددة التى كتبها جوناسان بلوم Jonathan Bloom وكارولين ولیامز Caroline Williams ودوريس بهرين أبو سيف Doris Behrens-Abouseif فى مجلة *Muqarnas* التى تصدرها مُؤَسَّسَة الأغاخان عن دار نشر بريل (١٥ مجلدًا حتى الآن)، وكذلك ما كتبه يوسف راغب Y. Raghib عن المشاهد والمقابر التى تعود إلى العصر الفاطمى فى مجلات *REI* و*An. Isl* و*SI*.

وفى مجال الفنون أشير من بين الدراسات العديدة التى كتبت عن الفن الفاطمى إلى دراسات أوليج جرابار Oleg Grabar وريتشارد اتنجهاوزن Richard Ettinghausen، وزكى محمد حسن وحسن الباشا وجمال محرز وآنّا كونْتادينى Anna Contadini. وما كتبه جورج مارسيه عن الفن الفاطمى فى دائرة المعارف الإسلامية فى ذيل مادة «الفاطميين» Marçais, G., *EI*² art. *L'art fatimide* II, 882-84 . وبمناسبة الاحتفال بمائتى عام على الأفاق المشتركة بين مصر وفرنسا نَظَّمَت جامعة السُّرْبون تحت إشراف عالمة الفنون الإسلامية المعروفة ماريان باروكان Marianne Barrucand مؤتمرًا دوليًا عن مصر الفاطمية l'Egypte Fatimide (باريس ٢٨-٣٠ مايو ١٩٩٨) ستظهر أعماله فى مجلدين فى نهاية هذا العام، كما نُظِّم معرَضٌ بمعهد العالم العربى بباريس فى الفترة من أول مايو وحتى نهاية أغسطس سنة ١٩٩٨ حول «كنوز الفاطميين» وصدر عنه ألبوم مصور يحتوى على ٢٠٩ قطعة نادرة من الفن الفاطمى *Trésors Fatimides du Caire*, Paris-IMA 1998 ثم انتقل للعرض فى متحف الدولة فى ڤيينا فى الفترة من ١٦ نوفمبر ١٩٩٨ إلى ٢١ فبراير ١٩٩٩ وصدر عنه ألبوم آخر *Schätze der Kalifen Islamische Kunst Zur Fatimidenzeit*, SKIRA 1998 .

مَدْخَل
الإسماعيلية المُبَكِّرة

نشأت الحركة الإسماعيلية كحركة اجتماعية فلسفية سياسية معًا ويَدَّعى أصحابها إيصال نسبهم إلى السيدة فاطمة والإمام على بن أبى طالب ، وتساءل كاترمير منذ نحو قرن ونصف القرن فيما إذا كانت ادعاءاتهم هذه تستند على الحقيقة ، وهل ينتمون حقًّا إلى بيت على ، أم كانوا مجرد أدْعياء مَهَرة حالفهم الحظ ؟ وأكَّد أن هذا السؤال يجب أن يثار قبل كل شيء وأنه ذو أهمية قصوى مهما كانت نتيجة الإجابة عليه[1].

ولا شك أن الفترة المُبَكِّرَة فى تاريخ الحركة الإسماعيلية ، التى تعد فترة حضانة الحركة ، هى الجانب الأكثر غموضًا فى كل تاريخ الحركة ، وتمتد هذه الفترة من بدايات الحركة الإسماعيلية فى منتصف القرن الثانى الهجرى/الثامن الميلادى وحتى إعلان الخلافة الفاطمية فى إفريقية سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م ، أى نحو قرن ونصف القرن .

وترجع صعوبات دراسة الحركة الإسماعيلية المُبَكِّرة إلى ندرة المعلومات الدقيقة عن التَشيُّع خلال الفترة العبّاسية الأولى ، عندما لجأت غالبية فرق الشيعة الاثنا عشرية والإسماعيلية ، وهى فى طور تكوينها ، إلى التَّقِيَّة والعمل السِّرِّى .

ويبدأ تاريخ الإسماعيلية كحركة مستقلة عندما نشأ الجَدَلُ حول خلافة الإمام جعفر الصّادق ، الذى توفى عام ١٤٨هـ/٧٦٥م . وتشير أغلب المصادر المتاحة إلى أن جعفر الصّادِق عَيَّنَ ابنه إسماعيل خليفةً له بقاعدة « النَّصّ » . ولا يوجد أى شك حول

---

[1] Quatremère, M., «Memoires historiques sur la dynastie des khalifes fatimites», *JA* 3^{me} série t. II (1836), p. 101.

شرعية هذا التعيين الذى تعتمد عليه كل ادعاءات الإسماعيلية التى استمدت اسمها من نسبتها إلى إسماعيل بن جعفر الصّادق[١].

ولما كان إسماعيل بن جعفرَ الصّادق قد توفى فى حياة أبيه ، نحو سنة ١٤٥هـ/٧٦١م[٢]، فقد ذهبت الفرقة التى عُرِفَتَ فيما بعد بالاثنى عشرية ، نسبة إلى أئمتهم الذين كَوَّنوا سلسلة من اثنى عشر إمامًا تبدأ بعلى بن أبى طالب وتنتهى بمحمد بن الحسن العسكرى الذى اختفى وينتظرون عودته ، ذهبت إلى أن موسى الكاظم ، الابن الثانى لجعفر الصّادق ، هو الإمام السابع فى سلسلة الأئمة الاثنى عشر[٣].

وقد أمسك موسى الكاظم ، مثل والده ، عن أى نشاط سياسى ، فقد كان أحد العلويين الذين رفضوا مساندة الحسين بن على صاحب فَخّ ، الذى ثار فى الحجاز خلال خلافة الهادى القصيرة (١٦٩-١٧٠هـ/٧٨٥هـ-٧٨٩م) ، وقُتِل فى فَخّ قرب مكة مع عدد آخر من العلويين سنة ١٦٩هـ/٧٨٦م[٤] .

وعاش موسى الكاظم بعد ذلك حتى توفى مسمومًا فى بغداد سنة ١٨٣هـ/٧٩٩م فى أغلب الظن بناءً على أوامر الخليفة هارون الرشيد[٥] .

وهناك فرقتان ساندتا إمامة إسماعيل بن جعفر الصّادِق وتعد البدايات الأولى للحركة الإسماعيلية . ظهرت هاتان الفرقتان عند وفاة إسماعيل وافترقت عن بقية الإمامية فقط بعد وفاة جعفر الصّادق سنة ١٤٨هـ/٧٦٥م .

---

١ راجع ، Daftary, *F., The Ismaʿilis their History and Doctrines,* Cambridge 1990, pp. 91- 93.

٢ الصفدى : الوافى بالوفيات ٩ : ١٠١-١٠٤ .

٣ Nasr,S.H.,*EI²* art. *Ithnāʿashriyya* IV, pp. 289-91 ; Kohlberg, E. *EI²* art. *Mûsâ al-Kâzim* VII, pp. 645-648 .

٤ الصفـدى : الوافى ١٢ : ٤٥٣-٥٤، الفاسى : العقد الثمين فى تاريخ البلدى الأمين ٤: ١٩٦-٢٠٠، Veccia Vaglieri, L., *EI²* art. *al-Husayn b.* ʿAli *Sâhib fakhkh* III pp. 636-38, 200 .

٥ الذهبى : العبر فى خبر من غبر : ٢٨٧ .

الفرقة الأولى تُنْكِر وفاة إسماعيل فى حياة أبيه وتؤكّد أنه الإمام الحقيقى بعد جعفر الصّادِق ، وتعتقد أنه لم يمت وأنه سيعود كـ «مَهْدى» أو « قائم » . وتُدافع هذه الفرقة عن ادعاءاتها بأن جعفر الصّادِق إمامٌ لا ينطق سوى الحق ، وأنه أعلن وفاة ولده إسماعيل تَقِيّة فحسب لحمايته ، وكَتْم أمره ، خوفًا على سلامته . وقد سَمّى النَّوْبَخْتى والقُمّى هذه الفرقة بـ «الإسماعيلية الخالصة»[١] ، وأطلق عليها فيما بعد الشَّهرِسْتانى « الإسماعيلية الواقفة »[٢].

أما الفرقة الثانية وتُعْرَف بـ « المباركية » فتؤكد وفاة إسماعيل فى حياة أبيه وتعترف بإمامة محمد بن إسماعيل وتعتبره صاحب الحق الشرعى فى خلافة إسماعيل ، وترى أن جعفر الصّادِق قد عَيَّنه بنفسه فى مكان أبيه بعد وفاته .

وتبعًا لهؤلاء فإن الإمامة لا ينبغى لها أن تنتقل من أخ إلى أخيه بعد انتقالها من الحسن إلى الحسين وأنها يجب أن تستمر فى الأعقاب ، وأن النَّصّ لا يرجع القهقرى ، وأن الفائدة منه بقاء الإمامة فى أولاد المنصوص عليه . وهذا هو سبب رفضهم لادعاءات موسى الكاظم وبقية إخوة إسماعيل الآخرين[٣].

أمضى محمد بن إسماعيل الفترة الأخيرة من حياته فى خوزِسْتان جنوب غرب فارس ، حيث التفّ حوله بعض الأتباع . ورغم أن التاريخ الصحيح لوفاته غير معروف لنا ، فغالبًا ما توفى نحو سنة ١٧٩هـ/٧٩٦م أثناء خلافة الخليفة العَبّاسى هارون الرشيد .

---

[١] النوبختى : فرق الشيعة ٥٧–٨٥ ؛ القمى : المقالات والفرق ٨٠ ؛ Daftary, F., *op.cit.*, p. 90-95 .

[٢] الشهرستانى : الملل والنحل ١ : ١٤٩ .

[٣] النوبختى : فرق الشيعة ٥٨ ، ٦٢؛ القمى : المقالات ٨٠–٨١ ، ٨٤؛ عماد الدين إدريس : عيون الأخبار ٥: ١٦٠–١٦١، وفيه نقلًا عن جعفر الصادق : « الإمامة فى العقب تجرى فى واحد عن واحد لا ترجع القهقرى ولا تعود إلى الوراء » . وانظر كذلك Stern, S., «Heterodox Ismaʿilism at the time of al-Muʿizz», *BSOAS* XVII (1955), p. 26; Daftary, F., *op.cit.*, p. 96 .

وعند وفاة محمد بن إسماعيل انقسمت الفرقة « المباركية » قسمين : الأغلبية – الذين تذكر المصادر الإمامية أنهم الأسلاف المباشرون للقَرامِطَة – رفضوا قبول وفاة محمد بن إسماعيل واعتقدوا أنه حَىٌ وأنه سيعود فى المستقبل القريب كمهدى أو قائم ، ويعتبرون محمدًا إمامهم السابع والأخير . وفريقٌ ثان أقلّ حجمًا يتّسم بالغموض اعترف أصحابه بوفاة محمد بن إسماعيل وجعلوا الإمامة فى ذرّيته . وسيكون رأى هذا الفريق هو الاختيار الرسمى للإمامة الذى سيتبناه الإمام عبد الله (المَهْدى) عندما يصبح الرئيس المركزى للحركة الإسماعيلية فى سَلَمِيَّة ، والذى سيقود إلى الانشقاق الذى سيحدث عام ٢٨٦هـ/٨٩٩م[١].

ويبدو أنه خلال هذه الفترة الغامضة من تاريخ الحركة والتى امتدت حوالى القرن ، عمل فريقٌ من قيادات الحركة بصبر وسريّة من أجل خَلْق حركة إسماعيلية متماسكة وديناميكية . اتّصَل هؤلاء القادة فى الأساس بأحد الفرق الإسماعيلية الأولى ، ومن الممكن أن يكونوا أئمة أحد الفرعين اللذين انقسم إليهم المباركية عقب وفاة محمد بن إسماعيل . على أى حال فقد التزم هؤلاء الأئمة مبدأ « التَّقِيَّة » لحماية أنفسهم ، وتركّز نشاطهم فى مناطق الأهْواز وعَسْكَر مكرم بخوزِسْتان وعملوا لفترة قصيرة من البَصْرَة قبل أن يستقرّوا نهائيًا فى سَلَمْيَة[٢] بالشام التى أصبحت مقرّهم ومركز رئاستهم حتى عام ٢٨٩هـ/٩٠٢م .

وحَقَّقَ النَّشَاطُ المُكَثّف لهؤلاء القادة الذين تحمّلوا – فى أقصى درجات السرية – مسئولية إعادة تنظيم الحركة الإسماعيلية نجاحًا كبيرًا نحو سنة ٢٦٠هـ/٨٧٣م ، عندما بدأ العديدُ من الدُّعاة فى الظهور فى العراق ومناطق أخرى ونجحوا فى ضَمِّ عدد كبير من

---

١ Daftary, F., «A Major Schism in the Early Ismâ'ili Movement» , *SI* 77 (1993) , pp. 127-28.

٢ عن هذه المدينة وأهميتها فى تاريخ الحركة الإسماعيلية راجع : Daftary, F., *EI*² art . *Salamiyya* VIII , pp. 952-55; Hakm, H., «Les Fatamides à Salamya», *REI* LIV (1986), pp. 133-44 .

المستجيبين . وهكذا وَجَد القادة أن الوقت مناسب لإعلان « مهدية » محمد بن إسماعيل ، وهو اعتقاد غالبية الفرقة المباركية التى تُمَثِّل الكيان الأساسى للإسماعيلية المُبَكِّرة . ويَتَّفِقُ هذا الاعتقاد مع اعتقاد « الإسماعيلية الخالصة » الذين كانوا ينتظرون ظهور إمامهم المهدى إسماعيل والذى كان من السهولة أن يحلَّ محله اسم ابنه محمد بن إسماعيل ، حيث اعترف الكثير من الإسماعيليين الأوائل بإمامة محمد بن إسماعيل الذى قادهم بعد أبيه إسماعيل والإمام جعفر الصّادق[1] .

فى ظِلِّ هذه الملابسات نُظِّمَت « الدَّعْوَة » فى العراق سنة ٢٦١هـ / ٨٧٤م ، وفى نفس هذه السنة دَخَل حَمْدان قَرْمَط فى المذهب الإسماعيلى على يد الداعى حسين الأهْوازى الذى أُرْسِل من سَلَمِيَّة لنَشْر الدَّعْوَة فى جنوب العراق [2]. وتولّى حَمْدان قَرْمَط أمْر الدَّعْوَة فى مسقط رأسه سواد الكوفة ومناطق أخرى جنوب العراق ، وعاونه فى ذلك زوج أخته عَبْدان – الذى قدم من الأهْواز – وقام بنَشْر الدَّعْوَة فى جنوب فارس حيث نجح فى تحويل وتدريب أبى سعيد الجَنّابى . وفى نفس هذه الفترة أخذت الدَّعْوَة الإسماعيلية فى الظهور فى مواضع متعدِّدة فى وسط وشمال غرب فارس وإقليم الجبال ، حيث استقرّت الدَّعْوَة فى الرَّىّ وانتشرت فى العقود الثلاثة التالية فى خُراسان وما وراء النهر[3].

ظُهُـــورُ القرامِـــطَة

وهكذا مَثَّلَت الإسماعيلية بين منتصف القرن الثالث الهجرى/التاسع الميلادى وسنة ٢٨٦هـ/٨٩٩م حركة مُوحَّدةً تُبَشِّر بقُرْب ظهور محمد بن إسماعيل كمهدى أو قائم .

---

[1] Daftray, F., *op.cit.*, p. 129.

[2] النويرى : نهاية الأرب ٢٥ : ١٨٩ ؛ ابن أيبك : كنز الدرر ٦ : ٤٤ ؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا ١ : ١٥١ .

[3] نفسه ٢٥ : ٢٣٣ .

ونتيجةً للنشاط المُكَثَّف لحَمْدان قَرْمَط وأتباعه ابتداء من عام ٢٧٨هـ/٨٩١م بدأت الحكومة العَبّاسية فى بَغْداد تُدْرِك الأخطار الثورية للحركة الإسماعيلية ، وتشير المصادر المُبَكِّرَة إلى أن القرامطة هم الذين كانوا يقودون هذه الحركة .

كان لـحَمْدان قَرْمَط مراسلات منتظمة مع رئاسة الدَّعْوة فى سَلَمِيَّة ، وحَدَث فى سنة ٢٨٦هـ / ٨٩٩ م فور أن تولَّى عبد الله بن الحسين (الإمام المهدى فيما بعد) رئاسة الدَّعْوة المركزية أن لاحظ حَمْدان بعض التغييرات فى التعليمات المكتوبة التى كانت تُرسَل إليه من سَلَمِيَّة . أزعجت هذه التغييرات حَمْدان لأنها تعكس بجلاء تَحَوُّلات ذات مغزى فيما يتعلَّق باعتقاد الإمامة الذى يدعمه حتى الآن الإسماعيليون[١] .

وحتى يتأكَّد من حقيقة هذا التعديل العقائدى أرسل حَمْدان معاونه المُقَرَّب عَبْدان إلى سَلَمِيَّة . كان هذا أوَّل اتصال شخصى مباشر بين قادة الحركة فى العراق ورئاسة الحركة المركزية . وفور وصول عَبْدان إلى سَلَمِيَّة أُعْلِم بأن عبد الله (المَهْدى) أصبح رئيسًا للحركة فى أعقاب وفاة الرئيس السابق . وفى خلال لقائه مع عبد الله الذى ناقش فيه العديد من المسائل العقائدية الأساسية ، علم عَبْدان بأنه بدلًا من إعلان مهدية محمد بن إسماعيل التى كانت الدَّعْوَة تُمَهِّد لها ، فإن زعيم الحركة الجديد يدعو الآن لإمامته هو وإمامة أسلافه الزُّعَماء المركزيين الذين نَظَّموا وقادوا الحركة الإسماعيلية . وقد أمدَّنا بتفاصيل هذا اللقاء وهذه التغييرات الجذرية فى طبيعة الحركة الشريف أخو محسن الذى يبدو أنه تمكَّن من الاطلاع على بعض المصادر القرمطية إضافة إلى رسالة ابن رِزام مصدره المعتاد[٢] .

وفور أن تَلَقَّى حَمْدان قَرْمَط من عَبْدان ما يفيد التغييرات العقائدية التى تَبَنَّاها عبد الله (المَهْدى) قَرَّر قَطْعَ صلته بالرئاسة المركزية للحركة ورئاسة الدعوة فى سَلَمِيَّة ،

---

[١] النويرى : نهاية الأرب ٢٥ : ٢٣٢ .

[٢] نفسه ٢٥ : ٢٢٩-٢٣٠ ؛ Deftary, F., *op.cit.*, p 134.

وطلب إلى أتباعه من الدُّعاة تعليق نشاطات الدَّعْوة كل فى عمله ، وبعد فترة قليلة اختفى حَمْدان ولم نعد نَسْمَع عنه بعد ذلك ، كما قُتِل عَبْدان بناء على تحريض من ذكْرَوَيْه بن مَهْراوَيْه أحد دعاة غرب العراق الذى استمر ولاؤه لرئاسة الدعوة المركزية[١].

حتى هذا الوقت وقبل التغييرات الجزرية التى أدخلها عبد الله (المَهْدى) ، كان رؤساءُ الدَّعْوَة يتولَّون مرتبة « الحُجَّة » أو النُّوَّاب الكاملين للإمام الغائب ، وكان الإسماعيليون (القَرامِطَة) ينظرون إليهم على هذا الأساس . أىّ أن الرؤساء المركزيين للحركة كانوا فى أوَّل الأمر يعمل كل منهم كحُجَّة للإمام الغائب محمد بن إسماعيل ويقيمون الدَّعْوة باسمه ، وكانوا يقومون بذلك باعتباره نَوْعًا من « التَّقِيَّة » . وبذلك أبدلت التغييرات التى أحدثها عبد الله (المَهْدى) وضعيةُ هؤلاء الرؤساء من مرتبة « الحُجَج » إلى مرتبة « الأئمة »[٢].

وهكذا عَرَفَت الحركة الإسماعيلية أوَّل انشقاق خطير فى بنائها أدَّى إلى انقسامها إلى حزبين متنافسين هما اللذان أصبحا يُعْرَفان فيما بعد بـ « الإسماعيلية الفاطمية » و« القَرامِطَة » ، وهو أوَّل أكبر انقسام عرفته الحركة سيكون له أخطر العواقب فى تاريخ الإسماعيلية .

---

١ نفسه ٢٥ : ٢٣١-٢٣٢ *Ibid.* p. 134 .

٢ Daftary , F., *op.cit.*, p. 135 .

نَسَبُ الفاطميين

رأينا كيف أننا لا نعرف أى شيء عن تاريخ الإسماعيلية بين نقطة انطلاقها وحتى ظهورها فى أواسط القرن الثالث الهجرى/التاسع الميلادى كتنظيم ثورى سِرّى يعتمد على حركة نشطة من الدُّعاة الذين انتشروا فى مختلف أقطار العالم الإسلامى .

فتبعًا للرواية الفاطمية الإسماعيلية ، كما أوردها الداعى عماد الدين إدريس فى نهاية القرن التاسع الهجرى/الخامس عشر الميلادى سَبَقَ عبد الله المهدى ، مُؤَسِّس الخلافَة الفاطمية فى إفريقية سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م ، سلسلةٌ من « الأئمة المستورين » من أبناء محمد بن إسماعيل ، امتنعت المصادر الإسماعيلية عن ذكر أسمائهم[١] . فالأئمة الذين يَصِلون المهدى عبد الله بمحمد بن إسماعيل أشخاصٌ عاشوا فى ظِلِّ ظروفٍ يكتنفها الكثير من الغموض ، وحتى المصادر الإسماعيلية المُبَكِّرة التى كشِفَت حديثًا لا تذكر أسماءهم . كما أن الخلفاء الفاطميين ، فيما بعد ، لم يحاولوا قَطّ إبطال الحَمَلات التى شَنَّها ضدهم أعداؤهم أو الرَّدّ عليها بسبب إصرارهم على عدم إذاعة أى نَسَب رسمى لأصولهم اعتمادًا على مبدأ معروف فى دوائر الشيعة هو « عدم كَشْف أولئك الذين سترهم الله » ، حتى إن الخليفة الفاطمى الرابع المُعِزّ لدين الله عندما دَخَلَ إلى مصر ولقيه أشرافُها وسألوه عن نَسَبِه ، اكتفى بأن سَلَّ لهم نصف سيفه وقال : هذا نَسَبى ، ونَثَرَ عليهم ذَهَبًا كثيرًا وقال : هذا حَسَبى[٢] .

---

[١] عماد الدين إدريس : عيون الأخبار وفنون الآثار : ٤: ٣٥١-٤٠٤ .

[٢] ابن ظافر : أخبار الدول المنقطعة ٢٧-٢٨ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣ : ٨٢ ؛ ابن أيبك الدوادارى : كنز الدرر ٦: ١٤٦-١٤٧؛ النويرى : نهاية ٢٨ : ١٤٢ ؛ الصفدى : الوافى بالوفيات ١٧ : ٤٢ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٤: ٧٧.

وقد كذَّب عماد الدين إدريس هذه الرواية (تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ٧٢٧-٧٢٨) .

كما أن ولده العزيز نزار عندما كَتَب إلى خليفة الأندلس كتابًا يسبه ويهجوه فيه جاءه رده عليه : « أما بعد : فإنك[١] عَرَفْتنا فهَجَوتَنا ، ولو عرفناك لأجبناك ، والسلام » بسبب عدم إفصاح الفاطميين عن أىّ نَسَبٍ رسمى لأصولهم .

كان الإمام (الخليفة) الفاطمى الأول عبد الله المهدى الوحيد الذى قام بمحاولة لكَشْف النَّسَب الفاطمى . ففى الرسالة التى بعث بها المهدى إلى الطائفة الإسماعيلية فى اليمن ، والتى أوردها من ذاكرته فى فترة تالية جعفر بن منصور اليمن فى كتاب « الفرائض وحدود الدين » شَرَحَ المهدى نَسَبَ الخلفاء الفاطميين معلنًا أسماء الأئمة المستورين[٢]، وهى محاولة يمكن أن نضيفها إلى الغموض الذى ما زال قائمًا حول هذه القضية .

فهذه الرسالة (التى كتبت فى فترة ما بين سنتى ٢٩٧هـ/٩١٠م و٣٢٢هـ/٩٣٤م) تثير مشكلات ثلاثة هامة هى : هل كان جَدُّ الفاطميين الأعلى حقيقة هو إسماعيل أم أخوه الأكبر عبد الله ؟ ثم هل ينتسب المهدى إلى أسرة النبى وآل البيت أم إلى مَيْمُون القَدّاح ؟ وأخيرًا هل كان المَهْدى هو الإمام الشرعى أم كان بديلًا تَنَكّر فى هيئة الإمام عندما داهم الموتُ فجأة الإمام الحقيقى ؟

ففى هذه الرسالة يُنْكِر المهدى اتصال نسبه إلى إسماعيل بن جعفر الصّادق ويُقَرِّر أن جَدَّه الأعلى هو أخو إسماعيل الأكبر عبد الله ، وأن جعفر الصّادق عَيَّنَ عبد الله لا إسماعيل كوريث شرعى له[٣]. وبذلك يفاجأ المرء بأن مهندس الحركة الإسماعيلية لم يكن إسماعيليًا على الإطلاق !

ويَتّفق ما جاء فى رسالة المَهْدى مع ما جاء فى بعض كتب الأنساب والفِرَق ، وإن اختلفت فى التفصيلات . فيذكر ابن حَزْم أن بنى عُبَيْد ، ولاة مصر الآن ، قد ادَّعوا فى

---

[١] الثعالبى : يتيمة الدهر (القاهرة ١٩٤٧) ١ : ٢٩٤ ؛ ابن خلكان وفيات الأعيان ٥ : ٣٧٢ .

[٢] فى نسب الخلفاء الفاطميين ، تقديم حسين الهمدانى ، القاهرة-الجامعة الأمريكية ١٩٥٨ .

[٣] نفسه .

أول أمرهم إلى عبد الله بن جعفر بن محمد ..، فلما صَحَّ عندهم أن عبد الله هذا لم يُعْقب إلّا ابنة واحدة [اسمها فاطمة] تركوه وانتموا إلى إسماعيل بن جعفر بن محمد »[١]. ولكن مُصْعَبَ بن الزُّبير – وقد كتب كتابه قبل قيام الخلافة الفاطمية بنحو ستين عامًا – يذكر أن عبد الله وإسماعيل ابنا جعفر الصّادق من زوجته فاطمة بنت الحسين بن الحسن بن على بن أبى طالب[٢]، وأن لعبد الله ولدًا أو أولادًا، لم يذكر أسماءهم، لأم ولد[٣].

كذلك يذهب النَّوْبَختي والقُمّى إلى أن عبد الله لم يترك أولادًا بعد وفاته، ولكن القُمّى يذكر فى موضع آخر أن عبد الله وُلِدَ له ولدٌ من أم ولد اسمه محمد، وأنه أرسله إلى جهة اليمن، وانتقل بعد وفاة والده إلى خُراسان وأنه هو الإمام بعد أبيه وهو « القائم » . وأن هذه الفرقة صغيرة يوجد بعضها فى العراق واليمن ولكن أغلبها يوجد فى خُراسان. كما توجد أيضًا شِرْذِمَة تعتقد أن الإمامة باقية فى ذرية عبد الله حتى يوم القيامة وأن عبد الله مات وخَلَّف بعده ولدًا وأن الإمامة فى ولده[٤]. وهذا يُثْبِتَ على الأقل أن المَهْدى لم يكن الوحيد الذى يَدَّعى أن لعبد الله ذرية من الذكور.

أما الرِّواية المضادة للرواية الفاطمية فمصدرها هو أبو عبد الله محمد بن على بن رِزام الطائى الكوفى الذى كتب مؤلَّفه فى مطلع القرن الرابع / العاشر. وقد ضَاع نَصُّ ابن رِزام الأصلى ولكنه حُفِظَ فى بعض المؤلَّفاتِ المتأخِّرة وعلى الأخص عند ابن النديم فى « الفهرست »[٥] والمقريزى فى « الاتعاظ »[٦]؛ والشريف أخو محسن أبو الحسين محمد بن

---

[١] ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام هارون ، ٥٩ ؛ مصعب بن الزبير : نسب قريش ، تحقيق ا . ليفى بروفنسال ، ٦٤.

[٢] مصعب : نسب قريش ٦٣ .

[٣] نفسه ٦٤ .

[٤] النوبختى : فرق الشيعة ٦٥-٦٦ ؛ القمى : المقالات ٨٧ : ٨٨، ١٦٣-١٦٤ .

[٥] ابن النديم : الفهرست ، طهران ١٩٧١ ، ٢٣٨-٢٣٩ .

[٦] المقريزى : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ١ : ٢٢-٢٩ ، الخطط ١ : ٢٤٨ ، المقفى ، ٤ : ٥٤٤-٥٥١.

على الدمشقى المتوفى سنة ٣٧٥هـ/٩٨٥م ، وقد فُقِد كذلك نَصُّ أخى محسن وإن حفظه لنا النويرى فى « نهاية الأرب » وابن أَيْبك فى « كنز الدُّرر »[1] والمقريزى[2]، الذى يُعَدّ أوَّل من ذكر أن ابن رِزام كان مصدر أخى محسن .

وأهم ما يميِّز هذه الرواية هو الزعم بأن شخصًا غير علوى يُدْعى عبد الله بن مَيْمون القَدَّاح هو المؤسِّس الحقيقى للحركة الإسماعيلية وأيضًا الجد الأعلى للخلفاء الفاطميين . ومَيْمون القدَّاح كان مولى لبنى مَخْزوم ومن أهل مكة ، وهو تلميذ للإمام محمد الباقر وروى عنه العديد من الأحاديث . أما ابنه عبد الله ، الذى توفى خلال النصف الثانى للقرن الثانى الهجرى/الثامن الميلادى ، فقد كان راوية لجعفر الصّادق وهو من العلماء المعتبرين عند الشيعة الإمامية ، لذلك فإن « المَحْضَر » الذى أصدره العَبّاسيون فى سنة ٤٠٢هـ / ١٠١١م بالطَّعْن فى نَسَب الفاطميين ووَقَّع عليه الشريف المرتضى لم يرد فيه ذكر لمَيْمون هذا وابنه .

ولكن لماذا اختار ابن رِزام عبد الله بن مَيْمون القَدَّاح الذى عاش فى القرن الثانى الهجرى/ الثامن الميلادى ليعتبره مهندس حركة ظهرت فى القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى بعد عدة عقود من وفاته . إن الرجوع إلى رسالة المهدى التى أرسلها إلى جهة اليمن يُمَكِّننا من إيجاد إجابة مقبولة لهذا التساؤل . فتذكر الرسالة أن جعفر الصّادق خَلَّف أربعة أولاد : عبد الله وإسماعيل وموسى ومحمد ، صاحب الحق فيهم هو عبد الله ابن جعفر[3]. ولما أراد الأئمة أولاد جعفر « إحياء دعوة الحق » خافوا من نفاق المنافقين وحفظوا شخصياتهم بعيدًا عن اضطهاد العَبّاسيين ؛ فتسمَّوا بغير أسمائهم وأطلقوا على أنفسهم مُبارك ومَيْمون وسعيد للفأل الحسن فى هذه الأسماء[4]. وهى إشارة واضحة إلى

---

[1] النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ٢٥ : ١٨٩-٢٣٣، ٢٣٥-٢٤١، ٢٤٦-٣١١؛ ابن أيبك : كنز الدرر وجامع الغرر ٦ : ٦-٢١ .

[2] المقريزى : اتعاظ : ١ ٢٢ .

[3] المهدى عبد الله : فى نسب الخلفاء الفاطميين ٩ .

[4] نفسه ١٠ .

مبدأ « التَّقِيَّة » عند الشيعة [1]. فلَقَب مَيْمُون الذى أُطْلِقَ على أحد أولاد جعفر الصّادق هو الذى قاد إلى هذا الخلط.

ويضيف المَهْدى فى رسالته أنه أشير بالإمامة إلى عبد الله الذى تسَمَّى بإسماعيل، ودعا إلى أن المهدى سيكون محمد بن إسماعيل. فكان كلما قام منهم إمامٌ تسمَّى بمحمد إلى أن يظهر صاحب الظهور الذى هو محمد بن إسماعيل فتزول التقية.

وتبعًا لمبدأ التَّقِيَّة فى كَتْم أسماء الأئمة يكون تسلسل الأئمة المستورين كما أورده المهدى عبد الله فى رسالته كالآتى : الإمام عبد الله الأفْطَح بن جعفر الصّادق، ثم بعده عبد الله بن عبد الله الأكبر، ثم أحمدِ بن عبد الله، ثم محمد بن أحمد، وقد تسمى كل واحد من هؤلاء بمحمد خلا عبد الله بن جعفر فقد تسمى بإسماعيل[2]. « والإشارة فى الدعوة إلى محمد بن إسماعيل، والمراد بإسماعيل عبد الله »[4].

ويشير جعفر بن منصور اليمن، الذى حفظ لنا هذه الرسالة فى كتاب « الفرائض وحدود الدين »، إلى أن الإمام محمد أبا الشَّلَغْلَع بن أحمد أوصى إلى ابن أخيه، وأعطاه باختيار الله أمره كله، وتسمَّى سعيد بن الحسين وصارت الدَّعْوَة إليه زمانًا. فلما آن وقت الظهور أظهر مقامه وأظهر اسم عبد الله، وظهر معه كذلك أبو القاسم محمد « فصَحَّت الإشارة إلى القائم بن المهدى : محمد بن عبد الله أبى القاسم الإمام المنتظر لعِزّ دولة الدين والجهاد برايات المؤمنين »[5].

وعندما نَسَبَ المهدى نفسه فى الرسالة قال : « والولى الآن (يعنى نفسه) على بن

---

[1] فقد روى عن جعفر الصّادق قوله : « التقية دينى ودين أبائى، ومن لا تقية له فلا دين له ». (نفسه ٩).

[2] نفسه ١٠.

[3] المهدى عبد الله : المصدر السابق.

[4] نفسه ١٠.

[5] نفسه ١١.

الحسين بن على بن أحمد بن عبد الله بن عبد الله ثانية بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ... واسمه الظاهر عبد الله بن محمد ، لأنه ابن محمد بن أحمد فى الباطن »[١] .

نخرج من ذلك إلى أن محمدًا أبا المهدى الباطن ليس مثل المَهْدى من نَسْل عبد الله ابن جعفر الصّادق (الذى تسمّى بإسماعيل) ، وإنما من نسل أخيه الثانى إسماعيل (الذى تسمى بمبارك) ، وعلى وجه الدقة هو ابن حفيد إسماعيل[٢].

وهذا يعنى أن قائمة الأئمة المستورين التى ذكرها المَهْدى تنتسب فى الحقيقة إلى فرعين متوازيين لأبناء جعفر الصّادق . فمحمد عم المَهْدى ليس بمعنى أنه شقيق والده ، وإنما بإرجاع نسبهما إلى الأخوين : عبد الله وإسماعيل ابنى جعفر الصّادق[٣].

وتشير الرسالة بوضوح إلى أن محمد بن إسماعيل ، الذى يعده الإسماعيليون الإمام السابع ، ليس سوى محمد بن عبد الله الذى تسمّى بإسماعيل .

ويبدو أن المقريزى قد اطَّلَعَ على أحد الرسائل الفاطمية التى تثبت حقيقة نَسَب المَهْدى ، أطلعه عليها واحد من بقايا الإسماعيليين الموجودين فى صعيد مصر فى زمنه . فبعد أن يذكر رواية ابن رِزّام وأخى محسن ، ذكر نسبه كما ورد فى رسالة المَهْدى التى أرسلها إلى ناحية اليمن ، كما يلى : أبو محمد بن محمد الحبيب (أو الحكيم) بن جعفر المصدق بن محمد المكتوم بن الإمام إسماعيل بن جعفر الصّادق[٤]، أو عبد الله بن التقى بن الوفى بن الرضى ، وهؤلاء الثلاثة يقال لهم : « المستورون فى ذات الله تعالى » .

---

[١] المهدى عبد الله : المصدر السابق ١١-١٢ .

[٢] Hamdani, A. & de Blois, F., «A Re-examination of al-Mahdi's Letter to the yemenits on the Geneology of the Fatimid Caliphs», *JRAS* (1982) p. 182.

[٣] *Ibid.*, p.185; Halm, H., *op. cit.*, pp. 133-38 .

[٤] المقريزى : المقفى الكبير ٤ : ٥٢٣ ، اتعاظ الحنفا ١ : ٥٠ .

وأوضح أن « الرضى » هو ابن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصّادق ، وأن « التقى » اسمه الحسين ، واسم « الوفى » محمد[١] .

ومن الغريب أن عماد الدين إدريس ، الداعى الفاطمى الشهير ، قد خلط نَسَبَ المهدى بين فرع إسماعيل وعبد الله ابنى جعفر الصّادق فقال : إنه « المَهْدى بالله أبو محمد عبد الله بن الحسن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصّادق »[٢] .

وقد قام أبو على محمد الحبيب بن أحمد المكنى « سعيد الخَيْر » بدور هام وأساسى فى تايخ الدعوة الإسماعيلية . فهو لم يكن إمامًا وإنما عم المَهْدى وزوج أمه ، وهى من فرع إسماعيل ، استكفله له أبوه بعد أن انتقل من عسكر مُكْرم فى خُوزِسْتان إلى سَلَمِيّة[٣] . ورغم أن محمد بن أحمد المكنى سعيد الخير لم يكن إمامًا فهو الذى أنفذ الدعاة بعد وفاة والد المهدى إلى اليمن وغيرها . فقد توفى والد المهدى وهو ابن ثمان سنين ، نقل عماد الدين إدريس هذا الخبر عن كتاب « سيرة الإمام المَهْدى » الذى فُقِد اليوم[٤] .

وتَزَوّج المَهْدى من ابنة عمه الباطن محمد بن أحمد أبو الشّلَعْلَع فولدت له ابنه القائم بأمر الله محمد بن عبد الله سنة ٢٨٠هـ/٨٩٣م[٥] . وبذلك فعلينا استبعاد فكرة أن القائم ليس ابنًا للمَهْدى ، إذ هو بوضوح ابن للمَهْدى ، وفى الوقت نفسه ابن لابنة الإمام السابق لوالده الإمام محمد بن أحمد . فيكون بذلك قد جَمَع بين فرعى أبناء جعفر الصّادق : عبد الله (من والده) ، وإسماعيل (منْ والدته) .

---

١ المقريزى : المقفى الكبير ٤ : ٥٢٤ .

٢ عماد الدين إدريس : تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ١٤٣ .

٣ المقريزى : المقفى الكبير ٤ : ٥٢٥ .

٤ عماد الدين إدريس : تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ١٤٤ .

٥ نفسه ١٤٤ .

كانت المشكلة التى واجهت الدعاة ، كما يذكرها صاحب « رسالة استتار الإمام »، أن الحسين بن أحمد والد المَهْدى الحقيقى عندما أتته الوفاة استودع له أخاه محمد الحبيب المكنى سعيد الخير الذى استبد بالإمامة ونَصَّ بها على ولده فَهَلَك هذا الولد وهَلَكَ بعده تسعة من أولاده ، كما فى رواية « استتار الإمام » . فعلم سعيد الخير أن الحق لا يُفارِق أهله وجمع دعاته وأعلمهم أنه مستودع للمَهْدى وسلَّم له الإمامة[1].

وبما أن سعيد الخير هو الذى أرسل الدُّعاة لبدء نشر الدعوة الإسماعيلية ، فإن بعض أتباع الدعوة لم يعترفوا بإمامة المَهْدى وخرجوا عليه وانضموا إلى القرامطة .

ونستخلص من رسالة المَهْدى إلى ناحية اليمن أمورًا ثلاثة : أولًا : التأكيد على أن عبد الله لا إسماعيل هو الذى عَيَّنَه جعفر الصَّادق ليكون وريثًا له .

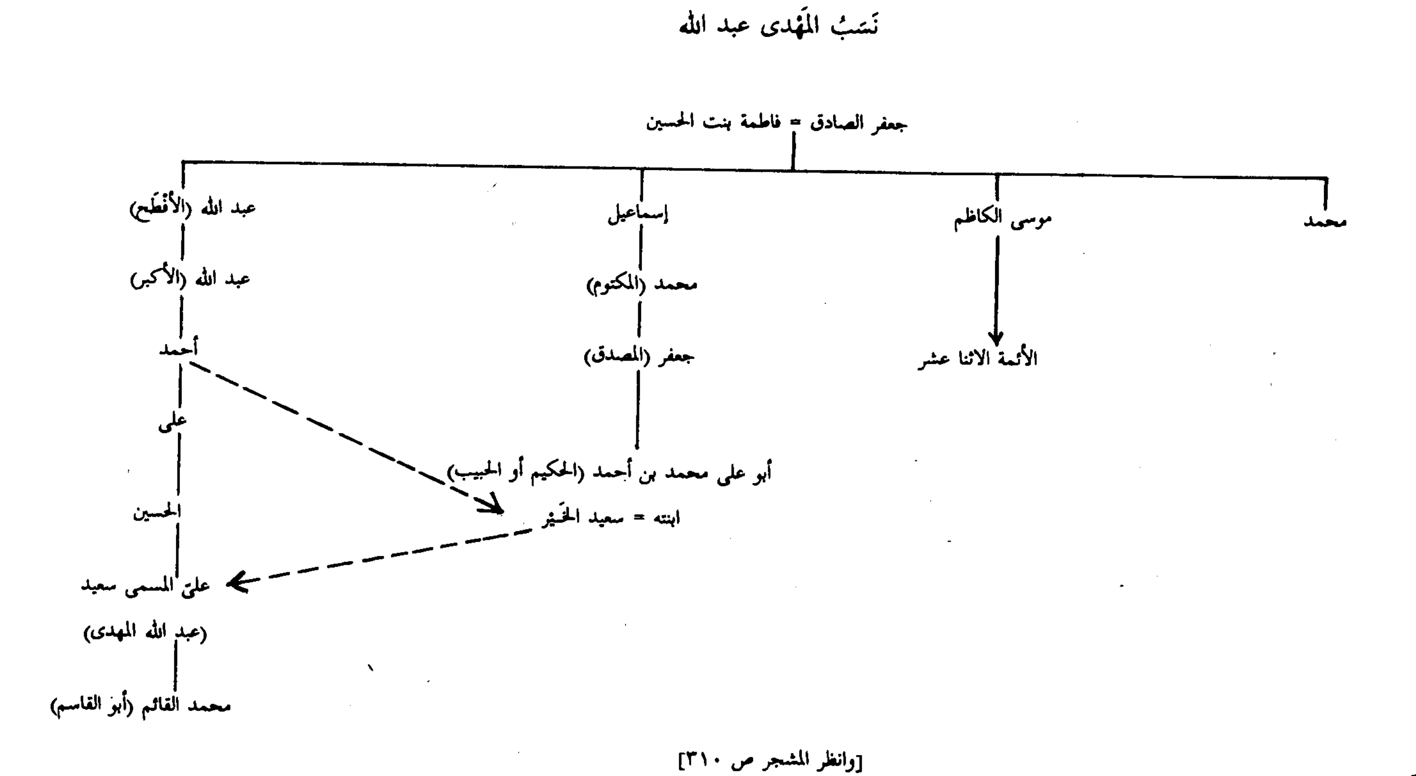
ثانيًا : أن المَهْدى من آل البيت ، وأنه ابن عم فى الباطن للرجل الذى كان فى زمنه وريثًا للإمامة .

وأخيرًا فإن المَهْدى ربما كان إمامًا مستودعًا للقائم أبى القاسم محمد الذى يبدأ به دور الظهور الحقيقى ؛ لأنه هو محمد بن عبد الله الذى أشارت إليه الدعوة وزالت به التَّقِيَّة .

---

[1] استتار الإمام ، مجلة كلية الآداب-الجامعة المصرية ٢/٤ (١٩٣٦) ٩٥-٩٦ .

نَسَبُ المَهْدى عبد الله



[وانظر المشجر ص ٣١٠]

الدَّعْوَةُ الإسماعيلية

حتى إعلان الخلافة الفاطمية

بدأت الحركة الإسماعيلية كتنظيم ثورى سرى يعتمد على مجموعة من الدُّعاة النشطين المنتشرين فى أرجاء العالم الإسلامى اعتبارًا من منتصف القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى. وقَصَدَ هؤلاء الدُّعاة بوجه خاص الأطراف التى غلب على أهلها الغَفلة والجهل ، وعلى الأخص فى أقاليم إيران وخُراسان والشمال الإفريقى واليمن الذى وصفه أبو العلاء المَعَرّى بأنه كان « معدنًا للمتكسبين بالتَدَيُّن والمحتالين على الحق بالتزيُّن »[١]. وعلى ذلك فقد بدأ القاضى النعمان بن حَيُّون « رسالة افتتاح الدعوة » بإرسال الإمام الإسماعيلى للداعى ابن حَوْشَب إلى جهة اليمن يدعو إلى قرب ظهور الإمام المَهْدى من آل فاطمة ، ولا يمدنا القاضى النعمان بأية تفصيلات عن الفترة السابقة على ذلك .

وقد بدأ النشاطُ المُكَثَّف للدعاة فى الظهور فى أعقاب اختفاء الإمام محمد بن الحسن العَسْكرى ، آخر الأئمة الاثنى عشرية ، فى السَّرْداب . ويبدو ، كما يقول الدكتور محمد كامل حسين ، إن بعض الشيعة من الاثنى عشرية صُدموا لاختفاء الإمام الثانى عشر فى السَّرْداب دون وريث ، فتطلَّعوا إلى الفرع الآخر من أبناء جعفر الصّادق المتسلسل من محمد ابن إسماعيل فتبنّوا الدَّعْوَة لهم بعد أن ظَلَّ أبناءُ محمد بن إسماعيل بعيدين كل البعد عن أى نشاط علنى للدعوة لأنفسهم طوال هذه المدة[٢]. يؤيد هذا الرأى أن دعاة الإسماعيلية الأوائل مثل ابن حَوْشَب وأبى عبد الله الشيعى كانوا فى ابتداء أمرهم اثنى عشرية .

---

[١] أبو العلاء المعرى : رسالة الغفران ، تحقيق وشرح عائشة عبد الرحمن ، القاهرة-دار المعارف ١٩٦٩ ، ٣٧٦.

[٢] محمد كامل حسين : طائفة الإسماعيلية-تاريخها ، نظمها ، عقائدها ، القاهرة-مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩، ٢١.

وقد قَسَّمَ الإسماعيليون العالم الإسلامى إلى اثنتى عشرة جزيرة بكل منها داعٍ مطلق يرأس مؤسَّسة الدعوة . وكانت جزيرة اليمن من أخصّ الجزائر عند الإسماعيليين ، وقد وصفها الخليفة الفاطمى العاشر الآمر بأحكام الله فى أحد سِجِلّاته بأنها « من الأصْقاع التى يراعى أمير المؤمنين جميع أمورها ويؤثر إصلاح كبير أحوالها وصغيرها وذلك لأنها من مهاجر المسلمين من أوّل الزمان ومحل أهل الإيمان ، منذ اشتدت قاعدة الإسلام إلى الآن ، ولم تخل من أبناء الدعوة الفاطمية وأولياء الدولة العلوية »[١].

كان انتشار الشيعة والمتشيعين فى بلاد اليمن سِرًّا وعلانيةً من أهم الأسباب التى دعت الإمام محمد بن أحمد ، آخر الأئمة المستورين ، إلى إرْسال أبي القاسم بن حَوْشَب إلى هناك . وحال بُعْد اليمن عن مركز الخلافة ووعورة طرقها بسبب طبيعتها الجبلية ، بالإضافة إلى انشغال العَبّاسيين بمواجهة ثورة الزَّنْج ، حال بينهم وبين توجيه الجيوش إلى اليمن لإنقاذها من دعاة الإسماعيليين .

واعتبر القاضى النُّعْمان اليمن « أصل الدعوة وإليها أرسل الداعى ومنها نفذ إلى المغرب وعن صاحب دعوتها أخذ وبآدابه تأدَّب »[٢]. فدعوة اليمن هى الطَّوْر الرئيسى فى أطوار تطور الدعوة الإسماعيلية ، فهى التى مَهَّدَت لظهورها علانية وإعلان قيام الخلافة المنتظرة ، رغم أنه كان للإسماعيليين فى أواسط القرن الثالث الهجرى/التاسع الميلادى تنظيم دقيق وجذور قوية فى مناطق مثل فارس والشام ولكنها كانت قريبة فى متناول الخلافة العَبّاسية ومركزها فى بغداد .

---

[١] الحامدى : تحفة القلوب فى ترتيب الهداة والدعاة فى الجزيرة اليمنية (متضمن فى كتاب الأزهار للحسن بن نوح) ، نشر صمويل شتيرن فى مقاله القيم **Stern, S. M., «The Succession of the Fatimid Imam al-Amir , the claims of the later Fatimid to the Imamate, and the Rise of Tayyibi Ismailism», *Oriens* IV (1951) , p. 233 .**

[٢] القاضى النعمان : رسالة افتتاح الدعوة ، تحقيق وداد القاضى ، بيروت–دار الثقافة ١٩٧٠، ٣٢.

وارتبطت دعوة اليمن بشخصيتين رئيسيتين ارتبطت بهما فى الوقت نفسه الدَّعْوَة الإسماعيلية الأُم هما : أبو القاسم الحسن بن فَرَح بن حَوْشَب ابن زادان النجار الكوفى الذى عرف فيما بعد بـ « منصور اليمن » لما أُتيح له من النصر هناك [١]، وأبو الحسن على بن الفَضْل الجَيْشانى . وأهم مصدر يحدثنا عن ابن حَوْشَب هو « رسالة افتتاح الدعوة » للقاضى النُّعْمان الذى ذكر أنه كان فى ابتداء أمره على مذهب الإمامية الاثنى عشرية وأوضح لنا كيفية انتقاله إلى المذهب الإسماعيلى ولقائه بـ « إمام الزمان » الذى بعثه إلى اليمن بعد فترة إعداد وتكوين بصحبة على بن الفضل . وأمره أن يقصد هناك مدينة « عَدَن لاعَة » قائلًا له : « إلى عَدَن لاعَة فاقصد وعليها فاعتمد ، فمنها يظهر أمرنا وفيها تعز دولتنا ومنها تفترق دعاتنا » [٢].

ولن أعيد هنا ذكر ما جرى من أحداث لابن حَوْشَب وصاحبه فى اليمن وما حقَّقَه من نصر هناك ومخالفة ابن الفَضْل له . وما يهمنا فى هذه الأحداث هو أن الإمام المستور لما تأكَّد من ظهور دعوة ابن حَوْشَب وتمكُّنها فى اليمن أرسل الداعى أبا عبد الله الشيعى (الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا) إلى اليمن وكَتَبَ إلى ابن حَوْشَب أن يُبَصِّرَه ويرشده ويُلَقِّنه ، ووَصَّى أبا عبد الله فى الوقت نفسه أن يمتثل سيرته وينظر إلى أفعاله ويحتذيها [٣].

وذكر القاضى النُّعْمان أن الإمام طلب إلى أبى عبد الله أن يذهب بعد ذلك حيث يشاء يدعو ، وقيل إنه حَدَّد له المغرب وأرسله إلى بلد كُتامَة ، وعلَّق على ذلك بأنه « أثبت

---

[١] راجع عنه ، القاضى النعمان : افتتاح الدعوة ٣٢-٦٣، ١٤٩-١٥٠؛ عماد الدين إدريس : تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ٥٩-٧٨ ؛ حسين الهمدانى : الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن ، القاهرة ١٩٥٥، ٢٩-٤٨؛ أيمن فؤاد سيد : تاريخ المذاهب الدينية فى بلاد اليمن ، القاهرة ١٩٨٨ ، ٩١-٩٦؛ Halm, H., «Die Sîrat Ibn Hawshab : Ismailitische daʿwa im Jemen und die Fatimiden», *Die Welt des Orients* XII (1981) pp. 108-35; Madelung , *W., EI*[2] art. *Mansûr al-Yaman* VI, pp. 424-25 .

[٢] القاضى النعمان : افتتاح الدعوة ٤١ .

[٣] المصدر نفسه ٥٩ ؛ عماد الدين إدريس : المصدر السابق ٧٢ .

الأمرين »[1]. ويفهم من نص « سيرة جعفر الحاجب » ، ومما ذكره ابن خلدون والمقريزى ، أن الإمام أرسله بعد اليمن إلى مصر وأنه التقى بحاج كُتامَة بمكة فى طريقه إلى مصر فمضى معهم إلى المغرب[2] . وقد عَدَّ المقريزى أبا عبد الله الشيعى « أحد رجالات العالم القائمين بنقض الدول وإقامة الممالك العظام من غير مال ولا رجال »[3].

كان الشمال الإفريقى أرضًا مهيأة لنُصْرَة المذهب الإسماعيلى ، ذلك أن التَشيُّع منذ نشأته اتخذ صبغة مضادة للعرب وللعصبية العربية . فكما اعتمد فى المشرق على الموالى من الفرس اعتمد فى المغرب على الموالى من البَرْبَر ، فقامت فيه بالفعل أسرة شيعية من الفرع الحسنى أسَّسَت سنة ١٧٣هـ/٧٨٨م « دولة الأدارِسَة » التى سيطرت بدون مشقة كبيرة على المغرب الأقصى[4]، كما اشتمَل المغرب الأوسط فى النصف الثانى للقرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى - باستثناء الأراضى التابعة لإمام تاهرت - على إمارات كثيرة تابعة للعلويين بلغ عددها كما يذكر الجغرافى اليعقوبى ، الذى زار المنطقة بين سنتى ٢٦٣هـ/٨٧٦م -٢٧٦هـ/٨٨٩م ، تسع إمارات علوية[5].

وقد كان فرار العلويين من الشرق هربًا من الاضطهاد الذى تعرّضوا له هناك . وكانوا جميعًا تقريبًا من فرع الحسن بن على الذين لوحقوا من العبّاسيين دون هوادة ، بينما احترم العبّاسيون جعفر الصّادق وذريته عامة . وقد تمكّن هؤلاء العلويون من التمركُز فى الشمال الإفريقى فى الأراضى التى ضعفت فيها سلطة الخليفة العبّاسى

---

[1] القاضى النعمان : افتتاح الدعوة ٩٥-٦٠ .

[2] ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٣١ ؛ المقريزى : اتعاظ ١ : ٥٠ .

[3] المقريزى : اتعاظ الحنفا ١: ٦٨ .

[4] عن هذه الدولة راجع ، حسن على حسن : دولة الأدراسة بالمغرب قيامها وتطورها حتى منتصف القرن الثالث الهجرى ، رسالة ماجستير بجامعة القاهرة .

[5] اليعقوبى : كتاب البلدان ، ليدن ١٨٩٢ ، ٣٥١-٣٥٢، ٣٥٦؛ Talbi, M., *L'Emirat Aghlabide 184-296/800-900-Histoire Politique*, Paris 1966, pp . 567-69.

وممثليه ، ولكن وجودهم لم يُمَثّل ثورة على السلطة العبّاسية وإنما فرارًا من اضطهادها لهم[١] .

ولا شك فى أن المذهب الشيعى قد دخل إلى إفريقية بصورة أكثر سرية وتنظيمًا قبل وصول الداعى الإسماعيلى أبى عبد الله الشيعى ، فقد وصل أوّل تسَلُّل شيعى إسماعيلى إلى إفريقية فى أواسط القرن الثانى الهجرى/الثامن الميلادى قبل نحو ١٣٥ عامًا من وصول أبى عبد الله الشيعى إلى هناك ، وهى بعثة الداعيين أبى سُفْيان والحَلْوانى . وقد ذكر خبر هذين الداعيين باقتضاب ابن الأثير – الذى نقله فى أغلب الظن عن المؤرِّخَيْن الرقيق القيروانى وعبد العزيز بن شَدّاد – والنُّوَيْرى وابن خَلْدون والمقريزى[٢]، بينما لم يذكرهما إطلاقًا ابن عِذارىّ وابن حَمّاد الصِّنْهاجى . أما تفصيل أخبار بعثة أبى سُفْيان والحَلْوانى ونشاطها ، فقد وَصَلَ إلينا عن طريق التاريخ الرسمى للدولة الفاطمية من خلال كتاب « افتتاح الدعوة » للقاضى النُّعْمان[٣]. ويفيدنا هذا الكتاب بأنهما قدما من الشرق للاستقرار فى المغرب سنة ١٤٥هـ/٧٦٢م ، وأن الذى بعثهما – فيما يقال – الإمام جعفر الصّادق وأمرهما أن يبسطا ظاهر علم الأئمة وينشرا فضلهم ، وطلب منهما أيضًا اجتياز حدود إفريقية ذاتها والافتراق والاستقرار بين البَرْبَر .

وقد استقرّ أبو سفيان بضواحى مَرْماجَنَّة فى تالا التى صارت بتأثيره « دار شيعة » بصورة تدريجية وحافظت على ذكراه وتعاليمه بعد موته بورع شديد[٤]. أما الحَلْوانى ، الذى عاش « دهرًا طويلًا بعد أبى سفيان » ، فذهب إلى ناحية سوجْمار واستقر بالناظور على حدود بلاد كُتامَة « وتَشَيَّع كثيرٌ منهم على يديه » . وكان يقول لهم : « بُعِثْتُ أنا وأبو سُفْيان فقيل لنا : اذهبا إلى المغرب فإنما تأتيان أرضًا بورًا فاحرثاها واكرياها وذلّلاها

---

[١] Talbi, M., *op. cit.*, p. 569 .

[٢] ابن الأثير : الكامل ٨ : ٣١ ؛ النويرى : نهاية ٢٨:٧٤-٧٥ ؛ ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٣١؛ المقريزى : اتعاظ ١: ٥٠؛ Talbi, M., *op. cit.*, p. 574 .

[٣] القاضى النعمان : افتتاح ٥٤-٥٨ ، وعنه عماد الدين إدريس : عيون الأخبار ٣٢٤-٣٢٥ .

[٤] نفسه ٥٤-٥٦ ، نفسه ٣٢٤-٣٢٥ .

إلى أن يأتيها صاحب البَذْر فيجدها مذللة فيبذر حَبَّه فيها »[١]. وأضاف القاضى النُّعْمان، مصدر كل هذه المعلومات، أنه كان « بين دخولهما المغرب ودخول صاحب البذر – وهو أبو عبد الله – مائة وخمس وثلاثون سنة »[٢].

وهكذا فإن القاضى النُّعْمان قد حاول من خلال هذا النَّصّ الإيحاء بأن المهمة التى أوكلت إلى أبى عبد الله الشيعى لم تكن سوى تتويج لعمل دُبِّر بعناية بدىء به قبل مائة وخمس وثلاثين عامًا مضت. ولكن الاحتمال الذى يمكننا الأخذ به هو أن أبا سفيان والحلْوانى كانا تلميذين لجعفر الصّادق ولم يقوما بدعوة بالمعنى المعروف فى الاصطلاح الإسماعيلى، وإنما قاما بشىء مختلف، وأبسط من ذلك بكثير تمثَّل فى نشرهما محبة أهل البيت وفضلهم الذى صاحبه دون شك نَشْر الأُصول العامة للمذهب الشيعى وهو الذى أطلق عليه القاضى النعمان « ظاهر علم الأئمة »، فيكون أبو سفيان والحلْوانى رائدين بهذا المعنى وهَيّأا التربة للداعى الإسماعيلى[٣].

ولا شك أن إنجاح مهمة أبى عبد الله الشيعى كان يتطلَّب إيجاد مبشرين يعلنون عن ظهوره وظهور المهدى إثره، وهو الأمر الذى أسهم فى تجسيد قصة أبى سُفْيان والحَلْوانى لتتحقق علامات وصول الفاطميين إلى السلطة بعد مراحل ثلاث؛ هى الحَرْث والبَذْر والحَصْد. فيذكر ابن الأثير والمقريزى أن ابن حَوْشَب عندما عَهَدَ إلى أبى عبد الله الشيعى بالدعوة فى المغرب قال له: إن أرض كُتامَة من المغرب قد حرثها الحَلْوانى وأبو سُفْيان، وقد ماتا وليس لها غيرك، فبادر فإنها موطّأة ممهَّدة لك[٤].

فى هذا الوقت وَفَد الإمام الإسماعيلى على بلاد الشام وأقام فى مدينة « سَلَمْية » قرب حِمْص يعاشر قومًا من أهلها هاشميين ويظهر لهم أنه عبّاسى. وفى الوقت نفسه

---

[١] القاضى النعمان: افتتاح ٥٧–٥٨؛ عماد الدين إدريس: عيون ٣٢٥.

[٢] نفسه ٥٨، وانظر كذلك Dachraoui, F., *Le Califat Fatimide au Maghreb* pp. 56-58.

[٣] Talbi, M., *op.cit.*, pp. 577-78.

[٤] ابن الأثير: الكامل ٨: ٣١، المقريزى: اتعاظ ١: ٥٥.

كان يلاطف كل من يلى سَلَمْية ويبالغ فى الإحسان إليه حتى يكسبه إلى جانبه [١]. وقد استراب أحد ولاة المدينة من الأتراك فى أمر الإمام الإسماعيلى وأخذ يتعرّف أخباره ويسأل عنه الناس ، فلما أحَسَّ به الإمام كتب إلى دعاته ببغداد للعمل على عزله ونجحوا فى مهمتهم . وعندما عاد الوالى إلى بغداد أَسَرَّ إلى الخليفة العبّاسى ما قبل له عن شخص الإمام الإسماعيلى وأقنعه ألا يتردّد فى إلقاء القبض عليه [٢].

وتصادف أن خَرَج فى هذا الوقت رجلٌ بالشام يزعم أنه قَرْمَطى [٣] (نحو سنة ٩٠٢/٢٨٩) ، فلم يشك الخليفة العبّاسى فى أنه خرج يدعو للإمام الإسماعيلى خاصة وأنه سار يريد سَلَمِيَّة . فأمر الخليفة الوالى التركى بالتوجه إلى سَلَمِيَّة وأن يسبق القَرْمطى ليقبض على الإمام. كتب الدُّعاة ببغداد إلى الإمام بما جرى ليتدبَّر أمره ، فأعد العُدّة ليخرج من سَلَمِيَّة [٤]. وهكذا فلولا حركة القرامطة بالشام لما عرف العبّاسيون عن الإمام الإسماعيلى شيئًا ، وكانت حركتهم إيذانًا بظهور الإسماعيلية على مسرح السياسة بصفة إيجابية بعد أن ظَلَّت مستترة لا يعرف أحدٌ شيئًا عنها زهاء قرن من الزمان [٥].

وأهم مصدر يحدّثنا عن رحلة المَهْدى (الإمام الإسماعيلى) من سَلَمِيَّة إلى مصر ، ثم إلى الشمال الإفريقى وما صاحبها من أحداث هو « سيرة الحاجب جعفر » ، الذى صاحب المَهْدى فى رحلته ورواها لنا شخصٌ يعرف بمحمد اليمانى . تذكر السيرة أن المهدى أمر أصحابه بالأخذ فى أهبة السفر والخروج معه « وأظهر لهم أنه يريد إلى

---

[١] محمد اليمانى : سيرة الحاجب جعفر بن على وخروج المهدى صلوات الله عليه وآله الطاهرين من سلمية إلى سجلماسة وخروجه منها إلى رقّادة ، تحقيق و. ايفانوف ، مجلة كلية الآداب-الجامعة المصرية ٤ (١٩٣٦) ١٠٨.

[٢] نفسه ١٠٩ .

[٣] راجع ، المسعودى : مروج الذهب ٥ : ٩٢ ، مؤلف مجهول : العيون والحدائق ٤: ١٠٧.

[٤] محمد اليمانى : المصدر السابق ١١٠.

[٥] محمد كامل حسين : المرجع السابق ١٥ .

اليمن »[1]، يقول جعفر : « فسرنا مع المهدى لا نشك أن إلى اليمن سيرنا »[2]. سار الركب إلى طَبَرِيّة ومنها إلى الرَّمْلَة حيث تَوَجَّه إلى مصر فاستقبلهم بها الداعى أبو على صهر الداعى فيروز الذى كان فى صحبة المهدى . وقد طلب المهدى من أبى على أن ينزله عند من يثق به ، فأنزله عند رجل يقال له ابن عَيّاش[3]. فى ذلك الوقت وصل الكتاب الوارد من بغداد بصفة المهدى وطَلَب القبض عليه ، فاستفسر عامل مصر من ابن عَيّاش عن أمر الرجل الذى ينزل عنده ، فأخبره أنه رجلٌ شريفٌ تاجر و « أن الذى أتى الرسول فى طلبه قد أعطيت خبره أنه توجَّه إلى اليمن قبل ورود الرسول بمدة طويلة »[4].

كان رفقاء المهدى حتى هذا الوقت يعتقدون أنهم سيتجهون إلى اليمن ، إلّا أن الكتاب الوارد من بغداد إلى عامل مصر بصفة المهدى وطَلَب القبض عليه ، جعله يُفْصِح عن نيته فى الخروج إلى المغرب وأَسَرَّ بها إلى حاجبه جعفر[5] فشقَّ ذلك على مرافقيه وخاصة داعيته الرئيسى فيروز الذى وصفه جعفر بأنه « داعى الدعاة وأجلّ الناس عند الإمام وأعظمهم منزلة ، والدعاة كلهم أولاده ومن تحت يده ، وأنه باب الأبواب إلى الأئمة »[6]، والذى خاب أمله فى الاتجاه إلى اليمن فوقع المهدى بين خطرين : عُمّال الخلافة العَبّاسية الذين كانوا يتعقّبونه ، ودُعاته أنفسهم الذين انْشَقُّوا عليه وأصبح فى مقدورهم فَضْح أمره .

---

[1] محمد اليمانى : المصدر السابق ١١٠-١١١ ، القاضى النعمان : افتتاح ١٤٩ ، النويرى : نهاية-خ ٢٦ : ٣٢ ، المقريزى : اتعاظ ١ : ٥٢.

[2] نفسه ١١١ ، ١١٤ .

[3] نفسه ١١٣ .

[4] نفسه ١١٣ .

[5] نفسه ١١٤ ، القاضى النعمان : افتتاح ١٥٠-١٥١ ؛ Jiwa, Sh., «Initial Destination of the Fatimid Caliphate : the Yemen or the Maghrib ?» , *British Society for Middle Eastern Sludies Bulletin* 13 (1986) . pp. 15-26 .

[6] نفسه ١١٠ ، نفسه ١٥٠ .

كان نجاحُ الداعى أبى عبد الله الشيعى فى نَشْر الدعوة وسط قبيلة كُتامَة فى إفريقية وما حَقَّقَه من نصر على الأغالِبَة من الأسباب المباشرة التى دعت المهدى إلى التوجُّه إلى إفريقية . وقد أدَّى ذلك إلى انشقاق داعيته فيروز الذى توجَّه إلى اليمن ، بينما أكَّد المهدى نيته وبعث جعفر الحاجب إلى سَلَمْية ليحضر نساء المهدى وكنوزه ويلحق به فى طرابلس الغرب [١]، ثم أرسل أبا العباس الشيعى ليلحق بأخيه أبى عبد الله فى إفريقية ويعرفه بقرب قدوم المهدى[٢]. ونجح المهدى فى نهاية الأمر بعد تفاصيل كثيرة مذكورة فى كتب الدَّعْوَة من الوصول إلى سِجِلْماسَة عن طريق قَسْطيلة وتَوْزَر وإيكجان . وفى سِجِلْماسَة ألقى عليه القبض أمير المدينة وسجنه ، فى الوقت الذى كان أبو عبد الله الشيعى فى طريقه إلى تقويض السلطة الأغلبية ونجح فى السيطرة على مدينة رَقَّادَة – عاصمة الأغالِبَة – وطرد زيادة الله آخر أمرائهم فى رجب ٢٩٦هـ/مارس سنة ٩٠٩م ، وذهب إلى سِجِلْماسة حيث خَلَّص المهدىّ من السجن واصطحبه ليدخل به منتصرًا إلى رَقّادة وأوقف الدُّعاة على أنه الإمام الذى دعا إليه وعَرَّف جميع المؤمنين به وقال : « هذا مولاى ومولاكم ووَلِيّ أمركم وإمام دَهْركم ومهديكم المنتظر الذى كنت به أُبَشِّر ، قد أظهر الله عَزَّ وجَلّ أمره كما وعده » [٣]، فبايعه المؤمنون ودُعِيَ له بالخلافة يوم الجمعة ٢١ ربيع الثانى سنة ٢٩٧هـ/١٥ يناير سنة ٩١٠ م ، وتلقَّب بـ «المَهْدى لدين الله» ، وبـ «أمير المؤمنين» [٤].

---

[١] محمد اليمانى : المصدر السابق ١١٤ .

[٢] نفسه ١١٦ ، القاضى النعمان : افتتاح ١٥١-١٥٤ .

[٣] القاضى النعمان : رسالة افتتاح الدعوة ٢٤٥، ٢٥٣ .

[٤] محمد اليمانى : المصدر السابق ١١٦-١١٩ ، نفسه ٢٤٥-٢٤٩ ، عماد الدين إدريس : تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ١٣١-١٥٤. وراجع Dachraoui, F., *op. cit.*, pp. 115-124 , id., *EI*[2] art. *al-Mahdi ubayd Allah* V, pp. 1233-1234؛ وانظر مقال ليندساى الذى حاول أن يوازى فيه من خلال «افتتاح الدعوة» للقاضى النعمان بين سيرة النبى ﷺ وسط أهله فى مكة وبين سيرة أبى عبد الله الشيعى فى قبيلة كتامة البربرية Lindsay, J.E. «Prophetic Parallels in Abu Abd Allâh al-Shiʿi's Mission among the Kutâma Berbers, 893-910», *IJMES* 24 (1992), pp. 39-56.

ومثلما تخلّص العبّاسيون من أبى مُسْلِم الخُراسانى مؤسّس دولتهم ، تخلّص الإمام المهدى من داعيته الرئيسى أبى عبد الله الشّيعى الذى مَهّد له الطريق فى إفريقية وكذلك أخيه أبى العَبّاس الداعى[١]، سواء لأن الداعى شك فى شخصية المَهْدى نفسه أو لأن المهدى أراد أن يتخلّص من سلطته ونفوذه المتزايد فى وسط قبيلة كُتامَة . وهو الأمر الذى أثار الكُتاميين بعض الوقت ضد المهدى[٢].

وقد حاول القاضى النُّعْمان أن يُحَمِّل أبا العبّاس الشّيعى مسئولية الانشقاق الذى دعى المَهْدى إلى التخلُّص منهما معًا[٣].

---

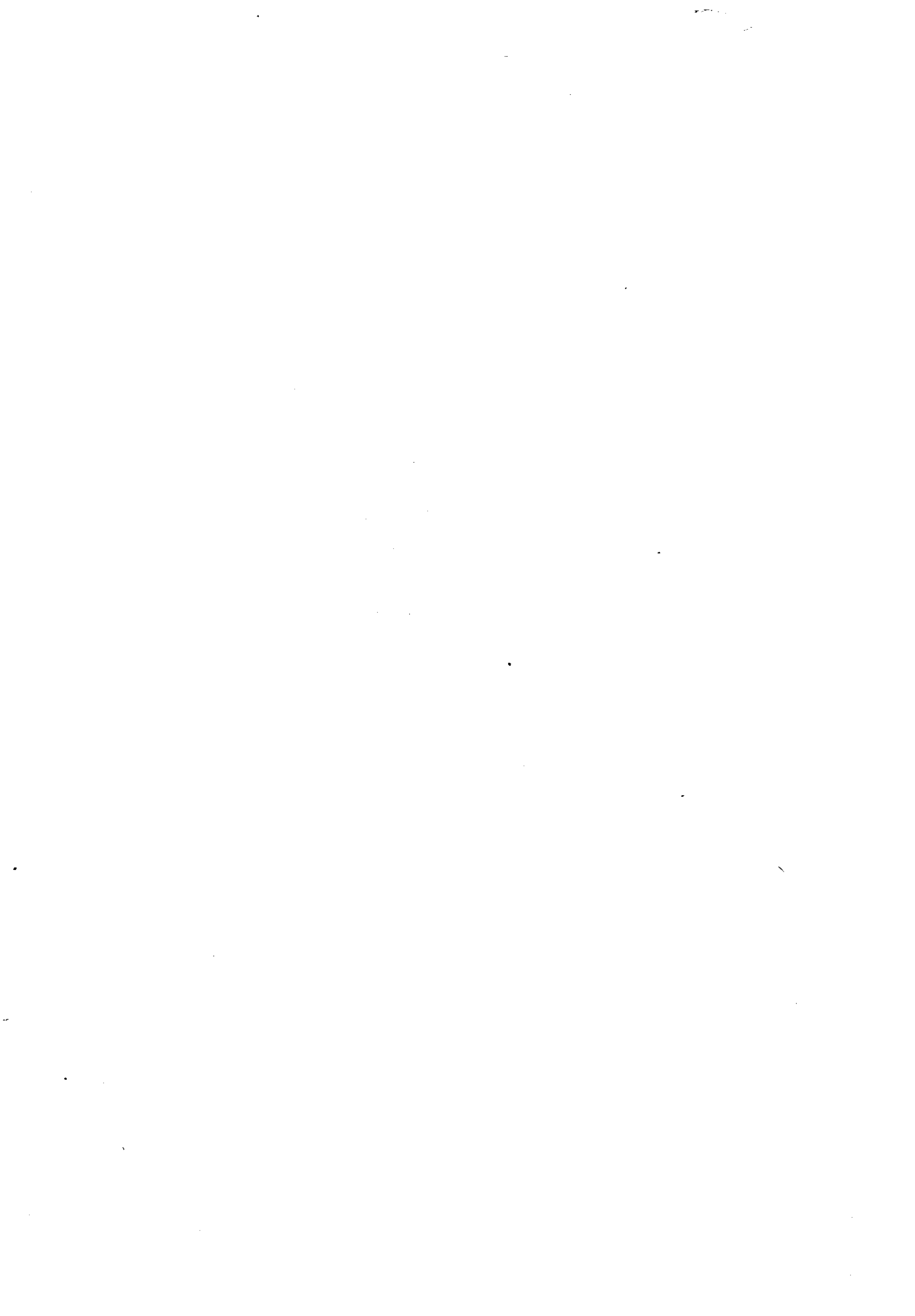
[١] القاضى النعمان : افتتاح ٢٦٦-٢٦٧ ؛ عماد الدين إدريس : تاريخ الخلفاء الفاطميين ١٦٢- ١٦٨؛ المقريزى : اتعاظ ١: ٦٧-٦٨؛ النويرى : نهاية-خ ٢٦ : ٣٣-٣٤ .

[٢] عماد الدين إدريس : المصدر السابق ١٦٣ ، ١٧٠ .

[٣] القاضى النعمان : افتتاح ٢٥٩-٢٦٦ ، ولمزيد من التفصيلات حول هذه الفترة التى تعد مدخلًا لموضوع الكتاب الرئيسى راجع الدراسة الهامة لهانز هالم Halm , H., *The Empire of the Mahdi. The Rise of the Fatimids*, translated from the german by Michael Bonner , Leiden . E. J. Brill 1996 , pp. 158-168 .

الكتاب الأول

الدعوة - الدولة



الفصل الأول
قيام الخلافة الفاطمية
فى شمال إفريقيا

العَالَمُ الإسلامى فى مَطْلَع القرن الرابع الهجرى

عَصْرُ انْتِصَار الشِّيعَة

ما كاد القرنُ الثالث الهجرى يُشْرف على نهايته إلَّا وكان الفاطميون الشيعة قد نجحوا فى تتويج نشاطهم السرى المكثَّف الذى قام به «تَنْظيم الدُّعَاة» والذى استمر أكثر من مائة وخمسين عامًا، بإعلان قيام الخلافة الفاطمية فى إفريقية فى سنة ٢٩٧هـ/٩٠٨م[١]. وهكذا، فبعد إعلان قيام الخلافة الأموية فى الأندلس بعد ذلك بنحو عشرين عامًا فى سنة ٩٢٩/٣١٧، أصبح يتقاسم حكم العالمُ الإسلامى خلافات ثلاث؛ خلافتان سُنِّيتان: الخلافة العَبَّاسية فى بَغْداد والخلافة الأموية فى قُرْطُبَة، وخلافة ثالثة شيعية هى الخلافة الفاطمية الإسماعيلية فى إفريقية. وعلى الجانب الآخر كانت الدولة البيزنطية المسيحية فى القسطنطينية تتربَّص بها وتتحيَّنُ الفُرَص لاستغلال هذا الانقسام الذى اعترى الإمبراطورية الإسلامية.

وقد بدأ الضَّعْفُ يَدُبُّ فى أوصال الخلافة العَبَّاسية السُّنِّية بعد أن أخذت فى التفكُّك إلى دُوَلٍ صغيرة، وخاصةً ابتداء من عصر الخليفة الرَّاضى (٣٢٢- ٣٢٩/ ٩٣٤- ٩٤٠). فقد انفصلت الأقاليم الشرقية عن الخلافة، بينما أخذت بقية الممتلكات العَبَّاسية تستقل تدريجيًّا عن سيطرة الخلافة المركزية[٢].

---

[١] انظر فيما سبق ص ١٠٩- ١١٨.

[٢] مؤلف مجهول: العيون والحدائق ٤: ٢٩٨- ٢٩٩؛ ابن الأثير: الكامل ٨: ٣٢٢-٣٢٤ وانظر كذلك مقال كانار Canard, M., «L'impérialisme des Fatimides et leur propagande», *AIEO* VI (1947), pp. 156-193.

وصحب ذلك مدٌّ شيعيٌّ كبيرٌ شهده القرن الرابع الهجرى أفْقَد الخلافة العَبّاسية السُّنِّيّة الكثير من سيطرتها وسطوتها، حتى نستطيع أن نُطْلِق عليه «عَصْرُ انتصار الشِّيعَة». فقد نجح الزَّيديون فى إقامة دولة حاكمة فى طَبَرِسْتان سنة ٢٥٠/٨٦٤ وفى اليمن سنة ٢٨٤/٨٩٧، واستولى القَرَامِطَة على جنوب العراق والبحرين والأحْسَاء. ولم يمض نحو ثلاثون عامًا على انتصار الفاطميين إلَّا وقد ظهر جليًا انهيار سلطة الخلافة العَبّاسية، عندما نجح البُوَيْهِيُّون الشيعة فى فرض سيطرتهم على بغداد مركز الخلافة السنية، فكثرت بها الفِتَن بين الشيعة والسنة، وجُهِر بالأذان بـ« حَيّ على خَيْرِ العَمَل» فى الكَرْخ، كما أُقيم مأتم عاشوراء لأول مرة فى بغداد [١].

وفى الواقع فقد أصبحت الخلافة العبّاسية، بعد دخول البويهيين إلى مسرح الأحداث، مؤسَّسة اسمية بحتة تُمَثِّل السُّلْطة العليا للإسلام السُّنّى، وتُضْفى الشرعية على السلطات المُطْلَقَة التى تمتَّع بها العديدُ من الولاة، الذين كانت لهم السيادة الحقيقية سواء فى الأقاليم أو فى العاصمة العبّاسية نفسها [٢]. وبالرغم من هذا الانتصار الشيعى الكبير، الذى لم يتكرَّر أبدًا بعد ذلك، فإن هذه الأنظمة الشيعية لم تجد مجالًا للتعاون فيما بينها، مع أنها استطاعت أن تُسَيْطِر على القسم الأكبر من العالم الإسلامى بضعة عقود، لأنها أخذت فى الواقع تتخاصم بينها دفاعًا عن مصالحها الإقليمية [٣].

وفى وسط هذا التلاحق المُطَّرد للأحداث كان الفاطميون يمثِّلون القوة الفتية الطموحة الآخذة فى النماء والتى تريد مَدَّ نفوذها وسيطرتها، بدلًا من الخلافة العَبّاسية المنهكة المتداعية، على كل الأراضى الإسلامية، وأخذوا وهم فى إفريقية يتحيَّنون الفُرَص

---

[١] ابن الجوزى: المنتظم ٧: ١٥ و١٩ و٢٣ و٣٣ و٣٨ و٤٣ و٤٧؛ المقريزى: الخطط ٢: ٣٥٧-٣٥٨.

[٢] Lewis, B., *EI*^{2} art. ᶜ*Abbâsides* I, p. 20; Cahen, Cl., *EI*^{2} art. *Buwayhides* ou *Buyides* I, pp. 1390-1397.

[٣] Shaban, M. A., *Islamic History A.D. 750-1055 (A.H. 132-448) , A New Interpretation,* Cambridge 1976, p. 121.

للعودة إلى الشرق لتحقيق حلمهم فى استرداد حكم العالم الإسلامى من منافسيهم السنيين[١].

الصُعوباتُ التى وَاجَهَت الفاطميين فى إفريقية

اصطدم الفاطميون فى المرحلة الإفريقية بالعديد من الصِّعاب ، فقد كان الشمالُ الإفريقى عندما قدم إليه الفاطميون منقسمًا بين أهل السُنَّة (وخاصة أصحاب المذهب المالكى) والخوارج (وخاصة الإباضية والصُفرية) ، وجاءالمذهب الإسماعيلى ليضيف مصدرًا جديدًا للاضطراب فى المنطقة . كذلك فإن وجود فريقين متنافسين من القبائل البربرية : زَناتَة فى الغرب وصِنْهاجة – التى تنتمى إليها كُتامَة – فى الشرق كان عنصرًا مساعدًا للاضطراب والقلاقل فى المنطقة .

كما كانت هناك أيضًا أسرتان حاكمتان ذات أصول شرقية : الدولة الرُسْتُمِيّة الخارجية فى تاهَرْت والدولة الإدريسية العلوية فى فاس[٢].

ومنذ وصول المَهْدى إلى إفريقية أدرك أنها لن تستطيع أن تُحقِّق أهداف الخلافة الفاطمية أولًا لقِلَّة مواردها ، وثانيًا لمقاطعة علماء المالكية ومقاومتهم لهم ، ثم بسبب الطبيعة الجغرافية الجبلية للشمال الإفريقى وصعوبة السيطرة عليها ، وأخيرًا لأن أنظار الفاطميين كانت متَّجهة دومًا إلى الشرق . فقد أدرك الفاطميون تمامًا أنهم إذا أرادوا أن يكونوا الحكّام الوحيدين للعالم الإسلامى فليس أمامهم حَلٌّ سوى التوجُه إلى الشرق وإلى مصر بصفة خاصة . فقد كان العالم الإسلامى بحاجة ماسة إلى مركز متوسِّط يتولَّى

---

١ المقريزى : الخطط ٢: ٣٥٧- ٣٥٨.

٢ . Canard, M., *EI*² art. *Fatimides* II, p. 872

قيادته ، وموقع مصر الاستراتيجى فى ملتقى قارات ثلاث وسيطرتها على طرق التجارة الدولية التى تربط أوربا بالهند غنىٌّ عن البيان ، فلا غرو أن كان حلم الفاطميين فى إفريقية هو العودة إلى المشرق وإلى مصر بصفة خاصة .

المقاومة السُّنية

وقد وَجَدَ الفاطميون صعوبات كبيرة فى بسط نفوذهم علىَ المجتمع الإفريقى السنى ، حيث واجه الخليفة المهدى مقاطعة سلبية وإنكارًا صامتًا جابهه به أهل إفريقية وعلماؤها المالكية . فقد ثَبَّتت المالكية السُّنية أقدامها فى القيروان وغيرها من دول إفريقية ، وجاهره علماءُ المذهب بإنكار مذهبه وازورُّوا عنه وتبعهم فى ذلك عامةُ الناس . ووقفت إفريقية كلها موقف معارضة سلبية وعدم تعاون شديد الخطورة على كيان الدولة الناشئة [١]. وبما أنه لا سبيل إلى فرض دولة على أناس يقاطعونها مقاطعةً تامة ويعيشون بعيدًا عنها ، فقد كان طبيعيًا أن يبحث الفاطميون عن « عَصَبِيَّة » يعتمدون عليها ، فلم تستقر دعائم نظامهم هناك إلّا بقوة أنصارهم الكُتاميين الذين أشاد الخليفة المُعِزّ ، فى كل مناسبة ، بفضلهم على الدعوة [٢].

لذلك فقد حرص الخليفة المَهْدى على البعد عن رَقّادة والقيروان ، مركز المقاومة السنية ، وأسّس مدينة جديدة فى سنة ٣٠٣هـ/٩١٥م هى « المَهْدِيَّة » على طرف

---

[١] راجـــع تفصيل ذلك عند المالكى : رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وإفريقية ٢: ٧٤- ٩٦؛ Marçais, G., *La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen Age*, Paris 1946, pp. 136-162; Monès, H., «Le Malékisme et l'échec des Fatimides en Ifriqiya», *Etudes d'Orientalisme dédiées à la mémoire de Lévi-Provençale, Paris* 1962; I, pp. 209-225؛ محمود إسماعيل : « المالكية والشيعة بإفريقية إبان قيام الدولة الفاطمية » ، المجلة التاريخية المصرية ٢٣ (١٩٧٦) ٧٣- ١٠٦.

[٢] القاضى النعمان : المجالس والمسايرات ٩٦، ٢٠٣، ٢١٨، ٢٥٤، ٢٤٦، ٢٥٥، ٣٢١؛ عماد الدين إدريس : تاريخ الخلفاء الفاطميين فى المغرب ٦٠٦- ٦٠٧.

الساحل الشرقى لإفريقية فوق جزيرة متصلة بالبر كهيئة كفّ مُتَّصِلَة بزند ، وإن لم ينتقل إليها إلّا فى عام ٣٠٨هـ/٩٢٠م بعد أن نَقر ميناءها فى الصخر وابتنى بها دار صناعة ونَقَر بداخل المدينة الأهْراء وجَلَبَ إليها الماء ، كما بنى بها مسجدًا جامعًا وقصرًا كبيرا [١]. وقال بعد أن شاهد تمام بنائها « اليوم آمنت على الفاطميات » [٢].

كان المَهْدى يهدف من وراء بناء هذه المدينة الساحلية إلى مواجهة البيزنطيين الذين حاولوا التحرش به من جنوب إيطاليا ومن صقلية ، إلى أن نجح فى بسط سيطرة الفاطميين على الحوض الغربى للبحر المتوسط ومد النفوذ الفاطمى على جزيرة صقلية واستناب بها أسرة عربية تنتمى إلى قبيلة بنى كَلْب ، وقد عمل الفاطميون كذلك على تحييد دور الأمويين فى الأندلس فى صراعهم مع البيزنطيين [٣].

مُحاولاتُ الفاطميين فَتْح مصر

فى السنوات الأولى لحكم الخليفة المَهْدى باءت محاولتان لفتح مصر بالفشل (٣٠١هـ/٩١٣م ، ٣٠٧هـ/٩١٩م) ، وتكرَّرت المحاولات فى زمن ابنه القائم بأمر الله (٣٢٣هـ/ ٩٣٤م) ولكنها لم تُحقِّق شيئًا على الإطلاق [٤]، بل نَبَّهَت الخلافة العبّاسية إلى

---

[١] انظر البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب (الجزائر ١٨٥٧) ٢٩- ٣٠؛ مؤلف مجهول : الاستبصار ١١٧- ١١٨؛ المقريزى : اتعاظ ١: ٧٠- ٧١؛ وعن مدينة المهدية راجع Lézine, A., *Mahdiyya. Recherches d'archéologie islamique* Paris 1965; Fu'ad sayyjd, A., *La capitale de l'Egypte jusqu'à l'époque fatimide,* Beirut 1998, pp. 95-101; Halm, H., *op. cit.*, pp. 214-221.

[٢] المقريزى : اتعاظ ١: ٧١.

[٣] Canard, M., *op.cit.*, p. 873

[٤] عن محاولات الفاطميين المتكررة لفتح مصر راجع ، الطبرى : التاريخ (القاهرة ١٩٧٢) ١٠: ١٤٨- ١٥٠؛ القاضى النعمان : افتتاح الدعوة ٣٢٦؛ ابن ظافر : أخبار ١٤- ١٥؛ ابن الأثير : الكامل ٨: ٨٤، ٨٩، ١١٣؛ ابن خلكان : وفيات ٥: ١٩- ٢٠؛ ابن عذارى : البيان المغرب ١: ١٧٠- ١٧٢، ١٨١- ١٨٢، ٣٥١؛ ابن خلدون : تاريخ ٤: ٣٨- ٤٠؛ المقريزى : الخطط ١: ١٧٤، ٣٢٧- ٣٢٩، ٣٥١، اتعاظ ١: ٦٨- ٧٩، ٧١، ٧٢، ٧٤، المقفى ٤: ٥٦٢؛ عماد الدين إدريس : تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ١٧٦- ١٨٩؛ Dachraoui, F., *Le Califat fatimide au Maghreb 296-362 909-973-Histoire politique et Institutions*, Tunis 1981, pp. 142-

أن استمرار هذه المحاولات يتطلّب وجودًا عسكريًا قويًا فى مصر ، فقد اكتشف القائد مُؤْنِس الخادم ، الذى تَصَدَّى لهجوم الفاطميين المتتالى ، أن للفاطميين عملاء كثيرين بمصر [١]، فأسند العبّاسيون إلى محمد بن طُغْج الإخشيد ولاية مصر بالإضافة إلى ولايته على الشام ، ولم يكن تعيينه فى الواقع سوى عودة إلى النظام الطولونى الذى سَقَطَ عام ٢٩٢هـ/٩٠٤م [٢].

وقد فَسَّرَ فرحات الدَّشْراوى فى كتابه « الخلافة الفاطمية فى المغرب » محاولات الفاطميين المتكرِّرة لفتح مصر تفسيرًا عاطفيًا أرجعه إلى أن المهدى والقائم ، ذوى الأصول الشرقية ، كان يحرِّكهما فى هذه المحاولات حنينٌ إلى الشرق وكانت أنظارهما دائمًا موجَّهة إليه . بينما كان خليفتاهما المنصور والمُعِزّ ، ذوى الأصل الإفريقى ، أكثر التصاقًا بإفريقية وقضاياها الاقتصادية والاجتماعية ، فشُغِل المنصور بإخماد ثورات المتمردين (حركة مَخْلَد بن كَيْداد النُّكّارى سنة ٣٣٦هـ/٩٤٨م) ، بينما اهتم المُعِزّ مباشرة بالقضايا الخارجية فوطَّد سيادته ونفوذه فى المغرب الأقصى ، ولم يُحَوِّل أنظاره إلى مصر إلّا فى أخريات أيام خلافته [٣].

وهذا التفسير ينقصه الإشارة إلى إلحاح مصادر الدعوة الفاطمية نفسها بأن الأئمة والدعاة على السواء كانوا يتحيّنون الفرصة للعودة إلى المشرق [٤] ويكون التفسير الصحيح

150, 163-164, id., *EI* [2] art. *al-Kâ'im bi Amr Allâh*, IV, p. 479; Lev, Y., «The Fatimid and Egypt 301-358/914-969», *Arabica* XXXV (1988), pp. 186-196; Halm, H., *op. cit*, pp. 196-213.

[١] ابن عذارى : البيان ١ : ١٨٢؛ الكندى : الولاة ٢٧٤؛ المقريزى : الخطط ١ : ٣٢٨؛ أبو المحاسن : النجوم ٣ : ١٨٩.

[٢] الكندى : الولاة والقضاة ٢٨٧؛ ابن سعيد : المغرب (قسم مصر) ١٥٨-١٥٩؛ المقريزى : الخطط ١ : ٣٢٨-٣٢٩؛ Canard, M., *L'impérialisme des Fatimides* p.160; Shaban, M. A., *op. cit.*, p. 195.

[٣] Dachraoui, F., *op. cit.*, pp. 250.

[٤] القاضى النعمان : المجالس والمسايرات ٤٧٥، ابن الأثير : الكامل ٨ : ٦٦٣ حيث يورد حديثا دار بين المُعِزّ وهو فى مصر ورسول لإمبراطور بيزنطة كان يتردد عليه فى إفريقية حيث قال المُعِزّ للرسول : « أتذكر إذ أتيتنى رسولاً وأنا =

لهذه المحاولات هو أن قوة الفاطميين لم تكن قد نَمَت بعد فى هذا الوقت المُبَكِّر، وكانت ماتزال محصورة بقبيلة كُتامَة البربرية[١] بالإضافة إلى المقاطعة السلبية التى واجههم بها أهل القيروان والعلماء المالكية، وبالتالى فإنهم لم يكونوا يملكون القوة العسكرية اللازمة للقيام بمثل هذه المغامرة التى تفوق قدراتهم، ويكونوا قد استهدفوا بهذه الحملات السيطرة على الساحل الجنوبى للبحر المتوسط وتمكين نفوذهم فى الصحراء الواقعة بين ممتلكاتهم فى طرابلس الغرب ووادى النيل[٢] وإخراج النفوذ المصرى من بَرْقَة وحصره قدر الإمكان داخل حدود الوادى[٣].

المُعِزّ لدين الله وتحقيق هَدَف الفاطميين

لا شك أن ثورات البربر المتتالية والحركات الخارجية[٤] التى وجدت تأييدًا مؤقتًا من أهل السنة والتى أمضى الخليفة الفاطمى الثالث المنصور بالله إسماعيل فترة خلافته فى احتوائها وإخمادها، هى التى دفعت الخليفة الفاطمى الرابع المُعِزّ لدين الله إلى وضع هدف الفاطميين فى التَّحَوُّل إلى الشرق موضع التنفيذ بعد أن كادت المشاكل التى واجهها الفاطميون فى إفريقية أن تصرفهم عن تحقيق هدفهم.

= بالمهدية فقلت لك: لتدخلن علىّ وأنا بمصر مالكًا لها، قال: نعم. قال: وأنا أقول لك لتدخلن علىّ ببغداد وأنا خليفة». وأيضا المقريزى: اتعاظ ١: ٢٢٦.

١ عن قبيلة كتامة ودورها فى مناصرة الخلافة الفاطمية راجع، لقبال محمد موسى: دور قبيلة كتامة فى قيام الخلافة الفاطمية، الجزائر ١٩٧٩؛ Basset, R., *EI*[2] art. *Kutâma* V, pp. 544-45.

٢ حول سيطرة الفاطمين على ليبيا راجع، Hamdani, A., «Some Aspects of the History of Lybya during the Fatimid Period», *Lybya in History,* Beirut s.d. pp. 321-27.

٣ Shaban, M. A., *op. cit.*, pp. 192-193.

٤ كانت أهم هذه الحركات ثورة أبى يزيد مَخْلَد بن كَيْداد المعروف بصاحب الحمار والذى اكتسب تأييد أهل السنة وقضى على ثورته المنصور بالله سنة ٣٣٦هـ/٩٤٨م. وقد اضطر المنصور بالله بعد انتصاره عليه إلى ترك المهدية والانتقال إلى العاصمة الجديدة صبرة المنصورية التى أسّسها المنصور بالقرب من القيروان حتى يجعل المالكية تحت أنظاره. راجع، القاضى النعمان: المجالس ٥٥، ٧٢، ٧٣، ١١٤، ٢١٤، ٢١٦، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٤٥، =

فما هى أهمية الانتقال إلى الشرق لدى الخلفاء الفاطميين ودعاتهم ؟.

كان قيام خلافة الفاطميين فى إفريقية سببًا فى انقسام الحركة الإسماعيلية فى زمن مُبَكِّر. فقد بنيت الحركة الشيعية الإسماعيلية ضد العقيدة السنية والتطلعات العَبّاسية السياسية ونَمَت على فكرة تدميرها، وكَوَّنَت لذلك التنظيم السياسى الدينى المعروف بـ« الدَّعْوَة »، فانتشر دعاةُ الفاطميين فى طول الأراضى العَبّاسية وعرضها يقومون بنشاط سياسى وإيديولوجى ليتمكّنوا من القضاء على خلافة العَبّاسيين السنيين.

فهل أراد الفاطميون بعد تأسيس خلافتهم فى إفريقية أن يستقرُّوا بها، أو أرادوا أن يَتَّخِذوها مركزًا تمهيديًّا يُعِدّون فيه العُدّة لينطلقوا منه نحو الشرق فى محاولة لتدمير الخلافة العبّاسية والإحلال محلها ؟

الإجابة على ذلك أن الإمام المَهْدى كان بعيد النظر ووَجَد أن الفرصة غير مواتية للإجهاز على الخلافة العَبّاسية، وأنه من الأفضل للحركة الفاطمية أن تظهر على الخريطة السياسية للعالم الإسلامى، ولا مانع أن تقوم فى أحد أطرافه لتكون بعيدة عن العَبّاسيين ولتحتفظ فقط بعداء بعيد معهم، بحيث إن المَهْدى لم يُرد أن يدخُل فى هذا الوقت المُبَكِّر فى صدام مباشر مع العبّاسيين. ولم يكن بعض الدُّعاة – وهم فى الحقيقة صانعو الحركة – على مستوى إدراك المَهْدى للأحداث، فلما تبيَّنت لهم حقيقة نِيَّة المَهْدى بدأوا فى الانفصال عن الفاطميين وانضموا إلى القرامطة وعارضوا فكرة اتجاه المَهْدى بعيدًا عن

= ٣٣٦، ٤٩٢، ٥٤٢، ٥٥٥؛ ابن الأثير: الكامل ٨: ٤٢٢– ٤٤١؛ ابن خلكان: وفيات ١: ٢٣٥؛ الصفدى: الوافى ٩: ٢٠٣؛ ابن عذارى: البيان المغرب ١: ٢١٦– ٢٢٠، ٢٨٥؛ ابن خلدون: تاريخ ٤: ٤٠– ٤٥؛ المقريزى: اتعاظ الحنفا ١: ٧٥– ٨٦، المقفى الكبير ٢: ١٣٣– ١٤٠؛ عماد الدين إدريس: عيون الأخبار ٥: ١٧٢– ٣٠٦، تاريخ الفاطميين بالمغرب ٣٤٧– ٤١٧؛ Le Tourneau, G., «La revolte d'Abu Yazid au X°siècle», *CT* (1953), pp. 103-125; Stern, S.M., *EI*[2] art. *Abû Yazid al-Nukkâri I*, pp. 167-169; Dachraoui, F., *op. cit.*, pp. 165-182, 188-205; Halm, H., *op. cit.*, pp. 298-325; id. «Der Mann auf dem Esel. Der Aufstand des Abû Yazîd gegen die Fatimiden nach einem Augenzeugenbericht», *Die Welt des Oriens* XV (1984), pp. 144-204.

أراضئ الخلافة العَبّاسية ، ووجدوا أن حماس الدَّعْوَة كان حَتْمًا سيُفْقَد وهم بعيدون عن أراضى العَبّاسيين [١] .

وعلى ذلك فإن بلاط المُعِزّ فى صَبْرَة المنصورية لم يخل من الدُّعاة والرسل الذين توافدوا عليه يَحُثونه على تحقيق هدف الدعوة وأن يُعَجِّل بغَزو الشرق ، فكان يجيبهم بأن الوقت لم يحن بعد ويُذَكِّرهم بمحاولات جده القائم فى فَتْح مصر ، ويؤكّد لهم يقينه فى أن الله سيُوَرِّث الأئمة الأرض كلها [٢]. وقَصَّ علينا القاضى النُّعْمان فى « المجالس والمسايرات » خبر رؤية رأى فيها المُعِزُّ والده المنصور يتنبّأ له بقرب فَتْح مصر [٣]، وحديثًا جرى بين المُعِزّ ومشائخ كُتامَة أخبرهم فيه بأنه لا يشك فى افتتاح المشرق قريبًا ، وأنهم - أى الكُتاميين - طُرِدوا قديمًا من المشرق ، وأنهم سيعودون إليه بفضل الأئمة [٤].

فعالية الدّعاية الفاطمية

ولدينا دليلٌ مادىٌّ بالغ الأهمية يدل على تبييت المُعِزّ النِّيّة للانتقال إلى الشرق وإلى مصر بوجه خاص قبل فتحها بوقت طويل . فقد وَصَل إلينا « ثلاثة دنانير فاطمية » تحمل مكان الضرب (مصر) مؤرَّخةٌ فى السنوات ٣٤١هـ/٩٥٢م، ٣٤٣هـ/٩٥٤م، ٣٥٣هـ/٩٦٤م ضربت ، كما هو واضح قبل دخول الفاطميين إلى مصر وتأسيس القاهرة [٥] بغَرَض ترويجها بواسطة الدعاة على الأفراد الذين يتوسّمون فيهم الاستجابة

---

١ Hamdani, A., «Some Considerations on the Fatimid Caliphate as a Miditerranean Power ... », *Atti del Terzo Congresso di Studi Arabi e Islamici*, Ravello-Napoli 1964, pp. 388-390.

٢ القاضى النعمان : المجالس ٤٧٥- ٤٧٦.

٣ نفسه ٥٠٨- ٥٠٩.

٤ القاضى النعمان : المجالس ١٢٨- ١٢٩.

٥ Miles, G., *Fatimid Coins* p. 51؛ محمد أبو الفرج العش : « مصر ، القاهرة على النقود العربية الإسلامية » ، أبحاث الندوة الدولية لألفية القاهرة ٩١١، ٩١٢، ٩٤٧، ٩٤٨؛ Ehrenkreutz, A.S. and Heck, G. W., «Additional Evidence of the Fâtimid Use of Dînârs for Propaganda Purposes» in *Islamic History and Civilization in Honour of Professor David Ayalon*, ed. by M.Sharon, Brill Leiden 1986, pp. 145-151.

للدعوة، بالإضافة إلى «طِراز» باسم المُعِزّ عُمِل بمصر فى سنة ٣٥٥هـ/ ٩٦٦م[1]. وهو أمرٌ غير مستبعد فى ضوء ما هو معروف من كفاءة الفاطميين فى خِططهم. ويؤكّد ذلك ما ذكره أبو المحاسن بن تغرى بِرْدى من أن أمور الديار المصرية قد اضطربت فى أواخر عهد الإخشيديين «بسبب المغاربة أعوان الخلفاء الفاطميين الواردين إليها من المغرب»[2]. وقد استمال هؤلاء الدعاة نفرًا من القُوّاد ووجوه الرعية، وأنفذ إليهم المُعِزّ بنودًا ففرّقوها فيمن استجاب لهم وأمروهم أن ينشروها إذا قاربت عساكره مصر[3].

وهكذا فإن فكرة العودة إلى الشرق ومواجهة الخلافة العبّاسية كانت الشاغل الذى شغل بَال الأئمة والدعاة على السواء، ولم يبق لتحقيقها إلّا تَحَيُّنُ الوقت المناسب.

الفاطميون يضمنون ولاء الشمال الإفريقى

وقبل أن يُقرّر المُعِزُّ التَّوَجُّه إلى المشرق وتوجيه كل اهتمامه إلى تحقيق هدف الفاطميين، وَجَّه كل قوته فى مغامرة عسكرية للاستيلاء على كل الشمال الإفريقى وليختبر عن طريقها القوة العسكرية لجيشه الذى سيبعث به لفَتْح مصر. وقد عهد المُعِزّ بمهمة تثبيت سلطة الفاطميين ومَدّ نفوذهم فى المغرب الأقصى إلى القائد الشهير جَوْهَر الصِّقِلّى. وقد قاد جوهر فى سنة ٣٤٧هـ/ ٩٥٨م حملة عسكرية ناجحة ضد البَرْبَر المناهضين للخلافة الفاطمية – وخاصة فى إقليمى سِجِلْماسة وتاهَرْت – وتمكّن خلالها من هزيمة مراكز مقاومة الفاطميين فيما عدا المراكز التابعة لأموى الأندلس فى سَبْتَة وصالة التى احتلّها عبد الرحمن الثالث خليفة الأندلس. وفى خلال هذه الحملة تم أَسْر ابن واسول أمير سِجِلْماسة الذى كان يخطب للخلفاء العبّاسيين[4]. وفى سنة ٣٥٧هـ/

---

[1] Wiet, G., *RCEA* V, p. 11 n°. 1622، وانظر عن الطّراز فيما يلى ص ٤٧٣ – ٤٧٥.

[2] أبو المحاسن: النجوم ٣: ٣٢٦.

[3] المقريزى: المقفى الكبير ٣: ٨٩.

[4] القاضى النعمان: المجالسن ٢١٤، ٤١١، ٤١٢؛ ابن ظافر: أخبار ٢٢؛ ابن الأثير: الكامل ٨: ٥٢٤–٥٢٥؛ =

٩٦٨م قاد جوهر حملة مماثلة بغرض فرض النظام فى المغرب الأقصى [١]. وقد أثبتت هذه الحملات أن جَوْهَر الصَّقْلبى كان بلا شك أكبر قائد عسكرى عرفه الفاطميون ، ووَجَّهَت انتصاراته المُظَفَّرة أنظار الخليفة المُعِزّ إلى مواهبه العسكرية وأقنعته بأن باستطاعته ، بمساعدة هذا القائد الفَذّ ، أن يُحَقِّق أغلى أمانى الفاطميين منذ اعتلائهم السلطة : « فَتْح مصر » .

حالة مصر الداخلية إبّان الفَتْح

كانت السلطة الحقيقية فى مصر خلال عهد الإخشيديين ، الذين خلفوا المُؤَسِّس الأول محمد بن طُغْج ، فى يدِ كافور العبد الأسود الخصى الذى أصبح قائد جيوش الإخشيديين ومُدَبِّر أمر مملكتهم [٢].

وقد أثار الفاطميون من جانب والحَمْدانيون من جانب آخر الخلافات فى ممتلكات كافور الذى تمكّن من الاحتفاظ بسيطرته عليها بفضل حُنْكته السياسية [٣]. فقد كثر دعاة الفاطميين فى مصر ونجحوا فى استمالة عدد كبير من أهل البلاد [٤]، حتى إن يوم عاشوراء

= ابن خلكان : وفيات ٥: ٢٢٥؛ ابن عذارى : البيان ١: ٢٢٢؛ النُّويرى : نهاية ٢٨: ١٢٠؛ ابن خلدون : تاريخ ٤: ٤٦، ٤٧، القلقشندى : صبح ٥: ١٦٥؛ المقريزى : الخطط ١: ٣٧٧، ٣٧٨، المقفى الكبير ٣: ٨٤- ٨٦، اتعاظ الحنفا ١: ٩٣، ٩٤؛ عماد الدين إدريس : تاريخ الخلفاء الفاطميين ٦٠٢- ٦٣٣، Dachraoui, F., *op. cit.*, 230-234; id., «La captivité d'Ibn wasul le rebelle de Sijilmasa d'apreè lès Cadi an-Nuᶜman» *CT* IV (1956), pp. 295-99; Idris, H.R *La Berbérie Orientale sous les Zirides* pp. 24-28; Monès, H., *EI*[2] art. *Djawhar* II, p. 50; Halm, H., *op. cit.*, pp. 396-401.

[١] المقريزى : المقفى ٣٢٩.

[٢] راجع، ابن سعيد : المغرب (قسم مصر) ١٩٩- ٢٠١، حسن إبراهيم حسن : « كافور الإخشيد »، مجلة كلية الآداب-جامعة فؤاد الأول (١٩٤٦) ٢٣- ٤٦؛ سيدة إسماعيل كاشف : مصر فى عصر الإخشيديين : القاهرة ١٩٧٠، ١٣٤- ١٥٨؛ Ehrenkreutz, A.S. *EI*[2] art., *Kâfûr* IV, pp. 436-437.

[٣] أبو المحاسن : النجوم ٤: ٦؛ Shaban M. A., *op. cit.*, p. 196.

[٤] ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ٤٠ وفيه أن أبا جعفر أحمد بن نصر شيّد دارًا كبيرة كانت تؤخذ فيها البيعة =

كان لا يخلو من الفِتَن عند قبر كُلثُم وقبر السيدة نفيسة، وكثرت المنازعات بين الجُنْد السودان وجماعات من الرّعية كان الجنود يتعصّبون فيها على الشيعة[١]. وبشّر هؤلاء الدعاة أتباعهم بقرب قدوم جيوش الفاطميين متى ذهب الحجر الأسود، يعنون كافورًا[٢].

واجتمعت عِدّةُ عوامل مَهّدَت الطريق لتحقيق هدف الفاطميين فى غَزْو الشرق، كان على رأسها الحالة الاقتصادية السيئة التى كانت تمر بها مصر فى أواخر حُكْم الإخشيديين (٣٥٢-٣٥٨هـ/٩٦٣-٩٦٨م)[٣] وضَعْف الخلافة العَبّاسية المتزايد تحت سيطرة الشيعة البُوَيْهيين[٤]. وجاءت وفاةُ كافور فى سنة ٣٥٧هـ/٩٦٨م لتزيل آخر عَقَبَة أمام الفاطميين نحو تحقيق هدفهم[٥]، فلم توجد شخصيةٌ قوية تَخْلُف كافور فى البيت الإخشيدى[٦]، وتولّى زمام الأمور الوزير أبو الفضل جعفر بن الفُرات فعجز عن تلبية

= لصاحب المغرب، المقريزى: اتعاظ ١: ١٠٢، الخطط ١: ٣٢٧، ٢: ٢٧؛ ابن الزيات: الكواكب السيارة ٦٣ وفيها أن القاضى أبا الطاهر الذُّهْلى ناظَر رسولًا قدم مصر من قبل المُعِزّ؛ سيدة كاشف: المرجع السابق ٣٨١.

[١] المقريزى: الخطط ٢: ٣٤٠، اتعاظ ١: ١٤٦.

[٢] القاضى عبد الجبار: تثبيت دلائل النبوة ٦٠٤؛ المقريزى: اتعاظ ١: ١٠٢؛ أبو المحاسن: النجوم ٤: ٧٢، ٧٣.

[٣] قصر ماء النيل ابتداء من سنة ٣٥٢هـ/٩٦٣م ووقع الغلاء فى كل البلد وكثرت الفتن ونهبت الضياع وزاد غضب الناس لارتفاع الأسعار، وفى سنة ٣٥٦هـ/٩٦٧م بلغ ماء النيل اثنى عشر ذراعًا وأصابع وهو مالم يحدث من قبل. (ابن الأثير: الكامل ٨: ٥٩٠؛ ابن سعيد: المغرب ١٩٩؛ ابن خلدون: تاريخ ٤: ٤٧، ٤٨؛ القلقشندى: صبح ٣: ٣٤٥؛ المقريزى: الخطط ١: ٣٢٩، ٣٣٠، إغاثة الأمة ١٢، ١٣؛ أبو المحاسن: النجوم ٣: ٣٢٦.

[٤] ابن الأثير: الكامل ٨: ٤٥٢، ٤٥٣؛ أبو المحاسن: النجوم ٤: ٧٢.

[٥] ابن خلكان: وفيات ١: ٣٧٦، ٥: ٢٢٥؛ ابن عذارى: البيان ١: ٢٢١، ٢٢٨؛ ابن سعيد: المغرب ٢٠١؛ القلقشندى: صبح ٣: ٣٤٤؛ المقريزى: اتعاظ ١: ١١٣؛ أبو المحاسن: النجوم ٤: ٧٢، ٧٣؛ عماد الدين إدريس: تاريخ الخلفاء الفاطمين ٦٦٦.

[٦] بعد وفاة كافور عقد الأمر بمصر للأمير أبى الفوارس أحمد بن على الإخشيد على أن يكون القائم بتدبير أمره الحسن ابن عبيد الله بن طغج والى الرَّمْلة، ولكن السلطة الفعلية فى مصر كانت فى يد الوزير ابن الفرات. (النويرى: نهاية ٢٨: ٥٩، ٦٠؛ المقريزى: المقفى ٣: ٣٤٤، ١: ٥٣٦، ٥٣٧؛ أبو المحاسن: النجوم ٤: ١٠، ٢١؛ Bianquis, Th., «L'acte de succession de Kâfûr d'après Maqrizi», *An. Isl.* XII (1974), pp. 263-69.

رغبات الطائفتين الإخشيدية والكافورية ، فى نفس الوقت الذى استمر فيه نَقْص ماء النيل وتزايد فيه الغلاء واضطربت الأسعار مع هبوط قيمة الخراج [١]. فضاق قومٌ من المصريين بالأوضاع وكتبوا إلى المُعِزّ بإفريقية يدعونه لإرسال جنوده ليُسَلّموا إليه مصر [٢]، ولم يقصد هؤلاء المصريون المُعِزّ إلّا لإدراكهم مدى ضعف الخلافة العبّاسية الواقعة تحت سيطرة الشيعة البويهيين ، ولتوسُّمهم فى الخلافة الفاطمية قوة فتية قادرة على تدارك ما اعترى البلاد من تدهور وفساد [٣].

وقد حاول الوزير ابن الفُرات إصلاح بعض هذا الفساد ، فخانه سوء تدبيره وأدّى به إلى محاصرته فى داره وتهديد حياته من قِبَل الإخشيدية والكافورية ، بعد أن قَبَض على جماعة وصَادَرهم كان من بينهم يعقوب بن كِلِّس – وهو يهودى من أهل العراق أسلم فى زمن كافور [٤]– ولكنه تمكّن من الهرب مستترًا إلى إفريقية حيث التقى بالخليفة المُعِزّ وأطْلعَه على ما تمُرُّ به مصر من أزَمات سياسية واقتصادية [٥]، فوجد المُعِزّ الفرصة المناسبة لإرسال جيشه لفتح مصر . ومن الممكن أن يكون ابن كِلِّس قد اعتنق المذهب

---

[١] يحيى بن سعيد : تاريخ ١٢٩؛ ابن خلكان : وفيات ١: ٣٤٧، ٣٧٦، ٥: ٢٢٥؛ ابن سعيد : المغرب ٢٠١، النجوم ١٠١؛ المقريزى : إغاثة ١٣، الخطط ١: ٩٩؛ أبو المحاسن : النجوم ٣: ٣٢٦، ٤: ٢٣.

[٢] ابن زولاق : فضائل مصر ٤٥ ظ ؛ القاضى عبد الجبار : تثبيت دلائل النبوة ٦٠٤، ٦٠٥؛ يحيى بن سعيد : تاريخ ١٢٩؛ ساويرس : تاريخ البطاركة ٢/٢: ٨٧؛ ابن خلكان : وفيات ١: ٣٧٦؛ ابن سعيد : النجوم ١٠١؛ الصفدى : الوافى ١١: ٢٢٤؛ المقريزى : إغاثة ١٣، المقفى ٣٨٣؛ أبو المحاسن : النجوم ٤: ٣٠؛ ابن إياس بدائع ١/١: ١٨٤.

[٣] بلغ من فساد الأوضاع فى آخر حكم الإخشيديين أن ابنة الإخشيد اشترت صبية مغربية . بستمائة دينار لتتمتع بها . فلما بلغ ذلك المُعِزّ قال لأصحابه : إن الغيرة قد ذهبت من نفوس الرجال بمصر حتى إن إمرأة من بنات ملوكهم تخرج لتشترى لنفسها جارية تتمتع بها . (المقريزى : اتعاظ ١: ١٠٠) .

[٤] انظر فيما يلى ص ٢٤٧.

[٥] ابن خلكان : وفيات ١: ٣٤٧؛ الصفدى : الوافى ١١: ١٢٠، ابن شاكر : فوات ١: ٢٩٣، ابن خلدون : تاريخ ٤: ٥٥، المقريزى : المقفى ٣: ٤٤، أبو المحاسن : النجوم ٤: ٢١، سيدة كاشف : المرجع السابق ٣٨٢، ٣٨٣.

الإسماعيلى وهو ما يزال بمصر على يد الدُّعَاة. وستوضِّح لنا الأحداث كيف لعب هذا اليهودى[١] دورًا بارزًا فى تثبيت دعائم الدولة الفاطمية فى مصر، حيث أسْنَد له المُعِزّ، بعد أن دَخَل مصر، أمر تنظيم الإدارة الحكومية الفاطمية والإشراف على الدَّعْوة نفسها.

---

[١] عن دور اليهود فى التاريخ الإسلامى ودور يعقوب بن كِلِّس بصفة خاصة راجع كتاب Fischel, J. W., *Jews in the Economic and political Life in Medieaval Islam*, New york 1969, pp. 45-69 ولعرض شامل لتاريخ الفاطميين فى شمال إفريقية راجع كتاب فرحات الدشراوى المذكور فى ص ١٢٥ وللمؤلف نفسه Dachraoui, «L'Ifriqiya sous la dynastie des Fatimides» in *Histoire de la Tunisie-le Moyen Age*, Tunis, s.d., II, pp., 205-252; Brett, M., «the Fatimid Revolution (861-943) and its Aftermath in North Africa», *Cambridge History of Africa* 1978, II, pp. 589-636 وكتاب هانز هالم المذكور فى صفحة ١١٨.

الفصل الثانى
انتقال الخلافة الفاطمية إلى المشرق

مُقـــدِّماتُ الفتح

عندما أعلن الخليفة المُعِزّ عن عزمه على التَّوَجُّه إلى الشرق وعن إرسال جيشه لفَتْح مصر، لم يتَّخِذ هذا القرار إلَّا بعد أن كان قد استعد لذلك تمامًا ووَضعَ الضَّمانات الكافية لإنجاح مشروعه.

وقد رأينا كيف مَدَّ المُعِزّ السيطرة الفاطمية على جميع أراضى الشمال الإفريقى، فيما عدا النقاط الحصينة للأمويين فى المنطقة، وكذلك على الجُزُر المختلفة الواقعة فى البحر المتوسط مثل: سَرْدِينية وإقْرِيطش (كريت) وصِقِلِّيَة. كما أنه حاول كذلك فَتْح الأندلس أو على الأقل تحييد دورها فى صراع الفاطميين مع العَبَّاسيين.

ورغم الفراغ السياسى الذى كان يَغْلُبُ على الشمال الإفريقى، بمعناه الواسع، فإن الفاطميين لم يحاولوا إطلاقًا تركيز جهودهم فى هذه الساحة وتنظيمها والاستقلال بها. كذلك فإنهم لم يحاولوا إنشاء إمبراطورية مغربية إفريقية ذات وحدة اقتصادية تجعل منها منطقة ذات قوة وحيوية كبيرتين. لأن الفاطميين كان لهم اختيارٌ استراتيجى مغاير هو الانطلاق إلى الشرق، وحاولوا فقط طوال فترة إقامتهم بإفريقية تنظيم قاعدة انطلاق لهم، وذلك بضَمان أطراف آمنة مُتَمَرْكِزة غربًا فى المغرب الأوسط وشرقًا فى طَرَابُلُس وبَرْقَة وبحرًا فى صِقِلِّيَة.

كذلك فقد كان يهم الفاطميين، إلى جانب هذا التنظيم الأساسى، بلوغ هدفين استراتيجيين هامين يتمثَّلان فى السيطرة الكاملة على الحوض الغربى للبحر المتوسط،

ويتّضح هذا من بناء « المَهْدِيَّة » وإعادة بناء أسطول سُوسَة والحرص على التمكُّن من طرابلس وبَرْقة ، وكذلك فى المحاولات المستمرة للسيطرة على مصر نفسها لفتح الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، ولضمان إمكانية التدخل المباشر عن طريق البحر الأحمر واليمن فى تجارات المحيط الهندى والشرق الأقصى . وهذا هو ما أسماه ماريوس كانار Marius Canard بالإمبريالية الفاطمية «L'impérialisme des fatimides» [1]. والذى يُثْبِت أن الفاطميين كان لهم اختيارٌ استراتيجىٌ شرقىٌ ، وأنهم لم يعتقدوا أبدًا أن الشمال الإفريقى يصلح لتحقيق أهدافهم البعيدة ، ويُفَسّر لنا كذلك المحاولات المستمرة لفتح مصر سواء عن طريق التدخل العسكرى المباشر أو الدعاية السياسية أو الطرق الدبلوماسية [2].

ولا شك أن الفاطميين بعد انتقالهم إلى الشرق تَخَلَّوا تمامًا عن الشمال الإفريقى واكتفوا بتركه لأسرة بربرية محلية تدين لهم بالولاء. فقد أدرك المهدى منذ وصوله إلى إفريقية أنها لايمكنها أن تُحَقّق أهداف الفاطميين. وأنهم إن أرادوا أن يكونوا فى يوم من الأيام الحُكّام الوحيدين للعالم الإسلامى فليس أمامهم خيارٌ سوى العودة إلى الشرق .

وقد ساعدت سرعة تعاقب الأحداث فى مصر فى السنوات الأخيرة للحكم الإخشيدى مع ماصاحبها من فوضى سياسية وأزمات اقتصادية ، دون أن ننسى النجاح الكبير الذى حقَّقه الدعاة الفاطميون ، ولا الدور الذى لعبه ابن كِلِّس ، ساعدت كل هذه الظروف على تعجيل تحقيق حُلْم الفاطميين .

وقد بدأ الفاطميون منذ سنة ٣٥٥هـ/٩٦٦م باتخاذ إجراءات عملية للانتقال إلى الشرق وإلى مصر بصفة خاصة . فقد أمر المُعِزّ بحَفْر الآبار فى طريق مصر وأن يُبْنى له فى

---

[1] انظر فيما سبق ص ١٢١ هـ[2] .

[2] عمر السعيدى : « انتقال الفاطميين إلى مصر » ، ملتقى القاضى النعمان الثانى للدراسات الفاطمية ، تونس ١٩٨١، ١٤٨- ١٤٩.

كل مَنْزِلَة قصرًا [١]، وقد قام بالإشراف على بناء هذه القصور (استراحات) الأمير تميم بن المُعِزّ الفاطمى. وقد كَشَفَت حفائر حديثة أقيمت بمدينة أَجْدَابِيَة بليبيا (١٩٥٢، ١٩٦٢) عن أطلال أحد هذه القصور الذى نُقِلَت زخارفه الرائعه إلى متحف الشَّحَات قرب البيضاء بليبيا [٢].

فَتْــحُ مِصْــر

لن أعيد هنا ذكر قصة فَتْح الفاطميين لمصر، ولكن سأكتفى بالتذكير ببعض الأحداث التى تبدو لى ذات دلالة خاصة حتى نستطيع أن نفهم أهداف الفاطميين وَتَوَجُّهاتهم [٣].

ففى المحرم سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م جَمَعَ المُعِزّ لدين الله بالقرب من رَقّادَة [٤] نحو مائة ألف فارس أغلبهم من القبائل البربرية، وخاصة كُتامَة وزُوَيْلَة، ومن الصَّقَالِبَة [٥]. وفى يوم الأحد ٢٧ المحرم منحهم المُعِزّ رواتبهم التى تراوحت بين ألف دينار وعشرين دينارًا تبعًا لرتبتهم. [٦]

---

[١] المقريزى: اتعاظ ١: ٩٦.

[٢] حول هذا الموضوع راجع عثمان الكعاك: «مسلك القاهرة»، الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، القاهرة ١٩٧٣، ٧٨٢ و٨٣٢-٨٣٣؛ Blake, H., Hutt, A. and Witehouse, D., «Ajdâbiyah and the Earliest Fâtimid Architecture», *Lybya Antique* VIII (1971), pp. 105-120.

[٣] عن المظاهر السياسية والاجتماعية والعسكرية للفتح الفاطمى لمصر راجع Lev, Y., «The Fatimid Conquest of Egypt. Miliary, Political and Social Aspects» IX (1979). pp. 315-28 بالإضافة إلى مقال يانكى Th. Bianquis المذكور فيما يلى ص ١٣٩ هـ [٣].

[٤] تذكر بعض المصادر أن ذلك كان بالقرب من صبرة المنصورية ولكن الشاعر ابن هانىء الأندلسى الذى حضر هذه المناسبة بنفسه يذكر أنها بالقرب من رَقّادة.

[٥] ابن خلكان: وفيات ١: ٣٣٧؛ المقريزى: الخطط ١: ٩٤، ٣٧٨، اتعاظ ١: ١١٣؛ القلقشندى: صبح ٣: ٣٤٥؛ Beshir, B. I., «Fatimid Military Organization», *Der Islam* 55 (1978), pp. 37, 44; Lev, Y., «Army, Regime and Society in Fatimid Egypt, 358-487/ 968-1094», *IJMES* 19 (1987), pp. 338-47.

[٦] نفسه ٥: ٢٢٦؛ المقريزى: المقفى ٣: ٨٧.

وفى ١٤ ربيع الأول استعرض المُعِزّ هذا الجيش الجرّار وقدّم لهم جَوْهَر الصَّقْلبى[١] القائد الذى سيقودهم لفتح مصر والذى منحه المُعِزّ تفويضًا كاملًا بسلطاته العسكرية والسياسية والمالية.

وقد أُعِدَّ هذا الجيش بعناية فائقة من ناحية العُدَّة والعَتَاد، وكذلك من الناحية النفسية عن طريق الدعاية السياسية المُنَظَّمَة التى مَهَّد بها الفاطميون لهذا الحَدَث. وتذكر لنا المصادر أن جَوْهَر حمل معه أكثر من ألف ومائتى صندوق مليئة بالأموال، غير الذهب الذى جمعه الفاطميون طوال فترة إقامتهم فى إفريقية تحسبًا لهذا اليوم، وقد أفرغ هذا الذهب على هيئة الأرْحية وحمله جوهر على ظهور الجمال ظاهرًا للعيان[٢].

ولعل جُمْلَة ما أنفقه المُعِزّ على تجهيز جيش جَوْهَر، والذى بَلَغ، تبعًا للروايات ٢٤,٠٠٠,٠٠٠ دينار[٣]، وخروجه بنفسه ومعه ولى عهده وكبار رجال دولته لوداع جوهر وجيشه وحرصه على الاختلاء به وتوجيهه إلى أهمية ما هو مُقْدِمٌ عليه[٤]، يدلُّ على مدى الأهمية التى كان يُعَلِّقها المُعِزّ على فَتْح مصر.

---

[١] جاء نسب جَوْهَر فى أغلب المصادر «الصِّقِلّى». ورسم هذه الكلمة يتماثل مع كلمة «صَقْلبى» بزيادة نقطة الباء. ونحن لا نملك معلومات كافية عن انتشار العنصر الصقلى فى بلاط الفاطميين، وإنما نعلم أن عبيد الفاطميين فى الدور الإفريقى كانوا، على الأغلب، من الصَّقالبة الذين كانوا يطالبون دائمًا بمساواتهم بالكتاميين. (القاضى النعمان: المجالس ٢٤٦، ٢٥٥، ٢٥٧، ٣٢١) كما أن Ivan Herbek أوضح بحجج قوية أن صحة نسبة جوهر هى الصَّقْلَبى وليس الصِّقِلّى Herbek, I., «Die Slaven im Dienst der Fatimiden», *Archiv Orientali* XXI (1953) pp. 543-81; Quichard, P. & Mohamed Meouak, *EI* [2] art. *al-Sakâliba* VIII, 909 وعن مراجع ترجمة جوهر انظر Monès, H., *EI* [2] art. *Djawhar al-Siklli* II, pp. 507-508 وما ذكر من مراجع وأضف إليها المقريزى: المقفى ٣: ٨٣- ١١١.

[٢] ابن سعيد: النجوم ١٠٢؛ المقريزى: الخطط ١: ٣٧٨، الاتعاظ ١: ١١٣؛ أبو المحاسن: النجوم ٤: ٢٩، ٤١، عماد الدين إدريس: تاريخ الخلفاء الفاطميين ٦٦٧، ٦٦٨؛ وفيما يلى ص ٥٠٥.

[٣] الرشيد بن الزبير: الذخائر والتحف ٢٣٢؛ المقريزى: الخطط ١: ٣٥٣، اتعاظ ١: ٩٧.

[٤] ابن سعيد: النجوم ١٠٦؛ ابن خلدون: تاريخ ٤: ٤٨؛ الصفدى: الوافى ١١: ٢٢٦؛ المقريزى: الخطط ١: ٣٧٨، الاتعاظ ١: ١١٤، المقفى ٣: ٨٧، ٨٨.

وهكذا رحل جَوْهَر على رأس الجيش الفاطمى يوم السبت ١٤ ربيع الأول سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م إلى الشرق لينجز أهم أعمال الفاطميين التى ضمنت لهم مكانة خاصة فى التاريخ الإسلامى : فَتْحُ مِصْر .

وعندما وَصَلَ جَوْهَر إلى مصر وتسلَّمها يوم الثلاثاء١٧ شعبان سنة ٣٥٨هـ /يوليو ٩٦٩م[1] لم يواجه الجيش الفاطمى أية مقاومة حقيقية ، اللهم إلَّا من بعض فلول الإخشيدية والكافورية . وقد وَصَفَ المفاوضون المصريون الذين تفاوضوا مع جوهر فى تَرُوَجَة وكَتَب لهم « الأمان » – وهم الوزير ابن الفُرات والشريف أبو جعفر مسلم الحسينى وأبى إسماعيل الرَّسّى والقاضى أبو الطاهر الذُّهْلى الذين لم يتأخَّر عن تشييعهم قائد ولا كاتب ولا عالم ولا شاهد ولا تاجر كما يقول المقريزى – وَصَفُوا حجم جيشه بأنه « مثل جَمْع عَرَفَات كثرة وعُدَّة »[2] « حتى قيل إنه لم يطأ الأرض بعد جيش الإسكندر أكثر عددًا من جيوش المُعِزّ »[3].

الفَاطِميُّون فى مِصْر

لم يكن الفَتْح الفاطمى لمصر يعنى قيام حكومة مكان أخرى ، بل كان بمثابة انقلاب دينى ثقافى اجتماعى بعيد المدى ، صَحِبَه تحوُّلٌ ظاهرٌ فى نظام الحكم خَلَق موقفًا جديدًا تمامًا . فلأول مرة فى التاريخ الإسلامى تُحْكَم مصر بدولة لا تدين حتى بالولاء الاسمى لبغداد . فمع دخول الفاطميين إلى مصر تزايد دورُها فى العالم الإسلامى وتَحَوَّل بشكل أساسى . حقيقةً أن الطولونيين والإخشيديين بدأوا سياسةً جديدةً خاصةً بمصر ، ووضعوا

---

[1] ابن خلكان : وفيات ١ : ٣٧٥؛ القلقشندى : صبح ٣: ٣٤٥؛ المقريزى : المقفى ٣: ٩٨؛ أبو المحاسن : النجوم ٤: ٢٨.

[2] المقريزى : اتعاظ ١: ١٠٣، ١٠٧.

[3] المقريزى : الخطط ١: ٩٤. وراجع Bianquis, The., «La prise du pouvoir par les Fatimides en Egypte», *An. Isl.* XI (1972), pp. 49 .

أُسّسَ نواة حربية لها دورها فى المنطقة ؛ إلا أن طموحاتهم كانت محدودة فى بعض الأطماع الشخصية ، وكانوا يدورون فى فَلَك السياسة العبّاسية [١]. أما الفاطميون ، الحكّام الجُدُد ، فكانوا يتزعمون حركةً دينيةً فلسفيةً اجتماعيةً عظمى كان هدفُها لا يقلُّ عن تحويل وتجديد كل الإسلام ، وكانوا يرون فى أنفسهم الأئمة الأحِقّاء بحكم العالم الإسلامى بمقتضى الحق الإلهى فى الحكم ، فهم أبناء فاطمة بنت الرسول ﷺ . ومهما قيل فى صِحّة نسبهم أو عدمه ، وهل كانوا حقًّا ينتسبون إلى السيدة فاطمة ، أو كانوا مجرد أدعياء مَهَرَة ، فالحقيقة الثابتة أن عددًا غير قليل من الأتباع قد آمنوا بقضيتهم ودافعوا عنها [٢].

وكان تولّى الفاطميين الحكم بمصر وتأسيسهم خلافة مُسْتَقِلّة بها ، هو عودة إلى وضع جغرافى سياسى أنشأته الوقائع وثَبّتته أحداثُ التاريخ . فالعالم الإسلامى كان بحاجة دائمًا إلى مركز متوسّط كانت تشغله الإسكندرية فى العصر الرومانى البيزنطى [٣]، ولاشك أن الفاطميين قد تنبهوا لذلك ، كما وجدوا مصر بسعة مواردها وكثرة أرزاقها ومكانها من القلب بالنسبة للعالم الإسلامى ، قادرةً على تحقيق أهدافهم الاستراتيجية فى يوم من الأيام . وإذا كان الفاطميون قد فَشَلُوا فى كَسْب كل العالم الإسلامى لصَفّهم لتمسُّكهم بتحدّياتهم الإيديولوجية التى عَزَلوا أنفسهم بسببها عن إجماع المسلمين ، فإن « القاهرة » التى أرادوا أن يحكموا منها العالم الإسلامى ، سَجّلَ لها التاريخ دورها فى قيادة هذا العالم أمام كل التيارات الأجنبية بدءًا من المدّ الصّليبى ومرورًا بالغَزْو المُغُولى وحتى العصر الحديث ، وأثبتت بُعْدَ نظر الفاطميين عندما اختاروا مصر ليُحَقّقوا من خلالها أهدافهم .

---

١ Lewis B., «the Fatimid and the Route to India», *RFSE Univ. Istanbul* IX (1949-50), p. 51; id., «An Interpretation of Fatimid History», *CIHC*, p. 288 .

٢ عن قضية النسب الفاطمى انظر فيما سبق ص ١٠٠ – ١٠٨.

٣ Blachère, R., «La fondation du Caire et la renaissance de l'humanisme arabo-islamiqueau IV° siècle», *CIHC*, p. 95 .

وِلَايَةُ جَوْهَـــر القَائِد

كان أوَّلُ عمل قام به القائد جَوْهَر بعد فَتْح مصر هو اختطاط مدينة جديدة ، بناء على توجيهات الخليفة المُعِزّ ، قُصِد بها أن تكون مدينة ملكية وعاصمة للإمبراطورية العالمية الشاملة التى تضم جميع الأراضى الإسلامية ، هى مدينة « القاهرة » فى الشمال الشرقى للفسطاط [١] .

وقد أدرك القائد جَوْهَر ، فور دخوله إلى مصر ، طبيعة المجتمع المصرى . فالأمَانُ الذى مَنَحه للمصريين والذى كتبه بخَطِّه [٢] ، يُثْبِتُ مرةً أخرى براعة الفاطميين البالغة فى الدعاية . فالوثيقة مقبولة تمامًا من أى قارئٍ سُنِّى ، فقد تَعَهَّد فيها بترك الحرية الدينية للمصريين و « أن يجرى الأذان ، والصلاة ، وصِيَام شهر رمضان وفِطْره وقيام لياليه ، والزَّكَاة ، والحَجّ ، والجِهَاد على أمر الله وكِتَابه وما نصَّه نبيه ﷺ فى سُنَّته ، وإجراء أهل الذِّمَّة على ما كانوا عليه » ، و « أن يجرى فى المواريث [٣] على كتاب الله وسُنَّة نبيه ﷺ » و « إسقاط الرُّسُوم الجائرة التى لا يرتضى أمير المؤمنين بإثباتها عليكم » و « أن يتقدَّم فى رمِّ مساجدهم وتزيينها بالفَرْش والإيقاد وإعطاء مؤذِّنيها وقَوَمَتها ومن يؤمُّ الناس فيها أرزاقهم » [٤] .

---

[١] راجع للمؤلف : Fu'âd Sayyid, A., *La capitale de L'Egypte jusqu'à l'époque fatimide (al-Qâhira et al-Fustât), Essai de reconstitution topographique*, Beirut 1998 وانظر فيما يلى ص.

[٢] المقريزى : اتعاظ ١: ١٠٦.

[٣] لم يكد يمض أقل من عام على الفتح الفاطمى إلّا وقد أمر جوهر فى المواريث « بالرد على ذوى الأرحام ، وأن لا يرث مع البنت أخ ولا أخت ، ولا عم ولا جد ، ولا ابن أخ ولا ابن عم ، ولا يرث مع الولد ذكرًا كان أو أنثى إلّا الزوج والزوجة والأبوين والجدة ، ولا يرث مع الأم إلّا من يرث مع الولد » ، فقد اعتبر الفاطميون عدم توريث البنت التى لا إخوة لها كل الميراث عداوة للسيدة فاطمة عليها السلام » . (المقريزى : المقفى ٣: ١٠٣، ١٠٤؛ عماد الدين إدريس ، تاريخ الخلفاء ٦٩٥) وانظر فيما يلى ص

[٤] ابن خلكان : وفيات ١: ٣٧٧؛ النويرى : نهاية الأرب ٢٨: ١٢٣- ١٢٦؛ ابن حماد : أخبار ٥٠- ٥٢؛ المقريزى : اتعاظ ١: ١٠٣- ١٠٦؛ المقفى ٣: ٩٠- ٩٣؛ عماد الدين إدريس : تاريخ الخلفاء الفاطميين ٦٧٣- ٦٧٨، Bianquis, Th., *op. cit.*, pp. 65-75 .

كانت السنوات الأربع التى حَكَمَ فيها جَوْهَر مصر نيابةً عن الخليفة المُعِزّ (٣٥٨-٣٦٢هـ) ، من أهم فترات التاريخ الفاطمى فى مصر . فقد تَمَّت فيها التغييرات المذهبية والإدارية اللازمة التى عَبَّرت عن مظاهر انتقال السيادة إلى الفاطميين ، ومَهَّدَت لقدوم الخليفة المُعِزّ وانتقاله إلى الشرق ليُعْلِن مصر دار خلافة وليقود دولته المنتظرة فى الشرق .

وعاصر سنوات الفَتْح مُؤَرِّخٌ مصرى ثقة هو الحسن بن أحمد بن زُولاق المتوفى سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م ، وبفضل كتابه « تتمة كتاب أمراء مِصر للكِنْدى » ، الذى أظن أنه هو نفسه كتابه فى « سيرة جَوْهَر »[١]، والذى حَفِظ لنا المقريزى ومن قبله ابن خَلِّكان نصوصًا مُطَوَّلة منه ، أمكننا عن طريقها التعرُّف على الخطوات التى اتَّخَذها جَوْهَر وكيفية انتقال السيادة إلى الفاطميين فى مصر ، وإلى أىّ مدى التزم الفاطميون بنصِّ « الأمان » الذى منحه جَوْهَر للمصريين . فهذا الأمانُ لم يكن فى الواقع سوى إجراء ماهر لكسب تأييد المصريين .

وتمثَّلت هذه الخطوات فى سلسلة من الإجراءات المتتالية فى النواحى العقائدية والإدارية والتنظيمية . بدأها بأن أقَرَّ على رأس المناصب الإدارية والدينية نفس الأشخاص الذين كانوا يشغلونها وقت الفَتْح . فأقَرَّ جعفر بن الفُرات مشرفًا على المسائل المالية ، والقاضى أبا الطاهر الذُّهْلى على القضاء ، كما احتفظ عبد السميع بن عمر العَبّاسى بمنصبه كخطيب لجامع مصر ولكنه امتنع لعِدَّة شهور عن اعتلاء المنبر[٢]. ويلاحظ أن العراقيين والشوام ظَلُّوا يتولَّون مناصب القضاء والخطابة حتى أوائل عهد الظَّاهر .

ولم يستبح جَوْهَر لنفسه أن يُحِلّ أشخاصًا من طرفه فى محل الإدارة المصرية قبل أن يَتَعَرَّف على نظامها جيدًا ، خاصةً وهى إدارة أكثر تعقيدًا وتحضُّرًا من تلك التى عهدها

---

[١] راجع بحثى Fu'ad Sayyid, A., «Lumières nouvelles sur quelques sources de l'histoire fatimide en Egypte», *An. Isl.* XIII (1977), p. 5 وفيما سبق ص ٣٥-٣٨ .

[٢] النويرى : نهاية الأرب ٢٨: ١٢٦، ١٢٧؛ ابن الزيات : الكواكب السيارة ٦٣؛ المقريزى : اتعاظ ١: ١١٩، Bianquis, Th., *op. cit.*, p. 76

فى إفريقية . وقد اضطر للجوء إلى نظام الحكم غير المباشر ، عن طريق الاعتماد على رجال العصر السابق ، لحين انتهائه من إتمام فَتْح الوجهين البحرى والقبلى ، ولكنه بعد أن أنهى هذه المهمة «لم يَدَع عَمَلًا إلا جعل فيه مغربيًا شريكًا لمن فيه»[١]. ولكن لما ظَهَر أن هؤلاء المغاربة أكثر إتعابًا للدولة من غيرهم لم يتم ماكان مزمعًا من إخراج العمال القدماء والذين كانوا فى الغالب من الأقباط[٢].

وقد قَطَعَ جَوْهَر خُطْبَة العباسيين من على منابر مصر ، وحَذَفَ اسمهم من على السِّكَّة وأَحَلَّ اسم الخليفة المُعِزّ محل ذلك ، وأزال السَّواد - شعار العَبّاسيين - وأَلْبَس الخطباء فى الجوامع الثياب البيض - شعار الفاطميين[٣]، وأمر بفَتْح دار الضَّرْب بالفُسْطَاط - التى كانت مُعَطَّلَةً فى آخر عهد الإخشيديين[٤] - وضَرَبَ سِكَّةً حمراء[٥] عليها اسم المُعِزّ لدين الله فى سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م[٦].

إصْلَاحات جَوْهَر

١- الدِّينيَّة

كان أَوَّلُ تغيير أثار حنق المصريين خاص بصَوْم رمضان وفِطْره ، الذى أصبح بعد دخول الفاطميين إلى مصر يتم بدون رُؤْيَة الهلال . فشهر رمضان كان دائمًا عند

---

[١] المقريزى : اتعاظ ١: ١١٩.

[٢] آدم متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ١: ١٣٤.

[٣] ابن خلكان : وفيات ١: ٣٧٩؛ الصفدى : الوافى ١١: ٢٢٥؛ المقريزى : اتعاظ ١: ١١٩؛ أبو المحاسن : النجوم تاريخ الخلفاء ٤: ٣٢؛ عماد الدين إدريس : تاريخ الخلفاء ٦٨٤.

[٤] كان آخر دينار ضرب فى عصر الإخشيديين فى سنة ٣٥٥. (محمد أبو الفرج العش : المرجع السابق ٩٣٨).

[٥] السكة هى الدينار والدرهم المضروبان ، سمى كل منهما سكة لأنه طبع بالحديدة المعلمة ، ويقال لها السكة . (المقريزى : الأوزان والأكيال الشرعية (نشرة Tychsen سنة ١٧٩٧م) ٨٦) . والسكة الحمراء هى الدينار المصنوع من الذهب الجيد العيار .

[٦] النويرى : نهاية الأرب ٢٨: ١٣١- ١٣٣؛ المقريزى : المقفى ٣: ١٠٠، واتعاظ ١: ١١٥، ١١٦؛ عماد الدين=

الفاطميين الإسماعيليين ثلاثين يومًا [١]. فقد أَفْطَرَ القائد جَوْهَر وأصحابه فى سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م بغير رؤية وصَلُّوا صلاة عيد الفِطْر بمُصَلَّى القاهرة. ولم يعجب ذلك أهل مصر وصَلُّوا غداة هذا اليوم بالفُسْطاط، لأن القاضى أبا الطاهر الذُّهْلى التمس رؤية الهلال - كما جرت العادة - على سطح جامع عمرو فلم يره، فلما بَلَغ ذلك القائد جَوْهَر أنكره وتَهَدَّد من أعاد فعله، فأشار شهود القاضى عليه أن لا يطلب الهلال ثانية لأن الصوم والفِطْر على الرؤية قد زالا. فانقطع طلب الهلال بمصر طوال حكم الفاطميين [٢].

وفى يوم الجمعة ٨ جمادى الأولى سنة ٣٥٩هـ/٩٧٠م جاء التغييرُ الذى عَبَّرَ عن ترك المذهب السُّنِّى فى مصر لأول مرة، فقد صَلَّى القائد جَوْهَر مع عساكره فى جامع ابن طولون (لم يكن جامع القاهرة قد تم بناؤه فى هذا التاريخ) وأمر المؤذِّنين بالأذان «بحَىّ على خَيْر العَمَل» - وهو من مميزات الأذان عند الشيعة - وكان هذا أوّل ما أُذِّن به فى مصر. ثم أُذِّنَ به فى جامع عمرو بعد أسبوعين فى يوم الجمعة ٢٦ جمادى الأولى

= إدريس: تاريخ الخلفاء ٦٨٦. وجاء على هذه السكة: «دعا الإمام معد لتوحيد الإله الصمد» فى سطر، وفى السطر الآخر «المعز لدين الله أمير المؤمنين»، وفى السطر الثالث «بسم الله. ضرب هذا الدينار بمصر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة» - وفى الوجه الآخر: «لا إله إلّا الله، محمد رسول الله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، علىّ أفضل الوصيين وزير خير المرسلين».

[١] أبو المحاسن: النجوم ٤: ٩٤. فتبعًا للمذهب الإسماعيلى فإن صوم رمضان وفطره يتم بالرؤية والحساب جميعًا، واعتبروهما كالظاهر والباطن، إذا أُشكل الأمر فى أحدهما التمس فى الآخر. فالهلال كالظاهر لأنه مشاهد، والحساب كالباطن لأنه معقول، وهو يستعمل من أول كل سنة ثم يراعى طلوع الهلال، فإن وافق الحساب الرؤية فقد اتفق الظاهر والباطن وزال الإشكال. (المجالس المستنصرية، تحقيق محمد كامل حسين، القاهرة ١٩٤٧، ١٢٨، ١٢٩)، وانظر المقريزى ٢: ٨٧ حيث يورد أمرًا للخليفة الحاكم بتحديد موعد الصوم وموعد الفطر لسنة ٤٠١ وكذلك ٢: ٦٧، والخطط: ٣٤٢. وانظر كذلك حميد الدين الكرمانى: «الرسالة اللازمة فى صوم رمضان وحينه»، تحقيق وتقديم محمد عبد القادر عبد الناصر، مجلة كلية الآداب-جامعة القاهرة ٣١ (١٩٦٩) ١-٥٢؛ Desmet, D., «Comment déterminer le début et la fin du Jeûne de Ramadan? un point de discorde entre sunnites et ismaéliens en Egypte fatimide», *Egypt and Syria in the Fatimid, Ayyubid und Mamluk Eras, Leuven* 1995, pp. 71-84.

[٢] الكندى: الولاة والقضاة ٥٨٤؛ المقريزى: المقفى ٣: ١٠١ والخطط ٢: ٣٤٠ والاتعاظ ١: ١١٦؛ عماد الدين إدريس: تاريخ الخلفاء ٦٩١، ٦٩٩-٧٠٠.

من السنة نفسها ، ثم أُذِّن به بعد ذلك فى سائر مساجد مصر [١] . كذلك أمر جَوْهَر بالجَهْر بالبَسْمَلة فى الصلاة ، وزيادة القنوت فى الركعة الثانية من صلاة الجمعة ، ومَنَعَ من قراءة ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ ﴾ [الآية ١ سورة الأعلى] . وأزال التكبير بعد صلاة الجمعة [٢] ، وأن يُقَال فى الخطبة : « اللَّهم صلِّ على محمد النبى المصطفى ، وعلى علىّ المرتضى ، وعلى فاطمة البتول ، وعلى الحسن والحسين سِبْطى الرسول ، الذين أذْهَبْت عنهم الرِّجْس وطهَّرتهم تطهيرًا ، اللَّهم صلِّ على الأئمة الراشدين آباء أمير المؤمنين ، الهادين المهديين » [٣] .

٢- الاقتصادية

عند قدوم جَوْهَر ، كانت مصرُ تَمُرُّ بأخطر أزمة اقتصادية عرفتها منذ أكثر من قرن وهى أزمة لم تَتَوَقَّف عن التفاقم منذ سنة ٣٥٢هـ / ٩٦٣م واستمرت لمدة ثلاث سنوات بعد الفتح الفاطمى . واهتم جَوْهَر فى أول الأمر بالقضاء على المجاعة واستتباب النظام ومعالجة الأمور بسخاء نِسْبى . وكان هذا أهم ماشغله فنادى فى سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م برفع « البَرَاطيل » [٤] ورَدَّ أمر الحِسْبَة إلى سليمان ابن عَزَّة – وهو تبعًا للمصادر ثانى من تولَّى

---

[١] ابن الأثير : الكامل ٨: ٥٩٠؛ ابن خلكان : وفيات ١: ٣٧٩؛ ابن حماد : أخبار ٥٠؛ ابن سعيد : المغرب ٢٠١؛ ابن أيبك : كنز ٦: ١٢٥؛ الصفدى : الوافى ١١: ٢٢٥؛ ابن خلدون ٤: ٤٨؛ المقريزى : المقفى ٣: ١٠٧، والخطط ٢: ٢٧٠، ٣٤٠ والاتعاظ ١: ١٢٠- ١٢١؛ أبو المحاسن : النجوم ٤: ٣٢؛ السيوطى : حسن المحاضرة ١: ٥٩٩؛ ابن إياس : بدائع ١/ ١: ١٨٥.

[٢] ابن خلكان : وفيات ١: ٣٧٦ و ٣٧٩؛ المقريزى : المقفى ٣: ١٠٣ واتعاظ ١: ١١٩- ١٢١؛ عماد الدين إدريس : تاريخ ٦٩٥.

[٣] نفسه ١: ٣٧٦؛ النويرى : نهاية ٢٨: ١٣١؛ الصفدى : الوافى ١١: ٢٢٥؛ المقريزى : المقفى ٣: ١٠١، والخطط ٢: ٣٤٠ واتعاظ ١: ١١٧؛ أبو المحاسن : النجوم ٤: ٣٢. وانظر مقال ياكوب ليف Lev, Y., «The Fâtimid Imposition of Ismâʿilism on Egypt (358-386/969-996)», *ZDMG* 138 (1988), pp. 313-25 .

[٤] المقريزى : المقفى ٣: ١٠٢ والاتعاظ ١: ١١٧ والبراطيل هى الأموال التى تؤخذ من ولاة البلاد ومحتسبيها وقضاتها وعمالها على سبيل الرشوة . (الخطط ١: ١١١) ذلك أن جوهر قد وعدنى أمانه بإسقاط الرسوم الجائرة التى لا يرضى عنها أمير المؤمنين .

الحِسْبَة فى زمن الفاطميين - فضَرَبَ فى سنة ٣٥٩هـ/٩٧٠م جماعةً من الطَحّانين وطاف بهم البلد ، وجَمَعَ القَمّاحين وسَمَاسِرَة الغِلال فى موضع واحد ، ولم يجعل لمكان البيع غير طريق واحدة فكان لا يخرج قَدَح قمح إلّا ويقف عليه [١]. ومع ذلك ، فقد استمر الغلاء إلى سنة ٣٦٠هـ/٩٧١م بسبب قصور مَدّ النيل مما أدّى إلى اشتداد الوباء وتَفَشّى الأمراض وكثرة الموت إلى أن انحلّ السّعر وأَخْصَبَت الأرض وظهرت بوادر الرخاء فى سنة ٣٦١هـ/٩٧٢م [٢].

ولما كانت الزراعة هى عَصَبُ الاقتصاد المصرى ، فقد وَجَّه القائد جَوْهَر عنايته إلى تجديد ما فَسَدَ من جسور وقناطر وغير ذلك [٣]. كذلك ضاعف ضريبة الأرض (الخَرَاج) من ثلاثة دنانير ونصف إلى سبعة دنانير للفدان الواحد وزاد قيمة قَبالَة الأراضى بغرض سد حاجته للمال لتغطية نفقاته المباشرة . وقد بَلَغَ قيمة ماجباه فى سنة ٣٥٩هـ/٩٧٠م ٣,٤٠٠,٠٠٠ دينار [٤]، وفى سنة ٣٦٠هـ/٩٧١م ٣,٢٠٠,٠٠٠ دينار [٥]، ولم تتكرّر هذه القيمة بعد ذلك أبدًا [٦]. والغريب أننا لا نعرف كيف تمكّن المصريون من دَفْع هذ الخراج المضاعف مع قصور النيل والأزمة الإقتصادية التى كانوا يمرون بها !

٣- النَقْـدِيَة

عمل جَوْهَر على إصلاح النظام النقدى المعمول به فى مصر ، فقد جاء فى أمانه وَعْدٌ بإصلاح العملة المصرية وضربها على العيار الذى عليه العملة الفاطمية فى إفريقية [٧].

---

[١] المقريزى : إغاثة الأمة ١٣، ١٤ واتعاظ ١: ١٢٠ والخطط ٢: ٣٤٠.
[٢] نفسه ١٤؛ نفسه ١: ١٢٨.
[٣] ابن زولاق : فضائل مصر ٤٧ ظ؛ المخزومى : المنهاج فى علم خراج مصر ٣، ٤٤ ابن إياس : بدائع ١/ ١: ١٩١.
[٤] ابن حوقل : صورة الأرض ١٦٣؛ المقريزى : الخطط ١: ٨٢، ٩٩، وعن نظام القَبالَة انظر فيما يلى الفصل الرابع عشر .
[٥] أبو المحاسن: النجوم ١: ٤٦.
[٦] قارن ، المقريزى : الخطط ١: ٩٩- ١٠٠.
[٧] المقريزى : المقفى ٣: ٩١ والاتعاظ ١: ١٠٤.

فاستجدَّ ضَرْب دينار عالى القيمة هو « الدِّينار المُعِزِّى » الذى يقرب وزنه وقيمة نقائه من أربعة وعشرين قيراطًا[١]. ففى زمن الفَتْح كان المصريون ، كما فى سائر البلاد الإسلامية ، يستخدمون نقودًا ذهبية وفضية ونحاسية بالإضافة إلى نقود وسيطة مُخَلَّطة ، وكانت الدنانير تُحْفَظ كرصيد ولا تُدْفَع إلّا فى المشتريات الضخمة ، وعلى الأخص المشتريات العقارية . أما بالنسبة للحياة اليومية فقد كان من الضرورى استبدال قطع فضية مقابل الدنانير لدى أحد الصَّيارِفَة . وتوجد بين الدينار الذهب والدرهم الفضة علاقة رسمية بما أن الاثنين ضُربا فى دار ضَرْب الحكومة ، ولكن قوانين العرض والطلب جعلت الصَّيارِفَة يُطَبِّقون علاقة أخرى تبعًا للسوق[٢]. وكان الدينارُ المستخدم فى مصر عند الفَتْح الفاطمى هو « الدِّينار الرَّاضى » الذى ضَرَبَه العَبَّاسيون . كذلك كانت تستخدم دنانير من الفضة المذهبة يُعْرف واحدها « بالدينار الأبيض » ، وهو دينارٌ منخفض القيمة حيث ترتفع فيه كثيرًا نسبة الفضة . وبعد أن ضرب جَوْهَر « الدينار المُعِزّى » فى سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م عمل على تثبيت قيمة صرف الدِّينار الرَّاضى عند خمسة عشر درهمًا بينما بلغت قيمة الدينار المُعِزّى خمسة وعشرين درهمًا[٣]. ومَنَعَ من تداول الدينار الأبيض الذى لم تتعد قيمته عشرة دراهم ، فضَجَّ نَفَرٌ من المصريين بالشكوى فأبقاه ولكنه خَفَّضَ قيمته إلى ستة دراهم ، مما أدَّى إلى تلفه وإفلاس بعض الناس مما دفعه إلى إعادة تقدير قيمته فى سنة ٣٦٢هـ/٩٧٣م ورفعها إلى ثمانية دراهم[٤]. وبعد وصول المُعِزّ إلى مصر تلاشى استخدام الدينار الراضى والدينار الأبيض

---

[١] المقريزى : النقود الإسلامية ٦٥.

[٢] Bianquis, Th., *op. cit.*, p. 78 .

[٣] المقريزى : المقفى ٣: ١٠٥ والاتعاظ ١: ١٢٢ بينما يذكر ابن ميسر : أخبار ١٦٤ والمقريزى : الخطط ٢: ٦ والنقود الإسلامية ٦٥ أن قيمته كانت خمسة عشر درهمًا ونصفًا ، وراجع كذلك Rabie, H., *The Financial System of Egypt*, pp. 163-164 .

[٤] المقدسى : أحسن التقاسيم ٢٠٤؛ المقريزى : الاتعاظ ١: ١٣٢، ٢٢٢ والمقفى ٣: ١٠٥.

فقد امتنع يعقوب بن كِلِّس وعُسْلوج بن الحسن أن يأخذا قيمة الخراج وقَبَالَة الأراضى إلا بالدينار المُعِزّى [١].

تأمينُ الحُدُود

ما أن انتهى جَوْهَر من السيطرة على كل الأراضى المصرية عمل على تأمين الدفاع عن الحدود المصرية فى الجنوب وفى الشمال.

١- النُّوبَة

ففيما يخص الحدود الجنوبية أرسل جَوْهَر أحد سكان أُسْوان هو عبد الله بن أحمد بن سُلَيْم الأُسْوانى برسالة إلى قيرقى (جورج) ملك النوبة يحثه فيها على إعادة دفع البَقْط [٢]، الذى كان قد قطعه فى آخر عهد الدولة الإخشيدية، ويدعوه بحضور شاهدين إلى ترك النَّصْرانية واعتناق الإسلام [٣]. ويبدو أن ابن سُلَيْم لم يُوَفَّق فى مَسْعاه الأخير ولكنه انتهز هذه الفرصة وقام برحلة إلى مملكة النوبة زار خلالها فيما يبدو فقط المنطقة الجنوبية المعروفة بعَلْوَة، حيث إنه لا يوجد بين أيدينا ما يفيد أنه زار منطقة البُجَة. وهذه الرحلة التى أسماها «أخبار النوبة والمَقُرة وعَلْوة والبُجَة والنيل» والتى احتفظ لنا المقريزى وابن إيَّاس والمُنُوفى بنقول هامة منها هى التى

---

[١] ابن ميسر: أخبار ١٦٤؛ المقريزى: الخطط ٢: ٦ والنقود الإسلامية ١٣-١٤.

[٢] هذه الكلمة تعنى الضريبة السنوية التى كانت تدفعها النوبة المسيحية للدولة الإسلامية فى مصر كضريبة مقابل الهدنة المعقودة بينهما، وهى عبارة عن ٣٦٥ رأسًا من السبى لبيت مال المسلمين بالإضافة إلى أربعين رأسًا تحمل لأمير مصر وعشرين رأسًا لوالى أسوان الذى يتولى قبض هذا البَقْط، وخمسة للأمير المقيم فى أسوان، واثنى عشر رأسًا للاثنى عشر شاهد عدل الذين يحضرون مع الحاكم قبض البقط. (البلاذرى: فتوح البلدان ٢٨١، ٢٨٢؛ المسعودى: مروج الذهب ٢: ١٢٩، ١٣٠؛ المقريزى: الخطط ١: ١٩٩-٢٠٢، وانظر كذلك Lokkegaard, F., *EI²* art. Bakt I, p. 996; Beshir, B.I., «New Light on Nubian Fatimid Relations», *Arabica* XXII (1975), p. 16.

[٣] المقريزى: المقفى ٤: ٥٧٤.

حَفِظَت خبر هذه الرسالة التى أرسلها جَوْهَر إلى ملك النوبة [١].

كذلك فقد ذكر لنا ابن زولاق (ت ٣٨٦هـ/٩٩٦م) وجود «رباط الحرس من جهة الحَبَش والبُجَة وما يقرب منهم، ورباط أسوان على النوبة، ورباط الواحات على البربر والسودان» [٢]، وهذا النَّصُّ يدلُّ على وجود استحكامات دفاعية أمام الحدود الجنوبية قد تعود إلى ماقبل الفتح الفاطمى. ولم يتبق من آثار هذه الاستحكامات شيء اليوم، فآثار المنائر الموجودة اليوم فى الصَّعيد الأعْلى فى أسوان والمَشْهد البحرى والمَشْهد القِبْلى والأقصر وإسْنا والتى شُيِّدَت وِفْقًا لطراز أسطوانى لتيسير مهمة المرابطين للحراسة ترجع كلها، تبعًا لما أثبته حسن الهَوَّارى وكريزويل، إلى عهد أمير الجيوش بدر الجمالى [٣] بينما يرى إبراهيم شبوح أن منارة الطابية والمشهد البحرى بأسْوان ترجع إلى أواسط القرن الثالث فى أيام المتوكل العَبّاسى [٤].

٢- فَتْحُ الشَّام

كانت السيطرة على الشام تُمَثِّل دائمًا أوَّلِيَّة استراتيجية لكل نظام يتَوَلَّى حكم مصر. فعلى ذلك أرسل جَوْهَر أحدَ قادة كُتَامَة الذين شاركوا فى فَتْح مصر هو جَعْفَر بن فَلاح

---

[١] عن هذا الشخص انظر، المقريزى: المقفى ٤: ٥٧٤، ٥٧٥ والخطط ١: ١٩٠؛ كراتشكوفسكى: تاريخ الأدب الجغرافى العربى ١٩٢، ١٩٣، Brockelmann, *GAL SI,* 410; Troupeau, G., «La description de La Nubie d'al-Uswânî», *Arabica* I (1954), pp. 276-288; Yusuf F. Hasan, *EI*[2] art. Ibn *Sulaym al-Uswânî* III, p. 973; Fu'ad Sayyid A., «Lumières nouvelles sur quelques sources de l'histoire fatimide en Egypte», *An. Isl.* XIII (1977), p. 5; Kheir, H. M., «A Contribution to a Textual Problem: Ibn Sulaym al-Aswani's Kitâb Akhbâr al-Nûba wal-Maqurra wal-Bega Wal-Nil», *An. Isl.* XXI (1985), pp. 9-72; Cuoq, J., *Islamisation de la Nubie chrétienne VII-XVI siècles,* Paris 1986, pp. 55-63.

[٢] إبراهيم شبوح: «حول منارة قصر الرباط بالمنستير وأصولها المعمارية»، مجلة إفريقية ٣، ٤ (١٩٧١-٧٢) ١٠.

[٣] Al-Hawwary, H. M., «Trois minarets Fatimides à la frontière nubienne», *BIE* XVII (1934-35), p. 146; Creswell, K. A. C. *MAE* I, pp. 146-155.

[٤] إبراهيم شبوح: المرجع السابق ١٠-١٣.

الكُتَامى على رأس جيش إلى الشام تَمكَّن من فتح الرَّمْلَة ثم دِمَشْق وإقامة الدَّعْوة بهما للخليفة المُعِزّ فى سنة ٣٥٩هـ/٩٧٠م . وأتم جعفر فَتْح الشام فى سنة ٣٦٠هـ/٩٧١م ودخلت قواته فى مواجهة مع البيزنطيين فى أنطاكيا . كذلك فقد اعترف حُكّام حَلَب الحمدانيون بالخلافة الفاطمية . وهكذا ومع نهاية عام ٣٦٠هـ/٩٧١ كان الأذان بـ« حَىّ على خير العمل » يُطلق من على كل مآذن مصر والشام[١].

إذن كان فَتْحُ الشام امتدادًا طبيعيًا لفتح مصر ؛ فقد كانت الشام ستُتَّخَذ كقاعدة انطلاق للهجوم الأخير الذى كان سيَحْمِل جيوش الفاطميين إلى بَغْداد لتضع نهايةً لحكم البويهيين وللخلافة العَبّاسية . ولكن موقعة دمشق مع القرامطة – الذين استغاثت بهم فلول الإخشيديين – ومَقْتَل جعفر بن فلاح فى ٦ ذى القعدة سنة ٣٦٠هـ/٣١ أغسطس سنة ٩٧١م وَضَعَت نهايةً لهذه الأوهام .

وكان الإخشيديون فى مصر ، فى نهاية عهدهم ، يدفعون إلى القَرامِطَة مبلغًا كبيرًا من المال قيمته ٣٠٠,٠٠٠ دينار فى السنة ، مقابل تأمين سلامة وصول القوافل المارة فى الطرق البرية من مصر وسوريا إلى الحجاز . ولكن الفاطميين ، بعد فتحهم الشام فى سنة ٣٦٠هـ/٩٧١م ، قطعوا هذه المعونة ، مما أثار غضب القَرامِطَة وجعلهم لايتردَّدون عن مهاجمة الفاطميين فى مصر[٢].

---

[١] راجع عن فتح الفاطميين للشام ، يحيى بن سعيد : تاريخ ١٣٨؛ ابن ظافر ، أخبار ٢٤، ٢٥؛ ابن الأثير : الكامل ٨: ٥٩١- ٥٩٢؛ ابن خلكان : وفيات ١: ٣٦١؛ ابن سعيد : النجوم١٠٣- ١٠٤؛ النويرى : نهاية ٢٨: ١٣٥- ١٣٩؛ الصفدى : الوافى ١١: ١٢٢، ١٢٣؛ ابن خلدون : تاريخ ٤: ٤٨، ٤٩؛ المقريزى : المقفى ٣: ٥٠- ٥٨، اتعاظ ١: ١٢٠، ١٢٢- ١٢٩؛ درويش النخيلى : فتح الفاطميين للشام فى مرحلته الأولى ، الإسكندرية ١٩٧٩؛ خاشع المعاضيدى : الحياة السياسية فى بلاد الشام خلال العصر الفاطمى ، بغداد ١٩٧٦، ٢٢- ٢٩؛ أمينة البيطار : موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين حتى أواخر القرن الخامس الهجرى ، دمشق ١٩٨٠، ٣٢- ٥١؛ Bianquis, Th., *Damas et la Syrie sous la domination fatimide,* Damas 1986, pp. 44-64; Lev, Y., «Fatimid Policy towards Damascus (358/ 968-386/ 996) Military, Political and Social Aspects», dans *Jerusalem Studies in Arabic and Islam* III (1981-82), pp. 165-183.

[٢] ابن الأثير : الكامل ٨: ٤٥٢؛ ابن خلدون : تاريخ ٤: ٥٠؛ Shaban A., *op. cit.* p. 197.

٣- الحزبُ القَرمَطِية الأولى

كان هجومُ القَرامِطَة على مصر هو أوَّل خطر حقيقى يواجه الدولة الفاطمية بعد انتقالها إلى مصر. تمكَّن القائد جَوْهَر بحنكته الحربية من صَدِّ هذا الهجوم الذى كان ينتظره؛ فقد أخذ وهو يؤسِّس مدينة القاهرة فى مباشرة بعض الأعمال الدفاعية، فأخذ فى حَفْر خَنْدَق كبير أمام الأسوار الشمالية للقاهرة بين المُقَطَّم والخليج [١]، وأقام قنطرةً على الخليج فى مواجهة الباب الشمالى الغربى للمدينة، الذى صار منذ هذا التاريخ يعرف بباب القَنْطَرَة، لتسهيل الانتقال إلى جهة المَقْس، كما أن بابين أُخِذا من ميدان الإخشيديين كانا يتحكمان فى المداخل الأساسية لهذا الخندق [٢].

كذلك فقد حَفَر خَنْدقًا آخر شرق المدينة يبدأ جنوبًا من عند بركة الحَبَش ويخترق القَرافَة إلى أن يصل إلى موضع قبر الإمام الشافعى موازيًا فى قسم منه الخَنْدَق القديم الذى كان قد حَفَرَه عبد الله بن جَحْدَم فى سنة ٦٨٣/٦٤م [٣]، ثم يدور ناحية الشرق تجاه المُقَطَّم وحتى موقع قبر كافور. وهذا كله حتى يتحاشى مجىء القَرامِطَة من جهة الشرق مخترقين الطريق الذى يربط الفُسْطاط بمدينة القُلْزم.

---

[١] راجع، المقدسى، أحسن التقاسيم ١٩٨، يحيى بن سعيد: تاريخ ١٤٢؛ ابن ظافر: أخبار ٢٥؛ ابن أيبك: كنز الدرر ٦: ١٤٣؛ القلقشندى: صبح ٣: ٣٥؛ المقريزى: الخطط ٢: ١٣٧، اتعاظ ١: ١٢٩، ١٣٠، ١٣١؛ السيوطى: حسن المحاضرة ٢: ٢٨٠. وعن الخندق راجع المقريزى: الخطط ١: ٣٦٠، ٢: ١٣٦، ١٣٧، ١٩٧، المقفى ٣: ١٠٦.

[٢] القلقشندى: صبح ٣: ٢٢٩- ٢٣٥؛ المقريزى: الخطط ١: ٣٨٢، ٣٨٣، ٢: ١٤٧؛ أبو المحاسن: النجوم ٤: ٣٩؛ عماد الدين إدريس: تاريخ الخلفاء ٧١٤- ٧١٦.

[٣] الكندى: الولاة والقضاة ٤٤؛ المقريزى: الخطط ١: ٣٠١، ٢: ٤٥٨؛ أبو المحاسن: النجوم ١: ١٥٨، ١٦٥- ١٦٨، ١٧١.

وقد شجّع هجوم القَرامِطَة أهالى الفَرَمَا وتِنِّيس على التمرد على الفاطميين فَغَيَّروا دعوتهم ولبسوا السَّواد – شعار العَبّاسيين – ولم يرجع الهدوء الدائم إلى هذه الأقاليم إطلاقًا بين سنتى ٣٦٠هـ/٩٧١م و٣٦٣هـ/٩٧٤م حتى تمكّن جيشٌ بقيادة أبى محمد بن عمّار كانت تحت إمرته أكثر من عشرة آلاف رجل من القيام بسلسلة من عمليات الرَّدْع العنيف لسكان هذه المناطق [١].

المُعِزُّ لدين الله يَصِلُ إلى القاهرة

عندما أصبحت الظروف مهيَّأةً لاستقبال الخليفة المُعِزّ لدين الله فى «القَاهَرة»، العاصمة الخليفية الجديدة، التى أراد الفاطميون بإنشائها أن تكون عاصمةً لإمبراطورية واسعة ينشرون من خلالها مذهبهم الدينى فى كل الأراضى الإسلامية، مُسَخِّرين لذلك كافة إمكانات مصر ومواردها لإضفاء العَظَمَة والأُبَّهة عليها لتكون جديرة بالإحلال محل بَغْدَاد فى حكم العالم الإسلامى، كَتَبَ جَوْهَرُ إلى المُعِزّ يدعوه للحضور إلى مصر.

كان انتقالُ الفاطميين إلى مصر انتقالًا بمعنى الكلمة، ولم يكن تَوَسُّعًا بغرض كَسْب أراضٍ جديدة للخلافة الفاطمية. فعندما كتب جَوْهَر إلى المُعِزّ يدعوه للحضور إلى القاهرة قَطَعَ الفاطميون كل صِلَةٍ لهم بإفريقية، فقد نَقَلَ المُعِزُّ معه كل ذخائره وأمواله [٢] وحتى

---

[١] المقريزى: اتعاظ ١: ١٣٠؛ Bianquis, Th., *La prise de pouvoir* p. 86 .

[٢] الكندى: الولاة والقضاء ٢٩٨؛ ابن زولاق: فضائل مصر ٤٦ ظ-٤٧ و؛ يحيى بن سعيد: تاريخ ١٣٩؛ ابن ظافر: أخبار ٢٥؛ ابن الأثير: الكامل ٨: ٦٢٠؛ ابن خلكان: وفيات ٥: ٢٢٦، ٢٢٧؛ النويرى: نهاية ٢٨: ١٤٠؛ المقريزى: الخطط ١: ٤٣٢، الاتعاظ ١: ١٠٠؛ أبو المحاسن: النجوم ٤: ٣٣١.

توابيت آبائه حملها معه وهو فى طريقه إليها [١]. واستَخْلَفَ على إفريقية أسرةً بربريةً محليةً هى «أسرة بنى زيرى» كان على رأسها يوسف بن بُلُكين الصِّنْهاجى [٢]، واستَخْلَفَ على حكم صِقِلِّيَة أسرةً عربيةً تنتسب إلى قبيلة بنى كَلْب، أما طَرابُلُس فقد عَهِد بها إلى عبد الله بن يَخْلِف الكُتامى [٣]. وإذا كان المُعِزُّ قد أبْعَد يوسف بن بُلُكين عن صِقِلِّيَة وَطرابُلُس فذلك لأنه لم يُرِد أن تكون له قدمٌ فى أوربا، أو يكون بمستطاعه التحكُّم فى الطريق إلى مصر. وبذلك فإن دورَه تَرَكَّز فى ضَمانِ أمن الشمال الإفريقى ومحاولة مناوشة أمويى الأندلس ووَضْع يده على ما يستطيع الوصول إليه فى إفريقيا جنوب الصحراء.

سياسةُ الفاطميين تجاه المصريين

نَبَعَت قُوةُ الدولة الفاطمية من قدرتها على الاستفادة من إمكانات كل الأفراد المنتمين إلى مختلف التكتلات العنصرية والاجتماعية التى كانت تُؤَلِّف مجموع الشعب المصرى، استفادةً لم يسبق لها مثيل من قبل [٤]. فقد استعان الفاطميون بالعناصر الأجنبية، لاسيما المغاربة والأتراك والدَّيالمة والسُّودان والأرْمَن، وأفادوا بخبرة أهل الذِّمَّة، ولاسيما بمعرفة الأقْباط بالمسائل المالية، وعَهدوا إليهم بالوظائف الرئيسية فى الدولة التى أُبْعِدَ عنها المسلمون السُّنِّيون [٥].

وهكذا فقد ظَلَّ الفاطميون فى حكمهم مصر كحكومة أقلية منفصلة عن مجموع رعاياها بسبب آرائهم الدينية، مما أفقدهم تأييد أهل البلاد الحقيقيين. وقد أدْرَكَ

---

[١] ابن زولاق: فضائل ٢٤٧؛ النويرى: نهاية ٢٦: ٤٣؛ ابن دقماق: الانتصار ٥: ٣٦؛ المقريزى: المقفى ٢: ١٧٩، الخطط ١: ٣٥٣، ٤٠٧؛ عماد الدين إدريس: تاريخ الخلفاء الفاطميين ٧٣٨؛ ابن إياس: بدائع الزهور ١/ ١: ١٨٧، ١٨٨.

[٢] ابن الأثير: الكامل ٨: ٦٢٠- ٦٢٥؛ ابن خلكان: وفيات ٥: ٢٢٦؛ ابن سعيد: النجوم ٤٤: ٥٥؛ ابن عذارى: البيان المغرب ١: ٢٢٨، ٢٩٦؛ النويرى: نهاية ٢٤: ١٥٥؛ ابن خلدون: تاريخ ٤: ٤٩؛ المقريزى: الخطط ١: ٣٥٣، الاتعاظ ١: ٢٩٩؛ أبو المحاسن: النجوم ٤: ٧٢، Idris, H.R., *La Berbérie Orientale sous les Zirides X-XII siècles*, Paris 1962, I, pp. 127-142.

[٣] نفسه ٨: ٦٢٠.

[٤] Grunebaum, G.E. «The Nature of the Fatimid Achievment», *CIHC*, p. 200

[٥] يحيى بن سعيد: تاريخ *Patr. Or.* (1932) p. 509

الفاطميون أن الإسماعيلية لم تَتَجذَّر فى شمال إفريقيا بعد عشرات السنين من الدعاية، برغم مناسبة البيئة لذلك، كما أن مصر بما فيها من ذِمِّيين ومسلمين على مذهب السُّنَّة لن تكون أرضًا خِصْبَة للتبشير [١]. فلم يعمد المُعِزُّ إلى نَشْر الدَّعْوة فى مصر إلَّا فى أضْيَق الحدود، فنادرًا ما جَرَت أيةُ محاولةٍ لحَثِّ الشعب المصرى على اعتناق المذهب الإسماعيلى [٢]، واكتفى الفاطميون فقط بإسناد مناصب الدولة العُلْيا إلى أهل الذِّمَّة أو إلى من يعتنق مذهبهم. وعلى ذلك فإنه بعد أكثر من مائتى عام من الحكم الفاطمى فى مصر، لم يكن بها إسماعيلى واحد سوى من ارتبط بالسلطة الحاكمة. فقد كان الفاطميون يدورون فى حَلْقَة مفرغة، فمن حيث إنهم فَشَلوا مبدئيًا فى كَسْب كل العالم الإسلامى لصَفِّهم، نراهم فى نفس الوقت مضطرين للحفاظ على تحدّياتهم الإيديولوجية، الأمر الذى عَزَلَهم عن إجماع المسلمين، وبهذا تَسَبَّبوا فى إلحاق الهزيمة بأنفسهم وفى اختفائهم من المسرح السياسى.

وقد استعاض الفاطميون عن تحويل مسلمى مصر إلى المذهب الإسماعيلى بكسب ودّ أهل الذِّمَّة. فقد انتهج الفاطميون سياسةً اتسمت بـ «التَّسَامُح الدِّينى» مع أهل الذِّمَّة، الذين يحق لهم - إذا استثنينا الاضطهاد الذى تعرّضوا له فى زمن خلافة الحاكم بأمر الله - أن يعتبروا العصر الفاطمى عصرهم الذهبى الذى تمكَّنوا فيه من الاندماج الحقيقى فى الحياة السياسية العامة للدولة فى مصر. وهذا التَّسامُح لم يتَمَتَّع به حتى المسلمون من أهل السُّنَّة. ولعل انتقال ابن كِلِّس - اليهودى الذى أسلم فى آخر عهد كافور - إلى إفريقية ودعوته المُعِزّ لفَتْح مصر، ثم الدور الهام الذى لعبه بعد ذلك فى مصر كوزير وأهمية الطائفة اليهودية فى العصر الفاطمى، تجعلنا نظن تمامًا أن الفاطميين حاولوا كَسْب وُدِّ هذا العنصر النشيط من الشعب المصرى [٣].

---

[١] Shaban, A., *op. cit.*, p. 198.

[٢] المقريزى: الخطط ٢: ٣٤١- ٣٤٢.

[٣] Wiet, G., *L'Egypte arabe* pp. 118, 184.

ولاشك أن مصر فى العصر الفاطمى قد أصبحت - بفضل سياسة الفاطميين الاقتصادية المتفتحة والمتسامحة - أكثر مفترقات الطرق التجارية نشاطًا فى العالم الإسلامى . وفى هذه الظروف سرعان ماوَجَد يهودُ مصر أنفسهم كما توافد إلى مصر مهاجرون يهود جدد ، فى أعقاب انتصار الفاطميين ، من المغرب ومناطق أخرى فى الشرق الأوسط [١].

وحتى منتصف القرن الخامس الهجرى كان يقوم بخدمة الخلفاء الفاطميين سلسلة من الأطباء اليهود أسَّسها طبيب المُعِزّ موسى بن العازار اليهودى (بَلْطيال بن شَفْطيا) [٢]. ومن الجائز أن الفاطميين فَضّلوا استخدام الكُتّاب والأطباء من اليهود والنَّصارى ، لأن وَضْعَ هؤلاء كذِمِّيين ضمن ولاءهم للحاكم بما يفوق الأكثرية السُّنِّية [٣].

وقد بَدَت سياسةُ التسامح التى اتَّبعها الفاطميون واضحةً منذ وصول الخليفة المُعِزّ إلى مصر . فقد طَلَبَ إليه أفرهام السُّرْيانى ، البَطْرَك الثانى والستين ، أن يُمَكِّنه من بناء كنيسة أبى مَرْقورَة بالفُسْطاط ، وكذلك الكنيسة المُعَلَّقة بقصر الشَّمْع ، فكتب له سِجلًّا يُمَكِّنه من ذلك وأطلق له من بيت المال ما يصرفه على هذه العمارة ، فتَصَدَّى الناسُ للأقْباط ومنعوهم من البدء فى عملية البناء ، فجاء المُعِزُّ وأشرف بنفسه على بناء أساس الكنيستين ، ثم أمر ببناء كل الكنائس التى تحتاج إلى عمارة دون أن يعترضه أحدٌ فى ذلك [٤].

---

[١] كوهن ، م : المجتمع اليهودى فى مصر الإسلامية فى العصور الوسطى ، جامعة تل أبيب ١٩٨٧، ١٦.

[٢] ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، القاهرة ١٨٨٢، ٢: ٨٦؛ القفطى : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، القاهرة ١٣٢٦هـ ، ٢١٠، ٢١١؛ ساويرس بن المقفع : تاريخ البطاركة ٢/ ٢: ٩٢، ٩٣؛ المقريزى : اتعاظ ١: ١٤٤، ١٤٦، المقفى ٢: ٥٧؛ حسن حسنى عبد الوهاب : ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية ، تونس ١٩٦٥، ١: ٣٠١- ٣٠٤؛ Lewis B., «Palial: A Note», *BSOAS* 30 (1967), pp. 177-181 .

[٣] كوهن : المرجع السابق ١٩.

[٤] ساويرس بن المقفع : تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية ٢/ ٢: ٩٦، ٩٧؛ أبو صالح : تاريخ ٤٥؛ المقريزى : اتعاظ ١: ٢٢٥. وقارن ذلك بما فعله محمد بن طغج الإخشيد عندما بذل له النصارى مالًا ليسمح لهم بإعادة عمارة قطعة انهدمت من كنيسة أبى شنودة ، فاستفتى الفقهاء فى ذلك فلم يجيزوه فيما عدا واحد أفتى بأن لهم حق ترميمها ، وكيف ثار الناس على هذا القاضى . (ابن سعيد : المغرب ١٨٣، ١٨٤).

ولما كان وَلَدُه الخليفة العزيز بالله متزوِّجًا من نَصْرانية على المذهب الملّكانى ، فقد جعل أخاها أُرِسْتَس Aureste بَطْريركًا على بيت المقدس سنة ٣٧٥هـ/٩٨٦م ، وجعل أخاها الآخر أرْسانيوس Arsenius بَطْرَكًا للملكية بمصر [١]، الأمر الذى ساعد على توطيد العلاقة بينه وبين بيزنطة .

واستمرارًا لروح التَّسامُح الدينى هذه ، عَهِد العزيزُ بالله ، فى أعقاب وفاة ابن كِلّس ، إلى عيسى بن نَسْطورِس النصرانى بتولّى دواوين الدولة فى سنة ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م ، واستناب على الشام يهوديًّا يُدْعى مِنَشَّا بن إبراهيم القَزّاز مما مَكَّنَ لأهل الذِّمّة فى زمانهما ، وأثار حفيظة المسلمين السُّنَّة عليهما [٢]. ووَجَد أهلُ الفُسْطاط - مركز المقاومة السنية فى مصر - فى ذلك فرصةً سانحةً للتعبير عن سخطهم على هذا الوضع . فيروى لنا ابن الجَوْزى أن أهل الفُسْطاط جعلوا امرأة (ربما تمثالًا على هيئة امرأة) تعترض طريق الخليفة وتُقَدِّم له ورقة فيها : « بالذى أعَزَّ اليهود بمِنَشَّا ، والنَّصارى بابن نَسْطورِس ، وأذَلَّ المسلمين بك ، إلّا نظرت فى أمرى ؟ » . وقد اضطر الخليفة أمام تَذَمُّر أهل مصر من هذا الوضع إلى القَبْض عليهما وأَخَذَ من ابن نَسْطورِس ثلاثمائة ألف دينار [٣].

المُعِزّ لدين الله وولاية عَهْده

عَيَّنَ المعز لدين الله لولاية عهده ابنه نِزار ، رغم أنه ليس صاحب الحق فى ذلك تبعًا للنظام الإسماعيلى . وكان المُعِزّ ، وهو مازال فى إفريقية ، قد عَيَّنَ لولاية عهده ابنه الأوسط عبد الله [٤] متخطيًا ابنه الأكبر تميم ، صاحب الحق الشرعى تبعًا للعقيدة

---

[١] يحيى بن سعيد الأنطاكى : تاريخ ١٦٤، ١٦٥؛ ساويرس بن المقفع : تاريخ بطاركة الكنيسة ٢/٢: ١١٣.

[٢] أبو شجاع : ذيل تجارب الأمم ١٨٦؛ ابن القلانسى : ذيل ٣٣؛ ابن ظافر : أخبار ٤٠- ٤١؛ ابن الأثير : الكامل ٩: ٧٧، ١١٦؛ النويرى : نهاية الأرب ٢٨: ١٦٣، ١٦٤؛ المقريزى : اتعاظ : ١: ٢٩٧.

[٣] ابن الجوزى : المنتظم ٧: ١٩٠؛ ابن ظافر : أخبار ٤٠؛ أبو المحاسن : النجوم ٤: ١١٥، ١١٦؛ ابن إياس : بدائع الزهور ١/١: ١٩٦.

[٤] الجوذرى : سيرة الأستاذ جوذر ١٣٩، ١٨٧، ١٨٨؛ يحيى بن سعيد : تاريخ ١٤٢؛ ويذكر عماد الدين إدريس : =

الإسماعيلية ، لأنه كان يحيا حياة عابثه بعيدة عما يجب أن يتحلّى به من يُرَشّح لإمامة المؤمنين [١] .

ظَلّ عبد الله ، بعد انتقال الفاطميين إلى مصر ، هو وَلِيّ عهد المُعِزّ ، وكان له دورٌ فى انتصار الفاطميين على القَرامِطَة فى سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م [٢]؛ إلا أنه توفى فجأة فى حياة أبيه من مرض ناله بعد قليل من عودته من حرب القَرامِطَة [٣]، الأمر الذى قلب نظام الإمامة الفاطمية . فقد كان على المُعِزّ أن يَنُصّ بولاية العهد إلى حفيده ابن عبد الله استنادًا إلى قاعدة ترجع إلى عصر جعفر الصّادق ، الذى مات ابنه إسماعيل فى حياته ،فأصبح محمد بن إسماعيل ، تبعًا للعقيدة الإسماعيلية ، هو صاحبُ الحَقّ الشّرْعى فى الإمامة ؛ لأن الإمامة لا تنتقل من أخٍ إلى أخيه بعد أن انتقلت من الحسن إلى الحسين ، وأنها يجب أن تكون فى الأعقاب .

وبتعيين المُعِزّ لابنه الثالث نِزار وَلِيًا لعهده يكون قد تجاهل هذه القاعدة الأساسية فى العقيدة الفاطمية . وسنرى هذا التجاوز يتكرّر بعد ذلك مرتين فى تاريخ الدولة الفاطمية . ولكنه فى هذا الوقت ، أوجد صعوبات ضخمة أدّت إلى انقسام الدعوة الفاطمية على نفسها . وكان ذلك سببًا فى ضَعْف الخلافة وفى وصول خلفاء صغار السن إلى كرسى الإمامة ، وكذلك إلى ازدياد نفوذ كبار رجال الدولة ونساء القصر الذين فرضوا الخليفة الذى يريدونه [٤] .

= تاريخ الخلفاء الفاطميين ٧٠٢ أن المعز أقام ابنه عبد الله « إمامًا مستودعًا » حتى يبلغ ولده الأصغر نزار أشده .

[١] الجوذرى : المصدر السابق ١١٥، ١٢٠، ١٣٩، ١٤٠، ١٨٥، ١٨٦، ومقدمة الأعظمى لديوان الأمير تميم بن المعز الفاطمى ، القاهرة ١٩٥٦.

[٢] ابن زولاق عند ابن ميسر : أخبار ١٦٥؛ النويرى : نهاية الأرب ٢٨: ١٤٩؛ عماد الدين إدريس : تاريخ الخلفاء الفاطمين ٧٣٥.

[٣] ابن ظافر : أخبار ٢٦؛ ابن ميسر : أخبار ١٦٦؛ المقريزى : اتعاظ ١: ٢١٦، ٢١٧؛ عماد الدين إدريس : تاريخ الخلفاء الفاطميين ٧٣٥.

[٤] انظر فيما يلى ص ١٧١، ٢٢٠، ٢٤٢، ٢٤٩، ٢٨٤، ٣١٦-٣٢٠ .

الخليفةُ العَزِيز وإرساء دَعَائم الدَّوْلَة

كان عَهْد المُعِزّ والعزيز هو فترة إرساء دعائم الدولة الفاطمية وتثبيت أركانها فى مصر. فقد منح هذان الخليفتان للدولة الفاطمية، بفضل خبرة ومعاونة القائد جَوْهَر والوزير ابن كِلِّس، قواعد ثابتة جعلتها تستمر بعد ذلك نحو قرنين من الزمان. ولم تكن سياستهما الخارجية نشطة إلَّا فى بلاد الشام، فتركَّزت سياسةُ العزيز بالله الخارجية على تأكيد سيطرة الفاطميين على سوريا الوسطى والجنوبية وعلى إمارة حَلَب فيما بعد[١] فقد كان الفاطميون يرون فى سوريا الشمالية «الطريق إلى العراق» وأن امتلاكَهم لها سيضمن لهم الوصول إلى ماورائها من بلاد[٢]، وخاصة «بَغْداد» المركز الروحى والسياسى للعالم الإسلامى السُّنِّى.

ولتأكيد هذه السياسة قَرَّر الخليفة العزيز بالله ووزيره ابن كِلِّس، فى أعقاب مواجهة الجيش الفاطمى لألبتكين (أَفْتَكِين) التركى فى دمشق، القيام بعملية إصلاح شامل للجيش الفاطمى كان أهم مامَيَّزها هو تجنيد الجنود من المناطق الشرقية وعلى الأخص الأتراك والدَّيالمة. ونَتجَ عن ذلك نشوء جيش متعدد الجنسيات مع تنوع شديد فى التخصصات العسكرية. وقد عارضت قوات العزيز بالله من البَرْبَر المغاربة هذا الاتجاه واعتبروه تهديدًا لمكانتهم فى الدولة[٣].

ومع ذلك فإن الخليفة العزيز لم يقم بأية محاولة للتحرُّش بالخلافة العَبّاسية، واكتفى فقط بالقيام باتصال دبلوماسى بعَضُد الدولة البويهى أبى شُجاع فناخُسْرو، فى عهد

---

[١] . Canard M., *EI*² art. al-ʿAzîz billâh I,p, 847

[٢] ابن الأثير: الكامل ٩: ٨٥ نص رسالة بكجور إلى العزيز بالله يطمعه فى حلب ويقول له «إنها دهليز العراق».

[٣] ابن ميسر: أخبار ١٧٦؛ النويرى: نهاية الأرب ٢٨: ١٦٦؛ القلقشندى: صبح ٣: ٣٥٤؛ المقريزى: اتعاظ ١: ٢٩٤، ٢٦١، الخطط ١: ٩٤، ٤٥١، ٢: ١٢؛ ابن إياس: بدائع الزهور ١/ ١: ١٩٢؛ Beshir, B.I., *op. cit.* pp. 41-43; Lev, Y., *op. cit.*, pp. 342-343، وفيما يلى الفصل الثامن عشر.

الطّائِع العَبّاسى ، اعترف فيه عَضُد الدولة بفضل أهل البيتَ وخاطب العزيز بـ « الحضرة الشريفة » وأقَرَّ له بأنه فى طاعته [١]. ويبدو هذا التصرف من عَضُد الدولة غريبًا خاصةً وأن ابن ظافِر يذكر أنه لم يكن يعترف بالنَّسَب الفاطمى [٢]! ولكن الفاطميين نجحوا دون شك فى التصدى للبيزنطيين ووضعوا نهاية لمحاولاتهم المتكرِّرة لاسترجاع الشام منذ عام ٣٥٤هـ/٩٦٥م .

وبدلًا من المواجهة المباشرة اعتنق الفاطميون نظريةً جديدة مُؤَدّاها أن صاحب السيادة الفعلية على العالم الإسلامى ، هو من تُقام له الخطبة فى الأراضى الإسلامية المقدسة (مكة والمدينة) [٣]. فكان الفاطميون يتقَرَّبون لشُرَفاء مكة لهذا السبب . وهكذا أقيمت الدَّعْوَةُ للمُعِزّ وهو مازال فى إفريقية [٤]، كما أقيمت له فى سنة ٣٦٣هـ/٩٧٤م بعد انتقاله إلى مصر [٥]، ثم أقيمت للخليفة العزيز سنة ٣٦٥هـ/٩٧٦م [٦]. وظلَّ الفاطميون حريصين على ذلك إلى أن تَقَلَّصَت ممتلكاتُهم وشغلتهم مشاكلهم الداخلية عن تحقيق أهدافهم الاستراتيجية [٧].

وبدأ التنظيم الإدارى لمصر الفاطمية فى عهد العزيز بالله فكان هو أوَّل من اتَّخَذَ الوزراء ، كما عرفت القاهرة تطورًا عمرانيًا ملحوظًا حيث وَضَع أساس جامع الخُطْبَة خارج باب الفتوح القديم سنة ٣٧٩هـ/٩٨٩م ، وبنى كذلك القصر الصغير الغربى

---

[١] ابن الأثير : الكامل ٨: ٧٠٩؛ أبو المحاسن : النجوم ٤: ١٢٤، ١٢٥؛ Kabir, H., «The Relation of the Buwayhides with the Fatimids», *Indo-Irania* VII, 4 (1955), pp. 28-33 .

[٢] ابن ظافر : أخبار ٣٤.

[٣] المسعودى : مروج الذهب ١: ١٩٢؛ متز ، آ : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ١: ٢٣.

[٤] المقريزى : الخطط ١: ٣٥٣.

[٥] ابن الجوزى : المنتظم ٧: ٧٥؛ ابن الأثير : الكامل ٨: ٣٤٦؛ ابن ميسر : أخبار ١٦٧؛ ابن خلدون : العبر ٤: ٥١؛ المقريزى : اتعاظ ١: ٢٢٥، ٢٣٠؛ السيوطى : تاريخ الخلفاء ٤٠٦.

[٦] نفسه ٧: ٨٠، ٨١؛ نفسه ٨: ٦٦٧؛ ابن ظافر : أخبار ٣٣؛ المقريزى : اتعاظ : ١: ٢٣٨.

[٧] عن حرص الفاطميين على استمرار إقامة الدعوة لهم فى الحرمين الشريفين ، انظر السجلات المستنصرية ، السجلات رقم ٣، ٤، ٧، ١٢.

وجامع القَرافَة . وفى الوقت نفسه امتدت مملكة الفاطميين فى عهده حيث فُتِحَت حِمص وحماة وشَيْزَر وحَلَب وخُطِبَ له بالمَوْصِل سنة ٣٨٢هـ/٩٩٢م . وفى أثناء خروجه مُتَّجِهًا إلى بلاد الشام عاجلته الوفاة فى نهاية شهر رمضان سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م وهو فى مخيمه فى مدينة بِلْبَيْس[١].

---

[١] ابن ظافر : أخبار ٣٧- ٣٨، ٤٢؛ النويرى : نهاية الأرب ٢٨:١٦٣- ١٦٤؛ ابن خلكان : وفيات ٥: ٣٧٤؛ المقريزى : اتعاظ ١:٢٩٤-٢٩٦ .

الفصل الثالث

التوسع

ومناقشة قضية الحاكم بأمر الله

مع نهاية عَهْد العزيز بالله حول سنة ٣٨٢هـ/ ٩٩٢م اتسعت مملكة الفاطميين، وتَمكَّن الدُّعاةُ من إقامة الدعوة للفاطميين فى أماكن متفرِّقة من العالم الإسلامى، فى اليمن والمَوْصِل[١] بالإضافة إلى الشام وإفريقية، كما اشترط العزيز بالله على رُسُل إمبراطور بيزنطة أن يُخْطَب له فى جامع القسطنطينية فى كل يوم جمعة[٢].

الصِّراعُ بين الأتراك والمَغارِبَة

كانت فترةُ حكم العزيز بالله هى الفرصة المواتية للفاطميين لتحقيق حلمهم فى مواجهة العَبّاسيين. يقول أبو المحاسن، تعليقًا على رد عَضُد الدولة البويهى على كتاب العزيز السابق ذكره: «وما أَظُنُّ عَضُدَ الدَّوْلَة كَتَبَ له ذلك إلَّا عَجْزًا عن مقاومته»[٣]. فبعد وفاة العزيز فى سنة ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م، تولَّى الخلافة تسعة من الفاطميين، كان بينهم وقت اعتلاء العرش ثلاثة مراهقين وخمسة أطفال كان أَوَّلهم الحاكم بأمر الله، الذى ظَنَّ بَرْبَرُ كُتامَة عند تَوَلِّيه أن الفرصة قد سَنَحَت لهم لتطهير الجيش من أبناء الشرق، وشَرَطوا

---

[١] المسبحى: نصوص ضائعة ١٨؛ ابن خلكان: وفيات ٥: ٣٤٧؛ المقريزى: اتعاظ ٢: ٢٧٤؛ أبو المحاسن: النجوم ٤: ١١٦، ١١٢، ٢٢٤؛ السيوطى: تاريخ الخلفاء ٤١٣؛ عماد الدين إدريس: عيون الأخبار ٦: ٣٠٠- ٣٠٢.

[٢] أبو المحاسن: النجوم ٤: ١٥١- ١٥٢.

[٣] نفسه ٤: ١٢٥.

عليه أن يُوَلِّى الحسن ابن عَمّار المغربى الوَساطة[١]، مما مَكَّن المغاربة من استعادة مكانتهم فى الدولة، بعد أن أضعفهم الوزير ابن كِلِّس، وحَلُّوا مؤقتًا محل الأتراك فى ولايات الأعمال، حتى اضطُرّ جماعةٌ من الأتراك إلى الهرب من مصر خوفًا من ابن عَمّار فرُدُّوا من الطريق[٢]. وخَلَعَ الحاكم على ابن عَمّار لَقَبَ «أمين الدَّوْلة»، فأصبح بذلك أوّل منْ لُقِّب فى الدولة الفاطمية[٣].

ولم يلبث الأتراك والمشارقة أن تحالفوا مع بَرْجَوان، الذى كَفَلَ الحاكم بعد وفاة العزيز.. وثارت فِتْنَةٌ بينهم وبين المغاربة سنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م انتهت بإقصاء ابن عَمّار وإحلال بَرْجَوان محله، فاستقلّ بالأمور مع كاتبه فَهْد بن إبراهيم النَّصْرانى[٤]، ولم يدع الخليفة يتصرّف فى شيء إلّا برأيه[٥]. فضاق الحاكم به ذَرْعًا وقَرَّر التَّخَلُّص منه لينفرد بأمر الدولة. فأَوْعَزَ إلى رَيْدان الصَّقْلبى، صاحب المِظَلّة، أن يقتله فى القصر فى سنة ٣٩٠هـ/١٠٠٠م، كما قُتِلَ فى هذه الأحداث كذلك ابن عَمّار وتولّى تدبير الدولة الحسين بن جَوْهَر القائد[٦].

---

[١] ابن الصيرفى: الإشارة ٥٦- ٥٧؛ أبو شجاع: ذيل تجارب الأمم ٢٢٢؛ ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق ٤٤، ٤٥؛ ابن ظافر: أخبار ٤٣؛ ابن ميسر: أخبار ١٧٧؛ النويرى: نهاية ٢٨: ١٦٨؛ المقريزى: الخطط ٢: ٣٦-٣٧ والمقفى ٣:٤٣٣- ٤٤١؛ أبو المحاسن: النجوم ٤: ١٢٢؛ Wiet, G., *EI*². art. ʿAmmâr, Banû I, p. 461.

[٢] يحيى بن سعيد: تاريخ ١٨٦؛ ابن القلانسى: ذيل ٤٨، ٤٩؛ ابن ميسر: أخبار ١٧٧- ١٧٨، ١٨١؛ النويرى: نهاية ٢٨: ١٦٨؛ المقريزى: الخطط ٢: ٣٦ والاتعاظ ٢: ٤، ١٠، ١٢- ١٣.

[٣] نفسه ١٨٠؛ ابن الصيرفى: الإشارة ٥٦؛ ابن الأثير: الكامل ٩: ١١٨؛ ابن ميسر: أخبار ١٧٩؛ ابن سعيد: النجوم ٥٥؛ النويرى: نهاية ٢٨: ١٦٨؛ المقريزى: الخطط ٢: ٣٦، اتعاظ ٢: ٥- ٦، والمقفى ٣: ٤٣٥.

[٤] المقريزى: اتعاظ ٢: ١٤؛ ساويرس بن المقفع: تاريخ البطاركة ٢/٢: ١٢٣.

[٥] أبو شجاع: ذيل تجارب الأمم ٢٢١؛ ابن الصيرفى: الإشارة ٥٧؛ ابن الأثير: الكامل ٩: ١٨٨، ١٢٠؛ ابن خلكان: وفيات ١: ٢٧١؛ المقريزى: اتعاظ ٢: ١٣- ١٤، الخطط ٢: ٣- ٤، ١٤؛ أبو المحاسن: النجوم ٤: ٤٨.

[٦] يحيى بن سعيد: تاريخ ١٩٧- ١٩٨؛ أبو شجاع: ذيل ٢٣٠- ٢٣٢؛ ساويرس: تاريخ البطاركة ٢/٢: ١٢١؛ ابن الصيرفى: الإشارة ٥٨؛ ابن الأثير: الكامل ٩: ١٢٢؛ ابن ظافر: أخبار ١٤٣؛ ابن ميسر: أخبار ١٨١؛ ابن=

وقد أعقب ذلك اضطراباتٌ بين طوائف الجند، فقد اعتبر الأتراكُ ما حَدَثَ ضربةً لهم من بَرْبَر كُتامةَ، مما حَمَلَ الخليفة على الخروج إلى باب قصره ومخاطبة المتظاهرين، ووَجَّهَ حديثه إلى الكُتاميين ووصفهم بأنهم «شيوخ دولته» ثم وَجَّهَ حديثه إلى الأتراك ووصفهم بأنهم «تربية والده العزيز»، وطَلَبَ إلى الكافة الولاء والطاعة، كما أمر أبا منصور بن سورين، كاتب الإنشاء، بكتابة سِجِلّ يُبَرِّر فيه قتله لبَرْجَوان [١].

ديكتاتورية الحاكم

وابتداء من هذا التاريخ أصبح الحاكم طاغيةً مُطْلَق لا تصدر قراراته سوى عن هواه أو مزاجه الشخصى، ووضحت فى تصرفاته المتناقضات، فقد كان مصابًا بانفصام الشخصية يأخذ القرار ثم ينقضه بعد قليل [٢]. ويمكننا تقسيم فترة حكم الخليفة الحاكم بعد تَخَلُّصه من بَرْجَوان واستقلاله بأمور الدولة فى سنة ٣٩٠هـ/ ١٠٠٠م، إلى ثلاث

= خلكان: وفيات ١: ٢٧٠-٢٧١؛ ابن سعيد: النجوم ٥٥، النويرى: نهاية ٢٨: ١٧٢؛ المقريزى الخطط ٢: ٤، ١٤، اتعاظ ٢: ٢٥-٢٦، المقفى ٣:٤٩٦-٤٩٧؛ عماد الدين إدريس: عيون الأخبار ٦: ٢٥٤-٢٥٧ (رواية مفصلة)؛ Lewis, B., *EI*[2] art. *Bardjawân* I, pp. 1073-74.

[١] المقريزى: اتعاظ ٢: ٢٧ وانظر نص السجل فى الاتعاظ أيضا ٢: ٢٧-٢٩ والشيال: مجموعة الوثائق الفاطمية ١٣١-١٣٥، ٢٩٩-٣١١؛ كما منح الحاكم أمانًا للكتاميين الذين خشوا على أنفسهم بعد قتل ابن عمار (عماد الدين إدريس: عيون الأخبار ٦: ٢٥٧-٢٥٨).

[٢] وضعت مؤلَّفات كثيرة عن عصر الحاكم بأمر الله بين متعاطفة معه مدافعه عن سياسته أو مهاجمة متهمة له بالخَلَل والجنون، أهمها، محمد عبد الله عنان: الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية (القاهرة ١٩٣٧، ١٩٥٩)؛ عبد المنعم ماجد: الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه، القاهرة ١٩٥٨؛ Sadik, A. A., *The Reign of Al-Hakim Bi Amr Allah (386/96-411/1021), A Political Study*, Beirut 1974; Canard, M., *EI*[2]., art *al-Hâkim Bi Amr Allâh* III, pp. 79-84; Bianquis, Th., «AL-Hâkim Bi Amr Allâh ou la folie de l'unité chez un souverain fatimide», *Les Africains* XI (1979), pp. 107-133; Van Ess, J., *Chiliastishe Erwartungen und die Versuchung der Gattlichkeit: der Kalif Al-Hakim (375-411H.)*, Heidelberg: Winter, 1977; Halm, H., «Der Treuhän der Gottes. Die Edikte des Kalifen al-Hâkim», *Der Islam* 63 (1986), pp. 11-72.

فترات اتُّبع خلال كل منها سياسةً متماسكةً نسبيًا ، ولكنها كانت تنتهى دائمًا بتغيير عنيف لاختياراته .

الاعتــدال

تمتد المرحلة الأولى حتى نهاية سنة ٣٩٥هـ/ ١٠٠٥م عندما أصبحت ثورة أبى رَكْوَة مُهَدِّدَة للنظام الفاطمى . ففى هذه المرحلة ، التى تتَّسم بالاعتدال ، ظَلَّ الحاكم محافظًا على العبارات الشيعية للإسلام فى الأذان وفى الصيام ، كما حرص على احترام الطقوس والشعائر وعلى الأخص ما يتعلَّق منها بالأخلاق [١]. وشهد عام ٣٩٣هـ/ ١٠٠٣م أهم إنجازات الحاكم ، التى ظَلَّت شاهدةً على عصره حتى الآن ، وهى الشروع فى إتمام بناء الجامع الأنْوَر ، المعروف الآن بجامع الحاكم خارج أسوار القاهرة الشمالية عند باب الفتوح ، وبناء جامع رَاشِدَة على أرض كانت لقبيلة راشِدَة فى الفُسْطاط وأزال من عليها بعض الكنائس ومقابر لليهودِ والنصارى ، وكذلك بناء جامع المَقْس على شاطىء النيل [٢].

وقد حاول كذلك فى هذه الفترة أن يُنَمّى رُتْبَة الوَسَاطة والسِّفارة فظَلَّ الحسين بن جَوْهَر فى رتبته حتى سنة ٤٠٠هـ/ ١٠١٠م ، وأن يُوَفِّق العلاقات بين الطوائف المختلفة للجيش ، وأن يمنح مصداقية متزايدة لنظامه عن طريق كَسْب وُدّ أهالى الفسطاط . وتأكَّد هذا الاتجاه اعتبارًا من نهاية سنة ٣٩٥هـ/ ١٠٠٥م عندما انفجرت ثورة أبى رَكْوَة [٣] فقد اكتشف الحاكم خيانةً فى صفوف أتباعه واتَّضَحَ له عدم فاعلية الجيش ، ولم يجد التأييد

---

١ Bianquis, Th., *op. cit.*, p. 128 .

٢ Fu'âd Sayyid, A., *La capitale de l'Egypte* p. 352 .

٣ عن ثورة أبى ركوة راجع ، النويرى : نهاية الأرب ٢٨: ١٨٠- ١٨٥؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا ٢: ٦٠-٦٧ وإغاثة الأمة ٦٤؛ عماد الدين إدريس : عيون الأخبار ٦: ٢٥٩- ٢٧٢.

الذى كان يحتاج إليه إلّا بين سكان مصر الفُسْطاط الذين كانوا يعادون قَطْعًا ثورة يقودها البدو[١]. وكاعتراف بمؤازرتهم له ألغى الحاكم سَبَّ الصحابة وسَمَحَ بممارسة بعض الشعائر والطقوس السنية التى حَرَّمَها آباؤه. فأعاد صوم رمضان برؤية الهلال[٢]. وأنشأ دار الحِكْمَة (دار العِلْم) فى سنة ٣٩٥هـ/ ١٠٠٥م[٣] وأراد أن يكسب بها فى أوّل الأمر حماس أهل السنة، فكان من بين متولّيها جماعةٌ من شيوخ السنة على رأسهم الحافظ عبد الغنى بن سعيد وأبو أسامة جُنَادة بن محمد اللغوى وأبو الحسن على بن سليمان المقرىء الأنطاكى[٤]. وربما قصد الحاكم من وراء ذلك أن يسحب من جامع عمرو، الواقع فى قلب الأحياء التجارية للفسطاط، دوره المميز فى صنع الفكر الدينى. ولكن هذا الوضع لم يستمر طويلًا ففى نهاية عام ٣٩٩هـ/ ١٠٠٩م قُتِلَ الشيخان أبو أسامة اللغوى وأبو الحسن الأنطاكى واضطر عبد الغنى بن سعيد إلى التَّسَتُّر[٥].

اضطِهادُ أهل الذِّمّة

واعتبارًا من عام ٣٩٥هـ/ ١٠٠٥م بدأ تَشَدُّد الحاكم مع الرعية، وخاصة أهل الذِّمّة الذين لقوا فى عهده عَنَتًا شديدًا، كما أخذ فى إصدار سلسلة من الأوامر والقرارات تحوى قائمة بممنوعات تَوَعُّد من يُقْدِم عليها بالعقاب بالقتل أو التعذيب.

---

١ Bianquis, Th., *op. cit.*, p. 156 .

٢ المقريزى: الخطط ٢: ٢٨٧، ٣٤٢، اتعاظ ٢: ٧٨.

٣ المسبحى: نصوص ضائعة ٢٢؛ المقريزى: الخطط ١: ٤٥٨- ٤٦٠، اتعاظ ٢: ٥٧؛ ابن حجر: رفع الإصر ١: ٣٦٠- ٣٦١، وانظر فيما يلى الفصل الثالث عشر.

٤ القلقشندى: صبح ٣: ٥٢٠؛ المقريزى: اتعاظ ٢: ١١٩؛ أبو المحاسن: النجوم ٤: ٢٢٢- ٢٢٣.

٥ ابن خلكان: وفيات ١: ٣٧٢؛ المقريزى: اتعاظ ٢: ٨٠؛ أبو المحاسن: النجوم ٤: ٢٢٢-٢٢٣ ,Bianquis Th., «Abd al-Gani ibn Saᶜid, un savant sunnite au service des Fatimides». *Actes du XXIX Congrès international des Orientalistes,* Etudles arabes et islamiqus, I-Histoires et Civilisations, Paris 1975, I, p. 43-44 .

فألزم أهل الذِّمَّة شَدّ الزّنار فى أوساطهم وبلُبْس الغيار ومنعهم من دخول حَمّامات المسلمين وأفرد لهم حَمّامات وجَعَلَ على باب حَمّام النَّصارى صليب خَشَب وعلى باب حَمّام اليهود قِرْمَة خشب. وأمر ألّا يُضْرب ناقوسٌ فى بلاد مصر وأن تُقْلَع الصُلْبان التى على قِباب الكنائس وأن تمحى الصُلْبان التى على أيدى الناس؛ ثم أمرهم باعتناق الإسلام أو الخروج إلى بلاد الروم مما اضطر كثيرًا منهم إلى اعتناق الإسلام كارهين[١].

وأدَّت سياسة الحاكم المتشدِّدة مع النَّصارى، والملكانيين منهم بوجه خاص، وهَدْمه لكنيسة قُمامَة (القيامة) ببيت المقدس سنة ٣٩٨هـ/١٠٠٧م إلى الإضرار بتجارة الفاطميين مع البيزنطيين[٢]، حيث قَطَعَ باسيل الثانى فى سنة ٤٠٦هـ/١٠١٥م جميع العلاقات التجارية مع الفاطميين[٣]، خاصة بعد أن أمر الحاكم فى سنة ٤٠٣هـ/١٠١٣م بهَدْم جميع كنائس الديار المصرية ووَهَب جميع ما فيها ومالها من رباع وأملاك إلى جماعة من الصَّقالبة والفَرّاشين والسُّعْدية[٤].

وذكر ابن عبد الظاهر أن الخليفة الحاكم أحرق كذلك حارة الجودرية على أهلها اليهود، الذين كانوا يجتمعون بها ويسخرون من المسلمين[٥]. وبالرغم من ذلك فإننا نجد

---

[١] المسبحى: أخبار ٩٧؛ يحيى بن سعيد: تاريخ ١٩٤، ١٩٥، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٧، ساويرس: تاريخ البطاركة ٢/٢: ١٢٥، ١٢٦، ١٣٣؛ ابن ظافر: أخبار ٥٥؛ النابلسى: تجريد سيف الهمة ١٣٩-١٤٠؛ ابن الأثير: الكامل ٩: ٢٠٩، ٣١٧؛ ابن خلكان: وفيات ٥: ٣٩٣-٣٩٤؛ ابن سعيد: النجوم ٥٢، ٥٣؛ النويرى: نهاية ٢٨: ١٩١؛ ابن أيبك: كنز الدرر ٦: ٢٩٨؛ المقريزى: الخطط ٢: ٢٨٨، ٣٤١، اتعاظ ٢: ٤٨، ٥٣، ٧٥، ٨٥، ٩٣-٩٥، ١٠٠، أبو المحاسن: النجوم ٤: ١٧٧، ١٧٨ Atiya, A.S., *EI*² art. *Kibt* IV p. 94.

[٢] يحيى بن سعيد: تاريخ ١٩٥-١٩٦؛ ناصر خسرو: سفرنامة ٧٥؛ المقريزى: اتعاظ ٢: ٧٤-٧٥؛ Canard, M., « La destruction de l'église de la resurrection par le calife Hakim et l'histoire de la descente du feu sacré», *Byzantion* XXXV (1965), pp. 16-43.

[٣] نفسه ٢١٤-٢١٥؛ Shaban, A., *op.cit.*, p. 209.

[٤] نفسه ٢٠٤-٢٠٥؛ النويرى: نهاية ٢٨: ١٩١-١٩٢، المقريزى: اتعاظ ٢: ٩٤.

[٥] ابن عبد الظاهر: الروضة البهية الزاهرة ٥٤-٥٥؛ المقريزى: الخطط ٢: ٥.

فى أوراق الجنيزة ما يخالف بعض ما جاء فى المصادر التاريخية حول موضوع اضطهاد اليهود بصفة خاصة .

ففى طومار عبرى وجد فى أوراق الجنيزة ، يرجع تاريخه إلى أواخر شهر يناير سنة ١٠١٢هـ/ جمادى الآخرة سنة ٤٠٢م ، نجد مدحًا للخليفة الحاكم مع وصفه بأنه يشبه المسيح أمير العدالة الذى يحمى غير المسلمين من التهم الباطلة المُوَجَّهة إليهم . ويرى جويتين S.D.Goitein أن ثورة اليهود والقِبْط المفاجئة فى عهد هذا الخليفة تبدو لنا من خلال الجنيزة على أنها انفجار ضد الحكم الفاطمى الليبرالى بصفة عامة ، وليست بسبب أهواء هذا الخليفة الشخصية [1] !

وقد لقى موقف الحاكم من النَّصارى ، بصفة خاصة ، قبولًا من المسلمين السنيين الذين أبغضوا النَّصارى بسبب أعمال الابتزاز والمحاباة التى عانوها من موظفى المال النَّصارى .

النـــواهى

أما قوائم الممنوعات التى توعَّد من يُقْدِم عليها بالقتل والتعذيب فيمكن تفسيرها على أنها إجراءات إصلاحية . فعندما أمر بمنع صناعة النبيذ والمزر والفُقَّاع ، فإن هذا الإجراء يَتَّفِق مع ما يجب أن يكون من حاكم مسلم غيور . كما أن تحريمه ذَبْح الأبقار السالمة من العَيْب إلَّا فى أيام المواسم يهدف إلى المحافظة على الثروة الحيوانية للبلاد . كذلك فإن منعه الخبّازين من استخدام أقدامهم فى عَجْن العجين يعد عملًا متماشيًا مع أبسط قواعد الصحة العامة [2].

---

[1] Goitein, S. D., *Studies in Islamic History and Institutions* .

[2] يحيى بن سعيد : تاريخ ٢٠٢؛ ابن ظافر : أخبار ٤٣- ٤٤؛ ابن خلكان : وفيات ٥: ٢٩٣؛ ابن سعيد : النجوم ٥٢، النويرى : نهاية ٢٨:١٩١ ؛ ابن أيبك : كنز ٦: ٢٨٤؛ المقريزى : الخطط ٢: ٢٨٧، ٣٤٢، اتعاظ ٢: ٥٣، ٥٤، ٧٧، ٨٦، ٩٠، ٩٥؛ أبو المحاسن : النجوم ٤: ١٧٧، ١٧٨، ابن إياس : بدائع الزهور ١/ ١: ١٩٩؛ السيوطى : تاريخ الخلفاء ٤١٤.

ونظرًا لأن نساء مصر والقاهرة كن يتبعن ، فيما يبدو ، عوائد فيها بعض التحلُّل ، حيث كن يتبرَّجْن ويَكْشِفْن وجوههن خلف الجنائز [١]، وكن لا يتورَّعن من الجلوس فى الطرقات العامة أمام المنازل ، ويكثرن من الاختلاط بالرجال فى الأسواق [٢]، فقد قَرَّر منعهن من الخروج من منازلهن والاجتماع بالمآتم ، وهداه تفكيره إلى أن يطلب إلى الأساكفة أن يمتنعوا من عمل الخفاف لهن . وكانت إذا دَعَت الضرورة إلى حضور قابلة أو غاسلة لمن تلد أو لمن تموت ، استؤذن فى ذلك برُقْعَة ترفع إليه فيوقِّع على ظهرها بخَطِّه إلى متولِّى الشُّرْطَة فيندب من يثق به ليصحبها إلى حيث مقصدها [٣].

كذلك فقد مَنَعَ الحاكم من أكل السمك الذى لا قِشْرَ له [٤]، وهو سمك يعيش فى الأوحال ويحتفر فيها ممرات ليحيا على الترسبات التى تبقى فى القاع ، وهو بذلك يقوم بوظيفة بيئية هامة هى تنظيف المجارى المائية ، وهو النوع المعروف باسم القَرْموط [٥]. وأباح كذلك قَتْل الكلاب فيما عدا كلاب الصيد [٦]، وإذا عرفنا أن القاهرة والفسطاط كانتا تمتلئان بالآلاف من الكلاب الضالة ، وهو أمر حرص على تسجيله جميع الرحّالة الذين زاروا مصر فى العصر الإسلامى ، عرفنا سبب دعوته لقتل الكلاب . كما أن أمره بأن لا

---

[١] المقريزى : اتعاظ ٢: ٥٣.

[٢] نفسه ٢: ٣٨.

[٣] يحيى بن سعيد : تاريخ ٢٠٨، ساويرس : تاريخ البطاركة ٢/ ٢: ١٢٤؛ ابن حماد : أخبار ٦٤؛ ابن الأثير : الكامل ٩: ٣١٧، ابن خلكان : وفيات ٥: ٢٩٤؛ ابن سعيد : النجوم ٥٣، ٢٦٤، النويرى ، نهاية ٢٨: ١٧٦، ١٩٢؛ المقريزى : الخطط ٢: ٣٤٢، اتعاظ ٢: ٩٠، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١١٠، ١١٩، ١٢٠، ١٢٦؛ أبو المحاسن : النجوم ٤: ١٧٨، ٢٣٦، السيوطى : تاريخ الخلفاء ٤١٥، حسن المحاضرة ٢: ٢٨٣.

[٤] المقريزى : اتعاظ ٢: ٥٣.

[٥] Shaban, A., *op.cit.* p. 528 .

[٦] ساويرس : تاريخ البطاركة ٢/ ٢: ١٢٤؛ ابن خلكان : وفيات ٥: ٢٩٣؛ ابن حماد : أخبار ٦٢؛ ابن سعيد : النجوم ٥١، المقريزى : اتعاظ ٢: ٥٦، ١٠٢، ١٠٥؛ أبو المحاسن : النجوم ٤: ١٧٧، ١٧٨؛ السيوطى : حسن المحاضرة ٢: ٢٨١.

يدخل أحدٌ الحمام إلّا بمئزر يتمشّى مع قواعد الذوق والآداب العامة [١]. وعَلَّل الحاكم تحريمه لأكل الملوخية بميل معاوية إليها، كما عَلَّل تحريم الجرجير لنسبته إلى السيدة عائشة، ونهى عن المتوكلية لنسبتها إلى المتوكل العباسى [٢].

سياسةُ الحاكم الدينية ومَوْقِفُه من معاونيه

أما الشيء الذى يصعب تفسيره فى تصرفات الحاكم فهو سياسته الدينية وموقفه من أعوانه ومساعديه.

ويمكن أن نعتبر تشدُّد الحاكم مع أهل الذِّمَّة، خلافًا لروح التسامح التى سادت بقية العصر الفاطمى، محاولةً من هذا الخليفة لتطبيق «العَهْد العُمَرى» عليهم. ولكنه فى الوقت نفسه لم يراع مشاعر أهل السُّنَّة، فقد شاع فى عصره سَبُّ الصحابة وأمر بكتابته على جدران المساجد وعلى الجامعِ العتيق بمصر من ظاهره وباطنه، وعلى أبواب الحوانيت والدور والقياسر، ولَوَّنه بالأصْباغ والذهب وأَكْرَه الناس على فعله، فعظم ذلك على المسلمين من أهل السنة. ثم تراجع عن ذلك وأمر بمحوه من على المساجد وغيرها، وأَوْكَلَ إلى صاحب الشُّرْطَة أن يُلْزِمَ كل صاحب دار أو دكان بمحو ما كُتِبَ على داره أو حانوته [٣].

---

[١] المقريزى: اتعاظ ٢: ٥٣؛ النويرى: نهاية ٢٨: ١٩١.

[٢] ابن ظافر: أخبار ٤٤؛ النويرى: نهاية ٢٨: ١٧٨؛ المقريزى: الخطط ٢: ٣٤١، اتعاظ ٢: ٥٣ وانظر De Smet, D., «Les interdictions alimentaires de calife fatimide al-Hâkim : Marques de foulie ou annonce d'un régne messianique?» in *Egypt and Syria in the Fatimid, Ayyubid and Mambuk Eras*, pp. 53-70.

[٣] يحيى بن سعيد: تاريخ ٢٠٦؛ ابن الأثير: الكامل ٩: ٣١٦؛ ابن خلكان: وفيات ٥: ٢٩٣؛ أبو شامة: الروضتين ١: ٥١٣؛ ابن سعيد: النجوم ٥١، ابن أيبك: كنز ٦: ٢٧٩؛ المقريزى: الخطط ٢: ٢٨٦، ٢٤١-٣٤٢، اتعاظ ٢: ٥٤، ٦٩. ٢٩٨؛ أبو المحاسن: النجوم ٤: ١٧٧، ابن إياس: بدائع ١/١: ٢٠٠؛ السيوطى: تاريخ الخلفاء ٤١٤.

أما موقفه من أعوانه ومساعديه ، فيلاحظ أن أحدًا من خواصه أو المقرّبين إليه لم يَسْلَم من القتل ، حتى بات كان إنسان خائفًا على نفسه ، وكَثُرَت فى عهده الأمانات وإن لم يلتزم بها [١]. فقد قَتَلَ جميع وُسَطائه وقُضاته [٢]، وأبدى نَدَمَه على أنه لم يقتل زُرْعَة بن عيسى بن نَسْطورس [٣]. وحتى رجال الدَّعْوَة أنفسهم ومَنْ أبْلَوا بلاءً حسنًا فى نُصْرة الدولة مثل الحسين ابن القائد جوهر وعبد العزيز بن النُّعْمان القاضى لم يَسْلَما من القَتْل [٤].

تَساهُل الحاكم فى أصُول العَقِيدَة الإسماعيلية

وربما كان تساهل الحاكم فى كثير من أمور العقيدة الإسماعيلية فى هذه المرحلة ، بغرض كسب شعبية لنظامه ، قد أغضب كبار رجال الدَّعْوَة ، ومع ذلك فقد أَصَرَّ على سياسته وخَوَّفَ معارضيه بأن أعدم بعض رموزها كالحسين بن جَوْهَر وعبد العزيز بن النُّعْمان فى سنة ٤٠١هـ/ ١٠١١م.

فقد أمر فى سنة ٤٠٠هـ/ ١٠١٠م برَفْع ما كان يُؤْخَذ على أيدى القضاة من الخُمْس والزكاة والفِطْرَة والنَّجْوى ، وإبطال مجالس الحكمة فى المُحَوَّل فى القصر ، ثم أعاد كل ذلك مرة ثانية [٥]. وفى العام نفسه مَنَعَ المؤذِّنين من الأذان بـ« حَيّ على خير

---

[١] يحيى بن سعيد : تاريخ ١٩٨؛ ابن خلدون : تاريخ ٤: ٢٦٠، المقريزى : اتعاظ ٢: ٨٢.

[٢] نفسه ٢٠٦، ٢٠٨، أبو شجاع : ذيل تجارب الأمم ٢٣٣؛ ساويرس : تاريخ البطاركة ٢/ ٢: ١٢١- ١٢٢، ابن خلكان : وفيات ١: ٢٧١، ابن سعيد : النجوم ٥٨، ٥٩- ٦٠، ٦٦، ابن خلكان : وفيات ١: ٢٧١، ابن سعيد : النجوم ٥٨، ٥٩- ٦٠، ٦٦، ابن خلدون : تاريخ ٤: ٦٠؛ المقريزى : الخطط ٢: ١٥٧، اتعاظ ٢: ١٢٠- ١٢١؛ ابن حجر : رفع الإصر ١: ١٠١، ٢١١.

[٣] نفسه ٢٠٩؛ المقريزى : اتعاظ ٢: ٩٣.

[٤] يحيى بن سعيد : تاريخ ١٩٨؛ ابن خلكان : وفيات ١: ٣٨، ابن سعيد : النجوم ٣٣- ٣٤، ٥٤، ٦٣، ٣٦٦؛ النويرى : نهاية المقريزى : الخطط ٢: ١٤- ١٦، ٢٨٧، اتعاظ ٢: ٨٤، ٨٦- ٨٧؛ ابن حجر : رفع الإصر ١: ٢٦٤، ٣٦٥، أبو المحاسن : النجوم ٤: ٣٣- ٣٤، عماد الدين إدريس : عيون الأخبار ٦: ٢٧٦- ٢٨٠.

[٥] يحيى بن سعيد : تاريخ ٢٠٩، ٢٢١؛ المسبحى : نصوص ضائعة ٢٩؛ المقريزى : الخطط ١: ٣٩٠، ٢: ٣٤٢، الاتعاظ ٢: ٨٢.

العمل »[١] وأباح الصوم على رؤية الهلال ، وترك الحرية لمن يريد أن يصلّى صلاة التراويح وصلاة الضُّحَىٰ ، ثم عَدَلَ عن ذلك كله وتَشَدَّد فيه[٢]. وفى عام ٤٠٢هـ/ ١٠١٢م أصدر مرسومًا يقضى بعدم مخاطبته بـ« الإمام » وأن يُكْتَفى بمخاطبته بـ « أمير المؤمنين »[٣].

الحاكِمُ يُعَيِّن عبد الرحيم بنَ إلْياس وَلِيًّا لعَهْد المسلمين

لم يَلْبث الحاكم ، فى سنة ٤٠٤هـ/ ١٠١٤م ، أن خَرَجَ على أحد أُسُس العقيدة الإسماعيلية التى تَشْتَرِطُ النَّصّ فى الإمامة على الابن الأكبر[٤]، عندما جَعَلَ ابن عمه عبد الرحيم بن إلْياس - وهو ابن امرأة مسيحية - « وَلِيًّا لعَهْد المسلمين » . ففى صفر هذا العام جُمعَ سائرُ الناس على اختلافهم بالقصر وقرئ عليهم سِجِلٌّ بأن أبا القاسم عبد الرحيم بن إلْياس قد جَعَلَه الحاكم بأمر الله وَلِيَّ عَهْد المسلمين فى حياته والخليفة بعد وفاته . وأمَرَ الناس بالسلام عليه وأن يقولوا له فى سلامهم عليه : « السلام على ابن عم أمير المؤمنين ووَلِيّ عَهْد المسلمين » ، وتَعَيَّن له محلٌّ يجلس فيه من القصر . ثم قُرِئ السِّجِلّ على منابر البلد وبالإسكندرية ، كما بَعَثَ الحاكم سجِلًّا بذلك إلى الزيريين بإفريقية قرئ بجامع القَيْرَوان وغيره من الجوامع[٥]. وأُثْبِتَ اسمه مع الحاكم

---

[١] يحيى بن سعيد : تاريخ النويرى : نهاية ٢٨: ١٨٩؛ المقريزى : الخطط ٢: ٢٧٠، ٢٨٧، ٣٤٢، الاتعاظ ٢: ٨٦؛ السيوطى : حسن ٢: ٢٨٢.

[٢] يحيى بن سعيد : تاريخ ٢٠٧- ٢٠٨، ابن الأثير : الكامل ٩: ٣١٦، ابن سعيد : النجوم ٥١؛ المقريزى : الخطط ٢: ٢٧٠، ٢٨٧، ٣٤٢، الاتعاظ ٢: ٧٨، ٨٢؛ أبو المحاسن : النجوم ٤: ١٧٧؛ السيوطى حسن ٢: ٢٨٢. وقد منع الفاطميون « صلاة التراويح » لأنها لم تكن من سنة النبى وإنما استنها عمر بن الخطاب . (ابن عذارى : البيان ١: ١٢٧) .

[٣] نفسه ٢٠٥، المقريزى : الخطط ٢: ٢٨٨، الاتعاظ ٢: ٩٦؛ ابن حماد : أخبار ٦٢.

[٤] Canard, M., *EI*[2] art. *Fatimides* II, p. 877.

[٥] يحيى بن سعيد : تاريخ ٢٠٧- ٢٠٨؛ ابن سعيد : النجوم ٢٦٤؛ الهداية الآمرية ٢٢٠، ٢٢٢؛ ابن عذارى : البيان المغرب ١: ٢٦٠ (وفيه أن الحاكم أرسل سجلاً بهذا المعنى إلى نصير الدولة باديس) ؛ النويرى : نهاية ٢٨: ١٩٢؛ =

على السَّكَّة[١] وعلى البُنود والطِّراز[٢]. وفى رمضان من نفس السنة دعا الحاكم فوق المنابر (فى جوامع القاهرة والأنْوَر وعمرو وراشِدَة) بنفسه لعبد الرحيم بن إلْياس قَائلًا: «اللهم استجب منى فى ابن عمى وولىّ عهدى والخليفة من بعدى عبد الرحيم بن إلْياس بن أحمد بن المهدى بالله أمير المؤمنين كما استجبت من موسى فى أخيه هارون»[٣].

وعندما رَكِبَ الحاكم لصلاة عيد الفِطْر سنة ٤٠٤هـ/١٠١٤م كان بغير زىّ الخلافة ومظلته بيضاء، وعبد الرحيم يسايره وهو حاملٌ الرُّمْح الذى من عادة الخليفة حمله وأصعده معه المنبر ودعا له. كما قُرِئَ سِجِلٌّ بأن كل من له مَظْلِمَة يَرْفعها إلى وَلِىّ العَهْد لا إلى الإمام. وفى ركوب عيد النَّحر رَكَب عبد الرحيم بالعساكر إلى المُصَلَّى نيابةً عن الحاكم[٤]، وتَكَرَّر ذلك فى العام التالى[٥]. وفى سنة ٤٠٩هـ/١٠١٨م عَزَلَ الحاكم بأمر الله سديد الدولة أبا منصور والى دمشق وعَيَّنَ عوضه وَلِىّ العَهْد عبد الرحيم بن إلْياس[٦].

ويبدو أن الحاكم اضطر إلى هذا الإجراء بعد أن قام فى أوّل عام ٤٠٤هـ/١٠١٤م بإخراج جماعة من حظاياه وأمهات أولاده من القصر – ومن بينهن أم ولده أبى الحسن

= القلقشندى: صبح ٩: ٢٩٥–٢٩٦؛ المقريزى: الخطط ٢: ٢٢٨، اتعاظ ١٠٠–١٠١، ١٠٣، ١٠٤؛ ابن حجر: رفع الإصر ١: ١٠٥؛ أبو المحاسن: النجوم ٤: ١٩٣–١٩٤؛ Makarim, S.N., «Al-Hakim bi Amrillâh's Appointment of his Successors», *Al-Abhath* 23 (1970), pp. 319-25.

[١] المقريزى: اتعاظ ٢: ١٠٣؛ وقد وصلت إلينا عملة عليها اسم عبد الرحيم كولى عهد المسلمين ضربت فى السنوات ٤٠٤، ٤٠٦، ٤١٠، انظر Lane-Pooles, S., *Catalogue of Oriental Coins in the British Museum,* IV. Coinage of Egypt, London 1879, p. 22 n. 88, p. 26 n. 106; id., *Catalogue of the Collection of Arabic Coins preserved in the Khedivial Library at Cairo,* London 1897, p. 165 n. 1048; Makarim, «Al-Hakim bi Amrillâh's Appointment of his Successors», *Al-Abhath* 23 (1270), pp, 314-25.

[٢] راجع Wiet, G., *RCEA* VI, pp. 119-120 n° 2212-17.

[٣] المقريزى: اتعاظ الحنفا ٢: ١٠٣.

[٤] المقريزى: اتعاظ الحنفا ٢: ١٠٤، ١٠٦، ١١٠.

[٥] نفسه ٢: ١٠٤.

[٦] نفسه ٢: ١٠٩.

[٧] نفسه ٢: ١١٤؛ Bianquis, Th., *Damas et la Syrie,* pp. 379-83.

على (الظّاهر فيما بعد) وولده نفسه - مما اضطر أخته سيدة الملك إلى أخذهما خَوْفًا عليهما وأسكنتهما بقصرها (المواجه للقصر الفاطمى الكبير)، وظَلّا كذلك حتى فُقِدَ الحاكم [1].

تَصَـــوُّفُ الحـــاكِـــم

واعتبارًا من عام ٤٠٣هـ/ ١٠١٣م، بدأ الحاكم بأمر الله يدخل المرحلة الأخيرة من حياته، وهى المرحلة التى تتميز ببعض جوانب التَقَشُّف والزُّهْد فى الحياة. فقد شهدت هذه المرحلة ميله إلى ارتداء الخَشِن من الثياب وركوب الحمير والإكثار من الخروج وحيدًا فى الليل، كما أخذ فى ارتداء ملابس الكِتّان مثل المتصوفة، ورَفَضَ جميع أنواع المواكب [2]. وفى الوقت نفسه أخذ يصرف بسخاء مفرط على المنشآت الدينية وقَوَمَة المساجد ويوقف الأوقاف على ذلك. فحول هذه الفترة، وبالتحديد فى رمضان سنة ٤٠٠هـ/ ١٠١٠م وَقَفَ رِباعًا وأملاكًا كثيرة على الجامع الأزهر وجامع المَقْس وجامع راشدة والجامع الحاكمى ودار العِلْم (الحِكْمَة) بالقاهرة [3]. وفى سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م أمر بتسجيل المساجد التى لا غَلّة لها ولا أحد يقوم بها فكانت ثمانمائة مسجد، فأطلق لها فى كل شهر من بيت المال تسعة آلاف ومائتين وعشرين دِرهمًا [4]. كما حَبَسَ فى سنة ٤٠٥هـ/١٠١٤م سبع ضِياع على القُرّاء والمؤذنين بالجوامع وعلى المارستانات وفى ثمن

---

[1] يحيى بن سعيد: تاريخ ٢٠٧-٢٠٨.
ويلاحظ أن الداعى عماد الدين إدريس لم يشر فى تاريخه للدعوة الإسماعيلية إلى محاولة الحاكم جعل ابن عمه عبد الرحيم بن إلياس وليًا لعهده، وذكر أنه نصب ابنه الظاهر وليًا لعهده وكتب بذلك إلى جزائر الدعوة وإلى الدعاة القائمين بالدعوة. (عيون الأخبار ٦: ٣٠٣).

[2] ابن ظافر: أخبار ٥٠؛ Bianquis, Th., *Al-Hâkhim bi Amr Allâh* p. 131.

[3] المقريزى: الخطط ٢: ٢٧٣-٢٧٥.

[4] المسبحى: نصوص ضائعة ٣١؛ المقريزى: الخطط ٢: ٢٩٥، ٤٠٩.

الأكْفان . وأمر فى نفس العام بعمل رواقين فى صحن جامع عمرو[١] . وكذلك تخلّى لولى عهده عبد الرحيم بن إلياس عن كل مظاهر البَذَخ والعظمة ، مما يجعلنا نظن كما لو أنه كان يعتزم اعتزال منصب الإمامة[٢].

أُلوهيــة الحــاكم وتحقيــق فكــرة الملك الإلـه

وفى نحو سنة ٤٠٦ - ٤٠٧هـ/ ١٠١٦ - ١٠١٧م حدثت القطيعة النهائية بين الحاكم وأهالى الفُسطاط السُّنَّة . ففى سنة ٤٠٧هـ/ ١٠١٧م وصل إلى القاهرة فريقٌ من الدُّعاة الفُرْس يضم الحسن بن حَيْدَرَة الفَرْغانى الأخْرَم وحمزة بن أحمد اللَّبّاد الزَّوْزَنى ومحمد بن إسماعيل أنوشتكين الدَّرَزى وأعلنوا تأليه الحاكم ، وحاولوا فَرْض هذه العقيدة على أهل الفسطاط[٣]. وقد ترك الحاكم هؤلاء الدُّعاة يقومون بالدَّعْوَة إلى الدين الجديد دون دَعْم منه ، وإن لم يمانع فى مَنْح تعاطفه لحركة تحاول أن تجمع الدولة حول شخصه ، وتطلق على أتباعها اسم « المُوَحِّدين »[٤].

---

[١] المسبحى : نصوص ٣٢؛ المقريزى : الخطط ٢: ٢٩٥، ٤٠٩.

[٢] Bianquis, Th., *op.cit.*, p. 130.

[٣] يحيى بن سعيد : تاريخ ٢٢٢ - ٢٢٣؛ ابن ظافر : أخبار ٥٢ - ٥٣؛ المقريزى : اتعاظ ٢: ١١٣، ١١٨، ١٤٠، الخطط ١: ٣٥٤، ٢: ٢٨٩، المقفى ٢: ٣٠٦ - ٣٠٩.

ولمزيد من التفصيلات عن الدروز الذين أعلنوا تأليه الحاكم وتاريخهم وأصل مذهبهم راجع ، محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية (القاهرة ١٩٣٧، ١٩٥٩) الذى اعتمد على «رسائل الدروز»؛ محمد كامل حسين : طائفة الدروز (القاهرة ١٩٦٢)؛ de Sacy, S., *Exposé de la religion des Druzes*, I-II, Paris 1838; Hodgson, M. G. S., «Al-Darazi and Hamza in the origin of the Druze Religion», *JAOS* 82 (1962), pp.5-20; id., EI^2 art. *Drûze* II, pp. 647-50; Madelung, W., EI^2 *art. Hamza b.* » *Ali* III, pp. 157-58; Bryer, D., «The Origins of the Durze Religion », *Der Islam* 52 (1975), pp. 47-84, 239-262; 53 (1976), pp. 5-27; Abu-Izzedin, N.M., *The Druzes : A New Study of their History, Faith and Society,* Leiden 1988.

[٤] يحيى بن سعيد : تاريخ ٢٢٢.

وعلى خلاف عادة الفاطميين ، فإن دعاة الدين الجديد حاولوا تحويل أهل الفُسْطاط إليه ، ومَدُّوا تحدياتهم إلى داخل جامع عمرو نفسه مركز المقاومة السنية . وبذلك أصبح الصِّدام بينهم وبين السُّنَّة أمرًا لا مَفَرَّ منه . وشهدت السنوات من ٤٠٨هـ/ ١٠١٧م وحتى ٤١٠هـ/ ١٠١٩م سلسلة من المصادمات والاغتيالات والقتل ، قُتِلَ فى أثنائها الداعى محمد بن إسماعيل الدَرَزى سنة ٤٠٨هـ/ ١٠١٧م أثناء سيره فى موكب الحاكم [١].

وكانت جنازةُ الحافظ أبى محمد عبد الغنى بن سعيد الأزدى ، الذى توفى تبعًا لأغلب المصادر فى سنة ٤٠٩هـ/ ١٠١٨م ، مناسبة تظاهر فيها أهل السُّنَّة فى الفُسْطاط خلف قاضى القضاة ابن أبى العَوّام الحنبلى ، الذى أمّ الصلاة على جنازة عبد الغنى بن سعيد ، من أجل نُصْرة الإسلام الحق [٢].

حريقُ الفُسْطاط الأوّل

وأدَّت هذه المواجهة إلى نَهْب مدينة الفُسْطاط وحرقها فى سنة ٤١٠هـ/ ١٠١٩م ، دون شك بناء على تحريض الحاكم ، بعد أن وَضَعَ أهلها فى طريقه صورة امرأة عُمِلَت من قراطيس ، وفى يدها جريدة عليها ورقة فيها سَبٌّ للحاكم وأسلافه . فقامت طوائف العبيد بمهاجمة المدينة ونَفَّذوا فيها عمليات سَلْب وحرق واغتصاب وقتل كبيرة [٣].

وتصدَّى أهالى الفُسْطاط لهذه المحاولة ، وقاوموا إلى أقصى درجات المقاومة مدافعين عن مدينتهم خِطَّة خِطَّة . ولم يلبث المغاربة والأتراك أن أخذوا جانب أهالى الفُسْطاط وحاربوا معهم ضد العبيد لإيقاف الصراع الدائر ، فقد كان أكثرهم مخالطًا لهم

---

[١] يحيى بن سعيد ٢٢٣؛ النويرى : نهاية ٢٨:١٩٦-١٩٨؛ المقريزى : اتعاظ ٢: ١١٣.

[٢] Bianquis, Th., *op.cit.*, p. 132; id., «*Abd al-Gani b. Sa'id, un savant sunnite au service des Fatimides*», p. 45.

[٣] نفسه ٢٢٥؛ النويرى : نهاية ٢٨: ١٩٣؛ المقريزى : الخطط ٢: ١٠٢؛ أبو المحاسن : نجوم ٤: ١٨١ (نقلاً عن ابن الجوزى وسبط ابن الجوزى والذهبى) .

ومصاهرًا منهم ، واستسمحوا الحاكم فى إنهاء عمليات السَّلْب والحرق لأن أموالهم وأولادهم وعقاراتهم موجودة فى الفسطاط[١]. ولكن الحاكم لم يستجب إليهم ، بل بدا عليه الانبهار بمنظر المدينة التى تحترق ، وعمل على إشعال الفِتْنَة بين العبيد وسائر الطوائف بغرض « طَرْح بعضهم على بعض ، ولينتقم من فريق بفريق » . ولم يُصْدر أوامره بوقف هذه المأساة إلَّا بعد أن احْتَرَق من الفُسْطاط مقدار ثلثها ونُهِب نصفها ، وبعد أن هَدَّد المغاربة والأتراك بحرق القاهرة نفسها[٢] .

ولَعَلّ محاولة الدعاة الدروز تأليه الحاكم ، التى وَجَدَت دون شك تشجيعًا منه ، لم تلق قبولًا من كبار رجال الدعوة الإسماعيلية ، فالداعى أحمد حميد الدين بن عبد الله بن محمد الكِرْمانى الملقب بحُجَّة العراقيين والذى قدم إلى مصر فى سنة ٤٠٨هـ/ ١٠١٧م ، فى أغلب الظن بناء على استدعاء الحاكم بأمر الله له[٣]، يشير فى رسالة « مباسم البشارات بالإمام الحاكم بأمر الله » إلى أن الناس واقعون تحت ابتلاء عظيم ، وأن رجال الدعوة رفضوا عقد « مجالس الحِكْمَة » ، وأن « أولياء الدعوة الهادية حَيَّرهم ما يطرأ عليهم من هذه الأحوال » وأن بعضهم بلغ فى الغُلُوّ ذُراه ، وتزعزعت أركان اعتقادهم[٤]. فى هذه الظروف وضع حميد الدين الكِرْمانى رسالته المعروفة بـ« الرسالة الواعظة فى الرد على الأخرم الفرغانى » يُدْحِض فيها فكرة تأليه الحاكم ويُفَنِّدها ويُثْبِت عقيدة الإسماعيلية فى الله الذى لا إله إلَّا هو[٥].

---

[١] أبو المحاسن : النجوم ٤ : ١٨١ وراجع كذلك يحيى بن سعيد : تاريخ ٢٢٥- ٢٢٦؛ ساويرس : تاريخ البطاركة ٢/ ٢ : ١٢٦- ١٢٧؛ ابن الأثير : الكامل ٩ : ٣١٥؛ النويرى : نهاية ٢٨: ١٩٣- ١٩٤.

[٢] نفسه ٤ : ١٨١.

[٣] عماد الدين إدريس : عيون الأخبار ٦ : ٢٨١.

[٤] نفسه ٦ : ٢٨٢؛ Daftary, F., *op.cit.*, pp. 196-200 .

[٥] نشر هذه الرسالة الدكتور محمد كامل حسين بعنوان « الرسالة الواعظة فى نفى دعوى ألوهية الحاكم بأمر الله » باسم البشارات « للكِرْمانى فى كتابه « طائفة الدروز » ، ٥٥- ٧٤.

الحاكِمُ يُفَكر فى نَقْل الحَجّ إلى مصر

تبعًا لرواية أوردها الجغرافى الأندلسى أبو عُبَيْد البَكْرى المتوفى سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م ، وأيَّدتها مصادر أخرى ، شَيَّد الحاكم بأمر الله فى المنطقة الواقعة بين الفُسْطاط والقاهرة ثلاثة مَشاهِد لينقل إليها رُفات النبى ﷺ ورُفات أبى بكر وعمر ، رضى الله عنهما ، من المدينة . وهى محاولة كُتِب لها الفَشَل [١]. وكان يهدف من هذا المشروع إلى تحوير الجغرافية الروحية والدينية للعالم الإسلامى عن طريق حرمان المدينة من أكثر رموزها تقديسًا بتحويل قوافل الحُجّاج إلى العاصمة الفاطمية .

ولم يُحَدِّد لنا البَكْرى تاريخ هذه المحاولة الفاشلة [٢]. ورغم أن المصادر الفاطمية والدراسات القائمة عليها لا تشير بأية حال إلى هذه المحاولة ، فإن المؤرِّخ ابن فَهْد المكى المتوفى سنة ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م والمؤرِّخ المصرى الجَزيرى بعده بنحو قرن من الزمن ، لا يتركان أى شك فى أن هذا المشروع الفاشل قد تم فى سنة ٣٩٠هـ/ ١٠٠٠م [٣]. وتفيدنا هذه الرواية ، التى تقترب من رواية البَكْرى ، بأن أحد الزَّنادقة ، الذى لم يُذْكَر اسمه [٤]، أشار على الحاكم بنَبْش قبر النبى ﷺ وصاحبيه وحملهم إلى مصر ، وبذلك يشدّ الناس رحالهم من أقطار الأرض إليها [٥]. وبينما يذكر البَكْرى أن الحاكم بذل أموالًا لرجال من شيعته نجحوا فى حَفْر سِرْداب أسفل الدور المجاورة لمنزل الرسول ﷺ مقابل القبر ، غير أن

[١] البكرى : جغرافية مصر من كتاب الممالك والمسالك ٥٧؛ مجهول : الاستبصار فى عجائب الأمصار ٨٣.

[٢] Ragib, Y., «Un épisode obscur d'histoire fatimide», *SI* XLXIII (1978), p. 125 .

[٣] ابن فهد : إتحاف الورى بأخبار أم القرى ٢: ٤٢٦؛ الجزيرى : الدرر الفرائد المنظمة ١: ٥٣٢- ٥٣٣.

[٤] هذا الزنديق لم يكن من أتباع مذهب الدروز ، لأن مذهبهم لم يعرف إلا ابتداء من عام ٤٠٨. وربما كان هو ياورختكين العَضُدى متولى حرب الرّمْلة !

[٥] ابن فهد : إتحاف ٢: ٤٢٦؛ الجزيرى : درر الفرائد ١: ٥٣٢.

أهل المدينة لم يلبثوا أن علموا بما فعلوا وبنيتهم فقتلوهم ومَثَّلوا بهم، ثم رصفوا تلك الحفرة بالحجارة وأفرغوا عليها الرصاص بحيث لا يطمع فى الوصول إليها طامعٌ أبدًا [١]. فإن رواية ابن فَهْد والجزيرى، التى توجد مع تعديلات طفيفة عند تقى الدين الفاسى والسَّمْهودى، تفيدنا بأن الحاكم عَهَد إلى أمير مكة أبى الفتوح الحسن بن جعفر الحسنى بهذه المهمة [٢]. فمضى إلى المدينة وأزال عنها إمرة بنى الحسين، بحجة قَدْحهم فى نَسَب الفاطميين، وجلس فى مسجد المدينة وحضر إليه جماعةٌ من أهلها بلغهم ما جاء من أجله، ومعهم قارئٌ يُعْرَف بالرَّكْبانى فقرأ آيات من سورة التَّوْبَة تدعو إلى مقاتلة أئمة الكفر والناكثين بأيمانهم [٣]. فثار الحاضرون على أبى الفتوح وكادوا يفتكون به، ولم يمنعهم من ذلك إلّا خوفهم من العواقب خاصةً وأن البلاد كانت للفاطميين.

ولم يكد يمضى بقية النهار «حتى أرسل الله ريحًا كادت الأرض تُزَلْزَل منها حتى دحرجت الإبلِ بأقتابها والخيل بسروجها وهلك خلقٌ كثيرٌ من الناس». فَرَّجت هذه الكارثة الكونية، التى فُسِّرت على أنها علامة غضب إلـهية، كُرْبَة أبى الفتوح وهَمّه واعتبرها حِجّة له عند الحاكم لتركه تنفيذ ما أمره به [٤].

ولم يُثْنِ فَشَلُ هذه المحاولة الحاكم عن أن يعاود من جديد حرمان المدينة من ذخائر مقدَّسَة أخرى. إذ إن فكرة تحويل قوافل الحُجّاج نحو العاصمة الفاطمية برفعها إلى

---

[١] البكرى: جغرافية مصر ٥٧؛ مجهول: الاستبصار ٨٣؛ Ragib, Y., *op.cit.*, p. 125-126.

[٢] فى سنة ٤٠٠/١٠١٠ ثار بنو الجراح فى فلسطين على الحاكم بأمر الله وبايعوا أبا الفتوح خليفة تحت لقب «الراشد بالله». (الفاسى: العقد الثمين ٤: ٧٠-٧١؛ المقريزى: المقفى ٣: ٣٥٠-٣٥٢؛ ابن فهد: إتحاف الورى ٢: ٤٣٦-٤٤٠).

[٣] ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَـٰتِلُوهُمْ﴾ [سورة التوبة ١٢-١٤].

[٤] الفاسى: العقد الثمين ٤: ٧٧؛ ابن فهد: إتحاف الورى ٢: ٤٢٧؛ السمهودى: وفاء الوفا ٢: ٦٥٣؛ الجزيرى: درر الفرائد ١: ٥٣٣.

مصاف المدن المقدَّسَة ، أصبحت جزءًا من سياسة الفاطميين وعلى الأخص فى عهد الحاكم . ففى سنة ٤٠٠هـ/ ١٠١٠م أرسل الحاكم ياروختكين العَضُدى ، متولّى حرب الرَّمْلَة ، إلى المدينة ليفتش فى دار جعفر الصّادق ، والتى لم يجرؤ أحدٌ على فتحها بعد وفاته ، عمّا بها من ذخائر . وقد جمع ياروختكين ما وجده فى الدار وعلى الأخص مُصْحَف وقَعْبٌ من خشب مطوق بحديد ودَرَقَة خَيْزُران وحَرْبة وسرير . وقد حُمِل جميع ذلك إلى القاهرة وصحبه جماعةٌ من شيوخ العلويين . فلما وصلوا إلى الحاكم أطلق لهم نفقات قليلة ورَدَّ عليهم السرير وأخذ الباقى قائلًا لهم إنه أحَقُّ به منهم [١]. ومن بين هذه الذَّخائر قطعةٌ من حصير كانت تستخدم كسجادة صلاة للخلفاء فى وقت صلاة الفِطْر [٢]. ولم تكن هذه الذَّخائر الوحيدة التى احتفظ بها الفاطميون فقد كان عندهم أيضًا ذو الفقار سيفُ على ابن أبى طالب ، وسيفُ الحسين بن على ودَرَقَةُ حمزة بن عبد المطلب وسَيْفُ جعفر الصّادق [٣].

نِهـــايَةُ الحـــاكِم

كما كانت حياةُ الحاكم بأمر الله حياة مليئة بالعجائب ، فإن نهايته هى الأخرى كانت نهاية مُلْغِزة ، وربما لن نعرف أبدًا كيف تَمَّت .

ففى ليلة ٢٧ شوال سنة ٤١١هـ/١٣فبراير سنة ١٠٢١م اختفى الحاكم بطريقة يكتنفها الغموض . حيث خرج إلى المُقَطَّم (وفى رواية إلى حُلْوان) وطلب إلى المكاريين اللذين صحباه بانتظاره وابتعد عنهما فى الجبل ، ولم يرياه بعد ذلك أبدًا . ولما

---

[١] ابن الجوزى : المنتظم ٧: ٢٤٦؛ ابن الأثير : تاريخ ٩: ٢١٩؛ أبو المحاسن : النجوم ٤: ٢٢٢؛ عماد الدين إدريس : عيون الأخبار ٦: ٢٨٨ Wiet, G., *CIA* Egypte II, p. 163; Ragib, Y., *op.cit.*, p. 129.

[٢] المقريزى : الخطط ١: ٤٥٣؛ أبو المحاسن : النجوم ٥: ١٧٦.

[٣] نفسه ١: ٤١٧.

عادا فى الصباح إلى القصر أخبرا بما تم ، فأُخِذَ فى البحث عنه ، وبعد خمسة أيام وُجِدَت ثيابه وبها آثار طعنات ، ولكنهم لم يتوصَّلوا أبدًا إلى جثمانه الذى ربما أكلته الحيوانات الضالة [١].

وقد وصلت إلينا أخبارُ اختفاء الحاكم أو القضاء عليه ، عن طريق ثلاثة مؤلِّفين : هلال الصابئ[٢] والقُضاعى[٣] ويحيى بن سعيد[٤]. وكلها تشير إلى أن سَيِّدة المُلْك ، أخت الحاكم الكبرى بالاتفاق مع سيف الدولة الحسين بن على بن دَوّاس الكُتامى ، كانا وراء عملية اغتياله بعد أن اتهمها الحاكم فى شرفها ، ولخوف ابن دَوّاس على نفسه من الحاكم .

وحقيقة الأمر أن سَيّدة المُلْك كانت امرأة واسعة الإدراك وكانت ترى فى تَصَرُّفات أخيها التى تراوحت بين خروج على ما ارتضاه آباؤه وهَتْك لناموس الشريعة ، بالإضافة إلى ادعائه الألوهية وثورة المسلمين السنة عليه وخشيتها أن يقتلوه وبقية بيته ، رأت فى ذلك ما قد يُخْشى معه على ذهاب البيت الفاطمى وسقوط دولتهم .

وقد ساعدت الطريقة التى اختفى بها الحاكم أنصار الدين الجديد الذى تزعمه حمزة بن محمد الزَّوْزَنى إلى الدَّعْوَة إلى مذهبهم والقول باختفاء الحاكم وغيبته وأنه سيعود ليملأ الأرض عَدْلًا بعد أن ملئت جورًا وظلمًا مرددين فى ذلك فكرة المهدية . ولكن مذهبهم وأتباعه لم يجد فى مصر أرضًا خصبة له فخرج به أصحابه إلى بلاد الشام

[١] ابن القلانسى : ذيل ٧٩؛ ابن ظافر : أخبار ٥٨- ٥٩؛ أبو صالح : تاريخ ٦٦؛ ابن الأثير : الكامل ٩: ٣١٥؛ ابن حماد : أخبار ٥٨- ٥٩؛ ابن خلكان : وفيات ٥: ٢٩٧- ٢٩٨؛ ابن سعيد : النجوم ٥٠- ٥١؛ النويرى : نهاية ٢٨: ١٩٤- ١٩٦؛ ابن خلدون : تاريخ ٤: ٦١؛ المقريزى : اتعاظ ٢: ١١٥- ١٢١؛ أبو المحاسن : النجوم ٤: ١٨٥- ١٩٣؛ وانظر كذلك ساويرس : تاريخ البطاركة ٢/ ٢: ١٣٧. اما الداعى عماد الدين إدريس فقد ذكر أن الله رفع الحاكم إليه (عيون ٦: ٣٠٣).

[٢] أبو المحاسن : النجوم ٤: ١٨٥- ١٩٠.

[٣] نفسه ٤: ١٩٠-١٩٢

[٤] يحيى بن سعيد : تاريخ ٢٣٣- ٢٣٤.

وخاصةً فى صَيْدا وبيروت وساحل الشام . كما أعطى ذلك أيضًا فرصة لطالبى الشهرة الذين ظهر منهم من يَدّعى أنه الحاكم وأنه لم يمت وأنه عاد من جديد [١].

سَـــيِّدَةُ المُـــلْك

تُــدَبِّر شُــئُون الــدَّوْلَة

بالرغم من أن تعاقب الأحداث فى هذه الفترة القصيرة والحرجة فى تاريخ الدولة الفاطمية غير واضح ، كما أن بعض أحداثها يشوبه الغموض ، فالشيء الذى لا يمكن إنكاره هو الحُنْكَة الواضحة التى أدارت بها سَيِّدَة المُلْك الأمور .

فبعد تأكُّدها من قَتْل أخيها ، أرسلت أحد الأمراء الكُتاميين إلى دمشق بمُلَطَّفات [٢] إلى الأمراء والقُوّاد هناك بالقبض على وَلِىّ العَهْد عبد الرحيم بن إلْياس ، فحمِل إلى مصر وقتل فى القصر [٣]، وبذلك قضت نهائيًا على هذا الوضع الشاذ الذى أراده الحاكم بأمر الله . وأعقبت ذلك بقتل حسين بن على بن دَوّاس الكُتامى ، وكل من كانت تخاف منه ممن عرف بمؤامرتها للقضاء على الحاكم [٤]. وكان هدفها الأساسى من ذلك هو تأمين انتقال هادئ للسلطة من الحاكم إلى ابنه ووَلِىّ عهده الشُّزعى أبى الحسن على الذى كان يعيش مع أمه فى قصر سَيِّدة المُلْك منذ عام ٤٠٤هـ/ ١٠١٤م ، وتولَّى الخلافة باسم

---

[١] المسبحى : أخبار مصر ٢٧- ٢٨، ١٩٢ ساويرس بن المقفع : تاريخ البطاركة ٢/ ٢: ١٣٨؛ المقريزى : الخطط ١: ٣٥٤، ٢: ٢٨٩، الاتعاظ ٢: ١٤٠؛ عماد الدين إدريس : عيون الأخبار ٦: ٣٢٨ وانظر عن انتقال نشاط الدوز إلى الشام .

[٢] مُلَطَّف جـ . مُلَطَّفات . هى الرسائل الرسمية المختصرة . Dozy, *Suppl. Dict.* Ar. II, 532; Bianquis, Th., *Damas et la Syrie sous la domination fatimide* I, 353-373 .

[٣] يحيى بن سعيد : تاريخ ٢٣٦؛ أبو المحاسن : النجوم ٤: ١٨٩.

[٤] ابن عذارى : البيان المغرب ١: ٢٧١؛ النويرى : نهاية ٢٨: ٢٠٤؛ المقريزى : اتعاظ ٢: ١٢٩، المقفى ٣:٥٦٢- ٥٦٣؛ أبو المحاسن : النجوم ٤: ١٩٢.

« الظّاهر لإعزاز دين الله » . وبويع بها يوم عيد الأضحى سنة ٤١١هـ/٢٤ مارس سنة ١٠٢١م .

وهكذا أصبحت سيدة المُلْك منذ نهاية عام ٤١١هـ/ ١٠٢١م فى الحقيقة هى الحاكمة الفعلية للبلاد . واعتمدت فى أوّل الأمر على رئيس الرؤساء خطير الملك أبى الحسين عَمّار بن محمد ، ثم أمرت بقتله فى ذى القعدة سنة ٤١٢هـ/ ١٠٢١م ، وباشرت تدبير المملكة بنفسها [١]، فكان « لا ينفذ أمرٌ جَلَّ أو قَلّ إلّا بتوقيع يخرج عنها بخط أبى البيان الصَّقْلَبى عبدها » [٢]، حتى وافتها المنية فى ١١ ذى القعدة سنة ٤١٣هـ/٥ فبراير سنة ١٠٢٢م [٣].

خِلافَةُ الظّاهِرِ لإعزاز دين الله
وتوطيد العلاقات مع بيزنطة

للأسف الشديد فإن الجزء الوحيد الذى وَصَلَ إلينا من « أخبار مصر » للمُسَبِّحى ، الذى عاصر هذه الأحداث وشاهدها عن كثب ، يبدأ بحوادث جمادى الآخرة سنة ٤١٤هـ/سبتمبر ١٠٢٣. ولو كانت وَصَلَت إلينا الأجزاء السابقة على ذلك لعرفنا من خلالها تفاصيل كثيرة عن هذه الفترة الهامة فى تاريخ الدولة .

وفى الفترة الأولى من خلافة الظّاهر لم يكن منصب الوَساطَة واضحًا تمامًا ، وقد تَوَلّاه لفترة قصيرة الأمير شمس المُلْك أبو الفَتْح المسعود بن طاهر الوَزّان [٤]، وشَجِبَت

---

[١] ابن الصيرفى : الإشارة ٦٥، المقريزى : اتعاظ ٢: ١٢٨؛ Halm, H., *EI*² art. *Sitt al-Mulk* IX, 714 .

[٢] ابن عذارى : البيان ١: ٢٧١.

[٣] النويرى : نهاية ٢٨:٢٠٤-٢٠٥ وعن دور سيدة الملك فى انتقال السلطة من الحاكم إلى الظاهر راجع ، Lev., Y., «The Fatimid Princess Sitt al-Mulk », *JSS* XXXII (1986), pp. 319-328 .

[٤] ابن الصيرفى : الإشارة ٦٦- ٦٧؛ ابن سعيد : النجوم ٣٥٦؛ ابن أيبك : كنز الدرر ٦: ٣٠١، ٣١٧؛ ابن ظافر : =

صَلاحيّاته منه تدريجيًا [١]، ثم حَلَّ محله مجلس من ثلاثة تَسَلَّطوا على الظّاهر، مكوّن من الشريف أبى طالب العَجَمى والشيخ العميد محسن بن بَدُوس والشيخ نجيب الدولة أبى القاسم على بن أحمد الجَرْجَرائى [٢]، بالإضافة إلى القائد الأجل عِزّ الدولة وسنانها أبى الفوارس مِعْضاد الخادم الأسود [٣]. وقد اتّفَقَ الثلاثة فيما بينهم، فى جمادى الآخرة سنة ٤١٥هـ/أغسطس ١٠٢٤، على «أن يكون دخولهم إلى الظّاهر لا غير فى كل يوم خلوة، وأنهم يكفونه أمر الاهتمام بالدولة ليتوفر على لذّاته وينفردوا بالتدبير» [٤].

فقد كان الخليفة الظّاهر، على عكس والده، بعيدًا عن الاشتغال بشئون الدولة بما أنه نشأ محجوبًا فى دار السيدة العمة، وانشغل بتُنَزّهه ولهوه حيث أكثر من الخروج للنزهة إلى نواحى عَيْن شمس والقصور ومسجد تِبْر [٥]، كما كان محبًا لسماع الغناء، مما جعله ينقض أكثر الإجراءات التى اتّخَذَها والده. فترخّص فى شرب الخمر والفُقّاع وسماع الغناء، وسمح بأكل الملوخية وسائر أنواع السمك [٦]، وأذن للنصارى واليهود الذين تظاهروا بالإسلام فى خلافة والده بالارتداد إلى دينهم رغم مخالفة ذلك للشريعة الإسلامية [٧].

وألَمَّت بمصر فى عهده أزمة اقتصادية كبيرة فى سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٤م اشتد فيها الغلاء وفشا فيها المرض فى الناس وكثر فيهم الموت. وأدّى الوباء إلى نفوق الحيوانات،

= أخبار ٦٥؛ النويرى: نهاية ٢٨: ٢٠٨؛ المقريزى: اتعاظ ٢: ١١٤، ١٣٢، ١٣٦.

[١] المسبحى: أخبار ١٨، ٢٩- ٣١.

[٢] نفسه ٣١.

[٣] انظر سجل تلقيبه الصادر فى صفر سنة ٤١٥/ إبريل ١٠٢٤ عند المسبحى: أخبار ٢٤- ٢٧.

[٤] نفسه ٤٥- ٤٦.

[٥] المسبحى: أخبار مصر ٩، ١٥، ١٩- ٢٠، ٣٢، ٣٨، ٤٢، ٤٥، ٤٦، ٤٨، ٦١.

[٦] المقريزى: الخطط ١: ٣٥٤ والاتعاظ ٢: ١٢٩.

[٧] ساويرس: تاريخ البطاركة ٢/ ٢: ١٣٥؛ أبو صالح: تاريخ ٦٠؛ المقريزى: الخطط ١: ٣٥٥ والاتعاظ ٢: ١٧٦؛ Atiya, A.S., *EI*[2] art. *Kibt* V, p. 94.

وعَزَّ الماء لقصور النيل، وشاعت الفوضى بسبب ذلك، فكَبَسَ العبيد والدُّعّار القاهرة ومصر ونهبوا الأرياف. فكانت أزمة شديدة أتى على تفاصيلها المُسَبِّحى فيما وَصَلَ إلينا من تاريخه[١].

ولم تمنع هذه الأزمة بعواقبها الخليفة الظَّاهر من الاهتمام بأمر «الدعوة الفاطمية» فاستعادت سابق نشاطها، وأمر الدُّعاة فى سنة ٤١٦هـ/ ١٠٢٥م أن يُحَفِّظوا الناس كتاب «دعائم الإسلام» للقاضى النعمان بن حَيُّون وكتاب «الفِقْه» الذى ألَّفَه يعقوب ابن كِلِّس، ورَصَد مكافآت مالية لمن يحفظهما، فى نفس الوقت الذى أمر فيه بنفى الفقهاء المالكية الذين رَتَّبهم والده فى دار الحِكْمَة[٢].

وكان من نتيجة هذه السياسة أن انتشر الدُّعاةُ الفاطميون على امتداد الأراضى الشرقية التابعة للعَبّاسيين ثم للسّلاجِقَة، يتلقون تعليماتهم مباشرة من رئاسة الدعوة المركزية فى القاهرة[٣]. فقد كان هدفُ الفاطميين، حتى أثناء عهد المستنصر، هو الإطاحة بالخلافة العَبّاسية وتفريقها ليُرْسوا مكانها عقيدتهم وسيطرتهم على العالم الإسلامى. فنجح الدُّعاة فى إغراء الدَّيالمة عند خروجهم من بغداد سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٤م بإقامة الدَّعْوَة للفاطميين فى البَصْرَة والكوفة والمَوْصِل وأعمال الشرق[٤]، وأوصلوا إلى محمود بن سُبُكْتُكين، صاحب غَزْنَة، خِلَعًا من الخليفة الظَّاهر ليقيم لهم

---

[١] المسبحى: أخبار مصر (امتداد الجزء)؛ المقريزى: الخطط ١: ٣٥٤- ٣٥٥؛ ودرسها فى مقال مطول تيارى بيانكى انظر Bianquis, Th., «Une crise frumentaire dans l'Egypte fatimide», *JESHO* XXIII (1980), pp. 67-101.

[٢] المقريزى: الخطط ١: ٣٥٥ والاتعاظ ٢: ١٧٥.

[٣] عندما استولى الأتراك على بغداد فى سنة ١٠٣٣/٤٢٥ استغل دعاة الظاهر هذه الفرصة ونشروا الدعوة الفاطمية بين الناس فى بغداد. (المقريزى: الخطط ١: ٣٥٥، اتعاظ ٢: ١٨١).

[٤] المسبحى: أخبار ٨٤- ٨٥؛ النويرى: نهاية ٢٨: ٢٠٥؛ المقريزى: اتعاظ ٢: ١٦٨.

الدعوة ، إلّا أنه سَلَّمها للخليفة القادر بالله العبّاسى الذى أمر بإحراقها [١]، كما أن المؤيَّد فى الدين الشِّيرازى نجح فى إظهار الدعوة الفاطمية فى شيراز وأرض فارس والأهْواز [٢].

وهكذا ، ولأكثر من قرن ، كان نشاطُ الحكومة الفاطمية فى القاهرة ورجال الدَّعْوة فى داخل مصر وخارجها مُوَجَّهًا لتحقيق هدف واحد هو الإطاحة بالخلافة العَبّاسية .

ويذكر لنا المُسَبِّحى فى حوادث سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٤م حِرْص الفاطميين على استمرار إقامة الدَّعْوَة لهم فى الحرمين الشريفين ، وكيف كان أمراء مكة يساومون الفاطميين على ذلك ويقولون لهم إنهم بُذِلت لهم الرَّغائب فى إقامتها لغير الفاطميين « فلم يأخذها ولم يُجَب إليها » ، كما أن الوفد الحجازى الذى جاء إلى مصر لم يجد أحدًا يستقبلهم ليحدِّثوه فى هذا الأمر [٣].

وبينما كان الفاطميون يكسبون أرضًا عن طريق الدَّعوة فى ممتلكات العَبّاسيين ، كانوا يخسرون أرضًا حقيقية من ممتلكاتهم فى بلاد الشام . فقد تحالف أمراء الشام المحليين : حَسّان بن جَرّاح ، وسِنان بن البَنّا ، وصالح بن مِرْداس ليستقلوا بالشام عن الفاطميين بحيث تكون فلَسْطين لابن جَرّاح ، ودِمَشْق لابن البَنا ، وحَلَب لابن مِرْداس ، واستعانوا لتحقيق ذلك بإمبراطور بيزنطة فلم يجبهم ، وتصدَّى لهم القائد الفاطمى أمير الجيوش أَنُوشْتَكين الدِّزْبرى [٤] ودارت بينهم مواجهات عِدَّة انتهت باستقلال المرداسيين بحلب فى سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٣م .

---

[١] ابن الجوزى : المنتظم ٨: ١٦؛ ابن الأثير: الكامل ٩: ٣٥٠ وقارن المقريزى : اتعاظ ٢: ١٣٧- ١٣٩؛ أبا المحاسن : النجوم ٤: ٢٥١.

[٢] سيرة المؤيد فى الدين ٥٥.

[٣] المسبحى : أخبار مصر ٧٢.

[٤] عن هذا القائد ، الذى كان قائد جيوش الفاطميين فى الشام وأول من تلقب بلقب « أمير الجيوش » راجع ، المقريزى : المقفى ٢: ٣٠٢-٣٠٦؛ Wiet, G., «Un Proconsul Fatimide de Syrie: Anushtakin al-Dizbiri (m. en 433/1042)», *MUSJ* 46 (1970), pp. 383-407; Bianpuis Th., *op.cit.*, pp. 425-523.

وعمل الظّاهر على تحسين علاقته مع البيزنطيين، بعد أن كانت قد ساءت فى عهد والده الحاكم. فقد كان الفاطميون فى حاجة ماسة إلى تموين القمح الذى يصلهم من القسطنطينية، وفى حاجة كذلك إلى تأمين جانب البيزنطيين حتى يتفرّغوا لمواجهة العبّاسيين ثم السّلاجِقَة، فوُقِّعت هُدْنَة بين الطرفين فى سنة ٤١٨هـ/١٠٢٧م أقيمت بمقتضاها الخطبة للظاهر بجامع القسطنطينية مقابل أن يعيد الظّاهر فتح كنيسة قُمامة وتجديدها، وأن تُعْمر النّصارى جميع الكنائس الخراب فى مصر (سوى ما كان منها قد عمل مسجدًا)، وألّا يتعرّض الظّاهر لحلب (وقد اعتذر الظّاهر عن قبول هذا الشرط)، وألّا يساعد صاحب صِقِلّيّة على محاربة البيزنطيين[٢].

وقد وُقِّعَت اتفاقية أخرى بين الجانبيين فى سنة ٤٢٧هـ/١٠٣٦م لمدة عشر سنوات ثم جُدِّدَت فى سنة ٤٣٩هـ/١٠٤٧م للغرض نفسه[٣].

---

[١] المسبحى: أخبار ٣٥، ٤٤، ٤٧، ٦٤- ٦٥؛ يحيى بن سعيد: تاريخ ٢٤٤- ٢٤٦، ابن القلانسى: ذيل ٧٣؛ ابن ظافر: أخبار ٦٣- ٦٤؛ ابن الأثير: الكامل ٩: ٣٦٩، ٣٩٢، النويرى: نهاية ٢٨: ٢٠٥؛ ابن العديم: زبدة الطلب ١: ٢٢٣- ٢٢٧؛ المقريزى: الخطط ١: ٣٥٥، اتعاظ ٢: ١٤٧، ١٧٦، ١٨٠؛ أبو المحاسن: النجوم ٤: ٢٥٢- ٢٥٣؛ Canard, M., *EI*[2] art. *Djarrâhides* II, pp. 495-497.

[٢] يحيى بن سعيد: تاريخ ٢٧٠- ٢٧١؛ المقريزى: اتعاظ ٢: ١٧٦.

[٣] ابن الأثير: الكامل ٩: ٤٦٠، ٥٤١؛ المقريزى: اتعاظ ٢: ١٨٢؛ Hamdani, ʿA., «Byzantine-Fatimid Relations before the Battle of Manzikert», *Byz. St.* 1,2 (1974), p. 174.

الفصل الرابع
المواجهة العبّاسيّة الفاطميّة

خلافة المُستنصرِ بالله

عندما خَلَفَ المستنصر بالله والده الظّاهِر لإعزاز دين الله سنة ٤٢٧هـ/ ١٠٣٦م ، وهو طفل لم يتجاوز السبع السنوات ، لم يكن يعلم ما تخبؤه له الأيام . فقد امتدَّ حكمه ستين عامًا (٤٢٧-٤٨٧هـ/ ١٠٣٦-١٠٩٤م) شهدت أحداثًا جسامًا فى تاريخ الدولة الفاطمية كادت أن تودى بالخلافة نفسها فى أوّل صدام حقيقى بينها وبين الخلافة العبّاسية ، وأفقدت «القاهرة» عاصمة الفاطميين ، مكانتها كـ«مدينة ملكية» تُعَدُّ لحكم العالم الإسلامى ولم يمض على إنشائها مائة عام .

ومع ذلك فقد وَصَلَت الإمبراطورية الفاطمية إلى أقصى اتِّساع لها فى العشرين عامًا الأولى من حُكْم المستنصر حيث شملت مصر وجنوب الشام وشمال إفريقية وصِقِلِّيَة والشاطئ الإفريقى للبحر الأحمر والحجاز واليمن . كما كَسَبَت ولاءَ عدد لا يُحصى من الأتباع فى أراضٍ كانت ما تزال خاضعةً لحكّام سُنّة فى المَشْرق ؛ ثم هَوَت فى انحدار سريع وتَقَلّصت عنها ممتلكاتها تدريجيًا ، وهى تُمَثِّل بذلك نهاية الفترة الكلاسيكية للدولة الفاطمية .

فمن الناحية الإقليمية بدأ نُفوذُ الدولة الفاطمية فى الشام فى الانحسار ، فبعد أن كان أميرُ الجيوش أنُوشْتَكين الدُّزْبرى قد استولى على حَلَب سنة ٤٢٩هـ/١٠٣٨م استردّها المِرْداسيّون بعد وفاته سنة ٤٣٣هـ/١٠٤١م ، وحاول الفاطميون عَبَثًا استعادة حَلَب عامى ٤٤٠-٤٤١هـ/١٠٤٨-١٠٤٩م ، وبالرغم من أن ثُمالَ بن صالح بن

مِرْداس أعاد الخُطْبَة الاسمية للمستنصر بالله الفاطمى فى حَلَب سنة ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧ م فإن الفاطمين فَقَدُوا نهائيًا سيطرتهم على سوريا الشمالية التى بايعت العَبّاسيين والسّلاجِقَة اعتبارًا من سنة ٤٦٢هـ/١٠٧٠م[١].

وفى الداخل لم يبدأ انحلال الدولة الفاطمية فى الظهور إلا فى أعقاب وفاة الوزير أبى القاسم على بن أحمد الجَرْجَرائى فى رمضان سنة ٤٣٦هـ/ مارس سنة ١٠٤٥م، وهو الانحلال الذى أوْشَك أن يقودها إلى زوالها بعد رُبْع قرن .

ظُهُــــورُ السَّـــلاجِقَة

تزامن ذلك مع بداية ظُهُور السّلاجِقَة على مَسْرح الأحداث[٢]، بعد أن بدأت السُّلْطَة الفعلية والروحية للخلفاء العَبّاسيين فى بَغْداد فى الوصول إلى أدْنى درجاتها تحت الهَيْمَنَة السياسية للبُوَيْهيين الشيعة . جاء ذلك فى وقت كانت فيه العديد من الإمارات العربية الصغيرة فى بلاد الرافدين والجزيرة وسوريا الشمالية تَعْتَنِق المذهب الشيعى أيضًا ، ولكن التهديد الأكبر للعَبّاسيين جاء دون شك من جانب الخلافة الفاطمية المنافسة فى مصر

---

[١] المقريزى : اتعاظ الحنفا ٢: ٢٠١، ٢٠٩، ٢٣٥، ٢٥٩، المقفى الكبير ٣: ٥٠٢؛ Daftary, F. *The Ismāʿīlīs* p.204 .

[٢] السّلاجقة . هم فى الأصل مجموعة من قبائل الأتراك الذين عرفوا باسم « الغُز » ، وأطلق عليهم اسم « السّلاجِقَة » نسبة إلى رئيسهم الذى جَمَع شملهم ووحّدهم تحت زعامته سَلْجوق بن دُقّاق فى نهاية القرن الرابع الهجرى ، كانوا يسكنون الهضاب القريبة من السواحل الشرقية لبحر الخَزَر وفى الهضاب المحيطة بنهرى سيحون وجيحون . وأدّت مجاورتهم لممتلكات السامانيين والخانيين والغزنويين–وهم من الدول الإسلامية السُّنّيّة–إلى اعتناقهم الإسلام على المذهب السنى الحَنَفى . ونجح قائدهم طُغْرُلبك فى هزيمة الغزنويين فى معركة فاصلة فى دانْدِنْقان سنة ٤٣٢هـ/١٠٤٠م وأعلن نفسه سلطانًا فى نَيْسابور . وكانت طموحات السّلاجِقَة بعد ذلك تتركّز فى محاولة الإحلال محل القوى الموجودة فى فارس وعلى الأخص الأسر الدَّيْلَمِيّة الشيعية الموجودة فى شمال وغرب فارس ونجحوا فى سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م فى تحرير الخلافة العَبّاسية من وصاية البُوَيْهيين الشيعة ونجح خلفاؤهم من الزّنكيين والنوريين بعد ذلك فى وَضْع نهاية للخلافة الفاطمية فى مصر . (راجع ، Bosworth, *C.E., EI²* art. *Saldjukides* VIII, pp. 967-982؛ عبد النعيم حسنين : سلاجقة إيران والعراق ، القاهرة – مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩؛ Cahen, Cl., La *Turquie pré-Ottomane*, Istanbul- Paris IFEA 1988 .

وجنوب الشام . وجاء استقرار الأتراك السّلاجِقَة (الغُزّ) فى فارس والعراق والجزيرة وسوريا الشمالية ليوقف هذا الزّحْف للتَشيُّع السياسى ، وأصبحت الخلافة الفاطمية مثل غيرها من الأسرات الحاكمة المعاصرة تواجه التهديد المتنامى للأتراك السّلاجِقَة الذين أخذوا فى التَّقَدُّم السريع من الشرق ليُمَهِّدوا لإقامة إمبراطورية قوية جديدة [١].

وهكذا اجتمعت عِدَّة عوامل لتَضَع حدًّا لأحلام الفاطميين وطموحاتهم ؛ ففى عهد الخليفة القادر بالله العَبّاسى وخَلَفِه الخليفة القائم بأمر الله (٣٨١-٤٦٧هـ/٩٩١-١٠٧٤م) طرأ تَغَيُّرٌ واضحٌ على سياسة العَبّاسيين تجاه الفاطميين وبدأ الصِّدامُ بين القُوّتين اللتين تجاذبتا السيادة على الشّرق الإسلامى . كان بدايةُ التَّحَرُّش بينهما «المَحْضَر» الذى صدر فى بَغْداد سنة ٤٠٢هـ/١٠١١م مُتَضَمِّنًا القَدْح فى نَسَب الفاطميين ، ووَقَّعَ عليه كبارُ العلماء والفقهاء والقضاة فى بَغْداد وعلى رأسهم نقيب الطالبيين الشريفِ المُرْتَضَى وأخوه الشريفِ الرَّضى [٢]. كان هذا المَحْضَر بداية حرب دعائية بينهما استمرت فترةً طويلةً ، ففى سنة ٤٤٤هـ/١٠٥٢م كُتِبَ بِبَغْداد «مَحْضَر» آخر شبيه بالمَحْضَر السابق ، وبينما وَصَلَت إلينا صيغة المَحْضَر الأول فإنّنا لا نعلم أىَّ شىء عن صيغة المَحْضَر الثانى [٣].

وفى الوقت نفسه عمل العَبّاسيون على الاستعانة بالسّلاجِقَة لفَرْض حصار على الفاطميين ، وتضييق الخِناق عليهم تمهيدًا للقضاء على خلافتهم . فحاولوا الاتصال بحاكم إفريقية الزِّيرى المُعِزّ بن باديس-الذى يدين بالولاء للفاطميين-وأرسلوا إليه فى سنة ٤٣٥هـ/١٠٤٣م خِلَعًا وتشاريف عن طريق القسطنطينية ، لإفساد أواصر الود التى بَدَت

---

[١] Daftary, F., *op.cit.*, p. 205 .

[٢] ابن الجوزى : المنتظم ٧: ٢٥٥- ٢٥٦؛ ابن الأثير : الكامل ٩: ٢٣٦؛ الذهبى : العبر فى خبر من غبر ٣: ٧٦- ٧٧؛ أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ٢: ١٥؛ ابن خلدون : تاريخ ٤: ٣١؛ المقريزى : اتعاظ ١: ٣١- ٣٤، ٤٧- ٤٩؛ أبو المحاسن : النجوم ٤: ٢٢٩ .

[٣] نفسه ٨: ١٥٤- ١٥٥؛ نفسه ٩: ٥٩١؛ ابن ميسر : أخبار ١٣؛ الذهبى : العبر ٣ : ٢٠٤؛ المقريزى : الخطط ١: ٣٥٦، اتعاظ ٢: ٢٢٣؛ أبو المحاسن : النجوم ٥: ٥٣، السيوطى : حسن المحاضرة ٢: ٢٨٢-٢٨٣ .

بين الفاطميين والبيزنطيين [١]، إلاَّ أن الإمبراطور البيزنطى قبض على الرسول وسَيَّره إلى القاهرة «مراعاة لحق المستنصر ... ولأن بينهما عهودًا وهُدْنَة قد بقى منها سنتان ولا يمكن فسخها» [٢].

لم تَفْلَح مساعى البيزنطيين فى مَنْع الزِّيريين من الاستقلال عن الفاطميين، فقد كانوا فى طريقهم إلى نَبْذ سيادة الفاطميين واعتناق المذهب المالكى منذ تولِّى المُعِزّ بن باديس [٣]. ففى شعبان سنة ٤٤١هـ/١٠٥٠م أمر ابن باديس بضَرْب عُمْلة جديدة خاصة به، وأمر أيضًا بسَبْك ما عنده من الدنانير التى عليها أسماء الفاطميين بعد أن ظَلَّتْ تُضْرَب هناك مائة وخمسة وأربعين عامًا [٤]. وفى سنة ٤٤٣هـ/١٠٥١م قَطَع المُعِزّ كل صلة له بالفاطميين وأقام الخُطْبَة للعَبّاسيين بإفريقية [٥]. ونَجَحَ السَّلاجِقَةُ كذلك فى تحريض الإمبراطور البيزنطى على الخلفاء الفاطميين، وعقدوا معه اتفاقًا أنهى بموجبه تموين القمح الذى كان يرسله إلى مصر [٦]، كما أُقيمت الخطبة للخليفة القائم بأمْر الله العَبّاسى فى جامع القسطنطينية، مما أدَّى بالمستنصر إلى التَّحَوُّط على ما فى كنيسة قُمامَة سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م، وأغلق أبواب كنائس مصر والشام، وطالب الرهبان بالجِزيَة لأربع سنين، وزاد الجِزْيَة على سائر النَّصارى [٧].

---

[١] ابن الأثير : الكامل ٩: ٥٢١- ٥٢٢؛ ابن عذارى : البيان : ١: ٢٧٥- ٢٧٦؛ النويرى : نهاية (تحقيق حسين نصار) ٢٣ : ٢٢٠؛ المقريزى : اتعاظ ٢: ١٩٠ .

[٢] المقريزى : اتعاظ ٢: ٢١٤، ٢٢٤ .

[٣] ابن عذارى : البيان ١: ٢٦٧، ٢٧٣- ٢٧٤؛ ابن الأثير : الكامل ٩: ٢٥٧ .

[٤] نفسه ١: ٢٧٨-٢٧٩ .

[٥] السجلات المستنصرية (سجل رقم ٥)، ابن عذارى : البيان ١: ٢٨٠؛ ابن الأثير : الكامل ٩: ٥٢١-٥٢٢ (وفيه أن ذلك سنة ٤٣٥)؛ ابن ميسر : أخبار ١١- ١٢؛ ابن خلكان : وفيات ٥: ٢٣٠؛ ابن سعيد : النجوم ٧٩- ٨٠، ٣٥٧؛ النويرى : نهاية ٢٨ : ٢١٩، ٢٤: ٢٠٩؛ المقريزى : اتعاظ ٢: ٢١٤؛ المقفى ٣: ٤٢٥؛ أبو المحاسن : النجوم ٥: ٢٠، ٥٠؛ Idris, H.R., *La Berbéreie Orientale sous les Zirides, X^{e} -XII^{e} siècles*, Paris 1962, pp. 142- 203 .

[٦] ابن ميسر : أخبار ١٣؛ المقريزى : الخطط ١: ٣٣٥ .

[٧] نفسه ١٤؛ المقريزى : الخطط ١: ٣٣٥، الاتعاظ ٢: ٢٣٠، المقفى ٣:٤٢٥ . وساويرس : تاريخ البطاركة ٢/٣ : ١٧٦-١٧٧ .

كان ردُّ الفعل المباشر لذلك لدى الفاطميين هو مواجهة العبّاسيين. وأن يكسروا الحصار الذى فُرِض عليهم، وأن يجدوا منافذ أخرى لإقامة الدَّعْوة. فبدأوا بتحريض قبائل زُغْبَة ورياح الهلاليتين لغزو إفريقية فى أعقاب الأزمة الاقتصادية التى شهدتها مصر فى سنة ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م [١]، فأحدثوا فتنة شديدة فى ممتلكات ابن باديس استمرت سبع سنوات [٢]، كما حرّض الوزير أبو محمد الحسن بن على بن عبد الرحمن اليازورى (٤٤٢-٤٥٠هـ/١٠٥٠-١٠٥٨م) أهل صِقِلّية على الثورة أيضًا على ابن باديس [٣].

الاستراتيجية الشَّرقيّة للفاطميين

فور أن فَقَدَ الفاطميون كل ممتلكاتهم فى المغرب أخذوا يوجِّهون كل جهودهم نحو الشرق ونحو اليمن، أوّل مراكز الدعوة الإسماعيلية، بصفة خاصة حيث وجدوا مريدين أكثر حرصًا على المذهب ودفاعًا عن الدَّعْوَة. فسارع الوزير أبو محمد اليازورى إلى تأييد علىّ بن محمد الصُّلَيْحى الثائر باليمن وساعده على إقامة دعوة سياسية للفاطميين هناك. وقد استعان الفاطميون بالصُّلَيْحيين كذلك على نَشْر الدعوة الإسماعيلية فى مناطق عُمان وغرب الهند وخاصة إقليم كُجَرات [٤].

---

[١] المقريزى: إغاثة الأمة ١٨.

[٢] ابن الصيرفى: الإشارة ٧٧، ابن ظافر: أخبار ٦٩- ٧١؛ ابن الأثير: الكامل ٩: ٥٦٦- ٥٧٠؛ ابن ميسر: أخبار ١٢، ١٧؛ ابن عذارى: البيان ١: ٢٨٨- ٢٩٥؛ ابن خلدون: تاريخ ٤: ٦٢- ٦٣؛ المقريزى: اتعاظ ٢: ٢١٤- ٢١٥، المقفى ٣: ٤٢٥؛ ابن حجر: رفع الإصر ١: ١٩٤؛ Idris, H.R., *op.cit*, p. 206; id., *EI*[2] art., *Hilâl* III, pp. 398-99; Daghfous, R., «Aspects de la situation économique de l'Egypte au milieu du V°siècle: Contribution à l'étude des conditions de l'emmigration des tribus arabes en Ifiriqya» *CT* XXV (1977), pp. 23- 50.

[٣] ابن حجر: رفع الإصر ١: ١٩٤.

[٤] المصدر نفسه ١: ١٩٤، ولتفاصيل أكثر عن الصُّلَيْحيين والدعوة الفاطمية فى اليمن انظر: أيمن فؤاد سيد: تاريخ المذاهب الدينية فى بلاد اليمن ١٠٣-١٢١، ١٥١، ١٥٢.

وبدأ الفاطميون يُعِدّون العُدَّة لمواجهة الخلافة العَبّاسية لأول مرة مواجهةً مباشرةً مستخدمين فى ذلك أسلحة الدِّعاية والنشاط التخريبى، علاوةً على الوسائل المألوفة الأخرى العسكرية والسياسية والاقتصادية.

المُنافَسةُ التجارية

تبنَّى الفاطميون فى سبيل قضائهم على العَبّاسيين استراتيجيةً شرقيةً رأت ضرورة قيام منافسة بين طريقى التجارة المؤدِّيين إلى الشرق الأقصى (طريق مصر-البحر الأحمر، وطريق العراق وفارس-الخليج الفارسى). وهدف الفاطميون من ذلك إلى السيطرة على الشاطئين الإفريقى والعربى للبحر الأحمر، وعلى المنفذ الجنوبى المؤدّى إلى الهند[١].

فعلى إثر خروج إفريقية ومعظم بلاد الشام من أيدى الفاطميين، رَكَّزوا جهودهم فى نشر الدَّعْوَة على طرق التجارة البحرية والبرية المؤدِّية إلى الهند وفى الهند نفسها. وبذلك ازدهرت موانئ مثل عَيْذاب على الشاطئ الغربى للبحر الأحمر[٢]، وعَدَن عند المدخل

---

[١] Lewis, B., «An Interpretation of Fatimid History», *CIHC* p. 291.

[٢] بدأ ذكر عَيْذاب فى المصادر اعتبارًا من القرن الثالث الهجرى، ولكن نشاطها التجارى لم يظهر بوضوح إلّا فى أثناء خلافة الفاطميين حيث حلّت محل ميناء القُصير القديم، ثم أخذ دورها ينحسر حتى فقدت مكانتها فى أوائل القرن التاسع الهجرى. يقول عنها ناصرى خسرو الذى دخلها فى سنة ٤٤٢ «فيها تحصَّل المكوس على مافى السفن الوافدة من الحبشة وزنجبار واليمن» (سفرنامة ١١٨)، ويقول ابن جبير الذى زارها سنة ٥٧٩ أنها «من أحفل مراسى الدنيا بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها زائدًا إلى مراكب الحجاج» (الرحلة ٤٥). وراجع أيضًا المقريزى: الخطط ١: ٢٠٢-٢٠٣؛ Gibb, H.A.R., *EI*[2] art. ᶜ*Aydhâb* I, pp. 805-806.

الجنوبى له[١]، كما فرض الفاطميون عن طريق الصُّلَيْحيين سيطرتهم على عُمَان لضمان وصولهم إلى السِّنْد والهند .

وساعدت الظروف الفاطميين فى تحقيق هدفهم . فقد جعلت الفوضى التى اجتاحت العراق وفارس فى هذا الوقت من الخليج الفارسى طريقًا غير آمن . وسَهَّلَت خِطَّة الفاطميين فى نَقْل التجارة من الخليج الفارسى إلى البحر الأحمر وإعادة الحركة التجارية القديمة بين مصر والشرق . وقد قصد الفاطميون بذلك هدفًا مزدوجًا هو تقوية الخلافة الفاطمية عن طريق الانتعاش الاقتصادى ثم إضعاف الخلافة العَبّاسية ، بالإضافة إلى خَلْق نواة لنشر النفوذ الفاطمى على طول الطرق البديلة التى بدأ حُكّام العراق فى استِخدامها[٢]. وهذا لا يعنى أن الدولة الفاطمية ارتبطت مباشرةً بالتجارة أو أن الدَّعْوَة نفسها كانت تنظيمًا تجاريًا ، إلاَّ أن العلاقة بين الدَّعْوَة والتجارة وبين الإيديولوجية والنفوذ التجارى نادرًا ما بدت واضحة مثلما كانت فى هذه الدَّعْوَة . حتى إن كلمة إسماعيلى فى الاصطلاح المحلى الكُجَراتى (بُهْرَة) تعنى التجارة ، وهذا شىء ذو دلالة[٣].

كان كل ذلك فى ضوء ما هو معروف عن كفاءة الإسماعيليين فى خططهم بمثابة سياسة محكمة مدروسة تهدف إلى القضاء على الخلافة العبّاسية ليحل محلهم الفاطميون كحكّام وحيدين للعالم الإسلامى[٤].

وعندما ظهرت التجارة الكارمية[٥] فى أواخر القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى كانت أكبر مراكزها هى عَدَن وعَيْذاب وقوص والفُسْطاط . وتمدنا أوراق

---

١ عن عدن وأهميتها لطرق التجارة الشرقية راجع، Löfgren, O., *EI*². *art.* ͨ*Adan* I, pp. 185-187 .

٢ Lewis, B., « The Fatimids and the route to India », *Revue de la faculté de Sciences économique de l'Université d'Istanbul* XI (1949-50), p. 53 .

٣ *Ibid.*, p. 53 .

٤ *Ibid.*, p. 54 .

٥ عن التجارة الكارمية راجع فيما يلى ص ٣٠٨-٣١٢ .

الجنيزة Geniza المتعلّقة بتجارة الهند[١] والتى ترجع إلى العصر الفاطمى ببعض التفصيلات عن طبيعة ونشاط التجارة الكارمية فى هذه الفترة[٢].

المُواجَهَة الحربية

من ناحية أخرى صَعَّد الدُّعاةُ المواجهة الحربية مع العَبّاسيين، وقام بالدور الأكبر فيها داعى الدعاة المُؤيَّد فى الدين هبة الله الشّيرازى، وسَجَّل تفصيل ذلك فى سيرته الذاتية[٣]. فقد أيَّد ثورة أبى الحارث أرْسلان البَسَاسِيرى ضد خليفة بغداد مستغلاً الفوضى التى اجتاحت العراق فى أعقاب سقوط البويهيين، ومستعينًا بالأموال والذَّخائر التى أمَدَّه بها الوزير اليازورى من القاهرة[٤]. ونَجَح البَساسيرى فى الاستيلاء على بغداد وإقامة الخُطْبة بها للمستنصر الفاطمى لمدة عام سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م. وكان أوَّل من أيَّده ودعا لصاحب مصر أهلُ الكَرْخ[٥]، وألْزَم البَساسِيرى الخليفة القائم بأمر الله العَبّاسى بكتابة كتاب أشْهَد

---

[١] عن أوراق جنيزة القاهرة انظر فيما سبق ص ٧٣-٧٥.

[٢] انظر فى ما يلى ص ٤٩٦-٥٠٠.

[٣] سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة (تحقيق محمد كامل حسين، القاهرة ١٩٤٩)، Poonawala, I., *EI*^{2} art. *al-Mu'ayyad fil-Din* VII, pp. 272-23.

[٤] نفسه، ابن الصيرفى : الإشارة ٨٠؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان (الحوادث الخاصة بتاريخ السلاجقة) ٤، ٦، ٢٧؛ ابن ميسر : أخبار ١٥، ١٧، ٢١؛ ابن حجر : رفع الإصرا ١ : ١٩٥؛ المقريزى : الخطط ١ : ٣٣٥.

[٥] عن حركة البساسيرى راجع سيرة المؤيد فى الدين ١٧٨-١٨٠؛ ابن القلانسى : ذيل ٨٧-٩٠؛ ابن الجوزى : المنتظم ٨: ١٩١-١٩٧، ٢٠١-٢١٢؛ الراوندى : راحة الصدور ١٧١-١٧٥؛ ابن ظافر : أخبار ٦٧-٦٩؛ ابن الأثير : الكامل ٩: ٤٣٩-٤٤٥، ٦٤٠-٦٤٥؛ ابن ميسر : أخبار ١٨-٢١؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ٤-٧٠؛ ابن خلكان : وفيات ١ : ١٩١؛ ابن العديم : بغية الطلب (القسم الخاص بالسلاجقة) ١-١٥؛ ابن سعيد : النجوم ٨٠؛ النويرى : نهاية ٢٣: ٢٢٣-٢٣٢؛ السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ٥: ٢٤٨-٢٥٢؛ المقريزى : الخطط ١: ٣٥٦، ٤٣٩، اتعاظ ٢: ٢٥٢-٢٥٨؛ أبو المحاسن : النجوم ٥: ٤-١٢، ٦٢؛ مصطفى جواد : «القاهرة تستولى على بغداد» مجلة المقتطف ٨١ (١٩٣٢) ٣٣٣-٣٤٠؛ فاضل الخالدى : الحياة السياسية ونظم الحكم فى العراق خلال القرن الخامس الهجرى، بغداد ١٩٦٩، ١٠٢-١٣٩؛ عبد الجبار ناجى : «ثورة البساسيرى فى بغداد»، مجلة كلية الآداب-جامعة البصرة ٥ (١٩٧١) ٤٢-٧٨؛ Canard, M., *EI*^{2} art. *al-Basâsiri* I, pp. 1105-1107.

[٦] ابن الجوزى : المنتظم ٨ : ١٩٢؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ٣٥.

عليه العدول «بأنه لا حَقَّ لبنى العَبّاس ولا له من جملتهم فى الخلافة مع وجود بنى فاطمة الزهراء، عليهم السلام ». وأرسل البَساسِيرى الكتاب إلى المستنصر فى مصر وظَلَّ محفوظًا لدى الفاطميين إلى أن أعاده صلاحُ الدين إلى العَبّاسيين فور استيلائه على مقاليد الأمور فى مصر بعد ذلك بنحو مائة عام[١].

لم يكن موقف الفاطميين من تأييد البَساسِيرى واضحًا ، فبينما وعدوه بإرسال ستين ألف دينار سنويًا له ولخواصه[٢]، شَكَّك الوزير أبو الفرج محمد بن جعفر المغربى فى أهمية العمل الذى قام به البَساسِيرى[٣]، ولم يمدوه بأية قوة تَشْنِد موقفه وتعزّزه ، وبدوا كما لو أنهم لم يكونوا ينتظرون هذه الفرصة منذ بدأ عملهم السّرّى قبل نحو مائتين وخمسين عامًا .

هكذا جاء نجاحُ الدُّعاة فى تحقيق حُلْم الفاطميين بعد فوات الأوان ، فى وقت ضعفت فيه الخلافة الفاطمية ، وتَقَلَّصَت فيه ممتلكاتها ، وأثَّرت عليها الأزمات الاقتصادية المتتالية ، وأصبحت غير قادرة على اتخاذ القرار أو حتى حماية نفسها[٤]، وبدا فيه التيّار السنى جارفًا فى العالم الإسلامى على يد الأتراك السّلاجِقَة-القوى الجديدة فى الإسلام الآخذة فى النماء والقُوّة والذين تولّوا حركة الإحياء السُّنّى التى تَزَعَّمَها الأشَاعِرَة ، أصحاب الحركة الفكرية الجديدة التى بدأت تسود فى هذا الوقت وتحلّ محلّ مذهب المُعْتَزِلة العقلى[٥].

فسرعان ما تمكّن طُغْرُلبك السّلجوقى من نَجْدَة الخليفة العَبّاسى وأحبَط محاولة الفاطميين ، وأعاد دعوة العَبّاسيين فى بغداد بعد أن انقطعت اثنى عشر شهرًا ، وهى أكثر

---

١ المقريزى : الخطط ١ : ٤٣٩ .

٢ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ٢٧ .

٣ المصدر نفسه ٤٧، ٥٥؛ سيرة المؤيد فى الدين ١٨٢.

٤ المصدر نفسه ٢٧؛ ابن ظافر : أخبار ٦٨.

٥ عن الأشعرية راجع، Montgomery Watt, W., *EI*². art. *al-Ash'ari* I,pp. 715-716; *id.*, *EI*² art. *Ash'ariyya* I,pp. 717-718 وجلال محمد موسى : نشأة الأشعرية وتطورها، بيروت ١٩٧٥ .

قوة ومَنَعَة ، ومَدَّ السَّلاجِقَةُ نفوذهم على ممتلكات الفاطميين فى الشام ، فاستولى أتْسِزبُزا على دمشق سنة ٤٦٨هـ/١٠٧٥م وقَطَعَ خُطْبَة الفاطميين منها[١]، الذين لم تبق لهم سيادةٌ إلاّ على مصر وجنوب فلسطين والحجاز واليمن . وبفضل السَّلاجِقَة امتد النفوذُ السُّنِّى إلى الشام عن طريق خلفائهم الزَّنْكيين ثم النُّوريين وأخيرًا الأيوبيين ، الذين أنْهَوا خلافة الفاطميين فى مصر وقضوا على النفوذ الشيعى فى كل المنطقة عن طريق « المَدَارس » التى بدأها فى عام ٤٥٩هـ/١٠٦٦م الوزير نظام المُلْك السَّلْجوقى[٢].

والواقع فإن نجاح الدَّعْوَة للفاطميين فى بغداد سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨ م ليس دليلاً على أية قوة حقيقية كانت للفاطميين ، بقدر دلالته على الدسائس والمكائد السياسية فى الخلافة العَبّاسية .

ســـوء الأحـــوال الداخليـــة
فى أوَّل عهد المستنصر

لم تكن أحوال مصر الداخلية زمن المستنصر أحسن حالاً من أحوالها الخارجية . فإلى جانب فَشَل الفاطميين فى تحقيق هدفهم ، تَعَرَّضَت القاهرة ، المدينة الملكية حيث

---

[١] ابن القلانسى : ذيل ١٠٨؛ ابن ظافر : أخبار ٦٨، ٧٦؛ ابن الأثير : الكامل ١٠: ٦٨؛ ٩٩-١٠٠؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان (قسم السلاجقة) ١٧٩، ١٨٠؛ ابن ميسر : أخبار ٤٣؛ الذهبى : العبر ٣: ٢٦٦؛ الصفدى : الوافى ٦: ١٩٥؛ ابن خلدون : تاريخ ٤: ٦٥، المقريزى : اتعاظ ٢: ٣١٥، والمقفى : ٢٢١-٢٢٣؛ أبو المحاسن : النجوم ٥: ٨٧، ١٠١-١٠٢؛ صلاح الدين المنجد : ولاة دمشق فى العهد السلجوقى ٤-٥، ١٧-١٨، Cahen, Cl., «Premiere penetration turque en Asie Mineure», Byzantion XIII (1946-48), p., 25; id., *EI*[2] art. *Atsiz* I,p.443; Bianquis, Th., *op.cit.*, pp. 571-76.

[٢] ابن الجوزى : المنتظم ٨: ٢٣٨، ٢٤٦؛ ابن الأثير : الكامل ١٠: ٥٥؛ أبو شامة : الروضتين ١: ٨٠؛ ابن خلكان : وفيات ٢: ١٢٩؛ Makdisi, G., «Muslim Institutions of Learning in Eleventh-Century Baghdad», *BSOAS* XXIV (1961) p. 3 ؛ أيمن فؤاد سيد : المدارس فى مصر قبل العصر الأيوبى ٩٧-٩٨.

قصر الخليفة لصراعات دامية بين طوائف الجُند المختلفة ، وخاصة الأتراك والسودان . واجتاحت البلاد الأوبئة والأزمات الاقتصادية الواحدة تلو الأخرى فى السنوات ٤٤٤هـ/١٠٥٢م و ٤٤٧هـ/١٠٥٥م و٤٥٧هـ/١٠٦٥م ، بالإضافة إلى أزمة إدارية حادة أضعفت قوة الدولة ونفوذها .

فبعد عَزْل الوزير اليازورى-آخر الوزراء الفاطميين أرباب الأقلام الأقوياء-فى سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م ، بدأ العسكريون يزيدون من قُوَّتِهم باضطراد على حساب المدنيين ، بل وعلى حساب الخليفة نفسه .

حقيقةً لقد أشاد ناصر خُسْرو بالأمْن الذى شاهده فى مصر فى أوائل خلافة المستنصر (٤٣٩-٤٤١هـ/١٠٤٧-١٠٤٩م) وقال إنه لم يره فى بلدٍ من قبل[١]، وأرجع الفضل فى ذلك إلى المذهب الإسماعيلى واعتبره كفيلاً بإنقاذ العالم الإسلامى[٢]، وإذا صدَّقنا ناصر خُسْرو-رغم ما يبدو على وصفه دائمًا من مبالغات ، كان يهدف بها إلى كسب الرأى العام فى فارس لصالح الفاطميين وضد السَّلاجِقَة السُّنِّيين-فإن هذا الرَّخاء والأمْن لم يستمرّا طويلًا .

أُمُّ المستنصر تَتَحكَّم فى الدولة

كان الوزير أبو القاسم على بن أحمد الجَرْجَرائى طوال التسع السنوات الأولى من خلافة المستنصر هو صاحب السلطة السياسية فى مصر ولكن بعد وفاة هذا الوزير سنة ٤٣٦هـ/١٠٤٤م ، تحكَّمت السيدة والدة المستنصر فى أمور الدولة ، بسبب صِغَر سن الخليفة ، ولعبت دورًا هامًا فى إذكاء الفِتْنَة بين طوائف العسكر المختلفة ، وهى الفِتْنَة التى

---

[١] ناصر خسرو : سفرنامة ١٠٦.

[٢] يحيى الخشاب : «وصف مصر من كتاب السفرنامة لناصر خسرو» ، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ١٣١١.

قادت إلى خراب البلاد على حدِّ تعبير المؤرِّخين المصريين [١]. كذلك فقد حافظت الخلافة الفاطمية على سياسة التَّسامُح مع أهل الذِّمَّة، التى تَخَلَّى عنها مؤقتًا الخليفة الحاكم، فلا عجب أن نجد اليهود يَحْتَلُّون ثانيةً أعلى المناصب فى الإدارة والحياة الاقتصادية فى النصف الأول للقرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى [٢].

يقول المقريزى: إن أخوين يهوديين نَبَغا فى أيام الحاكم بأمر الله، كان أحدهما يتصرَّف فى التجارة والآخر فى الصَّرْف وبَيْع ما يحمله التجار من العراق، هما: أبو سَعْد إبراهيم وأبو نَصْر هارون ابنا سَهْل التُّسْتَرى؛ «واستخدم الخليفة الظَّاهر أبا سعد إبراهيم بن سَهْل التُّسْتَرى فى ابتياع ما يحتاج إليه من صنوف الأمتعة، وتَقَدَّم عنده فباع له جاريةً سوداء، فتحظَّى بها الظَّاهر وأولدها ابنه المستنصر» [٣].

وبعد وفاة الجَرْجَرائى عملت السيدة أم المستنصر على تقريب أبى سَعْد التُّسْتَرى وجعلته متولِّى ديوانها [٤] فانبسطت كلمته «بحيث لم يبق للوزير الفَلاحى معه أمرٌ ولا نَهْى سوى الاسم فقط وبعض التنفيذ» [٥]. وعمل أبو سَعْد على استمالة المغاربة والزيادة فى واجباتهم وأَنْقَص من أرزاق الأتراك، مما أدَّى إلى نشوب القتال بين الفريقين أكثر من مرة [٦]، كذلك أَخَذ فى تقريب اليهود وإيثارهم بالكثير من المناصب الهامة، مما قَلَّب مشاعر المسلمين عليهم وكَثَّر عداءهم لهم [٧]. فاستغل ذلك الوزير الفَلاحى، رغم أنه

---

[١] ابن ميسر: أخبار ٢٤-٢٦؛ النويرى: نهاية ٢٨: ٢٣٣؛ المقريزى: اتعاظ ٢: ٢٦٥.

[٢] Fischel, W.I., *Jews in the Economic and Poltitical Life of Mediaecal Islam*, N. Y. 1969, p. 68.

[٣] المقريزى: الخطط ١: ٤٢٤ وراجع، ابن الأثير: الكامل ١٠: ٨٠-٨١؛ ابن ميسر: أخبار ٣-٤، ٢٥؛ النويرى: نهاية ٢٨: ٢٦، ٢٢٥؛ المقريزى: اتعاظ ٢: ١٩٥، ٢٦٧.

[٤] راجع مناقشة طبيعة وظيفة أبى سعد عند Fischel, W.I., *op.cit.*, pp. 78-84.

[٥] ابن ميسر: أخبار ٤؛ سيرة المؤيد فى الدين ٨١-٨٤.

[٦] ابن الصيرفى: الإشارة ٧١-٧٢؛ ابن ميسر: أخبار ٤؛ النويرى: نهاية-خ ٢٦: ٦٤؛ المقريزى: اتعاظ ٢: ١٩٥؛ أبو المحاسن: النجوم ٥: ١٩، وانظر السجلات المستنصرية، سجل رقم ٥٦.

[٧] ابن ميسر: أخبار ٥ وما ذكر فيه من مصادر.

يهودى تَحَوَّل إلى الإسلام ، ومال إلى طائفة الأتراك وزاد فى أرزاقهم ، وحَرَّضهم على قَتْل التُّسْتَرى ، فقتلوه فى سنة ٤٣٩هـ/ ١٠٤٧م[١]. وبَلَغَ من كُرْه المسلمين لأبى سَعْد ، أن الخليفة عندما طلب قاتليه أَقَرَّت طوائف العسكر أنهم قتلوه جميعًا ، فلم يتمكن الخليفة من معاقبتهم وأغضى عن ذلك[٢].

الحَرْبُ الأهْلِيّة والأزمة الإدارية

لم تَرْضَ أم الخليفة بما فعله الأتراك ولا بتصرُّف ولدها ، وعملت على التَّخَلُّص من الوزير الفَلاحى ، ولم يهدأ لها بالٌ حتى عَزَلَه الخليفةِ وأمر بقتله فى سنة ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م[٣]، وشَرَعَت فى شراء العبيد السود من أهل جنسها واستكثرت منهم حتى يقال إنهم بلغوا نحوًا من خمسين ألف أسود وجعلتهم طائفة خاصةً بها ، وزادت كراهيتها للأتراك لقتلهم أبى سَعْد[٤] وعملت على ضربهم بالعبيد السود ، وأغْرَت الوزراء الواحد تلو الآخر لتحقيق ذلك ، فكانوا يتعلَّلون لها ويخشون عاقبته على الدولة[٥]، حتى نجحت فى إغراء الوزير أبى الفَرَج البابلى بذلك ، واشتعلت الفِتْنَةُ بين السودان والأتراك[٦] فى الوقت الذى خَرَجَ فيه عَرَبُ البحيرة من بنى قُرَّة والطَّلْحِيين عن طاعة المستنصر[٧]، فاختلَّت أحوالُ

---

[١] ناصر خسرو : سفرنامة ١٠٨، ١٠٩؛ ابن ميسر : أخبار ٣؛ ابن الأثير : الكامل ١٠: ٨١؛ النويرى : نهاية ٢٨: ٢١٦؛ المقريزى : الخطط ١: ٣٥٥، اتعاظ ٢: ١٩٥؛ Fischel, W.I., *op.cit.*, pp. 84-89 .

[٢] نفسه ١٠٨؛ نفسه ٤؛ المقريزى : اتعاظ ٢: ١٩٥.

[٣] ابن ميسر : أخبار ٨، المقريزى : اتعاظ ٢: ٢٠٣.

[٤] المقريزى : الخطط ١: ٣٣٥-٣٣٦، ٢: ١٢، اتعاظ ٢: ٢٦٦؛ أبو المحاسن : النجوم ٥: ١٨-١٩، وعن تزايد العنصر الأسود فى الجيش الفاطمى راجع ، Beshir,B.I.,*op.cit.*,pp. 40-41; Lev, Y., Army, Regime and Society... pp. 340-42; Bacharach, J.L., «African Military Slaves in the Medival Middle Age: The Cases of Iraq (869-955) and Egypt (868-1171)», *IJMES* 13 (1981), pp. 482-87 .

[٥] ابن الأثير : الكامل ١٠: ٨١ .

[٦] نفسه ١٠: ٨١؛ ابن ميسر : أخبار ٢٥-٢٦؛ النويرى : نهاية ٢٨: ٢٢٧؛ المقريزى : اتعاظ ٢: ٢٦٧.

[٧] ابن ميسر : أخبار ١٢؛ وعن عدد ونوع الجيش المصرى فى هذه الفترة راجع ، ناصر خسرو : سفرنامة ٩٤-٩٥؛ Lev, Y., *op. cit.*, pp. 349-52 .

مصر ولم تنجح مساعى الوزير أبى الفرج المغربى فى التقريب بين الأتراك والسودان بسبب تَشَدُّد موقف أم الخليفة . وأخيرًا نجح الأتراكُ يساندهم المَصَامِدَةُ والكُتاميون فى إيقاع الهزيمة بالسودان فى وَقْعَة كوم شُرَيْك ، فزادت أم المستنصر من إشعال الموقف وأَمَدَّت السودان بالسلاح والمال ، فلم يرض ذلك الأتراك فتتبعوا السودان حتى فرقوهم فى الصعيد [١] .

ناصر الدَّوْلة بن حَمْدان ومحاولة إزالة الخلافة الفاطمية

هكذا انتهى هذا الصِّراع بظهور الأتراك وتقوية شوكتهم وأصبح الـحُكْم فى الحقيقة فى أيدى قُوّادهم ، وعَظُمَ أمر قائدهم ناصر الدَّوْلة سُلْطان الجيوش الحسين بن الحسن بن حَمْدان [٢]، وأساء معاملة الخليفة المستنصر بالله وطالبه بزيادة مُقَرَّر الأتراك حتى بَلَغَ ٤٠٠,٠٠٠ دينار فى الشهر بعد أن كان ٢٨,٠٠٠ دينار فلم تقدر خِزانَة الدولة على الوفاء به [٣] ، فنَهَبَ الأتراك القاهرة واستولوا على ذخائر المستنصر وما كان بالقصر والتُّرْبَة المُعِزِّيّة من كنوز وتُحَف وكُتُب بين سنتى ٤٥٩ و ٤٦٢هـ/١٠٦٦ و ١٠٦٩ م قَوّموه على أنفسهم بأبْخَس الأثمان حتى لم يبق للخليفة شىء [٤] بل وَصَلَ به الأمر أن ابنة أبى الحسن طاهر بن أحمد ابن بابْشاذ النحوى كانت تبعث إليه كل يوم برغيفين «على ما هو مشهور ذائع» [٥] .

---

[١] ابن الصيرفى : الإشارة ٧٧-٧٨؛ ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٨٢؛ ابن ميسر : أخبار ١٢-١٣، ٢٤-٢٥، ٣١-٣٢؛ ابن القلانسى : ذيل ٩٣؛ النويرى : نهاية ٢٨: ٢١٧، ٢٢٥؛ المقريزى : اتعاظ ٢: ٢١٨، ٢٦٥-٢٦٧، الخطط ١: ٣٣٥-٣٣٦؛ المقفى ٣: ٥٠١.

[٢] انظر ترجمته عند المقريزى : المقفى الكبير ٣:٥٠٠-٥٠٥ .

[٣] ابن الأثير : الكامل ١٠: ٨٢؛ ابن ميسر : أخبار ٣٢؛ النويرى : نهاية ٢٨: ٢٢٥؛ المقريزى اتعاظ الحنفا ٢: ٢٧٥، الخطط : ١: ٣٣٦.

[٤] راجع تفصيل ما أخرج من القصر عند الرشيد بن الزبير : الذخائر والتحف ٨١-٨٢، ٢٤٩-٢٦٣؛ ابن ظافر : أخبار ٧٥؛ ابن ميسر : أخبار ٣٦-٣٧؛ المقريزى : الخطط ١: ٣٩٧، ٤٠٨، ٤١٣، ٤١٤-٤١٧-٤١٨-٤٢٠، ٤٢٣-٤٢٤ (من كتاب الذخائر والتحف)، اتعاظ الحنفا ٢: ٢٧٥-٢٩٦؛ أبى المحاسن : النجوم ٥: ١٦-١٧؛ زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين، القاهرة ١٩٣٧، ٣٧-٦٤.

[٥] ساويرس بن المقفع : تاريخ الكنيسة ٢/٣: ٢٠٣؛ ابن ظافر : أخبار ٣٤؛ المقريزى : إغاثة الأمة ٢٥.

كان ما أخرج من خزائن قصر المستنصر فى أيام الفِتْنَة فى سنة ستين وسنة إحدى وستين وأربعمائة موضوع كتاب أَلَّفه مؤلِّف مجهول كان موجودًا فى مصر فى هذه الفترة وَقَف عليه المقريزى ونَقَلَ عنه بالصِّيَغ التالية :

«وقال فى كتاب «الذَّخائر والتُّحَف وما كان بالقصر من ذلك» ، وهو جَمْع بعض المصريين مجهول المصنف وفيه فوائد جمة ومنه نَقَلْت ... »[1].

«قال فى كتاب الذخائر والتحف . وحَدَّثنى من أثق به قال : كنت بالقاهرة يومًا من شهور سنة تسع وخمسين وأربعمائة ، وقد استفحل أمر المارقين وقويت شوكتهم ، وامتدّت أيديهم إلى أخذ الذخائر المصونة فى قصر السلطان بغير أمره ، فرأيت وقد دخل من باب الديلم [الباب الجنوبى الشرقى للقصر] ابن سبكتكين وأمير العرب ابن كَيْغَلْغ والأعَزّ بن سنان وعِدّة من الأمراء أصحابهم البغداديين وغيرهم . وصاروا فى الإيوان الصغير فوقفوا عند ديوان الشام لكثرة عددهم وجماعتهم . وكان معهم أحد الفرّاشين والمستخدمين برسم القصور المعمورة ، فدخلوا إلى حيث كان الديوان النظرى فى الإيوان المذكور وصحبتهم فَعَلَة وانتهوا إلى حائط مُجَيّر ، فأمروا الفعلة بكشف الجير عنه فظهرت حنية باب مسدود فأمروا بهدمه . فتوصَّلوا منه إلى خزانة ذكر أنها عزيزية من أيام العزيز بالله ؛ فوجدوا فيها من السِّلاح ما يروق الناظر ، ومن الرماح العزيزية المطلية أسنتها بالذهب ذات مهارك فضة مجراة بسواد ممسوح وفضة بياض ثقيلة الوزن عدة رزم أعوادها من الزان الجيد ومن السيوف المجوهرة النصول ومن النشاب الخلنجى وغيره ومن الدرق اللَّمَطى والجحف التينى وغير ذلك ومن الدروع المكلل سلاح بعضها والمحلى بعضها بالفضة المركبة عليه ومن التخافيف والجواشن والكزاغندات الملبسة ديباجًا المكوكبة بكواكب فضة وغير ذلك مما ذكر أن قيمته تزيد على عشرين ألف دينار فحملوا جميع ذلك بعد صلاة المغرب . ولقد شاهدت بعض حواشيهم وركابياتهم يكسرون الرماح ويتلفون بذلك أعوادها الزان ليأخذوا المهارك الفضة ومنهم من يجعل ذلك فى سراويله وعمامته وجيبه ومنهم من يستوهب من صاحبه السيف الثمين . وكان فيها من الرماح الطوال الخطية السمر الجياد عدة حملوا منها ما قدروا عليه وبقى منها ما كسره الركابية

[1] المقريزى : مسودة كتاب المواعظ والاعتبار ١٤٨.

ومن يجرى مجراهم كانوا يبيعونه للمغازليين ولصناع المرادن حتى كثر هذا الصنف بالقاهرة ولم تعترضهم الدولة ولا التفت إلى قدر ذلك ولا احتفلت به وجعلته هو وغيره فداء لأموال المسلمين وحفظا لما فى منازلهم »[١].

كما أن المؤرّخ تاج الدين محمد بن على جَلَب راغِب المعروف بابن مُيَسّر المتوفى سنة ٦٧٧هـ/١٢٧٩م الذى أشار بالتفصيل إلى فِتْنَة الأتراك والحرب الأهلية التى أشعلوها-ذكر أنه رأى مجلدًا من نحو عشرين كراسًا فيه ذِكْر ما خَرَج من القصر الفاطمى من التُّحَف والأثاث والثِّياب والذَّهَب وغير ذلك[٢]. ولا ندرى إذا كان هذا المجلد هو نفسه كتاب «الذخائر والتُّحَف»الذى اعتمد عليه المقريزى أم كان سجِلًّا لتُحَف القصر أو كان بيانًا بما نُهِبَ أو تَفَرّق من التُّحَف !

وبعد قضاء الأتراك على السودان عَظُم أمر ابن حَمْدان وتَفَرّد بالأمر دون الأتراك حتى صار يُخاطب بـ «مولانا الناصر» فضاقوا به واتفقوا مع الوزير خطِير الملك محمد بن الحسن اليازورى عليه ، فثاروا عليه وأخرجوه من القاهرة بقيادة إلدكز ولكنه تمكّن بالتحالف مع تاج الملوك شادى أن يوقع بالوزير خطير الملك ويقتله فى بين القصرين بالقاهرة ، ولكن إلدكز ومؤيدى المستنصر تمكنوا من هزيمته فسار إلى إقليم البحيرة ونَزَل على بنى سِنْبِس وأقام عندهم وتَزَوَّج منهم وأخذ فى إبطال الخُطْبَة للمستنصر وتغيير الدولة الفاطمية[٣].

لم يكتف ناصر الدولة بذلك بل سَيَّر الفقيه أبا جعفر محمد بن أحمد النجارى قاضى حلب إلى السلطان ألْب أرسلان السَّلْجوقى يسأله أن يُجَهِّز إليه عسكرًا ليقيم الدَّعْوة العَبّاسية بمصر. استجاب ألْب أرْسَلان إلى دعوة ناصر الدولة وبعث إلى محمود بن نصر بن صالح بن مِرْداس فقَطَعَ خُطبة المستنصر من حلب فى شوّال سنة ٤٦٢هـ/١٠٦٩م ودعا للخليفة القائم بأمر الله العَبّاسى وللسلطان ألْب أرْسلان . وجَهَّز

---

[١] المقريزى : الخطط ١: ٣٩٧.
[٢] ابن ميسر : أخبار ٣٧؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا ٢: ٢٩٦.
[٣] المقريزى : المقفى الكبير ٣:٥٠٢ .

ألب أرسلان جيشًا سار به قاصدًا مصر فى ربيع الآخر سنة ٤٦٣هـ/١٠٦٩م ولكن مهاجمة إمبراطور بيزنطة لممتلكاته جعلته يعود مرة أخرى بعد أن وَصَلَ إلى حَلَب تاركًا قسمًا من جنوده ملكوا بلاد الشام، فخرجت من أيدى المصريين من حينئذٍ[1].

وعندما حاول المستنصر التَّصَدِّى لمحاولات ابن حَمْدان إزالة الدولة الفاطمية هُزمت جنودُه دفعتين، مما قَوّى ابن حَمْدان وجعله يمنع الميرة عن القاهرة ونَهَب أكثر الوجه البحرى وأبطل خُطْبَة المستنصر من الإسكندرية ودِمْياط وسائر الوجه البحرى وخَطَبَ للخليفة القائم بأمر الله العَبّاسى[2].

أدَّى ذلك إلى سوء أحوال أهل القاهرة لنقص الطعام وتفَشّى الموت فى الناس، فاضطر الأتراك إلى مصالحة ابن حَمْدان واتَّفقوا على أن يقيم بمكانه من البحيرة ويُحمل إليه مالٌ مُقَرَّر وأن يكون تاج الملوك شادى نائبًا عنه بالقاهرة، فقبل ذلك وسَيَّر الغلال إلى القاهرة «فتَنَفَّس خناق الناس قليلًا»[3].

انْتُقِضَ الاتفاق الذى أقامه الأتراك مع ابن حَمْدان بعد عِدَّة شهور فسار ابن حَمْدان قاصدًا القاهرة ونجح بعد عدة محاولات من دخولها سنة ٤٦٤هـ/ ١٠٧١م بعد أن اضمحل أمر المستنصر وعظمت الشدة فى الناس. وبعث يستدعى المال من المستنصر فوجده الرسول على حصير وقد زالت عنه أُبَّهَة الملك فرَقّ له وقَرَّر باسمه راتبًا فى كل شهر مائة دينار[4]. عمل ابن حَمْدان بعد ذلك على إقامة الدعوة العَبّاسية بالقاهرة ومصر، ولكنه لم يتمكن من ذلك لكثرة أتباع الخليفة، وتنَبَّه له كبار أمراء الأتراك إلدكز وبَلْدَكوش واجتمعوا بسائر الأتراك وخَوّفوهم عاقبة استبداد ابن حَمْدان وقطعه دعوة الفاطميين واتَّفقوا على الخلاص منه فقتلوه فى منازل العزّ بالفُسْطاط فى شهر رجب سنة ٤٦٥هـ/ أبريل ١٠٧٣م[5].

---

[1] المقريزى: المقفى ٣: ٥٠٢-٥٠٣.

[2] نفسه ٣: ٥٠٣.

[3] نفسه ٣:٥٠٣.

[4] نفسه ٣:٥٠٤.

[5] ابن الأثير: الكامل ١٠: ٨٠، ٨٣، ٨٧؛ ابن ميسر: أخبار ٣٥-٣٦، ٣٩؛ ساويرس بن المقفع: تاريخ بطاركة الكنيسة ٢/٣: ٢٠٤؛ النويرى: نهاية ٢٨: ٢٣٢؛ ابن خلدون: تاريخ ٤: ٦٤؛ المقريزى: المقفى ٢: ٢٢٢، ٣: ٥٠٣، الخطط ١: ٣٣٧، اتعاظ ٢: ٣٠٦-٣٠٧، ٣٠٩؛ أبو المحاسن: النجوم ٥: ٢١-٢٣

لم يكن حال المستنصر مع إلدكز وبَلْدَكوش خيرًا من حاله مع ناصر الدولة ابن حَمْدان ، فقد عمل بَلْدَكوش على سَدِّ منافذ القاهرة ومحاصرة الخليفة بها[١]، مما أدّى إلى انعدام الأمن وكثرة النَّهْب وقَطْع الطرقات .

هكذا مَرَّت مصر بحرب أهلية شديدة الوطيس ودَخَلَت فى الفترة بين عَزْل الوزير الحسن بن محمد اليازورى وقَتْله سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م ووصول أمير الجيوش بدر الجمالى إلى قمة السُّلْطة فى سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٣م فى أزمات إدارية حادة حيث تولّى فى هذه الفترة أربعة وخمسون وزيرًا واثنان وأربعون قاضيًا[٢].

الأزْمَةُ الاقتصادية أو الشِّدَّة العُظْمى

كأن الأقدار لم تكتف للمستنصر بهذه الأزمات الإدارية والفوضى السياسية ، فجاءَ النيل-وهو شُرْيان الحياة فى مصر وعَصَبها-ليضيف إلى مشاكل المستنصر مشكلةً جديدةً . فبعد أزْمَة الحِنْطَة التى حَدَثَت فى سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٣م والتى انفرد بذكرها المُسَبِّحى[٣]، عاد منسوبُ النيل إلى التناقص فى السنوات ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م و ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م و ٤٥٧-٤٦٤هـ/ ١٠٦٤-١٠٧١م ، فشهدت مصر أسوأ أزمة اقتصادية مَرَّت بها فى العصر الإسلامى حيث نَزَعَ السعر وتزايد الغلاء وأعقبه الوباء حتى تَعَطَّلت الأراضى عن الزراعة ، واستولى الجوع على الناس لعدم وجود الأقوات[٤] «حتى أبيع رغيفُ خبز فى النداء بزُقاق القَناديل من الفُسْطاط كبيع الطُّرَف بخمسة عشر دينارًا ،

---

[١] السجلات المستنصرية (سجل رقم ٥٧) .

[٢] المقريزى : إغاثة الأمة ٢٢-٢٣، المقفى ٣: ٤٤٥-٤٤٦؛ ابن حجر : رفع الإصر ١: ١٩٩-٢٠١؛ Eisenstein, H., «Die Wezire Ägyptens Unter Al-Mustansir A. H. 452-466», *WZKM* 77 (1987), pp. 37-50 .

[٣] انظر الدراسة التى قام بها عن هذه الأزمة تيارى بيانكى والمذكورة فيما سبق ص ١٨٤ هـ[١].

[٤] النويرى : نهاية ٢٨: ٢٣٤؛ المقريزى : إغاثة الأمة ١٨-٢٧، المقفى ٣: ٣٨٧، الخطط ١: ١٠٧، ٤٦٥، وانظر كذلك ابن ميسر : أخبار مصر ٢٤-٢٦. ومقال R. Daghfous المشار إليه فيما سبق ص ١٩١ هـ[٢].

وأبيع الأردب من القمح بثمانين دينارًا ، وأُكِلت الكلابُ والقطط حتى قلّت الكلاب ، فبيع كلبٌ ليؤكل بخمسة دنانير ، وتزايد الحال حتى أكل الناس بعضهم بعضًا »[١] وفَقَدَت مصرُ فى هذه الأزمة أكثر من ثُلْث سكانها . وبَلَغَ من شدة الأزمة أن المستنصر اضطر أن يبيع كل ما فى قصره من ذخائر وثياب وأثاث وسلاح ، وصار يجلس فى قصره على حصير وتعطّلت دواوينُه وذهب وقاره ، بل قيل إن بنات المستنصر وأمه حاولوا الفرار من مصر إلى بَغْداد بسبب الجوع وضَغْط الأزمة الاقتصادية[٢] فيما اصْطَلَح المؤرخون على تسميته بـ «الشِّدَّة العُظْمَى» أو «الشِّدَّة المستنصرية»[٣].

كان السببُ الرئيسى لهذه الأزمات التى بدأت فى العقد الخامس هو الحرب الأهلية وضعف قوة الوزراء ، يقول المقريزى فى نصٍّ جامع : إنه لما قُتِل الوزير أبو محمد اليازورى سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م

«لم تر الدولة صلاحًا ولا استقام لها أمر .. ووقع الاختلاف بين عبيد الدولة وضعفت قوى الوزراء عن تدبيرهم لِقِصَر مدتهم ... فخربت أعمال الدولة وقَلَّ ارتفاعها وتَغَلّب الرجالُ على معظمها واستصفوا ارتفاعها حتى انتهى ارتفاعُ الأرض السُّفْلى إلى ما لا نسبة له من ارتفاعها الأول ... وطغى الرجالُ وتجرّأوا حتى خرجوا من طلب الواجبات إلى المصادرة ، فاستنفذوا أموال الخليفة وأخلوا منها خزانته وأحوجوه إلى بَيْع أغراضه .. ثم زادوا فى الجرأة حتى صاروا إلى تقويم ما يخرج من الأغراض .. وتلاشت الأمور واضمحل الملك ، وعلموا أنه لم يبق ما يُلْتَمَس إخراجه لهم فتقاسموا الأعمال ودام ذلك بينهم سنوات إلى أن قصر ماء النيل فساعد على

---

١ نفسه ٢٤؛ وذكر مؤلف تاريخ بطاركة الكنيسة ٣/٢: ١٨٠ أن القمح أبيع ليلة الزيتونة بدينار ونصف الويبة .

٢ ابن ظافر : أخبار ٧٥؛ ابن ميسر : أخبار ٣٨؛ النويرى : نهاية-خ ٢٦: ٢٨؛ المقريزى : إغاثة ٢٥، اتعاظ ٢: ٣٠٧، وانظر كذلك راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ، القاهرة ١٩٤٨، ٨٨-٩٩.
ويذكر ابن الأثير أن محمد بن المستنصر خرج أيضًا إلى عسقلان فى أيام الشدة والغلاء وأقام بها ينتظر أيام الرخاء وزوال الشدة (الكامل ١١: ١٤١؛ ابن خلكان : وفيات ٣: ٢٣٦).

٣ راجع ، المقريزى : الخطط ١: ٣٣٧ (نقلًا عن الشريف الجوانى) ووصفها ابن ظافر : أخبار ٧٤ بالشدة المشهورة وبالفتنة ، ووصفها المقريزى بأيام الشدة والغلاء (اتعاظ ٢: ٣٢٥) ، وابن أيبك بفساد الدولة (كنز الدرر ٦: ٣٨٢) .

زيادة الأزمة لعدم وجود من يزرع ما شمله الرّىّ لاتصال الفِتَن بين العُرْبان واختلال أحوال المملكة واستيلاء الأمراء على الدولة »[١].

ويؤكّد مَوْهُوب بن منصور بن مُفَرّج أحد مؤلّفى «تاريخ بطاركة الكنيسة »-وهو معاصرٌ لهذه الأحداث- أن السبب المباشر لهذه الأزمة هو الحرب الأهلية التى نشبت بين فرق الجُنْد المختلفة ، يقول :

« ولما مَلَكَ اللّواتيون جميع أسْفَل الأرض وصاروا فى أربعين ألف فارس سوى أتباعهم ، وصارت بلاد مصر بحكمهم يزرعون كما يريدون بلا خراج وبلا مُسامَحَة إلى أن فكروا وتشاوروا مشورة ردية بأن لا يعملوا جسورًا فى الريف ولا يحفروا ترعًا حتى لا يطلع الماء إلى الأراضى ولا يزرع أحد شيئًا فيبيعون غَلّتهم التى حَصّلوها بما يريدون ويهلكوا من بقى من الناس . فأرسل الله فى تلك السنة-وهى سنة أربعمائة واثنتين وستين الخراجية-نيلا عاليًا جدًا بغتة حتى غَطّى جميع الأرض وزَرَعَ الناسُ جميع البلاد ... وكان اللّواتيون منذ امتدت أيديهم إلى الديارات بوادى هبيب نهبوها وقتلوا رهبانها وهَرَب من بقى منهم إلى الريف وغيره وأخربوها ، ونال الشعب بالإسكندرية ومصر حزنٌ عظيمٌ مما نالهم من الشّدّة العظيمة فى أيام ابن حمدان وأصحابه وتَسَلُّط اللواتيين على الريف ولم يقدر أحد يزرع فيه غلة غيرهم ، فحرثوا الغلات وامتنعوا من بيعها إلى أن عُدِمت من أرض مصر ، وبَلَغَ التّلّيس القمح ثمانين دينارًا وعُدِمَ حتى لم يوجد وأكل الناس البغال والحمير والميتة وغيرها حتى فنيت ، ثم أكل بعضهم بعضًا ، وجماعةٌ منهم أكلوا أولادهم ، وجماعة كانوا يأكلون الكندر- وهو نُخالَة خشب النخل-ولم يزل الناس فى هذا البلاء إلى أن أهْلَكَ الله ناصر الدولة بن حَمْدان وإخوته وأصحابه فقُتِلَ فى منازل العز بمصر بيد بلدكوز صهره ومن كان معه من الملحية الأتراك وذلك فى سنة خمس وستين وأربعمائة الهلالية الموافقة لسنة اثنتين وستين وأربعمائة الخراجية »[٢].

---

[١] المقريزى : إغاثة الأمة ٢٢-٢٣، وقارن النويرى : نهاية الأرب ٢٣٤:٢٨؛ اتعاظ الحنفا ٢: ٢٦٢-٢٦٣.

[٢] ساويرس بن المقفع : تاريخ بطاركة الكنيسة ٣/٢، ٢٠٣-٢٠٤ .

كانت آثارُ هذه الأزْمَة أكثر وضوحًا فى الأحياء الشمالية للفُسْطاط (العَسْكَر والقَطائع) ، فقد خربت القَطائع فى أثناء الشِّدَّة العُظْمَى حتى أمر الوزيرُ ببناء حائط يستر الخراب عن نَظَرِ الخليفة إذا سار من القاهرة إلى الفُسْطاط فيما بين العَسْكَر والقطائع وبين الطريق ، كما أمر ببناء حائط آخر عند جامع ابن طولون[1].

يقول المقريزى أيضًا : عندما دَخَلَ أميرُ الجُيوش بَدْر الجمالى إلى مصر سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٣م كانت : «هذه المواضع خاويةً على عروشها خاليةً من سكانها ... وصارت القاهرة أيضًا يبابًا دائرة ، فأباح للناس من العسكرية والملحية والأرْمَن وكل من وصلت قدرته إلى عمارة أن يعمر ما شاء فى القاهرة مما خلا من دور الفُسْطاط بموت أهلها ، فأخذ الناسُ فى هَدْم المساكن ونحوها بمصر وعمروا بها فى القاهرة »[2].

---

[1] ابن عبد الظاهر : الروضة البهية ١٣٤-١٣٥؛ المقريزى : الخطط ١: ٣٠٥، ٢: ١٠٠.

[2] المقريزى : الخطط ١: ٥.



الفصل الخامس
بدر الجمالى
وبداية النظام العسكرى

بَدْرُ الجَمَالى مُنْقِذُ الدَّوْلَة

لم يكن إنقاذ البلاد من هذه الأزمات المتتالية ممكنًا دون الاستعانة بقوة عسكرية قادرة على فَرْض النظام واستتباب الأمْن وحماية الخلافة نفسها ، وإنهاء حالة الفوضى التى استشرت فيها ، حتى فَقَدَ الخليفةُ كل سيطرة له عليها وتَقَلَّص نفوذُه وانحصر داخل القصر . بينما تقاسمت فِرَقُ الجُنْد أقاليم الدولة ، فاستولى اللُّواتيون والمَلْحية على البحيرة والإسكندرية وملكو جميع أسْفَل الأرض ، واستقرَّ الصَّعيدُ فى أيدى المغاربة والسودان ، بينما تَحَكَّم الأتراك فى القاهرة والفُسْطاط .

عَقَدَ الخليفةُ المستنصر أمله فى تحقيق ذلك على قائد أرْمَنى ، كان يتولَّى عَكّا فى ذلك الوقت ، يُعْرَفُ ببدر الجمالى[1] فكاتبه سِرًّا عن طريق الوزير أبى الفرج محمد بن جعفر ابن المغربى ، وهو يومئذ متولِّى ديوان الإنشاء ، يطلب إليه القدوم عليه لإصلاح حال

[1] مملوك أرمنى من أصل مسيحى فى أغلب الظن ، كان مملوكًا لجمال الدولة بن عمار فعرف لذلك ببدر الجمالى ، وبدأ حياته العلمية واليا على دمشق سنة ٤٥٥ هـ . ولمعلومات أكثر عن بدر الجمالى راجع ، ابن الصيرفى : الإشارة ٩٤- ٩٧؛ ابن القلانسى : ذيل ١٢٧- ١٢٨؛ ابن ظافر : أخبار ٨١؛ ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٢٣٥- ٢٣٦؛ ابن ميسر : أخبار ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣٣، ٣٤، ٣٧، ٣٩- ٥٤؛ ابن خلكان : وفيات ٢ : ٤٤٨- ٤٥٠؛ النويرى : نهاية ٢٨ : ٢٣٤- ٢٣٦؛ ابن أيبك : كنز الدرر ٩: ٤٣٩؛ الصفدى : الوافى ١٠: ٩٥؛ المقريزى : المقفى ٢: ٣٩٤- ٤٠٢، الخطط ١: ٣٨١- ٣٨٢، الاتعاظ ٢: ٣١١، ٣٢٩؛ ابن حجر : رفع الإصر ١: ١٣٠- ١٣٧؛ أبا المحاسن : النجوم ٥: ١٢٠، ١٤١؛ السيوطى : حسن المحاضرة ٢: ٢٠٤ . وراجع كذلك ، السجلات المستنصرية سجل رقم ٢٠، ٣٤، ٥٦، ٥٧، المناوى : الوزارة فى العصر الفاطمى ٢٧٠- ٢٧١، Wiet, G., *CIA* Egypte II, pp. 132-158; Becker, C.H., *EI*[2] *art. Badr al-Djamâli* I, p. 894; Dadoyan, S.B., *The Fatimid Armanians*, pp. 106-127 .

البلاد. وقد رَحَّبَ بدرُ بهذه الدَّعوة، التى تُحَقِّق له طموحاته، وكتب إلى المستنصر يشترط عليه أن لا يأتى إلى مصر إلا ومعه رجاله، وأنه لن يبقى على أحد من عساكر مصر، فوافقه المستنصر على ذلك[١].

قدم بدر من عَكّا فى مائة مركب[٢] مشحونة بالأرْمَن ونزل بِتِنِّيس -وقيل دِمْياط- وسار منها قاصدًا قَلْيوب، وبعث منها إلى المستنصر يقول له: «لا أدخل إلى القاهرة ما لم يُقْبَض على بَلْدَكوش» قائد الأتراك، فأمسكه الخليفة وأرسل يستقبل بدرًا لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ٤٦٦هـ/ يناير ١٠٧٤م، وأكرم وفادته وأطلق يده فى إصلاح حال البلاد[٣].

بدأ بدرُ الجمالى إصلاحاته فى مصر بتدبير مؤامرة شبيهة بمذبحة القلعة التى دبَّرَها محمد على بعد ذلك بنحو سبعمائة عام ليتخلَّص من المماليك، قضى فيها بدر على رؤوس الفتنة فى مصر[٤] وقَتَلَ رجال الدولة وأقام له جندًا وعسكرًا من الأرْمَن، يقول المقريزى: «فصار من حينئذ معظم الجيش الأرْمَن وذهبت كُتامَة وصاروا من جملة الرعية بعدما كانوا وجوه الدولة وأكابر أهلها»[٥]. حينئذ قَلَّدَه المستنصر الوزارة ومنحه لقب «السَّيِّد الأجل أمير الجيوش»[٦]، وجاء فى سِجلّه «وقد قَلَّدَك أمير المؤمنين جميع جوامع تدبيره وناط بك النظر فى كل ما وراء سريره، فباشر ما قَلَّدَك أميرُ المؤمنين من ذلك مدبِّرًا للبلاد مُصْلِحًا للفساد مدمِّرًا أهل العناد»[٧]. وخَلَعَ عليه كذلك بالعِقْد المنظوم بالجوهر،

---

[١] المقريزى: المقفى ٢: ٣٩٥-٣٩٦، ابن حجر: رفع الإصر ١: ٢٠١.

[٢] كان ذلك فى وقت الشتاء حيث لم تجر العادة بركوب البحر فيه، يقول المستنصر فى أحد سجلاته أن ذلك كان «فى زمان يمنع البر جانبه، والبحر راكبه»، (سجل رقم ٥٦، ٥٧، ابن ميسر: أخبار ٤٠، المقريزى: المقفى ٢: ٣٩٦، الخطط ١: ٣٨٢، اتعاظ ٢: ٣١١-٣١٢).

[٣] النويرى: نهاية ٢٨: ٢٧٥؛ المقريزى: المقفى ٢: ٣٩٦ الخطط ١: ١٣١؛ ابن الصيرفى: الإشارة ٩٥.

[٤] ابن ميسر: أخبار ٤٠، ابن خلكان: وفيات ٢: ٤٤٩.

[٥] المقريزى: الخطط ٢: ١٢؛ وانظر ساويرس بن المقفع تاريخ بطاركة الكنيسة ٢/٣: ٢١٩، ٢٢٥.

[٦] السجلات المستنصرية، السجلات أرقام ٥٦، ٥٧، ٥٨.

[٧] المقريزى: المقفى ٢: ٣٩٧، الخطط ١: ٤٤٠؛ ابن حجر: رفع الإصر ١: ١٣٢، انظر كذلك السجل رقم ٥٦، ٥٧.

وزاد له الحَنَك مع الذُّؤابَة وجعل له أيضًا الطَّيْلَسان المُقَوَّر»[١]، ليصبح بذلك أول وزراء التفويض فى العصر الفاطمى .

عمل بدر الجمالى على إعادة النظام إلى القاهرة فاستبد بأمور الدولة فقد كانت «الأحوال-كما يقول المقريزى-قد فسدت ، والأمور قد تَغَيَّرت ، وطوائف العسكر قد انتشرت ، والوزراء يقنعون بالاسم دون نفاذ الأمر والنَّهْى ، والرخاء قد أُيس منه ، والصَّلاح لا يُطْمَع فيه ، ولَواتَة قد ملكت الوجه البحرى كله ، والعبيد فى الصعيد ، والطُّرُقات قد انقطعت برًا وبحرًا إلاَّ بالخفارة الثقيلة ، والخراب قد شمل مدينة مصر والعَسْكَر»[٢].

كان أهم ما يشغل بدرًا هو استتباب الأمن فى كل الأراضى المصرية ، فتوجَّه أولاً إلى الوجه البحرى والإسكندرية حيث قاتل قبائل لَوَاتَة والمَلْحِيّة واسترد ما كان من الأعمال بأيديهم ، ثم تَوَجَّه إلى الصَّعيد حيث قاتل قبائل الجُهَنِيين والقَيْسيين وفلول السودان المستولية عليه . فأعاد للبلاد وحدتها وأمنها وللدولة قوتها[٣].

وسَجَّلَ الإمام المستنصر بالله ذلك وأشاد به فى السِّجِلّ المؤرَّخ فى ٢٨ محرم سنة ٤٦٧هـ/٢٤ سبتمبر سنة ١٠٧٤م والذى وَجَهَّه إلى الصُّلَيْحيين فى اليمن ، يقول :

> «ولما وَصَلَ [أى بدر الجمالى] إلى الأعمال المصرية وجَدها نَهْبًا بأيدى المتغلِّبين الذين منهم طائفة تسمى لَوَاتَة تشتمل عدتهم على نحو خمسينَ ألف رجل ، فكان من أوّل أفعاله مكافحته لهم ، وترويته السيوف من دمائهم حتى صَرَعَ فى القاع منهم الألوف وجُعِلُوا أطعمة للكلاب والنسور ، وغَرَقَ ألوفٌ آخرون فى البحر تأكله

---

[١] المقريزى : المقفى ٢: ٣٩٧ وكذلك ابن الصيرفى : الإشارة ٩٦؛ النويرى : نهاية ٢٨ : ٢٣٥ .

[٢] نفسه ٢ : ٣٩٧ وكذلك ابن الصيرفى : الإشارة ٩٥، المقريزى : الخطط ١: ٥ س ٧-١١ .

[٣] السجلات المستنصرية ، سجل ٥٦ و ٥٧؛ ابن الصيرفى : الاشارة ٩٦؛ ساويرس بن المقفع : تاريخ البطاركة ٣/٢ : ٢٠٣-٢٠٤؛ ابن ظافر : أخبار ٧٦؛ ابن ميسر : أخبار ٤١؛ النويرى : نهاية ٢٨ : ٢٣٦-٢٣٨، ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٦٤، المقريزى : الخطط ١: ٣٨٢، ٢ : ٣٣، الاتعاظ ٢ : ٣١٤، المقفى ٢ : ٣٩٦؛ أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٢١-٢٢ .

السمك ، وطُحِنَت هذه الطائفة الحادة الشوكة الكثيرة العدة بمطاحن الرَّدَى ، وملكت عليهم أرضهم وديارهم وأموالهم ؛ ثم التفت إلى طائفة طائفة من البوادى فكل يلقى عليهم من ظل سياسته ما يُفَرِّق بين الكرى وبين جفونهم ، حتى أَلْبَس الطُّرُقات ملبس الأمنة للطراق والسُّفَّار ، وقضت على مراجم المفسدين والدُّعَّار ، وملكت الإسكندرية والبحيرة والصعيدان الأعْلَى والأدْنَى ، ولقد كانت هذه الأعمال خارجة عن مَلَكَة الدولة منقسمة بين المعتدين من الحاضرة والبادية فجمع الله تعالى على يده شملها ، وأعاد إليها زينتها وبهجتها ...»[١].

وفى العام نفسه ، ٤٦٧هـ/١٠٧٤م ، أعاد بدْر الجمالى خُطْبَة الفاطميين بمكة والمدينة بعد أن قُطِعَت خمس سنوات[٢]، يقول الإمام المستنصر بالله فى سِجِلٍّ مؤرَّخ فى ٢٧ شعبان سنة ٤٦٨هـ/١٠٧٥م مُوَجَّه إلى الصُّلَيحيين فى اليمن واصفًا بدرًا الجمالى : «ثم كان من استفتاح عمله أن نظر فى أمر الحرمين المحروسين وإعادتهما إلى ملكة الدولة ، بعد أن علت فروق منابرهما الأقدام الرجسة من الفئة الأموية والعَبّاسية ، فلو لم يكن له فى هذا الأمر القريب إلاّ هذه المَنْقَبَة لكان فيها كفاية»[٣]، ولكن اعتبارًا من عام ٤٧٣هـ/١٠٨١م خَضَعَت مكة مرة أخرى لنفوذ السَّلاجِقَة وقُطِعَت خُطْبَة الفاطميين منها نهائيًا وأصبحت تقام فقط للخليفة العَبّاسى .

كذلك أَطْلَق بدر الجمالى الخراج للمزارعين ثلاث سنين ، حتى ترَفَّعَت أحوالُ الفَلاحين واستغنوا فى أيامه ، كما يقول ابن مُيَسَّر[٤].

---

[١] السجلات المستنصرية سجل رقم ٥٦ ص ١٨٤ - ١٨٥ .

[٢] ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٦١، ٩٧- ٩٨؛ ابن الجوزى : المنتظم ٨: ٢٩٤؛ ابن ميسر : أخبار ٤٢؛ النويرى : نهاية ٢٨ : ٢٣٦؛ الفاسى : العقد الثمين ١ : ٤٤٢؛ المقريزى : اتعاظ ٢ : ٣١٤؛ أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٨٤؛ ابن فهد : اتحاف الورى ٤٧٧؛ السيوطى : تاريخ الخلفاء ٤٢١، ٤٢٣، ٤٢٥، وانظر السجلات المستنصرية أرقام ٣، ٤، ٧، ١٢ .

[٣] السجلات المستنصرية سجل رقم ٥٨ ص ١٩٢-١٩٣ . والسجل رقم ٥٧ ص ١٨٧- ١٨٨.

[٤] ابن ميسر : أخبار ٥٣؛ النويرى : نهاية ٢٨ : ٢٤٠؛ المقريزى : الخطط ١ : ٣٨٣، الاتعاظ ٢ : ٣٢٩ .

وقد حاول السَّلاجِقَةُ ، بناء على نصيحة بَلْدَكوش-الذى كان قد نجح فى الفرار إلى الشام-أن يستولوا على أعمال الرِّيف سنة ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م-١٠٧٧م ، منتهزين فرصة انشغال بدر بمحاربة فلول السودان فى الصَّعيد . فوصل أتْسِزِبْزا إلى مدينة صَهَرَجْت بإقليم الشرقية ، ولكن بدرًا تمكن من جمع قُوّاته ومنازلته ، وقَتَلَ عددًا كبيرًا من جنوده وأرغمه على العودة إلى الشام[1] .

انفراد بَدْر الجمالى بالسُّلْطَة وبداية النظام العسكرى

حَفِظَ الخليفةُ المستنصر بالله لبدر الجمالى فَضْلَه على الدّولة والخلافة ، فلم يخل سِجِلٌ من السِّجِلاّت التى أرسلها المستنصر لدعاته فى اليمن والمكتوبة بعد سنة ٤٦٧هـ/ ١٠٧٤م من التنويه والإشادة بفضله على الدولة . فنجده يصفه فيها بأنه « الذى أعاد إلى الدولة العلوية ريق شبابها»[2] و « الذى جَدَّدَ الله تعالى به وعلى يده معالم الدولة الفاطمية بعد دروسها ، وأقام بسيفه أعلامها بعد طموسها»[3] وبأنه « الآية التى أطْلَعَ الله بها لأمير المؤمنين شمس الخلافة فشَرُقَت ، والموهبة التى وَهَبَها لدولته وللإسلام فظَهَرَت وأشْرَقَت ، والسيف الذى انتضاه على جموع الباطل فزَهَقَت وتمَزَّقَت ... حتى أصبحت المملكة بلُطْف الله وإيالته محفوظة النظام»[4]، « وبماضى عَزَماته وغرار سيفه مَشَيَّدة البناء قائمة العماد»[5] « فلا جَرْم إنه لدى أمير المؤمنين بالمحل الخطير الذى لم يحلله من تَقَدَّم ، والمكان

---

[1] ابن الصيرفى : الإشارة ٩٦؛ ابن القلانسى : ذيل القلانسى : ذيل ١٠٩؛ ساويرس بن المقفع : تاريخ بطاركة ٣/٢: ٢١٨- ٢١٩؛ ابن الأثير : الكامل ١٠: ١٠٣- ١٠٤؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ١٨٢- ١٨٤؛ ابن ميسر : أخبار ٤٤؛ النويرى : نهاية ٢٨ : ٢٣٧، الذهبى : العبر ٣ : ٢٩٦؛ ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٦٥؛ المقريزى : المقفى ٢ : ٢٢١، والاتعاظ ٢ : ٣١٧-٣١٨ .

[2] سجل رقم ٣١ .

[3] سجل رقم ٣٢ .

[4] سجل رقم ١٥ .

[5] سجل رقم ١٦ .

الجليل الذى يتظاهر دون عالى هِمَم ذوى الهمَم»[١]، و «أنه حالٌ من أمير المؤمنين محل والده الظّاهر لإعزاز دين الله»[٢].

وبتولّى بدر الجمالى وزارة التفويض وإمْرَة الجيوش بدأ عصرٌ جديدٌ فى تاريخ الدولة الفاطمية فى مصر، عصرٌ تَحَكَّم فيه الوزراءُ أرباب السيوف وصار وزير السيف هو «سلطان مصر وصاحب الحَلّ والعَقْد وإليه الحكم فى الكافة من الأمراء وَالأجناد والقضاة والكُتّاب وسائر الرعية، وهو الذى يُوَلّى أرباب المناصب الديوانية والدينية»[٣]، وفَقَدَت فيه «الدَّعْوَة»فى الوقت نفسه الكثير من قوتها وأصبح هَمُّ الوزراء أصحاب السيوف هو الحفاظ على بقاء الدولة واستمرارها فيما اصْطُلِحَ على تسميته بـ «عصر نفوذ الوزراء». وطوال الخمسين عامًا التالية (٤٦٧-٥١٥هـ/١٠٧٤-١١٢١م) كان بدر الجمالى وولده الأفضل هما اللذين يقودان مصير الدولة الفاطمية.

أدرك داعى الدُّعاة المؤيد فى الدين هبة الله الشّيرازى-الذى يُعَدّ آخر أهم الدعاة الفاطميين-حقيقة هذا الموقف وأشار فى «سيرته الذاتية»-التى كتبها قبل وصول بدر الجمالى بأكثر من عشر سنوات-إلى مدى ضَعْف الخلافة، وكيف أصبح المستنصر أُلْعوبَةً فى أيدى القُوّاد[٤]، وتنبّه كذلك إلى ما يمكن أن يصيب الدعوة والعقيدة الفاطمية فى ظل سيادة الوزراء، فعمل على نَقْل تراث الدعْوة من مصر إلى اليمن، قبل وفاته فى سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م، بواسطة رُسُله ودعاته حيث يوجد مؤمنون حقيقيون بالدعوة الفاطمية[٥].

---

[١] سجل رقم ١٥.

[٢] السجلات رقم ٣٤، ٥٧، ٥٨، وانظر ما جاء على بابى الفتوح والنصر بالقاهرة فى مدح بدر الجمالى بمثل هذه الصفات (Wiet, G., *RCEA* VII, pp. 217-19 n. 2762).

[٣] المقريزى: الخطط ١: ٤٤٠.

[٤] المؤيد فى الدين: سيرة ٨٠، ٨٤.

[٥] أيمن فؤاد سيد: مصادر تاريخ اليمن ٤٦؛ تاريخ المذاهب الدينية فى بلاد اليمن ١٣٧.

وقد صَدَق حَدْس الداعى المؤيد فى الدين الشّيرازى ، فبعد وفاته قلّد الخليفة المستنصر أمير الجيوش بدر الجمالى مهمة الإشراف على القضاء والدَّعْوَة[١] بالإضافة إلى رتبتى الوزارة وإمْرَة الجيوش ، وزاد فى ألقابه « كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين »[٢]. يؤكّد ذلك أن الكتابتين التاريخيتين اللتين تحملان اسم بدر الجمالى ويرجع تاريخهما إلى صفر وربيع الأول سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م[٣]، والسّجِلاّت المدوّنة قبل ٣٠ ذى القعدة سنة ٤٧٠هـ/١٥ يونية ١٠٧٨م[٤]لا تشير إلى هذه الألقاب.

وهذا ما تثبته كذلك دراسة الكتابات الأثرية الخاصة ببدر الجمالى و « السّجِلاّت المستنصرية» المرسلة إلى دعاة اليمن بعد هذا التاريخ. ففيما يخص الكتابات توجد مجموعة من النقوش مؤرَّخة فى سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م ، قبل وفاة داعى الدعاة المؤيد فى الدين الشيرازى فى شوال من هذه السنة ، يُنْعَت فيها بـ « السَّيِّد الأَجَلّ أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الإمام»[٥]؛ ثم مجموعة أخرى ، يرجع أقدمها إلى سنة ٤٧٧هـ/١٠٨٤م ، تضيف إلى الألقاب السابقة « كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين»[٦].

وقد أَوْضَحَ ابن مُيَسَّر فى نصٍّ صريح أن قضاء القضاة فُوِّض فى شعبان سنة ٤٧٠هـ/مارس ١٠٧٨م إلى أمير الجيوش[٧]. كما ذكر المستنصر–فى سِجِلٍّ مؤرَّخ فى

---

[١] اعتبارًا من تولية بدر الجمالى صار الوزراء أرباب السيوف هم الذين يولون القضاة والدعاة بحيث كانوا نوابًا عنهم ويذكرون ذلك فى كتب الأنكحة . (ابن حجر : رفع الإصر ١ : ١٣٢؛ ٢٠١؛ ابن الصيرفى : الإشارة ٩٦) . ثم فصلت الوزارة عن القضاة مؤقتًا عندما تولى بهرام الأرمنى الوزارة وهو نصرانى سنة ٥٢٩ . (ابن ميسر : أخبار ١٢٣؛ المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٥٦، ٣٣٦، ٣٣٧، الخطط ١ : ٤٤٠؛ ابن حجر : رفع الإصر ١ : ١٩٨) .

[٢] ابن ميسر : أخبار ٤٥، ٥٠ وانظر كذلك ، النويرى : نهاية ٢٨ : ٢٣٨؛ المقريزى الخطط ١ : ٣٨٢، ٤٤٠ المقفى ٢ : ٣٩٦، اتعاظ ٢: ٣١٣، ٣١٩؛ ابن حجر : رفع الاصر ١ : ٢٠١.

[٣] .Wiet, G., *RCEA* VII, n. 2716

[٤] السجلات رقم ٣٢، ٤١، ٥٤، ٥٦، ٥٧، ٥٨ .

[٥] . Wiet, G., *RCEA* VII, n. 2716

[٦] السجلات رقم ٣٤، ١٥، ١٦، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢؛ ٢٧، ٢٨، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٤٤، ٤٨، ٥١، ٥٣، ٥٧، ٥٨، ٦٣، ٦٤؛ .Wiet, G., *RCEA* VII, n. 2716, 19, 28, 45, 52, 69, 76, 90, 91, 94, 95, . VIII, n. 2803, 05, 06, 07 , 08 , 10

[٧] ابن ميسر : أخبار ٤٧؛ المقريزى : اتعاظ ٢ : ٣٢١؛ ابن حجر : رفع الإصر ١ : ٢٠١ .

شوال سنة ٤٧٢هـ/ إبريل ١٠٨٠م-أنه أضاف إلى ألقاب بدر لقب «كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين» ليقَلّده أمور الدنيا وأمور الدين[١].

هكذا حَفِظَ نظامُ بدر الجمالى وخلفائه المباشرين-الأفضَل والمأمون البَطائِحى- الدولة الفاطمية من السقوط، وأطال بقاءها نحو قرن، بفضل إشرافهم التام على نظام الدولة الإدارى والدينى والعسكرى. ومثلما أصبح الخلفاء العبّاسيون فى بَغْداد لا حَوْلَ لهم ولا قوة بيد قادتهم العسكريين المتسلّطين، أصبح الفاطميون كذلك، منذ هذا التاريخ، رؤساء رمزيين لسلسلة متوالية من الطُّغاة العسكريين.

الإصْلاحاتُ الإدارية لنظام بَدْر الجمالى

لعل أهم إنجازات بدر الجمالى فى فترة حكمه فى مصر، بالإضافة إلى بنائه سور القاهرة وإعادة تحصينه، وكذلك بقية منشآته الدينية والمدنية سواء فى القاهرة أو فى الإسكندرية أو فى الصّعيد[٢]، هو الإصلاحات الإدارية العديدة التى أدخلها على نظام الحكم فى مصر. فقد عَيَّنَ عواصم الولايات التى تتحكّم فى مصر العُلْيا والسُّفْلى لتأمين الطرق المؤدية إلى عاصمة البلاد، إلى جانب إنشاء العديد من التحصينات المتقدّمة التى تصد ما يمكن أن تتعرض له البلاد من أخطار.

فتقسيم مصر إلى أربع ولايات رئيسية: قُوص والشَّرْقية والغربية والإسكندرية بالإضافة إلى القاهرة والفُسْطاط يرجع إلى إعادة تنظيم الدولة الذى بدأه بدر نحو عام ٤٧٠هـ/١٠٧٨م[٣]. وقد حَفِظَ هذا النِّظام الجديد لحكام هذه الولايات سلطة متزايدة.

---

[١] السجلات المستنصرية، سجل رقم ٥٩.

[٢] راجع لتفصيل ذلك Fu'âd Sayyid, A., *La capitale de l'Egypte jusqu'à l'époque* fatimide pp. 386-451 وفيما يلى ص ٦٢٤ - ٦٣٢.

[٣] القلقشندى: صبح ٣: ٤٩٣-٤٩٤؛ المقريزى: اتعاظ ٣: ٣٣٦.

وكان والى قوص أقوى الولاة الأربعة ويحكم على جميع بلاد الصعيد ، وتلى رتبته رتبة الوزير فى الأهمية[١].

ويُفَسّر ذلك إلى أى مدى كان اهتمامُ الفاطميين بطُرُق التجارة الشرقية ، ورغبتهم فى نَشْر دعوتهم على طول الطرق التجارية المؤدية إلى اليمن وعُمان والهند[٢]، وحرصهم على تأمين ميناء عَيْذاب ، القاعدة البحرية التى أخذت فى النمو منذ أن اتَّبَع الفاطميون استراتيجية شرقية والتى تولّى والى قوص أمر الإشراف على الأسطول المعد بها لحماية « مراكب الكارِم » من غارات القراصنة[٣].

أما والى الشَّرْقية فكان يلى والى قوص فى الرُّتبَة ويحكم على عمل بِلْبَيْس وقليوب وأُشْموم[٤]. وكان عليه مواجهة السَّلاجِقَة الذين استردوا من الفاطميين أغلب مدن الشام الداخلية اعتبارًا من عام ٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م .

الأفضَلُ بن بَدْر الجمالى يشارك والده السلطة

وفى نهاية عصر المستنصر تَفَرَّغ بَدْرَ الجمالى تمامًا للإشراف على الدَّعْوَة ، الأمر الذى لم ينظر إليه بارتياح أتباع الدَّعْوَة ، وخاصةً فى اليمن والهند[٥]. وفى نَصِّ مجمل

---

[١] Garcin, J. Cl., *Un centre musulman de la Haute Egypte médiéval : Qûs*, Le Caire IFAO 1976, . pp. 89-90

[٢] لمزيد من التفصيلات انظر Lewis, B., «the Fatimid and the route to India», *RFSE-Univ. d'Istanbul* XI (1949-50), pp. 50-54; Hamdani, A., «The Fatimid-ʿAbbasid, conflict in India», *IC* XLI (1967). pp. 185-191 وانظر فيما سبق ص ١٩٢-١٩٤ .

[٣] انظر فيما يلى الفصل الثالث عشر .

[٤] القلقشندى : صبح ٣ : ٣٩٤ .

[٥] عماد الدين إدريس : عيون الأخبار (مخ . الهمدانى) ٧ : ٧٥ ظ-٧٦ و ؛ أيمن فؤاد : تاريخ المذاهب الدينية ١٤٦-١٤٧ . وبعد نجاح هذه الحملة وتخليدًا لها أعاد بدر الجمالى بناء جامع العطّارين من أموال أخذها من الإسكندرانيين وفرغ منه فى شهر ربيع الأول سنة ٤٧٩ . (ابن ميسر : أخبار ٤٦- ٤٧؛ حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ١ : ٦٧؛ Wiet, G., *RCEA* . VIII n.2745

أورده ابن مُيَسَّر نعرف أن بدر الجمالى ، بعد أن قاد حملة لتأديب ولده الأوْحَد الذى خَرَجَ عليه فى الإسكندرية سنة ٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م ، استناب ولده الأفْضَل وجعله وَلِيّ عهْده فى جمادى الأولى من هذه السنة [١]. ويؤكّد ما جاء فى هذا النّصّ سِجِلٌّ مؤرَّخ فى ٧ محرم سنة ٤٧٩هـ/٢٥ إبريل سنة ١٠٨٦م بعث به الخليفة المستنصر إلى دعاته باليمن ، نعرف منه أن الخليفة نَقَلَ سُلْطَة بَدْر الجمالى إلى ولده الأَفْضَل شاهنشاه فى احتفال ضخم وأَمَرَ بأن يُدْعى له من فوق المنابر بعد الفراغ من الدعاء للخليفة ولبدر الجمالى ، وجاء فى آخر السّجِلّ « الأمر بإبطال ذكر الملقب كان بالأوْحَد من دعاء فى خُطْبَة أو نَدْى من الأندية وأن يُمحى رسمه ويُزال حكمه » [٢]. ولا يترك هذا السّجِلُّ أىّ مجال للشك فى أن الأَفْضَل قد حَلَّ مَحَلَّ أخيه الأوْحَد فى أعقاب الثورة الفاشلة التى قادها الأوْحَد فى الإسكندرية . وجاء كذلك فى سِجِلٍّ بَعَثَ به المستنصر إلى الأمير عبد المستنصر بن المكرم أحمد فى اليمن ، أنه أوْكَل إلى الأفْضَل بن بدر الجمالى « سياسة الملك وما يختص بظاهر السلطان وأمور الجُنْد وما إلى ذلك ، على أن يَتَفَرَّغ والده بدر الجمالى على درس علوم الأئمة ، والإشراف على الدَّعْوَة » [٣].

وعلى ذلك فليس من الغريب أن نجد اسم الأَفْضَل شاهنشاه بألقابه يظهر إلى جانب والده فى كتابة تاريخية مؤرَّخة فى سنة ٤٨٢هـ/ ١٠٩٨م ، كانت موجودة فى المَشْهَد النَّفيسى وفُقِدَت اليوم ، ولكن حَفِظَ لنا نَصَّها كلٌّ من المقريزى والسَّخاوى [٤]. ونجد كذلك ألقاب الأفْضَل فى كتابة تاريخية أخرى باسم المستنصر ، لم يُحْفَظ تاريخها ، موجودة على محراب فى الجامع الطولونى [٥].

---

[١] ابن ميسر : أخبار ٤٧؛ المقريزى : اتعاظ ٢ : ٣٢١؛ وانظر كذلك ساويرس : تاريخ البطاركة ٢/٣ : ٢١٧-٢١٨ .

[٢] السجلات المستنصرية ، سجل رقم ١٥ .

[٣] عماد الدين إدريس : عيون الأخبار-خ ٧ : ٧٥ ظ-٧٦و .

[٤] المقريزى : الخطط ٢ : ٤٤٢؛ السخاوى : تحفة الأحباب ١٣٥؛ وانظر كذلك على مبارك : الخطط التوفيقية ٥ : ١٣٣- ١٣٤؛ Wiet, G., *RCEA* VII n° 2776.

[٥] Wiet, G., *RCEA* VIII n° 2806.

وقبل وفاته بعدة شهور أصيب بدر الجمالى بالفالج ولم يصبح قادرًا على مباشرة مهامه، مما دَفَعَ المستنصر إلى إصدار سِجِلٍّ يأمر فيه بأن يُدْعى للأَفْضَل شاهنشاه مع الخليفة على منابر القاهرة ومصر ويقلِّده «أمور المملكة والنظر فى سائر أمور الدولة وقضاياها وشرائعها وأحكامها»، وقرئ هذا السِّجِلّ فى الإيوان بالقصر فى العشر الأخر من شهر ربيع الأول سنة ٤٨٧هـ/يولية ١٠٩٤م[1].

دِيكْتاتورية الأَفْضَل بن بَدْر الجمالى

عند وفاة بدر الجمالى فى جمادى الأولى سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م أُكْرِه الخليفة المستنصر، تحت ضغط الجيش، على اتخاذ الأفضل وزيرًا له[2]. حقيقةً أن الأَفْضَل شارك والده بدر الجمالى فى أعباء الوزارة منذ عام ٤٨٠هـ/١٠٨٧م تقريبًا، كما تفيدنا النقوش التاريخية والسِّجِلّات المستنصرية، إلَّا أنه نافسه على ذلك بعض كبار الأمراء، ومنهم أمين الدولة لاوون الذى خَلَعَ عليه المستنصر خِلَعَ الوزارة بالفعل، لولا ثورة العسكر التى أجبرت المستنصر على إحضار الأَفْضَل وإقامته مكان أبيه[3].

وتَلَقَّب الأَفْضَلُ بنفس ألقاب أبيه فعرف بـ«السَّيِّد الأَجَلّ الأَفْضَل أمير الجيوش، سيف الإسلام ناصر الإمام، كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين»[4]. ولم يلبث

---

[1] السجلات المستنصرية، سجل رقم ١٥، ٢٧؛ ساويرس بن المقفع : تاريخ البطاركة ٢/٣ : ٢٤٣ .

[2] ابن ميسر : أخبار ٥٤ .

[3] نفسه ٥٤، المقريزى : اتعاظ ٢: ٣٣١-٣٣٣ .

[4] السجلات المستنصرية سجل رقم ٣٥، ٤٣؛ Wiet, G., *RCEA* VIII, n° 2912, 2986 وراجع أخبار الأفضل عند، ابن الصيرفى : الإشارة ٩٧- ١٠٣؛ ابن القلانسى : ذيل ٢٠٣- ٢٠٤؛ ابن المأمون : أخبار ٣- ٢٠؛ ابن ظافر : أخبار ٨٨، ابن الأثير : الكامل ١٠: ٥٨٩- ٥٩٠؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ٨ : ١٠٤؛ ابن ميسر : أخبار ٥٩- ٨٧، ابن خلكان : وفيات ٢ : ٤٤٨- ٤٥٢، ابن سعيد : النجوم ٢١٦، النويرى : نهاية ٢٨ : ٢٨٠- ٢٨٧، ابن أيبك : كنز الدرر ٦ : ٤٨٥- ٤٨٧؛ الذهبى : العبر ٤ : ٣٤- ٣٥؛ الصفدى : الوافى ١٦ : ٩٢- ٩٣؛ =

الخليفة المستنصر أن توفى بعد ذلك بشهور فى ١٨ ذى الحجة سنة ٤٨٧هـ/٢٩ ديسمبر سنة ١٠٩٤م عن عمر يناهز سبعة وستين عامًا وبعد حكم دام أكثر من ستين عامًا[١].

الانقسام الأوّل للدَّعْوَة الإسماعيلية

لم تمض عملية خلافة المستنصر فى منصبه فى هدوء بل قادت إلى انشقاق الدَّعْوَة الفاطمية وانقسامها على نفسها. وكان لهذه الحادثة وما تبعها آثارٌ جسيمة على الدَّعْوَة سواء فى مصر أو خارجها. فالعقيدة الإسماعيلية تعتمد انتقال الإمامة فى الأعقاب من الأب إلى الابن الأكبر، وتبعًا لهذه القاعدة كان نِزار، الابن الأكبر للمستنصر، هو صاحب الحق الشرعى فى خلافة أبيه فى منصب الإمامة، رغم أنه لم يُجْر أى احتفال لتنصيبه وليًا للعهد. ومع ذلك لم يعر الأَفْضَل هذا التقليد أى اعتبار وأبْعَد نِزار الذى كان له من العمر آنذاك خمسين عامًا (ولد عام ٤٣٧هـ)[٢]، عن العَرْش، وأجلس عليه أخاه الأصغر أبا القاسم أحمد (ولد عام ٤٦٧هـ)[٣] وحَكَمَ باسم «المُسْتَعْلى بالله» وذلك لأن المُسْتَعْلى كان فى نفس الوقت زوج أخته سِتّ المُلْك ابنة بدر الجمالى[٤]. وتبعًا لما ذكره

= ابن الفرات : التاريخ-خ ١ : ٥٠-٥٤؛ المقريزى : الخطط ٢ : ٢٩٠، اتعاظ ٣ : ٦٠-٦٢، أبى المحاسن : النجوم ٥ : ٢١٨، ٢٢٢؛ السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ٢٠٤، المناوى : الوزارة فى العصر الفاطمى ٥٧-٦١؛ Wiet, G., *EI* [2] art. *al-Afdal b. Badr al-Djamâli* , I,pp. 221-222 : Dadoyan, S.B., *op.cit.*, pp. 127-139.

[١] ابن القلانسى : ذيل ١٢٨، ساويرس بن القفع : تاريخ البطاركة ٢/٣ : ٢٤٣-٢٤٤؛ ابن ظافر : أخبار ٧٧؛ ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٢٣٧-٢٣٨؛ النويرى : نهاية ٢٨ : ٢٤٠، الذهبى : العبر ٣ : ٣١٨، المقريزى الخطط ١ : ٣٥٦، ٤٢٣، الاتعاظ ٢ : ٣٣٢، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٢٣، انظر كذلك Gibb, H.A.R. et Kraus, p. *EI* [2] art. *al-Mustansir bi llâh* VII, pp. 730-330.

[٢] ابن ميسر : أخبار ٦٢؛ المقريزى : اتعاظ ٢ : ١٥.

[٣] ابن خلكان : وفيات ١ : ١٨٠؛ المقريزى : اتعاظ ٣ : ١١ وانظر أيمن فؤاد سيد : تاريخ المذاهب الدينية ١٥٤-١٥٥.

[٤] ابن ميسر : أخبار ٧٠، ٩٩؛ المقريزى : اتعاظ ٣ : ٨٥.

ابن مُيَسَّر فإن المستنصر نَعَتَ ابنه أبا القاسم أحمد، وقت عَقْد نكاحه على ابنة بدر الجمالى، بـ «وَلِىّ عهد المؤمنين»[١].

وقاد الخلاف على صاحب الحق فى خلافة المستنصر إلى نتائج بعيدة المدى فى تاريخ الدَّعْوَة الإسماعيلية. وقد اعتبر برنارد لويس Bernard Lewis وصمويل شتيرن Samuel Stern إبعاد نِزار وتولية المُسْتَعْلى انقلابًا سياسيًا coup d'état واضح المعالم قام به الوزير الأَفْضَل شاهنشاه محافظةً على السلطان القوى الذى كان يَتَمَتَّع به منفردًا منذ أواخر عهد المستنصر[٢]، خاصةً وقد وَقَعَت بين الأَفْضَلِ ونِزار خلافاتٌ فى أيّام المستنصر، خشى منها الأَفْضَل إن تَوَلّى نِزار أن يُبْعِده عن الحكم[٣]، وبذلك ظَلَّ الأَفْضَلُ طوال الخمسة والعشرين عامًا التالية هو المُدَبِّر الحقيقى لدولة الفاطميين.

وهكذا نجد أن الوزراء الفاطميين، أرباب السُّيوف، تلاعبوا بالعقيدة الإسماعيلية ولم يبالوا بها، فكانوا يُعَيِّنون الإمام الذى يريدونه حتى ولو لم يكن له الحق - حسب العقيدة الإسماعيلية - فى الإمامة.

وقد فَرَّ نِزار الذى رَفَضَ الاعتراف بإمامة أخيه الأصغر[٤]، ومعه محمود بن مَصال اللَّكى[٥] إلى الإسكندرية، حيث ظَنَّ أنه قادر، بمعاونة والى المدينة ناصر الدولة أَفْتَكين

---

[١] الهداية الآمرية فى «مجموعة الوثائق الفاطمية» للشيال ٢١٥، ٢١٧، ابن ميسر، أخبار ٩٩؛ المقريزى: اتعاظ ٣: ٨٤. ويميز الفاطميون بين ولاية عهد المؤمنين وولاية عهد المسلمين، إذ أن ولاية عهد المؤمنين تتضمن ولاية عهد المسلمين، لأن كل مؤمن مسلم ولا ينعكس. (الهداية الآمرية ٢١٥).
وانفرد ساويرس بن المقفع بالقول بأن المستنصر أوصى فى مرضه الأخير أخته والوزير الأفضل بأن ولده الصغير أبا القاسم أحمد هو الإمام بعده.

[٢] Stern, S., «The Epistle of the Fatimid Caliph al-Amir (*al-Hidâya Al-Amiriyya*) its date and its purpose», *JRAS* (1950), p. 20; Lewis, B., *BSOS X*, (1940-42), p. 256; Gibb, H.A.R., *EI*[2] art. *al-Mustali* VII, pp. 726 الشيال: مجموعة الوثائق الفاطمية ٤٨.

[٣] ابن ميسر: أخبار ٦٠؛ ابن خلكان: وفيات ١: ٤٠٧؛ النويرى: نهاية ٢٨: ٢٤٤؛ المقريزى: الخطط ١: ٤٢٣، اتعاظ ٣: ١٢.

[٤] نفسه ٥٩؛ النويرى: نهاية ٢٦: ٧٢؛ ساويرس: تاريخ البطاركة ٢/٣: ٢٤٤، المقريزى: اتعاظ ٣: ١١، الخطط ١: ٤٢٣.

[٥] كان نزار قد وعد ابن مصال إن هو أصبح الإمام أن يوليه الوزارة. (ابن ميسر: أخبار ٦٠).

التركى[١] - على استعادة السلطان الذى سُلِب منه، وبالفعل أعلن نفسه خليفة فى الإسكندرية وتلَقَّب بـ «المصطفى لدين الله»[٢]. ويؤكِّد إعلان نِزار لنفسه إمامًا وخليفة فى الإسكندرية ظهور دينار جديد إلى النور عام ١٩٩٤ هو أوَّلُ نموذج معروف من هذا النوع ضُرِب فى الإسكندرية سنة ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م فى الوقت الذى ثار فيه نِزار هناك يحمل الكتابة التالية :

(المصـطفى لدين الله

ودعا الإمام نزار)[٣]

ولكن محاولة ثورة نِزار لم تفلح بسبب تأييد الجيش للأَفْضَل، الذى نجح، بعدَ أن أخْفَق فى أول الأمر، فى القبض عليه وعلى أُفْتكين وقادهما إلى القاهرة وقتلهما بها[٤]. وبذلك اعترف بإمامة المُسْتَعْلى القسم الأكبر من إسماعيلية مصر والشام وكل الطائفة الإسماعيلية فى اليمن وفى إقليم كُجرَات غرب الهند، واحتفظوا بعلاقتهم برئاسة الدَّعْوَة فى القاهرة، وهم الذين أسسوا فيما بعد فرقة جديدة من بين أتباع المُسْتَعْلى بعد مقتل ولده وخليفته الآمر بأحكام الله سنة ٥٢٤هـ/ ١١٣٠م[٥]. وعرف أتباع المُسْتَعْلى بـ«المُسْتَعْلية». أما إسماعيلية فارس بقيادة

---

[١] الأمير ناصر الدولة أفتكين التركى، أحمد غلمان أمير الجيوش بدر الجمالى ترقى فى الخدمة إلى أن ولّاه الأسكندرية. (المقريزى : المقفى ٢ : ٢٢٨- ٢٢٩، الخطط ١ : ٤٢٣).

[٢] ابن ميسر : أخبار ٦١؛ ساويرس : تاريخ البطاركة ٢/٣ : ٢٤٤- ٢٤٥؛ النويرى : نهاية ٢٨: ٢٤٥؛ المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٣، الخطط ١ : ٤٢٣،

[٣] Daftary, F., «Hasan Sabbâh and the Origins of the Nizâri Ismâ'ili Movement», *in Medieval Ismâ'ili History and Though*, p. 194.

[٤] نفسه. وكذلك ابن ظافر : أخبار ٨٣- ٨٤؛ المقريزى : المقفى ٢ : ٢٢٨؛ ابن حجر : رفع الإصر ١: ٣٨٩؛ أبو المحاسن : النجوم ٥ : ١٤٤.

[٥] انظر فيما يلى ص ٢٤٩-٢٥١.

الحسن بن صبّاح[١] فقد اعترفوا بإمامة نِزار وعرفوا لذلك بـ« النّزارية ».

الإسماعيلية الجديدة

تذكر المصادر المصرية أن الحسن بن صَبّاح وَصَلَ إلى مصر فى سنة ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م وأنه نَجَحَ فى لقاء الإمام المستنصر بالله، وسأله عن مَنْ يكون الإمام بعده، وأن الإمام أجابه بأنه ابنه نِزار[٢]. أما المصادر النزارية فتنْفى هذا اللقاء، وتبعًا لنَصٍّ وَرَدَ فى « سيرة سيدنا » - وهو نَصٌّ فارسى يغطى أغلب أحداث فترة حكم الحسن بن صَبّاح فى آلموت - فقد رَحَلَ ابن صَبّاح من أصْفَهان إلى القاهرة سنة ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦- ١٠٧٧م عندما كان داعى الدُّعاة بها هو المؤيَّد فى الدين الشِّيرازى، ووَصَلَ إلى القاهرة فى صفر سنة ٤٧١هـ/ أغسطس سنة ١٠٧٨م. وأمضى الحسن بن صَبّاح قرابة الثلاث سنوات فى مصر، أولا فى القاهرة ثم فى الإسكندرية، قاعدة المعارضة للوزير القوى بَدْر الجمالى الذى خَلَفَ المؤيَّد فى الدين فى رُتْبَة داعى الدُّعاة.

ولا نعرف الكثير عن نشاطات الحسن بن صَبّاح فى مصر، وأيًّا كان الأمر فإنه دَخَل فى صراع مع الوزير القوى بَدْر الجمالى بسبب تأييده لِنزار وريث المستنصر المُسَمَّى، مما جَعَلَ بدر الجمالى يجد فيه خطرًا على كيانه فحال بينه وبين لقاء الإمام[٣].

ولاشك أن إقامة الحسن بن صبّاح فى مصر، رغم عدم لقائه الإمام، قد أتاحت له التعرّف على أحوال الدولة الفاطمية وما آلت إليه الدعوة الإسماعيلية فى ظِلّ نفوذ

---

[١] عن الحسن بن صبّاح راجع، ابن الأثير : الكامل ١٠: ٢٣٧؛ ابن ميسر : أخبار ٤٧- ٤٩؛ ٦٢؛ القلقشندى : صبح ١٣ : ٢٣٧؛ المقريزى : المقفى ٣:٣٢٧- ٣٣٤؛ اتعاظ الحنفا ٢ : ٣٣٣- ٣٣٤؛ Hodgson, M.G. S., *EI*[2] art. *Hasan-i Sabbâh* III, pp. 260-261 وانظر الهامش رقم ٦٣ ص ٢٢٢.

[٢] ابن ميسر : أخبار مصر ٤٧؛ المقريزى : اتعاظ ٢ : ٣٣٣، المقفى ٣ : ٣٢٨.

[٣] عطاء الملك الجوينى : تاريخ جهانكشاى (فى كتاب محمد السعيد جمال الدين : دولة الإسماعيلية فى إيران) ١٨٦؛ Daftary, F., *op.cit.*, p. 186.

وسيطرة أمير الجيوش بدر الجمالى . وقد تكفَّل ابن صبّاح بإقامة الدعوة للمستنصر فى خُراسان وبلاد العجم ، وحرص على تكوين مجتمع إسماعيلى صِرْف يخضع كل رجاله لرئيسهم الروحى ويعملون جميعًا على نشر المذهب الإسماعيلى ، الذى عرف بعد وفاة المستنصر بـ « الإسماعيلية الجديدة » [١].

المُسْتَعْلية

أَحَسَّت السيدة والدة المستعلى بعدم شرعية الطريقة التى اعتلى بها ولدها كرسى الإمامة ، فأرسلت إلى خُلَفاء الدعوة فى اليمن وعلى رأسهم السيدة الحرة الصُّلَيْحية سِجِلًّا تُبَرِّر فيه وصول ولدها إلى منصب الإمامة ، وبأن والده قد نَصَّ عليه حين نُقْلته [٢]، وكذلك فَعَلَ المستعلى الشىء نفسه فأرسل سِجِلًّا مماثلًا إلى السيدة الحرة [٣].

ويبدو أن الأمر ظَلَّ محل مناقشات بين أتباع الدَّعْوَة مما دعا ولده وخليفته الآمر بأحكام الله أن يعقد مجلسًا فى القصر عام ٥١٨هـ/١١٢٤م شهدت فيه أخت نِزار « بأن أخاها لم تكن له إمامة وأنها بريئةٌ من إمامته جاحدةٌ لها لاعنةٌ لمن يعتقدها » [٤] وأن

---

[١] عن الفرقة الإسماعيلية الجديدة أو النزارية تاريخها وعقائدها راجع المصادر المذكورة فى الهامش رقم ٦١ وأضف إليها ، طه أحمد شرف : دولة النزارية أجداد أغاخان كما أسَّسها الحسن بن صبّاح (القاهرة ١٩٥٠) ؛ السيد محمد العزاوى : فرقة النزارية–تعاليمها ورجالها على ضوء المراجع الفارسية (القاهرة ١٩٧٠) ؛ محمد السعيد جمال الدين : دولة الإسماعيلية فى إيران (القاهرة ١٩٧٥) ؛ Hodgson, M.G.S., *The Order of Assassins, the Struggle of the Early Nizari Isma'ilis against the Islamie World,* La Haye 1955-New York 1980; id., «The Isma'ili State» *in the Cambridge History of Iran,* III, pp. 275-76; Lewis, B., *The Assassins a Radical Sect in Islam,* London 1949; نقله إلى العربية سهيل زكار بعنوان « الدعوة الإسماعيلية الجديدة (الحشيشية) » ، بيروت–دار الفكر ١٩٧١ ؛ ومحمد العزب موسى بعنوان « الحشاشون–فرقة ثورية فى تاريخ الإسلام » ، القاهرة–مكتبة مدبولى ١٩٨٦ ؛ Daftary, F., *The Isma'ilis their History and Doctrines,* Cambridge 1990,; pp. 324-424 ومقاله المذكور فى الهامش رقم ٣ ص ٢٢٢.

[٢] السجلات المستنصرية ، سجل رقم ٣٥ ؛ عماد الدين إدريس : عيون الأخبار (مخ . همدان) ٧ : ٧٩ ظ–٨٣ ظ .

[٣] نفسه ، سجل رقم ٤٣ .

[٤] الهداية الآمرية ٢١٧ ؛ ابن ميسر : أخبار ١٠٠ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٨٦ .

أباها المستنصر نَصَّ على أخيها المستعلى بالإمامة [١]. فلما أتمت شهادتها أمر الوزير المأمون ابن البَطائِحى بكتابة سِجِلّ يُقْرأ على منابر مصر بهذا المعنى ، أنشأه ابن الصَّيْرَفى كاتب الإنشاء [٢]، وهو السِّجِلّ المعروف بـ « الهداية الآمرية فى إبطال الدعوة النزارية » [٣] الذى جاء فيه أنه لا سبيل إلى إثبات الإمامة إلّا بالنَّصّ والاختيار حتى ولو تَمّ فى وقت نُقْلَة الإمام [٤].

العَبّاسيون يعاودون مهاجمة الفاطميين

وفى الوقت الذى انشقت فيه الدعوة الإسماعيلية وانقسمت على نفسها ، وفَقَدَت جناحها الشرقى فى فارس ، وانشغل فيه أئمتها بتبرير شرعية خلافتهم للإمام المستنصر ، كان العَبّاسيون يستعيدون قوتهم بفضل دَعْم الأتراك السّلاجِقَه وتأييدهم لهم ، فأخذوا يهاجمون الفاطميين من جديد فى بلاد الشام وعن طريق التشكيك فى نَسَبِهم ، فكُتِبَ « مَحْضَرٌ » جديدٌ فى بَغْداد سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م لم يكتفوا فيه هذه المرة بالقَدْح فى نَسَبِهم ، بل أخرجوهم كُلّية من المِلّة الإسلامية [٥].

---

[١] ابن ميسر : أخبار ٩٩- ١٠٠؛ المقريزى : اتعاظ ٣ : ٨٤، ٨٦-٨٧ .

[٢] نفسه ١٠١ .

[٣] نشر هذا السجـل آصف على أصغر فيظى سنة ١٩٣٨ Fyzee, A.A.A., «*al-Hidâyatu-Âmiriyya*, an Epistle of the Tenth Fatimid Caliph al-Amir bi Ahkamillah » in Islamic Research Association Series n. 7, Oxford 1938; Lewis, B., *BSOS* X (1940-42), p. 256; Stern, S., «The Epistle of the Fatimid Caliph al-Amir (*al-Hidâya al-Amiriyya*) its date and purpose», *JRAS* (1950), pp. 20-31. ثم أعاد نشرها جمال الدين الشيال فى مجموعة الوثائق الفاطمية ٢٠٥-٢٣٠ .

[٤] نص السجل : « ثم إن الإمامة صُيّرت إليه بنص صحيح ثابت من إمام حق لا خلاف بين أهل الدعوة فى إمامته ، ذلك النص واقع منه فى دقيقة نقله بمحضر من خاصته وأولاده وجميع جلته » . (الهداية ٢٢٨) .

[٥] ابن ميسر : أخبار ١٦٣؛ المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٧ .

بدايةُ الغزو الصَّليبى

أدَّى تَقَدُّم السَّلاجِقَة فى بلاد الشام إلى قَطْع دعوة الفاطميين من أغلب مدنه [١]، فى نفس الوقت الذى بدأت فيه مقدمات الحروب الصليبية باستيلاء الفِرِنْج على بيت المقدس وبقية مدن الشام الساحلية سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م [٢]. ولم يُدْرك الوزير الأَفْضَل، وهو صاحب الأمر فى مصر، الأخطار المحدقة بمصر والأراضى الإسلامية، ولا حقيقة أهداف الغزو الصليبى [٣]، حتى أنه ظَنَّ أن باستطاعته التحالف مع الفِرِنْج ضد السَّلاجِقَة، كما سبق وظَنَّ الوزير اليازورى أن بإمكانه التحالف مع البيزنطيين ضد العَبّاسيين والسَّلاجقة معًا.

الآمر بأحكام الله يتولّى الخلافة

عندما توفى الخليفة المستعلى سنة ٤٩٥هـ/١١٠١م أقام الوزير الأَفْضَل ابنه أبا على المنصور موضعه فى الخلافة ولَقَّبه بـ «الآمر بأحكام الله» وهو لم يتجاوز الخمس سنوات، فحَجَرَ عليه واستقلَّ بتدبير أمور الدولة كما كان فى خلافة المستعلى [٤].

وقد أظهر ابن مُيَسَّر فهمًا دقيقًا لخلافة الآمر (٤٩٥-٥٢٤هـ/ ١١٠١-١١٣٠م) عندما قَسَّمَها إلى فترات ثلاث: فترة حَجَرَ عليه فيها الوزير الأَفْضَل (٤٩٥-

---

[١] ابن ميسر: أخبار ٦٩؛ النويرى: نهاية ٢٨ : ٢٤٧- ٢٧٣؛ المقريزى: الخطط ١: ٣٥٦- ٣٥٧، اتعاظ ٣ : ٢٧، أبو المحاسن: النجوم ٥ : ١٤٥، ١٥٣.

[٢] نفسه؛ ابن خلكان: وفيات ١ : ١٧٩.

[٣] ابن ظافر: أخبار ٨٢؛ أبو المحاسن: النجوم ٥ : ١٧٨- ١٧٩؛ السيوطى: تاريخ: تاريخ الخلفاء ٤٢٧؛ وراجع مقال سعيد عبد الفتاح عاشور: «شخصية الدولة الفاطمية فى الحروب الصليبية»، المجلة التاريخية المصرية ١٦ (١٩٦٩) ١٥- ٦٦، وانظر فيما يلى الفصل الثامن عشر.

[٤] ابن ميسر: أخبار ٧٠؛ ابن ظافر: أخبار ٨٧؛ ابن خلدون: تاريخ ٤ : ٦٨؛ ابن خلكان: وفيات ٢ : ٤٤٨؛ الصفدى: الوافى ١٦ : ٩٢؛ أبو المحاسن: النجوم ٥ : ١٧؛ Stern, S., *EI²* art, *al-Āmir bi Ahkâm Allâh* I, p. 1372 وانظر نص سجل توليه الآمر عند ابن ميسر: أخبار ٧٠-٧٤.

٥١٥هـ)، وفترة شاركه فيها الوزير المأمون ابن البَطائِحى (٥١٥-٥١٩هـ)، ثم الفترة التى استبدَّ فيها الآمر بالأمر ولم يستوزر فيها أحدًا وحتى وفاته فى سنة ٥٢٤هـ/ ١١٣٠م[١].

الأفضَلُ ينقل مقر الحُكم إلى الفُسطاط

ففى العشرين عامًا التى أعقبت وفاة المستعلى كانت السُّلْطَة الفعلية فى مصر فى يد الوزير القوى الأَفْضَل بن بدر الجمالى، فهو الوزير وقائد الجيش والمشرف على شئون القضاء والدَّعْوَة، والخليفة طفلٌ لا حول له ولا قوة معه.

فى هذه المرحلة أَقْدَم الأَفْضَل على خطوة جريئة ليس لها سابقة فى تاريخ الدولة الفاطمية. فلأول مرة يُنْتَقَلُ مقرُّ الحكم، مؤقتًا، من القاهرة، إذ بَنَى الأَفْضَل لنفسه دارًا على النيل جنوب الفُسْطاط سَمّاها «دار المُلْك» انتقل إليها من دار الوزارة بالقاهرة فى سنة ٥٠١هـ/١١٠٨م[٢] ونَقَلَ دواوين الدولة من القصر الفاطمى إلى موضع أعَدَّه لها قبالة دار المُلْك وجعل ديوانى الإنشاء والمكاتبات بجوار القاعة الكبر بدار الملك، التى اتخذها لمجلسه وسمّاها «مَجْلِس العطايا»[٣]. فجرّد الخليفة نهائيًا من كل سلطاته، وحتى الأعمال الشرفية التى كان يضطلع بها الخليفة سَلَبَها منه. فأنشأ بالفُسْطاط دارًا لعمل الفِطْرَة التى تُوَزَّع فى عيد الفِطْر، ظلَّت الفِطْرَة تُعْمَل بها مدة[٤]، ونَقَلَ عمل الأسْمِطَة التى كانت تُمَدُّ فى الأعياد والمواسم من القصر الخلافى إلى دار المُلْك[٥] وحَرَّم على الإمام الركوب فى المواسم والأعياد، وصار يتصرَّف فى الدولة كالملوك والسلاطين.

---

[١] ابن ميسر: أخبار ١١١؛ المقريزى: اتعاظ ٣: ١٢٩، ١٣٢.

[٢] نفسه ٧٦-٧٧؛ نفسه ٣: ٣٧، ٤٠؛ النويرى: نهاية ٢٨: ٢٧٤-٢٧٥؛ المقريزى: الخطط ١: ٤٨٣-٤٨٤، ٢: ٢٩١؛ أبو المحاسن: النجوم ٤: ٩٢.

[٣] ابن المأمون: أخبار ١٠١؛ المقريزى: الخطط ١: ٣٩٧، ٤٢٦، ٤٨٣، ٢: ٢٩١.

[٤] المقريزى: الخطط ١: ٤٢٦.

[٥] ابن المأمون: أخبار ١٥؛ المقريزى: الخطط ٤٣١، ٢: ٢٩١، الاتعاظ ٣: ١٣٢.

وفى عام ٥٠١هـ/١١٠٨م قرّب الأَفْضَلُ أحد الأستاذين يعرف بمحمد بن فاتك البَطَائِحى وسَلَّم إليه جميع أموره واعتمد عليه فى تصريف أحواله ونَعَتَهُ بـ « القائد » ، وصار منه مكان الوزير من الخليفة[1] وذلك بعد أن استبعد كاتبه المعروف بتاج المعالى مختار فى هذه السنة[2].

وكثر فى عهد الأَفْضَل استخدام الموظفين النَّصارى ، فعندما جَدَّدَ فى عام ٥٠١هـ/ ١١٠٨م « ديوان التحقيق » استخدم فيه الشيخ أبا البركات يُوحَنّا بن أبى اللَّيْث النَّصْرانى وبقى فيه حتى قتل سنة ٥٢٨هـ/١١٣٤م[3]. كما كان الشيخ أبو الفضل المعروف بابن الأُسْقُف « كاتب الأَفْضل والموقِّع عنه فى الأموال والرجال ومتولِّى ديوان المجْلِس والنَّظَر فى جميع دواوين الاستيفاء على جميع أعمال المملكة »[4]. كذلك فقد كان متولِّى الديوان بأسْفَل الأرض نَصْرانى يعرف بأبى اليُمْن وزير بن عبد المسيح[5]. وأحاط الأَفْضَل نفسه كذلك بجنود من الأَرْمَن ، وشَجَّع على هجرتهم ، التى بدأت منذ مقدم والده فى أيام المستنصر ، لهذا الغرض[6].

أثارت تصرُّفات الأَفْضَل التى احتاط فيها على الخليفة وعدم معارضته أهل السُّنَّة فى اعتقادهم ، وإذنه للناس فى إظهار معتقداتهم والمناظرة عليها ، أثارت كل هذه التصرفات مشاعر الإسماعيلية النزارية[7]. وقد كثر الخوف والاحتياط منهم فى هذه الفترة حتى إن الأَفْضَل أمر بسد باب مُراد - أحد أبواب القصر الغربى - الذى يُتَوَصَّل منه إلى البستان الكافورى ومنظرة اللؤلؤة ووَضَعَ عليه الحُرّاس لحفظه ولم يكن يُفْتَح إلّا فى يوم كَسْر

---

[1] ابن المأمون : أخبار ١٧؛ المقريزى : اتعاظ ٣: ٦٨، الخطط ١: ٤٢٦، المقفى ٦ : ٤٧٩ .

[2] المقريزى : خطط ١: ٤٦٢، الاتعاظ ٣: ٣٨، المقفى ٦: ٤٧٩ .

[3] ابن ميسر : أخبار ٧٧، ١٠٨؛ المقريزى : اتعاظ ٣: ٣٩، ٤٣، ٧٥، ١٢٦، ١٤٨ .

[4] ساويرس : تاريخ البطاركة ٣/١ : ١٣؛ المقريزى : اتعاظ ٣: ٣٩ .

[5] نفسه ٣/٢ : ٢٤٨؛ أبو صالح : تاريخ ٨٥؛ ابن ميسر : أخبار ١٠٩؛ المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٢٧ .

[6] Canard, M., «Un vizir chrétien à l'époque fatimite : L'Arménien Bahram», *AIEO* XII (1954), p. 93.

الخليج فقط [١]. كما أبطل كذلك فى عام ٥١٣هـ/١١١٩م «دار العِلْم» خوفًا من اجتماع الناس بها ومعارضتهم مذهب الدولة [٢].

مَقْتَلُ الأفضل

لم تمنع الاحتياطات التى اتَّخذها الأَفْضَل الإسماعيلية النِّزارية من التسلُّل إلى مصر، فتربَّصت له مجموعةٌ منهم أثناء عودته من القاهرة إلى دار المُلْك بالفُسْطاط وقتلوه عند رأس الجسر ليلة عيد الفطر سنة ٥١٥هـ/ يناير ١١٢٢م [٣]. ومع ذلك فإن أصابع الاتهام تشير إلى أن الخليفة الآمر دَبَّر قتل وزيره الأَفْضَل بالاتفاق مع القائد محمد بن فاتك البَطائِحى «لتضييقه عليه ومنعه مما تميل نفسه إليه ومنافرته إيّاه فى بعض الأوقات». ويضيف ابن القلانسى، الذى أورد هذا الخبر، أن الآمر سُرَّ بمقتل الأَفْضَل سرورًا غير مستور عن كافة الخاص بمصر والقاهرة [٤].

ولا شك أن الأَفْضَلَ يتحمَّل وحده وِزْر سقوط مدن الشام الساحلية التى كانت للفاطميين فى أيدى الفِرِنْج، فقد اتصف موقفه تجاه ما كان يحدث باللامبالاة المتناهية وأدَّى هذا التهاون إلى استيلاء الفِرِنْج على عَكّا سنة ٤٩٧هـ/١١١٧م وطَرابُلُس وجبيل وعِرْقَة وبانْياس سنة ٥٠٢هـ/١١٠٨- ١١٠٩م، وبيروت سنة ٥٠٣هـ/١١٠٩-١١١٠م، وصَيْدا سنة ٥٠٤هـ/١١١٠م، وتِبْنين سنة ٥١١هـ/١١١٧م، وأخيرًا صُور

---

[١] ابن الأثير : الكامل ١٠: ٥٩٠ .

[٢] المقريزى : الخطط ١: ٤٦٨ .

[٣] ابن المأمون : أخبار ٤٦؛ المقريزى : الخطط ١: ٤٦٠ .

[٤] عن مقتل الأفضل راجع، ابن المأمون : أخبار ١٥- ٢٠، ساويرس بن المقفع : تاريخ البطاركة ١/٣ : ٢٢- ٢٣؛ عماد الدين الأصفهانى : البستان الجامع ١١٨؛ ابن الأثير : الكامل ١٠: ٥٨٩؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ٨: ١٠٤- ١٠٥؛ ابن ميسر : أخبار ٧٩- ٨٧؛ النويرى : نهاية ٢٨ : ٢٧٩- ٢٨٠؛ ابن أيبك : كنز الدرر ٦ : ٤٨٥- ٤٨٧؛ ابن الفرات : تاريخ ٣: ٥٠- ٥٤؛ ابن خلدون . تاريخ، ٦٩- ٢٧٠؛ المقريزى : اتعاظ ٣ : ٦٠- ٦٩؛ وانظر كذلك . Wiet, G., *EI*[2] art. *al-Afdal b. Badr al-Djamâlî* I, pp. 221-222 .

[٥] ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ٢٠٤ .

سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م[١]، بل بَلَغَ الأمر إلى أن وَصَلَ بُلْدوين ملك بيت المقدس على رأس حملة على الأراضى المصرية حتى الفَرَما واضطر الأَفْضَل إلى مهادنته لعجزه عن مواجهة قواته[٢]، كما هَدَّدَت مراكب الروم والبنادقة ثَغْر الإسكندرية سنة ٥١٧هـ/ ١١٢٥م[٣].

وعَقْد مقارنة بين منشآت الأَفْضَل ومنشآت أبيه فى القاهرة توضِّح لنا مدى التباين بينهما. فبينما حرص بدر الجمالى على تحصين القاهرة بإعادة بناء أسوارها وأبوابها على سبيل المثال ،انحصرت منشآت الأفضل فيما يكفل له وسائل الإمتاع والتسلية، حيث استكثر من إنشاء «المناظر» سواء فى الفُسْطاط أو فى ضواحى القاهرة[٤].

تَرِكَةُ الأَفْضَل

يدل حجم التركة التى خَلَّفها الأَفْضَل، والتى أمضى الخليفة الآمر فى حصرها ونقلها «مدة شهرين وأيامًا»، على مدى الثراء الذى كان يتمتَّع به هذا الوزير القوى الذى كان فى واقع الأمر هو الحاكم الحقيقى للبلاد. وقد وَصَفَ لنا كل من ابن مُيَسَّر والأَبْشيهى وابن خَلِّكان تفصيل ماوُجِدَ فى دار الأَفْضَل من ذخائر وتُحَف وأمتعة. فيروى ابن مُيَسَّر عن متولِّى الخزانة بالقصر، أنه وُجد بها «ستة آلاف وأربعمائة ألف دينار، وورق قيمته مائتا ألف وعشرون ألف دينار، وسبعمائة طبق فِضَّة وذهب وما لا يحصى كثرة من الأسطال والصِّحاف والمشارب والأباريق والقدور والزَّبادى، والقِطَع من الذهب والفضة المختلفة الأحباس، وكذلك شيء كثير من برانى الصينى الكبار المملوءة بالجوهر التى بعضها منظوم كالسُّبَح وبعضها منثور.

---

[١] ابن ظافر: أخبار ٨٦؛ ابن ميسر: أخبار ١١١؛ المقريزى: اتعاظ ٣: ١٢٩-١٣٠، الخطط ٢: ٢٩١؛ أبو المحاسن: النجوم ٥: ١٧٠.

[٢] النويرى: نهاية ٢٨: ٢٨١-٢٨٤؛ المقريزى: اتعاظ ٣: ٥٤، ٥٦؛ أبو المحاسن: النجوم ٥: ١٧١.

[٣] ابن ميسر: أخبار ٩٣؛ ابن الأثير: الكامل ١٠: ٦١٦، المقريزى: اتعاظ ٣: ٩٨.

[٤] Fu'âd Sayyid, A., *op.cit.*, pp. 469-482.

ووجد له من أصناف الدّيباج وما يجرى مجراه من قتّابى وغيره تسعون ألف ثوب ، وثلاث خزائن كبار مملوءة صناديق كلها ديبقىَ وشَرَب عُمِل بِتِنّيس ودِمْياط على كل صندوق شرح ما فيه وجنسه . وخزانة للطيب مملوءة بالأسْفاط من العود وغيره مكتوبٌ عليها أوزانها وأجناسها ، بالإضافة إلى براني المِسْك وبراني الكافور ، ومالا يحصى من العَنْبَر .

ووجد له من المقاطع والستور والفَرْش والمطارح والمخاد والمساند الدِّيباج والدِّبيقى الحرير والمُذْهَب على اختلاف أجناسها أربع حُجَر كل حجرة مملوءة من هذا الجنس ، وكذلك خزانة بها عدة صناديق تحوى أحقاق ذهب عراقى برسم الاستعمال .

وكان له مجلسٌ يجلس فيه للشرب فيه صور ثمان جوارى متقابلات أربعٌ منهن بيض من كافور ، وأربعٌ من عَنْبَر قيام فى المجلس عليهن أفخر الثياب ، وأثمن الحلى وبأيدهن أحسن الجواهر ، فإذا دخل من باب المجلس ووطئ العَتَبَة نَكَّسْن رءوسهن خِدْمَة له ، فإذا جلس فى صدر المجلس استوين قائمات [١]؛ بالإضافة إلى خزانة كتب كانت تشتمل على نحو خمسمائة ألف مجلد [٢].

وتدلنا هذه الذَّخائر على أن خزائن القصور الفاطمية عاد إليها قسط وافر من عمارها الذى كان قبل الشِّدَّة العُظْمَىٰ وما أخرج من القصر من ذخائر بين سنتى ٤٥٩هـ/ ١٠٦٧م و ٤٦١هـ/١٠٦٩م وهى الذَّخائر التى أتى على ذكرها صاحب كتاب « الذَّخائر والتحف » [٣].

---

[١] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٨- ٩؛ ساويرس بن المقفع : تاريخ بطاركة الكنيسة ١/٣ : ٢٣- ٢٤؛ ابن ميسر : أخبار ٩٣؛ النويرى : نهاية ٢٨ : ٢٨٣، ابن الأثير : الكامل ١٠: ٦١٦؛ المقريزى : اتعاظ ٣ : ٩٨ وقارن ، ابن ظافر : أخبار الدولة المنقطعة ٩١؛ ابن خلكان : وفيات ٢ : ٤٥١؛ الأبشيهى : المستطرف ، بيروت-دار مكتبة الحياة ١٩٨٧، ٢ : ٣٤-٣٥ .

[٢] ابن ميسر : أخبار مصر ٨٠ وفيما يلى ص ٦٠٣-٦٠٥ .

[٣] انظر ما سبق فيما يلى الفصل الخامس عشر .

الفصل السادس

نهاية الاستقرار

وزارة المأمون البطائحى

كان قَتْلُ الوزير الأَفْضَل مصدر ارتياح للخليفة الآمر، وكان من الطبيعى أن يخلف ابن فاتك الوزير الأَفْضَل فى منصبه. وقد امتنع ابن فاتك عن قبول هذه الرُّتْبَة فى أول الأمر حيث عُيِّنَ واسِطَةً[1]، ثم تولَّى الوزارة كاملة فى ثانى ذى الحجة ٥١٥هـ/١٢ فبراير سنة ١١١٢م[2]. وقد حَفِظَ الخليفة الآمر للقائد أبى عبد الله محمد بن فاتك حرصه على استدعائه له فى أعقاب مقتل الأَفْضَل، لتَسَلُّم تركته الضخمة التى استمر نقلها من دور الأَفْضَل إلى القصر نحو أربعين يومًا. وكان ذلك سبب تلقيب القائد أبى عبد الله بـ «المأمون»، فبعد أن شكره الآمر على صنيعه قال له: «والله إنك المأمون حقًّا ما لك فى هذا النعت شريك»، فلما قلَّده الوزارة نعته بـ «الأَجَلّ المأمون» فعرف به[3]. وفى سجل توليته الوزارة جاء نعته «الأَجَلّ، المأمون، تاج الخلافة، وجيه الملك، فَخْر الصنائع، ذُخْر أمير المؤمنين» ثم تجَدَّد له بعد ذلك فى النعوت «الأَجَلّ، المأمون، تاج الخلافة، عِزّ الإسلام، فَخْر الأنام، نِظام الدِّين والدُّعاة»، ثم نُعِت بما كان يُنْعَت به الأفضل وهو «السَّيِّد، الأَجَلّ، المأمون، أمير الجيوش، سيف الإسلام، ناصر الإمام كافِل قضاة المسلمين وهادى دُعاة المؤمنين»[4].

---

[1] ابن الطوير: نزهة المقلتين ١٠؛ ابن الفرات: تاريخ-خ ١: ١٦٦ ظ، ابن الظافر: أخبار ٨٨.

[2] ابن ميسر: أخبار ٨٧؛ المقريزى: اتعاظ ٢: ٧٦، الخطط ١: ٤٤٢، المقفى ٦: ٤٨٠. ٦: ٥٠٠، اتعاظ ٣: ٦٤-٦٥؛ ابن القلانسى: ذيل ٢٠٤.

[3] ابن الطوير: نزهة ١٠؛ المقريزى: المقفى ٦: ٤٩٩، اتعاظ ٣: ٦٤-٦٥.

[4] ابن ميسر: أخبار ٨٨؛ ابن أيبك: كنز الدرر ٦: ٤٨٨؛ المقريزى: الخطط ١: ٤٤٢، ٤٦٣، اتعاظ ٣: ٧٦، =

وقد قرئ سِجِلٌ تولية المأمون على « باب (فَرْدكم) مجلس اللُّعْبَة » وطُوِّق بطوق ذهب مُرَصَّع وقُلِّد بسيف ذهب مُرَصَّع ، وسَلَّم على الخليفة وخرج ؛ وهو ، كما يقول ابن المأمون : أوَّل سَجِلٍّ يُقْرأ هناك ، فقد كانت سِجِلّاتُ الوزراء قبل ذلك تقرأ بالإيوان [١] ، وأمر الخليفة كذلك بكتابة سجل آخر بنقل نسبة الأمراء والأستاذين المحنَّكين من الآمرى إلى المأمونى تمييزًا له ، فلم يكن أحدٌ منهم يُنْسَب قبل ذلك إلى الأَفْضَل أو إلى أبيه بدر الجمالى ، وإنما كانوا يُنْسَبون إلى الخليفة [٢] .

ولا شك أن الحديث الذى دار فى أثناء خُلْوَة المأمون بالخليفة الآمر فى أعقاب انقضاء مراسم تقليده الوزارة يُوَضِّح لنا إلى أى مدى أحَسَّ المأمون بحاجة الخليفة إليه . وقد أملى المأمون خلال هذا اللقاء شروطًا مُهينة على الخليفة التزم بها كتابةً وأقسم له بأن « لا يلتفت لحاسدٍ ولا مُبْغِض ، ومهما ذُكِر عنه يُطْلعه عليه ، ولا يأمر فى شىء سِرًّا ولا جَهْرًا يكون فيه ذهاب نفسه وانحطاط قدره » . واشترط المأمون أن تكون هذه الأَيْمَان باقية إلى وقت وفاته ، فإذا توفى تكون لأولاده ولمن يخلفه بعده .

وقد حَرَّرَ الخليفةُ خَطَّه بالأَيْمَان من نسختين : واحدة فى قَصَبَة فضة أنفذ الخليفة فى طلبها عند القبض على المأمون فى سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م وأحرقها ، أما النسخة الأخرى فقد بقيت عند ابن المأمون (جمال الدين أبو على موسى المؤرِّخ) ، الذى ذَكَرَ لنا تفاصيل هذه المحادثة ، إلى أن عُدِمَت « فى الحركات التى جَرَت » [٣] .

= المقفى ٦ : ٤٧٨-٤٧٩؛ Wiet, G. *RCEA* VIII p. 148 n. 3021.

[١] ابن المأمون : أخبار ٢١؛ المقريزى : المقفى ٦ : ٤٨٠، الخطط ١ : ٤٤١، الاتعاظ ٣ : ٧٥ . باب فَرْدالكم أو مَقْطَع فَرْد الكم هو الباب الذى يصل الجزء الرئيسى للإيوان ، وهو الصَّدْر ، مع كل من فردى الكم ، أىّ الغرفتين الملحقتين (ابن الطوير : نزهة المقلتين ٢٠٨ والمقدمة ص ٩١*) .

[٢] نفسه ٢١؛ نفسه ٦ : ٤٨٠، نفسه ١ : ٤٤١ .

[٣] نفسه ٢٢-٢٣؛ نفسه ٦ : ٤٨٣، نفسه ١ : ٤٤٠، الاتعاظ ٣ : ٧٥-٧٦ .

وعن شخصية المأمون البطائحى راجع ، ابن المأمون : أخبار ٣ هـ٣ م، ٢٦-٨٠، Dunlop, D.M., *EI*^{2} art. *al-Batâ'ibi* I, p. 1124 .

وفى مقابل هذه الاشتراطات طَلَب الخليفة الآمر إلى وزيره استعادة عَظَمَة الأعياد والاحتفالات الرسمية، وأن «لا تُجْبى الأموال إلّا بالقصر، ولا تصل الكُشوات من الطِّراز والثُّغور إلّا إليه، ولا تُفَرّق إلّا منه، وتكون أسْمِطَةُ الأعياد فيه، ويُوَسَّع فى رواتب القصور من كل صنف، وزيادة رَسْم منديل الكم»[1]. فتعَهَّد له المأمون بأن تكون الجباية والكسوات والأسْمطَة بالقصر، وبالعمل على تَوْسِعَة الرواتب وزيادة رَسْم منديل الكم من ثلاثين دينارًا إلى مائة دينار فى اليوم. وأن الآمر سيشاهد ما يُعْمَل بعد ذلك فى الركوبات وأسْمِطَة الأعياد وغيرها فى سائر الأيام[2]. وهى الرُّسوم التى كان قد مَنَعَها الوزير الأفْضَل وقَلَّص فيها دور الخليفة[3].

إنجازات المأمون البطائحى

لعل أهم إنجازات المأمون البَطائِحى فى القاهرة هى إنشائه فى سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م دار وَكالَة ودارًا للضَرْب. فقد أنشأ فى هذا السنة «دار وَكالَة» لمن يصل من العراقيين والشاميين وغيرهما من التُّجّار ولم يُسْبَق إلى ذلك[4]. ويدل إنشاء هذه الدار على أن القاهرة بدأت منذ مطلع القرن السادس فى مشاركة الفُسْطاط فى نشاطها الاقتصادى والتجارى.

أما «دَارُ الضَّرب» التى عرفت باسم «الدار الآمرية» نسبة إلى الخليفة الآمر – فتعدُّ أوَّل دار للضَرْب تنشأ بالقاهرة. وقد ذكر ابن المأمون أن المأمون البَطائِحى بناها فى

---

[1] منديل الكم. هذا المصطلح لم يرد سوى عند ابن المامون وابن الطوير وربما قصد به ما يطلق عليه اليوم «مصروف الجيب» والذى كان يمنح لبعض الأفراد ذوى المكانة وكان يوضع فى منديل فى كم الخلعة!

[2] ابن المأمون: أخبار ٢٢-٢٣؛ المقريزى: المقفى ٦ : ٤٨٢، الخطط ١ : ٤٤١، الاتعاظ ٣ : ٧٦-٧٧.

[3] المقرزى: الاتعاظ ٣ : ٨٣ س ٥-٦. وانظر فيما يلى الفصلين الحادى عشر والثانى عشر.

[4] ابن المأمون: أخبار ٣٩؛ ابن ميسر: أخبار ٩٢؛ المقريزى: الخطط ١ : ٤٥١، اتعاظ ٣ : ٩٢ وانظر عن وظيفة دار الوكالة فيما يلى ص ٤٨٩ - ٤٩١.

القاهرة «لكونها مقر الخلافة وموطن الإمامة .. وصار دينارُها أعلى عيارًا من جميع ما يضرب بجميع الأمصار»[١]. وقد أنشأ المأمون البَطائِحى دار ضرب أخرى فى نفس العام فى قُوص عاصمة الوجه القبلى[٢]. وبذلك أصبحت دور الضرب التى استمرت فى العمل فى نهاية العصر الفاطمى هى دور ضرب القاهرة والفُسْطاط وقُوص والإسكندرية، وصور وعَسْقَلان (إلى أن خرجتا من أيدى الفاطميين)[٣].

تجديد الاحتفالات والرسوم

وتُعَدّ فترة خلافة الآمر ووزارة المأمون البطائحى (٥١٥-٥١٩هـ/ ١١٢٢-١١٢٥م) من أزهى فترات التاريخ الفاطمى فى مصر، فقد كان الآمر مفتونًا بعظَمة الاحتفالات وفخامتها، ويرجع إليه الفضل، كما يقول المقريزى، «فى تجديد رسوم الدولة وإعادة بهجتها إليها»[٤]. فقد أخذت رسوم الفاطمين شكلها النهائى على يد هذا الخليفة الذى أعاد وطَوَّر الكثير من الاحتفالات الفاطمية التى انقطعت بسبب ما تعرّضت له البلاد فى أعقاب الشُدَّة، وفى أعقاب تَسَلُّط الوزير الأفْضَل على الدولة، والواقع فإن أكثر ما نعرفه عن رسوم الدولة الفاطمية فى مصر وتفاصيل الاحتفالات الموكبية والأسْمِطَة وأنواع الخِلَع والكُسْوات التى كانت هذه الاحتفالات مناسبة لتفريقها على رجال الدولة، والذى أمدنا به مؤرِّخون من أمثال ابن المأمون وابن الطُّوَيْر، ندين به إلى هذه الفترة[٥].

---

[١] نفسه ٣٨؛ نفسه ٩٢؛ نفسه ١ : ٤٤٥؛ نفسه ٣ : ٩٢؛ المقفى ٦ : ٤٩٦ .

[٢] المقريزى : اتعاظ ٣ : ٩٣ .

[٣] القلقشندى : صبح ٣ : ٣٦٥؛ المقريزى : اتعاظ ٣ : ٩٤ . وعن سائر منشآت المأمون البطائحى راجع، Fu'âd Sayyid, A., *La capitale de l'Egypte*, pp. 509-29.

[٤] المقريزى : الخطط ٢ : ٢٩١ .

[٥] انظر فيما يلى الفصل الثانى عشر .

إعادة تعمير العاصمة

وأراد الخليفة الآمر أن يعيد إلى العاصمة سابق ازدهارها، فبعد الإصلاحات والتحصينات التى قام بها بدر الجمالى بين سنتى ٤٨٠هـ/١٠٨٧م و٤٨٥هـ/١٠٩٢م، أمر الآمر وزيره المأمون أن يدعو الناس إلى تعمير موضع الخراب الذى تخلَّف عن الشِّدَّة العُظْمى، والممتد جنوبًا بين باب زُوَيْلَة والمَشْهَد النَّفيسى، ليعيد إلى القاهرة سابق رونقها وتألُّقها [١]. وأنشأ داخل القاهرة مقابل ركن القصر الشمالى، المعروف بالرُّكْن المُخَلَّق، «الجامع الأقمر» الذى افتُتِح للصلاة فى سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م [٢]، وهو أوّل جامع يبنى داخل القاهرة منذ بنى الخليفة الحاكم بأمر الله «الجامع الأَنْوَر»، قبل أكثر من مائة عام، فى طرف المدينة الشمالى.

المأمون يواجه مؤامرات النِّزارية

لم يرض الإسماعيليون النِّزاريون أن يتركوا الخلافة الفاطمية تنعم باستتباب قدر من الأمن بعد فشلها فى تحقيق أهدافها، وتوالى الفِتَن والأزمات الاقتصادية عليها. فبعد نجاح النِّزارية فى اغتيال الأَفضل بن بدر الجمالى [٣]، امتدت آمالهم إلى قتل الخليفة الآمر ووزيره المأمون بن البَطائِحى معًا [٤]. فأرسلوا عددًا من رسلهم إلى أصحابهم المقيمين بمصر ومعهم أموال لتفرقتها عليهم للإعداد لتنفيذ مخططهم. وقد تَنَبَّه الوزير المأمون بن البطائحى إلى ذلك وفَرَض على البلاد نظامًا أمنيًا صارمًا بدأه بتولية والٍ جديد على عَسْقَلان - أول مدينة تقابل القادم إلى مصر من الشام - وطلب إليه أن لا يُبْقى فى

---

[١] المقريزى : الخطط ١ : ٣٠٥، ٢ : ٢٠، ١٠٠، ٢٦٥ . وانظر فيما يلى الفصل الثالث عشر .

[٢] ابن ميسر : أخبار ٩١؛ المقريزى : الخطط ٢ : ٢٩٠، اتعاظ ٣ : ٧٧، أبو المحاسن : النجوم ٥: ١٧٣، ٢٢٩؛ Fu'âd Sayyid, A., *op. cit.*, p. 494-98. وفيما يلى ص ٦١٨ .

[٣] تبعًا لرواية ابن ميسر .

[٤] نفسه ٩٧؛ المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٠٨ .

الخدمة إلّا من هو معروف من أهل البلاد ، وأن يتعرّف على أحوال الواصلين من تجار وغيرهم ، وأن لا يثق بما يذكرونه من أسمائهم وكناهم وبلادهم ، ولا يُمكّن أحدًا من الدخول إلى البلد إلا إن كان معروفًا متردّدًا عليها ، ووَضَع نقاط مراقبة على مراكز الطريق المؤدى من عَسْقَلان إلى القاهرة . فكان الكُتّاب يسبقون القوافل ومعهم قوائم بأسماء التجار وغلمانهم وأسماء الحمّالين وأنواع البضائع ليقابل عليها فى كل نقطة من نقاط المراقبة حتى لا يتسّرب أحدٌ من النزارية إلى داخل البلاد [١].

وفى الوقت نفسه أمر المأمون واليىّ القاهرة ومصر أن يُسَقِّعا له البلدين شارعًا شارعًا وحارة حارة وزقاقًا زقاقًا وخُطًّا خُطًّا ، بأسماء من فيها من السكان وأن لا يُمَكّنا أحدًا من الانتقال من منزل إلى منزل حتى يستأذناه ويخرج أمره بما يُعْتَمد فى ذلك . فلما أتمّا ذلك ورفعا إليه « أوراق التَّسْقيع » ، أرسل المأمون نساءً من قبله – من أهل الخبرة والمعرفة – للدخول إلى جميع المساكن والاطلاع على أحوال ساكنيها الباطنية ومطالعته بجميع ما يشاهدونه فيها . فكانت أحوال كافة الناس ، على اختلاف طبقاتهم وتباين أجناسهم من ساكنى مصر والقاهرة ، تعرض عليه ولا يكاد يخفى عنه منها شيء [٢]. وبذلك امتنع النّزارية من الدخول إلى البلاد .

عَزْلُ المأمون وقتله

لم تستمر علاقة الوُدّ بين المأمون والآمر طويلًا ، إذ بدأ كل منهما يتوحّش من الآخر . وقد احتاط المأمون لنفسه بأن وَلّى أخاه المؤتَمن جانبًا عظيمًا من ديار مصر وجعل معه عسكرًا لينجده به إذا غَدَر به الخليفة . وقيل للآمر إن المأمون « ادَّعى الخلافة بطريق أنه وَلَدُ نِزار من جارية خرجت من القصر وهى حامل به عندما خرج نِزار إلى الإسكندرية » ،

---

[١] ابن ميسر : أخبار ٩١– ٩٨؛ المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٠٨، المقفى ٦ : ٤٩٥

[٢] نفسه ٩٨ ؛ نفسه ٣ : ١٠٨ .

وأنه أرسل عليّ بن نجيب الدولة رسولًا من قبله إلى اليمن ليُحَقِّق نَسَبه هناك ويَدْعُ الناس إلى بيعته. فانزعج الخليفة لذلك، وتحايل على استدعائه مع أخيه إلى القصر بحجة إكرامهما بحضور سِماط الخليفة الذى يُنْصَب كل ليلة فى رمضان بقاعة الذَّهَب، فلما انفرد بهما الخليفة أمر بالقبض عليهما واعتقلهما فى خِزانَة البُنود، واحتاط على دورهما فى سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م وأرسل فى استدعاء الرسول الذى أُرْسِل إلى اليمن. وأمر ابن أبى أسامة، كاتب الإنشاء، بإنشاء سِجِلّ يُقَرِّر فيه تصرُّفه مع المأمون وأخيه، «فلم ينتطح فيه عنزان بعد قراءته» كما يقول ابن الطُّوَيْر[1].

وقد ظَلَّ المأمون فى الاعتقال إلى أن قتل مع أخيه والرسول الذى قيل إنه أرسله إلى اليمن فى عام ٥٢٢هـ/١١٢٨م[2].

الآمر يَسْتَقِلّ بالأمر

عندما استقل الآمر بالحكم، بعد عَزْل الوزير المأمون بن البَطائِحى، لم يتمكن من سياسة الدولة؛ لأنه ظَلّ بعيدًا عن الحُكْم طوال الخمسة والعشرين عامًا السابقة. فاضطر إلى اتخاذ صاحبى ديوان، لاستخراج ما يجب لله فى أموال الناس من زكاة؟ وما هو مرتب من مكوس، أحدهما مسلم هو أبو الفضل جعفر بن عبد المنعم بن أبى قيراط والآخر سامرى اسمه أبو يعقوب إبراهيم الكاتب، أقام معهما مُسْتَوْفِي لهاتين المعاملتين راهب يعرف بأبى نجاح بن قَنا[3]، كان قد اتَّصَل بالآمر بعد قتل المأمون البطائحى وبَذَلَ له

---

[1] ابن الطوير: نزهة المقلتين ١٥- ١٦؛ ابن الفرات: تاريخ-خ١: ٢٠٦ ظ-٢٠٧ و؛ النويرى: نهاية الأرب ٢٨: ٢٩١؛ المقريزى: اتعاظ ٣: ١١٢- ١١٥؛ المقفى ٣: ٧١٨. وعن ابن نجيب الدولة راجع، أيمن فؤاد سيد: تاريخ المذاهب الدينية فى بلاد اليمن ١٦٠-١٦٤.

[2] ابن ميسر: أخبار ١٠٧، المقريزى: المقفى ٦: ٤٩٩، اتعاظ ٣: ١٢٢

[3] راجع، أبا صالح: ٥٤ وفيه أنه كان متولى الديوان الخاص الآمرى)؛ ابن الطوير: نزهة المقلتين ٢٠- ٢٣؛ ابن=

فى مصادرة قوم من النَّصارى مائة ألف دينار ، ثم تزايد فى أمر المصادرات حتى صادر رجالات مصر من المسلمين ، وفيهم القضاة والكُتّاب والشهود . فزاد قربه من الآمر حتى لَقَّبه بـ « الأب القديس الرُّوحانى النفيس ، أبى الآباء سَيِّد الرُّؤساء ، مُقَدَّم دين النصرانية وسَيِّد البطريركية ، ثالث عشر الحواريين »[١]، الأمر الذى زاد فى سطوته ، فكثرت إساءته للمسلمين ومصادرته للناس .

وفى سنة ٥٢٣هـ/١١٢٩م عمَّ البلاء بمصر جميع الرؤساء والقضاة والكُتّاب والسوقة من الرّاهب ، بحيث لم يبق أحدٌ إلَّا وناله منه مكروه ، إما من ضَرْب أو نَهْب أو أَخْذ مال ، وكان يجلس فى قاعة الخطابة من جامع عمرو ، ويستدعى الناس للمصادرة . وقد طلب يومًا أحد عدول مصر المتميزين ، وكان معظمًا عند الناس ، فأهانه وأَخْرَق به . فخرج من عنده ووقف بالجامع فى يوم جمعة وقال : « يا أهل مصر انظروا عَدْل مولانا الآمر فى تمكينه هذا النصرانى من المسلمين » ، فأُرْتِجَ الناس لكلامه وكادت تكون فِتْنَة خُوِّف الآمر من عاقبتها . فأمر مِقْداد ، والى مصر ، بقتل الراهب بعد مناقشة دارت بينهما حول رأيه فى الإسلام فقتل فى عام ٥٢٣هـ/ ١١٢٩م بعد أن ضُرِب بالنِّعال وسُمِّر على لوحٍ عند كرسى الجِسْر وطُرِحَ فى النيل حتى خرج إلى البحر المالح[٢].

= الفرات : تاريخ-خ٢ : ١٥ و-١٦ ظ ، النويرى : نهاية ٢٨ : ٢٩١- ٢٩٤؛ المقريزى : اتعاظ ٣ : ١١٥- ١١٦، الخطط ٢: ٢٩١ .

[١] النابلسى : تجريد سيف الهمة ١٤١؛ المقريزى : اتعاظ ٣ : ١١٧ .

[٢] راجع تفصيل خبر هذا الراهب وما قام به من مصادرات عند ، النابلسى : تجريد سيف الهمة ١٤١- ١٤٢؛ ابن ظافر : أخبار ٨٨- ٨٩؛ ابن الطوير : نزهة المقلتين ٢٠- ٢٣؛ ابن ميسر : أخبار ١٠٧-١٠٩ (مصدر ابن ظافر وابن ميسر واحد هو المرتضى بن المحنّك صاحب « تاريخ خلفاء مصر » ونص عليه ابن ظافر فى ص ٨٩) ؛ ابن خلكان : وفيات ٥: ٢٩٩- ٣٠٠؛ النويرى : نهاية ٢٨: ٢٩٢؛ ابن الفرات : تاريخ-خ٢ : ١٥ و -١٦ ظ ؛ المقريزى : الخطط ٢: ٢٩١، اتعاظ ٣ : ١١٧، ١١٩، ١٢٣، ١٢٥- ١٢٧؛ القلقشندى : صبح ١٣: ٣٦٩-٣٧٠ . انظر فيما يلى الفصل الثالث عشر .

ومن الغريب أن كتاب تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية المنسوب لساويرس بن المقفع لم يشر على الإطلاق إلى الفترة التى تولى فيها الراهب السلطة فى مصر (٥٢٠-٥٢٣هـ/١١٢٦-١١٢٩م) .

وعند الاستيلاء على داره وُجِد بها الكثير من الأدوات الثمينة ، وتذكر المصادر أنه وجد له فى مقطع ثلاثمائة طرّاحة سامان محشوة جدًا لم تستعمل ، قد رُصّت إلى قرب السقف ، يقول ابن خَلِّكان : « هذا نوع واحد قليل الاستعمال فكيف ماعداه من الدّيباج وأنواع المتاع الفاخر »[1].

مَقتَــلُ الآمـــر

هكذا حاول الخليفة الآمر أن يعيد شباب الدولة الفاطمية عن طريق إحياء رُسُومها واحتفالاتها ، ولكنه أراد بذلك أن يتقرّب إلى مجموع الشعب المصرى بمتابعة هذه الاحتفالات والمشاركة فيها . فقد كان الانفصال كبيرًا بين النظام الحاكم وبقية أفراد الشعب ، ولم يكن القصد من هذا الإحياء تعبئة المشاعر فى سبيل تحقيق هدف الدولة الفاطمية فى السيطرة على العالم الإسلامى ، فالواقع أن هذا الهدف قد نُسى تمامًا منذ أن تَحكُّم الوزراء أرباب السيوف فى الدولة .

حقيقةً أن ابن الطُّوَيْر وابن مُيَسَّر ذكرا لنا أن الآمر كانت تُحَدِّثه نفسه بالسَّفر إلى المشرق والغارة على بغداد وأعد سروجًا خاصة للخيل استعدادًا لذلك[2]، إلَّا أننا لا يمكننا أن نثق فى هذا الخبر ، فالفاطميون لم يكونوا قادرين على استعادة ممتلكاتهم التى توزّعها السّلاجقة وخلفاؤهم ثم الفِرِنْج فى الشام ، فكيف يتأتى لهم منازلة العباسيين والوصول إلى بغداد ؟ كما أن أنصار دعوتهم فى مشرق العالم الإسلامى انْشَقّوا عليهم واتّبعوا دعوة جديدة ، أضف إلى ذلك انغماس الخليفة الآمر فى لهوه وملذّاته[3] وعشقه للجوارى

---

[1] ابن ظافر : أخبار ٨٩؛ ابن ميسر : أخبار ١٠٩؛ ابن خلكان : وفيات ٥: ٣٠٠؛ النويرى : نهاية ٢٨ : ٢٩٤ .

[2] ابن الطوير : نزهة ١٩؛ ابن ميسر : أخبار ١١٢؛ ابن الفرات : تاريخ-خ٢ : ١٥ و؛ المقريزى : الخطط ١ : ٤١٨، ٢ : ٢٩١، الاتعاظ ٣ : ١٣٢؛ أبو المحاسن : النجوم ٤ : ١٩٦ .

[3] ابن القلانسى : ذيل ٢٢٨؛ ابن ظافر : أخبار ٩١؛ ابن خلكان : وفيات ٥ : ٣٠٠، المقريزى : الخطط ٢ : ٢٩١؛ أبو المحاسن : النجوم ٥: ١٧٣ .

البدويات اللائى أقام لواحدة منهن بناءً بجزيرة الرَّوْضَة يعرف بـ « الهَوْدَج » كان يزورها فيه[١]، كما أن النِزاريين كانوا يَتَرَبَّصون به فكثر خوفه منهم واتَّخذ إجراءات أمنية مشددة إضافة إلى ما كان قد رَتَّبه الوزير المأمون البَطائِحى[٢]. ومع ذلك فقد نجح نفرٌ منهم من الوصول إلى مصر وقتلوا الخليفة الآمر وهو فى طريقه إلى الهَوْدَج يوم الثلاثاء ثانى ذى القعدة سنة ٥٢٤هـ/٧ أكتوبر ١١٣٠م[٣].

كانت السنواتُ التى أعقبت وفاة الخليفة الآمر وما صاحبها من أحداث تجاهلت أُسُس العقيدة الفاطمية، هى مؤشِّر التعجيل بسقوط الدولة الفاطمية فى مصر الذى تأجَّل نحو القرن بفضل الإصلاحات الإدارية والتنظيمية والدفاعية التى أدخلها نظام بدر الجمالى وخلفائه الأفْضَل والمأمون البطائحى.

انقـــلابُ أبى على الأفْضَل

فور وفاة الخليفة الآمر مقتولًا فى ثانى ذى القِعدة سنة ٥٢٤هـ/٧ أكتوبر سنة ١١٣٠م[٤]، نشأت لأول مرة فى تاريخ الدولة الفاطمية مشكلةُ البحث عن وريث للإمامة. فقد مات الخليفةُ دون وريث، ولكنه أشار وقت وفاته – تبعًا لبعض المصادر –

---

[١] ابن سعيد : النجوم ٨٥؛ المقريزى : الخطط ١ : ٤٨٥– ٤٨٦، ٢ : ١٨٠–١٨٢ .

[٢] المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٢٨؛ أبو المحاسن : النجوم ٥: ١٨٤ .

[٣] عماد الدين الأصفهانى : البستان الجامع ١٢١، ابن القلانسى : ذيل ٢٢٨، ابن ظافر : أخبار ٩١، ابن الطوير : نزهة ٢٤– ٢٦؛ ابن الأثير : الكامل ١٠: ٦٦٤؛ ابن ميسر : أخبار ١١٠؛ ابن خلكان : وفيات ٥ : ٢٩٩– ٣٠٠؛ ابن القطان : نظم الجمان ٢١٧– ٢٢١، ٢٣١– ٢٣٣؛ ابن سعيد : النجوم ٨٤– ٨٥؛ النويرى : نهاية ٢٨ : ٢٩٤– ٢٩٥؛ المقريزى : الخطط ٢ : ٢٠٤؛ ابن سعيد : النجوم ٨٤– ٨٥؛ النويرى : نهاية ٢٨ : ٢٩٤–٢٩٥ المقريزى : الخطط ٢ : ٢٩١، اتعاظ ٣ : ١٢٩؛ أبو المحاسن : النجوم ٥ : ١٨٤– ١٨٥، ويمدنا نص ابن الطُّوير ونص ابن القَطَّان بتفاصيل دقيقة عن مؤامرة قتل الآمر .

[٤] انظر الهامش السابق .

إلى أنه ترك إحدى جِهاتِه حاملًا[1] وأنه رأى رؤيا تدل أنها ستلد ولدًا ذكرًا هو الخليفة من بعده، وكان يجب الانتظار لمعرفة نتيجة هذا الحَمْل، وإن كان المولود المنتظر ذكرًا أم أنثى. وقد اختلفت المصادر في تحديد نوع المولود، فالنُّوَيْرى وأبو المحاسن ذكرا أن الحامل وَضَعَت أنثى[2]، بينما يُقرِّر ابن خَلِّكان أنه لم يُعْرَف مصير المولود[3].

وانتظارًا لهذا المولود تولّى منصب الإمامة لأول مرة في تاريخ الدولة الفاطمية «إمامٌ مُسْتَوْدَع» وِفْقًا للمصطلح الإسماعيلي[4]، فقد أحْضَرَ هَزّار الملوك جَوامَرْد والعادل بَرْغَش - كبار غلمان الآمر[5] - ابن عمه الأمير أبا الميمون عبد المجيد، أكبر الأقارب سِنًّا، وبايعوه بولاية العهد وتدبير المملكة «كَفيلًا لحَمْلٍ مُنْتَظر في بطن أمه»[6]. فجَعَلَ عبد المجيد هَزّار الملوك جَوامَرْد وزيرًا له، فلم ترض به طوائف الجند وثاروا عليه في نفس يوم توليته فكانت وزارته نصف يوم يدون تَصَرُّف[7]، وأخرجوا أبا علي أحمد بن الأَفْضَل شاهنشاه المُلَقَّب بكُتَيْفات وفرضوه وزيرًا على الأمير عبد المجيد في ١٦ ذى القعدة سنة ٢١/٥٢٤ أكتوبر سنة ١١٣٠م[8] وقالوا له: «هو الوزير بن الوزير بن الوزير».

---

[1] ابن خلكان: وفيات ٥: ٣٠٢؛ أبو المحاسن: النجوم ٥: ١٧٤.

[2] النويرى: نهاية ٢٨: ٢٩٨؛ أبو المحاسن: النجوم ٥: ١٧٤.

[3] ابن خلكان: وفيات ٥: ٣٠٢.

[4] راجع عن هذه الرتبة Hamdani, A., «Evolution of the Organisational Structure of the Fatimid Dawah, the Yemeni and the Persian Contribution», *Arabian Studies* III (1976), p. 91; Madelung, W., EI^2 art. *Imâma* III, p. 1196.

[5] ابن الطوير: نزهة المقلتين ٢٦-٢٧؛ ابن الفرات: تاريخ-خ٢: ١٧ظ؛ المقريزى: المقفى ١: ٣٩٤، ٣: ٨٠، الخطط ١: ٤٠٦، ٢، ٢٩١، الاتعاظ ٣: ١٣٧.

[6] عمارة اليمنى: تاريخ ١٢٩؛ ابن ميسر: أخبار ١١٣؛ ابن خلكان: وفيات ٣: ٣٢١؛ النويرى: نهاية ٢٨: ٢٩٦، ابن الفرات: تاريخ-خ ٢: ١٨ و؛ المقريزى: الخطط ١: ٤٠٦، ٢: ١٧، اتعاظ ٣: ١٣٧؛ أبو المحاسن: النجوم ٥: ٢٤٠-٢٤١.

[7] ابن الطوير: نزهة المقلتين ٢٧-٢٨، الفرات: تاريخ-خ٢: ١٨ و؛ المقريزى: اتعاظ: ٣: ١٣٧-١٣٨، ١٣٩.

[8] ابن القلانسى: ذيل ٢٢٩؛ ابن ظافر: أخبار ٩٤؛ ابن الطوير: نزهة ٣٠-٣٣؛ ابن ميسر: أخبار ١١٣؛ =

كان أبو على هذا إمامىّ المذهب قوى الجانب [١]، فقَبَضَ على وَلِىّ العهد واعتقله فى خزانة من خزائن القصر وأعلن نهاية الأسرة الفاطمية [٢]، وأسْقَط اسم إسماعيل بن جعفر الصّادِق - الذى تنتسب إليه الإسماعيلية - ودعا للإمام المنتظر الاثنى عشرى، ونَقَش اسمه على السّكّة نائبًا عنه [٣]، واتّخَذ لنفسه ألقابًا يُدْعَى له بها هى : « السَّيِّد الأجَلّ الأفضل سيد أرباب الممالك والدول والمحامى عن حَوْزة الدين، وناشر جناح العَدْل على المسلمين الأقربين والأبعدين، ناصر إمام الحق فى حالتى غيبته وحضوره، والقائم بنُصْرَته بماضى سيفه وصائب رأيه وتدبيره، أمين الله على عباده، وهادى القضاة إلى اتباع شَرْع الحق واعتماده، ومُرْشِد دُعاة أمير المؤمنين بواضح بيانه وإرشاده، مولى النِّعَم ومُفَرِّج الغُمَمِ، ورافع الجَوْر عن الأمم، مالك فضيلتى السيف والقلم، أبو على أحمد بن السَّيِّد الأجل الأفْضَل شاهنشاه أمير الجيوش » [٤].

لم يكتف أبو على الأفْضَل بذلك بل عمل على إضعاف المذهب الإسماعيلى فى مصر. فعَيَّنَ فى سنة ٥٢٥هـ/١١٣١م أربعة قضاة : اثنين من الشيعة، أحدهما إمامى

= النويرى نهاية ٢٨ : ٢٩٦؛ ابن الفرات : تاريخ-خ٢ : ١٩ ظ؛ المقريزى : الخطط ١: ٤٠٦، ٢ : ١٧؛ المقفى ١: ٣٩٥، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ١٧٤، ١٤٠- ٢٤١، Stern, S., *EI*² art. al-Afdal Kutayfât I, pp. 222-223.

[١] ابن الأثير : الكامل ١٠: ٦٧٢؛ المقريزى : الخطط ١ : ٤٠٦ .

[٢] وهى خزانة بجوار الإيوان الكبير بالقصر، وأصبحت فيما بعد دارًا للضرب . (المقريزى : الخطط ١ : ٤٠٦).

[٣] ابن الطوير : نزهة : ٣٣؛ ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٦٧٢؛ ابن ظافر : أخبار ٩٤؛ ابن ميسر : أخبار ١١٦؛ ابن الفرات ٢ تاريخ-خ٢: ١٩ ظ؛ ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٧٢؛ المقريزى : الخطط ٢ : ٢٧١، اتعاظ ٣ : ١٤٣، المقفى ظ ١ : ٣٩٥ .

[٤] ابن الصيرفى : قانون ديوان الرسائل ٤١-٤٢ (فهذا الكتاب ألّفه ابن الصيرفى وأهداه إلى أبى على الأفضل فى السنة التى حكم فيها سنة ٥٢٥)؛ ابن ظافر : أخبار ٢٩٤؛ ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٦٧٢، ابن ميسر : أخبار ١١٦؛ النويرى : نهاية ٢٨ : ٢٩٧، ابن الفرات : تاريخ-خ ٢ : ٢٠ و، ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٣٢؛ المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٤٣- ١٤٤، المقفى ١ : ٣٩٧؛ السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ٢٠٥ .

وقد أبدى ابن الأثير تعجبه من هذه الألقاب وعلّق بأنه إذا كان هذا حال وزير المصريين فإن وزراء السلاجقة من أمثال نظام الملك كان يحق لهم أن يدّعوا الربوبية .

والآخر إسماعيلى ، واثنين من السنة أحدهما شافعى والآخر مالكى ، كل منهم يحكم بمذهبه ويُوَرِّث بمذهبه . وعَلَّق ابن مُيَسَّر على ذلك «بأنه لم يُسْمَع بمثل هذا فى المِلَّة الإسلامية من قبل»[١].

كذلك عمل أبو على الأَفْضَل على تفريق الغلال على الناس على سبيل الإنعام ، ورَدَّ على الناس الأموال التى فَضَلت فى بيت المال من مال المصادرات التى أُخِذَت فى أيام مباشرة الرّاهب . وأعاد أملاكًا كثيرة إلى أربابها ، وأَقْطَع الطائفة الحُجَرِيَّة ، التى لعبت دورًا هامًّا فى وصوله إلى قمة السلطة ، البلاد ، وأَكْرَم بَرْغَش الذى قَدَّمه إلى الوزارة وبالغ فى تعظيمه والإنعام عليه[٢].

وقد شهدت الدولة الفاطمية فى الفترة التى تولَّى فيها أبو على الأَفْضَل الوزارة ، فيما بين شهر ذى القعدة سنة ٥٢٤ والمحرم سنة ٥٢٦، وَضْعًا فريدًا لم يَسْبق له مثيل فى تاريخها ، وإن دَلَّ على شىء فإنما على ضعف الخلافة وفُقْدان الحماس لدعوتها . ففى البداية شارك وَلِيُّ العَهْد أبا على الأَفْضَل فى الحكم فترة قصيرة لم تتعد ، تبعًا لابن مُيَسَّر ، يومًا واحدًا[٣]. وحَفِظَت لنا مجموعة وثائق دير سانت كاترين سِجِلًّا بالغ الأهمية من حيث تاريخ صدوره والأشخاص المذكورين فيه ؛ فهو صادرٌ فى شهر ذى القعدة سنة ٥٢٤/ أكتوبر ١١٣٠ عن «وَلِيّ عهد المسلمين .....، وكافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين أبى على أحمد بن السَّيِّد الأجَلّ الأفضل أمير الجيوش» ، وقد ضاع اسم وَلِيّ العهد مع فاتحة السِّجِلّ وهو دون شك الأمير أبو الميمون عبد المجيد[٤]، ويكون التاريخ المحدّد

---

[١] ابن ميسر : أخبار ١١٥ وقارن النويرى : نهاية ٢٨ : ٢٩٧؛ المقريزى : الخطط ٢ : ٣٤٣، اتعاظ ٣ : ١٤٢، المقفى ١ : ٣٩٧؛ ابن حجر : رفع الإصر ١ : ٢٤٧؛ Allouche, A., «The Estabishment of Four Chief Judgeships in Fatimid Egypt» *JAOS* 105 (1985), pp. 317-320.

[٢] النابلسى : تجريد سيف الهمة ١٤٢؛ المقريزى : المقفى ١ : ٣٩٦ .

[٣] ابن ميسر : أخبار ١١٣؛ النويرى : نهاية ٢٨ : ٢٩٦؛ المقريزى : الخطط ٢: ١٧ .

[٤] نشر هذا السجل لأول مرة صمويل شتيرن سنة ١٩٦٠ Stern, S., M., «A Fatimid Decree of the year 524/ 1130», *BSOAS* 23 (1960), pp. 439-455; Stern, S., *Fatimid Decrees*, London 1964, pp. 35-45.

لصدور هذا السّجلّ هو اليوم الذى اشترك فيه عبد المجيد وأبو على فى إدارة الدولة.

هذه هى الإشارة الوحيدة التى تدل على اشتراك وَلِىّ العهد والوزير فى تدبير أمور الدولة ، فسرعان ما قَبَضَ الوزير أبو على على الأمير عبد المجيد واستأثر تمامًا بالسلطة وأقام الدعوة للاثنى عشرية وضَرَب دراهم باسم الإمام المنتظر نَقَشَ عليها « الله الصَّمَد - الإمام محمد »[١].

ومن حُسْن الحظ فقد وَصَلَت إلينا بعض آثار هذه الفترة الحَرِجَة فى تاريخ الدولة الفاطمية تدلُّنا على التحوُّلات المذهبية التى أدخلها أبو على الأَفْضَل على نظام الدولة. فقد نَشَرَ Soret فى عام ١٨٥٦ وَصْفًا لعملة فضية (دِرْهَم) ضُرِبَت فى مصر فى عام ٥٢٥هـ/ ١١٣١م تحمل اسم :

(أبو القاسم محمد المنتظر بأمر الله)[٢]

وفى عام ١٨٧٥ درس كل من Sauvaire وS.Lane-Poole مدلول اسم الإمام الثانى عشر على العُمْلَة المصرية[٣]، ثم نشر S.Lane-Poole بعد ذلك عملتين ذهبيتين (دينارين) من مقتنيات المتحف البريطانى ضُرِبَت الأولى فى القاهرة سنة ٥٢٥ باسم :

(أبو القاسم المنتظر لأمر الله أمير المؤمنين)[٤]

أما الثانية فضُرِبَت فى مصر فى سنة ٥٢٦ لا شك قبل السادس عشر من المحرم تاريخ مقتل أبى على الأَفْضَل ، باسم :

---

١ ابن الطوير : نزهة المقلتين ٣٢؛ ابن الفرات : تاريخ-خ٢ : ١٩و-١٩ظ ؛ ابن خلدون : تاريخ ٤: ٧٢؛ المقريزى : الخطط ١ : ٤٠٦، ٢ : ٣٤ والاتعاظ ٣: ١٤٠-١٤١ والمقفى ١: ٣٩٦ .

٢ Soret, M., «Lettre à M.C.J. Tornberg sur quelques monnaies de dynasties Alides», *Revue Archéologique* XIII (1856) pp. 134-135.

٣ Sauvaire & Lane-Poole, S., « The Name of the Twelfh Imam on the Coinage of Egypt», *JRAS* N.S VII (1857), pp. 140-51.

٤ Lane-Poole, S., *Cataogue of Oriental Coins in the British Museum,* IV-the Coinage of Egypt ..., London 1879, Introduction p.XII, p. 55 n° 228-229 ومن هذا الدينار نسختان أخرتان =

(الإمام المهدى القائم بأمر الله حُجَّة الله على العالمين

نائبه وخليفته الأفضل أبو على أحمد)[١]

وما جاء على هذا الدينار يتّفق مع ما أورده المؤرّخون من أن أبا على الأَفْضَل نَقَش اسمه على السّكّة نائبًا عن الإمام المنتظر[٢].

ومنذ خمسين عامًا نشر Paule Balog أربعة دنانير صادرة عن (المنتظر لأمر (بأمر) الله)، ثلاثة منها ضُرِبَت فى القاهرة والرابع فى مصر فى سنة ٥٢٥هـ[٣]. وأشار فى مقال نشره فى العام نفسه إلى دِرْهم صادر باسم هذا الإمام، وَصَفَه وحَلّ مشكلاته التاريخية E.V. Bergmann سنة ١٨٧٣م[٤].

وفى الوقت نفسه نَشَر M. Jungfleish عشرة أشكال زجاجية مُدَوَّرة (صِنَج) عليها اسم الإمام المنتظر بالصيغتين التاليتين:

(القاسم محمد المنتظر)

(حُجَّة الله ومعه؟ أبى القاسم المنتظر لأمر الله)

وكلها مؤرَّخة فى سنة ٥٢٥هـ[٥].

= إحداهما بالمكتبة الأهلية بباريس برقم ٤٣٩ ضربت بالإسكندرية والأخرى بدار الكتب المصرية برقم ١٢٦٨. وقد ظن الدكتور حسن إبراهيم حسن أن هذا الدينار ضرب باسم الإمام أبى القاسم الطيب وأن أتباعه اتخذوا من الإسكندرية مركزًا لحركتهم ومستقرًا لدعوتهم (تاريخ الدولة الفاطمية ١٧٦).

١ Lane-Poole, S., *op.cit.*, pp. 56-57 n° 230 .

٢ ابن ظافر: أخبار ٩٤؛ ابن خلكان: وفيات ٣: ٢٣٦.

٣ Balog, p., « Quatre Dinars du Khalife Fatimide al-Montazar li-Amr Illah ou bi Amr-Illah (525-526 A. C.)», *BIE* XXIII (1950-51), pp. 375-368 .

٤ Balog, p., «Nouvelles observations sur le thecnique du monnayage (Periode Fatimite et Ayoubite)», *BIE* XXXIII (1950), p. 16 .

٥ Jungfleish, M., «Jetons (ou Poids?) en verre de l'Imam el-Montazar», *BIE* XXXIII (1950-51), pp. 329-374; Miles, G., *Fatimid Coins in the Collection of the University Museum Philadelphie and the American Numismatic Society*, NY 1951, p. 44 .

وأخيرًا وُجِد فى مجموعة الدكتور هنرى أمين عوض بالقاهرة[1] درهم مؤرَّخ فى سنة ٥٢٦ باسم :

(الإمام محمد المنتظر لأمر الله)

(الله الصَّمَد)

وهو ما يَتَّفِق مع ما ذكره ابن الطُّوَيْر وابن خَلْدون وابن الفُرات والمقريزى[2].

الحــــافِظُ يعود إلى الحكْم

فى يوم الثلاثاء ١٦ محرم سنة ٩/٥٢٦ ديسمبر سنة ١١٣١ انتهى هذا الوضع الشاذ، عندما ثار غلمان الآمر وعلى رأسهم ناصر الجيوش يانِس[3]، وتمكَّنوا من قتل أبى على الأَفْضَل وهو يلعب الكرة فى الميدان الكبير خارج باب الفتوح، ثم أخرجوا الأمير عبد المجيد من الموضع المعتقل فيه بالقصر، وبايعوه على أنه «وَلِىّ عَهْد كفيل لمَنْ يُذْكر اسمه»[4]، فاتخذ عبد المجيد هذا اليوم عيدًا سمّاه «عيد النَّصْر»[5] ظل يُحْتَفَل به حتى نهاية الدولة. ووَصَلَ إلينا دينارٌ فريدٌ ضُرِبَ فى الإسكندرية سنة ٥٢٦، لاشك فى الفترة بين خروج عبد المجيد من الاعتقال (١٦ محرم) ومبايعته بالإمامة (٣ ربيع الآخر) باسم :

---

[1] محمد أبو الفرج العش : «مصر، القاهرة على النقود العربية الإسلامية»، أبحاث الندوة الدولية لألفية القاهرة، ٩٥١-٩٥٢ .

[2] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٣٢؛ ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٧٢؛ ابن الفرات : تاريخ-خ٢: ٢٠و، المقريزى : الخطط ١: ٤٠٦، ٢ : ٣٤٠، المقفى ١ : ٣٩٦ ظ .

[3] المقريزى : الخطط ٢ : ١٧ .

[4] ابن ظافر : أخبار ٩٥؛ ابن الطوير : نزهة ٣٣؛ ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٦٦٥، ٦٧٢- ٦٧٣؛ ابن ميسر : أخبار ١١٥- ١١٦؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ٨: ١٤٦- ١٤٧؛ ابن الفرات : تاريخ-خ ٢ : ٤١ ظ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٤٣، المقفى ١ : ٣٩٧- ٣٩٨؛ أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٢٤٧-٢٤٨ .

[5] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٣٤- ٣٥؛ المقريزى : الخطط ١ : ٣٥٧، ٣٥٩، ٤٩٠-٤٩١ .

(أبو الميمون عبد المجيد وَلِيّ عَهْد المسلمين)

الدَّعْـوَةُ الطَّـيِّبِية

كانت الفترة بين وفاة الخليفة الآمر فى ذى القعدة سنة ٥٢٤/أكتوبر ١١٣٠، وخروج الأمير عبد المجيد من معتقله فى المحرم سنة ٥٢٦/ديسمبر ١١٣١، وهى أربعة عشر شهرًا ، كافية للتأكُّد من نتيجة الحَمْل الذى أشار إليه الآمر قبل وفاته ، وتبعًا لما ذكره الشريف محمد بن أسعد الجَوَّانى ، ونقله المقريزى ، فإن امرأة الآمر وَضَعَت مولودًا ذكرًا ، وأن هذا المولود هُرِّب من القصر فى قُفَّة على وجهها سَلْق وكُرَّات إلى القَرافَة وكُتِم أمره ، فعُرِف لذلك بقُفَيْفَة[٢].

وفى حقيقة الأمر فإننا نجد أنفسنا مرةً أخرى أمام انقلاب سياسى آخر فى تاريخ الدعوة الإسماعيلية . فقد وَصَلَ إلينا نَصٌّ كبير الأهمية أورده ابن مُيَسَّر فى تاريخه[٣] يفيدنا أنه وُلِدَ للآمر ولدٌ ذكر قبل وفاته بثمانية أشهر فى شهر ربيع الأول سنة ٥٢٤/مارس سنة ١١٣٠ سمّاه أبا القاسم الطَّيِّب وجعله وَلِيّ عهده وبهذه المناسبة « زُيِّنَت مصر والقاهرة وعملت الملاهى فى الأسواق ... ولبست العساكر ... وأخرج الآمر من خزائنه وذخائره قماشًا وصياغات وأوانى ذهب وفضة ، فزُيِّن بها وعُلِّق الإيوان جميعه بالستور والسلاح واستمرت الاحتفالات أربعة عشر يومًا . وعملت العَقِيقَة للمولود ، وكان على الكَبْش الذى ذُبِحَ بحضرة الإمام جلّ ديباج وقلائد فضة ، وشَرُف القاضى محمد بن هبة الله بن

---

[١] Rogers Bey E. T., «Notices sur quelques pièces rares et inédites», *BIE* 20° série n.3 (1882), pp. 32-33; Lane-Poole, S., *Catalogue of the Khedival Library*, p. 195 n. 1269-70.

[٢] المقريزى : المقفى ٣ : ٥١٦، اتعاظ ٣ : ١٤٦، الخطط ٢ : ٤٤٨، قارن، ابن ميسر : أخبار ١٢٠؛ الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ٩٤ .

[٣] ابن ميسر : أخبار ١٠٩-١١٠ وقارن، عماد الدين الأصفهانى : البستان الجامع ١٢١- ١٢٢؛ النويرى : نهاية ٢٨: ٢٩٥؛ ابن الفرات : تاريخ -خ٢ : ١٧ (نقلا عن ابن أبى طَىّ)؛ المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٢٨ .

مُيَسَّر القَيْسَرانى بحمل المولود حتى عُقَّ عنه بحضرة الإمام ، ونثرت الدنانير على رءوس الناس ، وعُمِلَت الأسْمِطَة ، وكُتِبَ إلى الفيوم والشرقية والقليوبية بإحضار الفواكه فأحضرت وامتلأ الجو بدخان العود والعنبر »[١]، ولكن ابن مُيَسَّر لم يتعرَّض لذكر هذا الطفل أو مصيره مرة أخرى فى تاريخه ، وأشار فقط إلى أن الأمير عبد المجيد كَتَمَ أمر هذا الطفل بعد وفاة الآمر[٢].

ويؤيِّد هذا النَّص ويؤكِّد الوجود التاريخى للإمام الطَّيِّب بن الآمر سِجِلٌّ أرسله الخليفة الآمر إلى السَّيِّدة الحُرَّة فى اليمن يُبَشِّرها فيه بميلاد ابنه الطَّيِّب فى الليلة المصبحة ليوم الأحد الرابع من شهر ربيع الآخر سنة ٥٢٤/١٩ مارس سنة ١١٣٠ وحَفِظَ نَصَّ السِّجِلّ عمارة اليمنى والداعى عماد الدين إدريس[٣].

---

[١] ابن ميسر : أخبار مصر ١٠٩- ١١٠؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا ٣ : ١٢٨، المقفى الكبير ٧: ٣٩٩ .

[٢] نفسه ١١٣ .

[٣] عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ١٢٧- ١٢٩، عماد الدين إدريس : عيون الأخبار ٧ : ٩٧و-٩٧ ظ ، ويُلاحظ وجود اختلاف بين تاريخ هذا السجل والتاريخ الذى ذكره ابن ميسر !

ولم يَكُن هذا الإمام معروفًا البتّة للبحث التاريخى قبل أن يَنْشر كاى فى سنة ١٨٩٢ كتاب « تاريخ اليمن » لعمارة اليمنى Kay, H.C., *Yaman its Early Mediaeval History*, London 1892, p. 101 ولكن إشارة عمارة هذه لم تُكن كافية فيما يبدو لجَذْب الانتباه إلى وجود هذا الإمام إلى أن نَشَر ماسيه فى سنة ١٩١٩ كتاب « أخبار مصر » لابن ميسر (ص ٧٢) حيث أشار تفصيلا إلى ميلاد هذا الإمام والاحتفالات التى عَمَّت البلاد بهذه المناسبة ، وقد أشار إلى أهمية هذا النص فى تعليقه على نشره ماسيه (Wiet, G., *JA.*, XVIII (1921)p.112) ثم ألْقَت اكتشافات حسين همدانى عن التراث الإسماعيلى فى الهند كثيرًا من الأضواء على وجود هذا الإمام فى رسالته التى تقدم بها لجامعة لندن فى سنة ١٩٣١ بعنوان « تاريخ وعقائد الدعوة الإسماعيلية الطيبية فى اليمن » Hamdani, H., *Doctrines and History of the Isma'ili Tayyibi Daʿwa of al-Yaman*, Ph. D. Thesis, University of London 1931 (Unpublished) ولم أتمكن من الإطلاع عليها . ثم نشر كلود كاهن فى سنة ١٩٣٨ قسمًا من كتاب « البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان » لعماد الدين الأصفهانى (؟) يبدأ بحوادث سنة ٥٠١ هـ وأشار مؤلفه إلى ميلاد هذا الإمام واعتقاد بعض المصريين فيه ! (Cahen, Cl., «Une Chronique Syrienne du VI/XII siècle», *BEO* VIII (1937-38), p.121) ثم اتَّضَحَت لنا الصورة بوضوح بالمقال الجَلِيّ الذى نشره صمويل شتيرن سنة ١٩٥١ عن الخلفاء الإمام الآمر والدعوة الطيبية Stern, S., «The Succession of the Fatimid Imam al-Amir», *Oriens* IV (1951) pp. 193-243 ثم دَرَسَ حسين همدانى فى كتابه « الصُّلَيْحيُّون والحركة =

وبناء على هذا السِّجِلّ لم يصبح لدى أتْباع الدعوة المستعلية أىُّ شك فى مولد الإمام الطَّيِّب ، الذى أخرجه "الدُّعاة وكبار المؤمنين - كما تذكر الرِّواية اليمنية - من مصر وهَرَّبوه إلى اليمن بعد قيام أبى على الأَفْضَل بانقلابه[1]. غير أن هذه الرِّواية لم تُشر إلى مصير هذا الطفل الذى أصبح رأس دعوة إسماعيلية جديدة اعترف بها إسماعيلية اليمن والهند .

وفى القاهرة قرئ سِجِلٌّ فى ٣ ربيع الآخر سنة ٥٢٦هـ/٢٣ فبراير سنة ١١٣٢م بمبايعة الأمير عبد المجيد إمامًا وتلقيبه بـ « الحافظ لدين الله »[2]، فركب من باب العيد إلى باب الذَّهَب بزىّ الخلفاء ، ورَفَعَ عن الناس بواقى مَكْس الغَلَّة وأمر أن يدعا على المنابر « اللّهم صلى على الذى شيَّدت به الدين بعد أن رام الأعداء دثوره ، وأقررت الإسلام بأن جعلت طلوعه على الأمة وظهوره آية لمن تَدَبَّر الحقائق بباطن البصيرة مولانا وسيدنا وإمام عصرنا وزماننا عبد المجيد أبى الميمون وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين صلاة دائمة إلى يوم الدين »[3]، وأصبح بذلك أوَّل خليفة فى تاريخ الدولة الفاطمية لم يكن أبوه إمامًا

= الفاطمية فى اليمن » ، القاهرة ١٩٥٥، ١٨٢-١٩٢ الدعوة الطيبية وأنصارها فى اليمن . وفى سنة ١٩٥٨ نَاقَشَ المرحوم الدكتور جمال الدين الشيال الوجود التاريخى للإمام الطيب معتمدًا فى الأساس على مخطوطة كتاب « اتعاظ الحنفا » للمقريزى التى لم تكن قد نُشِرَت بعد (الشيّال : مجموعة الوثائق الفاطمية ١ : ٧٤-٨٦) وإن أشار شتيرن بعد ذلك إلى أن المادة الموجودة عند الشيال وذكر أنها جديدة ليست جديدة تمامًا وأنه أَخَذَهَا من مقَالِه سالف الذكر Stern, S., *Fatimid Decrees*, London 1964, pp. 43-45 n.l. ثم درس كاتب هذه السطور الدعوة الطيبية وأدبها فى كتابه « تاريخ المذاهب الدينية فى بلاد اليمن حتى نهاية القرن السادس الهجرى » ، القاهرة-الدار المصرية اللبنانية ١٩٨٨، ١٧١-٢٠٦ .

[1] عماد الدين إدريس : نزهة الأفكار مخ . همدانى) ٣٨ و . وراجع عن نظام الإمامة عند الإسماعيلية الطيبية ، أيمن فؤاد سيد : المرجع السابق ١٩٠- ١٩٤؛ Madelung, *EI*^{2} art. *Imâma* III, p. 1192 .

[2] عن فترة إمامة الحافظ راجع ، ابن ظافر : أخبار ٩٤- ١٠١؛ ابن الطوير : نزهة المقلتين ٢٦- ٥٣؛ ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٦٦٥؛ ابن خلطان : وفيات ٣ : ٢٣٥- ٢٣٦؛ ابن ميسر : أخبار ١١٣- ١٤١؛ النويرى : نهاية-خ٢٨ : ٢٩٦- ٣١٠؛ ابن أيبك : كنز الدرر ٦ : ٥٠٦- ٥٠٤؛ الصفدى : الوافى ١٩ : ١٢٦- ١٢٧؛ ابن الفرات ، تاريخ-خ٢ : ١٧- ١٨، ٤٢؛ المقريزى : الخطط ١ : ٣٥٧، اتعاظ ٣ : ١٣٧- ١٩٢؛ أبا المحاسن النجوم ٥ : ٢٣٧- ٢٤٥؛ Magued, A. M., *EI*^{2} art. *al-Hâfiz* III, p. 56-57 .

[3] ابن ميسر : أخبار مصر ١١٧؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا ٣ : ١٤٦ .

ويدور هذا السِّجِلّ، الذى حفظه لنا القلقشندى[١]، حول فكرة أن الآمر - الإمام المنتقل - أوصى بالإمامة إلى ابن عمه عبد المجيد، تمامًا مثلما عَقَدَ النبى ﷺ الولاية لابن عمه على بن أبى طالب فى غدير خُمّ. ويشير السِّجِلّ كذلك إلى تسمية الحاكم بأمر الله لابن عمه عبد الرحيم بن إلياس ولىّ عهد المسلمين. وتقصد هذه الوثيقة الهامة إلى التدليل على شرعية إمامة الحافظ لدين الله على أساس «نَصّ» مزعوم قال به الآمر ولتصبح بذلك دليلًا على شرعية إمامة الخلفاء الفاطميين المتأخّرين[٢].

والواقع أن الاعتراف بإمامة الحافظ يعد خروجًا على أُسُس نظام الإمامة عند الإسماعيلية، الذى يشترط أن تكون الإمامة دائمًا فى الأعقاب، ففى المرات القليلة التى خُرِجَ فيها عن هذه القاعدة كانت الإمامة تنتقل فقط من الابن الأكبر إلى أخيه الأصغر (عبد الله والعزيز نزار والمُسْتَعْلى بالله)، ولكنها لم تخرج أبدًا من الأعقاب، لذلك فقد عمد بعض الدُّعاة إلى تبرير صِحّة إمامة الحافِظ فى أكثر من مناسبة، فينقل المقريزى على لسان داعى الدُّعاة إسماعيل بن سلامة الأنصارى قوله: «لولا أن مولانا الآمر نَصَّ على مولانا الحافِظ رأودعه سِرّ الخلافة لما ثَبَتَت فيه ولا استجاب له الناس»[٣]!

وبذلك انقسمت الدَّعْوَة الإسماعيلية فى مصر على نفسها مرة ثانية فى أقل من خمسين عامًا إلى: «طَيِّبِيّة» نسبة إلى الإمام الطَّيِّب بن الآمر الذى اعترف بإمامته كل الطائفة الإسماعيلية فى اليمن والهند استمرارًا للدَّعْوَة المستعلية، و«حافِظية» أو «مجيدية» نسبة إلى الحافظ عبد المجيد تمتّعت بتأييد مؤسّسة الدعوة فى مصر وقَبِلَها أغلبُ الإسماعيلية المستعلية فى مصر والشام. وبقيت مع ذلك بعض جماعات من مستعلية مصر والشام تَبَنَّت حقوق الإمام الطَّيِّب وعُرِفوا «بالآمرية».

---

[١] القلقشندى: صبح ٩: ٢٩١-٢٩٧ وراجع الشيال: مجموعة الوثائق الفاطمية ٧١-١٠٢، ٢٤٩-٢٦٠.

[٢] Sanders, p., «Claiming the Past: Ghadir Khumm and the Rise of Hâfizî Historiography in Late Fatimid Egypt», *SI* 75 (1992). pp. 81-104.

[٣] المقريزى: اتعاظ ٣: ١٦٩.

وقد تجاهلت كُتُبُ التاريخ التى كتبت فى مصر فى عهد الحافِظ لدين الله وما بعده أمر الإمام الطَّيِّب ولم تُشر إليه إطلاقًا ، فيما عدا إشارة ابن مُيَسَّر التى جاءت بعد هذه الأحداث بأكثر من مائة وثلاثين عامًا .

وبعد هذا الانقسام أصبحت هناك ثلاث دَعْوات إسماعيلية فى العالم الإسلامى ، قُدِّر لاثنتين منها الاستمرار والقيام بنشاط سِرّى أنتج الكثير من أدب الدَّعْوَة : الدَّعْوَة الطَّيِّبية المستعلية فى اليمن وغرب الهند ، والدَّعْوَة النِّزاريَّة الحشيشية فى الشام وإيران وشمال الهند . أما الدَّعْوَة الحافِظية فقد قضى عليها بسقوط الخلافة الفاطمية فى مصر وعودة مصر مرة أخرى إلى أحضان العالم الإسلامى السُّنِّى [١].

[١] عن تاريخ الحركة الإسماعيلية بعد سقوط الفاطميين (الإسماعلية الطَّيِّبيَّة والإسماعيلية النِّزارية) راجع ، Daftary, F., *The Ismāʿilis.*, pp. 256-534، ودراسة عارف تامر ، التى يغلب عليها الطابع الدعائى ، : تاريخ الإسماعيلية ، ١ - ٤، لندن-رياض الريس للكتب والنشر ١٩٩١، ٤ : ٦٧-١٣٩ .

الفصل السابع
بداية التدهور

شهدت السنوات الأربعون الأخيرة في عمر الدولة الفاطمية في مصر تطوُّرات خطيرة متتالية قادت إلى تدهورها وعَجَّلَت بسقوطها . فقد انحصر نفوذُ الخلافة نهائيا داخل حدود مصر وانفصل عنها بقية أتباعها الذين لم يعترفوا بأحقية الحافِظ وخلفائه في الإمامة . وبذلك حَكَمَ الخلفاءُ الأربعة الأواخر في القاهرة كأسرة حاكمة مصرية محلية بلا سُلْطَة أو نفوذ أو أمل . ولم تجر أيَّة محاولة لمدِّ نفوذ الفاطميين خارج الحدود المصرية ، إذا استثنينا محاولة الخليفة الحافِظ نَشْر دعوته لدى الزُّرَيْعيين[1] - حُكّام عَدَن - الذين أجابوه إليها ، وكان هدفُه من وراء ذلك ضمان السيطرة على طُرُق التجارة المؤدية إلى الهند .

الحَـــافِظ وأولادُه

أصبح الوزراءُ منذ بدر الجمالي هم السَّادة الحقيقيون للدولة الفاطمية . ولكن الحافِظ - الخليفة الوحيد بين الفاطميين المتأخِّرين الذى كان رجلًا راشدًا وقت اعتلائه العَرْش - تنبَّه إلى ذلك وحرص على تقليص نشاط وزرائه . فبعد أن تَخَلَّص ، في نهاية عام

---

[1] الزُّرَيْعيون . أسرة يمنية محلية يرجع أصلها إلى قبيلة هَمدان ، كان لجدهم الأعلى العبّاس بن الكرم (المكرم) سابقة محمودة في قيام الدعوة الفاطمية مع الداعي على بن محمد الصُّلَيْحي . وقد ولى المكرم أحمد الصُّلَيْحي عباسًا ومسعودًا ابنى المكرم حكم عدن من قبل الصُّلَيْحيين . وقد بدأ الاستقلال الفعلى لهذه الأسرة عن سلطة الصُّلَيْحيين في وقت سبأ بن أبي السعود ، ولما استمالهم الحافظ للدعوة له أطلق على سبأ لقب الداعي حتى توفي سنة ٥٣٢هـ/ ١١٣٩م . ثم وصل إليهم القاضي الرشيد أحمد بن على بن إبراهيم بن الزبير الأسواني سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م لإقامة الدعوة باسم الحافظ . (راجع ، أيمن فؤاد سيد : تاريخ المذاهب الدينية في بلاد اليمن ١٨٧-١٩٠) .

٥٢٦هـ/١١٣٢م، من وزيره أمير الجيوش سيف الإسلام أبى الفتح يانِس الحافِظى[١] - الذى قام بدور كبير فى القضاء على أبى على الأفْضَل ومبايعة الحافِظ بالإمامة - بعد أن أمضى فى الوزارة أقل من عام[٢]، لم يتَّخذ الحافِظ بعده وزراء لفترة تجاوزت العام.

وفى عام ٥٢٨هـ/١١٣٣م عَقَدَ الحافِظُ ولاية عهده إلى ابنه الأكبر أبى الربيع سليمان وأقامه مقام وزير «ليستريح من مقاساة الوزراء وجفائهم عليه ومضايقاتهم إيّاه فى أوامره ونواهيه»[٣]. ولكن سليمان توفى بعد ذلك بشهرين، فترشَّح لولاية العهد ابنه التالى حسن، إلّا أن الحافظ عَدَلَ عنه إلى ابنه الأصغر أبى تراب حَيْدَرَة. وحَفِظَ لنا القلقشندى سِجِلَّ مبايعة الحافِظ لولده حَيْدَرَة بولاية عهده والذى أمره فيه أن يَتَخَيَّر من رجال دولته ووجوه أجناده وشيعته طائفةً تنتمى إليه تسمى بـ«الطائفة العَهْدِيَّة» تظل موقوفة على خدمة وَلِىّ العهد حَيْدَرَة، وهى أوَّل مرة يقابلنا فيها إنشاء طائفة مماثلة فى العصر الفاطمى[٤]. وكان الحافِظُ قد عَدَلَ بولاية عهده عن ابنه الثانى الحسن إلى ابنه الأصغر حَيْدَرَة، لأنه لم يستصلحه لذلك بسَبَب عِقوقه لوالده، فشَقَّ ذلك على حسن

---

[١] أحد غلمان الأفضل شاهنشاه، تقدّم فى الترتيب حتى أصبح «صاحب الباب»، وهى ثانى رتبة الوزارة حينئذ، وكان يقال لها «الوزارة الصغرى». وتنسب إليه إحدى طوائف الجند المعروفة «بالطائفة اليانسية». (ابن الطوير : نزهة المقلتين ٣٥- ٣٦، ١٢٢؛ ابن ظافر : أخبار ٩٨؛ ابن ميسر : أخبار ١١٧- ١١٨؛ ابن الأثير : الكامل ١٠: ٦٧٣؛ النويرى : نهاية ٢٨: ٢٩٩؛ ابن أيبك : كنز الدرر ٦ : ٥٠٩؛ ساويرس : تاريخ البطاركة ٣/١ : ٢٨؛ ابن الفرات : تاريخ ٢ : ٤٢ ظ-٤٣ ز؛ المقريزى : الخطط ٢ : ١٦- ١٧، الاتعاظ ٣ : ١٤٤- ١٤٥؛ أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٢٤٠).

[٢] اعتقل فى ٢ ذى القعدة وتوفى فى ٢٦ ذى الحجة سنة ٥٢٦؛ وانظر القلقشندى : صبح الأعشى ٩ : ٢٩٧.

[٣] ابن ميسر : أخبار ١٢١؛ ابن الطوير : نزهة ٣٧؛ ابن الفرات : تاريخ ٢ : ٥٧ ظ؛ المقريزى: اتعاظ ٣ : ١٤٩، المقفى ٣ : ٤١٦.

ويوجد فى سوهاج بصعيد مصر نقش مؤرخ فى المحرم سنة ٥٢٩ باسم «ولى عهد المؤمنين... سليمان بن الإمام الحافظ لدين الله أمير المؤمنين» (Wiet, G., *RCEA* VIII, p. 193 n. 3071).

[٤] القلقشندى : صبح ٩ : ٣٧٧- ٣٧٩؛ الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ٢٦٣-٢٦٥ والدراسة التحليلية ١٠٣- ١٠٧.

لأنه كان يَتَطَلَّع إلى هذا المنصب « لكثرة أمواله وبلاده وحواشيه وموكبه بحيث كان له ديوان مفرد »[1].

وفى سبيل تحقيق ذلك قام حسن بثورة خطيرة بدأت يوم الأربعاء ١٥ رمضان سنة ٥٢٨هـ/٩ يولية ١١٣٤م، افترق فيها الجند فريقين : فالفرقة الرَّيْحانية تساند حَيْدَرة صاحب الحق ، والفرقة الجُيُوشية تساند حسن المتطَلِّع إلى المنصب . ولم يجد الحافظُ وسيلةً لإيقاف هذه الثورة إلَّا مُدارَة ابنه الحسن ، فكتب له سِجِلًّا بولاية عهده أرسله إليه وقرئ على المنابر يوم ٢٦ رمضان سنة ٥٢٨هـ/٢٠ يولية ١١٣٤م[2] « فتمكَّن حسن من الدولة وتَصَرَّف فيها حتى لم يبق لأبيه معه حكم ألبَتَّة » كما يقول ابن مُيَسَّر[3]. وأمر الحسن أن يُدعى له على المنابر بالدعاء التالى : « اللَّهم شَيِّد ببقاء وَلِيّ عَهْد المسلمين أركان خلافته وقَلِّده سيوف الاقتدار فى نَصْره وكفايته ، وأعِنْه على مصالح بلاده ورعيته ، واجمع شمله به وبكافة السادة إخوته الذين أطلعتهم فى سماء مملكته بدورًا لا يغيّرها المحاق ، وقَمَعْت بيأسهم كل مُرْتَدّ من أهل الشقاق والنِّفاق ، وشَدَدْت بهم أَزْر الإمامة ، وجعلت الخلافة فى عقبهم إلى يوم القيامة برحمتك يا أرحم الراحمين »[4].

يقول ابن ظافِر : إن حسن كان يرى رأى السُّنَّة ، ولما قوى أمره أراد قتل أمراء الدولة وسجن أبيه والتضييق عليه . فلما علم أمراء الدولة بذلك حضروا إلى بين القصرين وعزموا على خَلْع الحافِظ وولده . فراسلهم الحافِظ وعَرَّفَهم مكانتهم عنده وأنه قد غُلِبَ على أمره . فأرادوا قتل الحسن ، ولكن أباه أمهلهم وأحضره إليه فى القصر واحتاط عليه ، غير أن الأمراء لم يرضوا بديلًا عن قتله وأنذروا الحافِظ بأنه إن لم يُنَفِّذ طلبهم خلعوه وولوا

---

[1] ابن الطوير : نزهة ٣٧؛ ابن الفرات : تاريخ-خ٢ : ٥٧ ظ؛ المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٤٩، المقفى ٣: ٤١٦.
[2] المقريزى : المقفى ٣ : ٤١٦ .
[3] ابن ميسر : أخبار ١٢٠ .
[4] ابن ظافر : أخبار ٩٦ .

غيره . فاضطر الحافِظ إلى سَمّ ولده عن طريق شُقْيَة وَصَفَها له ابن قِرْقَة اليهودى الطبيب . وأرسل الأمراء مندوبين عنهم إلى القصر لمشاهدته ، ولم يتأكّدوا من وفاته إلا بعد أن طعنه أصدهم فى مواضع من جسده تحقق بعدها من وفاته[١] . وبذلك انتهت هذه الفِتْنَة التى قُتِلَ فيها نحو عشرة آلاف نفس ، وكانت كما يقول المقريزى : « أوّل مصيبة نزلت بالدولة من فَقْدِ رجالها ونَقْص عدد عساكرها »[٢] .

وزارَةُ بَهْــرام الأرْمَنى

كان الأمير حسن أثناء الأزمة قد راسل بَهْرام الأَرْمَنى النَّصْرانى – والى الغربية– ليصل إليه بالأرْمَن ليعزِّز موقفه بهم[٣] . فلما قرب بَهْرام من القاهرة كان الأمير حسن قد قُتِل ، فتمسَّكت طائفةُ الأجناد ، الذين حملوا الحافِظ على قتل ابنه ببَهْرام وأدخلوه على الحافظ وألزموه أن يولّيه الوزارة[٤] ، فلم يجد بدًا من إجابتهم خوفًا من أن تثور الفِتَن مرة أخرى . فخَلَعَ عليه خِلَع الوزارة يوم الجمعة ١٦ جمادى الآخرة سنة ٥٢٩هـ/ مارس سنة ١١٣٥م ونعته بـ« السَّيِّد الأجَلّ ، أمير الجيوش سيفُ الإسلام ، تاج الخلافة (الدولة) ، ناصر الإمام ، غَيَاث الأنام ، أبى المُظَفَّر بَهْرام الحافظى » وهو باق على دين

---

[١] راجع ، ابن ظافر : أخبار ٩٦– ٩٧؛ ابن الطوير : نزهة ٣٧– ٤١؛ ابن القلانسى : ذيل ٢٤٢؛ عماد الدين الأصبهانى : البستان الجامع ١٢٣؛ أبو صالح : تاريخ ٢٦، ٥٤ و، ساويرس : تاريخ البطاركة ١/٣ : ٢٨– ٣٠؛ ابن الأثير : الكامل ١٠: ٦٧٣، ١١ : ٢٢– ٢٣؛ ابن ميسر : أخبار ١١٩– ١٢٢؛ ابن أيبك : كنز الدرر ٦ : ٥١٤– ٥١٥؛ النويرى : نهاية ٢٨ : ٢٩٩– ٣٠٠؛ الصفدى : الوافى ١٢ : ٩٤؛ ابن الفرات : تاريخ ٢ : ٤٣ ظ–٤٤ و، ٧٨ و–٦٠ و؛ المقريزى : الخطط ٢ : ١٧– ١٨، اتعاظ ٣ : ١٤٩– ١٥٥، المقفى ٣ : ٤١٦– ٤١٨، أبا المحاسن : النجوم ٥: ٢٤١–٢٤٢ .

[٢] المقريزى : المقفى ٣ : ٤١٨، اتعاظ ٣ : ١٤٩ .

[٣] ابن الطوير : نزهة ٣٨؛ ابن ميسر : أخبار ١٢١؛ ابن الفرات : تاريخ ٢ : ٥٨ ظ ؛ أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٢٤٣ وقارن المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٥٤ .

[٤] ساويرس : تاريخ البطاركة ١/٣ : ٢٩، المقريزى : المقفى ٢ : ٥١٣ .

النصرانية ، فأصبح بذلك أوّل نَصْرانى يتولّى وزارة تفويض للفاطميين [١]. وقد أشار كبراء رجال دولة الحافظ عليه بألّا يُوَلّيه الوزارة لأنه نَصْرانى ، وأن من شَرْط الوزير أن يرقى مع الإمام المنبر فى الأعياد ، كما أن القضاة هم نُوّاب الوزراء من زمن أمير الجيوش ، فلم يأخذ بنصيحتهم وجَعَلَ القاضى ينوب عنه فى صعود المنبر ، ولم يَرُدّ إليه شيئًا من الأمور الشرعية [٢]، فكان يقعد فى يوم الجمعة عن الصلاة ويعدل إلى مكان بمفرده إلى أن تنقضى الصلاة [٣].

ومعلوماتنا عن بَهْرام مصدرها ابن الطُّوَيْر وابن مُيَسَّر ومَوْهوب بن منصور ، وتفيدنا أنه وصل إلى مصر من جملة الأرْمَن الذين جاءوا مع بدر الجمالى ، وأن أصله من قلعة الروم وتل باشر . وقد بدأت هجرة الأرْمَن بعد أن وَضَعَ البيزنطيون أيديهم على أرمينية فى أواسط القرن الخامس الهجرى /الحادى عشر الميلادى . ومنذ وصول بدر الجمالى إلى قمة السلطة بدأ توافد الأرْمَن فى أعداد كبيرة إلى مصر . وقد شَجَّعَ التسامح الدينى المعروف عن الفاطميين - والخمسون عامًا التى أمضاها بدر الجمالى وولده الأَفْضَل فى الحكم - هجرة الأرْمَن التى أخذت فى التزايد إلى القاهرة [٤]، وقد أقام الأرْمَن فى القاهرة فى حَىّ الحُسَيْنيّة خارج باب الفُتوح [٥].

وفى فترة وزارة بدر الجمالى وَصَلَ إلى مصر البَطْرَك الأرْمَنى أغريغوريوس نحو سنة ٤٧٢هـ/ ١٠٧٩م حيث أحسن بدر الجمالى والخليفة المستنصر استقباله . وقد أَقْطَع بدر الجمالى للأرْمَن - فى أوّل الأمر - طُرا جنوب الفُسْطاط فجدَّدوا فيها كنيسة مارى

---

[١] ابن الطوير : نزهة ٤٤؛ ابن ميسر : أخبار ١٢٢؛ المقريزى : المقفى ٢ : ٥١٣؛ ابن ظافر : أخبار ٩٧؛ النويرى : نهاية ٢٨ : ٣٠١؛ Stern, S.M., *Fatimid Decrees*, p. 59 .

[٢] ابن الطوير : نزهة ٤٤؛ ابن ميسر : أخبار ١٢٣؛ النويرى : نهاية ٢٨ : ٣٠٠- ٣٠١، الفرات : تاريخ ٢ : ٦٠، والمقريزى : المقفى ٢ : ٥١٤، واتعاظ ٣ : ١٥٦ .

[٣] المقريزى : المقفى ٢: ٥١٤ .

[٤] Canard, M., « Notes sur les Armeniens en Egypte à l'époque fatimide», *AIEO* XIII (1955), p. 145 .

[٥] ابن الطوير : نزهة ٤٦؛ ابن ميسر : أخبار ١٢٥؛ ساويرس : تاريخ بطاركة الكنيسة ٣/١ : ٢٠-٢٩ .

جرجس[١] ثم بنوا كنيسة أخرى بأرض الزُّهْرى (بالقرب من السيدة زينب الحالية) نهبها العامة عندما ثاروا على الأرْمَن عام ٥٣١هـ/١١٣٣م[٢]. وهذا البَطْرك هو دون شك أخو بَهْرام بما أن قبره قد نبشته العامة وقت ثورتهم ضد الأرْمَن[٣]. وعلى ذلك فيُفْتَرضَ أن عمر بَهْرام كان عند قدومه إلى مصر نحو ثمانية عشر عامًا، وأنه تولّى الوزارة وله من العمر ثمانون عامًا وتوفى عام ٥٣٥هـ/١١٤٠م عن خمسة وثمانين عامًا[٤].

ولاشك أن الوزراء ذوى الأصل الأرْمَنى الذين تولّوا منذ بدر الجمالى قد أحاطوا أنفسهم بجنود من الأرْمَن، وشجّعوا هجرة الأرْمَن لهذا الغرض، ومن المحتمل أن تكون الطائفة الجيوشية (نسبة إلى أمير الجيوش بدر) تتألّف فى أغلبها من الأرْمَن[٥]. كذلك فإن أبا الفتح يانِس - آخر وزير أَرْمَنى قبل بَهْرام - كانت تُنْسَب إليه الطائفة اليانِسية التى كانت مكوّنة فى أغلب الظن أيضًا من الأرْمَن[٦]. وربما انتمى بَهْرام إلى إحدى هاتين الطائفتين قبل أن يصبح « مُقَدَّم الأرْمَن »[٧].

وقد أخذ بَهْرام يتقدَّم فى الخِدَم طوال خمسين عامًا حتى استقرّ واليًا على الغربية - وقاعدتها يومئذ المحلة - التى سار منها إلى القاهرة حيث استوزره الحافظ[٨]. وبعد أن استقر بَهْرام فى السلطة لم يتردَّد فى تَبَنِّى سياسة شخصية أرمنية مسيحية أدَّت إلى سقوطه فى نهاية الأمر. فقد سأل الخليفة الحافظ فى السماح له بإحضار إخوته وأهله من تَلّ باشر

---

١ أبو صالح : تاريخ ٦١؛ ساويرس : تاريخ البطاركة ١/٣ : ٢٩ .

٢ ابن الطوير : نزهة ٤٦، ساويرس : تاريخ ١/٣ : ٣١ .

٣ نفسه ٤٦، ابن ميسر : أخبار ١٢٥ .

٤ Canard, M., *op.cit.*, p. 144.

٥ رغم أن أبا صالح الأرمنى أن يذكر أن الجيوشية كانت طائفة من الرجال السودان ! (تاريخ ٣٤، ٤٣، ٤٤) .

٦ Canard, M., « Un vizir chrétien à l'épopue fatimide : l'armenien Bahram» *AIEO* XII (1954), p. 93.

٧ ابن القلانسى : ذيل ٢٦٢؛ ساويرس : تاريخ البطاركة ١/٣ : ٢٩ .

٨ ابن ميسر : أخبار ١٢٢-١٢٣؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا ٣ : ١٥٦؛ Dadoyan, S.B., *The Fatimid Armanians-Cultural and Political Interaction in the Near East*, pp. 90-105.

(مسقط رأسه) وبلاد الأرْمَن ، فأذن له فى ذلك ، حتى صار منهم بالديار المصرية نحو ثلاثين ألف إنسان استطالوا على المسلمين وأصابهم منهم جَوْر عظيم . كذلك بُنى فى أيامه العديد من الكنائس والأديرة حتى صار كل رئيس من الأرْمَن يبنى له كنيسة « وخاف أهل مصر منهم أن يُغَيِّروا مِلَّة الإسلام »[١].

وفى إطار هذه السياسة أصبح أغلب ولاة الدواوين من النَّصارى[٢]، كذلك وَلَّى بَهْرام أخاه المعروف بالباساك ولاية قُوص ، وهى يومئذ أعظم ولايات مصر ، فاستقوى بأخيه وتمادى فى ظُلْم المسلمين ومصادرة أموالهم[٣].

الاستنجاد برِضْوان بن وَلَخْشى ونهاية بَهْرام

لم يرض أهل مصر وأمراؤها بهذا الوضع الشاذ[٤] فكتبوا إلى رِضْوان بن وَلَخْشى ، والى الغربية ، يستنهضونه للقدوم عليهم وإنقاذهم من سيطرة النَّصارى . وفور أن وصلت إليه كتب الأمراء صَعَدَ المنبر وخَطَبَ فى الناس خُطْبَةً بليغةً حَثَّهم فيها على « الجِهاد » ، وأخذ فى حَشْد العُرْبان حتى اجتمع له نحو ثلاثين ألف فارس سار بهم تجاه القاهرة[٥]. وعندما خرج بَهْرام لملاقاته رَفَعَ جنودُ رِضْوان المصاحف على أسِنَّة الرِّماح فما هى إلَّا بُرْهَة

---

[١] ابن ميسر : أخبار ١٢٤؛ النويرى : نهاية ٢٨ : ٣٠١-٣٠٢؛ المقريزى : المقفى ٢ : ٥١٤، اتعاظ ٣ : ١٥٩؛ .Dadoyan, S. B., *op.cit.*, pp. 86-87

[٢] أهم من تولى الدواوين من النصارى فى زمن بهرام ، صنيعة الخلافة أبو الكرم الأخرم بن أبى زكريا النصرانى . (ابن الطوير : نزهة المقلتين ٧٩-٨٠؛ ابن ميسر : أخبار ١٢٩؛ المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٦٥، ١٨٤).

[٣] نفسه ١٢٥؛ المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٦٥ .

[٤] انظر ما جاء فى السجل الذى كتب به الحافظ ردًّا على طلب بهرام الأمان موضحًا غضب المسلمين على توليية الوزارة (القلقشندى : صبح الأعشى ٨: ٢٦١) .

[٥] ابن الطوير : نزهة ٤٤-٤٧؛ ابن ظافر : أخبار ٩٨؛ ابن الأثير : الكامل ١١ : ٤٨؛ ابن ميسر : أخبار ١٢٤-١٢٥ ساويرس : تاريخ البطاركة ٣/١ : ٣٠؛ النويرى : نهاية ٢٨ : ٣٠٢؛ ابن الفرات : تاريخ ٢ : ٦١ و؛ المقريزى : المقفى ٢ : ٥١٤، الخطط ١ : ٢٠٥، اتعاظ ٣ : ١٦١ .

حتى ترك المسلمون جيش بَهْرام والتجئوا بأجمعهم إلى جيش رِضْوان ، بناءً على اتفاق بين الأمراء ورِضْوان . وعندما رأى بَهْرام ذلك بعث إلى الخليفة يُعَرِّفه بما جرى ، فخاف من عاقبة هذه المواجهة وأشار عليه بالتوجُّه إلى قُوص والاحتماء بأخيه الباساك هناك [١].

كان خبرُ قدوم رِضْوان وإعلانه الجهاد ضد النَّصارى قد سبق بَهْرام إلى قُوص ، فالتفَّ أهلُها على الباساك وقتلوه وطرحوه فى النهر ، فاضطر بَهْرام أن يسير مع أصحابه من الأَرْمَن إلى أُسْوان ليتقوَّى بأهل النوبة ، وهم نصارى ، ضد رِضْوان [٢]. وقد بعث رِضْوان ، الذى تولَّى الوزارة فور دخوله القاهرة ، جيشًا على رأسه أخيه ناصر الدين الأَوْحَد إبراهيم لمطاردة بَهْرام [٣]. ولكن اتفاقًا وُدِّيًا بين الخليفة وبَهْرام أمَّنه فيه على نفسه وأقاربه ، وبتدخُّل صريح من روجر الثانى Roger II ملك صقلية ، أوقف هذه الحملة ، وأقَرّه فيه على الإقامة فى الأديرة البيض بالقرب من إِخْميم [٤] حيث بقى بها إلى سنة ٥٣٣هـ/ ١١٣٩م ، بينما خُيِّر أهله فى الإقامة فى مصر أو الخروج منها إلى بلدهم تَلّ باشِر [٥]. وبما أن الخليفة كان مستاءً من رِضْوان وتصرفه ، فقد أرسل فى سنة ٥٣٣هـ/ ١١٣٩م ، فى إحضار بَهْرام وأسكنه معه فى القصر يشاوره فى تدبير الدولة ، مما أغضب رِضْوان واضطره إلى الهرب [٦].

وعندما توفى بَهْرام فى القصر فى ٢٤ ربيع الثانى سنة ٥٣٥هـ/٧ ديسمبر

---

١ نفسه .

٢ نفسه وكذلك : Garcin, J. Cl., *Un centre musulman de la Haute-Egypte médiéval: Qûs*, pp. 85-86.

٣ ابن ميسر : أخبار ١٢٦؛ المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٦١؛ النويرى : نهاية ٢٨ : ٣٠٣ .

٤ أبو صالح : تاريخ ١٠٦؛ ابن الأثير : الكامل ١١ : ٤٨ . وانظر نص الأمان الذى كتبه الحافظ لبهرام وأقاربه عند ، القلقشندى : صبح ١٣ : ٣٢٥-٣٢٦ . وكذلك شرح الحافظ موقفه من بهرام فى رسالة بعث بها إلى روجر الثانى ملك صقلية أوردها القلقشندى : صبح ٦ : ٤٦٠- ٤٦٣، ودراسة كانار Canard, M., « Une lettre du calife fatimide al-Hafiz à Roger II» dans *Atti del Convergno Internazionale di Studi Ruggeriani*, Palerm 1955, pp. 126-146.

٥ ابن ميسر : أخبار ١٢٦ .

٦ نفسه ١٣٠- ١٣١؛ ابن القلانسى : ذيل ٢٧٠؛ ابن ظافر : أخبار ٩٩، النويرى : نهاية ٢٨: ٣٠٤- ٣٠٥.

١١٤٠م ، حزن عليه الحافظ حزنًا شديدًا وأمر بإغلاق الدواوين ثلاثة أيام حدادًا عليه ، وأحضر بَطْرَك الملكية بمصر وأمره بتجهيزه ، وسار الحافظ فى مقدمة مشيعيه راكبًا بغلته خَلْف التابوت بعمامة خضراء وثوب أخضر من غير طَيْلَسان ، وحوله أعيان الدولة حتى دُفِنَ فى دير الخَنْدَق ظاهر القاهرة [١].

وبوفاة بَهْرام انتهت مرحلةٌ هامة فى تاريخ الدولة الفاطمية ، مرحلةٌ سَيْطَر فيها العنصر الأرْمَنى على مقاليد الأمور فى مصر ، وهى المرحلة التى بدأت مع أمير الجيوش بدر الجمالى واستمرت مع خلفائه الأَفْضَل شاهنشاه ، وأبى على الأَفْضَل كُتَيْفات ، وأبى الفَتْح يانِس وانتهت بوفاة بَهْرام . وهى ليست فحسب حدثٌ عابرٌ فى التاريخ ، بل بالأحرى الطور الأخير فى الحلف المستمر بين طوائف الأَرْمَن والمسلمين .

وقد لعب الأرْمَن دورًا سياسيًا وعسكريًا وحضاريًا كبيرًا فى مصر ، فهم الذين حافظوا على استمرار الدولة ، وتمثِّل عمارة أبواب القاهرة وأسوارها التى أُنْجِزَت فى عصر بدر الجمالى تأثير العمارة الأرْمنية على هذه المنشآت الدفاعية بوضوح [٢]. ونستطيع أن نميِّز بين نوعين من الأرْمَن الذين تولَّوا السلطة : الأرْمَن الذين اعتنقوا الإسلام وتمثِّلهم الأسرة الجمالية (بدر الجمالى والأَفْضَل شاهنشاه وأبو على كُتَيْفات) وطَلائِع بن رُزِّيك وولده رُزِّيك ؛ والأَرْمَن الذين استمروا على نصرانيتهم ويمثلهم بَهْرام الأرْمنى وأخوه الباساك [٣].

---

[١] نفسه ١٣٣؛ النويرى : نهاية ٢٨ : ٣٠٥؛ المقريزى : المقفى ٢ : ٥١٦ والاتعاظ ٣ : ١٧٥؛ وذكر ساويرس : تاريخ ٣/١ : ٣٣ أن تابوته أخرج من باب الساباط بالقصر إلى كنيسة الزُهرى .

[٢] انظر فيما يلى الفصل الرابع عشر .

[٣] Dadoyan, S. B., *op.cit.*, p. 85.

رِضْوان بن وَلَخْشى وبداية

الإصلاح السنى

فور أن فرَّ بَهْرام من القاهرة دَخَلَ إليها رِضْوان بن وَلَخْشى ووَصَلَ إلى بين القصرين، واضطر الخليفة الحافِظ إلى الرضوخ لضغط الأمراء وأشار بنزول رِضْوان فى دار الوزارة وخَلَع عليه خِلَع الوزارة فى ١١ جمادى الأولى سنة ٥٣١هـ/ فبراير ١١٣٧م، ونعته فى سجل توليته بـ « السَّيِّد الأجل الأفْضَل، أمير الجيوش، سيف الإسلام، ناصر الإمام، كافِل قُضاة المسلمين وهادى دُعاة المؤمنين، أبى الفَتْحِ رِضْوان الحافِظى »[1].

كان رِضْوانُ بن وَلَخْشى أوَّل وزير سُنِّى يتولَّى الوزارة للفاطميين، وكان أصله من « صِبْيان الرِّكاب » وكان يتَّصف بالشجاعة حتى لُقِّب بـ « فَحْل الأمراء »، وشارك فى القبض على أبى على الأفْضَل كُتَيْفات سنة ٥٢٦هـ/ ١١٣١م[2]، وترقَّى فى الخِدَم حيث تولَّى ولاية قُوص وإخميم سنة ٥٢٨هـ/ ١١٣٤م[3]. وكان بَهْرام الأرْمَنى يخشاه فأخرجه من مصر سنة ٥٢٩هـ/١١٣٥م وولَّاه ولاية عَسْقَلان فمنع كثيرًا من الأرْمَن من التوجُّه منها إلى مصر، مما أثار غضب بَهْرام فاستدعاه منها ووَلّاه الغربية. وقد حَمَدَ له المصريون تصرفه مع الأرْمَن ولجئوا إليه عندما ثاروا عليهم.

---

[1] ذكر ابن الأثير ونقل عنه أبو الفدا والمقريزى أن رضوان بن وَلَخْشى هو أول من لُقِّب « بالملك » مضافا إلى بقية الألقاب من وزراء الفاطميين. (ابن الأثير: الكامل ١١: ٤٨؛ أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر ٣: ١٢؛ المقريزى: الخطط ١: ٤٤٠، اتعاظ ٣: ٦١). ويبدو أن الصواب غير ذلك فسجل تولية رضوان الذى أورده القلقشندى: صبح ٨: ٣٤٢-٣٤٦ لم يرد فيه ذكر للقب الملك. وذكر المقريزى فى ترجمة الصالح طلائع بن رزيك أنه « أنشئ له سجل عظيم نعت فيه بالملك الصالح، ولم يلقب أحد من الوزراء قبله بالملك وذلك يوم الخميس الرابع من شهر ربيع الآخر سنة ٥٤٩ هـ. (اتعاظ ٣: ٢١٨، وقارن: الشيال: مجموعة الوثائق الفاطمية ١٤٠-١٤٣ وانظر كذلك ابن ظافر: أخبار ٩٩؛ ابن ميسر: أخبار ١٢٦؛ النويرى: نهاية ٢٨: ٣٠٣ وفيما يلى الفصل العاشر).

[2] المقريزى: الخطط ٢: ٢٠٣، اتعاظ ٣: ١٥٧؛ ساويرس: تاريخ البطاركة ٣/١: ٣٠ س٤.

[3] ابن ميسر: أخبار ١٣٨؛ المقريزى: اتعاظ ٣: ١٨٤.

وجاء في سِجِلّ تقليده الوزارة – الذى أنشأه ابن الصَّيْرَفى – « لأنك أذْهَبْت عن الدولة عارَها ، وأمَطْت من طرق الهداية أوعارها ، واستعدت ملابس سيادة كان قد دَنَّسَها من استعارها »[1]. وبدأ رِضْوان إصلاحاته باستخدام المسلمين فى المناصب التى كانت بأيدى النَّصارى وأمر بعدم استخدام النَّصارى فى الدواوين الكبار ولا نُظَّارا ولا مشارفين[2] وعمل على تقدُّم أرباب المعارف سَيْفًا وقلمًا ، فأحسن إليهم وزاد فى أرزاقهم[3] وشدَّد على النَّصارى أصحاب بَهْرام وصادرهم وقتلهم بالسيف وأباد أكثرهم[4] وأبعد صنيعة الخلافة أبا الكرم الأخْرَم النَّصْرانى عن ديوان النَّظَر ، وهو النَّصْرانى الوحيد الذى تولَّى هذا الديوان وتَوَصَّل إليه بالضَّمان ، واستخدم عِوَضًا عنه كاتبًا مسلمًا بلا ضَمان هو القاضى المُرْتَضى بن المحَنَّك[5].

وبعد ذلك طَلَبَ رِضْوان إلى ديوان الإنشاء إنشاء سِجِلّ فى الوَضْع من النَّصارى واليهود ، أنشأه ابن الصَّيْرَفى ، مُنِعوا فيه من « إرخاء الذَّوائب ، وركوب البغلات ، وألّا يلبس أحدٌ منهم طَيْلَسان ، وأمرهم بشَدّ الزّنانير المخالفة لألوان ثيابهم ، وألّا يجوزوا على معابد المسلمين رُكْبانًا – فما رئى فى أيامه يهودى ولا نَصْرانى يجوز على الجامع راكبًا ، وإذا اضطر إلى الجواز نزل وقاد دابته – وأمر ألّا تُسَلَّم الجِزْيَة منهم إلّا على مساطب وهم أسفلها ، ومنعهم من التكنّى بأبى الحسن وأبى الحسين وأبى الطاهر ، وأن لا يُبَيِّضوا قبورهم »[6].

---

[1] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٤٨؛ المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٨٤ .

[2] نفسه ٥٠؛ ابن ميسر : أخبار ١٢٨– ١٢٩؛ ساويرس بن المقفع : تاريخ البطاركة ٣/١ : ٣١؛ ابن الفرات : تاريخ– خ٢ : ٦٢ ظ .

[3] نفسه ٤٩؛ المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٦٥ .

[4] ابن ميسر : أخبار ١٢٩؛ المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٦٥ .

[5] ابن الطوير : نزهة ٤٩؛ المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٦٥ . وانظر عن الضمان فيما يلى الفصل الرابع عشر.

[6] نفسه ٤٩– ٥٠؛ ابن الفرات : تاريخ–خ٢ : ٦٢ ظ؛ المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٦٥ .

وقد ضاعف رِضْوان الجِزْيَة على اليهود والنَّصارى وجعلها ثلاث درجات : الأغنياء ويدفعون أربعة دنانير وسدس ، والأوسطين ويدفعون دينارين وقيراطين ، ثم بقية عامتهم ويدفعون دينارًا واحدًا وثلث وربع ، وألزمهم أن يشدّوا زنانيرهم فى أوساطهم [١].

ولاشك أن رِضْوان بن وَلَخْشى لم يكن يعترف بشرعية خلافة الحافظ بما أنه سُنّى المذهب ، فعمل على خَلْع الحافظ بحجة أنه ليس خليفة أو إماما وإنما هو كفيل لغيره وذلك الغير لم يَصِحّ ، واستفتى العلماء فى ذلك فامتنعوا ، وبلغ ذلك الحافظ فأضمره له [٢].

الإصْلاح السُّنّى

كان وصولُ رِضْوان إلى منصب الوزارة - كأوّل وزير سنى للفاطميين - بداية تَحَوُّل سُنّى بطىء قاد إلى انتصار السُّنَّة النهائى فى مصر بعد ذلك بنحو ثلاثين عامًا . ولما كانت الإسكندرية من أهم مراكز المقاومة السنية فى مصر وملجأ كل الخارجين على الدولة الفاطمية ، فقد بنى بها الوزير ابن وَلَخْشى أول مدرسة فى مصر لتدريس المذهب المالكى فى سنة ٥٣٢هـ / ١١٣٨م [٣]. فقد كان المذهب الشائع بين أهل الإسكندرية هو المذهب المالكى بسبب علاقتها الواسعة مع شمال إفريقيا والأندلس . وكان الفقيه المالكى أبو بكر محمد بن الوليد الطُّرْطوشى ، الذى استقر فى الإسكندرية سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٧م ، قد قام ، كما تذكر المصادر ، بتدريس المذهب المالكى فى مدرسة أنشأها فى بيته [٤]. لذلك كان من الطبيعى أن يبنى ابن وَلَخْشى مدرسته فى الإسكندرية ؛ لأن القاهرة كانت فى

---

[١] ساويرس : تاريخ البطاركة ١/٣ : ٣١؛ انظر فيما يلى الفصل الرابع عشر .

[٢] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٥١-٥٢ .

[٣] ابن ميسر : أخبار ١٣٠، النويرى : نهاية ٢٨ : ٣٠٤؛ القلقشندى : صبح ١٠ : ٤٥٨- ٤٥٩؛ المقريزى : اتعاظ ٣: ١٦٧ . وانظر فيما يلى الفصل الرابع عشر .

[٤] الضبى : بغية الملتمس فى تاريخ الأندلس ١٢٧ .

هذا الوقت عاصمة الفاطميين ومركز النشاط الشيعى فى العالم الإسلامى ، والمدرسة ابتكار سُنّى وظاهرة جديدة فى مصر. ولاشك أن إقامة مُؤَسَّسَة سنية هامة كالمدرسة فى العاصمة الشيعية كان من شأنه قلب التوازن بين الخليفة ووزيره . وبما أن الإسكندرية مدينة كل سكانها من أهل السنة ، كان طبيعيًا أن يبنى رِضْوان مدرسته بها ليقاوم بها مذهب الدولة وليُعْلى كلمة الإسلام السنى فى مواجهة اتساع نفوذ أهل الذِّمَّة الذى تزايد فى العقود الأولى للقرن السادس [1]. ومع ذلك استصدر رِضْوان سِجِلًّا من الخليفة نُسِبَت فيه المدرسة إلى الخليفة وعرفت « بالمدرسة الحافِظِيّة » ولم تُنْسَب فيه إلى الوزير الذى بناها ؛ لأن الخليفة وليس الوزير هو الذى كان يُصْدِر الأمر بتعيين مُدَرِّسها بناء على اقتراح من الوزير . وتولّى تدريس هذه المدرسة الفقيه المالكى أبو الطاهر بن عَوْف [2]، وعرفت لذلك فى المصادر بـ « المدرسة العَوْفية » وقد حَفِظَ لنا القلقشندى نَصَّ السِّجِلّ الخاص بإنشاء هذه المدرسة [3].

وبعد أربعة عشر عامًا من إنشاء المدرسة الحافظية ، أنشأ وزير سنى آخر هو العادل بن السَّلار مدرسةً ثانيةً فى الإسكندرية لتدريس المذهب الشّافعى ، وقَرّر فى تدريسها الحافظ الشهير أبا الطّاهر السِّلَفى [4]. ويذكر السُّبْكى أن ابن السَّلار بنى هذه المدرسة وهو وال على الإسكندرية قبل أن يلى الوزارة [5]، بينما حَدَّد ابن خَلِّكان تاريخ بنائها فى سنة

---

[1] راجع أيمن فؤاد سيد : « المدارس فى مصر قبل العصر الأيوبى » فى كتاب تاريخ المدارس فى مصر الإسلامية القاهرة ١٩٩٢ .

[2] راجع ابن فرحون : الديباج المذهب ١ : ٢٩٢- ٢٩٥؛ أبا المحاسن : النجوم ٦ : ١٠٠؛ السيوطى : حسن المحاضرة ١ : ٤٥٢-٤٥٣ .

[3] القلقشندى : صبح ١٠ : ٤٥٨- ٤٥٩؛ الشيال : « أول أستاذ لأول مدرسة فى الإسكندرية الإسلامية » مجلة كلية الآداب-جامعة الإسكندرية / (١٩٥٧) ٣-٢٩ .

[4] أبو شامة : الروضتين ١ : ٢٢٧؛ ابن خلكان : وفيات ١ : ١٠٥، ٣ : ٤١٧؛ السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ٦: ٣٧؛ الصفدى : الوافى بالوفيات ٧ : ٣٥٤؛ المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٩٨ .

[5] السبكى : طبقات الشافعية ٦ : ٣٧ .

٥٤٦هـ/١١٥٠م[١]، أى فى الوقت الذى تولّى فيه ابن السّلار الوزارة، إلّا أنه عاد فى موضع آخر ليؤكد أن ابن السّلار بناها وهو مازال واليًا على الإسكندرية[٢] متابعًا فى ذلك نص السّبكى.

رِضْوان يواجه الفِرِنْج (الصّليبيين)

كان استيلاءُ الفِرِنْج (الصليبيين) على بيتِ المقدس فى سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م حافزًا للفاطميين على حفظ ما تبقى لهم من ممتلكات فى جنوب فلسطين، فاهتموا بإيجاد حامية قوية فى عَسْقَلان تُجَرّد إليها العساكر والأساطيل فى شكل أبدال تتوالى على حمايتها كل ستة أشهر[٣].

وعندما تولّى رِضْوان الوزارة للحافظ سنة ٥٣١هـ/١١٣٧م استجد «ديوان الجِهاد» واهتم بتقوية الثغور واستعد لتعمير عَسْقَلان بالعُدَد والآلات، وهيّأ الناس للخروج إلى الشام وغَزْو الفرنج[٤]. ولكن الخليفة الحافظ منعه من ذلك إذ أرسل يستدعى بَهْرام (الوزير الذى حَلّ محله رِضْوان) وأسكنه معه فى القصر يستشيره فى أموره، كما حَثّ الجند على التحرّش برِضْوان حتى ثاروا عليه وضعفت قدرته على مواجهتهم واضطر إلى الفرار من مصر فى ١٥ شوال سنة ٥٣٣هـ/١٥ يونية ١١٣٩م وقصد الاحتماء بأمين الدولة كُمُشْتَكين الأتابكى صاحب صَرْخَد الذى أحسن استقباله وأكرم ضيافته كما يذكر أسامة بن مُنْقِذ وابن القَلانِسى[٥].

---

[١] ابن خلكان: وفيات ١: ١٠٥.

[٢] نفسه ٣: ٤١٧.

[٣] ابن الطوير: نزهة المقلتين ٣، ٤١.

[٤] ابن ميسر: أخبار ١٢٩؛ المقريزى: اتعاظ ٣: ١٦٣-١٦٤.

[٥] نفسه ١٣٠-١٣١؛ نفسه ٣: ١٦٩-١٧٢؛ ابن القلانسى: ذيل ٢٧٠؛ ابن ظافر: أخبار ٩٩؛ أسامة بن منقذ: الاعتبار ٥٢-٥٦؛ النويرى: نهاية ٢٨: ٣٠٤-٣٠٥؛ ساويرس: تاريخ البطاركة ١/٣: ٣٢.

ففى سنة ٥٢٩هـ/١١٣٥م كان رِضْوان واليًا على عَسْقَلان وقام بجهد كبير فى محاولة منع توافد الأَرْمَن على مصر[١]. ولاشك أنه تمكّن خلال هذه الفترة من عَقْد صلات ودية مع أمراء الشام. وتُوَضِّح لنا رسالة بعث بها كَمُشْتَكين إلى رِضْوان أثناء تولِّيه الوزارة – أوردها القلقشندى – أنه كانت تربطهما علاقة ودية قبل أن يتولَّى رِضْوان الوزارة[٢].

وقد اتَّصَل رِضْوان – أثناء وجوده فى صَرْخَد – بعماد الدين زَنْكى – وهو يحاصر بَعَلْبَك – وطَلَبَ إليه أن يمده بمعونة عسكرية تساعده على دخول القاهرة كقائد منتصر. ولكن الخطر الذى كان من الممكن أن يمثِّله تحالف رِضْوان مع عماد الدين زَنْكى على البوريين[٣] حُكّام دمشق، جَعَلَ أسامة بن مُنْقِذ، الذى كان فى دمشق اعتبارًا من عام ٥٣٢هـ/١١٣٨م ويتمتع بمكانة عالية لدى أميرها وكذلك لدى معين الدين أُنَر، يقترح على رِضْوان الحضور إلى دمشق، وبدلًا من أن يحضر إليها فورًا طلب إليه أن ينتظِر رسالة تدعوه إلى الحضور. غير أن كَمُشْتَكين كان يَتَعَجَّل عودة رِضْوان إلى مصر «لما قد وعده به وأطمعه فيه»[٤]. فلا شك أن رِضْوان قد وَعَدَ كَمُشْتَكين، إن هو نجح فى استعادة مكانته فى القاهرة، أن يُقَلِّده منصبًا أعلى من ولاية مدينة صغيرة فى إقليم حوران فى الشام[٥]. وبذلك جمع كَمُشْتَكين لرِضْوان جَمْعًا من الأتراك سيَّرهم معه، إلَّا أنهم غدروا به بعد دخوله حدود مصر مما ألجأه إلى

---

[١] نفسه ١٢٤؛ نفسه ٣ : ١٥٦ .

[٢] القلقشندى : صبح ٧ : ١٠٧-١٠٩؛ Canard, M., «Fatimides et Burides à l'époque du calife al-Hāfiz li-Dîn Illāh », *REI* XXXV (1967), pp-122-117.

[٣] البوريون . أسرة تركية حكمت دمشق فى الفترة من سنة ٤٩٧ هـ / ١١٠٤ م وحتى سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤ م . أسسها طُغْتَكين أتابك الملك شمس الملوك دَقّاق بن السلطان تُتُش السجلوقى. le Tourneau, R., *EI*^{2} art. *Bûrides* I, pp. 1372-1373 .

[٤] أسامة : الاعتبار ٥٤ .

[٥] Canard, M., *op.cit.* p. 144 .

طلب الأمان من الحافِظ الذى اعتقله بالقصر فى الرابع من ربيع الآخر سنة ٥٣٤هـ/ أول ديسمبر سنة ١١٣٩م[١].

اعتقال رِضْوان

ظل رِضْوان معتقلًا فى القصر ثمان سنوات حتى نجح فى الهروب منه من نَقْب نقبه فى الموضع الذى كان معتقلًا فيه فى ٢٣ ذى القعدة سنة ٥٤٢هـ/١٥إبريل سنة ١١٤٨م، واجتمع إليه جماعةٌ ممن كان يكاتبهم وخَرَجَ معهم إلى الجيزة حيث استنجد بجماعة من العربان وتمكَّن من هزيمة العسكر الذى سَيَّرَه إليه الحافظ عند جامع ابن طولون، ودَخَلَ فى إثرهم إلى القاهرة ونزل بالجامع الأَقْمَر وحاول الاتصال برؤساء الدواوين لاستعادة مكانته، غير أن الخليفة الحافظ أمر مقدمى السودان بالهجوم عليه فقتلوه غَدْرًا وحملوا رأسه إلى الحافظ الذى أرسلها بدوره إلى زوجة رِضْوان[٢]، وبذلك قُضِيَ على واحد من الذين حاولوا التصدِّى للأخطار الحقيقية التى كانت تُهَدِّد العالم الإسلامى فى هذا الوقت.

الحافِظ يَمْتَنِع عن اتِّخاذ وُزَراء

أدرك الحافظ خطر الوزارء على سلطته وتطلعاتهم فلذلك لم يستوزر أحدًا منذ فرار رِضْوان فى سنة ٥٣٣هـ/١١٣٩م، وإنما اتَّخذ كُتَّابًا على سنة الوزراء أرباب العمائم ولم

---

[١] أسامة: الاعتبار ٥٤- ٥٥؛ ابن القلانسى: ذيل ٢٧٢- ٢٧٣؛ ابن ميسر: أخبار ١٣٢؛ النويرى: نهاية ٢٨: ٣٠٥؛ المقريزى: اتعاظ ٣: ١٧٣.

[٢] أسامة: الاعتبار ٥٥ (وجعل هذه الحادثة فى غير موضعها)؛ ابن القلانسى: ذيل ٢٩٦؛ ابن ميسر: أخبار ١٣٧- ١٣٨؛ ابن ظافر: أخبار ٩٩؛ ابن الأثير: الكامل ١١: ٤٩؛ النويرى: نهاية ٢٨: ٣٠٥؛ ابن الفرات: تاريخ - خ٣: ٦٠ ظ؛ المقريزى: اتعاظ ٣: ١٨٤؛ ساويرس: تاريخ البطاركة ٣/١: ٢٤٢؛ أبو المحاسن: النجوم ٥: ٢٨١.

يسم أحدًا منهم وزيرًا مثل أبى عبد الله محمد بن الأنْصارى ، والقاضى المُوَفَّق محمد بن مَعْصوم التِّنِّيسى ، وصنيعة الخلافة أبى الكَرَم الأَخْرَم النَّصْرانى [1].

لم تمر السنوات الأخيرة لخلافة الحافظ دون مشاكل أو أزمات فقد شهدت السنوات من ٥٣٦هـ وحتى ٥٣٨هـ أزمة اقتصادية طاحنة غَلَت فيها الأسعار وكَثُرَ فيها الوباء حتى هَلَكَ فيها من المصريين عالم لا يحصى [2].

كذلك فقد كثر المطالبون بمنصب الوزارة ، وكان من بينهم أبو الحسين ابن الخليفة المستنصر وعَمّ الحافِظ الذى اعتقله الحافِظ ، وكذلك أحد أمراء المماليك المقيمين بالصعيد ويُدْعَى بُخْتيار ، وقد أمر الحافِظ بقتله وصلبه [3].

---

[1] ابن ميسر : أخبار ١٤٠؛ ابن ظافر : أخبار ٩٩؛ المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٨٩ .

[2] نفسه ١٣٤؛ ابن القلانسى : ذيل ٢٧٦؛ ابن الأثير : الكامل ١١ : ٩٢؛ المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٧٦ .

[3] نفسه ١٣٦، ١٣٧؛ عماد الدين الأصفهانى : البستان الجامع ١٢٦، ١٢٨؛ المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٧٩ .

الفصل الثامن

الاضمحلال

الصّراعُ على مَنصِب الوِزَارة

بنهاية عهد الخليفة الحافِظ لم يَبْق للخلفاء أىُّ سلطان على الدولة ، ودارت الصّراعات مرة أخرى بين طوائف الجند وخاصة الطائفتين الرّيْحانية والجُيُوشية[1] وإن لم يؤدّ ذلك إلى نشوب حرب أهلية جديدة . وتَطَلّع وَلاةُ الأقاليم إلى منصب الوزارة وتنافسوا عليه ، يقول ابن الأثير : « إن الوزارة فى مصر كانت لمن غلب ... والوزراء كالمتملّكين ، وقَلّ أن وليها أحدٌ بعد الأَفْضَل بن بدر الجمالى إلّا بحرب وقَتْل وما شاكل ذلك »[2].

بويع أبو المنصور إسماعيل ، الابن الأصغر للخليفة الحافِظ ، بالإمامة فى نفس يوم انتقال والده ، وهو يوم الأحد ٥ جمادى الآخرة سنة ٥٤٤هـ/١٣ سبتمبر سنة ١١٤٩م وتلقب بـ « الظّافِر بالله » أو « الظّافِر بأعداء الله » . ونظرًا لأن الحافِظ لم يُصْدر أىّ سِجِلّ بتعيين وَلِىّ عَهْدٍ له بعد السّجِلّات الثلاثة التى أصدرها فى سنتى ٥٢٨ و ٥٢٩هـ وعَهَدَ فيها لأبنائه سليمان ثم حَيْدَرَة ثم حسن على التوالى ، بسبب ما لقيه من عَنَت وعقوق من ابنه حسن . فقد اضطر إسماعيل إلى إصدار هذا السِّجِلّ يَنُصُّ فيه على أن الخليفة الراحل كان قد أوصى له بولاية العَهْد ، ويُعْلِنُ فيه فى الوقت نفسه تولّيه الخلافة[3].

---

[1] أسامة بن منقذ : الاعتبار ٢٩؛ ابن ميسر : أخبار ١٤٠، ١٤٢ .

[2] ابن الأثير : الكامل ١١ : ١٨٥ وقانون عمارة اليمنى : النكت العصرية ١١٣؛ عماد الدين الأصبهانى : البستان الجامع ١٣٤؛ ابن واصل : مفرج الكروب ١ : ١٣٧-١٣٨ .

[3] القلقشندى : صبح الأعشى ٩ : ٢٨٦- ٢٩١؛ الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ١٠٨-١٠٣، ٢٦٩- ٢٧٤؛ المقريزى : المقفى الكبير ٢:١٢١ .

وزارة ابن مَصَال

وفور مبايعته بالخلافة اتخذ الظّافر الأمير نجم الدين أبا الفتح سليم (سليمان) بن محمد بن مَصَال اللُّكّى وزيرًا وخَلَع عليه خِلَع الوزارة بوصية من أبيه ولَقّبه بـ «الأَفْضَل (المُفَضَّل) أمير الجيوش، سعد الملك، لَيْث الدولة»[١]، وهو بذلك آخر وزير فاطمى يعين بهذه الطريقة. وكان ابن مَصَال فى آخر عهد الحافظ ناظرًا للأمور أو المصالح اعتبارًا من سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م من غير أن يُطْلَق عليه اسم الوزارة[٢]، وكان فى الوقت نفسه عالمًا بأصول الدين[٣]. وقد نجح ابن مَصال فى إعادة النِّظام بعد محاربته لطائفتى الرَّيْحانية والسودان قرب البَهْنَساوية بصعيد مصر[٤].

وزارةُ العادِل بن السَّلار

لم يرض على بن السَّلار، والى الإسكندرية والبحيرة، أن يلىَ الوزارة شيخًا مثل ابن مَصَال، فاتفق مع ابن زوجته الأمير عَبّاس الصِّنْهاجى – والى الغربية – على التوجه إلى القاهرة وإجبار الخليفة أن يولّيه الوزارة. وعندئذ طَلَبَ الخليفة إلى ابن مَصال أن يتجه إلى الحَوْف ليجمع العربان لملاقاة ابن السَّلار، إلّا أن ابن السَّلار تمكّن من دخول القاهرة وإجبار الخليفة على أن يخلع عليه خِلَع الوزارة ويلَقِّبه بـ «العادل سيف الدين ناصر الحق». ورغم تمكُّن ابن مَصال من جَمْع جيش، قوامه من بَرْبَر لَواتَة ومن السودان والعربان، ونجاحه فى تحقيق نصر مبدئى واستيلائه على الوجه القبلى، فقد سَيَّر إليه ابن

---

[١] ابن الطوير: نزهة المقلتين ٥٥؛ ابن ظافر: أخبار ١٠٢؛ ابن الأثير: الكامل ١١: ١٤٢، ابن الفرات: تاريخ-خ ٣: ٢١ و، بينما ذكر ابن ميسر: أخبار ١٤١؛ والنويرى: نهاية ٢٨: ٣١١ أن لقبه كان «المفضل» وانظر كذلك Canard, M., *EI*[2]., art. *Ibn Masâl* III, p. 892.

[٢] ابن أيبك: كنز الدرر ٦: ٥٢١، ٥٤٠.

[٣] ابن الطوير: نزهة ٥٤.

[٤] ابن ميسر: أخبار ١٤٢.

السّلار جيشًا على رأسه الأمير عَبّاس الصّنهاجى تمكّن من تعقبه ، وقَتَلَه عند مدينة دِلاص قرب البَهْنَسا فى ١٩ شوال سنة ٥٤٤هـ/١٩ فبراير سنة ١١٥٠م وحُمِلَت رأسُه إلى القاهرة وطيف بها هناك [١].

كان ابن السّلار أحد الصّبيان الحُجَرِيّة [٢]، سُنّى على المذهب الشافعى ووجد الظّافر نفسه مجبرًا على توليته الوزارة بعد محاصرته للقصر الفاطمى . وقد حاول الظّافر لذلك أكثر من مرة التآمر على وزيره الذى احترز من الخليفة وانتدب رجالًا لحراسته عرفوا « بصِبْيان الزَّرْد » [٣].

عمل ابن السّلار على تقوية الجيش واهتم بتحصين عَسْقَلان وتجريد الأبْدال إليها [٤]. ويعتبر ابن السّلار أوّل من حاول عَقْد اتفاق مع نور الدين أمير حلب لعمل جبهة موحدة فى مواجهة الفرنج الصليبيين [٥]. وقد كان ذلك دون شك سابقًا لأوانه ، فقد كان نور الدين يتطلّع إلى الاستيلاء على دمشق التى كان الفِرِنْج قد حاصروها قبل ذلك بسنوات [٦]، ولو كان نور الدين متنبّهًا له لتمكنا من تطويق الفِرِنْج فى مدن الشام

---

[١] ابن القلانسى : ذيل ٣١١؛ أسامة بن منقذ : الاعتبار ٣١؛ ساويرس بن القفع : تاريخ البطاركة ٣/١: ٤٤؛ ابن الطوير : نزهة المقلتين ٥٥- ٥٩؛ ابن الأثير : الكامل ١١: ١٤٢؛ أبو شامة : الروضتين ١ : ١٩٥؛ ابن ميسر : أخبار ١٤٢؛ النويرى : ٢٨ : ٢٩٢؛ ابن خلكان : وفيات ٣ : ٤١٦؛ ابن الفرات : تاريخ ٣ : ٢١ و-٢١ ظ ؛ المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٩٦-١٩٧ .

[٢] صبيان الحُجَر : جماعة من الشباب كانوا يربون فى أيام الفاطميين فى حجر بجوار باب النصر ، مثل الطباق السلطانية فى عصر المماليك ، ويتلقون تدريبات عسكرية مثلهم مثل الدواية والاسبتارية . (ابن الطوير : نزهة ٥٧، ابن خلكان : وفيات ٣ : ٤١٨، المقريزى : الخطط ١ : ٤٤٤) وانظر فيما يلى ص ٦٨٤-٦٨٥ .

[٣] ابن الطوير : نزهة ٥٩، الفرات : تاريخ-خ٣ : ٢٣ و ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٩٧-١٩٨ وراجع عن العادل Wiet, G., *EI*^{2} art. *al-ʿĀdil b. al-Salār* I, p. 204 .

[٤] كانت العادة أن يجرد خليفة مصر كل ستة شهور الأبدال إلى عسقلان حسب تواجد الفرنج فى الشام . وكان عددهم يتراوح فى القلة بين ثلاثمائة إلى أربعمائة فارس وفى الكثرة من خمسمائة إلى ستمائة (ابن الطوير : نزهة ٤١-٤٢) .

[٥] أسامة بن منقذ : الاعتبار ٣٣- ٤١؛ ابن القلانسى : ذيل ٣١٥؛ أبو شامة : الروضتين ١ : ٢٠٢ .

[٦] ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٠٧، أبو شامة : الروضتين ١ : ٢٣٧ .

الساحلية . ولإثبات حسن نيته أرسل ابن السّلار فى سنة ٥٤٦هـ / ١١٥١م قِطَعًا من الأسطول المصرى إلى يافا تمكّنت من أسْر عدد من مراكب الفِرِنْج وأحرقت ما عَجَزَت عن أخذه ، وقَتَلَ جنودُه خلقًا كثيرًا من أهل يافا ، ثم اتجهوا إلى عَكّا وصَيْدا وبيروت وطرابلس حيث أبلوا بها بلاءً حسنًا وقتلوا جماعة من حُجّاج الفِرِنْج ، وكانت هذه الحملة فى نفس الوقت تمثل ثأرًا من الفِرِنْج الذين أغاروا على الفَرَما وأخربوها فى العام السابق [١].

المؤامراتُ وضَعْفُ الخِلافَة

أدّى التنافس على الوزارة إلى إشاعة الفوضى فى البلاد ، كما أن الفساد بلغ القصر الفاطمى نفسه الذى حيكت فيه المؤامرات وكثرت المفاسد الأخلاقية بين سكانه . وتبعًا لابن ظافر وابن الأثير فقد لعب أميرُ شَيْزَر أسامة بن مُنْقِذ ، الذى قدم إلى مصر فى جمادى الآخرة سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٤م [٢]، دورًا كبيرًا فى حَبْك هذه المؤامرات وإذكاء هذه الفِتَن ، فقد اتصل أسامة بالوزير ابن السّلار الذى أكرم مقدمه ، واختص بصحبة ابن زوجته الأمير عَبّاس الصِّنْهاجى [٣].

وقد تأكّد لابن السّلار أن الفِرِنْج فى طريقهم إلى الاستيلاء على عَسْقَلان فى أعقاب محاولته مهاجمة مدن الشام الساحلية فى عام ٥٤٦هـ / ١١٥١م . وكانت العادة جارية كل ستة أشهر بتجريد عسكر من مصر لحِفْظ عَسْقَلان [٤]، وجاء الدور فى هذه النوبة على عَبّاس الصِّنْهاجى ، فخرج ومعه نفرٌ من الأمراء فيهم مُلْهِم وضِرْغام وأسامة بن مُنْقِذ [١].

---

[١] ابن القلانسى : ذيل ٣١٥؛ أبو شامة : الروضتين ١ : ٢٠٢؛ ابن ميسر : اخبار ١٤٤، ١٤٥؛ النويرى : نهاية ٢٨ : ٣١٣- ٣١٤؛ المقريزى : اتعاظ ٣ : ٢٠١، ٢٠٢، الخطط ١ : ٢١٢،

[٢] أسامة بن منقذ : الاعتبار ٢٩؛ ابن ميسر : أخبار ١٣٦؛ المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٧٩ .

[٣] ابن ظافر : أخبار ١٠٢؛ ابن الأثير : الكامل ١١ : ١٨٤، ١٩١؛ أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٣٠٩، ٣١٥؛ المقريزى : المقفى ٢ : ٤١- ٤٢، ٤: ٤٣ .

[٤] ابن الطوير : نزهة ٤١- ٤٢؛ ابن ميسر : أخبار ١٤٦ .

نَزَلَ عَبّاس ومَن معه فى بِلْبَيْس فى انتظار قدوم العساكر ، فما كان مَن أسامة إلّا أن حرّض عَبّاسا على العادل بن السّلار بعد أن شكا له اختياره لهذه المهمة وإبعاده عن مصر « بطيبها وحسنها ولَذّة المقام بها » . وقال له : إنه لو أراد لكان سلطان مصر ، وطلب إليه أن يستغل المودة القائمة بين ولده نصر والخليفة الظافر ، وينقل إليه رغبته فى أن يحلَّ محل ابن السّلار ، وأن الظّافر سيجيبه إلى طلبه لكُرْهه لابن السّلار ، ومتى أجابه إلى ذلك قتل عمه . وقد نجح نَصْر فى إتمام هذه المهمة بنجاح وقَتَلَ الوزير ابن السّلار فى ٦ محرم سنة ٥٤٨هـ/٣ إبريل سنة ١١٥٣م [٢].

لم تمض مؤامرة قَتْل ابن السّلار دون مقاومة ، فقد تَجَمَّع أصحابُه وغلمانه وشغبوا على الظّافر وخرجوا إلى ظاهر القاهرة ، وقد حاول الخليفة تسكينهم ولكنهم استوحشوا مما حَدَثَ ولم يثقوا فى وعود الخليفة بمنحهم عَفْوًا عامًا ، وخرجوا ليلًا قاصدين دمشق ببلاد الشام . كما أن أهل السنة بمصر لم يرضوا عن مقتل ابن السّلار ولكنهم لم يتمكّنوا من إعلان عدم رضاهم خوفًا من بَطْش الخليفة وعَبّاس الصِّنْهاجى وولده نصر [٣].

وقد نَكَّل الظّافر بجثة ابن السّلار حيث حملت رأسه إلى القصر وأشرف عليها الخليفة من باب الذَّهَب ، ثم رُفِعَت ليراها الناس ثم أمر بإيداعها بخزانة الرؤوس ببيت المال [٤].

---

[١] أسامة : الاعتبار ٤١- ٤٢؛ ابن الطوير : نزهة ٦١؛ ابن ميسر : أخبار ١٤٦؛ النويرى نهاية ٢٨ : ٣١٤؛ المقريزى : الخطط ٢ : ٥٥- ٥٦، اتعاظ ٣ : ٢٠٤- ٢٠٥، المقفى ٢ : ٤١-٤٢ .

[٢] أسامة : الاعتبار ٤١- ٤٢؛ ابن القلانسى : ذيل ٣١٩- ٣٢٠؛ ابن ظافر : أخبار ١٠٣؛ ابن الطوير : نزهة ٦٢- ٦٦؛ ابن الأثير : الكامل ١١: ١٨٤؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ٨: ٢١٤- ٢١٥؛ أبو شامة : الروضتين ١: ٢٢٦- ٢٢٧؛ ابن خلكان : وفيات ٣ : ٤١٨؛ ابن ميسر : أخبار ١٤٦- ١٤٧؛ النويرى : نهاية ٢٨: ٣١٥؛ ابن أيبك : كنز الدرر ٦: ٥٥٣؛ المقريزى : الخطط ٢ : ٥٥- ٥٦، اتعاظ ٣: ٢٠٤- ٢٠٥، المقفى ٢ : ٤٢ .

[٣] ابن الطوير : نزهة ٦٤- ٦٥؛ ابن ميسر : أخبار ١٤٧؛ النويرى : نهاية ٢٨: ٣١٥؛ المقريزى : اتعاظ ٣ : ٢٠٥ .

[٤] ابن ميسر : أخبار ١٤٧؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا ٣ : ٢٠٥ .

كان ردُّ الفعل المباشر لقتل الوزير ابن السّلار هو استيلاء الفِرِنْج على مدينة عَسْقَلان التى وقعت فى أيديهم فى ٢٧ جمادى الأولى سنة ٥٤٨هـ/٢٠ أغسطس سنة ١١٥٣م. وبذلك فَقَدَ الفاطميون آخر ممتلكاتهم فى الشام[١].

وزارة عَبّاس الصّنهاجى وفَقْدُ هَيْبَة الخلافة

كان من الطبيعى أن يُقَلِّد الظّافر الوزارة لعبّاس الصّنْهاجى ولَقّبَه بـ «السيد الأجَلّ الأفْضَل أمير الجيوش.. أبو الفضل العباس الظّافرى»[٢]. وقد ازداد عبّاس فى تقريب أسامة بن مُنْقِذ وإكرامه اعترافًا منه بفضله عليه. كذلك عمل على التقرّب إلى الأمراء وإكرامهم، وأحسن إلى الجنود ليُنْسيهم العادل بن السّلار.

أما ولده نَصْر فقد استمر على مخالطة الخليفة الظّافر، وكان الخليفة يخرج من قصره لزيارة نَصْر بداره التى بالسُّيوفيين قريبًا من القصر بحيث لا يعلم عَبّاس بأخبار هذه اللقاءات.

وقد استوحش الأمراء من أسامة بن مُنْقِذ والدور الذى قام به فى قتل ابن السّلار وهمّوا بقتله. فلما بلغه ذلك أخذ فى إثارة عبّاس على ولده نَصْر متهمًا له بأن الخليفة يفعل به ما يفعل مع النساء. ففاتح عبّاس ابنه فى ذلك وانزعاجه مما يتناقله الناس. فما كان من نَصْر إلّا أن قتل الخليفة فى أحد زياراته له بتحريض من والده ومن أسامة بن مُنْقِذ، فقتله فى داره بالسيوفيين فى آخر المحرم سنة ٥٤٩هـ/١٦ إبريل ١١٥٤م[٣].

---

[١] ابن القلانسى : ذيل ٣٢٠- ٣٢٢؛ ابن الأثير : الكامل ١١: ١٨٨- ١٨٩؛ أبو شامة : الروضتين ١: ٢٢٣- ٢٥٥؛ المقريزى : اتعاظ ٣ : ٢٠٩؛ ابن قاضى شهبة : الكواكب الدرية ١٣٩، ١٤٤ .

[٢] ابن الطوير : نزهة ٦٦؛ القلقشندى : صبح ١٠: ٤٢٢؛ Stern, S., *Fatimid Decrees*, pp. 65-69; id., *EI*^{2} art. *Abbās b. abil-Futûh* I, pp. 9-10 .

[٣] أسامة : الاعتبار ٤٣- ٤٤؛ ابن القلانسى : ذيل ٣٢٩- ٣٣٠؛ عماد الدين الأصفهانى : البستان الجامع ١٣٠، ابن الطوير : نزهة ٦٧؛ ابن الأثير : الكامل ١١: ١٩١؛ ابن ظافر : أخبار ١٠٥؛ ساويرس : تاريخ البطـاركة ١/٣ : =

وبرّء أسامة بن مُنقِذ نفسه من هذه التهم فى سيرته الذاتية [١].

لم تسر الأمور على الوجه الذى أراده لها الوزير عَبّاس ، فبعد أن أَوْهَمَ أهل القصر فى مشهد درامى أن إخوة الخليفة هم الذين قتلوه وأنه قتلهم به . أحضر طفلًا صغيرًا للظافر يُدْعى عيسى وأقامه فى منصب الخلافة ولَقَّبه بـ « الفائز بنصر الله » وهو لم يبلغ الخمس السنوات ، فكاد الطفل يموت رَوْعًا من هَوْل ما شاهده من منظر الدماء والقتلى فى القصر ، وظَلّ طول خلافته القصيرة مصابًا بالصَّرَع [٢].

لم تكن الخلافة العَبّاسية فى بغداد بعيدة عمّا يجرى فى مصر وكانت تنظر إلى هذه الحوادث المتعاقبة التى تدل على اختلال أحوال الخلافة الفاطمية بترَقُّب . ولم يُضَيّع الخليفة المقتفى لأمر الله العَبّاسى وَقْتًا فسارع – تبعًا لما أورده ابن الجَوْزى – بكتابة عَهْد إلى نور الدين محمود صاحب دمشق بولاية مصر وأعمالها والساحل وبَعَثَ إليه بمراكب زَحْف وأمره بالمسير إلى مصر فور أن علم بوفاة الظّافِر وإقامة الفائز عوضه [٣]. ولكن يبدو أن وصول طَلائِع بن رزّيك وقبضه على السُّلْطة الفعلية فى مصر أرجأ هذا التدخُّل مؤقّتًا .

= ٤٥؛ أبو شامة : الروضتين ١ : ٢٤٣– ٣٤٥؛ ابن خلكان : وفيات ١ : ٢٣٧، ٣ : ٤١٩؛ ابن ميسر : أخبار ١٤٧؛ النويرى : نهاية ٢٨: ٣١٦؛ ابن أيبك : كنز ٦ : ٥٥٧، ٥٦٣؛ الصفدى : الوافى ٩: ١٥١– ١٥٢؛ المقريزى : اتعاظ ٣ : ٢٠٨، المقفى ٢ : ٤٢–٤٣ و ١٢٢، الخطط ٢ : ٣٠؛ أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٢٨٩ .

[١] أسامة : الاعتبار ٤٤ .

[٢] أسامة : الاعتبار ٤٤؛ عماد الدين الأصفهانى : البستان الجامع ١٣١؛ ابن ظافر : أخبار ١٠٨– ١٠٩؛ ابن الطوير : نزهة ٦٩– ٧٠؛ ابن ميسر : أخبار ١٤٨؛ ساويرس : تاريخ البطاركة ١/٣ : ٤٥– ٤٦؛ النويرى : نهاية ٢٨ : ٣١٨؛ ابن الفرات : تاريخ–خ ٣ : ٨٠ ظ ؛ المقريزى : اتعاظ ٣ : ٢١٣– ٢١٤، ٢٣٩، المقفى ٤: ٤٣ وانظر توقيع هذا الخليفة فى المجلة التاريخية المصرية ٥ (١٩٥٦) ١٠٨ .

[٣] ابن الجوزى : المنتظم ١٠: ١٥٨؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا ٣: ٢٢٣ .

طَلائِعُ بن رُزِّيك

آخر وزراء الفاطميين الأقوياء

أدَّت هذه الأحداث إلى قلق واضطراب القصر وجماهير الشعب على السواء. فسارع نساءُ القصر وخاصة أخت الظّافِر سِتُّ القصور، بالكتابة إلى والى الأشْمونين والبَهْنَسا طَلائِع بن رُزِّيك، وأرسلن إليه شعورهن فى طَىّ الكتب – وهو أقصى ما يمكن فى التَّوَسُّل عند المرأة المسلمة – يستنجدن به لإنقاذ الخلافة وليقوم بدور المنقذ الذى لا غنى عنه[1].

قَدِمَ طَلائِعُ بن رُزِّيك بقواته حتى وَصَلَ إلى المَقْس فى ١٥ ربيع الأول سنة ٥٤٩هـ/أول يونية سنة ١١٥٤م، ودَخَلَ إلى القاهرة مؤيَّدًا من كافة الأطراف بعد ذلك بأربعة أيام[2] بعد أن تَحَقَّق عَبّاس ونَصْر وأسامة بن مُنْقِذ من معاداة الناس ورفضهم لهم وهربوا بما خَفَّ من المال والتحف إلى أيْلَة قاصدين الشام، ونَهَب العامة ما بقى فى دورهم[3].

دَخَلَ طَلائِعُ إلى القاهرة مع قواته لابسًا ثيابًا سوداء ورافعًا أعلامًا وبنودًا سوداء وكذلك شعور نساء القصر على الرِّماح حزنًا على الظّافِر. ونَزَلَ بدار نَصْر بن عَبّاس وعلم المكان الذى دُفِنَ فيه الظّافر فأخرجه وغَسَّلَه وكَفَّنَه، وحمله الأستاذون والأمراء فى

---

[1] أسامة : الاعتبار ٤٥ ؛ ابن ميسر : أخبار ١٤٩؛ ابن خلكان : وفيات ٣ : ٤٩٢؛ المقريزى : اتعاظ ٣: ٢١٥؛ القلقشندى : صبح ٣: ٢٧٠ .

[2] أبو شامة : الروضتين ١: ٢٤٣ .

[3] أسامة : الاعتبار ٤٨؛ ابن ظافر : أخبار ١٠٨، ابن الأثير : الكامل ١١: ١٩٣؛ ابن ميسر : أخبار ١٤٩- ١٥٠؛ ابن خلكان : وفيات ٢: ٥٢٦؛ ٣: ٤٩٢، النويرى : نهاية ٢٨: ٣١٩؛ الصفدى : الوافى ٩: ١٥٢؛ المقريزى : اتعاظ ٣ : ٢١٥-٢١٧، الخطط ٢: ٢٩٣، ٤١٠ .

تابوت إلى القصر ، وطَلائِعُ خلفهم حاف قد شَقَّ ثيابه ومعه الناس ، حيث صلّى عليه ابنه الخليفة الفائزُ وأعيد دفنه مع آبائه فى تُرْبَة القصر المعروفة بتُرْبَةَ الزَّعْفران [١].

وفور انتهاء هذه الرُسوم ، خَلَعَ الخليفة الفائِزُ على طَلائِع بن رُزِّيك خِلَعَ الوزارة وأمر بإنشاء سِجِلٍّ نُعِتَ فيه بـ « السَّيِّد الأَجَلّ الملك الصّالح ناصر الأئمة كاشف الغُمَّةِ ، أمير الجيوش ، سيف الإسلام ، غَيّاث الأنام ، كافِل قُضاة المسلمين ، وهادى دُعاة المؤمنين أبى الغارات طَلائِع الفائزى » ليصبح بذلك أوَّل من تَلَقَّب بـ « الملك » من وزراء الفاطميين ، وذلك يوم الخميس ٤ ربيع الآخر سنة ٥٤٩هـ/٩ يونية ١١٥٥م ، وهذا السِّجِلّ من إنشاء المُوَفَّق ابن الخَلال [٢].

أرْسَلَت أخت الخليفة الظّافِر إلى الفِرِنْج بعَسْقَلان تطلب تسليم عَبّاس ونَصْر وتخبرهم بما اقترفوه فى حق ابن السَّلار والخليفة الظّافِر وعرضت عليهم مالًا جزيلًا إذا أوقعوا به ، فتمكَّنوا منه وقتلوه قرب المُوَيْلِح فى ٢٣ ربيع الآخر سنة ٥٤٩هـ/٧ مايو ١١٥٤م ، وتمكَّن أسامة من الفرار إلى الشام [٣]، أما نَصْر فقد تسلمته جماعةُ الدّاويَّة فى فلسطين مقابل ثلاثين ألف دينار وأرسلته فى قفص من حديد إلى نساء القصر بالقاهرة اللائى عَذَّبْنه وأرسلنه مقعدًا فاقد البصر لكى يُعْرَض فى شوارع القاهرة ثم يُصْلَب حيًّا

---

[١] ابن ظافر : أخبار ١٠٨؛ ابن الأثير : الكامل ١١ : ١٩٣؛ ابن ميسر : أخبار ١٤٩-١٥٠؛ ساويرس : تاريخ البطاركة ٣/١/٤٦؛ ابن خلكان : وفيات ٢ : ٥٢٦، ٣: ٤٩٢؛ ابن سعيد : النجوم ٩١، ٢٢١؛ النويرى : نهاية ٢٨: ٣١٩-٣٢٠ الصفدى : الوافى ٩ : ١٥٢؛ القلقشندى : صبح ٣ : ٢٧٠؛ المقريزى : اتعاظ ٣ : ٢١٥-٢١٧، الخطط ٢: ٢٩٣، ٤١٠ .

[٢] ابن ميسر : أخبار ١٥٠، ١٥١، ساويرس : تاريخ البطاركة ٣/: ٤٦؛ النويرى : نهاية ٢٨: ٣٢٠، ٣٢٥؛ المقريزى : اتعاظ ٣ : ٢١٨، ٢١٩؛ ابن خلكان : وفيات ٢ : ٥٢٦، ٣ : ٤٩٢؛ أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٥٠، ٥ : ٣١١؛ السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ٢١٤-٢١٥؛ الشيال مجموعة الوثائق الفاطمية ١٥١-١٥٣ وانظر ألقابه كذلك عند Wiet, G., *RCEA* VIII, n° 3231; Stern, S., *Fatimid Decrees*, pp. 70-79 .

[٣] أسامة : الاعتبار ٥٠؛ ابن ظافر : أخبار ١٠٩؛ ابن ميسر : أخبار ١٥٠؛ ابن خلكان : وفيات ٣ : ٤٩٢؛ ابن أيبك : كنز الدرر ٦ : ٥٦٧-٥٦٨؛ المقريزى : اتعاظ ٣ : ٢٢٠؛ أبو المحاسن : النجوم ٥: ٣١٠ .

على باب زُوَيْلَة[١]، وذلك فى ربيع الأول سنة ٥٥٠هـ/يولية ١١٥٤م. وتحتفظ مخطوطة بالمتحف البريطانى بنصّ السِّجِلّ الذى يُعْلِن وصوله إلى القاهرة[٢].

يُعَدُّ الصّالح طلائع بن رُزّيك خاتمة الوزراء الفاطميين الأقوياء، وآخر دعامة فى الدولة المتداعية، إلّا أنه كان إمامى المذهب شديد التعصُّب له مبغضًا للنصارى[٣]. واعتبر عمارة اليمنى أن زوال دولة الفاطميين من مصر قد تم مع نهاية حكم طلائع بن رُزّيك وولده[٤].

وفور أن تولّى الصّالح طلائع الوزارة استولى على مقاليد الأمور لصِغَر سن الخليفة، مثلما فعل الوزير الأفضل من قبل مع الخليفة الآمر، وأخذ فى تتبّع كبار رجال الدولة وأعيانها وصادر أموالهم خوفًا منهم، حتى اضطر بعضهم إلى مغادرة مصر[٥].

واستنّ الصّالح طَلائِع سُنّة جديدة، إذ أخذ يبيع ولايات الأعمال للأمراء بأسعار مُقَرّرة تعرف بـ «البراطيل». وجعل لكل ولاية سعرًا، وحَدَّدَ مدة كل متول بستة أشهر فقط، خوفًا منه أن يثوروا عليه وينازعوه الوزارة. ومن ناحية أخرى احتكر الغَلات الزراعية حتى غلت أسعارُها مما أضعف اقتصاد الدولة[٦].

ولا شك أن الصّالح طَلائِع كان آخر وزراء الفاطميين الذين حاولوا التصدّى للفِرِنْج فى الشام. فابتداء من عام ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م أخذ فى إرسال الأسطول والجيش لمحاربة

---

[١] ابن ظافر : أخبار ١٠٩؛ ابن خلكان : وفيات ٣ : ٤٩٣؛ ساويرس : تاريخ البطاركة ٣/١: ٤٦؛ ابن أيبك : كنز الدرر ٦ : ٥٦٧ - ٥٦٨؛ المقريزى : المقفى ٢: ٤٣، ٤ : ٤٥؛ Stern, S., *EI*² art. *Abbâs b. abil-Futûh* I,p.9.

[٢] Br. Mus. Suppl. 1140.

[٣] ابن الأثير : الكامل ١١: ٢٧٥؛ ساويرس : تاريخ البطاركة ٣/ ١: ٤٦؛ المقريزى : الخطط ٢ : ٢٩٤، اتعاظ ٣: ٢٢٢، ٢٤٩.

[٤] عمارة اليمنى : النكت العصرية ٦٨ .

[٥] ابن الأثير : الكامل ١١: ١٩٤؛ ابن ظافر : أخبار ١١١ .

[٦] ابن ظافر : أخبار ١١١؛ ابن خلكان : وفيات ٣: ١١٠؛ النويرى : نهاية ٢٨: ٣٢٥؛ المقريزى : اتعاظ ٣ : ٢٢٢، ٢٤٤؛ أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٣٣٩ .

الفِرِنْج فى صُور وتمكّن من إحراقها وأَسَر حُجّاجا من النصارىٰ وظفر كذلك بغنائم كثيرة [١].

وفى عام ٥٥٢هـ/١١٥٧م فُسِخَت الهُدْنَة التى عَقَدَها مع الفِرِنْج فى العام السابق، فأخذ فى إعداد العساكر وتجهيزهم للإغارة مرة أخرى على الفِرِنْج حيث تمكّنت جيوشُه من مهاجمة غَزَّة وعَسْقَلان والشَّريعة وبيروت والشَّوْبَك وعَكّا [٢]. وكرّر المحاولة فى عام ٥٥٣هـ/١١٥٨م حيث وصلت قواته إلى بيت المقدس مما اضطر الفِرِنْج إلى طلب الصُّلْح. وقد بلغ جملة ما أنفقه الصّالح طَلائِع على العساكر فى هذه الحملات أكثر من مائة ألف دينار [٣].

وأدرك الصّالِح أن مصر لا تستطيع بمفردها مواجهة المملكة اللاتينية فى بيت المقدس، فاستعاد التقليد الذى بدأه قبله العادل ابن السّلار فأرسل إلى نور الدين، صاحب دمشق، يطلب إليه توحيد جهودهما. وكان رسول الصّالح طلائع فى هذه المهمة الأميرُ أسامة بن مُنْقِذ الذى تبادل معه مجموعة من القصائد قصد بها تيسير مهمته لدىَ نور الدين لخَلْق نوع من التحالف بين مصر الشيعية والشام السنية ضد الفِرِنْج فى الشام [٤]. وتأكيدًا لنيته أرسل الصّالح سفارة إلى نور الدين ومعها هدية «من الأسلحة وغيرها قيمتها ثلاثون ألف دينار، وسبعون ألف دينار عَيْنًا عونًا له على قتال الفِرِنْج» [٥].

وقد تنبّه الفِرِنْج إلى خطورة مثل هذا التحالف عليهم، فأرسلوا فى سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م رسولًا إلى القاهرة ومعه هدية لطلب الهُدْنَة [٦]، ولكن الصّالِح رَفَضَ ذلك واستمر على مساندته لنور الدين.

---

[١] ابن القلانسى: ذيل ٣٣٢؛ أبو شامة: الروضتين ١: ٢٥٢– ٢٥٣؛ ابن ميسر: أخبار ١٥٣؛ المقريزى: اتعاظ ٣: ٢٢٤.

[٢] نفسه ٣٣١، ابن ميسر: أخبار ١٥٥، النويرى: نهاية ٣٢٠– ٣٢١، المقريزى: اتعاظ ٣: ٢٣٠.

[٣] أبو شامة: الروضتين ١: ٢٨٨؛ ابن ميسر: أخبار ١٥٦؛ المقريزى: اتعاظ ٣: ٢٣٤.

[٤] أبو شامة: الروضتين ١: ٢٨٨: ٢٩٩.

[٥] ابن القلانسى: ذيل ٣٥٣، ابن ميسر: أخبار ١٥٣؛ المقريزى: اتعاظ ٣: ٢٣٤.

[٦] المقريزى: اتعاظ ٣: ٢٣٦.

كان من الطبيعى أن تتآلف المملكتان الإسلاميتان فى دمشق والقاهرة فى مواجهة الفِرِنْج ، ولكن اختلاف المذاهب الدينية وَقَفَ حَجَرَ عَثْرة فى سبيل هذا الائتلاف .

كانت هذه آخر محاولة للملك الصّالِح إذ أن هموم السياسة والمشاكل الداخلية لم تترك له متسعًا من الوقت لاستعادة مهاجمة الفِرِنْج . ومع ذلك فقد كان يحترز منهم ويخشى انتقامهم ، فبنى فى سنة ٥٥٤هـ/ ١١٥٩م حِصْنًا من لبن على بِلْبَيْس حَفِظَ له خلفاؤه من الوزراء امتنانًا كبيرًا عليه[١].

وإذا كانت هذه هى آخر محاولات وزراء الفاطميين فى مهاجمة الفِرِنْج ، فإن الفِرِنْج أخذوا بعد هذا التاريخ يهتمون بأمر مصر وصراعاتها الداخلية كما سنرى بعد ذلك . ولسبب مجهول فقد التزم الملك الصّالِح بأن يدفع للفِرِنْج جِزْيَة سنوية مقدارها ٣٣ ألف دينار ، امتنع شاوَر السَّعْدى بعد أن تولّى الوزارة عن أدائها لهم[٢].

وإلى الصّالِح طلائع يرجع فضل بناء آخر المعالم العمرانية للفاطميين فى القاهرة ، وهو الجامع الذى مازال قائمًا إلى الآن خارج باب زُوَيْلة والذى يعود تاريخ بنائه إلى سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م[٣].

أطماعُ الصّالِح طَلائِع

كان الملك الصّالح يطمع فى أن يجعل أمر الخلافة الفاطمية فى عقبه ، فعندما توفى الخليفة الفائز فى ١٧ رجب سنة ٥٥٥هـ/٢٣ يولية سنة ١١٦٠م دون وريث ، أقام مكانه فى الخلافة الأمير عبد الله حفيد الحافظ ، وهو أصغر الأقارب[٤]، ونعته بـ « العاضِد

---

[١] المقريزى : اتعاظ ٣ : ٢٣٦ .

[٢] أورد خبر هذه الجزية غليوم أسقف صور Cahen, Cl., «Un récit inédit du vizirat de Dirghâm», *An. Isl.* VIII (1969), pp. 29-30,40,42 .

[٣] المقريزى : الخطط ٢: ٢٩٣، النويرى : نهاية ٢٨: ٣٢٦ وفيما يلى ص ٦٢٠ .

[٤] يلاحظ أن الصّالح أقام العاضد خليفة مباشرة وليس «إمامًا مستودعًا» كما تقضى بذلك العقيدة الإسماعيلية . =

لدين الله » وزَوَّجه من ابنته عسى أن تُرزَق منه ولدًا « فيجتمع لبنى رُزّيك الخلافة مع الملك »[١].

وأشار إلى ذلك عمارة اليمنى فى إحدى قصائده التى يمدح فيها آل رُزِّيك ، يقول :

فكيف وقد أضحَى إمامُ زمانكم لكم جامعًا بين الكفالة والصِّهْر[٢]

وقد استبدّ الصّالِح بجميع أمور الدولة ولم يكن للعاضِد معه أمرٌ ولا نهى ، حتى إنه نَقَلَ جميع أموال القصر إلى دار الوزارة .

ضاق الخليفة العاضد بتسلُّط طَلائِع عليه ، كما أن نساء القصر لم يقبلن بسهولة زواج ابنته من الخليفة ؛ فدبَّرت السيدة العمة ست القصور - أخت الظّافِر الصغرى - لقتله حيث تَرَبَّص له بعض الخُدّام فى دِهْليز القصر وأردوه قتيلًا فى ١٩ رمضان سنة ٥٥٦هـ/١١ سبتمبر سنة ١١٦١م[٣].

كانت آخر كلمات الصّالِح عند وفاته أسفه على أنه لم يعمل على غزو بيت المقدس واستئصال شأفة الفِرِنْج . وعلى بنائه جامعه على باب زُوَيْلة لأنه مَضَرَّة على القاهرة ،

= كما أنه اختار أصغر أقارب الخليفة المتوفى وليس أكبر الأقارب سنًا . فقد أشار عليه أصحابه باختيار أصغر الأقارب كما فعل الوزير عبّاس مع إخوة الظّافِر ، وراجع Wiet, G., *EI*² art. *al-ʿÂdid li-Dini llâh* I, pp. 202-203 .

[١] المقريزى : اتعاظ ٣: ٢٤٦؛ قارن عمارة اليمنى : النكت العصرية ٥٣، ٦١، ٦٢؛ ابن ظافر : أخبار ١١٢؛ ابن الأثير : الكامل ١١: ٢٥٥، ٢٧٤؛ الصفدى : الوافى ١٦: ٥٠٣؛ أبا المحاسن :النجوم ٥ : ٣١٨؛ النويرى : نهاية ٢٨: ٣٢٣ .

[٢] عمارة اليمنى ، النكت العصرية ٢٣٦ .

[٣] عمارة اليمنى : النكت ٤٨، ١٠٠، ١٤٥ (وفيه أنه لما قتل الصالح هاجت القاهرة وماجت)، عماد الدين الأصفهانى : البستان الجامع ١٣٣، ابن ظافر : أخبار ١١٢، ساويرس : تاريخ البطاركة ٣ : ١ : ٤٧، ابن الأثير : الكامل ١١: ٢٧٤، أبو شامة : الروضتين ١: ٣١١- ٣١٣، ٤١٠، ابن خلكان : وفيات ٢: ٥٢٨، النويرى : نهاية ٢٨: ٣٢٤؛ ابن الفرات : تاريخ-خ٥ : ٧٩ ظ ؛ الصفدى : الوافى ١٧: ٦٨٦؛ ابن منيد : النجوم ٢٢٢؛ المقريزى: الخطط ٢: ٢٩٤، اتعاظ ٣: ٢٤٦- ٢٤٨؛ أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٣٤٥، ٣٥٩- ٣٦٠؛ Dadoyan, S.B., *op.cit.*, pp. 154-167 .

وتحذيره لابنه لكى يحترس من شاوَر حاكم الصعيد وألّا يتعرض له بإساءة لأنه لن يأمن عصيانه [١].

وَزَارةُ العادِل رُزّيك

خَلَفَ الصَّالِح طَلائِع فى منصب الوزارة ولده رُزّيك وتلقَّب بـ « الملك العادل » وعمل على إصلاح سياسة والده حيث سامح الناس بما عليهم من البواقى الثابتة فى الدواوين ، وأسْقَطَ من رسوم الظلم مبالغ عظيمة ، وأدَّى عن الحُجّاج ما يلزمهم إلى أمير الحرمين [٢].

حاول المقرّبون من العادل رُزّيك أن يُحَسّنوا إليه صرف شاوَر عن ولاية قوص ليتم له الأمر بلا منافسة ، فأقصاه - بالرغم من وصية والده - سنة ٥٥٧هـ/ ١١٦٢م وعَيَّنَ محله الأمير نصير الدين شيخ الدولة ابن الرِّفْعَة واليًا على قوص [٣]. وقد اضطر شاوَر بعد محاولة للسير صوب القاهرة أوقفها رُزّيك فى مصر الوسطى أن يقبل مؤقتًا هذا الإقصاء حيث توجّه بقواته إلى الواحات ومنها إلى أقاليم غرب الدلتا إلى أن تمكّن من الاستيلاء على القاهرة من جهة الشمال فى سنة ٥٥٨هـ/ ١١٦٣م [٤].

---

[١] ابن الأثير : الكامل ١١: ٢٩٠؛ ابن خلكان : وفيات ٢: ٤٣٩- ٤٤٠؛ النويرى : نهاية ٢٨: ٣٢٨؛ ابن أيبك : كنز الدرر ٧: ١٩؛ المقريزى اتعاظ ٣: ٢٥٤ : الخطط ٢: ٢٩٣ .

[٢] المقريزى : اتعاظ ٣: ٢٥٣ ؛. Bianquis, Th., *EI*[2] art. ***Ruzzik b. Talâ'i'*** VIII, pp. 672-73; Dadoyan, S.B., *op.cit.*, pp. 167-178 .

[٣] نفسه ٣ : ٢٥٤؛ النويرى : نهاية ٢٨: ٣٢٨ .

[٤] نفسه ٣: ٤: ٥٢٥ نفسه ٢٨ : ٣٢٩ .

الفصل التاسع
النّهاية
وانقلاب صلاح الدّين

كانت السنوات الأخيرة فى عمر الدولة الفاطمية سلسلة من الصراعات والحروب بين ولاة الأقاليم المتنافسين على منصب الوزارة والقوى الخارجية التى استعانوا بها لتثبيت مكانتهم.

الصّراع بين شاوَر وضِرْغام

ففى سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م تغلّب شاوَر بن مجير السّعْدى، والى قوص، على الملك العادل رُزّيك بن الصّالح طَلائِع واعتقله، ثم قتله طَىّ بن شاوَر فى ٢١ رمضان سنة ٥٥٨هـ/٢٣ أغسطس سنة ١١٦٣م[١]. وعَلّق عمارة اليمنى على هذه الأحداث قائلا «إنما زالت دولة مصر بزوالهم»[٢].

كان شاور قد تولّى الوزارة فى ٢٢ محرم سنة ٥٥٨هـ/يناير سنة ١١٦٣م، ولم تكد تمضى على تولّيه الوزارة تسعة أشهر حتى نافسه عليها أبو الأشبال ضِرْغام بن عامر ابن سوار المنذرى، مُقَدّم الأمراء البَرْقِيّة وصاحب الباب (وهى رتبة تلى الوزارة

---

[١] عمارة اليمنى: النكت ٦٦-٦٧؛ مؤلف مجهول: أخبار الدولة المصرية ٤٤٠؛ ساويرس: تاريخ البطاركة ٣/١: ٥٠، أبو شامة: الروضتين ١: ٤١٦؛ ابن خلكان: وفيات ٢: ٤٤٠؛ النويرى: نهاية ٢٨: ٣٣٠؛ المقريزى: الخطط ٢: ٤٦؛ اتعاظ ٣: ٢٥٧-٢٥٩؛ أبو المحاسن: النجوم ٥: ٣٤٦؛ ابن قاضى شهبة: الكواكب الدرية ١٦٣.

[٢] عمارة: النكت العصرية ٦٨.

مباشرة)[١]، الذى تمكَّن من الظهور عليه بعد قتال انتهى بمقتل الأمير طَىّ بن شاوَر يوم الجمعة ٢٨ رمضان سنة ٥٥٨هـ/٢ سبتمبر سنة ١١٦٣م، فخَلَعَ عليه العاضِد خِلَعَ الوزارة ولَقَّبه بـ « الملك المنصور »[٢].

اضطر شاوَر إلى الفرار من مصر قاصدًا الشام فى آخر رمضان سنة ٥٥٨هـ/سبتمبر سنة ١١٦٣م مستنجدًا بالسلطان العادل نور الدين محمود، صاحب دمشق، فوَصَلَ إليها فى ٦ ربيع الأول سنة ٥٥٩هـ/٥ فبراير سنة ١١٦٤م وتَعَهَّد له إن هو ساعده فى إعادته إلى منصبه والقضاء على منافسه ضِرْغام أن يدفع له ثُلُث خراج مصر بعد إقْطاعات العساكر، ويكون معه من أمراء الشام من يقيم معه فى مصر، وأن يتصرَّف هو بأوامر نور الدين واختياره[٣].

كانت محاولة شاوَر الاستعانة بأمراء الدول المجاورة هى مُؤَشِّر نهاية الدولة الفاطمية، فقد دلَّت أمراء الشام ثم ملوك الفِرِنْج بعد ذلك على مواطن ضعف الدولة وأغرتهم بالطمع فيها والاستيلاء عليها.

كان نداءُ شاوَر لنور الدين نقطة تحوُّل هامة فى مستقبل سياسة نور الدين، فقد وَجَّه أنظار الأمير الشامى صوب مصر الذى كان قد أدرك التفسُّخ الداخلى للدولة منذ لجوء

---

[١] ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٢٢ . وعن ضر غام راجع، المقريزى : الخطط ١: ٤٣٩، ٢ : ١٢- ١٣، اتعاظ ٣ : ٢٦؛ Canard, M., *EI*[2] art. *Dirghâm* II, pp. 327-28 .

[٢] عمارة : النكت ٦٨- ٦٩؛ ٨١؛ مؤلف مجهول : أخبار الدولة المصرية ٤٠- ٤١؛ عماد الدين الأصفهانى : البستان الجامع ١٣٤؛ ابن الأثير : تاريخ الباهر ١٢٠، الكامل ١١ : ٢٩١؛ ابن شداد : النوادر السلطانية ٣٦، أبو شامة : الروضتين ١ : ٤١٧؛ ابن خلكان : وفيات ٧ : ١٤٥؛ النويرى : نهاية ٢٨: ٣٣١؛ الصفدى : الوافى ١٦: ٥٠٧؛ المقريزى : الخطط ١: ٣٣٨، ٢: ١٢، اتعاظ ٣: ٢٦٠، ٢٦١؛ أبو المحاسن : النجوم ٥: ٣٣٨، ٣٤٦ .

[٣] ابن ظافر : أخبار ١١٤؛ ابن الأثير : تاريخ الباهر ١٢٠، الكامل ١١: ٢٩٨؛ ابن شداد : النوادر السلطانية ٣٦؛ البندارى : سنا البرق الشامى ١٩؛ أبو شامة : الروضتين ١ : ٣٣١- ٣٣٣، ٤١٧، ٤١٨؛ ابن واصل : مفرج الكروب ١: ١٣٧- ١٣٨؛ ابن خلكان : وفيات ٢: ٤٤١، ٤٤٤، ٧ : ١٤٥- ١٥١؛ النويرى : نهاية ٢٨ : ٣٣٢؛ السبكى : طبقات الشافعية ٧ : ٣٤١؛ الصفدى : الوافى : ١٦ : ٩٤، ٣٦٥؛ المقريزى : اتعاظ ٣ : ٢٦٤، الخطط ١: ٣٣٨؛ أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٣٣٨، ٣٤٦، ٣٨٧؛ ابن قاضى شهبة : الكواكب ١٦٤ .

أتباع الوزير المقتول العادل بن السّلار إليه سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م ، وأصبحت الظروف مواتية الآن للتدخُّل ، فقد كانت الدولة الفاطمية تحتضر ولم تكن تحتاج سوى قليل من الوقت لتلقى حتفها ، ومن ناحية أخرى فإن أى استقرار لعناصر شامية فى مصر أو فَرْض رقابة على حكومة الفاطميين كان سيتيح محاصرة المملكة اللاتينية فى بيت المقدس التى كان عليها مواجهة جبهتين واحدة فى الشمال والأخرى فى الجنوب ، كما أن الأسطول المصرى كان ما يزال قادرًا على إزعاج حركة سفن الفِرِنْج فى البحر [١].

وفى نفس الوقت الذى استُقْبل فيه شاوَر فى البلاط النورى ، أرسل منافسه ضِرغام إلى نور الدين رسالة يطلب فيها دعمه وتأييده فى منصبه الجديد . ولكن طلبه لم يُعره نور الدين أى اهتمام وخاب ظنه فى مسعاه . وبعد رَفْض نور الدين مساعدة ضِرغام حاول ضِرغام أن يكسب تأييد عمورى ملك بيت المقدس ليدافع عنه ضد أى هجوم يقوم به شاوَر ، وعَرَض عليه دَفْع مبلغ كبير من المال ، ولكن عموريًا تباطأ هو الآخر فى الرد عليه [٢].

حملةُ شيركوه الأولى على مصر

أجاب نور الدين شاور إلى مطلبه بعد تردُّد خوفًا منه من الفِرِنْج ، فأرسل معه فى جمادى الأولى سنة ٥٥٩هـ/ابريل سنة ١١٦٤م جيشًا على رأسه أسد الدين شيركوه ، الذى كان له دور أساسى فى اتخاذ نور الدين لقراره ، ليعيد شاوَر إلى منصبه .

لم يكن ضِرغام يجهل أن جيش نور الدين جاء ليعيد منافسه شاوَر إلى الوزارة ، وأن العهود التى قطعها شاوَر لنور الدين ستمكّنه من الاستيلاء على مصر واستغلالها لصالحه .

---

١ Elisséeff, N., *Nûr al-Din, un grand prince musulman de Syrie au temps des Croisades*, II, p. 585.

٢ أبو شامة : الروضتين ١: ٤١٨؛ المقريزى : اتعاظ ٣: ٢٦٣، ٢٧٦ .

وقد أدرك ضِرْغام أنه ضائع لا محالة . وبما أنه لم تكن له ثقة فى قُوّاته فقد وَجّه نداءً جديدًا إلى الفِرِنْج ، وعَرَضَ على عمورى - إذا استطاع أن يقطع الطريق على شيركوه - عَقْد تحالف معه يجعل مصر فى حالة انتصار الفِرِنْج مقطعةً لمملكة بيت المقدس بدلًا من أن تكون تابعة للسوريين . وقد قبل عمورى هذا العرض واستعد للتدخل ، ولكنه لم يكن يملك قواتًا كافية فقد نجح نور الدين فى تحويل أنظار الفِرِنْج إلى ناحية بانْياس ليحمى تقدُّم قوات شيركوه ، وجعلهم مضطرين إلى استبقاء بعض القوات هناك [١].

وقد انتهى تدخُّل الجيوش الشامية بقَتْل ضِرْغام فى رجب سنة ٥٥٩هـ/يونية ١١٦٤م عند المشهد النفيسى جنوب القاهرة ، بعد أن تَفَرّق عنه أنصاره وتخلّى عنه الخليفة العاضد [٢].

شـــاوَر يعود إلى الوزارة

وفور القضاء على ضِرْغام أصدر الخليفة العاضد سجلًا بتولية شاوَر الوزارة للمرة الثانية فى الرابع من رجب سنة ٥٥٩هـ/٢٦ يونية سنة ١١٦٤م [٣]، يقول أبو شامة : « ولم يُغْلَب وزيرٌ لهم وعاد سوى شاوَر » [٤]. وبالطبع لم يف شاوَر بتعهُّداته التى قَطَعَها

---

١ Elisséeff, N., *op.cit.*, II, pp. 582-84 .

٢ عمارة : النكت ٧٧؛ أبو شامة : الروضتين ١: ٣٣٢-٣٣٣، ٤٢٠؛ ابن واصل : مفرج الكروب ١ : ١٣٩؛ النويرى : نهاية-ح ٢٦ : ١٠٠؛ ابن خلكان : وفيات ٢ : ٤٤٢، ٧ : ١٤٦؛ المقريزى : اتعاظ ٣: ٢٧٠، الخطط ٢: ١٢-١٣ . وتجد تفصيل الحرب التى دارت بين شاور وضرغام وحديث عن أبواب القاهرة واستحكاماتها فى نص مجهول المؤلف نقله ابن الفرات فى تاريخه واعتمد عليه المقريزى فى الخطط والاتعاظ ونشره كلود كاهن سنة ١٩٦٩ ، Cahen, Cl., «Un récit inédit du vizirat de Dirghâm», *An. Isl.* VIII (1969), pp. 27-61 .

٣ انظر نص سجل توليه شاور الوزارة للمرة الثانية عند القلقشندى : صبح ١٠ : ٣١٠-٣١٨؛ الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ١٥٥، ٣٦٩-٣٧٩، وهو من إنشاء المُوَفَّق بن الخَلّال .

٤ أبو شامة : الروضتين ١: ٣٣٤ .

لنور الدين ، بل طَلَبَ إلى شيركوه أن يغادر مصر ويعود على الفور مع قواته إلى الشام . ولكن شيركوه سارع بإرسال قواته فاستولت على بِلْبَيْس وحكم على البلاد الشرقية [١] .

لم يجد شاوَر أمامه هذه المرة سوى اللجوء إلى الفِرِنْج يطلب نجدتهم ومساعدتهم على إخراج جيوش نور الدين ويُخَوِّفهم منه إن هو ملك مصر . وإذا كان لجوء شاوَر لطلب نجدة نور الدين يعد خيانةً لأنه قَصَدَ أميرًا سنيًّا مواليا لبغداد ومخالفا لعقيدةَ الدولة التي يُمَثِّلَها ، فإن لجوءه في هذه المرة إلى عمورى الأول Amaury Ier ملك مملكة بيت المقدس ، يُعَدُّ خيانةً كاملة الأركان ؛ إذ إنه لم يطلب في هذه المرة مساعدة حاكم مسلم بل لجأ إلى أعداء المسلمين يُطْلعهم على نقاط ضعف بلاده ويُطْمِعهم فيها .

وقد رَحَّب الفِرِنْج - الذين وَعَدَهم شاوَر بدفع ألف دينار يوميًا - بهذا العرض على أمل أن يتمكَّنوا من الاستيلاء على مصر لحسابهم ، وبعد أن حاصروا قوات شيركوه في بِلْبَيْس لمدة ثلاثة أشهر ، قَبِل شيركوه عرضًا بالعودة إلى الشام بعد أن اضطر الفِرِنْج إلى فَضِّ حصارهم ومغادرة مصر بعد أن علموا بهزيمة قواتهم في حارِم ، وبتقدُّم جيوش نور الدين صوب بانْياس [٢] .

كان شاوَر هو الفائز الحقيقي في هذا الصِّراع ، فبعد أن أعادته جيوش شيركوه إلى منصب الوزارة ، نَجَحَ بفضل تدخُّل نور الدين ضد جيوش عمورى في فلسطين في

---

[١] ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٢١- ١٢٢، الكامل ١١: ٢٩٩- ٣٠٠؛ أبو شامة : الروضتين ١: ٣٣٥؛ ابن واصل : مفرج الكروب ١: ١٣٩؛ النويرى : نهاية ٢٨: ٣٣٤؛ المقريزى : اتعاظ ٣ : ٢٧٤- ٢٧٨؛ الصفدى : الوافى ١٦: ٢١٤- ٢١٥؛ ابن قاضى شهبة : الكواكب ١٦٥ .

[٢] نفسه ١٢٢، ١٢٥، ١٣٠؛ نفسه ١١: ٣٠٠- ٣٠٤؛ نفسه ١: ٣٣٦، ٤٢٣؛ نفسه ١: ١٤٠، ١٤٣، ١٤٦؛ نفسه ٢٨ : ٣٣٦؛ نفسه ٣: ٢٧٧؛ ابن قاضى شهبة : الكواكب ١٦٦ .

يذكر أبو صالح الأرمنى أن الغز الأكراد قاموا ومعهم عوام أهل مصر بهدم وإحراق العديد من البيع والكنائس فى أثناء حملة شيركوه الأولى سنة ٥٥٩، عندما علموا باستنجاد شاور بملك بيت المقدس لينصره عليهم . (تاريخ ٣٣، ٣٥، ٤٠).

التخلُّص من جيوش السوريين وجيوش الفِرِنْج على السواء، وأصبح طوال العامين التاليين ابتداء من المحرم سنة ٥٦٠هـ/ نوفمبر سنة ١١٦٤م هو صاحب الأمر والنهى والمتحكِّم فى مقادير مصر وتَخَلَّص من أنصار ضِرْغام وفَرَضَ على الخليفة وصايته الكاملة.

حملة شيركوه الثانية على مصر

ظَلَّ شيركوه منذ أن اضطر إلى الخروج من مصر يُفَكِّر فى كيفية العودة إليها مرة أخرى للاستيلاء على السلطة بالقاهرة، فقد داعبته فكرة الاستقلال بها والخروج على سيطرة نور الدين وإقامة سلطة قوية مستقلة فى مصر.

هكذا جاءت حملة شيركوه الثانية على مصر فى سنة ٥٦٢هـ/١١٦٧م، والتى اصطحب فيها ابن أخيه صلاح الدين[١]. وقد أيقن شاوَر من استقراء الأحداث أن شيركوه إذا قدم إلى مصر فى هذه المرة فسيكون بنيّة البقاء فيها وعدم مغادرتها. لذلك فإنه لم يتوان عن التفاوض مع الفِرِنْج موضِّحًا لهم الخطر الذى يُمَثِّله نور الدين على بيت المقدس لو نجح فى الاستيلاء على مصر، وقد رَحَّب الفِرِنْج للمرة الثانية بدعوة شاوَر طمعًا فى تملُّك مصر، وخوفًا من أن يستولى عليها نور الدين وجيوشه وبذلك يتمكَّن من تطويق مملكتهم التى ستصبح فى وسط ممتلكات نور الدين[٢]. وقد وعدهم شاور بدفع ٤٠٠ ألف دينار منهم مائتا ألف معجَّلة. كان مفاوض الفِرِنْج فى هذه الصفقة Hugues de Césarée ومعه Geoffroy Foucher ممثلًا للاسبتارية ولمزيد من التأكيد أراد الحصول على ضمانات كافية من الخليفة فى حالة تغيير متولِّى الوزارة. وقد شرح شاوَر للخليفة أهمية هذا التحالف وتم توقيع اتفاق بهذا المعنى[٣]. ورغم أن المصادر العربية لم يرد بها ذكرٌ لهذا اللقاء الذى تَمَّ بين مبعوثى الملك عمورى والخليفة العاضِد، فإن غُلْيوم أسْقُف

---

[١] ابن شداد: النوادر السلطانية ٣٦؛ أبو شامة: الروضتين ١ : ٣٦٣؛ ابن واصل: مفرج ١: ١٤٩.

[٢] أبو شامة: الروضتين ٢: ٣٦٤؛ ابن واصل: مفرج الكروب ١ : ١٤٩.

[٣] Elisséeff, N., *op.cit.*, II, p. 604.

صور Guillaume de Tyr حَفِظَ لنا بتفاصيل غنية رُسُوم هذا الاحتفال الذى تَمَّ فى القصر الفاطمى بحضور الوزير شاوَر [١].

وحتى يتفادى شيركوه مواجهة مُبَكِّرَة مع الفِرِنْج عَبَرَ النيل عند إطْفيح ونَزَلَ بالجيزة وأقام بها نيفًا وخمسين يومًا متصرِّفًا فيها [٢]. وبعد سلسلة من المناوشات تعرَّضت لها بالتفصيل كتب الحوليات، تقابل الجيشان السورى والفرنجى فى مصر العُلْيا حيث نجح شيركوه فى تحقيق انتصار على الفِرِنْج فى ٢٥ جمادى الثانية سنة ٥٦٢هـ/١٨ إبريل سنة ١١٦٧م فى معركة «البابَين» قرب الأُشْمونَيْن [٣]. ولكن هذه المعركة لم تَحْسِم الموقف، فبدلًا من أن يتوجَّه شيركوه إلى القاهرة خَلْف جيش شاوَر والفِرِنْج قَصَدَ الإسكندرية وجبى ما فى طريقه من القرى، وقد وَجَدَ شيركوه فى الإسكندرية قُوَّة دعم له، فالإسكندرية معقل من معاقل السنة بمصر، وقد أرسل إليه رؤساؤها يعرضون عليه تسليمها إليه ويُعَرِّفونه أنه سيجد فيهم أنصارًا مخلصين. فاستناب بها صلاح الدين وعاد هو إلى الصَّعيد حيث ملكه وجبى أمواله [٤].

كان تقسيمُ جيش نور الدين إلى قسمين قسم فى الإسكندرية بقيادة صلاح الدين وآخر فى الصَّعيد بقيادة شيركوه فى غير صالح القوات السورية. فقد نَجَحَ شاوَر والفِرِنْج

---

[١] Schlumberger, G., *Compagnes du Roi Amaury I^er de Jéursalem en Egypte au XII siècle*, Paris 1906, pp. 118-121 وانظر فيما يلى ص ٣٨٠- ٣٨١، ٤٠٣- ٤٠٤.

[٢] ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٣٢؛ أبو شامة : الروضتين ١: ٤٢٤؛ ابن واصل : مفرج ١ : ١٤٩؛ ابن قاضى شهبة : الكواكب ١٦٩ .

[٣] نفسه ١٣٢؛ نفسه ١ : ٣٦٥؛ نفسه ١: ١٥١؛ المقريزى : الاتعاظ ٣: ٢٨٤؛ Ehrenkreutz, A.S., *Saladin* pp. 41-44.

[٤] عمارة : النكت ٨٠؛ عماد الدين الأصفهانى : البستان الجامع ١٣٦- ١٣٧؛ ابن ظافر : أخبار ١١٥؛ ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٣٣، الكامل ١١: ٣٢٤- ٣٢٦؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ٨: ٢٦٩؛ أبو شامة : الروضتين ١: ٣٦٥- ٣٦٦، ٤٢٤؛ ابن خلكان : وفيات ٧ : ١٤٧- ١٤٨؛ ابن واصل : مفرج ١: ١٥١؛ النويرى . نهاية ٢٨ : ٣٣٧؛ المقريزى : الخطط ١: ١٧٤، ٣٣٨، اتعاظ ٣: ٢٨٤؛ أبو المحاسن : النجوم ٥: ٣٨٧؛ ابن قاضى شهبة : الكواكب ١٧١-١٧٢ .

فى إعادة تنظيم قواتهم وتوّجها لمحاصرة الإسكندرية ، وانتهى الأمر بعقد صُلْح بين الفِرِنْج والمصريين من جهة والجيش السورى من جهة أخرى ، حيث بَذَلَ الفِرِنْج والمصريون لشيركوه خمسين ألف دينار مقابل مغادرته مصر ، فوافق على ذلك بشرط عدم إقامة الفِرِنْج فى البلاد وأن لا يتملّكوا منها قرية واحدة وأن يعود الجيشان فى وقت واحد إلى الشام وفلسطين[1].

ومع ذلك فقد جاء اتفاق المصريين مع الفِرِنْج باهظًا ومكلّفًا للمصريين الذين كان عليهم قبول تواجد « شِحْنَة » للفِرِنْج بالقاهرة ، وأن تكون أبواب المدينة بأيدى فرسانهم حتى يمتنع نور الدين عن إرسال عسكر إليها وأن يكون لهم كذلك مِن دَخْل مصر كل سنة مائة ألف دينار[2].

فُرسان الفِرِنْج يدعون عموريًا لغزو مصر

كان الغرض من ذلك هو محاولة مَنْع جيوش نور الدين من العودة إلى مصر وحماية الجباة الذين كانوا يُحَصِّلون الجِزْيَة المفروضة حيث نجحوا فى جمع مائة ألف دينار قيمة الجِزْيَة السنوية المتفق عليها . وقد نَبّه هؤلاء الفُرْسان الفِرِنْجَ فى بيت المقدس إلى ضَعْف وعدم استقرار الحكومة الفاطمية فى مصر ، وأوضحوا لهم أن البلاد لا يوجد بها من يُدافع عنها ، وهَوّنوا عليهم عملية غزو مصر ، وأيّدهم فى ذلك جماعةٌ من أعيان مصر

---

[1] ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٣٤ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٣٦٦ ؛ ابن واصل : مفرج ١ : ١٥١ ؛ ابن قاضى شهبة : الكواكب ١٧٢ .

[2] ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٣٤ ، الكامل ١١ : ٣٢٧ ، ٣٣٥ ؛ ابن واصل : مفرج ١ : ١٥٥ ؛ ابن خلكان : وفيات ٢ : ٤٤٥ ؛ أبو شامة : الروضتين ١ : ٣٦٦ ؛ ابن الفرات : تاريخ ٤/١ : ١٩ - ٢٤ ؛ المقريزى : الخطط ١ : ٣٣٨ ؛ أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٣٤٩ ؛ ابن قاضى شهبة :الكواكب ١٧٢ .

وكان الصالح طلائع يحمل إلى الفرنج كل سَنة ٣٣ ألف دينار لا نعلم سببها (مؤلف مجهول : أخبار الدولة المصرية ٤٠ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٢٥٩) .

كراهة منهم لشاوَر وحكمه [١]. ومن ناحية أخرى فإن الرأى العام فى مصر لم يكن ينظر بارتياح إلى وجود « شِحْنَة » للفِرِنْج فى القاهرة ، كما أن كثيرًا من المصريين لم يقبلوا بتصرُّف شاوَر المهين ، فقد أرسل الكامل شُجاع ابن الوزير شاوَر يعرض على نور الدين الدخول فى طاعته ويضمن له أن يجمع كلمة المصريين وراءه ، وقد وافقه نور الدين على ذلك [٢].

لاشك أن الكامل بن شاوَر لم يُكاتب نور الدين إلَّا بعد أن عَيَّنه الخليفة العاضِد نائبًا لأبيه . فقد أورد القلقشندى سِجِلًا هامًّا بتولية ابن شاوَر نيابة الوزارة عن أبيه ، وهى المرة الأولى التى عُيِّن فيه لأحد وزراء الفاطميين نائبٌ أثناء وجوده ومباشرته الحكم ، ويدل صدور هذا السِّجِلّ على أن شاوَر قد ضَعُفَ شأنه وضَعُفَت ثِقَةُ الخليفة فيه فى أواخر أيامه ، ويَدُلُّ كذلك على أن الكامل ابن شاوَر كان مدركًا لخطر الفِرِنْج ومَبْلَغ أطماعهم فآثر أن يربط سياسته وسياسة مصر بالاتفاق مع نور الدين ، فانتقال مصر إلى يد أمير مسلم أهون من انتقالها إلى أيدى الفِرِنْج [٣].

لم يستجب عمورى بسهولة إلى إلحاح الفُرْسان على ضرورة الإسراع بغزو مصر ، فقد كان يرى أنه لا داعى الآن لمهاجمة مصر بما أنها تحمل إليهم جِزْيَة سنوية يتقوون بها على مواجهة نور الدين فى الشام ، كما أن أهالى مصر وعساكرها سيدافعون عنها بالقطع أمام الفِرِنْج ، وسيحملهم الخوف منهم على تسليم البلاد إلى نور الدين [٤].

---

[١] ابن الأثير : الكامل ١١ : ٣٣٦؛ أبو شامة : الروضتين ١ : ٣٨٩؛ ابن واصل : مفرج ١ : ١٥٥-١٥٦؛ ابن الفرات: تاريخ ١/٤: ٢١ .

[٢] ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٣٤، الكامل ١١: ٣٢٧؛ أبو شامة : الروضتين ١: ٣٦٦؛ ابن واصل : مفرج ١: ١٥٢؛ المقريزى : اتعاظ ٣: ٢٨٤ .

[٣] القلقشندى : صبح الأعشى ١٠: ٣١٨- ٣٢٥؛ جمال الدين الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ١٥٧- ١٧٠، ٣٥٧-٣٦٦ وانظر عمارة اليمنى : النكت المصرية ٨٨ .

[٤] ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٣٧؛ أبو شامة : الروضتين ١ : ٣٩٠ .

وأمام إلحاح الفُرْسان اضْطُرّ عمورى إلى إجابتهم على كره منه ، وسارت قوات الفِرِنْج من عَسْقَلان فى النصف من المحرم سنة ٥٦٤هـ/٢٠ أكتوبر سنة ١١٦٨م حيث وصلوا إلى بِلْبَيْس فى أول صفر وتمكّنوا من حصارها وتملُّكها وسَبَوا أهلها وأقاموا بها مدة خمسة أيام توجّهوا بعدها إلى القاهرة حيث أناخوا عليها وحاصروها فى عاشر صفر/١٣ نوفمبر . وقد دَفَعَ خوف أهالى القاهرة من أن يفعل بهم الفِرِنْج مثلما فعلوا بأهالى بِلْبَيْس إلى الدفاع عن المدينة والقتال دونها وشرع شاوَر فى إنشاء حصن على مصر الفُسْطاط ، ولم يبق أحدٌ من أهل مصر إلّا عمل فيه وحفر حولها خندقًا [١]، يقول ابن الأثير : « ولو أن الفِرِنْج أحسنوا السيرة مع أهل بِلْبَيْس لملكوا مصر والقاهرة بسرعة » [٢].

حَريقُ الفُسْطاط الثانى

عندما علم شاوَر بما فعله الفِرِنْج فى بِلْبَيْس أمر فى تاسع صفر - أى قبل نزول الفِرِنْج على القاهرة بيوم واحد - بإحراق الفُسْطاط وأمر أهلَها بالانتقال إلى القاهرة وأمر الجنود بنهب الفُسْطاط ، فهُجِرَت ونُهِبَت وبقيت النار تعمل فيها أربعة وخمسين يومًا [٣]. وقد لجأ شاور إلى ذلك حتى لا يَتّخذ الفِرِنْج من الفُسْطاط قاعدةً يغيرون منها على القاهرة ، كما أن القاهرة بأسوارها وأبوابها كانت قادرة على مقاومة هذا الهجوم إن تمّ .

---

[١] أبو شامة : الروضتين ١: ٣٩٠ ابن واصل : مفرج ١: ١٥٧؛ النويرى : نهاية ٢٨ نه٣٣٨؛ المقريزى : اتعاظ ٣ : ٢٩٦؛ Ehrenkreutz, S., *op.cit.*, pp. 480 50; Lev, Y., *Saladin in Egypt* pp. 59-60 .

[٢] ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٣٨، الكامل ١١: ٣٣٦ .

[٣] عماد الدين الأصفهانى : البستان الجامع ١٣٨؛ ابن ظافر : أخبار ١١٦؛ ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٣٨، الكامل ١١: ٣٣٦؛ أبو شامة : الروضتين ١ : ٣٩١، ٤٣٢؛ ابن واصل : مفرج ١ : ١٥٧؛ ابن أيبك : كنز الدرر ٧: ٣٠؛ النويرى : نهاية ٢٨: ٣٣٩- ٣٤٠؛ ابن الفرات : تاريخ ١/٤ : ٢٤- ٢٥؛ المقريزى الخطط ١: ٢٨٦، ٣٣٨- ٣٣٩، اتعاظ ٣: ٢٩٦- ٢٩٧؛ أبو المحاسن : النجوم ٥: ٣٥٠؛ ابن قاضى شهبة : الكواكب ١٧٥- ١٧٦؛ وعالج فلاد يسلاف كوبياك موضوع حريق الفسطاط بتفاصيل جديدة فى مقاله Kubiak, W., «The Burning of Misr al-Fustat in 1168. A Reconsideration of Historical Evidence», *Africana Bulletin* XXV (1976), pp. 51-64 .

أحَس شاوَر بحرج موقفه وعجزه عن مقاومة الفِرِنْج ، فلجأ مرة أخرى إلى مراسلة عمورى مُذَكِّرًا له بما بينهما من مَوَدَّة ، ومُخَوِّفًا له فى نفس الوقت من نور الدين ، وأن المسلمين لن يوافقوه على تسليم البلاد ، ويطلب إليه عَقْد اتفاقية صُلْح حتى لا يُسَلِّم البلاد إلى نور الدين يدفع له بمقتضاها ألف ألف دينار يُعَجِّل له منها مائة ألف ، فأجابه عمورى إلى ذلك بشرط موافقة الخليفة العاضد فلم يكن الفِرِنْج يثقون فى شاوَر [١]. واستمرارًا فى سياسته فى ضَرْب قُوَّة الفِرِنْج بقُوَّة نور الدين طَلَبَ شاوَر إلى الخليفة العاضِد أن يكتب إلى نور الدين طالبًا معونته خوفًا من سقوط مصر فى أيدى الفِرِنْج فأُرْسِلَتْ « الكتب إلى نور الدين مُسَوَّدَةً وفى طيِّها ذوائب نساء أهل القصر مجزوزة » ويقول له فيها « إن لم تبادر ذَهَبَت البلاد » [٢].

حَمْلَةُ شِيرْكُوه الثالثة

كانت استجابة نور الدين وشيركوه سريعة لمطلب المصريين ، وأَمَدَّ نور الدين شيركوه ، فى هذه المرة ، بمائتى ألف دينار بالإضافة إلى الأسلحة والثياب والدَّواب ، وأذن له فى أن يختار من العسكر ألفى فارس ومنح كلًّا منهم عشرين دينارًا غير محسوبة من جامكيتهم ، فسار إلى مصر ومعه ستة آلاف فارس . ومجموعة من مقدمى الأمراء [٣]، كذلك نَدَبَ نور الدين صلاح الدين يوسف بن أيوب ابن أخى شيركوه

---

[١] ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٣٨؛ أبو شامة : الروضتين ١: ٣٩١- ٣٩٢؛ ابن خلكان : وفيات ٢: ٤٤٧؛ ابن واصل : مفرج ١: ١٥٧؛ المقريزى : اتعاظ ٣: ٢٩٨؛ ابن الفرات : تاريخ ١/٤: ٢٥ .

[٢] نفسه ١٣٨؛ الكامل ١١ : ٣٣٧؛ أبو شامة : الروضتين ١: ٣٩١- ٣٩٢؛ ابن خلكان : وفيات ٢: ٤٤٧؛ ابن واصل : مفرج ١: ١٥٧؛ المقريزى : اتعاظ ٣: ٢٩٨؛ ابن الفرات : تاريخ ٤/١ : ٢٥ .

[٣] نفسه ١٣٨؛ الكامل ١١: ٣٣٧؛ أبو شامة : الروضتين ١: ٣٩١؛ ابن واصل : مفرج ١ : ١٥٨؛ النويرى : نهاية ٢٨: ٣٤٠؛ ابن الفرات : تاريخ ٤/١: ٢٢؛ المقريزى : اتعاظ ٣: ٢٩٣؛ ابن قاضى شهبة : الكواكب ١٧٦ .

[٤] ابن الأثير : الكامل ١١: ٣٣٨، التاريخ الباهر ١٣٩؛ أبو شامة : الروضتين ١: ٣٩٤؛ ابن خلكان : وفيات ٢: ٤٤٧؛ ابن واصل . مفرج ١: ١٥٨؛ ابن الفرات : تاريخ ٤/١: ٢٦؛ المقريزى : اتعاظ ٣: ٢٩٤ .

ليمضى معه إلى مصر، فخرج معه على كره منه [١]، لا يعلم ما ينتظره من مجد فى مصر.

وبينما الفِرِنْج يستحِثُّون أهل القاهرة على حَمْل المال المتفق عليه، وَصَلَت مقدمة جيش شيركوه وصلاح الدين إلى مصر لنُصْرَة المصريين فى ٧ ربيع الأول سنة ٥٦٤هـ/ ٨ يناير سنة ١١٦٩م، فاضطر عمورى إلى مغادرتها مصطحبًا معه اثنى عشر ألف أسير ما بين رجل وصبى وامرأة [٢].

كان ظاهر مجىء شيركوه فى هذه المرة هو مساندة شاوَر والخليفة العاضد ضد الفِرِنْج، إلَّا أنه كان يُبْطِن الاستيلاء على مصر ووَجَدَ أنه لا سبيل إلى تحقيق ذلك مع بقاء شاوَر، فدبَّر لقتله بموافقة الخليفة العاضد فى أواخر ربيع الآخر سنة ٥٦٤هـ/يناير ١١٦٩م، بعد أن كان شاوَر قد عَقَدَ العَزْم على الخلاص من شيركوه لولا تحذير المقرَّبين إليه من مغَبَّة ذلك وأنه قد يؤدى إلى عودة الفِرِنْج إلى مصر مرة ثانية [٣].

---

[١] أبو شامة : الروضتين ١: ٣٩٤؛ ابن قاضى شهبة : الكواكب ١٧٧ .

[٢] ابن الأثير : الكامل ١١: ٣٣٨؛ المقريزى : اتعاظ ٣: ٢٩٩ .

[٣] عمارة : النكت ٨١؛ عماد الدين الأصفهانى : البستان الجامع ١٣٨؛ ساويرس : تاريخ البطاركة ٣/٢: ٦٣؛ ابن الأثير : الكامل ١١: ٣٣٩- ٣٤٠، التاريخ الباهر ١٤٠؛ سبطا بن الجوزى : مرآة الزمان ٨: ٢٧٦- ٢٧٨؛ أبو شامة : الروضتين ١: ٣٩٦، ٤٣٦؛ ابن واصل : مفرج الكروب : ١٦١- ١٦٢؛ ابن خلكان : وفيات ٢: ٣٤- ٣٥؛ الصفدى : الوافى ١٦ : ٩٥- ٩٦، ٢١٤- ٢١٥؛ ابن الفرات ٤/١: ٢٩- ٣٣، المقريزى : اتعاظ ٣: ٢٩٩- ٣٠٢، أبو المحاسن : النجوم ٥: ٣٥١، ٣٨٨؛ Ehrenkreutz; A.S., *op.cit.* pp. 54-56; Lev, Y., *op.cit.* pp. 61-66.

ويلاحظ أن شاور والداعى ابن عبد الحقيق قد فكرا جديًا فى التبرع بالدعوة الفاطمية لابنى صاحب عَدَن الزُّرَيعى بعد وفاته لولا أن عمارة اليمنى حذَّرهما من ذلك وقال لهما : إنما أهل اليمن يعثون إليكم النجاوى والفطرة من أجل الدعوة، فإذا تنازلتم عنها فقد هوّنتم حرمتها . (عمارة اليمنى : النكت العصرية ٩٢) كما وَجّه عمارة نقدًا شديدًا إلى شاوَر واتهمه على حق بأنه هو الذى أطمع الفِرِنْج والغُزّ فى الدولة حتى انتقلت عن أهلها (النكت العصرية ٨٨).

شـــيركوه وزيرًا للفاطميين

كان قَتْلُ شاوَر خطوة هامة فى سبيل تقوية وضع شيركوه فى مصر فقد كان هو الشخص الوحيد الذى يستطيع منافسته . ففور التخلُّص منه خَلَعَ الخليفة العاضِد على شيركوه تبعًا للتقاليد المصرية خِلَعَ الوزارة وفَوَّضَ إليه الحُكْم والتقدمة على الجيوش ، ولَقَّبه بـ « الملك المنصور سُلْطان [أمير] الجيوش » فنزل فى دار الوزارة واستقرت له الأمور دون منازع [١] . وأمر الخليفة بكتابة سِجِلٍّ بذلك من إنشاء القاضى الفاضل [٢] وَقَّع العاضِد على طُرَّته بخطه « هذا عَهْدٌ لا عَهْد لوزير بمثله وتقليدُ أمانة رآك الله تعالى وأمير المؤمنين أهلًا لحمله ... » [٣].

وفور أن استقرت الأمور لشيركوه « أَقْطَعَ البلاد للعساكر التى قدمت معه » وأبقى للمصريين ما بأيديهم ولم يُغَيِّر على أحدٍ شيئًا ، وأجرى أصحاب مصر على قواعدهم وأمورهم . غير أن شيركوه لم يلبث أن توفى فجأة بعد عدة أسابيع يوم السبت ٢٢ جمادى الآخرة سنة ٥٦٤هـ/مارس سنة ١١٦٩م [٤].

---

[١] ساويرس بن المقفع : تاريخ البطاركة ٢/٣: ٦٣؛ ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٤٠، الكامل ١١: ٣٤٠، أبو شامة : الروضتين ١: ٤٠٢، ابن واصل : مفرج ١: ١٦٣- ١٦٤، النويرى : نهاية ٢٨ : ٣٤٢، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٣٠٢، ابن قاضى شهبة : الكواكب ١٧٨-١٧٩ .

[٢] انظر نص السجل عند ابن الفرات : تاريخ ١/٤ : ٣٤- ٤٤، القلقشندى : صبح ٣: ٤٢٨، ١٠ : ٩١-٩٢ وفقرات منه عن أبى شامة : الروضتين ١: ٤٠٢- ٤٠٣؛ ابن واصل : مفرج ١: ١٦٤؛ الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ١٧١- ١٧٣، ٣٨٣-٣٩٧ . وانظر فيما يلى ص ٣٢٤-٣٢٥.

[٣] القلقشندى : صبح ٩: ٤٠٦- ٤٠٧؛ أبو شامة : الروضتين ١: ٤٠٢؛ ابن واصل : مفرج ١: ١٦٥؛ ابن خلكان : وفيات ٧: ١٤٩؛ النويرى : نهاية ٢٨: ٣٥٦، المقريزى : اتعاظ ٣: ٣٠٢، أبو المحاسن : النجوم ٥: ٣٥٣؛ الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ١٧٤، ٤٠١ . وانظر مناقشة ليف لهذا السجل Lev, Y., *op.cit.*, pp. 66-81.

[٤] ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٤١، الكامل ١١: ٣٤١- ٣٤٢؛ أبو شامة : الروضتين ١: ٤٠٢- ٤٠٥، ٤٣٨؛ ابن واصل : مفرج ١: ١٦٥، ١٦٨؛ النويرى : نهاية ٢٨: ٣٥٧؛ الصفدى : الوافى ١٦: ٢١٥؛ المقريزى : اتعاظ ٣: ٣٠٤- ٣٠٥؛ Richards, D. S., *EI*[2] art. *Shirkûh* IX, pp. 504-505

صــــلاحُ الدّين

على رَأس السُّلطَة فى مصر

صلاحُ الدين وزيرًا رَغمًا عنه

أيقظت خلافة شيركوه فى منصبه الكثير من الطموحات ، فقد طمع الكثيرون من القادة الذين كانوا على رأس جيش نور الدين فى منصب الوزارة . ولكن شهاب الدين محمود الحارمى ، خال صلاح الدين وأحد هؤلاء القادة ، قام بدور هام فى تولية صلاح الدين الوزارة . فهو الذى أشار على العاضِد أن يولِّيها له ، ووافق العاضِد على ذلك ظنًّا منه أنه قادرٌ على السيطرة عليه وأنه لن يستطيع مخالفته ؛ لأنه لم يكن له عسكر ولا رجال [1]. وستثبت الأحداث قصر نظر العاضد وأنه لم يُقَدِّر صلاح الدين حَقَّ قدره .

خَلَعَ العاضد على صلاح الدين خِلَعَ الوزارة[2] وأمر القاضى الفاضل بإنشاء سِجِلٍّ بتوليته الوزارة ولَقَّبه بـ « الملك الناصر صلاح الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين جامع كلمة الإيمان قامع عَبَدَة الصلبان محيى دولة أمير المؤمنين » فى يوم الاثنين ٢٥

---

[1] ساويرس بن المقفع : تاريخ البطاركة ٢/٣ : ٦٤؛ ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٤١- ١٤٢، الكامل ١١: ٣٤٣- ٣٤٥؛ أبو شامة : الروضتين ١: ٤٠٦- ٤٠٧، ٤٣٨- ٤٣٩؛ ابن واصل : مفرج ١: ١٦٨- ١٦٩؛ النويرى : نهاية ٢٨: ٣٥٨- ٣٥٩؛ الصفدى : الوافى ١٨: ٣٤٠؛ ابن الفرات : تاريخ ١/٤: ٥٦- ٥٧؛ المقريزى : اتعاظ ٣: ٣٠٨؛ ابن قاضى شهبة : الكواكب ١٨٠؛ Elisséeff, N. *op.cit.*, pp. 638-39 .

وصف لنا أبى طَىّ خلعة الوزارة التى خلعت على صلاح الدين ، ونقله عنه أبو شامة : الروضتين ١: ٤٣٩ والمقريزى : اتعاظ ٣: ٣٠٩؛ ابن قاضى شهبة : الكواكب ١٧٩- ١٨٠؛ وانظر Lev, Y., *op.cit.*, p 76-81 .

[2] وصف لنا ابن أبى طَىّ خلعة الوزارة التى خلعت على صلاح الدين، ونقله عنه أبو شامة : الروضتين ١: ٤٠٦- ٤٠٧، ٤٣٨- ٤٣٩؛ ابن واصل : مفرج ١: ١٦٨- ١٦٩؛ النويرى : نهاية ٢٨ : ٣٥٨- ٣٥٩؛ الصفدى : الوافى ١٨ : ٣٤٠؛ ابن الفرات : تاريخ ١/٤ : ٥٦- ٥٧؛ المقريزى : اتعاظ ٣: ٣٠٨؛ ابن قاضى شهبة : الكواكب ١٨٠؛ Elisséeff; N., *op.cit.*, pp. 638-39 .

جمادى الآخرة سنة ٥٦٤هـ/٢٦ مارس سنة ١١٦٩م، وكتب على طُرَّته بخطه: «هذا عَهْدُ أمير المؤمنين إليك وحُجَّتُه عند الله تعالى عليك، فأَوْفِ بعهدك ويمينك ...»[1].

وبتولِّى صلاح الدين منصب الوزارة، كآخر وزير فى الدولة الفاطمية، وَصَل المدّ السنىّ الذى بدأه السَّلاجِقَة قبل نحو مائة عام وأكمله ورثتهم الزنكيون والنوريون إلى مصر.

مُؤَامَرَة مُؤْتَمَنِ الخلافة

أدرك بعض خُدَّام القصر من السودان مصير الدولة الفاطمية على يدى صلاح الدين فعملوا على مكاتبة الفِرنْج سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م ليصلوا إلى البلاد حتى إذا خرج صلاح الدين للقائهم قبضوا على من بقى من أصحابه بالقاهرة، وانضموا إلى الفِرنْج فى محاربته فيظهروا عليه ويقتسموا البلاد بينهم وبين الفِرنْج، لولا أن وَقَعَ كتابهم فى يد صلاح الدين، وقتل صلاح الدين رئيسهم مؤتمن الخلافة فى ذى القعدة من نفس العام، مما أدَّى إلى ثورة عبيد القصر من السودان - وكانوا يزيدون على خمسين ألف - فتمكَّن صلاح الدين من القضاء عليهم وأحرق الحارة المنصورية المختصة بهم على باب زُوَيْلَة وخرّبها وأصبح أمر السودان كأن لم يكن. وتتَبَّع صلاح الدين فلولهم فى الصعيد حتى قضى على نفوذهم تمامًا[2].

---

[1] نفسه وانظر كذلك ساويرس: تاريخ بطاركة الكنيسة ٣/٢: ٦٤؛ ابن الفرات: تاريخ ٤/١: ٥٧- ٦٣؛ القلقشندى: صبح ١٠: ٩١- ٩٨، ٤٠٧؛ المقريزى: اتعاظ ٣: ٣٠٩؛ ابن قاضى شهبة: الكواكب ١٧٩- ١٨٠؛ وانظر Lev, Y., *op.cit.*, p. 76-81 وفيما يلى ص ٣٢٥- ٣٢٦.

[2] ساويرس بن المقفع: تاريخ البطاركة ٣/ ٢: ٦٥- ٦٦؛ ابن الأثير: الكامل ١١: ٣٤٥- ٣٤٧؛ أبو شامة: الروضتين ١: ٤٥٠- ٤٥٢؛ ابن واصل: مفرج ١: ١٧٤- ١٧٧، ٢٠٢؛ ابن خلكان: وفيات ٤: ٩١، ٧: ١٥٧؛ النويرى: نهاية ٢٨: ٣٦٠- ٣٦١؛ ابن أيبك: كنز الدرر ٧: ٤٤؛ ابن الفرات: تاريخ ٤/١: ٦٧- ٧١، ١٣١؛ المقريزى: =

وقد فَوَّض صلاح الدين أمر القصر إلى أحد خواصه هو الخصى بهاء الدين قراقوش الذى تولَّى فيما بعد بناء القلعة وسور القاهرة [١].

مُهاجَمَة الفِرنْج لدِمْياط

أدرك عمورى ، منذ أن استولى أسد الدين شيركوه على السلطة فى مصر ، أن نور الدين لا يُحْكِم سيطرته على مصر . فعمل على توجيه نداءات لطلب العون من كل مسيحى العالم . وقد وَجَدَ طَلَبُ عمورى استجابةً حيث جُهِّز أسطولٌ ضخمٌ بالتعاون بين أوربا والدولة البيزنطية ، وصل إلى دِمْياط فى ٣ صفر سنة ٥٦٥هـ / ٢٧ أكتوبر سنة ١١٦٩م . وقد اختار الفِرنْج النزول بدِمْياط لأنهم كانوا يأملون أن يقيموا فى هذا الميناء قاعدةً عسكريةً يستطيعون دعمها عن طريق البر وطريق البحر ، حيث أملوا إذا سيطروا على الدلتا المصرية أن يتمكَّنوا من توجيه عملياتهم صوب القاهرة [٢].

وقد أرسل صلاحُ الدين الملك المظفر تقىّ الدين عمر بن شاهِنْشاه وخاله شهاب الدين الحارِمى للسيطرة على دِمْياط . ونظرًا لأن صلاح الدين لم يكن يثق فى عساكر المصريين وخاف إن تقدَّم لملاقاة الفِرنْج استولى المصريون على القاهرة ويحصرونه بينهم وبين الفِرنْج - كتب إلى نور الدين فى دمشق يشكو إليه ما هو فيه من المخاوف ويطلب نجدته - فجَهَّز إليه نور الدين طوائف صارت إليه طائفة وراء طائفة . وفى نفس الوقت أغار نور الدين على بلاد الفِرنْج فى الشام ونَهَبَها حتى تتحرَّك قواتهم لحفظ البلاد الشامية

= الخطط ٢: ٢- ٣، ١٩، اتعاظ ٣: ٣١١- ٣١٣؛ أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٣٥٤، ٦ : ٢٠؛ ابن قاضى شهبة : الكواكب ١٨٣- ١٨٥؛ وانظر كذلك Lev, Y., *op.cit.*, pp. 81-84.

[١] راجع، ابن خلكان : وفيات ٤: ٩١- ٩٢؛ ابن الفرات : تاريخ ١/٤: ١٣١؛ ابن قاضى شهبة : الكواكب ١٩٩؛ Sobernheim, M. *EI*[2] art . *Karâkûsh*, IV, p. 638.

[٢] Elisséeff, N., *op.cit.*, pp. 645, 647 .

ويخفِّف الحصار عن دِمْياط . وقد اضطر الفِرِنْج أمام تتابع الإمدادات إلى دِمْياط من القاهرة ومن الشام ، وأمام دخول نور الدين بلادهم ونَهْبها وإحراقها إلى الرحيل عن دِمْياط بعد أن حاصروها خمسين يومًا [١].

إنقِلابُ صَلاح الدين وإصْلاحاته السُّنِّيَّة

عندما تولَّى صلاحُ الدين الوزارة كانت المؤسَّسةُ الفاطمية فى مصر تُسَيْطِر على موارد البلاد وتمتلك نسبيًّا قوّةً عسكرية قوية وتشرف على النظام القضائى وعلى ديوان الإنشاء. وكان يشارك فى تسيير هذه المؤسَّسة أفرادٌ ينتسبون إلى ديانات وطوائف مختلفة (الإسماعيليون والمسلمون السنة والأقباط) وإلى مجموعات عرقية متنوعة (العرب والأرْمَن والسودان) . ولم تتم عملية تصفية الدولة الفاطمية والقضاء عليها إلَّا بفضل خِطَّة محكمة نَفَّذَها صلاحُ الدين ومؤيدوه ضد النظام الفاطمى . ففى البداية حرص صلاح الدين على تقوية مكانته فاستقدم والده وإخوته ليلحقوا به فى مصر ، وأدخل تغييرات كبيرة على نظام الجيش فى أعقاب فَشَل مؤامرة مُؤْتَمَن الخلافة ، حيث تَخَلَّص من القادة المصريين واستبدل عوضهم رجالًا من أنصاره ، كما ضمن السيطرة على موارد الدولة بتوليته والده «أمر الخزائن كلها» فى ٢٥ رجب سنة ٥٦٥هـ/١٦ إبريل سنة ١١٧٠م [٢].

وفى أواخر عام ٥٦٥هـ/ ١١٧٠م بدأ صلاحُ الدين فى اتخاذ خطوات حاسمة

---

[١] ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٤٣- ١٤٤، الكامل ١١: ٣٥١- ٣٥٢؛ ابن خلكان : وفيات ٧: ١٥٢؛ أبو شامة : الروضتين ١: ٤٥٦؛ ابن واصل : مفرج الكروب ١: ١٧٩- ١٨٣؛ ابن الفرات : تاريخ ٤/١: ٨٢- ٨٧؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا ٣: ٣١٥- ٣١٦؛ ابن قاضى شهبة : الكواكب ١٨٥-١٨٧ .

[٢] Ehrenkrutz, A. S., «Satadin's coup d'ẽtat in Egypt», *Medival and Middle Eastern Studies in Honor of Aziz Suryal Atiya*, ed. by Sami A. Hanna, Leiden 1972, pp. 145, 147 ؛ وانظر أبا شامة : الروضتين ١: ٤٦٥.

ضد المؤسّسة الفاطمية لإضعاف المذهب الإسماعيلى وتقوية المذهب السنى فى مصر. ففى العاشر من ذى الحجة سنة ٥٦٥هـ/٢٥ أغسطس سنة ١١٧٠م أبْطَل من الأذان «حىّ على خير العمل»[١] وأمر أن يُذْكَر فى خطبة الجمعة الخلفاء الراشدون[٢] ونَزَعَ المناطق الفضة التى كانت بمحاريب جوامع القاهرة والتى كانت تحمل أسماء الخلفاء الفاطميين[٣].

وفى الأيام الأولى من شهر المحرم سنة ٥٦٦هـ/ سبتمبر سنة ١١٧٠م أمر صلاحُ الدين بهَدْم دار المعونة المجاورة للجامع العتيق بمصر وبنائها مدرسةً للشافعية. وفى منتصف هذا الشهر عَمَّر دار الغَزْل المجاورة لباب الجامع العتيق مدرسةً للمالكية عرفت بالمدرسة القَمْحِيَّة. وفى منتصف شعبان من هذه السنة اشترى تقىّ الدين عمر بن شاهِنْشاه - ابن أخى صلاح الدين - منازل العِزّ بالفُسْطاط وجعلها مدرسةً للشافعية عرفت بالمدرسة التَّقَوِيَّة[٤]، كما حَوَّلَ صلاحُ الدين دار سعيد السُّعَداء الواقعة شمال القصر الفاطمى الشرقى خانقاه للصوفية، وهى بذلك تُعَدُّ أوّل خانقاه للصوفية تنشأ بمصر[٥]. وفى العام نفسه أَبْطَلَ صلاحُ الدين «مجالس الدَّعْوَة» من القصر والجامع

---

[١] أبو شامة : الروضتين ١: ٤٨٨؛ النويرى : نهاية ٢٨: ٣٦٢؛ المقريزى : الخطط ٢: ٢٧١، اتعاظ ٣: ٣٠٧ .

[٢] المقريزى : السلوك ١: ٤٥ .

[٣] المقريزى : اتعاظ ٣ : ٣١٧ .

[٤] ابن الأثير : الكامل ١١: ٣٦٦؛ البندارى : سنا البرق ٥٧؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ٨: ٢٨٣؛ أبو شامة : الروضتين ١: ٤٨٦؛ ابن خلكان : وفيات ٣: ٤٥٦؛ ابن واصل : مفرج ١: ١٩٧- ١٩٨؛ النويرى : نهاية ٢٦: ٣٦٣؛ السبكى : طبقات الشافعية ٧: ٣٥٦؛ ابن الفرات : تاريخ ٤/١ : ١٢٤- ١٢٥، ١٢٨؛ القلقشندى : ٣: ٣٤٢، المقريزى : الخطط ١: ٤٨٥، ٢: ٣٤٣، ٣٦٣، ٣٦٤، الاتعاظ ٣: ٣٢٠؛ أبو المحاسن : النجوم ٥: ٣٨٥؛ ابن قاضى شهبة : الكواكب ١٩٤؛ وانظر كذلك Lapidus, I M. « Ayyubid Religious Policy and the Development of The School of Law in Cairo», *CIHC* pp. 279-286 .

[٥] عن خانقاه سعيد السعداء والخانقاوات بصفة عامة انظر، ابن ميسر : أخبار ١٤٤، القلقشندى : صبح ٣: ٣٦٤- ٣٦٥، المقريزى : الخطط ٢: ٤١٥- ٤١٦، اتعاظ ٣: ٢٠٠؛ Sylvie Denoix, *EI*[2] art. *Sa'îd al-Su'adâ'* VIII, pp. 891-92 .

الأزهر [١]، وعَزَل جميع القضاة الإسماعيليين وفَوَّض قضاء مصر فى ٢٢ جمادى الآخرة / ٢ مارس سنة ١١٧١م إلى القاضى صدر الدين أبى القاسم عبد الملك بن عيسى بن دِرْباس المارانى الشَّافِعى [٢]، حيث اشتهر من حينئذ المذهب الشَّافِعى فى مصر. كذلك جَعَلَ صلاحُ الدين القاضى الفاضل رئيسًا لديوان الإنشاء [٣] فضمن بذلك سيطرته على النواحى الدينية ومراسلات الدولة.

وكان من أهم مظاهر تَحَوُّل مصر إلى المذهب السنى نشر المذهب الأَشْعَرى، فقد كان صلاحُ الدين وجميع وَرَثَة السَّلاجِقَة يتعَصَّبُون لمذهب الأَشْعَرى فى الأصول، وهو المذهب الذى تولَّاه السَّلاجِقَة من قبل فى مواجهة مذهب المعتزلة العقلى وأنشئوا له « المدارس » ليحاربوا من خلالها مذاهب الفاطميين. وفى الوقت نفسه وَقَّعَ صلاح الدين توقيعًا وَجَّهه إلى القاضى الفاضل بعدم استخدام النَّصارى نُظَّارًا على أموال الدولة ولا مُشارفين [٤].

وهكذا، ومع نهاية عام ٥٦٦هـ/ ١١٧١م أَتَمَّ صلاحُ الدين عددًا من الإجراءات الضرورية فى مواجهة المؤسَّسة الفاطمية عَجَّلَت بالخطوة الحاسمة وهى القضاء على الخلافة الفاطمية وإقامة الخُطْبَة للعَبَّاسيين من على منابر مصر.

---

[١] النويرى : نهاية ٢٨ : ٣٦٤ المقريزى : اتعاظ ٣: ٣٢٠ .

[٢] ابن الأثير : الكامل ١١: ٣٣٦؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ٨: ٢٨٣؛ أبو شامة : الروضتين ١: ٤٨٦؛ ابن خلكان : وفيات ٣: ٣٤٢- ٤٣؛ ابن واصل : مفرج ١: ١٩٨؛ النويرى : نهاية ٢٨ : ٣٦٤؛ ابن أيبك : كنز الدرر ٧: ٤٧؛ ابن الفرات : تاريخ ٤/١ : ١٢٥؛ المقريزى : الخطط ٢: ٢٧٣، ٢٧٥، ٣٤٣، الاتعاظ ٣: ٣١٩؛ ابن حجر : رفع الإصر ١: ٣٦٨؛ أبو المحاسن : النجوم ٥: ٣٨٥- ٣٨٦؛ ابن قاضى شهبة : الكواكب ١٩٤؛ السيوطى : حسن المحاضرة ٢: ٥؛ ابن إياس : بدائع الزهور ١/١: ٢٣٣ .

[٣] الصفدى : الوافى بالوفيات ١٨ : ٣٤٠-٣٤١ .

[٤] ساويرس بن المقفع : تاريخ بطاركة الكنيسة ٢/٣ : ٦٤ .

الخُطْبَة للعَبّاسيين وسُقُوط الفاطميين

فى بداية سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م جاءت الخطوة الحاسمة فى القضاء على الخلافة الفاطمية فى مصر، عندما أسْقَطَ صلاحُ الدين خُطْبَة الفاطميين وأمر الخطباء بالدعوة للخليفة العباسى المستضىء بأمر الله وذلك فى السابع من المحرم / العاشر من سبتمبر وأعاد السَّواد شعار العَبّاسيين[1]. وأصبح يُخْطَب باسم صلاح الدين على منابر مصر بعد الخليفة العَبّاسى والملك العادل نور الدين. وقد تَمَّ هذا التَحُول الخطير فى هدوء تام « فلم ينتطح فيه عنزان » كما ذكر المؤرخون[2]. ذلك الهدوء الذى أعلن به من قبل القائد جَوْهَر قيام الخلافة الفاطمية فى مصر قبل قرنين، واستقبل المصريون هذا التحَوُّل بنفس السلبية واللامبالاة التى استقبلوا بها المذهب الإسماعيلى من قبل.

وفى الحقيقة فإن غالبية الشعب المصرى لم تعتنق إطلاقًا المذهب الإسماعيلى، ولم يعتنقه فقط سوى العناصر التى تعاونت مع الخلافة الفاطمية ممَثَّلَةً فى الأقليات الأجنبية التى جاءت صحبة الفاطميين أو استعانوا بها طوال فترة حكمهم من أجل تحقيق سياستهم، وهؤلاء فقط هم الذين نستطيع القول بأنهم اعتنقوا المذهب الإسماعيلى فى مصر.

---

[1] عماد الدين الأصفهانى : البستان الجامع ١٣٩؛ ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٥٦، الكامل ١١: ٣٦٨- ٣٧١؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ٨: ٢٨٥؛ البندارى : سنا البرق ٥٨؛ أبو شامة : الروضتين ١: ٤٩٢- ٩٣؛ ابن خلكان : وفيات ٧: ١٥٧؛ ابن واصل : مفرج ١: ٢٠- ٢٠٢؛ النويرى : نهاية ٢٣ : ٣٠٢، ٢٦ : ٣٤٤، ٣٦٤؛ ابن أيبك : كنز الدرر ٧: ٤٨؛ السبكى : طبقات الشافعية ٧: ٣٤١، ٣٥٦، الصفدى : الوافى ١٧: ٦٨٩، ابن الفرات : تاريخ ١/٤ : ١٦١، ١٦٣؛ المقريزى : اتعاظ ٣: ٣٢٥- ٣٢٦؛ أبو المحاسن : النجوم ٥: ٣٥٥- ٥٦، ٦ : ٦٣؛ ابن قاضى شهبة : الكواكب ١٩٥- ١٩٧؛ السيوطى : تاريخ الخلفاء ٤٤٥- ٤٤٧؛ Ehrenkreutz. A.S., *Saladin*, p. 89.

[2] ابن الأثير : الكامل ١١: ٣٦٩؛ أبو شامة : الروضتين ١: ٤٩٣؛ ابن الفرات : التاريخ ١/٤: ١٦٣ .

نُورُ الدِّين ومَوْقِفُه من مِصْر

كان السلطانُ نور الدين محمود يَطْمَع فى الاستيلاء على مصر ، ويظن أن صلاح الدين « نائبًا عنه فى مصر متى أراد سحبه بإذنه لا يمتنع عليه » ولكن صلاح الدين كانت له طموحاتٌ أخرى ، وكان ذلك سبب تأخُّره فى الانصياع لطلب نور الدين فى قَطْع خطبة الفاطميين قبل ذلك ، لأنه خشى إن هو فَعَلَ ذلك ؛ أن يسير نور الدين إلى مصر وينزعها منه [١].

ولم تكد تمضى أيامٌ على قَطْع خُطْبَة الفاطميين إلَّا وقد توفى الخليفة العاضِد آخر خلفاء الفاطميين ليلة عاشوراء سنة ٥٦٧هـ/١٢ سبتمبر ١١٧١م . فأمر صلاح الدين بإنشاء الكتب إلى البلاد بوفاة العاضد وإقامة الخطبة رسميًا للخليفة المستضىء بأمر الله العباسى [٢].

نِهـــايَةُ الفَاطِمِيين

وبذلك وَضَعَ صلاحُ الدين نهايةً للدولة الفاطمية فى مصر لتبدأ مرحلة جديدة فى تاريخها عادت فيها إلى قلب العالم الإسلامى السُّنِّى ، ولتؤدى تحت قيادة الأيوبيين ومُؤَسِّس دولتهم صلاح الدينِ دَوْرًا هامًّا فى توحيد الجبهة الإسلامية ومواجهة خطر الفِرِنْج ، الذى أدَّى ضعف وتخاذل السلطة الحاكمة فى مصر فى آخر عهد الفاطميين إلى زيادة نفوذهم وسطوتهم وتهديدهم لوحدة العالم الإسلامى .

وفور وفاة العاضِد طلب صلاحُ الدين من بهاء الدين قراقوش ، متولِّى زمام القصر ، التَّحَوُّط على كل ما فيه . ولم يجد فيه كثيرًا من المال وإنما وَجَدَ فيه العديد من التحف والذَّخائر التى لا تُقَدَّر بثمن والتى جمعها الفاطميون طوال فترة حكمهم ونجت من

---

[١] المقريزى : ٣: ٣٢٥؛ ابن قاضى شهبة : الكواكب ١٨١ .

[٢] نفسه ٣: ٣٢٧-٣٢٨ .

الأزمات المتتالية ، بالإضافة إلى مكتبتهم النفيسة التى بلغ عدد كتبها ألف ألف وستمائة ألف كتاب ، منها مائة ألف بخطوط منسوبة [١].

أما أهل البيت الفاطمى نفسه فقد وجد منهم فى القصر مائة وثلاثين نفسًا وخمسة وسبعين طفلًا نقلهم إلى دار المُظَفَّر بحارة بَرْجَوان وفَرَّق بين الرجال والنساء لئلا يتناسلوا .

وأقطع صلاح الدين قصور الفاطميين لخواصه وباع بعضها . فكان القصر الشرقى الكبير من نصيب أمرائه ، وأسكن أباه نجم الدين أيوب فى قصر (منظرة) اللؤلؤة على الخليج ، وتَفَرَّق الأمراء بقية القصور والرِّباع .

مُحاوَلَةُ إعادَة الدَّوْلَة الفاطمية

لاشك أن الخطوة التى أقدم عليها صلاح الدين لم ترق لكثير من أتباع الدولة الفاطمية الذين كانوا فى الأغلب من الأجانب غير المصريين ، فلم يكد يمضى عامان على سقوط الخلافة الفاطمية حتى قام جماعةٌ من بقايا أتباع الفاطميين بينهم داعى الدُّعاة ابن عبد القوى والشاعر نجم الدين عُمارَة اليمنى [٢]، واتَّفَقوا فيما بينهم على إقامة خليفة ووزير وكاتبوا الفِرِنْج فى بيت المقدس ليعينوهم على تحقيق انقلابهم . ولكن صلاح الدين تمكَّن

---

[١] انظر فيما يلى ص ٥٩٤-٦٠٩ .

[٢] ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٥٦- ١٥٧، الكامل ١١: ٣٦٨- ٣٧٠؛ ساويرس بن المقفع : تاريخ البطاركة ٣/٢ : ٦٧- ٦٨؛ أبو شامة : الروضتين ١: ٤٩٢- ٤٩٥؛ ابن واصل : مفرج ١: ٢٠٢- ٢٠٤؛ المقريزى : الخطط ١: ٤٩٦- ٤٩٨، اتعاظ ٣: ٣٣٠- ٣٣١، ٣٤٧-٣٤٨ .

[٣] رثى عمارة اليمنى الفاطميين بقصيدة تعد من أحسن ما قيل فى رثاء الدول مطلعها :

رَمَيْت يا دَهْر كفَّ المجد بالشَّلل وجيدَه بعد حُسْن الحلْى بالعَطَل

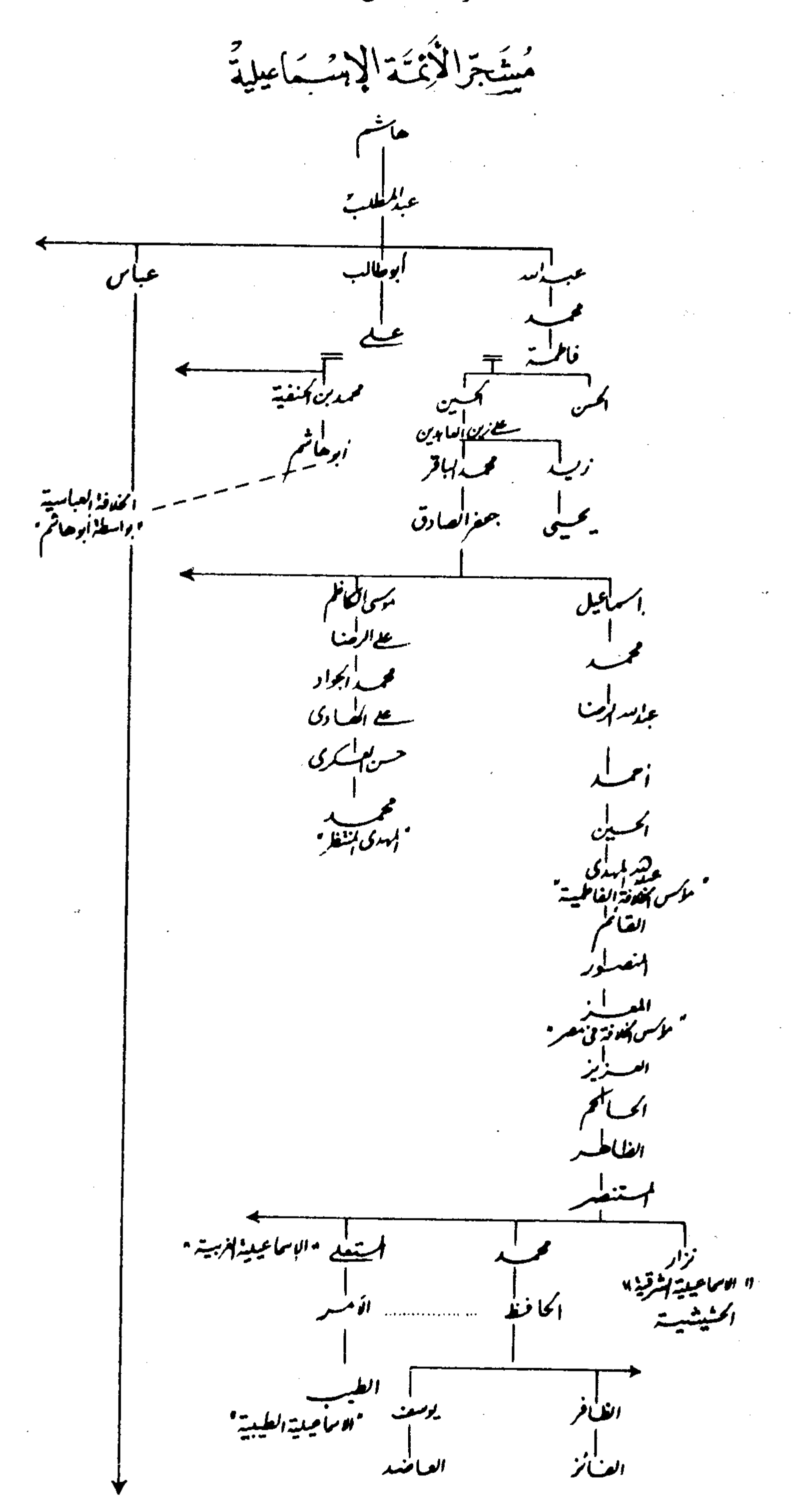
(ديوان عمارة ٦١٢- ٦١٦؛ أبو شامة : الروضتين ١: ٥٧- ٥٧١؛ ابن واصل مفرج ١: ٢١٢- ٢١٦؛ القلقشندى : صبح ٣: ٥٢٦- ٥٢٨؛ المقريزى : الخطط ١: ٤٩٥- ٤٩٦).

من كَشْف مؤامرتهم بوشاية واحد منهم ، واعترفوا بمؤامرتهم ، وأحضر صلاح الدين العلماء واستفتاهم فى أمرهم ، فأفتوه بقتلهم وصَلْبهم ، فقتلهم جميعًا وصَلَبَهم فى آخر عام ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م[1].

وهكذا قُضِىَ على آخر أمل لأتباع الدعوة الفاطمية فى مصر ، وانتهى دور الدولة الفاطمية السياسى فى التاريخ .

---

[1] العماد الكاتب : خريدة القصر وجريدة العصر (قسم الشام) ٣: ١٠٣، ١٤٠- ١٤١؛ العماد الأصفهانى : البستان الجامع ١٣٩؛ ابن الأثير : الكامل ١١: ٣٩٨- ٤٠١؛ البندارى : سنا البرق ٢٩؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ٨: ٢٩٩؛ أبو شامة : الروضتين ١: ٥٦٠- ٥٦٢؛ ابن خلكان : وفيات ٣: ٤٣٥، ابن واصل : مفرج ١: ٢٤٣- ٢٤٧، ٢ : ٤٧٦- ٤٧٩؛ النويرى : نهاية ٢٨ : ٣٦٧- ٣٦٨؛ ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٨٠- ٨١؛ المقريزى : السلوك ١: ٥٣- ٥٤؛ ابن حجر : رفع الإصر ١: ٣٠٤، ٣٠٧؛ أبو المحاسن : النجوم ٦: ٧٠- ٧١؛ ابن قاضى شهبة : الكواكب ٢٢٤-٢٢٦ .


مشجر الأئمة الإسماعيلية
هاشم
عبد المطلب
عباس
أبو طالب
عبد الله
محمد
علي
فاطمة
محمد بن الحنفية
أبو هاشم
الحسين
الحسن
علي زين العابدين
محمد الباقر
زيد
جعفر الصادق
يحيى
الخلافة العباسية "بواسطة أبو هاشم"
موسى الكاظم
إسماعيل
علي الرضا
محمد
محمد الجواد
عبد الله الرضا
علي الهادي
حسن العسكري
أحمد
محمد "المهدى المنتظر"
الحسين
عبيد الله المهدى "مؤسس الخلافة الفاطمية"
القائم
المنصور
المعز "مؤسس الخلافة في مصر"
العزيز
الحاكم
الظاهر
المستنصر
المستعلى "الإسماعيلية الغربية"
محمد
نزار "الاسماعيلية الشرقية" الحشيشية
الآمر
الحافظ
الطيب "الاسماعيلية الطيبية"
يوسف
الظافر
العاضد
الفائز

الخلفاء الفاطميون فى إفريقية وفى مصر

أ- فى إفريقيـــية

١ـ عبد الله المَهْدى (٢٩٧-٣٢٢هـ/ ٩٠٩-٩٣٤م) .

٢ـ القائم بأمر الله أبو القاسم محمد (٣٢٢-٣٣٤هـ/ ٩٣٤-٩٤٦م) .

٣ـ المَنْصُور بالله أبو الطاهر إسماعيل (٣٣٤-٣٤١هـ/ ٩٤٦-٩٥٣م) .

٤ـ المُعِزّ لدين الله أبو تميم مَعَدّ (٣٤١-٣٦٢هـ/ ٩٥٣-٩٧٢م) .

ب - فى مصـــر

المُعِزّ لدين الله أبو تميم مَعَدّ (٣٦٢-٣٦٥هـ/ ٩٧٢-٩٧٥م) .

٥ـ العزيز بالله أبو منصور نِزار (٣٦٥-٣٨٦هـ/ ٩٧٥-٩٩٦م) .

٦ـ الحاكِم بأمر الله أبو على المنصور (٣٨٦-٤١١هـ/ ٩٩٦-١٠٢١م) .

٧ـ الظّاهِر لإعزاز دين الله أبو الحسن على (٤١١-٤٢٧هـ/ ١٠٢١-١٠٣٦م) .

٨ـ المُسْتَنْصِر بالله أبو تميم مَعَدّ (٤٢٧-٤٨٧هـ/ ١٠٣٦-١٠٩٤م) .

٩ـ المُسْتَعْلى بالله أبو القاسم أحمد (٤٨٧-٤٩٥هـ/ ١٠٩٤-١١٠١م) .

١٠ـ الآمِر بأحكام الله أبو على منصور (٤٩٥-٥٢٤هـ/ ١١٠١-١١٣٠م) .

انقلاب أبى على الأَفْضَل كُتَيْفات (١٦ ذى القعدة ٥٢٤هـ/٢١ أكتوبر ١١٣٠م-١٦ محرم ٥٢٦هـ/٦ ديسمبر ١١٣١م) .

١١ـ الحافِظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد (٥٢٦-٥٤٤هـ/ ١١٣٢-١١٤٩م) .

١٢ـ الظّافِر بأعداء الله أبو منصور إسماعيل (٥٤٤-٥٤٩هـ/ ١١٤٩-١١٥٤م) .

١٣ـ الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى (٥٤٩-٥٥٥هـ/ ١١٥٤-١١٦٠م) .

١٤ـ العاضِد لدين الله أبو محمد عبد الله (٥٥٥-٥٦٧هـ/ ١١٦٠-١١٧١م) .

الكتاب الثانى



الفصل العاشر
نظم الحكم والإدارة

بدأ الخليفةُ المُعِزّ حكمه فى مصر بإعفاء القائد جَوهَر من جميع مناصبه، بعد أن تَوَلّى أمْرَ مصر نيابةً عن المُعِزّ مدة أربع سنوات. وقد اعتبر المُعِزّ أن دَوْر جَوْهَر قد انتهى عند هذا الحد، ولكنه اعترف له بفضله ودوره فى إقامة الخلافة الفاطمية وإعلانها فى الشرق؛ «فخَلَعَ عليه خِلْعَةً مذهبةً وعمامةً حمراء، وقلّده سَيْفًا، وقاد بين يديه عشرين فرسًا مسرجة ملجمة، وحمل بين يديه خمسين ألف درهم وثمانين تختًا من ثياب»[1]. ثم عَهَد إلى يعقوب بن كِلّس بإعادة تنظيم إدارات الدولة الفاطمية فى مصر، لمعرفته الجيدة بأمورها، وعلى الأخص ما يُدِرُّه كل إقليم فيها[2]. وعَيّنَ المُعِزّ عُسْلُوج بن الحسن لمعاونة ابن كِلّس فى الإشراف على الشئون المالية[3].

وَضَعَ ابن كِلّس فى مصر أساس نظام مركزى هرمى يأتى على رأسه «الإمام»، الذى اعتبره الشيعة الإسماعيليون مُمَثّل الله على الأرض ومنه تنبثق كل سلطة[4]. وتقاسمت إدارة هذا النظام سلطات ثلاثة: إدارية وقضائية ودعائية؛ أما الجيش فكان يأتمر بأوامر الإمام (الخليفة) مباشرةً. ولم يستمر هذا النّظام طويلًا، فقد كان لما لحق بالدولة الفاطمية من أحداث متلاحقة، وما أصابها من ضعف، دورٌ فى تبديل وتغيير

---

[1] المقريزى: اتعاظ ١: ١٣٩.

[2] ابن الصيرفى: الإشارة إلى من نال الوزارة ٤٧-٥٢؛ المقريزى: الخطط ٢: ٥؛ Lev, Y., «The Fatimid vizier Yaᶜqub ibn Killis and the Beginning of the Fatimid Administration in Egypt», *Der Islam* 58 (1981). pp. 237-249.

[3] ابن ميسر: أخبار ١٦٣؛ المقريزى: الخطط ١: ٨٢، ٢: ٥-٦، ٢٦٩؛ اتعاظ الحنفا ١: ١٤٤-١٤٥، ٢٢٣؛ المقفى ٣: ٤٦.

[4] السجلات المستنصرية، سجل رقم ٣٥.

هذه الأنظمة ، وخاصةً مع بداية ازدياد نفوذ الوزراء أرباب السيوف ، ولكنها احتفظت بالخطوط العريضة لهيكل هذا النّظام . وكان الوزير - ابتداء من عام ٣٦٨هـ/٩٧٩م - هو الذى يتولّى الإشراف على السلطة الإدارية ، وقاضى القضاة هو المشرف على الشئون الدينية والتشريعية ، وداعى الدُّعاة هو المشرف على الدعاية الفاطمية التى كانت بمثابة السّلاح الإيديولوجى للنظام ، وأحيانًا كانت هاتان السُّلْطتان تُجْمَعان لشخص واحد .

وبوصول بدر الجمالى إلى قمة السُّلْطَة ، فى أواسط القرن الخامس الهجرى /الحادى عشر الميلادى ، وبداية عصر الوزراء العسكريين (أرباب السيوف) ، أصبح الوزير هو قائد الجيش وقاضى القضاة وداعى الدعاة فى الوقت نفسه . ولكن هذا لا يعنى أن الوزير صاحب السيف كان يقوم بنفسه بعمل القاضى والدّاعى ، وإنما جَعَل القاضى والداعى نائبين عنه ويذكران ذلك فى الكتب الحكمية وكتب الأنكحة ، ومجالس الدعوة [١].

النّظامُ السيّاسى

الإمـامة (الخلافـة)

يأتى على رأس النظام الفاطمى شخصية الإمام أو الخليفة ، وإذا كان تَوَلّى الخليفة لدى أهل السنة يأتى نتيجة انتخاب أو تعيين من الخليفة السابق تؤكّده مبايعةٌ عامةٌ ، فإن الإمام الفاطمى هو خليفة من سبقه بموجب الحق الإلهى ويُخْتار ليكون وَصِيًّا للنبى ﷺ ولعلى بن أبى طالب - رضى الله عنه - وتنتقل الإمامة من الأب إلى الابن الأكبر ، أى يجب أن تكون فى الأعقاب . والشَّرط الوحيد اللازم توافره فى شخص الإمام هو « الوَصِيّة » أى « النّص » عليه من الإمام السابق [٢]، وبالتالى فلا يَتَطَلّب الفاطميون توافر

---

[١] ابن الصيرفى : الإشارة ٩٦ ؛ ابن ميسر : أخبار ١٢٣ ؛ النويرى : نهاية ٢٨: ٣٠١ ؛ المقريزى : الخطط ١: ٤٤٠ ، الاتعاظ ٣: ١٥٦ .

[٢] ماجد : نظم الفاطمين ورسومهم فى مصر ١: ٥١-٧٧ .

شروط خاصة فى الإمام (أو الخليفة) مثل الشروط التى يتطلّبها أهل السُّنّة فى شخص الخليفة أو الزَّيْدية فى شخص الإمام الزَّيْدى. وكان من الممكن للإمام أن يُخْفى وصيته عن مجموع المؤمنين ولا يُعْلِم بها إلّا بعض الثِّقات لا غير، الذين عليهم أن يكشفوا عنها فقط فى الوقت المناسب[١] والأئمة عِندهم مَعْصومون[٢].

وقد أدّى هذا النِّظام إلى وُصُول عدد كبير من الأطفال والمراهقين إلى منصب الإمامة، مما مَكّن لرجال القصر ونسائه وللوزراء وقادة الجيش السيطرة التامة على الدولة وأن تكون بأيديهم السلطة الحقيقية.

ففى الفترة الإفريقية لم يَعْهَد الإمام المهدى بولاية عهده إلى ولده وخليفته القائم إلّا بعد أن تَخَلّص من أبى عبد الله الشيعى سنة ٢٩٩هـ/٩١٢م وسمّاه «وَلِىّ عهد المسلمين»، وذلك قبل وفاة المهدى نفسه سنة ٣٢٢هـ/٩٣٤م بفترة طويلة[٣].

أما المنصور بالله – الإمام الفاطمى الثالث – فيروى لنا الأستاذ جَوْذَر كيفية النص عليه من القائم. فبعد وفاة الإمام المهدى والقائم واقف على القبر يريد دفنه أدنى منه جَوْذَر وقال له: إنه لا يحلّ للحُجّة بعد الإمام أن يدفن الإمام حتى يقيم حُجّة لنفسه، ولم يحلّ لى ذلك حتى أقيم حُجّتى وقد ارتضيتك لهذه الأمانة دون جميع الخَلْق» ثم قال له: «هات يدك» وأضاف «أنا آخذ عليك عَهْد الله وغليظ ميثاقه أنك تكتم عنى ما أظهره وأكشفه لك: ولدى إسماعيل هو حُجّتى ووَلِىّ عهدى فاعرف له حقه واكتم أمره أشَدّ كِتْمان حتى أظهره بنفسى فى الوقت الذى يشاء الله ذلك ويختاره». وكَتَم جَوْذَر هذا الأمر فى نفسه ولم يُطْلع عليه أحدًا سبع سنين[٤].

---

[١] الجوذرى: سيرة الأستاذ جوذر ١٣٩.

[٢] ابن الطوير: نزهة المقلتين ٢٣؛ المقريزى: اتعاظ الحنفا ٣: ١٢٧.

[٣] القاضى النعمان: افتتاح الدعوة ٢٧٣؛ المقريزى: اتعاظ الحنفا ١: ٦٨؛ Walker, p.E., «Succession on Rule in The Shiit Caliphate», *JARCE* XXXII (1995), p. 243.

[٤] الجوذرى: سيرة الأستاذ جوذر ٣٩–٤٠، ١٣٩، ١٥٦؛ Walker, P.E., *op.cit.*, p. 244.

وواضح أن مارواه جَوْذَر عن الإمام القائم هو الطريقة المثالية لنصّ الإمام على « حُجّته » (وهو لفظ كان يستخدم فى فترة الستر) و« وَلِىّ عَهْده » ولم يتكرَّر بعد ذلك بهذه الطريقة ؛ فعند تعيين الإمام الرابع المعز لدين الله وَلِىَّ عَهْده أخذ المُعِز عَهْدًا على جَوْذَر، مثلما فَعَل القائم معه من قبل، بأن وَلِىّ عهده هو ابنه الثانى عبد الله، وكَتَم جَوْذَر ذلك عنه مدة سبعة شهور [١].

وناقشنا فيما سبق كذلك كيف عَيَّنَ الإمام الحاكم بأمر الله ابن عمه عبد الرحيم بن إلْياس « وَلِىّ عَهْد المسلمين » وتَعارُض ذلك مع أُسُس العقيدة الإسماعِيلية . ولم يُنْقذ الأمر سوى تدارك سيدة المُلْك أخت الحاكم للموقف واختفاء الحاكم نفسه من مسرح الأحداث [٢].

ظَلَّ توارث الإمامة يسير دون اعتراضات ذات شأن إلى حين وفاة المستنصر بالله سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م، حيث تَدَخَّل الوزير القوى الأَفْضَل شاهنشاه لعَزْل نِزار - الابن الأكبر للمستنصِر وصاحب الحق الشرعى فى الإمامة - وتولية المُسْتَعْلى الابن الأصغر مما أدّى إلى نشوء أول انقسام فى الدعوة الإسماعيلية [٣]. كذلك فبعد وفاة الخليفة الآمر بأحكام الله سنة ٥٢٤هـ/١١٣٠م دون وريث (وإن كان أشار إلى أنه ترك إحدى جهاته حاملًا)، تَوَلَّى الأمر بعده ابن عمه عبد المجيد - أكبر الأقارب سِنًّا - كـ «إمام مُسْتَوْدَع» وفْقًا للمصطلح الإسماعيلى إلى أن عَزَلَه الوزير أبو على الأَفْضَل كُتَيْفات واستولى على السلطة لمدة أربعة عشر شهرًا باسم « الإمام المُنْتَظَر »، إلى أن قتِلَ أبو على وأعيد عبد المجيد فى المحرم سنة ٥٢٦هـ/نوفمبر ١١٣١م « وليًا لعهد المسلمين »، ثم عَيَّنَ نفسه إمامًا باسم « الحافظ لدين الله » فى ربيع الآخر سنة ٥٢٦هـ/فبراير سنة ١١٣٢م [٤]. كما أن الخليفة

---

[١] انظر تفصيل ذلك فيما سبق ص ١٥٦-١٥٧ .

[٢] انظر تفصيل ذلك فيما سبق ص ١٧١-١٧٢ .

[٣] انظر فيما سبق ص ٢٢٠-٢٢٥ .

[٤] انظر فيما سبق ص ٢٤٢-٢٥٣ .

العاضد، آخر خلفائهم، لم يكن أبوه إمامًا كما يَتَطَلّب المذهب الإسماعيلى [١].

وكان يُنظَرُ للإمام فى الدولة الفاطمية دون أى التباس على أنه مُمَثّل الله على الأرض، وبأنه المُفَسّر الأوّل للشرع ومصدر كل العلم. وحرص كبار رجال الدعوة على تأكيد هذا المعنى والإشارة إلى أن الإمام هو «وَلِىّ الله» الشافع لهم جميعًا [٢]، يقول داعى الدُّعاة المؤيّد فى الدين الشّيرازى واصفًا أوّل لقاء له بالإمام المستنصر بالله:

«فلم تقع عينى عليه إلّا وقد أخذتنى الرّوْعَة وغلبتنى العبرة وتمثّل فى نفسى أننى بين رسول الله وأمير المؤمنين صلى الله عليهما ماثل، وبوجهى إلى وجههما مقابل، واجتهدت عند وقوعى إلى الأرض ساجدًا لولى السجود ومستحقه، أن يشفعه لسانى بشفاعة حسنة بنطقه، فوجدته بعجمة المهابة معقولًا، وعن مزية الخطابة معزولًا، ولما رفعت رأسى من السجود، وجمعت علىّ أثوابى للقعود، رأيت بنانًا يشير إلىّ بالقيام، لبعض الحاضرين فى ذلك المقام، فقطب أمير المؤمنين - خَلّد الله ملكه - وجهه عليه زجرًا، على أننى ما رفعت به رأسًا ولا جعلت له قدرًا، ومكثت بحضرته ساعة لا ينبعث لسانى بنُطق ولا يهتدى لقَوْل، وكلما استطرد الحاضرون منى كلامًا ازددت إعجامًا ولعَقَبَة العىّ اقتحامًا وهو - خَلّد الله ملكه - يقول: «دعوه حتى يهدأ ويستأنس»؛ ثم قُمْت وأخذت يده الكريمة فترشفتها وتركتها على عينى وصدرى ووَدّعْت وخَرَجْت» [٣].

واشْتَطّ الحاكم بأمر الله من بينهم وذهب فى سنة ٤٠٨هـ/ ١٠١٧م إلى حد اعتبار شخصه تجسيدًا للألوهية أو على الأقل ادّعاء الألوهية [٤].

---

[١] المقريزى: اتعاظ ٣: ٣٢٩؛ أبو المحاسن: النجوم ٥: ٢٣٧.

[٢] السجلات المستنصرية (سجلّ رقم ٣٥)؛ Sourdel, D. *EI*[2] art. *Khalifa* IV, p. 977.

[٣] سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة ٨٥.

[٤] انظر فيما سبق ص ١٧٤- ١٧٦.

وتَلَقَّب الفاطميون فى سِجِلّاتهم وعلى نقودهم بـ « الإمام » وبـ « أمير المؤمنين » ولم يَتَلَقَّبوا فى الوثائق الرسمية بالخليفة حرصًا منهم على إظهار صفتهم الروحية وسلطتهم الدينية [١]. وقد تدهورت سلطة الإمام (الخليفة) قرب نهاية القرن الخامس وأصبح الوزراء الأقوياء أرباب السيوف هم أصحاب السلطة الفعلية بعد انقسام الدعوة الإسماعيلية أكثر من مرة وإتيان الوزراء بالإمام الذى يريدونه دون اعتبار لشروط الإمامة عند الإسماعيلية .

الوزارة

انقسمت الوزارة فى عصر الفاطميين ، كبقية العالم الإسلامى ، إلى وزارة تنفيذ ووزارة تفويض . ولم يعرف الفاطميون فى المرحلة الإفريقية منصب الوزير [٢]، أما فى مصر فقد كان الغالب على وزراء العصر الفاطمى الأول وزراء التنفيذ ، بينما كان كل وزراء العصر الفاطمى الثانى ابتداءً من بدر الجمالى وزراء تَفْويض .

فعند وصول الخليفة المُعِزّ إلى مصر فَضَّل أن لا يُفَوِّض سلطاته إلى أحد وأن « يباشر التدبير بنفسه ولا يُعَوِّل فيه على غيره » [٣]، ولكنه أوجد ما أطلق عليه « الوَساطَة » ، لأن صاحبها كان يتوسَّط بين الخليفة والرعية . ولم يظهر لقب الوزير فى مصر الفاطمية إلّا فى رمضان سنة ٣٦٨هـ/إبريل سنة ٩٧٩م عندما مَنَحَ الخليفة الفاطمى الثانى العزيز بالله ليعقوب بن كِلِّس لقب « الوزير الأجَلّ » وأصبح بذلك أوّل وزراء الدولة الفاطمية [٤]، ولم

---

[١] راجع السجلات المستنصرية والوثائق التى جمعها جمال الدين الشيال ونشرها فى « مجموعة الوثائق الفاطمية » ، القاهرة ١٩٥٨ ، وكذلك الوثائق التى نشرها صمويل شيترن Stern, S. *Fatimid Decrees*, London 1964 وأيضًا ما سجلوه على نقودهم عند Miles, G., *Fatimid Coins*, NY 1952 .

[٢] عرفت هذه الرتبة فى مصر منذ زمن الطولونيين (السيوطى : حسن المحاضرة ١: ٢٠١ ؛ Hassan, Z.M., *Les Tulunides*, Paris 1933, p. 194) ونحن نعرف أن جعفر بن الفرات كان وزيرًا للإخشديين ، ولكن عند قدوم الفاطميين توقّف جوهر عن مخاطبته بالوزير إلّا بعد مراجعة لأنه ، كما قال ، لم يكن وزير خليفة (المقريزى : اتعاظ ١: ١٠٧ ، ١١٨ ، الخطط ١: ٤٣٩ ، المقفى ٣: ٤٥) .

[٣] ابن الصيرفى : الإشارة ٤٧ .

[٤] ابن زولاق–ابن ميسر : أخبار مصر ١٦٣ ؛ ابن الصيرفى : الإشارة ٤٩ ؛ ابن ظافر : أخبار ٣٨ ؛ المقريزى : المقفى ٣: ٤٩ ، الخطط ١: ٨٢ ، ٢: ٥–٦ ، ٢٦٩ ، اتعاظ الحنفا ١: ١٤٤–١٤٥ .

يَثْبُت هذا اللقب رسميًا إلّا فى زمن الخليفة الفاطمى الرابع الظّاهر لإعزاز دين الله (٤١١-٤٢٧هـ)بتولّى الوزير أبى القاسم على بن أحمد الجَرْجَرائى وزارة التنفيذ فى سنة ٤١٨هـ/ ١٠٢٨م حيث أصبحت الوزارة منذ هذا التاريخ منصبًا وتكليفًا ، ويطلق عليها « رُتْبَة »[١]. وكانت كل مسئوليات الوزير مسئوليات إدارية فقط ، فلا يشير سجل توليته إلى أية مسئوليات عسكرية أو قضائية .

وكان وزيرُ التنفيذ لا يزيد عن كونه وزيرًا مُعَيَّنًا ، ذا سلطات محدودة حيث كان للخليفة كل السلطة على الوزير ويراجع جميع أفعاله . وكان الوزير الحسن بن على اليازورى (٤٤٢-٤٥٠هـ/ ١٠٥٠-١٠٥٨م) آخر وزراء التنفيذ الأقوياء[٢] الذى أضيف إلى مسئولياته القَضاء والدَّعْوَة ، حيث دَخَلَت مصر بعد عَزْله فى سنة ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م وبعد فَشَل الفاطميين أمام السّلاجِقَة فى أزمة إدارية حادة أُبْعِد فيها أربعة وخمسون وزيرًا واثنان وأربعون قاضيًا ، حتى استنجد الخليفة بوالى عَكّا بدر الجمالى ؛ لإنقاذ عرشه من طُغْيان الأتراك الذين تسلَّطوا على الدولة[٣].

فور أن انتهى بدر الجمالى من إعادة النظام إلى الدولة والقضاء على المعارضين فَوَّضَه الخليفة المستنصر فى جميع سلطاته ومَنَحه إشرافًا عامًا على شئون الدولة . وهكذا أصبح بدر الجمالى أول قائد عسكرى يولّيه الفاطميون الوزارة التى أصبحت منذ هذا التاريخ ٤٦٧هـ/١٠٧٤م تقوم مقام السَّلْطَنَة . يقول المقريزى : « فصارت الوزارة من حينئذ وزارة

---

[١] ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ٨١ الذى أورد سجل تولية الوزارة للوزير الجَرْجَرائى وهو مؤرخ فى ذى الحجة سنة ٤١٨هـ/ يناير سنة ١٠٢٨ م .

[٢] كان الوزير اليازورى يشغل مناصب القضاء والدعوة والنظر فى ديوان أم المستنصر بالإضافة إلى منصب الوزارة وكان يُنْعت بـ « الناصر للدين غياث المسلمين الوزير الأجلّ المكَرَّم سَيِّد الرؤساء تاج الأصفياء قاضى القضاة وداعى الدعاة » . (ابن ميسر : أخبار ١١ ؛ ابن الصيرفى : الإشارة ٧٣ ؛ ابن ظافر : أخبار ٧٨ ؛ المقريزى : ١٩٧ ، المقفى ٣: ٣٦٦-٤٠٨ ؛ ابن حجر : رفع الإصر ١٩٠-١٩٧ ؛ السيوطى : حسن المحاضرة ٢: ٢٠٢).

[٣] عن وزارة التنفيذ راجع ، ابن الصيرفى : الإشارة ٦٨-٩٧ ؛ ابن ميسر : أخبار ٥٥-٥٦ ، ٥٨ .

تفويض ويقال لمتوليها « أميرُ الجيوش » وبَطَلَ اسم الوزارة »[١]. وقد أضفى بدر الجمالى شهرةً على هذا اللَّقَب حتى أنه حَلَّ محل اسمه الشخصى للتدليل عليه ؛ فرغم أن خلفاءه تلقَّبوا كذلك بلقب « أمير الجيوش » ، بما أنهم كانوا « وزراء سيوف » أى قادة للجيش فى نفس الوقت ، فإن بَدرًا الجمالى احتفظ وحده لدى المؤرِّخين المتأخِّرين بميزة أنهم كانوا يكتفون فقط لتعريفه بذكر لقبه « أمير الجيوش »[٢].

واعتبارًا من بدر الجمالى حَمَل جميعُ وزراء التفويض ألقابًا خاصة بهم لتأكيد قُوَّة منصبهم ، فقد جمعوا إلى جانب قيادة الجيش جميع الإدارات المدنية والقضائية وحتى الدينية . وهكذا فإن جميع شئون الدولة ، دون استثناء ، خَضَعَت لسلطتهم ولم يبق للخليفة معهم أية سلطة[٣]. واستقر ترتيب ألقاب وزراء السيوف الفاطميين ابتداء من بدر الجمالى وحتى ظهور لقب « الملك » بين ألقاب الوزير كالآتى : « السَّيِّد الأجَلّ [النعت الشخصى للوزير الذى أصبح ابتداء من الصَّالِح طَلائِع لقب « ملك »] أمير الجيوش ، سَيْف الإسلام ، ناصر الإمام ، كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين (ثم اسم وكنية ولقب الوزير الشخصى) »[٤].

وعادةً ما يَتْبَع لقب السَّيِّد الأجَلّ مباشرة النَّعْت الشخصى للوزير . وكان هذا النعت هو « أمير الجيوش » بالنسبة لبدر الجمالى ، و « الأَفْضَل » بالنسبة لابنه شاهنشاه وحفيده أبى على كُتَيْفات وكذلك رِضْوان بن وَلَخْشى ، و « المأمون » لمحمد بن فاتك البَطائِحى ، و « المُفَضَّل » لسليم بن مَصال ، و « العادل » لعلى بن السَّلار ؛ أما الوزير عبّاس الصِّنْهاجى فقد ورد لقبه أحيانًا « الأَفْضَل » وأحيانًا أخرى « العادِل » . والاستثناء الوحيد

---

١ المقريزى : الخطط ١: ٤٤٠ ؛ وانظر فيما سبق ص .

٢ Wiet, G., *CIA* Egypte II, pp. 147-148; Fuᶜâd Sayyid, A., *La capitale de l'Egypte*, pp. 376-77 .

٣ القلقشندى : صبح ١٠: ٣١٠ ؛ ماجد : نظم الفاطميين ١: ٨٣-٨٤ .

٤ Wiet, G., *CIA* Egypte II, pp. 173-174; Fuᶜâd Sayyid, A., *op.cit.*, p. 377 ومقدمة نزهة المقلتين لابن الطوير ٤٩-٥٣ .

لهذه القاعدة الوزير يانِس الرومى والوزير بَهْرام الأرمنى ، فقد لُقِّب الأول بـ « أمير الجيوش » فقط ، ولُقِّب الثانى بـ « سيف الإسلام تاج الملوك » [١].

وذكر ابن الأثير وأبو الفِدا أن رِضْوان بن وَلَخْشى « هو أوّل من لُقِّب من وزراء الفاطميين بـ « الملك » مضافًا إلى بقية الألقاب » [٢]، وأكَّدَ المقريزى ذلك فى اتِّعاظ الحُنَفا [٣]. ولكن ما ذكره المقريزى يناقض نصًّا آخر للمقريزى فى الاتعاظ حيث يذكر فى ترجمة الوزير طَلائع بن رُزِّيك أنه نُعِتَ فى سِجلٍّ توليته بـ « المَلِكِ الصَّالِح » وأنه « لم يُلَقَّب أحدٌ من الوزراء قبله بالملك وذلك فى يوم الخميس ٤ ربيع الآخر سنة ٥٤٩هـ « وهو أوّل من خوطب بالملك فى ديار مصر ونعت به » [٤]. يؤكِّد ذلك ما وَرَدَ عند ابن مُيَسَّر وكذلك سجل تقليد رِضْوان الوزارة والذى لم يرد فيه لفظ الملك [٥].

وبعد التَّخَلُّص من الوزير شاوَر السَّعْدى فى ١٧ ربيع الآخر سنة ٥٦٤هـ/٢ يناير سنة ١١٦٩م حَدَث تغيير كبير فى رُتْبَة الوزير وألْقابه. فقد وَجَد الإمامُ (الخليفة) العاضِد نفسه مضطرًا إلى أن يَعْهَد بالوزارة إلى قائد جيش نور الدين محمود ، أسد الدين شيركوه الذى أنْقَذ مصر من الفِرنْج الذين استعان بهم الوزير شاوَر .

ويُمَثِّل سِجِلُّ تولية أسد الدين شيركوه وَضْعًا فريدًا حيث يُضْطَرّ الإمام الفاطمى الإسماعيلى إلى تعيين وزير سُنِّى أجنبى ، ويَقْبَل الوزير أن يكون وزيرًا فاطميًا فى إطار دولة إسماعيلية وأن يكون تابعًا للإمام ويحمل بين ألقابه النِّسْبَة (العاضِدى) . ويُوَضِّح

---

[١] جاءت ألقابه فى منشورين صادرين إلى رهبان دير سانت كاترين بتاريخى ٥٢٩ و ٥٣٠ هـ « السيد الأجل أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الإمام غياث الأنام أبو المظفر بهرام الحافظى » (Stern, S.M., *Fatimid Decrees* pp. 53, 59) وجاءت ألقابه أيضا عند القلقشندى « الأمير المقدم المؤيد المنصور عز الخلافة وشمسها وتاج المملكة ونظامها فخر الأمراء شيخ الدولة وعمادها ذو المجدين مصطفى أمير المؤمنين بهرام الحافظى » . (القلقشندى : صبح الأعشى ٨ : ٢٦١ و ١٣ : ٣٢٥).

[٢] الكامل ١١: ٤٨ ؛ المختصر فى أخبار البشر ٣: ١٢ .

[٣] اتعاظ الحنفا ٣: ١٦١ .

[٤] نفسه ٣: ٢١٨ ، ٢٥١ وانظر فيما سبق ص ٢٨١ .

[٥] ابن ميسر : أخبار ١٢٦ ؛ القلقشندى : صبح ٨: ٣٤٢-٣٤٦ .

كاتبُ السِّجِلّ – وهو القاضى الفاضِل –الأمر كما لو أن الله قد بَعَث هذا الوزير السُّنِّى لإنقاذ الدولة وألهم الإمام الفاطمى باختياره لرُتْبَة الوزارة . واستخدم فى كتابة السِّجِلّ نفس التراكيب السابق استخدامها فى كتابة سِجِلّات تولية الوزراء الفاطميين ، فلَقَّبُه فيها هو « السَّيِّد الأَجَلّ الملك المنصور سُلْطان الجُيوش وَلِىّ الأمة فَخر الدَّوْلَة أَسَد الدين كافل قُضاة المسلمين وهادى دُعاة المؤمنين أبو الحارث شيركوه العاضِدى »[1] .

ونلاحظ فى هذه الألقاب ظهور لقب « سُلْطان الجيوش » – الذى كان أوَّل من تَلَقَّب به الوزير السابق شَاوَر السَّعْدى – عِوَضًا عن لَقَب « أمير الجيوش » الذى استمر منذ بدر الجمالى وحتى ضرغام[2] (٤٦٧ – ٥٥٨هـ) وأيضًا استمرار لقبين تقليديين أضيفا إلى الوزراء العسكريين ابتداء من عام ٤٧٢هـ/ ١٠٧٩م هما « كافِلُ قُضاة المسلمين وهادى دُعاة المؤمنين » علمًا بأن شيركوه كان سُنِّيًا شافعيًا ! ويشير السِّجِلّ كذلك إلى أن شيركوه أعاد بُخنكَته على الدولة العلوية بهجة شبابها وأنقذ الإسلام وهو على شفا جرف هاو ، وهى تقريبًا نفس التراكيب التى استخدمها الإمام المستنصر بالله فى وَصْف أمير الجيوش بدر الجمالى منقذ دولته . وفى نفس الوقت يؤكِّد السِّجِلّ أحقية الأئمة الفاطميين فى ميراث الخلافة الإسلامية لكون النبى ﷺ هو جِدُّهم وعلى بن أبى طالب – رضى الله عنه – أباهم ، كما يُعَدِّد السِّجِلُّ مثالب وزراء السيوف السابقين الذين استولوا على خزائن الخلافة وراسلوا الفِرِنْج . وبعد ذلك يُحَدِّد السِّجلّ المسئوليات المنوطة بأسد الدين شيركوه فى العبارات التالية :

« وقَلَّدَك أميرُ المؤمنين أمر وزارته وتدبير مملكته وحياطة ما وراء سرير خلافته وصيانة ما اشتملت عليه دعوة إمامته ، وكَفالَة قُضاة المسلمين ، وهدايَة دعاة المؤمنين ، وتدبير ما عَدَقَه الله بأمير المؤمنين من أمور أوليائه أجمعين وجنوده وعساكره المؤيَّدين ،

---

[1] القلقشندى : صبح الأعشى ١٠ : ٨٠ .

[2] نفسه ١٠ : ٣١٠ .

المقيمين منهم والقادمين، وكافة رعاية الحضرة بعيدها ودانيها، وسائر أعمال الدول باديها وخافيها، وما يفتحه الله تعالى على يديك من البلاد، وما تستعيده من حقوقه التى اغتصبها الأضداد، وألقى إليك المقاليد بهذا التقليد، وقرّب عليك كلّ غرضٍ بعيد، وناط بك العَقْد والحَلّ والولاية والعَزْل، والمَنْع والبَذْل، والرَّفْع والخَفْض، والبَسْط والقَبْض، والإبْرام والنَّقْض، والتنبيه والغَضّ، والإنعام والانتقام، وما توجِبُ السياسة إمضاءَه من الأحكام، تقليدًا لايزال به عِقْدُ فخرك نظيمًا وفَضْل الله عليك وفيك عظيمًا ﴿ذَلِكَ الفَضْلُ من الله وكَفىٰ بالله عَليمًا﴾»[1].

وُيَوضِّح هذا التقليد تمامًا أن الخليفة فَوَّضَ أسد الدين شيركوه فى كل أمور الدولة الإدارية والعسكرية والمالية والقضائية وحتى أمر الدَّعْوَة إذْ يَطْلُب إليه السِّجِلّ أن يقوم بـ« تشييد أساس الدَّعْوَة وبنائها، وتمييز آخذى عُهُودها وأبنائها - قيام من يعوّل فى الأمانة على أهل الديانة، ويستمسك بحقوق الله تعالى الحقيقة بالرعاية والصيانة »[2].

ويتَّفق سجل تولية الملك الناصر صلاح الدين تمامًا مع سِجِل تولية عمه أسد الدين شيركوه، ولكن الجديد فيه أنه جَعَلَ تولية الوزارة وراثية وأن الإمام العاضِد أقامه عِوضًا عن عمه أسد الدين شيركوه، مثلما أقام جَدُّه الإمام المستنصر بالله الوزير الأَفْضَل شاهنشاه عِوضًا عن والده بدر الجمالى، وإن كان تَمَنَّى له أن يكون حالُه مع الدولة أَفْضَل من حال الأَفْضَل! فبعد أن يذكر السِّجِلّ خسارة الدولة بوفاة أسد الدين شيركوه المباغتة يقول:

« .... ما نَظَر فيه أمير المؤمنين بنور الله من اصطفائك أيها السّيِّد الأجَلّ الملك الناصر - أدام الله قدرتَك - لأن تقوم بخدمته بعده، وتَسُدَّ فى تقدمة جيوشه مَسَدَّه .... فوازَت الفادحة فيه النعمة فيك »[3].

---

[1] القلقشندى: صبح الأعشى ١٠: ٨٧-٨٨.
[2] نفسه: ١٠: ٨٩.
[3] نفسه ١٠: ٩٣.

« وعَزَم على أن قَلَّدَك تدبير مملكته الذى أغرَقْتَ فى إرثه وأغرَقْت فى كسبه ... وقَلَّدَك لأنك سَيْفٌ من سُيوف الله تعالى يحق به التَّقَلُّد وله التَّقْليد ، واصطفاك على عِلْم بأنك واحدٌ منتظِم فى معنى العديد ، وأحْيا فى سُلطان جيوشه سُنَّة جده الإمام المستنصر بالله فى أمير جُيوشه الأول وأقامك بعده كما أقام بعده ولده وإنه ليرجو أن تكون أفْضَل من الأفْضَل »[١].

ولعل أهم ما يُميِّز منصب الوزارة فى العصر الفاطمى هو أن الكثير من وزراء الفاطميين ، سواء الذين مُنِحوا لقب الوزارة أو لقب الوَسَاطة كانوا من النَّصارى مثل عيسى بن نَسْطورس وزير العزيز وكذلك زُرْعَة بن نَسْطورس الشافى الذى خَلَفَ وزيرًا نَصْرانيًا آخر هو منصور بن عَبْدون الكافى ، كلاهما فى أيام الحاكم[٢]. ويعد بَهْرام الأَرْمَنى الذى تولَّى وزارة التفويض للخليفة الحافظ أوضح مثل لذلك فقد ظَلَّ هذا الوزير على نَصْرانيته رغم كونه وزير سيف ولُقِّب بـ« سيف الإسلام »[٣]! وفى المقابل فإن اليهود رغم شغلهم مناصب هامة فى زمن الفاطميين ، فيبدو أنه كان عليهم أن يَتَحوَّلوا إلى الإسلام ليتولَّوا منصب الوزارة مثلما فعل ابن كِلِّس وأبو سَعْد التُّسْتَرى وصَدَقَة بن يوسف الفَلاحى[٤].

ولم تكن لوزير القَلَم (وزير التنفيذ) قبل بدر الجمالى ، سلطة كاملة على بقية موظفى الإدارة الذين كان يُعَيِّنهم الخليفة ، فقد كان للخليفة كل السلطة على الوزير ويراجع جميع أفعاله . أما وزيرُ السَّيْف (وزير التَّفْويض) فقد كان « هو سلطان مصر وصاحب الحَلِّ والعقد وإليه الحُكْم فى الكافة من الأمراء والأجناد والقضاة والكتاب

---

١ القلقشندى : صبح ١٠ : ٩٥؛ وانظر كذلك Lev, Y., *Saladin in Egypt*, pp. 66-81 .

٢ القلقشندى : صبح ٣: ٤٨٦ .

٣ ابن ميسر : أخبار ١٢٢ .

٤ نفسه ٣-٥ ، ٢٥ ، ٥٦ ؛ المقريزى : الخطط ١: ٤٢٤ Fischel, W., *op.cit.*, p. 80; Goitein, S.D., *A Med. Soc.* II, p. 377 .

وسائر الرعية، وهو الذى يُوَلِّى أرباب المناصب الديوانية والدينية »[١]. كذلك فإن الوزراء العسكريين لم يُصْرَفوا وإنما كانت تنتهى مدتهم بالقتل نتيجة للصراع على المنصب.

التَّنْظيمُ الإدارى

ارتكز التَّنْظيمُ الإدارى لمصر فى العصر الإسلامى على أساس التَّنْظيم الذى كان فى العصر البيزنطى. فمصر من الدول ذات النِّظام الإدارى الثابت المبنى على حضارة ذات جذورٍ ممتدةٍ فى التاريخ. وتنقسم مصر تبعًا لطبيعتها الجغرافية إلى قسمين رئيسيين: مصر السُّفْلى (الدِّلْتا أو الوَجْه البحرى) ومصر العُلْيا (الصَّعيد أو الوَجْه القِبْلى). وينقسم كل منها بدوره إلى أقاليم مُقَسَّمَة إلى كُوَر يشتمل كل منها على عِدَّة قرى، ولكل قرية زمام أطيان خاص بها[٢]. ويتولَّى إدارة كل إقليم والٍ يعاونه معاونون موجودين فى القرى.

وقد وَرِثَ الفاطميون فى العموم هذا التقسيم الإدارى وعملوا به بعد أن أدخلوا عليه بعض التعديلات. ولا تَمُدُّنا المصادر بمعلومات كافية عن توزيع أقاليم مصر الإدارية فى العصر الفاطمى الأول. ونَقَلَ المقريزى عن المُسَبِّحى المتوفى سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م أن مجموع قرى الصَّعيد وأَسْفَل الأرض ٢٣٩٥ قرية منها ١٤٣٩ قرية بأسْفَل الأَرض (الوَجْه البحرى)[٣]، وهو ما يَتَّفق مع ما نَقَلَهُ المقريزى عن جريدة عتيقة اطَّلَع عليها

---

[١] المقريزى: الخطط ١: ٤٤٠. وعن نظام الوزارة عمومًا راجع، عطية مصطفى مشرفة: نظم الحكم فى عصر الفاطميين (٣٥٨-٥٦٧هـ، ٩٦٨-١١٧١م)، القاهرة ١٩٤٨، ٩٦-١٢٠؛ ماجد، المصدر السابق ١: ٧٨-٩٣؛ الشيال: مجموعة الوثائق الفاطمية ١٢٧-١٧٨؛ محمد حمدى المناوى: الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى، القاهرة ١٩٧٠؛ al-Imad, L.S., *The Fatimid Vizirate 969-1172*, Berlin 1990.

[٢] المقريزى: الخطط ١: ٧٢ (نشر ڤييت ١: ٣٠٦-٣١٣).

[٣] نفسه ١: ٧٣ (طبعة ڤييت ١: ٣٠٩).

القُضاعى بخط أبى عيسى بُقْطُر بن نَشقا الكاتب القِبْطى المعروف بالتوَيْس متولّى خَراج مصر للدولة الإخشيدية ، تشتمل على ذكر كُورِ مصر وقُراها إلى سنة ٣٤٥هـ/٩٥٦م ، أن قرى مصر بالصَّعيدين وأَسْفَل الأرض ٢٣٩٥ قرية منها بالصَّعيد ٩٥٦ قرية وبأسْفَل الأرض ١٤٣٩ قرية[١]. أما القُضاعى المتوفى سنة ٤٥٤هـ/١٠٦٢م فذكر أن مجموع كُورَ الصَّعيد ثمان وعشرون كورة بينما يتراوح عدد كُوَر أَسْفَل الأرض بين ثمان وثلاثين كورة وخمس وعشرين كورة[٢].

ولاشك أن الرَّوْك الأَفْضَلى الذى قام به الوزير الأَفْضَل ابن بدر الجمالى سنة ٥٠١هـ/١١٠٧م قد أعاد توزيع زمام أراضى هذه القرى الذى كان قسمٌ كبيرٌ منها قد تخرَّب فى أثناء الأزمة الاقتصادية التى مَرَّت بها مصر فى منتصف القرن الخامس الهجرى /الحادى عشر الميلادى[٣].

* * *

ولا تشير مصادرُ العصر الفاطمى الأول إلى ولايات أَسْفَل الأرض أو الصَّعيد ولا تُحَدِّدها ، وإنما تستخدم مُصْطَلَحًا آخر يختفى فى العصر الفاطمى الثانى ، هو « مُتَولّى السَّيّارَة » ، وهى وظيفة لا نجد لها تعريفًا فيما بين أيدينا من مصادر ، ولكن من خلال المصادر المتاحة يَبدو أنها وظيفةٌ إدارية عسكرية ، أى أن صاحبها كان المشرف الإدارى على المنطقة وفى الوقت نفسه يتولّى قيادة حاميتها العسكرية ، وربما كانت تعادل - مع فروق - وظيفة « إسْفِهْسَلار العساكر » التى ظهرت فى النصف الثانى من تاريخ الدولة !

فعندما اتَّفَقَت سيدةُ الملك مع الحسين بن على بن دَوّاس الكُتامى على التخلُّص من أخيها الحاكم بأمر الله وَعَدَتْه « أن يكون صاحب الجيش وشيخ الدولة والقائم بها ووَقَّعَت

---

[١] المقريزى : الخطط ١: ٧٣ (نشرة فييت ١: ٣١١- ٣١٢).

[٢] نفسه : ١: ٧٣ (نفسه ١: ٣١٠).

[٣] انظر فيما سبق ص ٢٠٤-٢٠٧ .

له بولاية السَّيَّارَتين وهى حماية مصر »[١]. كما أن سَنِيّ الدولة حَمَد بن أخى التاهرتى خُلِعَ عليه فى رجب سنة ٤١٥هـ/سبتمبر سنة ١٠٢٤م وقُلِّدَ « جميع سَيَّارات أسْفَل الأرض » التى كانت فى يد عُدَّة الدَّولة رِفْق الخادم الأسود[٢]. ويستخدم المُسَبِّحى الذى أورد هذا الخبر كذلك مصطلح « متولِّى حَرْب تِنِّيس ودِمْياط »[٣] و « متولِّى حَرْب الرَّمْلَة » ويشير إلى حَيْدرة بن عَقْبايان «متولِّى حَرْب الصَّعيد»[٤]. أما ابن الصَّيْرَفى فيشير فى « القانون » إلى وظيفة متولِّى الحرب[٥] ويذكر فى « الإشارة » أن أبا الحسن على بن جعفر ابن فلاح الكُتامى جُعِلَ له فى سِجِلّه « ولاية الإسكندية وتِنِّيس ودِمْياط والشُّرْطَتين : العُلْيا والسُّفْلى والحِسْبَة والسَّيَّارَتين ...»[٦]. ويشير ساويرس بن المقفع إلى أن ناصر الدولة بن حمدان كان « والى السَّيَّارتين بالريف : الشرقية والغربية »[٧] وأن من يُدْعَى عَضُد الدولة كان « متولِّى الحرب والسَّيَّارَة بالريف »[٨]ويشير أحد السجلات المؤرخة سنة ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م إلى شخص « كان مستخدمًا فى السَّيَّارة العربية »[٩].

الإصْلاحاتُ الإدارية لبدر الجمالى

اعتبارًا من الإصلاحات التى أدخلها أميرُ الجيوش بدر الجمالى على التقسيم الإدارى لمصر فى سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٨م قُسِّمَت أقاليمُ مصر إلى أربع ولايات رئيسية : ولاية قُوص ثم ولاية الشَّرْقية ثم ولاية الغَرْبية ثم ولاية الإسكندرية ومعهما العاصمة المصرية

---

[١] المقريزى : المقفى الكبير ٣: ٥٦١ .
[٢] المسبحى : أخبار مصر ٥٠ .
[٣] نفسه ٤٣ .
[٤] نفسه ٢١ ، ٩٢ .
[٥] ابن الصيرفى : القانون فى ديوان الرسائل ٣٥ .
[٦] ابن الصيرفى : الاشارة ٦٣ .
[٧] ساويرس بن القفع : تاريخ البطاركة ٣/٢: ١٧٧ .
[٨] نفسه ٣/٢: ١٧٤ .
[٩] Khan, G., *Arabic Legal and Administrative Documents in the Cambridge Geniza Collections*, p. 431.

مُمَثَّلة فى ولاية القاهرة وولاية الفسطاط، يضاف إليها ولاية عَسْقَلان[١] الولاية الوحيدة خارج الأراضى المصرية التى استمرت بأيدى الفاطميين بعد استيلاء الفِرِنْج على سائر الولايات الفاطمية الأخرى بالشام فى سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م.

كانت أهمُ هذه الولايات هى «ولاية قُوص» يقول القلقشندى: إنها كانت أعظم ولايات الديار المصرية وواليها يحكم على جميع بلاد الصَّعيد[٢]، ووَصَفَها ابن الأثير بأنها «أكبر الأعمال بعد الوزارة»[٣].

كان الصَّعيدُ فى ذلك الوقت ينقسم إلى قسمين، ففى سِجِلٍّ مؤرَّخ لليلتين بقيتا من محرم سنة ٤٦٧هـ/٢٤ سبتمبر سنة ١٠٧٤م وَجَّهه الإمام المستنصر بالله إلى الصُّلَيْحيين فى اليمن نجد ديوان الإنشاء الفاطمى يستخدم اصطلاح: الصَّعيد الأَعْلى والأَدْنى[٤]، ويشير ابن الصَّيْرَفى فى النصف الأول للقرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى كذلك إلى هذين الاصطلاحين[٥].

ونصادف لأول مرة ذكر «والى قوص» فى أحداث سنة ٤٧٢هـ/١٠٧٩م كما لَخَّصها ابن مُيَسَّر، ففى هذا العام ذهب والى قوص إلى أسْوان ليَتَلقى القبض على ملك النوبة الذى جاء إليها لزيارة بعض كنائسها[٦]. ورغم أن نَصّ ابن مُيَسَّر لا يذكر لنا اسم هذا الوالى فإن نَصًّا لساويرس ابن المُقَفّع يفيدنا أن اسمه سَعْد الدولة سارْتكين القَوّاسى ولكنه جعله واليًا على أسوان[٧]. ويبدو أن والى قوص كان يمتد إشرافه حتى أسْوان

---

١ ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك ١/٤: ١٣٦، ١٣٧؛ القلقشندى: صبح الأعشى ٣: ٤٩٣-٤٩٤؛ المقريزى: اتعاظ الحنفا ٣: ٣٣٦.

٢ القلقشندى: صبح الأعشى ٣: ٤٩٣.

٣ ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ١١: ٢٩٠.

٤ السجلات المستنصرية، سجل رقم ٥٦ ص ١٨٥.

٥ ابن الصيرفى: القانون فى ديوان الرسائل ٣٥، ٣٦.

٦ ابن ميسر: أخبار مصر ٤٦؛ المقريزى: اتعاظ الحنفا ٢: ٣٢٠.

٧ ساويرس بن القفع: تاريخ بطاركة الكنيسة ٢/٣: ٢١١.

جنوبًا ؛ لذلك أطلق عليه أبو صالح الأرْمَنى « والى الصَّعيد الأعْلى »[١]، خاصةً وأن نَصّ إنشاء جامع قوص المؤرخ سنة ٤٧٦هـ/١٠٨٣م يؤكِّد لنا أن والى قوص هو فخر الملك سَعْد الدولة تاج المعالى أبو منصور سارْتكين الجيوشى ، وهو نفس الوالى الذى أنجز مئذنة جامع إسْنا سنة ٤٧٤هـ/١٠٨١م[٢]. وربما كان كذلك هو مُقَدَّم العساكر الذى قُتِلَ أثناء حصار عَسْقَلان فى سنة ٤٩٤هـ/١١٠١م[٣].

ويرى جان كلود جارسان J.- Cl. Garcin فى دراسته الهامة عن مدينة قُوص فى العصر الإسلامى ، أنه كان هناك قائدٌ مسئولٌ عن مجمل الصَّعيد الأَعْلى كان يَتَنَقَّل من قوص إلى أسْوان وحتى إلى عَيْذاب على البحر الأحمر تبعًا للظروف ، ومن ثم فإن تعبير « الصَّعيد الأعْلى » الذى استخدمه ديوان الإنشاء الفاطمى فى عام ٤٦٧هـ/١٠٧٥م إنما يتطابق بوضوح مع واقع إدارى . فوالى قوص هو قبل كل شىء قائد القوات الفاطمية المرابطة فى الصَّعيد الأعْلى ، وكانت مدينة قوص هى مركز قيادة هذه القُوّات[٤]. ومن بين الذين تَوَلّوا ولاية قوص يشير ابن مُيَسّر إلى واحد منهم توفى سنة ٥١٥هـ/١١٢١م هو الأمير السعيد محمود بن ظَفْر[٥].

ويشير الإصلاح النَّقْدى الذى قام به الوزير المأمون البَطائِحى سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م إلى أن قُوص قد أصبحت مركز الصَّعيد الأعْلى حيث أمر الوزير فى هذه السنة بإنشاء دور ضَرْب جديدة فى القاهرة والإسكندرية وقُوص وصور وعَسْقَلان إلى جانب دار

---

١ أبو صالح الأرمنى : تاريخ ١٢٤ .

٢ Wiet, G., *RCEA* n° 2728, 2733 .

٣ ابن ميسر : أخبار مصر ٦٨ .

٤ Garcin, J. Cl., *Un Centre musulman de la Haute-Egypte médiévale: Qûs*, p. 83 ؛ وانظر نص سجل بتولية قوص يذكر فيه الخليفة أن « مدينة قوص وأعمالها أمْدى أعمال المملكة مسافة وأبعدها من دار الخلافة وتشتمل على كثير من أجناس الناس ... رأى أمير المؤمنين وبالله توفيقه أن يَرُدّ ولاية الحرب بها إليك ... » (القلقشندى : صبح الأعشى ١٠: ٣٦٩).

٥ ابن ميسر : أخبار مصر ٨٤ .

الضَّرْب القديمة الموجودة فى الفُسْطاط [١]. ويشير اختيار قُوص إلى أن المدينة قد أصبحت بشكل نهائى مقر الوالى. ولاشك أن أحد أسباب إقامة دار ضرب بقوص مرتبط بتنامى النشاط الاقتصادى للمدينة ومن أجل جباية الرُّسُوم الجمركية على السِّلَع المارة بها، ولتقوم كذلك بالإنفاق على القوات المرابطة فى الصَّعيد الأعلى [٢]. ولم تصل إلينا من دار ضَرْب قوص سوى عُمْلَة وحيدة ضربت فى عام ٥١٧هـ/١١٢٣ أو ٥١٩هـ/١١٢٥م فى عهد الخليفة الآمر بأحكام الله، وربما أخذت العُمْلات الأخرى طريقها إلى المحيط الهندى [٣]! وقد تَوَقَّفَت دار ضَرْب قوص فى أعقاب سقوط الدولة الفاطمية، فابن مَمَّاتى - الذى كتب كتابه «قوانين الدواوين» نحو أواخر القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى - يذكر أنه لم يبق فى زمنه سوى دار ضرب القاهرة ودار ضرب الإسكندرية [٤].

وترجع أهمية ولاية قُوص كذلك إلى اهتمام الفاطميين المتزايد بطرق تجارة البحر الأحمر المؤدية إلى الهند، حيث كانت المركز الرئيسى الذى يربط بين البضائع القادمة من عَيْذاب على البحر الأحمر، أو من داخل إفريقيا والفُسْطاط، حيث يتم توزيعها بعد ذلك على موانئ البحر المتوسط: الإسكندرية غربًا، وتِنِّيس شرقًا.

ويلى قُوص فى الأهمية «ولاية الشَّرْقِيَّة» التى كانت تشتمل على الأراضى الواقعة شرق فرع دِمْياط والممتدة من بِلْبَيس جنوبًا إلى البحر المتوسط شمالاً. وكانت لها دورٌ كبير فى مواجهة أىّ هجوم تتعرَّض له مصر من حدودها الشرقية.

وكانت «ولاية الغَرْبِيَّة» تشتمل على كل الأراضى الواقعة داخل الدلتا المصرية.

---

[١] ابن المأمون: أخبار مصر ٩٢؛ المقريزى: الخطط ١: ٤٤٥ واتعاظ الحنفا ٣: ٩٣-٩٤.

[٢] Garcin, J.-Cl., *op.cit.*, pp. 84-85.

[٣] Lane-Poole, S., *The Coinage of Egypt*, London 1879; Garcin, J.-Cl., *op.cit.*, p. 85.

[٤] ابن مماتى: قوانين الدواوين ٣٣١.

أما « ولاية الإسكندرية » فكان واليها يشرف كذلك على أراضى إقليم البُحَيْرَة والممتدة جنوبًا حتى مشارف الجيزة [١].

ونظرًا لمكان هذه الولايات وأهميتها الاستراتيجية للدولة الفاطمية كان يُخْلَع على ولاتها من خزانة الكُسْوَة بـ « البَدَنَة » ، وهو نفس نوع اللِّباس الذى كان يرتديه الخليفة فى يوم فَتْح الخَلِيج [٢].

ويضيف القَلْقَشندى أن هذه الولايات الأربع هى الولايات الكبرى التى يدخل تحت حكمها الولايات الصغرى . حيث رأى بنفسه فى « تَذْكِرَة » أبى الفَضْل الصُّورى - أحد كُتّاب الإنشاء فى أيام القاضى الفاضل - سِجِلّات كثيرة لولاة الوجهين القِبْلى والبحرى [٣]، مثل ولاية الجيزية وولاية الإطفيحية وولاية البهنساوية وولاية البوصيرية وولاية الأُشْمُونين والطَّحاويَّة وولاية السُّيُوطية وولاية الإخميميَّة وولاية الفَيُّوم وولاية واح البَهْنَسا وولاية الواح الداخلة وولاية الواح الخارجة فى الوجه القبلى . وولاية القَلْيُوبية وولاية منية تردى - وهى منية غَمْر - وولاية المُرتاحية وولاية الدَّقَهْلية وولاية مدينة تِنِّيس - وبها كانت دار الطِّراز - وولاية المَنُوفية وولاية جزيرة بنى نَصْر - وربما أضيفت إلى المَنُوفية وعُبِّرَ عنهما بالمَنُوفيتين - وولاية جزيرة قوسينيّا وولاية البُحَيْرَة وولاية ثَغْر رشيد المحروس وولاية ثَغْر نَسْتَرَاوه وولاية ثَغْر دِمْياط وولاية الفَرَما بالساحل الشامى فيما دون العَرِيش [٤].

وكان وُلاةُ هذه الأقاليم عادة هم المُرَشَّحِين لتولّى منصب الوزارة فى الثلاثين عامًا الأخيرة من حكم الفاطميين فى مصر .

---

[١] القلقشندى : صبح الأعشى٣ : ٤٩٤ .
[٢] ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٢٤ .
[٣] القلقشندى : صبح الأعشى ٣: ٤٩٤ .
[٤] نفسه ١٠: ٣٨٠ .

«وِلايَةُ القاهرة» و «وِلايَةُ الفُسْطاط»

كانت الفُسْطاط فى العصر الفاطمى، وظَلَّت لفترة غير قصيرة بعد سقوط الفاطميين، هى مدينة مصر الرئيسية ومركز نشاطها الاقتصادى والصناعى والعلمى، بينما كانت القاهرة هى مقر الخليفة (الإمام) الفاطمى ومركز الدولة الإدارى والسياسى والمعقل الرئيسى لنشر الدَّعْوَة الإسماعيلية. وكَوَّنَ مجموع المدينتين - اللتين كان يفصلهما عن بعضهما البعض نحو الميلين - العاصمة المصرية فى العصر الفاطمى.

واشتهرت الفُسْطاط بأنها مركز المقاومة السُّنِّيَّة فى مصر بفضل جامعها العتيق وبكونها مركز الجذب التجارى والاقتصادى بسبب قُرْبها من شاطئ النيل ولالتقاء طرق التجارة القادمة من البحر الأحمر والبحر المتوسط وداخل إفريقيا عندها، بحيث غَطَّت شُهرتها على القاهرة المركز الإدارى والمدينة المُحَصَّنَة التى كان يُحْظَر دخولها على غير قاطنيها، من رجال البلاط والحكم وطوائف الجند، إلّا بإذن خاص.

وأشار ابن رِضْوان الطبيب المتوفى سنة ٤٥٣هـ/١٠٦١م إلى أن عاصمة مصر أو «المدينة الكبيرة» - كما أطلق عليها - تتكوَّن من أربعة أجزاء: الفُسطاط والقاهرة والجزيرة والجيزة، وأن أعظم هذه الأجزاء الفُسْطاط ويليها فى العِظَم وكثرة الناس القاهرة[1].

كان المُوَظَّفون الذين يتولَّوْن إدارة العاصمة المصرية يعيِّنهم الخليفة (الإمام) بنفسه لمباشرة سلطتهم، فلم تَتَّبع المدن الإسلامية فى هذه الفترة نظامًا انتخابيًّا فى اختيار موظَّفيها المسئولين عن شئون البلديات. وأُسْنِدَت إدارة العاصمة الفاطمية إلى ثلاثة موظفين رئيسيين هم: «الوالى» و «صاحب الشُّرْطة» و «المحْتَسب».

---

[1] ابن رضوان: دَفْع مضار الأبدان بأرض مصر ١٥٥، ١٦١؛ المقريزى: الخطط ١: ٣٣٩، ٣٤٠.

لا تظهر وظيفة « والى القاهرة » أو « والى الفُسطاط » فى مصادر العصر الفاطمى الأول ، وإنما بدأت فى الظهور مع نهاية القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، وحَلَّ مَحَلَّها فى هذه الفترة وظيفة « صاحب الشُّرْطَة » : صاحب الشُّرْطَة العُليا (بالقاهرة) وصاحب الشُّرْطَة السُّفْلى (بالفُسطاط) . فطوال القرن الفاطمى الأول وحتى قُرْب نهاية القرن الخامس الهجرى كان الذى يَحْفَظ النظام فى المدينتين يُعْرف بـ« صَاحِب الشُّرْطَة » ، الموجود فى الفُسطاط يسمى « صاحب الشُّرْطَة السُّفْلى » والموجود فى القاهرة يسمى « صاحب الشُّرْطَة العُليا » . أما مصطلح « الوالى » فلم يظهر فى مصادر العصر الفاطمى إلَّا مع نهاية القرن الخامس الهجرى . فالمُسَبِّحى ، الذى ألَّف تاريخه فى أوائل حكم الفاطميين فى مصر ، يستخدم فقط مصطلح « صاحب الشُّرْطَة » أو « متولِّى الشُّرْطَة »[1] ، ولا يذكر على الإطلاق لفظ « الوالى » ، بينما يقابلنا لفظ « الوالى » بكثرة عند المؤرِّخين الفاطميين المتأخِّرين وخاصة ابن المأمون وابن الطُّوَيْر اللذين لا يذكران مصطلح « صاحب الشُّرْطَة » على الإطلاق[2]. وهذا يعنى أن العاصمة الفاطمية لم تعرف فى القرنين الرابع والخامس للهجرة سوى وظيفة « صاحب الشُّرْطَة » التى اختفت بعد ذلك لتحل محلَّها وظيفة « الوالى » بحيث إن مسئوليات الشُّرْطَة والمحافظة على الأمن أصبحت من ضمن اختصاصات وظيفة « الوالى » .

ويبدو أن الشُّرْطَتين : العُلْيا والسُّفْلى كانتا تُجْمَعان لشخص واحد خلال القرن الفاطمى الأول . فالمُسَبِّحى يذكر أن بدر الدولة نافذ الخادم الأسود كان يتولَّى الشُّرْطَتين : العُلْيا والسُّفْلى فى سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م[3]، وعندما تولَّى بَقِىّ الخادم الأسود الشُّرْطَتين فى العام نفسه نظر فى الحِسْبَة ، مضافًا إلى الشُّرْطتين ثم صُرِفَ عن الحِسْبَة

١ المُسَبِّحى : أخبار مصر ٣٠ ، ٦٨ ، ٨٩ ، ١٠١ .

٢ ابن المأمون : أخبار مصر ٢٧ و ٣٥ ، ٤٠ ، ٤٧ و ٥٣ ، ٦٩ ، ٧٨ ، ابن الطُّوَيْر عند المقريزى : الخطط ١ : ٤٦٨ .

٣ المُسَبِّحى : أخبار مصر ٤٤ ، ٤٧ ، ٧٠ .

والشُرطة بعد إعادة دَوَّاس بن يعقوب الكُتَامى لِلحسْبَة [١]. يؤيد ذلك ما ذكره القلقشندى من أنه رأى فى بعض سجلات الفاطميين إضافة الحِسْبة بمصر والقاهرة إلى صاحبى الشُرطَة بهما أحيانًا [٢].

وأورد لنا المُسَبِّحى فى حوادث سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م أسماء بعض من تولَّوا الشُرطَة السُفْلى بمصر مثل: سامى الدولة ابن كافى، وخليفته بدر الدولة نافذ، وأيضًا نزار بن حسين بن يُمْن الكُتامى المتوفى فى هذه السنة، وكذلك فَتْح بن نصر بن بونصر الكُتامى. وتولِّى هذين الشخصين يدل على أن الكُتاميين كانوا مايزالون يشغلون بعض المناصب الهامة فى مطلع القرن الخامس الهجرى.

ولاشك أن التطور الذى عرفته وظائف الإدارة فى العاصمة المصرية فى القرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى قد حدث فى أعقاب زوال الأزمات المتتالية التى تعرَّضت لها البلاد والعاصمة بصفة خاصة فى أواسط القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى. فقد اتَّضَحَ النظام الإدارى للعاصمة ولسائر الإقليم بعد الإصلاحات الإدارية التى أدخلها نظام بدر الجمالى فى العقد السابع لهذا القرن والتى قسِّمت فيها مصر إداريًا إلى أربع ولايات رئيسية هى: قوص والشرقية والغربية والإسكندرية [٣] بالإضافة إلى القاهرة والفسطاط [٤] مما تطلَّب إنشاء وظائف ولاة لهذه الولايات الست كان يخرج لأصحابها، الذين كانوا من أرباب السيوف، سجلٌ من الخليفة.

وظهر دور والى القاهرة فى تنظيم مواكب الخليفة من خلال النصوص التى أوردها ابن الطُوَيْر ووَصَفَ فيها المواكب العظام للدولة الفاطمية والتى استقر ترتيبها فى زمن

---

١ المسبحى: أخبار مصر ٤٧.

٢ القلقشندى: صبح ٣: ٤٨٣ وكذلك ١٠: ٣٤٢ و ٤٢٣؛ وانظر عن صاحب الشرطة فى العموم دراسة أحمد عبد السلام ناصف: الشرطة فى مصر الإسلامية، القاهرة-الزهراء للإعلام العربى ١٩٨٧.

٣ القلقشندى: صبح ٣: ٤٩٣-٤٩٤، المقريزى: اتعاظ ٣: ٣٣٦.

٤ نفسه: ٣: ٤٨٠.

خلافة الآمر مع مطلع القرن السادس الهجرى . فقد كان لوالى القاهرة مكانٌ فى الموكب يسير فيه[١] ويتولّى مع صاحب الباب الوقوف على رأس الطرق لمنع المارة فى أيام جلوس الخليفة[٢]، وكذلك ترتيب العساكر وحراسة الطُّرُق التى يستخدمها الخليفة فى أيام الركوب[٣].

موظف آخر كانت اختصاصاته مشابهة لصاحب الشُّرطَة ، إلّا أنه كان يؤدّى عمله فقط فى أثناء الليل هو « صاحب العَسَس » أو « متولّى الطّوْف ليلًا » . وكانت صلاحيات *هذا الموظف ، الذى كان يعمل تحت إشراف الوالى ، تتضمن الإشراف على القصر* الخِلَافى[٤] والقبض على الشرّاق[٥]، كما كان يصحبه دائمًا عددٌ من السَّقّائين والمَشَاعلية والنجّارين والقَصّارين والهدّادين « خوفًا من أن يحدث فى القاهرة فى الليل حريقٌ فيتداركون إطفاءه »[٦].

ولا يعنى اختفاء وظيفة « صاحب الشُّرطَة » فى أواخر العصر الفاطمى أن « الوالى » كان يقوم تمامًا بصلاحيات هذه الوظيفة ، بل كان هناك موظفٌ آخر لم يَرِد ذكره كثيرًا فى المصادر الفاطمية يتولّى مهمة صاحب الشُّرطَة هو « متولّى المَعُونَة » أو « والى المَعُونَة » . وقد مَيّز كتاب « تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية » المنسوب إلى ساويرس بن المُقَفَّع بين متولّى المعونة بمصر (الفسطاط) ومتولّى المعونة بالقاهرة الذى كان يشبه أن يكون نائبًا للوالى[٧]. وتبدو بعض صلاحياته من الأمر الذى أصدره له حُسَامِ الملك صاحب الباب عندما تَحوّل الخليفة الآمر بأحكام الله إلى منظرة اللُّؤْلؤة واهتم بسكن

---

١ القلقشندى : صبح ٣: ٤٨٠ .

٢ نفسه ٣: ٥٠٣ .

٣ المقريزى : الخطط ١: ٤٦٨ .

٤ نفسه ٢: ٢٧٧ .

٥ المُسَبِّحى : أخبار ٩٧ ، أبو المحاسن : النجوم ٤: ١٨٨ .

٦ المقريزى : الخطط ٢: ١٠٣ .

٧ ساويرس بن المقفع : تاريخ ٣: ٣ ، ٢١ ، ٢٢ ؛ المقريزى الخطط ١: ١٠٧ س ٣٣ ، ٤٠٥ س ٣٤ .

الدور المُطِلّة على الخليج ، حيث أمره بالكشف عن الدور المطلة على الخليج قِبْلى اللُّؤْلؤة وأن لا يُمَكِّن أحدًا من السكن فى شيء منها إلّا من كان له مِلْك كنوع من الإجراءات الأمنية ليقيم بها حواشى الخليفة لحراسته [1]. والمرة الوحيدة التى صادفنى فيها ورود مصطلح « متولّى المعونة » فى وثيقة رسمية هى أمر الخليفة الآمر للأمير متولّى المعونة بمصر بقراءة سجل التعزية فى وفاة الوزير الأفضل بن بدر الجمالى على منبر الجامع العتيق بمصر [2].

وللأسف لا تتوفر لدينا معلوماتٌ دقيقةٌ عن الكيفية التى كان يدير بها الوالى القاهرة أو الفُسْطاط على السواء. ولكن من حُسْن الحظ أن القلقشندى حَفِظ لنا فى « صبح الأعشى » نصَّ سجل خاص بولاية القاهرة صادر فى نهاية الدولة الفاطمية يحدِّد فيه الخليفة ، وهو فى الغالب الخليفة الفائز أو الخليفة العاضد ، مكانة مدينة القاهرة ومهام الوالى ومسئولياته . يَصِفُ فيه مكانة المدينة بقوله : « واعلم أنَّ هذه المدينة هى التى أُسِّس علىٰ التقوىٰ بُنْيانُها ، ولها الفضيلةُ التى ظهرَ دليلُها ووَضَح برهانُها ؛ لأنها خُصَّت بفخر لا يُدْرَك شَأْوُه ولا تُدْرَك آمادُه ، وذلك أنَّ منابِرهَا لم يُذْكَر عليها إلّا أئمة الهدى آباءُ أمير المؤمنين وأجدادُه ، ثم إنَّها الحَرَمُ الذى أضْحَى تقديسُه أمرًا حتما ، وظَلَّ ساكنُه لا يَخَافُ ظُلْمًا ولا هَضْما ، وغَدَتِ النعمةُ به متمَّمةً مكمَّلة » [3]. ثم يُحدِّد وظيفة الوالى ومسئولياته بقوله : « فاشْمَل كافَّة الرعايا بها بالصيّانة والعِناية ، وعُمَّهم بتامِّ الحِفْظ والرِّعاية وابسُط عليهم ظِلَّ العدل والأَمَنة ، وسِرْ فيهم بالسيرة العادلة الحَسَنة ، وساوِ فى الحقِّ بين الضعيف والقوِىّ ، والرَّشيد والغَوِىّ ، والمِلِّىّ والذِّمىّ ، والفقير والغنىّ ، واعتمدْ مَنْ فيها من الأمراء والمميَّزين ، والأعيان المقدَّمين والشهود المعدَّلين ، والأماثل من الأجناد ، وأرباب الخِدَم من القوَّاد بالإعزاز والإكرام ، وبَلِّغهم نهاية المُراد والمَرَام ، وأقِمْ حدود الله على من وجبت

---

[1] ابن المأمون : أخبار مصر ١٨ ، ٩٩ ، المقريزى : الخطط ١: ٤٦٨ .

[2] نفسه ١٨-١٩ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٦٩ .

[3] القلقشندى : صبح ١٠ : ٣٤١-٣٤٢ .

عليه بمقتضى الكتاب الكريم وسُنَّة محمدٍ عليه أفضل الصلاة والتسليم ، وتفقد أمور المتعيِّشين ، وامْنَعْ من البَخْس فى المكاييل والموازين ، وحَذِّر من فسادِ مُدْخَل على المطاعم والمشارب ، وانتهج فى ذلك سبيل الحق وطريق الواجب ، واحظر أن يخلو رجلٌ بامرأة ليست له بمَحْرَم ، وافعَل فى تنظيف الجوامع والمَسَاجد وتنزيهها عن الابتذال بما تُعَزُّ به وتُكْرم ، واشدُد من أعوان الحُكْم فى قَوْد أبَاة الخصوم .... وأوْعِز إلى المستخْدَمين بِحفْظ الشارع والحَارَات ، وحراستها فى جميع الأزْمنة والأوقات ، وواصل التَّطْواف فى كل ليلة بنفسك فى أوْفَى عِدَّة وأظهر عُدَّة ... وطالع مجلس النظر الأجلىّ الملكى بما تحتاج إلى علمه »[1].

وحَسَب ما ورد فى هذا السِّجِلّ نجد أن والى القاهرة كان يَجْمَع وظائف الحِسْبة والشُّرْطة بالإضافة إلى مهامه الإدارية والتى تَشْمل فى الأساس تنفيذ أوامر الخليفة والمحافظة على الأمن والنظام ، والنظر فى قضايا العقوبات والإجرام وتولِّى تنفيذ الأحكام كالسجن أو التحذير أو الجلد ، بالإضافة إلى قيادة مواكب الخليفة فى أيام الركوب والمواسم والتى أتى على تفصيلها ابن الطُّوَيْر .

ومن ناحية أخرى فقد حَفِظ لنا القلقشندى نصَّ ثلاثة سجِلَّات أخرى خاصة بتولية والى الفُسْطاط صادرة جميعُها أيضًا فى نهاية العصر الفاطمى ، يحدِّد فيها الخليفة مكانة الفُسْطاط بأنها « المجاوِرَةُ لمحلّ الخلافة ، وكلُّ مصْرٍ بالنسبة إليها معها بالإضافة ، وهى خِطَّة النيل وفُرْضة المَنيل ... ولا يؤهَّل لولايتها إلَّا كل حاملٍ لعبئها الثقيل ، ولا تُسْنَد الخدمة فيها إلَّا لكل مثْرٍ من ذخائر السياسة غير فقير ولا مُقِل »[2] وأنها « من أنْفَس الولايات محلا ، وأثبتِها على غيرها فَضْلا ، بمجاوَرتها للمَقام الكريم ، وحُصُولها من استقلال الرِّكاب الشريف إليها على الشَّرَف العظيم ، واختِصاصها فى مَجَال الخلافة بما

---

١ القلقشندى : صبح ١٠ : ٣٤٢ .

٢ نفسه ١٠: ٣٤٨ .

جَمَع لها بين الفَخْرين الحادث والقديم ، وأوْجَب لها على غيرها من البلاد مزيةً ظاهرةَ التكريم والتقديم ...»[١].

كذلك حدَّد الخليفة فى هذه السِّجِلّات الثلاثة وَضْع أهل الفُسْطاط وطبقتهم فقال : إنها مدينة « الفُقهاء والأتقياء والقُرّاء والعُلماء »[٢]، « والتجار الذين هم عَيْنُ الحلال والحرام ، والرَّعِيَّة الذين هم قِوام العيش فى الأيام »[٣].

وبعد ذلك يوجِّه الخليفة الوالى إلى اتباع نفس السياسة التى يقوم بها والى القاهرة من حيث الإشراف على النظام والأمن والقيام بواجب المحتسب . وتبعًا لهذه السِّجِلّات فقد كان والى الفُسْطاط يتولّى بالإضافة إلى عمله ولاية الصناعتين[٤].

وأول ما يقابلنا ذكر اسم والٍ للقاهرة فى المصادر الفاطمية فى أثناء حوادث سنة ٤٩٠هـ كما يرويها لنا ابن مُيَسَّر[٥]، وذلك عندما ذكر ذَخِيرة المُلْك جعفر بن عُلْوان الذى عاقب فى هذه السنة عددًا من العامة لسبِّهم الصحابة فى يوم عاشوراء عند مَشْهَد السيدة نفيسة[٦]. وقد ظَلَّ ذخيرة الملك واليًا للقاهرة حتى وزارة المأمون بن البطائحى ، وهذا الوالى هو وسعد الدولة الأَحْدَب - الذى كان واليًا للقاهرة فى زمن الآمر - الاسمان الوحيدان اللذان حفظتهما لنا المصادر الفاطمية[٧].

وعندما تولّى الوزير شاور الوزارة للخليفة العاضد للمرة الثانية بعد انتصاره على ضِرْغام فى سنة ٥٥٩هـ/١١٦٤م عَيَّن الخليفة ابنه الكامل شجاع نائبًا لأبيه فى الوزارة

---

١ القلقشندى : صبح ١٠ : ٣٦٥ .

٢ نفسه ١٠: ٣٦٦ .

٣ نفسه ١٠: ٣٥١ و ٤٢٣ .

٤ نفسه ١٠ : ٤٢٣ .

٥ ابن ميسر : أخبار مصر ٦٥ ، المقريزى : نهاية الأرب ٢٨: ٢٧٨؛ المقريزى : اتعاظ ٣: ٢٠ .

٦ ابن المأمون : أخبار ٤٧ ، المقريزى : الخطط ٢: ٤١١ واتعاظ ٣: ٥٥ والمقفى ٣: ٣٩.

٧ المقريزى : الخطط ٢: ١١٤ .

كما عهد إليه فى سِجِل توليته بالإشراف على مدينة القاهرة لتأمينها من الفوضى التى أحاقت بها على أيدى حامية الفِرِنْج (التى تركها عمورى الأول ملك بيت المقدس) وبسبب انتقال أهل الفُسْطاط إليها بعد حريق مدينتهم [١].

وقد أدَّت العناية بتعمير البر الغربى لخليج القاهرة منذ بداية القرن السادس الهجرى إلى ضرورة تعيين والٍ خاص بجامكية لهذا الجانب ، وإن لم تحدِّثنا المصادر عن طبيعة دور هذا الوالى [٢].

ولعل من أهم الواجبات التى أُسندت إلى واليىّ القاهرة والفُسْطاط الأمر الذى أصدره إليهما الوزير المأمون البطائحى سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م وأمرهما فيه « أن يُسَقِّعا له شارعًا شارعًا وحارةً حارةً بأسماء من فيها من السكان وأن لا يمكِّنا أحدًا من الانتقال من منزل إلى منزل إلى أن يخرج أمره بما يعهداه فيه » . لم يكن هذا التكليف بغرض إحصاء السكان وإنما خوفًا من الفرقة الحشيشية . فقد كانت الأماكن الشاغرة تمثل تهديدًا للدولة وعلى ذلك أصبحت المبانى أماكن ممنوعة ولابد من إرسال تقرير عنها إلى السلطات . وعندما وَصَلَت إليه أوراق التَّسْقيع وفيها أسماء أهل مصر والقاهرة وكُنَاهم وأحوالهم ومعايشهم ومن يصل إلى كل ساكن من سكان الحارات من الغرباء ، أرسل المأمون من قِبَله نساءً يدخلن هذه المساكن ويتعرَّفن أحوال سكانها الداخلية ولمعرفة إذا كان هناك غرباء يقيمون فى البلدين بحيث أصبح لا يخفى عليه شىء من أمرهما [٣].

كذلك كان لكل قطاع سكنى أو حارة فى العاصمة (القاهرة والفُسْطاط) مشرفٌ خاصٌ بها يسمى « صاحب الرَّبْع » [٤]. كان هذا الموظف هو وأعوانه أوَّل من يتحرَّكون

---

[١] القلقشندى : صبح ١٠: ٣١٨-٣٢٥ ، الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية (القاهرة ١٩٥٨) ١٦٦-١٦٧ .
[٢] نفسه ٢: ١١٤ والاتعاظ ٣: ٤٣ ، القلقشندى : صبح ٣: ٣٥٨ .
[٣] ابن ميسر : أخبار ٩٨ ، المقريزى : اتعاظ ٣: ١٠٨ .
[٤] القلقشندى : صبح ١٠: ٣٥١ ، النجوم ٥: ١٨٥ .

عندما يُهَدَّد النظام العام . وكان من اختصاصاته جَمْع سكان الحارة وقيادتهم للقاء الخليفة عندما يدخل فى موكب عام إلى المدينة [١].

ونعرف عن طريق وثائق الجنيزة أن مصاريف تكاليف العناية بالشوارع كانت واجبة على المبانى التى تحدُّها . وكانت عملية الإصلاح تتم تحت إشراف صاحب الرَّبْع أو الملاك أنفسهم [٢].

وإذا جاز لنا أن نعتبر الوالى وصاحب الشُّرطَة موظَّفَيْن مدنيين ، لأن واجباتهما لم تكن مرتبطة بالمسائل الدينية ارتباطًا مباشرًا (فيما عدا إشرافهما على الحِسْبَة) ، فقد كان « المحْتَسِب » على عكس ذلك موظفًا دينيًا فى الأساس مثله فى ذلك مثل القاضى .

كانت الحياة فى القاهرة طوال العصر الفاطمى ، أو على الأقل حتى نهاية القرن الخامس الهجرى ، بسيطة خالية من الأسواق العامة تقريبًا بحيث إنها لم تتطلّب وجود مثل هذا الموظف ، بعكس الفُسْطاط المركز التجارى والاقتصادى الكبير العامرة بالأسواق والبضائع مما جعل وجود المحْتَسِب أمرًا ضروريًا للإشراف على الأسواق ومراقبة الأسعار .

كانت مهام المحْتَسب متنوّعة وتتراوح بين الإشراف على التجارة والصناعة إلى تطبيق الشريعة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر [٣]. وكان سجله يُقْرأ بمصر والقاهرة على المنبر وكان له أعوانٌ فى القاهرة والفُسْطاط وسائر الأعمال كنُوَّاب الحُكْم . وكان من العوائد فى الدولة الفاطمية ، دون شك قرب نهايتها ، أن يجلس بالجامع الأزهر وجامع عمرو يومًا بعد يوم [٤]. وكان المحْتَسب يتقاضى مرتبًا شهريًا قدره ثلاثون دينارًا [٥].

---

١ Goitein, S.D., *op.cit.*, II, p. 369.

٢ *Ibid.*, IV, p.40.

٣ القلقشندى : صبح ١٠: ٤٦١ .

٤ القلقشندى : صبح ٣: ٤٨٣ ، المقريزى : الخطط ١: ٤٦٤ .

٥ المقريزى : الخطط ١: ٤٦٤ .

ولا نستطيع أن نعرف بدقة إذا كان المحتسب موظفًا حكوميًا بمعنى الكلمة كما يبدو ذلك واضحًا من كتب الحِسْبَة التى كتبت ابتداء من بداية العصر الأيوبى ، أو كان رئيسًا لطائفة حِرَفية ، فمعلوماتنا عن العصور الإسلامية الأولى لا تفيدنا فى التعرف على نشأة أية تجمعات خاصة ذات دور حِرَفى . ولكننا نجد فى كتاب « إغاثة الأمة » للمقريزى نصًا يحوى سلسلة من الإشارات الدقيقة عن الحياة الاقتصادية فى مصر فى منتصف القرن الخامس الهجرى وعن ذكر الأسواق والطوائف والعُرَفاء والحِسْبة .

يشير هذا النص بوضوح إلى أنه كان هناك إلى جانب المحتسب وأعوانه ، الذين يمثلون فى الحقيقة الحكومة الفاطمية ، كان لكل سوق من أسواق الفسطاط فيما يخص إشرافه الداخلى رئيسٌ مفوَّض عنه فى الاتصال بالحكومة يعرف بالعَرِيف [1] ، وكذلك كان لكل طائفة رئيس مماثل فابن المأمون يحدِّثنا عن عُرَفَاء السقائين [2] .

أما القاضى فقد كان موظفًا دينيًا أصلًا ، وكان واجبه الأول إقامة العَدْل على أساس الشريعة ، ومن ثم فقد كان من الضرورى أن يكون ضليعًا فى الفِقْه خبيرًا بأحكامه . يقول ابن الطُّوَيْر : « لا يتقدَّم عليه أحدٌ أو يحتمى عليه ، وله النظر فى الأحكام الشرعية ودور الضَرْب وضَبْط عيارها » [3] ، وإذا كان وزير الدولة صاحب سيف كان تقليده من قِبَله نيابةً عنه وإن لم يكن كان تقليده من الخليفة وكان له نُوّابٌ ينوبون عنه فى سائر الإقليم يعرفون بنوَّاب الحُكْم ، وكان لا يعدِّل شاهدًا إلَّا بأمر الخليفة [4] .

وكان القاضى يجلس يوم الاثنين والخميس بالقصر بالقاهرة ، ويجلس يومى السبت والثلاثاء بزيادة الجامع العتيق بمصر [5] .

---

[1] المقريزى : إغاثة الأمة ١٨-١٩ والمقفى ٣:٣٨٤ انظر كذلك أبا المحاسن : النجوم ٥: ١٨٤ .

[2] ابن المأمون : أخبار ٦٩-٧٠ ، المقريزى : الخطط ١: ٤٦٣ والاتعاظ ٣: ١٠ .

[3] القلقشندى : صبح ٣: ٤٨٢ ، المقريزى : الخطط ١: ٤٠٣ .

[4] نفسه .

[5] نفسه ، ناصر خسرو : سفرنامة ١٠٢ .

كما كانت من اختصاصاته مصاحبة الخليفة فى المواكب العظام والوقوف بجانبه عند صلاة الجمعة أو صلاة العيدين[١] وهو الذى يضع النَّصْل فى نَحْر الضحية فى عيد النحر نيابة عن الخليفة[٢]، كما كان من اختصاصاته كذلك الصلاة على الجنائز[٣] وكان يتقاضى راتبًا قدره مائة دينار فى الشهر[٤].

الدّواوين

مرّ تطوُّر «الدواوين المصرية» بثلاث مراحل متميِّزة رغم أن استمرارية النُّظُم الإدارية فى مصر تميل إلى أن تكون أقوى من تغيير الحكومات والأنْظِمَة الحاكمة، فلا يوجد فى الواقع فاصلٌ واضحٌ بينها. وهذه المراحل هى: عصرُ الوُلاة والدُّول المُستَقِلة (٣٢٩-٣٥٨هـ/ ٦٣٩-٩٦٩م)[٥] وعصرُ الدولة الفاطمية (٣٥٨-٥٦٧هـ/ ٩٦٩-١١٧١م)[٦] والعصرُ الأيوبى المملوكى (٥٦٧-٩٢٣هـ/ ١١٧١-١٥١٧م)[٧]. فقد استَحْدَث الفاطميون أمورًا كثيرةً فى نظام الحُكْم لم تكن قبلهم، كما أن الأيوبيين

---

١ المقريزى: الخطط ١: ٤٥٥، ٢: ٢٨١ (عن ابن الطُّوَير).

٢ نفسه ١: ٤٣٦ و ٤٣٧ (عن ابن الطُّوَير).

٣ المسبحى: أخبار ٩٧ و ١٠١، ١٠٥.

٤ ناصر خسرو: سفرنامة ١٠٩ يذكر أن راتبه ألفا دينار، المقريزى: اتعاظ ٣: ٣٤٠ والخطط: ١: ٤٠١.

٥ القلقشندى: صبح ٣: ٤٦٧ وانظر سيدة إسماعيل كاشف: مصر فى عصر الولاة، القاهرة ١٩٨٨، ٢٥-٦٦ ومصر فى عصر الإخشيديين، القاهرة ١٩٧٠، ١٦٥-١٢٢، Hassan, Z.M., *Les Tulunides*, Paris 1933, pp. 163-231.

٦ نفسه ٣: ٤٦٨-٤٢٦؛ عطية مصطفى مشرفة: نظم الحكم بمصر فى عهد الفاطميين، القاهرة ١٩٤٨؛ عبد المنعم ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ج١، القاهرة ١٩٥٣.

٧ نفسه ٤: ٥-٧٢؛ ابن فضل الله العمرى: مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار (مصر والشام والحجاز واليمن)، القاهرة ١٩٨٥؛ Rabie, H., *The Financial System of Egypt A.H. 564-741/ A.D. 1169-1341*, London 1972؛ على إبراهيم حسن: دراسات فى تاريخ المماليك البحرية وفى عصر الناصر محمد بوجه خاص، القاهرة ١٩٤٤، ١٨١-٢٩٥؛ عبد المنعم ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر ج١، القاهرة ١٩٦٧؛ Gottschalk, H.L., EI^2 art *Diwân*, II, ea. 336-341.

استمدُّوا نظام دولتهم من نظام الأتابكة والسَّلاجِقَة[١]، وكانوا أصل الدولة التركية[٢] بحيث إن المماليك لم يُدخِلوا تغييرًا كبيرًا على أسلوب الحكْم وجهاز الإدارة الأيوبى.

وقد لقيت دواوين الدولة تغييرات وتعديلات كبيرة طوال الفترة الفاطمية التى استمرت أكثر من قرنين من الزمان. ولم يعرف الفاطميون أغلب هذه الدَّواوين خلال الستين عامًا التى أمضوها فى شمال إفريقيا، كما أن قِسْمًا كبيرًا منها لم تعرفه النُّظُم المصرية السابقة على الفاطميين، بل اسْتَحْدَثَه الفاطميون بعد انتقالهم إلى مصر. فالتنظيمُ الصَّارم الذى أدْخَلَه يعقوب بن كِلِّس وعُسْلُوج بن الحسن على الإدارة والنُّظُم المالية كان أساس النِّظام المُعَقَّد للمُؤَسَّسات العامة التى نَمَت وتَبَدَّلت أو اسْتُجِدَّت تدريجيًا طوال العصر الفاطمى.

ومصادرُ معلوماتنا الرئيسية عن دواوين الدولة الفاطمية فى مصر نستمدها من كتابين متأخِّرين هما: «صُبْح الأعْشَىٰ» للقَلْقَشَندى و«خِطَط» المَقْريزى. وبالنسبة للفاطميين المتأخِّرين وبداية العصر الأيوبى يُمَثِّل كتاب «المِنْهاج فى أحكام صنْعَة الخراج» للمَخْزُومى، وكتاب «قوانين الدَّواوين» لابن ممَّاتى بالإضافة إلى كتابَىْ «لُمَع القوانين المُضِية» و«تاريخ الفيوم وبلاده» للنابلُسى أهميةً خاصةً. أما «ديوان الإنشاء» أو «الرَّسَائِل» فنحن نملك عنه كتابين مستقلَّيْن أحدهما عن الفترة الفاطمية الأولى هو «مَوَادُ البَيَان» لعلى بن خَلَف، والآخر عن الفترة الفاطمية الثانية هو «القانون فى ديوان الرسائل» لعلىّ بن مُنْجِب بن الصَّيْرَفى بالإضافة إلى صُوَر السِّجِلَّات والمناشير التى أوْرَدَها القلقشندى فى «صُبْح الأعْشَى».

وقد اعتمد عَرْضُ القلقَشندى والمقريزى لدواوين الدولة الفاطمية فى الأساس على ما أورده ابن الطُّوَيْر فى كتاب «نُزْهة المُقْلَتَيْن» الذى ألَّفه فى عصر صلاح الدين بعد

---

[١] القلقشندى: صبح ٣: ٥.
[٢] نفسه ٧: ١١٩.

سقوط دولة الفاطميين بفترة قصيرة.

وتُقَدِّم لنا الوثائق الرسمية الأصلية القليلة التى وَصَلَت إلينا من العصر الفاطمى (وثائق دير سانت كاترين ووثائق ديوان الإنشاء المحفوظة ضمن أوراق جينزة القاهرة) أسماء عدد من الدّواوين لم يَرِد لها ذِكْرٌ فى القائمة التى أوردها القلقشندى والمقريزى. فقد كانت العادةُ أن يُسَجِّل الكاتب فى نهاية كل سِجِلّ أو مَنْشُور أسماء الدواوين التى يجب أن يُثْبَت أو يُخَلَّد بها السِّجِلّ أو المَنْشور.

عَرَفَ الفاطميون فى بداية حكمهم فى مصر عددًا من الدّواوين، ذَكَرَ أغلبها المُسَبِّحى فى تاريخه (ت سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م)، استمر بعضها يعمل إلى نهاية دولتهم وزال أغلبه أو تبدَّل أو تغيَّرت أهميته فى النصف الثانى من تاريخ الدولة. ولا تعيننا المعلومات المتوفرة لنا على دراسة تطوُّر الدّواوين الفاطمية فى النصف الأول من تاريخ حكمهم فى مصر. فتاريخ المُسَبِّحى - وهو أقدم مصدر فاطمى وَصَلَ إلينا إذا استثينا تاريخ ابن زولاق - لا يذكر لنا سوى أسماء ثمانية دواوين فقط استمر عددٌ قليلٌ منها وتَغَيَّر أكثرها وتَبَدَّل بعد ذلك هى: ديوان الأحْباس وديوان البريد وديوان الترتيب وديوان الجيش وديوان الخَرَاج وديوان الشَّام وديوان العَرَائف وديوان الكُتَاميين[١]، أضاف إليها ابن مُيَسَّر والمقريزى: الديوان المُفْرَد والديوان الخاص وديوان النَّفَقَات وديوان دِمَشْق وديوان أم الخليفة المستنصر[٢]؛ بالإضافة إلى ديوان الزِّمام وديوان الأولياء الكبار وديوان الطَّحاوية (أو الظاهرية) والديوان الفَرَجِى، وهى الدواوين التى وَرَدَت فى إسجالات «السِّجل المنشور» الصادر عن الخليفة الظَّاهر فى المحرم سنة ٤١٥هـ/

---

[١] المسبحى: أخبار ١٢، ١٣، ١٥، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٥٦، ٥٩، ٦٣، ٦٧، ٦٩، ٨١، ٨٢، ١٠٩؛ أبو صالح: تاريخ ٥١ (٤٠ب)؛ Bianquis, Th., «Le fonctionnement des Diwans financiéres d'aprés al-Musabbihi», *An. Isl.* 26 (1992), pp. 47-60.

[٢] ابن ميسر: أخبار ٥، ٢٤، ٩٠؛ ابن خلكان: وفيات ٣: ٤٠٨؛ المقريزى: اتعاظ ٢: ٤٨، ٩٠، ١٠٨.

مارس سنة ١٠٢٤م[١]. ويجب أن نضيف إلى هذه الدّواوين دون شك «ديوان الإنْشَاء والمكاتبات» أو «ديوان الرّسائل». وواضح أن بعض هذه الدّواوين نشأ لخدمة أغراض مُعَيَّنة ثم زال بزوال الغرض الذى أنشئ من أجله.

وقد قَسّم علىّ بن خَلَف فى كتابه «مَوَاد البيان»، الذى ألّفه نحو سنة ٤٣٧هـ/ ١٠٤٥م، مراتب الوظائف الديوانية أو المتعلّقة بصناعة الكتابة إلى خمس عشرة مَرْتَبَة هى: الوَزَارة، والتَّوْقيع والرّسائل، والخَرَاج، والضّياع، وبيت المال، والخَزَائن، والنَّفَقَات، والجَيْش، والزّمام، والبَرِيد، والقَصّ، والمَظَالم، وكتابة القضاء، وكتابة القُوّاد والأمراء، وكتابة المَعَاون[٢].

ولا يتّفق هذا الترتيب كذلك مع ما أورده المُسَبّحى وابن مُيَسّر، كما أنه لا يفيدنا كثيرًا فى التعرّف على طبيعة الوظيفة الموكلة إلى هذه الدواوين أو إلى هذه الوظائف الديوانية.

وأغلب هذه الدّواوين لا يرد ذكره فى توصيف دواوين الإدارة الفاطمية فى العصر الفاطمى المتأخّر الذى ترجع إليه الأوصاف التى يَمُدّنا بها المؤلّفون المتأخّرون، ولكن دراستها تدلّنا على أن بعضها قد زال فى النصف الثانى من تاريخ الدولة الفاطمية وبعضها الآخر تغيّر اسمه والدور الذى يقوم به.

فديوان الشّام وديوان دِمَشْق وديوان الكُتاميين وديوان أم الخليفة المستنصر والديوان الفَرَحى زالت بزوال سبب وجودها. فدور الكُتاميين تلاشى فى أوائل القرن الخامس، وديوان أم الخليفة تغيّر دوره بتغير دور نساء القصر ونفوذهن، كما أن ديوان الشام وديوان دمشق زال دوره بخروج دمشق والشام عن السيطرة الفاطمية فى سنة ٤٦٨هـ/١٠٧٦م.

---

[١] Stern, S. M., *Fatimid Decrees* pp. 17-18.

[٢] على بن خلف: مواد البيان ٧٠-٨٨.

أما أهم دواوين العصر الفاطمى الأوّل التى استمرت فى العصر الفاطمى الثانى ، مع تبدُّل أسمائها وتوسيع دورها ، فيأتى على رأسها « ديوان التَّرتيب » أو « الرَّتيب » ، وقد تولّاه المؤرِّخ المُسَبِّحى أكثر من مرة فى زمن الحاكم بأمر الله [1] ، كما تولّاه أبو سَعْد محمد بن أحمد العَمِيدى الكاتب وعُزِل عنه سنة ٤١٣هـ/١٠٢٢م قبل أن يتولّى ديوان الإنشاء [2] ، كما ذكره ابن الصيْرَفى فى زمن أبى على الأَفْضَل كُتَيْفات [3] . وقد جَدَّد أبو عبد الله الأنصارى فى عهد الخليفة الحافظ ديوانًا سمّاه « ديوان الترتيب » تعادل وظيفته « ديوان البريد » [4] . أما عمل « ديوان الترتيب » فى العصر الفاطمى الأول فهو أشْبَه بالتنسيق بين دواوين الدولة وهو الدور الذى سيقوم به فى العصر الفاطمى الثانى « ديوان التحقيق » .

الدِّيوان الثانى هو « الدِّيوان المُفْرَد » وهو ديوان أحدثه الخليفة الحاكم سنة ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م برسم مَنْ يُقْبَض ماله من المقتولين أو من يَسْخَط عليه الخليفة [5] ، وربما كان هذا الديوان هو الدِّيوان الذى عُرِف فى نهاية العصر الفاطمى بـ « ديوان المُرْتَجَع » وقد جاء فى السِّجل الخاص بولاية متولّى هذا الدِّيوان ، والذى أورده القلقشندى ، أنه الدِّيوان الخاص بالمُرْتَجَع عن الوزير بَهْرَام وغيره وأنه من أجَلّ الدواوين وأوفاها [6] .

أما « ديوان الزّمام » الذى جاء ذكره فى السِّجل المنشور الصادر عن الخليفة الظّاهر سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م [7] فيبدو أنه الدِّيوان الذى تحوَّل فى أواسط القرن الخامس إلى ديوان

---

[1] المسبحى : أخبار ١٠٩ ؛ ابن خلكان : وفيات ٤: ٣٧٧ ؛ الصفدى : الوافى ٤: ٨ .

[2] نفسه ؛ ياقوت : معجم الأدباء ١٧ : ٢١٢ ؛ القفطى : إنباه الرواه ٣: ٤٧ ؛ الصفدى : الوافى ٢: ٧٦ ؛ السيوطى : بغية الوعاة ١: ٤٧ ؛ وانظر كذلك ساويرس : تاريخ ٢/٣: ١٧٨ س ١٧ .

[3] ابن الصيرفى : قانون ديوان الرسائل ٣٥ .

[4] المقريزى : اتعاظ ٣: ١٩٤-١٩٥ ؛ وانظر Khan, G., *op.cit.*, p. 432 .

[5] نفسه ٢: ٨١ ، ٨٢ ، والخطط ٢: ١٥ س ٢٦-٢٧ و ٢٨٧ س ١٤-١٥ .

[6] القلقشندى : صبح ١٠: ٣٥٧-٣٥٩ . وربما كان هو الديوان الذى ذكر فى وثائق ديرسانت كاترين باسم « ديوان الاستيفاء على الإقطاعات المرتجعة ...» (Stern S. M., *op.cit.*, p. 37) .

[7] Stern, S. M., *op.cit.*, p. 17 .

المجلِس . فالمقريزى ينقل عن « جامع سيرة الوزير الناصر للدين الحسن بن علي اليازورى » أن ديوان المجلِس هو زمام الدواوين ، بما يعنى أن ديوان المجلس هو اسم جديد لديوان الزمام [١] .

ولا ندرى إن كان « ديوان الخاص » ، الذى كان يتولاه عيسى بن نَسْطورس فى زمن الحاكم [٢] ، هو نفسه « الديوان الخاص » الذى تولاه بعد ذلك أبو الفضل جعفر بن عبد المنعم بن أبى قيراط فى زمن الآمر بأحكام الله [٣] ! والذى يبدو أنه الديوان المختص بنفقات الإمام والقصور .

ديوانُ المَجلِس وديوانُ النَّظَر

لاشك أن الديوان الرئيسى بين الدَّواوين الإدارية الأربعة عشر للدولة الفاطمية والذى يقابلنا اسمه فى المصادر مع أواخر القرن الخامس الهجرى ، هو « ديوان المجلِس » . وهذا الديوان ، كما يقول ابن الطُّوَيْر ، هو أصل الدواوين وفيه علوم الدولة بأجمعها ويقال لمتوَليه « صاحب ديوان المجلِس » ، ويشرف على إداراته المختلفة عددٌ من الكُتَّاب لكل واحد منهم مجلس مفرد ويعاونه معين أو معينان ، وصاحبُ هذا الديوان هو المتحدِّث فى الإقطاعات . وأهم كُتَّاب هذا الديوان هو « صاحب دَفْتَر المجلِس » ويكون عادةً من الأستاذين المحنَّكين [٤] . وتتولَّى إدارات هذا الديوان المختلفة الإشراف على الإنعامات والأُعْطِيَة ، ومَنْح الكُسْوات ، وتسجيل ما يرد من التُّحف والهدايا من الملوك والأمراء ، وضَبْط ما يُنْفَق فى الدولة من المهام لمعرفة ما بين كل سنة من التفاوت ، ويتم تنزيل كل ذلك فى « دَفْتَر المجلس » [٥] .

---

[١] المقريزى : الخطط ١: ٨٢ ، ٩٩ آخر سطر .

[٢] ابن ميسر : أخبار ١٧٩ ؛ المقريزى : الخطط ٢: ١٩٦ س ٢٦ .

[٣] أبو صالح : تاريخ ٥٤ (٤٢ ب) .

[٤] من بين من تولوا دفتر المجلس : أبو الفضائل ابن أبى اللَّيْث أخو الشيخ أبو البركات يُحَنَّا بن أبى اللَّيْث (أبو صالح : تاريخ ٦٤ (٥٠ ب) .

[٥] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٧٥ .

ويتّسم الدور الفعّال لديوان المجلس بالمرونة حيث يشتمل على كل ما يتّصل بالخليفة وتنظيم البلاط وتنظيم الأعياد والاحتفالات والنفقات الزائدة وتوزيع الإقطاعات، والسياسة العامة ... إلخ .

ومن أهم مَهَام « ديوان المجلس » عمل « الاشتيمار » (الميزانية العامة للدولة) فى نهاية ذى الحجة من كل عام . فقد كان كُتّاب ديوان الرّواتب (الذى أصبح فى فترة نجهلها فرعًا لديوان المجلس بعد أن كان فرعًا لديوان الجيش)[١] يجتمعون فى هذا الوقت عند صاحب ديوان المجلس ويحرّرون قائمةً بأسماء المرتزقين والمبالغ المؤداة لهم عَيْنًا ووَرِقًا . وقد تولّى المؤرخ ابن الطُّوَيْر بنفسه ديوان المجلس، وذكر أن الإستيمارَ انعقد وقت تولّيه هذا الدّيوان على ما مبلغه نيف ومائة ألف دينار أو قريب من مائتى ألف دينار[٢]. وذكر أبو صالح الأرْمَنى أن الشيخ السعيد أبا الفَخْر كان « كاتب الرّواتب » بديوان المجلس فى الخلافة الحافظية[٣].

أما « ديوان النَّظَر » فقد كان صاحبه يرأس دواوين الأموال[٤]، وكان له العَزْل والولاية، وهو الذى يتولّى عرض الأوراق فى أوقات معروفة على الخليفة أو الوزير، وله الاعتقال بكل مكان يتعلّق بنوّاب الدولة، وهو الذى يندب المترسلين لطلب الحساب والحَثّ على طلب الأموال، ولا يُعْتَرَض فيما يقصده من أحد من الدولة . ولم يكن يتولّى هذا الديوان سوى المسلمين فيما عدا الأَخْرَم (الأَكْرَم) النَّصْرَانى الذى تَوَصَّل إلى ولايته بالضّمان فى سنة ٥٣٠هـ/١١٣٦م[٥].

---

[١] المخزومى : المنهاج فى علم خراج مصر، تحقيق كلود كاهن، القاهرة ١٩٨٦، ٦٨، ٩٨ .

[٢] Stern, S.M., *op.cit.*, p. 17 ؛ المقريزى : الخطط ١: ٨٢، ٩٩ .

[٣] أبو صالح : تاريخ ٣٣، ٤٣ .

[٤] ربما كان الديوان الذى يسمّيه المخزومى « ديوان المال » (المنهاج ٦٩، ٧٠، ٧٢).

[٥] ابن الطوير : نزهة ٧٩–٨٠ . وعن تولى الدواوين بالضّمان انظر ابن مماتى : قوانين ٢٩٨–٣٠٠ .

وقد أمدَّنا ابن مُيَسَّر بأسماء من تولَّوا نَظَر الدَّواوين فى آخر عصر الدولة الفاطمية ، أقدمهم الشريف معتمد الدولة على بن جعفر بن غَسَّان المعروف بابن أبى العَسَّاف الذى تَوَلَّى نَظَر الدواوين بعد عَزْل وَلِّى الدولة أبى البركات يُحَنَّا ابن أبى الليْث عن ديوان التحقيق والمجْلِس سنة ٥٢٧هـ/١١٣٣م[١]. وفى سنة ٥٢٩هـ/ ٣٤- ١٠٣٥م ولَّى الخليفة الحافظ صنيعة الخلافة أبا الكرم الأَخْرَم ابن أبى زكريا النَّصْرانى نَظَر الدَّواوين ، وهو النَّصْرانى الوحيد الذى تولَّى هذا الديوان ، إلى أن عزله الوزير رِضْوان بن وَلَخْشِى سنة ٥٣٢هـ/ ١١٣٧م واستخدم عِوَضًا عنه القاضى المرتضى المُحَنَّك الطَرَابُلسى[٢]، ولكنه لم يلبث أن صرفه الخليفة الحافظ وأعاد الأَخْرَم النَّصْرانى إلى ضَمَان الدولة بعد عَزْل رِضْوان بن وَلَخْشِى[٣]. وفى سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م أوكل نَظَر الدَّواوين إلى القاضى الموفَّق أبى الكرم محمد بن معصوم التِّنِّيسى ثم صُرِف عنه فى سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧م وأعيد إليه القاضى المرتضى المُحَنَّك[٤]. وممن تولَّى هذا الديوان أبو الحسن على بن سليم البَوَّاب ، الذى قتله الوزير الصَّالِح طَلَائِع مع آخرين فى سنة ٥٥٠هـ/١١٥٥م[٥]، ومحمد بن محمد بن محمد بن بنان الأَنْبَارى الذى ذكر الصَّفَدى أنه « تولَّى ديوان النَّظَر فى الدولة المصرية وتقلَّب فى الخِدَم فى الأيام الصَّلاحية بِتِنِّيس والإسكندرية »[٦].

وعلى العكس من « ديوان النَّظَر » فلم يكن يتولَّى « ديوان المجْلِس » عادةً سوى النَّصَارى إلى أن استخدم الوزير ابن وَلَخْشى المسلمين فى المناصب التى كانت بأيدى النَّصارى سنة ٥٣١هـ/١١٣٧م . ورغم أن هذا الديوان قد عُرِفَ منذ وزارة الوزير اليازورى[٧]، فإن أوَّل اسم يقابلنا فى المصادر لمتولِّى هذا الديوان هو أبو الطَّيِّب سَهْلون بن

---

١ أبو صالح الأرمنى : تاريخ ٦٤ ؛ ابن ميسر : أخبار ١١٩ ؛ المقريزى : اتعاظ ٣: ٢٤٨ والمقفى ٦: ٤٨١ .

٢ نفسه ١٤٠ ؛ نفسه ٣: ١٦٥ ؛ المقريزى ابن ظافر : أخبار ٩٩ .

٣ المقريزى : اتعاظ : ٣ : ١٨٤ .

٤ ابن ميسر : أخبار ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٥٣ ؛ المقريزى : اتعاظ ٣: ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٩٩ ، ٢٢٣ .

٥ نفسه ١٥٣ ؛ نفسه ٣: ٢٢١ .

٦ الصفدى : الوافى ١: ٢٨٢ ؛ ابن شاكر : فوات ٣: ٢٦٠ .

٧ المقريزى : الخطط ١: ٨٢ ، ٩٩ آخر سطر .

كيل المتوفى سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م [١]. وفى أيام الوزير الأَفْضَل شاهنشاه كان الشيخ أبو الفَضْل المعروف بابن الأُسْقُف هو « كاتب الأَفْضَل والمُوَقِّع عنه فى الأموال والرجال ومتولِّى ديوان المجْلِس الأفْضَلى والنَّظَر فى جميع دواوين الاستيفاء على جميع أعمال المملكة » [٢]. كذلك فقد تولَّى هذا الديوان أكثر من مرة فى زمن الفاطميين والأيوبيين أبو الحسن على بن عثمان المخْزومى صاحب كتاب « المِنْهاج فى عِلْم خرَاج مصر » [٣].

ديوانُ التَّحْقيق

فى سنة ٥٠١هـ/١١٠٧م استجدَّ الوزير الأفْضَل ديوانًا سمّاه « ديوان التحقيق » مقتضاه المقابلة على الدَّواوين، كان لا يتولَّاه إلَّا كاتب خبير ويُلْحق بمتولِّى النَّظَر [٤]. كان أوَّل من تولَّاه الشيخ وَلِىّ الدولة أبو البركات يُحَنَّا بن أبى اللَّيْث [٥] وأطلق عليه ابن مُيَسَّر اسم « ديوان المملكة » [٦]، وأُطْلِقَ عليه فى أحد الوثائق المؤرّخه فى رمضان سنة ٥٠٤هـ/ مارس سنة ١٠١٥م « ديوان التحقيق الأفضلى السعيد » [٧]، وبعد وفاة الشيخ أبى الفضل ابن الأُسْقُف، متولِّى ديوان المجْلِس، فى مطلع القرن السادس جُمِع لابن أبى اللَّيْث « ديوان المجْلِس » إلى « ديوان التَّحْقيق » وظلَّ يليهما إلى أن صَرَفَه الخليفة الحافظ فى سنة ٥٢٧هـ/١١٣٣م « لأشياء نقمها عليه » وسَلَّم أمر الديوان إلى الشريف معتمد الدولة

---

١ ساويرس بن المقفع : تاريخ البطاركة ٣/٢ : ٢٢٣ .

٢ نفسه ٣/١ : ٣ ؛ أبو المكارم : تاريخ الكنائس ١: ٢١ ، ٢٣ ؛ أبو صالح : تاريخ الكنائس ٤٤ ؛ المقريزى : اتعاظ ٣: ٣٩ .

٣ المخزومى : المنهاج-خ ٤٦ و .

٤ ابن الطوير : نزهة المقلتين ٨١ .

٥ ابن المأمون : أخبار ٥٣ ، ٦٥ ؛ أبو صالح : تاريخ ٦٤ ؛ ابن ميسر : أخبار ٧٧ ، ١٠٨ ، ساويرس : تاريخ ٣/١ : ٢٦ ؛ المقريزى : الخطط ١: ٣٩٩ ، الاتعاظ ٣: ١٢٦ .

٦ ابن ميسر : أخبار ٩٠ .

٧ Khan, G., *Arabic Legal and Administrative Documents in the Cambridge Geniza Callections*, p. 415 .

على بن جعفر بن غَسّان المعروف بابن العَسّاف [١]، ولكن لم يكد يمضى عامان حتى استخدم الخليفة الحافظ الشيخ الرئيس صنيعة الخلافة أبا زكرى بن يحيى المعروف بالأكرم ابن الشيخ السعيد أبى المكارم هبة الله بن مينا المعروف بابن بولس الكاتب النَّصْرَانى (الأَخْرَم النَّصْرانى) فى ديوان التحقيق فى أيام وزارة بَهْرام الأَرْمَنى سنة ٥٣٠هـ/ ١١٣٦م [٢]، وتولّى بعد ذلك ديوان النَّظَر على جميع الدواوين وظَلّ يتردّد بينهما إلى آخر ربيع الأول سنة ٥٤٢هـ.

وعندما تولّى رِضْوان بن وَلَخْشى الوزارة فى سنة ٥٣١هـ/ ١١٣٦م، بعد عَزْل بَهْرَام الأَرْمَنى، «أمر بعدم استخدام النَّصَارى فى الدَّواوين الكبار ولا نُظَّارًا ولا مُشَارفين» [٣]، فعَيَّنَ القاضى الخطير أبا الحسن على بن سليم بن البَوّاب والقاضى المرتضى المُحَنَّك بن الطَّرابُلُسى على ديوانى التحقيق والمجْلِس وديوان النَّظَر عِوَضًا عن ابن بولُس الأَخْرَم النَّصْرانى [٤].

وفى أول الأمر كان ديوانا التحقيق والمجْلِس يُجْمَعان لشخص واحد كما حَدَثَ مع الشيخ وَلِىّ الدولة أبى البركات يُحَنَّا بن أبى اللَيْث، يؤكّد ذلك أن المَنْشُور الذى أصدره الخليفة الآمر بأحكام الله فى أعقاب وفاة الوزير الأَفْضَل ابن بدر الجمالى فى شَوَّال سنة ٥١٥هـ/ ١١٢١م «بإمضاء ما كان الوزير قد قَرَّره وخرجت به توقيعاته قبل قتله وعدم تغيير شىء منه» أمر باعتماده فى ديوانى التحقيق والمجْلِس وأن يُخَلَّد بهما [٥].

ويبدو أن «ديوان المجْلِس» قد أُلْغى بعد فترة قصيرة من بداية الدولة الأيوبية، فيذكر النَّابُلُسى عند حديثه عن «ترتيب الدَّواوين بالديار المصرية»: «أن أحوال الدَّواوين

---

[١] أبو صالح: تاريخ الكنائس ٦٤؛ ابن ميسر: أخبار ١١٩؛ المقريزى: اتعاظ ٣: ١٤٨.

[٢] ساويرس: تاريخ ٣/٣١؛ أبو المكارم: تاريخ: تاريخ الكنائس والأديرة ١: ٢.

[٣] نفسه ١٣: ٣١ وانظر ابن ميسر: أخبار ١٢٨-١٢٩؛ المقريزى: اتعاظ ٣: ١٦٣.

[٤] نفسه ٣/١: ٣١ والاتعاظ ٣: ١٦٥.

[٥] المقريزى: اتعاظ ٣: ٦٩.

بالديار المصرية كان على أنحاء مختلفة من زمن المصريين [أى الفاطميين] فكان لهم ديوانٌ يُعرف بـ « ديوان المجْلِس » وهو النظر فى أموال الزّكاة والجَوَالى بالديار المصرية جميعها مع ما يضاف إليه من ديوان الأبواب ، وكان أجلّ رُتْبَة عندهم وكان هو الذى يوقّع بإطلاق جامَكيّات المستوفين ويكتب على مستحقات المستحقين من أرباب الجامكيات والرَّواتب فيه ، ليس لأحد مع ناظر هذا الديوان حديث ، وهو الذى يتولّى إرسال التذاكر إلى الأعمال بطلب ديوان الزّكاة والجَوَالى وحسباناتهما ويستخدم فيهما ويصرف ، وكذلك ديوان الخَرَاج وديوان المَوَاريث والنَّطْرون والثُّغور وغير ذلك من الدَّواوين . « ثم تَغيَّر ذلك على أنحاء مختلفة إلى أن انتهى الحال إلى أن يؤمر المستوفون بعمل أوراق بالأشغال والدَّواوين » [1].

أما « ديوان التحقيق » فيذكر ابن مُيَسَّر صراحةً أنه زال بسقوط الفاطميين إلى أن أعاده الملك الكامل محمد فى سنة ٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م واستخدم فيه ابن كَوْجَك اليهودى ثم أبطله نهائيًا فى سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م ، ويضيف ابن مُيَسَّر أنه فى أيّام المُعِزّ أيْبَك التُركمانى اسْتُخْدِم صفىّ الدِّين عبد الله بن على المغربى مستوفيًا على مقابلة الدَّواوين ، الذى يُعَدّ نوعًا من ديوان التحقيق [2].

وقد استعاض الأيوبيون عن هذين الديوانين بما أُطْلِق عليه « مجلس أصحاب الدَّواوين » الذى كان يجتمع بحضرة السلطان لتسمية ناظر الدَّواوين . وقد عُقِد مَرّة فى العاشر من صفر سنة ٥٨٠هـ/ ٢٣ مايو سنة ١١٨٤م للمفاضلة بين شخص يُدْعى ابن شُكْر وآخر يُدْعى ابن عُثْمان . ووقع اختيار المجلس أولًا على ابن عُثْمان ثم صُرِف بابن شُكْر الذى سُمِّىَ فى خامس عشر ربيع الأول من السنة نفسها بـ « ناظر الدَّواوين » . وعُقِد المجلس كذلك فى رابع المحرم

---

[1] النابلسى : لمع القوانين المضية ٣٦ .
[2] ابن ميسر : أخبار ٧٧-٧٨ ؛ النويرى : نهاية ٢٨: ٢٧٥-٢٧٦ ؛ المقريزى : اتعاظ ٣: ٣٩ .

سنة ٥٩٠هـ/٣٠ ديسمبر سنة ١١٩٣م بحضرة السلطان العزيز عثمان [١].

الديوانُ الخَاص

وإلى جانب ديوانَىِ المجّلِس والتحقيق كان هناك ديوان آخر يُعْرف بـ« ديوان الخاص » يشرف على نَفَقات الخليفة والقصر وكان يُجْمَع دائمًا إلى ديوان المجّلِس فيقال « ديوانى المجّلِس والخاص السعيدين »[٢] أو « ديوان الخاص والمجّلِس »[٣]. وعادةً ما كانت هذه الدَّواوين تُنْسَب إلى الخليفة الحاضر كأن يقال « الديوان الخاص الآمرى »[٤] أو « ديوان المجّلِس الفائزى »[٥] أو «ديوان النظر الحافظى» أو « ديوان المجّلِس الظافرى السعيد » ، وفى وقت استبداد الوزراء كانت الدواوين تنسب إلى الوزراء مثل « ديوان التحقيق الأَفْضَلى السعيد »[٦].

دِيوَانُ الرَّسَائل أو ديوَانُ الإنشَاء والمكَاتَبَات

وإلى جانب الدَّواوين المالية استمر يؤدى وظيفته طوال العصر الفاطمى دون تغيير يُذْكر « ديوانُ الرَّسائل » ، وهى التسمية التى كانت تُطْلَق على هذا الديوان حتى حَلَّ محلها نهائيًا ابتداءً من القرن الرابع مصطلح « الإنشاء »[٧]. وهو ديوان مشترك فى جميع الأقاليم طوال العصر الإسلامى . ورغم أن ابن الصَّيْرَفى المتوفى سنة ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م ،

---

١ المقريزى : السلوك ١: ٨٨ ، ١٢٠ ؛ Rabie, H., *op.cit.*, p. 146 .

٢ Stern, S.M., *op.cit.*, p. 36 .

٣ ابن المأمون : أخبار ٦٦ ؛ المقريزى : الخطط ١: ٣٩٩ .

٤ نفسه ٣٠ ، ٣١ ؛ نفسه ١: ٨٤ .

٥ أبو صالح : تاريخ ٥ءِ (٤٢ ب).

٦ Stern, S.M., *op.cit.*, p. 72 .

٧ القلقشندى : صبح ١: ١٠٣ .

أَلَّف كتابًا اهتم فيه بذكر الشروط التى يجب أن تتوافر فى موظفى هذا الديوان وتوضيح تنظيمه الداخلى وسمَّاه « القانون فى ديوان الرَّسائل » ، فقد أطلق عليه فى مؤلَّف آخر هو « الإشَارَة إلى مَنْ نال الوَزَارَة » : « ديوان الإنْشَاء »[١]. وتُطْلِق جميع مصادر العصر الفاطمى التى وَصَلَت إلينا على هذا الديوان : « ديوان الإنْشَاء » وأحيانًا « ديوان المكاتبات »[٢].

كان « ديوانُ الإنْشاء الفاطمى » فى بداية القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى يتألَّف من : رئيس الدِّيوان ويقال له « مُتَوَلِّى الدِّيوان »[٣] أو « صاحب الدِّيوان » وكان يُخاطَب بـ « الأجَلّ » ويُلَقَّب بـ « كاتب الدَّسْت الشريف »[٤]؛ و « كاتب » ينوب عن رئيس الدِّيوان فى تلخيص ما يرد من الكتب ليسهل على الرئيس عرضها من غير إخلال بها ؛ و « كاتب » ينشىء ما يُكْتَب من المكاتبات هو أجَلّ المستخدمين فى الدِّيوان ؛ و « كاتبِ » يتولَّى المكاتبة عن الملك (الإمام) إلى الملوك المماثلين - وهو أعظم منزلة من كاتب الإنشاء وأعلى درجة ؛ و « كاتبِ » يكتب مكاتبات رجال الدولة وكبرائها من الولاة والأجناد والقضاة والكُتّاب والمشارفين وإنشاء تقليدات ذوى الخِدَم الصغار ؛ و « كاتبِ » يكتب المناشير ونحوها مما لا يُخْتم والكتب اللِّطاف والنُّسَخ - وهو أكثر عمل الديوان - يعاونه آخر يكون دونه فى المنزلة ؛ و « كاتب » مُبَيِّض برسم الإنشاءات والسِّجِلات والتقليدات ومكاتبات الملوك ؛ و « ناسِخ » يتولَّى نَسْخ الكتب

---

١ ابن الصيرفى : الإشارة ٨٥ .

٢ على بن خلف : مواد البيان ٧٥-٧٦ ؛ ابن المأمون : أخبار ٢٧ ، ٥٢ ، ١٠٣ ؛ ابن ميسر : أخبار ٤٥ ، ٥٢ ، ٥٦، ٦٠ ، ٩٠ ؛ القلقشندى : صبح ١: ٨٩-٩٦ ؛ المقريزى : اتعاظ ٣: ١٩٤ .

٣ ابن الصيرفى : القانون فى ديوان الرسائل ٧ .

٤ ابن الطوير : نزهة المقلتين ٨٤ ؛ ابن ميسر : أخبار ١١٢ ؛ القلقشندى : صبح ١: ١٠٢ ، ١٠٣ ، المقريزى : الخطط ١: ٤٠٢ ، ٢ : ٨٦ س ٣٥-٣٦ .



لوحة ١ – منشور مَوَجَّه إلى رهبان دير سانت كاترين مؤرَّخ سنة ٥٣٠هـ/١١٣٦م وعليه علامة الخليفة الحافظ لدين الله «الحمد لله على آلائه» (Stern, S.M., *Fatimid Decrees*, pl. 17)


بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على نعمه

لوحة ٢ – منشور مُوَجَّه إلى رهبان دير سانت كاترين مؤرَّخ سنة ٥٥١هـ/١١٥٦م عليه علامة الوزير الصَّالح طلائع بن رُزِّيك «الحمد لله على نعمه» (Stern, S.M., *op.cit.*, pl.33)

المُوَجَّهَة للملوك أو المناشير لتُسَلَّم إلى الخازن ؛ و « كاتبِ مُتَصَفِّح » يَتَصفَّح جميع الإنشاءات والتقليدات والمكاتبات وسائر ما يُسْطَر فيه يكون على منزلة عالية من اللغة والنَّحْو وحفظ كتاب الله [وقد ذكر ابن مُيَسَّر أن أبا الحسن طاهر بن أحمد بن بابَشاذ النحوى كان له على الخزانة بمصر فى الشهر ثلاثون دينارًا وغَلَّة على إصلاح ما يخرج من ديوان الإنشاء ، وكان لا يخرج منه شيءٌ إلّا بعد أن يقف عليه ويصلحه] [1] ؛ و « كاتبِ » يكتب التَّذاكِر والدَّفاتر المتضمنة متعلّقات الديوان ؛ و « مُتَرْجِم » لنَقْل الكتب من اللسان الأجنبى إلى اللسان العربى والعكس ؛ و « كاتبِ » يتولّى التوقيع عن الملك (الإمام) . ويضاف إلى هؤلاء وظيفتان من غير وظائف الكُتّاب هما : « الخازِنُ » الذى يتولّى خَزْن نُسَخ السِّجلات والمناشير والتقاليد ، كل عنوان مع شبهه ، وكذلك الكتب الواردة بعد الإجابة عليها مثبتًا تاريخ ورودها وتاريخ الإجابة عليها ؛ و « الحاجِبُ » الذى لا يُمَكِّن أحدًا من الدخول على صاحب الديوان فيما عدا المستخدمين لعدم الاطلاع على أسرار السلطان الخَفِيَّة .

أما أنواع التَّذاكِر والدَّفاتر التى كانت تتضَمَّن متعلّقات الديوان حتى يسهل الرجوع إليها فهى : « دَفْتَرٌ » بألقاب الولاة والمستخدمين والملوك الأباعِد والمكاتبين [بجعل لكل خِدْمَة ورقة مفردة فيها اسم متولّيها ولقبه ودعاؤه ومتى صُرِف] ؛ و « دَفْتَرٌ » للحوادث العظيمة ؛ و « تِبْيانٌ » للتشريفات والخِلَع ؛ و « فِهْرس » للكتب الواردة ؛ وآخر للكتب الصادرة يُوَضّح بها تاريخ ورود الكتاب أو صدوره ومضمونه ؛ و « فِهْرِست » للإنشاءات والتقليدات والأمانات والمناشير ؛ و « مُهِمّات » الأمور التى ربما يُسْأَل عنها أو يُرْجَع إليها لتكون موجودة متى احتيج إليها ؛ وأخيرًا « مُهِمّات » ما تخرج به الأوامر فى الكتب الصادرة لئلا تُغْفَل ولا يجاب عنها [2] .

---

[1] ابن ميسر : أخبار مصر ٤٥ ؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا ٢ : ٣١٨ .

[2] ابن الصيرفى : القانون فى الديوان الرسائل (المقدمة) ٨-١٠ .

* * *

وإضافةً إلى هذه الدواوين يوجد عددٌ آخر منها وَرَدَ ذكره على الأخَصّ فى الإسْجالات المثبتة على السِّجلات والمناشير المحفوظة فى دير سانت كاترين أو فى ضِمْن أوراق حنيزة القاهرة. فبالإضافة إلى « ديوان الإقْطاع »، و« ديوان الجَيْش »، و« ديوان الجِهَاد (العَمائر) »، (الذين سنتحدَّث عنهم عند حديثنا عن النُّظام الحربى)[١] نعرف دواوين مثل: « ديوان الاسْتيفاء على الصَّعيدين الأعْلَى والأدْنى وما جُمِعَ إليه »[٢]، و« ديوان الاسْتيفاء على الأعمال القِبْلِيّة وما جُمِعَ إليه »[٣]، و« ديوان الاسْتيفاء على الثُّغور المحروسة والطُّور الشريف وما جُمِعَ إليه »[٤]، و« ديوان الاسْتيفاء على الأعمال الشرقية »، و« ديوان أسْفَل الأرض »[٥] - الذى تولّاه فى زمن الأفْضَل بن بدر الجمالى الشيخ أبو اليُمْن وزير بن عبد المسيح[٦] - و« ديوان الجوامع والمساجد المعمورة بالمعزية القاهرة المحروسة ومصر والمواريث الحشرية والأهْراء السعيدة »[٧] الذى كان يتولّاه فى سنة ٥٠٩هـ/ ١١١٥م القاضى أبو الحسن محمد بن هبة الله بن الحسن، و« ديوان الإقْطاعات المرتجعة والرِّباع والاحنة (؟) السلطانية وما جُمِعَ إليه »[٨] الذى يبدو أنه هو نفسه « الديوان المُرْتَجَع » الذى تولاه سَنِيّ الدولة وجلالها ذو الرياستين أبو المنجى سليمان ابن سَهْل بن عِمْران فى زمن السيد الأجل الأفضل ربما شاهنشاه أو رِضْوان بن وَلَخْشى[٩].

---

١ فيما يلى ص ٧١٦- ٧٢٢، ٧٣٨-٧٤٠.

٢ Stern, S.M., *Fatimid Decrees* p. 37.

٣ القلقشندى: صبح الأعشى ١٠: ٤٦٤.

٤ Stern, S. M., *op.cit.*, pp. 54, 66.

٥ Ibid., p. 54.

٦ ساويرس بن المقفع: تاريخ بطاركة الكنيسة ٣/٢: ٢٤٨.

٧ Khan, G., *op.cit.*, p. 153.

٨ *Ibid.*, p. 321; Stern, S.M., *op.cit.*, p. 37.

٩ القلقشندى: صبح ١٠: ٣٥٧.

النِّظـــام القَضائى

كانت السُّلْطَةُ القضائية واحدةً من السُّلْطات الثلاثة التى اشتمل عليها النظام الفاطمى فى مصر . فبوصول الفاطميين إلى مصر أضْحَت القَاهِرَة ، مثلها مثل بَغْدَاد وقُرْطُبَة ، مركز خلافة بعد أن كانت مصر مجرد ولاية تابعة للخلافة العَبّاسية بها قاضٍ يُعَيِّنه الخليفة العَبّاسى السُّنّى ، وهكذا عَرَفَت مصر فى العصر الفاطمى منصب « قاضى القضاة »[١] .

وحرصًا من القائد الفاتح جَوْهَر الصَّقْلَبى على عدم خلخلة النظام الإدارى فى مصر ، وهو من أعقد أنظمة البلاد الإسلامية ، احتفظ بالموظفين الإخشيديين فى مناصبهم ومن بينهم القاضى أبو الطَّاهر محمد بن أحمد الذُّهْلى الذى كان قد عَيَّنه الخليفة العَبّاسى فى سنة ٣٤٨هـ/٩٥٩م . ورغم مكانة القاضى النُّعْمان بن حَيُّون الكبيرة لدى الخلفاء الفاطميين ودوره فى التعبير عن المعتقدات الفاطمية وتسجيل تاريخ أئمتهم ، فإنه لم يُكَلَّف رسميًّا بالقضاء فى مصر وإنما شارك القاضى أبا الطَّاهر فى نَظَرِ بعض القضايا إلى أن توفى سنة ٣٦٣هـ/٧٣م[٢] . وبعد ذلك استمر القاضى أبو الطَّاهر على حاله وجَعَلَ له الخليفة المُعِزّ على بن النُّعْمان معاونًا له وكان يحكم بالجامع العتيق[٣] . ولما تولَّى العزيز بن المعز الخلافة سنة ٣٦٥هـ/٩٧٥م ردّ أمر دار الضَّرب والجامع لعلىّ بن النُّعْمان ، فشارك بذلك أبا الطَّاهر الذُّهْلى وجرى التنافس بينهما إلى أن أصابت أبا الطَّاهر رطوبة عطَّلَت شِقَّه وأعجزته عن الحركة ، ففَوَّض الخليفة الـحُكْم إلى علىّ بن النُّعْمان لليلتين خلتا من صفر سنة ست وستين وثلاثمائة[٤] . وهو أوَّل من خوطب بـ« قاضى القضاة » بالديار المصرية ، كما يقول ابن حَجر ، لأنه جاء فى سِجِلّه ، الذى قرئ بالجامع الأزهر وبالجامع العتيق ، أن جميع الأعمال داخلة فى ولايته[٥] . أما أوَّل من

---

١ ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ١: ١٤٠ .

٢ Gottheil, R., «A Distinguished Family of Fatimid Cadis (al-Nuʿman) in the Thenth Century», *JAOS* 27 (1906), p. 239 ؛ المقريزى اتعاظ ١: ٢١٥ .

٣ المقريزى : اتعاظ ١: ٢٢٥ .

٤ Gottheil, R. *op.cit*, p. 240 .

٥ *Ibid.* p. 243 .

كُتِب فى سجله «قاضى القضاة» فابنه الحسين بن على بن النُّعْمان [١].

وقد توارث ستة من أسرة بنى النُّعْمان منصب القضاء فى مصر أكثر من ستين عامًا تخلَّلها بعض الانقطاع [٢].

وجرت العادة أن يُقرأ سِجِلُّ تولية قاضى القضاة فى الجامع بالقاهرة ومصر وهو قائمٌ على قدميه وكُلَّما مَرَّ ذكر الخليفة أو أحد من أهله أومأ بالسجود [٣].

وكان قاضى القضاة، فى العصر الفاطمى الأول، هو الذى يُعَيِّنُ سائر قضاة الأنحاء. ففى ربيع الآخر سنة ٣٨٢هـ/يونية سنة ٩٩٢م خَلَعَ القاضى محمد بن النُّعْمان على مالِك بن سعيد الفارِقى وقَلَّدَه قضاء القاهرة [٤]، فلما خَلَفَ القاضى الحسين بن النُّعْمان عَمَّه محمدا أقرَّه على ذلك واستخلف الحسين بن محمد بن طاهر على الحكم بمصر [٥].

ولم يتول أحدٌ من أسرة بنى النُّعْمان أمر الدَّعْوَة الفاطمية قبل الحسين بن على بن النُّعْمان الذى كان «أوَّل من أضيفت إليه الدَّعْوَة من قضاة العبيديين» [٦] كما فُوِّض إليه كذلك الحكم بجميع المملكة وكذلك الخطابة والإمامة بالمساجد الجامعة والنَّظر عليها وعلى غيرها من المساجد، ووَلِىَ أيضًا مُشَارَفَة دَار الضَّرْب ودار العِيار وأمر الجوامع والمساجد وقراءة المجالس بالقصر وكتابتها وذلك فى صفر سنة ٣٨٩هـ/٩٩٨م [٧]. والحسين بن على بن النُّعْمان هو كذلك أوَّل من أفرد لمَوْدِع الحُكْم مكانًا معينًا فى زُقاق

---

[١] ابن حجر : رفع الإصر ١: ٢١٠ .

[٢] انظر مقال Gottheil المذكور أعلاه فى هامش [٢] ص ٣٦٠ .

[٣] Gottheil, R., *op.cit.*, p. 241 .

[٤] المقريزى اتعاظ ١: ٢٧٥ .

[٥] ابن حجر : رفع الإصر ١: ٢٠٨ .

[٦] نفسه ١: ٢٠٩ .

[٧] نفسه ؛ القلقشندى : صبح الأعشى ١٠: ٣٨٤-٣٨٨ .

القَنَاديل بمصر الفُسْطاط ، فقد كانت الأموال قبل ذلك تودع عند القضاة أو أمنائهم [١].

ووظيفة قاضى القضاة من المناصب العُلْيا فى الدولة الفاطمية كان يتقدّم على داعى الدُّعاة ويتزيَّا بزيِّه وهو من طبقة أرباب العمائم [٢]. وكان من عادته الجلوس بالقصر فى يومى الاثنين والخميس أوّل النهار عند باب البحر للسلام على الخليفة [٣]، ويبدو أن هذا التقليد اتبع بانتظام ابتداءً من عصر الخليفة الآمر ففى عهد المستنصر كان الحسن بن محمد اليازورى ينزل إلى جامع عمرو بمصر فى يومى : السبت والثلاثاء من كل أسبوع ليجلَس فى الزيادة منه للحكم على رَسْم من تَقدّمه من القضاة [٤].

وقد أراد الخليفة الحاكم أن يَحُول بين القضاة وبين أَخْذَ الأموال بغير الحق ، فأمر أن يُضَعَّف للحسين بن على بن النُّعْمان رِزْقُه وصِلاته وإقْطاعاته ، وشَرَطَ عليه ألَّا يتعرَّض من أموال الرعية لدرهم فما فوقه [٥]. وكان دَخْلُ القاضى عبد الحكم بن سعيد الفارِقى عشرين ألف دينار فى السنة [٦]. ويذكر ناصر خُسْرو أن مرتب قاضى القضاة بمصر ، نحو سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م ، بلغ ألفى دينار «حتى لا يطمع القضاة فى أموال الناس أو يظلمونهم» [٧]، بينما يذكر ابن الطُّوَيْر أن المستقر لقاضى القضاة ولداعى الدُّعاة مائة دينار فى الشهر من واقع ما سُجِّل فى ديوان الرَّواتب [٨]. أما ابن مُيَسَّر فيذكر أن جارى الحكم كان أربعين دينارًا فى الشهر [٩] وذلك ، فى أغلب الظن ، لقضاة النواحى .

---

[١] ابن حجر : رفع الإصر ١: ٢٠٩ وقارن ابن ميسر : أخبار ٨٣-٨٤ ؛ المقريزى : اتعاظ ٣: ٧٢ ؛ السيوطى : حسن المحاضرة ٢: ١٥١ .

[٢] ابن الطوير : نزهة ١١٠ .

[٣] نفسه ٢٠٥ ؛ المقريزى : المقفى ٣: ٣٦٧ ، الاتعاظ ٢: ١٩٨ .

[٤] المقريزى : المقفى الكبير ٣: ٣٨٤ .

[٥] ابن حجر : رفع الإصر ١: ٢٠٨-٢٠٩ .

[٦] نفسه ١: ٢٠٨ .

[٧] ناصر خسرو : سفرنامة ١٠٩ .

[٨] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٨٤ .

[٩] المقريزى : اتعاظ ٣: ١٧٤ .

والوزير الحسن بن على اليازورى هو أوَّل من تولَّى الوزارة مضافًا إلى قضاء القضاة والتقدمة على الدُّعاة فى سنة ٤٤٢هـ/١٠٥٠م « ولم يُجْمَع ذلك لأحد قبله »[١] ونُعِت بـ « الناصر للدين غيَّاث المسلمين الوزير الأجلّ المكرم ، [الأوْحد ، المكين] سَيِّدالرؤساء [الوزراء] ، تاج الأصفياء ، قاضى القضاة ، وداعى الدعاة » إلى أن قضى عليه في المحرم سنة ٤٥٠هـ/مارس ١٠٥٨م[٢].

وبعد عَزْل الوزير اليازورى فى أول سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م دَخَلَت مصر فى أزمة إدارية حادة ، فخلال السبعة عشر عامًا التى أعقبت وفاته أبْعِدَ أربعة وخمسون وزيرًا واثنان وأربعون قاضيًا إلى أن وَصَلَ إلى مصر أمير الجيوش بدر الجمالى سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٣م.

وابتداء من هذا التاريخ طرأ تغير كبير على وظيفة قاضى القضاة . فقد نُعِتَ بدر الجمالى فى أول الأمر بـ « السَّيِّد الأجَلّ أمير الجيوش » ثم أضيف إلى أَلْقابه نحو سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م « كافِل قُضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين »[٣] وجعل القاضى والداعى نائبين عنه . وهكذا أصبح القضاة نُوَّاب الوزراء ويَذْكرون النيابة عنهم فى الكتب الحكمية النافذة إلى الآفاق وكتب الأنْكِحَة[٤].

وكان قاضى القضاة طوال العصر الفاطمى يُخْتار من بين الفقهاء الإسماعيليين ويُشْتَرط عليه أن لا يحكم إلَّا بمذهب الدَّولة ؛ فعندما استخلف على بن النُّعْمان أخاه محمدًا والحسن بن خليل الفقيه الشافعى « شَرَط عليه أن يحكم بمذهب الإسماعيلية لا بمذهب الشافعى »[٥]. وبعد وفاة القاضى أحمدِ بن عبد الرحمـٰن بن محمد بن أبى عقيل

---

١ ابن ميسر : أخبار ٥٥ .

٢ نفسه ٥٥ ؛ المقريزى : اتعاظ ٢: ٢١٢ ، المقفى ٣: ٣٧٦ ، ابن حجر : رفع الإصر ١: ١٩٤ .

٣ نفسه ٤٥ ، ٥٠ .

٤ نفسه ١٢٣ ؛ النويرى : نهاية ٢٨ : ٣٠١ ؛ القلقشندى : صبح ٣: ٤٨٢ ، ٤٨٣ ؛ المقريزى : الخطط ١: ٤٤٠، الاتعاظ ٣: ١٥٦ والمقفى ٢: ٥١٣-٥١٤ .

٥ Gottheil, R., *op.cit.*, p. 242 .

سنة ٥٣٣هـ/١١٣٨م «قام الناس بلا قاضى ثلاثة أشهر»، ثم اختير الفقيه أبو العَبّاس أحمد بن عبد الله بن الحُطَيْئة المالكى اللّخْمى «فاشترط أن لا يقضى بمذهب الدَّوْلة فلم يُمَكَّن من ذلك»، فعَهَد الوزير ابن وَلَخْشى إلىالفقيه أبى محمد عبد المولى اللَّبْنى بعقد الأنْكِحَة فأجاب وبقى الحكم شاغرًا[1].

والاستثناء الوحيد لذلك حَدَثَ فى الفترة التى تَوَلّى فيها الوزارة أبو على الأفْضَل كُتَيْفات، عندما سَجَن الخليفة الحافظ ودعا للإمام المُنْتَظَر (ذو القعدة ٥٢٤- المحرم ٥٢٦هـ). فقد رَتَّب فى الحكم فى سنة ٥٢٥هـ/١١٣١م أربعة قضاة يحكم كل قاض بمذهبه ويورِّث بمذهبه: قاضى للشافعية هو سُلْطان بن إبراهيم بن المُعْلِم بن رشا، وقاضى للمالكية هو أبو عبد الله محمد بن عبد المولى بن محمد بن عبد الله اللَّبْنى وقاضى للإسماعيلية هو فخر الأمناء أبو الفضائل هبة الله بن عبد الله بن حسن محمد المعروف بابن الأَزْرَق وقاضى للإمامية هو المُفَضَّل أبو القاسم بن هبة الله بن عبد الله بن أبى كامل، وعلَّق ابن مُيَسَّر على ذلك بأنه «لم يُسْمع بهذا قط فيما سلف»[2].

لذلك فقد كان يُعْهد أحيانًا إلى القاضى بتدريس دار العِلْم بالقاهرة مثلما حَدَث مع القاضى هبة الله بن عبد الله بن الحسين المعروف بابن الأَزْرَق فى ١٧ جمادى الآخر سنة ٥٣٤هـ/١٣ فبراير سنة ١١٤٠م[3].

وكان مَجْلِسُ القاضى دائمًا يومى: الثلاثاء والسبت بالزيادة البحرية والشرقية لجامع عمرو بالفسطاط، فإذا أقبل العصر عاد القاضى إلى القاهرة[4]. وله فى مجلسه طُرَّاحَة

[1] ابن ميسر: أخبار ١٣١؛ ابن أيبك: كنز الدرر ٦: ٥٢٨؛ المقريزى: المقفى ١: ٤٩١؛ الاتعاظ ٣: ١٧٢؛ ابن حجر: رفع الإصر ١: ٨٠.

[2] نفسه ١١٤؛ النويرى: نهاية ٢٦: ٨٧-٨٨؛ المقريزى: اتعاظ ٣: ١٤٢، الخطط ٢: ٣٤٣، المقفى ١: ٣٩٣؛ ابن حجر: الإصر ١: ٢٤٧؛ السيوطى: حسن المحاضرة ٢: ١٦٥؛ Allouche, A., «The Establishment of Four Chief Judgeships in Fatimid Egypt», *JAOS* 105 (1985), pp. 317-320.

[3] نفسه ١٣٢؛ الاتعاظ ٣: ١٧٣.

[4] ابن الطوير: نزهة ١٠٧؛ ناصر خسرو: سفرنامة ١٠٢؛ المقريزى: الخطط ٢: ٢٥٣ والاتعاظ ٢: ٢٢٤.

ومَسْنَد حرير ، وقد استُجِدّ هذا الرسم بعد أن تَوَلَّى القاضى أحمد بن عبد الرحمـٰن بن أبى عقيل فى المحرم سنة ٥٣١هـ/كتوبر سنة ١١٣٦م ، فإنه لما دخل مجلس القضاء « ووجد المرتبة أمر برفعها وجَلَسَ على طُرَّاحات السَّامان فاستمر هذا الرسم »[١]. ويجلس الشهود حواليه يَمْنَة ويَسْرَة بحسب تاريخ عدالتهم ، وقد بَلَغَ عِدَّة الشهود فى أيام القاضى محمد بن هبة الله بن مُيَسَّر (نحو سنة ٥٢٤هـ)مائة وعشرين شاهدًا ، وكانوا قبل ذلك دون الثلاثين[٢]. وكان يجلس بين يديه فى المجلس خمسة من الحُجَّاب : اثنان بين يديه واثنان على باب المقصورة وواحد يُنْفذ الخصوم إليه ، كما كان له كذلك أربعة من المُوَقِّعين بين يديه اثنان يقابلان اثنين وله كرسى الدواة ، وهى داوة محلَّاة بالفضة تُحْمَل إليه من خزائن القصور ، ولها حاملٌ بجامكية فى الشهر على الدولة[٣].

وكان للقاضى برسم ركوبه على الدوام بَغْلَةٌ شَهْباء تخرج له من الإصطبلات الخَليفية ، وهو مخصوص بهذا اللون من البغال دون أرباب الدولة . وكانت تأتيه فى المواسم الأَطْواق ويُخْلَع عليه الخِلَع المذهبة بلا طَبْل ولا بوق ، إلَّا إذا جُمِعَ له الحُكْم والدَّعوة ، فإن من بين رسوم الدَّعوة فى الخِلَع الطَّبْل والبُنود . أما إذا خُلِعَ عليه للحُكْم خاصة فيكون حواليه القُرَّاء رَجَّالة والمُؤَذِّنون يعلنون بذكر الخليفة أو الخليفة والوزير ، إن كان الوزير صاحب سيف[٤].

وإذا حَضَرَ قاضى القضاة فى مجلس لا يتقدَّم عليه أحدٌ من أرباب السيوف أو الأقلام ، ولا يحضر عقود الأَنْكِحَة أو الجَنَائز إلَّا بإذن ، ولا سبيل إلى قيامه لأحد وهو فى مجلس الحُكْم ، ولا يُعَدَّل شاهدٌ إلا بأمره[٥].

---

[١] ابن الطوير : نزهة ١٠٧ .
[٢] ابن ميسر : أخبار ١٠٧ ؛ المقريزى : الاتعاظ ٣: ١ ١ .
[٣] ابن الطوير : نزهة ١٠٨ .
[٤] ابن الطوير : نزهة ١٠٨ .
[٥] نفسه .

وابتداءً من وزارة أمير الجيوش بدر الجمالى لم يعد يخاطب من يتولّى الحكم بـ « قاضى القضاة » لأنه أصبح من نعوتِ الوزير صاحب السّيْف . وكان مِن أهم أعباء منصبه النظر فى عِيَار دار الضَّرْب لضبط ما يُضْرَب من الدنانير [١].

وكان القاضى لا يُصْرف إذا وُلّى إلّا بجُنْحَة .

وكان للقاضى مكانٌ متميز فى المواكب والاحتفالات فمن ذلك : « ركوب عيد الفِطْر » ، و « ركوب عيد النَّحْر » . فبعد فراغ الخليفة من الصلاة كان يصعد المنبر للخطبة العيدية وكان القاضى من بين من يَشْرُفون بالوقوف مع الخليفة ويَرْقى معه المنبر ليُزرِّر عليه المَزَرَّة الحاجزة بينه وبين الناس [٢]، ويقرأ مدرجًا يكون قد أُحْضِر إليه من ديوان الإنشاء يتضمَّن ثبتًا بمن شَرُف بصعود المنبر الشريف مع الإمام يوم العيد [٣]. كما أنه يرقى المنبر مع الإمام فى صلاة الجمعة فى رمضان « وفى يده مدخنة لطيفة خَيْزُران يُحْضِرُها إليه صاحبُ بيت المال فيها جمرات ، ويجعل فيها نَدّ مثلث لا يُشَمّ مثله إلّا هناك ، فيبَخِّر الذروة التى عليها الغشاء كالقبة لجلوس الخليفة للخطابة ويُكَرِّر ذلك ثلاث دفعات » ثم يصحب الإمام ومعه الوزير إلى المنبر حتى يستوى الإمام جالسًا فيُزَرِّر عليه المَزَرة ويقف صاحبُ الباب ضابطًا للمنبر إلى أن يخطب الخليفة خطبة الجمعة [٤].

والقاضى هو الذى يمسك الحَرْبَة للخليفة لينحر بها الأضاحى يوم عيد النَّحْر فى « المَنْحَر » فتكون بيد الخليفة الحربة من رأسها الذى لا سنان فيه ويد القاضى فى أصل سنانها ، فيجعله القاضى فى نحر النحيرة فيطعن به الخليفةُ [٥].

---

[١] ابن الطوير : نزهة ١٠٨ والمقريزى : الخطط ١: ١١٠ .

[٢] ابن ميسر : أخبار ١٢٣ ؛ المقريزى : اتعاظ ٣: ١٥٦ .

[٣] ابن المأمون : أخبار ٨٧ ، ٨٨ .

[٤] ابن الطوير : نزهة ١٧٤ .

[٥] نفسه ١٨٤ .

وفى عيد غدير خُمّ كان من الرسم أن يجلس القاضى والشهود تحت كرسى الدَّعْوة الذى كان يُنْصب فى الإيوان الكبير، وفيه تسع درجات لخطابة الخطيب فى هذا العيد، فإذا فرغ الخطيب ونزل؛ صَلَّى قاضى القضاة بالناس ركعتين [١].

وفى شهر رمضان يُعْقَد كل ليلة بقاعة الذَّهَب سماطٌ إلى آخر السادس والعشرين منه، ولم يكن يُستَدعى له قاضى القضاة إلَّا فى ليالى الجُمَع فقط؛ توقيرًا له [٢].

وفى الاحتفال بالموالد الستة كان لقاضى القضاة دورٌ أساسى؛ فهو أوَّل أرباب الرُّسُوم فى تفريق الحَلْوَاء التى تُعْمل بدار الفِطْرة احتفالًا بالمولد. وهو الذى يجلس بالجامع الأزهر بعد صلاة ظهر هذا اليوم مقدار قراءة الختمة الكريمة، ثم يركب ومعه الشهود وداعى الدُّعاة بالنقباء إلى بين القصرين والرُّكْن المُخَلَّق؛ لنظر الخليفة فى المنظرة المعدَّة لذلك، ويرد عليه الخليفة السلام بواسطة أحد الأستاذين المُحَنَّكين [٣].

والقاضى كذلك هو الذى كان يقود موكب الاحتفال بليالى الوقود الأربعة بعد صلاة العصر إلى حيث رَحْبَة باب العيد أمام باب الزُّمُرُّد من القصر، ويخطب الخطباء ويُسَلِّم عليه الخليفة مثلما حدث فى الاحتفال بالمولد، وبعد زيارة قصيرة للوزير يشق القاضى والجماعة القاهرة، وينزل على باب كل جامع بها، ويُصَلِّى ركعتين، ثم يخرج من باب زُوَيْلَة، طالبًا الفُسْطاط، وفى خدمته والى القاهرة، فيدخل فى طريقه جامع ابن طولون للصلاة ويدخل المَشَاهد فى طريقه أيضًا، ثم يجد والى الفسطاط فى خدمته بعد خروجه من جامع ابن طولون، ويستمر فى اختراق الشارع الأعْظَم حتى يصل إلى باب الجامع من جهة الزيادة التى يحكم فيها، ويُوقَد له التنور الفضة الذى كان معلقًا بها [٤].

---

[١] ابن الطوير: نزهة المقلتين ١٨٨.
[٢] نفسه ٢١٢.
[٣] نفسه ٢١٨.
[٤] نفسه ٢٢٠-٢٢١.

وكانت عمليةُ الإشراف على الأَحْباس وصيانتها موكولة كذلك إلى القضاة فيذكر محمد بن أسعد الجَوّانى أن القضاة بمصر، كانوا إذا بقى لشهر رمضان ثلاثة أيام، طافوا يومًا على المساجد والمَشَاهِد بمصر والقاهرة يبدءون بجامع المَقْس ثم القاهرة ثم المَشَاهدثم القَرافَة ثم جامع مصر ثم مشهد الرأس لنظر حُصْر ذلك وقناديله وعمارته وما تَشَعَّثَ منه وظل الأمر على ذلك حتى زوال الدولة الفاطمية [١].

النِّظَـامُ الـدِّينـى (الدَّعْوَة)

لما كانت الدَّوْلة الفاطمية قد قامت على أساسٍ تشابكت فيه السياسة مع الدين إلى حد أن كل تنظيم سياسى فى هذه الدولة كان انعكاسًا لروح العقيدة الفاطمية نفسها، حتى أصبحت أصْدَق مثال للدولة الدينية العقائدية (الثيوقراطية) فى الإسلام. فإن «الدَّعْوَة» كانت عماد هذه الدولة وأهم ما مَيَّزها عن الأنظمة الإسلامية الأخرى. وكانت وظيفة داعى الدُّعاة، كما يقول المقريزى، «من مفردات الدولة الفاطمية» [٢].

ولا تمدنا المصادر بمعلومات كافية عن حقيقة دور «داعى الدُّعَاة» فى مصر الفاطمية. ونحن نعرف، تبعًا للعقيدة الإسماعيلية، أن داعى الدُّعاة هو أحد دعائم هذه العقيدة وأن مرتبته تلى مباشرة مرتبة الإمام [٣]. ولكن كل مصادرنا التى تحدَّثنا عن داعى الدُّعاة فى مصر تعتمد على النص الوحيد المنقول عن ابن الطُّوَيْر وفيه أن داعى الدعاة «يلى قاضى القضاة فى الرتبة ويتزيَّا بزِيِّه فى اللِّباس وغيره» [٤]. وهذا التعريف، الذى

---

[١] المقريزى: الخطط ١: ٤٩١، ٢: ٢٩٥؛ ابن حجر: رفع الإصر ١: ١٢٢.

[٢] المقريزى: الخطط ١: ٣٩١؛ وراجع: Ivanow, W., «The Organization of the Fatimid Propaganda», *JBBRAS* XV (1939), pp. 1-35.

[٣] Hamdani, A., «Evolution of the Organisational Structure of the Fatimid Dawa» In *Arabian Studies* III (1976), pp. 85-114.

[٤] ابن الطوير: نزهة ١١٠.

أورده ابن الطُّوَيْر ، يبدو مُحَيِّرًا إذ أن داعى الدُّعاة هو الذى يعقد « مجالس الحِكْمَة » سواء فى « المُحَوَّل » بالقصر أو فى « الجامع الأزهر » أو فى « دار الحِكْمَة » ثم فى فترة متأخِّرة فى « دار العِلْم » [1]، وهو كذلك الذى يأخذ العَهْد وينشر الدَّعْوة بين المستجبين وهو الذى كان يكتب ما يُلْقى فى « مجالس الحِكْمَة » بعد أن يأخذ عليه علامة الخليفة ويقرؤه على أتباع الدَّعْوَة على أنه صادر من الخليفة نفسه فى كل يوم اثنين وخميس ، للرجال على كرسى الدَّعْوة بالإيوان الكبير وللنساء بمجلس الداعى ! وكان داعى الدُّعاة يقوم كذلك « بأخذ النَّجْوى من المؤمنين بالقاهرة ومصر وأعمالها لاسيما الصَّعيد ، ومبلغها ثلاثة دراهم وثلث فيجتمع من ذلك شىء كثير يحمله إلى الخليفة بيده بينه وبينه وأمانته فى ذلك مع الله تعالى ». ويضيف ابن الطُّوَيْر أن من بين الإسماعيلية المموِّلين من يحمل ثلاثة وثلاثين دينارًا وثلثى دينار على حكم النَّجْوىٰ وبصحبتها رقعة مكتوبة باسمه فيتميَّز فى المُحَوَّل وتعود إليه وعليها خط الخليفة « بارك الله فيك وفى مالك وولدك ودينك » فيَدَّخر ذلك ويتفاخر به [2].

وحَفِظَ لنا المقريزى وثيقةً هامة ومطوَّلة عن وظيفة داعى الدُّعاة وَوَصْف الدَّعْوة وترتيبها [3].

وعلى ذلك فإنه يبدو غريبًا أن يُقَدِّم الفاطميون فى رُسُومهم قاضى القضاة على داعى الدُّعاة . وقد حَدَثَ كثيرًا أن جمع قاضى القضاة بين وظيفته ووظيفة داعى الدُّعاة ، بينما لم يحدث العكس إطلاقًا . وابتداء من وصول بدر الجمالى إلى الحُكْم جَمَعَ الوزارءُ بين الوزارة والقضاء والدَّعْوة وقيادة الجيش ، وإن كان القاضى والدَّاعى نائبين عن الوزير .

---

[1] القلقشندى : صبح ١٠ : ٤٣٧ . وانظر Stern, S., «Cairo as the Center of the Isma'ili Movement», *CIHC*, p. 438-441.

[2] ابن الطوير : نزهة ١١١ .

[3] المقريزى : الخطط ١ : ٣٩١-٣٩٧ ، مسودة المواعظ والاعتبار ٩٥- ١١١؛ Casanova, p., «La Doctrine secrète des Fatimides d'Egypte» *BIFAO* XVIII (1920), pp. 121-165.

وقرب نهاية عصر الدولة الفاطمية أصبح لقب « هادى دعاة المؤمنين » لقبًا شرفيًا بما أنه كان من بين ألقاب أسد الدين شيركوه وصلاح الدين يوسف بن أيّوب رغم أنهما سنّيا المذهب .

ورغم أن مرتبة داعى الدُّعاة تلى الإمام فى تسلسل مراتب الدَّعوة الفاطمية ، فإنه يبدو لى أن ذلك كان فى وقت استتار الإمام أو في الجُزُر (ج. جزيرة حيث قَسَّم الفاطميون العالم إلى اثنتى عشرة جزيرة) التى تشرف عليها رئاسة الدَّعْوة الفاطمية . فبظهور الإمام لم تعد الحاجة ماسة إلى وجود داع للدُّعاة فى وجود الإمام حتى إن أكبر فقهاء الدَّعْوة الإسماعيلية القاضى النُّعْمان بن حَيُّون يُعْرَف فى المصادر باسم القاضى وليس الدَّاعى ، كما أن أبناءه الذين عاونوا الدولة الفاطمية فى مصر تولَّوا جميعًا القضاء فيما عدا الحسين بن على بن النُّعْمان الذى جَمَع بين الدَّعْوة والقضاء فى سنة ٣٩٣هـ/ ١٠٠٣م[١]. كذلك فإن شُهْرَة داعى الدُّعاة المؤيَّد فى الدين الشِّيرازى ترجع إلى الدور الذى لعبه فى فارس ومعاونته لأبى الحارث أرْسلان البَسَاسيرى لإقامة الدَّعوة الإسماعيلية فى بغداد أكثر من دوره كداع للدعاة ومتولٍّ لدار العِلْم فى مصر الفاطمية .

وأوَّل الوزراء الذين جُمِعَ لهم الوزارة والقضاء والدَّعْوة (قبل عصر الوزراء العسكريين) هو الوزير الحسن بن على بن عبد الرحمن اليازورى وذلك فى سنة ٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م[٢]، والذى يعد بحق أهم وزراء الدولة الفاطمية فى عصرها الأول بعد يعقوب ابن كِلِّس وعلى بن أحمد الجَرْجَرائى .

---

[١] المقريزى : اتعاظ ٢: ٤٩-٥٠ ؛ ابن حجر : رفع الإصرار ١: ٢٠٩ وحفظ القلقشندى سجل توليته فى صبح ١٠: ٣٨٤-٣٨٨ .

[٢] ابن الصيرفى : الإشارة ٧٦ ؛ ابن ميسر : أخبار ١١ ؛ المقريزى : اتعاظ ٢: ١٦٧ ، ٢١٢ ، المقفى ٣: ٣٧٦ ؛ ابن حجر : رفع الإصر ١: ١٩٣ ، ١٩٤ .

وتَوَلّى أمْر الدَّعوة بعد المؤيَّد فى الدين أسَرٌ بأعيانها توارثت المنصب أهمها بنو عبد الحقيق كان أولهم وَلِيّ الدولة أبو البركات بن عبد الحقيق المتوفى سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م، وبنو عبد القوى الذين كان آخرهم الجليس بن عبد القوى الذى أدركه أسد الدين شيركوه.

ومهما كان الأمر فبفضل «تنظيم الدَّعْوَة» تمكَّن الفاطميون من بَسْط نفوذهم وسيادتهم على أماكن مترامية من الأراضى الإسلامية: فى السِّنْد والهند وعُمَان واليمن. وقام الدُّعاة بدور ملحوظ فى فرض السيطرة الفاطمية على طرق التجارة البحرية المؤدِّية إلى الهند، وفى العمل على إثارة القلاقل فى أراضى الخلافة العَبّاسية نفسها. وقد ظَلّ أتباع الدَّعْوَة، فى أغلب هذه المناطق، محتفظين بحماسهم لها ولم يتهاونوا فى ذلك أبدًا - كما حَدَثَ فى مصر مركز الخلافة الفاطمية - فحَفِظوا لنا بذلك جزءًا كبيرًا من التراث الإسماعيلى بدأ يرى النوُر منذ وقت غير بعيد.

الفصل الحادي عشر

الرسوم الفاطمية

الرُسوم (مفردها رَسْم) تعنى الاحتفالات الرّسْمية للبلاط سواء استوجب ذلك موكبًا أو لا ، كما يُطْلَق هذا المصطلح على مجموع تقاليد الاحتفالات ونظام التشريفات (البروتوكول) الذى يُطَبَّق فى المجالس أو الاجتماعات[1] أو المواكب ؛ وهو الذى استعيض عنه الآن بلفظ « رَسْمى » (احتفال رَسْمى) .

وإذا كُنّا لا نعرف الشيء الكثير عن رُسُوم الفاطميين فى الدور الإفريقى ، فإننا نملك فى المقابل معلومات وفيرة عن رجال البلاط وأوصافًا تفصيلية للاحتفالات الموكبية ومجالس الخلفاء كما كانت تتم فى العاصمة الفاطمية (القاهرة والفُسْطاط) فى النصف الأول للقرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى ، دون شك فى أعقاب تَشَكُّلٍ وتَطَوُّرٍ بطيء لتقاليد هذه الاحتفالات ورُسُومها منذ انتقال الفاطميين إلى المشرق . ونجد هذه الأوصاف فى الأساس لدى ثلاثة من مؤرِّخى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى هم : القَلْقَشَنْدى والمَقريزى وأبو المحاسن ، وهى تستحق ثقتنا الكاملة ؛ لأنها تعتمد على مصادر من الدرجة الأولى ترجع إلى العصر الفاطمى نفسه أو إلى بداية العصر الأيوبى ، وعلى الأخص كتابات كل من ابن المأمون وابن الطُّوَيْر القَيْسَرانى .

ومشكلةُ أُصُول هذه الرُسُوم ، كما يقول ماريوس كانار Marius Canard، غامضة فمن المؤكَّد أن الفاطميين - منافسى العَبّاسيين - قَلَّدوا ونَمَّوا وتفوَّقوا على تقاليد الاحتفالات العَبّاسية المستمدة من تقاليد الاحتفالات السّاسانية[2]. ولا يُسْتَبْعَد كذلك أن

---

[1] Sanders, p., *EI*[2] art. *Marâsim* VI, pp. 502-503 .

[2] حول الرسوم والاحتفالات فى البلاط العباسى فى القرن الخامس الهجرى راجع ، الصابى : رسوم دار الخلافة ؛ تحقيق ميخائيل عوّاد ، بغداد ١٩٦٤ ؛ Sourdel, D., «Questions de cérémonial ʿabbaside», *REI* (1960), pp. 121-148 .

يكون الفاطميون قد أرادوا محاكاة العديد من الاحتفالات البيزنطية لمنافسة أُبَّهة وعَظَمَة بلاط الإمبراطور البيزنطى كما سَبَق وفعل دون شك العَبَّاسيون. ولكن لا يجب أن ننسى مع ذلك أن الفاطميين هم وَرَثَة الفراعنة والبَطالمة فى مصر عبر العديد من الأنظمة والحكومات المتتالية؛ لذلك فإننا يجب أن نبحث، على الأقل فيما يخص الاحتفالات الوطنية، عن أصلٍ محلى للعديد من خصوصيات هذه الاحتفالات[١].

وتَوَصَّل ماريوس كانار Marius Canard بمقارنة «كتاب الاحتفالات» - *Livre des cérémonies* لقُسْطَنْطين السابع بورفيروجينيت[٢] مع الأوصاف التى أوردها كل من القَلْقَشَنْدى والمَقْرِيزى إلى وجود شَبَه أكيد بين رُسُوم القصر وأُبَّهَة البلاط وشارات الحُكْم والمواكب والاستقبالات والأعياد المختلفة لكل من الدولتين فى فترة زمنية متقاربة نسبيًّا؛ إذ أن الرُّسوم البيزنطية فى القرنين الثالث والرابع للهجرة/التاسع والعاشر للميلاد ليست إلَّا استمرارًا لحالة سابقة دامت دون تغيير يُذْكر حتى عصر الحروب الصليبية[٣]، كما أن الرُّسُوم الفاطمية التى بَلَغَت أوْج ازدهارها فى القرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى وُجِدَت بالفعل منذ بداية الدولة الفاطمية بشكل أَبْسَط مما أصبحت عليه فى نهاية الدولة.

وكان أوَّلُ من اهتم بدراسة رُسُوم الفاطميين فى مصر المستشرق الروسى انسترونزف Inastrontsev فى دراسته «الخروج الاحتفالى للخلفاء الفاطميين» (بالروسية) التى صدرت فى سان بُطْرُسْبُرْج سنة ١٩٠٥م[٤]. وهذه الدراسة هى أوَّل

---

[١] Canard, M., «Le cérémeoial fatimide et le cérémonial byzantin-Essai de comparaison», *Byzantion* XXI (1951), p. 356؛ عبد المنعم ماجد: «أصل حفلات الفاطميين فى مصر»، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد ٢ (١٩٥٤)، ٢٥٣-٢٥٧.

[٢] Constantin VII Porphyrogénète, *Le Livre des Cérémonies*, 1-2, texte établi et traduit par Albert Vogt, Paris 1935-39.

[٣] Canard, M., *op.cit.*, p. 356.

[٤] Inastrontsev, K.A., «Toryestvenii Viezd Fatimidiskikh Khalifov» in *Zap. Vost. Otdyel. Imp. Russ. Arkheol. Obshcestva*, XVII (St. Petersbourg 1905).

عمل علمى تناول وصف رُسُوم الاحتفالات الفاطمية . وقد نبَّه إنسترونزف فى هذه الدراسة إلى أهمية مقارنة الاحتفالات الفاطمية بالاحتفالات البيزنطية وطَرَحَ فكرة وجود تأثير ممكن لبيزنطة عليها .

وفى سنة ١٩٥١ عَقَدَ المستشرق الفرنسى ماريوس M. Canard كانار هذه المقارنة اعتمادًا على المَقْريزى والقَلْقَشَنْدى وكتاب « الاحتفالات » لقُسْطَنْطين بورفيروجينيت ، وهى دراسة عميقة ومركزة [١]، أعقبها فى سنة ١٩٥٢ بدراسة عن « ركوب أوَّل العام عند الفاطميين » كما وصفه ابن المأمون وابن الطُّوَيْر اعتمادًا على نصوص المقريزى والقلقشندى وأبى المحاسن ودراسة إنسترونزف السابق الإشارة إليها [٢].

وفى العام نفسه أَتَمَّ المرحوم عبد المنعم ماجد رسالته *Institutions et Cérémonial des Fatimides en Egypte* « نُظُم الفاطميين ورُسُومُهم فى مصر » التى تَقَدَّم بها إلى جامعة السربون ، ثم نشرها بالعربية فى جزأين صدرا فى القاهرة سنتى ١٩٥٣ و ١٩٥٥م .

وفى سنة ١٩٨٤م تَقَدَّمت بولا ساندرز Paula Sanders برسالة إلى جامعة برنستون Princeton عن « احتفالات بلاط الخلافة الفاطمية فى مصر » نشرتها فى سنة ١٩٩٤م مع إجراء تعديلات مهمة عليها بعنوان Paula Sanders, *Ritual, Politics, and the City in Fatimid Cairo*, State University of New York Press 1994. وانظر كذلك مقالها Sanders, P. «From Court Ceremony to Urban Language: Ceremonial in Fatimid Cairo and Fustât», in *The Islamic World from Classical to Modern Times (Essays in Honor of Bernard Lewis)*, Princeton, NJ; Darwin Press 1989, pp. 311-321.

---

[١] انظر هـ[١]: صفحة ٣٧٤ .

[٢] Canard, M., «La Procession du Nouvel An chez les Fatimides», *AIEO* X (1952), pp. 364-395.

١- القَصْـــرُ الفَاطِمِىّ

كان القصر الفاطمى الشَّرْقى الذى وَضَعَ أساسه القائد جَوْهَر الصَّقْلَبى ، يَشْغَل نحو خُمْس مساحة القاهرة (سبعين فدّانًا) ، وهو الأثر الذى ضَمَّ بين جنباته روائع الفنون الفاطمية وتبارى الفَنّانون فى زخرفته وتصويره ، وحار المؤرِّخون فى وصفه حتى إن منهم من خاف أن يُتَّهَم بالكذب إذا وَصَفَ ما شاهده فيه أو تَحَدَّث عنه . ولم يكن التصميم الأول للقصر يتَضَمَّن نصف الأبهاء والقاعات الفخمة التى وَصَفَها غُلْيوم أُشْقُف صور والمقريزى والتى تنامت مع الوقت حيث أضاف إليه الخلفاءُ ، وخاصة المستنصر بالله والآمر بأحكام الله ، قاعات ومناظر جديدة . وهو عبارة عن مجموعة من الأبنية والقصور الصغيرة والقاعات والأواوين والخزائن أُطْلِق على مجموعها « القَصْر » أو « القُصُور الزّاهِرَة » . وللأسف الشديد فإننا نجهل كل شيء عن عمارته حيث زال كل أثر لهذا القصر وحَلَّت محله الآن المدارس التى أنشئت فى العصرين الأيوبى والمملوكى ، وحَىّ خان الخليلى وحَىّ الجمالية . ولكن بفضل المعلومات التى أمَدَّنا بها كلٌّ من المُسَبِّحى وابن عبد الظّاهر والمقْريزى أمكننا إعادة بناء الشكل الخارجى للقصر وتحديد موضع أبوابه الرئيسية [١]. وتركَّزَت فى القصر الفاطمى حياةُ البلاط ومجالِسُ الخليفة ، ومنه كانت تخرج المواكب الاحتفالية [شكل ١] .

القَاعَــةُ والإيــوان

تَمَيَّز هذا القصر بوجود قاعة ضخمة وإيوان كبير خُصِّصا لجلوس الخليفة الجلوس العام حيث كان يوجد « سريرُ الملك » وهو السرير الذَّهَب الذى عمله جوهر الصَّقْلَبى عند بناء القصر الكبير [٢]، وذكر ناصر خسرو [٣] أنه كان يشغل عرض القاعة وعلوه أربعة

---

[١] Ravaisse, p., *Essai sur l'histoire et sur la topographie du Caire*, MMAFC I, III (1887, 1890); Fu'âd Sayyid, A., *La capitale de l'Egypte jusqu' à l'époque fatimide*, pp. 209-326.

[٢] المقريزى : الخطط ١: ٣٨٥ س ٢٣ .

[٣] ناصر خسرو : سفرنامة ١٠٧ .

أذرع وأنه «مغطى بالذهب من جهاته الثلاثة وعليه صور المصطاد والميدان وغيرهما كما أن عليه كتابة جميلة» لم يحددها. وأضاف صاحب «الذَّخائر التحف» أن فيه من الذَّهَب الإبريز الخالص مائة ألف مثقال وعشرة آلاف مثقال وأنه مُرَصَّع بألف وخمسمائة وستين قطعة جوهر من سائر ألوانه، وهو ما يَتَّفِق مع ما أورده قبل نهاية دولتهم غُلْيوم أسقف صور Guillaume de Tyr من أن الخليفة العاضد كان «جالسًا على عرش من الذهب مُرَصَّع بالجواهر والأحجار الكريمة»[١]، وكان أيضًا مُغَشَّى بالقُرْقُوبى[٢].

ويُقَدِّم لنا ابن الطُّوَيْر – قرب نهاية الدولة الفاطمية – من خلال وصفه لجلوس الخليفة فى «قاعة الذَّهَب» وللأسْمِطَة التى كانت تُمَدُّ فيها وكذلك للمواكب الاحتفالية، وَصْفًا دقيقًا لترتيب هذه القاعة ولمواضع أخرى من القصر، مما يعين على تَصَوُّر الطبوغرافية الداخلية لجزء هام من القصر الفاطمى الكبير.

وتَتَّفِقُ الأوصاف التى يُقَدِّمها لنا ابن الطُّوَيْر، بل تتطابق فى كثير من الأحيان، مع الأوصاف التى نعرفها لهذه القاعة والتى أمَدَّنا بها على التوالى: المُسَبِّحى وناصرى خُسْرو وابن المأمون وغُلْيوم أُسْقُف صور.

كانت «قاعةُ الذَّهَب» مُصَمَّمَة على النَّمَط المعروف بـ«الحيرى والكمين والأَرْوِقَة»: «الرِّواق» فيه مجلس الملك وهو «الصَّدْر»، و«الكُمَّان» ميمنة وميسرة فيهما من يقرب إلى الخليفة من خواصه[٣]. واعتاد الباحثون على القول بأن هذا الطِّراز من البناء هو عبارة عن إيوان مُصَمَّم على شكل حرف الـ T اللاتينى ومدعم بغرفتين ملاصقتين واقعتين على جانبى القسم الرئيسى للإيوان والممتد إلى الداخل والذى يُطْلَق

---

[١] الرشيد بن الزبير: الذخائر والتحف ٢٦٢؛ المقريزى: الخطط ١: ٣٨٥ س ٣٥؛ Schlumberger, G., *Campagnes du Roi Amaury Ier de Jerusalem en Egypte au XII siècle*, Paris 1906, p. 126.

[٢] المقريزى: الخطط ١: ٣٨٦ س ١٣.

[٣] المسعودى: مروج الذهب ومعادن الجوهر (نشرة شارل بلا، بيروت–منشورات الجامعة اللبنانية ١٩٦٦–١٩٧٩) ٦:٥. وتصف وثيقة شراء حصة من بيت مؤرخة سنة ٤٩٧هـ/ ١١٠٣م وجدت فى أوراق الجنيزة قاعاته بأنها «القاعة السفلى ذات المجلس الحيرى ذات الخزانتين» (Khan, G., *op.cit.*, p. 69).

عليه « الصَّدْر » (والذى يماثل ذيل حرف الـ T) وهو الجزء الذى يُرَتَّب فيه مكان الاجتماع والمعروف بـ « المجْلِس » . وانتقل هذا الطّراز المعروف بطراز سامراء إلى عمائر القاهرة من الفُسْطاط [١].

ورغم أن المُسَبِّحى ، فى مطلع القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى ، يُطْلِق لفظ « قَصْر » على هذا الموضع « قصر الذَّهَب » [٢]، فإنه اعتبارًا من ابن المأمون وابن الطُّوَير ، فى النصف الأول للقرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى ، نجد لفظ « قاعة » هو المستخدم فى التدليل عليه ، وكان الانتقال من أحد « فَرْدَى الكم » بها إلى « الصَّدْر » حيث يوجد المجْلِس ، يتم عبر « المَقْطَع » أو « مَقْطع فَرْد الكم » الذى نعرف من خلال إحدى أوراق جنيزة القاهرة التى أرَّخها جويتين Goitein بسنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م ، أنه كان بابًا مزودًا بمصراع من الخشب المنقوش أو بابًا مطويًّا يصل الجزء الرئيسى للإيوان – وهو الصَّدْر – مع كل من فَرْدَى الكُمّ ، أى الغرفتين الملحقتين [٣]. وهو يشبه الباب الذى كُشِفَ عنه فى مدرسة الناصر محمد بن قلاوون فى موضع قاعة ستّ المُلْك ومحفوظ الآن بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة [لوحة ٣] .

ومن خلال وَصْف ابن الطُّوَيْر لهيئة جلوس الخلفاء فى المجْلِس بقاعة الذَّهَب ، نعرف أن الجزء الرئيسى للقاعة أو « الصَّدْر »حيث يُعْقَد المجْلِس ، لم يكن من الممكن مشاهدته من الصَّحْن إلَّا بعد فتح باب المجْلِس ورفع السِّتْر الموجود عليه بإشارة من « صاحب المجْلِس » ، ولا يتم ذلك إلَّا إذا تهيَّأ جلوس الخليفة على السرير فى صَدْر المجْلِس [٥].

---

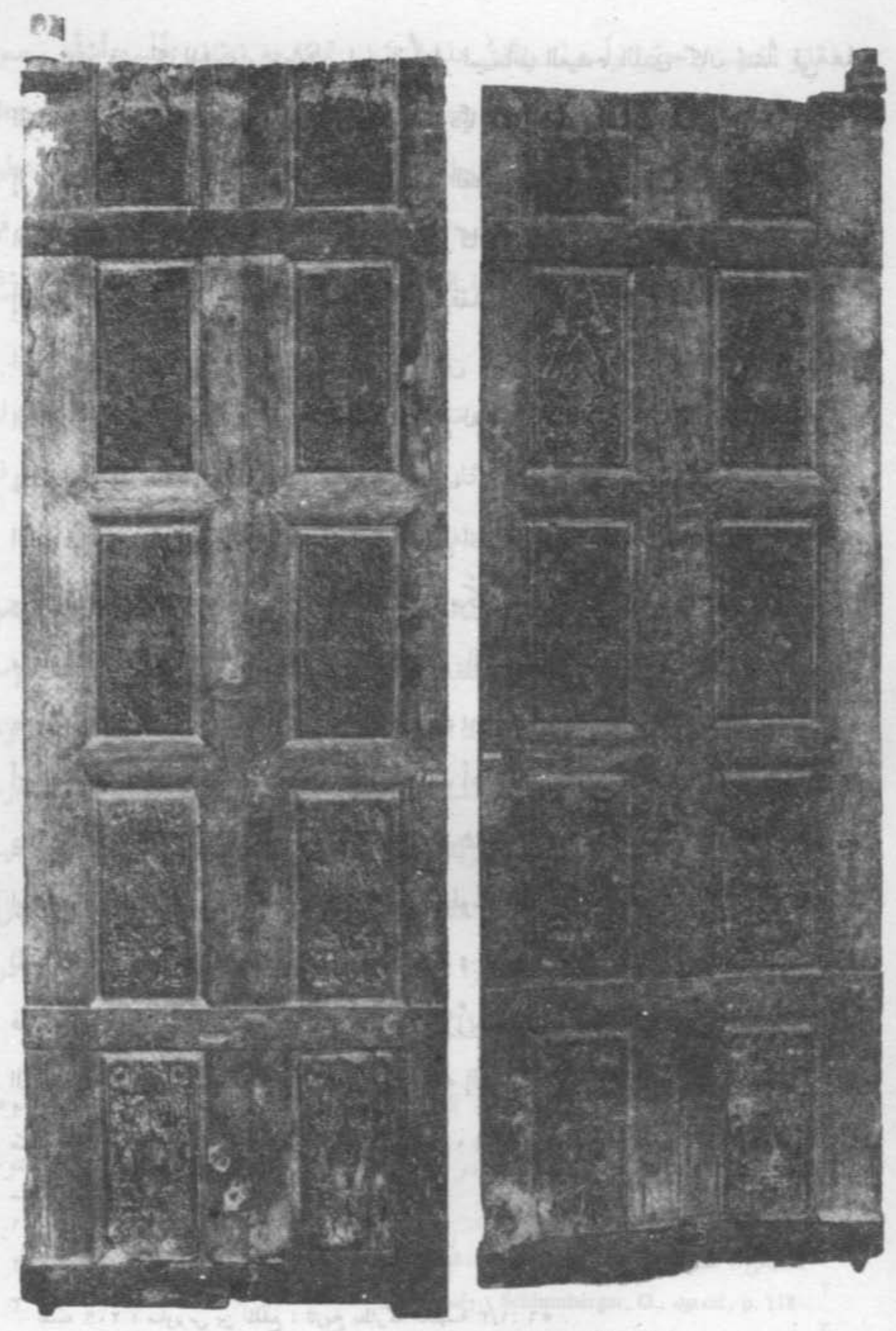
[١] Garcin, J. Cl., *Habitat médiéval et histoire urbaine* p. 170.

[٢] المسبحى : أخبار مصر ٢٨ ، ٣٦ .

[٣] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٢٠٨ .

[٤] Sayed, H. I., «The Development of the Cairene Qâʿa : Some Considerations», *An. Isl.* XXIII (1987), p. 36.

[٥] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٢٠٧-٢٠٨ .



لوحة ٣ - أحد الأبواب المستخدمة فى القصر الفاطمى وجد فى مدرسة

الناصر محمد بن قلاوون (محفوظ فى متحف الفن الإسلامى بالقاهرة)

ونعرف كذلك من وَصْف ابن الطُّوَيْر لسِماط العيد ، الذى كان يُمَدُّ فى هذه القاعة ، أن طولها لم يكن بعُمْق القصر عموديًّا على باب الذَّهَب - باب القصر المؤدى إلى هذه القاعة - وإنما كان موازيًا لواجهة القصر الغربية فيما بين باب الذَّهَب وباب البحر . فيذكر ابن الطُّوَيْر أن سِماط رمضان كان يُبْسَط فى طول القاعة مادًّا من الرِّواق إلى ثلثى القاعة [١]، أما بالنسبة لسِماط العيد فقد كان سرير الملك يُنْصَب له قُدّام باب المجْلِس فى الرِّواق ، وتُنْصَب عليه مائدة من فضة يقال لها « المُدَوَّرَة » ، ثم يُنْصَب السِّماط أمام السرير إلى باب المجْلِس المقابل له تجاه باب البحر بطول القاعة [٢]. وكان يسبق القاعة دِهْليزٌ سَمّاه ابن الطُّوَيْر وصاحب كتاب « تاريخ بطاركة الكنيسة » « دِهْليز العَمود » [٣]، يبدو أنه رواق ذو أعمدة مما يُعطى انطباعًا بأن القاعة كانت فى غاية الاتساع وأنه كان من الضرورى وجود دعائم لرفعها مكَوَّنة من عدد من الأعمدة ، وهو ما يتَّفق مع وصف غُلُوم أُسْقُف صور كما نقله إلى الفرنسية جستاف شُلُمْبِرْجِيه ، يقول : «Une vaste cour découverte qu'entouraient de magnifiques portiques à colonnades» أى « فناءٌ واسعٌ مكشوفٌ تحيط به أرْوِقَةٌ ذات أعمدة » [٤]. وكانت الدَّهاليز التى تقود إلى دِهْليز العمود وقاعة الذَّهَب حالكة الظَّلام مما دَفَعَ الوزير العادِل بن السَّلار ، حين استوحش من الخليفة الظَّافِر ، إلى « نَقْل جلوسه من القاعة التى يُدْخَل فى دهاليزها المظلمة إلى الجلوس بالإيوان فى البراح والسَّعَة » [٥]. وكانت شكوك ابن السَّلار فى مكانها فقد قُتِلَ بعد ذلك الوزير الصّالِح طَلائع بن رُزِّيك فى سنة ٥٥٦هـ/١١٦١م « فى باب السِّرْداب من الدِّهْليز المظلم الذى يُدْخَل منه إلى القاعة » [٦]، كما أن الحاكم بأمر الله سَبَقَ وقَتَلَ خادمه عُطوف فى سنة ٤٠١هـ/١٠١٠م بجماعة من الأتراك وقفوا له فى

---

[١] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٢١٢ .
[٢] نفسه ٢١٣ .
[٣] نفسه ٢٠٦ ؛ ساويرس بن المقفع : تاريخ بطاركة الكنيسة ٣/١: ٥٦ .
[٤] Schlumberger, G., *op.cit.*, p. 119 ؛ وليم الصورى : الحروب الصليبية ٤: ٤٧ .
[٥] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٥٩ .
[٦] المقريزى : اتعاظ الحنفا ٣: ٢٤٦ ، ٢٤٧ ؛ أبو المحاسن : النجوم ٥: ٣١٤ .

دِهْليز القصر واحتزّوا رأسه[١]. ويتّفِقُ هذا الوَصْف تمامًا مع وَصْف غُلْيوم أسْقُف صور الذى أطلق عليها «longues et etroites allées voûtées, tout à fait obscures, où l'on ne voyait goute» أى : « دهاليز طويلة وَضيِّقة ذات أقبية حالكة الظلمة لا يستطيع الإنسان أن يتبينَّ فيها شيئًا »[٢]. ويضيف غُلْيوم أسْقُف صور فى وصف القصر « وتبدو فى هذا المكان كل مظاهر الأُبّهة الملوكية التى أبدعتها يد الصانع الماهر مما يشير إلى رَوْعَة الصنعة »[٣].

كان « دِهْليزُ العَمود » يقود إلى « مَقْطَع الوزارة » حيث توجد المرتبة المختصة بالوزارة وعندها الباب المعروف بـ « باب السِّرْداب » والذى جرى الرَّسْم بإغلاقه لوزراء السيوف والأقلام، وكان حَمّام القصر يقع خلف هذا الباب[٤]

ويبدو أن أغلب أبواب القصر الفاطمى كانت تفتح على دَهاليز طويلة مظلمة تقود سواء إلى قاعات القصر أو أفنيته المختلفة . وقد أدرك المقريزى، فى مطلع القرن التاسع الهجرى /الخامس عشر الميلادى، أحد هذه الدَّهاليز يقول وهو يصِف باب الرِّيح - وهو باب القصر الذى يفتح فى واجهته الشمالية المقابلة لدار الوزارة الكبرى (خانقاه بيبرس الجاشنكير الآن) -: إنه « كان بابًا مربَّعًا يُسْلَك فيه من دِهْليز مستطيل مظلم إلى حيث المدرسة السابقية ودار الطُّواشى سابق الدين وقصر أمير سلاح وينتهى إلى ما بين القصرين تجاه حَمّام البَيْسرى » وإنه كان دهليزًا « عريضًا يتجاوز عرضه فيما أُقَدِّر العشرة الأذرع [نحو ستة أمتار] فى طول كبير جدًا »[٥] [نحو اثنين وثلاثين مترًا] .

ويَتَّضح كذلك من الأوصاف التى ساقها ابن الطُّوَيْر وما يُسْتَقْرأ من نصوص المقريزى، أن القاعات الرئيسية للقصر كانت غالبًا على شكل إيوانات عميقة مفتوحة

---

[١] المسبحى : نصوص ضائعة ٣٠ ، المقريزى : الخطط ٢: ٤ .

[٢] Schlumberger, G., *op.cit.*, p. 118 ؛ وليم الصورى : المرجع السابق ٤: ٤٧ .

[٣] وليم الصورى : المرجع السابق ٤: ٤٧ .

[٤] ابن ميسر : أخبار مصر ٨٩ ، ٩٠ .

[٥] المقريزى : الخطط ١: ٤٣٤ .

على أفنية أو على أزوِقَة مستعرضة تطلّ عليها ولم تتّخذ بعد شكل القاعات المغلقة . وبذلك فإن طراز القاعات المغطاة لم يظهر فى العصر الفاطمى ، فعندما يذكر المقريزى « قاعة سِتّ المُلْك » - إحدى قاعات القصر الفاطمى الصغير - فإنه يقصد بالقاعة الفناء المتوسط والإيوانات الأربعة حوله ، وعلى ذلك فإن الفناء بما حوله يُعَدُّ بمثابة قاعة واحدة متكاملة ويُمَثِّل الطِّراز المعروف للقاعات فى العصر الفاطمى والذى أُخِذَ عنه تصميم المدارس المتعامد Cruciform فى العصر المملوكى الأوّل[1] .

أما مكان الشَّرَف بقاعة الذَّهَب ، الذى كان يقف به كبار رجال الدولة ، فهو آخر الرِّواق الذى يُطْلِق عليه ابن الطُّوَيْر « الإفريز العالى عن أرض القاعة » وكان يَقَعُ خارج باب المَجْلِس المعروف بمَجْلس اللُّعْبَة بامتداد الرِّواق ويعلوه ساباط على عقود قناطر لتدعيم القاعة[2]. وكان على جانبى « دِهْليز العمود » عددٌ من المصاطب يُوَصَّل بعضُها ببعض بدكك يُمَدُّ عليها سِماطُ حُزْن عاشوراء[3].

ولاشك أن دائر قاعة الذَّهَب كان يوجد إفريز من الخشب المحفور bois sculptés تحت سقف القاعة مثل الإفريز الذى اكتشف فى مارستان قلاوون ، ويرى الباحثون أنه كان يدور كإفريز تحت سقف قاعة سِتّ المُلْك بالقصر الصغير الغربى [لوحة ٣٣] .

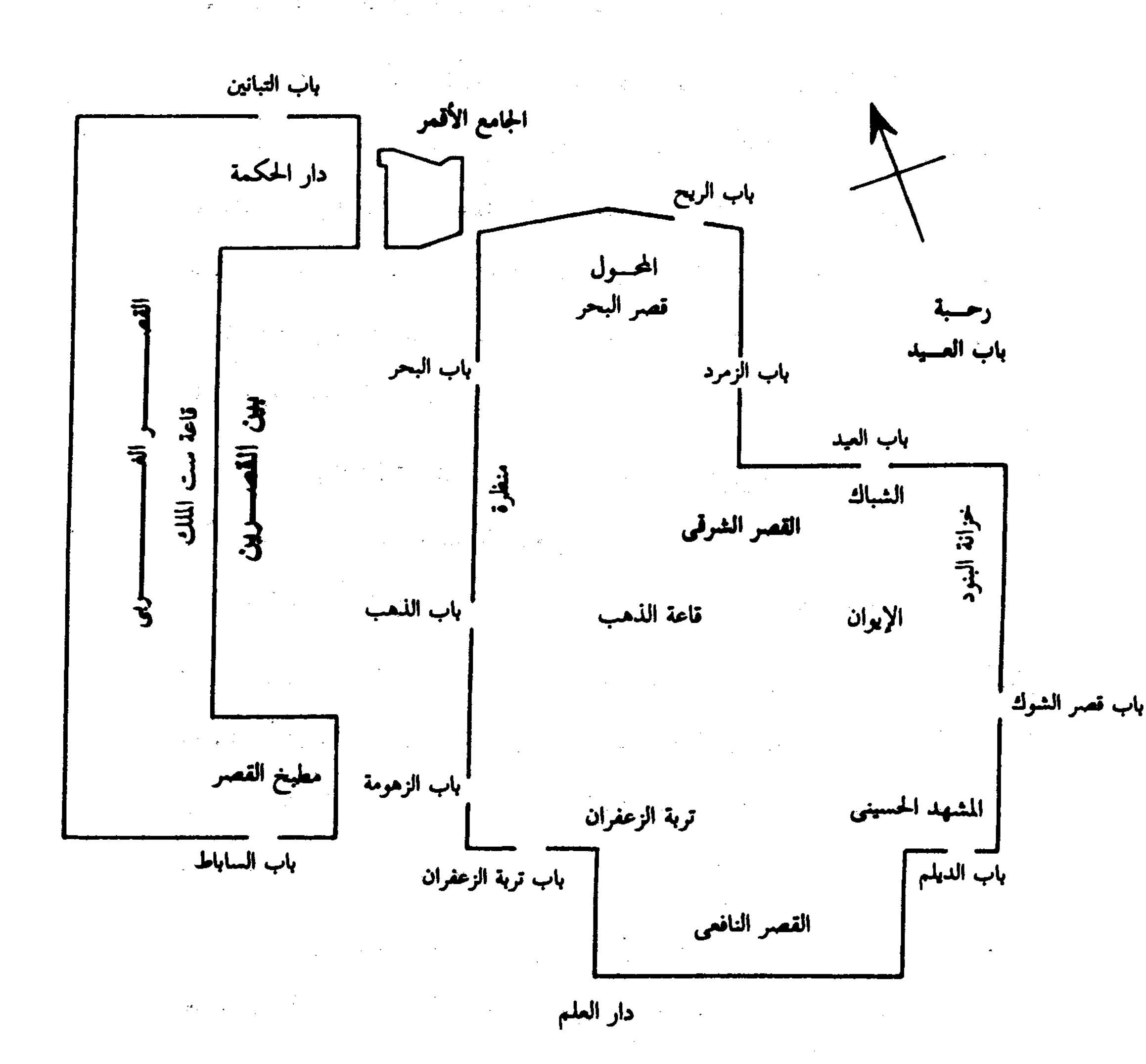
ويُقَدِّم لنا ابن الطُّوَيْر أثناء وصفه لـ « يوم عَرْض الخَيْل » استعدادًا لركوب أوّل العام وَصْفًا لدِهْليز باب المُلْك حيث كانت توجد « السَّهْدِلَّا » و « الشُّباك » الذى يُتَوَصَّل إليهما من باب العيد ، أحد أبواب القصر الكبير الذى يفتح فى واجهته الشرقية ويطلّ على رَحْبَة باب العيد والذى كان يخرج منه موكب الخليفة إلى مُصَلَّى العيدين يومى عيد الفِطْر وعيد النَّحْر. ويدخل منه الوزير وكبار رجال الدولة إلى الفناء

---

[1] Fu'ād Sayyid, A., *op.cit.*, pp. 309-310 .

[2] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٢٠٨ .

[3] نفسه ٢٢٤ .



شكل ١ - القصور الفاطمية

الداخلى للقصر الذى كان يتم فيه عَرْضُ الخَيْل عبر دِهْلِيز باب المُلْك [١].

و « السَّهْدِلّا » أو « السَّدِلّى » أو « السَّدِلاّ » لفظ فارسى مُعَرَّب [٢]، ذكر ابن مَنْظُور أن « السَّدِلّى على فِعِلّى مُعَرَّب ، وأصله بالفارسية سِهْدِلّه كأنه ثلاثة بيوت فى بيت كالحيرى بكُمَّيْن » [٣]. وُيَذكِّرنا ذلك بالطِّراز الذى يُطْلَق عليه « المجْلس » والسابق الإشارة إليه . وقد صَوَّرَ انسترونزف السَّدِلا الفاطمية ببناء مغلق من ثلاثة جوانب ومفتوح من الجانب الرابع حيث كان يوجد « الشُّبّاك » ، وحَدَّد موضعها على وجه التقريب فى وسط القصر بين باب العيد وباب البحر [٤].

أما « الشُّبّاك » فأشبه بمقصورة عليها من ظاهرها ستر يرفعه اثنان من الأستاذين المحَنَّكين (زمام القصر وصاحب بيت المال) متى حضر الوزير وجلس على الكرسى الكبير الحديد الموجود تحت الشُّبّاك ، وفور رفعها يُرَى الخليفة جالسًا فى المرتبة الهائلة به [٥].

ويُفْهَم من كلام ابن الطُّوَيْر أن باب العيد كان يؤدِّى إلى الشُّبّاك عن طريق الدَّهاليز الطوال ، وأن « السَّهْدِلا » كانت بدِهْليز باب المُلْك الذى فيه الشُّبّاك [٦]. كذلك فتبعًا لما أورده ابن الطُّوَيْر كان يوجد شُبّاك آخر بالإيوان الكبير يجلس فيه الخليفة [٧] أو أنهما شُبّاك واحد يقع بين الإيوان والسَّهْدِلا .

ولم يكن الجلوسُ بالشُّبّاك من مفردات الرُّسُوم الفاطمية ، فقد كان بقصر الخلافة فى بَغْداد فى نفس الفترة « شُبّاك » كان من بين ما أخرجه البَساسيرى من قصر الخلافة

---

[١] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٥٧ ، ١٥٤ .

[٢] الجواليقى : المعرب من الكلام الأعجمى ٢٣٥ .

[٣] ابن منظور : لسان العرب ١٣ : ٣٥٥ .

[٤] Canard, M., *op.cit*, pp. 376-77 وانظر ابن المأمون : أخبار مصر ٨٢ .

[٥] ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٥٤ .

[٦] نفسه ٥٤ ، ١٥٤ .

[٧] نفسه ٣٤ ، ٥٩ ، ٢١٣ .

وأرسله إلى القاهرة إبّان حركته فى بَغْداد سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م، وهو شُبّاك من ذهب « كان يجلس فيه [الخليفة القائم بأمر الله] ويتكىء عليه »[١]. فلما شَيَّد الأَفْضَل بن بدر الجمالى دار الوزارة الكبرى جَعَلَ هذا الشُّبّاك بها يجلس فيه الوزير ويتكىء عليه[٢].

أما « الإيوانُ الكبير » فقد بناه العزيز بالله بالقصر الكبير سنة ٣٦٩هـ/٩٧٩م[٣]، كان يُتَوَصَّل إليه من باب العيد وكذلك من دِهْليز باب الدَّيْلم، وكان به الشُّبّاك الذى يجلس فيه الخليفة ويتكئ عليه وقت قراءة السِّجلات بالإيوان[٤]. وبهذا الإيوان كان جلوسُ الخلفاء الجلوس العام بمجلس المُلْك قبل انتقال الجلوس نهائيًا إلى قاعة الذَّهَب فى أحد يومى الاثنين أو الخميس فى زمن الخليفة الآمر[٥]، باستثناء الفترة التى تَوَلّى فيها العادل بن السَّلار الوزارة للخليفة الظّافِر حيث أعاد الجلوس إلى الإيوان بعد أن استوحش من الخليفة[٦]. ويُفْهَم من نَصّ المُسَبِّحى أنه كان بالإيوان صَحْنٌ يجتمع به الناس لتُقْرأ عليهم فيه السِّجلّات الصادرة عن الخليفة[٧]، كما كان يُمَدُّ فيه سِماطُ الفِطْرَة[٨]، فقد كانت الفِطْرَة تُعْمَل به وتُفَرَّق منه إلى أن عُمِلَت لها دارٌ خاصة استقطعها الوزير المأمون البَطائِحى من إسْطَبْل الطّارِمَة[٩]، كما كان يُعْمَل به الاجتماع والخُطْبَة يوم عيد الغدير[١٠].

و « الإيوان » لغةً هو البيت المُؤَزَّج ؛ أى المرتفع البناء غير المسدود الوجه، أىّ أنه قاعة مسقوفة بقبوة مفتوح مُقَدّمها على بَهْو بعقد مُقَوَّس نصف دائرى أو مُدَبَّب أو منفوخ أو

---

[١] الرشيد بن الزبير : الذخائر والتحف ١٩٦ .
[٢] المقريزى : الخطط ١: ٤٣٩ .
[٣] نفسه ١: ٣٨٨ .
[٤] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٣٤ .
[٥] نفسه ٢٠٥ ، ٢٠٦ .
[٦] نفسه ٥٩ .
[٧] المسبحى : أخبار مصر ٤ ، ٢٤ .
[٨] المقريزى : الخطط ١: ٣٨٨ .
[٩] نفسه ١: ٤٢٦ .
[١٠] نفسه ١: ٣٨٨ .

منبعج مغلق مؤخَّرها بجدار . وانتقلت فكرة بناء الأواوين من فارس إلى العمارة الإسلامية فى العراق واستخدمت أوّل ما استخدمت فى عمارةالقصور ، ثم أُدْخِلَت فى الأبنية الدينية منذ منتصف القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى وشاعت فى بيوت الصلاة بعد كثرة المساجد الجامعة فى المدينة الواحدة مما أدَّى إلى تصغير مساحات بيوت الصلاة تبعًا لذلك ، وأصبحت بعد ذلك طرازًا شائعًا فى بناء المدارس ذات التخطيط المتعامد [١].

وللأسف فإننا لا نملك وَصْفًا لشكل الإيوان الكبير بالقصر الفاطمى سوى الوصف الذى حَفِظَه لنا المقريزى ، والذى يُفْهَم منه أنه كان « بصَدْر هذا الإيوان الشُّبَّاك الذى فيه القبة ، كان يجلس فيه الخليفة » وأضاف المقريزى أن هذه القبة ظلّت باقية إلى أن هدمت سنة ٧٨٧هـ/١٣٨٥م [٢].

الخَــــزَائِن

لم يكن القصر الفاطمى فقط مجموعة قاعات استقبال ومواضع لسكن الخليفة وحرمه ، ولكن كان يشتمل كذلك على قاعة يجتمع فيها الإسماعيليون للاستماع إلى « مجالس الحِكْمَة » التى يُلْقيها داعى الدُّعاة تُعْرَف بـ « المحَوّل » [٣]. إضافة إلى ذلك كانت توجد بالقصر « الخَزائِن » المختلفة مثل : خِزانَة الكُتُب ، وخِزانَة البُنُود ، وخَزائِن السّلاح ، وخَزائِن الدَّرَق ، وخَزائِن السُّروج ، وخِزانَة الفَرْش ، وخِزانَة الكُسْوات ، وخِزانَة الأَدْم ، وخَزائِن الشَّراب ، وخِزانَة التَّوابل ، وخِزانَة الخِيَم ، وخَزائِن دار أَفْتكين ، وخِزانَة الجَوْهَر

---

[١] أحمد فكرى : خصائص عمارة القاهرة فى العصر الأيوبى ١٦٨-١٧٢ ومساجد القاهرة ومدارسها ٢: ٨٨-٨٩.

[٢] ابن عبد الظاهر : الروضة البهية ١٢٧ ؛ المقريزى : مسودة المواعظ والاعتبار ٦٩ ، ٨٢ .

[٣] المقريزى : مسودة المواعظ والاعتبار ٨١ ، وفيما يلى ص ٥٧٦ .

والطِّيب . كان الخليفة يمضى لزيارة هذه الخزائن ويتَفَقَّدها جميعًا طوال العام ، وله فى كل خِزانَة دِكَّة عليها طَرَّاحة مخصصة له ، وكان لكل خِزانَة فَرَّاش يتولَّى خدمتها وتنظيفها طوال العام وله راتب شهرى [١].

٢- شَارَاتُ الخِلَافَة

كان الخليفة الفاطمى يرأس المجالس والاحتفالات الرسمية للبلاط داخل القصر ، سواء فى « الإيوان الكبير » أو فى « قاعة الذَّهَب » ، جالسًا على سرير المُلْك محاطًا بشارات الخلافة محجوبًا بسَتْر يُكْشَف عنه عند اكتمال الحضور وبدء المجْلِس . يقول ابن خَلْدون : « إن للسلطان شارات وأحوالًا تقتضيها الأُبَّهَة والبَذْخ فيختصُّ بها ويتَمَيَّز بانتحالها عن الرعية والبطانة وسائر الرؤساء فى دولته » [٢]. وحَدَّد القلقشندى هذه الشارات التى سَمَّاها « شِعارُ الخلافة » فى : الخاتم ، والبُرْدَة ، والقضيب ، وثياب الخلافة ، واللون فى الأعلام [٣]، وترجع أغلب هذه الشارات إلى عهد النبى ﷺ ، ويمكن أن نضيف إليها أيضًا الدُّعاء فى الخُطْبَة والطِّراز وضَرْب السِّكَّة . وما يذكره القَلْقَشَنْدى يَصْدُق على الخلافة العَبّاسية أكثر مما يَصْدُق على الخلافة الفاطمية ، فقد استعاض الفاطميون عن ذلك بما أَطْلَق عليه ابن الطُّوَيْر «آلات الموكب» أو « الآلات الموكبية » [٤]، والتى سَمَّاها القَلْقَشَنْدى « الآلات الملوكية المختصة بالمواكب العظام » ، وترجع جميعها إلى العصر الفاطمى المتأخِّر ، أى فى القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى ، وهذه الآلات هى : التّاج ، وقَضيب المُلْك ، والسَّيْف الخاص ، والدَّواة ، والرُّمْح ، والدَّرَقة ، والحافِر ،

---

[١] المقريزى : مسودة المواعظ ١٣٨-١٦٩ ، الخطط ١: ٤٠٨-٤٢٥ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى ٣ : ٤٧١-٤٧٤؛ زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ٢٦-٨٢ .

[٢] ابن خلدون : المقدمة ٦٩٦ .

[٣] القلقشندى : صبح الأعشى ٣ : ٢٦٩-٢٧١ .

[٤] ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٤٧ ، ١٩٧ .

والمِظَلَّة ، والأعْلام ، والمِذَبَّتان ، والسِّلاح ، والعَمّاريات ، والنَّقّارات ، والخيام والفَساطيط[١].

ومع ذلك فليس من الصعب من خلال الروايات الفاطمية المُبَكِّرَة ، وعلى الأخص عند المُسَبِّحى ، أن نوجد تسلسلًا تاريخيًا يُعَوَّل عليه عن الشّارات فى الفترة الفاطمية الأولى ، والذى يَتَّضِحُ منه أن هذه الشّارات لم تظهر مجتمعة فى أى احتفال أو مجلس .

فـ « التاجُ » الفاطمى لم يكن تاجًا بمعنى الكلمة وإنما « عمامة » تُلَفّ بأشكال متميزة على قُلُنْسُوَة ، والطريقة التى تُلَفُّ بها تختلف تبعًا للمادة المصنوعة منها ، يدل على ذلك المفردات المستخدمة فى الدلالة عليها[٢]، ويشار إليها فى العصر المتأخِّر باسم « التاج الشريف » أو « شَدَّة الوقار »[٣]، وذكر ابن المأمون أن « شَدَّة الوقار » هى المنديل بالشَّدَّة العربية التى ينفرد الخليفة بلباسها فى الأعياد والمواسم خاصة لا على الدوام ، وكانت تُرَصَّع بغالى الياقوت والزمرد والجوهر ، وعندما تكون على رأس الخليفة تخفق لها الأعلام ويُتَجَنَّب الكلام ويُهاب . وكان يلفها على قُلُنْسُوَة موظف مختص يعرف بـ « شاد التّاج الشّريف » شَدَّة ذات شكل منفوخ ذى استطالة يزينها فى وسطها الجوهرة المعروفة باليتيمة[٤].

و « المِظَلة »[٥] كانت أيضًا من شارات الخلافة ، وكانت هى و « العِمامَة » أهم هذه الشّارات فى الفترة الفاطمية المبكرة ، وكانت تستخدم عن الأخص عند ركوب الخليفة

---

[١] القلقشندى : صبح الأعشى ٣ : ٤٦٨-٤٧١ ؛ Sanders, p., *Ritual, Politics, and the City in Fatimid Cairo*, pp. 23-32; Canard, M., *Le cérémonial fatimite*, pp. 387-393 .

[٢] المسبحى : أخبار مصر ١٤٧ .

[٣] ابن المأمون : أخبار مصر ٤١ ، ٧٥ ، ٧٩ ؛ ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٥٥ ، ١٥٦ ؛ المقريزى : مسودة المواعظ والاعتبار ١٧٨ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ؛ Canard, M., *op.cit.*, pp. 390-92 .

[٤] نفسه ٤١ ، ٧٥ .

[٥] نفسه ٤١ ، ٧٥ ؛ المقريزى : مسودة المواعظ والاعتبار ١٩٧-١٩٨ .

لصلاة الجمعة فى رمضان [١]، فيذكر المُسَبِّحى أن الخليفة الظَّاهِر عندما ركب لصلاة الجمعة فى الجامع الأزهر فى الثانى من رمضان سنة ٤١٥هـ/نوفمبر سنة ١٠٢٤م « ركب بين يديه سائر عبيده وخواص دولته وعليه طَيْلَسانٌ شَرَب مُفَوَّط، وعلى رأسه عمامة قَصَب بياض مذهبة، وعليه ثيابٌ دَبيقى بياض، والمِظَلَّة دَبيقى مُذَهَبَة فى ذهابه. فلما عاد كان على رأسه مِظَلَّة دَبيقِى بياض مُجَوَّمَة مُذَهَّبَة » وأضاف المُسَبِّحى – الذى حَضَر هذا الاحتفال – « ومشينا بين يديه فى ذهابه وعوده على رسومنا مع كافة الشيوخ » [٢].

وفى الجمعة الثالثة من رمضان من نفس العام ركب الخليفة الظَّاهِر للصلاة بالجامع الأَنْوَر خارج باب الفُتُوح القديم، وعليه رداءٌ بياض مُحَشًّى قَصَبًا، وثيابٌ بياض دَبيقى وثوبٌ مُصْمَت أبيض وعمامة بياض مذهبة وفى يده القضيب الجوهر – وهو أحد شارات الخلافة الجديدة – وعلى رأسه المِظَلَّة المُدَيَّرة بالحُمْرَة فى ذهابه، والمِظَلَّة المُدَيَّرَة بالذَّهَب فى عَوْده [٣].

وعندما ركب لصلاة عيد الفِطر فى نفس العام، كان عليه ثوبٌ شمعى خَزّ، وعمامة شمعى قصب مذهبة، وفى يده القضيب، وعليه فى هذه المرة السَّيْف ومعه الرُّمْح على الرَّسم، وعلى رأسه المِظَلَّة المذهبة المُثْقَل [٤].

وشاهد ناصر خُسْرو أثناء زيارته للقاهرة سنة ٤٤١هـ/١٠٤٩م الاحتفال بفَتْح الخليج ووَصَفَ هيئة الخليفة فى هذا اليوم [وهو الخليفة المستنصر] بأنه: « شابٌ كامل الجسم طاهر الصورة ... كان حليق شعر الرأس، يركب على بَغْل ليس فى سَرْجه أو لجامه

---

[١] المسبحى : أخبار مصر ١٤٨ ؛ ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٥٧ ؛ وفيما يلى ص ٤٣٧ .

[٢] نفسه ٦٢ .

[٣] نفسه ٦٤ .

[٤] نفسه ٦٦ .

حِلْيَة ، فليس عليه ذهبٌ أو فضة . وقد ارتدى قميصًا أبيض عليه فوطة فضفاضة ، كالتى تُلْبَس فى بلاد المغرب والتى تسمى فى بلاد العجم دُرّاعَة ، وقيل إن اسم هذا القميص « الدَّبيقى » ، وإنه يساوى عشرة آلاف دينار ، وكان على رأسه عمامة من لونه ويمسك بيده سوطًا ثمينًا ، وأمامه ثلاثمائة راجل دَيْلَمى عليهم ثياب رومية مذهبة وقد حزموا خصورهم ، وأكمامهم واسعة كما يلبس رجال مصر . ومعهم النُّشاب والسهام وقد عصبوا سيقانهم »[1].

ويتّفق هذا مع ماذكره ابن الطُّوَيْر فى نهاية عصر الدولة عند حديثه عن المِظَلَّة وأنه « كان من شرطها عندهم أن تكون على لون الثياب التى يلبسها فى الموكب »[2].

وكان الخلفاءُ الفاطميون يرتدون لكل احتفال « ثيابًا خاصةً » به كانت تُصْنَع فى دار الطِّراز وتُحْفَظ فى خِزانَة الكُسْوَة ، كما كانت تُصْنَع بدار الطِّراز أيضًا ملابس تُوَفَّر لحواشيهم فى هذه الاحتفالات ، وكذلك الخِلَع والتَّشْريفات التى كان يمنحها الخليفة فى المناسبات المختلفة[3]. كان شعار الفاطميين ولونهم هو « البياض » وكانت ثياب الخليفة تُصْنَع عادةً من نوع مميز من الحرير يسمى « دَبِيقى » نسبة إلى مدينة دَبِيق بمصر السُّفْلى[4]. والمصطلح الأكثر استخدامًا فى المصادر للإشارةإلى ثياب الخلفاء الفاطميين هو « البَدْلَة » التى تعنى طاقمًا مكونًا من أحد عشر قطعة تسمى « البَدْلَة الموكبية »[5]. وفى شهر رمضان ومناسبة عيدى الفِطْر والأَضْحى كان الخلفاء

---

[1] ناصر خسرو : سفر نامة ٩٦ .

[2] ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٥٧ وانظر وصف المِظَلَّة فيما يلى ص ٤٢٤- ٤٢٥.

[3] ابن المأمون : أخبار مصر ٤٨-٥٤ ؛ المقريزى : مسودة المواعظ والاعتبار ٢١٨-٢٢٩ .

[4] الدَّبيقى نوع من الأقمشة المزركشة الموشاة بخيوط الحرير والذهب ؛ ينسب إلى مدينة دبيق ، بلدة من أعمال دمياط واقعة على بحيرة المنزلة بالقرب من تنِّيس ، وقد اندثرت ويعرف مكانها اليوم بتل دبقو بمركز فاقوس بمديرية الشرقية على بعد ٥٥٠٠ مترا من صان الحجر . (محمد رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ١: ٢٤٣ ؛ Wiet, G., EI^2 art. *Dabik* II, p. 74) .

[5] ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٥٦ ، ١٥٧ .

يُفَضِّلون ارتداء « الطَّيْلَسان » زِىّ الفُقَهاء والقضاة أو « اللِّباس الخاص الجُمَعى »[١].

ويشير ابن الطُّوَيْر إلى أن الخليفة كان يرتدى فى الاحتفال بركوب فَتْح الخليج ثوبًا يقال له « البَدَنَة » كله ذهب وحرير مرقوم والمِظَلَّة من شكله ، وأنه لا يَلْبس هذا الثوب فى غير هذا اليوم[٢]. وأضاف المقريزى أنه كان يُصْنَع بطِراز تِنِّيس لا يدخل فيه من الغزل سدّاء ولُحْمَة غير أوقيتين وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لا تُحْوِج إلى تفصيل ولا خياطة ، تبلغ قيمته ألف دينار[٣].

٣- بَلَاطُ القَصْـــر

أنشأ الفاطميون فى مصر لأوَّل مرة قصرًا خلافيًّا وأوجدوا بلاطًا للخلفاء ، لم يكتف فقط بمنافسة بلاط خلفاء بَغْداد وأباطِرَة بيزنطة ، بل تَفَوَّق عليهما بمظاهر التَّرَف والبَذَخ والأُبَّهَة التى استغل الفاطميون فى إضفائها عليه كل إمكانات مصر الحضارية وما تَمَيَّز به مذهبهم العقائدى الخاص .

وتولَّى القيام بأعمال البلاط الفاطمى مجموعةٌ كبيرةٌ من المُوَظَّفين من أرباب السُّيوف والأقْلام ومن ديانات مختلفة ، وبينهم طائفةٌ من النساء ، وفرقة من العبيد البيض والسود على السواء فيهم خِصْيان أغلبهم من الصَّقالِبَة[٤].

كان أقربُ هؤلاء إلى الخلفاء الطائفة المعروفة بـ « الأستاذين المُحَنَّكين » وهم المُطَّلِعون على أسرار الخليفة ، ويُطْلَق عليهم أحيانًا « حَواشى الخليفة » . وكان الخلفاء يأتنسون

---

[١] ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٠٣ .

[٢] نفسه ١٩٨ .

[٣] المقريزى : الخطط ١: ١٧٧ .

[٤] ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ١٠-١٢ ، ٢٨ .

بهم ، وكانوا يؤدُّون خدَمًا لا يمكن أن يقوم بها غيرهم [١]. وعرفوا بـ « المحَنَّكين » ؛ لأنهم كانوا يُدَوِّرون عمائمهم على أحناكهم ، وعددهم يزيد على ألف . وكان من طريقتهم أنه من تَرَشَّح أستاذًا منهم للحَنَك وحُنِّك ، حَمَل إليه كل أستاذ من المحَنَّكين بَدْلَة كاملة من ثيابه وسيفًا وفرسًا فيصبح لاحقًا بهم وفى يده مثل ما فى أيديهم [٢]. وكان من بينهم كذلك من يُلَقَّبون بـ « الأمراء » [٣]. والدليل على مكانتهم الكبيرة أن الوزير الأَفْضَل عندما استقل بالأمر عقب وفاة الإمام المستعلى وتوليته ابنه الآمر وهو طفل وانتقال الأَفْضَل إلى دار المُلْك التى بناها بالفُسْطاط ، تَرَكَ الآمر فى القصر بالقاهرة فى كفالة قوم من أعيان الأستاذين المحَنَّكين وجدته لأمه [٤].

ومن بين وظائف البلاط الهامة التى تَوَلاها « الأُسْتاذون المحَنَّكون » تسعة وظائف تُمَثِّل كبار حواشى الخليفة ، هى :

« زمام القصور (القصر) » أو « متولِّى القصر » ، وهو المشرف على شئون القصر ، وكان يُلَقَّب فى القرن السادس الهجرى بـ « تاج الدولة » وبـ « الأمير الثقة » [٧]. وكان ذا وجاهة وكلمة مسموعة ، فعندما كبر الخليفة الآمر وقَصَدَ مصاهرة الوزير الأَفْضَل استدعى زمام القصور واستشاره فى الأمر ، فأشار عليه بأن أحدًا من آبائه لم يَكْتُب عليه صداقًا [٨].

---

[١] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٨٤ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ؛ المقريزى : مسودة المواعظ والاعتبار ٧٤ ، ويرى كانار أنهم يجب أن يكونوا من الخصيان مثلما كانت الحال بالنسبة لنفس هذه الوظائف فى بيزنطة ! Canard, M., *op.cit.*, p. 374.

[٢] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٢٠٩-٢١٠ .

[٣] ابن المأمون : أخبار مصر ٥١ .

[٤] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٢٠٩-٢١٠ .

[٥] ابن المأمون : أخبار مصر ٥١ .

[٦] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٥ .

[٧] ابن المأمون : أخبار مصر ٥١ : ٦ ، ١٦ ؛ المقريزى : مسودة المواعظ والاعتبار ٣٠٢ . وذكر المقريزى اسم واحد من الذين تولّوا وظيفة زمام القصر هو مختار الصَّقلبى (نفسه ٣٨٤).

[٨] ابن الطوير : نزهة ٥ .

وكان زِمامُ القصور على علم بكل ما يجرى داخل القصور ، ففى أعقاب مقتل الخليفة الظّافِر ، جاء الوزير الأَفْضَل عَبّاس إلى القصر ودخل إلى مَقْطع الوزارة للسلام ، فلما طال انتظاره استدعى زمام القصور واستفسر منه عن مكان الخليفة ، وعندما تأكَّد من مقتل الظّافر طلب عَبّاس من زمام القصور أن يأتيه بابن الإمام - وكان طفلًا - ليبايعه مكان أبيه ولَقَّبه بـ « الفائِز بنَصْر الله » وسلَّمه إلى زمام القصور [١]. وكان لزمام القصور أربعة نُوّاب ينوبون عنه [٢].

« شادُّ التّاج الشَّريف » . وهو الذى يتولّى شدّ تاج الخليفة الذى يلبسه فى المواكب العظام ، ولم يكن تاجًا بمعنى الكلمة ولكن عمامة كان يشدها شدَّة غريبة لا يعرفها سواه ، فيأتى بها على شكل مستطيل يشبه الإهْلِيلَج وهو ثمر معروف ، ثم يضع جوهرة عظيمة يقال لها « اليتيمة » فى الحافِر - وهو شكل الهلال من ياقوت أحمر - وينظمه على خرقة حرير ويخيطها بخياطة خفية بأعلا جبهة الخليفة . ويقال لهذه الشَّدَّة « شَدَّة الوَقار » . ولشادّ التاج ميزة بلمسه التاج الذى يعلو رأس الخليفة . وشَبَّه القلقشندى « شادّ التاج » بـ « اللَّفّاف » الذى يلف عمامة السلطان فى العصر المملوكى [٣].

« صاحِبُ الدَّفْتَر » : ويعرف هذا الدَّفْتَر بـ « دَفْتَر المجْلِس » . وهو المتحدث على الدواوين الجامعة لأمور الخلافة ، وله مكان ديوان بالقصر الباطن [٤]. والدَّفْتَر عبارة عن جرائد مسطوحات يُسَجَّل فيها البيانات المقررة فى وقت حدوثها ، مثل العطايا والرسوم [٥]. كما أن من مهامه عمل بطاقات الدَّعوة لحضور الأسْمِطَة أو المناسبات

---

[١] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ؛ ساويرس بن المقفع : تاريخ البطاركة ١/٣ : ٤٥- ٤٦؛ وانظر ابن المأمون: أخبار مصر ٢١ : ٣ ، ٤٤ : ١٦ .

[٢] ابن المأمون : أخبار مصر ٥١ : ١٦ .

[٣] ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٥٦ ؛ القلقشندى : صبح ٣ : ٤٨٠ ؛ المقريزى : مسودة المواعظ والاعتبار ١٩٧-١٩٨.

[٤] نفسه ٧٥ .

[٥] نفسه ٧٦ .

الأخرى التى يدعو إليها الخليفة [١]. وكان متولّى دَفْتَر المجْلِس فى سنة ٥١٥هـ/١١٢١م هو الشيخ أبا الفضائل بن أبى اللَّيْث [٢].

« **صاحِبُ الرّسالة** » ، هو الذى يخرج برسالة الخليفة لاستدعاء الوزير لحضور الاحتفالات المُوكبية ، وعادةً ما يكون من فصحاء الأستاذين وعقلائهم ومحصليهم وكان يمضى إلى استدعائه فى هيئة مسرعة على حصان دِهْراج - أى سريع السير - امتثالًا لأمر الخليفة بالإسراع على خلاف حركته المعتادة [٣].

« **صاحِبُ بيت المال** » وهو بمثابة الخازِنْدار فى العصر المملوكى [٤]. كان يقف مع زمام القصور على يسار ويمنة مجلس الخليفة ، وكان يتقدَّم موكب الخليفة يوم ركوب صلاة العيد لفَرْش المُصَلّى خارج باب النَّصر ، وهو الذى يُحْضِر إلى القاضى المدخنة الخَيْزُران التى يحملها فى يده عند صعوده المنبر فى أيام صلاة الجُمَع فى رمضان [٥].

« **زِمامُ الأشْراف الأقارب** » . كان يتولّى الحكم فى طائفة الأشْراف أقارب الخليفة ، وكلمته نافذة فيهم [٦].

« **صاحِبُ المجْلِس** » ، الذى يتولّى تنظيم المجلس الذى يجلس فيه الخليفة الجلوس العام فى المواكب . وكان يخرج إلى الوزير والأمراء بعد جلوس الخليفة على سرير المُلْك يُعْلمهم بذلك ، ثم يشير إلى الأستاذين فيرفع كل منهم جانب الستر . فيظهر الخليفة جالسًا ، ويُنْعَت بـ « أمين المُلْك » [٧].

---

[١] ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٤٥ .

[٢] ابن المأمون : أخبار ٢١ ؛ المقريزى : مسودة المواعظ والاعتبار ٢٦٢ .

[٣] ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٥٣ ، ٢٠٦ .

[٤] القلقشندى : صبح الأعشى ٣ : ٤٨١ .

[٥] ابن الطوير : نزهة ١٥٤ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٨ ، ١٩٣ ، ٢٠٩ .

[٦] نفسه ٨٤ ، ١٧٩ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ .

[٧] نفسه ٢٠٨ .

وشَبَّهَه القلقشندى بـ « أمير خازِنْدار » فى العصر المملوكى .

« حَامِلُ الدَّواة » الذى يحمل دواة الخليفة قُدّامه على السَّرْج ، بينه وبين قَرَبوس السَّرْج - أى الخشبة الصغيرة القائمة فى مُقَدَّم السَّرْج - وهذه الدَّواة ، كما يقول ابن الطُّوَيْر ، من أعاجيب الزمان كانت من الذَّهَب وحليتها مَرْجان وهى ملفوفة فى منديل شَرَب بياض مُذَهَّب [1] .

« زِمامُ الرجال » الذى يتولّى أمر طعام الخليفة مثل « أستادار الصُّحْبَة » فى العصر المملوكى [2] .

وكان العَرْض الثانى ضمن عروض « ديوان الرَّواتب » يشتمل على رواتب « حواشى الخليفة » الذين أشرت إليهم الآن ، فكان لكل واحد منهم مائة دينار فى كل شهر . أما من كان دونهم فكان ينقص عشرة دنانير حتى يكون آخرهم من له فى كل شهر عشرة دنانير [3] .

ومن بين حواشى الخليفة اثنان من الأطباء كان كلٌّ منهما يتقاضى خمسون دينارًا فى الشهر ، أما من دونهما من الأطباء المقيمين بالقصر فكان كل منهم يتقاضى عشرة دنانير [4] .

ومن وظائف البلاط الأخرى مجموعة وظائف كان يتولّاها أربابُ السُّيوف الذين يقال لهم « الأُمراء المُطَوَّقون » أو « أرباب الخِدَم الجليلة » [5] ، أهمهم :

« صَاحِبُ الباب » وهو أجَلُّ هؤلاء الأمراء ، ورُتْبته هى ثانى رُتْبَة الوزارة ويقال لها « الوزارة الصُّغْرى » ، وهو الذى ينظر فى المظالم إذا لم يكن فى الدولة وزيرٌ صاحبُ

---

[1] ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٦١ .
[2] القلقشندى : صبح الأعشى ٣ : ٤٨١ .
[3] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٨٤ .
[4] نفسه ٨٤ .
[5] نفسه ٢٠٨ : ٤ ؛ المقريزى : مسودة المواعظ والاعتبار ٧٢ .

سَيْف حيث يجلس فى باب القصر المعروف بباب الذَّهَب ويقف بين يديه الحُجّاب والنُّقَباء[١]؛ فإذا كان فى الدولة وزيرٌ صاحِبُ سَيْف تولّى هذه المهمة بنفسه ويكون صاحِبُ الباب من جملة من يقف فى خدمته[٢]. وكان صاحِبُ الباب يحضر حُزْن عاشوراء ويجلس فيه إلى جانب القاضى والداعى نيابة عن الوزير[٣]. وهو الذى يتولّى دعوة الأمراء لحضور الإفطار على مائدة الخليفة فى شهر رمضان بالتناوب[٤]؛ وهو الذى يقف مع الإسْفِهْسلار على يمين ويسار باب مجلس الخليفة فى أيام الجلوس العام، وله فى ذلك اليوم الدخول والخروج وهو الذى يُوَصِّل إلى الخليفة عن كل قائل ما يقول كما يتولّى السماح لمن له رَسْم الدخول إلى المجلس فى هذا اليوم[٥]، ويوم ركوب الخليفة لفتح الخليج يتولّى تقديم الشعراء فى حضرته[٦].

ويتقاضى صاحِبُ الباب راتبًا شهريًّا قدره مائة وعشرون دينارًا[٧].

وكان لصاحبِ الباب مجموعة من النُّوّاب أهمهم «النائب» الذى يتولّى وظيفة «النِّيابَة الشريفة»، وهو من أعيان العدول وأرباب العمائم، ويُلَقَّب دائمًا بـ«عَدىّ المُلْك»، ومهمته تَلَقِّى الرُّسل الواصلين إلى الدولة ويحفظهم ويُنْزِلهم فى الأماكن المعدة لهم وخاصة دار الضِّيافَة، ويُقَدِّمهم للسلام على الخليفة والوزير مع صاحِب الباب يمينًا ويسارًا، ويتولّى تَفَقُّدهم والعمل على راحتهم، ولا يُمَكِّن أحدًا من الناس من الاجتماع بهم أو معرفة ما جاءوا من أجله. ويتقاضى راتبًا شهريًّا قدره خمسون دينارًا، وله فى اليوم نصف قنطار خبز. وقد يهدى إليه المُتَرَسِّلون طُرَفًا فلا يتناولها إلّا بإذن. وكان

[١] ابن الطوير: نزهة المقلتين ١٢٠.
[٢] نفسه ١٢٢.
[٣] نفسه ٢٢٤: ١١.
[٤] نفسه ٢١٢.
[٥] نفسه ٢٠٨؛ المقريزى: مسودة المواعظ والاعتبار ٧٣.
[٦] نفسه ١٩٩.
[٧] نفسه ٨٤.

متولى دار الضِّيافة فى زمن وزارة المأمون البَطائِحى هو عَدِىّ الملك سعيد بن عماد الضَّيْف [١].

« حَامِلُ المِظَلّة » الذى يتولّى حَمْل المِظَلّة التى تعلو رأس الخليفة فى المواكب العظام مثل ركوب رأس العام ونحوه ، ويحرص على ألا يزول ظلها عن رأسه [٢]، وكان يعاونه أربعة من الصَّقَالِبَة برسم خدمتها [٣]. وكان حامِلُ المِظَلّة فى عهد الخليفة الظَّاهِر لإعزار دين الله سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م هو بهاءُ الدَّوْلَة مُظَفَّر الصَّقْلَبى الذى عُيِّنَ فى المحرم سنة ٣٩٤هـ/أكتوبر ١٠٠٧م [٤].

« حامِلُ سَيْف الخليفة » فى المواكب التى تُحْمَل فيها المِظَلّة [٥].

« حامِلُ رُمْح الخليفة » أيضًا فى المواكب التى تُحمَلُ فيها المِظَلّة [٦]، *وكان الذى يتولّى* ذلك فى عهد الخليفة الظَّاهِر لإعزاز دين الله سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م هو بلابان بن عَسّاس ابن فَتُّوح الكُتامى [٧].

« حامِلو السّلاح حول الخليفة فى المواكب » ويعرفون بسبب زِيِّهم بـ« الرِّكابية » وبـ« صِبْيان الرِّكاب الخاص » . كان عددهم يزيد على أَلْفى رجل ، ولهم اثنا عشر مُقَدَّمًا لكل منهم فى كل شهر خمسون دينارًا ، وهم حُجّاب ركاب الخليفة . ويعادلون السّلاح دارية والطَّبَرْدارية فى العصر المملوكى [٨].

---

١ ابن الطوير : نزهة المقلتين ١١٧-١١٨ ؛ المقريزى : المقفى ٦ : ٤٨١ وراجع Ayman F. Sayyid, *EI*^{2} art. ***Sâhib al-bâb*** VIII, 860 .

٢ نفسه ١٢٣ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى ٣: ٤٧٩ .

٣ نفسه ١٦١ .

٤ المسبحى : أخبار مصر ١٣١ .

٥ ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٢٣ .

٦ نفسه ١٢٣ .

٧ المسبحى : أخبار مصر ١٢٤ .

٨ ابن الطوير : نزهة المقلتين ٨٥ ، ١٢٤ ؛ القلقشندى : صبح ٣ : ٤٨٠ .

« حَرَسُ القصر » . فى أثناء زيارة ناصر خُسْرو للقاهرة سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٩م ذكر أن القصر الفاطمى كان يحرسه كل ليلة ألف رجل : خمسمائة فارس وخمسمائة راجل ، ينفخون البوق ويدقُّون الطَّبْل والكُوَس من وقت صلاة المغرب ويدورون حول القصر حتى الصباح [1]. أما ابن الطُّوَيْر فى أواسط القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى فيذكر أنه كان يبيت خارج القصر كل ليلة خمسون فارسًا ووَصَفَ نظامهم بأنه إذا أُذِّن لصلاة العشاء داخل القاعة وصَلّى الإمام الراتب بها بالمقيمين فيها من الأستاذين وغيرهم ، وَقَفَ على باب القصر أميرٌ يقال له « سِنانُ الدَّوْلَة ابن الكَرْكَنْدى » – يعادل وظيفة أمير جانْدار فى العصر المملوكى – فإذا علم بفراغ الصلاة أمر بضرب النوبات من الطبل والبوق وتوابعهما من عدد وفير وبطرائق مستحسنة مدة ساعة زمنية . ثم يخرج بعد ذلك أستاذٌ برَسْم هذه الخدمة فيقول : « أمير المؤمنين يردّ على سِنان الدَّوْلَة السلام » فيَصْقَع – أى يصيح – ويَغْرِس حربةً على الباب ثم يرفعها بيده ، فإذا رَفَعَها أغلق الباب وسار حول القصر سبع دورات . فإذا انتهى ذلك جعل على الباب البيَّاتين والفَرّاشين ، وتُرْمَى السّلْسِلَة عند المضيق آخر بين القصرين من جانب السيوفيين [يعادل الموضع الذى يحدده اليوم التقاء شارع المعز لدين الله مع شارع جَوْهَر القائد] ، فينقطع المار من ذلك المكان إلى أن تضرب البوقية قريب الفجر فينصرف الناس من هناك بارتفاع السّلْسِلَة [2].

وعندما بدأ الآمر بأحكام الله فى الاهتمام بسكن منظرة اللُّؤْلُؤة على الخليج مُدَّة وَفَاء النيل بالنظام الذى كان معمولًا به قبل الحرب الأهلية ووزارة بدر الجمالى وابنه الأَفْضَل ، أمر الوزير المأمون البَطائِحى مجموعة الفَرّاشين الموكلين بها بالمبيت بها على سبيل الحراسة . كما أمر متولّى زمامِ المماليك الخاص أن يكونوا بأجمعهم حيث يكون الخليفة ، ويبيت قسم منهم تحت المنظرة برَسْم الخدمة هناك ، كما أمر بأن تُقَسَّم الرَّهَجِيّة قسمين :

---

[1] ناصر خسرو : سفرنامة ٨٩ . وذكر المقريزى أن الحاكم بأمر الله فى سنة ٤٠٣ منع من ضرب الطبول والأبواق التى كانت تضرب حول القصر فى الليل ، فصار الحراس يطوفون بغير طبل ولابوق (اتعاظ الحنفا ٢ : ٩٦).

[2] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٢١٠-٢١٢ ؛ القلقشندى : صبح ٣: ٥١٨ .

قسمًا على أبواب القصور والآخر على أبواب اللُّؤلؤة . وكان متولِّى الباب يتولَّى عَرْضهم بنفسه كل ليلة عند رواحه وعوده [١].

وكانت هناك وظائف أخرى خاصة بالخدمة داخل القصر منها : « الفَرّاشون » الذين يتولَّون الخدمة داخل القصور فيقومون بتنظيفها خارجًا وداخلًا ونَصْب الستائر المحتاج إليها ، وكذلك خدمة المناظر الخارجة عن القصر . وبينهم من يختص بخدمة الخليفة شخصيًّا مثل « صاحِب (متولى) المائدة » و « حامى المطابخ » اللذين يَقْرُبون من الخليفة فى الأسْمِطَة [٢]. وكان الواحد منهم يتقاضى راتبًا شهريًّا قدره ثلاثون دينارًا [٣].

« الرَّشّاشُون » الذين يتولَّون رَشّ المياه فى أيام الصيف داخل القصر وخارجه وكان لهم عُرَفاءُ مسئولون منهم ، ويتولَّى أمرهم أستاذٌ من خواص الخليفة . وكان عددهم نحو ثلاثمائة رجل يتراوح راتبهم بين عشرة وخمسة دنانير شهريًّا [٤].

ومن أهم خواص الخليفة « قُرّاءُ الحَضْرَة » وهم مجموعة من قُرّاء القرآن كانوا يقرءون بحضرة الخليفة سواء فى مجالِسه فى القصر أو فى أيام ركوبه فى المواكب الاحتفالية ، يزيدون فى العدد عن عشرة قُرّاء كانت رواتبهم تتراوح بين عشرة دنانير وعشرين دينارًا [٥]. كانوا عادة ما يستفتحون مجالس الخليفة ، بعد استوائه على السرير ورَفْع السِّتْر الذى يحجبه عن الحضور ، بقراءة آيات لائقة بذلك المكان ، وعند انتهاء المجلس كانوا يقرءون آيات من القرآن لختم المجلس يتم بعدها إرْخاء السِّتْر على الخليفة مرة أخرى [٦]. وكانوا يأتون فى قراءتهم فى المجالس ومواكب الركوب بآيات مناسبة للحال ، ألفوا ذلك

---

[١] ابن المأمون : أخبار مصر ٩٨ ، ٩٩ .

[٢] نفسه ٥١ ، ٧٤ ، ٨١ ، ٨٨ ؛ ابن الطوير : نزهة ٨٥ .

[٣] ابن الطوير : نزهة ٨٥ .

[٤] نفسه ٨٥ .

[٥] نفسه ٨٤ .

[٦] نفسه ١٥٤-١٥٥ ؛ المقريزى : مسودة المواعظ والاعتبار ١٩٦ .

وصار سهل الاستحضار عليهم ، وكان ذلك يقع منهم موقع الاستحسان عند الخليفة والحاضرين . فعندما غضب أحد الخلفاء على أمير وأمر باعتقاله قرأ قارئ ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُر بالْعُرْفِ وأَعْرِضْ عن الجـٰهِلينَ ﴾ [الآية ١٩٩ سورة الأعراف] فاستحسن الخليفة ذلك وأطلقه . إلَّا أنهم كانوا ربما أتوا بآيات إذا روعى قَصْدُهم فيها أخرجت القرآن عن معناه ؛ فعندما استوزر المستنصر بالله بدرًا الجمالى قرأ أحدُ القُرّاء ﴿ ولقد نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ ﴾ [الآية ١٢٣ سورة آل عمران] فقال المستنصر : لو أتمَّها ضربت عنقه . ولما استوزر الحافِظ لدين الله رِضْوان بن وَلَخْشى قرأ أحدُ القُرّاء ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم برَحْمَةٍ مِنْه وَرِضْوَانٍ ﴾ [الآية ٢١ سورة التوبة] [١] .

٤- الجُلُوسُ العام بمَجلِس المُلْك

كان الجلوسُ العام للخلفاء الفاطميين بمَجْلِس المُلْك audience يتم فى بداية عصر الدولة سواء بـ « قَصْر الذَّهَب » أو بـ « بالإيوان الكبير » من القصر الفاطمى الكبير كيفما اتَّفَق . وابتداء من عصر الخليفة الآمر بأحكام الله فى فترة وزارة الوزير المأمون البطائحى (٥١٥-٥١٩هـ/ ١١٢٢- ١١٢٥م) تقرَّر جلوسُ الخلفاء بمَجْلس المُلْك فى « قاعة الذَّهَب » - التى كان يُطْلَق عليها فى العصر الأول « قَصْر الذَّهَب » - يومى الاثنين والخميس ليس على التوالى وإنما فى أحد هذين اليومين كل أسبوع . وكان سريرُ المُلْك يوجد بهذه القاعة ، كما كان يُعْمل بها سِماطُ رمضان للأمراء وسِماطُ الطعام فى العيدين .

كان عَقْدُ المجلس يتطَلَّب انتباهًا كبيرًا فى ترتيب جلوس الحاضرين تبعًا لدرجتهم ومرتبتهم وبالتالى قُرْب موقعهم أو بُعْده من الخليفة ، الأمر الذى يُقَدِّم لنا معلومات بالغة القيمة حول النظام الاجتماعى والسياسى . وكان « صاحبُ المجْلِس » - وهو أحد

---

[١] ابن الطوير : نزهة المقلتين ١١٩ ؛ النويرى : نهاية الأرب ٢٨ : ٢٣٥-٢٣٦ ؛ القلقشندى : صبح ٣ : ٤٨٤-٤٨٥ .

الأستاذين المحنَّكين - يتولَّى تنظيم المجلس وترتيب جلوس الحاضرين فيه ومراعاة نظام التشريفات (البروتوكول) فى العموم ، وهو الذى يُعْلِن عن استواء الخليفة على المرتبة إيذانًا ببدء المجْلس يعاونه فى ذلك مجموعة من الحُجّاب المساعدين . أما « صاحِبُ الباب » - وهو أحد الأمراء المُطَوَّقين - فكان يقف هو والإسْفِهْسَلار على يمين ويسار باب المجْلِس ويتولَّى السماح لمن له رَسْم الحضور بالدخول إلى المجْلِس ، وهو الذى يُوَصِّل إلى الخليفة عن كل قائل ما يقوله [1].

والوَصْفُ النموذجى الذى وَصَلَ إلينا عن « هيئة جلوس الخليفة بمجلس المُلْك بقاعة الذَّهَب » يُقَدِّمه لنا أيضًا ابن الطُّوَيْر ، ويرجع إلى فترة خلافة الحافِظ أو الظَّافِر . فكان إذا تَحَدَّد يوم الجلوس خَرَجَ صاحبُ الرِّسالَة مسرعًا إلى دار الوزير لاستدعائه ، وعند وصوله يترجَّل بدِهْليز العمود بالقصر حتى يصل إلى « مَقْطَع الوزارة » بقاعة الذَّهَب . ويكون المجْلِس مُعَلَّقًا بالستور الدِّيباج شتاءً وبالدَّبيقى صيفًا و « فَرْش الشتاء البُسُط الحرير ، عِوَضًا عن الصوف ، مطابقًا للستور الدِّيباج ، وفَرْش الصيف مطابق للستور الدَّبيقى ما بين طَبَرى وطَبَرستانى مذهب معدوم المثل » وفى صدر المجلس تكون المرتبة المُؤَهَّلَة لجلوس الخليفة فى هيئة جليلة على سرير المُلْك المُغَشَّى بالقُرْقُوبى ، ويكون وجه الخليفة عليه قُبالَة وجه الوقوف بين يديه [2].

يقول ابن الطوير : « إذا تهيَّأ الجلوس اسْتُدْعى الوزير من « مَقْطَع الوزارة » إلى باب المجْلِس وهو مغلق وعليه ستر ، فيقف عن يمينه زِمامُ القصر وعن يساره زِمامُ بَيْت المال . فإذا جلس الخليفة على المرتبة وضع صاحِبُ المجْلِس الدَّواة مكانها من المرتبة وخرج من « المَقْطَع » الذى يقال له « فَرْد الكم » ، وهو علامة استواء الخليفة على المرتبة . فيشير صاحب المجْلِس إلى الأستاذين فيرفع كل منهم جانب السِّتْر فيظهر الخليفة جالسًا على

---

[1] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٢٠٨ .
[2] نفسه ٢٠٦-٢٠٧ .

سرير المُلْك ، ثم يستفتح « قُرّاءُ الحَضْرَة » بقراءة القرآن ، ثم يكون أوّل المُسَلِّمين على الخليفة الوزير فيُقَبِّل يديه ورجليه ويتأخّر مقدار ثلاثة أذرع (حوالى متر ونصف) ثم يؤمر بالجلوس على يمين الخليفة على مخدة تُطْرَح تشريفًا له . أما سائر الحضور فيظلون واقفين على الترتيب التالى : صاحب الباب والإسْفِهسلار من جانبى باب المجْلِس يمينًا ويسارًا ، يليهم من خارجه لاصقًا بعتبته زِمامُ الآمرية والحافظية ، ثم أرباب القَصَب والعَمّاريات يمنة ويسرة كذلك ، ثم الأماثل والأعيان المترشحون للتقدمة وذلك إلى آخر الرِّواق وهو الإفريز العالى عن أرض القاعة . ويقف مستندًا للسور الذى بقابل باب المجْلِس نُوّابُ صاحِب الباب والحُجّاب [١] .

وكان أوّلُ من يُسَلِّم على الخليفة بعد ذلك قاضى القضاة ، حيث يَسْمَح له بالدخول ، دون من معه من الشهود ، صاحِبُ الباب ، فيوجِّه سلامه متأدِّبًا وذلك بأن يرفع يده اليمنى مشيرًا بالمسبحة قائلًا بصوت مسموع : « السلام على (عليك) أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » وهو الوحيد الذى يختص بهذا الكلام من أهل السلام ؛ أما بقية الحضور فيُشَرَّفون بتقبيل عَتَبة المجلس .

وإذا دَعَت حاجةُ الوزير إلى مخاطبة الخليفة فى أمر قام من مكانه وقرب من الخليفة منحنيًا على سيفه فيخاطبه مرة أو مرتين أوثلاثًا وبعد ذلك يؤمر الحاضرون بالخروج ويكون آخر الخارجين الوزير بعد تقبيل يد الخليفة ورجله ليركب على عادته إلى داره على الهيئة التى حضر بها ، ثم يُرْخى الستران ويُغْلَق باب المجلس [٢] .

وإلى جانب الجلوس الأسبوعى للخليفة الفاطمى بقاعة (قَصْر) الذَّهَب ، كان يتم بها استقبال السفراء والرُّسُل الأجانب ، ويصف لنا المُسَبِّحى كيفية استقبال الخليفة

---

[١] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٢٠٧-٢٠٨ ؛ وعن عادة تقبيل الأرض أمام الخليفة الفاطمى راجع ، ابن المأمون : أخبار ٧٥، ٨٦ ؛ ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٧٤ .

[٢] نفسه ٢٠٩ وقارن ابن ميسر : أخبار مصر ٨٨-٩١ حيث يصف مجلس حضرة الوزير المأمون البطائحى فى نهاية عام ٥١٥ هـ .

الظّاهِر لإعزاز دين الله الرسول القادم من خُراسان فى ٢٠ صفر سنة ٤١٥هـ/ ٤ مايو سنة ١٠٢٤م : يقول :

« وفى يوم السبت لعشر بقين منه [أى صفرسنة ٤١٥هـ] جَلَس أمير المؤمنين عليه السلام فى قصر الذّهب بعد أن زُيِّن وبُسِط وعُلِّقت فيه الستائر الديباج والستور المذهبة الحسان ، وعلق جميع السقائف كلها بالستور وفُرِشَت بالفروش ، واستحضر الأمراء الأتراك وأُمِرُوا أن يلبسوا أفخر ثيابهم ، فلبس جميعهم المُثَقَّل والطميم ، وأمر سائر الكُتاميين والجُنْد بأخذ الأهبة للحضور ، ودَخَل الناس أجمعون ووَقَفَ الأمير شمس الملك على يمين السرير وسائر الناس وكافة عبيد الدولة قيام والأشراف ، ولم يجلس أحدٌ بين يديه ، وعلى سائر الخَدَم المُصْطَنَعَة الثياب الطميم والعمائم المطايرة . وحضر الرسول الوارد من خُراسان ومعه ولدٌ له صغير فدَخَل وقبَّل التراب لأمير المؤمنين عليه السلام ثم أمر بأن يُطَوِّف به القصر كله ، فطيف به سائر القصور المعمورة . وقام أمير المؤمنين وانصرف الناس »[١].

كما يُقَدِّم لنا غُليوم أسْقُف صور Guillaume de Tyr وَصْفًا حيًّا لحفل استقبال الخليفة الفاطمى العاضِد – آخر الخلفاء الفاطميين – لرسولى الملك عمورى الأول Amaury Ier ملك بيت المقدس : Gaudfrey Fulcher و Hug de Césare وهو قريب الشبه بالجلوس العام فى مَجْلِس المُلْك . يقول : « ولما كان قصر هذا الحاكم – أعنى الخليفة الفاطمى – فريدًا فى نوعه ويسير على تقاليد لم نألفها فى الغالب فى عالمنا ، فقد رأيت من الأوفق أن أُدَوِّن بالتفصيل ما وَقَفْتُ عليه من الأخبار الموثوق بها والتى رواها من زاروا هذا الأمير العظيم »[٢].

وبعد أن يصف ما شاهده الرسولان فى طريقهما لمقابلة الخليفة بصحبة الوزير شاوَر السَّعْدى ، يقول :

« وانتهى المطاف بالسفيرين المَبْعوثَيْن إلى القصر بعد اجتيازهما الكثير من

---

[١] المسبحى : أخبار مصر ٢٨-٢٩ ؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا ٢ : ١٤٠ ، وانظر كذلك Fu'âd Sayyid, A. *op. cit.*, pp. 529-34 .

[٢] وليم الصورى : الحروب الصليبية ، ترجمة حسن حبشى ، ٤ : ٤٦-٤٧ .

المرات المتعرِّجة ، وسلوكهما طرقًا يضل فيها المرء وتستلفت عجائبها انتباه الجميع حتى أكثر الناس استغراقًا فى تأملاتهم . فلما بلغا القصر وجدا جماعات عديدة من حَمَلة السلاح وأرتالًا من الأتباع يَدُلُّ مظهرهم وكثرة عددهم على عظمة مولاهم التى لا تقاربها أية عظمة ، كما أن منظر المكان يَدُلُّ دلالةً صريحةً على ما عليه الحاكم من الثراء الفاحش الذى لا يماثله ثراء .

ثم دُخِلَ بالمبعوثَين إلى القسم الداخلى من القصر حيث أظهر الوزير [شاوَر] التوقير الذى اعتاد إظهاره لمولاه ، فقد انطرح على الأرض مرتين وقَدَّم فروض الطاعة المهينة كما لو كان يُقَدِّمها لإلهٍ معبود ، وذلك ترجمةً عن إجلاله الذليل له، ثم رَكَعَ على الأرض مرةً ثالثةً ثم أمسك بسيفه الذى يتقَلَّده والذى يتدلَّى من عنقه وألقاه على البساط ؛ وإذ ذاك انزاحت فى سرعة عجيبة الستائر المرصعة بالجواهر والذهب وظَهَر سريرُ المُلْك خلفها والخليفة سافرُ الوجه جالسٌ على تخته الذهبى وحوله طائفةٌ من حواشيه وعبيده وقد بدا منظره أكثر من منظر ملوكى ، فدنا الوزير [شَاوَر] منه بكل احترام وقَبَّل فى مَذَلَّة قدميه وهو على سرير المُلْك ذاكرًا له الغَرَض من زيارة الرسولين » [1].

ويستطرد غُلْيوم فى وصف تفاصيل الاتفاق ، كل ذلك « بناء على ما ذكره له أولئك الذين شاهدوا بأعينهم ما ذكروه » فلم يكن غُلْيوم مصاحبًا للمبعوثين اللذين جاءا إلى مصر . وقد ذكر له هيج القيصرى Hug de Césare أن الخليفة شابٌ على جانب كبير من الخلق الكريم لم تَنْبُت لحيته إلَّا منذ وقت قريب جدًّا ، وكان طويل القامة أسمر البشرة رائع البنية [2].

وإلى جانب الجلوس العام فى مجلس المُلْك واستقبال السُّفَراء كان للخلفاء الفاطميين أيامُ جلوس أخرى طوال العام على هيئة مختصرة عن هيئة الجلوس العام وذلك فى « الموالد الستة » وهى : « مَوْلِد النبى » ﷺ ، و « مؤلِد أمير المؤمنين علىّ بن أبى

---

[1] وليم الصورى : الحروب الصليبية ٤:٤٨-٤٩ .

[2] نفسه ٤:٥٠ ؛ وقارن Sanders, P., *op.cit.*, pp. 32-37.

طالب » و « مَوْلِد فاطمة » عليهما السلام ، و «مولد الحسن» و «مولد الحسين» عليهما السلام ، و « مَوْلِد الخليفة الحاضر » . ويكون هذا الجلوس فى المنظرة التى هى أنزل المناظر وأقربها إلى الأرض بباب الذَّهَب [1].

كذلك كان الخلفاءُ يجلسون جلوسًا عامًّا فى « ليالى الوقود الأَرْبَع » وهى : ليلة أوَّل رجب وليلة نصفه ، وليلة أوَّل شعبان وليلة نصفه . وكان أوَّلُ استعادة للاحتفال بهذه الليالى فى رجب سنة ٥١٦هـ/ أكتوبر ١٠٢٢م ؛ ففى ليلة مستهل رجب من هذه السنة جَلَسَ الخليفة الآمر ووزيره المأمون البَطائِحى ، وبالغ الخليفة فى شكر وزيره وإطرائه وقال له : « قد أعدت لدولتى بهجتَها وجَدَّدت فيها من المحاسن مالم يكن ، وقد أَخَذَت الأيامُ نصيبها من ذلك ، وبقيت الليالى وقد كان بها مواسم قد زال حكمها وكان فيها توسعة وبِرٌّ ونَفَقات وصَدَقات وهى : ليالى الوقود الأَرْبَع وقد آن وقْتُهُنَّ وأشتهى نظرهُنّ» . فامتثل الوزير الأمر وأمر بالتَّوْسِعَة للجوامع والمساجد فى الزيت برَسْم الوقود ، وطلب من متولّى بيت المال أن يهتم برَسْم هذه الليالى من أصناف الحلويات الخاصة بالقصور ودار الوزارة ، كما أمر للقاضى بخمسين دينارًا يصرفها فى ثمن الشَّمْع [2].

أما « حُزْنُ عاشوراء » (العاشر من المحرم) فكان الاحتفال الوحيد الذى يحتجب فيه الخليفة عن الناس؛ وكان يُعْمَل فى أوَّل الأمر بالجامع الأزهر ، وبعد تولّى المأمون البَطائِحى أصبح يُعْمَل فى القصر ، فيذكر ابن المأمون أن الخليفة الآمر بأحكام الله جَلَسَ يوم عاشوراء سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م على باب الباذْهَنْج من القصر على كرسى جريد مُتَلَثِّمًا هو وجميع حاشيته فسلَّم عليه الوزير المأمون وجميع الأمراء الكبار والصغار بالقراميز ، وأُذِن للقاضى والداعى والأشراف والأمراء بالسَّلام عليه وهم بغير مناديل مُلَثَّمين حُفاة ، وعُبِّىَ السِّماط فى غير موضعه المعتاد وجميع ما عليه خُبْزُ الشعير . وطلب

---

[1] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٢١٧ .

[2] ابن المأمون : أخبار مصر ٣٦ ؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا ٣ : ٨٢ والمقفى الكبير ٦ : ٤٩٤ .

إلى واليى مصر والقاهرة بأن لا يَمَكّنا أحدًا من جَمْع ولا قراءة « مَصْرَع الحسين » ، وخرج الرَّسْم المطلق للمتصدرين والقُرّاء والوُعّاظ والشُّعَراء وغيرهم على ما جرت به عادتهم[١٣٣]. ولكن اعتبارًا من عام ٥٤٩هـ/١١٥٤م – بعد نَقْل رأس الحسين إلى قُبَّة الدَّيْلَم بالقصر الفاطمى – صار حُزْنُ عاشوراء يُعْمَل بالمَشْهَد الحُسَيْنى ، وكان الشُّعَراء يُنْشدون شعرًا فى رثاء آل البيت . يقول ابن الطُّوَير « فإن كان الوزير رافضيًّا تغالوا وإن كان سُنّيًّا اقتصدوا » – وهو وَصف للفترة المتأخِّرة من حكم الدولة الفاطمية التى تناوب فيها كرسى الوزارة وزراء إماميون وسنيون – وبعد ذلك يتم استدعاء الوزير والقاضى والداعى إلى القصر بنقباء الرّسائل فيركب الوزير وهو بمنديل صغير إلى داره ويدخل القاضى والدّاعى ومن معهم من باب الذَّهَب حيث يجدون الدّهاليز الموجودة خلفه قد فُرِشَت مصاطبها بالحُصْر بَدل البُسُط ووضعت فى الأماكن الخالية من المصاطب دِكَك تُلحَق بها وتفرش مثلها . ويجد القاضى والداعى صاحبَ الباب جالسًا هناك نيابةً عن الوزير فيجلس القاضى والداعى إلى جانبه والناس على اختلاف طبقاتهم ، فيقرأ القُرّاء ويُنْشِد المُنْشِدون ثم يُفترش وَسَط القاعة بالحُصْر المقلوبة ويُمَدُّ عليها « سِماطُ الحُزْن » وهو عبارة عن ألف زبدية من العَدْس والملوحات والمخَلّلات والأجْبان والألْبان السّاذِجَة وعَسَل النَّحْل والفطير والخُبْز المُغَيَّر لونه بالقَصْد . وفى أعقاب انتهاء الجلوس يطوف النُّوّاح بالقاهرة بقية اليوم ويَغْلِق البيّاعون حوانيتهم إلى ما بعد العصر[٤].

---

[١] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٢٢٣ .
[٢] ابن المأمون : أخبار مصر ٣٥ ؛ المقريزى : الخطط ١: ٤٣١ ، المقفى الكبير ٦ : ٤٩٠ .
[٣] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٢٢٣ .
[٤] نفسه ٢٢٤ .

٥- مَصْرُوفات القصر الفاطمى

لا نملك أية تفصيلات عن ميزانية القصر الفاطمى ومصروفاته إلّا عن الفترة التى تولّى فيها الوزارة الوزير المأمون البَطائِحى (٥١٥-٥١٩هـ/ ١١٢١-١١٢٥م) وذلك بفضل المعلومات الغنية التى أمَدَّنا بها المؤرِّخ ابن المأمون والتى حَفِظَها لنا المقريزى فى كتابيه «الخِطَط» و«المُقَفّى الكبير» ، يقول :

«والذى استقرّ إطلاقُه على حكم الاستيمَار من الجرايات [المختصّة] بالقصور ، والرواتب المستجدّة ، والمطلق من الطيب ، وتذكرةالطِّراز ، وما يُبْتاع من الثغور ويستعمل بها وغير ذلك : فأوّلها جراية القصور ، والمُطْلَق لها من بيت المال إدرارًا لاستقبال النظر المأمونىّ ستة آلاف وثلاثمائة وثلاثة وأربعون دينارًا (٦,٣٤٣) ، وبرسم منديل الكمّ الخاصّ الآمرىّ فى الشهر ثلاثة آلاف دينار عن مائة دينار كل يوم ، ومقرّر الحمّام فى كلّ جمعة مائة دينارٍ ؛ أربعمائة دينار . وبرسم الإخوة والأخوات ، والسيّدة الملكة والسيدات ، والأمير أبى علىّ وإخوته ، والموالى ، والمستخدَمات ، ومن استجدّ من الأفضليات ألفان وأربعمائة وثلاثة وأربعون دينارًا (٢٤٤٣) . ولم يكن للقصور فى الأيّام الأفضليّة من الطيب راتب ، بل إذا وصلت الهديّةُ والنَّجاوى من بلاد اليمَن تُحْمَل كلّها إلى الإيوان ، فينفذ منها بعد ذلك للأفضل ، ويطلق للخليفة من جملتها . فصار فى الأيّام المأمونيّة الطيب مياومة ومشاهرة .

وما هو برسم الخاصّ الشريف فى الشهر : ندّ مثلّث : ثلاثون مثقالًا . عود صَيفىّ : مائة وخمسة دراهم . كافور قديم : خمسة عشر درهمًا . عنبر خام : عشرون مثقالًا . زعفران : عشرون درهمًا . ماء ورد : ثلاثون رطلًا .

وما هو برسم بَخور المجلس فى الشهر أيّامَ السلام : ندّ مثلّث : عشرة مثاقيل . عود : عشرون درهمًا . كافور : ثمانية دراهم . زعفران شعر : عشرة دراهم .

وما هو برسم بَخور الحمّام فى كلّ ليلة جمعة عن أربع جُمَع فى الشهر : ندّ

مثلّث : أربعة مثاقيل . عود صيفىّ : عشرة دراهم .

وما هو برسم الإخوة والجهات والسيّدات على ما يستقرّ بأسمائهم فى كلّ شهر : ندّ مثلّث : خمسة وثلاثون مثقالاً . عود صيفىّ : مائة وعشرون درهمًا . زعفران شعر : خمسون درهمًا . عنبر خام : عشرون مثقالاً . كافور قديم : عشرون درهمًا . مسك : خمسة عشر مثقالاً . ماء ورد : أربعون رطلًا .

وما هو برسم المائدة الشريفة ، ممّا تستلمه المعلّمة فى كلّ شهر : مسك : خمسة عشر مثقالاً . ماء ورد : خمسة عشر رطلًا .

وما هو برسم خزانة الشراب الخاصّ فى كلّ شهر لتطييبِ الماء : مسك : ثلاثة مثاقيل . ندّ مثلّث : سبعة مثاقيل . عود صيفىّ : خمسة وثلاثون درهمًا . ماء ورد : عشرون رطلًا .

وما هو برسم بخور المواكب الستّة ، وهى : الجمعتان الكائنتان فى شهر رمضان برسم الجامعَين بالقاهرة [الأزهر والحاكم] ، والعيدَان ، وعيد الغدير ، وأوّل السنة بالجوامع والمصلّى : ندّ خاصّ : جملة كثيرة لم تضبط . ولم يكن للغُرّتين : غُرّة السنة وغُرّة شهر رمضان ، وفتح الخليج بخور فيذكر .

وعدّة المبخّرين فى الموكب ستّة : ثلاثة عن اليمين وثلاثة عن الشمال ، وكلّ منهم مشدود الوسط [وفى كُمّه فَحمٌ برسم تعجيل المدخنة] ، والمداخن فضّة ، وحامل الدرج الفضّة الذى فيه البَخور أحدُ مقدّمى بيت المال ، وهو يبخّر طولَ الطريق . هذا سوى مداخنَ كبارٍ فى صوانىّ فضّة ، منها ثلاث صوانىّ ، فى المحراب إحداهنّ ، وفى جانبى المنبر اثنتان . وفى الموضع الذى يجلس فيه الخليفة إلى أن تقام الصلاة صينيّة رابعة .

وأما البَخور المطلق برسم المأمون فى كلّ شهر : ندّ مثلّث : خمسة عشر مثقالاً . عود صيفىّ : ستّون درهمًا . عنبر خام : ستّة مثاقيل . كافور قديم : ثمانية دراهم . زعفران شعر : عشرة دراهم . ماء ورد : خمسة عشر رطلًا .

وكان مبلغ الاستيمَار فى الأيّام الأفضليّة فى الشهر اثنى عشر ألفَ دينار (١٢,٠٠٠)، فبلغ فى الأيّام المأمونيّة إلى سنة ستّ عشرة وخمسمائة ستّة عشر ألفَ دينار (١٦,٠٠٠).

وكانت تذكرة الطِّراز فى أيّام الأفضل واحدًا وثلاثين ألفَ دينار (٣١,٠٠٠)، فبلغت فى أيّام المأمون ثلاثةً وأربعين ألفَ دينار (٤٣,٠٠٠).

وبلغت رواتب الخاصّ وما يختصّ بالقصور من السيّدات والجهات المستخدمات والحواشى والأصحاب والكُتّاب وصبيان الخاصّ، هو ما تشتمل عليه جريدة المطابخ بمَا فيه من المواسم والأعياد وشهر رمضان، والركوبات الدائمة فى يومى السبت والثلاثاء، سبعة وخمسين ألف دينار (٥٧,٠٠٠)، خارجًا عن البهائم المختصّة بالوزارة فإنّها تساق من المرَاحات السلطانيّة مع غيرها برسم البطائحىّ. ومقرّر الوزارة فى الشهر عينًا من بيت المال ثلاثة آلاف دينار (٣,٠٠٠)، منها ما هو عن النيابة فى العلامة عن الخليفة ألف دينار، وما هو عن الراتب: ألف وخمسمائة دينار، وما هو عن مائطة غلام برسم مجلسِه وخدمته: لكلّ غلام خمسة دنانير فى الشهر. وفى السنة عن الإقطاعات: خمسون ألفَ دينار، منها: دَهْشور، وجزيرة الذَّهَب، وعِدّة صفقات فى البلاد.

ومن البساتين ثلاثة: بُشتان الأمير تميم الذى عُرف بالمَشوق، وبستانان بكوم أشْنين.

ومن الشعير والقمح فى السنة: عشرون ألفَ إردبّ.

ومن الغنم برسم مطابخه سياقةً من المراحات: ثمانية آلاف رأس.

والأحطاب والتوابل، العال والدون، فتطلق لمتولّى مطابخه بحسب ما يستدعيه.

واستجدّ بعد الأَفْضَل فى الأيّام المأمونيّة من خزَائن التفرقةِ فى كلّ يوم: اثنا عشر مجمعًا، كلّ بيت منه عيادة رطل بالميزان، ولكلّ مجمع ثلاثة أرطال جبن تشوير وفاكهة: نصف درهم.

ومن اللبن الرائب بهذه المجامع فى كلّ يوم: خمسة وثمانون رطلًا.

واستجدّ أيضًا برسم الخاصّ فى كلّ يوم من الحلوى : اثنا عشر جامًا، رطبة ويابسة نصفَين ، وزنُ كلّ جام من الرطب عشرة أرطال ، ومن اليابس ثمانية أرطال .

وانتهى مرتّب دار التعبئة فى كلّ يوم إلى عشرة دنانير سوى ما هو مُوَظَّف على البساتين السلطانيّة ، وهو النرجس والنينوفران ، الأحمر والأصفر ، والنخل المُرْصَدُ برسم الخاصّ ، وما يصل من الفَيّوم وثغر الإسكندريّة ، ومن هذه الدار - يعنى للقصور - ولدار الوزارة ، وللمناظر فى أيّام الركوب والجُمَع ، بخلاف تعبئة الحمّامات ، وما يحمل كلّ يوم من الزَّهْر ، وما هو برَسْم خِزانَة الكُسْوَة الخاصّ ، وبرسم المائدة ، وتفرقة الثمرة الصيفيّة فى كلّ سنة على الجهات والسيّدات والحواشى والأصحاب ، وما يُحْمَل لدار الوزارة والضُيوف وحاشية دار الوزارة .

وبلغ ثمن التوابل ، العال منه والدون ، وهى المرصدة لخزانة التوابل ، إلى خمسين ألفَ دينار (٥٠,٠٠٠) فى السنة ، سوى ما يحمل من البقولات ، فإنّه باب مفرد مع المستخدم فى البستان الكافورىّ .

وأُطلق من استقبال النظر المأمونىّ برسم الشراب من السكر : مائة وخمسة عشر قنطارًا ، وبرسم الورد المربّى : خمسة عشر قنطارًا . وما يُطْلَق برسم استعمال الخَلّيْن ، الفاسد والحامض ، وقُفَف البقولات فى السنة : ستّة آلاف وخمسمائة دينار (٦,٥٠٠) . وراتب الأوطية / فى كلّ شهر : ثمانون زَوْجًا ، منها برسْم الخاصّ : ثلاثون زَوْجًا ، وبرسم الجهات : أربعون ، وبسم الوزارة : عشرة ، خارجًا عن السباعيّات ، فإنّها تستدعَى من متولّى خزائن الكُسْوَة ، وفى كلّ موسم تكون مذهبةً »[1] .

---

[1] ابن المأمون : أخبار مصر ٩٠-٩٤ ؛ المقريزى : المقفى الكبير ٦ : ٤٨٤-٤٨٥ والخطط ١ : ٤٢٠-٤٢٢ .

الفصل الثاني عشر

المواكب الاحتفالية

لا شك أن وصول الوزير المأمون البَطائِحى إلى الحكم فى نهاية عام ٥١٥هـ/١١٢١م يُمَثِّل منعطفًا هامًا فى تاريخ الدولة الفاطمية فى مصر . فطوال الثمانية والعشرين عامًا التى أعقبت وفاة الخليفة المستنصر بالله (٤٨٧-٥١٥هـ/١٠٩٤-١١٢١م) كان الوزير القوىّ الأَفْضَل شاهِنْشاه هو صاحب السُّلْطَة الفعلية فى البلاد ، فهو الذى أجلس المُسْتَعْلِىَ على كرسى الخلافة عِوَضًا عن أخيه نِزار صاحب الحق الشَّرْعى ، وبعد وفاته فى صفر سنة ٤٩٥هـ/ديسمبر سنة ١١٠١م أقام ابنه أبا على المنصور فى الخلافة ولَقَّبه بالآمر بأحكام الله ، وكان ما يزال طفلاً لم يتجاوز الخامسة من عمره . وهكذا ظَلَّ الأَفْضَلُ طوال العشرين عامًا التالية حتى وفاته مقتولاً فى سنة ٥١٥هـ/١١٢١م هو الحاكم الفِعْلى للبلاد ، فعَطَّل الكثير من رُسوم الدولة وحَجَر على الخليفة الطفل ونَقَلَ الدواوين وحمل الأسْمِطَة إلى دار المُلْك التى أنشأها سنة ٥٠١هـ/١١٠٦م على النيل جنوب فُسْطاط مصر ، وقَلَّص دور الخليفة فى الاحتفالات والأعياد .

وفى أعقاب مَقْتَل الوزير الأَفْضَل وتولِّى المأمون البَطائِحى الوزارة[1]، كان من بين الاشتراطات التى طَلَبَها الآمر من وزيره المأمون مقابل الأَيْمان التى أخذها على الخليفة، استعادة عَظَمَة الأعياد والاحتفالات الرسمية التى كان قد مَنَعَها الوزير الأَفْضَل وقَلَّصَ فيها دور الخليفة[2].

---

[1] انظر فيما سبق ص ٢٣٣-٢٣٥ .

[2] ابن المأمون : أخبار مصر ٢٢-٢٣ ؛ المقريزى : المقفى ٦ : ٤٨٢-٤٨٣ .

كان الآمرُ مفتونًا بعظمة الاحتفالات وفخامتها ويرجع إليه - كما يقول المقريزى - الفَضْلُ « فى تجديد رُسوم الدولة وإعادة بهجتها إليها »[١]. والواقع فإن كل ما نعرفه عن رُسُوم خلافة الفاطميين فى مصر وتفاصيل الاحتفالات الموكبية والأسْمِطَة وأنواع الخِلَع والكُسْوات التى كانت هذه الاحتفالات مناسبةً لتفريقها على رجال الدولة ندين به - فيما عدا نُتَفٍ ذكرها المُسَبِّحى فى أوَّل الدولة الفاطمية - إلى هذه الفترة (ابن المأمون وابن الطُّوَيْر) .

وإذا كان الفاطميون قد عرفوا هذه الرُّسُوم فى أوَّل دولتهم ، فقد شهدت فى زمن الآمر بأحكام الله تَطَوُّرًا كبيرًا وبَلَغَت من الفَخَامَة حَدًّا بعيدًا . فوُضِعَت قواعدُ صارمة للبروتوكول حيث تَقَرَّر أن يجلس الخليفة الجلوس العام فى قاعة الذَّهَب يومى الاثنين أو الخميس من كل أسبوع[٢]، بعد أن كان ذلك يتم فى أوَّل الدولة كيفما اتَّفَق[٣] . ورُتِّب لركوب الخليفة ثلاثةُ أيام من كل أسبوع هى يوم الجمعة ويوم السبت ويوم الثلاثاء ، فإذا لم يتهيّأ له الركوب فى أحد هذه الأيام ركب فى يوم غيره . وكان الوزير يركب فى يومى السبت والثلاثاء بالرَّهَجِيَّة إلى القصر ثم يمضى مع الخليفة إلى النزهة فى بُسْتان البَعْل والتاج والخمسة الوجوه وقُبَّة الهواء من ظاهر القاهرة ، أو إلى دار المُلْك بمصر ، أو إلى الهَوْدَج الذى أنشأه الخليفة الآمر بجزيرة الرَّوْضَة[٤] . أما يومى الأحد والأربعاء ، فقد كان يجلس فيهما الوزير المأمون فى داره على سبيل الرّاحَة[٥].

---

[١] المقريزى : الخطط ٢: ٢٩١ .

[٢] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٢٠٥ ؛ أبو صالح الأرمنى : أديرة وكنائس مصر ٢: ٤ ؛ ابن الفرات : تاريخ ٣: ٧٨ظ ؛ القلقشندى: صبح ٣ : ٤٩٤ ؛ المقريزى : الخطط ١: ٣٨٦ .

[٣] السبحى : أخبار مصر ٢٨ ، ٣٦ ، ٣٩ .

[٤] ابن المأمون : أخبار ٩٦-٩٨ ؛ ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٦٨ ؛ ابن ميسر : أخبار ١١١ ؛ ساويرس بن المقفع : تاريخ ٣/١: ٢٤ ؛ المقريزى : المقفى ٦ : ٤٩٠ ، اتعاظ الحنفا ٣ : ٧٨ ، ١٢٩ ، الخطط ١: ٤٨١ ، ٢ : ٢٩١ .

[٥] المقريزى : اتعاظ ٣ : ٧٨ .

كذلك كان الخليفةُ الآمر يَتَحَوَّل من قصره فى أيام النيل بحرمه ويسكن فى منظرة اللُّؤْلُؤَة على شاطئ الخليج[١]، كما كان وزيرُه يسكن بدار الذَّهَب المجاورة للُّؤْلُؤَة على شاطىء الخليج أيضًا[٢]؛ حتى « صار الناس فى مُدَّة أيامه التى استبدَّ فيها، فى لَهْوٍ وعَيْشٍ رَغْدٍ لكثرة عطائه وعطاء حواشيه وأستاذيه »[٣] .

وشهد عام ٥١٦هـ/١١٢٢م عودة الاحتفالات التى أُهْمِلَت منذ الحرب الأهلية وتَسَلُّط بدر الجمالى وابنه الأَفْضَل على الدولة . فمع بداية هذا العام أعيد الاحتفال بالموالد الأربعة : النبوى والعلوى والفاطمى والإمام الحاضر ، بعد أن كان الأَفْضَل قد أَبْطَلَ أمرها وقَدُمَ العهد بها حتى نُسى ذكرها . وأوّل ما أعيد منها المولد الآمرى (مولد الإمام الحاضر) وكان فى الثانى عشر من المحرم[٤] .

فبعد وَصْف الاحتفال برمضان والمواكب فى عام ٤١٥هـ/١٠٢٥م والتى أوردها لنا المُسَبِّحى ، يمضى قرنٌ بأكمله قبل أن تقابلنا مرة أخرى فى المصادر أَيَّةُ إشارة إلى المواكب الاحتفالية أو أسْمِطَة رمضان . ونظرًا لتفرُّق المعلومات وعموميتها فى هذه السنوات المائة ، فإنه من المخاطرة تقديم فكرة عامة عن تطَوُّر الرُّسوم الاحتفالية فى هذه الفترة[٥] ؛ خاصةً وأن النُّظُم والرُّسوم من أكثر الموضوعات تعرُّضًا للتبديل والتغيير فى الدَّوْلة الواحدة حتى تصل إلى مرحلة الثبات والاستقرار مع قمة ازدهار الدولة .

وقد أورد المؤرِّخُ أبو المحاسن بن تَغْرى بِرْدى - فى آخر ترجمة المُعِزّ لدين الله - وصفًا لركوب الخلفاء الفاطميين فى المواكب العظام ولأسْمِطَة الطعام التى كانت تُمَدُّ فى

---

[١] ابن المأمون : أخبار ٥٦ ، ٧١ ، ٩٨ ، ١٠٠ .

[٢] نفسه .

[٣] المقريزى : اتعاظ ٣: ١٢٩ ؛ وقارن ابن ميسر : أخبار ١١١ .

[٤] ابن المأمون : أخبار ٣٥ ، المقريزى : المقفى ٦: ٤٨٤ . لا نستطيع الجَزْم بأن جميع الاحتفالات الموكبية قد تَوَقَّفت ببساطة خلال الفترة التى كان فيها بدر الجمالى وابنه الأَفْضَل الحكام الحقيقيين للدولة الفاطمية ، ولكن ذلك يرجع إلى الغياب العام للمعلومات عن الاحتفالات خلال السنوات الأخيرة لخلافة المستنصر والفترة التالية حتى عام ٥١٥هـ/١١٢١م .

[٥] Sanders, P., *op.cit*, p.67 .

شهر رمضان والعيدين[١]، وبدأه بالعبارة التالية : «والمُعِزُّ هذا هو الذى اسْتَسَنَّ ذلك كله»[٢] . وبذلك أَوْقَعَ أبو المحاسن الباحثين الذين اعتمدوا عليه فى خطأ كبير حيث ظَنَّ هؤلاء الباحثون أن ترتيب هذه الاحتفالات الموكبية استقرَّ على هذه الهيئة منذ زمن المُعِزّ أوّل خلفائهم فى مصر . وهو خطأ فادح ؛ لأن هذه الرُّسوم مَرَّت بسلسلة طويلة من التبديل والتغيير ، بل تَوَقَّفت لعدة عقود قبل أن تستقر على الشكل الذى يقدمه لنا ابن الطُّوَيْر – مصدرنا الوحيد فى وصفها – فى أواسط القرن السادس الهجرى .

كان الفاطميون يُنَظِّمون المواكب الاحتفالية الأكثر تعقيدًا بين كل معاصريهم ، وأرجع ماريوس كانار Marius Canard ذلك إلى تأثير بيزنطى[٣] . ويرجع السبب فى وَفْرَة المعلومات التى وَصَلَت إلينا عن هذه الاحتفالات إلى حِفْظ المؤرِّخين المتأخِّرين فى العصر المملوكى لروايات المصادر الفاطمية التى فُقِدَت اليوم . والمؤلِّف الوحيد الذى حَفِظَ لنا الأوصاف الكاملة لهذه الاحتفالات هو ابن الطُّوَيْر القَيْسرانى الذى عاش فى نهاية العصر الفاطمى وبداية العصر الأيوبى . واعتمد كل من القَلْقَشَنْدى وأبو المحاسن ابن تغرى بِرْدى ، تقريبًا على أوصافه غير المؤرخة ، أما معاصرهما المقريزى فهو الوحيد الذى اعتمد فى « الخِطَط » و « اتعاظ الحنفا » – بالإضافة إلى وَصْف ابن الطُّوَيْر – على روايات مُؤَرَّخَة أوردها كلٌّ من ابن زولاق والمُسَبِّحى وابن المأمون.

وتكشف لنا هذه الروايات الأخيرة عن اختلافات هامة فى الرُّسُوم الاحتفالية لهذه المواكب على امتداد العصر الفاطمى ، بالرغم من أن العديد من خطوطها العامة ظَلَّت ثابتةً دون تغيير .

---

[١] أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٤: ٧٩-١٠٢ .

[٢] نفسه ٤: ٧٩ .

[٣] Canard, M., *Le cérémonial fatimite*, p 408; Sanders, P., *EI*[2] art. *Mawâkib* VI, pp. 841-42 .

وقَسَّمَ ابن الطُّوَيْر ركوب الخلفاء الفاطميين فى المواكب الاحتفالية فى الفترة الفاطمية المتأخِّرة إلى نوعين من المواكب : « المَوَاكِب العِظام » و « المَوَاكِب المختصرة » . وجَعَلَ موضوع الفصل الخامس من كتابه « نُزْهَة المُقْلَتَيْن فى أخبار الدولتين » هو «الركوب فى المواكب العظام»[1] . وحَدَّدَها القلقشندى بستة مواكب احتفالية يركب فيها الخليفة فى احتفال فَخْم وحوله الوزير وكبار رجال الدولة بالملابس الفاخرة ويطوف فيها البلدين مصر والقاهرة بترتيب معروف . أما « المَوَاكِب المختصرة » فكانت أربعة أيام أو خمسة فيما بين أوَّل العام ورمضان وتتم فى أحد يومَى السبت والثلاثاء .

الرُّكُوب فى المَوَاكِب العِظام

وهى ستة ركوبات يتم كل منها برُسُوم مُحَدَّدَة ، منها أربعة خاصة بمناسبات دينية هى على ترتيبها (رُكُوبُ أوَّل العام - رُكُوبُ أوَّل شهر رمضان - رُكُوبُ أيَّام الجُمَع الثلاث من شهر رمضان - رُكُوبُ صلاة عيدى الفِطْر والأَضْحَى) ، واثنان خاصان بأعياد مصرية قومية هى : رُكُوبُ تَخْلِيق المِقْياس ورُكُوب فَتْح الخليج[2]. أما الاحتفال الشيعى الوحيد الذى يصحبه رُكُوبٌ للخليفة فهو الاحتفال برُكُوب عيد الغَدير[3] ولم يعتبره القلقشندى بين المواكب العظام .

رُكُوبُ أوَّلِ العام

أهم هذه الاحتفالات الموكبية دون شك هو الاحتفال برُكُوب أوَّل العام (رأس السنة الهجرية) . وواضح من المصادر الفاطمية وكتب الحَوْلِيّات أنه لم يكن يُحْتَفَل فى بداية الدولة الفاطمية بأوَّل العام على الطريقة التى يُقَدِّمها لنا ابن الطُّوَيْر فى نهاية الدولة

---

[1] ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٤٧ ؛ المقريزى : مسودة المواعظ والاعتبار ٢٧٢ .
[2] القلقشندى : صبح الأعشى ٣: ٤٩٩-٥١٧ ؛ ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم ٢: ٩٣ .
[3] ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٨٦-١٨٩ ؛ المقريزى : مسودة المواعظ والاعتبار ٨٤-٨٧ .

الفاطمية ، كما أن هذا الاحتفال لم يكن يشمل احتفالاً موكبيًا يركب فيه الخليفة ، وإنما كان احتفالاً بسيطًا يتقَبّل فيه الخليفة فى مجلسه التهانى بهذه المناسبة .

ويرجع أوّل خبر يقابلنا فى المصادر عن التهنئة بحلول أوّل العام فى الفترة الفاطمية المُبَكِّرَة إلى زمن الحاكم بأمر الله ، حيث يقول المقريزى فى حوادث سنة ٣٩٠هـ/٩٩٩م- دون شك نقلاً عن المؤرّخ المُسَبّحى - « فى أوّل يوم من المحرم ظهر الحاكم ودَخَلَ الناسُ فهنئوه بالعام »[١] ، ولا تشير المصادر بعد ذلك إلى الاحتفال بهذه المناسبة الذى ربما كان يتم بنفس الطريقة ، إلى أن قُطع فى فترة الحرب الأهلية وتَسَلُّط بدر الجمالى وابنه الأَفْضَل . وأوّل إشارة تفصيلية إلى هذا الاحتفال بعد ذلك نجدها فى سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م عندما أصبح المأمون البَطائِحى وزيرًا للآمر بأحكام الله [٢]، فكان الخليفة والوزير يجلِسان فى صبيحة هذا اليوم ويحضر « مَنْ جَرَت العادة بحضوره للتهنئة»[٣] حيث كانت تُفَرّق عليهم دنانير الغُرّة التى كانت تُضْرَب بدار الضَّرْب فى العشر الأواخر من ذى الحجة بتاريخ السنة التى ركب أولها فى هذا اليوم خصيصًا لهذه المناسبة ، فكان الإمام يُوَزِّع ذلك على « إخوته وجهاته وقرابته وأرباب الصَّنائِع والمستخدمات وجميع الأستاذين العوالى والأدوان »[٤] ؛ أما ما يختص بالوزير المأمون فكان يُوَزِّعه على « أولاده وإخوته والأصحاب والحواشى والأمراء والضيوف والأجناد » . ويضيف ابن المأمون - مصدر هذه المعلومات - « والذى اشتمل عليه المبلغ فى هذه السنة نظير ماكان قبلها » ولم يحدّده . أما ابن الطُّوَيْر فذكر أنها كانت تقرب من ثلاثة آلاف دينار[٥].

ويصف لنا ابن المأمون كذلك الموكب الذى تَمّ فى سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م يقول : « ثم ركب الخليفة واستدعى الوزير المأمون ، ثم خرج من باب الذَّهَب وقد نشرت مظلته

---

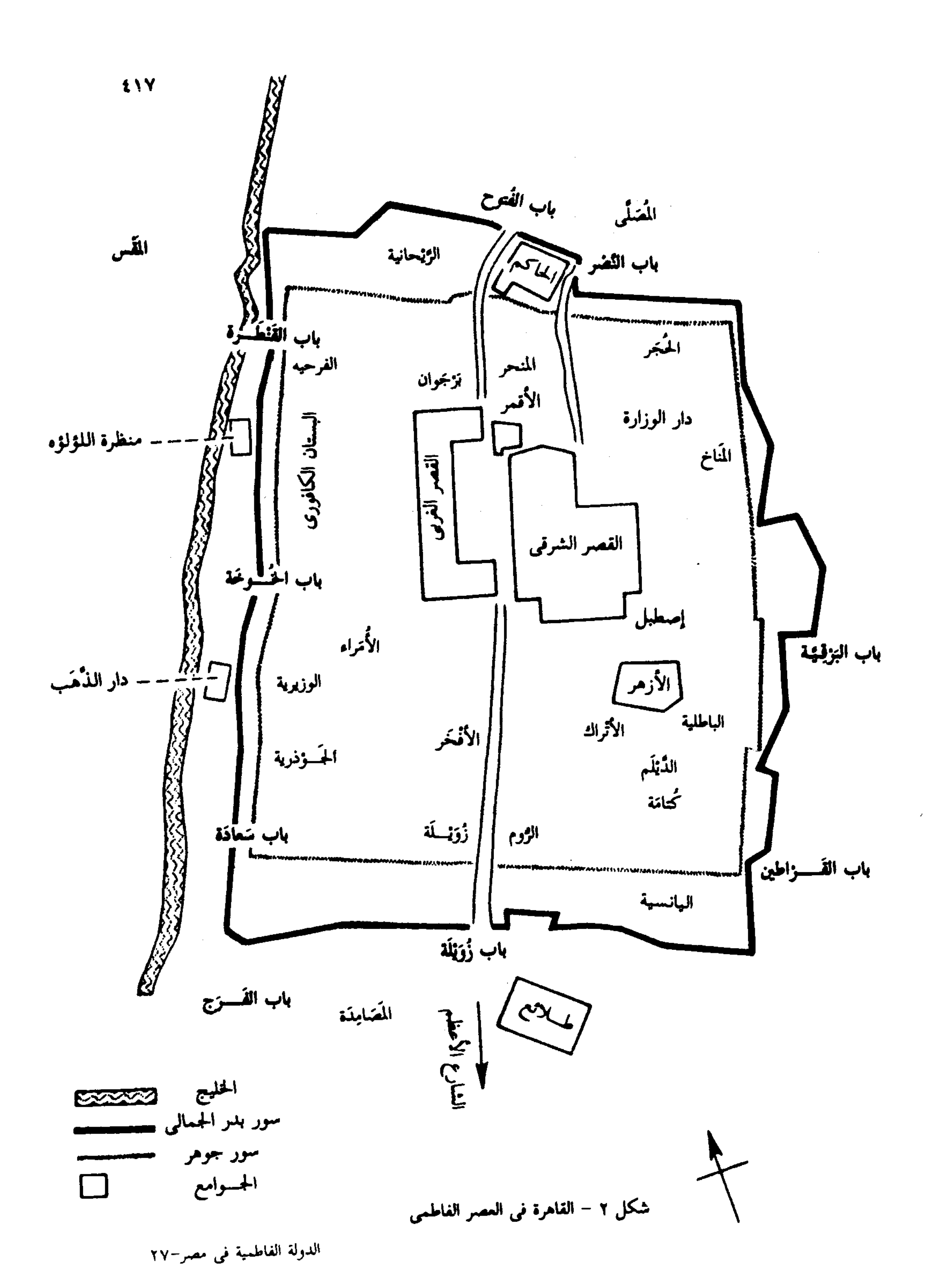
[١] المقريزى : اتعاظ الحنفا ٢: ٢٥ .

[٢] ابن المأمون : أخبار مصر ٥٨-٥٩ .

[٣] نفسه ٥٩ .

[٤] نفسه ٥٨ ؛ ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٦٧ .

[٥] نفسه ٥٨ ؛ نفسه ١٦٧ .



شكل ٢ - القاهرة فى العصر الفاطمى

وخدمت الرَّهَجيّة ، ورُتِّب الموكب والجنائب ، ومَصَفّات العساكر عن يمينه وشماله ، وجميع تُجّار البلدين (القاهرة والفُسطاط) من الجوهريين والصَّيارِف والصّاغة والبَزّازين وغيرهم قد زَيَّنوا الطريق بما تقتضيه تجارة كل منهم ومعاشه لطلب البركة بنظر الخليفة »[1].

وكان الخليفة يخرج بموكبه من باب الفُتوح وحوله العساكر من الفرسان والرَّجّالَة مرتدين أزهى ملابسهم ، كما كانت أبواب الحارات التى يقابلها فى طريقه مُعَلَّقة بالستور ، ثم يدخل الخليفة إلى القاهرة مرة أخرى من باب النَّصْر « والصَّدقات تعُمّ المساكين والرسوم تُفَرَّق على المستقرين » إلى أن يعود مرة أخرى إلى القصر ويدخل من باب الذَّهَب فيتلقّاه المقرئون بتلاوة القرآن الكريم فى طول دهاليز القصر . وبعد ذلك يدخل إلى « خِزانَة الكُسْوَة الخاصة » حيث يُغَيِّر ثياب الموكب بغيرها ويتوجَّه إلى تُرْبَة آبائه المعروفة بتُرْبَة الزَّعْفَران فى الجنوب الغربى للقصر للترحيم على عادته . وبعد ذلك يتوجَّه إلى ما يختاره من قصوره على سبيل الراحة[2] [شكل٢] .

وكان كل من الخليفة والوزير يعقد مجلسًا ويَمُدّ سِماطًا بهذه المناسبة فى القصر ودار الوزارة بعد انقضاء الاحتفال[3] .

أما الوَصْف النموذجى prototype لركوب الخليفة فى أوَّل العام فقد أورده ابن الطُّوَيْر (٥٢٤-٦١٧هـ/١١٣٠-١٢٢٠م) ، وهو يعود إلى العقود الثلاثة الأخيرة من عمر الدولة الفاطمية . ونظرًا لأهمية هذا الوصف بما يشتمل عليه من تفصيلات دقيقة تتناول الاستعداد للموكب والآلات الموكبية المصاحبة له ، وكيفية ركوب الخليفة ومن يكون فى صحبته وكيفية استقدامهم ، والطريق الذى يسلكه الموكب فى الذَّهاب والعَوْد

---

[1] ابن المأمون : أخبار ٥٨ .

[2] نفسه ٥٨ ؛ المقريزى : مسودة المواعظ والاعتبار ٢٧٣-٢٧٥ .

[3] نفسه ٥٩ .

إلى غير ذلك من تفصيلات ، نظرًا لكل ذلك سأورد فيما يلى هذا الوَصْف الذى ذكره ابن الطُّوَيْر ، يقول:

التحضير للموكب

« فإذا كان العشر الأواخر من ذى الحجة من كل سنة انتصب كلٌّ من المستخدَمين بالأماكن التى يأتى ذكرها لإخراج آلات الموكب من الأسلحة وغيرها . فيخرج من خَزَائِن الأسْلِحَة ما يحمله صِبْيَان الرِّكاب[1] حول الخليفة من السِّلاَح وهو : الصَّماصِم المَصْقُولة المُذَهَّبة مكان السُّيوف المحدَّبة لغيرهم ، والدبابيس المُلَبَّسة بالكِيمُخْت[2] الأحمر والأسود ورؤوسها مدوَّرة مضرَّسة أيضًا ، واللُّتوت[3] كذلك ، ورؤوسها مستطيلة مضرَّسة أيضًا ، وآلات يقال لها المُسْتَوْفِيات وهى عُمُد حديد من طول ذراعين مربعة الأشكال بمقابض مدوَّرة فى أيديهم بعدَّة معلومة من كل صنف فيتسلَّمها نقباؤهم فى ضَمَانهم وعليهم إعادتها إلى الخَزَائن بعد تَقَضِّى الخدمة بها .

ويخرج لطائفة من العبيد الأقوياء السودان الشباب ويقال لهم : « أرْبابُ السِّلاح الصَّغير » ، وهم ثلاثمائة عبد ، لكل واحد حربتان بأسِنَّة مصقولة تحتها جُلَبُ فِضَّة كل اثنتين فى شَرَّابة ، وثلاثمائة دَرَقَة بكَوَابِج[4] فِضَّة يتسلَّم ذلك عرفاؤهم على ما تقدَّم ، فيسلمونه للعبيد لكل واحد حربتان ودَرَقَة .

ثم يخرج من خزانة التَّجمُّل ، وهى من حقوق خَزَائن السِّلاح ، القَصَب الفضة برسم تشريف الوزير والأمراء أرباب الرُّتَب وأزِمَّة العساكر والطوائف من الفارس

---

[1] صِبْيَان الرِّكاب . كان عددهم فى الدولة الفاطمية يزيد على ألفى رجل ولهم اثنا عشر مقدم هم أصحاب ركاب الخليفة منهم مقدّم المقدّمين وهو صاحب الرِّكاب اليمين ولكل من هؤلاء المقدمين فى كل شهر خمسون دينارًا . ابن الطوير : نزهة المقلتين ٨٥ ، ١٢٤) .

[2] الكمُخْت . ضَربٌ من الجلود المدبوغة كان يستخدم فى عمل الدروع والجَوَاشِن (Dozy, *op.cit.*, II, 515; Cahen, Cl., *Un traité d'armurerie* pp. 114, 116, 117) .

[3] اللُّتوت جمع لُتّ . فارسى معرب وهو القدوم والفأس العظيمة . (Cahen, Cl., *op.cit*, p. 117) .

[4] الكَوَابِج . عن الكلمة التركية göbek بمعنى سُرَّة أى أن فى وسطها حِلْيَة أو زخرفة محدَّبة أو مقعَّرة (Canard, M., *op.cit.*, p. 370 n. 18) .

والراجل، وهى رِمَاح مُلَبسة بأنابيب الفِضّة المنقوشة بالذهب إلاّ ذراعين منها فيشد فى ذلك الخالى من الأنابيب عِدّة من المَعَاجِر الشُرُب[١] الملوّنة وتترك أطرافها المرقومة مُسْبَلة كالسَّنَاجِق[٢] وبرؤوسها رَمَامين[٣] منفوخة فضة مذهبة وأَهِلّة مجوّفة كذلك ، وفيها جلاجل لها حِسٌّ إذا تحرّكت ، وتكون عدّتها ما يقرب من مائة .

ومن العَمّاريات[٤] ، وهى شبه الكجاوات[٥] من الدّيباج الأحمر ، وهو أجلّها ، والأصفر والقُرقُوبى والسّقْلاطون[٦] مبطّنة مضبوطة بزنانير[٧] حرير ، وعلى دائر التربيع منها مناطق بكَوَابج فضة مسمورة فى جلد نظير عدد القصب فيسير من القصب عشرة ومن العَمّاريات مثلها من الحمر خاصة للوزير .

ويخرج للوزير خاصة لواءان على رمحين طويلين مُلَبَّسين بمثل تلك الأنابيب ونفس اللواء ملفوف غير منشوز ، وهذا التشريف يسير أمام الوزير وهو للأمراء من ورائهم ، ثم يسير للأمراء أرباب الرُتَب فى الخِدَم وأولهم صاحب الباب ، وهو أجَلُّهم، خمس قصبات وخمس عَمّاريات ، ويرسل لإسْفِهْسَلار العساكر أربع قصبات وأربع عَمّاريات من عِدَّة ألوان، ومَنْ سواهما من الأمراء على قدر طبقاتهم ثلاث قصبات وثلاث عَمّاريات ، واثنتان واثنتان ، وواحدة وواحدة .

---

[١] المِعجَر كمِنبر جـ . مَعَاجِر . ثوب يلف به (القاموس ٥٦٠) وفى اللسان ٦: ٢١٨ أنه ثوب تعتجر به المرأة أصغر من الرداء وأكبر من المقْنَعَة . وقد استخدمه ابن المأمون (أخبار ٥٠) بهذا المعنى عند حديثه على ملابس إحدى نساء الخليفة . والمعجر كذلك ضرب من ثياب اليمن (اللسان والقاموس) . والشَرْب جـ . شروب : مارَقّ من الكتان .

[٢] سَنْجَق جـ . سناجق : والسنجق باللغة التركية معناه الطعن، سميت الراية بذلك لأنها تكون فى أعلى الرمح . (القلقشندى: صبح ٢: ١٣٤ ؛ Deny, J., *EI*^{2} art. *Sanjaq* IV, 154) .

[٣] رُمّان جـ . رمامين . الفاكهة المعروفة .

[٤] عَمّارية جـ . عمّاريات . الهودج يجلس فيه (ناصر خسرو : سفرنامة ٩٤ ، ٩٦ ؛ Dozy, *op.cit.*, II, 171-172).

[٥] الكجاوات لفظ فارسى بمعنى المحمل أو المحَفّة .

[٦] القُرْقُوبى . نسيج ينسب إلى مدينة قُرْقُوب بالقرب من تُستَر فى خوزستان كانت من أكبر مراكز النسيج فى العصر الإسلامى (Serjeant, R.B., *op.cit* p. 45) والسقلاطون نوع من قماش الحرير المغشى بخيوط الذهب (*Ibid.*, p 259؛ مرزوق : الزخرفة المنسوجة ٥٤) .

[٧] زنار جـ . زنانير . يرى إنستروتزف أنها تعنى أربطة جانبية فى مقابل المناطق التى تمسك الهودج دائر ما يدور .

ثم يخرج من البُنُود الخاص الدَّبيقى المرقوم الملوّن عشرة برماح ملبّسة بالأنابيب وعلى رؤوسها الرُّمَامينُ والأهلَّة للوزير خاصّة ، ودون هذه البنود مما هو من الحرير على رماح غير ملبّسة ورؤوسها ورمامينها من نحاس مجوّف مطلي بالذهب فتكون هذه أمام الأمراء المذكورين من تسعة إلى سبعة إلى خمسة .

ثم يخرج لقوم يقال لهم السَّبَرْبَرِيَّة[1] سلاحٌ كل قطعة طول سبعة أذرع ، برأسها طلعة مصقولة وهي من خشب القُنْطاريات[2] داخلة فى الطلعة وعقبها حديد مدوّر السّفْل ، وهى فى كف حاملها الأيمن وهو يفتلها فيه فَتْلاً متدارك الدوران ، وفى يده اليسرى نُشّابة كبيرة يخطر بها وعدّتها ستون مع ستين رجلاً يسيرون رجّالة في الموكب يَمْنة ويَسْرة .

ثم يخرج من النَّقّارات حمل عشرين بغلاً على كل بغل ثلاث ، مثل نقّارات الكوسات بغير كوسات ، يقال لها طُبُول حَلَب يتسلَّمها صُنَّاعها ويسيرون فى الموكب اثنين اثنين ولها حِسّ مستحسن ، وكان لها ميزة عندهم فى التشريف .

ثم يخرج لقوم متطوّعين بغير جار ولا جراية ، تقرب عدَّتهم من مائة رجل لكل واحد دَرَقَة من دَرَق اللَّمْط[3] ، وهى واسعة ، وسَيْف ، ويسيرون أيضًا رجّالة فى الموكب، وهذه وظيفة خَزَائِن السِّلاح .

ثم يحضر حامى خَزَائِن السُّروج ، وهو من الأستاذين المحَنَّكين ، إليها مع مُشَارِفها، وهو من الشُّهود المعدَّلين ، فيُخرج منها برسم خاص الخليفة من المركبات الحلى ما هو برسم ركوبه وما يجنب فى موكبه مائة سرج ، منها سبعون على سبعين حصانًا ومنها

---

[1] السَّبَرْبَرِيَّة نسبة إلى السَّبَرْبَرات وهى جنس من الرِّماح . جاء فى كتاب « تبصرة أرباب الألباب » أن طولها خمسة أذرع وأسنتها عراض طوال يكون عرضها سعة الفتر وطولها دراع وأكثر (Cahen, Cl. *Un traité d'armurerie* p. 11).

[2] القُنْطاريات من اليونانية Kontarion، جنس من الرماح يصنع من الخشب الزان والشوح ليست بالطويلة ، اشتهر بصنعها بنو الأصفر ومن جانسهم من الروم وأسنتها قصار عراض كهيئة البلطة وما يجرى مجراها (Dozy, *op.cit.*, II, 421) .

[3] اللَّمْط . أرض لقبيلة من البربر بأقصى المغرب ، ينسب إليها الدرق لأنهم ينقعون الجلود فى الحليب سنة ، فيعملونها فينبو عنها السيف القاطع (القاموس ٨٨٦) .

ثلاثون على بغال وبغلات ، كل مركب مصوغ من ذهب أو من ذهب وفِضّة أو من ذهب مُنَزَّل فيه المينا ، أو من فِضّة مُنَزَّلَة بالمينا ، وروادفها وقَرَابيسها[١] من نسبتها . ومنها ما هو مرصّع بالجواهر الفائقة وفى أعناقها الأطواق الذهب وقلائد العنبر ، وربما يكون فى أيدى وأرجل أكثرها خلاخل مسطوحة دائرة عليها ، ومكان الجلد من السروج الديباج الأحمر والأصفر وغيرهما من الألوان والسّقْلاطون المنقوش بألوان الحرير ، قيمة كل دابة وما عليها من العدّة ألف دينار ، فيُشرّف الوزير من هذه بعشرة خُصِصْن لركوبه وأولاده وإخوته ومن يعزّ عليه من أقاربه ، ويسلم ذلك لعُرَفاء الاصطبلات بالعرض عليهم من الجرائد التى هى ثابتة فيها بعلاماتها فى أماكنها وأعدادها ، وعدد كل مرَكَّب منقوش عليه مثل أول وثان وثالث إلى آخرها كما هو مسطور فى الجرائد فيُعَرّف بذلك قطعة قطعة ويسلمها العُرَفاء للشدّادين لضمانهم بضمان عرفائهم إلى أن تعود وعليهم غرامة ما نقص منها وإعادتها برُمّتها.

ثم يُخرج من الخزانة المذكورة لأرباب الدّواوين المرتبين فى الخِدَم على مقاديرهم مركّبات أيضًا من الحلى دون ما تقدّم ذكره ما يقرب عدّته من ثلاثمائة مركب على خيل وبغلات وبغال يتسلمها العُرَفاء المقدّم ذكرهم على الوجه المذكور ، ويُنْتَدب حاجب يحضر على التفرقة لفلان وفلان من أرباب الخِدَم سيفًا وقلمًا فيُعَرّف كل شدّاد صاحبه فيحضر إليه بالقاهرة ومصر سَحَر يوم الركوب ولهم من الركاب رسوم من دينار إلى نصف دينار إلى ثُلُث دينار .

يَوْمُ عَرْض الخَيْل

فإذا تكامل هذا الأمر وتسَلّم أيضًا الجمّالون بالمُنَاخات أغْشِية العَمّاريات ، وتكون إزاحة العِلّة فى ذلك كله إلى آخر الثامن والعشرين من ذى الحجة ، وأصْبَح اليوم التاسع

---

[١] القَرَبوس . الخشبة الصغيرة القائمة فى مقدم السرج (Dozy, *op.cit.*, II, 324) .

والعشرون ، وهو سلخه على رأى القوم ، عَزَم الخليفة على الجلوس فى الشُّبَّاك[١] لعَرْض دوابه الخاص المقدّم ذكرها ويقال له « يوم عرض الخيل » ؛ فيُسْتَدْعَى الوزير بصاحب الرِّسَالة ، وهو من كبار الأستاذين المحَنَّكين وفصحائهم وعقلائهم ومحصليهم، فيمضى إلى استدعائه فى هيئة المسرعين على حصان دِهْرَاج[٢] امتثالاً لأمر الخليفة بالإسراع على خلاف حركته المعتادة ، فإذا عاد مَثَل بين يدى الخليفة وأعلمه باستدعاء الوزير فيخرج من مكانه راكبًا فى القصر - ولا يركب أحدٌ فى القصر إلاّ الخليفة[٣] - فينزل فى السَّهْدِلّا بدِهْليز باب المُلْك الذى فيه الشُّبَّاك[٤] وعليه من ظاهره للناس سترٌ ، فيقف من جانبه الأيمن زِمامُ القصر ومن جانبه الأيسر صاحب بيت المال ، وهما من الأستاذين المحَنَّكين . فيركب الوزير من داره وبين يديه الأمراء ، فإذا وصل إلى باب القصر ترجّل الأمراء وهو راكب ، ويكون دخوله فى هذا اليوم من باب العيد ولا يزال راكبًا إلى أوّل باب من الدَّهاليز الطوال[٥] فينزل هناك ويمشى فيها وحواليه حاشيته وغلمانه وأصحابه ومن يراه من أولاده وأقاربه ، فيصل إلى الشُّبَّاك فيجد تحته كرسيًا كبيرًا من كراسى السكين الحديد فيجلس عليه ورجلاه تطأ الأرض ، فإذا استوى جالسًا رفع كل أستاذ الستر من جانبه فيرى الخليفة جالسًا فى المرتبة الهائلة ، فيقف ويُسَلِّم ويخدم بيده إلى الأرض ثلاث مرّات ثم يؤمر بالجلوس على كرسيه فيجلس ، ويستفتح القرّاء بالقراءة قبل كل شىء بآيات لائقة بذلك المكان مقدار نصف ساعة ثم يُسَلِّم الأمراء ويُشْرَع فى عرض تلك الدواب الخاص المقدَّم ذكرها دابة دابة وهى تقاد كالعرائس بأيدى شَدَّاديها إلى أن يكتمل عرضها، فيقرأ القُرّاء لختم ذلك الجلوس ، ويرخى الأستاذان السترين ،

---

١ الشُّبَّاك . انظر فيما سبق ص ٣٨٤-٣٨٥ .

٢ الدَّهْرَجَة . السير السريع ، وحصان دهراج أى سريع السير (القاموس ٢٤٢) .

٣ انظر ابن الطوير : نزهة المقلتين ٢١٠ ، واستثنى من ذلك الناصر صلاح الدين ، فقد كان يدخل إلى العاضد فى القصر راكبًا (أبو شامة : الروضتين ١: ٤٤٠).

٤ لا شك أن « عَرض الخيل » كان يتم فى فناء داخلى للقصر الشرقى الكبير بالقرب من « دهْليز باب المُلك » حيث كانت توجد « السَّهْدِلّا » و « الشُّبَّاك » ، يتوصَّل إليه من باب العيد .

٥ عن الدهاليز الطوال انظر فيما سبق ص ٣٨٠-٣٨٢ .

فيقوم الوزير ويدخل إليه ويُقَبِّل يديه ورجليه وينصرف عنه خارجًا إلى داره ، فيركب من مكان نزوله والأمراء بين يديه لوداعه إلى داره ركبانًا ومشاة إلى قرب المكان ، وينقضى هذا الأمر .

آلات المَوْكِب

التَّــاج

فإذا صلّى الخليفة الظهر ، بعد انفضاض ما تقدَّم ، جَلَس لعَرْض ما يلبسه فى غد تلك الليلة وهو « يَوْمُ اسْتِفْتَاح العَام » بخزائن الكُسْوات الخاصة ويكون لباسه فيه البياض غير المُوَشَّح فيعين على مِنْديل[1] خاص وبَدْلة[2]، فأما المِنْديل فيُسَلَّم لشَادّ التاج الشريف ، ويقال لها « شَدَّة الوَقَار » ، وهو من الأستاذين المحنَّكين ، وله مَيْزة لمماسه ما يعلو تاج الخليفة فيشدها شَدَّة غريبة لا يعرفها سواه شكل الأهْلِيلَجة ، ثم يحضر إليه «اليَتِيمَة»[3]، وهى جوهرة عظيمة لا يُعْرف لها قيمة ، فتُنْظم هى وحواليها دونها من الجواهر وهى موضوعة فى « الحَافِر » ، وهو شكل الهِلال من ياقوت أحمر ليس له مثال فى الدنيا[4]، فينظم على خِرْقة حرير أحسن وضع فيخيطها شادُّ التاج بخياطة خفية ممكنة فتكون بأعلا جبهة الخليفة . ويقال : إن زنة الجوهرة سبعة دراهم ، وزنة الحَافِر أحد عشر مثقالاً وبدائرها قَصَب زمرد ذُبَابى له قدر عظيم .

المِظَــلَّة

ثم يؤمر بشَدّ المِظَلَّة التى تُشَاكل تلك البِدْلَة المحضرة بين يديه معها ، وهى مناسبة للثياب[5]، ولها عندهم جلالة لكونها تعلو رأس الخليفة . وهى اثنا عشر شَوْزَكًا عرض

---

[1] انظر فيما سبق ص ٣٨٨، ٣٩٣ .

[2] انظر وصفا لعدد من بدل الخليفة عند ابن المأمون : أخبار ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٤ ، ٥٥ .

[3] ذكر صاحب الذخائر والتحف ١٧٧ درة أخرى معروفة باليتيمة كانت عند مسلم بن عبد ا للهالعراقى وباعها إلى الخليفة الرشيد العباسى بسبعين ألف دينار!

[4] انتقل الفص الحافر ، وهو من ياقوت أحمر وزنه سبعة دراهم ، إلى الخلفاء الفاطميين بمصر من بنى العباس (الذخائر والتحف ١٩٣).

[5] أكَّد ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٧٧ أنه كان من شرط المظلة عند الفاطميين أن تكون لون الثياب التى يلبسها =

سُفْل كل شَوْزَك شبر ، وطوله ثلاثة أذرع وثلث ، وآخر الشَّوْزَك من فوقٍ دقيقٌ جدًا فيجتمع ما بين الشَّوَازِك فى رأس عمودها بدائرة ، وهو قُنْطارية من الزَّان ملَبَّسة بأنابيب الذهب ، وفى آخر أنبوبة تلى الرأس من جسمه فَلَكة بارزة مقدار عرض إبهام تَشُدّ آخر الشَّوَازِك فى حَلْقة من ذهب وتنزل شنقًا فى رأس الرُّمح وهو مفرود فتلقى تلك الفَلكة فتمنع المِظَلَّة من الحدور فى العمود المذكور ، ولها أضلاع من خشب الخَلَنْج مربعات مكسوة بورق الذهب على عدد الشوازك خفاف فى الوزن طولها طول الشَّوَازِك ، وفيها خطاطيف لطاف وحِلَقٌ يُمْسِك بعضُها بعضًا ، وهى تنضم وتنفتح على طريقة شوكات الكيزان ، ولها رأس شبه الرُّمَّانة وتعلوه رمَّانة صغيرة كلها ذهب مرصع بجوهر يظهر للعيان ، ولها رفرف دائر يفتحها من نسبتها عرضه أكثر من شبر ونصف وسفل الرُّمَّانة فاصل يكون مقداره ثلاث أصابع ، فإذا أدخلت الحلَقَة الذهب الجامعة لآخر شوازك المِظَلَّة فى رأس العمود ركبت الرُّمَّانة عليها ولُفّت فى عَرَضى ديبقى مذهب فلا يكشفها منه إلاَّ حاملها عند تسليمها إليه أوّل وقت الركوب .

لِوَاءا الحَمْد

ثم يؤمر بشد لِوَائى الحَمْد المختصين بالخليفة وهما رُمْحان طويلان ملبَّسان بمثل أنابيب عمود المِظَلَّة إلى حد أسنّتهما ، وهما من الحرير الأبيض المرقوم بالذهب ، وهما غير منشورين بل ملفوفين على جسم الرمحين فيشدان ليخرجا بخروج المظلة إلى أميرين من حاشية الخليفة برسم حملهما .

الرَّايات

وتُخْرج إحدى وعشرون راية لطافًا من الحرير المرقوم ملونة بكتابة تخالف ألوانها من غيره ونصُّ كتابتها : ﴿ نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ [الآية ١٣ سورة الصف] على رماح

= الخليفة فى الموكب ، لا تخالف ذلك .

ويبدو أن هذا تقليدًا استجد فى القرن السادس ، فالمسَبِّحى فى مطلع القرن الخامس يذكر فى أكثر من موضع أن المظلة كانت تخالف لون ثياب الخليفة (أخبار ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٨٠) وكانت دائمًا مظلة مذهبة مثقل . وانظر كذلك ناصرى خسرو : سفرنامة ٩٦؛ Canard, M., *op.cit.*, p. 389 n. 3.

مقومة من القَنَا المنتقى طولُ كلٍّ راية ذراعان فى عرض ذراع ونصف فى كل واحدة ثلاث طرازات[١] فتُسَلَّم لواحد وعشرين رجلاً من فرسان صِبْيَان الخاص[٢]، ولهم بشارة عوده سالماً واحد وعشرون ديناراً .

الرُّمحان

ثم يخرج رُمْحان ، رؤوسهما أهِلَّة من ذهب صامتة فى كل واحد سَبُعٌ من ديباج أحمر وأصفر وفى فمه طارةٌ مستديرة يدخل فيها الريح فينتفخان فيظهر شكلهما ويتسلمهما أيضًا فارسان من صبيان الخاص فيكونان أمام الرايات .

السَّيفُ الخاص

ثم يخرج السَّيف الخاص وهو من صاعقة وقعت على ما يقال ، وحِلْيته ذهب مرصَّع بالجواهر فى خريطة مرقومة بالذَّهب لا يظهر إلاَّ رأسه ليسلم إلى حامله مع خروج المِظَلَّة أيضًا ، وهو أمير عظيم القدر . وهذه عندهم رتبة جليلة المقدار ، وهو أكبر حامل .

الرُّمح

ثم يخرج الرُّمح[٣]، وهو رمح لطيف فى غلاف منظوم من اللؤلؤ وله سنان مختصر بحلية ذهب ، ودَرَقَة بكوابج ذهب فيها سعة منسوبة إلى حَمْزَة بن عبد المطلب، رضى الله عنه ، فى غشاء من حرير لتخرج إلى حاملها وهو أمير مُمَيَّز . ولهذه الخدمة وصاحبها عندهم جلالة .

---

[١] أى شريط من الكتابة .

[٢] صِبْيَان الخَاص . « أولاد الأجناد والأمراء وعبيد الدولة » كان إذا مات الرجل منهم وله أولاد حملوا إلى حضرة الخلافة ويودعوا فى أماكن مخصوصة ، ويؤخذ فى تعليمهم الفروسية ويقال لهم « صبيان الخاص » (ابن ميسر : أخبار ١٤٣ ، المقريزى : الاتعاظ ٣: ١٩٩ وأسامة بن منقذ : الاعتبار ٣٢). وهم فى ذلك أشبه بصبيان الحجر .

[٣] لا شك أن المقصود بذلك هو ما يعرف « بالرمح الشريف » الذى كان يُحْمَل وراء الموكب (ابن المأمون : أخبار ٥٣ ص ١٢).

طَرِيقُ المَوْكِب

ثم يُعلم الناس بطريق الموكب ، وسلوكه لا يتعدَّى دورتين إحداهما كبرى والأخرى صغرى . أما الكبرى فمن القصر إلى باب النصر مارًّا إلى حوض عِزّ الملك نبا ومسجده هناك[١] وهو أقصاها ، ثم ينعطف على يساره طالبًا باب الفُتُوح إلى القصر . والأخرى إذا خرج من باب النَّصْر سار حافًّا بالسور ودخل من باب الفُتُوح . فيُعْلم الناس بسلوك إحداهما فيسيرون إذا ركب الخليفة فيها من غير تبديل للموكب ولا تشويش ولا اختلال . فلا يصبح الصبح من يوم الركوب إلاَّ وقد اجتمع مَنْ بالقاهرة ومصر من أرباب الرُّتب وأرباب التغييرات من أرباب السيُوف والأقْلام قيامًا بين القصرين ، وكان مراحًا واسعًا خاليًا من البناء الذى فيه اليوم ، فيسع القوم لانتظار ركوب الخليفة .

الاستِعدَاد للمَوْكِب

ويبَكِّر الأمراء إلى الوزير إلى داره فيركب إلى القصر من غير استدعاء ؛ لأنها خدمة لازمة للخليفة ، فيسير أمامه تشريفه المقدَّم ذكره والأمراء بين يديه ركبانًا ومشاة ، وأمامه أولاده وإخوته وكل منهم مرخى الذؤابة بلا حَنَك وهو فى أُهْبَة عظيمة من الثياب الفاخرة والمنديل وهو بالحَنَك ويتقلَّد بالسيْف المذهب . فإذا وصل القصر ترجَّل قبله أهله فى أخصّ مكان لا تصل الأمراء إليه ، ودخل من باب القصر وهو راكب دون الحاضرين إلى دَهْليز يقال له « دِهْليز العَمُود » فيترجَّل على مَصْطَبَة هناك ويمشى بقية الدَّهاليز إلى القاعة ، فيدخل « مَقْطَع الوزارة » هو وأولاده وإخوته وخواص حواشيه ، ويجلس الأمراء بالقاعة على دِكَكٍ معدَّة لذلك مكسوة فى

---

[١] يرى إنسترونزف أن المقصود هو مسجد تِبْر وأن سبب مرور الموكب بهذا الموضع هو أن العلوى إبراهيم بن عبد الله ابن حسن ابن حسين مدفون هناك (Canard, M., *op.cit.*, p. 386 n. 84). وهذا غير صحيح فمسجد تِبْر بعيد جدًّا عن باب النصر إذ يقع فى المَطَرِيّة ، وهى من ضواحى القاهرة الحالية ، ولم أتعرف على موضع هذا المسجد الذى لم يرد ذكره فى أى مصدر آخر بخلاف ابن الطوير ، فالمقريزى لم يذكر إلّا من خلال نص ابن الطُّوَيْر هذا .

الصيف بالحُصْر السامان وفى الشتاء بالبُسُط الجَهْرَمِيَّة[١] المحفورة[٢].

فإذا أُدْخلت الدَّابة لركوب الخليفة وأُسْندت إلى الكرسى الذى يركب عليها منه من باب المجْلِس ، أُخْرجت المِظَلَّة إلى حاملها فيكشفها مما هى ملفوفة فيه غير مُطْبَقة ، فيتسَلَّمها بإعانة أربعة من الصَّقَالبة برَسْم خدمتها ، فيركزها فى آلة حديد مُتَّخِذَةً شكل القرن المصطخب وهو مشدود فى ركاب حاملها الأيمن بقوة وتأكيد بعقبها ، فيمسك العمود بحاجز فوق يده فيبقى وهو منتصب واقف ، ولم يُذْكر قط أنها اضطربت فى ريح عاصف . ثم يخرج السيف فيتسلمه حامله ، فإذا تسلَّمه أُرْخيت ذُؤَابَته ما دام حاملاً له . ثم تخرج الدَّوَاة فتُسَلَّم لحاملها ، وهو من الأستاذين المُحَنَّكين ، وكان الوزراء حملوها لقوم من الشُّهود المُعَدَّلين ، وهى الدَّواة التى كانت من أعاجيب الزمان ، وهى فى نفسها من الذهب وحليتها مُرْجان وهى ملفوفة فى منديل شَرَب بياض مذهب ؛ وقد قال فيها بعض الشعراء يخاطب الخليفة الذى صُنِعَت حلية المرجان فى وقته ، وهذا من أغرب ما يكون ، يذكر ذلك فى بيتين وهما[٣]:

أُلِينَ لداودَ الحديدُ كرامةً ... فقدر منه السرد كيف يُريد

وَلَانَ لك المَرْجَان وهو حجارةٌ ... وَمقْطَعه صعْب المرام شديد

المَوْكب

فيخرج الوزير ومن كان معه من « المَقْطَع » وينضم إليه الأمراء ويقفون إلى جانب الدابة ، فيرفع صاحب المجلس السِّتْر فيخرج مَنْ كان عند الخليفة للخدمة منهم وفى

---

١ الجَهْرَمِيَّة . ثيابٌ منسوبة من نحو البُسُط ، أو هى من الكتان (القاموس ١٤٠٩) .

٢ تقدم لنا هذه الفقرة وصفًا من الأوصاف القليلة للطبوغرافية الداخلية للقصر الفاطمى الكبير .

ويبدو أن « مَقْطَع الوزارة » هو « مجلس الوزارة » أو المكان الذى خُصِّص للوزير فى المجلس العام بقاعة الذهب ، والذى ذكره ابن المأمون والمقريزى (أخبار ٤٨ ، ٨٨ ، اتعاظ ٣ : ٢١٣ وقارن صبحى الأعشى ٣ : ٤٩٥ ، أبا المحاسن : النجوم ٥ : ٣٠٧) .

٣ عُمِلت هذه الدواة من قطعة مرجان « عزيزة الوقوع خطرة المقدار » أهداها الوزير الأفضل بن بدر الجمالى ضمن مجموعة من الهدايا فى يوم خميس العَدْس سنة ٥٠٢ للخليفة الآمر فعُمِلت منها قطعة واحدة . والبيتان للشاعر أحمد ابن منصور (ابن أيبك : كنز الدرر ٦ : ٤٧٣) .

إثرهم يبرز الخليفة بالهيئة المشروح حالها فى لباسه الثياب المعروضة عليه ، والمنديل الحامل لليتيمة بأعلى جبهته ، وهو مُحَنَّك مرخى الذؤابة مما يلى جانبه الأيسر ، ويتقلّد السيف العربى ، وبيده « قضيبُ المُلْك » ، وهو طول شبر ونصف من عود مكسو بالذهب المرصَّع بالدُّرّ والجَوْهَر ، فيُسَلِّم على الوزير قوم مرتَّبون لذلك وعلى أهله وعلى الأمراء بعدهم .

ثم يخرج أولئك أولاً فأولاً ، والوزير يخرج بعد الأمراء ، فيركب ويقف قُبَالَة باب القصر بهيئته ، ويخرج الخليفة راكبًا ، وحواليه الأستاذون ، ودابته ماشية على بُسط مفروشة خيفة من زلقها على الرُّخام[1]، فإذا قارب الباب وظهر وجهه ، ضرب رجل ببوق لطيف من ذهب معوجّ الرأس يقال له « الغَرِيبة »[2] بصوت عجيب يخالف أصوات البوقات ، فإذا سمع ذلك ضربت الأبواق فى الموكب ونُشِرَت المِظَلّة وبرز الخليفة من الباب ، ووقف وقفة يسيرة بمقدار ركوب الأستاذين المُحَنَّكين وغيرهم من أرباب الرُّتب الذين كانوا بالقاعة للخدمة ، وسار الخليفة وعلى يساره صاحب المِظَلَّة وهو يبالغ ألا يزول عنه ظلُّها ، ثم يكتنف الخليفة مقدمو صِبْيان الرِّكاب ، منهم اثنان فى جانبى الشَّكيمتين ، واثنان فى عنق الدابة من الجانبين ، واثنان فى ركابيه ، فالأيمن مقدَّم المقدمين وهو صاحب المقرعة التى يناولها ويتناولها ، وهو المؤدِّى عن الخليفة مدّة ركوبه الأوامر والنواهى .

ويسير الموكب بالحَثّ فأوله فروع الأمراء وأولادهم وأخلاط بعض العسكر ، إلى الأماثل ، إلى أرباب القصب ، إلى أرباب الأطواق ، إلى الأستاذين المُحَنَّكين ، إلى حاملى اللواءين من الجانبين ، إلى حامل الدُّواة وهى بينه وبين قَرَبُوس السَّرْج ، إلى

---

[1] هذه العبارة توضح أن أرضية القصر كانت مبلّطة بالرخام ، وهو ما يؤكد وصف غوليوم أسقف صور Guillaume de Tyr، كما نقله جستاف شلمبرجه إلى الفرنسية ، فهو يصف من بين أجزاء القصر « فناءً مكشوفًا تحيط به أروقة ذات أعمدة، وأرضية مرصوفة بأنواع من الرخام متعددة الألوان » «Une vaste cour découverte qu'entouraient de magnifiques portiques à colonnades, cour toute pavée de marbres de diverses couleurs» (Schlumberger, G., *Campagnes du Roi Amaury Ier de Jérusalem en Egypte au XII*, Paris 1906, pp. 118-119 .

[2] عرفت بذلك لغرابة فى شكلها أو صوتها .

صاحب السيف ، وهما فى الجانب الأيسر ، كل واحد . فمن تقدّم ذكره بين عشرة إلى عشرين من أصحابه ، ويحجبه أهل الوزير المقدم ذكرهم من الجانب الأيمن بعد الأستاذين المحنّكين .

ثم يأتى الخليفة وحواليه « صِبْيان الرّكاب » المذكور تفرقة السلاح فيهم ، وهم أكثر من ألف رجل ، وعليهم المناديل الطبقيات ، وهم متقلدون بالسيوف ، وأوساطهم مشدودة بمناديل ، وفى أيديهم السلاح مشهور ، وهم من جانبى الخليفة كالجناحين المادين ، وبينهما فرجة لوجه الدّابة ليس فيها أحد ، وبالقرب من رأسها الصقلبيان الحاملان « للمِذَبّتين » ، وهما مرفوعتان كالنخلتين لما يسقط من طائر وغيره ، وهو سائر على تُؤدة ورفق .

وفى طول الموكب من أوّله إلى آخره « والى القاهرة » مارًّا وعائدًا لفَسْح الطرقات وتسيير الركبان ، فيلقى فى عوده الإسْفِهْسَلار كذلك مارًّا وعائدًا لحَثّ الناس والأجناد فى الحركة ، والإنكار على المزاحمين المعترضين ، فيلقى فى عوده صاحب الباب ، ومروره فى زمرة الخليفة إلى أن يصل إلى الإسْفِهْسَلار ، فيعود لترتيب الموكب وحراسة طرقات الخليفة ، وفى يد كل منهم دَبُّوس ، وهو راكب خير دوابه وأسرعها ، هذا كله أمام الموكب . ثم يسير خَلْف دابة الخليفة قومٌ من « صِبْيان الرّكاب » لحِفْظ أعقابه ، ثم عدّة يحملون عشرة سيوف فى خرائط ديباج أحمر وأصفر بشراريب غزيرة يقال لها : «سُيُوف الدّم» برسم ضرب الأعناق[1]؛ ثم يسير بعدهم صِبْيان السّلاح الصغير أرباب الفُرَنْجِيّات المقدم ذكرهم أولًا[2].

ثم يأتى الوزير فى هيئته وفى ركابه من أصحابه قومٌ يقال لهم : «صِبيان الزّرَد»[1] من

---

[1] وكان صبيان الرّكاب فى أول الدولة الفاطمية يعرفون « بالشّغْلِيّة » ، وكانوا نحو مائة رجل يختصون بركاب السلطان [الخليفة] ويحملون سيوفًا محلاة بين يديه ، يعرفون لأجلها « بأصحاب السيوف الحلى » . وقد جرت عادتهم فى أيام الحاكم بأمر الله أن يتولّوا قتل من يُؤمر بقتله (المقريزى : اتعاظ الحنفا ٢: ١٢٧) .

[2] لا شك أن المقصود هم « أرباب السّلاح الصغير » وعددهم ثلاثمائة المذكورين عند ابن الطوير : نزهة ١٤٨ .

أقوياء الأجناد باختياره لنفسه ما مقداره خمسمائة رجل من جانبيه بفرجة لطيفة أمامه دون فرجة الخليفة وكأنه على وقار من حراسة الخليفة ، ويجتهد ألاّ يغيب عن نظره ، وخلفه الطبول والصُّنوج والصَّفافير ، وهو مع عدَّة كثيرة تدوى بأصواتها وحسها الدنيا .

ثم يأتى حامِلُ الرُّمح المقدم ذكره ودَرَقة حَمْزَة ثم طوائف الراجل من الريحانية والجيوشية وقبلهما المَصَامِدَة ثم الفُرَنْجِيَّة[2] ثم الوزيرية زُمْرة زُمْرة فى عدَّة وافرة تزيد على أربعة آلاف فى الوقت الحاضر وهو أضعاف ذلك ؛ ثم أصحاب الرايات والسُّبْعين ، ثم طوائف العساكر من الآمرية والحافظية والحُجَرِيَّة الكبار والحُجَرِيَّة الصغار المنقولين والأَفْضَلية والجيوشية ، ثم الأتراك المُصْطَنَعين ثم الدَّيْلَم ثم الأكراد ثم الغُزّ المُصْطَنَعة ، وقد كان تقدَّم هؤلاء الفرسان عدَّة وافرة من المترجِّلة أرباب قِسِيّ اليد وقِسِيّ الرجل فى أكثر من خمسمائة وهم المعدّون للأساطيل ، ويكون من الفرسان المقدم ذكرهم ما يزيد على ثلاثة آلاف وهذا كله بعض من كل .

فإذا انتهى الموكب إلى المكان المحدود عادوا على أدراجهم ، ويدخلون من باب الفُتُوح ويقفون بَيْن القَصْرَيْن بعد الركوب كما كانوا قبله . فإذا وصل الخليفة إلى الجامع الأَقْمَر ، بالقَمَّاحين اليوم ، وقف وقفةً بجملته فى موكبه ، وانفرج الموكب للوزير

---

[1] صِبْيان الزَّرَد . هم أوباش العَسْكر وزُعّار الناس الذين اجتمعوا إلى الحسن بن الحافظ فى صراعه مع أبيه الخليفة الحافظ لدين الله سنة ٥٢٩ ، ففرّق فيهم الزَّرَد وسمّاهم صبيان الزَّرَد وجعلهم خاصته (ساويرس بن المقفع : تاريخ بطاركة الكنيسة ١/٣ : ٢٨ ، المقريزى : المقفى ٣ : ٤١٦) . ويدل هذا النص على أن الوزير ، خلال هذا الموكب ، كان على غير وفاق مع الخليفة لحرصه على أن يكون مخفورا بصبيان الزَّرَد . وأرجح أن يكون هذا الوزير هو العادل بن السَّلّار (انظر الطوير : نزهة ٥٩) .

[2] علّهم الطائفة الفَرَجية أو الفُرَنْجية أرباب الفُرَنْجيات . وقد ذكر المسبِّحى قوما من السودان سماهم : الفرحية (أخبار ٦٥ ، ٨٠) .

فتحرَّك مسرعًا ليصير أمام الخليفة ليدخل بين يديه فيمر بالخليفة فيَتسكع سَكْعَة ظاهرة[1] فيشير الخليفة للسلام عليه إشارة خفيفة ، وهذا أعظم مكارمة تصدر عن الخليفة ولاتكون إلّا للوزير صاحب السيف ، فيفارقه ويسبقه إلى دخول الباب بالقصر راكبًا على عادته إلى موضعه ، ويكون الأمراء قد نزلوا قبله لأنهم فى أوائل الموكب ؛ فإذا وصل الخليفة إلى باب القصر ودخله وترجّل الوزير ودخل قبله الأستاذون المُحَنَّكُون فيُحدقون به والوزير أمام وجه دابته من مكان ترجّله إلى الكرسىّ الذى ركب منه فينزل عليه ويدخل إلى مكانه بعد خدمة المذكورين له ، فيخرج الوزير فيركب من مكانه الجارى به عادته والأمراء بين يديه وأقاربه بين يديه إلى داره فيدخل ، وينزل أيضًا إلى مكانه على كرسى فتخدمه الجماعة بالوداع»[2].

رُكُوبُ أوَّل شَهْر رَمَضان

يجرى أمر هذا الاحتفال الموكبى فى اللِّباس والآلات والأسلحة والعرض والترتيب والموكب والطريق المسلوكة ، مثل ما كان يجرى فى رُكُوب أوَّل العام . وهو يقوم عند الفاطميين مقام الرُّؤْية عند أهل السُّنّة[3].

---

[1] سَكَع . لا يدرى أين يتوجّه من الأرض أو تحيّر ، ورجل سكع أى متحير (تاج العروس ٥: ٣٨٣) . وانظر ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٨١ ؛ وراجع Canard, M., *Le cérémonial fatimite* p. 382 الذى فهم سكع بمعنى أدار وجهه تجاه الخليفة عوضًا عن السلام !! .

[2] ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٤٧-١٦٧ ؛ ومسودة المواعظ والاعتبار ١٨٩-٢٠٨ . المقريزى : الخطط ١: ٤٤٦-٤٥٠ وقارن ، القلقشندى : صبح ٣: ٤٤٩-٥٠٥ ، أبو المحاسن : النجوم ٤: ٧٩-٩٤ .

[3] راجع ، المسبحى : أخبار مصر ٦١ ؛ ابن المأمون : أخبار ٥٤ ، ٨١ ؛ (أول رمضان سنة ٥١٧هـ / ٢٣ أكتوبر سنة ١١٢٣م) ؛ ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٧١ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى ٣: ٥٠٥ ؛ المقريزى : الخطط ١: ٤٠٩ ، والاتعاظ ٢: ١٥٨-١٥٩ ، ٣ : ١٠٢ .

رُكُوبُ أيّام الجُمَع الثّلاث من شَهْر رَمَضَان

بعد انقضاء رُكُوب أوّل شهر رمضان يستريح الإمام (الخليفة) فى أوّل جمعة . ويركب فى الجمعة الثانية إلى الجامع الأنْوَر [الحاكم] وفى الجمعة الثالثة إلى الجامع الأزْهَر بالقاهرة ، وفى الجمعة الأخيرة إلى جامع عمرو بالفُسْطاط ، وكان الإمامُ (الخليفة) يرتدى فى هذه الأيام الثلاثة الثّياب الحرير البيض توقيرًا للصلاة من الذّهَب ، والمنديل والطّيْلَسان المُقَوَّر الشعرى . وكان يتقدّمه فى أوائل النهار صاحبُ بَيْت المال ومعه الفَرْش المختص بالخليفة فى هذا اليوم محمولًا بأيدى الفَرّاشين المميزين وملفوفًا فى العَراضى الدَّبيقية ، فيُفْرَش فى المحراب ثلاث طَرّاحات ، إما سامان وإما دَبِيقى أبيض كلٌّ منها منقوش بالحمرة ، فتجعل الطَّرّاحات متطابقات . و يستمر ابن الطُّوَيْر مصدرنا فى هذا القَصْف فى روايته يقول :

« إذا انقضى ركوب أوّل شهر رَمَضان استراح [الخليفة] فى أوّل جمعة[٣] . فإذا كانت الثانية ركب الخليفة إلى الجامع الأنْوَر الكبير فى هيئة المواسم وما تقدّم ذكره من الآلات ، ولباسه فيه ثياب الحرير البيض ، توقيرًا للصلاة من الذهب ، والمِنْديل والطَيْلسان المقوّر الشعرى . فيدخل من باب الخطابة والوزير معه بعد أن يتقدّمه فى أوائل النهار صاحب بيت المال وبين يديه الفُرُش المختصة بالخليفة إذا صار إليه فى هذا اليوم ، وهو محمول بأيدى الفرّاشين المميزين ، وملفوف فى العَرَاضى الدّبيقية فيفرش فى

---

[١] فى رواية ابن عبد الظاهر : « صبيان بيت المال »

[٢] فى رواية ابن عبد الظاهر : « عدة سجادات مفروزة مبطنة وبأعلاها سجادة لطيفة لا تكشف إلّا عند توجد الخليفة إلى المحراب (الروضة البهية ٣٦) .

[٣] تبعًا لما ورد عند المسبحى فإن الخليفة كان يصلى الجمعة الأولى ، قبل بناء الجامع الأنور ، فى جامع القاهرة (الجامع الأزهر) (نصوص ضائعة ١٣) . ومع ذلك فإنه بعد بناء الجامع الأنور كانت العادة فى أول الدولة الفاطمية فى الركوب لصلاة جمع رمضان تختلف قليلًا عن الوصف الذى أورده ابن الطُّوَيْر فى آخر الدولة ، فالمسبحى يذكر فى حوادث سنة ٤١٥ أن الخليفة كان يركب فى أول جمعة من رمضان إلى الجامع الأزهر ثم يستريح الجمـــعة =

المحراب ثلاث طرّاحات ، إما سامان وإما دبيقى أبيض أحسن ما يكون من صنفهما كلٌّ منقوش بالحُمْرة ، فتجعل الطّراحات متطابقات . ويُعَلّق ستران يَمْنَة ويَسْرة ، وفى الستر الأيمن كتابة مرقومة بالحرير الأحمر واضحة منقوطة أوّلها « البَسْمَلة » و « الفَاتِحَة » و«سورة الجُمُعَة» ، وفى الستر الأيسر مثل ذلك وسُورة : ﴿ إذَا جَآءَكَ المنافقون ﴾ [الآية ١ سورة المنافقون] قد أُسْبلا وفرشا فى التعليق بجانبى المحراب لاصقين بجسمه . ثم يصعد قاضى القضاة المنبر وفى يده مدخنة لطيفة خَيْزُران يُحْضِرها إليه صاحب بيت المال فيها جمرات ويجعل فيها ندّ مثلث لا يُشَم مثله إلاّ هناك ، فيُبَخِّر الذروة التى عليها الغشاء كالقبة لجلوس الخليفة للخطابة ، ويكرّر ذلك ثلاث دفعات ؛ فيأتى فى هيئة موقّرة من الطبل والبوق وحوالى ركابه خارج أصحاب الركاب القُرّاء ، وهم قُرّاء الحضرة من الجانبين يُطرّبون بالقراءة نوبة بعد نوبة يستفتحون بذلك من ركوبه من الكرسىّ على ما تقدّم طول طريقه إلى قاعة الخطابة من الجامع . ثم تُحْفَظ المقصورة من خارجها بترتيب صاحب الباب وإسْفِهْسَلار العساكر ، ومن أوّلها إلى آخرها صبيان الخاص وغيرهم ممن يجرى مجراهم ، ومن داخلها من باب خروجه إلى المنبر واحد فواحد ، فيجلس فى القاعة وإنْ احتاج إلى تجديد وضوء فَعَل والوزير فى مكان آخر .

فإذا أُذّن بالجمعة دخل إليه قاضى القضاة فقال : « السلام على أمير المؤمنين الشريف القاضى ورحمة الله وبركاته ، الصلاة يرحمك الله » ، فيخرج ماشيًا وحواليه الأستاذون المحَنَّكون والوزير وراءه ومن يليهم من الخواص وبأيديهم الأسلحة من صبيان

= الثانية ويركب الجمعة الثالثة إلى الجامع الأنور ولكنه لم يذكر مكان صلاة الجمعة الثالثة (أخبار ٦٢ ، ٦٤) وتبعه فى ذلك ابن المأمون فذكر أن الخليفة كان يصلى الجمعة الأولى بالجامع الأزهر والجمعة الثانية بالجامع الأنور ولم يتعرض للجمعة الثالثة (أخبار ٥٤ ، ٨١) وسمّى ابن عبد الظاهر الجمعة التى يستريح فيها الخليفة « جُمْعَة الرّاحة » (ابن عبد الظاهر : الروضة البهية الزاهرة ٣٦، ٣٩) .

الخاص ، وهم أمراء وعليهم هذا الاسم . فيصعد المنبر إلى أن يصل إلى الذروة تحت القبة المُبَخَّرة ، فإذا استوى جالسًا والوزير على باب المنبر ووجهه إليه فيشير إليه بالصعود فيصعد إلى أن يصل إليه فيُقَبِّل يديه ورجليه بحيث يراه الناس ، ثم يُزَرِّر عليه تلك القبة لأنها كالهَوْدَج ، ثم ينزل مستقبلًا فيقف ضابطًا لباب المنبر ، فإن لم يكن ثَمّ وزير صاحب سيف زَرَّر عليه قاضي القضاة[1] كذلك ، ووقف صاحب الباب ضابطًا للمنبر ، فيخطب خُطْبَة قصيرة من مسطور يُحضَر إليه من ديوان الإنْشَاء يقرأ فيه آية من القرآن الكريم . ولقد سمعته مرة فى خطابته بالجامع الأزهر وقد قرأ فى خطبته[2] : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَالِدَىَّ ﴾ [الآية ١٥ من سورة الأحقاف] . ثم يصلى على أبيه وجَدّه – ويعنى بهما محمدًا ﷺ وعليّ بن أبي طالب – رضى الله عنه – ويعظ الناس وَعْظًا بليغًا قليل اللفظ . وتشتمل الخطبة على ألفاظ جَزْلَة ، ويذكر مَنْ سَلَف من آبائه حتى يصل إلى نفسه فقال وأنا أسمعه : « اللّهم وأنا عبدك وابن عبدك لا أملك لنفسى ضُرًّا ولا نَفْعًا » ويتوسَّل بدعوات فخمة تليق بمثله ، ويدعو للوزير إن كان ، وللجيوش بالنصر والتأليف .، وللعساكر بالظَّفر ، وعلى الكافرين والمخالفين بالهلاك والقَهْر ، ثم يختم بقوله: « اذكروا الله يذكركم » ، فيطلع إليه من زَرَّر عليه ويفك ذلك التزرير وينزل القهقرى . وسبب التزرير عليهم قراءتهم من مسطور لا كعادة الخطباء . فينزل الخليفة ويصير على تلك الطَّراحات الثلاث فى المحراب وحده إمامًا ويقف الوزير وقاضى القضاة صفًا ومن ورائهما الأستاذون المُحَنَّكون و الأمراء المطوَّقون وأرباب الرُّتب من أصحاب السيوف والأقلام ، والمؤذنون وقوف وظهورهم إلى

[1] ذلك لأن وزير السيف كان يجمع إلى الوزارة وظيفة قضاء القضاة وداعى الدعاة وقيادة الجيش .

[2] للأسف لم يحدِّد لنا ابن الطُّوَير الخليفة الذى خطب هذه الخطبة لنعرف على التقريب الفترة التى دوّن فيها كتابه .

المقصورة لحِفْظِه . فإذا سمع الوزير الخليفة أَسْمَع القاضى فأَسْمَع القاضى المؤذنين وأَسْمَع المؤذِّنون الناس ، هذا والجامع مشحون بالعالم للصلاة وراءه . فيقرأ ما هو مكتوب فى الستر الأيمن فى الركعة الأولى ، وفى الركعة الثانية ما هو مكتوب فى الستر الأيسر وذلك على طريق التذكار خيفة الارتجاج . فإذا فرغ خرج الناس وركبوا أولًا فأولًا ، وعاد طالبًا القصر والوزير وراءه ، وضربت البوقات والطبول فى العَوْد .

فإذا أتت الجمعة الثانية ركب إلى الجامع الأَزْهَر من القَشَّاشين[١] على المنوال الذى ذكرناه والقالب الذى وصفناه .

فإذا كانت الجمعة الثالثة أُعْلم بركوبه إلى مصر للخطابة فى جامعها ، فيُزَيِّن له أهل القاهرة من باب القصر إلى جامع ابن طولون ، ويُزَيِّن له أهل مصر من جامع ابن طولون إلى الجامع بمصر[٢]، يرتب ذلك والى مصر كل أهل معيشة فى مكان ، فيُظهر المختار من الآلات والستور والمثمنات ، ويهتمون بذلك ثلاثة أيام بلياليهن . والوالى مارّ وعائد بينهم وقد ندب من يحفظ الناس ومتاعهم . فيركب يوم الجمعة المذكور شاقًّا لذلك كله على الشَّارع الأعظم إلى مسجد عبد الله[٣]، الخراب اليوم ، إلى دار الأَنْمَــاط

---

[١] القَشَّاشين . التى عرفت فيما بعد بالخَرَّاطين هى الموضع الذى يعرف اليوم بشارع الصَّنَادقية بالأزهر .

[٢] يمكن أن نفهم من هذا النص أن جامع ابن طولون كان هو الحد الفاصل ، من الناحية الإدارية ، بين القاهرة والفسطاط.

[٣] مسجد عبد الله . هذا المسجد ابتناه والى مصر عبد الله بن عبد الملك بن مروان (٨٦-٩٠ هـ) (الكندى : الولاة والقضاة ٥٩) . وكان موضعه مكانًا يجلس فيه أهل الفسطاط يتحدثون فيه ، فسألوا واليهم عبد الله بن عبد الملك أن يبنى لهم فيه مسجدًا ، وشكوا إليه ما يلقون من الشمس ، فبناه فكانوا يجتمعون فيه . وعندما دخل العبّاسيون مصر أمر صالح بن على بهدمه ، ثم لما صُرِف عن مصر بناه بعض جيرته بنيانًا غير طائل . فلما تولى عبد الرحمن بن عبد الله العمرى قضاء مصر من قبل هارون الرشيد سنة ١٨٥ هدمه وأعاد بناءه وكتب قضية بذلك جاء فيها أنه « خيف على سقفه من قِبَل خشبه واحتاج إلى العمارة والمَرَمَّة فى جِذْره ... وأن كل ما كان تحت هذا المسجد وما فوقه والثلاثة الأجنحة التى كانت حوله ملصقة به ، أن ذلك كله من حق هذا المسجد وحدوده ليس لأحد فيه حق ولا دعوة ولا =

إلى الجامع بمصر[١]، فيدخل إليه من المَعُونَة[٢] ومنها باب متّصل بقاعة الخطيب بالزىّ الذى تقدّم ذكره فى خطبة الجامعين بالقاهرة وعلى ترتيبهما . فإذا قضى الصلاة عاد إلى القاهرة من طريقه بعينها شاقًا بالزينة إلى أن يصل إلى القصر ويعطى أرباب المساجد التى يمرّ عليها كل واحد دينارًا »[٣] .

ويُقَدِّم لنا المؤرّخ محيى الدين ابن عبد الظّاهِر كذلك وَصْفًا لهيئة الخليفة فى صلاة الجمعة فى رمضان فى الجامع الأزهر – وهى أوّل جمعة يركب فيها الخليفة فى شهر رمضان – يشتمل على تفاصيل لا توجد فى النَصّ النموذجى الذى قَدَّمَه لنا ابن الطُّوَيْر . فمن ذلك أن الجامع كان يُجَهّز لاستقبال الخليفة بإطلاق البخور فيه وإغلاق أبوابه ووقوف الحُجّاب عليها ، ولا يُمكّن بَوّاب الجامع أحدًا من دخوله إلّا من كان معروفًا من الخواص والأعيان ، كما تُضْرَب سلسلة فى ركن الجامع لمنع مرور أحد من هناك . ويخرج الخليفة قبل موعد الأذان من باب الذَّهَب وعلى رأسه المِظَلَّة بشَدّة الجَوْهَر والطيْلَسان وبصحبته المؤذّنون يقرأون القرآن ، والدكاكين التى يمر عليها مُزَيَّنه بأوانى الذَّهَب والفضة إلى أن يصل إلى رَحْبَة الجامع الأزهر ومعه الوزير بين يديه ، فتُحَطّ السّلسلة ويستمر الخليفة راكبًا إلى باب الجامع الذى قُبالَة دَرْب الأتْراك فيدخل من باب الجامع إلى الدِّهْليز الأول الصغير ومنه إلى القاعة المخصصة لجلوس الخليفة فيجلس فى

= طلبة بوجه من الوجوه» وجعلت له حوانيت تحته فى حقوقه لتكون غلتها فى مرمته إن احتاج إليها ، وذلك فى صفر سنة ثمان وثمانين ومائة (الكندى : الولاة والقضاة ٤٠٦-٤١٠ وانظر ، ابن دقماق : الانتصار ٤: ١٣ ، ٢٣ ، ٣٦، ٩١ ، ٥: ٤٢ ، المقريزى : الخطط ١: ٣٣١ ، ٢: ٢٧٠ ، ٢٨٠ وفيه أن هذا المسجد صار خرابًا فى عصره (ابن حجر : رفع الإصر ١: ٣٢٦). وربما يدل على موضع هذا المسجد اليوم المسجد المعروف بمسجد أبى السعود الجارحى بمصر القديمة .

[١] هذا هو نفس طريق المواكب المختصرة .

[٢] المَعُونَة . هى مقر الشرطة .

[٣] المقريزى : الخطط ٢: ٢٨٠-٢٨٢ وقارن ، القلقشندى : صبح ٣: ٥٠٥-٥٠٨ ، Sanders, P., *op.cit.*, pp. 89-104 .

مجلسها وتُرْخى عليه المُقَرّمة الحرير (أى ستر رقيق) ويجلس المؤذّنون يقرأون وعندئذ تفتح أبواب الجامع لاستقبال المصلين ، فإذا آن وقت الأذان .

« أذّن مؤذّنو القصر كلهم على باب مجلس الخليفة ورئيس الجامع على باب المنبر وبقية المؤذّنين فى المآذن ، فعندما يسمع قاضى القضاة الأذان يتوجّه إلى المنبر فيُقَبِّل أوّل درجة ، وبعده متولّى بيت المال ومعه المِبْخَرة ولم يزالا يُقَبّلان درجة بعد درجة إلى أن يصلا إلى ذروة المنبر ويفتح القاضى بيده التزرير ويرفع السِّتْر ويتناول من متولّى بيت المال المِبْخَرة ويُقَبّلان الدَّرَج وهما نازلان .

ويخرج الخليفة والمقرئون بين يديه يتلقونه بالقراءة إلى أن يصل إلى المنبر . فإذا صار أعلى المنبر أشار إلى الوزير بالطلوع فيطلع وهو يُقَبِّل الدَّرَج حتى يصل إليه ويُزَرِّر عليه القبة ، ثم ينزل ويقف على الدرجة الأولى ويجهر المقرئون ثم يُكَبِّر المؤذّنون ويخطبُ الخليفة ، فإذا فرغ من خطبته طلع إليه الوزير وحَلَّ الأزرار فينزل الخليفة وعن يمينه ويساره الوزير والقاضى ، والداعى بين يديه ، والقاضى والداعى هما اللذان يوصّلان الأذان للمؤذنين »[1].

وكان الخليفة يقوم بعد تمام الصلاة بتفريق رُسُوم على الذين صحبوه فى الصلاة وهى : ثلاثة دنانير لكل من النائب فى الخطابة وللنائب فى الصلوات الخمس ، أربعة دنانير للمؤذنين والقَوَمَة ، ثلاثة دنانير لكل من خازن خزانة الفَرْش وفراشها ومتوليها ، ديناران لصبيان بيت المال ومعبىء الفاكهة . ويطلق الخليفة الرسوم للقُرّاء فى كل ركوب حين يركب ويرجع إلى القصر وتعم الصّدقات جميع الناس . أما الفواكه التى تُعَبّأ بالجامع فإنها تُباع بجملة كبيرة ويتزاحم الناس على شرائها تبرُّكًا بها ويُقَسّم ثمنها بالتساوى بين إمام الجامع والمؤذّنين والقَوَمَة .

---

[1] ابن عبد الظاهر : الروضة البهية ٣٧-٣٨ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٤: ١٠٣-١٠٤ .

ونظرًا لأن الآمر بأحكام الله كان فيه هَوَجٌ عند طلوعه المنبر فى خطبته فى الجُمع فقد كان الوزير ينوب عنه فى هذه المهمة[١] ؟

رُكوب صلاة عيد الفِطْر

أوْرَد لنا ابن زولاق وَصْفًا لأول صلاة عيد فِطْر أدّاها الخليفة المُعِزّ لدين الله بالقاهرة سنة ٣٦٢هـ/٩٧٣م[٢]. وفى آخر رمضان سنة ٣٨٠هـ/يناير سنة ٩٩١م ذكر المُسَبِّحى أنه بُنيت مصاطب ما بين القصر والمُصَلّى خارج باب النَّصْر يجلس عليها المؤذِّنون حتى يتَّصل التكبير من المُصَلّى إلى القصر ، وأضاف أن الخليفة العزيز بالله ركب لصلاة العيد

« وبين يديه الجنائب والقباب الديباج بالحُلِىّ ، والعسكر فى زيّه من الأتراك والدَّيْلَم والعزيزية والإخشيدية والكافورية ، وأهل العراق بالديباج المثقل والسيوف والمناطق الذَّهَب ، وعلى الجنائب السروج الذهب بالجوهر والسُّروج بالعَنْبَر ، وبين يديه الفِيَلَة عليها الرجالة بالسلاح والزرافة ، وخرج بالمِظَلَّة المُثْقَلَة بالجوهر وبين يديه قضيبُ جده عليه السلام ، فصلَّى على رسمه وانصرف »[٤].

ويُقَدِّم لنا المُسَبِّحى بعد ذلك وَصْفًا لركوب الخليفة الظّاهِر لإعزاز دين الله لصلاة عيد الفِطْر سنة ٤١٥هـ/١٠٢٥م[٥] . ووَرَدَ فى السِّجِلاّت المستنصرية ذكره لركوب الخليفة المستنصر بالله لصلاة عيد الفِطْر فى سنوات ٤٤٥ ، ٤٥١ ، ٤٧٦ ، ٤٧٨ ، ٤٨٠هـ[٦]، ويبدو أن الوزير الأَفْضَل قَلَّلَ من دَوْر الإمام (الخليفة) فى صلاة العيد خاصةً بعد انتقاله إلى دار المُلْك بالفُسْطاط سنة ٥٠١هـ/١١٠٧م ، فيذكر المقريزى أن ركوب الخليفة لصلاة العيد فى المُصَلّى ظاهر باب النَّصْر وإلقائه خُطْبَة العيد « كان قد بَطُل فى

---

[١] ابن عبد الظاهر : الروضة البهية ٣٨ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٤: ١٠٤ .

[٢] ابن ميسر : أخبار مصر ١٥٩-١٦٠ ؛ المقريزى : مسودة المواعظ والاعتبار ١٨٤-١٨٥ والخطط ١: ٤٥١ واتعاظ الحنفا ١: ١٣٧-١٣٨ .

[٣] المسبحى : نصوص ضائعة ١٣ ، المقريزى : مسودة المواعظ والاعتبار ١٨٥ .

[٤] نفسه ١٣ ؛ نفسه ١٨٦ .

[٥] المسبحى : أخبار مصر ٦٥-٦٧ ؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا ٢: ١٦١ .

[٦] السجلات المستنصرية أرقام ١٣ ، ١ ، ٣١ ، ١٩ ، ١٨ .

الأيام الجيوشية والأَفْضَلية »[1] ، لا شك أن ذلك كان بعد سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٨م – وهو آخر تاريخ فى السّجلاّت المستنصرية يُخْبر فيه المستنصر دُعاته باليمن عن ركوبه لصلاة العيد – ولا شك أن ذلك أيضًا كان بإيعاز من الأَفْضَل الذى شارك والده أمير الجيوش فى أعقاب هذا التاريخ[2] ، يقول ابن المأمون :

« ولما توفّى أمير الجيوش بدر الجمالى وانتقل الأمر إلى ولده الأَفْضَل بن أمير الجيوش ، جرى على سُنَّة والده فى صلاة العيد ، ويقف فى قوس باب داره الذى عند باب النَّصْر ، فلما سكن بمصر صار يطلع من مصر باكرًا ويقف على باب داره على الحالة الأولى إلى أن تستحق الصلاة فيدخل من باب العيد إلى الإيوان ويُصَلّى به القاضى .... ، ثم يجلس بعد الصلاة على المرتبة إلى أن تنقضى الخُطْبَة ، فيدخل من باب المُلْك ويُسَلِّم على الخليفة بحيث لا يراه أحدٌ غيره فيَخْلَع عليه ويتوجّه إلى داره بمصر فيكون السّماط بها »[3].

لاشك أن تقليص دور الإمام (الخليفة) فى احتفال صلاة العيد كان من بين الأمور التى طلب الآمر بأحكام الله من المأمون أن يعيدها إلى سابق عهدها ، وأجابه المأمون أن ذلك نَقْصٌ فى حقِّ العيد وأنه لا يعلم السبب الذى يَمْنع الخليفة من الظهور ، وعندما استفسر منه الخليفة عما يراه فى هذا الأمر قال له :

« يجلس مولانا فى المَنْظَرَة التى استحدثت بين باب الذَّهَب وباب البحر – وهى إحدى المناظر الثلاث التى استجدهن الوزير على قوس باب الذَّهَب – ويقف المملوك بين يديه فى قوس باب الذَّهَب وتجوز العساكر جميعها فارسها وراجلها وتشملها بَرَكَة نظر مولانا إليها ، فإذا حان وقت الصلاة توجّه المملوك بالموكب والزىّ وجميع

---

[1] المقريزى : اتعاظ الحنفا ٣: ٨٣ .

[2] ابن ميسر : أخبار مصر ٨١ .

[3] ابن المأمون : أخبار مصر ٢٣ ؛ المقريزى : مسودة المواعظ والاعتبار ١٨٦ .

الأمراء واجتاز بأبواب القصور ودخل الإيوان . فاستحسن ذلك منه واستصوبه وبالغ في شكره »[1].

وبدأ تقليد ركوب الخليفة في موكب احتفالي إلى المُصَلّى خارج باب النَّصْر في هذه الفترة ، وعلى ذلك أورد المؤرّخ ابن المأمون وَصْفًا تفصيليًا لهيئة صلاة عيد الفِطْر في زمن خلافة الآمر ووزارة المأمون البَطائِحي يتّفق في الأعم مع وَصْف ابن الطُّوَيْر .

وأخيرًا يُقَدِّم لنا ابن الطُّوَيْر وَصْفًا نموذجيًا لركوب الخلفاء الفاطميين لصلاة عيد الفِطْر كما كان يتم في العقود الثلاثة الأخيرة لعصر الدولة الفاطمية ، حيث يخرج الزِّيُّ المُخَصَّص للإمام من أماكنه ، وهي ثيابٌ بيض مُوَشَّحَة مُجَوَّمَة وهي أجل لباسهم ، والمِظَلَّة كذلك فهي أبدًا تابعة لثيابه كيف كانت الثياب كانت .

كان موكب الخليفة يسير في هذا اليوم من باب العيد - أحد أبواب القصر الفاطمي الكبير كان يفتح في واجهته الشرقية في مواجهة السور الجنوبي لدار الوزارة الكبرى - مُتَّجِهًا إلى مُصلّى العيد خارج باب النَّصْر[1] ، يقول ابن الطُّوَيْر :

« والزيادة ظاهرة في هذا اليوم في العساكر والأجناد والفارس والراجل وقد انتظم القوم له صَفَّيْن من باب القصر إلى باب المُصَلّى ، ويكون صاحب بيت المال قد تقدّم على الرسم لفرش المُصَلّى كما عمل في الجوامع فيفرش الطُّراحات على رسمها في المحراب مطابقة ويُعَلِّق أيضًا سترين يَمْنة ويَسْرة في الأيمن « البَسْمَلَة » و « الفاتحة » و ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَىٰ ﴾ [الآية ١ سورة الأعلى] وفي الأيسر بعد الفاتحة ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الغَاشِيَةِ ﴾ [الآية ١ سورة الغاشية] ، ثم يركز في جانبي المُصَلّى لواءين مشدودين مثل ذلك على رمحين ملبّسين بأنابيب الفضة وهما مستوران مرخيان . فيدخل الخليفة من شرقي المُصَلّى إلى مكان يستريح فيه دقيقة ، ثم يخرج محفوظًا كما يُحْفظ في

---

[1] ابن المأمون : أخبار مصر ٢٤ ؛ المقريزي : مسودة المواعظ الاعتبار ١٨٦-١٨٧ .

[2] نفسه ٨٤-٨٩ ؛ المقريزي : الخطط ١: ٤٥٢-٤٥٥ وقارن أبا المحاسن : النجوم ٥: ١٧٦-١٧٨ .

[3] ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٧٦ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ٣: ٤٦٩ .

جامع القاهرة – يعنى أنه يخرج ماشيًا وحواليه الأستاذون المحنّكون والوزير وراءه ومن يليهم من الخواص وبأيديهم الأسلحة من صبيان الخاص وهم أمراء وعليهم هذا الاسم – فيصير إلى المحراب فيصلى صلاة العيد بالتكبيرات المسنونة والوزير وراءه والقاضى ، ويقرأ فى كل ركعة ما هو مرقوم فى السترين تذكارًا.

فإذا فرغ وسَلَّم صَعَد المنبر للخطبة العيدية يوم الفِطْر ، فإذا جلس فى الذروة وهناك طَرّاحة سامان أو ديبقى على قدرها ، وباقيه يُستر ببياض على مقداره فى تقطيع درجه وهو مضبوط لا يتغيّر ، فيراه أهل ذلك الجَمْع جالسًا فى الذروة ، ويكون قد وَقَفَ أسفل المنبر الوزير وقاضى القضاة وصاحب الباب وإسْفِهْسَلار العساكر وصاحب الرّسالة وزمام القصر وصاحب دَفْتَر المجلس وصاحب المِظَلّة وزمام الأشراف الأقارب وصاحب بيت المال وحامل الرّمح ونقيب الأشراف الطالبيين وَوَجْهُ الوزير إليه ، فيشير إليه بالصعود فيَصْعَد إليه ويقرب وقوفه منه ويكون وجهه مواز رجليه فيقبّلها بحيث يراه العالم ، ثم يقوم فيقف على يَمْنَة الخليفة .

فإذا وَقَفَ أشار إلى قاضى القضاة بالصعود فيصعد إلى سابع درجة ثم يتطلّع إليه صاغيًا لما يقول فيشير إليه بقوله فيُخْرج من كمه مُدْرَجًا قد أُحْضِر إليه أمس من ديوان الإنشاء بعد عرضه على الخليفة والوزير ، فيُعْلِن بقراءة مضمونه فيقول : « بسم الله الرحمن الرحيم . ثبت بمن شَرُف بصعوده المنبر الشريف فى يوم كذا ، وهو عيد الفِطْر ، من سنة كذا من عبيد أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين بعد صعود السيد الأجلّ ونعوته المقدَّرة ودعائه المحرَّر » . فإن أراد الخليفة أن يُشَرّف أحدًا من أولاد الوزير وإخوته استدعاه القاضى بالنعت المذكور . ثم يتلو ذلك ذكر القاضى المذكور ، وهو القارئ ، فلا يتّسع له أن يقول عن نفسه نعوته ولا دعاءه بل يقول : المملوك فلان بن فلان ثم يستدعى من ذكرنا وقوفهم على باب المنبر بنعوتهم وذكر خِدَمهم ودعائهم على الترتيب .

فإذا طَلَع الجماعة ، وكل منهم يعرف مقامه فى المنبر يَمْنَة ويَسْرة ، فإذا لم يبق أحد ممن يَطْلع أشار الوزير إليهم فأخذ من هو فى كل جنب بيده نصيبًا من اللواء الذى بجانبه فيُسْتَر الخليفة ويُسْترون ، ويُنادَى فى الناس بأن ينصتوا . فيخطب الخليفة

الخطبة من المسطور على العادة ، وهى خُطْبَة بليغة مُوَافِقَة لذلك اليوم . فإذا فَرَغ ألقى كل من فى يده شيء من اللّواء خارج المنبر فينكشفون كما كانوا قبل يُسْتَرون ، وينزلون أولاً فأولاً الأقرب فالأقرب إلى القهقرى . فإذا خلا المنبر إلّا من الخليفة قام هابطًا منه إلى المكان الذى خرجَ منه ثم يلبث لبثة يسيرة ويركب فى زِيِّه المُفَخَّم من طريقه بعينها إلى أن يصل إلى قريب من القصر فيقف وقفةً بجملته فى موكبه ، وينفرج الموكب للوزير فيتحرك مسرعًا ليسير أمام الخليفة ليدخل بين يديه ، فيمر بالخليفة فيَتسكَع له سَكْعَةً ظاهرةً ، فيشير الخليفة للسلام عليه إشارة خفيفة – وهذه أعظم مكارمة تصدر عن الخليفة ولا تكون إلّا للوزير صاحب السيف – فيفارقه ويسبقه إلى الدخول من باب القصر راكبًا على عادته إلى موضعه ، ويكون الأمراء قد نزلوا قبله لأنهم فى أوائل الموكب . فإذا دَخَل الخليفة من باب العيد جلس فى الشُّبّاك وقد نُصِب منه إلى الفسقية التى كانت وسط الإيوان مقدار عشرين قصبة سِمَاطٌ من الخُشْكَنان و البَسَنْدود والبَرْمَاوَرْد مثل الجبل الشاهق ، وفيه القطعة وزنها من ربع قنطار إلى رطل ، فيدخل ذلك الجَمْع إليه فيَفْطر وينقل منه مَنْ ينقل ويباح ولا يحجر عليه ولا مانع دونه فيمر ذلك بأيدى الناس وليس هو مما يُعتدّ به ولا يُغْنى عما يفرّق للناس ويحمل إلى دورهم . ويُعمل فى هذا اليوم سِمَاطٌ من الطعام فى قاعة الذَّهَب ويحضر عليه الخليفة والوزير »[1] .

كان عيد الفِطْر هو الموسم الكبير عند الفاطميين ويُسَمّى لذلك بـ « عيد الحُلَل » لأن الحُلَل تَعُمُّ فيه الجماعة وفى غيره تكون للأعيان خاصة . وبَلَغَت قيمة الكُسْوَة التى وُزِّعت فى عيد الفِطْر سنة ٥١٦هـ/١١٢٣م حوالى العشرين ألف دينار[2]. وكانت الكُسوات التى تُخْلَع على وجوه الدولة تُرْفَق ببراءات أو رُقْعات صادرة عن ديوان الإنشاء ، وحَفِظَ

---

[1] ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٧٦–١٨٢ ؛ المقريزى : الخطط ١: ٤٥٥ ومسودة المواعظ والاعتبار ٢٠٨–٢١٣ ؛ القلقشندى : صبح ٣: ٥٠٨ .

[2] ابن المأمون : أخبار مصر ٣٨ ؛ المقريزى : الخطط ١: ٤٥٢ .

لنا ابن المأمون صورة رُقْعَة من هذه الرُّقْعات كتبها كاتب الإنشاء المعروف ابن الصَّيْرَفى مقترنة بكُسْوَة عيد الفِطْر من سنة ٥٣٥هـ/١١٤١م ، أى فى أيام الخليفة الحافظ لدين الله .

« ولم يَزَل أميرُ المؤمنين مُنْعِمًا بالرغائب ، مولّيًا إحسانه كل حاضِرٍ من أوليائه وغائِب ، مجزلاً حَظَّه من منائحه ومواهبه ، موصلاً إليهم من الحياء ما يَقْصُر شكرهم عن حقه وواجبه . وإنك أيها الأمير لأولاهم من ذلك بجسيمه وأحراهم باستنشاق نسيمه ، وأَخْلَقَهم بالجزء الأوْفَى منه عند فضه وتقسيمه ؛ إذْ كنت فى سماء المسابقة بدرًا وفى موائد المناصحة صَدْرًا ، وممن أَخْلَص فى الطَّاعَة سرًّا وجَهْرًا ، وحَظِىَ فى خِدْمَة أمير المؤمنين بما عطر له وصفا ، وسير له ذِكْرًا . ولما أقبل هذا العيد السعيد ، والعادة فيه أن يُحْسِن الناسُ هيئتهم ، ويأخذوا عند كل مسجد زينتهم ، ومن وظائف كرم أميرِ المؤمنين تشريف أوليائه وخَدَمه فيه ، وفى المواسم التى تجاريه ، بكُسْوات على حَسَب منازلهم ، تَجْمَع بين الشَّرَف والجمال ، ولا يبقى بعدها مَطْمَحٌ للآمال ، وكُنْتَ من أَخَصِّ الأمراء المُقَدَّمين ... »[1].

رُكُوبُ صلاة عيد النَّحْر (الأضحَى)

كان الاحتفال بعيد النَّحْر يبدأ فى اليوم التاسع من ذى الحجة ويُعْرَفَ بـ « يوم الهناء بعيد النَّحر » ، وذلك اعتبارًا من القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى ، حيث كان الناس يتوجَّهون عند أذان الصُّبْح إلى دار الوزير لخدمته وتهنئته على طبقاتهم : أربابُ السيوف والأقلام ، ثم الأمراء المُطَوَّقون والأستاذون المُحَنَّكون ، وبعدهم الشُّعَراء ، وبعد ذلك يركب الوزير متوجِّهًا إلى القصر ويدخل من باب الذَّهَب ، بينما يبقى الأمراء المُطَوَّقون بالدهاليز إلى أن يجلس الخليفة ويَسْتَفْتِح قُرَّاء الحضرة ، ثم يستدعى الوزير وبقية رجال الدولة على قدر طبقاتهم للسلام على الخليفة والهناء بالعيد[2].

---

[1] نفسه ٥٤ ؛ نفسه ١: ٤١٢ ؛ زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ٣٦-٣٧ .

[2] ابن المأمون : أخبار ٤١ ؛ ابن ميسر : أخبار ٨٨-٩١ ؛ النويرى : نهاية الأرب ٢٨ : ٢٨٨ - ٢٨٩ ؛ المقريزى : الخطط ١: ٤٤٢.

أما الركوب الاحتفالي نفسه فكان يتم في اليوم العاشر من ذي الحجة ويجرى حاله كما جرى في عيد الفِطْر. وبعد انتهاء الصلاة يُغَيِّر الخليفة ملابسه بالملابس المختصة بالنَّحْر، وهي البدلة الحمراء بالشدة التي تسمى «شَدَّة الوَقَار» والعلم والجوهر في وجهه بغير قضيب ملك في يده[2] ، ويتوجَّه إلى « المَنْحَر » ، وكان يقابل باب الرِّيح الباب الشمالي للقصر (ويدلّ على موقعه اليوم مجموعة المباني الواقعة غرب شارع الجمالية بين شارعي الدَّرْب الأصْفَر والتُّمْبَكْشِيَّة) ، ويتكرَّر الشيء نفسه في ثاني وثالث أيام العيد . يقول ابن الطُّوَيْر :

« فيخرج الخليفة بنفسه من باب الرِّيح ، ويكون الوزير واقفًا عليه فيترجَّل ويدخل ماشيًا بين يديه لقربه ، هذا بعد انفصالهما من المُصَلَّى . ويكون قد قِيد إلى هذا المَنْحَر أحد وثلاثون فصيلاً وناقة أمام مصطبة يطلع عليها الخليفة والوزير ، وهي مفروشة ، ثم أكابر الدولة ، وهو بين الأستاذين المُحَنَّكين . فيقدِّم الفرّاشون له إلى المَصْطَبة رأسًا فرأسًا ، ويكون بيده حربة من رأسها الذى لاسنان فيه ، ويد قاضي القضاة في أصل سنانها ، فيجعله القاضي في نَحْر النحيرة فيطعن به الخليفة وتجرّ من بين يديه حتى يأتي على العدَّة المذكورة . فأوَّل نحيرة هي التي تُقَدَّد وتُسَيَّر إلى داعي اليمن[1] ، وهو الملك فيه ، فيفرِّقها على المعتقدين وزن نصف درهم إلى ربع درهم .

ثم يُعْمَل ثاني يوم كذلك فيكون عدد ما يُنْحَر سبعًا وعشرين . ثم يُعْمَل في اليوم الثالث كذلك . وعِدَّة ما يُنْحَر ثلاثًا وعشرين . هذا وفي مدَّة هذه الأيام الثلاثة يُسَيَّر رسم الأُضْحية إلى أرباب الرُّتَب والرُّسوم كما سُيِّرت الغُرَّة في أول السنة من

---

[1] ابن المأمون : أخبار ٤١ .

[2] هذا النص يدل على مدى أهمية دعوة اليمن للخلافة الفاطمية ، ولا شك أن هذا التقليد بدأ منذ أن تولى الدعوة الفاطمية في اليمن الداعي علي بن محمد الصُّلَيْحي سنة ٤٤٥ وظل كذلك إلى سنة ٥٢٤ (سنة وفاة الخليفة الآمر) فقد انفصلت الدعوة اليمنية عن الدعوة الفاطمية في هذا التاريخ ، ودعا أصحابها إلى الإمام الطيب بن الآمر وامتنعوا عن الدعوة لخلفاء الآمر في مصر (راجع ، أيمن فؤاد سيد : تاريخ المذاهب الدينية في بلاد اليمن ١٧١ - ١٩٠) وعلى ذلك فإن هذا الوصف يصدق على عصر الآمر ولا ينطبق على الفترة التالية له إلّا إذا كان المقصود الزُّرَيْعيون في عَدَن الذين دعوا للخليفة الحافظ لدين الله .

الدنانير بغير رُباعية ولا قراريط على مثال الغُرّة بعد الطبقة العليا إلى ما دونها مع عشرة دنانير إلى دِينار. أما لحم الجزور فإنه يُفَرّق فى أرباب الرسوم للبركة فى أطباق مع أدوان الفرّاشين ، وأكثر ذلك يفرّقه قاضى القضاة وداعى الدعاة للطلبة بدار العِلْم والمُتَصَدِّرين بجوامع القاهرة ونقباء المؤمنين بهم المتشيعين للبركة . فإذا انقضى ذلك خَلَع الخليفة على الوزير ثيابه الحُمْر التى كانت عليه ومنديلاً آخر من القصر بغير اليتيمة و العِقْد المنظوم ، هذا عند عَوْد الخليفة من المَنْحَر . فيركب الوزير من القصر بالخِلَع المذكورة شاقًّا القاهرة ، فإذا خرج من باب زُوَيْلَة انعطف على يمينه سالكًا على الخليج فيدخل من باب القَنْطَرَة إلى دار الوزارة وبذلك انفصال عيد النحر[1] .

وثمن الضّحايا على ما تقدّم من غير رُباعية ولا قراريط ما يقرب من ألفى دينار »[2].

[1] أورد ابن المأمون وصفًا تفصيليًا للاحتفال بعيد الأضحى فى سنة ٥١٦ أوْفَى من وصف ابن الطُّوَيْر . (أخبار ٤٠-٤٣).

[2] ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٨٢-١٨٥ ؛ المقريزى : الخطط ١: ٤٣٧ وقارن القلقشندى : صبح ٣: ٥١١ ؛ أبا المحاسن : النجوم ٤: ٩٨-٩٩ .

رُكُوبُ الخليفة في الأعياد

القومية المصرية

أدرك الفاطميون مثل غيرهم من حُكّام مصر أهمية النيل للحياة الاقتصادية المصرية ، فزراعةُ أراضى مصر وإمداد أهلها بالغذاء مرتبطٌ بوَفاء النيل وبلوغ زيادته ستة عشر ذراعًا . لذلك فمنذ وصول المُعِزّ لدين الله إلى القاهرة اهتم بأمر « زيادة النيل » و « مَنَعَ من النّداء بزيادة النيل وألّا يُكْتَب بذلك إلّا إليه وإلى القائد جوهر » فإذا تمّ ذلك أباح النّداء ، يقول ابن زولاق :

> « وفى هذا الشهر – يعنى شوّال سنة ٣٦٢هـ – مَنَعَ المُعِزّ لدين الله من النّداء بزيادة النيل وألّا يُكْتَب بذلك إلاّ إليه وإلى القائد جَوْهَر . فلما تَمّ ... ستة عشر ذراعًا وكُسر الخليج ... أباح النّداء » .

وعَلَّق المقريزى على ذلك بقوله : « فتأمَّل ، ما أبْدَع هذه السياسة فإن الناس دائمًا ، إذا تَوَقَّف النيل فى أيام زيادته أو زاد قليلًا يقلقون ويُحَدِّثون أنفسهم بعدم طلوع النيل ، فيقبضون أيديهم على الغلال ويمتنعون من بيعها رجاء ارتفاع السعر ، ويجتهد من عنده مالٌ في خزن الغَلَّة إما لطلب السعر أو لطلب ادّخار قوت عياله فيحدث بهذا الغلاء ، فإن زاد الماء انحلَّ السعرُ وإلّا كان الجَدْب والقَحْط . ففى كتمان الزيادة عن العامة أعظم فائدة وأجلّ عائدة »[1].

الفَـتْرَةُ المُبَـكِّرَة

كان احتفالُ الفاطميين بوَفاء النيل فى الفترة المُبَكِّرَة من حكمهم بمصر يتم بطريقة مُبَسَّطة . فيذكر المقريزى (أغلب الظن نقلاً عن ابن زولاق) أن المُعِزّ ركب فى ذى

---

[1] المخزومى : المنهاج-خ ٤٧ ظ ؛ المقريزى : الخطط ١ : ٦١ وأتعاظ الحنفا ١ : ١٣٨ ؛ ابن مُيَسّر : أخبار مصر ١٦٠.

الحجة سنة ٣٦٣هـ/سبتمبر ٩٧٤م لكَسْر الخليج[1]. وفى حوادث سنة ٣٨٢هـ/٩٩٢م ذكر المقريزى أيضًا (فى هذه المرة نقلاً عن المُسَبِّحى) بزيادة تفصيل أن العزيز بالله «ركب لفَتْح الخليج بالمِظَلَّة وعليه قميصٌ ديباجٌ مُثْقَل ، وتاجٌ مرصَّع بالجوهر»[2]. وفى السنة التى تليها ذكر فقط أن العزيز ركب بابنه لفَتْح الخليج[4] . ثم تقابلنا إشارة أخرى فى حوادث سنة ٤٠٤هـ/١٠١٣م ، فى زمن الحاكم بأمر الله ، تفيد بفَتْح الخليج يوم السابع عشر من مِسْرى (يوافق المحرم من هذه السنة) والماء على أربعة عشر ذراعًا وثمانية أصابع[3]. وبالرغم من ندرة التفصيلات فى المصادر فلا شك أن الخليفة كان يذهب كل عام لفَتْح الخليج ، فيشير المقريزى إلى أن المُسَبِّحى ذكر فى تاريخه الكبير ركوب العزيز بالله بن المُعِزّ وركوب الحاكم بأمر الله بن العزيز وركوب الظّاهِر لإعزاز دين الله بن الحاكم كل سنة لفَتْح الخليج[6] . ففى ١٧ جمادى الأولى سنة ٤١٤هـ/١٠٢٣م ركب الظّاهِر لفَتْح الخليج ، وهنا يذكر المُسَبِّحى أنه شَقَّ البلد حتى انتهى إلى صناعة الجسر حيث طُرِحَ بين يديه عُشارى ثم سار على شارع الحَمْراء على شاطىء النيل بفُسْطاط مصر ثم انتهى إلى سَدّ الخليج ففُتِحَ بين يديه ولعبت فيه العُشاريات . ووَصَفَ لنا المُسَبِّحى – وهو شاهدُ عيان لهذه الأحداث – ثياب الخليفة فى ذهابه وعوده ، فذَكَرَ أنه كان عليه فى وقت نزوله إلى مصر قميصٌ طميمٌ مذهب وعلى رأسه شاشية [أى نوع من الموسلين الطويل الذى يُلَفّ حول العمامة] مُرَصَّعَة ، وأن زِيَّه فى طلوعه كان ثيابًا دَبيقية بياضا وعلى رأسه عمامة شَرَب مسكى مذهبة[6].

---

[1] المقريزى : اتعاظ : اتعاظ الحنفا ١: ٢١٤ .

[2] نفسه ١: ٢٧٥ .

[3] نفسه ١: ٢٨٣ .

[4] نفسه ٢: ١٠٠ .

[5] المسبحى : نصوص ضائعة ٤٠ ؛ المقريزى : الخطط ١: ٤٧٠ .

[6] المسبحى : أخبار مصر ١٠-١١ ؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا ٢: ١٣٤ .

ولا يوجد بعد ذلك أىُّ ذِكْر لاحتفال فَتْح الخليج عند المؤرِّخين المصريين قبل عصر الآمر بأحكام الله فى آخر العقد الثانى من القرن السادس الهجرى ، بالرغم من أن الرَّحالة الفارسى ناصر خُسْرو يُقَدِّم لنا وَصْفًا مثيرًا لركوب الخليفة المستنصر بالله لفَتْح الخليج سنة ٤٤١هـ/١٠٤٦م ، يقول :

« حين يَبْلُغ النيل الوفَاء – أىّ من العاشر من شهر يور (أغسطس وسبتمبر) إلى العشرين من آبان (أكتوبر ونوفمبر) ، ويبلغ ارتفاع الماء ثمانية عشر ذراعًا عن مستواه فى الشتاء ، وتكون أفواه الترع والجداول مسدودة فى البلاد كلها ، يحضر السلطان راكبًا ليفتح هذا النهر الذى يُسَمَّى « الخَليج » ، والذى يبدأ قبل مدينة مصر ثم يمر بالقاهرة ، وهو مِلْكٌ خاص للسلطان . وفى ذلك اليوم تُفتح الخِلْجان والتُّرَع الأخرى فى الولايات كلها . وهذا اليوم أعظم الأعياد فى مصر ويُسَمَّى « عيد رُكُوب فَتْح الخليج » .

حينما يقترب [هذا العيد] يُنْصَب للسلطان على رأس الخليج سُرادِقٌ عظيمُ التكاليف من الدِّيباج الرومى ومُوَشَّى كله بالذهب ومُكَلَّل بالجواهر ، ويعد أعظم إعداد بحيث يتَّسع ظِلّه لمائة فارس . وأمام هذا السُّرادِق خَيْمَة من البُوقَلَمون وسُرادِق آخر كبير.

وقبل الاحتفال بثلاثة أيام يَدُقّون الطَّبْل وينفخون البوق ويضربون الكُوَس فى الإصْطَبْل لتألَف الخيل هذه الأصوات . وحين يركب السلطان يصطف عشرة آلاف فارس على خيولهم سروج مذهبة وأطْواق وألْجِمَة مرصعة ، وجميع لبد السروج من الديباج الرومى البُوقَلَمون نُسِجَت لهذا الغرض خاصة فلم تُفَصَّل ولم تُخَط وطُرِّزَت حواشيها باسم سلطان مصر ، وعلى كل حصان دِرْع أو جَوْشَنٌ ، وعلى قمة السَّرْج خوذة وجميع أنواع الأسلحة الأخرى . وكذلك تسير جمال كثيرة عليها هوادِج مُزَيَّنَة وبغال عَمارياتها كلها مرصعة بالذهب والجواهر وموشاة باللُّؤلؤ ، وإن الكلام ليطول لو وَصَفْتُ كل ما يكون يوم فَتْح الخليج .

فى ذلك اليوم يخرج جيشُ السلطان كله فرقةً فرقة وفوجًا فوجًا [ ] .

وفى اليوم الذى ذَهَبَ السلطان فى صباحه لفَتْح الخليج استأجروا عشرة آلاف رجل أمسك كل واحد منهم إحدى الجنائب التى ذكرتها وساروا مائة مائة ، وأمامهم الموسيقيون ينفخون البوق ويضربون الطُّبْل والمزمار وسار خلفهم فوج من الجيش . مضى هؤلاء من قصر السلطان حتى رأس الخليج ، أتت الجمال وعليها المهور والمراقد ومن بعدها البغال وعليها العَماريات .

وقد ابتعد السلطان عن الجيش والجنائب وهو شاب كامل الجسم طاهر الصورة من أبناء أمير المؤمنين حسين بن على بن أبى طالب صلوات الله عليهما . كان حليق شعر الرأس يركب علي بَغْل ليس في سرجِه أو لجامه حِلْيَة فليس عليه ذهب أو فضة ، وقد ارتدى قميصًا أبيض عليه « فُوطَة » فِضْفاضة كالتى تُلْبَس فى بلاد المغرب والتى تُسَمَّى فى بلاد العَجَم « دُرّاعَة » ، وقيل إن اسم هذا القميص « الدَّبيقى » وإنه يساوى عشرة آلاف دينار ، وكان على رأسه عمامة من لونه ويمسك بيده سَوْطًا (قضيبًا) ثمينا ، وأمامه ثلاثمائة راجل دَيْلَمى عليهم ثياب رومية مذهبة وقد حَزَموا خصورهم وأكمامهم واسعة كما يَلْبَس رجال مصر ومعهم النُّشاب والسهام وقد عَصَبُوا سيقانهم ، ويسير مع السلطان حامِل المِظَلَّة راكبًا فرسًا وعلى رأسه عمامة مذهبة مرصعة وعليه حُلَّةٌ قيمتها عشرة آلاف دينار ذهبى مغربى ، والمِظَلَّة التى بيده ثمينة جدًّا وهى مُرَصَّعة مكلَّلة . وليس مع السلطان فارس غير حاملِ المِظَلَّة وقد سار أمامه الدَّيالِمَة ، وعلى يمينه ويساره جماعةٌ من الخَدَم يحملون المجامر ويحرقون العنبر والعود .

والعادة فى مصر أن يَسْجُد الرجال للسلطان وأن يدعوا له كلما قرب منهم .

وجاء بعد السلطان الوزير مع قاضى القُضاة وفَوْج كبير من أهل العلم وأركان الدولة . وقد ذَهَبَ السلطان إلى حيث ضُرِبَ الشراع على رأس سدّ الخليج - أىْ فَمِ النهر - وظَلَّ ممتطيًا البَغْل تحت السُّرادِق مدة ساعة . وبعد ذلك سَلَّموه مزراقًا ليضرب به السَّدّ ، ثم عَجَّلَ الرجال بهدمه بالمعاول والفؤوس والمخارف ، فانساب الماء وقد كان مرتفعًا وجرى دَفْعَةً واحدةً فى الخليج .

وفى هذا اليوم يخرج جميع سكان مصر والقاهرة للتفرّج على فتح الخليج وتجرى فيه أنواع الألعاب العجيبة .

وكان فى أول سفينة نزلت الخليج جماعةٌ من الخرس يسمون بالفارسية « كنك ولال » ، لعلهم يتفاءلون بنزولهم ، ويجرى السلطان عليهم صدقاته فى هذا اليوم »[1].

ولا يَمُدُّنا هذا الوَصْفُ بأيّة معلومات عن « المناظِر » التى كانت تطلّ على الخليج - والتى أصبح لها دورٌ فيما بعد فى هذا الاحتفال - كما أنه لم يُحَدِّد لنا الطريق الذى سلكه الموكب أو أىّ شىء عن ترتيب الموكب نفسه . فقد كان ما يهم ناصر خُسْرو هو نَقْل انطباع عن الإمام (الخليفة) الشاب ، فجاء وَصْفُه مشتملاً على الأمور التى لَفَتَت انتباهه فقط . ومع ذلك فإن مما يثير الدهشة أن هذا الوَصْف ، مثله مثل الوَصْف الذى قَدَّمه لنا كلٌّ من ابن زولاق والمُسَبِّحى ، لا يشير إطلاقًا إلى احتفال « تَخْليق المقياس »[2]!.

الفَتْرَةُ الفاطمية المتأخِّرَة

وفى الفترة الفاطمية المتأخِّرة ، اعتبارًا من وزارة المأمون البَطائِحى (٥١٥ - ٥١٩هـ)، أصبح هناك احتفالان متميزان وقت وَفاء النيل يتمّان فى موضعين مختلفين ، الأوّل هو « احتفالُ تَخْليق المِقْياس » الذى يتمّ عند وَفَاء النيل ستة عشر ذراعًا ، والثانى يتم بعد هذا الاحتفال بيوم أو ثلاثة أيام هو « احتفال فَتْح (كَسْر سَدّ) الخليج » . ويبدو أن احتفال تَخْليق المقياس أُدْخِلَ فى فترة متأخِّرة ليست بحال من الأحوال سابقة على فترة وزارة المأمون البَطائِحى ، فلا يوجد لدينا أىّ وَصْف لهذا الاحتفال قبل سنة ٥١٧هـ/ ١١٢٣م[3]، ومع ذلك فإننا لا نستطيع الجزْم بأن هذا الاحتفال قد تمّ بطريقة أو بأخرى قبل هذا التاريخ .

---

[1] ناصر خسرو : سفر نامة ٩٣-٩٧ .

[2] . Sanders, P., *op.cit.*, p. 104

[3] ابن المأمون : أخبار مصر ٧١ Sanders, P., *op.cit.*, 112, 114.

ونحن نعرف أن مقياس النيل الواقع فى النهاية الجنوبية لجزيرة الروضة ، يرجع تاريخه إلى عهد الخليفة المتوكِّل العَبّاسى سنة ٢٤٧هـ/٨٦١م وهو ترميم وإصلاح للمقياس القديم الذى بنى فى عام ٩٧هـ/ ٧١٥م ، وقبل هذا التاريخ كان النَّصارى هم الذين يتولُّون قياس ماء النيل فَعَزَلَهم المتوكِّل وعَيَّنَ لهذه المهمة عبد الله بن عبد السلام بن أبى الردَّاد المؤدِّب ، واستقرت عملية قياس النيل فى بنيه حتى القرن التاسع الهجرى وصار كل من يتولَّى أمر المقياس يعرف بابن أبى الردّاد[1] . وأول إشارة فى المصادر الفاطمية إلى ابن أبى الردّاد أوردها المُسَبِّحى فى حوادث سنة ٤١٤هـ/ ١٠٢٣م حيث ضربه الشريف أبو طالب العَجَمى صاحب الصنَّاعة لتقصيره فى الإشراف على بناء حظير على المقياس[2].

وأشار ابن المأمون إلى نَصْب «خيمة القاتول» عندما بلَغ النيل ستة عشر ذراعًا سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م ، ولكن أوّل إشارة إلى الاحتفال بتخليق المِقْياس عند وفاء النيل ستة عشر ذراعًا وركوب الخليفة بنفسه وبصحبته الوزير إلى الصناعة بمصر لمشاهدة عملية تخليق المقياس على يد ابن أبى الردَّاد فترجع إلى عام ٥١٧هـ/١١٢٣م ، يقول ابن المأمون إنه بعد إتمام عملية التَّخْليق وعودة الخليفة وبصحبته الوزير إلى القصر خَلَع على ابن أبى الردّاد بَدْلَة مذهبة وثوب ديبقى حريرى وطَيْلَسان مقوَّر وبياض مذهب وشُقَّة سَقْلاطون وشُقَّة تحتانى وشُقَّة خَزّ وشُقَّة دَبيقى وأربعة أكياس دراهم ، ونُشِرَت قدامه الأعلام الخاص الدَّبيقى المجاومة بالألوان المختلفة . كما انتقل الخليفة إلى منظرة السُّكَّرَة حيث بولغ فى تعليقها وفرشها ، ومُدَّ سماطٌ بهذه المناسبة .

وتكَرَّر الاحتفال بتخليق المقياس بعد وفاء النيل ستة عشر ذراعًا فى رجب سنة ٥١٨هـ/ أغسطس سنة ١١٢٤م وقدّم لنا ابن المأمون كذلك وَصْفًا حيًّا لكيفية هذا

---

[1] القلقشندى : صبح الأعشى ٣: ٢٩٥ .

[2] المسبحى : أخبار ٣٧-٣٨ ، ٣٩ ، ٤١ .

[3] ابن المأمون : أخبار ٥٥ .

[4] نفسه ٧١-٧٣ .

الاحتفال وما تَمّ فيه[1] أما وَصْف الاحتفال النموذجى لركوب الخليفة لتخليق المقياس فيقدمه لنا كالعادة ابن الطُّوَيْر يقول :

« إذا أَذنَ الله سبحانه وتعالى بزيادة النيل المبارك ، طالع ابن أبى الرَّدَّاد بما استقر عليه أذرع القاع فى اليوم الخامس والعشرين من بَؤُونة وأرَّخه بما يوافقه من أيام الشهور العربية ، فعلم ذلك من مطالعته وأخرجت إلى ديوان المكاتبات فنزلت فى المسير المرتب بأصل القاع ، والزيادة بعد ذلك فى كل يوم تؤرخ بيومه من الشهر العربى وما وافقه من أيام الشهر القبطى ، لا يزال كذلك وهو محافظ على كتمان ذلك لا يعلم به أحد قبل الخليفة وبعده الوزير . فإذا انتهى فى ذراع الوفاء ، وهو السادس عشر ، إلى أن يبقى منه إصبع أو إصبعان وعلم ذلك من مطالعته أمر أن يُحمَل إلى المقياس فى تلك الليلة من المطابخ عشرة قناطير من الخُبْز السَّمِيذ[2] وعشرة من الخراف المشوية وعشرة من الجامات الحلواء[3] وعشر شمعات ويؤمر بالمبيت فى تلك الليلة بالمِقياس . فيحضر إليه قُرّاء الحضرة والمُتَصَدِّرون بالجوامع بالقاهرة ومصر ومن يجرى مجراهم ، فيستعملون ذلك ويقيدون الشمع عليهم من العشاء الآخرة وهم يتلون القرآن برفق ويُطَرِّبون بمكان التطريب فيختمون الخَتْمَة الشريفة . ويكون هذا الاجتماع فى جامع المِقْيَاس[4] ، ليوفى الماء ستة عشر ذراعًا فى تلك الليلة .

---

[1] ابن المأمون : أخبار مصر ٧٥-٨٠ .

[2] الخبز السَّميذ هو الحُوّارى أى المصنوع من الدقيق الأبيض أو لُباب الدقيق ، ويبدو أن السميذ أجود درجة من الحُوّارى . (القاموس المحيط ٣٦٩ ، ٤٨٧ Dozy, *op.cit.*, II, 334) .

[3] جام جـ . جامات . آنية تكون أحيانًا من الفخار أو من الزجاج أو من الفضة يصب فيها السكر بعد نضجه لصنع الحلوى . (الفيروزابادى : القاموس ١٤٠٩ ؛ Dozy, *op.cit.*, I, 168).

[4] جامعُ المِقْيَاس . كان جزءً من مجموعة عمائر أقامها أمير الجيوش بدر الجمالى فى رجب سنة ١٠٩٢/٤٨٥ حول المقياس عند الطرف الجنوبى لجزيرة الرَّوْضة . ولم يُخَلِّف لنا المقريزى وصفًا لهذا الجامع فى الفصل الذى عقده للحديث عن جوامع القاهرة وظواهرها (الخطط ٢: ٢٩٠) كما أن ابن دقماق نسب بناء هذا الجامع إلى الأفضل شاهنشاه دون تعيين عام البناء (الانتصار ٤: ١١٥) . وقدَّم لنا ج . ما رسيل ، أحد علماء الحملة الفرنسية فى آخر القرن الثامن عشر ، وصفا تفصيليًا يؤكد الوجود التاريخى لهذا الجامع . وللأسف الشديد فقد اختفت جميع هذه العمائر التى شيدَّها بدر الجمالى ، فيما عدا المقياس ، بعد وصف مارسيل لها بنحو نصف قرن ليحل محلها قصرٌ كبير بناه فى سنة ١٨٥٠/١٢٦٧ حسن باشا فؤاد المناسترلى (على مبارك : الخطط ٥: ١٢٣) وقد ضاعت أغلب =

ولوَفَاء النِّيل عندهم قدرٌ عظيم ويبتهجون به ابتهاجًا زائدًا ، وذلك لأنه عمارة الديار المصرية وبه التئام الخلق على فضل الله ، فيحسن عند الخليفة موقعه ويهتم بأموره اهتمامًا عظيمًا أكثر من كل المواسم[1] . فإذا أصبح الصبح من هذا اليوم وحضرت مطالعة ابن أبى الرَّدَّاد إليه بالوَفَاء ركب إلى المِقْياس لتخليقه ، فيستدعى الوزير على العادة فيحضر إلى القصر فيركب الخليفة بزىّ أيام الركوب من غير مِظَلَّة ولا ما يجرى مجراها ، بل فى هيئة عظيمة من الثياب ، الوزير تابعه فى الجمع الهائل على ترتيب الموكب ، ويخرج من القصر شاقًّا القاهرة إلى باب زُوَيْلة وسالكًا الشارع إلى آخر الركن من بستان عَبَّاس – المعروف اليوم بسيف الإسلام [عند رأس الصَّليبة بالقرب من الخانقاه الشيخونية الآن] – فيعطف سالكًا على جامع ابن طولون والجِسْر الأَعْظَم بين الركنين إلى السَّاحِل بمصر ، إلى الطريق المسلوكة على طرف الخَشَّابين الشرقى على دار الفاضل ، إلى باب الصِّناعة بجوارها ، وله دِهْليز مادّ فيخرج منها منعطفًا على الصناعة الأخرى ، وكانت هذه برسم المَكْس ، إلى السُّيُوفيين ثم على مَنَازِل العِزّ – التى هى اليوم مدرسة – ثم رلى دار المُلْك فيدخل من الباب المقابل لسلوكه فيترجّل الوزير عنده للدخول بين يديه ماشيًا إلى المكان المعدّ له . ويكون قد حمل أمس ذلك اليوم من القصر البيت المتخذ للعُشَارى الخاص وهو بيت مُثَمَّنٌ من عاج وأبنوس ، عرض كل جزء ثلاثة أذرع ، وطوله قامة رجل تام ، فيجمع بين الأجزاء الثمانية فيصير بيتًا دوره أربعة وعشرون ذراعًا ، وعليه قبة من خشب محكم الصناعة وهو بقبته مُلَبَّس بصفائح الفضة والذهب فيتسلمه رئيس العُشَاريات الخاص ويُرَكِّبه على العُشارى المختص بالخليفة ، ويُجعل باكر ذلك اليوم الذى يركب الخليفة فيه على الباب الذى يخرج منه للركوب إلى المِقْياس .

= معالم هذا القصر اليوم .

وكان يوجد بالجامع ثلاث لوحات تذكارية تحمل تقريبًا نصًا واحدًا توضح أن أمير الجيوش بدر الجمالى هو الذى أمر ببناء هذا الجامع فى رجب سنة ٤٨٥ فى خلافة المستنصر بالله (راجع *RCEA* VII, n°2794-96; أحمد فكرى : مساجد القاهرة ومدارسها ١ : ٩٠ ؛ Fu'âd Sayyid, A., *op. cit.*, pp. 447-51 .

[1] راجع كيفية الاحتفال بوفاء النيل فى رجب سنة ٤١٥ عند المسبحى : أخبار ٤٧ ويلاحظ بساطة الاحتفال فى بداية العصر الفاطمى .

فإذا استقرّ الخليفة بالمَنْظَرة بدار المُلك التى يخرج من بابها إلى العُشارى وأسند إليه ، استدعى الوزير من مكانه فيحضر إليه ويخرج بين يديه إلى أن يركب فى العُشارى فيدخل البيت المذهب وحده ومعه من الأستاذين المحنّكين من يأمره من ثلاثة إلى أربعة . ثم يطلع فى العُشارى خواص الخليفة خاصة ، ورسم الوزير اثنان أو ثلاثة من خواصه وليس فى العُشارى من هو جالس سوى الخليفة باطنًا والوزير ظاهرًا فى رواق من باب البيت الذى هو بعَرَانيس من الجانبين قائمة مخروطة من أخفّ الخشب، وهى مدهونة وعليها من جانبيها ستور معمولة برسمها على قدرها .

فإذا اجتمع فى العُشارى مَنْ جرت عادته بالاجتماع اندفع من باب القنطرة طالبًا باب المقياس العالى على الدَّرَج التى يعلوها النيل . فيدخل الوزير ومعه الأستاذون بين يدى الخليفة إلى الفسقية . فيصلى هو والوزير ركعات كل واحد بمفرده ، فإذا فرغ من صلاته أحضرت الآلة التى فيها الزَّعْفَران والمِسْك فيَدِيفها فى إناء بيده بآلة معه ، ثم يتناولها صاحب بيت المال فيناولها لابن أبى الرَّدَّاد فيلقى نفسه فى الفسقية وعليه غلالته وعمامته ، والعمود قريب من درج الفسقية ، فيتعلّق فيه برجليه ويده اليسرى ويُخلّقه بيده اليمنى وقُرّاء الحَضْرَة من الجانب الآخر يقرءون القرآن نَوْبَة نوْبَة ؛ ثم يخرج على فوره راكبًا فى العُشارى المذكور ، وهو بالخيار إما أن يعود إلى دار المُلك ويركب منها عائدًا إلى القاهرة ، أو ينحدر فى العُشارى إلى المَقْس فيتبعه الموكب فيسير من هناك إلى القاهرة . ويكون فى البحر فى ذلك اليوم ألف قُرقُورَة مشحونة بالعالم فَرَحًا بوفاء النيل .

ثم يصير ابن أبى الرَّدَّاد باكر ثانى ذلك اليوم إلى القصر بالإيوان الكبير الذى فيه الشُّبَّاك إلى باب بجواره فيجد خِلْعَة معبأة هناك فيؤمر بلبسها ويخرج من باب العيد شاقًّا بها بين القصرين من أوله قَصْدًا لإشاعة ذلك ، فإن ذلك من علامة وفاء النيل ولأهل البلاد إلى ذلك تَطَلُّع ، وتكون خِلْعَة مُذْهبة ؛ وإذا كان من العدول المحنّكين فيشرّف فى الخِلْعَة بالطَّيْلَسان المقَوّر ويندب له من التغييرات ولمن يريده خمسة تغييرات مركبات بالحلى ، ويُحمل أمامه على أربعة بِغال مع أربعة من مستخدمى بيت

المال أربعة أكياس فى كل كيس خمسمائة درهم ظاهرة فى أكفهم ، وبصحبته أقاربه وبنو عمه وأصدقاؤه ، ويُنْدب له الطبل والبوق ويكتنف به عدَّة كثيرة من المتصرِّفين الرجالة . فيخرج من باب العيد ويركب إحدى التغييرات ، وهى أميزها ، وشُرُف أمامه بحملين من التَّقارات التى قدَّمنا ذكرها - يعنى فى ركوب أوَّل العام من زىّ الموكب . فيسير شاقًّا القاهرة والأبواق تضرب أمامه كبارًا وصغارًا والطبل وراءه مثل الأمراء ، وينزل على كل باب يدخل منه الخليفة ويخرج من باب القصر فيَتَقبَّله ويركب . وهكذا يعمل كل مَنْ يُخْلَع عليه من كبير وصغير من الأمراء المطوَّقين إلى مَنْ دونهم سيفًا وقلمًا . ويخرج من باب زُوَيْلَة طالبًا مصر من الشارع الأعظم إلى مسجد عبد الله إلى دار الأَنْماط جائزًا على الجامع إلى شاطىء البحر ، فيَعَدَّى إلى المقياس بِخلَعِه وأكياسه ، وهذه الأكياس مُعَدَّة لأرباب الرسوم عليه فى خِلَعِه ولنفسه ولبنى عمه بتقرير من أول الزمان»[1] .

أما «رُكُوبُ فَتْح الخَلِيج» - وهو الاحتفال الذى بدأ منذ وصول الفاطميين إلى مصر - فقد كان يتم فى نهاية العصر الفاطمى تبعًا لرواية ابن الطُّوَيْر على النحو التالى :

« فإذا انقضى هذا الشأن شرع فى الركوب إلى فَتْح الخليج ثانى يوم ، وقد كان وَقَعَ الاهتمام به منذ دخلت زيادة النيل ذراع الوفاء اهتمامًا عظيمًا؛ فيُعْمَل فى بيت المال موائد من التماثيل شكل الوحوش من الغِزلان والسِّباع والفِيَلَة والزرازيف عدَّة وافرة ، منها ما هو مُلَبَّس بالعَنْبَر ، ومنها ما هو مُلَبَّس بالصَّنْدَل ، ثم شكل التفاح والأُتْرُجّ اللطيف ، والوحوش مُفَسَّرة الأَعْيُن والأعضاء بالذهب إلى غير ذلك .

ثم تخرج الخَيْمَة التى يقال لها « القَاتُول » لأن فرّاشًا سقط من أعلى عمودها فمات فسميت بذلك ، وطوله سبعون ذراعًا وأعلاه صفرية فضية تَسَع راوية ماء ، وعليه الفَلْكَة التى كانت فى الإيوان إلى قريب الوقت . ثم يعمل فى أوَّل العمود شُقَّة

---

[1] ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٨٩-١٩٥ ؛ المقريزى : الخطط ١: ٤٧٦-٤٧٧ وقارن القلقشندى : صبح ٣: ٥١٢-٥١٤ .

دائرة ، ثم أوسع منها ، ويتوالى ذلك إلى إحدى عشرة شُقّة ، فتصير سعة الخيمة ما يزيد على فَدّانين مستديرة ، وتُنصب فى برّ الخليج الغربى على حافته ، مكان بستان المحلّى اليوم .

وكانت ثَمّ منظرة يقال لها « الشكّرة »[1] برسم جلوس الخليفة لفتح الخليج فى مثل هذا اليوم ؛ وينصب أرباب الرُّتب من الأمراء من بحرىّ تلك الخيمة الكبرى خيامًا كثيرة، ويتمايزون فيها على قدر هِمَمِهم وضَرْبهم إياها فى الأماكن الأقرب فالأقرب على قدر رتبهم .

فإذا تم ذلك وعزم الخليفة على الركوب ثالث يوم التخليق أو رابعه أخرج كل من المستخدمين فى المواضع المقدّم ذكرها من السلاح والمركبات الحلى وجنائب الخليفة المقدّم ذكرها فى ركوب أوّل العام وآلات الموكب على عادته ويزاد فيه إخراج أربعين بوقًا، عشرة من الذهب وثلاثون من الفضة ، ويكون بوّاقوها ركبانًا وأرباب الأبواق النحاس مشاة ، ومن الطبول الكبار التى مكان خشبها فضة عشرة . فإذا حضر الوزير إلى باب القصر خَرج الخليفة فى هيئة عظيمة وهِمّة عالية وقد تضاعفت عُدَد الأجناد فى ذلك اليوم فارسها وراجلها ، ويخرج زىّ الخليفة من المِظَلّة والسيف والرمح والألوية والدواة وغير ذلك من الأستاذين المحنّكين . ويركب فى ذلك اليوم من الأقارب المقيمين بالقصر عشرون أو ثلاثون وهم بالنَّوْبَة فى كل سنة ، فيتقدّمون إلى المنظرة فى مكان لهم صُحْبَة أُستاذَيْن لخِدْمَتهم وحِفْظِهم ، ويكون قد لُفّ عمود الخيمة الكبرى المشار إليها إما بديباج أبيض أو أحمر من أعلاه إلى

[1] مَنْظَرة الشكّرة . واحدة من مناظر الخلفاء الفاطميين ، بناها الخليفة العزيز بالله فى بر الخليج الغربى وكانت مخصّصة لجلوس الخلفاء يوم فتح الخليج . (أبو صالح : تاريخ ٣٢ ؛ ابن المأمون : أخبار ٧٢ ، ٧٨ ؛ ابن دقماق : الانتصار ٤: ١٢٠-١٢١ ؛ المقريزى : الخطط ١: ٤٧٠) وأضاف المقريزى « ويشبه أن يكون موضعها فى المكان الذى يقال له اليوم المريس بالقرب من قنطرة السد » ، والمَرِيس هو مكان بستان الخَشّاب وعرف بالمريس لأن كثيرًا من السودان والمريس والنوبة كانوا يسكنون به فعرف بهم . (الانتصار ٤: ١٢١) ويحدد مكان « المريس » اليوم المنطقة التى تمتد من الشمال بامتداد شارع الوافدية ، ومن الغرب شارع حلوان ومن الجنوب شارع على إبراهيم بالسيدة زينب . (أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٩: ١٩٦ هـ١) .

أسفله ، ويُنْصَب مُسندًا إليه سرير الملك ويُغشَّى بقُرقُوبى وعَرانيسه[١] ذهب ظاهرة.

فيخرج الخليفة للركوب ويركب فيخرج من باب القصر وعليه ثوبٌ يقال له «البَدَنَة» ، وهو كله ذهبٌ وحريرٌ مرقوم ، والمِظَلَّة من شكله ، ولا يلبس هذا الثوب فى غير هذا اليوم . ويسير بالموكب الهائل شاقًّا القاهرة من الطريق التى ركب منها لتخليق المقياس ، إلاَّ أنه لا يدخل طرق مصر من الخشّابين بل خارجها من طريق الساحل . فإذا جاز على جامع ابن طولون وَجَد قد ربط من رأس المنارة من مكان العُشارى النحاس حبلاً طويلاً قويًّا موضوعًا آخره فى الطريق وفيه قوم يقال لهم النختبارية[٢] ، واحد فى زىّ فارس على شكل فرس وفى يده رمح وبكتفه دَرَقَة فينحدر على بَكَر وفى رجليه آخر ممسكها وهو يتقلَّب فى الهواء بطنًا وظهرًا حتى يصل إلى الأرض . ويكون قاضى القضاة وأعيان الشهود جلوسًا فى باب الجامع من هذه الجهة ، فإذا وازاهم الخليفة ، وكانوا قد ركبوا ، وَقَف لهم وقفة فيُسَلِّم على القاضى ثم يدخل فيُقَبِّل الرجل من جانبه لا غير ويدخل بالشهود فى الفَرْجَة أمام وجه الدَّابة بمقدار أربعة أذرع عن الخليفة ، فيُسَلِّم عليهم ويرجعون إلى دوابهم فيركبون ؛ ويكون قد نصب لهم بالقرب من الخيمة الكبرى خيمتان : إحداهما ديباج أحمر ، والأخرى ديبقى أبيض بصفارى فضة لكل واحدة ؛ فيتم الخليفة بهيئته إلى أن يدخل من باب الخيمة ، ويكون الوزير قد تقدَّمه على العادة ليخدمه ، فيجده راجلاً على باب الخيمة فيمشى بين يديه إلى سرير الملك ، فينزل ويجلس على المرتبة المنصوبة فيه ويحيط به الأستاذون المحنَّكون والأمراء المُطَوَّقون بعدهم ، ويوضع للوزير الكرسىّ الجارى به عادته فيجلس عليه ورجلاه تحكّ الأرض ، ويقف أرباب الرُّتَب صَفَّين من ناحية سرير الملك إلى ناحية الخيمة ، والقُرَّاء يقرءُون القرآن ساعة زمانية ، فإذا ختموا قراءتهم استأْذن صاحب الباب على حضور الشعراء للخدمة بما يُطْلَق هذا اليوم ، فيأمر بتقديمهم واحدًا بعد واحد ، ولهم منازل على مقدار أقدارهم ، فالواحد يتقدَّم الواحد بخطوة فى الإنشاد ، وهو أمر معروف عند مستخدم يقال له « النائب » .

---

[١] عِرْناس جـ . عرانيس . العمود الذى يحمل مظلة السرير .

[٢] النختبارية . قوم لا نعرف على وجه التحديد دورهم أو وظيفتهم ذكرهم ابن المأمون جنبًا إلى جنب مع المنافقين . (أخبار ٨٩) ويبدو من وصف ابن الطُّوَيْر أنهم كانوا يؤدون ألعابًا بهلوانية .

ثم يقوم الخليفة عن السرير راكبًا والوزير بين يديه حتى يطلع على المَنْظَرة المعروفة بالسُّكَّرَة وقد فُرِشَت بالفُرُش المعدَّة لها فيجلس فيها ، ويتهيأ أيضًا للوزير مكان يجلس فيه . ويحيط بالسدّ حامى البساتين ومشارفها ، لأنه من حقوق خدمتهما ، فتفتح إحدى طاقات المنظرة ويطل منها الخليفة على الخليج ، وطاقة تقاربها يتطَلَّع منها أستاذ من الخواص ويشير بالفتح فيُفْتَح بأيدى عمال البساتين بالمَعَاول ويخدم بالطبل والبوق من البرّين . فإذا اعتدل الماء فى الخليج دخلت العُشاريات اللطاف ، ويقال لها الشُّماريات الخاص ، وكأنها خدم بين يدى العُشَارى الذهبى المقدَّم ذكره ، ثم العُشَاريات الخاص الكبار وهى ستة : الذهبىّ المذكور ، و الفِضِّى ، والأحمر ، والأصفر ، واللَّازوَرْدِى ، والصِّقِلِّى ، وكان أنشأه نجَّارٌ من رؤساء الصناعة صقلىّ وزاد فيه على الإنشاء المعتاد فيُنسب إليه . وهذه العُشَاريات لا تخرج عن خدمة خاص الخليفة فى أيام النيل وتحوُّله إلى اللؤلؤة للفُرْجة ، وسارت فى الخليج وعلى بيت كل منهما الستور الدَّبيقى الملوَّنة وبرؤسها وفى أعناقها الأهِلَّة وقلائد من الخرز ، فتُسْنَد إلى البرّ الذى فيه المَنْظَرة الجالس فيها الخليفة .

فإذا استقرّ جلوس الخليفة والوزير بالمَنْظَرة ودخل قاضى القضاة والشهود الخيمة الديبقى البيضاء ، وصلت المائدة من القصر فى الجانب الغربى من الخليج على رؤوس الفرّاشين صُحْبَة صاحب المائدة وعدتها مائة شَدَّة فى الطيافر الواسعة وعليها القَوَّارات الحرير وفوقها الطُّرَّاحات ولها رواء عظيم ومِسْك فائح فتوضع فى خيمة واسعة منصوبة لذلك ، ويحمل للوزير ما هو مستقرّ له بعادة جارية ، ومن صوانى التماثيل المذكورة ثلاث صوان ، ويخصص منها أيضًا لأولاده وإخوته خارجًا عن ذلك إكرامًا وافتقادًا . ويُحْمَل إلى قاضى القضاة والشهود شَدَّة من الطعام الخاص من غير تماثيل توقيرًا للشَرْع . و يُحْمَل إلى كل أمير فى خيمته شَدَّة طعام وصينية تماثيل . ويصل مِنْ ذلك إلى الناس شىء كثير ، ولا يزالون كذلك إلى أن يُؤَذَّن بالظهر فيُصَلُّون ويقيمون إلى العصر ، فإذا أُذِّن به صَلَّى ، وركب الموكب كله لانتظار ركوب الخليفة ، فيركب لابسًا غير البَدَنَة ، بل بهيئته ، والمِظَلَّة مناسبة لثيابه التى عليه واليتيمة والترتيب بأجمعه

على حاله[١] ويسير فى البرّ الغربىّ من الخليج شاقًا البساتين هناك حتى يدخل من باب القنطرة إلى القصر والوزير تابعه على الرسم المعتاد ويمرّ فيه للقوم أحسن الأيام ، ويمضى الوزير إلى داره مخدومًا على العادة»[١] .

رُكُوبُ الخَلِيفَة فى الأعْياد الشّيعيّة

فى وَسَط الاحتفالات الموكبية التى احتفل بها الفاطميون فى مصر سواء التى انفردوا بالاحتفال بها أو التى استمرت بصورة أو بأخرى بعد سقوط دولتهم ، سنجد أن الاحتفال بركوب عيد الغَدير (غدير خُمّ) هو الاحتفال الوحيد الذى له أصول شيعية . ومع ذلك فقد خَضَع هذا الاحتفال لتغييرات مماثلة لتلك التى صحبت الاحتفالات الفاطمية الأُخرى . ففى بداية العصر الفاطمى كان الاحتفال بعيد الغَدير مثله مثل « حُزْن عاشوراء » - الذى يحيى ذكرى مقتل الحسين - احتفالاً شيعيًا فى الأساس . ولكن اعتبارًا من القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى أصبحت الحكومة الفاطمية تُنَظِّم احتفالاً موكبيًا خاصًا به على غرار الاحتفال بعيد الأضْحَى ، وأصبح جزءًا من الطقوس التى استجدت فى فترة خلافة الآمر ووزارة المأمون البَطائِحى . وقرب نهاية العصر الفاطمى تبَنَّت الإمامة الفاطمية فى عهد الحافظ لدين الله ملابسات ما حَدَث فى غدير خُمّ لتبرير اعتلائه رُتْبَة الإمامة . وهكذا فقد تَحَوَّل الاحتفال بعيد الغَدير فى العصر الفاطمى من احتفال شيعى إلى احتفال موكبى يشارك فيه الخليفة الفاطمى وأخيرًا للرد به على معارضى الإمامة فى عهد الحافظ[٣].

---

[١] ذكر ابن المأمون أن الخليفة كان يلبس بدلة جميعها حريرى برسم العَوْد (أخبار ٥٥ ، ٨٤) .

[٢] ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٩٥-٢٠٣ ؛ المقريزى : الخطط ١: ٤٧٧ س ١٤-٤٧٩ وقارن القلقشندى : صبح ٣ : ٥١٤-٥١٧ وأبا المحاسن : النجوم ٤: ٩٩-١٠٠ ؛ Sanders, P., *op.cit.*, pp. 100-112 ؛ وفيما سبق ص ٢٥٢ .

[٣] . Sanders, P., *op.cit.*, p. 121

و « غَدير خُمّ » نسبة إلى خُـــمّ موضع بين مكة والمدينة به غدير وحوله شجر كثير[١] . كان رسول الله ﷺ عند عودته من مكة بعد حَجّة الوداع فى اليوم الثامن عشر من ذى الحجــة سنة ١٠هـ نَزَل به وآخى بينه وبين على بن أبى طالب رضى الله عنه[٢] . ويُعَلِّق الشيعة أهمية كبيرة على هذا الحديث إذ يعتبرونه مبايعة علنية من الرسول ﷺ لعلى بن أبى طالب بخلافته .

وأوّل ما احتفل الشيعة بعيد الغَدير فى العراق سنة ٣٥٢هـ/٩٦٣م فى أيام مُعِزّ الدولة بن بُوَيْه ، أما أوّل ما عُمِلَ فى مصر ففى سنة ٣٦٢هـ/٩٧٣م بعد وصول الخليفة المُعِزّ إليها ، حيث تَجَمّع خَلْقٌ من أهل مصر والمغاربة للدعاء ، فأعجب المُعِزّ ذلك من فعلهم . وكان الاحتفال بعيد الغدير يتم فى صدر الدولة الفاطمية بطريقة مُبَسّطة فقد ذكر المُسَبِّحى فى حوادث سنة ٤١٥هـ/١٠٢٥م أن الناس جروا على رسومهم فى يوم عيد الغدير وتَزَيّوا بأفخر زِيِّهم وطَلَع المنشدون إلى القصر المعمور يدعون وينشدون على رسومهم ، ولم يجر منهم شىء من سَبّ السَّلَف بمصر ولا تَجَمّع ولا حال يُذَم[٤]. وبعد ذلك لا نجد إشارة فى المصادر إلى الاحتفال بعيد الغدير حتى عام ٥١٦هـ/١١٢٣م عندما يُقَدِّم لنا ابن المأمون وَصْفًا للرسوم المعقدة التى أصبحت تصحب هذا الاحتفال فى إطار الاحتفالات التى استجدّها فى فترة خلافة الآمر بأحكام الله والده الوزير المأمون البَطائِحى . ففى هذه المناسبة هاجر إلى بابِ الوزير الضُّعفاء والمساكين من البلاد وانضم إليهم العوالى والأدوان على عادتهم فى طلب الحلال وتزويج الأيامى حتى أصبح موسمًا يرصده الناس ويرتقبه كل غنى وفقير . كما تصنع له كُسْوة خاصة للخليفة والوزير ويُفَرّق على العساكر سبعمائة وتسعون دينارًا عَيْنًا ومائة وأربع وأربعون قطعة من

---

[١] ياقوت : معجم البلدان ٢: ٣٧١ .

[٢] أحمد بن حنبل : المسند ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ، القاهرة ١٩٥٢ ، ١٩٥٨ ، ٩٥٠-٩٥٢ ، ٩٦١ ، ٩٦٤ .

[٣] ابن ميسر : أخبار مصر ١٦٢ ؛ المقريزى : الخطط ١: ٣٨٩ .

[٤] المسبحى : أخبار مصر ٨٥ ؛ المقريزى : اتعاظ ٢: ١٦٨ .

الكُسْوَة. ويضيف ابن المأمون بأنه كان « يُفَرّق من مال الوزير بعد الخَلْع عليه ألفان وخمسمائة دينار وثمانون دينارًا ، وأمر بتعليق جميع أبواب القصور وتفرقة المؤذّنين بالجوامع والمساجد عليها ، وتقدّم بأن تكون الأسْمِطَة بقاعة الذّهَب على حُكْم سماط أوّل يوم عيد النّحْر » . وفى اليوم التالى كان الخليفة يتوجّه إلى الميْدان ويذْبَح ما جرت به العادة ويذْبَح الجزارون بعده مثل عدد الكباش المذبوحة فى عيد النّحْر ويأمر بتفرقة ذلك على الخصوص دون العموم . وبعد ذلك يجلس الخليفة فى المَنْظَرَة وتخدم الرَّهَجِيَّة ، ويتقدّم الوزير والأمراء فيسلمون عليه . وعندما يحين وقت الصلاة يقف المؤذّنون على أبواب القصر يُكَبّرون تكبير العيد إلى أن يدخل الوزير فيجد الخطيب على المنبر قد فرغ ، ويتقدّم القاضى فيصلى به وبالجماعة صلاة العيد ، ثم يصعد الشريف ابن أَنَس الدولة ويخطب خطبة العيد ، وبعد ذلك يتوجّه الوزير إلى باب الملك فيجد الخليفة قد جلَس للقائه وقد ضربت المَقْرَمَة (ستر من الحرير) فيأمره بالمُضِىّ إليها ويخلع عليه خِلْعَةَ مكَمّلَة من بدلات النّحْر وثوبها أحمر بالشّدّة الدائمية ويُقَلّده سَيْفًا مرَصّعًا بالياقوت والجوهر ، وعندما يهم الوزير بالنهوض لتقبيل الأرض يجد الخليفة قد أعَدّ له عقدًا بالجوهر ويربطه فى عنقه بيده مبالغةً فى إكرامه .

ويعقد فى هذا اليوم ثلاثة أسْمِطَة يحضر الخليفة فيها السّماط الثالث فقط ، ويكون الدور الأكبر فى هذا الاحتفال كما يَتضّح من وَصْف ابن المأمون للوزير[1].

أما الوَصْف الذى يُقَدّمه لنا ابن الطُّوَيْر فهو كبقية أوصافه وصفًا نموذجيًا لما يجب أن يكون عليه الموكب أو الاحتفال ، وفى فترة متأخّرة ربما ترجع إلى أثناء عهد الخليفة الحافِظ ، حيث أخذ الاحتفال أبعادًا جديدة وأصبح احتفالا مُوجّها ضد الفرقة الطَّيِّبيّة لتبرير شرعية وصول الحافظ إلى رُتْبَة الإمامة . يقول :

---

[1] ابن المأمون : أخبار مصر ٤٣ .

« إذا كان العشر الأوسط من ذى الحجة اهتم الأمراء والأجناد بركوب عيد الغدير – وهو فى الثامن عشر منه – وفيه خُطْبة وركوب الخليفة بغير مِظَلّة ولا يتيمة ولا خروج عن القاهرة ، ولا يُخرج لأحدٍ شيء . فإذا كان أوّل ذلك اليوم ركب الوزير بالاستدعاء الجارى به العادة فيدخل القصر ، وفى دخوله بروز الخليفة لركوبه من الكرسىّ على عادته فيخدم ويخرج ويركب من مكانه من الدِّهْليز ويخرج فيقف قُبالة باب القصر ، ويكون ظهره إلى دار فخر الدين جَهَارْكَس اليوم. ثم يخرج الخليفة راكبًا أيضًا فيقف فى الباب ، ويقال له القوس ، وحواليه الأستاذون المحنَّكون رجّالة ، ومن الأمراء المُطَوّقين من يأمره الوزير بإيثار خدمة الخليفة على خدمته . ثم يجوز زىّ كل من له زىّ على مقدار همته ، فأوّل ما يجوز زىّ الخليفة وهو الظاهر فى ركوبه فتجد الجنائب الخاص ، التى قدَّمنا ذكرها أولاً ، ثم زىّ الأمراء المطوّقين ، لأنهم غلمانه ، واحدًا فواحدًا بعُدَدهم وأسلحتهم وجنائبهم إلى آخر أرباب القصب والعَمّاريات ، ثم طوائف العسكر أزمتها أمامها وأولادهم مكانهم لأنهم فى خدمة الخليفة وقوف بالباب طائفة طائفة ، فيكونون أكثر عددًا من خمسة آلاف فارس ، ثم المترجّلة الرماة بالقِسىّ الأيدى والأرجل ، وتكون عِدَّتهم قريبًا من ألف ، ثم الرجل من الطوائف الذين قدَّمنا ذكرهم فى الركوب ، يعنى الجيوشية والريحانية ، فتكون عِدَّتهم قريبًا من سبعة آلاف ، كل منهم بزمام وبنود ورايات وغيرها بترتيب مليح مستحسن ، ثم يأتى زىّ الوزير مع ولده أو أحد أقاربه وفيه جماعته وحاشيته فى جمع عظيم وهيئة هائلة ، ثم زىّ صاحب الباب وفيهم أصحابه وأجناده ونواب الباب وسائر الحجاب ، ثم يأتى زىّ إسفهسلار العساكر بأصحابه وأجناده فى عدَّة وافرة . ثم يأتى زىّ والى القاهرة وزى والى مصر . فإذا خرجا خرج الخليفة من الباب والوقوف بين يديه مشاة فى ركابه خارجًا عن صبيان ركابه الخاص . فإذا وَصَل إلى باب الزُّهُومة بالقصر [الباب الجنوبى الغربى للقصر] انعطف على يساره داخلاً من الدرب هناك جائزًا على الخُوَخ ، فإذا وصل إلى باب الدَّيْلم [وهو الباب الجنوبى الشرقى للقصر] الذى داخله المَشْهَد الحُسَيْنى فيجد فى دِهْليز ذلك الباب قاضى القضاة و الشهود ،

فإذا وازاهم خرجوا للخدمة والسلام عليه ، فيسلِّم القاضى كما ذكرنا من تقبيل رجله الواحدة التى تليه والشهود أمام رأس الدَّابة بمقدار قصبة . ثم يعودون ويدخلون من ذلك الدَّهْليز إلى الإيوان الكبير وقد عُلِّق عليه الستور القُرْقُوبى فى جميعه على سعته وغير القُرْقُوبى سترًا فسترًا ، ثم يعلَّق بدائره على سعته ثلاثة صفوف : الأوسط طوارق فارسيات مدهونة والأعلى والأسفل درق وقد نصب كرسىّ الدعوة وفيه تسع درجات لخطابة الخطيب فى هذا العيد ، فيجلس القاضى والشهود تحته والعالم من الأمراء والأجناد والمتشيعين ومن يرى هذا الرأى من الأكابر والأصاغر . فيدخل الخليفة من باب العيد إلى الإيوان إلى باب المُلْك ، فيجلس بالشُّبَّاك وهو ينظر القوم ، ويخدمه الوزير عندما ينزل ، ويأتى هو ومن معه فيجلس بمفرده على يسار منبر الخطيب ، و يكون قد شُيِّر لخطيبه بدلة حريرية يخطب فيها وثلاثون دينارًا ، وتُدْفع له كرّاس محرَّرة من ديوان الإنشاء تتضمَّن نص الخلافة من النبى عليه السلام إلى على بن أبى طالب بزعمهم ، وشَرَح فيها الخبر المنقول : « مَنْ كُنْتَ مولاه فعلىّ مولاه » وغير ذلك مما ورد فى حق على من الكرامة ، وأن هذا هو النص له بالخلافة دون غيره فإذا فرغ الخطيب ونزل ، صلَّى قاضى القضاة بالناس ركعتين يقرأ فيهما من الآيات ما يقع الاختيار عليه فى ذلك المحل . فإذا قضيت الصلاة قام الوزير إلى الشُّبَّاك فيخدم الخليفة ويمضى ويَنْفَضّ الناس بعد التهانى بين الإسماعيلة بعضهم بعضًا . وهو عندهم أعظم من عيد النَّحْر ويَنْحَر فيه أكثرهم»[1].

---

[1] المقصود الخُوَخ السَّبع . وهى سبع خوخ متتالية متصلة باصطبل الطَّارِمَة يتوَصَّل منها الخلفاء إلى الجامع الأزهر فيخرجون من باب الدَّيْلم إلى الخُوَخ ويعبرون منها إلى الجامع الأزهر . وذكر المقريزى أن هذه الخُوَخ قد زالت تمامًا فى عصره (الخطط ١: ٣٦٢ و ٣٧٤ ، ٢: ٣٥ و ٤٠ و ٤٥ ؛ Fu'ād Sayyid, A., *op.cit.*, pp. 324-26) .

أى أن الموكب يخرج من باب الذَّهَب ويسير جنوبًا تجاه باب الزُّهومة ثم ينعطف يسارًا مخترقًا الخُوَخ السبع مارًا بالقصر النافعى حتى يصل إلى باب الدَّيْلم .

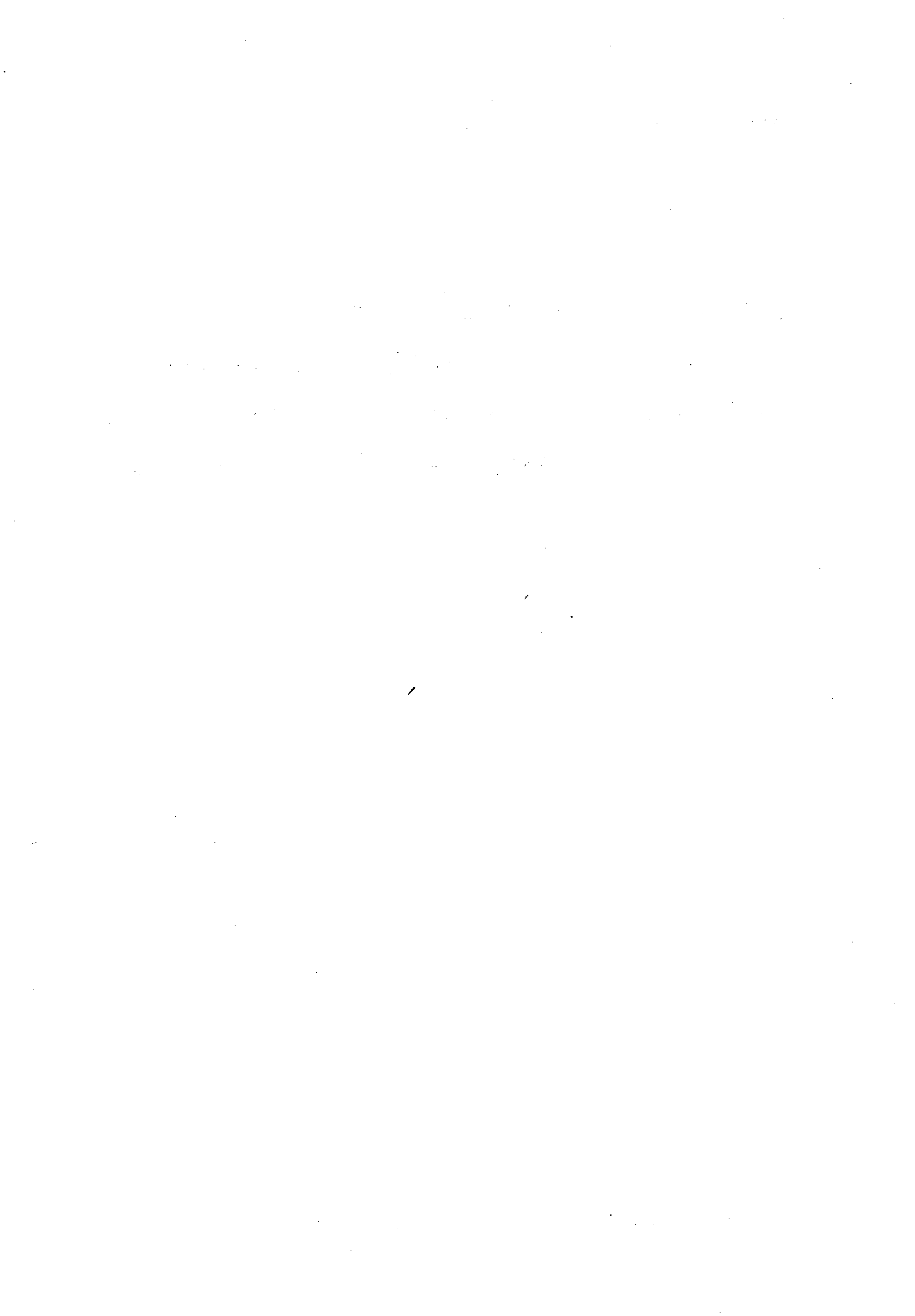
*
* *

كانت كل هذه المواكب الاحتفالية يُكْتَب بها سِجّلات بالبشارة بركوب الإمام (الخليفة) فيها وعوده بسلامة الله إلى قصره تُوَجّه إلى الإقاليم ، كان يصدرها ديوان الإنشاء الفاطمى ووصلت إلينا نماذج من هذه السجلات ترجع كلها إلى الفترة الفاطمية المتأخّرة أغلبها من إنشاء كاتب الإنشاء الشهير ابن الصَّيْرَفى[2] .

---

[1] ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٨٦-١٨٩ ؛ المقريزى : الخطط ١: ٣٨٩ وقارن Sanders, P., *op.cit.*, pp. 121-34 .

[2] انظر ابن الطوير : نزهة المقلتين (الملاحق) .



الفصل الثالث عشر

النشاط الاقتصادى

الزِّرَاعـــــة

تُعَدُّ الزِّراعَة عَصَبَ الاقتصاد المصرى، وقد تنبّه إلى ذلك الفاطميون منذ قدوم جَوْهَر القائد[1]. وتَوَقّف نجاح الزِّراعة فى مصر على عاملين: فيضان النيل، وعناية الحكومات بتوفير الإمكانات اللازمة للعناية بالزِّراعة[2]. فقد كان فيضانُ النيل ذا أثر عظيم بالنسبة لرخاء البلاد وعائد الإيرادت التى تحصل عليها الحكومة (الارتفاع). وكان الفيضان المنخفض (وهو الظمأ أى اثنتا عشر ذراعًا) يعنى استحالة رَىّ جميع الأراضى مما يؤدِّى إلى نَقْص المحصول وعَجْز الحكومة عن جباية الخراج، كما أن الفيضان العالى (وهو الاستبحار أى ثمانية عشر ذراعًا) كان يؤدى إلى إغْراق الأرض وإتلاف الزرع فيقل الكلأ والمَرْعى مما يضر بالبهائم، وفى كلا الحالتين يُهَدِّد البلاد القَحْطُ الذى كثيرًا ما صحبه الوباء[3].

لذلك فقد قَسَّمَ المصريون الأرض الزراعية إلى حياض يصل إليها الماء فى زمن الفيضان بواسطة شبكة واسعة من التُّرَع والقنوات التى تُسَدّ حتى يبلغ ارتفاع النيل حَدًّا معينًا اتّفَق المؤرِّخون أنه ستة عشر ذراعًا[4]. وحتى يتسنى غَمْر هذه الحياض بالماء كان من الضرورى أن يبلغ النيل حَدّ الوفاء، وأن يتم تطهير هذه

---

[1] انظر فيما سبق ص ١٤٦.

[2] البرواى: حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ٦٣.

[3] المخزومى: المنهاج – خ ٤٧ ظ، ناصر خسرو: سفرنامة ٨٢، ٨٣، ابن مماتى: قوانين ٧٦؛ القلقشندى: صبح ٣: ٢٩٥، المقريزى: الخطط ١: ٥٨- ٥٩؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ١: ٥٤.

[4] المقريزى: الخطط ١: ٦٠.

التُّرَع فى فصل الجفاف [١]. وقد عَجَزَ الفاطميون وحُكّام مصر الإسلامية عمومًا، عن مواجهة النتائج المترتبة على ظاهرة نَقْص فيضان النيل. وقد استتبع ذلك ضرورة صيانة الجسور، التى يَتَوَقَّف عليها بقاء الماء فوق سطح الحياض ومنعها من التسرُّب مرة أخرى إلى النهر من وراء الجسور [٢].

أما العامِلُ الثانى فقد تَمَثَّل فى ضرورة عمل الحكومات المتعاقبة على تحسين الرَّىّ وتعميق الترع والقنوات والمحافظة على الجسور المقامة على النيل [٣]. فكانت صيانة الجسور عَمَلًا إجباريًّا، وكان هناك نوعان من الجسور: جسور سلطانية تشرف عليها الحكومة، وجسور بلدية تنتفع بها ناحية دون أخرى كان يتولَّى صيانتها وإقامتها المُلّاك والمُتَقَبِّلون، تُخْصَم نفقات عملها وصيانتها من الخراج الذى يتعيَّن عليهم دفعه [٤].

وأدَّى اعتماد الزِّراعة فى مصر على مجىء فيضان النيل وما يحمله من طَمْى، إلى تعطيل الأرض الزراعية معظم أوقات العام، ولم يسمح سوى بزراعة محصول واحد فى السنة من المحاصيل الأساسية وبذلك امتازت مصر بالزراعة الشتوية [٥].

كانت الزراعة الشتوية تبدأ فى شهر كيهاك (ديسمبر) - فقد كان التقويم القِبْطى هو الذى يُعْتَمَد عليه فى معرفة مواسم الزراعة والحصاد وكذا جباية الخراج - وتمتد حتى شهر بؤونة (مارس). فكانت الأراضى التى يغمرها الفيضان غمرًا كاملًا تعرف بـ «البَيَاض» وتنتج المحاصيل التى لا تحتاج للرَّىّ حتى وقت حصادها، وهذا النوع كان

---

[١] محمد محمود إدريس: تاريخ الحضارة الإسلامية (العصر الفاطمى)، القاهرة ١٩٨٦، ٨٤-٨٥؛ البراوى: المرجع السابق ٦٣.

[٢] البراوى: المرجع السابق ٦٣.

[٣] نفسه ٦٥.

[٤] المخزومى: المنهاج - خ ٤٤ ظ، ٤٨و؛ ابن مماتى: قوانين الدواوين ٢٣٢؛ المقريزى: الخطط ١: ٨٢، ١٠٢؛ الحموى: روضة الأديب (أبحاث ألفية القاهرة) ١٠٨٣؛ البراوى: المرجع السابق ٦٥.

[٥] البراوى: المرجع السابق ٦٦.

سائدًا فى معظم أراضى مصر العُلْيا والوُسْطَى باستثناء الفيوم . أما الأراضى التى لم يغمرها الفيضان غَمْرًا كاملًا أو التى لم يغمرها على الإطلاق فكان يُلْجأ فيها إلى الرّىّ الصناعى عن طريق الآبار ، وتعرف بـ « الشتوى » ورغم ما تُكَلِّفه المحاصيل الناتجة عن هذا النوع من الزراعة ، فإن عائدها كان أكبر مما تدره محاصيل النوع الأول [1].

وكانت الزِّراعَة الصيفية تبدأ بعد حصاد المحاصيل الشتوية فى الأماكن الواقعة على جانبى النهر نظرًا لجفاف الترع ، وتمتد من شهر بؤونة (إبريل) وحتى آخر شهر توت (يولية) . وكان الفلاحون يوفرون الماء فى هذه الحالة عن طريق رفعه من النيل بالسواقى والقواديس وغيرها من أدوات [2].

أما الأراضى المنخفضة المجاورة للنهر والتى لا تحتاج إلى آلات لرفع المياه إلى منسوب الأرض ؛ فكانت تزرع طوال العام وبأكثر من محصول وعلى الأخَصّ المحاصيل التى لاتُضار من وفرة الماء مثل القصب والأرز . وتعرف هذه الطريقة باسم « الرّىّ بماء الرّاحَة » [3].

كانت أهم المحاصيل الشتوية هى : القَمْح والشَّعير والبَرْسيم والكِتّان والجُلْبان ، أما أهم المحاصيل الصيفية فكانت قَصَب السُّكّر والأرْز والنيلة والسِّمْسِم والفواكه ، وخاصة الكُروم والرُّمّان والخُوخ والنارِنْج والبِطّيخ والأُتْرُجّ والسَّفَرْجَل والليمون التُّفّاحى [4].

وكانت الأزمات الاقتصادية التى حَلَّت بمصر فى العهد الفاطمى وخاصةً فى أوائل القرن الخامس ومنتصفه عادة نتيجة لقصور ماء النيل وانقطاع الفيضان . وعادة ما كان يعقب هذه الأزمات انتشار الأوبئة وخراب الكثير من المواضع

---

[1] محمد محمود إدريس : المرجع السابق ١١٨؛ البراوى : المرجع السابق ٦٦- ٦٧.

[2] البراوى : المرجع السابق ٦٧.

[3] محمد محمود إدريس : المرجع السابق ٨٧.

[4] البراوى : المرجع السابق ٧١.

العمـرانية مع ما يصحب ذلك من ندرة الأقـوات وارتفاع الأسعار[١].

وكجزء من محاولة التصدى لهذه الكوارث الطبيعية عملت الحكومة الفاطمية – فى أعقاب الشِّدَّة العُظْمى وبعد استيلاء بدر الجمالى على السلطة – على العناية بأمر التُّرَع والجُسُور مما أدَّى إلى ارتفاع إيرادات الدولة ، فيذكر المَخْزومى أن جملة الخراج فى زمن بدر الجمالى بلغ سنة ٤٨٣/١٠٩٠ ثلاثة آلاف ألف ومائة ألف دينار بزيادة ثلاثمائة ألف دينار عن ما كان يُحَصَّل قبل قدومه[٢].

وفى أيام الوزير الأَفْضَل شاهنشاه تم فَتْح خليج من النيل إلى الشرقية[٣]. فقد كان الماء لا يصل إليها إلَّا من السَّرْدوسى ومن الصَّماصِم ، فكان أغلب أراضى هذه المنطقة يَشْرَق فى أكثر السنوات[٤]. وكان مُشارِف هذه المنطقة رجلًا يهوديًّا يعرف بسَنىّ الدولة وأمينها أبى المُنَجّا شُلُومُو بن شِعْيا[٥]. فتضرَّر إليه المزارعون وطالبوه بفَتْح ترعة يصل الماء منها فى ابتداء الفيضان إليهم . فبدأ فى حَفْر الخليج المعروف بـ« خليج أبى المُنَجّا » يوم الثلاثاء السادس من شعبان سنة ٥٠٦/٣٠ يناير سنة ١١١٣، واستمر حَفْر هذا الخليج سنتين ، وكانت الفائدة منه تبرر ما غُرِم عليه . وقد استنكر الأَفْضَل شاهنشاه ، بعد ما أُنْفِق على فَتْح هذا الخليج ، أن يُسَمّى خليج أبى المُنَجّا وأمر أن يُغَيَّر اسمه إلى « البحر الأَفْضَلى » ومع ذلك فإنه لم يُعْرَف عند المؤرِّخين أو بين الناس إلّا باسم « خليج أبى المُنَجّا[٦] » .

---

[١] انظر فيما سبق ص ١٨٣– ١٨٤، ٢٠٤–٢٠٧؛ ودراسة السيد الصاوى : مجاعات مصر الفاطمية – أسباب ونتائج ، بيروت – دار التضامن ١٩٨٨، ٢٥– ٧٢.

[٢] المخزومى : المنهاج – ٤٦و ؛ المقريزى : الخطط ١: ١٠٠.

[٣] ابن ميسر : أخبار مصر ٨٤؛ المقريزى : الخطط ١: ٨٣، ١٠٠، اتعاظ الحنفا ٣: ٧٢.

[٤] ابن المأمون : أخبار مصر ١١.

[٥] انظر عنه Goitein , S. D., *A Med. Soc.* II pp. 356, 358, 377.

[٦] ابن المأمون : أخبار ١١– ١٢؛ القلقشندى : صبح ٣:٣٠١– ٣٠٢؛ المقريزى : الخطط ١:٧١– ٧٢، ٤٨٧– ٤٨٨، اتعاظ الحنفا ٣: ٥٠.

واقترح الوزير المأمون البطائحى على الخليفة الآمر أن يكون لهذا الخليج يومٌ كخليج القاهرة، فأمر ببناء منظرة بحرى سَدِّ الخليج لينظر منها الخليفة الاحتفال بفَتْح هذا الخليج، وظَلَّ يُحْتَفل بيوم فَتْح هذا الخليج حتى نهاية الدولة الفاطمية [١].

وربما كان خَليجُ أبى المُنَجَّا هو نفسه الفرع البيلوزى القديم الذى كان قد طُمِرَ، ولكن بقيت آثاره تدل عليه، فأعاد الفاطميون حفره وتعميقه مما ساعد على رَىّ جانب كبير من الأراضى الواقعة فى شرقى فرع دِمْياط [٢].

---

[١] نفسه.

[٢] البراوى: المرجع السابق ٤٠١.

الصِّـــنَاعَة

لا شك أن التَّطَوُّر الكبير فى تجارة مصر الدولية وافتتاح أسواق جديدة لها ، بالإضافة إلى الرَّفاهية العالية للبلاط الفاطمى قد أدّيا إلى ازدهار مختلف فروع الصِّناعة فى مصر الفاطمية [١]. كذلك فقد دعت الحياة الاجتماعية المترفة ، التى وَصَفَها لنا الرَّحالون الذين زاروا مصر فى هذه الفترة ، إلى تَقَدُّم الصِّناعة من حيث الكم والكيف ، وألْقَت أعباءً جديدة على الإنتاج الصناعى المحلى [٢]. فقد زاد حجمُ الصِّناعات القديمة القائمة فى مصر وأُوْجِدت لها فروع جديدة ، وظهرت معها صناعات لم تكن معروفة من قبل ، واسْتُخْدِمَت أساليبُ جديدة كما تَحَسَّنت الطُّرُق القديمة أو تم تقليد الطُّرُق المستعملة فى مراكز أخرى بنجاح [٣].

ويمكننا تفسير هذا الازدهار ، ولو جزئيًا ، بسياسات الفاطميين الاقتصادية التى تَبَنَّت مبدأ حرية المشاريع [٤]. ولما كان الأقباط هم عماد الصِّناعة فى مصر فى هذا الوقت ، فقد كان لسياسة التَّسامُح التى اتَّبَعَها أغلب خلفاء الفاطميين أثر فى أن يجد الأقباط أنفسهم ويأمنون على أموالهم ويُجَوِّدون أعمالهم ، وكان وراء هذه الروح الجديدة رغبة الفاطميين فى استغلال مهارة الأقباط فى الإنتاج الصِّناعى [٥]، وجَذَبَ هذا الازدهار الكثير من العُمّال الأجانب الذين استقدمهم الفاطميون من بلادهم واجتذبوهم بالرواتب المغرية ، كما أن الفاطميين استعانوا ببعض الأسرى الأجانب فى مجال الصِّناعة [٦].

---

[١] Ashtor, E., *A Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages*, p. 198.

[٢] راشد البراوى : المرجع السابق ١٢٢.

[٣] Ashtor, E., *op. cit.*, p. 198؛ وعن الصناعات فى مصر قبل العصر الفاطمى انظر ، زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر ، القاهرة ١٩٣٥، ٨٣- ١١٥.

[٤] *Ibidem*.

[٥] البراوى : المرجع السابق ١٢١.

[٦] ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٤١- ١٤٢؛ البراوى : المرجع السابق ١٢١- ١٢٤.

وأهم الصّناعات التى ازدهرت فى العصر الفاطمى « صِناعَةُ النّسيج » التى انتشرت فى دَبِيق وتِنّيس ودِمْياط وتُونَة وشَطَا فى الوجه البحرى ، وأنْصِنا والفيوم والبَهْنَسا ودَمِيرَة وأخميم فى مصر الوُسْطَى ومصر العُلْيا ، كما تشير أوراق الجنيزة إلى مراكز جديدة لصناعة الكِتّان مثل : قَطّا ومِنْيَة الخصيب ومنية غَمْر أو مينة زِفْتى [1]. وحذق المصريون هذه الصّناعة منذ العصور القديمة وتقدّمت على أيديهم فى العصر القِبْطى متأثِّرَة فى الوقت نفسه بالأساليب الزُّخْرُفية الساسانية والبيزنطية . وظَلّ التّقَدُّم مضطردًا فى العصر الإسلامى إذ بقيت الصناعَة فى يد أهل البلاد سواء اعتنقوا الإسلام أو ظَلُّوا على مسيحيتهم . لذلك وُجِدَت المراكز الرئيسية لصناعة النّسيج فى الجهات التى يكثر فيها الأقْباط مما حافظ على نفس أساليب الصّناعة وكذلك المواد الخام المستخدمة ، وهى غالبًا الكِتّان فى شمال الدُّلْتا الذى كان يُزَخْرَف بالحرير أو الكِتّان الملَوَّن ، والصوف فى صعيد مصر . وعلى ذلك فقد ظَلّ العرب حتى نهاية العصر الفاطمى يُطْلقون على نسيج مصر اسم « القَباطى » نسبة إلى أقْباط مصر ، وهو نسيج يمتاز بأن زخارفه تتكوّن من لُحْمات غير ممتدة فى عرض المنسوج وغير منقطعة ويعرف أيضا بـ « التبسترى Tapestry » [2]. وتَطَوّرت صناعة المنسوجات وزخرفتها فى العصر الإسلامى تطوُّرًا منتظمًا حيث بدئَ فى الاستغناء شيئًا فشيئًا عن الرسوم الآدمية والحيوانية التى كانت فى الفن القِبْطى واستعيض عنها بزخارف هندسية كما بدأت الكتابة تلعب دورًا هامًّا فى صناعة المنسوجات [3].

كان للنسيج فى مصر صناعةٌ أهلية فرضت عليها الدولة رقابة شديدة وضرائب فادحة ، ولكن صناعة النّسيج ازدهرت فى المصانع الحكومية التى أُطْلِقَ عليها « الطِّراز » وهى تسمية تعود إلى العصر العَبّاسى . « والطِّراز » لَفظٌ فارسى مُعَرَّب يعنى فى الأصل

---

[1] Ashtor, E., *op. cit.*, p. 198.

[2] سعاد ماهر : النسيج الإسلامى ٢٤، ٣٥، ٣٦.

[3] زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر ٨٣ وكنوز الفاطميين ١١٠، وانظر كذلك السيد طه أبو سديرة : الحرف والصناعات فى مصر الإسلامية ٤٧- ٦٩.

الـمُدَبَّج (البرودرى) أو المُوَشَّى أو المُزَرْكَش وعلى الأخص ما كان منه مُوَشَّى بخطوط مستعرضة ، ثم أصبح يُقْصَد به بعد ذلك بملابس الخليفة الرسمية وأصبحت رمزًا من رموز السيادة ، فمتى تولَّى الإمام أو سُمِّىَ وَلِىّ العَهْد « نُقِشَ اسمه على الطِّراز » . ويُطْلَق كذلك على ملابس كبار الشخصيات المُطَرَّزَة ، وعلى الأخص المزدانة بشرائط الكتابة المزركشة . واتَّسع مدلول هذا اللَّفْظ حتى انتهى إلى الدلالة على المصنع أو المكان الذى تُصْنَع فيه مثل هذه المنسوجات ثم أصبح يُطْلَق على كل قطعة من النَّسيج عليها كلمات منقوشة أو مكتوبة ، بل امتد استعمال هذا اللفظ للدلالة على أىّ نقش من النقوش التى توضع على شريط مستعرض من أى نوع كان سواء أكان من الحجارة أو الفسيفساء أو الفخار أو محفورًا فى الخشب [١].

كان هناك نوعان من هذه المصانع الحكومية : الأول « طِرازُ الخاصَّة » ، وكان لا يشتغل إلّا للخليفة ورجال بلاطه وخاصته ؛ والثانى « طِرازُ العامَّة » ، وكان يتبع أيضًا بيت مال الحكومة ، ولكنه كان يشتغل لحساب بلاط الخليفة وأفراد الشعب على السواء . فقد كانت العادة فى الدولة الإسلامية أن يصحب سِجِلّ تولية كبار رجال الدولة منحهم خِلْعَة أو أكثر على سبيل التشريف ، كما كانوا يُمْنَحون على الأقل خِلْعَة فى كل مناسبة أو عيد على مدار السنة . كانت هذه الخِلَع تصنع عادة فى عصر الدولة الفاطمية فى دور الطِّرز بدِمْياط وشَطا وتِنِّيس ، والقُماش الشائع استخدامه فى عملها هو عادة ما يُطْلَق عليه الدَّبيقى – نسبة إلى مدينة دَبيق من ضواحى دِمْياط الحالية ، وكانت تَقَعُ هى وشَطا وتُونَة فى الموضع الذى غمرته بحيرة المَنْزَلَة الآن – فكانت ملابس الخليفة وخواصه تُعْمَل بدار الطِّراز الخاصة ، بينما كانت بقية ملابس رجال الدولة تُعْمَل فى دار الطِّراز العامة [٢].

---

[١] راجع ، Grohmann, A., *EI*[1] art. *Tirâz* IV, pp. 825-34, Suppl. pp. 266-68; Serjeant, R. B., *Islamic Textiles,* pp. 138-60, 261-62; Marzouk, M. 'Ab., « The Tiraz Institution in Mediaeval Egypt», in *Studies in Islamic Arts and Architecture in Honour of K. A. C. Creswell,* London 1965, pp. 157-62; Sokoly, J. A., «Towards Model of Early Islamic Textile Institutions in Egypt », in *Islamische Textilkuntion des Mittelaters : Aktuelle Problem,* Riggisberg 1997, pp. 115-20 .

[٢] Wiet, G., *RCEA* n° 1852, 1884, 1899, 1924, 1957, 2013, 2023, 2041, 2045, 2048, 2053, 2055, 2056؛ أدولف جروهمان : أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية ١ :٣- ٤.

وتتضمّن معظم المَنسوجات التى وَصلَت إلينا من مصر الإسلامية عبارة من العبارات الآتية : « مما عُمِلَ فى طراز الخاصة بتنيس ... بمصر ... بتونة إلخ » ، « مما عُمِلَ فى طراز العامة بتنيس ... بمصر ... بتونة إلخ » ، « مما عُمِلَ فى طراز مصر ... فى طراز دمياط ... فى طراز تنيس إلخ » ، « مما عُمِلَ فى مصر ... بإسكندرية ... بتونة إلخ » . ويرى المرحوم محمد عبد العزيز مرزوق أن العبارة الأولى ربما كانت تشير إلى المنسوجات التى خرجت من دار الطِّراز الخاصة لاستعمال الخلفاء والولاة والوزراء أو ليخلعها هؤلاء على كبار موظفىَ دولتهم ؛ أما العبارة الثانية فقد تشير إلى المنسوجات التى خرجت من دار الطِّراز العامة لكى يستعملها صغار رجال الحاشية والخدم ، أو ليُنْعِم بها الخلفاء والولاة على صغار الموظفين ؛ ولا يبعد أن تكون العبارة الثالثة إشارة إلى الجهة الحكومية (دار الطِّراز) التى من أعمالها ضَبْط ما تخرجه مصانع النّسيج الأهلية لجباية الضرائب عليها ؛ والمنسوجات التى عليها هذه الصيغة هى المعدة لاستهلاك الجمهور فى داخل البلاد ، وتطريز هذه الصيغة عليها إثبات لدفع الضريبة عنها . أما العبارة الأخيرة فلعلها كانت تُطَرَّز على المنسوجات المراد تبادلها فى التجارة الخارجية [١].

وفى خلال العصر الفاطمى بدأت دور الطِّراز فى إنتاج أنواع جديدة من الأقمشة إلى جانب الأنواع التقليدية كالديباج المُثْقَل والشَّرَب والدَّبيقى . ففى عهد العزيز بالله اشتغلت البلاد بنسج نوعين جديدين من الأقمشة هما « العَتّابى » الذى اشتهرت به بغداد ، و « السَّقْلاطون » الذى عرف فى بلاد الروم . ويرى عبد العزيز مرزوق أن ظهور هذين النوعين ناتج عن العلاقة الطيبة التى نشأت بين الخليفة العزيز بالله وعَضُد الدولة البُوَيْهى فى بغداد من ناحية ، والصُّلْح الذى عقده مع الروم سنة ٣٧٧هـ/٩٨٧م من ناحية أخرى [٢].

---

[١] محمد عبد العزيز مرزوق : الزخرفة المنسوجة فى الأقمشة الفاطمية ٢٧- ٢٨.

[٢] نفسه ٥٣- ٥٤.

ويشير ناصر خُسْرو إلى أنواع جديدة من المنسوجات ظهرت فى عهد الخليفة المستنصر بالله شاهدها أثناء مروره بمدن مصر الكبيرة يقول عن تِنِّيس :

« ويُنْسَج بتنيس القصب المُلَوّن من عمائم ووقايات وما يلبس النساء ، ولا ينسج فى أىّ مكان قَصَب مُلَوَّن كذلك الذى يُنْسَج فى تِنِّيس . ويُنْسَج القَصَب الأبيض فى دِمْياط ، ويُنْسَج خاصة فى مصانع السُلْطان [الإمام الفاطمى] ولا يباع ولا يُعْطى لأحد ... وفى مدينة تنيس هذه ، ينسجون البُوقَلَمُون وهو غير موجود فى أىّ مكان آخر فى العالم ، وهو ثوب ذهبى يتلوَّن باختلاف أوقات النهار . وتُحْمَل هذه الثياب من تِنِّيس إلى المشرق والمغرب ... والقَصَب والبُوقَلمون الذى يُنْسَج للسلطان [الإمام] يبذل فيه ثمن كامل فيعمل العمال للسلطان [الإمام] برغبة لا كما فى الولايات الأخرى حيث يظلم ديوان السلطان الصُنّاع »[1].

ويصف لنا ناصر خُسْرو بعض ما رآه فى فُسْطاط مصر من أسواق المنسوجات قائلاً :

« ورأيت هناك خانًا يُسَمّى « دار الوزير » لا يباع فيه إلّا القَصَب ، وفى الطبقة السُفْلى يجلس الخيّاطون وفى العُلْيا الرَفّاءون . وسألت القَيِّم عن أجرة هذا الخان الكبير ، فقال كانت كل سنة عشرين ألف دينار مغربى ، ولكن جانبًا منه قد تَخَرَّب وهو يعمر الآن ، فيحصل منه كل شهر ألف دينار - يعنى اثنى عشر ألف دينار فى السنة - وقيل إن فى هذه المدينة مائتى خان أكبر منه أو مثله »[2].

وللتدليل على دِقّة وإحكام صناعة البُسُط التى رأها فى قاعة الذهب بالقصر الفاطمى الكبير يقول عنها :

« وكل ما فى هذا الحرم من الفرش والطرح من الديباج الرومى والبوقلمون نُسجت على قدر كل موضع تشغله »[3].

---

[1] ناصر خسرو : سفرنامة ٧٧.

[2] نفسه ١٠٦.

[3] نفسه ١٠٧.

لوحة ٤/أ – قطعة نسيج من الكتان والحرير (متحف فكتوريا وألبرت بلندن)

لوحة ٤/ب – قطعة من النسيج من الكتان والحرير تحمل اسم الخليفة العزيز بالله

(متحف الفن الإسلامي بالقاهرة)

وعندما اجتاز ناصر خُسْرو فى رحلته بمدينة أسيوط بمصر العُلْيا أشار إلى ما تنتجه من منسوجات قائلًا :

« وينسجون فى أسيوط من صوف الخراف عمائم لا مثيل لها فى العالم، والصوف الدقيق الذى يحضرونه إلى بلاد العَجَم ويسمونه مصرى، هو من الصعيد الأعلى؛ لأنهم لا ينسجون الصوف بمصر [أى فُسْطاط مصر]. ورأيت فى أسيوط فوطة من صوف الغنم لم أر مثلها فى بلهاور ولا فى مُلْتان وهى بشكل تحسبها حريرًا »[1].

ولعل خير دليل على ازدهار صناعة النَّسيج فى النصف الأول لتاريخ الدولة الفاطمية ماذكره صاحب كتاب « الذّخائر والتحف » عن تقدير المنسوجات النفيسة التى أخرجت من خزائن القصر فى زمن الحرب الأهلية سنتى ٤٦٠ و٤٦١هـ بما يزيد على خمسين ألف قطعة من الدِّيباج الخُسْرُوانى الفاخر، وكان أكثرها مُذَهَّبًا. وأن أبا سعيد النَّهاوَنْدى - دون غيره من الدلّالين الذين وكل إليهم بيع التُّحَف أمام أبواب القصر - باع فى مُدَّة قصيرة أكثر من عشرين ألف قطعة من الخُسْرُوانى. وعندما أرسل ناصر الدولة بن حَمْدان زعيم الأتراك يطالب المستنصر بما بقى لغلمانه، أخبره الخليفة المستنصر أنه لم يبق عنده شىء إلّا ملابسه، فأخرج ثمانمائة بَذْلة من ثيابه بجميع آلاتها كاملة فقُدِّرت قيمتها وحملت إليه[2].

ولم تكن سنى الشِّدّة العُظْمى التى وَصَلَت بالبلاد إلى أقصى درجات الفقر فى منتصف القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى، لتقضى على صناعة المنسوجات بل سرعان ما استعادت مصر مكانتها فيها. وخير شاهد على ذلك الكميات الكبيرة من المنسوجات التى وجدت فى تركات الوزراء العسكرين للدولة الفاطمية مثل تركة الأَفْضَل بن بدر الجمالى التى وجد بها ثلاثون حُلَّة من الذهب العراقى المعمول برسم الرَّقْم، وتسعمائة ثوب ملونة من الدِّيباج وخمسمائة صندوق من دَقّ دِمْياط

---

[1] ناصر خسرو : سفرنامة ١١٥- ١١٦.

[2] الرشيد بن الزبير: الذخائر والتحف ٢٥٤؛ المقريزى: الخطط ١: ٤١٣، ٤١٦- ٤١٧.

وتِنِّيس ، وتسعون ألف ثوب من أصناف الديباج وما يجرى مجراه من العِتَّابى وغيره ، وثلاثة خزائن كبار مملوءة صناديق كلها دَبِيقى وشَرَب عمل تِنِّيس ودِمْياط ...» [1].

ولعل الخِلَع المتنوعة التى كان يمنحها الخليفة الآمر بأحكام الله فى مختلف المناسبات والأعياد والتى أتى على وَصْفها ابن المأمون خير شاهد على ازدهار هذه الصِّناعَة وتَطَوُّرها فى هذه الفترة [2]. وكذلك ما وُجِدَ فى تركات الخلفاء الفاطميين المتأخِّرين.

لم يستغل الفاطميون ووزراؤهم النسيج المصرى فى عمل الملابس والخِلَع الفخمة فقط بل اتخذوا منها المِظَلّات والستائر والخرائط المعدة لحمل السيوف والظروف المعدة لوضع النقود والرايات والبنود والأعلام والخيام ، وكسوا بها المساند والمخاد والوسائد والمراتب ، والأجلّة والسُّروج والهَوادِج والغُلَف المعدة للمرايا ، ورِقاع الشِّطْرَنْج والنَّرْد وغيرها مما يلزم لمظاهر التَّرَف والأُبَّهَة [3].

كانت المنسوجات الخاصة بالخليفة تُنْقَل من «دار الطِّراز» إلى خزائن الكُسْوات بالقصر الفاطمى وهما خِزانتان : «خِزانَة الكُسْوَة الظاهرة» و «خِزانة الكُسْوَة الباطنة» . كان يتولّى «الخزانة الظاهرة» أكبر حواشى الخليفة إما أستاذ أو غيره ، وكان يوجد بها الملابس التى تُعْمَل فى دار الطِّراز بتِنِّيس ودِمْياط والإسكندرية من الشُّروب والخاص الدَّبيقى الملونة : الرجالية والنسائية المعدة للتوزيع فى المناسبات . وكان يوجد بهذه الخِزَانة صاحب المَقَصّ ، وهو مُقَدّم الخيّاطين يقوم مع معاونيه بتفصِيل الحُلَل على مقدار الأوامر وما تدعوا الحاجة إليه ، أما «الخزانَة الباطنة» فهى المختصة بلباس الخليفة ، وكانت تتولّاها دائمًا أمرأة ، تُنْعَت بـ«زَيْن الخزان» - قال ابن الطُّوير : «وكانت هذه رومية فى عصرنا» - يعاونها ثلاثون جارية «ولا يُغَيِّر الخليفة أبدًا ثيابه إلّا عندها ، ولباسه خافيًا

---

[1] انظر فيما سبق ص ١٦٤- ١٦٥.

[2] ابن المأمون : أخبار مصر ٤٨- ٥٥.

[3] محمد عبد العزيز مرزوق : المرجع السابق ٦٨- ٦٩.

الثياب الدارية وسعة أكمامها سعة نصف أكمام الظاهرة. وليس فى جهة من جهاته ثياب أصلًا ولا يلبس إلّا من هذه الخزانة »[١].

ومما يدل على أهمية مصانع النّسيج فى مصر والعائد الضخم الذى تُحَصّله الحكومة الفاطمية منها أن الضّرائب التى جُمِعَت فى يوم واحد من تِنّيس والأشْمُونين ودِمْياط فى عهد الوزير يعقوب بن كِلّس بَلَغَت مائتى ألف دينار، وعَلّق المقريزى على ذلك بقوله: « وهذا شيءٌ لم يُسْمَع قط بمثله فى بلد »[٢].

وكانت « تَذْكِرَة الطّراز » – التى تشتمل على مصروف السنة فيما تنتجه دار الطّراز – تشتمل فى أيام الأَفْضَل بن بدر الجمالى على أحد وثلاثين ألف دينار، منها خمسة عشر ألف دينار للسّلَف (أى للقماش نفسه) وستة عشر ألف دينار للذهب العراقى والمصرى الذى يستخدم فى نسجه، ثم زادت هذه الميزانية فى أيام المأمون البَطائِحى وبلغت ثلاثة وأربعين ألف دينار وتضاعفت فى الأيام الآمرية[٣].

أما الخِدمَة فى الطّراز (أو الطّراز الشّريف) فكانت كما يذكر ابن الطُّوَير القَيْسرانى، يتولّاها أعيانُ المستخدمين من أرباب العمائم أو السيوف وكان يقيم بدِمْياط وتِنّيس[٤] وراتبه أمْيَز الرّواتب وتحت إمرته مائة مندوب لتنفيذ الاستعمالات بالقرى، وله عُشارى ديماس يسير فى النيل وحوله ثلاثة مراكب من الدُّكاسات (نوعٌ من المراكب النيلية المخصصة لاستخدام كبار رجال الدولة فى العصر الفاطمى) وكان صاحب الطّراز عند وصوله إلى القاهرة وبصحبته الاستعمالات الخاصة مثل المِظَلّة وبدلتها والبَدْنَة واللّباس الخاص الجُمَعى وغيره استقبل بحفاوة بالغة وأُكْرِم بتقديم دابة من مراكيب الخليفة

---

[١] ابن الطوير: نزهة المقلتين ١٢٨–١٢٩.
[٢] المقريزى: الخطط ٢: ٦.
[٣] ابن المأمون: أخبار مصر ٧٠، ١٠٠.
[٤] القلقشندى: صبح الأعشى ١٠: ٣٨٠ س ١٨.

تظل تحته حتى عودته إلى خدمته فى تِنيس أو دمياط . وطوال مدة إقامته فى القاهرة يقيم فى « مَنْظَرة الغَزالَة » على شاطئ الخليج .

« وكانت من المناظر السلطانية وجَدَّدَها شُجاع بن شاوَر . ولو كان لصاحب الطِّراز فى القاهرة عشرة دور لايُمَكَّن من نزوله إلّا بالغزالَة . وتجرى عليه الضيافَة كالغرباء الواردين على الدولة فيمثل بين يدى الخليفة بعد حَمْل الأسفاط المشدودة على تلك الكساوى العظيمة ، ويعرض جميع ما معه وهو يُنبِّه على شىء فشىء بيد فَرّاشى الخاص فى دار الخليفة ومكان سكنه ، ولهذا حرمة عظيمة ، ولا سيما إذا وافق استعماله غرضهم . فإذا انقضى عَرْض ذلك بالمدرج الذى يحضره سلم لمستخدم خزائن الكُسْوات وخُلِعَ عليه بين يدى الخليفة باطنًا ولا يخلع على أحد كذلك سواه ، ثم ينكفئ إلى مكانه .

وله فى بعض الأوقات التى لا يَتّسع له فيها الانفصال « نائبٌ » يصل عنه بذلك غير غريب منه ، ولا يمكن أن يكون إلّا ولدًا أو أخًا ، فإن الرُّتْبَة عظيمة . والمُطْلَق له من الجامكية فى الشهر سبعون دينارًا ، ولهذا النائب عشرون دينارًا ، لأنه يتولّى ذلك عنه إذا وَصَلَ بنفسه ، ويقوم إذا غاب فى الاستعمال مقامه »[٢].

وأما « صناعة السُكَّر » فأصبحت تمثل دون شك جانبًا هامًّا فى الاقتصاد المصرى فى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى . وقد تحسَّنت طرق تكرير عصير قصب السكر فى مصانع القصب العديدة القائمة فى هذه الفترة فى مدن وقرى كثيرة فى مصر ، حيث استخدم النَّطْرون والشَّبّ فى تنقية المواد المتخلِّفة وذلك بدلًا من الغَلْى المتكرِّر . وكانت صناعة السُكَّر فى ظل الفاطميين ذات طابع رأسمالى بالتأكيد ، فالطرق المعقدة التى استخدمت فى هذه العملية كان لا يمكن استخدامها إلّا فى المصانع الكبيرة التى كان يطلق عليها « مطابخ السُكَّر »[٣].

---

[١] ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٠٢- ١٠٤.

[٢] ابن المأمون : أخبار مصر ١١١.

[٣] . Ashtor, E., *op. cit.*, p. 199

وفى هذه الفترة كذلك بدأت « صناعة الوَرَق » فى الازدهار بعد انقراض إنتاج البَرْدى ، وأصبحت « مطابخُ الورق » فى الفُسْطاط تُنْتج الورق المعروف بالورق الطَّلْحى ، نسبة إلى طَلْحة بن طاهر والى خراسان المتوفى سنة ١٢٣هـ/٨٢٨م ، أحد أوائل من أدخل « مطابخ الورق » فى الإسلام [١].

وارتبط ذلك بازدهار حِرْفَة الوِراقة التى ازدهرت فى ذلك الوقت بفضل المكتبات الفاطمية الكبرى التى انتشرت فى القصر الفاطمى ودار الحكمة وفى المساجد المختلفة ولدى الأفراد [٢].

---

[١] *Ibid.*, 199; Goitein, S. D., *A Med. Soc.* I, p. 81 .

[٢] راجع أيمن فؤاد سيد : الكتاب العربى المخطوط وعلم المخطوطات ، القاهرة ١٩٩٧، ١٤٧ - ٢٣٢؛ السيد أبو سديرة : المرجع السابق ٩٢- ١٠٨؛ وانظر فيما يلى الفصلين السادس عشر والسابع عشر .

التِّجـــارَة

لم تلعب مصر فى بداية العصور الوسطى دورًا هامًّا فى التجارة المتجهة إلى آسيا ، بينما كان لها دورٌ ملحوظٌ فى حركة التجارة المتجهة إلى أوربا وبيزنطة [1]. وكانت التجارة بين أراضى البحر المتوسط والمناطق الشرقية تمر منذ الزمن القديم عبر طريقين : الأول من خلال وادى الرافدين والخليج الفارسى ، والثانى من خلال مصر والبحر الأحمر إلى الهند والسِّنْد والصين .

وحاول أحمد بن طولون أن تشارك مصر بدور بارز فى التجارة الشرقية وأن يُقَلِّل من اعتمادها على الخلافة العَبّاسية ، ولكن هذا المشروع قُضِىَ عليه مع وفاته . ولم يكن خلفاؤه من الطولونيين ثم الإخشيديين من القوة التى تتيح لهم تحدِّى سيطرة الخلافة فى بغداد [2]، فقد كانت بَغْدادُ فى هذه الفترة ، مركز الخلافة العَبّاسية والعاصمة التجارية للعالم الإسلامى وأثَّرت تأثيرًا سلبيًّا على التجارة المصرية .

وخَلَقَ الفَتْحُ الفاطمى لمصر سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م موقفًا جديدًا تمامًا ، بحيث انتقل حجم التجارة الإسلامية فى أواخر القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى تدريجيًّا من العراق والخليج الفارسى إلى مصر والبحر الأحمر ، وخدمت المتغيرات فى أراضى الخلافة العَبّاسية سياسة الفاطميين ، الذين كانوا فى أوْج قوتهم ، بينما كانت الاضطرابات المتتالية فى جنوب العراق بالإضافة إلى عدم الأمان المتزايد فى الخليج عاملًا فى صالح الموانئ المصرية والتجارة الفاطمية .

---

[1] Labib, S., «Egyptian commercial Policy in the Middle Ages» in Cook, H. A., (ed.) *Studies in the Economic History of the Middle East from the Rise of Islam to the Present Day,* London .1970, p. 63

[2] . Lewis , B., *The Fatimid and the route to India.* p. 50

وقد هَجَرَ كثيرٌ من الناس بَغْداد والعراق خوفًا من هذه الاضطرابات وفَرُّوا إلى مصر . وكان المستفيد الأول من ذلك « مدينة الفُسْطاط » ، عاصمة مصر التجارية فى زمن الفاطميين ، حيث كانت السفن تُفَرِّغ بضائعها فى هذا الميناء الداخلى ، سواء القادمة من الإسكندرية ، أو القادمة من البحر الأحمر ، حيث تُحْمَلُ برًّا إلى الصَّعيد قرب مدينة قوص ، ومن هناك تحملها السفن النيلية إلى الفُسْطاط .

وأدَّت استراتيجية الفاطميين الشرقية ومحاولة قضائهم على العبّاسيين ، إلى إحكام سيطرتهم على طرق التجارة المؤدّيّة إلى الهند ، سواء للانتعاش الاقتصادى أو لنَشْر الدَّعْوة الإسماعيلية على طول الطرق التجارية ، وذلك بالإضافة إلى تجارتهم مع جنوب أوربا وشمال إفريقيا وصِقِلّية وبيزنطة فى الشمال .

كانت هذه البضائع كلها تَصُبّ فى « الفُسْطاط » ، التى جعل لها الجغرافى المَقْدسى ، فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، مكانةً تسبق بَغْداد فى هذا الوقت [١]. وأصبحت المركز الحيوى للنشاط الاقتصادى والتجارى فى المنطقة .

فقد كانت الفترة الفاطمية واحدة من فترات التسامح والليبرالية النسبية بمقارنتها بالفترات السابقة عليها وعلى الأخص اللاحقة لها ، فقد تبنَّى الفاطميون مبدأ ليبرالية الاقتصاد .

الفُسْطاط والإسكندرية مراكز التجارة فى العصر الفاطمى

كانت الفُسْطاط فى العصر الفاطمى ، دون شك ، هى العاصمة التجارية metropole لمصر . وكان يُطلَقَ عليها فى أوراق الجنيزة : « مِصْر » بينما أطلق عليها فى الوثائق الشرعية : « فُسْطاط مِصْر » وهو مصطلح كان يستخدم لتمييزها عن المدينة الأخرى حديثة النشأة « القاهرة » ، العاصمة السياسية والإدارية [٢].

---

[١] المقدسى : أحسن التقاسيم ١٩٧ .

[٢] Goitein, S. D., «Cairo, an Islamic City in the Light of the Geniza Documents» in Lapidus, Ira M, (ed.), *Middle Eastern Cities,* Berkeley 1969, p. 81; id., *A Mediterranean Society* IV (Berkeley 1983), p. 6-7.

وسيكون من الخطأ أن نظن أن الإسكندرية ، الميناء الواقع على البحر المتوسط ، كانت مركز توزيع التجارة ، وأن الفُسْطاط كانت تستمد أهميتها من كونها مقرًا للإدارة . فالنصوص التى لا تقبل الشك لمئات من أوراق الجنيزة التى ترجع إلى القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى تُثْبت أن الفُسْطاط ، المدينة الواقعة فى عمق الإقليم ، كانت أيضًا المركز التجارى والمالى للبلاد ، وأن الإسكندرية المدينة الساحلية ، كانت ترتبط من كل النواحى بالفُسْطاط التى كانت بمثابة الوكالة التجارية لكل المنطقة والتى تَتَجَمَّع بها كل أنواع البضائع .

وفيما يخص البضائع التى كانت ترسل إلى ما وراء البحار فإن مُكُوسَها كانت تُحَصَّل مسبقًا فى الفُسْطاط ، ولم يكن يُسْمَح بنقلها إلى الإسكندرية دون أن تكون مصحوبة بما يُثْبت دفع المُكُوس عنها فى العاصمة . وحتى السِّلَع التى كانت تُجْلَب من موانئ البحر المتوسط إلى الإسكندرية لم تكن تصل إليها إلَّا بإذن من الفُسْطاط .

كانت الفُسْطاط والإسكندرية تختلفان كذلك فى تركيب سكانهما ؛ فالمدينتان كانتا تعجان بالأجانب ، ولكن الفرق بينهما كان ينحصر فى أن من كان يَلْحَق منهم بالعاصمة كانت لديه النية للاستقرار بها ، بينما من كان يقيم منهم بالإسكندرية كان مصممًا على مغادرتها « بعد قضاء الحوائج »[٢].

على كل حال فقد كانت طرق التجارة ، سواء القادمة من الإسكندرية أو من داخل إفريقيا أو من البحر الأحمر ، تلتقى كلها فى الفُسْطاط بسبب قربها من النيل . وكانت تمر من خلالها كافة أنواع البضائع الشرقية والغربية من منسوجات وجلود ومعادن مشغولة

---

[١] درس أبراهام أودوفيتش العلاقة الاقتصادية بين الفسطاط والإسكندرية من خلال مراسلات نهراى بن نسيم Nahray b. Nissim انظر Udovitch, A. L., « A Tale of Two Cities : Commercial Relations between Cairo and Alexandria during the Second Half of the Eleventh Century», in *The Medieval City*, Yale University Press 1977, pp. 143-62.

[٢] Goitein, S.D., *Cairo, An Islamic City*, 82; id., *A Med. Soc.* IV p. 8.

وعطارة وكافة أنواع التوابل التى يحتاج إليها بلاط الفاطميين والتُّجّار الإيطاليين [١].

وكان الطريق الذى تسلكه التجارة الشرقية هو نفس الطريق الذى كان يسلكه رَكْب الحجيج، وهو الطريق الذى سَلَكَه ووصفه ابن جُبَيْر بعد بضع سنوات من سقوط الفاطميين. فبعد خروجه من الفُسْطاط سار فى النيل جنوبًا مارًّا بالصعيد تجاه مدينة قُوص ومن هناك عَبَرَ الطريق البرى إلى عَيْذاب على البحر الأحمر [٢].

فابتداء من النصف الثانى للقرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى أصبح لمدينة قُوص مكانة أساسية فى نقل حركة التجارة الشرقية فى أعقاب الإصلاحات الإدارية التى أدخلها نظام بدر الجمالى على الإدارة المصرية، وشاركت الفُسْطاط فى نشاطها التجارى، وتمثَّلت المرحلة الأساسية فى هذا التطور فى فَرْض وتحصيل مُكُوس على البضائع الواردة إلى قُوص تؤكِّده لنا أوراقُ الجنيزة اعتبارًا من سنة ٤٩٠هـ/ ١٠٩٧م [٣]. وقد تَمّ إبْطال هذه المُكُوس التى تُستأدى من الحُجّاج وتُجّار اليمن فى ربيع الأول سنة ٥٧٧هـ/يولية ١١٨١م [٤].

ثَراءُ الفُسْطاط فى العصر الفاطمى

يصف الرَّحّالة المَقْدِسى، فى أواخر القرن الرابع الهجرى، ثَراء الفُسْطاط ورَخائها بقوله: «إن الأسواق قد التفَّت حول جامع عمرو، إلا أن بينها وبينه من نحو القبلة دار الشَّطّ وخزائن وميضأة، وهو أعمر موضع بمصر، وزُقاق القَناديل عن يساره، وما يدريك ما زُقاق القَناديل... ويطول الوصف بنَعْت أسواقها وجلالته غير

---

[١] Goitein, S. D., « From the Mediterranean to India », *Speculum* XXIX (1954), p. 192-93; Garcin, J. C., *Un centre musulman de la Haute-Egypte médiéval: Qûs*, IFAO, 1975, p. 100.

[٢] ابن جبير: الرحلة ٢٢-٤٣ وانظر كذلك ناصر خسرو: سفرنامة ١١٦، ١١٨.

[٣] Goitein, S. D., *op. cit.*, p. 193; Garcin, J. Cl., *op. cit.*, p. 101.

[٤] المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك ١: ٧٤.

أنه أجَلّ أمصار المسلمين وأكبر مفاخرهم وآهل بلدانهم»[١].

أما ناصر خُسرو، بعد ذلك بنحو خمسين عامًا، فيقول: إن جامع عمرو يقع فى وسط سوق مصر، بحيث تحيط به الأسواق من جهاته الأربع وتفتح عليها أبوابه. ويقع سوق القناديل على الجانب الشمالى للجامع وأضاف أنه «لا يعرف سوقًا مثله فى أىّ بلد، وفيه كل ما فى العالم من طرائف»[٢].

التُجّار الأجانب فى الفُسطاط

كانت مصر لفترة طويلة من العصر الإسلامى مركزًا هامًّا للتجارة الدولية وبالتالى فقد كانت تعجّ بالعديد من التجار الأجانب القادمين من خارج «دار الإسلام» والذين كانوا يصلون إلى الموانئ الساحلية، وأعنى بهم التجار القادمين من أوربا المسيحية وبيزنطة الذين كانوا يقصدون موانئ البحر المتوسط. كان هؤلاء التجار يصلون إلى الإسكندرية وأحيانًا إلى دِمياط وحتى تِنّيس. ولم تكن هناك ضرورة لتوجُّههم إلى داخل البلاد أو حتى الفُسطاط، حيث كان هناك وُسَطاء محليون يقومون بنقل البضائع التى أحضروها أو التى يحتاجون إليها[٣].

وفى رواية لواقعة حَدَثَت بمصر سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م أوْرَدَها مؤرِّخان متعاصران هما: المُسَبِّحى ويحيى بن سعيد الأنطاكى، نعرف أن تُجّار مدينة أمالفى Amalfi الإيطالية كانوا يقيمون مع بضائعهم فى الفُسطاط فى مبنى مُخَصَّص يعرف بـ«دار مَانِك» كان يقع فى خُطّ الرَّفّائين. مما يعنى أنه كان لهم فى الفُسطاط، وليس فقط فى

[١] المقدسى: أحسن التقاسيم ١٩٩.

[٢] ناصرى خسرو: سفرنامه ١٠٢-١٠٣.

[٣] Cahen, Cl., «Les marchands étrangers au Caire sous les Fatimides et les Ayyoubides», *CIHC*, p. 97.

الإسكندرية ، فُنْدُقًا إن لم يكن مِلْكًا لطائفتهم كان على الأقل موضوعًا تحت تَصَرُّفهم من قِبَل الحكومة الفاطمية [١]. وقد نَهَبَت العامةُ هذه الدار بما فيها من ثروات ، بلغت تسعين ألف دينار ، فى أثناء حادثة سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م حيث كان بها نحو مائة تاجر أمالفى Amalfitains، وهو رقم كبير يجعلنا نفترض أن لفظ أمالفى ، الوارد فى نَصّ يحيى بن سعيد ، كان يشمل أيضًا بعض الإيطاليين الآخرين من سكان الجنوب [٢].

ورغم أن المُسَبِّحى قد ذكر خطأً أن « دار مَانِك » كانت تقع فى المَقْس (موضع ميدان رمسيس الآن) ، فإنه صَوَّب ذلك فى حوادث سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م ، وذكر دار مانِك بين الدور الواقعة فى الفُسْطاط [٣].

وتظهر « دار مَانِك » فى وثائق الجنيزة كمكان لدَفْع المُكُوس على عدد كبير من السِّلَع المُصَدَّرة وعلى تجارة العبور ، وعلى الأخص أصناف تجارة الجملة كالكِتّان والتوابل [٤].

وكان المَقْسُ ميناءً قديمًا على النيل ، عُرِفَ فى وقت الفَتْح بضَيْعَة أم دُنَيْن ، وعُرِفَ بالمَقْس لأن العاشر ، وهو صاحب المَكْس ، كان يجلس به فقيل لها المَكْس ثم قلبت فقيل المَقْس [٥]. أنشأ به الفاطميون دار صِنَاعة لا نعرف عنها شيئًا كثيرًا [٦]. ويبدو أنه استخدم

---

[١] Ibid., p. 98; id., *Makhzûmiyyât - Etudes sur l'histoire économique et financière de l'Egypte medièvale,* Leiden - Brill 1977, pp. 105-106.

[٢] المسبحى : نصوص ضائعة ١٥- ١٦، يحيى بن سعيد : تاريخ ١٧٨- ١٧٩، المقريزى الخطط ٢:١٩٥- ١٩٦، النويرى : نهاية – خ ٢٦: ٤٨، Cahen, Cl., «Un texte peu connu relatif au commerce oriental d'Amalfi au X° siècle», *Archivio storico per le provincie napolitane* (1953-54), pp. 3-8, id., «Le commerce d'Amalfi dans le proche-orient musulman avant et après la Croisade», *Comptes rendus d'Academie des Insriptions & Belles - Lettres* (1977), pp. 292-294.

[٣] المسبحى : أخبار مصر ٦٩.

[٤] Goitein, S. D., *Mediterranean Trade in the Eleveneth Century* p. 53; id., *A Mediterranean Society* IV, p. 27; Fu'âd Sayyid, A., *op. cit.,* pp. 601-604.

[٥] القلقشندى : صبح ٣: ٣٥٧، المقريزى : الخطط ٢: ١٢١، أبو المحاسن : النجوم ٤: ٥٣.

[٦] المقريزى : الخطط ٢: ١٩٥.

كميناء للقاهرة لجلب ما يحتاج إليه القصر الفاطمى ، فيذكر المُسَبِّحى فى حوادث ربيع الآخر سنة ٤١٥هـ/يونية سنة ١٠٢٤م أن مراكب مملوءة قمحًا وصلت إلى ساحل مصر الفُسطاط ، ورئى نقل ما فيها إلى القصر الفاطمى ، فأمر بأن تصل إلى المَقْس مما أدّى إلى ارتفاع الأسعار وزيادة الغلاء فى هذا العام [1].

وُكَلاءُ التُّجّار فى الفُسطاط

وإلى جانب ذلك كان بالفُسطاط وسائر المدن الكبرى بالأقاليم المصرية عددٌ كبيرٌ من « وكَلاء التُّجّار » و « دور الوَكالَة » . فنظرًا لأنه لم يكن بمقدور كل شخص أن يجد صديقًا أو شريكًا فى البلد يمكن أن يطمئن إلى الاعتماد عليه ، فقد تم التغلُّب على ذلك عن طريق « وكلاء التُّجّار » . و « وَكيل التُّجّار » تاجرٌ ثرىٌّ استقر هو أو والده فى بلد أجنبى واعْتُمِدَ فيه كممثل شرعى أو وكيل أعمال مقابل عمولة ، أولًا للأشخاص الذين يُضْطَرّون للعودة إلى ديارهم ثم لأى شخص آخر يثق فيه ؛ وهو يحتِفظ عادةً بـ « دار وَكالَة » أو مُسْتَوْدَع لتخزين البضائع تُدار منه هذه المشاريع التجارية ، كما يمكن استخدامها كمَصْرَف أو عنوان بريدى . كان بعض هؤلاء الوكلاء متخصصين فى سلع معينة والبعض الآخر – وهم الأغلبية – متعددو الاهتمامات [2].

وقد نشأ هذا النَّشاط منذ الأيام الأولى للدولة الفاطمية فى مصر أو قبل ذلك بقليل . فيذكر المُسَبِّحى فى حوادث سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م وفاة الشريف أبى إسماعيل إبراهيم ابن تَجّ المُعَدِّل الذى عمل بـ « الوكالة للتجار » فحملت إليه البضائع والمتاجر من كل ناحية ، وأنه خَلَّف عند وفاته مالًا كثيرًا جمًّا [3].

---

[1] المسبحى : أخبار مصر ٣٩.

[2] Goitein, S. M., *Mediterranean Trade in the Eleventh Century : Some Facts and Problemes*, p. 61; id., *A Med. Soc.* IV, p. 26.

[3] المسبحى : أخبار مصر ١٠٨.

وكان لكبار التُّجّار فى المدن الكبرى الداخلية وكلاء عنهم فى الثغور ، فيذكر ناصر خُسْرو أنه لما اعتزم مغادرة أُسْوان إلى عَيْذاب ليَتَوَجَّه منها إلى الحجاز كتب له تاجرٌ من أُسْوان يُدْعى أبو عبد الله محمد بن فليح كتابًا إلى وكيله بَعيْذاب يوصيه به أن يدفع له ما يريد ، وأن ناصرًا سيعطيه مقابل ذلك صَكًّا بالحساب يتولّى الوكيل إرساله إلى التاجر بأسْوان [١].

وكان أغلب «وُكَلاء التُّجّار» المسلمين المذكورين فى أوراق الجنيزة من «القضاة» [٢]. يقول ابن مُيَسَّر عن شخص ، أصبح ولده فيما بعد قاضى قضاة مصر : إنه بعد هجرته من الشام إلى مصر فَتَحَ بالفُسْطاط دار وَكالة [٣]، ويذكر ابن المأمون فى حوادث سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م أن الوزير المأمون البَطائِحى أمر فى هذه السنة ببناء دار وَكالَة بالقاهرة لمن يصل من العراق والشام من التُّجّار [٤]، وهى أوَّل مرة تشهد فيها القاهرة هذا النوع من الأنشطة .

وبما أن وظيفة «وَكِيل التُّجّار» أصبحت منذ هذا التاريخ وظيفةً شبه حكومية ، فيمكننا الظنّ بأنه كان يحصل على ترخيص ، أو تأكيد لوظيفته من المحْتَسِب أو من والى مدينته ليباشر وظيفته . وعند الترخيص لشخص بوَكالَة التُّجّار - إذا كان يُتبع فى الأساس إجراء كهذا - فإن السلطات الحكومية كانت تضع فى اعتبارها مكانة الشخص بين زملائه التُّجّار .

وفى ظِلّ هذه الظروف يمكننا اعتباره (فى وقت لم تُعْرَف فيه النِّقابات) رئيسًا لما يشبه نقابة للتجار . ويكون وَكيلًا مستقلًّا فى مجتمع التجار المستقل . وكبقية المِهَن

---

١ ناصر خسرو : سفرنامة ١١٩، ١٢٠.

٢ Goitein, S. D., *A Med. Soc.*, I, p. 187; id., *Studies in Islamic History* pp. 346-47 .

٣ ابن ميسر : أخبار ١٢٦- ١٢٧.

٤ ابن المأمون : أخبار ٣٩؛ ابن ميسر : أخبار ٩٢؛ المقريزى : الخطط ١ : ٤٥١، اتعاظ ٣ : ٩٢.

الأخرى ، فإن وظيفة وكيل التجار كانت تنتقل من الآباء إلى الأبناء ، وتعطينا وثائق الجنيزة مثلًا عن وكيل للتُجّار أصبح ابنه وحفيده أطباء ، بينما ورث أحد أحفاده بعد ثلاثة أجيال وظيفة جده الأعلى [١].

ومن خلال المعلومات المتوفرة تمكّن جويتين Goitein من تَتَبُّع أصل الوكلاء المسلمين واليهود الموجودين فى الفُسْطاط ووَجَد أن أصولهم ترجع إلى العراق والشام من جانب وإلى تونس والمغرب من جانب آخر [٢].

وتشير كتب الفِقْه إلى أن التاجر الأجنبى عندما يصل ببضاعته إلى الموانئ الإسلامية عليه أن يَدْفَع ١٠٪ من قيمة البضائع والسِّلَع التى يحملها كمكوس ، كما أن الذِّمى المقيم فى الدولة الإسلامية والذى يُعَدّ أحد رعاياها يدفع ٥٪ كرسوم على بضائعه ، أما التاجر المسلم فعليه أن يدفع فقط ٢,٥٪ وهى تعادل قيمة الزكاة الشرعية بشرط أن يحول الحَوْل على بضاعته . وقصدت الدولة الإسلامية بذلك أن تحتفظ بسيطرتها على كل رعايا الدولة ، ليس بغرض جمع المكوس المرتفعة ولكن للترويج للتجارة الإسلامية على حساب تجارة غير المسلمين [٣].

اتّصال القاهرة بالفُسْطاط

أسِّسَت القاهرة ، كما نعلم سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م لتكون حِصْنًا تتحصن به الأسرة الفاطمية بعد انتقالها إلى مصر ، وظَلَّت القاهرة طوال القرن الفاطمى الأول مدينة خاصة لا يُسْمَح بدخولها لأفراد الشعب ، الذين كانوا يقيمون بالفُسْطاط إلّا بإذن خاص

---

١ Goitein, S. D., *A Med. Soc.* I, pp. 186-192; id., *Studies* p. 347-48; Fu'âd Sayyid, A., *op. cit.*, p. 604.

٢ Goitein, S. D., *Mediterranean Trade in the Eleventh Century* p. 62.

٣ Goitein, S. D., *Studies in Islamic History* p. 232.

وبغَرَض خدمة أهل الحِصْن الفاطمى الذين كانوا من خواص الخليفة ورجال الدولة وفرق الجيش .

وقد أدَّت الأزمة الاقتصادية الطاحنة والفوضى السياسية التى اجتاحت مصر فى أواسط القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى إلى خراب الفُسْطاط ، وأصابت بقسوة الأحياء العَبّاسية والطولونية القديمة الواقعة شمال شرق الفُسْطاط (العَسْكَر والقَطَائع) . ولما استعان الخليفة الفاطمى المستنصر بالله بوالى عَكّا ، أمير الجيوش بدر الجمالى ، وقام بتدبير أمر مصر « نُقِلت أنقاضُ ظاهر مصر مما يلى القاهرة ، حيث كان العَسْكَر والقَطائِع ، وصار فضاءً وكيمانًا فيما بين مصر والقاهرة ، وفيما بين مصر والقرافة »[1] واستغلت هذه الأنقاض فى البناء داخل السور الفاطمى . فكان هذا - كما يقول المقريزى - « أوَّل وقت اختَطَّ الناسُ فيه بالقاهرة »[2]. وبذلك فَقَدَت القاهرة - مؤقتًا - مكانتها كمدينة خاصة ، وإن كان بدر الجمالى قد تدارك ذلك بعد قليل وحافظ على شكل المدينة وخصوصيتها عندما أعاد تحصينها وجَدَّدَ بناء أبوابها وأسوارها وزاد فى مساحتها من جهة الشمال والجنوب فيما بين سنتى ٤٨٠هـ/١٠٨٧م و ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م .

لكن التغيير الذى عرفته القاهرة تم فى العقود الأولى للقرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى ، فى خلافة الآمر بأحكام الله ووزارة المأمون البَطائِحى (٥١٥- ٥١٩هـ) . فقد عاد للأحياء الشمالية للفسطاط ازدهارها مرة أخرى وأعيد تعمير المنطقة الواقعة بين المشهد النفيسى جنوبًا وباب زويلة شمالاً[3]، يقول المقريزى : « حتى صار المتعيشون بالقاهرة والمستخدمون يُصَلُّون العشاء الآخرة بالقاهرة ويتوجَّهون إلى سكنهم

---

[1] المقريزى : الخطط ١:٣٣٧ س ٣٥- ٣٨.

[2] نفسه ١: ٥.

[3] المقريزى : الخطط ١: ٣٠٥، ٢: ٢٠، ١٠٠، ٢٦٥.

فى مصر ولا يزالون فى ضوء وسرج وسوق موفور من الباب الجديد خارج باب زويلة إلى باب الصَّفا ... والمعاش مستمر فى الليل والنهار»[١] وبذلك اتصلت المدينتان القاهرة والفُسْطاط .

ثم شاركت القاهرة الفُسْطاط فى بعض الأنشطة الاقتصادية ، ففى سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م قام الوزير المأمون البَطائِحى ببناء دار للضَرْب فى القاهرة فى منطقة القَشّاشين (الصَّنادقية الآن) بالقرب من الجامع الأزهر ، وأنشأ فى نفس السنة دار وَكالة بالقرب منها لمن يصل من تُجَّار العراق والشامَ وغيرهما [٢] . مما دعا الخليفة الآمر إلى إعادة تخطيط المدينة بعد انتشار المحلات والدكاكين والأسواق بها [٣].

وتفيدنا وثائق الجنيزة بأن تاجرًا من لَبْدَة بليبيا يُعْرَف بمَضْمُون اللَّبْدى اشترى فى سنة ٤٩١هـ/١١٠٢م جزءً من دار فى القاهرة مقابل ثلاثمائة دينار [٤]، مما يشير إلى فتح القاهرة لأبوابها أمام التجار الأجانب .

وكان للحريق المُتَعمَّد الذى اجتاح الفُسْطاط قرب نهاية العصر الفاطمى فى سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م الدور الأساسى فى هجرة الكثير من أهل الفُسْطاط إلى القاهرة بعد تدمير جزء كبير من الجانب الغربى للمدينة . ولكن الوزير شيركوه تَمَكَّن بعد أن تَوَلَّى الوزارة للفاطميين من إقناع قسم من أهالى الفُسْطاط بالعودة إلى ديارهم وإعادة بناء مدينتهم [٥]. ويبدو أن عملية إعادة البناء قد تَمَّت بصورة فعلية خلال عام ٥٧٢هـ/١١٧٦م ، وهو التاريخ الذى يجعله أبو صالح الأَرْمَنِّى بداية إصلاح العديد من كنائس

---

[١] المقريزى : الخطط ٢: ١٠٠.

[٢] انظر أعلاه هـ ٤ صفحة ٤٩٠.

[٣] Fu'âd Sayyid, A, *op. cit.*,pp. 492-498 ؛ أيمن فؤاد سيد : « تحول القاهرة إلى مركز اقتصادى فى أواخر العصر الفاطمى وفى العصر الأيوبى » فى كتاب خان الخليلى وما حوله ، القاهرة ١٩٩٩، ١:١٥٥- ١٦٠.

[٤] Goitein S. D., *From the Mediterranean to India* p. 191 .

[٥] المقريزى : الخطط ٣٣٧- ٣٣٩.

الفُسْطاط [١]. كما أن ابن جُبَيْر الذى زار مصر بعد هذا التاريخ بنحو خمس سنوات ، يذكر أن أغلب المدينة كان قد اسْتُجِدَّ وقت زيارته وأن البنيان بها متصل [٢].

المَتْجَــــر

كانت الحكومة الفاطمية تحتكر بعض البضائع التى يشرف عليها ديوان يعرف بـ « المَتْجَر » أو « المَتْجَر الديوانى السعيد » . وقبل تولّى الوزير اليازورى الوزارة سنة ٤٤٢هـ/١٠٥٠م كان يُبْتاع للسلطان فى كل سنة غَلَّة بمائة ألف دينار وتُجْعَل مَتْجرًا حتى إذا نقصت الأقوات من الأسواق ، بسبب جَشَع التجار أو بسبِب العوامل الطبيعية ، أخرجت الحكومة ما فى مخازنها وباعته للناس ، وبذلك تتحكَّم فى أسعار السِّلَع التى لا غنى عنها للناس . وقد وجد الوزير اليازورى أن المَتْجَر الذى يقام بالغَلَّة فيه مَضَرَّة على المسلمين إذ ربما انحط السعر عن السعر الذى اشتريت به فلا يمكن بيعها فتتغير بالمخازن وتتلف . فاقترح فى سنة ٤٤٤هـ/١٠٥٢م إقامة مَتْجَر لا كُلْفَة فيه على الناس ويفيد أضعاف فائدة الغَلَّة ولا يُخْشى عليه من تَغَيُّر فى المخازن أو انحطاط سعره وهو الخَشَب والصابون والحديد والرصاص والعسل وما أشبه ذلك ، فوافقه الخليفة على رأيه واستمر ذلك النظام [٣].

وكانت كل هذه الأصناف عندما ترد على ظهور السفن يبتاعها المَتْجَر الديوانى السَّعيد – وهو الاسم الذى أطلقه عليه المخزومى – لحاجة الدولة إليها فى صناعة السفن والسِّلاح ، فقد كانت هذه المواد ذات أهمية خاصة للدولة ؛ فلم تكن مصر أو الشام تملك موارد متاحة من الحديد أو الأخشاب ، وعلى عكس وضع السوق الحرة فإن هذه البضائع

---

[١] أبو صالح : تاريخ ٢٧ و ، ٣٣ ظ ، ٣٨ ظ .

[٢] ابن جبير : الرحلة ٢٩؛ وانظر لتفصيل أكثر Kubiak, W., « The Burning of Misr al-Fustat in 1168. A Reconsideration of Historical Evidence», *Africana Bulletin* XXV (1976), pp. 51-64; Fu'âd Sayyid, A., *op.cit.*, pp. 625-637.

[٣] المقريزى : إغاثة الأمة ٢٠. الخطط ١ : ١٠٩، ٤٦٥، اتعاظ ٢ : ٢٢٥.

كان يبتاعها الديوان برسم مستقر مقدمًا لحساب المَتْجَر الديوانى السعيد من التجار الواردين على الثغور مقابل رسم يعادل ١٠٪ من قيمتها يدفعها التاجر للمَتْجَر [١]. يقول ابن مماتى : « فإن زاد ثمن المبتاع من التاجر شيئًا عما يجب عليه من الخُمس أعطى به شبًا بحق الثلث ، وأصل ثمن هذا الشَّبّ ورد من جملة ارتفاع المَتْجر » [٢]، فقد احتكرت الحكومة الفاطمية الشَّبّ لتبيعه إلى تُجّار الروم ، وكان إذا عثر على أحد اشترى منه شيئًا أو باعه ، غير الديوان ، نُكّل به [٣]. كذلك فقد احتكرت الحكومة الفاطمية ، مثل الحكومات السابقة عليها ، النَّطْرون [٤]. ويدل على قيمة موارد الدولة من الشَّبّ ما جاء فى سجل المُسامَحَة بالبواقى إلى آخر عام ٥١٠هـ/١١١٧م ، والذى أمر بكتابته الوزير المأمون البَطائِحى فى آخر سنة ٥١٥هـ/١١٢١م ، فقد بلغ ما سومح به من الشَّبّ ما قيمته تسعمائة وثلاثة عشر قنطارًا ونصف [٥]. ويشير أحد الالتماسات المكتوبة فى زمن الآمر بأحكام الله إلى تواصل حضور تجار الروم الجنويين والملافِطَة بالأخشاب المخصصة لل « مَتْجَر » [٦].

وأشار النابُلسى إلى أن الديوان كان يبتاع ما يرد فى البحر من خشب وحديد ورصاص وغير ذلك ، ثم يبيعه إلى الناس بكسب يسير ، ولكن إذا دعت الحاجة لمهمات الدولة من عمل الشَّوانى وعمارة الحصون وغير ذلك اشترى الديوان من التجار الذين اشتروا من الديوان بضعفى الثمن ، وربما كان ذلك فى العصر الأيوبى الذى كتب فيه النابُلسى كتابه [٧].

---

١ المخزومى : المنهاج ٩؛ Cahen, Cl., *op.cit.*, p. 98 .

٢ ابن مماتى : قوانين ٣٢٧؛ المخزومى : المنهاج ٤٨، ٥٧.

٣ نفسه ٣٢٨، ٣٢٩، المقريزى : الخطط ١ : ١٠٩، القلقشندى : صبح ٣: ٤٥٥.

٤ نفسه ٣٣٤- ٣٣٦، نفسه ١: ١٠٩.

٥ ابن المأمون : أخبار ٢٩؛ المقريزى : الخطط ١: ٨٣.

٦ Khan, G., *Arabic Legal and Administrative Documents.*, p. 424 .

٧ النابلسى : لمع القوانين المضية ٤٥- ٤٦.

التّجـــــارَة الكارِمِيَّـــــــة

ترجع أقدم إشارة إلى التجارة الكارمية فى المصادر التاريخية إلى ما أورده المؤرخ ابن أيْبَك الدّواداري عن تأخُّر وصول التُّجّار وانقطاع الكارِم فى سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٣م[١]، وإن لم يوجد فى المصادر التاريخية التى تشير إلى هذه الفترة ما يؤكِّد ذلك . وتُرَجِّح هذه الإشارة أن الكارِم[٢] كان معروفًا قبل هذا التاريخ ، وتؤيِّدها مئاتٌ من أوراق الجنيزة[٣] التى ترجع إلى العصر الفاطمى والتى تشير إلى أن التجارة الكارِمية عُرِفَت فى عصر الفاطميين وعلى الأخص الأوراق المتعلِّقة بالنشاط التجارى وحجم أعمال بيت أبى الفرج يوسف بن يعقوب بن عَوْكَل التى تُعَدُّ أقدم أرشيف لنشاط حِرَفى وتجارى فى أوراق الجنيزة ، وواحدة من أقدم مجموعات المراسلات المتعلِّقة بالأعمال الخاصة فى العصور الوسطى . ويحوى هذا الأرشيف واحدًا وستين موضوعًا (مراسلة) تغطى أربعة أجيال من بيت ابن عَوْكَل ما بين عامى ٣٦٩هـ/٩٨٠م و ٤٦٩هـ/١٠٧٦م . وتختلف مراسلات بيت ابن عَوْكَل فى محتواها ودلالتها عن بقية أوراق الجنيزة ، كما لا تقتصر أهميتها فقط على

---

[١] ابن أيبك : كنز الدرر ٦: ٣٨٠.

[٢] لم يتوصل بعد الباحثون إلى تحديد مؤكد لمعنى لفظ « الكارم » أو « الكارمية » الوارد فى المصادر العربية وأوراق الجنيزة . (راجع صبحى لبيب : «التجارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى» ، المجلة التاريخية المصرية ٤ (مايو ١٩٥٢) ٦-٧، Labib, S. Y., *EI*^{2} art. *Kârimi* IV, pp. 666-670 وما ذكر من مراجع) ويرى جويتين أن هذه الكلمة غير عربية ، وأنه توجد فى لغة التاميل جنوب الهند كلمة «كاريام» وتعنى ضمن ما تحمل من معانى «الأعمال» و «الأشغال» ، ولما كانت أعمال الشرق الأوسط الرئيسية مع ساحل الهند الشرقى هى الأساس أعمالاً تجارية ، فمن المحتمل أن يكون ذلك الاسم قد أطلق على مُلّاك السفن والتجار المترددين على هذه البلاد (Goitein, S. D., *Studies* p. 300) . ويرى الشاطر بصيلى رأيًا قريبًا من رأى جويتين ، ولكنه يُرجع الكلمة إلى أصل عربى وأنها تتكوّن من مقطعين «كار» و «يم» ، «كار» بمعنى الحِرْفَة أو التجارة و «يم» بمعنى المحيط أو البحر البعيد الشواطئ ، وسقطت الياء فصارت «كارم» أى «حرفة التجارة فى البحار» . (الشاطر بصيلى : «الكارمية» ، المجلة التاريخية المصرية ١٣ (١٩٦٧)، ٢٠٠) ؛ وانظر كذلك محمد بركات البيلى : «بداية الكارم ومعناه فى العصر الفاطمى» ، المؤرخ المصرى ١٣ (يولية ١٩٩٤) ، ٨٩- ١١٣.

[٣] عن الجنيزة انظر فيما سبق ص ٧٣- ٧٥.

التاريخ الإسلامى أو التاريخ اليهودى بل تتعداهما إلى التاريخ الاقتصادى عمومًا ، كما يقول ستيلمان Stilmann الذى دَرَسَ هذه الأوراق . وقد استقرت أسرة ابن عَوْكَل فى الفسطاط على الأقل منذ وقت أبى بِشْر يعقوب والد يوسف ، فكل الرسائل التى كُتبَت لهما مُوَجَّهَة إلى الفُسْطاط ، ويبدو أن هذه الأسرة فارسية الأصل هاجرت إلى إفريقية فى أواسط القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، وقدمت إلى مصر مع الفاطميين بعد سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م [١].

وتمدنا كذلك الأوراق المتعلّقة بالتاجر مَخروس بن يعقوب ، والتى يرجع أقدمها إلى سنة ٥٢٩هـ/١١٣٤م ، بمعلومات هامة عن التجارة الكارمية وتجارة الهند . وكانت أخت هذا التاجر زوجة لأبى زِكْرى كُوهين وكيل التُّجّار اليهود فى القاهرة [٢]. وتُظْهِر أوراق الجنيزة التى تشير إلى هذه التجارة أن التوابل وعلى الأخص الفُلْفُل والزَّنْجَبيل والإهْليلَج والقِرْفَة والقُرُنْفُل وكذلك الخَلَنْجان والرَّاوَنْد والأصْباغ مثل العَنْدَم أو البَقَّم وصَمْغ اللُّك قد حلَّت محل العطور الثمينة التى كانت السِّلَع الرئيسية للتجارة الهندية زمن الخلافة العَبّاسية . فالتوابل ، نتيجة لرخص ثمنها ، تُسْتَهْلَك على نطاق واسع مما يعنى زيادة حجم التجارة [٣].

وتثبت أوراق الجنيزة بطريقة مقنعة أن العديد من التجار المنتسبين إلى الطبقة الوسطى كان لهم نشاطٌ فى تجارة الهند . وأن التُّجّار الذين لم يملكوا سوى رءوس أموال صغيرة شاركوا آخرين ، أى أنهم وَظَّفوا بعض الأموال بعقود الضِّمان [٤].

---

[١] Stilmann, N. A., «The Eleventh Century Merchant House of Ibn ʿAwkal (A Geniza Study)», *JESHO* XVI (1973) pp. 16-17.

[٢] Goitein , S. D., *Studies* p. 353.

[٣] Stilmann , N. A., *op.cit.*, pp. 18-88; Ashtor, E., *A Social and Economic History of the Near East*, pp. 196-197.

[٤] Ashtor, E., *op. cit.*, p. 197.

ومعظم أوراق الجنيزة الخاصة بتجارة المحيط الهندى والبحر الأحمر هى خطابات أرسلت من عَدَن أو جَدَّة أو موانئ أخرى فى شبه الجزيرة العربية أو ساحل الهند الغربى إلى مدينة الفُسْطاط بمصر أو العكس، فقد كانت الفُسْطاط فى هذا الوقت آخر طريق تجارة الهند وتجارة البحر المتوسط، وأخذت هذه الأوراق طريقها إلى حجرة الجنيزة بطريقة أو بأخرى[١].

وكانت عَدَن وعَيْذاب وقُوص والفُسْطاط من أكبر مراكز التجارة الكارِمِيَّة فى العصور الوسطى، فكانت المتاجر تأتى من عَدَن إلى عَيْذاب حيث تُحَصَّل فيها المُكُوس، وهى الزَّكاة على التجار المسلمين وواجب الذِّمَّة على الذِّمِّيين من رعايا المسلمين[٢]، ومن عَيْذاب تَحْمِل القوافل المتاجر عبر الصحراء الشرقية إلى مدينة قُوص فى صعيد مصر ثم تحملها المراكب النيلية شمالاً إلى الفُسْطاط.

وقد تَوَصَّل جويتين Goitein من دراسته لنصوص الجِنِيزَة التى ذكرت الكارم فى أيام الفاطميين إلى أن التُّجّار اليهود شاركوا فى تجارة الكارِم جنبًا إلى جنب مع التُّجّار المسلمين، حيث كان سائدًا قبل ذلك أن هذه التجارة اقتصرت فقط على التجار المسلمين وأن من أراد المشاركة فيها كان عليه اعتناق الإسلام[٣]. كذلك تفيدنا هذه النصوص بأن كلمة «الكارم» أصبحت شائعةً فى بيوت الفُسْطاط فى القرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى بحيث أن أىّ امرأة كان يَتَوَجَّه زوجها إلى الهند كانت تنتظر منه الهدايا «فى الكارِم»[٤]. وأن هذا المصطلح وَرَدَ فى الأوراق التى ترجع إلى العصر الفاطمى بمعنى السِّلَع أو البضائع التى اتَّجَر فيها أولئك التُّجّار ونُسِبُوا إليها، ولم

---

١ حسنين محمد ربيع: «وثائق الجنيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادى ...»، مصادر تاريخ الجزيرة العربية، الرياض ١٩٧٩، ٢: ١٣٤.

٢ ناصر خسرو: سفرنامة ١١٨؛ ابن مماتى: قوانين الدواوين ٣٢٧؛ وانظر فيما يلى ص ٥٣٣.

٣ Goitein, S. D., *op. cit,* p. 360.

٤ *Ibid.*, p. 358.

تكن كلمة « كارِمى » أو « التاجر الكارِمى » التى شاعت فى العصر المملوكى معروفة فى زمن الفاطميين . لذلك فإن هذه الأوراق تستخدم ألفاظًا مثل : « يُنْفِذها فى الكارِم » أو « وأما الكارِم فقد وَصَلَنى منه كتاب » أو « جميع من خَرجَ من أصحابنا فى الكارِم »[١] .

ولعلَّ الدليل على عناية الحكومة الفاطمية واهتمامها بأمر « الكارِم » هو الإشارة الواضحة التى أوردها القَلْقَشَنْدى - رغم تأخُّره النسبى - إلى أن الفاطميين كان لهم بعَيْذاب أسطولٌ يُتَلقَّى به الكارِم فيما بين عَيْذاب وسَواكِن وما حولها ، خوفًا على مراكب الكارم من قوم كانوا بجزائر بحر القُلْزُم (البحر الأحمر) يعترضونها ، وكان يتولَّى الإشراف عليه والى قوص[٢] . وتشير أوراق الجنيزة ، التى ترجع إلى الفترة الفاطمية ، إلى أن حاكم جزيرة دَهْلَك كان يتَرَغَّم حركة القَرْصَنَة فى جنوب البحر الأحمر . ففى خطاب مُطَوَّل للتاجر العَدَنى الشهير يوسف بن أبراهام ، كُتِبَ فى الثلاثينيات أو الأربعينيات من القرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى ، نجده يُعْرِب عن أسَفِه من أن المرسل إليه أبا عمران بن نُفَيْع قد احْتُجِزَ مدة طويلة ولقى مصاعب كثيرة أثناء إقامته فى ميناء دَهْلَك على البحر الأحمر[٣] . ولا شك أن العامل الأساسى فى نجاح التجارة الكارِمية هو الحماية الخاصة التى وَفَّرَتها لها الدولة الفاطمية ، فقد جاء فى أوراق الجنيزة أن مَضْمُون - وَكيل التُّجّار اليهود فى عَدَن - عَقَدَ اتفاقات مع « حُكّام البحار والصحراء » لحماية السفن الخاصة به والقوافل الموكل إليه حمايتها . ومع ذلك ، فإن أوراق الجنيزة تخبرنا بأنه كانت هناك صَيْحات عالية تَطْلُب دائمًا حماية السلطات الفاطمية وأسطولها الراسى بعَيْذاب . ويرى جويتين Goitein أنه كانت هناك دواعى مالية وراء حماية الأسطول الفاطمى لتُجّار الكارِم ، فقد كان هؤلاء التُّجّار قادرين على الدَّفْع ،

---

١ Goitein, S. D., *op.cit.*, pp. 353, 354, 357 .

٢ القلقشندى : صبح ٣:٥١٩ - ٥٢٠ ؛ وانظر محاولة لنهب ثغر عيذاب سنة ٥١٢/١١١٨ من أمير مكة وردّ فعل الوزير الأفضل عليها عند النويرى : نهاية ٢٨:٢٧٨ - ٢٧٩ ؛ الفاسى : العقد الثمين ٧ : ٢٩.

٣ Goitein S. D., *op. cit.* p. 356 .

بينما كان على صِغار التُّجّار أن يَتَحمّلوا تَقَلُّبات القَرْصَنَة التى كانت تُشَكِّل آنذاك خَطرًا فِعْليًا فى جنوب البحر الأحمر[١].

ووُجِدَ فى أوراق الجنيزة كذلك «التماس» petition مرفوع إلى الخليفة الآمر بأحكام الله من التاجر اليهودى موسى بن صَدَقَة يشكو فيه أنه أثبت فى مجلس القاضى جلال الملك تاج الأحكام [أبى الحجاج يوسف بن أيوب المتوفى سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م] أنه وَصَلَ من الهند واليمن بتجارة وقِراض[٢] معه، وأنه أعيق بِشُبْهَةٍ لم تَثْبت، ويلتمس من الإمام أن يخرج توقيعه إلى القاضى حتى يَرُدَّ إليه حَقَّه[٣].

---

١ Goitein, S. D., *op.cit.*, pp. 359-360.

٢ عن القراض، وهو اتفاق بين أصحاب المال وأحد الوكلاء على المتاجرة لهم فى أموالهم مقابل نسبة من الربح، انظر Udovitch, A. L. *EI*². art. *Kirâd* V. pp. 132-133.

٣ Stern, S. M. «Three Petitions of the Fatimid Period», *Oriens* 15 (1962), p. 179; Khan, G., *op. cit.*, p. 334.

الطّـــوائِف الحِـرَفيّة

بدأت الإشارة إلى ما يمكن أن نُسَمِّيه تَكَتُّل بين التُّجّار وأصحاب الحِرَف ، كما يقول برنارد لويس Berbard Lewis في القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى . ولكن هذه التَّجَمُّعات لم تكن قد وَصَلَت بعد إلى ما يمكن أن نعتبره نموذجًا للطوائف الإسلامية ، وإنما هى مجرد تنظيم عام وضبط للأسواق والحِرَف [١] .

ويرى ماسينيون Massignon أن الحركة الإسماعيلية – التى أرادت أن تَجْمَع كل العالم الإسلامى تحت شعار العدالة الاجتماعية – هى التى أوجدت فى القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى الطوائف الإسلامية وأعطتها ميزتها الخاصة [٢] . فقد خَصَّصَت « رسائل إخوان الصفا » – وهى مجموعة رسائل فلسفية يُظَن أن مؤلِّفيها من دعاة الإسماعيلية – فَصْلًا كاملًا للنظر فى الحِرَف اليدوية وتبويبها وتصنيفها ، وتشير هذه الرسائل كذلك إلى نُظُم تشكيل الجمعيات ، ونَعْلَم منها بوجود جمعيات لإخوان الصَّفا منتشرة فى العالم الإسلامى لبَثّ آرائها بين كل طبقات الشعب وخاصة بين الصُنّاع وأصحاب الحِرَف [٤] . وليتوصَّل الإسماعيليون إلى استقلال أصحاب الحرف أوجدوا الطّوائف وسيطروا عليها ، وأصبح لهذه الطّوائف خاصيتان : كونها أصنافًا للحِرَف ، وكونها مؤَسَّسات أخوية إسماعيلية [٥] . ومع ذلك فنستطيع القول بأنه لم يوجد بعد برهان واضح يؤكِّد أن الحركة الإسماعيلية أوجدت الطّوائف أو الأصْناف [٦] .

---

[١] لويس ، ب : « النقابات الإسلامية » ترجمة عبد العزيز الدورى ، مجلة الرسالة ٨ (١٩٤٠) ٦٩٦.

[٢] Massignon, L., *EI*[1] art. *Sinf* IV. p. 455 .

[٣] عن إخوان الصفا انظر مقال Marquet, Y., *EI*[2] art. *Ikhwân al-Safâ* II, pp. 1098-1103 .

[٤] رسائل إخوان الصفا ، القاهرة ١٩٢٨ ، ١:١١٣– ١١٥.

[٥] لويس ، ب : المرجع السابق ٧٣٥.

[٦] Cahen, Cl., «Y'a-t-il eu des corporations professionnelles dans le monde musulman classique», dans Hourani & Stern, *The Islamic City*, Oxford 1970, p. 56 .

ويرى ماسينيون كذلك أن المدينة الإسلامية بُنِيَت فى الأساس على فكرة « السوق » التى أدَّت إلى نشوء ما يمكن أن نُطْلِق عليه « الطَّوائف المهنية »[١]. ويضيف جويتين Goitein أن « السوق » هو الشيء الجديد حَقًّا فى مدينة الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، فهو فى رأيه ظاهرة جديدة تمامًا وفريدة من الناحية الطبوغرافية والناحية الاقتصادية الاجتماعية[٢].

ولعل الذى دَفَعَ ماسينيون إلى تبنى فكرة أن الحركة الإسماعيلية هى التى أوجدت الطوائف أو الأصناف ، هو موقف الريبة والاحتقار للعمل اليدوى الذى أظهره فقهاء السنَّة ، بحيث أصبحت التجمعات الحرفية خاضعة لقيود عديدة ومحرومة فى ظل الحكومات السُّنِّيَّة من حقوق قانونية . بينما اتَّخَذَ الإسماعيليون مَوْقِفًا مؤيِّدًا للمِهن وتمتَّعت التجمعات المهنية فى ظل الحكم الفاطمى برخاء عظيم واعْتُرِف بها من قِبَل الدولة وتمتعت بامتيازات كبرى ، كما لعبت دورًا كبيرًا فى النشاط التجارى والصناعى الذى تَمَيَّز به العصر الفاطمى[٣].

وساعدت روحُ التسامح التى سادت طوال أغلب فترات العصر الفاطمى على انخراط أفراد من أديان مختلفة فى الطَّوائف ، حيث كان المسلمون والمسيحيون واليهود يُقْبَلون بنفس الشروط فيها ، حتى إن بعض هذه الطَّوائف غلب عليها غير المسلمين كطوائف الأطباء والمتعاملين بالمعادن الثمينة[٤].

و « الطَّوائِفُ الحِرَفِيَّة » هى تَجَمُّعات تَضُمّ كل رؤساء حِرْفَة معينة ، وتُنَظِّم طريقة ممارستهم لها ، وتتولَّى الإشراف على بعض أنشطة المنتمين إليها وخاصة فى مجالى الدين

---

[١] Massignon, L., *Opera Minora,* Beirut 1963, I. p. 370 .

[٢] Goitein, S. D., *A Med. Soc.* IV p. 3 .

[٣] لويس ، ب : المرجع السابق ٧٣٥.

[٤] نفسه ٧٣٦.

والتضامن الاجتماعى ؛ حيث تضع قواعد معينة وإجراءات لتعليم من هم تحت التدريب وتدريبهم داخل الطائفة ، وفى الوقت نفسه تقوم الطائفة بحماية أفرادها ضد المنافسات الخارجية [١].

ولاشك أنه كان يوجد فى الفُسْطاط - عاصمة مصر الاقتصادية زمن الفاطميين - شكلٌ للتنظيم الحِرَفى ، فقد ورد بها تقسيم طبوغرافى للمِهَن والأسواق [٢]، خاصةً وقد ورد فى بردية ترجع إلى أوائل القرن الثالث الهجرى/التاسع الميلادى قائمةٌ بأسماء الصُّناعات المتعلِّقة بحرفة معينة ، تحوى : القَطّاعين والمُقَشّرين والدَّبّاغين والبَقّالين والنَّحّاسين والحَجّارين والطَّبّاخين [٣]، وكانت هناك كذلك أعرافٌ يجب احترامها وأيضًا قواعد تُتَّبع عند قبول أفراد جدد فى الطائفة أو عند تدريب المبتدئين فى الصَّنْعَة .

ولكننا لا نقابل على الإطلاق فى مصادر هذه الفترة أو فى أوراق الجنيزة كلمة « نِقابَة » لأنه لم يكن هناك فى الحقيقة مثل هذا التنظيم الذى يضم الحرفيين ويعمل على رَفْع مستوى المهنة ، واستدل جويتين Goitein من ذلك على حرية حركة صُنّاع البحر المتوسط خلال تلك الحقبة وعلى روح المبادرة الفردية المميزة لهؤلاء الصُّنّاع [٤].

وقد حَفِظَ لنا المقريزى - رغم تأخُّره النسبى - نَصًّا هامًّا عن تنظيم الأسواق فى مصر الفُسْطاط زمن الفاطميين ، يقول فى معرض حديثه عن أزمة سنة ٤٤٤هـ/١٠٥٢م : « وكان فى كل سوق من أسواق مصر (الفُسْطاط) على أرباب كل صَنْعَة من الصَّنائع « عَريف » (جـ . عُرَفَاء) يتولَّى أمرهم » [٥] وقد سمَّى ابن الطُّوَيْر هؤلاء العُرَفاء

---

[١] Cahen, Cl., *op.cit.*, p. 53; Goitein, S. D., *op.cit.*, p. 267 .

[٢] ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ٤ :٣٢-٣٤، ٣٧- ٤٠.

[٣] جروهمان ، أ : أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية ، ترجمه إلى العربية حسن إبراهيم حسن وراجعه عبد الحميد حسن ، القاهرة - دار الكتب المصرية ١٩٥٥، ٣ :٢٣٢-٢٣٤ بردية رقم ٢١٤.

[٤] Goitein, S. D., *op.cit.*, p. 268.

[٥] المقريزى : إغاثة الأمة ١٨- ١٩، المقفى ٣ : ٣٨٤، اتعاظ ٢ : ٢٢٤.

« عُرَفاء الأسواق ، وأرباب المعايش »[١]. وكان انتخاب هؤلاء العُرَفاء أو اختيارهم يتم بموافقة المحتَسِب ، ممثل الحكومة المسئول عن الإشراف على الأسواق لمراجعة الأسعار والمكاييل والأوزان والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والذى يمكن أن نعتبره الموظف البَلَدى الوحيد فى المدينة الإسلامية . ولكن كُتُب الحِسْبَة والمصادر التاريخية تُظْهِر « العَريف » كوكيل أو ممثل للمُحْتَسِب لدى الطَّوائفِ والمِهَن أكثر من كونه شخصًا مختارًا من أصحاب المِهَن ليدافع عن مصالحهم لدى السُّلْطَة[٢]. وكثيرًا ما كان الوالى يلجأ إلى « العُرَفاء » لمعاونته فى فرض الأمن والتعرُّف على مَنْ من شأنهم تكديره[٣]. ولا شك أن كل طائفة مهنية فى مصر الفاطمية كان لها « عَريف » ، فابن المأمون يحدثنا فى أحد نصوصه عن « عُرَفاء السَّقّائين »[٤]، ويذكر نَصُّ المقريزى – السابق ذكره – « عَرِيف الخَبّازين »[٥]، كما أن سائر الطوائف غير المهنية كان لهم عُرَفاء مثل « عُرَفاء العبيد » الذين يحدِّثنا عنهم المُسَبِّحى[٦].

---

[١] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٢٤– ٢٥؛ أبو المحاسن : النجوم ٥: ١٨٤.

[٢] أيمن فؤاد سيد : « تنظيم العاصمة المصرية وإدارتها زمن الفاطميين »، حوليات إسلامية ٢٤ (١٩٨٨) ١٢– ١٣.

[٣] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٢٥؛ أبو المحاسن : النجوم ٥: ١٨٤.

[٤] ابن المأمون : أخبار ٦٩؛ المقريزى : الخطط ١: ٤٦٣، اتعاظ ٣: ١٠٠.

[٥] المقريزى : إغاثة ١٨ وعن العريف راجع S. Ah. El-ᶜAli & Cahen, Cl., *EI*² art. ᶜ*Arif*. I, pp. 649-651 .

[٦] المسبحى : أخبار ٨٩.

الدِّينــارُ الفاطمــى

يذكر ابن أبى طَىّ أن المُعِزّ لما خَرَج من بلاد المغرب كان معه خمسمائة جمَل محمَّلة بالذهب الذى جمعه الفاطميون طوال الستين عامًا التى أمضوها هناك وأمر بسبكه على هيئة أرحية الطواحين [١]. وهو أمر غير مستبعد فى ضوء ما نعرفه عن سيطرة الفاطميين على كل الطرق التجارية المؤدية إلى غانا التى كانوا يجلبون منها الذَّهَب بعد قضائهم على إمارة تَاهَرْت واحتلالهم لسِجِلْماسَة [٢]. وقد فَقَد الفاطميون هذا المصدر الهام بعد انتقالهم إلى مصر، وإن استعاضوا عنه بما كانوا يحصلون عليه من منجم وادى العَلاقى جنوب مصر ومن مقابر الفراعنة، حيث أشرف عُمّال الخليفة بأنفسهم على عملية استخراج الذهب من هناك [٣]. كذلك فقد تَمكَّن الفاطميون من مناجم الشام بعد فتحهم لها وإن كانوا قد فقدوها تباعًا بعد استيلاء السَّلاجِقَة ثم الفِرِنْج على ممتلكاتهم هناك [٤].

وبدأ الفاطميون إصلاحاتهم الاقتصادية فى مصر برَفْع قيمة الدينار إلى ما كانت عليه العملة الفاطمية فى إفريقية بحيث تراوح وزنه بين ٤ جرام و ٤,٠٦ جرام. ويبدو أن مستوى الوزن تحدَّد فى عهد العزيز بالله بمقدار ٤,١٢٨ جرام وفى عهد الحاكم بمقدار ٤,١٨٨ جرام وفى عهد المستنصر بمقدار ٤,٢٢٩ جرام [٥]. ورغم أن الأزمة الاقتصادية التى شهدتها مصر فى أواسط القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى قد أدَّت إلى تخفيض قيمة العُمْلَة إلَّا أنها سرعان ما استعادت مكانتها فى عصر الخليفة الآمر بأحكام

---

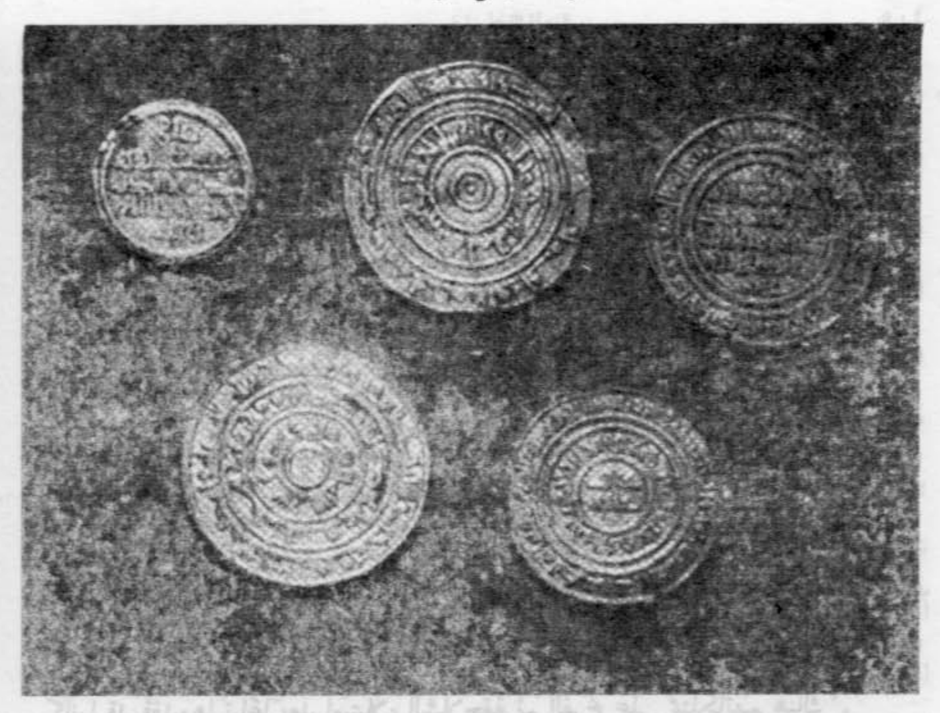
[١] المقريزى: الخطط ١: ٤٣٢.

[٢] Lombard, M., «L'or musulman du VII° au XI° siècle», *Annales ESC* II (1947), p. 152 وانظر إبراهيم على طرخان: «غانة فى العصور الوسطى»، المجلة التاريخية المصرية ١٣ (١٩٦٧) ٦١- ٦٤.

[٣] المقريزى: الخطط ١:١٩٧ س ٢٣؛ Lombard, M., *op.cit.*, pp. 150-51.

[٤] ابن المأمون: أخبار مصر ٣٨؛ ابن ميسر: أخبار ٩٢؛ المقريزى: الخطط ١: ٤٤٥، اتعاظ ٣: ٩٢.

[٥] Ehrenkreutz, S. A., «The Fiscal Administration of Egypt in the Middle Ages», *BSOAS* XVI (1954), p. 507.





لوحة ٥ – نماذج للنقود والصُّنَج الفاطمية (متحف الفن الإسلامى بالقاهرة)



لوحة ٦ – نماذج للنقود والصَّنَج الفاطمية (متحف الفن الإسلامى بالقاهرة)

الله حيث ارتفعت درجة نقاوة الدينار مرة أخرى إلى ما كانت عليه من قبل ، وذلك بعد أن أنشأ الوزير المأمون البَطائِحىُّ فى سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م أوَّل دار ضَرْب بالقاهرة [١]. فتبعًا لابن بَعْرَة بلغ دينار الآمر أقصى درجات النقاوة فى العصور الإسلامية بعد أن جرت عمليات كميائية بلغت بالذهب حدًّا لم يصل إليه أحدٌ قبله [٢] وبالتالى فإن نقاء الدينار يعتبر أحد الخصائص المميزة لاقتصاد مصر حتى نهاية الحكم الفاطمى . وقد أثبت Ehrenkreutz، بعد دراسة ٤٩ قطعة من الدنانير التى تعود إلى عصر الآمر ، أن خمس عشرة قطعة من بينها (أو ١٥,٩ ٪) تحوى ما لا يقل عن ٩٠ ٪ من الذَّهَب ، بينما اثنتين وسبعين قطعة (أو ٧٥,٥ ٪) تحوى أكثر من ٩٦ ٪ من الذَّهَب مما يجعلها دنانير شبه تامة . وجدير بالذكر أنه لم يوجد أىُّ دينار ضُرِبَ بعد سنة ٥١٨هـ/ ١١٢٤م (وهو تاريخ أول دينار ضُرِبَ بدار ضَرْب القاهرة) به نسبة أقل من ٩٠ ٪ من الذَّهَب [٣]. فقد أدَّت عمليات الاستكشاف ، التى تُوصِّل إليها فى زمن الآمر ، « إلى أن صار دينارُ دار الضَّرْب المصرية أعلى عيارًا من جميع ما يُضْرَب بجميع الأمصار » [٤]، حتى أصبح كما أطلق عليه Ehrenkreutz « الدولار الإسلامى فى العصور الوسطى » [٥]، ويعكس مستوى الرَّخاء الاقتصادى الذى عرفته مصر فى عصر الفاطميين [٦].

---

١ ابن المأمون : أخبار مصر ٣٩ ؛ ابن ميسر : أخبار ٩٢ ؛ المقريزى : الخطط ١:٤٤٥ ، اتعاظ ٣:٩٢ .

٢ ابن بعرة : كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية ، تحقيق عبد الرحمن فهمى – القاهرة ١٩٦٦، ٤٩–٥٠.

٣ Ehrenkreutz, A. S. «Arabic Dinars Struck by the Crusaders», *JESHO* VII (1964), pp. 176-177.

٤ ابن المأمون : أخبار ١٣٨؛ ابن بعرة : كشف ٥٠؛ المقريزى : الخطط ١: ٤٤٥.

٥ . Ehrenkreutz, A. S., *op.cit.*, p. 179

٦ عن مجموعات المسكوكات الفاطمية انظر المراجع المذكورة فى هوامش صفحتى ٢٤٦، ٢٤٧ إضافة إلى دراسة ، مايسة محمود داود : المسكوكات الفاطمية بمجموعة متحف الفن الإسلامى بالقاهرة ، القاهرة – دار الفكر العربى ١٩٩١.

الفصل الرابع عشر

النّظام الضّرائبى للفاطميّين

فى تفسيره للتاريخ الإسلامى ذَكَرَ عبد الحَىّ شعبان أن نظام الفاطميين الضّرائبى ، الذى كان حَجَر الأساس فى نجاحهم وفشلهم معًا ، لم يُناقش أبدًا [١]. ولعل ذلك راجع إلى قِلَّة المصادر التى يمكن الاعتماد عليها فى دارسة من هذا النوع .

والواقع فإنه ، بعد أن وَصَلَ إلينا كتابُ « المِنْهاج فى أحكام خَرَاج مصر » للمَخْزومى ، وما نعرفه من كتاب « قَوانين الدَّواوين » لابن مَمَّاتى وكتاب « لُمَع القوانين المضية » للنابُلُسى ، يمكننا أن نُقَدِّم عرضًا للنظام الضَّرائبى للفاطميين ، وذلك بمقارنة معطياتهم مع الجزء الثامن من « نهاية الأرب » للنويرى ، والمؤلَّفات المتأخِّرة مثل « صُبْح الأعْشَىٰ » للقلقشندى الذى اعتمد مطولاً على ابن مَمَّاتى ، أو « خِطَط » المقريزى الذى يتابع كذلك ابن مَمَّاتى ، ولكن مع الأخذ من مؤلِّفين آخرين من بينهم المخْزومى ، وكذلك كتاب « رَوْضَة الأديب » لمحمد بن إبراهيم ابن ظَهِير الحَنَفى الحموى : وهاذان هما المؤلِّفان الوحيدان اللذان عرفا كتاب المخْزومى ويتيحان لنا من بعض النواحى استكمال نقص مخطوط « المِنْهاج » [٢].

وترجع قيمة كتاب « المِنْهاج » للمَخْزومى إلى أن مؤلِّفَه تَوَلَّى أكثر من مرة ، فى زمن الفاطميين والأيوبيين ، ديوان المجْلس [٣] (وهو ديوان لم يختف فورًا فى زمن صلاح الدين ولكنه اختفى دون شك فى زمن الأيوبيين) [٤] ، واكتسب المخْزومى نتيجة لذلك خبرة

---

[١] Shaban, A., *op. cit.* p. 186 .

[٢] Cahen, Cl., *Makhzûmiyyât*, p. 7 .

[٣] المخزومى : المنهاج – خ ٤٦ و.

[٤] النابلسى : لمع القوانين المضية ٣٦.

عملية بالعمليات المتعلّقة بجباية المكوس وعلى الأخصّ فى ثغر الإسكندرية وكذلك جبايَة الجزْيَة التى كان يدفعها الذمّيّون [١].

وتبعًا للبروفيسير كاهن فقد كان هناك تأليفان لكتاب « المنهاج » تأليف أوّل فى آخر عصر الفاطميين نحو سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م والنظام الفاطمى مازال سائدًا، ثم أضاف إليه إضافات ومراجعات فى سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م أو بعد ذلك بقليل بعد أن مضى وقت طويل على النظام الأيوبى ودخلت العديد من التحسينات عليه [٢]. ولا شك فى أن كتاب « المنهاج » يعد مصدرًا لا نظير له عن النواحى الإدارية ونظام الزراعة والنظام المالى فى مصر فى القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى، ويتيح لنا أن نُحدِّد وأن نُكمل أو نراجع، من بعض النواحى، معارفنا عن نظام الضرائب فى مصر قبل العصر الأيوبى.

الضَّـــرائِبُ

لن نعرض هنا للتباين بين آراء الفُقهاء فى موضوع الضَّرائب والتنظيمات العملية للضرائب. فالضَّرائبُ الأصلية أو الضَّرائب الشرعية التى تستقى منها الدولة مواردها فى نظر الفقهاء هى: الفَىْء، وهو ما يُؤْخَذ من المشركين دون قتال ويشتمل على: الخَراج والجزْيَة والضَّرائب المفروضة على تجار أهل الذِّمة وعلى التجار المشركين القادمين من خارج دار الإسلام. والخُمْس على ما يُسْتَخْرج من المعادن والرِّكاز والغنائم وخُمْس سَيْب البحر مما يَقْذف به البحر ويُسْتَخْرج منه. والزَّكاة أو الصَّدقَة وتُجْبى على: المواشى والزروع والثمار والذهب والفضة وعلى بضاعة التجار المسلمين [٣].

---

[١] Cahen Cl., *op.cit.*, p. 4 .

[٢] *Ibid.*, p. 3، المخزومى: المنهاج - خ ٣٨ و، المقريزى: الخطط ١:٢٧٦-٢٧٧.

[٣] متز: الحضارة الإسلامية ١٩٤، ٢١٠، الدورى، عبد العزيز: تاريخ العراق الاقتصادى فى القرن الرابع الهجرى، بيروت - دار المشرق ١٩٧٤، ١٨٧-١٩٢.

أما ماعدا ذلك من ضرائب فيعد ضرائب فرعية فُرِضَت لتعويض احتياجات بيت المال ، وترتبط عادة بأوساط التجار ويُطْلَق عليها « المُكُوس » وهى بنظر الفقهاء ضرائب غير شرعية .

المَـوارِدُ الشَّــرْعِيَّة

قَسَّم المَخْزومى موارد بيت المال إلى ثلاثة أقسام : « المال الخَراجى » ، وهو ما يُسْتَأدى مُسانَهَةً مما هو مفرد على الأراضى المرصدة للزراعة والنخل والبساتين والكروم ، وينقسم إلى نوعين : « خراجى الزراعة » وأوَّل عامه توت ، وآخره مَسَرَى ، و « خراجى البساتين » وهو ما يُرْوى بالسواقى وما يجرى مجراها وأوَّل عامه أمشير وآخره طوبة ، « وحساب ذلك ينظم للسنة الخراجية الواقع عليها من الاسم ما وافق زمانها من سنى الهجرة »[1].

و « المال الهلالى » ، وهو ما تُسْتَأدى أموره مُشاهَرَةً وتنقسم أصوله على أربعة أقسام : « الجَوَالى » (الجِزْيَة) وتنظيم حسباناتها على أساس استخراجها ابتداء من المحرم من السنة الهلالية ؛ و « الزَّكاة » - وإن كانت سنتها هلالية اثنى عشر شهرًا - فإنها تختلف باختلاف ابتداء ملك صاحب المال ؛ و « الرِّباع » ومثلها أجر الأملاك المسقفة من الأدر والحوانيت والحَمّامات والأفران وأرْحِيَة الطَّواحين الدائرة بالعوامل وسنتها هلالية وابتداؤها من استقبال إسكانها واستخراجها مشاهرةً ؛ و « ما يستأدى من تُجّار الروم » وغيرهم وفيه حُكْمان : من ورد فى البر وينظم حسابه لمدة أولها المحرم وآخرها ذو الحجة ، وأما من يرد فى البحر الملح فيستحسن لنظم حسابه « أن يكون لحَوْل أوَّله من الشهور العربية ما وافق افتتاح البحر من شهور القبط »[2].

---

[1] المخزومى : المنهاج ٣٤ وقارن النويرى : نهاية ٨ : ٢٤٥؛ المقريزى : الخطط ١ : ١٠٣.

[2] نفسه ٣٤ وقارن نفسه ٨ : ٢٢٨، ١ : ١٠٧.

و « ماله عام مفرد يخالف شهور الهلالى والخراجى » وهى ثلاثة أنواع : المراكب النيلية وأبقار الجاموس وأبقار الخَيْس ؛ وشهور سنة ذلك ثلاثة عشر شهرًا ، ولكل نوع منها حساب مستقل[1].

المَوارِدُ غير الشَّرْعِيَّة

يقول المقريزى : إن أوّل من أحدث مالًا سوى مال الخراج بمصر أحمد بن محمد ابن مُدَبِّر لما وَلِيَ الخراج بمصر سنة ٢٥٠هـ/٨٦٤م فحجر على « النَّطْرون »[2] بعد أن كان مباحًا لجميع الناس ، وقرّر على الكلأ الذى ترعاه البهائم مالًا سمّاه « المَراعى » كما قرّر على ما يخرج من البحر مالًا سمّاه « المَصائد » ، وعرفت هذه الضّرائب التى استحدثها ابن المُدَبِّر بـ « المَرافِق والمَعاوِن »[3]، وعندما تَوَلَّى أحمد بن طولون إمرة مصر أسْقَط هذه الضّرائب وكانت تبلغ مائة ألف دينار فى كل سنة[4].

ولما وَصَلَ الفاطميون إلى السُّلْطَة أرادوا أن يستغلوا إمكانات مصر الزّراعية والصّناعية إلى أقصى درجة ، وأن يأخذوا منها أقصى ما يمكن من عائدات مالية تلبى احتياجاتهم الخاصة ، مثلما كانوا يقومون بالجباية فى شمال إفريقية[5]. فأعادوا « الأموال الهلالية » وصارت تعرف بـ « المُكُوس » – وهو الاسم الذى يُطْلَق على الضّرائب غير الشّرْعية – ولجأ الفاطميون إلى ذلك لمواجهة النَّفَقات الباهظة لبلاطهم الفخم واحتفالاتهم الباذخة .

وحينما أراد الخليفة الحاكم أن يرجع إلى أصول الإسلام الأولى فى المرحلة التى أطلقنا عليه « تَصَوُّف الحاكم » ، أسْقَط جميع الرُّسوم والمُكُوس التى جرت العادة

---

[1] المخزومى : المنهاج ٣٤.

[2] انظر فيما سبق ص ٤٩٥ .

[3] المقريزى : الخطط ١:١٠٣- ١٠٤.

[4] البلوى : سيرة أحمد بن طولون ، دمشق ١٣٥٨، ٧٤- ٧٦؛ ابن سعيد : المغرب ٨٥- ٨٦؛ المقريزى : الخطط ١: ١٠٤، ٢:٢٦٦- ٢٦٧.

[5] القاضى النعمان : المجالس والمسايرات ٣٣٧- ٣٣٨.

بأخذها ، وأقْطَع ووَهَبَ جُلّ الضِّياع والأعمال والعقارات والأملاك السلطانية [١]، فلما استولت أخته سيدة الملك على مقاليد الأمور بعد اختفائه ، قبضت على جميع الإقطاعات التى أقطعها وأعادت المُكوس إلى ما كانت عليه قبل تسامح الحاكم بها [٢].

ويبدو أن الدولة كانت تلجأ إلى إلغاء المُكوس أثناء الأزمات الاقتصادية تيسيرًا على الناس ، فيذكر المُسَبِّحى أن دَوَّاس بن يعقوب الكُتامى متولِّى الحِسْبَة قرأ سِجِلًّا فى شوارع مصر الفُسْطاط أثناء أزمة الحِنْطَة التى مَرَّت بها مصر عام ٤١٥هـ/ ١٠٢٤-١٠٢٥م ، بحطيطة جميع المكوس عن سائر أصناف الغَلّات الواردة إلى سواحل مصر الفُسْطاط ، مما أدَّى إلى توافر الأخباز فى الأسواق وانخفاض سعر الدقيق [٣].

كانت المُكُوس تُفْرَض زمن الفاطميين على كل شىء من المصنوع والمبيع ، وعَدَّدَ المقريزى ثمانين نوعًا من المُكُوس التى كانت موجودة فى زمنهم وأسقطها السلطان صلاح الدين عن مصر والقاهرة ، بَلَغَ عائدُ هذه المُكُوس مائة ألف دينار سنويًا [٤]، وأضاف ابن أبى طَىّ - راوى الخبر - أن الذى أسقطه السلطان صلاح الدين من المكوس والذى سامح به لعدة سنين آخرها سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨ مبلغه ألف ألف دينار وألفا ألف أردب ، وكان أشهر هذه المُكُوس مَكْس البَهار [٥]. ويُفْهَم مما ذكره المقريزى أنه لم يَسْلَم أىّ إنتاج أو أية مهنة أو أية حِرْفَة من دَفْع المُكُوس . وأبدى الرَّحّالة والجغرافى المَقْدسى ، الذى زار مصر نحو سنة ٣٧٥هـ/٩٨٥م ، استغرابه من ثِقَل المُكُوس خاصةً فى تِنِّيس ودِمْياط وعلى ساحل النيل بالفُسْطاط ، وذكر أن الثياب الشَّطَوية (التى تصنع بمدينة شَطا)

---

[١] يحيى بن سعيد : تاريخ ٢٠٦؛ ابن أيبك : كنز الدرر ٦: ٢٨٦؛ المقريزى : اتعاظ ٢: ٧٤، ٩٢، ١٠٢.

[٢] نفسه ٢٣٧.

[٣] المسبحى : أخبار مصر ٧٥.

[٤] المقريزى : الخطط ١: ١٠٤-١٠٥؛ القلقشندى : صبح ٣: ٤٦٦-٤٦٧؛ وانظر نص سجل إسقاط المكوس وهو مؤرخ فى ٣ صفر سنة ٥٦٧/١١٧١ عند أبى شامة : الروضتين ١: ٥٢٢-٥٢٣؛ ساويرس بن المقفع : تاريخ بطاركة الكنيسة ٣/٢: ٦٩.

[٥] نفسه ١: ١٠٥.

فرضت عليها مُكُوسٌ عالية القيمة فى جميع مراحل تصنيعها ونقلها وبيعها [١]. ويذكر الرحالة الفارسى ناصر خُسْرو، الذى زار مصر نحو سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م، أن عائد بيت المال من تِنِّيس بَلَغَ يوميًا ألف دينار مغربى [٢].

نِظَامُ الضَّمان

كانت الحكومات الإسلامية تلجأ فى تحصيل الضَّرائب (المُكُوس) إما إلى الجباية المباشرة بواسطة العامل المختص أو عن طريق الضَّمان [٣]. والضَّمانُ نظامٌ مالى غير شَرعى [٤] أشبه بنظام الالتزام، يتعَهَّد بموجبه الضَّامِن أن يدفع إلى الدولة سنويًا مبلغًا اتفاقيًا عن قيمة الضَّرائب أو المُكُوس المفروضة على الجهة أو العمل الذى تَضَمَّنه مقدَّمًا. وعادةً ما يكون هذا المبلغ أدنى من العائد الذى سيُحَصِّله الضَّامِن من هذه الجهة ويحصل على الزيادة لحسابه الشخصى. أما إذا نقص العائد عن المبلغ المُتَّفَق عليه - وهو الأمر النادر حدوثه - فيُلْزَم الضَّامِن بتسديد كل المبلغ [٥] إلَّا إذا سامحه وَلِىّ الأمر فى ذلك، مثلما حدث مع هبة الله ابن عبد المحسن الشّاعر الذى انكسر عليه مالٌ فى ضَمانِه سنة ٥٣١هـ/١١٣٦م فسامحه الوزير رِضْوان بن وَلَخْشى مما عليه من الباقى [٦]. كما أن الوزير المأمون البَطائِحى أمر فى نهاية عام ٥١٥هـ/١١٢١م بكتابة سجل يتضمَّن المُسامحة بالبواقى إلى آخر سنة عشر وخمسمائة بعد أن انتهى إليه حال المعاملين والضُّمَناء والمتصَرِّفين وما فى جهاتهم من بقايا معاملاتهم واختلال أحوالهم وتجمد

[١] المقدسى: أحسن التقاسيم ٢١٣؛ ناصر خسرو: سفرنامة ٧٧.

[٢] ناصر خسرو: سفرنامة ٧٩.

[٣] Cahen, Cl., *EI*[2] art. *Bayt al-Mâl* I, p. 1178.

[٤] الماوردى: الأحكام السلطانية ١٦٠.

[٥] القلقشندى: صبح ٣: ٤٦٦؛ Cahen, Cl., *op. cit.*, I. p. 1179; Rabie, H., *op.cit.*, p. 136؛ البراوى: حالة مصر الاقتصادية ٣٢٢-٣٢٣.

[٦] ابن ميسر: أخبار ١٢٩؛ المقريزى: اتعاظ ٣: ١٦٤.

البقايا فى جهاتهم؛ وأورد السِّجِلّ مبلغ ماسومح به من العَيْن والغَلّة [١].

ولجأ الفاطميون منذ وصولهم إلى مصر إلى هذا الأسلوب فى تحصيل الأموال، حيث ضَمنوا أموال الدولة كلها. ففى سنة ٣٦٣هـ/٩٧٤م ضمن محمد بن القاضى أبو الطاهر الذُّهْلى الأحْباس بمبلغ ألف ألف وخمسمائة درهم [٢]. وبعد وفاة الوزير يعقوب ابن كِلِّس ضمن الخليفة العزيز بالله أموال الدولة بجماعة من المستخدمين، حيث ضمن على بن عمر العدّاس مال الدولة والنفقات سنة ٣٨١هـ/٩٩١م ثم حوسب بعد انقضاء السنة على دخلها وخرجها [٣].

ولما علم الوزير المأمون البَطائِحى ما يُعتمد فى الدواوين من قبول الزيادات وفَسْخ عقود الضَّمانات وأخذها ممن تعب فى تحصيلها ونقلها إلى من يَتَعهَّد ببذل زيادة فى قيمتها دون جهد مبذول، أمر بقراءة منشور فى سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م بالجامع الأزهر بالقاهرة وجامع عمرو بالفُسْطاط بإنكار ذلك ومنعه وأعفى كافة الضُّمناء والمعاملين من قبول الزيادة فيما يتصرّفون فيه ما داموا قائمين بأقساطهم [٤].

ويفهم مما ورد فى هذا المنشور أن من بين الجهات التى كانت تُضَمَّن الأبواب والرِّباع والبساتين والحَمّامات والقياسر والمساكن [٥].

وكان خازنُ ديوان الرَّسائل (الإنشاء) يتولَّى عمل أضابير (ج. إضْبارَة) تتضمَّن ما يصل من الضُّمّان إلى الديوان والجهة المرسلة منها لتيسير الرجوع إليها إذا دعت الحاجة إلى ذلك [٦].

---

[١] ابن المأمون: أخبار ٢٨- ٢٩؛ المقريزى: الخطط ١: ٨٣، اتعاظ ٣: ٨٠- ٨١.

[٢] المقريزى: الخطط ٢: ٢٩٥.

[٣] ابن الصيرفى: الإشارة ٥٤؛ ابن أيبك: كنز الدرر ٦: ٢٢٩.

[٤] ابن المأمون: أخبار ٢٩- ٣١؛ المقريزى: الخطط ١: ٨٣، اتعاظ ٣: ٨١.

[٥] نفسه ٣٠؛ Wiet, G., *RCEA* VIII p. 219 n° 3098؛ حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، القاهرة-دار النهضة العربية ١٩٦٦، ٧٢٥.

[٦] ابن الصيرفى: القانون فى ديوان الرسائل ٣٥- ٣٦.

وكانت تولية الدواوين - كما ذكر ابن ممّاتى - تتم بثلاثة أوجه : بالأمان أو ببَذْل أو بضَمان . وفى حالة الضَّمان كان إذا تأخَّر من مال الضَّمان شيءٌ لزم الضَّامن القيام به ، فإن بقى له فى ذِمَّة المعاملين مالٌ كان للسلطان أن يقبل الحوالة عليهم بعد اعترافهم أو لا يقبل ، وله أن يطالبه بما فى ذمته ويعود متولِّى الديوان بالضَّمان بالطلب على من كان الباقى عنده [١].

ويُعَدُّ نظام ضَمان الضَّرائِب أقصر الطُّرُق لمعادلة موازنة الدَّوْلَة والحصول على الأموال اللازمة لدَفْع رواتب الجنود فى أوقاتها . كان الهدف من معظم عُقُود الضَّمان هو جَمْع الخَراج الذى اعتبر المصدر الرئيسى للدَخْل فى الدولة . وبنفس الطريقة تَمَّ ضَمان الضَّرائب الأخرى مثل المُكُوس وهى الضَّرائب المفروضة على مختلف أنواع التجارة .

وعادة ما كانت تُسْنَد إدارة المنطقة إلى الشخص الذى ضمن خراجها ، وكان لضامنى الضَّرائب الرئيسين ضامنون ثانويون يتعهَّدون الجباية فى مناطق معينة . وكان معظم ضامنى الضَّرائب من أصحاب المشروعات الأثرياء الذين جَمَعوا ثرواتهم فى حقول أخرى من النَّشاط الاقتصادى وكانت لديهم المقدرة على الوفاء بمثل هذه الالتزامات الكبيرة . ونظرًا للأرباح الهائلة التى كان يحققها ضامنو الضَّرائب فكان الشخص الذى يهمه الحصول على عَقْد ضمان لا يتردَّد فى تقديم آلاف الدينارات زيادة عما دفعه سَلَفُه . وكثيرًا ما حصل بعض الضَّامنين على عقود ضَمان تقوم على تقديرات قديمة لا تتوافق مع المبالغ الفعلية ، فابتزوا بذلك مبالغ أكبر من المواطنين بفرض ضرائب أكبر عليهم ، فتضخمت بذلك ثروات متعهدى الضَّرائب لأنهم غالبًا ما امتنعوا عن دَفْع المبالغ المستحقة للحكومة [٢].

---

[١] ابن مماتى : قوانين الدواوين ٢٩٨- ٣٠٠.

[٢] Ashtor, E., *A Social and Economic History* p. 136 .

المـالُ الخَـــــراجى

الخَــرَاج

كانت الضَّريبةُ الشَّرعية الأساسية هى ضريبةُ الأراضى الزِّراعية المعروفة بـ« الخَرَاج »[١]. وكانت تُفْرَض أصلًا على كل أراضى سكان البلاد الأصليين غير المسلمين. وقد عَرَّفَها الماوردى بأنها « حَقٌّ معلومٌ على مساحة معلومة[٢]». والخَراجُ اجتهادٌ من الحاكم بعكس « الجِزْيَة » التى نُصَّ عليها فى القرآن[٣]. وعندما خُشِيَ مع الوقت أن يؤدِّى تَحَوُّل عدد كبير من سكان البلاد الأصليين إلى الإسلام إلى تقليل موارد بيت المال، فقد رؤى أن لا تتأثر ضريبةُ الأرض بتغير اعتقاد مالكها، أى أن دخول الإسلام كان يعفى من الجِزْيَة ولكنه لا يعفى من الخراج. وبذلك أصبح الخَراج بنظر الفقه الإسلامى إيجارًا دائمًا للأرض لمصلحة الأمة المالك الأعلى لها بوصفها فَيْئًا[٤]، بينما كان بوجهة نظر السكان المحليين مجرد استمرار لضريبة الأرض الزراعية التى كان معمولًا بها قبل الإسلام[٥]، وعلى خلاف السائد فى بقية العالم الإسلامى لم توجد فى مصر أراضى عُشْرِيَّة بل كانت كلها أرضًا خراجية.

وكانت هناك مجموعة من الاعتبارات يجب مراعاتها عند تقدير الخَراج أهمها مراعاة نوع الأرض ونوع المزروع وطريقة الرَّىّ[٦]. ولا يجب الخَراج إلَّا إذا أوفى النيل ستة عشر ذراعًا، فقد كان أقل حَدٍّ للرى دون خوف القَحْط اثنا عشر ذراعًا، كما كان

---

١ Frantz-Murphy, *The Agrarian Administration of Egypt from the Arabs to the Ottomans*, Suppl. An. Isl. Cahier n° 10, Le Caire IFAO 1986 .

٢ الماوردى : الأحكام السلطانية ١٣٧.

٣ الآية ٢٩ سورة التوبة .

٤ الماوردى : الأحكام ١٢٧، ١٣١- ١٣٢.

٥ Cahen, Cl., *EI*² art. *Bayt al-Mâl* I, p. 11179 .

٦ النويرى : نهاية الأرب ٢٤٦:٨- ٢٤٧؛ الحموى : روضة الأديب ١٠٧٥.

يُخشى من الاستبحار إذا بلغ منسوب النيل ثمانية عشر ذراعًا [١]. ومعنى ذلك أن الفيضان المنخفض كان يستحيل معه رَىّ جميع الأراضى مما يؤدى إلى نقص المحصول وعجز الحكومة عن جباية الخَراج ، كما أن الفيضان العالى كان يؤدى إلى إغراق الأراضى وإتلاف الزرع وفى كلا الحالتين يُهَدِّد البلاد القَحْط الذى كثيرًا ما صحبه الوَباء [٢].

وعادةً ما كانت تبدأ زيادة ماء النيل فى الخامس من بئونة (يونية) من السنة القبطية ، وينادى بالزيادة فى السابع والعشرين منه ويحسب كل ذراع (فى المقياس) ثمانية وعشرين إصبعًا إلى أن يكمل اثنى عشر ذراعًا فيحسب كل ذراع أربعًا وعشرين إصبعًا ، فإذا وَفَّى ستة عشر ذراعًا كُسِر الخليج ووجب الخراج [٣]. وكان الناس إذا توقَّف النيل فى أيام زيادته أو زاد قليلًا يزداد قلقهم ويظنون أن النيل لن يوفى « فيقبضون أيديهم على الغلال ويمتنعون عن بيعها رجاء ارتفاع السعر ، ويجتهد من عنده مالٌ فى خزن الغَلَّة ، إما لطلب السعر أو لطلب ادخار قوت عياله ، فيحدث بهذا الغلاء » . لذلك رأى الخليفة المُعِزّ لدين الله فى سنة ٣٦٢هـ/٩٧٣م مَنْع النداء بزيادة النيل وأن لا يُكْتَب بذلك إلّا إليه وإلى القائد جوهر ، ولم يبح النداء إلّا إذا تمّ ست عشرة ذراعًا وكُسِر الخليج ، وبذلك منع الناس من تخزين الغلال ورفع الأسعار [٤].

نظام القَبالَة

فى نَصٍّ مجمل أوضح لنا المقريزى نظام « القَبالَة » قائلًا :

---

[١] المخزومى : المنهاج-خ ٤٧ ظ ؛ ناصر خسرو : سفرنامة ٨٢؛ ابن مماتى : قوانين ٧٦؛ القلقشندى : صبح ٣: ٢٩٥؛ المقريزى : الخطط ١:٥٨- ٥٩؛ أبو المحاسن : النجوم ١: ٥٤.

[٢] البراوى : حالة مصر الاقتصادية ٦٣؛ وانظر مثالًا لزيادة فيضان النيل وأثره على الزرع فى عام ٤٠٦، ٤١٦ (المقريزى : اتعاظ ٢: ١١٢، ١٧٥).

[٣] المخزومى : المنهاج (Pellat, Ch., *Cinq Calendries Egyptiens* p. 99) ؛ ابن مماتى : قوانين ٢٥٣ (.*Ibid.*, p 79) ؛ القلقشندى : صبح ٣:٣٨٩- ٣٩٠؛ المقريزى : الخطط ١:٢٧٢ س ٢٨- ٢٩.

[٤] المخزومى : المنهاج-خ ٤٧ظ ؛ ابن ميسر : أخبار ١٦٠؛ المقريزى : الخطط ١: ٦١، اتعاظ ١: ١٣٨.

« كان متولّى خَراج مصر يجلس فى جامع عمرو بن العاص من الفُسْطاط فى الوقت الذى تتهيأ فيه قَبالَةُ الأراضِي ، وقد اجتمع الناسُ من القرى والمدن فيقوم رجلٌ ينادى على البلاد صفقات صفقات ، وكُتّاب الخراج بين يدى متولّى الخراج يكتبون ما ينتهى إليه مبالغ الكُوَر والصفقات على من يتقبّلها من الناس ، وكانت البلاد يتقبّلهَا متقبّلوها بالأربع سنوات لأجل الظمأ والاستبحار وغير ذلك . فإذا انقضى هذا الأمر خَرَجَ كل من تَقَبّل أرضًا وضَمِنَها إلى ناحيته فتولّى زراعتها وإصلاح جسورها وسائر وجوه أعمالها بنفسه وأهله ومن ينتدبه لذلك ، ويحمل ما عليه من خراج فى أبانه على أقساط [انظر فيما يلى] وتُحْسب له من مبلغ قَبالَته وضَمانه لتلك الأراضى ما يُنْفَق على عمارة جسورها وسَدّ ترعها وحَفْر خلجها بضرابة مقدرة فى ديوان الخراج »[١].

يتَضح من هذا النص أن نظام تَقَبّل الأرض عملٌ مالىّ بحت الغرض منه تسهيل جباية الخَراج (بما أن أرض مصر كانت كلها منذ الفَتحْ أرضًا خراجية) ولا علاقة له بملكية الأرض مطلقًا ، حيث ضمنت الحكومة الفاطمية الخراج وسائر الضَّرائب الأخرى مقابل مبالغ محددة ، واعتبر الفائض بعد ذلك أرباحًا للضامنين ، لذلك فكثيرًا ما حدث فى المصادر خلطٌ بين الضَّمان والقَبالَة [انظر فيما سبق] ، وعادةً ما كان يتأخّر من مبلغ الخَراج فى كل عام فى جهات الضُّمّان والمُتَقَبّلين قسمٌ يقال له « البواقى » كانت الولاة تتشدَّد فى طلبه مرة وتُسامح به مرة ، فكثيرًا ما كانت تكتب سِجِلّات « بالمُسامَحَة بالبواقى » يحدد فيها آخر السنة المُسامح بها[٢].

وكانت الحكومة تؤجر للفلاحين الأراضى التابعة لبيت المال مقابل إيجار محدود أو تعطيها لهم وفق نظام « المُزارعة » أو « المُقاسَمَة » فى المحصول[٣]. أما جباية الخراج طوال

---

[١] المقريزى : الخطط ١ : ٨٢.

[٢] راجع ، ابن الصيرفى : الإشارة ١٠٦- ١٠٧؛ ابن المأمون : أخبار ٢٨- ٣١؛ ابن ميسر : أخبار ٥٣؛ عمارة اليمنى : النكت العصرية ٥٣؛ المقريزى : الخطط ١ : ٨٢، ٨٦، ٣٨٢، الاتعاظ ٢ : ١١٤، ٣٢٩، ٣ : ٨٠- ٨١، ٢٥٣.

[٣] البراوى : المرجع السابق ٥٣.

العصر الفاطمى فى بقية الأراضى فكانت تتم على أساس « القَبالَة » ، أى التعهد بدفع مبلغ معين عن منطقة محددة . وكانت هذه التلزيمات تجرى بالمزاد وتُعْطى لمن يَتَعهَّد بدفع المبلغ الأكبر [١].

* * *

ولما كان التفاوت بين السنة الشمسية والسنة القمرية أحد عشر يومًا تقريبًا ، وكانت كل ثلاث وثلاثين سنة قمرية تعادل اثنين وثلاثين سنة شمسية ، فقد كان « التوفيق بين السنتين الشمسية والقمرية » أمرًا ضروريًّا لأن استحقاق الخراج وجبايته منوطان بالزروع والثمار وهى مرتبطة بالشهور والسنين الشمسية وما يقابلها من التقويم القبطى [٢]. ونتيجة للأزمة التى اجتاحت مصر فى أواسط القرن الخامس/الحادى عشر أُغْفِل نَقْلُ السنين فى الديار المصرية ، يقول المخزومى : « ... حتى كانت سنة تسع وتسعين وأربعمائة للهلال تجرى مع سنة سبع وتسعين الخراجية ، فنُقِلَت سنة سبع وتسعين الخراجية إلى سنة إحدى وخمسمائة . هكذا رأيت فى تعليقات أبى رحمه الله » [٣]. ويضيف ابن المأمون فى حوادث سنة ٥٠١هـ/١١٠٧م أنه قد حصل بين السنة الشمسية والعربية تفاوت أربع سنين ، ففاتح القائد أبو عبد الله محمد بن فاتك الوزير الأفضل فى ذلك (وهو نفس العام الذى تم فيه الرَّوْك الأفضلى) فأمر ابن الصَّيْرَفى ، كاتب الإنشاء بإنشاء سِجلّ « بنقل سنة تسع وتسعين وأربعمائة إلى سنة إحدى وخمسمائة لتكون موافقة لها ... ويستمر الوفاق بين السنين الهلالية والخراجية إلى سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ... وكتب فى محرم سنة إحدى وخمسمائة » [٤].

---

[١] المقريزى : الخطط ٢:٥- ٦.

[٢] ابن مماتى : قوانين ٣٥٨- ٣٥٩؛ على بن خلف ؛ مواد البيان ٥٥٨- ٥٦٢؛ القلقشندى : صبح ١٣ : ٥٤؛ المقريزى : الخطط ١: ٢٧٥.

[٣] المخزومى : المنهاج-خ ورقة ٣٨ و ؛ القلقشندى : صبح ١٣ : ٦٠؛ المقريزى : الخطط ١ : ٢٧٦.

[٤] ابن المأمون : أخبار ٣- ٨؛ ساوير بن المقفع : تاريخ البطاركة ٣/١:٤- ٥؛ النويرى : نهاية ٢٨ : ٢٧٧؛ المقريزى : الخطط ١:٢٧٩- ٢٨١، اتعاظ ٣ : ٤٠.

وقد ظَلَّ نظامُ القَبالَة سائدًا حتى قدوم الجيش الكردى التركى المصاحب لشيركوه وصلاح الدين والذى اعتاد أفراده على الأنظمة المتوارثة عن السَّلاجِقَة ، فأدخل الأيوبيون تغييرًا جذريًّا على النظام السابق مستمدًا فى غالبه من الإقطاع الشرقى وإن ارتبط بخصوصية نظام الزراعة فى مصر . وزالت القَبالَة سريعًا أمام نمو الشكل الجديد للإقطاع الأيوبى [١] .

جِبايَةُ الخَــراج

كان يُنَظِّم عَمَل جباية خَراج أراضى مصر المزروعة « أدلَّاء » (جـ . دليل) يقومون بإعداد ما يعرف بـ « سِجلّات التحضير » يُسَجِّلون فيها البقاع التى فى النوحى برسم الزرع بأسمائها وعدد فُدْنها ونوعها (ما يروى منها ، والباق ، والبروبية ، والوسخ المزدرع ، والوسخ الغالب ، والشراقى) ويعين تحت كل باب عدد فُدْنه [٢].

و « السِّجلّات » هى الأساس الذى يتم على أساسه جَمْع الخَراج ، بعد تحضير الأراضى وتسجيلها استنادًا على « قوانين الزراعة » المشتملة على ذكر البقاع [٣]. وإذا تكاملت الزراعة (أى بعد مرور أربعة أشهر من السنة الخراجية) [٤] يُنْدَب من الديوان المُسّاح لمساحة الأراضى ومعهم شُهُود لمساحة الأرض ، فيَخرج المُشارف والعامل والماسِح والشاهِد والأَدِلّاء ووجوه المزارعين والقَصّابون ، فيبتدءون بالمساحة ويثبتون عدة الأَقْصاب إلى أن تُمْسَح الأرض كلها ويثبتها الماسِح من إملاء القَصّاب من مشاهدته ، ويعمل بها كل يوم « قُنْداق » يقدم وصفًا مساحيًا للزراعات المنفذة أولًا ضَيْعَة ضَيْعَة ثم

---

[١] Cahen, Cl., *EI*² art. *Iktâ*ᶜ III, p. 1116; id. *EI*² art *Kabâla* IV, pp. 337-38. وعن الإقطاع بعد العصر الفاطمى انظر Rabie, H., *op. cit.*, pp. 26-72؛ طرخان : المرجع السابق ١٧ – ٥٨، وفيما يلى ص ٧٢٣ – ٧٢٤.

[٢] المخزومى : المنهاج ٥٨ – ٥٩؛ ابن مماتى : قوانين ٣٠٥.

[٣] نفسه ٥٩؛ Cooper, R. S., «The Assessment and Collection of Kharâj Tax in Medieval Egypt», *JAOS* 96 (1974), p. 378.

[٤] المقريزى : الخطط ١ : ٨٦، ٤٠٥؛ القلقشندى : صبح ٣ : ٤٥٤.

باسم كل مزارع على حروف المعجم [١]، ويرفع «القُنْداق» إلى الديوان، ثم تعمل بعد ذلك «المُكَلَّفَة» (جـ. مُكَلَّفات) التى تُوَضِّح لكل مزارع ما يجب عليه من خَراج [٢].

ويتم تقدير خَراج الأرض حسب نوعها وهى: القَبالَة والمناجَزَة والمُفادَنَة. وقد تحدَّثنا فيما سبق عن القَبالَة، أما المُفادَنَة فهى عملية مساحية تعنى تقدير خَراج الأراضى غير المزروعة بساتين، ونموذج ذلك أراضى الحَبْس الجيوشى الذى كان يسجل جميعه للمزارعينَ «مُفادَنة» بالعَيْن، وذلك بمبلغ محدَّد (قطيعة) عن وحدة الفدان [٣]. أما نظام القَبالَة / المناجزة فيُطَبَّق على الأخص على الزراعات التى تشغل مساحات كبيرة دون أن تحصل عائدًا مرتفعًا بعكس زراعة المُفادَنة [٤].

وكان الخَراجُ يُدْفَع إما على ثلاث دفعات وفق ما تشهد به «المُكَلَّفات» [٥] أو على ثمان دفعات إذا أخذ من واقع «السِّجِلّات»، وكان افتتاح الخَراج ومطالبة الزُّرّاع به يبدأ فى شهر طوبة (يناير) حيث يحاسب المُتَقَبِّلون على الثمن من السِّجِلّات، ويتم دَفْع الرُّبْع فى أمشير (فبراير) وهكذا [٦].

وكان الذين يتولَّوْن استخراج الخراج أفرادٌ غير الذين تولَّوا مساحة الأرض.

---

[١] المخزومى: المنهاج ٥٩؛ ابن مماتى: قوانين ٣٠٥.

[٢] نفسه ٥٩، ٦٠؛ Cahen, Cl. *Makhzûmiyyât* p. 50; Cooper, R. S., *op. cit.*, p. 374.

[٣] ابن مماتى: قوانين ٣٣٦–٣٣٧؛ Cahen, Cl., *op. cit.*, p. 41.

[٤] Cahen, Cl., *op. cit.*, p. 43.

[٥] المقريزى: الخطط ١: ٨٦، ٤٠٥.

[٦] ابن حوقل: صورة الأرض ١٣٦–١٣٧؛ المقريزى: الخطط ١: ٢٧١.

المَـالُ الهِـلالى

الجَـــوَالى

« الجالِيَة » (جـ. الجَوالى) هى الاسم الشائع فى الاستخدام الإدارى فى مصر لتعريف الضَّريبة المفروضة على أهل الذِّمة [١]، والتى تعرف فى كتب الفِقْه باسم « الجِزْيَة » [٢]. وهى ضريبة موضوعة على الرءوس على الذِّميين (النَّصارى واليهود) تؤخذ طالما ظَلَّ الكتابى على عقيدته ، وتسقط بدخوله الإسلام [٣]. وكما يذكر ابن مَمَّاتى فهى واجبة على أهل الذِّمَّة الأحرار البالغين دون النساء والصبيان والرهبان والعبيد والمجانين [٤]. وتبعًا لوثيقة من أوراق الجنيزة ، كتبت نحو سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م ، فإن « الجالية » كانت تجب متى بلغ الصبى سن التاسعة [٥]!

وذكر صاحب كتاب « تاريخ بطاركة الكنيسة » أنه فى سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م كُتِبَ سِجِلٌّ وقرئ فى الإيوان الكبير بالقصر بأن تَشُدّ جميع النَّصارى زنانير سود وكذلك اليهود وتكون أطرافها صفر ليتميَّزوا عن النَّصارى وأن تَكْمُل الجِزْيَة على الجميع دينار وثُلْث ورُبْع دينار ، وأن السبب فى ذلك كان القاضى أبو الحسن على بن يوسف بن رافِع الكَحّال مستخرج الجَوالى [٦]. ويتَّفِقُ المخزومى وابن مَمَّاتى على أن الجِزْيَة فى وقتهما

---

[١] المخزومى : المنهاج ٣٤، ٣٥؛ ابن مماتى : قوانين ٣١٧؛ النويرى : نهاية الأرب ٨:٢٤٢؛ القلقشندى : صبح ٣: ٤٥٨؛ المقريزى : الخطط ١: ١٠٧، Cahen, Cl., *Makzûmiyyât* p. 26; id. *EI*² art. *Djawâli* II. p. 502; id., *EI*² art. *Djizya* II, pp. 573-576; Rabie, H., *op. cit.*, p. 108; Goitein, S. D., *A Med. Soc.* II. pp. 380-44 .

[٢] الماوردى : الأحكام السلطانية ١٢٧؛ النويرى : نهاية الأرب ٨:٢٣٤– ٢٤٠.

[٣] نفسه .

[٤] ابن مماتى : قوانين ٣١٧– ٣١٨؛ النويرى نهاية ٨: ٢٣٦.

[٥] Goitein, S.D. *op.cit.*, II. p. 383 .

[٦] ساويرس بن المقفع : تاريخ بطاركة الكنيسة ٢/٣: ٢١٨.

(٥٦٥-٦٠٦هـ) كانت ثلاث طبقات : من الغنى أربع دنانير وسُدْس ، ومن المتوسط ديناران وقيراطان ، ومن الفقير دينار واحد وثُلْث ورُبْع وحبتان (أىّ دينار و$\frac{٥}{٨}$)[١].

ولاشك أن الوَصْف الذى يُقَدِّمه لنا كُلٌّ من المخزومى وابن مَمّاتى يتعلّق بما كان سائدًا فى القرن السادس الهجرى . فهذا التقسيم راجعٌ إلى الإجراءات التى اتَّخَذَها الوزير السُّنِّى رِضْوان بن وَلَخْشى سنة ٥٣٢هـ/١١٣٧م لمواجهة تَسَلُّط النَّصارى[٢]، حيث ذكر صاحب « تاريخ بطاركة الكنيسة » هذه القِيَم بين الإجراءات التى اتَّخَذَها ابن وَلَخْشى[٣]. وانفرد ابن مَمّاتى بالقول بأنه كان يُضاف إلى كل جِزْيَة دِرْهمان وربع عن رسم المُشِدّ والمستخدمين[٤]. ويؤكّد المَخزومى أن أكثر أهل الذِّمّة فى وقته فى الطبقة السُّفْلى والغنى منهم قليل[٥].

ويتطابق ما ذكره المؤرِّخون مع ما كان مطبقًا فى الواقع ، فقد دَفَعَ طبيب يهودى - كما جاء فى وثيقة من الجنيزة مؤرَّخة فى سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م - أربع دنانير وسدس كجالية[٦]. ونجد أن تاجرًا من تونس دفع أيضًا ، قبل هذا التاريخ بنحو ١٢٠ عامًا ، فى الفُسْطاط جالية عن حَمّال يهودى يعمل فى مركز زراعة الكتان فى بوصير قيمتها مماثلة لما ذكره المَخزومى وابن مَمّاتى[٧]. كذلك فقد وَرَدَ فى أوراق فينا ما يفيد أن المدعو أبا إلياس

---

[١] المخزومى : المنهاج ٣٥؛ ابن مماتى : قوانين ٣١٨؛ القلقشندى : صبح ٣: ٤٥٨. ويلاحظ أن أهل الذمة فى مصر فى الفترة الإسلامية المبكرة كانوا يدفعون الجزية بمسئولية تضامنية على أساس متوسط هو ديناران على الرأس ، بينما فى سائر البلاد الأخرى كانت تدفع برسم متناقص تبعًا لحالة كل فرد .

[٢] انظر فيما سبق ص ٢٦٦.

[٣] ساويرس : تاريخ البطاركة ٣/١: ٣١.

[٤] ابن مماتى : قوانين ٣١٩؛ القلقشندى : صبح ٣: ٤٥٨.

[٥] المخزومى : المنهاج ٣٥، وهذا دليل على أن الذين تحولوا إلى الإسلام كانوا من الأغنياء بغرض كسب مراكز اجتماعية متميزة فى الدولة الإسلامية .

[٦] Goitein, S.D., *op.cit.* II. p. 387 .

[٧] *Ibid.*, p. 387 .

ابن مينا دَفَعَ فى ١١ رمضان سنة ٤١٦هـ/٥ نوفمبر سنة ١٠٢٥م ما قيمته دينار واحد وثلثين ونصف قيراط كجزية عن عام ٤١٥هـ/١٠٢٤م [١]. وجاء فى التماس رفعه أحد اليهود فى القرن السادس الهجرى أنه « يقوم بالجزية الواجبة عليه ومبلغها فى السنة دينار واحد وثلث وربع ودرهم » ويلتمس اعفاءه منها نظرًا لإصابته بمرض فى عينيه أتلف بصره [٢]. وكان على دافع الجزية أن يحمل مخالصة تفيد أنه أدّى ما عليه خاصة إذا كان مسافرًا حتى لا يتعرّض لأى متاعب مع السلطات [٣]، فنجد فى أوراق الجنيزة أوامر بالحبس لمن لا يدفع هذه الضريبة.

وتجب الجِزْيَة بحلول الحَوْل، أىّ أنها تُستأدى مُسانَهَةً بعد انقضاء السنة بالشهور الهلالية [٤]، وتستخرج عادةً فى مصر فى المحرم [٥]. وقد اصطلح الكُتّاب فى مصر على إيرادها قلمًا واحدًا مستقلًا بذاته بعد الهلالى وقبل الخراجى، وكانوا يرون وجوبها مشاهرةً حتى يُلْزِموا من أسْلَم أو مات أثناء الحَوْل بقدر ما مضى من السنة قبل إسلامه أو وفاته [٦].

وشَرَحَ لنا المخزومى عمليًا الطريقة التى يجب أن يتبعها المُشارِف [٧] والعامل [٨] اللذان يتوليان أمر الجَوالى، إذ يجب عليهما أن يطلبا إلى من تقدمهما بيانات مُفَصَّلة تتضمّن

---

[١] Rabie, H., *op.cit.*, p. 109 .

[٢] Khan, G., *Arabic Legal and Administrative Documents* p. 359 .

[٣] Goitein, S. D., *Studies in Islamic History* p. .

[٤] الماوردى: الأحكام ١٢٦؛ النويرى: نهاية ٨: ٢٣٩.

[٥] المخزومى: المنهاج ١٣٤؛ ابن مماتى: قوانين ٣١٩؛ القلقشندى: صبح ٣: ٤٥٨.

[٦] المقريزى: الخطط ١: ١٠٧؛ النويرى: نهاية الأرب ٨: ٢٤١.

[٧] أورد لنا القلقشندى نسخة سجل بمشارفة الجوالى بالصعيد الأدنى والأشمونين (صبح ١٠: ٤٦٢-٤٦٣) والمشارف لا ينبغى لأحد مستخدميه أن ينفرد عنه بشىء ويكتب خطه على ما يرفع من الحساب، ويكون الحاصل من المستخرج فى مودعه وتحت حوطته (ابن مماتى: قوانين ٢٩٨، ٣٠٢).

[٨] العامل هو من يتولى عمل الحسابات ورفعها والكتابة على ما يرفع من معاملات بالصحة والموافقة، وهو الأصل فى الخدمة والمشارف والناظر لضبطه والشد منه (نفسه ٣٠٢).

عدد من يجب عليهم الجِزْيَة وطبقاتهم وأسمائهم كما كانت فى آخر شهر من السنة الهلالية المنصرمة ، وكذلك تعيين الحُشّار[١] الذين تولّوا جمعها . كما يجب أن تحتوى هذه البيانات على القيمة الكاملة للمبالغ التى جُبيت بالفعل وكذلك العِبْرَة (أى تقدير ما يجب أن يُدْفَع عادةً) مأخوذة من القائمة المحتوية على أسماء من يجب عليهم دفع الجِزْيَة . وفى هذه الحالة يستثنى منها من هَلَكَ أو اهتدى أو بَعُدَ من الناحية المذكورة وانتقل إلى ناحية أخرى ، ويثبت ذلك فى « محاضر مَجْلِس الحُكْم » وتستنزل هذه القيمة من الحساب الختامى لكل ناحية . ومن جهة أخرى يجب أن يؤخذ فى الاعتبار « النَّشْو » الذين بلغوا السن التى يجب عليهم فيها دفع الجِزْيَة[٢].

ويتولّى العمل الحقيقى للحصر والجباية « الحاشِر جـ . حُشّار » يعاونهم فى ذلك « أدِلّاء » (جـ . دليل) موجودون بكل ناحية . ويُدَوِّن الحُشّار أعمالًا تشتمل على عدد وطبقات وأسماء من تجب عليهم الجِزْيَة يعينون فيها « الراتب المستقر » (أى المقيمين بالناحية) « والنَّشْو » (الذين بلغوا من الصبيان) و « الطارئ » (الأجانب الوافدين على الناحية) ويستثنى من هَلَكَ أو اهتدى أو بَعُد فى تلك السنة[٣].

ومن ناحية أخرى يُعِدُّ « المُشارِف » و « العامِل » وكذلك « الجَهْبَذ »[٤] الذى ينضم إليهما لعمليات الجباية ، « تَعْليقًا » يشتمل على المبالغ المحصّلة بالفعل لحساب الجَوالى فى كل ناحية عن كل يوم متضمنة أسماء دافعى الجِزْيَة والسنة المستحقة عنها ، ويعمل

---

[١] الحاشِر جـ . حُشّار . هو الموظف المختص بجمع الجزية من أهل الذمة (نفسه ٣٠٦) . وكان يوجد حاشر لليهود وحاشر للنصارى يعرف أرباب الأسماء الواردة فى الديوان ومن ينضم إليهم ممن يبلغ فى كل عام من الصبيان ويعبر عنهم (بالنَّشْو) ، ومن يقدم إلى الحاضرة من البلاد الخارجة عنها ويعبر عنهم «بالطارئ» ومن يهتدى أو يموت ممن اسمه وارد فى الديوان . (القلقشندى : صبح ٣ : ٤٥٨ ، النويرى : نهاية ٨ :٢٤٢-٢٤٣) .

[٢] المخزومى : المنهاج ٣٦- ٣٧ ؛ Cahen, Cl., *Makhzûmiyyât* p. 28 .

[٣] نفسه ٣٧.

[٤] الجَهْبَذ جـ . جهابذة . كاتب برسم استخراج المال وقبضه ، وكتب الوصولات به . وعليه عمل المخازيم والرزنمجات والختمات وتواليها . (ابن مماتى : قوانين ٣٠٤) .

الجَهْبَذ بها «مَخْزومَة» (جـ. مخازيم، نوع من الدفاتر يُخْرَق)[٢] يُوَقِّع عليها العامل والمشارف ويحتفظ كل منهم بنسخة منها. ويعمل كل عشرة أيام «روزْنامج» وصفته مثل صفة «المَخْزومَة» إلّا أن جملته تكون فى آخره، يحتفظ كل من العامل والمشارف بنسخة منه.

وإذا انقضى الشهر يُنَظِّم الجَهْبَذ «خَتْمَة» (جـ. خِتَم وختمات) تتضمن المستخرج على يده من الأعمال ويعين اسم العمل لشهر كذا وكذا بمشارفة فلان وتولّى فلان. وإذا انقضت السنة نَظَم العامل «عملًا» بما اشتمل عليه ارتفاع الجَوالى بالأعمال الفلانية لسنة كذا مما اعتمد فى أصوله على ما تضمنته أعمال الحُشّار[١].

وبذلك فإن «الخَتْمَة» و«العمل» يُحْتَفَظ بهما كوثيقة فى بيت المال باعتبارهما مؤشّرًا على ما تغله الجَوالى عن كل عام.

الزّكـاة - النّجـــوَىٰ

الزّكاةُ هى الصدقة التى لا يجب على المسلم فى ماله حَقٌّ سواها. وهى تجب فى الأموال المرصدة للنماء والتى حال عليها الحَوْل. وينقسم هذا المال من وجهة نظر الفِقْه إلى مال ظاهر يشمل الزروع والثمار والمواشى، ومال باطن يشمل الذهب والفضة وعروض التجارة. ويختص نظر والى الصَّدَقات فقط بزكاة الأموال الظاهرة، أما زكاة المال الباطن فليس لوالى الصَّدَقات نَظَرٌ فيه وإنما أربابه أحق بزكاته[٣].

وحَدَّدَ ابن مَمّاتى فى جدول جامع ما تجب فيه الزّكاة ومصارفها وما لم تجب فيه[٤]، مع ملاحظة أن مصرف الزّكاة منصوص عليه وليس للأئمة اجتهادٌ فيه[٥].

---

[١] انظر النويرى: نهاية ٨: ٢٦٠، ٢٧٤.

[٢] المخزومى: المنهاج ٣٧- ٤٢؛ Cahen, Cl., *op. cit.*, pp. 26-30 .

[٣] الماوردى: الأحكام السلطانية ٩٨- ١٠١.

[٤] ابن مماتى: قوانين الدواوين ٣١٠- ٣١٦.

[٥] الآية ٦٠ سورة التوبة؛ الماوردى: الأحكام ١٠٧.

وما يذكره المخزومى فى « المِنْهاج » حول حساب الزّكاة يصدق دون شك على فترة حكم صلاح الدين[١]. فالمقريزى يذكر أن السلطان صلاح الدين أوّل من جبا الزّكاة بمصر[٢] حيث أصدر سِجِلًّا فى ربيع الأول سنة ٥٧٣هـ/١١٧٧م بإبطال جميع المكوس من الديار المصرية ، أمر فيه بأن تُستَأدى الزّكاة على الوجه الشّرْعى المأمور به من الله عَزّ وجَلّ[٣]. وكان الناسُ قبل ذلك يدفعون الزّكاة إلى المستفيد منها مباشرةً دون وساطة الدولة .

وبدلًا من أن يحرص الفاطميون على تعيين متولّى للزكاة فقد كان على الإسماعيليين أن يدفعوا للحكومة الفاطمية ممثلة فى شخص الداعى أو نقبائه ما يُعْرَف « بالفِطْرَة » و « النَّجْوى » ومبلغها ثلاثة دراهم وثُلْث ، فيجتمع من ذلك شىءٌ كثير يحمله الداعى إلى الخليفة بيده بينه وبينه وأمانته فى ذلك مع الله تعالى ، فيفرض له الخليفة منه ما يعينه لنفسه ولنقبائه[٥]. وقد اتخذ الفاطميون النَّجْوىٰ من قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّها الَّذين ءَامَنُوا إذا ناجَيْتُم الرَّسُول فقَدِّمُوا بَيْن يَدَىْ نَجْواكم صَدَقَةً ﴾ [الآية ١٢ سورة المجادلة] . يقول الإمام المستنصر فى سِجِلّ مؤرَّخ فى العشر الأخر من ذى القعدة سنة ٤٨١هـ/ أوائل فبراير سنة ١٠٨٩م « فقد صارت هذه الصَّدَقات فَرْضًا واجبًا على كل مؤمن العمل به ، ومن تركه كمن ترك فَرْضًا من فرائض الصلاة والصوم والحج والجهاد ؛ وليس ما يراه أمير المؤمنين من متابعة أو امراه بإخراج الفِطْرة والنَّجاوى احتذاء يحتذيه ، ولا اتساعًا فى بيت ماله يلتمسه ويستدعيه ، ولكن لما كانت من الفروض اللازمة للإمام

---

[١] المخزومى : المنهاج ٤٢- ٤٣.

[٢] المقريزى : الخطط ١ : ١٠٨.

[٣] ساويرس : تاريخ بطاركة الكنيسة ٣/٢ : ٦٩؛ وانظر نص هذا المنشور الذى أبطل فيه صلاح الدين الكثير من المكوس عند أبى شامة : الروضتين ١/٢ : ٤٤٣، ٥٢٢- ٥٢٣.

[٤] المقريزى : اتعاظ ٢ : ٥٠، ٨٢، ٨٥، ٨٦، ٣٣٧.

[٥] ابن الطوير : نزهة المقلتين ١١٢؛ المقريزى : الخطط ١ : ٣٩١ وانظر فيما سبق ص ٣٦٩ .

على المؤمنين وبها قوام دين المؤمن، تعيّن على أمير المؤمنين تعَهُّد أوليائه بحملها ليُرفع لهم في الأعمال الصالحات ويجتنوا بها ثمرة الباقيات »[١].

الرِّبـــاع

الرَّبْع (جـ. رباع) هى المساكن المشتركة التى يقطنها أكثر من أسرة فى وقت واحد بعكس الدور (مفردها دار) وهى المساكن التى تسكنها أسرة واحدة من بابها[٢].

يقول ناصر خُسرو « إن فى القاهرة ما لا يقل عن عشرين ألف دكان، كلها ملك للسلطان (الخليفة)، وكثير منها يؤجَّر بعشرة دنانير مغربية فى الشهر، وليس بينها ما تقلّ أجرته عن دينارين. والأَرْبِطَة والحمّامات والأبنية الأخرى كثيرة لا يحدها الحَصْر وكلها ملك السلطان، إذ ليس لأحد أن يملك عقارًا أو بيتًا غير المنازل وما يكون قد بناه الفرد لنفسه. وسمعت أن للسلطان ثمانية ألف بيت فى القاهرة ومصر وأنه يؤجّرها ويحصّل أجرتها كل شهر. يؤجّرونها للناس برغبتهم ثم يتقاضون الأجر فلا يُجْبَر شخصٌ على شىء »[٣]. ويضيف ناصر خسرو أنه حين كان مقيمًا فى مصر أُجِّر منزل مساحته عشرون ذراعًا فى اثنى عشر ذراعًا (نحو ٧٨م٢) بخمسة عشر دينارًا مغربيًّا فى الشهر، وكان أربعة طوابق، ثلاثة منها مسكونة والرابع خالى[٤].

وأوكلت الحكومة الفاطمية أهمية خاصة للإشراف على الرِّباع، فقد حَفِظَ لنا القلقشندى نَصّ سِجِلّ بحماية الرِّباع صادر إلى من يتولّى « حماية الرِّباع السُّلْطانية بالمعزية القاهرة المحروسة » محددًا مهامه « بكشف أحوال هذه الرِّباع كَشْفًا يُعْرَف به

---

[١] السجلات المستنصرية، سجل رقم ٢٣ وانظر أيضًا السجلات رقم ٣٦، ٥٧.

[٢] ابن الطوير: نزهة المقلتين ٩٢.

[٣] ناصر خسرو: سفرنامة ٨٩.

[٤] نفسه ٩١.

حالُها ... وأن يستخرج مالها من السكان ويستعمل فى استيدائه غاية الاستطاعة والإمكان ... وأن يتعهّدها بالطواف فيها ويحافظ على حراسة غيرها وتناول أجرها ورَمّ مالعله يُشتَرم منها ويتشعَّث ... وحمل مال ارتفاعها إلى بيت المال المعمور بعد ما يُصْرف فى مصالحها ..» [١].

ويحدّد هذا النّصّ وكذلك نَصّ ناصر خُسْرو وجود نوعين من الرّباع: الرّباع السلطانية والرّباع الخاصة التى سَمّاها ناصر خُسْرو «بيوت»، وفى وثائق الجنيزة ما يفيد بأن التاجر اللَّبَدى أجَّرَ فى سنة ٤٩٦هـ/١١٠٢م قسمًا من رَبْع (منزل) فى القاهرة مقابل ٣٠٠ دينار فى الشهر وقَدِمَت أسرته لتقيم فيه [٢].

ويُوَضّح لنا المَخْزومى أن سنة الرّباع هلالية وابتداؤها من استقبال إسكانها، واستخراج إيجارها مُشاهَرَة، وأن الحَوْل الذى ينظم به حساب عملها الجامع من المحرم إلى آخر ذى الحجة [٣].

وتبعًا للمَخْزومى فإن «متولّى الرَّبع» يتولّى إعداد «جريدة استقرار» تتضمّن ما استقرت عليه أجرة المسكون منه وعِبْرَة الخال إلى آخر شهر ذى الحجة وكذلك اسم الوكيل الذى يتولّى الإسكان والخلوة والجباية فى الرَّبْع، ويُفَصّل فى هذه الجريدة ما فى الرَّبْع من قاعات وطباق، ويذكر كذلك حِلْيَة كل منزل منها وما فيه من أخشاب كالأبواب التى يخشى ذهابها وما يجرى مجراها دون السقوف التى يوثق باستقرارها، مفصلًا كل موضع منها بعِبْرَته واسم ساكنه واستقبال إجارته التى عادة ما تكون سنوية، ولكن يمكن أن تكون كذلك لعدة أيام، وتجب الإجارة شهريًا، ولكن تبقى أحيانًا بعض البواقى المؤجلة. ويجب على العامل أن يرفع إلى الديوان تعريفًا يوميًا يسمى

---

[١] القلقشندى: صبح ١٠: ٤٤٩- ٤٥٠.

[٢] Goitein, S.D., *From the Mediterranean to India*, p. 791 .

[٣] المخزومى: المنهاج ٣٤.

« المَخْزومَة » بما يُسْكن من الخال وما يُبْذل من الزيادة فى المسكون ، و « خَتْمَة » يرفعها مشاهرة يوضح فيها ما استخرج خلال الشهر ، وكذلك عملا فى آخر العام يسمى « عمل الزائد والناقص » يتضمن مبلغ ما اشتمل عليه أجرة المسكون من الرَّبْع وما سكن من الخالى منه [١].

وتقرُّبًا إلى الله وابتغاء لثوابه ، لا سيما فى شهر رمضان ، أصدر الإمام الآمر بأحكام الله منشورًا فى شهر رمضان سنة ٥١٧هـ/نوفمبر سنة ١١٢٣م بمُسامَحَة كافة سكان الرِّباع السُّلْطانية بالقاهرة ومصر من الآدر والحمّامات والحوانيت ... بأجرة شهر رمضان من كل سنة لاستقبال رمضان سنة سبع عشرة وخمسمائة وما بعدها إحسانًا وتعظيمًا لحرمة هذا الشهر ، وأمر أن يُخَلَّد بالجامع العتيق بالفسطاط . ولما قرئ هذا المنشور ضَجَّ العامة بالدعاء [٢].

ما يُسْتَأْدى من تُجّار الرُّوم

أو الخُمس الرُّومى

كان على الروم – وهو لفظ يُقْصَد به التجار البيزنطيين والإيطاليين وخاصة الجنويين والبنادقة – أن يدفعوا بوصفهم تجارًا أجانب غير مسلمين رسومًا جمركية (مُكُوسًا) على البضائع الواردة إلى الموانئ المصرية المطلة على البحر المتوسط عَرَّفَها المَخْزومى باسم « الخُمس » أو « الخُمس الرومى » [٣]. ويشرح لنا ابن مَمّاتى كلمة الخُمس بأنها عبارة عما يَسْتَأْدى من تُجّار الروم الواردين على الثغور بمقتضى ما صولحوا عليه ، ورغم أن قيمة

---

[١] المخزومى : المنهاج ٤٤– ٤٥؛ Cahen, Cl. *op.cit.*, pp. 34, 36 .

[٢] المقريزى : اتعاظ ٣: ١٠٤– ١٠٥.

[٣] المخزومى : المنهاج ٤٥ ، ٤٩؛ Cahen, Cl., *op.cit.*, pp. 63, 75وكانت العادة أن يجبى من التجار غير المسلمين الذين يفدون إلى دار الإسلام «العُشر» من قيمة بضائعهم ، وقد أباح الإمام الشافعى للحاكم أن يزيد هذه النسبة إلى الخُمس أو ينقصها إلى نصف العُشر أو يزيلها نهائيًا (القلقشندى : صبح الأعشى ٣: ٤٥٩؛ متز : الحضارة الإسلامية ٢٠١– ٢٠٣؛ Goitein, S. D., *Studies in Islamic History*, p. 232) .

الرسوم الواجب عليهم أدائها يبلغ قيمته ٣٥ بالمائة من قيمة بضائعهم وقد ينحط إلى مادون العشرين بالمائة، فإنها تسمى مع ذلك «خُمْسًا»[١]. ويُوَضِّح هذا النَّص، الذى أورده ابن مَمّاتى، أن الحكومة الفاطمية لم تكن تُعامِل التُّجّار الأجانب غير المسلمين على أساس واحد، الأمر الذى يمكن إرجاعه إلى اعتبارات سياسية واقتصادية. فقد تُخَفِّض الرُّسوم على تُجَّار البلاد التى تُزَوِّد الحكومة الفاطمية بما يلزمها من المواد الضرورية لصناعة السفن على سبيل المثال[٢] والتى كان يبتاعها «المَتْجَر». وأمام ارتفاع قيمة هذه الرسوم حرص التُّجّار على تخفيض المبالغ التى يدفعونها عما ينقلونه من متاجر، يَدُلُّ على ذلك ما وَعَدَ به روجر الثانى Roger II أهالى مدينة سالِرْنو Salerne سنة ٥٣٢هـ/١١٣٧م بالتدخُّل لدى الحكومة الفاطمية لتخفيض الرسوم الجمركية (الخُمْس الرومى) التى يدفعها تُجّارهذه المدينة فى ميناء الإسكندرية إلى القيمة التى يدفعها أهالى صِقِلِّيّة[٣]. وقد عَقَد روجر الثانى نحو سنة ٥٣٨هـ/١١٤٣م معاهدة تجارية مجزية مع مصر، لم يصل إلينا للأسف نَصُّها، وهى دون شك أوَّل اتفاقية تجارية معروفة وُقِّعَت بين قوة مسيحية غربية ومصر[٤]. أما ما يُفْرَض من رسوم على التجارة الخارجية الواردة على ثغور البحر المتوسط من بقية التجار الأجانب غير الروم فيفضل أن يُطْلَق عليه «المَكْس»[٥].

---

[١] ابن مماتى: قوانين ٣٢٦؛ المقريزى: الخطط ١: ١٠٩؛ القلقشندى: صبح ٣: ٤٥٩-٤٦٠.

[٢] Stern, S. D., «An Original Document from the Fatimid Chancery concerning Italien Merchants», *Studi Orientalistici in Onore di Giorgio Levi Della Vida*, Roma 1956, II, 529-38.

[٣] Canard, M., «Une lettre du calife fatimite al-Hafiz (524-544/ 1130-1149) à Roger II», *Atti del convegno Internazionale di Studi Ruggeriano* (Palerme 1955), pp. 125-126؛ البراوى: المرجع السابق ٢٥٠، ٢٦٨.

[٤] *Ibid.*, p. 126.

[٥] Cahen, Cl., *op.cit.*, p. 75.

ويدلُّنا على ارتفاع عائد الخُمُس أن شاوَر وعمورى الأول ، عندما حاصرا صلاح الدين فى الإسكندرية سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م ، عَرَض شاوَر على أهالى الإسكندرية أن يُسَلِّموا إليه صلاح الدين ومن معه مقابل أن يضع عنهم « المُكُوس » ويعطيهم « الأخْماس » [١].

والثُّغُور التى تناولها نَصُّ المَخْزومى هى : الإسكندرية ودِمْياط وتِنِّيس مع إشارة عابرة إلى رَشيد ونَسْتَروه المواجهة لها . ولم يذكر المَخْزومى أى ميناء من موانئ البحر الأحمر . وربما يُوضِّح لنا نصّ لابن مَمَّاتى سبب عدم ذكر المَخْزومى لموانئ البحر الأحمر ، فهو يذكر أنه على العكس من الإسكندرية ودِمْياط وتِنِّيس فإنه لا يوجد بعَيْذاب - ميناء البحر الأحمر - سوى الزَّكاة وواجب الذِّمَّة لا غير [٢]. وهذا يعنى أنه لم يكن يتردَّد عليه سوى تُجَّار مسلمين أو ذِمِّيين قادمين من البلاد الإسلامية ، وأن المتاجر الشرقية الصينية والهندية كانت تصل إلى عَدَن ثم يحملها تُجَّارٌ مسلمون أو ذِمِّيون من أصل عربى إلى عَيْذاب ، رغم أن ناصر خُسْرو يذكر أنه كانت تُحَصَّل بعَيْذاب المُكُوس على ما فى السفن الوافدة من الحبشة وزِنْجبار واليمن ! [٣].

وتُقَرِّر الوثائق البيزية (نسبة إلى مدينة بيزا الإيطالية) أنه على الأقل بالنسبة لتُجَّار الموانئ الكبيرة كان لهم فى منتصف القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى فنادقهم المستقلة فى الإسكندرية وفى الفُسْطاط ، ولا يوجد ما يجعلنا نفترض أن هذه الميزة لم تكن موحدة مع بعض المدن أو الدول الأخرى ، بالرغم من أن الوثائق الخاصة بها منعدمة [٤].

---

[١] النويرى : نهاية ٢٨:٣٣٦- ٣٣٧.

[٢] ابن مماتى : قوانين ٣٢٧؛ وانظر المقريزى : السلوك ١:٧٢- ٧٣.

[٣] ناصر خسرو : سفرنامة ١١٨.

[٤] Cahen, Cl. *op. cit.*, p. 77، وعن دور الفندق ووظيفته راجع مقال صبحى لبيب : «الفندق ظاهرة سياسية ، اقتصادية ، قانونية» فى كتاب مصر وعالم البحر المتوسط ، القاهرة-دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ١٩٨٦، ٢٨٥- ٣٠٥.

والصفة الغالبة على نَصّ المخزومى هى الغموض والالتباس فى بعض مواضعه حيث يقسم الرسوم الواجبة إلى : رسوم أصلية ، ورسوم مقابل خدمات الحماية ، ثم رسوم بناء على اتفاقيات ومعاهدات تجارية . والخط الفاصل الوحيد للتقسيم بينها ، كما يرى البروفسير كاهن برغم بعض التداخل ، هو التمييز بين « الوارد » و « الصادر » [١].

ويتولّى الإشراف على جباية « الخُمس » فى الإسكندرية ودِمْياط وتنّيس جهاز مكوّن من: ناظر ومُشارف وشاهد [كاتب] الخُمس وعامل وعدد من الكُتّاب ومترجم يتولّون إعداد عدد من التعليقات والجرائد لحِفْظ الارتفاعات وضَبْط الأموال وصيانتها [٢].

وتتضَمّن « التعريفات » بيانات عن ورود المراكب الرومية مبينًا لكل مركب من أى البلاد قدمت ونوع البضائع التى تحملها موضحًا وزنها وعددها . ثم تُعَدّ « تعريفات » بما يُفَرّغ فى كل يوم من جميع المراكب من البضائع فى المخازن بالصناعة ، كما يُعَدّ « تعريف » مفصّل بأسماء التُّجّار ومراكبهم [٣].

وإذا كان عَرْضُ المخزومى عما يؤدّى إلى الخُمس بثغر الإسكندرية ناقصًا أو غير واضح ، فإن ما يعرضه عن ثغر تِنّيس - رغم قِلّة المترددين عليها بالقياس إلى الإسكندرية - ملئ بالتفصيلات حيث يقدّم لنا كَشْفًا بنسبة الخُمس الواجب أداؤها عما قيمته مائة دينار من أنواع متعددة من البضائع [٤]. ويفيدنا عرضه كذلك بأنه كان يُعْقَد بها بيع بالمزاد العلنى للبضائع الواردة يعرف « بحِلَق الخُمس » (جـ . حَلْقَة) تَفْرِض عليه الدولة مكوسًا لا تجب إلّا بعد إتمام عملية البيع ، وينال السّماسِرَة والمنادون والمستخدمون

[١] . Cahen, Cl., *op.cit.*, p. 84

[٢] المخزومى : المنهاج ٤٥- ٤٦.

[٣] نفسه ٤٦.

[٤] نفسه ٢٢- ٢٩.

نسبة منها [١]. وكذلك كان من بين الرسوم المفروضة « رَسْم التوفير » وهو عمّا يُستخرج على يد جَهْبَذ الديوان من التُّجّار المشترين وتُجّار الروم عن كل مائة دينار سدس وثمن دينار [٢].

ويمكننا أن نُصَنِّف الرسوم المُعَقَّدَة التى كان على التُّجّار الروم دَفْعها فى الإسكندرية وبقية الثغور إلى مجموعتين أساسيتين هما : « القُوف » و « العَرْصَة » ومعنى هذين المصطلحين غير واضح على الإطلاق [٣]. ويظن البروفسير كاهن أن كل الرسوم التى كانت تُدْفع فى الإسكندرية تتجمع حول هاتين المجموعتين الرئيستين ، ويبلغ مجموعها ١٩ بالمائة [٤].

ونستطيع أن نتبين من بين العمليات المتنوعة والرسوم التى يُطْلَق عليها « القُوف » مع بعض الصعوبات ، ثلاثة تقسيمات : مراكب تدفع رسومًا بالكامل ، وهى المراكب التى يكون ارتفاعها ألف دينار فما فوق ، وتدفع ما قدره مائة وأحد وخمسين دينارًا وربع - ومراكب تدفع رسومًا بحق الثلثين عن ستمائة ست وستين دينارًا وثلثين قدرها مائة دينار ما قدره خمسة وسبعين دينارًا ونصف وثُمنْ من جميعه [٥] ويبدو هذا التقسيم غامضٌ إلى حد ما [٦]. ويمثل العائد من « القُوف » من قيمة الخُمُس نسبة قدرها ٨ ١٥ بالمائة تشمل رسوم المستخدمين وهم : الجُباة والخُزّان والأمناء وبوابين البحر ، ورسوم لعديد من الأبواب مثل رَسْم « الخَتْمة » ورَسْم « الطُعْمَة » ورَسْم « الضيافة » [٧]. أما ما يُطلق عليه الروم « العَرْصَة » فهو كما يذكر المخزومى ، ما يؤخذ عن محاسبة المراكب الخُمُسِيّة متعلقًا

---

[١] المخزومى : المنهاج ٩.

[٢] نفسه ١٠.

[٣] نفسه ١٠- ١٢، ١٣؛ Rabie, H., *op.cit.*, p. 90 .

[٤] Cahen Cl., *op.cit.*, pp. 88-89 .

[٥] المخزومى : المنهاج ١٠.

[٦] Rabie, H., *op.cit.*, p. 91 .

[٧] المخزومى : المنهاج ١١، ١٢.

برَسْم الإشراف والعمل ورَسْم صاحب البحر ورُسوم الولاية ورُسوم الترجمة وكاتب الخُمس والجَهْبَذ والمحاسبة [١]. وهذا فيما يخص التُّجّار الأجانب غير المسلمين.

أما التُّجّارُ المسلمون فقد اعتبر الفُقَهاء المُكُوس أو الضَّرائب الجمركية، بالنسبة لهم داخلة ضمن الزَّكاة، ومن هنا نشأت فكرة أن التاجر المسلم يستطيع أن يطوف عامًا كاملًا أينما شاء من حدود البلاد معفى من المُكُوس متى دَفَعَ المَكْس مرة واحدة وهو «العُشْر»، وذلك بالإضافة إلى الزَّكاة الشرعية على عَيْن المال، وهى عن كل مائة دينار ديناران ونصف (٢ ١/٢٪)، وقد أطلق عليها المخزومى «عروض (عيون) التجارات»، وكانت تجبى بعد أن يحدِّد المُشارف حَوْلَ كل تاجر على ما يقتضيه ابتداء ملكه للمال. وضَرَبَ المخزومى مثلًا عمليًا على ما يجب عن مائتى أردب من الغَلَّة قيمتها أربعون دينارًا وهو دينار واحد، وكذلك على ما يجب عن مائة قنطار من القطن قيمتها خمسون دينارًا وهو دينار واحد وربع [٢]. وقد أبدى الرحالة ابن جُبَيْر تَذَمُّره من الإجراءات الجمركية بالإسكندرية عندما وَصَلَ إليها سنة ٥٧٨هـ/١١٨٣م فى طريقه لأداء فريضة الحج، وذَكَرَ أن الموكلين بهذا الأمر طالبوهم بأداء زكاة ما معهم دون أن يبحثوا إذا كان قد حال عليه الحَوْل أو لم يحل، رغم أن ما يحملونه لم يزد عن كونه زاد لطريقهم ولم يكن لغرض الاتجار [٣]

أما الرُّسُوم المفروضة على مايرد ويصدر مع التُّجّار الذِّمِّيين فتعرف بـ«واجب الذِّمَّة»، وكانت فى وقت ابن مَمّاتى تُستأدى فى أماكن ثلاثة هى: مصر الفُسطاط والإسكندرية وأخميم [٤]، التى يجب أن نضيف إليها عَيْذاب التى ذكرها

---

[١] المخزومى: المنهاج ١٣؛ Rabie, H., *op.cit.*, p. 91 ; Cahen, Cl., *op.cit.*, p. 88 .

[٢] نفسه ٤٢، ٤٦؛ Cahen, Cl., *op.cit.*, pp. 75-91; Rabie, H. *op.cit.*, pp. 96-97 .

[٣] ابن جبير: الرحلة ١٣.

[٤] ابن مماتى: قوانين ٣٤٩.

ابن مَمَّاتى فى موضع آخر[١]، وإن كان لم يُحَدِّد لنا قيمة هذه الرسوم.

المَوارِدُ غير المُنتَظِمَة

المُصــادَرَة

تُعَدّ مُصادَرَة أموال وممتلكات كبار رجال الدولة فى أعقاب عزلهم أو التخلُّص منهم موردًا من موارد الدولة غير المنتظمة. وقد عُرِفَت المُصادرات فى مصر قبل العصر الفاطمى، فقد صادر الإخشيديون الكثير من عُمّالهم وخاصتهم بعد القبض عليهم، وكان إذا أفلت أحدٌ من المصادرة حَيًّا لم يَسْلَم من أخذ أمواله بعد وفاته، وكذلك كانوا يفعلون مع التجار المياسير[٢]. وفى العراق شاعت كذلك ظاهرة مصادرة كبار الموظفين فى القرن الرابع/ العاشر وأثَّرَت تأثيرًا سلبيًّا على الملكيات الخاصة، وأُنشئ فى بغداد ديوان خاص لذلك سمى «ديوان المصادرين» مهمته إدارة الأملاك المُصادَرَة[٣].

أما فى مصر الفاطمية فكان أوّل من صودر هو الوزير يعقوب بن كِلِّس، فعندما صرفه الخليفة العزيز من منصبه فى ثامن شوال سنة ٣٧٣هـ/١٨ مارس سنة ٩٨٤م اعتقله وحمل من ماله خمسمائة ألف دينار، ولكنه لم يلبث أن أفرج عنه وأعاده إلى منصبه فى العام التالى[٤]. وفى الفترة التى انقلب فيها الخليفة الحاكم بأمر الله على معاونيه وتَخَلَّص من أغلبهم بالقتل، نجده يصادر عددًا منهم مثل الحسين بن جَوْهَر وصهره عبد العزيز بن النُّعمان سنة ٤٠٠هـ/١٠١٠م. واضطر الحاكم أمام كثرة المصادرات إلى إحداث ديوان

---

[١] ابن مماتى: قوانين ٣٢٧ وانظر كذلك ناصر خسرو: سفرنامة ١١٨.

[٢] ابن سعيد: المغرب فى حلى المغرب ١٦٥، ١٨٧.

[٣] الدورى: تاريخ العراق الاقتصادى ٢٥٨-٢٥٩؛ متز: الحضارة الإسلامية ١٣٦.

[٤] النويرى: نهاية ٢٨: ١٥٩.

جديد سَمَّاه «الديوان المُفْرَد» برَسْم مَنْ يُقْبَض ماله من المقتولين وغيرهم [١].

ولم يكتف الخلفاء فقط بالمُصادَرَة بل شاركهم فى ذلك أيضًا الوزراء، فيذكر كل من ابن الصَّيْرَفى وابن مُيَسَّر أن الوزير أبا البركات الحسين بن محمد الجَرْجَرائى (٤٣٩-٤٤١هـ/١٠٤٧-١٠٤٩م) «كثر فى أيامه القبض والمصادرات واصطفاء الأموال والنفى» [٢].

وعندما حاصر الوزير القوى أمير الجيوش بدر الجمالى ولده الأوْحَد فى الإسكندرية وتمكن من أسره فى أوائل عام ٤٧٧هـ/١٠٨٤م، أعاد بناء جامعها المعروف بجامع العَطّارين من مال المُصادَرَات ومن أموال أخذها من الإسكندرانيين [٣]. أما فى عصر ولده وخليفته الأفْضَل شاهنشاه فيذكر ابن مُيَسَّر أنه «لم يُعْرَف أحدٌ صودر فى زمانه ولاقُسِّط» [٤]. ولكن بعد أن تَخَلَّص الخليفة الآمر بأحكام الله من وزيره المأمون البَطائِحى واستعان بالراهب المعروف بأبى نجاح بن قَنا كثرت المصادرات على يديه، وبَذَلَ فى مصادرة قوم من النَّصارى مائة ألف دينار، ولم يَسْلَم منه جميع رؤساء الديار المصرية وقضاتها وكُتّابها وغيرهم [٥]، وبلغ به الأمر أنه صادر رجلًا جمّالًا فأخذ له عشرين دينارًا ثمن جمل ابتاعه لم يكن يملك سواه [٦]. وكان يجلس فى قاعة الخطابة من جامع عمرو بن العاص ويستدعى الناس للمصادرة إلى أن قُتِل بأمر الخليفة الآمر سنة ٥٢٣هـ/١١٢٩م. فلما قام أبو على الأَفْضَل كُتَيْفات بانقلابه فى أعقاب وفاة الخليفة الآمر «أعاد على الناس ما أخِذَ من أموالهم» [٧].

---

[١] المقريزى: اتعاظ ٢: ٨١، ٨٢؛ القلقشندى: صبح ٣: ٤٥٣.

[٢] ابن الصيرفى: الإشارة ٧٢؛ ابن ميسر: أخبار ١٠؛ المقريزى: اتعاظ ٢: ٢٠٨.

[٣] ابن ظافر: أخبار ٧٧؛ ابن ميسر: أخبار ٤٦؛ المقريزى: اتعاظ ٢: ٣٢١.

[٤] ابن ميسر: أخبار ٨٣.

[٥] ابن ظافر: أخبار ٨٨؛ ابن ميسر: أخبار ١٠٨؛ النويرى: نهاية ٢٨: ٢٩٢-٢٩٣؛ المقريزى: اتعاظ ٣: ١٢٥.

[٦] نفسه ٨٩.

[٧] ابن ميسر: أخبار ١١٧.

ويشير ابن ظافِر إلى أن الوزير طَلائِع بن رُزِّيك وقت وزارته « احتكر الغلات إلى أن غَلَت أسعارها ... وكان أشَدّ الناس تطلُّعًا إلى ما فى أيدى الناس من أموالهم وصادر أقوامًا لم يكن بينهم وبينه معاملة ولا سبب يوجب التعَرُّض »[1].

ويبدو أن الدولة الفاطمية قد استعاضت عن « الديوان المُفْرَد » الذى أنشأه الخليفة الحاكم فى أواخر القرن الرابع بـ « الديوان المُرْتَجَع » وهو ديوان نشأ فى عصر الخليفة الحافظ بعد عَزْل الوزير بَهْرام لارتجاع ما أخِذ منه ومن غيره من الضِّياع[2].

المَوارِيثُ الحَشْرِيَّة

وهى مال من يموت وليس له وارث خاص بقرابة أو نكاح أو ولاء، أو الباقى من الفَرْض من مال من يموت وله وارث أو فَرْض لا يستغرقه جميع المال ولا عاصب له[3].

وكان القائد جَوْهَر قد وعد المصريين فى « الأمان » الذى منحه لهم وقت الفَتْح : أن يجريهم فى المواريث على كتاب الله وسُنَّة نبيه ﷺ ويضع ما كان يؤخذ من تركات موتاهم لبيت المال من غير وصية من المتوفى بها، لأنه لا استحقاق لتصييرها بيبت المال[4]. وما جاء فى أمان جَوْهَر يدلُّ على أن نظام الميراث فى مصر قبل مجئ الفاطميين كان يسير وفق ما يأخذ به المذهب السنى فى الميراث الذى يرى أن من مات ولم يكن له من يرثه من عُصْبَة وذى سَهْم ذهب إرثه إلى بيت المال، كما أنه إذا بقى شيء من الإرث، بعد إعطاء كل ذى سَهْم من الورثة سَهْمه، فإنه يذهب إلى بيت المال[5]. كذلك فإن ما جاءفى أمان جوهر يدل على أنه كانت تؤخذ من تركة المتوفى

---

[1] ابن ظافر : أخبار ١١١؛ وقارن النويرى : نهاية ٢٨: ٣٢٥؛ المقريزى اتعاظ ٣: ٢٤٤.

[2] القلقشندى : صبح ١٠: ٣٥٧؛ وراجع حول المصادرة Rabie, H., *op.cit.*, pp. 122-127 .

[3] نفسه ٣: ٤٦٠؛ وانظر ابن مماتى : قوانين ٣١٩- ٣٢٥؛ النابلسى : لمع القوانين المضية ٥٤.

[4] المقريزى: المقفى ٣: ٩٢، الاتعاظ ١: ١٠٥؛ ابن حماد : أخبار ملوك بنى عبيد ٥١.

[5] الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ١٩٠.

ما يُطْلَق عليه « ضريبة الإرْث » وهى ضريبة غير مشروعة[1].

أما المذهب الشيعى (سواء الإسماعيلى أو الإمامى أو الزيدى) فيرى توريث ذوى الأرحام وأن البنت إذا انفردت تأخذ الإرْث جميعه بلا عصبة ولا بيت مال[2]، بينما يقضى مذهب السُّنَّة أن لا ترث البنت أكثر من نصف الثروة التى يتركها أبواها إذا لم يكن لها أخ أو أخت .

وأورد لنا ابن زولاق خلافًا فى تنفيذ قوانين الميراث بين السُّنَّة والشيعة حَدَثَ وقت المُعِزّ حول قضية حَمّام ادَّعى رجلٌ يدعى ابن بنت كيجور أنه من إنشاء جده لأمه وأخذ توقيعًا من المُعِزّ بأن ينظر فى أمره القاضى الإسماعيلى عبد الله بن أبى ثَوْبان ، فأقام البَيِّنَة على أن جده المذكور هو الذى بنى الحمّام وأنه توفى وانحصر إرثه فى بنته – والدة المدعى – وكان المُعِزّ يطلب إلى قضاته أن يورثوا البنت جميع الميراث إذا لم يكن معها أخ أو أخت . غير أن القاضى السُّنِّى أبا الطاهر الذُّهْلى اعترض على ذلك لأنه كان قد سبق وحكم فى هذه القضية بأن محمد بن على الماذَرائى قد حَبَس هذا الحمّام بعد وفاة صاحبه وأنه لا حَقَّ له فيه[3].

ولكن بعد وفاة القاضى أبى الطاهر الذُّهْلى أصبح قضاة الفاطميين جميعهم من الإسماعيلين يحكمون وفق المذهب الإسماعيلى . ويبدو من نصّ للمقريزى أن الدولة الفاطمية كانت تُلْزِم رعاياها باتباع الفقه الشيعى فى الميراث إلى أن استجد أمير الجيوش بدر الجمالى وقت وزارته نظامًا جديدًا هو « أن كل من مات يُعْمَل فى ميراثه على حُكْم

---

[1] الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ١٩١؛ متز : الحضارة الإسلامية ١٩٥.

[2] القاضى النعمان : المجالس والمسايرات ٩٧، دعائم الإسلام ٢: ٣٧٩–٣٨٠؛ ابن حجر : رفع الإصر ١: ٢٩٦؛ المقريزى : الخطط ١: ١١١، اتعاظ ٣: ٨٩؛ Fyzee, A. A. A., «The Fatimid Law of Inheritance», *SI* IX (1958), pp. 61-69 .

[3] ابن حجر : رفع الإصر عن قضاة مصر ١: ٢٩٦–٢٩٨؛ حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ٣١٥.

مذهبه »[١]، وقد أدَّى ذلك إلى أن تؤول كثير من أموال المواريث إلى ديوان المواريث الحَشرية . ولكن عندما تولَّى الأفْضَلُ شاهنشاه الوزارة أفرد مال المواريث ، كما يذكر ابن مُيَسَّر ، ومَنَعَ من أخذ شيء من التركات وأمر بحفظها بمَوْدِع الحُكْم حتى إذا حضر من يطلبها وطالعه القاضي بثبوت استحقاقها أطلقها في الحال ، وكان القاضي قد أراد رفعها إلى بيت المال بعد أن بلغ ما اجتمع منها في مَوْدِع الحكم مائة ألف وثلاثون ألف دينار[٢].

وفي أيام الوزير المأمون البَطائِحي أراد الفقيه المالكي أبو بكر محمد بن الوليد الطُّرْطوشي مناقشة أمور المواريث وما يأخذه أمناء الحكم من أموال الأيتام ، وهو رُبْع العُشْر ، وتوريث البنت نصف المال حيث كان الفاطميون يورِّثونها جميع المال مع وجود ذوي العصبية . وكان رأي الوزير المأمون أنه لا يقول بذلك وأنه من ابتكار الوزير بدر الجمالي ، وانتهت المناقشة بين الفقيه والوزير إلى إصدار مَنْشور كتب في ٢٨ ذي القعدة سنة ٥١٦هـ/٢٧ يناير سنة ١١٢٣م بأن « يَخْلُص لحُرَم ذوي التَّشَيُّع الوارثات جميع موروثهم[٣]... ويُحْمَل من سواهن على مذهب مخلفيهن ، ويشركهم بيت المال فيْ موجودهم ، ويحمل إليه جزء من أموالهم التي أحَلَّها الله لهن بعدهن... أما من توفي حَشْريًّا ولا وارث له حاضرٌ أو غائبٌ ، فإن ميراثه يؤول بأجمعه إلى بيت المال ، إلَّا إذا كان عليه مالٌ يستحق لإحدى الجهات الحكومية أو دَيْن يؤدَّى إلى مستحقيه ... وإذا توفي شخصٌ وله وارثٌ غائب فيتَحَفَّظ الحُكَّام والمستخدمون على تركته احتياطًا حُكْميًّا ، فإذا حضر وأثبت استحقاقه ذلك في مجلس الحكم على الأوضاع الشرعية طولع بذلك ليخرج الأمر بتسليمه إليه والانتهاء بقبضه عليه »[٤].

---

[١] المقريزي : اتعاظ ٣: ٨٩.

[٢] ابن ميسر : أخبار ٨٣- ٨٤؛ المقريزي : اتعاظ ٣: ٧٢.

[٣] تبعًا لما جاء في سورة الأنفال الآية ٧٥.

[٤] المقريزي : اتعاظ ٣: ٩٠- ٩١، المقفى ٧: ٤١٠- ٤١٣؛ حسن إبراهيم حسن : المرجع السابق ٣١٦- ٣١٧.

وجاء فى هذا المَنشور كذلك الأمر بتعويض أمناء الحُكم عما يتقاضونه من رُبْع العُشْر من ثمن ما يبيعونه من التركات مما يؤدّى إلى نقص أموال الأيتام ، وذلك بتقرير جارٍ لهم فى كل شهر من مال الديوان على المواريث الحَشْرية [١].

أما إذا توفى ذِمّى ولم يخلّف وارثًا فتُرَدّ تركته على أهل مِلّته لا على بيت المال ، وذلك عَمَلًا بما روى عن النبى ﷺ من أن المسلم لا يرث الكافر ، وأن الكافر لا يرث المسلم ، وأنه لا يتوارث أهل مِلّتين [٢].

وقد حَفِظَ لنا القلقشندى نسخة مَنْشور تقدَّم بكتبه السيد الأجَلّ الأَفْضَل (ربما رِضْوان بن وَلَخْشى) إلى القاضى الرشيد سديد الدولة أبى الفتوح محمد بن القاضى السعيد عين الدولة أبى محمد عبد الله بن أبى عقيل يقره فيه على ما هو متولّيه من الخدمة فى مشارفة المواريث الحَشْرية وتقرير الفروض الحكمية [٣].

وكان يُشْرف على المواريث الحَشْرية ، باعتبارها موردًا من موارد الدولة الفاطمية غير المنتظمة ، ديوانٌ يعرف بـ « ديوان المواريث » أو « ديوان المواريث الحَشْرية » ، وكان يُضَمّ أحيانًا كما يُفْهَم من نصّ لابن الطُّوَيْر إلى « ديوان الجَوَالى » [٤].

ويبدو أن الحَشْريين كانوا يضيقون بقوانين هذا الديوان ، فكانوا يتنازلون فى حياتهم عما يمتلكون من عقار ثابت أو أموال منقولة بمختلف الطرق الشرعية ، نظرًا لأن الديوان - كما يذكر النابُلُسى - كان يُهْمِل أموال الحَشْريين التى لهم لدى أفراد متفرقين فى أقاليم الديار المصرية بحجة استحالة تحصيلها وبذلك لا تؤول هذه الأموال إلى الديوان

[١] المقريزى : اتعاظ ٣: ٨٩- ٩١، المقفى ٧: ٤١١، ٤١٣.

[٢] متز ، ١: الحضارة الإسلامية ١٩٥.

[٣] القلقشندى : صبح ١٠: ٤٦٦.

[٤] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٩٢؛ ابن الفرات : تاريخ ١/٤: ١٤٩؛ القلقشندى : صبح ٣: ٤٩٢، المقريزى : اتعاظ ٣: ٣٤٢ وقارن Rabie, H., *op.cit.*, p. 127 .

ولا تُصَرَف فى الوجوه المقرّرة لها [١]. وتُوَضِّح لنا حُجّة تمليك ووَقْف ترجع إلى العصر الأيوبى مؤرّخة سنة ٦٤٩هـ/١٢٥١م، كيفية تصرف الحَشْريين فى العقارات الخاصة بالوَقْف حتى لا تؤول إلى ديوان المواريث الحَشْرية [٢]. ولا شك أن الناس قد لجأوا أيضًا إلى هذه الحيلة فى العصر الفاطمى.

* * *

ونتيجة لاتباع نظامى المُصادَرَة والمواريث الحَشْرِيّة وُضِعَت مبالغ طائلة من المال فى التّداول، وتُحَدِّثنا حَوْليات ذلك العصر عن الثروات الطائلة بالعملات الذهبية والفضية التى امتلكها أفرادُ الطبقة العُلْيا والتى صودرت فى حياتهم أو بعد وفاتهم. ونتج عن نظام المُصادَرَة ونظام المواريث الحَشْرية أن هذه الأموال الضخمة ظلّت قَيْد التداول، وهى وسيلة لجأت إليها كل الحكومات الإسلامية للحصول على الأموال التى تحتاجها للنفقات [٣].

الأحـــباس

ظَلّت الأوقاف (الأحْباس) فى مصر منذ الفتح الإسلامى فى أيدى مستحقيها أو نُظّار الوَقْف حَسَب شروط الواقف دون أى تَدَخُّل أو إشراف من الدولة، حتى وَلِىَ قضاء مصر القاضى الأُمَوى تَوْبَة بن نَمِر فى مستهل صفر سنة ١١٥هـ/١٩ مارس سنة ٧٣٣م فخاف عليها من الهلاك والتوارث، ولما كان مآل الأحْباس إلى الفقراء والمساكين، فقد وَجَدَ أنه من الأفضل أن يضع يده عليها فأفرد لها ديوانًا سُمّى «ديوان

---

١ النابلسى: لمع القوانين المضية ٥٤ والهامش التالى.

٢ حسنين محمد ربيع: «حجة تمليك ووقف»، المجلة التاريخية المصرية ١٢ (١٩٦٤-١٩٦٥)، ١٩٢، ١٩٦.

٣ Ashtor, E., *op.cit.*, pp. 190-91.

الأحباس ، كان يتولّى الإشراف عليه القاضى[١]. ويعتبر هذا الديوان أوّل تنظيم للأوقاف ليس فى مصر فحسب بل فى كافة الدولة الإسلامية[٢].

وظَلَّ القضاةُ يتولّون النَّظر فى الأوقاف بحفظ أصولها واستثمارها وقَبْض ريعها وصرفه فى الأوجه التى أُرْصِدَت لها . ومنذ النصف الأول للقرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى كان يُعَيَّنُ فى بعض الأحيان متولٍّ للأحباس ونَفَقَة الأيتام بالإضافة إلى القاضى[٣]. وكانت الأحباسُ فى أوّل الأمر فى الرِّباع وما يجرى مجراها من المبانى ، أما الأراضى فلم يكن سَلَفُ الأمة من الصحابة والتابعين يتعرّضون لها[٤]. أما أوّل من حَبَسَ الأراضى والبساتين فى مصر فأبو بكر محمد بن على الماذَرَائى الذى حَبَسَ نحو سنة ٣١٨هـ/ ٩٣٠م ، بركة الحَبَش وأسيوط على الحرمين وعلى جهات بِرّ مختلفة[٥]. يقول المقريزى : « فلما قدمت الدولة الفاطمية من المغرب إلى مصر بَطَلَ تحبيس البلاد وصار قاضى القضاة يتولّى أمر الأحباس من الرِّباع ، وإليه أمر الجوامع والمَشاهد ، وصار للأحباسِ ديوان مفرد »[٦]، كذلك فقد أدخل الفاطميون الكثير من التنظيمات الخاصة بالوَقْف . فقد أمر الخليفة المُعِزّ لدين الله فى ربيع الآخر سنة ٣٦٣هـ/ ٩٧٤م أن تُحَوَّل المحصَّلات المالية المجباة من الممتلكات الموقوفة من مَوْدع الحكم إلى بيت المال ، وطالب المنتفعين بأن يُظْهِروا الوثائق التى تدلُّ على أحقيتهم فى ريع هذه الأوقاف[٧]. ويُعَدّ محمد ابن القاضى أبى الطاهر محمد الذُّهْلى أوّل من ضَمَن جباية أموال الأحباس فى الدولة

---

[١] ابن حجر: رفع الإصر ١: ١٦١.

[٢] محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الإجتماعية فى مصر ٦٤٨-٩٢٣/ ١٢٥٠-١٥١٧- دارسة تاريخية ووثائقية، القاهرة ١٩٨٠، ٤٨.

[٣] نفسه ٤٨- ٤٩، ٥١.

[٤] المقريزى: الخطط ٢: ٢٩٤.

[٥] نفسه ٢: ٢٩٥.

[٦] نفسه ٢: ٢٩٥.

[٧] نفسه ٢: ٢٩٥؛ المقريزى: اتعاظ ١: ١٤٨؛ محمد محمد أمين: المرجع السابق ٥٢.

الفاطمية، ففى النصف من شعبان من سنة ٣٦٣هـ / ٩٧٤م ضَمَن الأحْباس بألف ألف وخمسمائة ألف درهم فى كل سنة، على أن يدفع إلى المستحقين حقوقهم ويحمل الباقى إلى بيت المال [١].

وهكذا أصبح لبيت المال منذ أيام الفاطميين نصيبٌ من متحصّلات الأحْباس، التى صارت تمثل أحد موارد الدولة المالية [٢]. وحتى يضمن الفاطميون موردًا ثابتًا يُنْفقون منه على تعمير المساجد وفرشها والصرف على قَوَمَتها وخُدّامها، أوقفوا الكثير من الأراضى الزراعية وغيرها من المواضع. فيذكر المُسَبّحى أن الخليفة الحاكم بأمر الله أمَرَ فى سنة ٤٠٣هـ / ١٠١٢م بإثبات المساجد التى لا غَلَّة لها ولا أحد يقوم بها أو التى لها غَلّة لا تقوم باحتياجاتها فأُثْبِتَت فى سِجِلّ رُفِع إليه، وبلغت عدتها ثمانمائة وثلاثين مسجدًا قُدِّر لها نفقة شهرية قيمتها ٩٢٢٠ درهمًا بواقع اثنى عشر درهمًا لكل مسجد [٣]. وبناء عليه أمر الحاكم فى يوم الجمعة ١٨ صفر سنة ٤٠٥هـ/١٩ أغسطس سنة ١٠١٤م بقراءة سِجِلّ بتحبيس ضياع هى: إطْفيح وصول وطوخ، وست ضياع أخر وعدة قياسر وغيرها على القُرّاء والفقهاء والمؤذّنين بالجوامع، وعلى المصانع والقُوّام بها ونَفَقَة المارستانات وأرزاق المستخدمين فيها وثمن الأكْفان لفقراء المسلمين [٤]. ويذكر الشريف محمد بن أسعد الجَوّانى أن القضاة بمصر كانوا إذا بقى لشهر رمضان ثلاثة أيام طافوا يومًا على المساجد والمَشاهِد بمصر والقاهرة، يبدأون بجامع المَقْس ثم جوامع القاهرة ثم المَشاهِد ثم القَرافَة ثم جامع عمرو بالفُسْطاط ثم مشهد الرأس لنظر حُصر ذلك وقناديله وما تَشَعَّث منها وما يحتاج إلى عمارة منها وظل الأمر على ذلك إلى أن زالت الدولة الفاطمية [٥].

---

[١] المقريزى: الخطط ٢: ٢٩٥؛ محمد محمد أمين: المرجع السابق ٥٢ وانظر فيما سبق ص .

[٢] محمد محمد أمين: المرجع السابق ٥٢.

[٣] المسبحى: نصوص ضائعة ٣١؛ المقريزى: الخطط ٢: ٢٩٥، ٤٠٩؛ اتعاظ ٢: ٩٦.

[٤] نفسه ٣٢؛ نفسه ٢: ٢٩٥، ٤٠٩.

[٥] المقريزى: الخطط ٢: ٢٩٥.

وكان أميرُ الجيوش بدر الجمالى قد حَبَسَ على عَقِبه وقت وزارته عددًا من النواحى عرفت بـ « الحَبْس الجيوشى » ، بعضها فى البر الشرقى وهى بَهْبيت والأميرية والمنية ، وبعضها فى البر الغربى جهة الجيزة هى : سَفْط ونَهْيا ووسيم . وظلّت جميع البساتين المختصة بهذا الحَبْس بأيدى وَرَثَة أمير الجيوش حتى وزارة المأمون البَطائِحى ، فلما توفى الخليفة الآمر واستولى أبو على الأفْضَل كُتَيْفات حفيد بدر الجمالى على السُّلْطَة أعاد جميع الحَبْس إلى المُلّاك لكون نصيبه فى ذلك الأوفر ، فلما قُتِل كُتَيْفات وأعيد الخليفة الحافظ أمر بالقبض على جميع الأملاك وحَلّ الأحْباس المختصة بأمير الجيوش لولا تدخل غلمان الأَفْضَل عِزّ المُلك ويانِس – الذى أصبح وزير الحافِظ – وأقنعا الحافِظ بإبقائها . ولما انقرض عقب أمير الجيوش ولم يبق منه سوى امرأة أفتى الفقهاء بأن الحَبْس باطلٌ فصار ماله يُحْمَل إلى بيت المال ليُنْفَق فى مصالح المسلمين[1].

ولعل أقدم حُجَّة وَقْف وَصَلَت إلينا من مصر وتعد الوحيدة التى ترجع إلى العصر الفاطمى ، هى حُجَّة وَقْف الوزير الملك الصّالح طلائع بن رُزِّيك الذى أوْقَف فى مستهل جمادى الأولى سنة ٥٥٤هـ/٢١ إبريل سنة ١١٥٩م بعض الرِّباع ونصف بركة الحَبَش[2] وناحية بَلَقْس الأشراف[3] على أن يكون النصف والثُّمْن منها ، أى خمسة عشر

---

١ ابن المأمون : أخبار ١٠٥؛ ابن مماتى : قوانين ٣٣٦– ٣٣٩؛ المقريزى : الخطط ١: ١١٠، ٢: ١٢٩، ٤٨٧.

٢ بركة الحَبَش . حوض من الأراضى الزراعية التى يغمرها ماء النيل وقت فيضانه سنويًا ، كان تقع جنوب مدينة الفُسْطاط بين النيل وجبل المقطم وكان الماء يصل إليها بواسطة خليج بنى وائل الذى كان يستمد ماءه من النيل جنوبى الفسطاط ، فكانت الأرض وقت أن يغمرها الماء تشبه البرك ولهذا سميت بركة . ونظرًا لأن الصالح طلائع وقفها على الأشراف فقد عرفت أحيانًا فى المصادر باسم « بركة الأشراف » . (المقريزى : الخطط ٢: ١٥٢؛ ابن دقماق : الانتصار ، القاهرة ١٨٩٤و ٤: ٥٥– ٥٦؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٦: ٣٨٢ من تعليقات المرحوم محمد رمزى) .

٣ بَلَقْس الأشراف . قرية قديمة ذكرها ابن مماتى ضمن أعمال الشرقية (قوانين الدواوين ١١٠ س ٢) وذكرها ابن الجَيْعان ضمن أعمال القليوبية (التحفة السنية ٦ س ٢١) وهى الآن من بين قرى محافظة القليوبية شمال بَهْتيم وهى تابعة لمركز قليوب وكانت قبلًا من قرى مركز شبرا الخيمة (محمد رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، القاهرة ١٩٤٥، ق ٢ج ١ص ٥٥) .

من أربعة وعشرين سهمًا على الأشراف الحسنيين والحسينيين المقيمين بالقاهرة المعزية ومصر خاصة، والثلث، أى ثمانية أسهم من أربعة وعشرين سهمًا، على الأشراف الحسنيين والحسينيين القاطنين بمدينة رسول الله وفى بوادى الفرع القريب منها، ويُمْنَح السَّهْم الباقى للشريف ابن مَعْصُوم على أن يكون له أمد حياته ثم من بعده لولده وولد ولده، وإن انقرضوا رجعت منافع هذا السهم إلى الأشراف الأقارب والمقيمين بالمدينة [١].

كان يتولّى الإشراف على الأحباس فى العصر الفاطمى ديوانٌ يعرف بـ « ديوان الأحباس »، يقول ابن الطُّوير : هو أوفر الدواوين مباشرةً، ولا يخدم فيه إلّا أعيان كُتّاب المسلمين من الشهود المعدّلين - بحكم أنها معاملة دينية - وفيه عدة مُدَبِّرين ينوبون عن أرباب هذه الخِدَم فى إيجاب أرزاقهم من ديوان الرَّوَاتب بعد حضور ورقة من جهة مُشارِف الجوامع والمساجد تفيد استمرار خدمة صاحبها طوال الشهر، ومن تأخّر تعريفه تأخّر صرف راتبه وإن تمادى ذلك استبدل به آخر أو توفر ما باسمه لمصلحة أخرى، أما المَشاهد فإنها لا توفر ولكنها تنتقل من مُقَصّر إلى ملازِم. وكان يُطْلَقُ لكل مشهد خمسون درهمًا فى الشهر لتزويدها بالماء لزوّارها والمترددين عليها.

وكان بالديوان كاتبا ومعينان لتنظيم الاستمارات ويورد كل منهم فى استيماره كل ما ورد فى الرّقاع والرَّواتب وما جُبِيَ له من جهات الوجهين القِبْلى والبحرى [٢].

---

[١] ابن الطوير : نزهة المقلتين ١١٤- ١١٥؛ ابن الفرات : تاريخ ٤/ ١: ١٤٥- ١٤٦؛ ابن دقماق : الانتصار ٥: ٤٥؛ القلقشندى : صبح ٣: ٤٨١- ٤٨٢؛ المقريزى : الخطط ٢: ٢٩٤؛ Cahen, Cl., Ragib, Y. et Taher, M. A., «L'achat et le waqf d'un grand domaine égyptien par le vizir fatimide Talâ'iʿ b. Ruzzik», *An. Isl.* XIV (1978), pp. 113-115.

[٢] ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٠٠- ١٠١؛ ابن الفرات : تاريخ ٤/١: ١٤٩- ١٥٠؛ المقريزى : الخطط ٢: ٢٩٥؛ القلقشندى : صبح ٣: ٤٩٠.

مُتَحَصَّلُ دار الضَّرْب ودار العِيار

كانت الدولة تُحَصِّل مقابل تحرير ما يتعامل به الناس من الذَّهَب والفِضَّة رَسْمًا مقابل هذا العمل منعًا للتلاعب فى قيمته إذا خرج عن إشراف الدولة . ويعتبر هذا الرسم أجرة دار الضَّرْب عما يُحْضِره المُوَرِّدون وغيرهم من التُّجّار من الذَّهب على اختلاف أصنافه وهو ثلاثة وثلاثون دينارًا وثلث عن كل ألف دينار تستثنى منه أجرة الضَّرّابين وهو ثلاثة دنانير ونصف عن كل ألف دينار ، وأجرة مشارف العيار وهى دينار واحد وثلثان عن كل ألف دينار[1] .

أما الفِضَّة فكان يُحَصَّل على تحرير عيارها رَسْمٌ قدره نصف دينار (حوالى عشرين درهمًا) عن كل ألف درهم خالصًا من أجرة الضَّرّابين وحق متولِّى العيار وسائر المؤن لأنها تلزم مالكها دون الديوان[2] ، وهو ما أطلق عليه ابن بَعْرَة « رَسْم واجب السِّكَّة وأجرة الضَّرّابين »[3] .

ودارُ العِيار هى الدار التى تتولَّى ضَبْط الموازين والمكاييل والصَّنَج ، وإيرادات هذه الدار عبارة عن أثمان ما يباع من هذه الموازين ، وكذلك مصاريف إصلاحها وتحريرها لمن يريد[4] . وكان المحْتَسِب هو المنوط به التأكُّد من ذلك ، ففى ذى القعدة سنة ٤١٥هـ/ يناير ١٠٢٤م ضَرَبَ المحْتَسِب جماعةً من الخَبّازين ضربًا وجيعًا لأنه وجد موازين أرطالهم باخسة وصِنَجهم التى يزنون بها الدراهم زائدة[5] . وفى شهر ذى الحجة من نفس

---

[1] المخزومى : المنهاج ٣١، وقارن نفسه آخر صفحة وابن مماتى : قوانين ٣٣٢، النابلسى : لمع القوانين المضية ٥٢ بالنسبة للعصر الأيوبى .

[2] نفسه ٣١؛ ابن مماتى : قوانين ٣٣٣ والقيمة التى ذكرها هى أربعة عشر درهمًا ونصف عن كل ألف درهم يخصم منها درهمان وربع برسم المُشارفة .

[3] ابن بعرة : كشف الأسرار العلمية ٦١.

[4] ابن مماتى : قوانين ٣٣٣- ٣٣٤؛ Rabie, H., *op.cit.*, p. 116 .

[5] المسبحى : أخبار مصر ٧٣؛ ابن الطوير : نزهة ١١٧.

العام/فبراير ١٠٢٤م ضرب المحتسب رجلًا يبيع الحلواء فى حانوت على باب زُقاق القناديل بالفُسطاط وطاف به على جمل لأنه وجد أرطاله ينقص كل رطل منها أوقيتين، وكل صِنْجَة يزن بها الدراهم تزيد ثُمْن درهم [١]. فقد كان من أهم مهام المُحتسب - كما جاء فى سِجِلّ بتولية الحِسْبَة أنشأه القاضى الفاضل - أىّ قرب نهاية الدولة الفاطمية - معايرة المكاييل والموازين، لأنها آلات معاملات الناس وأن يجتهد فى سلامتها من الإلباس والأدناس [٢]

ويفيدنا هذا النَّصّ فى أن التعامل بالدراهم فى العقود الأُولى للقرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى كان يتم بالوزن وليس بالعدد.

وكان الإشراف على دار الضَّرْب العَيْن والوَرِق والسِّكَّة بالحضرة وسائر أعمال المملكة يُعْهَد به إلى القاضى [٣].

---

[١] المسبحى : أخبار مصر ٧٨.
[٢] القلقشندى : صبح الأعشى ١٠: ٤٦١.
[٣] نفسه ١٠: ٤٢٩.

الفصل الخامس عشر
الحياة الاجتماعية

فى كتابه « إغاثة الأُمّة » قَسّم المقريزى طبقات الناس فى مصر سبعة أقسام ، ورغم أن المقريزى كتب ذلك فى سنة ٨٠٨/١٤٠٦ (تاريخ تأليفه للكتاب) إلّا أنه يصدق فى العموم على سكان مصر فى العصر الإسلامى ، وهذه الأقسام هى : « أهل الدولة ، وأهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوى الرفاهية ، والباعة – وهم متوسطو الحال من التجار ويقال لهم أصحاب البزّ – ويلحق بهم أصحاب المعايش وهم السوقة ، وأهل الفَلْح – وهم أهل الزراعات والحرث سكان القرى والريف ، والفقراء – وهم جل الفقهاء وطُلّاب العلم ، وأرباب الصنائع والأجراء أصحاب المهَن ، ثم ذوو الحاجة والمَسْكَنَة وهم السؤّال الذين يتكفّفون الناس ويعيشون منهم »[1] .

بنـــاءُ المُجـــتَمع

عندما وَصَلَ الفاطميون إلى مصر كان السُّكّان المصريون أو المواطنون الأُصليون من القِبْط ومن أهل السُّنَّة . وقد صحب الفاطميين عناصر متعددة استعانوا بهم فى توطيد سيطرتهم ومَدّ نفوذهم ، كان أسبقهم العنصر المغربى متمثلاً فى الكُتاميين والزُّوَيليين والصُّنهاجيين والباطليين والبَرْقيين بالإضافة إلى عنصرى الروم والصَّقالِبَة ، وهؤلاء هم الذين قدموا مع جيش جَوْهَر ثم مع الخليفة المُعِزّ إلى مصر . وقد أقاموا جميعهم بوجه خاص فى المدينة المُحَصنَّة « القاهرة » واقتسموا حاراتها المختلفة . فقد كانت القاهرة عند إنشائها مدينة خاصة يسكنها « الخليفة وحرمه وجنده وخواصه » ولا يُسْمَح بدخولها

---

[1] المقريزى : إغاثة الأمة بكشف الغمة ٧٢– ٧٣.

لأفراد الشعب الذين كانوا يقيمون فى مصر الفُسْطاط - مركز النشاط الاقتصادى والتجارى والصناعى للبلاد - إلّا بإذن خاص وبغرض خدمة أهل الحِصْن الفاطمى[1].

وقد انضاف إلى هذه العناصر الأجنبية ، التى سكنت الحِصْن الفاطمى ، طوال القرن الفاطمى الأول عنصرا الأتراك والدَّيْلَم اللذان اصطنعهما الخليفة العزيز بالله ، وكذلك العنصر الأسود الذى استكثرت منه والدة الخليفة المستنصر .

وفى أعقاب الشِّدَّة العُظْمَى فى عصر المستنصر وقدوم بدر الجمالى وتوليِّه السلطة فى مصر أباح لمن وَصَلَت قدرته إلى عمارة أن يعمر ما شاء فى القاهرة - وذلك بعد خراب القسم الشمالى من الفُسْطاط فى أثناء الأزمة - ولكنه قصر ذلك على العسكرية والمِلّحية والأَرْمَن ، وهم العنصر الجديد الذى أصبح يكوِّن أغلب سكان القاهرة وضواحيها فى العقود الأولى للقرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى . وكان الغالبُ على هذه العناصر الطابع العسكرى وكانوا يُكوِّنون فرق الجيش الفاطمى المختلفة .

أما الفُسْطاط فقد كانت قبل العصر الفاطمى وطوال العصر الفاطمى - المركز الاقتصادى النشيط لمصر ، فكان يقطنها « التُّجَّار والباعَة وأصحابُ المعايش » ، وقد وَصَفَ ناصرخُسْرو فى سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م أسواق الفُسطاط وما بها من عُمّال مهرة وتجار بين « بَقّالين وعَطّارين و بائعى خردوات »[2] . كما أن أوراق الجنيزة التى لا تقبل الشك تُقَدِّم لنا وَصْفًا غنيًا عن نشاط الطبقة المتوسِّطَة (البرجوازية) فى الفُسْطاط .

وشهدت الحقبة الفاطمية عمومًا قيام الطبقة المتوسطة فى الإسلام حيث بدت هذه الطبقة مكتملة النشأة بنماذج حياتها المتينة البنيان وموازين قيمها الثابتة[3] .

---

[1] راجع مقالى : « تنظيم العاصمة المصرية وإدارتها فى زمن الفاطمين » ، حوليات إسلامية ٢٤ (١٩٨٨) ١-١٣.

[2] ناصر خسرو : سفرنامة ١٠٥.

[3] Goitein, S . D., *Studies in the Islamic History* p. 245 .

ولم تكن الطبقة المتوسِّطة (البرجوزاية) الإسلامية برجوازية تجارية فقط ، بل كانت برجوازية تجارية - صناعية ، فلم تكن التجارة فى هذا العصر منفصلة عن الصناعة بشكل قاطع ، فقد كان الذين يُنْتجون سِلْعَة من السِّلَع هم الذين يقومون فى الغالب بالاتجار فيها ، فى نفس الوقت الذى وَصَلَ فيه بعض أرباب الصنائع إلى الانتعاش الاقتصادى وإلى مكانة اجتماعية مرموقة أهَّلَتهم للانتماء إلى الطبقة المتوسطة[١] .

وكان تشكيل الطبقة المتوسطة يتكوَّن بالإضافة إلى التجار وأرباب الصَّنائع من علماء الدين والوُعّاظ (مع ملاحظة أن العلماء كانوا غالبًا ما يشتغلون بالأعمال والصناعات[٢] يدل على ذلك نسبتهم مثل : الزَّجّاج ، الفَرّاء ، النَّحّاس ، الحَبّال ...) .

أما موظفو الدواوين وجميع الرجال المتصلين بالحكومة والقضاة المقيمين فى المدن الرئيسية الكبرى فكانوا يشكّلون ما يمكن أن نطلق عليه « الطبقة المتوسطة العالية »[٣].

وكانت الفُسطاط كذلك هى والإسكندرية مركز المقاومة السنية فى مصر ، ويقدم لنا ناصرخُسْرو أيضًا وصفًا للحركة العلمية التى كان يقودُها العلماء أو طبقة أرباب العمائم فى جامع الفُسْطاط ، فذكر أنه يقيم به المدرسون والمقرئون وأنه مكان اجتماع سُكّان المدينة ، وأنه لا يقلّ من فيه فى أىّ وقت عن خمسة آلاف من طُلّاب العلم والغرباء والكُتّاب[٤].

ونظرًا لأننا لا نملك كتابًا فى طبقات العلماء وتراجمهم شاملاً قبل كتاب « وفيات الأعيان » لابن خَلّكان ، فإننا لا نستطيع أن نُقَدِّم تَصَوُّرًا واضِحًا لدور طبقة العلماء كذلك ، الذى يمكن أن نقدمه فى العصر المماليكى اعتمادًا على

---

١ Goitein, S.D., *op.cit.*, p. 243 .

٢ *Ibid* ., p. 244 .

٣ *Ibid* ., p. 244 .

٤ ناصر خسرو : سفرنامة ١٠٢.

مؤلَّفات مثل « الدُّرَر الكامنة » لابن حجر العَسْقَلانى أو « الضَّوء اللامع » للسَخاوى[١] .

ومن بين أرباب العمائم الذين قاموا بدور هام فى هذه الفترة دعاةُ الإسماعيلية الذين استقرّوا فى القاهرة - أكبر مركز شيعى فى العالم الإسلامى فى هذا الوقت - بجوار الجامع الأزهر ودار العِلْم والمُحَوّل بالقصر ، بالإضافة إلى نُقَبائهم الذين انتشروا فى أقاليم مصر لجَمْع الفِطْرَة والنَّجْوى من أتباع المذهب[٢] .

أما معلوماتنا عن الفَلاّحين والزُّرّاع فى هذه الفترة ونشاطهم الاجتماعى فمحدودة للغاية ، ويذكر المقريزى أن المُزارِع المقيم على الأرض الزراعية التى يَتَقَبَّلها الوجوه والأُمراء والأجناد ، يسمى « فلاحًا قرارًا » وأنه يصير عَبْدًا قِنًّا لمن أُقْطع تلك الناحية هو ومن وُلِدَ له كذلك لا يرجو أن يباع ولا أن يُعْتَق[٣] .

وإلى جانب أهل السُّنَّة والإسماعيلية وبعض الإمامية ، فإن الأقْباطَ واليهود كانوا يمثّلون عنصرًا هامًا فى مصر . وقد استفادوا من روح التَّسامح التى سادت فى العصر الفاطمى - باستثناء فترة خلافة الحاكم بأمر الله - كما استغلَّ الفاطميون مهارة الأقْباط فى الصِّناعَة والشئون المالية وأسندوا إليهم العديد من المناصب الهامة ، وكذلك فعلوا مع اليهود[٤] . ولا شك فى أن موقف الفاطميين المحابى للأقْباط نابعٌ من عدم ثقتهم برعاياهم المسلمين السُّنِّيين .

---

١ انظر مثلاً دراسة كارل بترى Petry, C., *The Civilian Elite of Cairo in the Later Middle Ages*, Princeton 1971 .

٢ انظر فيما سبق ص ٥٢٨.

٣ المقريزى : الخطط ١: ٨٥.

٤ راجع ، قاسم عبده قاسم : أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى-دراسة وثائقية ، القاهرة-دار المعارف ١٩٧٧، سلام شافعى محمود : أهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى الثانى والعصر الأيوبى ، القاهرة-دار المعارف ١٩٨٢، وأهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى الأول ، القاهرة - الهيئة العامة للكتاب - تاريخ المصريين ١٩٩٥ .

وأدّى تزايد ظاهرة تَوَلّي الأقْباط والنّصارى من الأَرْمَن للعديد من المناصب الهامة في العقود الأولى للقرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى إلى قيام رَدّ فعل سُنّى قوىّ قاده الوزيران السُّنّيان رِضْوان بن وَلَخْشى والعادل بن السَّلار أبعد أهل الذِّمّة عن شَغْل المناصب الهامة[١] . ويعرض لنا كتاب «تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية » المنسوب إلى ساويرس بن المُقَفَّع وكتاب « كنائس وأديرة مصر » المنسوب إلى أبى صالح الأرْمَنى حياة الأقباط وعلاقتهم بالدولة [٢].

وتقدِّم لنا كذلك أوراقُ جنيزة القاهرة Cairo Ceniza Douments صورةً مُفَصَّلةً عن المجتمع اليهودى فى مصر وفى حوض البحر المتوسط ونشاطه الاقتصادى وعلاقاته الاجتماعية والأسرية وحياته اليومية والمعيشية [٣]. وتُوَضِّح لنا هذه الأوراق كذلك التّسامح الذى كان سائدًا فى مصر الفاطمية ، وأن مدن مصر لم تعرف الـ Ghetto الدينى أوْ الحِرَفى على الإطلاق وأن اليهود والأقْباط كانوا يعيشون جنبًا إلى جنب مع المسلمين فى الفُسْطاط وغيرها من أقاليم ومدن مصر المختلفة [٤].

---

[١] انظر فيما سبق ص ٢٦٥.

[٢] انظر ثبت المصادر والمراجع.

[٣] راجع بصفة خاصة Mann, J., *The Jews in Egypt and in Palestine under the Fatimid Caliphs*, I-II, Oxford 1920; *Fischel, W. J., Jews in the Economic and Political Life of Mediaeval Islam*, NY 1969, pp. 45-89; Golb, N., «The Topography of the Jews of Medieval Egypt», *JNES* 24 (1967), pp. 251-270 32 (1974) pp. 116-149; Stern, S.M. «A Petition of the Fatimid Caliph al Mustansir concerning a Conflict Within the Jewish Community» *REJ* 138 (1969), pp. 203-215; Goitein, S.D., *A Mediterranean Society-the Jews Communities of the Arab World as Portrayed in the Documents of the Cairo Geniza* I-V, Berkeley-Los Angles 1967-1989; Cohen, M. *R*., *Jewish Self-Governement in Medieval Egypt- The Origins of the Office of Head of The Jews*, Ca 1065-1126, Princeton 1980 . وانظر كذلك مارك كوهن: المجتمع اليهودى فى مصر الإسلامية فى العصور الوسطى ، جامعة تل أبيب ١٩٨٧؛ قاسم عبده قاسم: اليهود فى مصر من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى ، القاهرة -دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ١٩٨٧، والمراجع المذكورة فى الهامش رقم ٤ صفحة ٥٥٤.

[٤] Goitein, S. D., *Mediterranean Trade in the Eleventh Century*. p. 52., id., *Studies in Islamic History*, pp. 247, 255, 260; id., *A Med. Society* I, 71-37, IV, 12, 46.

*
* *

كانت الفوارق بين الطَّبَقات فى هذه الفترة كبيرة جدًّا حيث جَمَعَ الوزراء وكبار المُوَظَّفين الإداريين ثروات ضخمة ، فقد كانت الرَّواتب لا تُدْفَع فقط إلى الوزراء بل إلى أبنائهم وحتى القُصَّر منهم ، وذلك إضافةً إلى الإقطاعات التى كانت تُمْنَح إليهم . وجاء هؤلاء ومعهم ضامنو الضَّرائب على قمة الهرم السياسى والاجتماعى للدولة . وفى الحقيقة فإن هاتين الطبقتين (الوزراء وكبار رجال الدولة - ضامنو الضرائب) لا توجد بينها فروقٌ ، فالأشخاص الذين ضَمَنوا الضَّرائب شغلوا أيضًا المناصب العُلْيا فى الإدارة ، ورغم أن المكانة الاقتصادية والاجتماعية لهاتين الطبقتين كانت عالية وتمثلان الثَّراء والقُوَّة ، إلّا أنها كانت من ناحية أخرى قليلة العدد كما أن وَضْعها كان محفوفًا بالمخاطر . فطالما بقى الموظف فى منصبه توفرت لديه إمكانية الحصول على الثروة أو زيادتها ؛ ولكنه عندما كان يَفْقِد منصبه أو يتعرَّض للمصادرة كان يَفْقِدُ جزءًا كبيرًا من أملاكه . فواقع الأمر لم تكن الثروة هى التى تَمْنَح الشخص قوةً بل كان المنصب هو الذى يزيده ثراءً .

أما البرجوازية المتوسطة والصغيرة فكانت مكبوتة من الطبقة الحاكمة ، كما وُجِدَت فروقٌ كبيرةٌ بين هذه الطبقات نفسها . فالشرائح العُلْيا منها كانت تتكوَّن من التُّجّار وأصحاب الصناعات والحِرَف إلى جانب مُلاّك الأراضى ،وشَكَّل التُّجّار الأثرياء طبقة صغيرة اشتغل معظمها بالاتجار بالسِّلَع الكمالية التى كانت تمتاز بحجمها المحدود [١].

ورغم أن الحركة الإسماعيلية تَبَنَّت فى بدايتها قضية إعادة بناء العدالة الاجتماعية ، فإن الدولة الفاطمية فى مصر لم تسع إلى تطبيق ذلك ، مثلما فعل القَرامِطَة على سبيل المثال فى جنوب الغراق والبحرين .

---

[١] Ashtor, E., *op.cit.*, pp. 125-26 .

ومن خلال المعطيات التى تمدنا بها المصادر المعاصرة يمكننا عمل جدول يُوضِّح لنا الفارق الكبير بين الرَّواتِب المدفوعة للطبقات المختلفة اعتبارًا من القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى .

الوزير كان راتبه ٥٠٠٠ (خمسة آلاف) دينار فى الشهر ، وكان أولاد الوزير وإخوته يتقاضون راتبًا شهريًا يتراوح بين ٢٠٠ و ٣٠٠ (مائتين وثلاثمائة) دينار ، واستثنى من ذلك شجاع بن الوزير شاور المنعوت بالكامل الذى تقاضى ٥٠٠ (خمسمائة) دينار وذلك خارجًا عن الإقطاعات .

أما حواشى الخليفة الذين يأتى على رأسهم « الأستاذون المحَنَّكون » ومنهم : زمام القصر ، وصاحب بيت المال ، وصاحب الرسالة ، وصاحب الدَّفْتر ، ،وشاد التاج ، و زمام الأشراف الأقارب ، وصاحب المجلس فكان راتب كل منهم ١٠٠ (مائة) دينار فى الشهر ، ومن دونهم كان ينقص بمقدار ١٠ (عشرة) دنانير حتى أَقَلّهم الذى يتقاضى ١٠ (عشرة) دنانير .

وكان طبيب الخليفة الخاص يتقاضى راتبًا شهريًا قدره ٥٠ (خمسين) دينارًا ، أما الأطباء المقيمون فكان كل منهم يتقاضى عشرة دنانير .

وفيما يخص رجال الديوان كان كاتب الدَّسْت الشريف يتقاضى ١٥٠ (مائة وخمسين) دينارًا ، وكل واحد من كتابه يتقاضى ٣٠ (ثلاثين) دينارًا فى الشهر ، ومتولِّى ديوان النَّظر يتقاضى ٧٠ (سبعين) دينارًا ، ومتولِّى ديوان التحقيق يتقاضى ٥٠ (خمسين) دينارًا ، ومتولِّى ديوان المجلس يتقاضى ٤٠ (أربعين) دينارًا وصاحب دَفْتر المجلس يتقاضى ٣٥ (خمسة وثلاثين) دينارًا بينما كان كاتبه يتقاضى فقط ٥ (خمسة) دنانير وكان صاحب ديوان الجيش يتقاضى ٤٠ (أربعين) دينارًا ، والموقع بالقلم الجليل كان يتقاضى ٣٠ (ثلاثين) دينارًا ، أما أصحاب الدواوين الجارى فيها المعاملات فكان كل منهم

يتقاضى ٢٠ (عشرين) دينارًا ، وكل معين من معينهم يتقاضى حسب رتبته بين ١٠ (عشرة) و ٥ (خمسة) دنانير.

وكان متولّى مجالسة الخليفة والخدمة الدقيقة فى المظالم يتقاضى ١٠٠ (مائة) دينار ، وصاحب الباب يتقاضى ١٢٠ (مائة وعشرين) دينارًا ، وحامل السيف وحامل الرمح كل منهما يتقاضى ٧٠ (سبعين) دينارًا أما بقية الأزمة فكان كل منهم يتقاضى تبعًا لمرتبته بين ٥٠ (خمسين) و ٣٠ (ثلاثين) دينارًا .

أما قاضى القضاة وداعى الدُّعاة فكان كل منهما يتقاضى راتبًا شهريا ١٠٠ (مائة) دينار ، وقُرّاء الحضرة والشعراء يتقاضى كل منهم تبعًا لرتبهم بين ٢٠ (عشرين) دينارًا و ١٠ (عشرة) دنانير .

وكان راتب كل من والى القاهرة ووالى الفُسطاط ٥٠ (خمسين) دينارًا ، أما حماة الأهراء والمناخات والجوالى والبساتين والأملاك فكان راتبهم يتراوح بين ٢٠ (عشرين) دينارًا و ٥ (خمسة) دنانير ، وكان كلٌّ من صاحب المائدة وحامى المطابخ (وهم من فراشى القصر) يتقاضى ٣٠ (ثلاثين) دينارًا ، كما أن الرشّاشين وعددهم نحو ٣٠٠ (ثلاثمائة) رجل كان كلٌّ منهم يتقاضى ما بين عشرة وخمسة دنانير ، أما صبيان الركاب وعددهم ألفا رجل فكان كل منهم يتقاضى ٥٠ (خمسين) دينارًا[١].

تَرَفُ الحياة الاجتماعية

اتّسَمت الحياة الاجتماعية فى العصر الفاطمى بمظاهر العَظَمَة والأُبَّهَة التى لم تقتصر فقط على الخلفاء بل تعدَّتهم إلى الوزراء وكبار رجال الدولة . كذلك فقد امتازت

---

[١] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٨٣- ٨٥؛ ابن الفرات : تاريخ ٤/ ١: ١٤٣- ١٤٥؛ القلقشندى : صبح الأعشى ٣: ٤٩١، ٥٢١: ٥٢٣؛ المقريزى : الخطط ١/ ٤٠١- ٤٠٢، واتعاظ الحنفا ٣: ٣٣٩- ٣٤٢.

احتفالاتُ الفاطميين المختلفة بالبَذَخ والرَّوْعة، وشهدت العديد من الأسْمِطَة (جـ. سِماط) التي كان يُقَدَّم فيها الكثير من أنواع الأطعمة والحلوى التي وَفَّروا لها المقادير الكبيرة من الدقيق والسكر اللازمة لصناعتها. وكانت هذه الاحتفالات أيضًا مناسبةً لتفريق الخِلَع والكُسْوات على رجال الدولة والتي كانت تُصْنَع في دور الطِّراز العامة ودار الدِّيباج، وقد وَصَفَ لنا تفصيل هذه الاحتفالات وَصْفًا حيًّا مؤرِّخون من أمثال ابن المأمون وابن الطُّوَيْر وأكَّدها شهود عيان مثل ناصر خُسْرو وغُلْيوم رئيس أساقفة صور Guillaume de Tyr.

وأنشأ الخلفاءُ الفاطميون ووزراؤهم العديد من « المناظر » (جـ. مَنْظَرَة) كانوا ينتقلون إليها في ضواحي القاهرة والفُسْطاط للاسترواح والاستجمام وخاصةً أيام زيادة النيل التي كان ينتقل فيها الخليفة، وعلى الأخص ابتداء من عصر الخليفة الآمر، إلى منظرة اللُّؤْلُؤة على الخليج[1]. وكان الناسُ يوم ركوبه يخرجون من القاهرة ومصر بمعايشهم ويجلسون للنظر إليه فيكون كيوم العيد، وكانوا يصنعون أخشابًا متراكبة بعضها على بعض يجلسون فوقها للتفرج يوم كَسْر الخليج، لذلك فقد أمر الخليفة الآمر بأحكام الله - الذي استعاد هذه الرُّسوم التي انقطعت منذ استيلاء الوزير الأَفْضَل على الدولة - في سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م ببناء دار واسعة ليتفرَّج الناسُ فيها عند كَسْر الخليج بالكراء[2].

ويفيدنا كذلك نَصٌّ أورده المقريزي في حوادث سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م أنه وجدت في العصر الفاطمي دورٌ مختصة بالأفراح تؤجَّر لهذا الغرض وأن الوالي أخذ الحجة على مُلّاك مثل هذه الدور بأن يزيلوا التطرُّقَ إليها حتى لا يَطَّلِع أحدٌ على النساء أثناء العُرْس[3].

---

[1] ابن المأمون: أخبار ٥٦، ٩٨- ١٠٠، المقريزي: الخطط ١: ٤٦٨، ٤٧٠.

[2] ابن ميسر: أخبار مصر ٩٧، المقريزي: اتعاظ ٣: ١٠٧.

[3] المقريزي: اتعاظ ٣: ١٠٠.

الأعياد والاحتفالات زَمَن الفاطميين

يحتفل المسلمون طوال العام بعيدَىْ الفِطْر والأَضْحى ، وهما العيدان اللذان يحتفل بهما المسلمون فى كل مكان . وإلى جانب هذين العيدين كانت العادةُ فى مصر الفاطمية أن يُحْتَفَل كذلك بـ «رأس السنة الهجرية» (أول المحرم) ، باحتفال ليلى يستمر إلى اليوم التالى « أوَّل العام » ، و « مولد النبى » (١٢ ربيع الأول) ، و « قافلة الحج » ، وبالإضافة إلى ذلك كان هناك الاحتفال بـ « ليالى الوقود الأربع » (ليلة مستهل رجب وليلة نصفه ، وليلة مستهل شعبان وليلة نصفه) . وأخيرًا ، فإن « صَوْم رمضان » كانت تصحبه بعض الرُسُوم فى البلاط الفاطمى خاصةً وقت « إفطار » و « سُحور » الخليفة [١] .

أما إحياء ذكرى المناسبات الشيعية فقد كانت عديدة على رأسها : «حُزْن عاشوراء» (١٠ محرم) حيث يُمَدُّ فيه سِماطٌ يعرف بـ «سِمَاط الحُزْن» ، وكذلك « مَوْلد الحُسَيْن » (٥ ربيع الأول) و « مَوْلد السَّيِّدة فاطمة » (٢٠ جمادى الآخر) ، و « مَوْلد الإمام على » (١٣ رجب) و « مَوْلِد الحسن » (١٥ رمضان) و « مَوْلد الإمام الحاضر » ويُطْلق على هذه الموالد الخمسة الأخيرة بالإضافة إلى « المولد النَّبوى » : « المَوَالِدِ الستة » أما آخر هذه الاحتفالات الشيعية فـ «عيد غَدير خُمّ» (١٨ ذى الحجة) [٢] .

وكعادة سابقيهم كان الفاطميون يحتفلون بأعياد النيل حيث كان « كَسْرُ الخليج » و « تَخْليق المِقْياس » مناسبةً لخروج الجماهير للاستمتاع بمنظر النيل ومشاهدة الخليفة وهو ينظر هذا الاحتفال . ويدخل فى هذا النوع من الاحتفالات رأس السنة القبطية أو «النَّوْرُوز» (أوَّل توت) الذى يتوافق قدومه مع أقصى ارتفاع للفيضان .

---

[١] ابن المأمون : أخبار ٨٢- ٨٣، الخطط ١: ٤٩١- ٤٩٢.

[٢] ابن المأمون : أخبار ٦٢؛ ابن الطوير : نزهة ٢١٧، المقريزى : المقفى ٦: ٤٨٤؛ Wiet , G ., *CIA* Egypte II , pp. 176-177 , Fu'âd Sayyid, . A., *op.cit* ., pp 486-92 .

كذلك فقد كان الخلفاءُ الفاطميون يُبْرزون بحضورهم قيمة الاحتفالات الشعبية التى كانت تَصْحَبُ بعض الأعياد القبطية مثل : « الميلاد » و « الغِطَاس » و « الفِصْح » و « خَمِيس العَهْد » الذى كان مناسبةً تَضْرب فيها الحكومة الفاطمية قطعًا ذهبية صغيرة تُسَمَّى « خَراريب الذَّهَب » كل ألف دينار يعادل عشرين ألف خروبة تفرّق على أربابها [١].

ميزانية الاحتفالات الفاطمية

وبالطبع فإن كل هذه الاحتفالات لم تكن تمر دون إرهاق ميزانية الدولة الفاطمية . فبمطالعة « الاستِيمار » أو « الرُّوزْنامج » الذى يتضَمَّن ما أُنْفِق عَيْنًا من بيت المال فى مُدَّة أوَّلها محرم سنة ٥١٧هـ وآخرها سَلْخ ذى الحجة منها (أول مارس ١١٢٣ - ١٨ فبراير ١١٢٤م) ، والذى حفظه لنا ابن المأمون فى تاريخه ، نستطيع أن نلحظ حجم المبالغ المنصرفة فى هذا العام بعد خمسة عشر شهرًا فقط من تَوَلِّى المأمون الوزارة . فقد بلغ حَجْمُ المنصرف عَيْنًا « أربعمائة ألف وسبعة وستين ألفا ومائة وأربعين دينارًا ونصف » (٤٦٨,٧٩٧) وفى حقيقة الأمر فقد وُفِّر من أبواب هذه الاستيمار ٩٨,٣٩٧ دينارًا حملت إلى الصناديق الخاص برسم المهمات العسكرية الاستثنائية .

أما القسم الثانى من هذا الرُّوزْنامج فقد بلغ مائتى ألف دينار خُصِّصت لـ «للديوان المأمونى» الذى ابتلع بذلك أكثر من رُبع مجموع نفقات الدولة وهو يتضمَّن مصروفات الوزير وإخوته وأولاده بالإضافة إلى ما يُحْمَل مشاهرةً إلى موظفى الدولة [٢].

---

[١] ابن المأمون : أخبار ٩٥؛ المقريزى : الخطط ١: ٤٥، المقفى ٦: ٤٩٥؛ وانظر Balog , P., « Monnaies islamiques rares fatimites et ayyubites , *BIE* XXXVI (1953-54) , pp . 328-329 Espéronnier , M ., «Les fêtes civiles et les cérémonies d'origine antique sous les Fatimides d'Egypte», *Der Islam* 65 (1988) , pp , 46-59 وكذلك دراسة عبد المنعم سلطان : المجتمع المصرى فى العصر الفاطمى–دراسة تاريخية وثائقية ، القاهرة ١٩٨٥.

[٢] نفسه ٧٠- ٧١؛ الخطط ١: ٣٩٩، المقفى ٦: ٤٩٨، Wiet , G ., *op.cit,* p. 181 ; Fu'âd Sayyid , A ., *op.,cit* ., pp. 490-91 ، قارن ذلك بالاستيمار المعمول فى زمن الوزير اليازورى فى منتصف القرن الخامس (الخطط ١: ٨٢، ٩٩).

وفى الوقت نفسه فإننا نعلم كذلك المُنْفَق فى مطابخ وأسْمِطَة الخليفة الآمر، فقد كان يُذْبح له فى كل شهر خمسة آلاف رأس من الضَّأْن ثَمَن الرأس ثلاثة دنانير، غير ما يذبح من الأنواع الأخرى[١]. ومن جهة أخرى يذكر لنا ابن المأمون أن عدد ما ذُبِحَ فى عيد النَّحْر وعيد الغَدير سنة ٥١٥هـ/فبراير سنة ١١٢٢م بَلَغَ ألفين وخمسمائة واحدًا وستين رأسًا تفصيله، نوق: مائة وسبعة عشر رأسًا، بَقر: أربعة وعشرون رأسًا وهو عدد ما كان يذبحه الخليفة بيده فى المُصَلَّى والمَنْحَر وباب السَّاباط. بينما كان الجزَّارون يذبحون ألفين وأربعمائة رأس من الكباش[٢].

وهذا بالطبع غير ميزانية الكُسْوات والخِلَع التى كانت تُوَزَّع فى المناسبات المختلفة، وكذلك ميزانية دار الفِطْرة والأسْمِطَة التى كانت تُمَدُّ فى الاحتفالات الدينية والمدنية.

الخِلَعُ والتَّشاريف

هى الملابس ذات القيمة والتى يُطْلَقَ عليها حُلَّة (جـ. حُلَل) وبَدْلَة (جـ. بدلات) والتى يمنحها الحكام إلى رعاياهم الذين يودون مكافأتهم أو تشريفهم[٣]. والخِلْعَة فى اللغة هى ما يُخْلَع على الإنسان من الثياب[٤].

ففور وصول الخليفة المُعِزّ لدين الله إلى مصر أمر بعمل دار سمّاها «دار الكُسْوَة»، كان يُفَصَّل فيها جميع أنواع الثياب ويكسو بها الناس على اختلاف أصنافهم كُسْوَة الشتاء والصيف من العمامة إلى السراويل وما دون ذلك من الملابس، وبلغ مقدار ما أنتجته هذه الدار فى أحد الأعوام أكثر من ستمائة ألف دينار[٥].

---

[١] المقريزى: اتعاظ ٣: ١٣١.

[٢] ابن المأمون: أخبار ٢٥؛ المقريزى: الخطط ١: ٤٣٦ وقارن ذلك بما ذبحه الخليفة سنة ٥١٦ (ابن المأمون ٤١–٤٢، الخطط ١: ٤٣٦).

[٣] انظر Stilman, N.A., *EI*^{2} art. *Khil*ʿ*a* V, pp. 6-7.

[٤] الزبيدى: تاج العروس، القاهرة ١٢٨٦هـ، ٥: ٣٢٢.

[٥] المقريزى: الخطط ١: ٤٠٩.

وبالإضافة إلى دار الكُسْوَة أنشأ الفاطميون دورًا للطراز، وهى مصانع للنسيج تشرف عليها الحكومة نميز منها نوعين: طِراز الخاصة وكان لا يشتغل إلّا للخليفة ورجال بلاطه وخاصته، وطِراز العامة الذى كان يشتغل لحساب رجال البلاط وما يخلعه الخليفة على كبار رجال الدولة وأفراد الشعب[١].

وأوفى مصدرين يحدثانا عن تفريق الكُسْوات والخِلَع وأنواعها والتشاريف فى العصر الفاطمى هما: « تاريخ المُسَبِّحى » بالنسبة لبداية عصر الفاطميين، و « تاريخ ابن المأمون » فيما يخص الفترة التى تولَّى فيها والده المأمون البَطائِحى الوزارة للخليفة الآمر (٥١٥-٥١٩هـ). فيمدنا هذان المؤرخان بمعلومات غنية عن أنواع الملابس والعمائم والخِلَع، سواء التى كان يرتديها الخليفة أو التى كان يَخْلَعها على وزرائه وخاصته وكبار رجال الدولة، وكذلك قيمتها فيذكر ابن المأمون أن كاتب الدَّفْتَر -وهو أحد موظفى ديوان المجْلِسِ - كان يعد قبل بداية الشتاء ما يُطْلَقُ عليه « جَرائِد كُسْوة الشتاء »، وقد بلغ ما اشتمل عليه المنفق فيها سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م - أى فى بداية وزارة المأمون البَطائِحى - من الأصناف أربعة عشر ألفًا وثلاثمائة وخمس قطع (١٤,٣٠٥)، بينما لم يتعد أكثر ما أُنْفِق فيها فى أيام سلفه الوزير الأَفْضَل شاهنشاه، على طولها، ثمانية آلاف وسبعمائة وخمسا وستين قطعة (٨,٧٦٥) صُرِفَت فى عام ٥١٣هـ/١١١٩م[٢]. ولا شك أن كاتب الدَّفْتَر كان يُعِدُّ جرائد مماثلة قبل حلول موسم الصيف.

وكانت المواسم التى تُوَزَّع فيها الخِلَع والكُسْوات، كما يذكر ابن المأمون، هى عيد الفِطْر وعيد النَّحْر، وهى الموسم الكبير ويطلق عليها لذلك « عيد الحُلَل » لأن الحُلَل تعم فيها الجميع بينما تُوَزَّع فى غيرها على الأعيان والخاصة[٣]، ويوم فَتْح الخليج ويوم

---

[١] انظر فيما سبق صفحة ٤٧٤- ٤٧٥.

[٢] ابن المأمون: أخبار مصر ٤٨، ٥٥.

[٣] نفسه ٣٨، ٤٨.

النَّوْروز[١]. أما الكُسْوة المختصة بغُرَّة شهر رمضان وجمعتيه والمعروفة باللباس الجُمَعى، فيبدو أنها كانت للخليفة فقط بهذه المناسبة، وكانت فى عام ٤١٥هـ/١٠٢٣م مكوَّنة من طَيْلَسان شَرَب مُفَوَّط وعمامة قَصَب بياض مذهبة وثياب دَبيقى بياض للجمعة الأولى من رمضان[٢]، ورداء بياض مُحَشّى قصبًا وذهبًا بياض دَبيقى وثوب مُصْمَط أبيض وعمامة مذهبة للجمعة الثانية[٣]. أما فى عام ٥١٦هـ/١١٢٢م، فى عهد الخليفة الآمر، فكانت بَدْلَة كبيرة موكبية مكملة مذهبة لغُرَّة رمضان، وبَدْلَة موكبية حريرى مكملة منديلها وطيلسانها بياض برسم صلاة الجمعة الأولى بالجامع الأزهر[٤]. وبَدْلَة منديلها وطَيْلَسانها شعرى برسم صلاة الجمعة الثانية[٥]، وكان إخوة الخليفة والوزير يصرف لهم كذلك خِلَع فى غُرَّة رمضان وجمعتيه.

كانت خِزَانَةُ الكُسْوَة تستقبل ما تنتجه دور الطِّراز وكانت تتألَّف من قسمين: الخزانَة الباطنة التى يُحْفَظ بها ملابس الخليفة ويتولَّى أمرها امرأة تعرف أبدًا بـ «زَيْن الخُزّان» يعاونها ثلاثون جارية، والخزَانَة الظّاهرة التى تُفَصَّل فيها الثياب حسب ما تدعو إليه الحاجة، ومنها كانت تُوَزَّع الخِلَع التى يخلعها الخليفة على الأمراء و الوزراء وكبار رجال الدولة وضيوفها[٦].

وكان الذى يستلم ما يختص بالخليفة فى العيدين «مُقَدَّم خِزانَة الكُسْوَة الخاص»، وهى بَدْلَة خاصة جليلة مذهبة برسم الموكب، ونصف بدْلَة برسم الجلوس على السِّماط بالإضافة إلى البَدْلَة الحمراء التى كان يرتديها الخليفة عند دخوله المَنْحَر فى عيد النَّحْر[٧].

---

[١] ابن المأمون: أخبار مصر ٢٤، ٢٥، ٤٠، ٤٨، ٥٥، ٦٥، ٧٤.

[٢] المسبحى: أخبار مصر ٦٢.

[٣] نفسه ٦٤.

[٤] ابن المأمون: أخبار ٥٤- ٥٥.

[٥] نفسه ٨١- ٨٢.

[٦] ابن الطوير: نزهة المقلتين ١٢٨- ١٢٩؛ المقريزى: الخطط ١: ٤٦٣.

[٧] ابن المأمون: أخبار ٤٨، ٤٩.

وكان الخليفةُ يلبس فى الأعياد والمواسم المنديل (العمامة) بالشَّدَّة العربية المعروفة بـ « شَدَّة الوقار » (وكان لشَدّه ترتيب خاص لا يعرفه كل أحد ، يتولّاه أحدُ الأستاذين المحُنَّكين ، يأتى بها فى هيئة مستطيلة ، ويكون المنديل من لون ثياب الخليفة) [١]، أما فى غير هذه المناسبات فكان الخليفة يرتدى «منديلاً بالشدة الدانية» غير العربية [٢].

وفى موسم فَتْح الخليج كان يصل إلى خزانة الكُسْوة بدلتان إحداهما منديلها وطَيْلَسانها طميم يرتديها عند ذهابه لفَتْح الخليج ، والأخرى جميعها من الحرير يرتديها عند رجوعه إلى القصر [٣].

وكان يُصْنَع بدار الطِّراز ثوب خاص للخليفة يقال له « البَدَنَة » ، لا يدخل فيه من الغَزْل سداء ولُحْمَة غير أوقيتين ، ويُنْسَج باقيه من الذهب بصناعة محكمة لا تحوج إلى تفصيل ولا خياطة تبلغ قيمته ألف دينار [٤]، يرتديه فقط يوم ركوب فتح الخليج .

وكانت الخِلَع توزَّع على إخوة الخليفة وأبناء وبنات عمومته وللوزير والأمراء المُطَوَّقين والأستاذين المحُنَّكين والمُتَمَيِّزين وكاتب الدَّسْت ومتولّى حَجْبَة الباب وكبراء الدولة وشيوخها . وقد بلغت كُسْوَة عيد الفطْر فى سنة ٥١٥هـ/١١٢١م مائة قطعة وسبع قطع (١٠٧) [٥].

وعندما كان يتولّى أحدُ كبار الموظفين وظيفةً جديدةً كان الخليفة يخلع عليه ، فعندما قُلِّد سنى الدولة حَمَد بن أخى التاهرتى جميع سَيَّارات أسْفَل الأرض فى ٢٣ رجب سنة ٤١٥هـ/سبتمبر سنة ١٠٢٤م خَلَعَ عليه الخليفة الظاهر « عمامة صغرى

---

١ ابن المأمون : أخبار مصر ٤١، ٧٥.
٢ نفسه ٧٩.
٣ نفسه ٥٥.
٤ ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٠٣، ١٢٤، ١٩٨، المقريزى : الخطط ١: ١٧٧.
٥ ابن المأمون : أخبار ٢٥، ٤٨، ٤٩.

مذهبة وثوب طميم »[١]. وخُلِع على دَوّاس بن يعقوب الكُتامى « ثوب مثقل وعمامة » عندما قُلِّد الحِسْبَة والأسواق والسواحل فى رجب سنة ٤١٤هـ/أكتوبر سنة ١٠٢٣م[٢]. وبمناسبة وفاء النيل سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م، خَلَعَ الخليفة على ابن أبى الرّداد، متولّى المقياس، « خِلَعًا ديبقية مذهبة ورداء مُحَشّى مذهب وعمامة شَرَب مذهبة »[٣]، كما خَلَعَ الخليفة كذلك على أبى عبد الله محمد بن على بن إبراهيم الرَّسّى نقيب نقباء الطالبيين فى جمادى الأولى سنة ٤١٤هـ/أغسطس سنة ١٠٢٣ « ثوبًا ديبقيًا مذهبًا مصفقًا بأطواق عراض ومن تحته ثوب مصمت مذهب وغلالة مذهبة وكذلك عمامة شَرَب مذهبة »[٤]. كما كانت الخِلَع تخلع كذلك على الرُّسُل والأجانب الذين يزورون العاصمة[٥].

ويُقَدِّم لنا أبو شامة المقدسى – فى أغلب الظن نقلاً عن المؤرِّخ الشيعى يحيى بن أبى طَىّ – وَصْفًا لخِلْعَة الوزارة التى خَلَعَها الخليفة العاضِد – آخر الخلفاء الفاطميين – على وزيره الناصر صلاح الدين يوسف بن أيُّوب وهى : « عمامة بيضاء تِنِّيسى بطرز ذهب وثوب ديبقى بطراز ذهب، وجبّة تحتها سقلاطون بطرازى ذهب، وطَيْلَسان ديبقى بطراز دقيق ذهب، وعقد جوهر قيمته عشرة آلاف دينار، وسيف محلًّى بجوهر قيمته خمسة آلاف دينار، وقدس حجر صفراء من مراكب العاضِد قيمتها ثمانية آلاف دينار لم يكن بالديار المصرية أسبق منها، وطَوْق، وتخت وسرفسار ذهب مجوهر، وفى رقبة الحجر مَشَدَّة بيضاء، وفى رأسها مائة حبة جوهر، وفى أربع قوائم الفرس أربع عقود جوهر، وقَصَبَة ذهب فى رأسها طالعة مجوهرة وفى رأسها مشدة بيضاء بأعلام ذهب، ومع

---

[١] المسبحى : أخبار ٥٠.
[٢] نفسه ١٤.
[٣] نفسه ٤٧.
[٤] نفسه ٦، وانظر كذلك المسبحى : أخبار ٣، ١٧، ٣٢، ٤٧، ٦٣، ٨٣.
[٥] نفسه ٣، ٥٤. وانظر عن صناعة النسيج فيما سبق ص ٤٧٣-٤٨١ .

الخِلْعَة عِدَّة بُقَج وعدة من الخيل، وأشياء أخر ومَنْشور الوزارة ملفوف فى ثوب أطلس أبيض »[١].

الأسمِطَة

السِّماطُ (جـ. أسْمِطَة وسماطات) هو ما يُمَدُّ من الطعام[٢]. وقد تعدَّدت الأسْمِطَة الرسمية التى كانت يحضرها الخليفة بنفسه فى العصر الفاطمى، وكان السِّماطُ يُمَدُّ فى قاعة الذَّهَب من القصر الفاطمى الشرقى وذلك فى ليالى رمضان وفى العيدين وفى ليالى الوقود الأربعة والموالد الأربعة: النبوى والعلوى والفاطمى والإمام الحاضر[٣]، بالإضافة إلى سِماط الحُزْن الذى كان يُمَدُّ فى يوم عاشوراء فى المشهد الحسينى لا فى قاعة الذَّهَب[٤].

وكانت الأطعمة التى تُقَدَّم فى هذه الأسْمِطَة تُعْمَل فى موضعين: اللحوم وما شاكلها فى « مَطْبَخ القصر » الذى كان فى موضع الصَّاغَة فى مواجهة باب الزُّهُومَة وكان يخرج منه مدة شهر رمضان ١٢٠٠ قدرة يوميًا تُفرَّق على أرباب الرُّسوم والضعفاء والفقراء[٥]، والحلوى والكعك بـ « دار الفِطْرَة » وكانت قبالة المشهد الحسينى وأوّل من رَتَّبها الخليفة العزيز، ونقلت إلى هذا الموضع فى أيام المأمون البطائحى والخليفة الآمر[٦]، ويُقَدِّم لنا المُسَبِّحى وابن المأمون مرةً أخرى بالإضافة إلى ابن الطُّوَيْر معلومات غنية عن ما كان يُقَدَّم فى هذه الأسْمِطَة من أنواع المآكل وتكلفتها.

---

١ أبو شامة: الروضتين ١: ٤٣٩.

٢ الزبيدى: تاج العروس ٥: ١٥٩.

٣ ابن المأمون: أخبار ٦٢؛ ابن الطوير: نزهة ٢١٧.

٤ ابن الطوير: نزهة ٢٢٤، المقريزى: الخطط ١: ٤٣١.

٥ ابن عبد الظاهر: الروضة البهية ٥٨- ٥٩؛ المقريزى: مسودة المواعظ والاعتبار ٢٤١؛ Fu'âd Sayyid, A., *op.cit.*, pp. 237-39.

٦ نفسه ٢٦- ٢٨؛ نفسه ١٧٢؛ *Ibid*., p. 287.

ففى بداية العصر الفاطمى كان سِماطُ عيدَى الفِطْر والنَّحْر يُحْمَل قبل يوم العيد بيوم ويحتفل بذلك بأن يشق به الشارع الأعْظَم وحوله المجانية وأفراس الخيال والسودان والطّبّالون ويجتمع الناس فى الشوارع لمشاهدته[١]. وكان يشتمل على التماثيل والتزايين وقصور السكر، وبلغ عدد قطعه فى عيدى الفِطْر والنَّحْر عام ٤١٥هـ/١٠٢٥م مائة واثنتين وخمسين قطعة من التماثيل وسبعة قصور سكر كبار[٢]. ويذكر المُسَبِّحى أنه نتيجة لأزمة عام ٤١٥هـ/١٠٢٥م كَبَس العامة القصر يوم عيد النَّحْر صائحين: الجوع الجوع، نحن أحق بسِماط مولانا، ولم يبالوا بضرب الصَّقالبة لهم وتهافتوا على الطعام وضَرَبَ بعضهم بعضًا ونهبوا جميع ما أصلح من الأخباز والأشوية والحلوى ونهبوا القِصاع والطيافير (جـ. طَيْفور) والزِّبْديات (جـ. زِبْدية)[٣].

وذكر ناصر خُسْرو – أثناء زيارته للقاهرة – أن الخليفة الفاطمى كان يقيم مأدبةً فى كل من العيدين (عيد الفِطْر وعيد النَّحْر)، ويأذن بالاستقبال فى قصره للخواص والعوام. وأن مائدة الخواص تُنْصَب بحضرة الخليفة بينما تُنْصَب مائدة العوام فى سرايات أخرى. و قد رغب ناصر خُسْرو أن يرى هذه المائدة وأسرَّ بذلك إلى أحد كُتّاب الخليفة الذى تَوَطَّدَت صداقته به، فنقل رغبته إلى « صاحب السِّتْر » الذى سمح له بالذهاب فى آخر رمضان سنة ٤٤٠هـ/٧ مارس سنة ١٠٤٩م وكان المجلس قد أُعِدّ لليوم الثانى وهو يوم العيد الذى يحضر فيه الخليفة ويجلس فى صدر المائدة، ولكن ناصر خُسْرو لم يُقَدِّم لنا وصفًا للسِماط وإنما وَصْفًا لقاعة الذهب التى كان ينصب فيها السِّماط[٤].

---

[١] المسبحى: أخبار ٦٥، ٧٩.

[٢] نفسه ٦٥، ٧٩.

[٣] نفسه ٨٢.

[٤] ناصر خسرو: سفرنامة ١٠٧.

وقبل كل موسم كبير كان « متولِّى المائدة » يُحْضر مطالعةً يستدعى بها ما جرت به العادة فى هذا الموسم من الحيوان والضأن والبقر وغيره[١].

ويصف لنا ابن الطُّوَيْر السّماط الذى كان يُمَدّ فى شهر رمضان كل ليلة بقاعة الذَّهَب ابتداءً من اليوم الرابع من الشهر وحتى اليوم السادس والعشرين منه ، وكان يُدْعَى إليه الأمراء نوبة نوبة بمسطور يخرج إليهم . أما قاضى القضاة فكان يُسْتَدعى له فى ليالى الجُمَع فقط توقيرًا له . وكان السّماطُ يُبْسَط فى طول القاعة من أوّل الرّواق إلى ثلثى القاعة ، والفَرّاشون قيام لخدمة الحاضرين ، وكانت تُقَدَّم فيه أفخر أنواع المأكولات والأغذية . وبلغ ما يُنْفق فى شهر رمضان على سِماطه مدة سبعة وعشرين يومًا ثلاثة آلاف دينار[٢].

أما سِماطُ العيدين فهو سماطان فى عيد الفِطْر وسماطٌ واحدٌ فى عيد النَّحْر . وكان يوضع على السّماط أوانى الفضة والذَّهَب والصينى وطوله بطول القاعة وعرضه عشرة أذرع . ويوضع فى وسطه واحد وعشرون طبقًا فى كل طبق واحد وعشرون خروفًا ، ومن الدجاج ثلاثمائة وخمسون طائرًا ، ومن الفراريج مثلها وكذلك من الحمام . ويتخلَّل هذه الأطباق صحون خزفية فى جنبات السماط يبلغ عددها خمسمائة صحن فى كل صحن تسع دجاجات فى ألوان فائقة من الحلوى والطُّباهِجَة المُفَتَّقَة بالمِسْك . وبعد ذلك يحضر قصران من حلوى عملا بدار الفِطْرة زنة كل واحد سبعة عشر قنطارًا ينصبان فى أول السّماط وآخره . ويستمر السّماط إلى قرب الظهر ويتداوله الناس ولا يُرَدُّ عنه أحدٌ حتى يذهب عن آخره[٣].

وفى الموالد الستة ، التى أبطلها الوزير الأَفْضَل وأعادها الوزير المأمون البَطائِحى فى سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م ، وهى : مولد النبى ﷺ ، ومولد أمير المؤمنين على بن أبى طالب ،

---

[١] ابن المأمون : أخبار ٧٤.

[٢] ابن الطوير : نزهة ٢١٢، ٧٥؛ المقريزى : الخطط ١: ٣٨٧.

[٣] نفسه ٢١٣- ٢١٤؛ نفسه ١: ٣٨٧، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٤: ٩٧- ٩٨.

ومولد السيدة فاطمة عليها السلام، ومولد الحسن، ومولد الحسين عليهما السلام، ومولد الخليفة الحاضر [١]، وكذلك فى ليالى الوقود الأربع، كان السِّماطُ يشتمل على الكعك والحلوى وعلى الأخص الخُشْكَنانج (وهو نوع من الحلوى المصنوعة من الرقاق على شكل حلقة مجوفة يُملأ وسطها باللوز أو الفُسْتُق) والبَسَنْدود والفانيد، التى كانت تعمل بدار الفِطْرة وكان يُوَفَّر لها ما يلزم من السكر والعسل واللوز والدقيق والسيرج [٢]. ففى «مولد النبى» كان يُعْمل فى دار الفِطْرَة عشرون قنطارًا من السكر اليابس حلواء يابسة تعبى فى ثلاثمائة صينية من النحاس تُفَرَّق فى أرباب الرُّسوم من أرباب الرُّتَب وكل صينية فى قَوَّارة [٣].

وكان يُوَفَّر لدار الفِطْرة سنويًّا ما يلزم لإعداد هذه الحلوى ابتداء من النصف الثانى من شهر رجب من السكر والعسل والقلوب والزَّعْفران والطيب والدقيق وذلك لعمل الخُشْكنانج والبَسَنْدود وأصناف الفانيد الذى يقال له كَعْب الغزال والبَزْماوَرْد والمفستق [٤]. وكان ما يُنْفَق فى دار الفِطْرَة فيما يُفَرَّق على الناس منها ما قيمته سبعة آلاف دينار [٥]. ويذكر ناصر خسرو أن راتب السكر فى اليوم الذى تُنْصَب فيه مائدة السلطان خمسون ألف مَنّ، وأنه شاهد على المائدة شجرة أعِدّت للزينة - تشبه شجرة الترنج - كل غصونها وأوراقها وثمارها مصنوعة من السكر، وعليها ألف صورة وتمثال مصنوعة كلها من السكر أيضًا [٦].

---

[١] ابن الطوير: نزهة ٢١٧؛ ابن المأمون: أخبار ٦٢.

[٢] ابن المأمون: أخبار ٣٥، ٣٦، ٦٠، ٦٢، ٦٤.

[٣] ابن الطوير: نزهة ٢١٧. والقوّارة جـ. قوّارات. غطاء من شرب تكون تحت العراضى الديبقى تعمل بدار الطراز للولائم ويغطى بها الصوانى (ابن المأمون: أخبار ٧٣).

[٤] ابن الطوير: نزهة ١٤٤؛ المقريزى: الخطط ١: ٤٢٦ (نقلاً عن ابن عبد الظاهر).

[٥] نفسه ١٤٥.

[٦] ناصر خسرو: سفرنامة ١٠٨.

وفى الموالد الستة كان يُعْمَل بدار الفِطْرة ما يقرب من خمسة قناطير حلوى تُفَرَّق على المتصدرين والقُرّاء والفقراء بالمشاهد والمساجد الستة [١]. أما عدد الصَّوانى التى كانت تُقَدَّم على سِماط الخليفة فى هذه المناسبات فكانت ما يقرب من أربعين صينية خُشْكنانج [٢].

ويُقَدِّم لنا ابن المأمون تفصيلات غنية عن قيمة ما كان يُصْرَف من مواد لصناعة ما كان يُقَدَّم فى هذه الأسْمِطَة [٣]. ويكفى أن نعلم أن ما كان يُنْفِقه الوزير المأمون البَطائِحى على السّماط الذى كان يمده فى داره بلغ ١٣٢٦ وربع وسدس دينار ، وثمانية وأربعين قنطارًا من السكر برسم قصور الحلواء والقطع المنفوخ التى كانت تصنع له بدار الفِطْرَة [٤].

[١] ابن المأمون : أخبار ٣٦، ٦٠ والمساجد الستة هى : الأزهر و الأقمر والأنور بالقاهرة والطولونى والعتيق بمصر وجامع القرافة (نفسه ٦٣) .

[٢] نفسه ٣٥، ٦٢، ٦٤.

[٣] نفسه ٩٢- ٩٣.

[٤] نفسه ٢٦، ٤٢.



الفصل السادس عشر

التَّعليمُ والثقافة

كانت القاهرةُ طوال العصر الفاطمى هى مركز « الدَّعْوَة الإسماعيلية » فى العالم الإسلامى . وتركَّزت هذه « الدَّعْوَة » فى جامع القاهرة الذى عُرِفَ بالجامع الأزْهَر ، والمحَوَّل فى القصر ، ودار (الحِكْمَة) العِلْم مقر داعى الدُّعاة الفاطمى .

وتُمَثِّلُ الدَّعْوَة الإسماعيلية النشاط التبشيرى للمذهب الإسماعيلى الذى كان أتباعه يؤمنون بحتمية غَلَبَتِه على كافة الأراضى الإسلامية فى نهاية الأمر . وكان هذا المذهب يُدَرَّس عن طريق محاضرات عامة ذات صفة رسمية يُطْلَق عليها « مجالس الدَّعْوَة » أو « مجالس الحِكْمَة » ، لم يكن يُسْمَح بحضورها إلّا للمؤمنين أو المستجيبين الذين أخذوا « العَهْدَ » على داعى الدُّعاة . وكان هذا « العَهْدُ » شرْطًا أساسيًا لحضور هذه المجالس للتعرُّف على أسرار الدعوة الإسماعيلية أو علم الباطن .

وأوَّلُ إشارة تقابلنا فى المصادر إلى كيفية أَخْذ العَهْد هى « العَهْد » الذى أخذه الداعى أبو الحسين الأهْوازى على حَمْدان قَرْمَط عندما أراد الدخول فى المذهب الإسماعيلى ؛ فبعد أن اغتسل وتَطَهَّر قال له الأهْوازى : « آخُذُ عليك عَهْدًا وميثاقًا أخذه الله على النبيين والمرسلين »[1] .

ومن أوائل النصوص الإسماعيلية التى تمدنا بمعلومات عن « العَهْد » الذى كان يأخذه الدُّعاة على المستجيبين كتاب « العالم والغُلام » الذى تنسبه المصادر الإسماعيلية إلى منصور اليمن ابن حَوْشَب أو إلى ابنه جعفر . والمصدر الإسماعيلى الموثوق الثانى

---

[1] ابن أيبك الدوادارى : كنز الدرر وجامع الغرر ٦ : ٤٥؛ النويرى : نهاية الأرب ٢٥: ١٩٠.

الذى يشتمل على تفاصيل تصف كيفية أخذ «العَهْد» هو «الرّسالة الموجزة الكافية فى آداب الدُّعاة» للداعى أحمد بن إبراهيم (محمد) النَّيْسابورى الذى قام بدور كبير فى الدَّعْوَة فى زمن كل من العزيز بالله والحاكم بأمر الله، ووَصَلَ إلينا ماذكره النَّيْسابورى فى كتاب إسماعيلى متأخِّر هو كتاب «الأزهار» للبَهْروجى [1].

ومع ذلك فإنه لم يصل إلينا أىُّ شكل مُوَثَّق للعَهْد فى أىِّ من الكتب الإسماعيلية الأصلية، وما وَصَلَ إلينا جاءنا عن طريق مصادر غير إسماعيلية علينا أن نأخذها ببعض الحَذَر. وأقدم نصوص هذا النوع ما ذكره الشريف الدِّمَشْقى أخو مُحْسِن محمد بن على فى رسالته التى كتبها بعد سنة ٣٧٢هـ/ ٩٨٣م فى إبطال نَسَب الفاطميين والذى أورد نَصّه كل من النُّوَيْرى والمَقْريزى [2]. وقد اكتشف فلاديمير إيفانوف أن «العَهْدَ» الذى أورده النُّوَيْرى نقلًا عن الشريف أخى مُحْسِن يتطابق تقريبًا كلمةً كلمةً مع «العَهْد» الذى يؤديه اليوم الإسماعيلية المستعلية فى الهند (البُهْرَة) أمام إمامهم كل عام، ويُسَمِّى البُهْرَة هذا العَهْد «عَهْدَ الله» أو «عَهْدَ الأولياء» أو فقط «عَهْدَ نامة» [3].

مَجـــالِسُ الحِكْمَة

كان أَخْذُ العَهْد شرطًا أساسيًا لدخول أىّ معتقد جديد إلى المذهب الإسماعيلى والتعرُّف على أسرار المذهب أو علم الباطن المعروفة بـ «الحِكْمَة». وكان تعليم

---

[1] Halm, H., «The Ismaʿili oath of allegiance (*ʿahd*) and the session of wisdom (majâlis al-hikma) in Fatimid times» in Daftary, F. (ed.), *Mediaeval Ismaʿili History and Thought*, Cambridge 1996, pp. 92-94، ونشر مصطفى غالب كتاب «العالم والغلام» ضمن كتاب أربعة كتب حقانية فى بيروت-دار الأندلس ١٩٨٧.

[2] النويرى: نهاية الأرب فى فنون الأدب ٢٥: ٢١٧-٢٢٠؛ المقريزى: مسودة كتاب المواعظ والاعتبار ١٠٩-١١١.

[3] Halm, H., *op.cit.*, p. 98.

« الحِكْمَة » يتم فى مجالس يحضرها المعتقد الجديد إما منفردًا كما فى كتاب « العالم والغلام » أو مع آخرين .

ولم يكن ينتظم فى هذه « المجالس » سوى المعتقدين فقط ولا يُسْمَح لغيرهم بحضورها ، وحتى يمكن السيطرة على ذلك فإنها كانت تُعْقَد داخل قصر الإمام فى مكان مُخَصَّص لهذا الغَرَض سواء فى إفريقية أو فى القاهرة [٥].

وفى الدور الإفريقى كان القاضى النُّعْمان بن حَيُّون يُلْقى هذه « المجالس » بعد صلاة العصر يوم الجمعة فى أعقاب دروس « الظاهر » العامة التى كانت تُلْقَى فى المسجد وتشتمل على درس فى الفقه الإسماعيلى . أما دروس الباطن « المجالس » فلم يكن يلقيها إلَّا بعد أخذ موافقة الإمام [المنصور بالله ثم المعز لدين الله] عليها ، يقول القاضى النُّعْمان :

« ولما فَتَحَ المُعِزُّ لدين الله (ص) للمؤمنين باب رحمته ، وأقبل عليهم بوجه فَضْله ونعمته ، أخرج إلىَّ كُتُبًا من علم الباطن وأمرنى أن أقرأها عليهم فى كل يوم جمعة فى مجلس فى قصره المعمور بطول بقائه . فكثر ازدحام الناس وغُصَّ بهم المكان ، وخرج احتفالهم عن حَدّ السَّماع ، وملئوا المجلس الذى أمر باجتماعهم فيه ، وطائفة من رحبة القصر وصاروا إلى حيث لا ينتهى الصوت إلى آخرهم . وقيل له فى ذلك (ص) ووُصف لهم أن فيهم ممن شملته الدعوة أهل تَخَلُّف ومن لا يكاد أن يفهم القول ، وأن مثل هؤلاء لو مُيِّزوا وجُعِلَ لهم مجلسٌ يُقرأ عليهم فيه ما يَحْتَملون ويفهمون لكان أنفع لهم » [٦].

---

[١] راجع عن مجالس الحكمة Stern, S.M., «Cairo as the Centre of the Ismâʿili Movement», *CIHC*, pp. 438-45; Halm, H., *op.cit.*, 101-112; id., *The Fatimids and their traditions of learning*, London 1997, pp. 41-55., Walker, P., «Fatimid Institutions of Learning», *JARCE* 34 (1997), pp. 182-186; Madelung, W., *EI* [2] art . *Madjlis* V, p. 1029 ؛ محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ، القاهرة ١٩٧٠، ٥٤-٦٢ .

[٢] القاضى النعمان : المجالس والمسايرات ٣٨٦ . وانظر أيضًا ٤٣٥ ، ٤٦٧ ، ٤٨٧ .

وفى أعقاب فتح الفاطميين لمصر لم تطرأ اختلافاتٌ أساسيةٌ على طريقة تبليغ الدَّعْوَة وعَقْد « مجالس الحكمة » التى كان يتولّاها فى الستين عامًا الأولى للحكم الفاطمى فى مصر قاضى القضاة، حيث توارث ستة من أسرة بنى النُّعْمان منصب القضاء فى هذه الفترة، وكان أوَّلُ من أضيفت إليه الدَّعْوَة إلى جانب القضاء منهم هو الحسين بن على بن النُّعْمان سنة ٣٨٩هـ/ ٩٩٨م[1]. وكانت هذه المجالس تُعْقَد فى أوَّل الأمر يومين فى الأسبوع (الخميس والجمعة) فى موضع بالقصر يُعْرَف بـ « المحَوَّل » كان يُدْخَل إليه من باب الرِّيح وكان الداعى فى أوقات الاجتماع يُصَلِّى بالناس فى رواقه[2].

وحَفِظَ لنا المُسَبِّحى، الذى يُقَدِّم لنا أكثر المعلومات أصالةً عن هذه الفترة التى عاشها بنفسه، نَصًّا شَيِّقًا حول عَقْد « مجالس الحكمة » فى الفترة الفاطمية المبكرة، يقول: إن الداعى كان يعقد خلال يومين فى الأسبوع خمسة مجالس: مَجْلِس للأولياء، ومَجْلِس للخاصة وشيوخ الدولة ومن يختص بالقصور من الخدم وغيرهم، ومَجْلِس لعوام الناس وللطارئين على البلد، ومَجْلِس للنساء كان يُعْقَد فى جامع القاهرة الذى عرف بعد ذلك بالجامع الأزهر، ومَجْلِس للحرم وخواص نساء القصر[3].

يشتمل هذا النص على العديد من المعلومات الهامة، فهو يفيدنا أنه أصبح فى القاهرة - كما كان من قبل فى إفريقية - مجالس منفصلة للمستجيبين باختلاف طوائفهم؛ ولم تكن هذه المجالس مُخَصَّصَة فقط لقراءة الحكمة وإنما أيضًا لجَمْع النَّجْوى التى كان يدفعها المستجيبون والمستجيبات عَيْنًا ووَرِقًا[4].

---

[1] Gottheil, R., «A Distinguished Family of Fatimide Cadis (Al-Nuʿmân) in the Tenth Century», *JAOS* 27 (1906), pp. 217-296 ؛ ابن حجر: رفع الإصر ١: ٢٠٩.

[2] ابن عبد الظاهر: الروضة البهية الزاهرة ١٢٧ ؛ المقريزى: مسودة المواعظ والاعتبار ٨١، الخطط ١: ٣٩٠-٣٩١.

[3] المسبحى: نصوص ضائعة ٣٩، المقريزى: الخطط: ١: ٣٩١.

[4] Halm, H., *op.cit.*, p. 103.

ويؤكد هذا النَّصّ الهام سجِلٌّ صادر عن أحد الأئمة (الخلفاء) الفاطميين فى العصر الفاطمى الأول إلى داعى الدُّعاة الذى لم يُحَدِّد السِّجِلّ اسمه أيضًا جاء فيه : « واتل مجالس الحِكَم التى تخرج إليك من الحضرة على المؤمنين والمؤمنات والمستجيبين والمستجيبات فى قصور الخلافة الزاهرة والمسجد الجامع بالمعزية القاهرة... واقبض ما يحمله المؤمنون لك من الزَّكاة (؟) والنَّجْوى والأخْماس والقُرُبات وما يجرى هذا المجرى »[1].

ويبدو أن عدد من كان يحضر مجلس عوام الناس والطارئين على البلد كان أكبر من حجم القاعة المخصصة لهذا الغرض، فعندما جَلَسَ القاضى محمد بن النُّعْمان فى القصر لقراءة علوم آل البيت فى ربيع الأول سنة ٣٨٥هـ/ يونية سنة ٩٩٥م مات فى الزِّحام أحد عشر رجلًا فكَفَّنَهم الخليفة العزيز بالله على نفقته[2].

أما كيفية إعداد هذه المجالس وكتابتها فقد وصفه المُسَبِّحى أيضًا يقول : إن الداعى « كان يعمل المجالس فى داره ثم يُنْفذها إلى من يختص بخدمة الدولة، ويتخذ لهذه المجالس كتبًا يبيضونها بعد عرضها على الخليفة »[3].

وفى زمن الخليفة الحاكم بأمر الله وفى إطار سياساته المتناقضة طرأ تَحَوُّلٌ كبيرٌ على « مجالس الحِكْمَة »، ومصدرنا فى كل ذلك أيضًا المُسَبِّحى الذى يذكر أن الناس الذين جرت عادتهم بالحضور إلى القصر لسماع ما يُقْرأ عليهم من كتب « مجالس الدَّعْوَة » اجتمعوا فى ذى القعدة سنة ٣٩٦هـ / أغسطس سنة ١٠٠٦م ولكنهم ضُرِبُوا بأجمعهم ولم يُقْرأ عليهم شىء[4]!

---

[1] على خلف : مواد البيان ٥٨٧-٥٨٨ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى ١٠ : ٤٣٧ ، ٤٣٨ .

[2] المسبحى : نصوص ضائعة ١٤ ؛ المقريزى : مسودة المواعظ والاعتبار ٩١ ، والخطط ١ : ٣٩١ ، ٢ : ٢٢٦ واتعاظ الحنفا ١ : ٢٨٥ .

[3] المقريزى : الخطط ١ : ٣٩١ .

[4] المقريزى : اتعاظ الحنفا ٢ : ٦٨ .

وفى سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م قرئ سجلٌ صادرٌ من الحاكم بأمر الله بِقَطْع « مجالس الحكمة » التى كانت تُقرأ على الأولياء يومى الخميس والجمعة ، كما قرىء سجلٌ آخر بإبطال ما كان يُؤخَذ على أيدى القضاة من الخُمس والفِطْرَة والنَّجْوى[1] . ثم عاد الحاكم فى سنة ٤٠١هـ/١٠١٠م وكتب سِجِلًا أمر فيه بإعادة « مجالس الحكمة » وأَخْذ النَّجْوى[2] .

لاشك أن هذه الإجراءات اتَّخَذَها الحاكم بأمر الله فى أعقاب افتتاحه لدار الحكمة فى فترة أراد فيها التَّقرُّب لأهل السُّنَّة .. ويبدو هذا التردُّد بين المنع والإباحة فى نصوص كثيرة ، مصدرها دائمًا هو المُسَبِّحى ، الذى يذكر أنه عِندما اجتمع الأولياء وغيرهم بالقصر يوم الخميس ١٨ رمضان سنة ٤٠٤هـ/٥ مارس سنة ١٠١٤م لسماع مايقرؤه القاضى من كتب مجالس الحكمة مُنِعوا من ذلك[3]، ولم يذكر المُسَبِّحى سببًا لهذا المنع الذى جاء مواكبًا لبداية الدعوة الدرزية التى وصلت إلى مصر فى هذا الوقت .

ويؤكد لنا هذا الافتراض سجلٌ صادر عن الإمام (الخليفة) الظاهر لإعزاز دين الله بإعادة مجالس الحكمة إلى القصر من جديد ، حفظه لنا الداعى عماد الدين إدريس مُؤَرَّخًا فى الخامس من شعبان سنة ٤١٧هـ/أكتوبر سنة ١٠٢٦م وَجَّهَه إلى جميع أهل دعوته وأَمَرَ كل داعٍ من دعاته بتلاوته على المؤمنين فى ناحيته . وقد جاء فى هذا السِّجِلّ الهام : « وقد كان باب الحكمة مفتوحًا وكنز الرحمة ممنوحًا ، وشَرْع العلم للطالبين مباحًا ، ومفتاح الرحمة مقبولًا متاحًا ، وبحر الحكمة مسجورًا متاحًا إلى أن أمر مولانا الحاكم بأمر الله ع م ... بإغلاق بابها لما رآه من المصلحة بحكم مشاهدته الأمور وسياسة الجمهور ...» .

---

[1] المقريزى : اتعاظ ٢ : ٨٢ .
[2] نفسه ٢ : ٨٥ .
[3] نفسه : ٢ : ١٠٣ .

«... ولما تجلّت الغمرة وتولّت الفترة ونَكَصَ الشيطان على عقبه مَثْبورًا مَدْحورًا ... فأمر داعى الدعاة... قاسم بن عبد العزيز بن محمد بن النعمان ... بفتح باب الحكمة لطالبيها وقراءة المجالس فى قصور الخلافة بحيث جرت الرسوم المتقدمة بقراءتها فيها»[1].

ونَشَرَ صمويل شتيرن S. Stern رسالة تهنئة وجدها فى أوراق جنيزة القاهرة يُوَجِّه فيها أحد الدعاة تهنئته إلى قاضى القضاة . ويفترض شتيرن أن الإمام المشار إليه فى هذه الرسالة – رغم أن اسمه غير مقروء بوضوح – هو الإمام الظّاهر ، وبالتالى فإن قاضى القضاة المعنى هو قاسم بن عبد العزيز بن النُّعْمان . وتشير الرسالة بوضوح إلى «المجالس» وتناقش قراءة كتاب «دعائم الإسلام» للقاضى النُّعْمان الذى يُعَدُّ عملًا مُبَسَّطًا يمكن فهمه من مجموع الناس . وتتناول الرسالة كذلك إدخال تجديد يقضى بعَقْد مجلس ثالث كل يوم جمعة بعد صلاة الجمعة بالتناوب بين الجوامع الثلاثة (عمرو والأزهر والحاكم) لقراءة «دعائم الإسلام» . ولاشك أن الرسالة تشير إلى «مجالس الحِكْمَة»[2]. ولكن ما كان يقرأ فى هذا المجلس الإضافى خاص بالفِقْه الإسماعيلى ولا علاقة له بعلم الباطن الذى كان يُدَرَّس فقط للمؤمنين والمستجيبين داخل القصر فى يوم الخميس . وقد أشار الداعى المؤيَّد فى الدين الشِّيرازى إلى «المجالس» التى كانت تُعقَد فى القصر يوم الخميس فى أحد قصائده ، يقول[3]:

يا صباح الخميس أهلًا وسهلًا ... زادَكَ الواحد المهيمن فَضْلًا

أنت عيدٌ للمؤمنين عتيدٌ ... جَمَعَ الدينُ منهم فيك فضلا

---

[1] عماد الدين إدريس : عيون الأخبار ٦ : ٣١٤ ، ٣١٥ .

[2] Stern, S.M., *op.cit.*, pp. 441-445; Halm H., *op.cit* , p. 108.

[3] ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة ، تقديم وتحقيق محمد كامل حسين ، القاهرة–دار الكاتب المصرى ١٩٤٩ ، ٣١٤ ؛ Smoor, p., «The Master of the Century : Fatimid Poets in Cairo», *Egypt and Syria in the Fatimid, Ayyubid and Mamluk Eras*, pp. 140-141.

فالكتب التى كانت تقرأ فى المجالس العلنية فى الجوامع كتبًا عامة فى الفقه الإسماعيلى مثل «دعائم الإسلام» و «اختلاف أصول المذاهب» وكلاهما للقاضى النُّعمان بن حَيُّون التى تُعَدُّ المراجع الرئيسية للفقه الإسماعيلى وكانت تقرأ فقط عقب صلاة الجمعة.

أما فترة خلافة المستنصر بالله الطويلة فلدينا عنها معلومات قليلة فيما يخص «مجالس الحكمة». وكان قاضى القضاة هو الذى يتولّى ظاهريًا أمر الدَّعْوَة، فرغم أن مرتبة الدَّعْوة مرتبةٌ روحية إلّا أنها كانت تُجْمَع فى النصف الأول من تاريخ الدولة الفاطمية فى مصر إلى القضاء، وهذا ما دَفَعَ ابن الطُّوَيْر إلى القول بأن «داعى الدُّعاة كان يلى قاضى القُضاة فى المرتبة»[١]، وهكذا فقد تولّى رئاسة الدَّعْوَة كل من القاضى عبد الحاكم بن سعيد الفارِقى أخى قاضى القُضاة وداعى الدُّعاة مالك بن سعيد الفارِقى[٢]، ثم القاسم بن عبد العزيز بن محمد بن النُّعمان[٣]، ثم جَمَعَ المستنصر الوزارة والقضاء والدعوة للوزير أبى محمد الحسن بن على بن عبد الرحمن اليازورى (٤٤٢- ٤٥٠هـ/ ١٠٥٠- ١٠٥٨م)[٤]. وفى أعقاب مقتل اليازورى تولّى أمر الدَّعْوَة الداعى الشهير المؤَيَّد فى الدين هبة الله الشِّيرازى[٥]، وإن كان ثلاثة من ذرية عبد الحاكم بن سعيد الفارِقى: ابنيه عبد الكريم وأحمد وحفيده أحمد بن عبد الكريم حَمَلُوا ألقاب الوزارة والقضاء والدَّعْوَة[٦]، ولُقِّب الوزير الحسن بن مُجَلّى المعروف بابن أبى كُدَيْنَة والذى عمل كقاضٍ للقُضاة سبع دَفَعات أيضًا بداعى الدُّعاة[٧]، كما أن عبد الحاكم بن وُهَيْب المليجى

---

[١] ابن الطوير: نزهة المقلتين ١١٠.
[٢] ابن حجر: رفع الإصر ٢: ٣٠٨.
[٣] نفسه (مخطوطة باريس رقم ٢١٤٩).
[٤] ابن ميسر: أخبار مصر ١١، ٥٥؛ ابن حجر: رفع الأصر ١: ١٩٣؛ المقريزى: المقفى ٣: ٣٧٦.
[٥] نفسه ١٨.
[٦] نفسه ٥٥-٥٦.
[٧] نفسه ٥٦.

الذى تولّى كذلك القضاء سبع دفعات بين سنى ٤٥٠هـ/١٠٥٨م و ٤٦٠هـ/١٠٦٨م تُنْسَب إليه « المجالس المستنصرية »[١]. وهكذا يظهر أن قاضى القُضاة فى هذا الوقت كان الرئيس الرسمى للدعوة وإن كان الداعى المؤيَّد فى الدين الشِّيرازى هو الذى يعقِد عمليًا « مجالس الحِكْمَة » حتى وفاته سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م ودفنه فى دار العِلْم[٢].

ويبدو أن الأمر استمر على هذا النحو بعد وفاة المؤيَّد فى الدين الشِّيرازى فقد جَمَعَ الوزراءُ العسكريون ابتداءً من أمير الجيوش بدر الجمالى بين قيادة الجيش والوزارة والقضاء ورئاسة الدَّعْوَة، وأصبح القاضى والداعى نائبين عنهم.

وفيما يخص الفترة الفاطمية المتأخِّرة يُقَدِّم لنا ابن الطُّوَيْر وَصْفًا هامًا للدعوة الإسماعيلية وترتيبها يَقول عن داعى الدُّعاة: إنه يجب أن يكون فقيهًا عالمًا بجميع مذاهب أهل البيت، وأنه يقوم بأخذ العَهْد على من ينتقل من مذهبه إلى مذهبهم، ويترَدَّد عليه فقهاء الدولة، ويجتمعون فى مكان يعرف بـ « دار العِلْم »؛ ثم يضيف:

« وكان الفقهاء منهم يتفقون على « دَفْتر » يقال له « مجلس الحكمة » يُقرأ فى كل يوم اثنين وخميس ويُحْضر مبيضًا إلى داعى الدعاة فينفذه إليهم ويأخذه منهم ويدخل به إلى الخليفة فى هذين اليومين المذكورين فيتلوه عليه إن أمكن ويأخذ علامته بظاهره، ويجلس بالقصر لتلاوته على المؤمنين فى مكانين: للرجال على كرسى الدعوة بالإيوان الكبير، وللنساء بمجلس الداعى – وكان من أعظم المبانى وأوسعها. فإذا فرغ من تلاوته على المؤمنين والمؤمنات حضروا إليه لتقبيل يديه فيمسح على

---

[١] ابن حجر: رفع الإصر ٢ : ٣١٠.

[٢] ابن عبد الظاهر: الروضة البهية ٣٢.

[٣] العلامة. مصطلح خاص كان يُطْلَق على ما يكتبه الخليفة بيده على الرسائل أو الأوامر أو السجلات أو التوقيعات الصادرة عنه. ولا تصدر هذه الوثائق على اختلاف أنواعها إلاّ بعد كتابة هذه العلامة. وكان كل خليفة أو سلطان أو ملك يتخذ لنفسه مصطلحًا خاصًا ليكون علامته [انظر اللوحة رقم ١، ٢].

رءوسهم بمكان العَلامَة - أعني خط الخليفة - وله أخذ النّجوى من المؤمنين بالقاهرة ومصر وأعمالهما لا سيما الصعيد ومبلغها ثلاثة دراهم وثلث فيجتمع من ذلك شيء كثير يحمله إلى الخليفة من يده بينه وبينه وأمانته في ذلك مع الله تعالى ، فيفرض له الخليفة منه ما يعينه لنفسه وللنقباء معه »[1].

وأشهر هذه « المجَالِس » المجالس التي كان يُلْقيها القاضي النُّعمان بن حَيُّون وجَمَعَها تحت عنوان « تأويل الدَّعائم » وهي مقسمة إلى اثنى عشر قسمًا يشتمل كل منها على عشرة مجالس[2]. أما « مجالس العزيز بالله » و « مجالس الحكمة الحاكمية » فنعرفها فقط من النقول التي حَفِظَها عنها المتأخِّرون. ومن بين المجالس التي وَصَلَت إلينا « المجالس المستنصرية » التي كانت تُنسب إلى الوزير الأرْمَني بدر الجمالي ، ولكن ناشرها الدكتور محمد كامل حسين نَسَبَها اعتمادًا على شواهد داخلية إلى الداعي الموسوم بعَلَم الإسلام ثقة الإمام عبد الحاكم بن وُهَيْب المليجي وأرجعها إلى الفترة بين سنى ٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م و ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م وخلص من ذلك إلى أن كاتبها هو محمد بن القاضي القاسم بن عبد العزيز بن محمد بن النُّعمان[3]. وأيضًا « المجالس المؤيدية » التي ألقاها داعي الدعاة الشهير المؤَيَّد في الدين هبة الله الشِّيرازي في فترة تولِّيه أمر الدَّعْوَة في مصر بين سنى ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م و ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م ، وهي مكوّنة من ثمانية مجلدات يشتمل كل منها على مائة مجلس[4].

وظلَّتْ « مَجالِسُ الحِكْمَة » أحد أهم المظاهر التعليمية للإسماعيليين في العصر الفاطمي حتى وصول صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى قمة السلطة في مصر ، يقول المقريزي : « ومن حينئذ اشتهر مذهب الشَّافِعي بديار مصر وتظاهر الناسُ به واختفى

---

[1] ابن الطوير : نزهة المقلتين ١١٠-١١٢ ؛ القلقشندي : صبح ٣ : ٤٨٣ ؛ المقريزي : الخطط ١ : ٣٩١ .

[2] نشرها في ثلاثة أجزاء محمد حسن الاعظمي ، القاهرة-دار المعارف ١٩٦٨-١٩٧٢ .

[3] نشرها محمد كامل حسين ، القاهرة-دار الفكر العربي ١٩٤٧ .

[4] نُشِرَ منها ثلاثمائة مجلس نشرها مصطفى غالب في بيروت-دار الأندلس ٩٧٤-١٩٨٤ .

مذهب الشيعة من الإمامية والإسماعيلية ، وبَطُلَ من حينئذ « مَجْلِس الدَّعْوَة » بالجامع الأزهر وغيره »[1].

دارُ الحِكْمَة (دارُ العِلْم)

في بداية الفصل الذى خَصَّصَه المقريزى فى « الخِطَط » لذكر مدارس مصر ، أورد فقرةً هامة أبان فيها عن نشأة المدارس وتطورها فيما يلى نَصُّها :

« والمدارس مما حَدَث فى الإسلام ، ولم تكن تُعْرَف فى زمن الصحابة والتابعين ، وإنما حَدَث عملها بعد الأربعمائة من سنى الهجرة ، وأوَّل من حُفِظَ عنه أنه بنى مدرسة فى الإسلام أهل نَيْسابور ، فبنيت بها المدرسة البَيْهَقِيَّة ، وبنى بها أيضًا الأمير نَصْر بن سُبُكْتُكين مدرسةً ، وبنى بها أخوه السلطان محمود بن سُبُكْتُكين مدرسةً ، وبنى بها أيضًا المدرسة السَّعْدِيَّة ، وبنى بها أيضًا مدرسةً رابعة ، وأشهر ما بُنى فى القديم المدرسة النِّظامية ببغداد ؛ لأنها أوَّل مدرسة قُرِّرَ بها للفقهاء معاليم ، وهى منسوبة إلى الوزير نظام الملك أبى على الحسَن بن على بن إسحاق بن العَبَّاس الطُّوسى وزير مَلِك شاه بن أَلْب أرْسَلان بن داود بن ميكال بن سَلْجوق فى مدينة بغداد ، وشرع فى بنائها فى سنة سبع وخمسين وأربعمائة وفرغت فى ذى القعدة سنة تسع وخمسين وأربعمائة ، ودَرَّس فيها الشيخ أبو إسحاق الشِّيرازى الفيروزابادى صاحب كتاب « التَّنْبيه فى الفِقْه » على مذهب الإمام الشَّافعى رضى الله عنه ورحمه ، فاقتدى الناسُ به من حينئذ فى بلاد العراق وخُراسان وما وراء النهر وفى بلاد الجزيرة وديار بكر .

وأما فى مصر فإنها كانت حينئذ بيد الخلفاء الفاطميين ومذهبهم مخالفٌ لهذه الطريقة ، وإنما هم شيعة إسماعيلية ...»[2].

---

[1] المقريزى : اتعاظ الحنفا ٣ : ٣١٩-٣٢٠ .

[2] المقريزى : الخطط ٢ : ٢٦٣ .

بناءً على ما تَقَدَّم فإنه لم يكن من الطبيعى أن يتّخذ الفاطميون مؤسّسات تُشْبِه المدارس، يقول ابن عبد الظّاهر عند ذكره لدار العِلْم «بناها المصريون [يقصد الخلفاء الفاطميين] لأنهم لم يكونوا يعرفون المدارس»[1]. فقد كانوا يَتَزَعَّمون حركةً دينيةً فلسفيةً اجتماعيةً عظمى كان هدفُها لا يقلُّ عن تحويل وتجديد كل الإسلام، ويُمَثِّلون التحدى الأكبر للإسلام السُّنِّى الذى أنشأ المدارس لمحاربة مذهبهم[2].

وكانت بدايةُ التدريس فى جامع القاهرة (الأزهر) فى سنة ٣٦٥هـ/ ٩٧٥م بعد ثلاث سنوات من وصول الخليفة المعز لدين الله إلى مصر، ففى صفر من هذا العام جلس القاضى على بن النُّعْمان فى الجامع وأملى مختصر أبيه فى الفقه المعروف بـ «الاقتصار» فى جَمْع حافل من العلماء والكبراء وأثبت أسماء الحاضرين. فكانت هذه أول حلقة للدرس بالجامع الأزهر[3].

ولما تَوَلَّى يعقوب بن كِلِّس الوزارة للعزيز بالله سنة ٣٦٨هـ/ ٩٧٩م، رَتَّب فى العام التالى فى داره «مجالس» للعلماء والشعراء والفقهاء والمتكلِّمين وأجرى لجميعهم الأرزاق، وكان يقرأ على الناس «الرِّسالة الوزيرية»، وهى كتابٌ أَلَّفه فى فقه الإسماعيلية يَتَضَمَّن ما سمعه من المُعِزّ لدين الله وابنه العزيز بالله[4].

وشهدت سنة ٣٧٨هـ/ ٩٨٨م أوّل محاولة لترتيب دَرْس مُنَظَّم فى جامع القاهرة الذى عرف فيما بعد باسم الجامع الأزهر. فقد استأذن الوزير يعقوب بن كِلِّس الخليفة

---

[1] ابن عبد الظاهر: الروضة البهية الزاهرة ٤٥ .
[2] فيما سبق ص ١٤٠ .
[3] المقريزى: الخطط ٢ : ٣٤١ ، اتعاظ الحنفا ١ : ٢٢٧ .
[4] ابن الصيرفى: الإشارة إلى من نال الوزارة ٤٩-٥٠ ؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ٧ : ٣٠ ؛ المقريزى: الخطط ٢:٦، ٣٤١ ، ٣٦٣ .

العزيز بالله فى تعيين جماعة من الفقهاء بجامع القاهرة (الأزهر) ، كان عددهم سبعة وثلاثين فقيهًا يرأسهم الفقيه أبو يعقوب قاضى الخَنْدَق ، كانوا يتحلَّقون كل يوم جمعة بجامع القاهرة بعد الصلاة ، ويتكلَّمون فى الفِقْه حتى وقت العصر . ورَتَّب لهم العزيز بالله أرزاقًا وجرايات شهرية ، وأقام لهم دارًا للسكنى بجوار الجامع الأزهر ، وخَلَعَ عليهم فى يوم عيد الفِطْر وحملهم على بغلات تشريفًا لهم وتكريمًا ، كما أجرى عليهم الوزير ابن كِلِّس أيضًا أرزاقًا من ماله الخاص [١] . يقول المقريزى : « وهى أوَّل مرة يقام فيها درسٌ فى مصر بمعلوم جار من قِبَل السلطان » [٢] . ويضيف المُسَبِّحى أنه ما إن اخْتُطَّ جامع الخُطْبَة (الحاكم) فى سنة ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م حتى تَحَلَّق فيه الفقهاء الذين كانوا يتحلَّقون فى جامع القاهرة – يعنى الجامع الأزهر [٣].

ولا شك أن الجهد الواضح للفاطميين فى مجالى الثقافة والتعليم تركَّز فى دار الحِكْمَة (العِلْم) [٤] التى أنشأها الخليفة الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥هـ/ ١٠٠٥م والتى عَدَّها الباحثون استمرارًا لتقاليد هللينستية [٥] . يقول المُسَبِّحى :

« وفى يوم السبت هذا ، يوم السبت العاشر من جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وثلاثمائة ، فتحت الدار الملقبة بدار الحكمة بالقاهرة . وجلس فيها الفقهاء وحملت الكتب إليها من خزائن القصور المعمورة ، ودَخَلَ الناسُ إليها ونَسَخَ كل من التمس نَسْخ شيء مما فيها ما التمسه ، وكذلك من رأى قراءة شيء مما فيها . وجلس فيها القُرّاء والمنجمون وأصحاب النحو واللغة والأطباء ، بعد أن فرشت هذه الدار

---

[١] المسبحى : نصوص ضائعة ٣٨ ؛ ابن أبى الفضائل : النهج السديد ٥٠٠–٥٠١ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى ٣: ٣٦٣ ؛ المقريزى : الخطط ٢ : ٢٧٣ ، ٣٤١ ؛ عنان : تاريخ الجامع الأزهر ٤٣–٤٤ .

[٢] المقريزى : الخطط ٢ : ٣٦٣ .

[٣] نفسه ٢ : ٢٧٧ (عن المسبحى) .

[٤] انفرد المسبحى بإطلاق اسم دار الحكمة على الدار التى أنشأها الحاكم سنة ٣٩٥ ، بينما يذكرها معاصره يحيى بن سعيد الانطاكى باسم دار العلم (تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى (نشرة شيخو) ١٨٨ .

[٥] Pedersen, J. & Makdisè, G., *EI*^{2} art. *Madrasa* V, p. 1123 .

وزُخرفت وعُلّقت على جميع أبوابها وممراتها الستور، وأقيم قوام وخُدّامٌ وفرّاشون وغيرهم رسموا بخدمتها. وحصل فى هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التى أمر بحملها إليها من سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة ما لم يُرَ مثله مجتمعًا لأحد قطّ من الملوك، وأباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم ممن يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها. فكان ذلك من المحاسن المأثورة أيضًا التى لم يُسْمَع بمثلها من إجراء الرِّزْقَ السنىّ لمن رسم له بالجلوس فيها والخِدْمَةُ بها من فقيه وغيره، وحَضَرَها الناس على طبقاتهم فمنهم من يحضر لقراءة الكتب، ومنهم من يحضر للنَسْخ، ومنهم من يحضر للتَعَلُّم.. وجُعِلَ فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر، وهى الدار المعروفة بمختار الصقلبى»[1].

ففى السنوات الأولى لإنشائها حاول الحاكم أن يَكْسِبَ حماس أهل السُّنَّة، فوَلَّى أمرها جماعةً من شيوخ السُّنَّة كان على رأسهم الحافظ عبد الغنى بن سعيد وأبو أسامة جُنادَة بن محمد اللُّغَوى وأبو الحسن على بن سليمان المقرئ الأنطاكى. وربما قَصَدَ الحاكم من وراء ذلك أن يسحب من جامع عمرو دوره المميز فى صنع الفكر الدينى فى مصر. ولكن هذا الوضع لم يستمر طويلًا، ففى نهاية عام ٣٩٩هـ/١٠٠٩م قُتِلَ الشيخان أبو أسامة اللُّغَوى وأبو الحسن الأنطاكى واضطر الشيخ عبد الغنى بن سعيد إلى التَّسَتُّر[2].

وفى سنة ٤٠٠هـ/١٠١٠م وَقَفَ الحاكم أوقافًا على عدد من المنشآت الدينية هى جامع القاهرة (الأزْهَر) وجامع المَقْس وجامع راشِدَة بالإضافة إلى دار الحِكْمَة. وأورد ابن عبد الظّاهر والمَقْريزى نَصَّ هذه الوقفية، أغلب الظّن نقلًا عن المُسَبِّحى، وعَيَّنَ فيها الرِّباع

---

[1] المسبحى: نصوص ضائعة ٢٢؛ المقريزى: مسودة المواعظ والاعتبار ٣٠٠-٣٠١ والخطط ١: ٤٨٥-٤٨٦ واتعاظ الحنفا ٢: ٥٦.

[2] ابن خلكان: وفيات الأعيان ١: ٣٧٢؛ المقريزى اتعاظ الحنفا ٢: ٨٠؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٤: ٢٢٢-٢٢٣.

والمواضع التى وقفت فيها على دار الحكمة والتى حُدِّدَت بـ٢٥٧ دينارًا من الذهب المعزى تفصيلها : ١٢ دينارًا لثمن الماء ، ١٥ دينارًا للفراش ، ١٢ دينارًا للورق والحبر والأقلام ، دينارٌ واحد لمرَمَّة الستارة ، ١٢ دينارًا لمن يرُمّ ما ينقطع من الكتب وما عساه أن يسقط من ورقها ، خمسة دنانير لثمن لبود الفرش فى الشتاء ، أربعة دنانير لثمن طنافس فى الشتاء ، وما بقى يصرف على سائر ما يُحتاج إليه [١].

ويبدو أن دار الحكمة استمرت فى أداء دورها كمكتبة عامة فترة طويلة . غير أن ما نملكه من معلومات عن نشاط هذه الدار لا يتعدَّى بحال عصر الحاكم بأمر الله (٤١١هـ/ ١٠٢٠م) . ومنذ هذه الفترة وحتى عام ٥١٣هـ/ ١١١٩م لا تشير المصادر إطلاقًا إلى دار الحكمة (العِلْم) ، ولكن لاشك أنها كانت فيما بين هذين التاريخين مركزًا لنشاط جدير بالاهتمام هو الدَّعْوَة الإسماعيلية ، وإن كُنّا لم نستطع أن نُحَدِّد الفترة التى دَخَلَ فيها هذا النشاط فى حياة هذه المؤسَّسَة [٢]. ولكننا نعرف ، عن طريق ابن عبد الظَّاهر ، أن واحدًا من كبار الدُّعاة الإسماعيليين هو المؤيَّد فى الدين هبة الله الشِّيرازى دُفِنَ فى دار العِلْم عند وفاته سنة ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م [٣]. الأمر الذى يؤكِّد أهمية هذه المؤسَّسَة للدعوة الإسماعيلية .

وفى الفترة التى تولَّى فيها المؤيَّد فى الدين أَمْر الدَّعْوَة الإسماعيلية فى مصر نَزَلَ عليه وهو فى دار العِلْم قاضى قضاة اليمن وهادى دعاتها لَمَك بن مالك الحَمّادى – الذى وَصَلَ إلى بلاط الإمام المستنصر برسالة من داعى اليمن على بن محمد الصُّلَيْحى يطلب له الإذن « فى الحج إلى مكة والمسير بعد ذلك للهجرة إلى شريف الحضرة » . ويذكر الداعى حاتم بن إبراهيم الحامِدى أن المؤيَّد عَلَّم لَمَك العلوم الدينية وجعله خبيرًا بخفايا

---

[١] ابن عبد الظاهر : الروضة البهية ١٤٣–١٥٠ ؛ المقريزى : الخطط ١ : ٤٥٩ و٢: ٢٧٢– ٢٧٤.

[٢] Eche, Y., *Les bibliothèques arabes publiques et semi-publiques en Mésopotamie, en Syrie et en Egypte au Moyen-Age, Damas,* IFEAD 1967, p. 89.

[٣] ابن عبد الظاهر : الروضة البهية ٣٢ ؛ المقريزى : الخطط ١ : ٤٦٠ .

الدَّعْوَة . وأمضى لَمَك بالقاهرة خمس سنوات (٤٥٤ - ٤٥٩هـ) لم يُفارِق فيها مجلس المؤيَّد فى الدين « يسأله ويأخذ عنه ويكتب ما استفاده منه إلى أن استوعب ما عنده » . وفى النهاية تقدَّم إليه بسبع وعشرين مسألة يطلب جوابها منه ، فأجابه المؤيَّد بأن جوابها عند الإمام وأنه بعد هذا الإعداد والتلقّى على يدى المؤيَّد فى الدين لا يوجد بينهما الآن حائلٌ . فتقدَّم لَمَك بأسئلته إلى الإمام فأجابه عليها بسبعة وعشرين جوابًا وكساه بعد كل جواب قميصًا من ملابسه إشارة من الإمام إلى رفعه له وإعلائه [١] .

هذه الرواية التى وردت فى المصادر اليمنية تُعَرِّفنا بكيفية إعداد دُعاة الجُزُر (ج . جزيرة) الفاطمية المختلفة والوقت المناسب الذى يمكن أن يلتقوا فيه بالإمام ، وهو أحد أهم وظائف دار العِلْم وداعى الدُّعاة . ويبدو لى أنه بعد وفاة المؤيَّد فى الدين الشِّيرازى وتعيين أحد رجال السيف هو أمير الجيوش بدر الجمالى فى رئاسة الدَّعْوَة [٢] ، فإن دار الحكمة لم تَفْقِد فقط أهميتها بل أصبحت مرتعًا لنمو مذاهب معادية للإسماعيلية ، مما دفع السلطات الفاطمية إلى وَضْع نهاية لنشاط هذه الدار .

ولا تُحَدِّثنا المصادر عن أى نشاط لهذه الدار حتى عام ٥١٣هـ/ ١١١٩م عندما حدثت الأحداث الآتية والتى وَصَلَت إلينا تفاصيلها عن طريق روايتين : الأولى أوردها ابن المأمون وابن مُيَسَّر تفيدنا أن فى هذه السنة قام شخصٌ يُدْعى حَمِيد بن مَكّى الأَطْفيحى القَصّار وزميل له يُدْعى بركات بالاجتماع فى دار العِلْم - التى بالتَّبّانين مجاورة القصر الصغير - مع جماعة يعرفون بالبديعية كانوا على المذاهب السنية الثلاثة المشهورة ، تقول الرواية إن بركات استفسد عقول جماعة من جملتهم وأخرجهم عن الصواب ، فأمر الأَفْضَل بغَلْق دار العِلْم والقبض على بَرَكات ، ولكنه تَمَكَّن من الهرب

---

[١] الحامدى : تحفة القلوب وترتيب الهداة والدعاة فى الجزيرة اليمنية ، نشر Stern قسمًا منه نقلًا عن كتاب الأزهار للحسن بن نوح البهروجى Stern, S.M., *Oriens* IV (1951) , p. 234 ؛ أيمن فؤاد سيد : تاريخ المذاهب الدينية فى بلاد اليمن ١٣٠-١٣٦ .

[٢] المقريزى : الخطط ١ : ٤٤٠ ؛ ابن حجر : رفع الإصر ١ : ١٣٢ .

وأخفاه أستاذان من القصر ، من جملة من اعتقدوا فيه ، داخل القصر إلى أن توفى من مرض ناله وانكشف أمرهما وقتلا [١].

وبعد وفاة الوزير الأَفْضَل سنة ٥١٥هـ/ ١١٢١م أمر الخليفة الآمر وزيره المأمون البَطائِحى بإعادة فتح دار العِلْم على الأوضاع الشرعية ، إلّا أن حميد القَصّار عاد وأخذ يتَرَدَّد على دار العِلْم وادَّعى فى هذه المرة « الربوبية » ، فحَذَّر الداعى ابن عبد الحقيق الوزير المأمون من عواقب ذلك وعَرَّفه أن حميد القَصّار يتحدَّث كذلك بشىء من علم الكلام على مذهب الأشْعَرى ، ثم انْسَلَخ عن الإسلام وسلك طريق الحَلّاج واستهوى بعض ضعاف العقول وقليلى البصيرة ، فاعتقله المأمون ولكنه لم يلبث أن توفى فى الحبس ، كما قُتِلَ أتباعه فى سنة ٥١٧هـ/ ١١٢٣م وأُغْلِقَت دار العِلْم للمرة الثانية [٢].

أما الرواية الثانية فأوردها ابن عبد الظّاهر وتفيدنا بأن هذا الإبطال كان بسبب اجتماع الناس بها والخوض فى المذاهب والخَوْف من الاجتماع على المذهب النِّزارى [٣].

وواضحٌ أن واقعة بركات وحميد القَصّار لم تكن السبب الرئيسى وراء إبطال دار العِلْم ، وأغلب الظن أن ذلك كان بسبب اجتماع الناس بها وإخفاقها فى أداء دورها الأساسى وهو الدَّعْوَة إلى المذهب الإسماعيلى مذهب الدولة الحاكمة [٤].

ونتيجة لوساطة خُدّام القصر ، وافق الآمر بأحكام الله على إعادة دار العِلْم بشرط أن يتولّاها رجل دين وأن يكون داعى الدُّعاةِ هو الناظر فيها ، وأن يقام فيها مُتَصَدِّرون برسم قراءة القرآن . فقام الوزير المأمون البَطائِحى بإعادة فتحها ولكنه امتنع عن إعادتها فى موضعها الأول بالتَّبّانين شمال القصر الغربى الصغير وأقامها فى موضع آخر جنوب القصر

---

[١] ابن المأمون : أخبار مصر ٤٤-٤٥ ؛ ابن ميسر : أخبار مصر ٩٥ ؛ المقريزى : الخطط ١ : ٤٥٩-٤٦٠ والمقفى ٣: ٦٨٤- ٦٨٥.

[٢] نفسه ٤٥ ؛ نفسه ٩٥ ؛ نفسه ١: ٤٦٠ .

[٣] ابن عبد الظاهر : الروضة البهية ٣٢ ؛ المقريزى : الخطط ١ : ٤٦٠ ؛ القلقشندى : صبح ٣ : ٣٦٢ .

[٤] . Eche, Y., *op.cit.* pp. 93-94

الشرقى الكبير بجوار باب تُرْبَة الزَّعْفَران فى ظهر خزانة الدَّرَق فى ربيع الأول سنة ٥١٧هـ/ ١١٢٣م وجعل على رأسها الداعى أبا محمد الحسن بن آدم[١].

واعتبارًا من هذا التاريخ أصبحت دار العِلْم – وهو اسمها الذى يقابلنا فى مصادر هذه الفترة – المقر الرسمى للدعوة الإسماعيلية كما ذكر ابن الطُّوَيْر فى النَّصّ الذى نقلناه عنه آنفًا[٢].

بِداياتُ المَدَارِس فى مصر

لاشك أن الظروف السياسية والدينية والاجتماعية لم تكن واحدة فى كل العالم الإسلامى فى القرنين الخامس والسادس للهجرة، وهى الفترة التى بدأت فيها «المدارس»[٣] فى الظهور؛ فالوسط الاجتماعى لبغداد عند تأسيس النِّظامِيَّة سنة ٤٥٧هـ/ ١٠٦٥م لم يكن كمجتمع الإسكندرية أو دمشق أو قونية فى آسيا الصغرى عندما ظهرت المدارس لأول مرة بهذه المدن فى النصف الأول للقرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى. فلم يكن للمدرسة نفس الدور أو الوظيفة فى هذه المجتمعات، وبالتحديد لم يكن دور مدارس الإسكندرية مشابهًا لدور مدارس بغداد. فقد نشأت مدارس بغداد

---

١ ابن عبد الظاهر: الروضة البهية ٣٣؛ المقريزى: الخطط ١ : ٤٤٥.

٢ ابن الطوير: نزهة المقلتين ١١٠. وانظر كذلك عن دار الحكمة Halm, H., «Al-Hâkim's House of Knowledge and Scientific Institutions under the Fatimids», in *The Fatimids and their Traditions of Learning*, pp. 71-93.

٣ المدرسة جـ المدارس: ابتكار سنى وأحد مؤسسات الحضارة الإسلامية، وهى نتاج مراحل ثلاث تطورت خلالها المؤسسات التعليمية فى الإسلام: المسجد الجامع ثم مجموعة المسجد-الخان ثم المدرسة بمعنى الكلمة التى يمكن تعريفها بأنها المكان الذى يتخذ لتلقى علم واحد على أيدى شيوخ موقوفين عليه، وأن يكون ملحقًا به مكان لسكن المدرسين والطلاب مع وجود معاليم، أى مرتبات وجرايات دارة عليهم ولمن يقوم بالتدريس فيها. وبذلك تكون وظيفتها الرئيسية مستمدة من كونها أعدت لسكنى الطلاب والشيوخ والفقهاء لا من قاعات التدريس والمدرسين. (أيمن فؤاد سيد: «المدارس فى مصر قبل العصر الأيوبى» فى كتاب تاريخ المدارس فى مصر الإسلامية ٨٩، ٩٠، ٩٩؛ Pedersen, J.& Maqdisi, G., *EI*² art, *Madrasa* V, pp. 1119-1130).

فى مجتمع سنى بهدف تأييد المذهب الأشعرى الذى تبنّاه السّلاجقة ولمواجهه مذاهب الشيعة ، وللمساهمة فى إعداد رجال الدين والموظفين الرسميين ، ولتمكين الحكام بصفة خاصة من احتكار طبقة رجال الدين « العُلَماء » والتأثير عليهم [١]. أما فى مصر فقد كان لها دورٌ آخر هو تدعيم الإسلام ضد تَحَدِّى أو استفزاز أهل الذِّمَّة الذين تزايد نفوذهم فى عهد الوزراء الأرْمَن وخاصة وزارة بَهْرام الأرْمَنى [٢].

ويُحَدِّد وصول بدر الجمالى إلى قمة السلطة فى مصر سنة ٤٦٦هـ/ ١٠٧٣م بداية تزايد استخدام النَّصارى فى السياسةِ المصرية . فقد كان بدرًا أرْمينيًّا اعتنق الإسلام ، وكان جيشه يضم آلافًا من الأرْمَن المسيحيين وعائلاتهم ، وبعد وفاة بدر استمر ابنه وخليفته فى الوزارة الأَفْضَل شاهنشاه فى إحاطة نفسه بالجنود الأرْمَن وفى تشجيع هجرتهم كما أكثر من استخدام الأقْباط فى الوظائف العليا . واستمر الأمر حتى تولَّى الوزارة وزيرًا نصرانيًّا هو بَهْرام الأرْمَنى فتزايد نفوذ النَّصارى والأقباط الأمر الذى أثار رؤساء المسلمين وجعلهم يستنجدون بقائد سُنِّى لنجدتهم هو رضوان بن وَلَخْشى الذى بدأت مصر فى عهده تحوّلًا سُنيًّا بطيئًا قاد إلى انتصار السنة النهائى بعد ذلك بنحو ثلاثين عامًا .

المَدْرَسَــةُ الحافِظِيَّة

كانت الإسكندرية فى العصر الفاطمى ، هى والفُسْطاط ، مراكز المقاومة السنية فى مصر . وكان المذهب الشائع بين أهل الإسكندرية هو المذهب المالكى بسبب علاقتها الواسعة مع شمال أفريقيا والأندلس . وتَرَدَّد على الإسكندرية عددٌ كبيرٌ من علماء شمال أفريقيا والأندلس طوال هذه الفترة ، كان من بينهم الفقيه المالكى أبو بكر محمد بن الوليد الطُّرْطوشى الذى استقر فى الإسكندرية سنة ٤٩٠هـ/ ١٠٩٧م بعد أن أقام لبعض الوقت فى بغداد [٣].

---

[١] Leiser, G., «The Madrasa and the Islamization of the Middle East. The Case of Egypt», *JARCE* 22 (1985), p.29.

[٢] فيما سبق ص ١٩٢-١٩٥ .

[٣] الضبى : بغية الملتمس ١٢٥٠-١٢٩ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ٤: ٢٦٢ ، الصفدى : الوافى بالوفيات ٥ : ١٧٥ ؛ المقريزى : المقفى ٧ : ٤٠٩-٤١٦ ؛ المقرى : نفح الطيب (ط . بيروت) ٢ : ٨٥-٨٧ .

وتُحَدِّثنا المصادر عن «مدرسة» فى الإسكندرية كان يُدَرِّس بها الطُّرطوشى المذهب المالكى[١].

وفى سنة ٥٣٢هـ/١١٣٨م بنى الوزير رِضْوان بن وَلَخْشى أول مدرسة فى الإسكندرية لتدريس المذهب المالكى[٢]. وقَرَّر فى تدريسها الفقيه أبا الطاهر بن عَوْف، إسماعيل بن مكى بن إسماعيل بن عيسى[٣] واستصدر من الخليفة الحافظ لدين الله سِجِلًّا ببناء المدرسة نسبت فيه المدرسة إلى الخليفة حيث أطلق عليها «المدرسة الحافظية» كما عرفت فى المصادر أيضًا نسبة إلى مدرسها بـ «المدرسة العَوْفية».

وحَفِظَ لنا القلقشندى نَصَّ السِّجِلّ الخاص بإنشاء هذه المدرسة الذى جاء فيه أن تكون المدرسة مأوى للطلاب وسكنًا لهم، وأن يُطْلق لهم من ديوان الخليفة مؤنتهم وما يقوم بأوَدِهم ويعينهم على التفرغ للدراسة من عَيْش وغَلَّه. وحَدَّد السِّجِلُّ كذلك المواد التى تُدَرَّس بالمدرسة وهى «علوم الشريعة» وأن يتولَّى مقدم المدرسة، وهو الفقيه أبو الطاهر بن عَوْف، الإشراف التام على شئون الطلبة[٤].

مَدْرَسَةُ العادل بن السَّلار

وبعد أربع عشرة سنة من إنشاء «المدرسة الحافِظِية»، أى فى سنة ٥٤٦هـ/١١٥١م، أنشأ وزيرٌ سُنِّى آخر هو العادل بن السَّلار مدرسةً ثانية فى الإسكندرية، ولكن فى هذه المرة كانت لتدريس المذهب الشافعى، وقُرِّر فى تدريسها الحافظ الشهير أبو الطاهر أحمد بن محمد السِّلَفى[٥]. ويُعَدُّ ذلك انتصارًا للشافعيين كما كان إنشاء المدرسة

---

[١] الضبى: بغية الملتمس ١٢٧.

[٢] ابن ميسر: أخبار مصر ١٢٠، القلشندى: صبح ١٠: ٤٥٨-٥٩؛ المقريزى: اتعاظ الحنفا ٣: ١٦٧.

[٣] انظر ترجمته عند، ابن فرحون: الديباج المذهب ١: ٢٩٢-٢٩٥، الصفدى: الوافى بالوفيات ٩: ٢٢٨؛ المقريزى المقفى ٢: ١٨٣-١٨٤، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٦: ١٠٠.

[٤] القلقشندى: صبح ١٠: ٤٥٨-٤٥٩؛ جمال الدين الشيال: «أول أستاذ لأول مدرسة فى الإسكندرية الإسلامية»، مجلة كلية الآداب-جامعة الأسكندرية ١١ (١٩٥٧)، ٣-٢٩.

[٥] ابن خلكان وفيات الأعيان ١: ١٠٥، ٣: ٤١٧؛ السبكى: طبقات الشافعية الكبرى ٦: ٣٧؛ الصفدى: الوافى بالوفيات ٧: ٣٥٤؛ المقريزى: اتعاظ الحنفا ٣: ١٩٨ والمقفى الكبير ١: ٧٠٨.

الحافظية انتصارًا للمالكيين . ويذكر السُّبكى أن ابن السَّلار بنى هذه المدرسة وهو والٍ على الإسكندرية قبل أن يلى الوزارة[١]، بينما حَدَّد ابن خَلِّكان تاريخ بنائها سنة ٥٤٦هـ/ ١١٥٠م[٢]، أى فى الوقت الذى تولَّى فيه ابن السَّلار الوزارة ، إلَّا أنه عاد فى موضع آخر ليؤكِّد أن ابن السَّلار بناها وهو مازال واليًا على الإسكندرية[٣] متابعًا فى ذلك نَصّ السُّبكى .

لقد كان أغلبُ الباحثين يرون أن المدرسة جاءت إلى مصر مع الأيوبيين عن طريق الشام . وواضح أن هذا الرأى غير صحيح فقد رأينا كيف عُرِفَت المدرسة فى الإسكندرية مع الفقيه الطُّرطوشى لتدريس المالكية فى أواخر القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى . ثم كيف أسِّسَت أول مدرسة حقيقية بعد ذلك سنة ٥٣٢هـ/ ١١٣٨م ، وهى التى أنشأها الوزير رِضْوان بن وَلَخْشى فى الإسكندرية ، ثم تبعتها سريعًا المدرسة التى أنشأها الوزير ابن السَّلار .

وعندما ترجم ابن خَلِّكان للحافظ السِّلَفى ذكر وجود المدرسة التى أنشأها ابن السَّلار[٤] والتى كان السِّلَفى مدرسها الوحيد عشرين عامًا قبل أن يصبح صلاح الدين وزيرًا للفاطميين . ولكنه عندما ترجم لصلاح الدين ذكر أنه لم تكن فى مصر مدارس قبله[٥]، وقد أخذ بهذا الرأى أيضًا المقريزى[٦]، وهى ملاحظة غير صحيحة كما رأينا . ولكننا نستطيع القول أن المدرسة كمؤسسة سنية رسمية لم تعرف على مستوى واسع فى مصر إلَّا مع تولِّى صلاح الدين الوزارة للخليفة العاضد آخر خلفاء الفاطميين وأنشئت أول هذه المدارس فى مدينة الفسطاط سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧١م[٧].

---

[١] السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ٦ : ٣٧ .

[٢] ابن خلكان : وفيات الأعيان ١ : ١٠٥ .

[٣] نفسه ٣ : ٤١٧ .

[٤] نفسه ١ : ١٠٥ .

[٥] نفسه ٧ : ٢٠٦ وانظر أبا المحاسن : النجوم الزاهرة ٦ : ٥٤ .

[٦] المقريزى : اتعاظ الحنفا ٣ : ٣١٩ والخطط ٢ : ٣٦٣ .

[٧] انظر فيما سبق ص ٣٠٤-٣٠٥ .

وللأسف الشديد فقد زالت كل آثار هذه المدارس الأولى ، سواء التى أقيمت فى الإسكندرية أو فى الفُسْطاط . وكل ما نعرفه عنها أنها كانت مخصَّصة لتدريس مذهب واحد ، فى حين أن أوَّل مدرسة جُمِعَ فيها تدريس المذاهب الفقهية الأربعة هى المدرسة المستنصرية فى بغداد سنة ٦٣١هـ/ ١٢٣٤م . أما تخطيط هذه المدارس فإننا نجهل عنه كل شيء .

خِـــزانَةُ الكُتُبِ الفاطمية

ويدفعنا الحديث عن « مجالس الحِكْمَة » و « دار الحِكْمَة (العِلْم) » وبدايات المدارس إلى الإشارة إلى « خزانة الكتب الفاطمية » التى تُعَدُّ أهم المؤسَّسات الثقافية الفاطمية ، وقد وَصَفَها ابن أبى طَىّ بأنها «من عجائب الدنيا ويقال إنه لم يكن فى جميع بلاد الإسلام دارُ كُتُب أعْظَم من التى كانت بالقاهرة فى القصر ... ويقال إنها كانت تشتمل على ألف وستمائة ألف كتاب ، وكان فيها من الخطوط المَنْسوبة أشياء كثيرة وإنّ من عجائبها أنه كان فيها ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطَّبَرى »[1] .

ويُحَدِّثنا المُسَبِّحى فى حوادث سنة ٣٨٣هـ/ ٩٩٣م عن بعض ما كانت تَذْخَر به هذه الخِزانَةُ يقول :

« وذُكِرَ عند العزيز بالله « كتاب العَيْن » للخليل بن أحمد ، فأمر خُزّان دفاتره فأخرجوا من خزانته نيفًا وثلاثين نسخة من « كتاب العَيْن » منها نسخة بخط الخليل ابن أحمد . وحَمَلَ إليه رجلٌ نسخة من كتاب « تاريخ الطَّبرى » اشتراها بمائة دينار ،

---

[1] أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين ١ : ٥٠٧ ؛ الصفدى : الوافى بالوفيات ١٧ : ٦٨٨؛ المقريزى : مسودة الخطط ١٣٩- ١٤٠؛ وراجع كذلك Khoury, R.G., «Une description fantastique des fonds de la Bibliothèque "*Hizânat al-Kutub*" au Caire», *Proceeding of the Ninth Congress of the Union Européenne des Arabisants et Islamisans,* Leiden 1981, pp. 123-140 .

فأمر العزيز الخُزّان فأخرجوا من الخزانة ما ينيف عن عشرين نسخة من «تاريخ الطبرى» منها نسخة بخطه. وذُكرَ عنده كتاب «الجَمْهَرَة» لابن دُرَيْد فأخرج من الخزانة مائة نسخة منها»[1].

وكان صاحبُ خِزانَة كُتُب العزيز بالقاهرة والمُتَوَلّى لعرضها هو أبو عبد الله محمد بن إسـحاق الشَّابُشْتى صاحب كتاب «الدِّيارات» المتوفى سنة ٣٩٠هـ/ ١٠٠٠م[2].

ويُقَدِّم لنا صاحبُ كتاب «الذَّخائر والتُّحَف» الذى كان بالقاهرة فى زمن الشِّدَّة المستنصرية وَصْفًا لمكتبة القصر، يقول إن:

«عدَّة الخزائن التى برَسْم الكتب فى سائر العلوم بالقصر أربعون خزانة، خزانة من جملتها ثمانية عشر ألف كتاب من العلوم القديمة وأن الموجود فيها من جملة الكتب المخرجة فى شدة المستنصر ألفان وأربعمائة خَتْمة قرآن فى رَبْعات بخطوط منسوبة زائدة الحسن محلاة بذهب وفضة وغيرهما، وأن جميع ذلك كله ذَهَب فيما أخذه الأتراك فى واجباتهم لم يبق فى خزائن القصر البرّانية منه شىء بالجملة دون خزائن القصر الداخلة التى لا يُتَوَصل إليها. ووجدت صناديق مملوءة أقلامًا مبرية من براية ابن مُقْلَة وابن البَوّاب وغيرهما»[3].

كما يُقَدِّم لنا ابن الطُّوَيْر، الذى عاصر نهاية الدولة الفاطمية فى مصر، وَصْفًا مثيرًا للإعجاب لتنظيم هذه الخزانة يقول:

«وتحتوى هذه الخزانة على عدَّة رفوف فى دور ذلك المجلس العظيم [يعنى أحد مجالس المارستان العتيق] والرفوف مُقَطَّعَة بحواجز وعلى كل حاجز بابٌ متقن

---

[1] المسبحى: نصوص ضائعة ١٧ ؛ المقريزى: الخطط ١ : ٤٠٨ ومسودة المواعظ والاعتبار ١٤٠-١٤١.

[2] ياقوت: معجم الأدباء ١٨ : ١٦ ؛ الصفدى: الوافى بالوفيات ٢ : ١٩٤ ، ٢٢ : ١٧٤.

[3] الرشيد بن الزبير: الذخائر والتحف ٢٦٢ ؛ المقريزى: الخطط ١ : ٤٠٨ ومسودة المواعظ والاعتبار ١٤٠ واتعاظ الحنفا ٢ : ٢٩٤.

بمفصلات وقفل ، وفيها من أصناف الكتب ما يزيد على مائتى ألف كتاب من المجلدات ويسير من المجردات ؛ فمنها فى الفقه على سائر المذاهب والنحو واللغة وكتب الحديث النبوى والتواريخ وسير الملوك والنجامة والروحانيات والكيمياء من كل صنف النسخة والعشرة ، ومنها النواقص التى ما تُمِّمت ، كل ذلك تترجمه ورقة ملصقة على باب كل خزانة وما فيها . والمصاحف الكريمة فى كل مكان فيها فوقها ، وفيها من الدروج بخط ابن مُقْلَة ومن يليه ومن يماثله كابن البَوّاب وغيره ، وهى التى تولّى بيعها ابن صَوْرَة فى أيام الملك الناصر صلاح الدين » [1].

وكان الخلفاءُ الفاطميون يكثرون من زيارة خِزانَة الكُتُب ، وعلى الأخص فى القرن السادس الهجرى ، فكان الخليفة يجىء إليها راكبًا ثم يترجّل ويتَّخِذ مجلسه فوق دكة منصوبة ، ويَمْثُل بين يديه أمين الخِزانَة ويأتيه بمصاحف مكتوبة بأقلام مشاهير الخطاطين ، وغير ذلك مما يَقْترحه من الكتب ، وكان الخليفة يأخذ منها ما يروقه للمطالعة ثم يعيده مرة أخرى [2].

وقد شارك الوزراءُ الفاطميون كذلك الخلفاء فى اهتمامهم بتكوين المكتبات ، فيذكر ابن خَلّكان أن يعقوب بن كِلّس وزير الخليفة الفاطمى الثانى العزيز بالله :

« كان فى بيته قومٌ يكتبون القرآن الكريم وآخرون يكتبون كتب الحديث والفقه والأدب وحتى الطب ويعارضونه ويُشَكِّلون المصاحف وينقطونها » [3].

كذلك كان للوزير القوى الأَفْضَل شاهنشاه بن بدر الجمالى خِزانَة كتب كبيرة وَصَلَ إلينا منها نسخة من كتاب « التَّعْليقات والنَّوادِر » لأبى على الهَجَرى سأشير إليها بالتفصيل بعد ذلك .

---

[1] ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٢٧ ؛ المقريزى : مسودة المواعظ والاعتبار ١٣٨-١٣٩ والخطط ١ : ٤٠٩ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ١ : ٤٦٧.

[2] نفسه : ١٢٦- ١٢٧.

[3] ابن خلكان : وفيات الأعيان ٧ : ٢٩ .

وقد تَعَرَّضَت خِزانَة كُتُب القصرِ الفاطمي وخِزانَة كُتُب دار العِلْم لأزمات كثيرة أضاعت الكثير من ذخائرها إلى أن قضى عليها تمامًا فى أعقاب سقوط الدولة الفاطمية، فيذكر صاحب كتاب «الذَّخائر والتحف» أنه كان بمصر فى العشر الأول من المحرم سنة ٤٦١هـ/١٠٦٨م، وأنه رأى

«فيها خمسة وعشرين جَمَلا مُوَقَّرَةً كُتُبًا محمولة إلى دار الوزير أبى الفرج محمد بن جعفر المغربى، فسألت عنها فعرفت أن الوزير أخذها من خزائن القصر هو والخطير بن المُوَفَّق فى الدين بإيجاب وجبت لهما عما يستحقانه وغُلمانهما من ديوان الحلبيين، وأن حصة الوزير أبى الفرج قُوِّمَت عليه بخمسة آلاف دينار وكانت تساوى أكثر من مائة ألف دينار نُهِبَت بأجمعها من داره يوم انهزم ناصر الدولة بن حَمْدان من مصر فى صفر من السنة المذكورة»[١].

كذلك فقد استولى الجُنْد والأمراء على نفائس ما كان فى خِزانَة الكُتُب الفاطمية وخِزانَة دار العِلْم، فتفرَّقت أكثر محتوياتها وكلها كتب مفردة مجلدةٌ تجليدًا فاخرًا. وصارت بعض هذه الكتب إلى عماد الدولة بن المُحْتَرِق بالإسكندرية، ثم انتقلت بعد مقتله فى ظروف غير معلومة لنا إلى المغرب، بالإضافة إلى ما استولت عليه قبيلة لَواتَة وحملته أيضًا إلى الإسكندرية فى سنة ٤٦١هـ/١٠٦٨م وما بعدها «من الكتب الجليلة المقدار المعدومة المثل فى سائر الأمصار صِحَّةً وحُسْن خط وتجليد وغرابة» وهى الكتب التى أخذ جلودها عبيدهم وإماؤهم «برَسْم عمل ما يلبسونه فى أرجلهم» ثم أحرقوا ورقها بحُجّة أن فيه كلام المشارقة الذى يخالف مذهبهم، وذلك سوى ما غرق وتلف وحُمِلَ إلى سائر الأمصار، وما بقى منها دون حرق سفت عليه الرياح التراب فصار تلالًا تعرف بتلال الكتب[٢].

---

[١] المقريزى: الخطط ١: ٤٠٨-٤٠٩ واتعاظ الحنفا ٢: ٢٩٤-٢٩٥.

[٢] المقريزى: مسودة المواعظ والاعتبار ١٤٠ والخطط ١: ٤٠٩.

هذا الدّمار أصاب فقط خزائن القصر البَرّانية التى لم يبق منها شىءٌ من هذه الكتب أو غيرها من كنوز خزائن الفاطميين الأخرى ؛ بينما احتفظت خزائن القصر الداخلة التى لا يُتَوَصَّل إليها برصيدها من الكتب الذى أخذ يضيف إليه ويُنَمّيه خلفاء الفاطميين ووزراؤهم والذى ظل باقيًا حتى استيلاء صلاح الدين على مقاليد السلطة فى مصر سنة ٥٦٧هـ/ ١٠٧٢م ، فأمر ببيعها وخَصَّصَ لذلك يومين فى الأسبوع واستمر ذلك لمدة عشر سنوات وتولّى بيعها ابن صَوْرَة دَلّال الكتب .

ورغم ما يبدو على الأرقام التى ذكرت عن حجم هذه المكتبة من مبالغة إلا أنه يَدُلُّ على عِظَم حجم هذه المكتبة وما احتوت عليه من المجلدات . وقد عَلَّق المقريزى على الرقم الذى أورده ابن أبى طَىّ بأنه ليس ببعيد حيث ذكر غير واحد من المؤرّخين أن القاضى الفاضل وَقَفَ فى مدرسته التى بدَرْب مُلُوخيا مائة ألف مجلدة أخذها من جملة خزائن الكتب التى كانت بالقصر[1] .

ويصف ابن أبى طَىّ الطريقَة التى حَصَل بها القاضى الفاضل على هذه الكتب بقوله :

« وحَصَل للقاضى الفاضل قَدْرٌ منها كبير حيث شُغفَ بحبها وذلك أنه دَخَل إليها واعتبرها ، فكل كتاب صَلُح له قَطَعَ جلده ورماه فى بركة كانت هناك ، فلما فَرَغَ الناسُ من شراء الكتب اشترى تلك الكتب التى ألقاها فى البركة على أنها مخرومات ثم جمعها بعد ذلك ، ومنها حَصَّلَ ما حَصَّلَ من الكتب ، كذا أخبرنى جماعةٌ من المصريين منهم الأمير شمس الخلافة موسى بن محمد »[2] .

---

[1] المقريزى : مسودة المواعظ والاعتبار ١٣٩-١٤٠ والخطط ١: ٤٠٩ .

[2] أبو شامة : الروضتين ١: ٥٠٧ ؛ الصفدى : الوافى ١٧ : ٦٨٨.

فقد كان للقاضى الفاضل هوىً فى تحصيل الكتب ، كما يقول الصَّفَدى ، وكان عنده زهاء مائتى ألف كتاب من كل كتاب نُسَخ [١]. وكان يقتنى الكتب من كل فن ويجتلبها من كل جهة وله نُسّاخٌ لا يفترون ومجلدون لا يسأمون حتى بلغ عدد كتبه قبل وفاته بعشرين سنة مائة ألف كتاب وأربعة عشر ألف كتاب [٢]. وكان لخزانة كتب المدرسة الفاضلية فهرسٌ لكتبها رآه القِفْطى واطَّلَع عليه [٣].

وقد ذهبت مكتبة القاضى الفاضل الموجودة فى مدرسته هى الأخرى وتَفَرَّقَت فى نهاية القرن السابع الهجرى/الثالث عشر الميلادى ، يقول المقريزى فى سبب ذهابها :

« وكان أصلُ ذهابها أن الطلبة التى كانت بها لما وَقَعَ الغلاء بمصر فى سنة أربع وتسعين وستمائة - والسلطان يومئذ الملك العادل كَتْبُغا المنصورى - مَسَّهُم الضُرّ فصاروا يبيعون كل مجلد برغيف خبز حتى ذهب معظم ما كان فيها من الكتب ، ثم تداولت أيدى الفقهاء عليها بالعارية فَتَفَرَّقَت . وبها الآن مصحف قرآن كبير القدر جدًّا مكتوب بالخط الأول الذى يعرف بالكوفى تسميه الناس مُصْحَف عثمان بن عَفّان ، ويقال إن القاضى الفاضل اشتراه بنيف وثلاثين ألف دينار على أنه مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وهو فى خزانة مفردة بجانب المحراب من غربيه وعليه مهابة وجلالة » [٤].

ويذكر العماد الكاتب الأصفهانى ، معاصر السلطان صلاح الدين ، الطريقة التى بيعت بها كتب خِزانَة الفاطميين فيقول :

« بأن بيع الكتب فى القصر كان له يومان فى كل أسبوع ، وكانت الكتب تباع بأرخص الأثمان . وبعد أن كانت خزائنها فى القصر مرتبةً مفهرسةً قيل للأمير بهاء

---

[١] الصفدى : الوافى ١٨: ٣٣٦.
[٢] ابن العماد : شذرات الذهب ٤: ٣٢٥.
[٣] القفطى : إنباه الرواه ٣: ١٨٧.
[٤] المقريزى : الخطط ٢: ٣٦٦.

الدين قراقوش متولى القصر وصاحب الأمر والنهى فيه : إن هذه الكتب قد عاث فيها العث ولابد من تهويتها وإخراجها من الرفوف إلى أرض الخزانة ، وكان هذا الوزير « تركيًا لا خبرة له بالكتب ولا دربه له بأسفار الأدب » بينما كان هذا الطلب حيلةً مدبرةً من تجار الكتب يريدون بها تفريق المؤلفات وتوزيع أجزائها وخلط أنواعها ومزج بعضها ببعض . فتم ذلك واختلطت كتب الأدب بكتب النجوم ، وكتب الشرع بكتب المنطق ، وكتب الطب بكتب الهندسة ، والتاريخ بالتفسير ، والكتب المجهولة بالكتب المشهورة . وكان فى الخزانة مؤلفات يشتمل كل كتاب منها على خمسين أو ستين جزءًا مجلدًا إذا فقد منها جزء لا يخلف أبدًا ، ففرّق الدلالون هذه الأجزاء لتقل قيمة الكتب وتباع بأبخس الأثمان ، بينما كانوا يعرفون مواضع أجزائها ويستطيعون جمع شملها بعد شرائها وكان بعضهم يتشاركون فى إتمام ذلك ثم يبيعون الكتب بعد ذلك بأضعاف الثمن الذى دفعوه فيها »[1].

وأضاف العماد الأصفهانى أنه لما رأى الأمر كذلك

« حضر إلى القصر ، واشترى كما اشترى الدلّالون ، ولما عرف السلطان ما ابتاعه ، وكان بمئين ، أنعم عليه به ، وأبرأ ذِمَّته من ذهبها ، ثم وَهَبَ له أيضًا من خزانة القصر ما عَيَّنَ عينه من كتبها .

ودخل عليه يومًا وبين يديه مجلدات كثيرة انتقيت له من القصر ، وهو ينظر فى بعضها ، ويبسط يده لقبضها ، وقال : كنت طلبت كتبًا عَيَّنتها ، فهل فى هذه منها شىء ؟ فقال : كلها ، وما أستغنى عنها ، فأخرجها من عنده بحمّال »[2].

لاشك أن مكتبةً بضخامة خِزانَة كُتُب الفاطميين بَذَلَ الفاطميون فى سبيل تكوينها الكثير واشتروا لها النُّسَخ النادرة من أرجاء العالم الإسلامى ، بالإضافة إلى ما كَلَّفوا

---

[1] أبو شامة : الروضتين ١: ٦٨٦.

[2] نفسه : ١ : ٦٨٧.

النُّسّاخ والوَرّاقين بكتابته لهم ، هم ووزراؤهم ، كان لها مخابر تهتم بالخطوات المختلفة لصناعة الكتاب (الورق والحبر والتجليد ، وكذلك الصيانة والترميم ، بالإضافة إلى عدد وفير من النَّسّاخين والوَرّاقين) خاصةً وأن المؤرِّخين يذكرون أن أغلب نُسَخ هذه الخزانة كانت ذات تجليد متميز .

ونحن نعرف أن قِبْط مصر حَذَقوا صناعة تجليد الكتب فى العصر المسيحى ، وتَعَلَّم المسلمون عنهم أساليب التجليد فى أعقاب فتح مصر . وقد تَعَلَّم الرحالة المَقْدسى البَشّارى الذى زار مصر فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى فَنّ تجليد الكتب على أقباط مصر . وكان من بين ألقابه « وَرّاق ومُجَلِّد » كما جَلَّد المصاحف بالكرى فى عَدَن [1] . ورغم أنه قد وصل إلينا بعض جلود الكتب القبطية فإنه لم يصل إلينا أىّ تجليد لكتاب عربى قديم . أما أغلب جلود المصاحف والكتب الإسلامية المحفوظة فى مكتبات ومتاحف العالم الآن فترجع إلى العصر المملوكى فى مصر والشام وابتداء من القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى .

وتشير المصادر إلى أن الفاطميين اعتنوا كثيرًا فى إفريقية ومصر ، بالمصاحف المكتوبة بالذهب والفضة . غير أنه للأسف الشديد لم يصل إلينا أى مصحف يرجع إلى العصر الفاطمى سوى قطعة من مصحف بالخط الكوفى مكتوب بالذهب على رق أكحل (أزرق) مصبوغ بمادة النيلة ؛ كان فى الأساس محفوظًا فى مكتبة جامع القيروان وقد وُصِفَ فى السِّجِلّ القديم للمكتبة على النحو التالى :

« (مصحف) بخط كوفى على الرق ، مسطرة خمسة ، فى أول كل جزء منها ... فى بيت عود ربعة محلاة بالنحاس المموه بالذهب .. فى سبعة أجزاء بالجرم الكبير مكتوب بالذهب بخط كوفى فى رق أكحل .. السور وعدد الآى والأحزاب

---

[1] المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ٤٤، ١٠٠.

بالفضة ، مغشاة بالجلد المنقوش فوق اللوح ، مبطنة بالحرير »[1].

ويوجد من هذا المصحف اليوم ، بالإضافة إلى ما يوجد منه بجامع القيروان ، أوراقٌ موزَّعةٌ فى مكتبات ومتاحف العالم والمجموعات الخاصة . ويرى الباحثون الذين درسوا هذه الأوراق أن هذه الطريقة فى الكتابة هى تقليد لخطاب ملكى بيزنطى مكتوب بالذهب على رَقٍّ مصبوغ باللون الأُرْجُوانى .

فقد وَصَلَت سفارةٌ بيزنطيةٌ إلى الفاطميين فى شمال إفريقية عام ٣٤٠هـ/ ٩٥٠م تطلب من المعز لدين الله « الهدنة مؤبدة على ما أجراه من الخراج والجزية على أهل قَلَوْرِيَة »[2]. ومعروف أن البيزنطيين أرسلوا كتابًا فى زمن الإمبراطور رومانوس موجَّهًا إلى الخليفة العباسى الراضى بالله « كانت الكتابة فيه الرومية بالذهب والترجمة العربية بالفضة » على أرضية أُرْجُوانية[3]، كما تَلَقَّى الناصر الأموى خليفة قُرْطُبَة رسالة من الإمبراطور قسطنطين ليكابينوس « فى رَقٍّ مصبوغ سمائى مكتوب بالذهب »[4]، ومن المحتمل أن يكونوا أرسلوا مثله إلى الفاطميين .

ونحن نعرف أن الفاطميين كان عندهم نُسَخٌ أخرى من المصحف مكتوبة بالذهب على رقوق مصبوغة باللون الأزرق . ففى سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م أرسل الحاكم بأمر الله من القصر إلى الجامع العتيق بالفسطاط ١٢٩٨ مصحفًا ما بين ختمات ورَبْعات فيها ما هو مكتوب كله بالذهب[5]. وأُخْرِج من خزانة كتب القصر الفاطمى فى زمن الشدة المستنصرية ٢٤٠٠ نسخة قرآن فى رَبْعات مُحَلَّاة بالذهب والفضة[6]، كما وجد بها أيضًا

---

[1] إبراهيم شبوح : « سجل قديم لمكتبة جامع القيروان » ، مجلة معهد المخطوطات العربية ٢ (١٩٥٦) ، ٣٣٥ .

[2] القاضى النعمان : مجالس والمسايرات ، تونس ١٩٧٧ ، ٣٦٧ ؛ عماد الدين إدريس : تاريخ الخلافة الفاطمية بالمغرب ٥٩٠- ٥٩١.

[3] الرشيد بن الزبير : الذخائر والتحف ٦٠-٦١ .

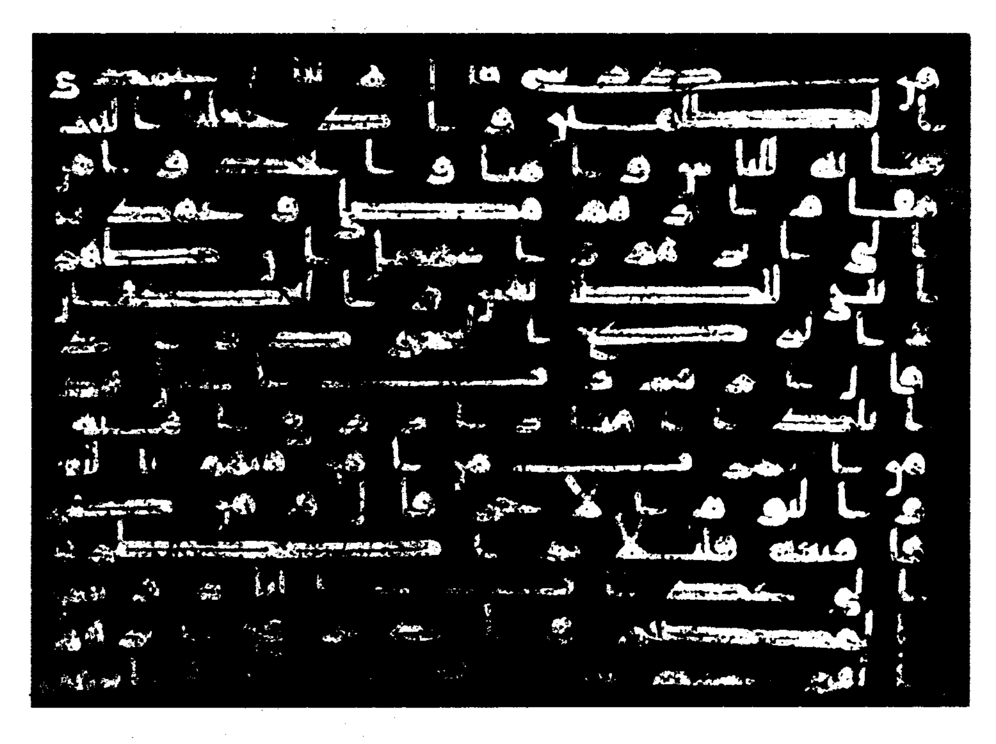
[4] ابن عذرى : البيان المغرب ٢: ٢١٣- ٢١٥.

[5] المقريزى : الخطط ٢: ٢٥٠ ، اتعاظ الحنفا ٢: ٩٦.

[6] المقريزى : اتعاظ الحنفا ٢: ٩٦.

خَتْمات مكتوبة بالذهب المُكَحَّل باللازورد[١].

وعلى ذلك فإن المصحف الأزرق الذى وجد بالقيروان ليس مصحفًا منفردًا فى العصر الفاطمي ولكنه المصحف الوحيد الذى وَصَلَ إلينا من بين هذا العدد الضخم من المصاحف التى كتبت فى العصر الفاطمى[٢] [لوحة رقم ٧].



لوحة ٧ – ورقة من المصحف الأزرق الفاطمى الذى وجد بالقيروان (مجموعة ناصر خليلى)

أما الكتب التى وَصَلَت إلينا وتأكّد لنا أنها كانت من بين كتب خِزَانَة كُتُب الفاطميين فثلاث مخطوطات: الأولى النُّسْخَة الوحيدة من كتاب «التَّعْليقات والنَّوادر» لأبى على الهَجَرى التى كان يوجد قسمٌ منها بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٤٢ لغة

١ الرشيد بن الزبير: الذخائر والتحف ٢٥٥.

٢ راجع لتفصيلات أكثر مقال Bloom, J.M., «The Blue Koran: an early fatimid Kufic manuscript from the Maghrib», dans *les Manuscrits du Moyen Orient*, pp. 95-99.

وبقيتها فى مكتبة الجمعية الأسيوية للبنغال فى كلكتا بالهند. وترجع النسخة إلى القرن الرابع أو الخامس الهجرى ثم أضيفت فى نهاية القرن الخامس الهجرى :

« للخزانة السيدية الأجلية الأفضلية الجيوشية السيفية الناصرية الكافلية الهادية عمرها الله بدائم العز ».

وهذه ألْقاب السيد الأَجَلّ الأَفْضَل أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الإمام كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين شاهنشاه بن بدر الجمالى الذى تولَّى الوزارة فى الفترة بين سنى ٤٨٧- ٥١٥هـ/ ١٠٩٤- ١١٢١م وكانت له خِزَانة كتب ضخمة بها خمسمائة ألف مجلد من الكتب [1]، ثم صارت هذه النسخة بعد ذلك

« للخزانة السعيدة الفائزية عمرها الله بدائم العز والبقاء »

أى إلى خِزانَة الخليفة الفاطمى الفائز بنصر الله (٥٤٩- ٥٥٥هـ/ ١١٥٤- ١١٦٠م). [لوحة رقم ٨].

وقد بقيت القطعتان فى القاهرة بعد خروجهما من خِزانَة كُتُب الفاطميين، فقد اطَّلَع عليهما عالمٌ جليلٌ هو أحمد بن عبد القادر بن أحمد بن مَكْتوم القَيْسى المتوفى سنة ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م وكتب فى طُرَّة كل واحدة منهما ما نَصّه :



لوحة ٨ - الورقة الأولى من كتاب «التعليقات والنوادر» لأبى على الهَجَرى (دار الكتب المصرية ٣٤٢ لغة).

[1] ابن ميسر : أخبار مصر : ٨٠ ؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا ٣: ٧٠ .

«طالعه ونَقَلَ منه

فوائد الفقير إلى الله تعالى

أحمد بن عبد القادر بن

أحمد بن مَكْتوم بن أحمد

القيسى».

وبقى قسم من النسخة فى القاهرة وضُمَّ إلى رصيد دار الكتب المصرية فى نهاية القرن التاسع عشر وذكر فى فهرست اللغة تحت رقم ٣٤٢ لغة، بينما انتقل بقيتها إلى الهند فى تاريخ لا نعلمه. وللأسف فإن القطعة الموجودة بدار الكتب قد حَلَّ محلها الآن نسخة مصورة على الورق عن نسخة الهند، والأثر الوحيد لها الآن هو صورة فوتوستاتية أخذت لها سنة ١٩٥٤ وأضيفت إلى رصيد الدار برقم ٦٥٥٣هـ.

لوحة ٩ - الورقة الأولى من كتاب حَذْف من نَسَب قريش عن مؤرج بن عمرو السدوسى بخط أبى إسحاق النجيرمى وعليها ما يفيد وجودها فى خزانة القصر الفاطمى (الخزانة الظافرية). (الخزانة العامة بالرباط)

[وعن هذه النسخة نشر الشيخ حمد الجاسر الكتاب وصدر عن دار اليمامة بالرياض سنة ١٩٩٢].

والكتاب الثانى هو النُّسْخَة الوحيدة أيضًا من كتاب «حَذْف من نَسَب قُرَيْش» عن مُؤَرِّج بن عمرو السَّدوسى، وهذه النسخة كتبها بخطه أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله ابن محمد بن حبيش النَّجَيْرَمى البغدادى الكاتب النحوى المتوفى سنة ٣٤٣هـ/ ٩٥٤م بالخط الكوفى المشرقى أو الخط الشبيه بالكوفى الذى ظهر فى القرن الرابع الهجرى

كتطوُّر للخط الكوفى موازيًا لحركة إصلاح الكتابة التى بدأها ابن مُقْلَة وأتمَّها ابن البَوَّاب فى نهاية القرن الرابع [1]، فقد جاء بآخرها :

« تم الكتاب

والحمد لله حق حمده على كل حال وصلى الله

على رسوله محمد وعلى أهل بيته الأخيار

وسلم على عباده المطلفين ومستغفرًا لله

وكتب إبراهيم بن عبد الله بن محمد النجيرمى الوراق »

وقرأ هذه النسخة فى بغداد أبو الحسن محمد بن العباس بن أحمد بن الفُرات سنة ٣٦٥هـ على الشيخ أبى القاسم عمر بن محمد بن سيف فى منزل الشيخ بالجانب الغربى من بغداد ، فقد جاء فى غاشية الكتاب بحذاء قوله : « تم الكتاب » :

« بلغت بقراءة أبى الحسن محمد بن العباس بن الفرات أيده الله على الشيخ أبى القاسم عمر بن محمد بن سيف أيده الله فى شهر رمضان من سنة خمس وستين وثلثمائة وسمع المسمون فى أوله » .

وهؤلاء المسمون أُثْبِتَت أسماؤهم فى إجازة وردت على هامش الصفحة الأولى من الكتاب . وظَلَّت هذه النسخة تُتَداول بين أيدى العلماء حتى انتقلت إلى مصر إذ نجد على صفحة عنوانها مناولة للكتاب مؤرخة فى سنة ٤٢٥هـ كتبها

« الحسين بن محمد الفراء البغدادى بمصر فى شهر ربيع الأول سنة خمس وعشرين وأربعمائة حامدا لله ومصليا على نبيه محمد وآله »

ثم دَخَلَت النُّسْخَة بعد ذلك فى منتصف القرن السادس الهجرى بين كتب خزانة القصر الفاطمى فقد جاء على ظهرها :

« للخزانة السعيدة الظافرية عمرها الله بدائم العز والبقاء »

---

[1] راجع ، أيمن فؤاد سيد : الكتاب العربى المخطوط وعلم المخطوطات ، القاهرة-الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٧ ، ١٦٩-١٧٠ ، ٣٠٥-٣٠٦.

أى خِزانَة الخليفة الفاطمى الظَّافر بأعداء الله (٥٤٤-٥٤٠هـ/ ١١٥٠-١١٥٤م). وقد انتقلت هذه النسخة، بعد خروجها من خِزانَة كُتُب الفاطميين وتَشَتُّت خِزانَة كُتُب المدرسة الفاضلية، فى تاريخ نجهله إلى المغرب الأقصى حيث وُقِفَت على زاوية الناصرى بتامَكْرود فى جنوب المغرب وظلَّت حبيسةً بها إلى أن نقلها عالم المخطوطات المغربى السيد إبراهيم الكتانى إلى الخزانَة العامة بالرباط سنة ١٩٥٨.

[لوحة رقم ٩].

[وعن هذه النسخة نشر الدكتور صلاح الدين المنجد الكتاب فى القاهرة وصدر عن دار العروبة سنة ١٩٦٠].

أما المخطوطة الثالثة فهى المجلد العاشر من كتاب «الأغانى» لأبى الفرج على بن الحسين الأصفهانى الكاتب المتوفى سنة ٣٥٦هـ/ ٩٦٧م يحوى الجزأين التاسع عشر والعشرين من الكتاب من نسخة ترجع إلى القرن الخامس الهجرى كُتِبَ على صفحة غلافها:

«للخزانة السعيدة الظافرية عَمّرها الله بدائم العز والبقاء»

وتوجد هذه المخطوطة اليوم فى دار الكتب المصرية وهى محفوظة بها تحت رقم ٤٢٧ أدب أحضرت إليها كما هو مثبت على غلافها:

«من جامع السلطان حسن وأضيفت فى ٥ يولية سنة ١٨٨١»

وجاء على آخر صفحة فى المجلد وَقْفِيَّةَ النُّسْخَة على مدرسة وجامع السلطان حسن بالقاهرة الذى أنشأه السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون أسفل قلعة الجبل فى ميدان الرُّمَيْلَة بين سنى ٧٥٨- ٧٦٢هـ/ ١٣٥٦- ١٣٦٠م، وجَعَلَ بإيوان المدرسة البحرى خِزانَة «لخَزْن ما عساه أن يكون بالمكان المذكور من المصاحف والرَّبْعات الشريفة والكتب» كان الراتب الشهرى لخازنها مائة درهم نُقْرَة. ونَصُّ الوَقْفِيَّة هو:

«هذا ما أوقف العبد الفقير إلى الله تعالى أبو المحاسن الحسن بن محمد بن قلاوون عفا الله عنه ورحمه، وهو من كتاب «الأغانى» لله تعالى على طلبة العلم الشريف ينتفعون به انتفاع أمثالهم وَقْفًا صحيحًا شرعيًا لا يباع ولا يُوهَب ولا يُوَرَّث ولا يكون إلا ملكًا لله إلى أبد الآبدين وشرط النظر فى ذلك الإمام محمد بن النقاش وشرط على مستعيره برهن مقبوض أن لا يغيب به أكثر من ثلاثة أشهر ويكون مقره بالجامع المنسوب للعمارة ﴿فمن بَدَّلَه بَعْدما سمعه فإنما إثْمُه على الذين يُبَدِّلونه﴾ وكُتِبَ فى شهور سنة خمس وخمسين وسبعمائة وكفى بالله شهيدًا».

وواضح من تاريخ الوَقْفِيَة أن السلطان الناصر حسن كان يَجْمَع الكُتُب التى ستوضع فى خزانة الجامع – المدرسة قبل الشروع فى بنائه.

وقد جاء على الورقة الأولى من «التَّعْليقات والنَّوادر»، سواء القطعة التى كانت بدار الكتب المصرية أو القطعة الموجودة بالهند.

«فهرس فى قوام المجاميع المفردة»

وعلى نسخة «حَذْف من نَسَب قُرَيْش»

«فهرس من التوام؟ فى النسب»

وعلى نسخة كتاب «الأغانى» بنفس الخط، وهو دون شك خط خازن كتب خزانة الفاطميين:

«فهرس من النواقص»

هذه هى الكتب التى تأكَّد لنا أنها كانت بين خزانة كتب الفاطميين والتى كان يُسَجَّل على ظهرها اسم الخليفة الذى أضيفت فى عهده إلى الخزانة، كما كان مُفَهْرِسُ الخزانة يُسَجِّل عليها بخطه الفن أو الموضوع الذى فُهْرِست فيه. وواضحٌ أن هذه النُّسَخ الثلاثة ترجع كلها إلى نهاية العصر الفاطمى فى خلافتى الظافر والفائز (٥٤٤– ٥٥٥هـ) وأن نسخة «التَّعْليقات والنَّوادر» كانت فى خزانة الوزير الأفضل بن بدر

الجمالى (٤٨٧- ٥١٥هـ) قبل أن تصل إلى خزانة الفائز . وربما تُظْهر لنا الأيام نُسَخًا أخرى من الكتب التى تعود إلى هذه الخزانة الهامة التى انْتُهِبَت محتوياتُها وضاعت عَنّا أولًا بسبب الفوضى التى اجتاحت مصر أواسط القرن الخامس الهجرى ، ثم بسبب تعصُّب الأيوبيين على الفاطميين وبيعهم لمكتبتهم ، وأخيرًا بعد ذهاب مكتبة القاضى الفاضل فى نهاية القرن السابع الهجرى والتى كانت تشتمل على نحو مائة ألف مجلد من بين مخطوطات هذه المكتبة [١].

---

[١] راجع ، أيمن فؤاد سيد : «خزانة كتب الفاطميين هل بقى منها شئ؟» ، مجلة معهد المخطوطات العربية ٤٢/١ (١٩٩٨) ، ٧- ٣٢.

الفصل السابع عشر

العِمارة والفنون

إذا كان العَصْرُ الطُّولونى (٢٥٤-٢٩٢هـ/٨٦٨-٩٠٥م) هو بداية مرحلة استقلال مصر عن الخلافة العبّاسية ، فإنه أيضًا مرحلة تَطَوُّر هامة فى مجالى العمارة والفنون فى مصر الإسلامية ، فقد تأثَّرت العمارة الطولونية كثيرًا بنَمَط العمارة الذى كان سائدًا حينذاك فى مدينة سامَرّا (سُرَّ من رأى) فى العراق . ويَتَّضح هذا التأثير على الأخص فى عمارة «جامع أحمد بن طولون» - الأثر الوحيد الباقى من مدينة «القَطائِع» الطولونية والذى فُرِغَ من بنائه وافتتح للصلاة فى رمضان سنة ٢٦٥هـ/مايو سنة ٨٧٩م . وأصبح هذا الجامع هو النموذج الذى أثَّر فيما بعد فى تخطيط وبناء المساجد الجامعة فى مصر الإسلامية حتى جامع المُؤَيَّد شَيْخ الذى بنى فى سنة ٨١٨هـ/١٤١٥م (صَحْنٌ يحيط به أربعة إيوانات أكبرها إيوان القِبْلَة) .

ومع وصول الفاطميين إلى مصر ظهرت تأثيراتٌ جديدة فى العمارة أتوا بها من شمال إفريقيا . كما ظهرت إلى الوجود لأول مرة موضوعات فنية زخرفية ذات عناصر مستمدة من الأشكال الآدمية والحيوانية .

العِـــــمَارَة

انحصرت فنون العمارة الفاطمية التى وَصَلَت إلينا فى المدن التى أَسَّسها الفاطميون فى إفريقية ومصر (المَهْدِيَّة ، صَبْرة المنصورية ، القاهرة) .

وما زالت المَهْدِيَّة ، التى أَسَّسها الخليفة المهدى سنة ٣٠٣هـ/٩١٥م وانتقل إليها سنة ٣٠٨هـ/٩٢٠م ، تحتفظ بأنقاض تحصيناتها الفاطمية ، ومسجد جامع أعيد بناؤه ، وبقايا قصر القائم بأمر الله . ويتميَّز جامع المَهْدِيَّة بمدخل رئيسى بارز عن سَمْت جدار المؤخَّر

على هيئة بَوّابَة تُذَكِّرنا بأقواس النصر الرومانية [لوحة ١٠]، وقد انتقل هذا الطراز إلى العمارة الفاطمية فى مصر[١]. وعند مدخل مدينة القيروان – حيث أنشئت مدينة صَبْرَة المنصورية – ما زالت هناك بقايا لقصر يُظَنُّ أنه من عمل المنصور بالله إسماعيل، نستطيع أن نُمَيِّز منه قاعةً عريضة تفتح عليها ثلاث قاعات على شكل إيوان[٢]. ويشبه هذا التنسيق شكل القاعات الطولونية التى كُشِفَت فى الفُسْطاط، وهو يدلُّ على وجود علاقات بين مصر وإفريقية سابقة على انتقال المُعِزّ إلى مصر[٣].

وفى مصر أسَّس جَوْهَر مدينة القاهرة واستخدم فى بناء أسوارها وأبوابها الأولى الآجُرّ، وقد زالت آثار سور جَوْهَر وأبوابه منذ زيارة ناصر خُسْرو لمصر فى أواسط القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادي [شكل ٣].

وفى نفس الليلة التى اختَطَّ فيها جَوْهَر مدينة القاهرة وَضَعَ أساس «قصر كبير» فى وسط المدينة اعتمادًا على التصميم الذى وضعه الخليفة المُعِزّ بنفسه، وبالطبع فإن هذا التصميم لم يكن يتضَمَّن نصف الأبهاء والقاعات الفخمة التى وَصَفَها المقريزى. وهو عبارة عن مجموعة من الأبنية والقصور الصغيرة أُطْلق على مجموعها «القصور الزاهرة». وللأسف الشديد فنحن نجهل كل شيء عن عمارته حيث زال كل أثر لهذا القصر وحَلَّت محله الآن المدارس التى أنشئت فى العصرين الأيوبى والمملوكى وحَيّ خان الخليلى وحَيّ الجمالية [شكل ١، ٢]. ومصدر معلوماتنا عن هذا القصر ما أمَدَّنا به المقريزى فى كتاب «الخِطَط» نقلاً عن مصادر أيوبية أو ما شاهده بنفسه من بقايا أطلال القصر التى

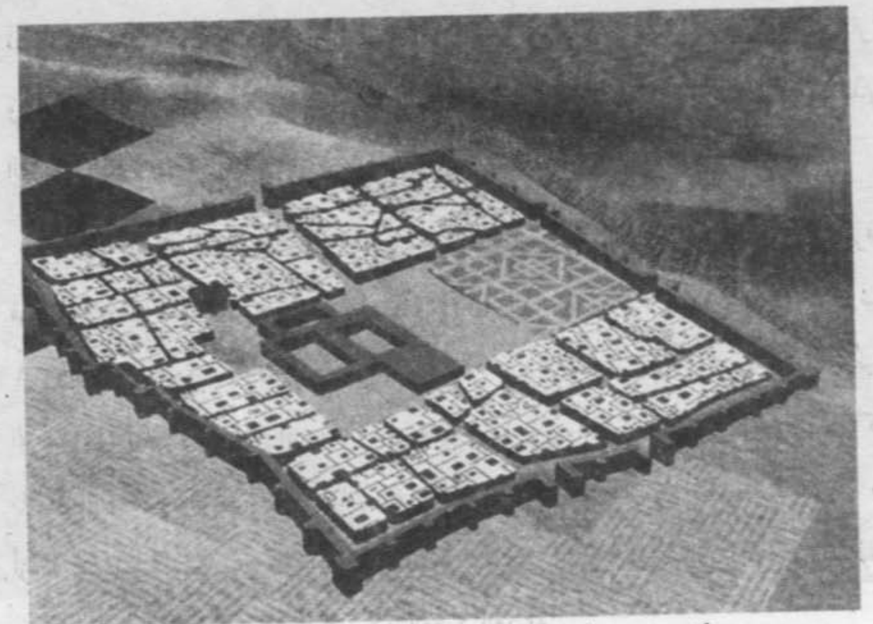
---

١ انظر Lézine , A., *Mahdiya, Recherches d'Archéologie Islamique*, Paris 1965; Fu'âd Sayyid. A.,*La capitale de l'Egypte*, pp. 94-102 .

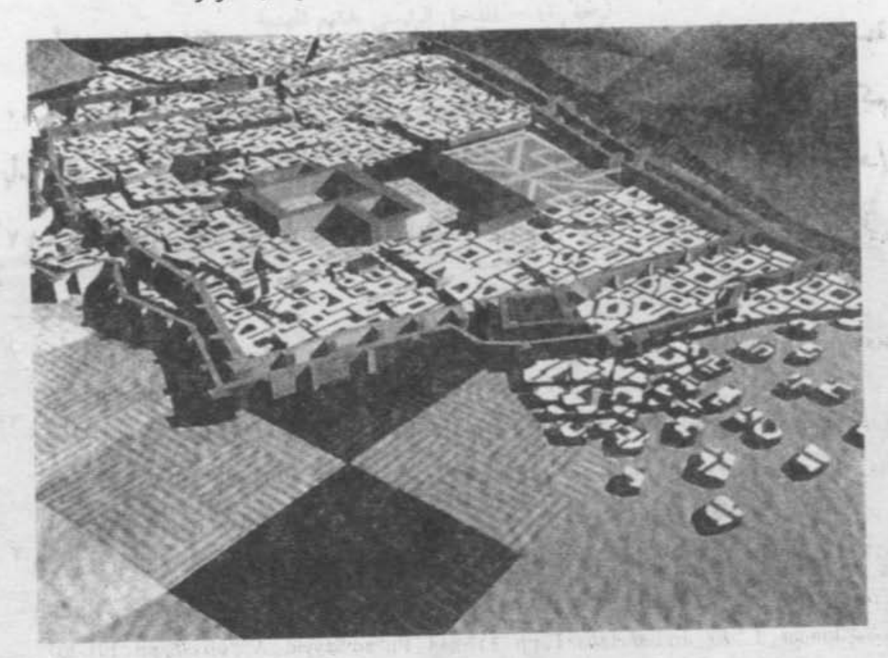
٢ انظر Zbiss, S. M., « Mahdia et Sabra Mansouria. Nouveaux documents d'art fatimide d' Occident », *JA* CCXLIV (1956) . pp. 79-93.

٣ Marçais, G ., *EI* [2] art . *L'Art Fatimide* II , p. 882.

٤ Creswell , K.A.C., « The Founding of Cairo », *CIHC* pp. 125-130 ; Fu'âd Sayyid, A., La capitale de l'Egypte jusqu'à l'époque fatimide, Beirut- Stuttgart 1998 .



شكل ٣ - الشكل العمرانى لمدينة القاهرة كما وضعها جَوْهَر



شكل ٤ - الشكل العمرانى لمدينة القاهرة فى نهاية العصر الفاطمى

(تَصَوُّر بالكمبيوتر عن نزار الصَّيَّاد : المدن والعمران فى صدر الإسلام ٥٠، ٥٤)

قُضِيَ عليها تمامًا نحو سنة ٨١١هـ/١٤٠٨م فى أيام استبداد جمال الدين الأُسْتادّار[١]. وعلى عكس المدن الإسلامية فقد كان القصر الفاطمِي لا المسجد الجامع هو مركز مدينة القاهرة الذى يتركّز حوله نشاط المدينة.

وفى عام ٣٥٩هـ/٩٧٠م وَضَعَ جَوْهَرُ القائد أساس «جامع القاهرة» – الذى عرف فيما بعد بـ «الجامع الأزهر»[٢] – ولم يُفْتَتح هذا الجامع للصلاة إلّا فى ٧ رمضان سنة ٣٦١هـ/٢٠ يولية سنة ٩٧١م، وقد استخدم فى بنائه أيضًا الآجُرّ. ويشبه التخطيط الأصلى له تخطيط جامع ابن طولون وجامعَ المهدية. والجامع الذى نراه اليوم ليس كله بالجامع الفاطمى الذى وَضَعَ أساسه جَوْهَر، بل هو مجموعةٌ من المبانى ضُمّت إليه فى أزمنة لاحقة. ولم يبق من الجامع الفاطمى سوى المجاز المتجه إلى المحراب الفاطمى وعقوده وهى الجزء الوحيد الباقى من العقود القديمة[٣].

أما «جامعُ الحاكم» فقد بدأ بناءه الخليفة العزيز بالله خارج باب الفتوح القديم سنة ٣٨٠هـ/٩٩٠م وسمّاه «جامع الخُطْبَة»، ثم تَوَقّف العمل فيه إلى أن أكمله ولده الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٣هـ/١٠٠٣م، ولكنه لَم يُفْتَتح رسميًا للصلاة إلّا فى سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م وأطلق عليه فى فترة لاحقة اسم «الجامع الأَنْوَر». ويجمع هذا الجامع فى

---

[١] المقريزى: الخطط ١: ٣٨٤–٤٥٨؛ Ravaisse, p., *Essai sur l'histoire et sur la topographie du Caire*, *MMAFC*, II (1887,1890); Fu'âd Sayyid, A., *op. cit.*, pp. 209-299.

[٢] استخدم الفاطميون صيغة أفعل التفضيل فى تسمية منشآتهم الدينية التى أنشأها الخلفاء مثل: الجامع الأزهر، الجامع الأنور، الجامع الأقمر، الجامع الأفخر. فقد كان الجامع الأزهر يطلق عليه فى عصر المسبحى (مطلع القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى) جامع القاهرة، وكذلك الجامع الأنور الذى ظل لفترة غير قصيرة يعرف بجامع الحاكم.

[٣] المقريزى: الخطط ٢: ٢٧٣–٢٧٧؛ حسن عبد الوهاب: تاريخ المساجد الأثرية، القاهرة ١٩٤٦، ١: ٤٧–٦٣؛ أحمد فكرى: مساجد القاهرة ومدارسها ١: ٤١–٥٩، Creswell, K. A. C. *MAE* I, pp. 36 - 64; محمد Jomier, J., *EI*[2] art. *al-Azhar* I, pp. 837-844; Fu'ad Sayyid, A., *op.cit.*, pp. 191-207 عبد الله عنان: تاريخ الجامع الأزهر، القاهرة ١٩٥٨؛ Rabbat, N., «Al-Azhar Mosque: An Architectural Chronicle of Cairo's History», *Muqarnas* 13 (1996), pp. 45-67.



لوحة ١٠ - المدخل الرئيسى لجامع المهدية

لوحة ١١ - المدخل الرئيسى لجامع الحاكم (الأنور)

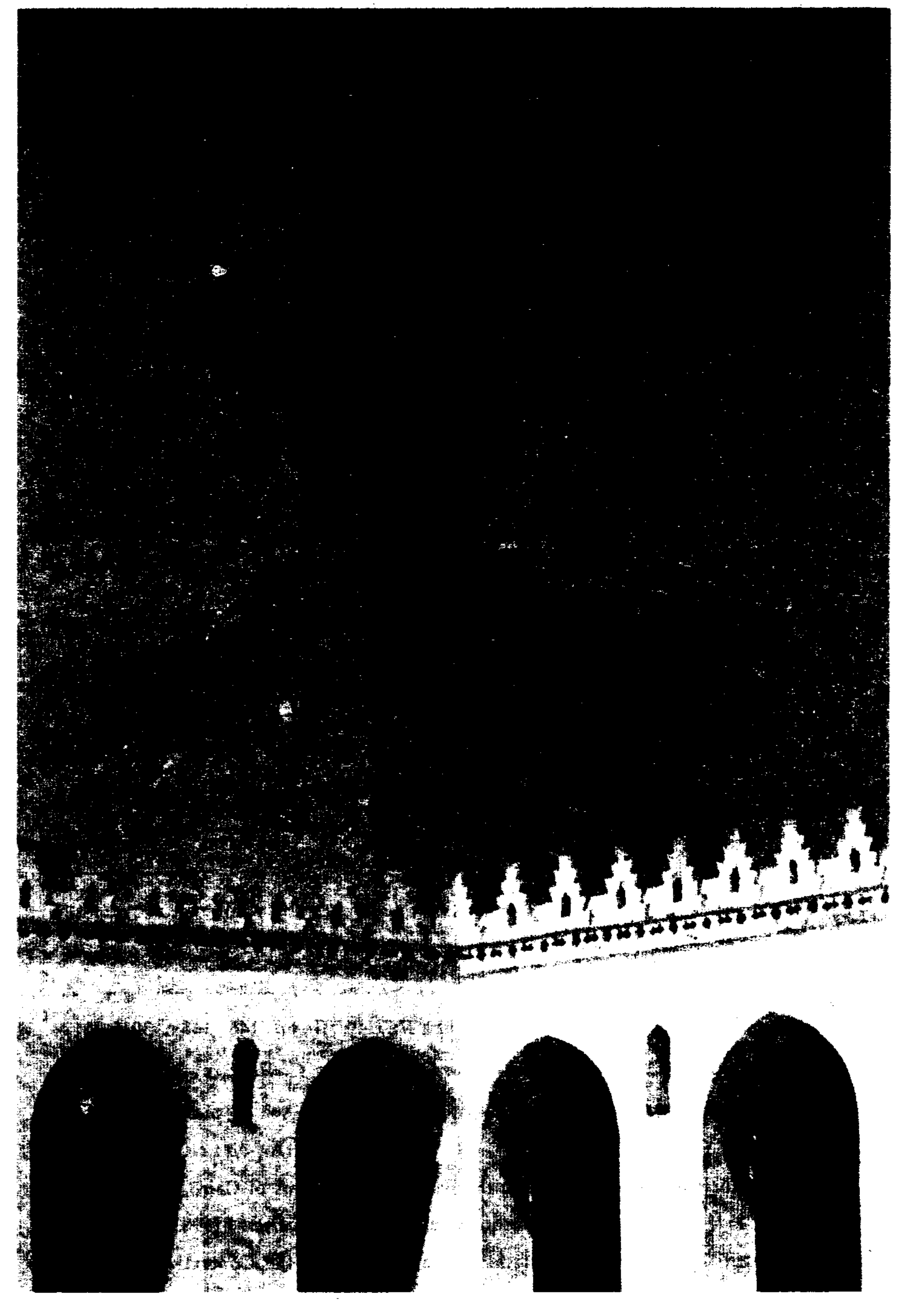
تخطيطه بين عناصر إفريقية وعناصر مصرية ، فتخطيط الجامع بلا جدال يماثل تخطيط جامع ابن طولون الذى بنى على طراز سامرّا ، ويفتح مدخل الجامع الرئيسى فى منتصف جدار مؤخّر الجامع فى موضع يقابل المِحْراب ، وهو يَتّفِق فى ذلك مع مدخل جامع المهدية . ويبرز المدخل الرئيسى خارج سَمْت جدار المؤخّر متخذًا هيئة برجين يتوسطهما ممر يؤدّى إلى باب بحيث أصبح شكل المدخل يماثل البوابة بالمعنى المصطلح عليه فى عمارة الأسوار [لوحة ١١]، بينما كانت المداخل الرئيسية قبل ذلك تفتح عادة فى الجدارين الجانبيين غير جدارى القِبْلَة والمؤخّر كما هو واضح فى جامع ابن طولون ، وقد تَكَرّر هذا الطّراز فى جامع الأَقْمَر (٥١٩هـ/١١٢٥م) ولكن بأبعاد مختلفة . أما مئذنتا هذا الجامع فطرازٌ فريدٌ بين المآذن فى مصر الإسلامية وقد بنيتا من الحجارة ، واحدة فى الركن الغربى الشمالى والأُخرى فى الركن الشمالى الشرقى على شكل محور أسطوانى تحيط به كتلة مربعة الشكل [لوحة ١٢] . وتُمَثّل الزخرفة ذات الأشكال الهندسية والنباتية على قاعدة هاتين المئذنتين وعلى المدخل الرئيسى للجامع مرحلة حاسمة فى تشكيل الزّخْرَفَة الإسلامية [١].

ولم تظهر الحجارة فى العمارة الفاطمية إلّا عندْ بناء جامع الحاكم (الأَنْوَر) وبذلك أصبح يمكن الاستغناء عن الاستعانة بالطلاء الجصى فى غطاء المسطحات الجدارية وتسويتها ، وقد أضافت الزخرفة المنحوتة على الحجارة أهمية إلى واجهات المساجد الفاطمية تظهر بوضوح فى جامعى الأَقْمَر والصّالح طلائع .

وشَيّد الحاكم كذلك فى سنة ٣٩٣هـ/١٠٠٣م جامعين الأول على شاطىء النيل عند المَقْس هو «جامع المَقْس» والثانى فى خطّة راشـــدة بالفسطاط هو

---

[١] المقريـزى : الخطط ٢ : ٢٧٧-٢٨٧ ؛ أحمد فكرى : المرجع السابق ١ : ٨٣-٨٥ ؛ Creswell , K . A . C ., *MAE* I , pp. 65-66 ; Bloom , J. M., « The Mosque of al-Hakim in Cairo» , *Muqarnas* I (1983), pp. 15-36; Fu'âd Sayyid , A., *op.cit.*, pp. 334-346.



لوحة ١٢ - مئذنة جامع الحاكم بأمر الله

« جامع راشدة » وقد زال كل أثر لهذين الجامعين الآن [١].

ومنذ بناء جامع الحاكم ، لم يُبْنَ فى القاهرة أى مسجد ، وكان أوَّلُ مسجد بُنِيَ بعد ذلك هو « الجامع الأَقْمَر » ، ورغم أنه يُعْرَف بالجامع ، فإنه لم يكن جامعًا إذ لم تكن فيه خطبة كما يذكر المقريزى [٢] . وشُيِّد هذا الجامع ، كما يذكر ابن مُيَسَّر ، فى آخر عام ٥١٥هـ/١١٢١م فى أيام الآمر بأحكام الله ووزارة المأمون البَطائِحى [٣]، وافتتح للصلاة فى عام ٥١٩هـ/١١٢٥م [٤] . وهذا المسجد أحد أهم آثار مصر الإسلامية ، ويستمد أهميته من واجهته التى تشتمل على ملامح ذات معنى كبير اهتم بدراستها كارولين وليامز Caroline Williams [٥] ودوريس أبو سيف Doris Abouseif [٦] . فالميزة الأولى لهذه الواجهة هى توافقها مع استقامة الطريق المقامة عليه بخلاف المسجد نفسه الذى احتفظ بتوجّهه تجاه القبلة . والميزة الثانية أنها أقدم واجهة حجرية باقية فى القاهرة عنى ببنائها وزخرفتها بسخاء ، ولا تقتصر هذه الزَّخْرَفَة على بَوّابتها فقط بل تشمل واجهة المسجد كلها ، وهى واجهة كانت تحوى فى الأصل جناحين متماثلين على يمين ويسار المدخل البارز عن سَمْت الجدار تظهر فيها أشكال المُقَرْنَصات لأول مرة فى عمارة القاهرة . ومضمون زَخْرَفَة هذه الواجهة لافت للانتباه ولا نظير له سواء فى القاهرة أو فى أى مكان

---

[١] القلقشندى : صبح ٣ : ٣٦١ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، Fu'âd Sayyid , A., *op. cit*, pp . 351-52 .

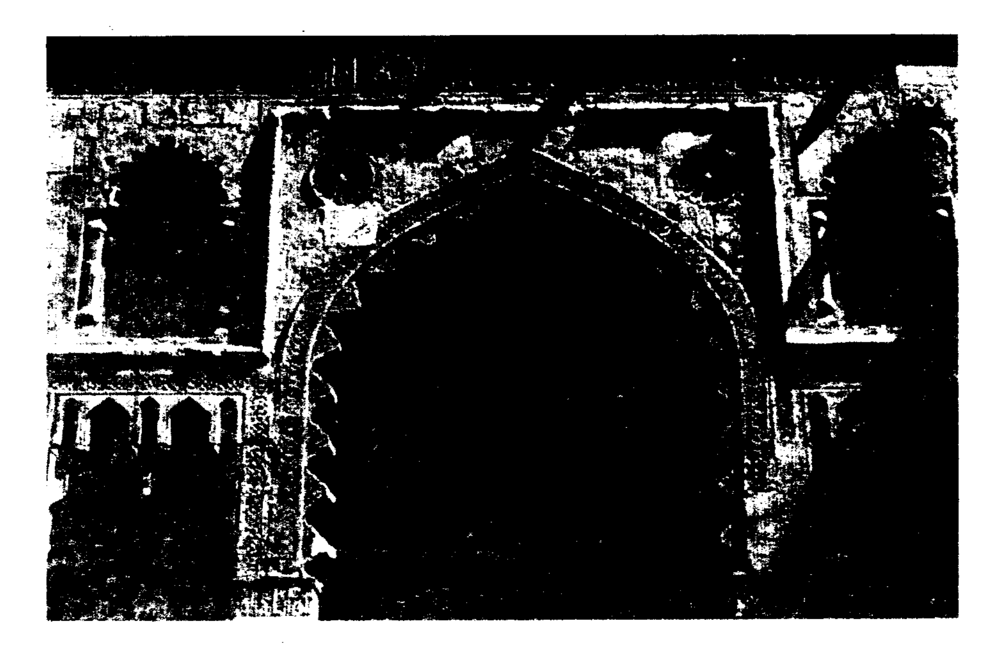
[٢] المقريزى : الخطط ٢ : ٢٩٠ .

[٣] ابن ميسر : أخبار ٩١ ؛ المقريزى : اتعاظ ٣ : ٧٧ .

[٤] Wiet , G ., *CIA* Egypte II , pp . 170 - 181 ; id ., *RCEA* VIII , pp . 146 - 148 n° 3011-3012 ؛ وانظر عن الجامع ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢٩٠-٢٫٩١ ؛ حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ٦٩-٧٣؛ أحمد فكرى : المرجع السابق ١ : ٩٥-١٠٢ ؛ Creswell , K . A . C ., *MAE* I , pp . 241 - 46 . Fu'âd Sayyid , A., *op . cit.*, pp. 514-29.

[٥] Williams, C., «The Cult of ʿAlid Saints in the Fatimid Monuments of Cairo, Part 1: The Mosque of al-Aqmar», *Muqarnas* I (1983), pp. 37-52 .

[٦] Behrens-Abouseif, D., «The Façade of the Aqmar Mosque in the Context of Fatimid Ceremonial », *Muqarnas* IX (1992), pp. 29-38.



لوحة ١٣ - الزخرفة الموجودة على واجهة الجامع الأقمر

آخر . وأملى هذا التوافق مع استقامة الطريق الوضع الخاص للمنطقة التى تحيط بموقع الجامع والتى فرضت كذلك هذه الزَّخْرَفَة الشاملة الرائعة للواجهة نفسها . فالجامع ملاصق تمامًا للقصر الفاطمى الكبير ، لا يفصله عنه سوى مَمَرّ ضَيِّق ، وأصبح بذلك فى قلب الطقوس الاحتفالية للمدينة .

وكما أوضحت فيما سبق فإن إعادة إحياء الاحتفالات الفاطمية يرجع الفضل فيه إلى الوزير المأمون البَطائِحى الذى أمر ببناء هذا الجامع . فقد استجدَّ هذا الوزير ثلاثة مناظر فى واجهة القصر الفاطمى الشرقى الكبير ، واحدة على قوس باب الذَّهَب سمّاها « الزّاهِرَة »، وواحدة على قوس باب البحر سمّاها « الفاخرة » ، ومنظرة ثالثة سَمّاها « الناضرة » ، لم تُحَدِّد المصادر موضعها ، كان الخليفة يجلس فيها لعرض العساكر [١].

---

[١] ابن عبد الظاهر : الروضة البهية الزاهرة ١٢٥ ؛ القلشندى : صبح الأعشى ٣:٣٥٧ ؛ المقريزى : مسودة المواعظ والاعتبار ٣٠٧ .

وتُذَكِّرنا هذه المناظر بالشُّبّاك الذى كان يوجد بدهليز باب المُلْك ، والذى كان يجلس فيه الخليفة ويتكىء عليه وقت قراءة السِّجِلّات بالإيوان ، أو يُشاهد منه عَرْض الخيل فى اليوم السابق على الاحتفال بركوب أول العام[١].

جاءت زخارف واجهة الجامع الأقْمَر ؛ لتعكس هذه التطورات التى أدخلها المأمون البَطائِحى ؛ لتتماثل مع زخارف واجهة القصر الفاطمى . فجَعَلَ مهندس الجامع مدخله الرئيسى بارزًا عن سَمْتَ جدار المؤخّر ، وجَعَلَ فى كلٍّ من الجناحين المتماثلين بابًا منحوتًا وشُبّاكًا يماثلان المناظر التى استجدها المأمون فوق أقواس بابى القصر المتتاليين والسابقين لواجهة الجامع الأقْمَر : باب الذَّهَب ، وباب البحر .

ويبدو اتفاق زَخْرَفة واجهة الجامع الأقْمَر مرة أخرى مع الإصلاحات التى أدخلها الوزير المأمون البَطائِحى على الاحتفالات الفاطمية فى الحِلْيَة الدائرية Médaillon التى تعلو المدخل الرئيسى للجامع والتى تشبه شكل الدينار الفاطمى - الذى بدئ فى ضربه فى أوَّل دار ضرب تُنشأ فى القاهرة سنة ٥١٦ هـ - وخاصة النقوش الموجودة فى حلقاته المركزية ، ولكن ليس بنفس الصِّيَغ الموجودة على الدينار[٢]. وذكر فى هذه الحلية لأول مرة على المساجد الفاطمية فى مصر اسم الإمام على إلى جانب النبى محمد ﷺ (محمد وعلى) تعبيرًا عن الاعتقاد الشيعى للدولة[٣].

ويعد «جامع الصَّالِح طَلائِع» ، الذى بناه خارج باب زُوَيْلَة فى عام ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م الوزير الملك الصَّالح طَلائِع[٤] ، آخر المساجد الجامعة التى أقامها الفاطميون فى القاهرة وهو من المساجد المُعَلَّقة ، فقد أقيم على أبنية طابق تحت سطح الأرض كانت تستخدم كمخازن وحوانيت ، وهو بذلك الأوَّل من هذا النوع فى القاهرة . وقد تَعَرَّض

---

١ ابن الطوير : نزهة المقلتين ٩٧-٩٨ ، ١٥٣ ، ١٥٤ .

٢ .Behrens-Abouseif, D., *op. cit.*, pp. 30-34

٣ .Williams, C., *op.cit.*, pp. 45

٤ .Wiet , G., *RCEA* IX n° 3231



لوحة ١٤ - واجهة الجامع الأقمر بعد إعادة بناء جناحها الأيسر

هذا الجامع لكثير من الحوادث والإصلاحات ، إلى أن تم ترميمه وإعادة بنائه بواسطة لجنة حفظ الآثار العربية فى العقد الثانى من هذا القرن[١].

ويلاحظ أن مساحة المساجد فى العصر الفاطمى ، التى بُنِيَت بعد جامع الحاكم ، قد أخذت فى التقَلُّص ، ويرجع ذلك إلى كثرة وتعدُّد المساجد الجامعة . كما يلاحظ فى تخطيط المساجد الفاطمية اتساع أسْكوب المحراب وبلاطته وذلك لتمهيد قاعدة مربعة للقبة التى تقام أمام المحراب على تقاطع أسكوبه ببلاطته . وقد استوجبت قاعدة القبة المربعة تساوى ضلوع هذه القاعدة وأصبحت بذلك عنصرًا جديدًا فى تخطيط المساجد [٢].

وعرفت مصر فى العصر الفاطمى نوعًا آخر من المنشآت الدينية هو المسجد ذو الضريح أو «المَشاهِد» ، وهى مشاهد أقيمت لإحياء ذكرى آل البيت ، وأغلب هذه المشاهد مشاهد رُؤْيَة ويقع أغلبها فى المنطقة المعروفة بالمَشاهِد بين القاهرة والفُسْطاط . ومعظم هذه المشاهد غير ثابت التاريخ ويقوم ترجيح انتمائها إلى العصر الفاطمى على دراسة عناصرها المعمارية والزخرفية ، وعادةً ما يحتفظ المَشْهَد أو المسجد المستخدم ضريحًا بجميع العناصر التخطيطية للمسجد . وأهم هذه المشاهِد : مَشْهَدُ السيدة سُكَيْنَة ، ومَشْهَدُ عَاتِكَة والجَعْفَرى ، ومَشْهَدُ السيدة رُقَيَّة ، ومَشْهَدُ إخوة يوسف ، ومَشْهَد اللُّؤْلُؤة والمشاهد التسعة والقِباب السَّبْع بالقَرافَة[٣]. ويمكننا أن نضيف إلى هذه المشاهد «مَشْهَد الجُيُوشى» الذى أقامه بدر الجمالى على هضبة المقطم سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م ، ربما ليدفن فيه[٤]! .

---

[١] انظر المقريزى : الخطط ٢ : ٢٩٣ ؛ حسن عبد الوهاب : المرجع السابق ٩٧-١٠٥ ؛ أحمد فكرى : المرجع السابق ١: ١١٠-١٢١ ؛ Creswell , K. A. C., *MAE* I , pp , 275 - 288 ; Fu'âd Sayyid , A ., *op. cit* ., pp. 547-558.

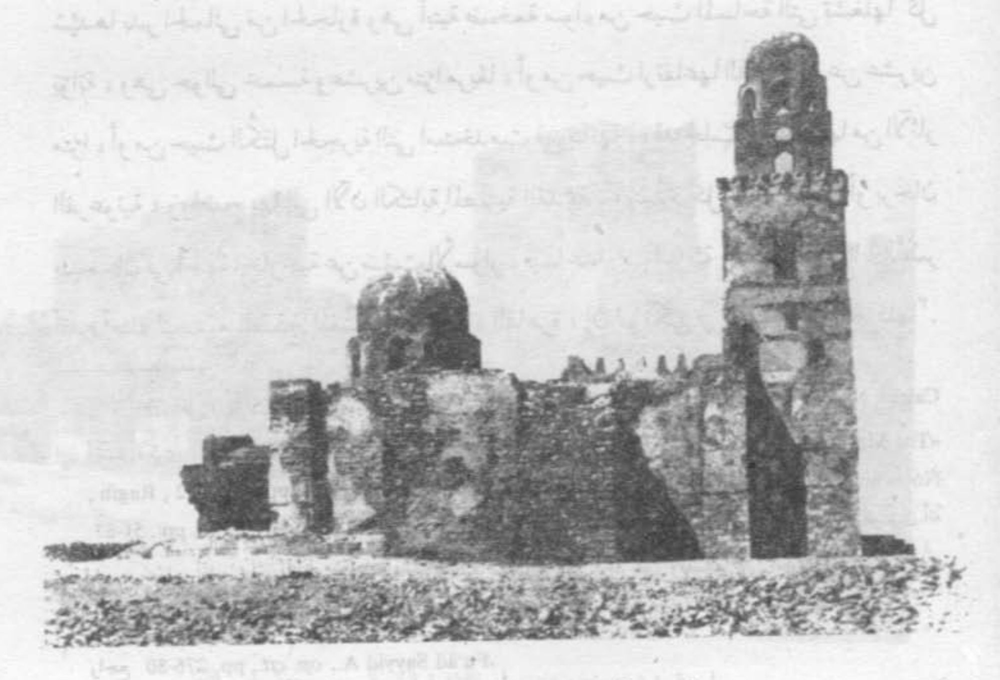
[٢] أحمد فكرى : المرجع السابق : ١٢٦ ، ١٣٧ .

[٣] نفسه ١ : ٢٨-٣٨ ؛ Ragib , y ., «Les Mausolées du quartiers d'al-Mashâhid» *An. Isl* . XVII (1981) pp . l-30 ; id ., «Les Sanctuaires des gens de le famille dans la cité des morts du Caire» *RSO* LI (1977) , pp. 47-46 ; id ., «Sur un groupe de mausolée du cimetière du Caire » , *REI* XL (1972) , pp . 189-159 ; Williams, C., «The Cult of ʿAlid Saints in the Fatimid Monuments of Cairo. Part II : The Mausolea» , *Muqarnas* III (1985) , pp . 39-60 ; Fu'âd Sayyid , A, *op. cit*, pp . 650-57.

[٤] عن هذا المشهد أو المسجد راجع Van Berchem , M ., «Une mosquée du temps des Fatimites au



لوحة ١٥ - جامع الصالح طلائع (٥٥٥هـ/١١٦٠م) الواجهة الغربية بعد ترميمها



لوحة ١٦ - المَشْهَد الجُيُوشى (٤٧٨هـ/١٠٨٥م) - الواجهة الشمالية الشرقية

ولكن أهم مَشْهَد أضافه الفاطميون إلى الطبوغرافية الدينية للقاهرة هو «المشهد الحسينى» حيث نَقَلَ الفاطميون فى سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م رأس الإمام الحسين بن على بن أبى طالب ، التى كانت مدفونة فى مدينة عَسْقَلان خوفًا عليها من الفِرِنْج ودفنوها داخل القصر الفاطمى فى قُبّة الدَّيْلَم التى يؤدِّى إليها باب الدَّيْلَم ، باب القصر الفاطمى الكبير الجنوبى الشرقى[1] .

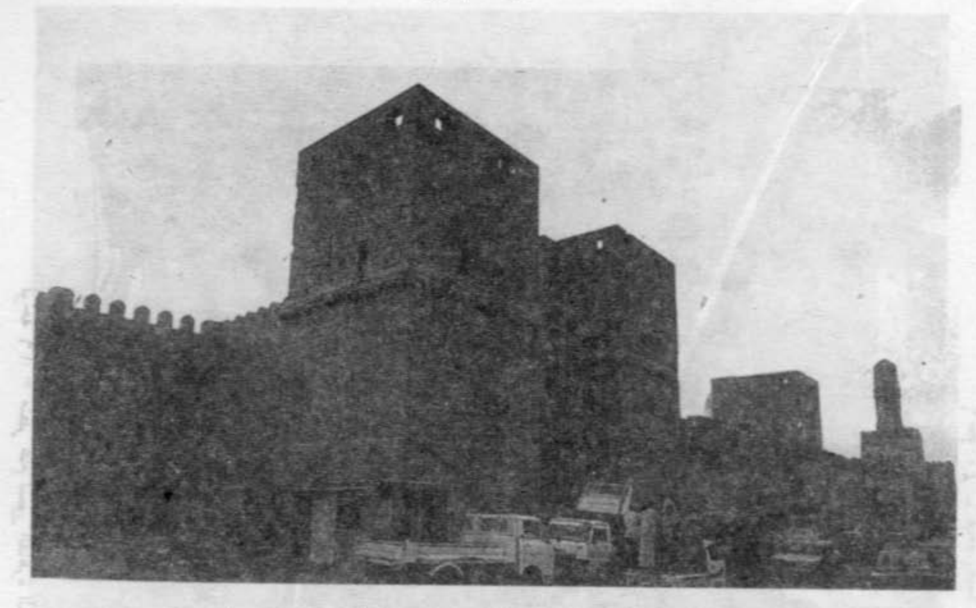
أما «أبواب القاهرة» و «وأسوارها» التى شَيَّدها بدر الجمالى بين عامى ٤٨٠هـ/١٠٨٧م و ٤٨٥هـ/١٠٩٢م فما زال باقيًا منها جزء من السور الشمالى ، وأربعة أبواب : باب النَّصْر ، وباب الفُتوح فى السور الشمالى ، وباب زُوَيْلَة فى السور الجنوبى ، وباب البَرْقِية الذى كان يفتح فى السور الشرقى . ولا تذكر نصوص الكتابات التاريخية ، الموجودة على هذه الأبواب ، الأبواب بأسمائها المعروفة لنا ، وإنما نجدها تطلق على باب النَّصْر «باب العِزّ» وعلى باب الفُتُوح «باب الإقبال» وعلى باب البرقية «باب التَّوْفيق» ؛ ولو كان نص الكتابة التاريخية لباب زُوَيْلَه قد وَصَلَ إلينا لعرفنا الاسم الجديد الذى أطلق عليه[2] . وقد بنيت أبواب القاهرة التى شيَّدها بدر الجمالى من الحجارة وهى أبنية ضخمة سواء من حيث المساحة التى تشغلها كل بَوّابَة ، وهى حوالى خمسة وعشرين مترًا مربعًا ، أو من حيث ارتفاعها الذى يزيد عن عشرين مترًا ، أو من حيث الكُتَل الحجرية التى استخدمت فى بنائها ، وقد جُلِبَ الكثير منها من الآثار الفرعونية ، وواضح بها إلى الآن الكتابة المصرية القديمة . ويتقدَّم كل بوابة بَدَنَتان أو برجان ضخمان فى الجهة الخارجية عن سَمْت الأسوار ، فيما عدا باب البَرْقِيَّة . وتظهر فى بَوّابة النَّصْر أقدم أمثلة لتجميع الصِّنَج المُعَشَّقة فى عمارة القاهرة ، إن لم تكن فى تاريخ العمارة كلها[3] .

Caire», MIE II (1889) , pp . 605-619 , Creswell, K. A. C., *MAE* I, pp . 155-160 ; Shafei , F ., «The Mashhad al-Juyushi - Archeological Notes and Studies» , *in Studies in Islamic Art and Architecture* 1965 , pp . 237-252 ; Ragib , Y., «Un oratoire fatimide au sommet du Muqattam» , *SI* LXV (1987) , pp . 51-67 ؛ أحمد فكرى : مساجد القاهرة ومدارسها ١ : ٨٩ – ٩٤ ، وهو يرى أنه مجرد مصلى أقامه على المقطم بدر الجمالى لتخليد انتصاره على الخارجين وقضائه على الفوضى رغم أن نصه التذكارى يذكر أنه مشهد ؛ Fu'âd Sayyid , A., *op.cit* ., pp. 433-41.

[1] راجع Fu'âd Sayyid A., *op. cit.*, pp. 276-80.

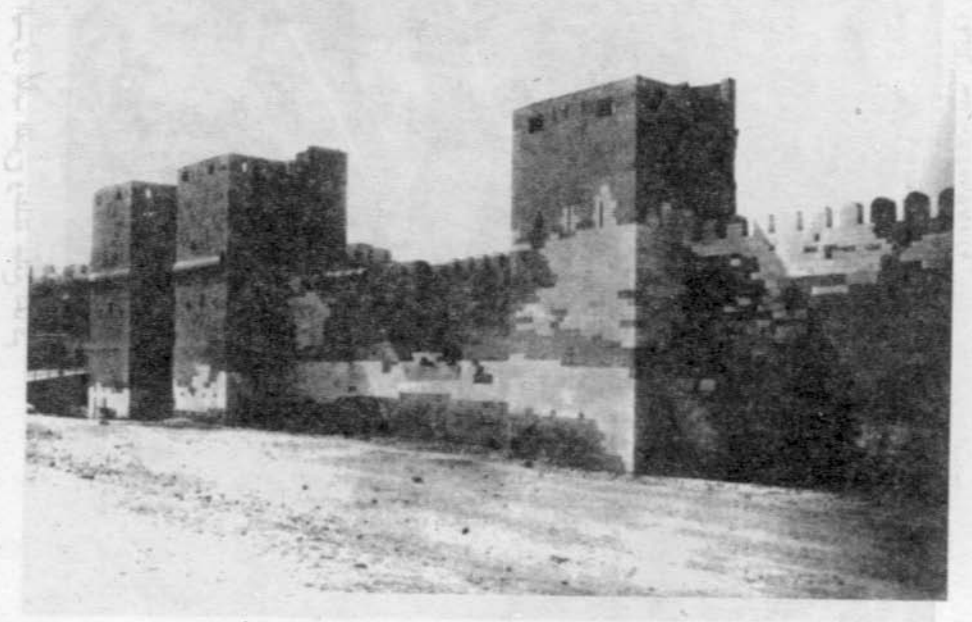
[2] *Ibid.*, p. 424 .

[3] أحمد فكرى : مساجد القاهرة ١ : ٢٦ ، ١٥١ ، ٢٠٧ .

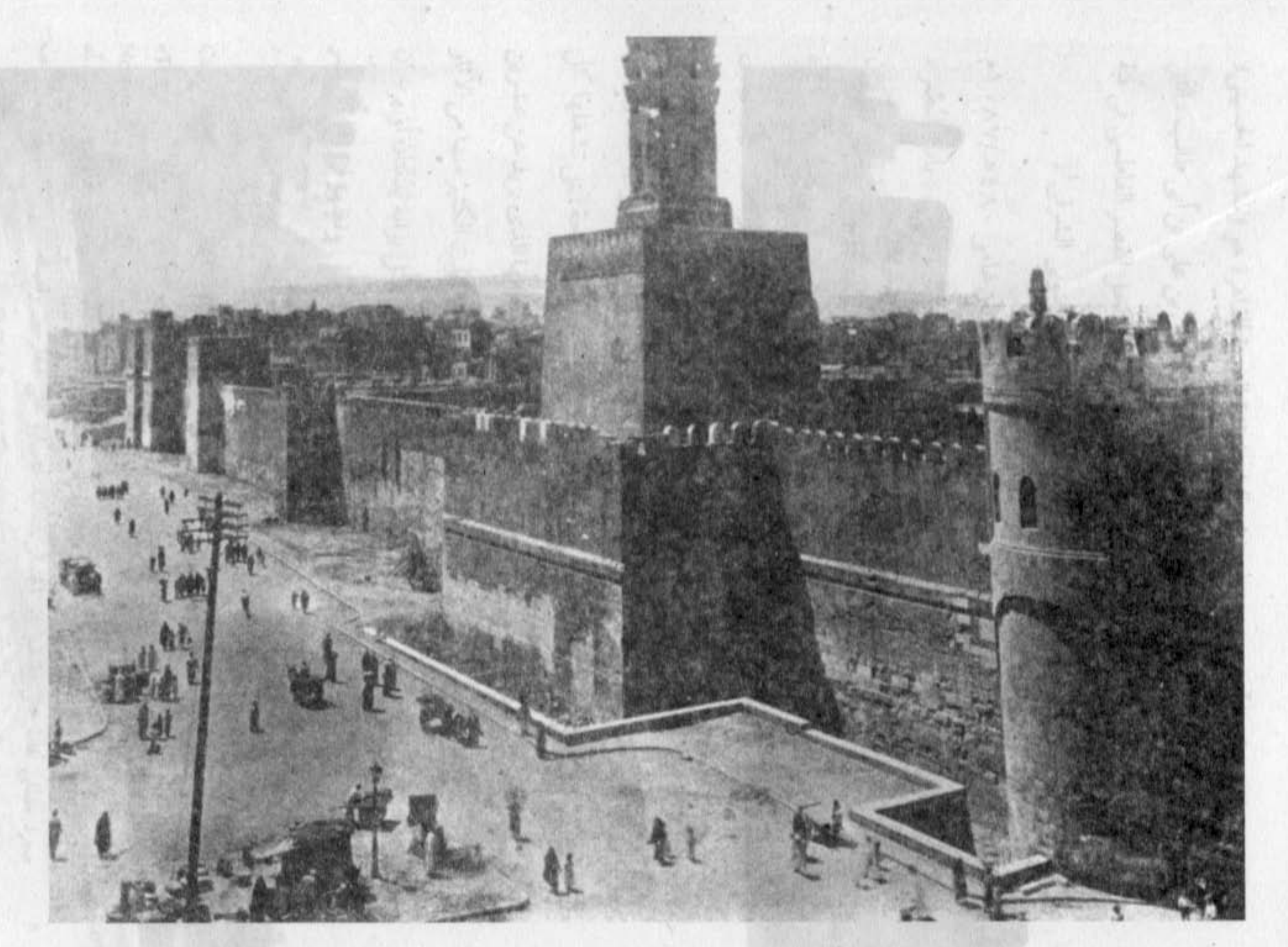


لوحة ١٧ - سور القاهرة الشمالى الذى بناه بدر الجمالى سنة ٤٨٠هـ/١٠٧٨م

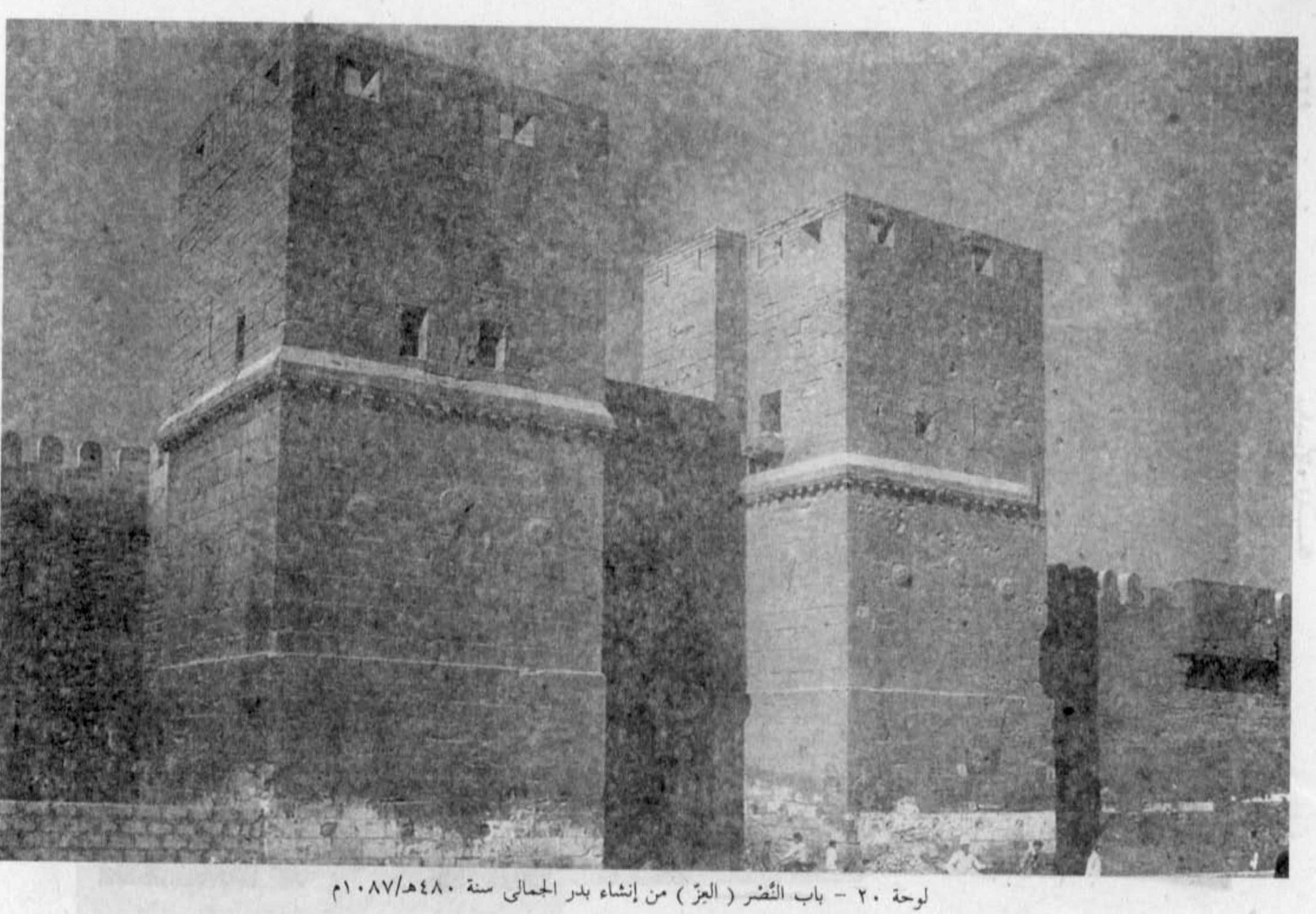
ويربط بين باب النّصْر وباب الفتوح



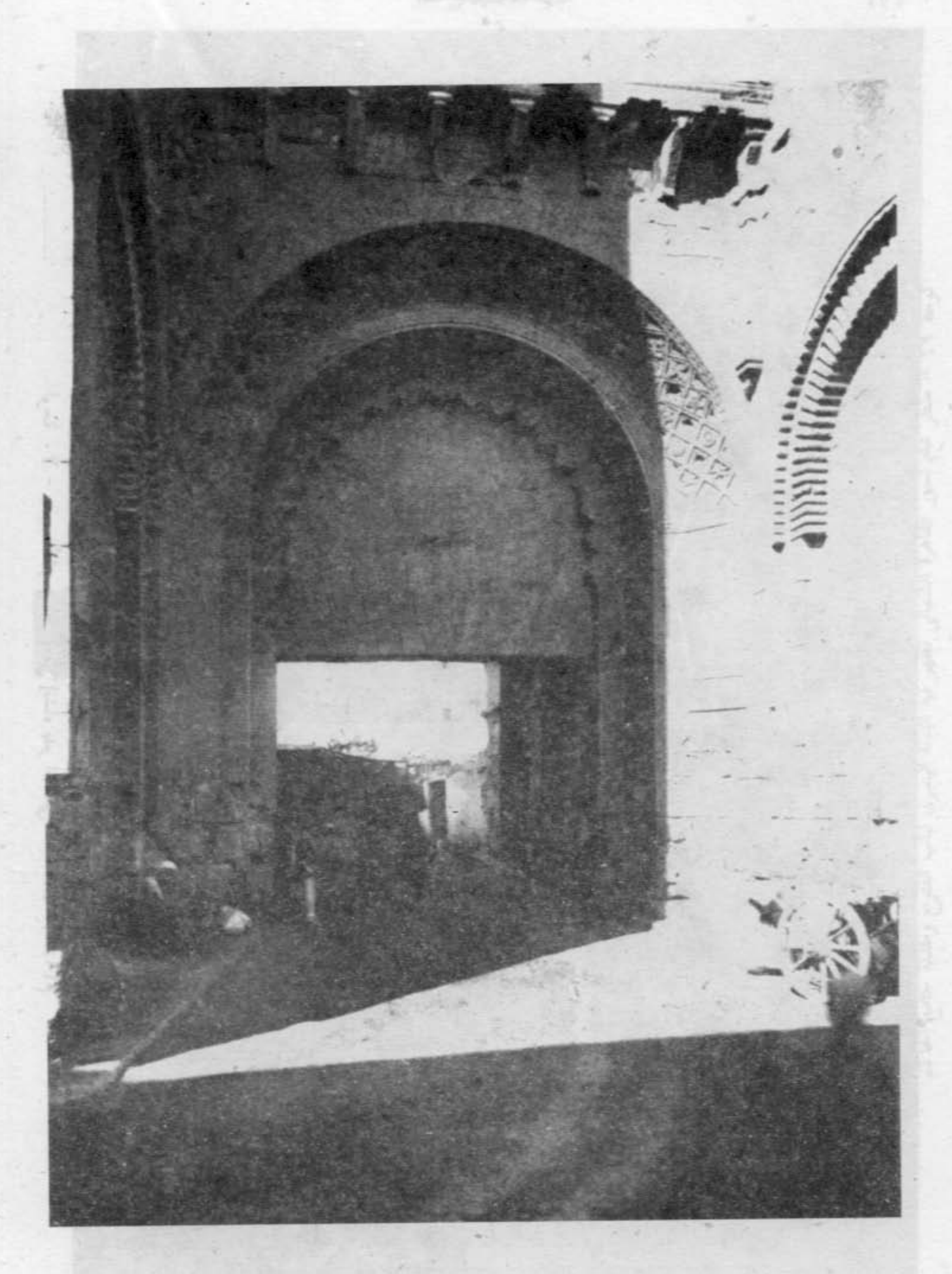
لوحة ١٨ - جزء من سور القاهرة الشمالى من جهة باب النّصْر



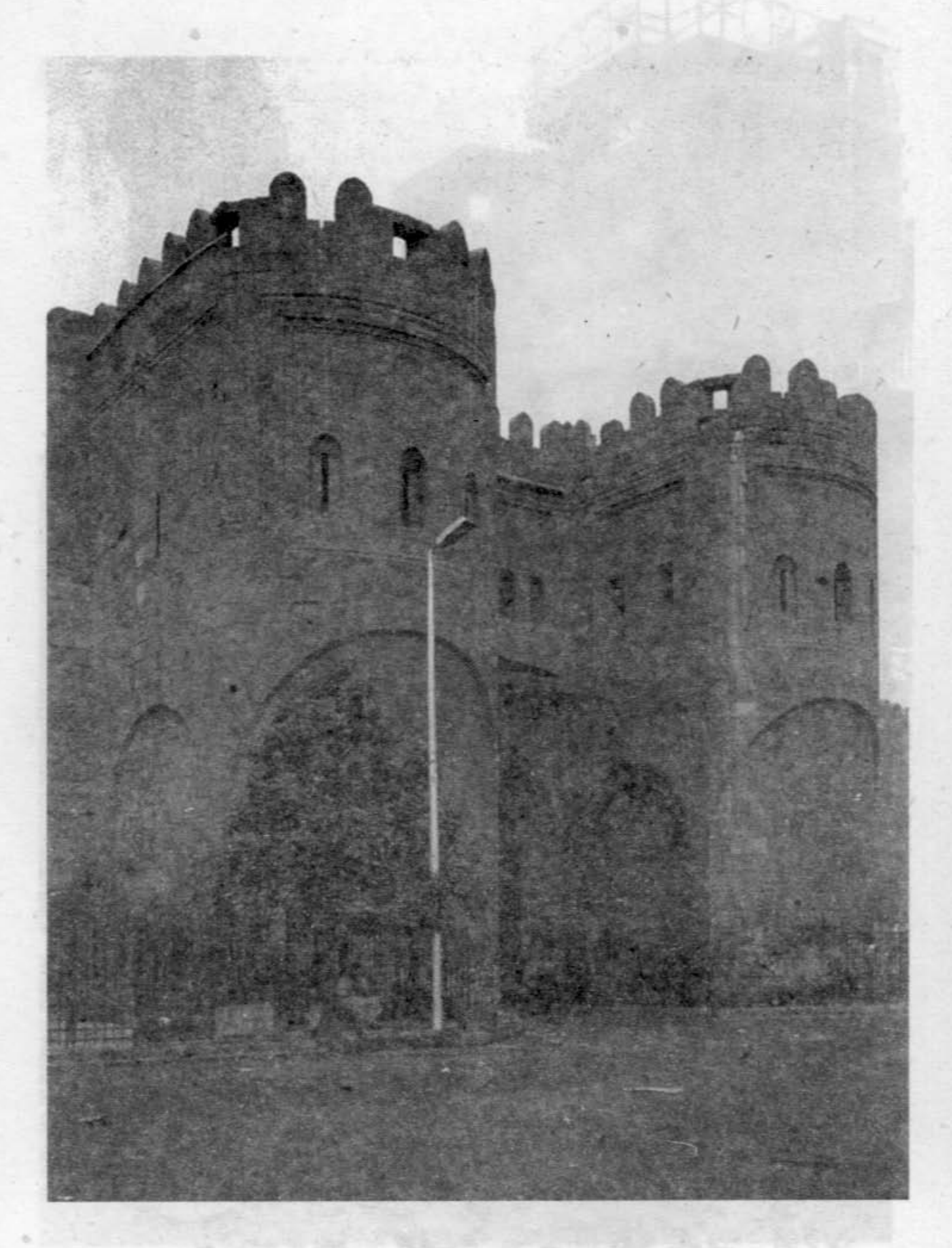
لوحة ١٩ - منظر عام لسور القاهرة الشمالى تظهر فيه المئذنة اليسرى لباب الفتوح ومئذنة جامع الحاكم



لوحة ٢٠ - باب النُّصْر (العِزّ) من إنشاء بدر الجمالى سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م



لوحة ٢١ - تفاصيل من زخارف باب الفتوح



لوحة ٢٢ - باب الفُتُوح (الإقبال) من إنشاء بدر الجمالى سنة ٤٨٠هـ/١٠٧٨م



لوحة ٢٣ - باب البرقية (التوفيق) أنشأه بدر الجمالي في السور الشرقي



لوحة ٢٤ - باب زُوَيْلَة أنشأه بدر الجمالى فى السور الجنوبى

للقاهرة سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م

ويتّضح فى هذه الأبواب تأثير العمارة الأرمنية ، فيذكر المقريزى أن ثلاثة إخوة قدموا من الرُّها بَنّائين هم الذين بنوا الأبواب الثلاثة[١] ، بينما يذكر أبو صالح الأرْمَنى أن الذى هَنْدَس سور القاهرة وأبوابها شخص يُدْعى يوحَنّا الرّاهب[٢] .

الفنـــون الفَرْعـــيّة

يعد العصر الفاطمى ، من الوجهة الفنية ، عصر النجاح فى الوصول إلى طراز فنى يضم بين ثناياه شتّى الأساليب الفنية فى العصور السابقة . ورغم أن الأساليب الفنية فى بداية العصر الفاطمى استمدت الكثير من الأساليب الطولونية وأساليب سامَرّا ؛ إلاّ أنها لم تلبث أن تَفَوّقت عليها وتميّزت برهافة الذوق والدقة والبراعة فى الإبداع والتنفيذ . وقد تأثّرت فنون الفاطميين ببعض التقاليد الفارسية ، كما أخذت أيضًا عن فنون بيزنطة . ويرى جاستون ڤييت G . Wiet أن اختلاط هذين العنصرين على يد الفنانين المصريين أنتج تحفًا ألطف وأرق من منتجات أى عصر آخر ، تميّزت بصدق التعبير ، وبدقة تصوير الحركة بطريَقة لا نجدها فى النماذج السابقة عليهم ، حتى ليمكنتا القول بأن عصر الفاطميين كان «عصر ثورة ملموسة فى الفن» فلم يكتف الفنان الفاطمى بالزّخارف النباتية والهندسية ، أو اتخاذ الكتابة عنصرًا أساسيًا للِزَخْرَفَة ، كما كان سائدًا فى الطُّرُز السابقة ، بل اكتشف مُرَكّبات وموضوعات زُخْرُفية جديدة حاكى فيها الطبيعة الصادقة ، واستمد وَحْيَها ، فى بعض الأحيان ، من الحياة اليومية مع براعة فى إبداع النقش والزخارف الدقيقة[٣] .

---

[١] المقريزى : الخطط ١ : ٣٨١ .

[٢] أبو صالح : تاريخ ٦٥ ؛ وراجع ، أحمد فكرى : المرجع السابق ١ : ٢١–٢٨ .Creswell, K., A. C. *MAE* I, pp. 161-216 ; Fu'âd Sayyid , A., *op. cit*., pp. 430-31 .

[٣] فييت ، جاستون : دليل موجز لمعروضات دار الآثار العربية ، ترجمه بتصرف زكى محمد حسن ، القاهرة ١٩٣٩ ، ١٢–١٣ .

أما أوليج جرابار Oleg Grabar فيرى أن السبب الذى أدَّى إلى الظهور المفاجىء للموضوعات الزخرفية ذات العناصر المستمدة من البشر والحيوان، يرجع إلى الحرب الأهلية والأزمة الاقتصادية التى سادت مصر فى أواسط القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى، حيث ظهر عددٌ من التحف الفنية أخرجت من القصر الفاطمى كانت حتى ذلك الوقت محجوبة عن الأنظار وظهرت إلى النور؛ نتيجة عمليات النَّهْب التى جرت بخزائن تحف القصر الفاطمى[1].

وازدهرت فى العصر الفاطمى العديد من الفنون الفرعية: كالتصوير، وزَخْرَفَة النَّسيج، والخَزَف، والأخشاب ذات الزخارف المحفورة، والعاج والمعادن.



لوحة ٢٥ – رسم على الورق
(متحف الفن الإسلامى)

فقد شجَّع الفاطميون (التَّصْوير) والمُصَوِّرين الذين شملوهم برعايتهم، وحذا حذوهم الوزراء وكبار رجال الدولة. وأشار المقريزى فى الخِطَط نقلًا عن القُضاعى – فى معرض حديثه عن المنافسة بين المُصَوِّرَيْن: ابن عزيز وقصير والتى تمَّت بحضرة الوزير اليازورى (٤٤٢ – ٤٥٠هـ) – إلى كتاب «طبقات المصورين» المنعوت بـ «ضَوْء النِّبْراس وأُنْس الجُلَّاس فى أخبار المُزَوِّقين من الناس»[2]. ويقدِّم لنا المقريزى كذلك وَصْفًا لصور ونقوش ملونة كانت فى جامع القَرافَة الذى بنته على طراز

---

[1] Grabar , O. , « Imperaial and Urban Art in Islam: The Subject Matter of Fatimid Art», *CIHC* pp. 173-89. وانظر كذلك Bloom, J.M., «The Origins of Fatimid Art», *Muqarnas* 111 (1985),pp. 30-38.

[2] المقريزى : الخطط ٢ : ٣١٨ (نقلاً عن القُضاعى).

الجامع الأزهر السيدة زوجة الخليفة المُعِزّ ، ولصورة لسيدنا يوسف فى الجُبّ كانت فى دار النُّعمان بالقرافة[١] . كذلك فقد ذكر الشريف الجوّانى أن الخليفة الآمر بأحكام الله بنى على منظرة بئر دِكَّة الخركاة ، بالقرب من بركة الحَبَش ، منظرة من خشب مدهونة فيها طاقات تُشْرِف على خُضْرَة البركة ، وصَوَّر فيها الشعراء ، كل شاعر وبلده وجعل بجانب كل منهم رَفًّا لطيفًا[١] . وللأسف فلم يصل إلينا شيء من المخطوطات الفاطمية المزينة بالرسوم والصور ، ولكن أبرز مثال وَصَلَ إلينا عن التصوير عند الفاطميين لم يوجد فى مصر – مقر الخلافة الفاطمية – بل فى جنوب أوربا، وهو زخارف صُوَر الفريسكو بالكابِلّا بالتينا Cappella Palatina فى بالِرْم بصِقِلِّيّة والتى أمر بعملها الملك النورماندى روجر الثانى Roger II. فمجموعة الصور الجدارية بألوانها الزاهية التى تُزَيِّن هذه الكنيسة تختلف تمامًا عن الفُسَيْفساء البيزنطية الموجودة في نفس الكنيسة ، فأسلوب صور هذه الأيقونات ، والكلمات العربية الموجودة داخل الصور ، وكذلك صِيَغ التَّبَرُّك العربية المُطَوَّلة المستخدمة كأُطُر لتزويق الصور ، تُظْهِر بوضوح أن الذى نَفَّذَ هذه الأعمال فنانون مسلمون ، ظل الفن الفاطمى مستمرًا معهم منذ أن كانت صِقِلِّيّة خاضعةً للمسلمين[٢] . وتشتمل هذه الرسوم على كثير من الصُّوَر المدنية مثل : صور الراقصات والموسيقيات ومجالس الشراب والطرب ، وصُوَر الحيوان والطير فى أوضاع متماثلة ، أو فى حالة انقضاض بعضها على بعض ، فضلاً عن زخارف نباتية من : النخل والأزهار وأوراق الشجر والفاكهة . ومن بين صور الكابِلّا بلاتينا صورة تمثل إنسانًا جالسًا وفى يده اليمنى كأس وفى اليسرى زهرة ، ويتدلّى فوق جبهته وصدغيه خُصْلات من الشعر ويَحِفّ برأسه هالة ، ويكسو الرداء الذى يرتديه زخارف تتألّف من وحدة متكررة[٤] . وتتّفِق هذه الصورة فى كثير من المميزات مع الصورة التى كُشِفَت بالحمّام الفاطمى بجوار

---

[١] المقريزى : الخطط ٢ : ٣١٨ .

[٢] نفسه ١ : ٤٨٦–٤٨٧ .

[٣] Ettinghausen, R., «Painting in the Fatimid Period - A Reconstruction» , *Ars Islamica* IX (1942) , p. 113; Jones, D., «The Cappella Palatina in Palermo: Problems of Attribution», *Art and Archaeology Research Papers* II (1972), pp. 41-57.

[٤] زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، القاهرة – دار الآثار العربية ١٩٣٧ ، ١٠٥ ، حسن الباشا : التصوير الإسلامى فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٥٩ ، ٨٢ .

منطقة أبى السعود بمصر القديمة والمرسومة على الجَصّ والمخفوظة الآن بمتحف الفن الإسلامى ، وهى تمثل شابًا جالسًا يمسك بيده كأسًا ، ويرتدى جلبابًا تزينه حليات من زخرفة نباتية حمراء اللون وعلى رأسه عمامة ذات طَيّات وحول الرأس هالة كاملة الاستدارة[١] .

وازدهرت (صناعة النَّسيج) فى العصر الفاطمى فى دور الطِّراز العامة والخاصة الموجودة فى تِنِّيس ودِمْياط وشَطا وفى بعض مدن الصَّعيد . وأشار ابن الطُّوَيْر مطولاً إلى وظيفة صاحب الطِّراز وما كان يُعْمَل فى طراز الخاص برسم الخليفة مثل المِظَلَّة وبَدْلَتها والبَدَنَة واللِّباس الخاص الجُمَعى[٢] . كما أن دار الوزير ابن كِلِّس حُوِّلت فى العصر الفاطمى الثانى إلى دار للديباج[٣] ، فقد كان الخلفاء الفاطميون فى حاجة ماسة إلى كميات هائلة من المنسوجات لهم ولرجال البلاط وللكُسْوة الشريفة وللخِلَع التى كانوا يمنحونها فى الاحتفالات والمواسم[٤] . وسَجَّلَ ناصر خُسْرو أثناء زيارته لتِنِّيس إعجابه بما كان يُنْسَج بها من «قَصَب» مُلَوَّن تُصْنع منه العمائم الشَّرَب والطواقى وملابس النساء ، وكذلك قماش البوقلمون وهو قماش ذهبى يتَغَيَّر لونه بتَغَيُّر ساعات النهار[٥] .

وقد نجح النَسّاجون فى العصر الفاطمى نجاحًا كبيرًا فى توزيع الألوان واختيارها بالإضافة إلى ثروتهم الزخرفية الواسعة وابتكارهم فى الرسوم المستخدمة ذاتها . فنجد فيما وَصَلَ إلينا من قِطَع النسيج الفاطمى : السيقان والفروع النباتية مرسومة بثقة وبدقة ، سواء فى التواءاتها أو فى تَفَرُّعها ، ونشؤ غيرها منها ، كما نجدها مزدحمة برسوم الحيوانات على اختلاف أنواعها . وظَلَّت زخارف الأقمشة فى العصر الفاطمى فى تَطَوُّر مستمر ،

---

[١] حسن الباشا : المرجع السابق ٧٨ ، ٨٢–٨٣ . وراجع فى موضوع التصوير ، زكى محمد حسن : المرجع السابق ٨٦–١٠٦ ؛ حسن الباشا : المرجع السابق ١٥٩–١٦٥ ، فنون التصوير الإسلامى فى مصر ، القاهرة ١٩٧٣ ، ٥٦–٩٠ ؛ محمود إبراهيم حسين : التصوير الإسلامى فى مصر فى العصر الفاطمى ، رسالة ماجستير بكلية الآثار – جامعة القاهرة ١٩٧٥ .

[٢] ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٠١ – ١٠٤ ؛ وانظر كذلك Goitein , S. D., « Petitions to Fatimid Caliphs from the Cairo Geneza», *The Jewish Quarterly Review* XLV (1954) , pp. 34-36 .

[٣] المقريزى : الخطط ١ : ٤٦٤ .

[٤] انظر فيما سبق ص ٥٦٢–٥٦٧ .

[٥] ناصر خسرو : سفرنامة ٧٧ .

فقد كانت فى أوَّل الأمر تحمل أشْرِطَة متوازية فى بعضها كتابات ، ثم أخذت هذه الأشرطة تزداد عرضًا وعددًا بين القرنين الخامس والسادس الهجريين/الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين حتى أصبحت فى بعض الأحيان تكسو سطح النسيج كله ، كذلك فإننا نجد على المنسوجات الفاطمية زخارف فى معينات وفى جامات (مناطق) مختلفة الأشكال[١] .

وكانت أسماء الخلفاء وألقابهم تكتب على الأقمشة بلُحْمَة من الذهب أو الفضة أو بخيوط متعددة الألوان ومن مادة أغلى من مادة النَّسيج ، وكان شريطُ الكتابة يشمل أيضًا بعض عبارات الأدعية وتاريخ الصُّنْع واسم مصنع الطِّراز الذى نسجت فيه هذه الزَّخْرَفة[٢] ، فقد كانت كتابة أسماء الخلفاء على الطِّراز أحد رموز السيادة[٣] .

ووَصَلَ إلينا العديدُ من نماذج النسيج الفاطمى محفوظة فى متحف الفن الإسلامى بالقاهرة ، وفى المتاحف العالمية[٤] .

ويُعَدُّ (الخزَف ذو البَريق المَعْدَنى) من أهم الفنون التى تَمَيَّز بها العصر الفاطمى . وإن كان مما يؤسف له أن النماذج السليمة التى نعرفها منه نادرة جدًا ، فما كُشِف منه فى أطلال الفُسطاط ، على كثرته ، نماذج غير كاملة . وقد استخدم المسلمون الخزَف ذا البريق المعدنى بدلاً من الأوانى الذهبية التى حَرَّمَ الإسلامُ استعمالها ؛ لماله من بريق يعادل

---

١ ڤيت ، جاستون : المرجع السابق ٧٦-٧٧ .

٢ زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر ٨٣-٨٥ ، وعن الطراز راجع ، المخزومى : المنهاج ٣٢-٣٣ ؛ ابن مماتى : قوانين ٣٣٠-٣٣١ ، ابن الطوير : نزهة ١٠١-١٠٤ والمراجع المذكورة فى الهامش رقم ٥٥ ، Cahen , Cl ., *Makhzûmiyyât* , pp. 190-193 ؛ صلاح الدين البحيرى : نص هام عن أحوال دار الطراز المصرية فى أوائل الدولة الأيوبية ، القاهرة - مكتبة نهضة الشرق ١٩٨٣ ، وفيما سبق ص .

٣ ابن الصيرفى : الإشارة ١٠٥ ، وانظر تفاصيل الأمتعة المخرجة من القصر الفاطمى وقت الأزمة زمن المستنصر من الستور والمقاطع والثياب المنسوجة من الذهب والفضة وغير ذلك عند الرشيد ابن الزبير : الذخائر والتحف ٢٥٠ - ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ .

٤ عن صناعة النسيج وما وصل إلينا من قطع النسيج الفاطمى راجع ، فيما سبق ص ؛ محمد عبد العزيز مرزوق : الزخرفة المنسوجة فى الأقمشة الفاطمية ، القاهرة - دار الآثار العربية ١٩٤٢ ، سعاد ماهر : النسيج الإسلامى ، القاهرة ١٩٧٧ ؛ Bahgat , A ., «Les manufactures d'étoffes en Egypte», *BIE* (1903) . pp. 351-61 ; Combe , E ., «Tissus fatimides du Musée Benaki» , *Mélanges Maspero* , Le Caire IFAO 1940 , III , pp . 259 - 272 ; Serjeant , R. B., *Islamic Textiles - Material for a History up to the Mongol Conquest*, Beirut 1972 ; Rogers, M., *Early Islamic Textiles* , Brighton 1983; Contadini , A , *Fatimid Art at the Victoria and Albert Museum* , pp. 39-70.

بريق الأوانى الذهبية ، وإن كنا نعلم من المصادر أن الفاطميين ، رغم ذلك ، قد استخدموا الأوانى الذهبية والفضية .

وتطوّرت هذه الصناعة فى مصر تطورًا طبيعيًا حتى بلغت أقصى درجات الجودة فى العصر الفاطمى . وهذا الضرب من الخَزَف يُعَدّ من مفاخر صناعة الخَزَف الإسلامية ، لاسيما وأن الصين الذائعة الصيت فى صناعة الخَزَف لم تعرف هذه الصناعة ، كما لم يَفْلَح الخزّافون الغربيون فى تقليده إلاّ فى القرن الثامن عشر[1] . وقد أشاد ناصر خُسْرو بصناعة الفَخّار فى مصر الفاطمية من كل نوع ووَصَفَه بأنه لطيفٌ وشَفّافٌ ، بحيث إذا وَضَعْتَ يدك عليه من الخارج ظهرت من الداخل ، وأنه كانت تُصْنعَ منه الكؤوس والأقْداح والأطباق ، ويضيف ناصر أن المصريين كانوا يزينونها بألوان تختلف وتتغيّر باختلاف أوضاع الإناء[2] . ومما يدل على ازدهار صناعة الفخّار عمومًا فى العصر الفاطمى ما ذكره ناصر خُسْرو أيضًا من أن التجار فى مصر من بَقّالين وعَطّارين وبائعى خردوات كانوا يعطون الأوعية اللازمة لما يبيعون ، من زجاج أو خَزَف بحيث لا يحتاج المشترى أن يحمل معه وعاء[3].

وذكر صاحب كتاب «الذّخائر والتحف» أن من بين ما وُجِدَ فى القصر فى أثناء الأزمة سنة ٤٦١هـ/١٠٦٨م خزائن مملوءة من سائر أنواع الصينى الذى يستعمله الناس ، وُجِدَ فى بعضها أجاجين (جـ . إجّانة وهو الإناء المعد لغسل الثياب) صينى كبار وصغار محمولة على ثلاث أرجل على صور الوحوش والسّباع والبهائم قيمة كل قطعة منها ألف دينار[4].

---

[1] جمال محمد محرز : «الخزف الفاطمى ذو البريق المعدنى» ، مجلة كلية الآداب – جامعة القاهرة ٧ (١٩٤٤) ١٤٣.

[2] ناصر خسرو : سفرنامة ١٠٣-١٠٤ .

[3] نفسه ١٠٥ .

[4] الرشيد بن الزبير : الذخائر والتحف ٢٥٥ (المقريزى : اتعاظ ٢ : ٢٨٥-٢٨٦ ، الخطط ١ : ٤١٥) .

وتكتسب القطعة الخزفية هذا البريق المعدنى باستخدام أملاح معدنية كالنحاس والحديد وربما الفضة لرسم الموضوعات الزخرفية فوق الطبقة الزجاجية التى يُطْلى بها الفخّار لتمنعه من امتصاص الألوان ، ولهذا تدخل القطعة الخزفية الفرن ثلاث مرات : الأولى لإكساب الطَمْى صلابة ، والثانية لتثبيت الزجاج فوق الفخّار ، والثالثة لتثبيت المعدن ، إذ إن الأملاح تتحوّل باتحادها بالدخان المتصاعد من النار إلى طبقة رقيقة من المعدن فوق الطبقة الزجاجية التى يغلب عليها اللون الأبيض والتى تكون معتمة فى أكثر الأحيان نتيجة إضافة القصدير إلى المادة الزجاجية كما قد تكون شَفّافَة إذا ما أضيف الرصاص[١] .

ويمتاز الخَزَف الفاطمى بأنه ذو لون واحد يميل إلى الاحمرار ويغطى مسطحه الخارجى طلاءٌ رقيقٌ أبيض أو أبيض مائل إلى الزُرْقَة أو الاخضرار وتعلوه رسومٌ ذات بريق معدنى ذهبية اللون[٢] . ولم يتقيّد شكل التحف الخزفية الفاطمية بشىء ، حتى إننا نجد منها ضروبًا شتى من الأوانى ذات الأحجام والأشكال المتنوعة : قدور كبيرة ذات أجسام ضخمة ،وسلطانيات عميقة تشبه الأوانى الإغريقية ، وأطباق مسطحة تشبه الصحون[٣] . أما العناصر الزخرفية التى نجدها على التحف الخزفية الفاطمية فهى رسوم آدمية أو حيوانية أو زخارف نباتية فى مناطق هندسية تصاحبها أحيانًا كتابات كوفية[٤] .

وبلغ الخَزّافون الفاطميون مرحلةً متقدمة فى دقة التعبير فى الرسوم الآدمية التى صَوّروا فيها أشخاصًا يقومون بمختلف الأعمال ، حيث نرى فيها راقصين ومناظر الشَّراب والطَّرَب و الموسيقى ورسومًا لنساء رشيقات ، إلى حد قد يبعث على الظنِ بأنهم تأثّروا

---

[١] جمال محرز : المرجع السابق ١٤٤ .

[٢] زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ١٥١ .

[٣] جمال محرز : المرجع السابق ١٦٥ .

[٤] نفسه ١٦٥ ؛ Grabar , O., «Imperial and Urban Art in Islam : The Subject Matter of Fatimid Art» *CIHC* pp. 178-179.

فى بعض الأحيان برسوم هِلِّينِسْتِيَة أو بيزنطية[١] . وقد وَصَلَت إلينا نماذج عديدة من الخَزَف الفاطمى مثبت عليها مكان الصنع وتوقيع الصانع[٢] .

وإلى جانب الخَزَف ذى البريق المعدنى كانت هناك أنواعٌ أخرى من الفُخّار غير المَطْلى استخدم فى صناعة الأوانى البسيطة اللازمة لطبقات الشعب ، ومن أهمها «القُلَل» التى كانت تستخدم بغرض تبريد الماء ولابد من المسام للوصول إلى هذا الغرض ، وبالتالى فإن ما وَصَل إلينا منها يكاد يكون خاليًا من أى دهان زجاجى . ولكن الفخاريين المصريين استعاضوا عن ذلك بتزيين شبابيك هذه القُلَل بزخارف دقيقة هندسية أو حيوانية ، كما جاء على بعضها عبارات دعاء وتبريك . ويرجع أقدم ما وَصَل إلينا من نماذج «شبابيك القُلَل» إلى العصر الطولونى ، ولكن النماذج التى تشتمل من بينها على أشكال حيوانات وطيور تشبه الحيوانات والكتابات التى نجدها على تحف الخزف ذى البريق المعدنى تؤكِّد انتسابها إلى العصر الفاطمى[٣] . وقد كُشِفَ عن أغلب هذه النماذج فى أثناء الحفائر التى تَمَّت فى الفُسْطاط وهى محفوظة الآن فى متحف الفن الإسلامى بالقاهرة .

ومن الفنون المتطورة فى العصر الفاطمى (المصنوعات الزجاجية) و (صناعة البَلُّور الصَّخْرى) . فمن المصنوعات الزجاجية التى وجدت رواجًا فى العصر الفاطمى «الصَّنَج الزُّجاجية» التى تستخدم كعيارات وزن وكَيْل ويطبع بها على الأوانى لبيان أحجامها المختلفة[٤] . ويُحَدِّثنا المقريزى وهو يصف قرية سمناى ، إحدى قرى تِنِّيس ، نقلاً عن شاهد

---

[١] زكى محمد حسن : «تحف جديدة من الخزف الفاطمى ذى البريق المعدنى» ، مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٣ (١٩٥١) ٩٤ .

[٢] عبد الرؤوف على يوسف : «خزافون من العصر الفاطمى وأساليبهم الفنية» ، مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة ٢٠ (١٩٥٨) ١٧٣-٢٢٣ .

[٣] زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ١٧٢-١٧٤ .

[٤] وراجع بالإضافة إلى المراجع المذكورة فى الهوامش السابقة ، زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ١٤٧-١٧٥ ؛ حسن الباشا : «طبق من الخزف باسم (غَبْن) مولى الحاكم بأمر الله» ، مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٨=

عيان أنه كُشِف بها في ربيع الأول سنة ٨٣٧هـ/أكتوبر سنة ١٤٣٣م غضارات زجاج كثيرة مكتوب على بعضها اسم الإمام المُعِزّ لدين الله وعلى البعض الآخر اسم الإمام العزيز بالله وكذلك اسم الإمام الحاكم بأمر الله واسم الإمام الظاهر لإعزاز دين الله وأكثرها عليه اسم الإمام المستنصر بالله[٢]. وقد وصل إلينا العديد من هذه الصَّنَج ووَجَدَت طريقها إلى المتاحف العالمية[٣].

ولا شك أن صناعة الزُّجاج قد تقدَّمت في العصر الفاطمي تقدُّمًا كبيرًا مَهَّدَ لبلوغها الذروة في عصر المماليك الذى صنعت فيه المشكاوات المُمَوَّهَة بالمينا والتى تعد فخر صناعة الزجاج عند المسلمين على الإطلاق[٤].

ويدلنا على تَقَدُّم صناعة الزجاج والبِلُّور في العصر الفاطمي ما كتبه ناصر خُسْرو وما ذكره صاحب كتاب «الذَّخائر والتحف» في منتصف القرن الخامس الهجري/الحادى عشر الميلادى، بالإضافة إلى النماذج المتعددة التى وصلت إلينا من الكؤوس والقوارير والأوانى الزجاجية.

فيذكر ناصر خُسْرو أنهم كانوا «يصنعون بالفُسْطاط قوارير كالزَّبَرْجَد في الصفاء والرقة ويبيعونها بالوزن»[٥]، وأنه شاهد هناك أيضًا بسوق القناديل «مُعَلِّمين مَهَرَة ينحتون

= (١٩٥٦) ٧١ – ٨٥ ؛ عبد الرؤوف على يوسف : «طبق غَبْن والخزف الفاطمي المبكر»، مجلة كلية الآداب- جامعة القاهرة ١٨ (١٩٥٦) ٨٧-١٠٦ ؛ Wiet , G., «Deux piéces de céramiques égyptienne» , *Ars Islamica* III (1936) pp. 172-179 ; Jenkins, M., «Early Medieval Islamic Pottery: The Eleventh Century Reconsidered», *Muqarnas* 9 (1992), pp. 56-66; Contadini A. *op. cit* ., pp. 71-89.

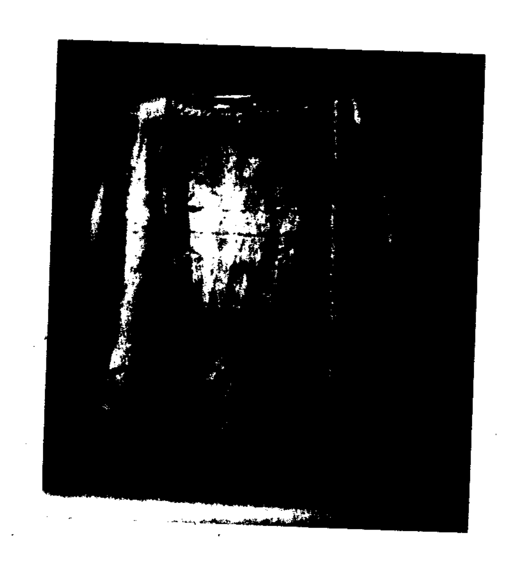
١ زكى محمد حسن : المرجع السابق ١٧٩ .

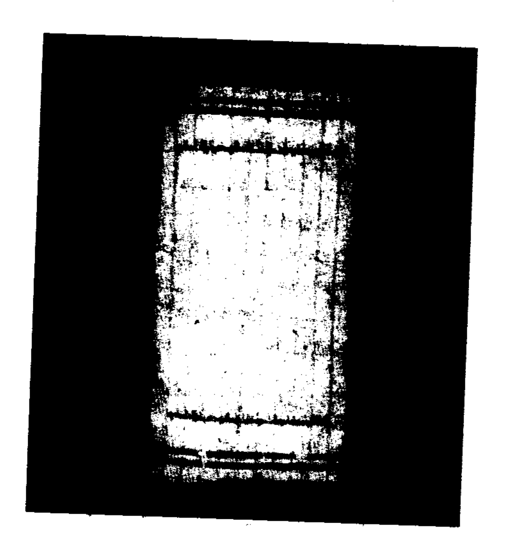
٢ المقريزى : الخطط ١ : ١٨١ ؛ زكى محمد حسن : المرجع السابق ١٨٠ .

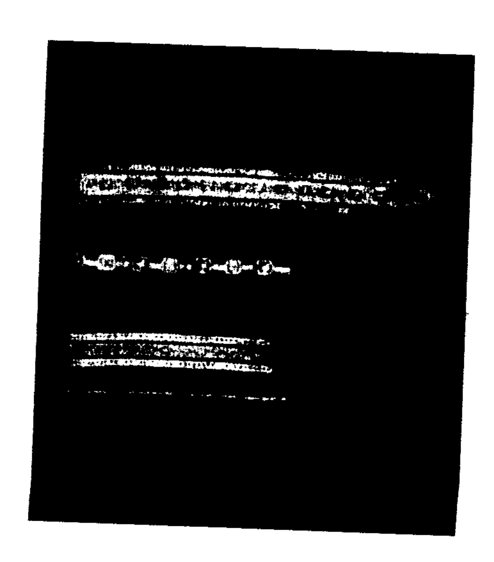
٣ Jungfleisch, H., « Jetons (ou Poids) en verre de l'Imam al-Montazar» , *BIE* XXXIII (1950 - 51) , pp. 359-374; Balog , P., «Fatimid Glass Jetons : Token Currency or Coin - Weights ?» , *JESHO* XXIV (1981) , pp. 93-109; id ., «The Fatimid Glass Jeton» , *Annali Dell'Istituto Italiano* 18-19 (1971-72) , pp. 175-264, 20 (1973) , pp. 121-212 ; Contadini , A., *op. cit* ., pp. 104-108.

٤ زكى محمد حسن : المرجع السابق ١٨٠ .

٥ ناصر خسرو : سفرنامة ١٠٤ .









لوحة ٢٩ - نماذج من النسيج الفاطمى من الكتان والحرير محفوظة
في معهد العالم العربى بباريس ومتحف بيناكى بأثينا

بَلُّورًا غاية فى الجمال ، يحضرونه من المغرب» وأضاف أنه ظهر حديثًا ، عند بحر القُلْزُم «بَلُّور أَلْطَف وأكثر شفافية من بَلُّور المغرب» [١].

ولعل أهم المصنوعات الزجاجية الفاطمية وأكبرها قيمة فنية هو الزجاج الـمُذَهَّب والمُزَيَّن بزخارف ذات بريق معدني . وللأسف فإن ما وَصَلَ إلينا من هذا النوع وكُشِفَ فى حفائر الفُسْطاط ليس نماذج كاملة [٢].

واستخدم الفاطميون كذلك البَلُّور الصخرى فى عمل الكؤوس والأباريق وغيرها ، فيذكر صاحب كتاب «الذَّخائر والتحف» أنه وُجِدَ فى خزائن الطَّرائف والفضة ، وقت الأزمة ، «ستة وثلاثـون ألف قطعة من مُحْكَم وبَلُّور مجرود من سائر أنواعه» [٣]، وأن ناصر الدولة حصل من خزائن القصر على «قاطرميز وعاء عميق ذو غطاء بَلّور فيه صور نابتة عن جسمه يَسَع من الشراب سبعة عشر رطلاً ، ودكُوجَة [٤] بَلّور مجرود تَسَع عشرين رطلاً» [٥]، كذلك وجد فى خزائن القصر «مجمع سكارج [٦] مخروط من قطعة بلُّور بغطائه ، وفيه سكارج بَلّور تخرج منه وتعود إليه ، فتحته أربعة أشبار فى مثلها ، مليح الصنعة فى غلاف خيزران مذهب» [٧] . وكان مما حصل عليه ناصر الجيوش ، على هيئة كيزان الزير المعمولة من النحاس ، نوع معمول من البلُّور المجرود مقبضه مستخرج منه يحمل عشرة أرطال من الماء بالمصرى [٨] .

---

١ ناصر خسرو : سفرنامة ١٠٣ .

٢ زكى محمد حسن : المرجع السابق ١٨٣ .

٣ الرشيد بن الزبير : الذخائر والتحف ٢٥٨ ؛ المقريزى : اتعاظ ٢ : ٢٩٠ .

٤ دَكُوجَة أو دَكُوشَة (ج . دكاكيج . جرّة صغيرة) (Dozy, R., *Suppl . Dict . Ar.* I . 453).

٥ الرشيد بن الزبير : الذخائر ٢٥٩ ؛ المقريزى : اتعاظ ٢ : ٢٩١ .

٦ سُكُرُجة أو سُكُرُّجة (ج . سكارج) القَصْعَة أو الجَفْنَة (Dozy , R., *Suppl. Dict. Ar.* I, 668).

٧ الرشيد بن الزبير : الذخائر ٢٦٠ ؛ المقريزى : اتعاظ ٢ : ٢٩٢ .

٨ نفسه ٢٦١ ؛ نفسه ٢ : ٢٩٣ ؛ وانظر Contadini, A., *op. cit* ., pp. 16-38.









لوحة ٢٧ - نماذج من الخزف الفاطمى ذى البريق المعدنى

محفوظة فى مجموعتى متحف بيناكى بأثينا ومتحف الفن الإسلامى بالقاهرة

ومن أهم نماذج البلُّور الصخرى التى وصلت إلينا إبريق على شكل كمثرى محفوظ فى كنوز كاتدرائية سان مارك بمدينة البندقية [لوحة ٢٩] يشتمل على زخارف تمثِّل أسدين بينهما شجرة الخلد وعلى المقبض خروف صغير، وبين رقبة الإبريق وبدنه شريط من الكتابة الكوفية نصّها :

« بركة من الله للإمام العزيز بالله »

وإبريق آخر محفوظ فى متحف فيكتوريا وألبرت بلندن قوام زخرفته مجموعتان من الحيوان تتكوَّن كل منهما من صقر ينقض على غزال ليفترسه[١] [لوحة ٣٠].

وغير ذلك من النماذج المنتشرة فى المتاحف والمجموعات العالمية. وأكثر هذه النماذج كان له مقبض مستقيم وفى أعلاه هيئة حيوان أو طائر صغير ليرتكز عليه الإبهام عند مسك الإبريق، أما البَدَن فكان مزيَّنًا بزخارف مقطوعة فيه وقوامها حيوانات أو طيور أو فروع نباتية مرسومة بدقة وانسجام وتناسب وتناسق[٢].

أما أحسن فروع الفن الفاطمى حظًّا فى وفرة النماذج التى وَصَلَت إلينا فهى (الأخشاب ذات الزَّخارف المحفورة – Bois Sculptés). وقد وصلت إلينا منها نماذج كثيرة على شكل حَشَوات وألواح خشبية ومصاريع أبواب ومنابر متنقلة، كانت فى المساجد والكنائس وبقايا القصر الفاطمى الصغير، محفوظة اليوم فى متحف الفن الإسلامى بالقاهرة، وتعد أغنى المجموعات الخشبية فى متاحف العالم أجمع.

وفى دراسته الهامة عن «مميزات الأخشاب المزخرفة فى الطِّرازَيْن العَبّاسى والفاطمى فى مصر» قَسَّم فريد شافعى الطِّراز الفاطمى إلى ثلاث مراحل. المرحلة الأولى وتشمل النصف الأول من القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى، والمرحلة الثانية وتشمل النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى والربع الأول من القرن

---

١ Contadini, A., *op.cit.*, pp. 30, 37-38.

٢ زكى محمد حسن : المرجع السابق ١٨٩-١٩٢ .



لوحة ٢٨ - نماذج من شبابيك القُلَل (متحف الفن الإسلامى بالقاهرة)



لوحة ٢٩ - إبريق على شكل كمثرى
(كاتدرائية مان مارك بمدينة البندقية)



لوحة ٣٠ - إبريق من البلّور الصخرى
(متحف فيكتوريا وألبرت بلندن)






لوحة ٣١ - نماذج لكؤوس وأكواب وأقداح وقناديل من الزجاج الفاطمى

محفوظة فى متحف الدولة فى برلين

السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى، وا لمرحلة الثالثة وتشمل الربع الثانى والربع الثالث من القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى[١] .

وتعد المرحلة الأولى استمرارًا للطراز الطولونى أو الطراز السّامرى الثالث فى مصر (نسبة إلى سامَرّاء) ، وأهم نماذجها حشوات مصراعى الباب الذى أمر بعمله الحاكمُ بأمر الله ليوضع فى الجامع الأزهر وقت تجديده سنة ٤٠٠هـ/١٠١٠م[٢] .

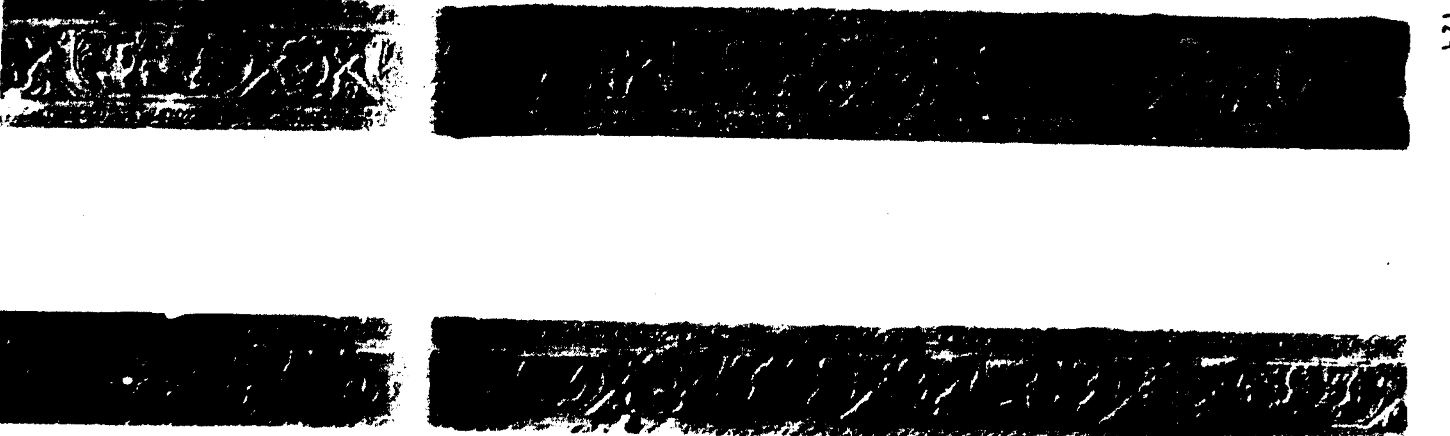
وأهم نماذج المرحلة الثانية الأخشاب التى اكتشفت أثناء عملية ترميم مارستان قلاوون فى مطلع هذا القرن ، فقد كشف فيه عن مجموعة نادرة من التحف الخشبية كانت مستخدمة بالقصر الفاطمى الغربى ، الذى بنى فى موضعه المارستان ، وأعيد استخدامها فى المارستان على وجهها الآخر فى كسوة الجزء العلوى من جدران مارستان قلاوون . وهى عبارة عن ألواح طويلة يبلغ عرض الواحد منها نحو ٣٠ سم كانت مستخدمة فى تغطية الإفريز الأعلى بالجدران[٣] . وقد زخرفت هذه الألواح بتقسيمها إلى ثلاثة أشرطة ، الأوسط

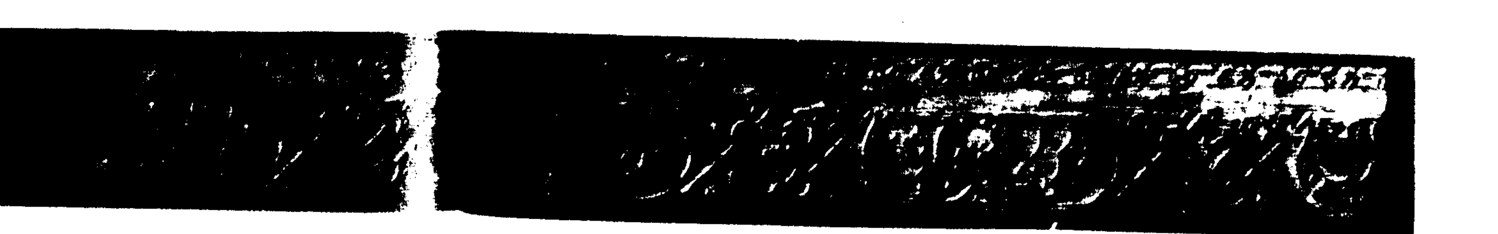
لوحة ٣٢ - أحد مصراعى الباب الذى أهداه الخليفة الحاكم للجامع الأزهر

[١] فريد شافعى : «مميزات الأخشاب المزخرفة فى الطرازين العباسى والفاطمى فى مصر» ، مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٦ (مايو ١٩٥٤) ٦٦-٩١ .

[٢] زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ٢٠١-٢٠٢ ؛ فريد شافعى : المرجع السابق ٦٤ .

[٣] انظر Herz , M ., «Boisserie fatimites aux sculptures figurale» , *Orientalisches* Archiv III (1913) , pp. 16 -174 ; Marcais , G ., «Les figures d'hommes et de bêtes dans les bois sculptés d'époque fatimide conservés au Musée du Caire» , *Mélanges Maspero* , Le Caire IFAO 1940 , III, 241-57; Contadini, A., *op. cit* ., pp. 109-116 .





لوحة ٣٣ - نماذج لألواح خشبية محفورة استخدمت فى تغطية الإفريز الأعلى بجدران القصر الفاطمى الغربى (متحف الفن الإسلامى بالقاهرة)

عريض وفى حافتيه العليا والسفلى شريطان رفيعان مزخرفان بعروق على هيئة أمواج مطردة أو متقابلة فى تماثُل وتخرج منها أوراق نخيلية وأنصاف نخيلية ، وزخرفت أمثلة قليلة من هذ الأشرطة الرفيعة بحلزونات بداخلها عناصر نباتية ورسوم حيوانات وطيور .

أما الشريط الأوسط العريض فقد قُسِّم إلى مناطق هندسية تملأها عناصر آدمية وحيوانات وطيور تمثل موضوعات مختلفة منها مناظر صيد وقَنْص ومنها مجالس شراب وطَرَب وغير ذلك ، وملئت أرضية تلكُ العناصر بزخارف نباتية دقيقة مستواها منخفض عن مستوى المناطق الهندسية والأشرطة الرفيعة وعناصر الكائنات الحية ، أى أن الحفر فى هذه الألواح قد عمل على مستويات ثلاثة[1].

ويرى فريد شافعى أن الألواح المُثبَّتة بالجدران الداخلية لمدفن شجر الدر ، فى مستوى أعتاب الأبواب وتحت قبة المحراب ، قد صنعت فى العصر الفاطمى وانتزعت من مكانها الأصلى وأعيد استخدامها فى هذا المدفن ، حيث إن التكوين الزخرفى فيها هو نفسه الموجود فى الألواح المكتشفة فى مجموعة قلاوون . وتميَّزت ألواح مَدْفَن شَجَر الدُّر بأن الأشرطة الوسطى العريضة بها ملئت بكتابات كوفية كلها آيات قرآنية ما عدا شريط واحد به عبارات دعائية ، عوضًا عن العناصر الآدمية والحيوانية ورسوم الطيور التى وجدت فى مجموعة قلاوون ، إلَّا أن الحَفْر فى هذه الألواح تم على مستويين وليس على ثلاثة مستويات كما فى المجموعة السابقة[2] .

أما المرحلة الثالثة فتَميَّزت بظهور عناصر ذات أصل هِلِّينِسْتى وأخرى ذات طابع إسلامى أهمها زخارف الأرابيسك وازدياد التعقيد والتنويع فى التقسيم الهندسى والاتجاه نحو تجميع حَشَوات صغيرة منفصلة مختلفة الأشكال بواسطة ضلوع مُعَشَّقَة[3] . وأهم نماذج هذه المرحلة : ضلفتا باب من مسجد السيدة نفيسة ، ومحراب مسجد السيدة

---

[1] فريد شافعى : المرجع السابق ٧٤-٧٥ .
[2] نفسه ٧٥ .
[3] نفسه ٨٠-٨١



لوحة ٣٤ - المحراب الذى أهداه الآمر بأحكام الله إلى الجامع الأزهر (متحف الفن الإسلامى بالقاهرة)

لوحة ٣٥ - محراب مشهد السيدة نفيسة (متحف الفن الإسلامى بالقاهرة)

نفيسة ، ومحراب السيدة رُقَيّة ، وحشوات باب جامع الفكهانى (الأفْخَر) ، ومصراعى باب جامع الصَّالح طلائع وأضاف إليها فريد شافعى حجاب الهيكل فى كنيسة الست بَرْبارَة بمصر القديمة المحفوظ فى المتحف القِبْطى[1] ، والذى كان الباحثون يرجعونه عادة إلى المرحلة الأولى[2] .

ونظرًا لأن الفن الإسلامى لم يكن يُحَبِّذ تصوير الكائنات الحية ، وبالتالى تشكيل ونحت التماثيل، فإنه لم يصل إلينا تماثيل بمعنى الكلمة من العصر الإسلامى اللهم إلّا أمثلة نادرة أغلبها من « البْرُنْز » ترجع كلها إلى العصر الفاطمى - فيما عدا استثناءات قليلة - تعطينا فكرة بسيطة وغير تامة عن ازدهار « صناعة المعادن » فى العصر الفاطمى . وتكاد التماثيل البرنزية الصغيرة التى وصلت إلينا أن تكون جُلّ ما بقى لنا من منتجات صناعة المعادن فى ذلك الوقت والتى كان الغرض منها زخرفيًا قبل كل شىء ، اللهم إلّا حين نرى إناءً صنع على شكل طائر أو حيوان يذكرنا بما عرف فى الغرب فى فترة العصور الوسطى باسم أكوامانيل Aquamanil . ومن أشهر التماثيل الفاطمية التى وصلت إلينا عُقاب البرنز الموجود الآن فوق إحدى أروقة الكامبوسانتو (المقبرة أو الجبّانة) بمدينة بيزا الإيطالية (ارتفاعه ١٠,٥ وطوله ٨٥ سم) ، ويقال أنه جُلِبَ من مصر إلى إيطاليا على يد عمورى الأول ملك بيت المقدس بينى سنتى ٥٥٩-٥٦٩هـ/١١٦٢-١١٧٣م ، ويظن أنه كان جزءً من فَوّارة مائية .

ومن أدقّ التماثيل الفاطمية المعروفة كذلك أيْل مُجَوّف من البْرُنْز محفوظ فى المتحف الباڤارى بمدينة ميونخ ، ارتفاعه ٤٦ وطوله ٣٠ سنتيمترًا ، وله قرن طويل وذنب قصير وفى رقبته وبدنه ثقبان يحملان على القول بأنه كان ذا مقبض متصل برقبته ومؤخره .

---

[1] فريد شافعى : المرجع السابق ٨٢ .

[2] زكى محمد حسن : المرجع السابق ٢٠٤ وانظر كذلك حول موضوع الأخشاب المحفورة Pauty, E., *Les bois sculptés jusqu'à l'époque ayyoubide* , Le Caire - IFAO 1931 ; id., *Bois sculptés d'églises coptes (époque fatimide)* , Le Caire - IFAO 1930.

لوحة ٣٦ – نماذج من الحلى الفاطمى

ويحتفظ متحف الفن الإسلامى بالقاهرة بأسد من البُرُنْز (ارتفاعه ٢١ وطوله ٢٠ سم) وذنبه مجدول ينتهى بشكل رأس حيوان ، وفمه مفتوح ، كما أن فى بطنه وفى صدره وعينيه ثقوبًا [محفوظ فى المتحف برقم ٤٥٠٥]، ويظن أن هذا التمثال كان من أجزاء فسقية من العصر الفاطمى [لوحة رقم ٣٧].



لوحة ٣٧ - تمثال لأسد من البرونز

(متحف الفن الإسلامى بالقاهرة)

وعَدَّد زكى محمد حسن فى كتابه « كنوز الفاطمين » نماذج التماثيل والآنية البُرُنْزية المحفوظة فى المتاحف العالمية . وتحتفظ هذه المتاحف كذلك بالعديد من نماذج المباخر البُرُنْزية المصنوعة على شكل طيور أهمها الموجود فى متحف اللوڤر والمتحف البريطاني . وأكثر النماذج المعروفة فى هذا النوع عليها كتابه بالخط النسخى رَجَّحَ زكى حسن من خلالها أنها ترجع إلى نهاية الدولة الفاطمية وبداية العصر الأيوبى[1].

ومن القطع النادرة التى وصلت إلينا كذلك نماذج للحِلىّ والمعادن النفيسة التى كانت زينة للأميرات والمحظيّات كشف عن عدد كبير منها فى حفائر الفُسْطاط ، وأكثر هذه القطع محفوظ فى متحف الفن الإسلامى بالقاهرة وفى متحف بناكى بأثينا وفى مجموعة المسيو رالف موارى ، وتمتاز هذه الحلّى بزخارفها المُشَبَّكة والبارزة وذات الخروم وكلها دقيقة وجميلة ويغلب عليها التَّنَوُّع الذى ينم عن قدرة فى الصنعة[2] [لوحة ٣٦].

---

[1] زكى محمد حسن : المرجع السابق ٢٣٢-٢٤٢.

[2] نفسه ٢٧٤-٢٤٨.

الكتاب الثالث

الجيش والبحرية



الفصل الثامن عشر

الجيش الفاطمي

نشأ الجيشُ الفاطمي مع تأسيس الدولة الفاطمية فى شمال إفريقيا ، وهو الجيش الذى اعتمد عليه أبو عبد الله الشيعى فى تقويض الدولة الأَغْلَبِيَّة فى إفريقية ، وتَحَمَّل المحاولات المتكررة لفتح مصر إلى أن نجح فى إتمام عملية الفتح في سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م على يد القائد جوهر الصَّقْلَبي .

الفـــترة الإفـــريقية

تكَوَّنت البنية العرقية للجيش الفاطمى فى الفترة الإفريقية من أربعة عناصر أساسية هى : الكُتامِيُّون والصَّقالِبَة والزُّوَيْليون والجنود العرب .

كان « الكُتامِيُّون » يُمَثِّلون طوال الفترة الإفريقية العنصر المتفوِّق داخل الجيش الفاطمى . فقد كان الفاطميون فى حاجة إلى عصبية يعتمدون عليها فى توطيد أركان دولتهم ، فاعتمدوا على بربر كُتامَة وعهدوا إليهم بالقيادات الهامة . ولعب الكُتاميون دورًا هامًّا ومتميزًا فى انتصار الفاطميين وتعاظم قدراتهم مما أدّى إلى القضاء على العنصر العربى فى إفريقية . وهكذا تمكّن الكُتاميون من امتلاك السلطة العظمى فى إفريقية ونجحوا فى إقامة الإمبراطورية الفاطمية فى شمال إفريقيا ثم فى مصر[١] .

وقد أسهب المؤرخون فى وصف الخصال الحربية الخارقة للكُتامِيين الذين أشاد الخلفاءُ الفاطميون دومًا بفضلهم على الدولة[٢] . وقد ظهر دور الكُتاميين وغيرهم من

---

[١] Dachraoui, F., *Le califat fatimide au Maghreb* , pp. 364-65 .

[٢] القاضى النعمان : المجالس والمسايرات ٩٦، ٢٠٣، ٢١٨، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٥٥، ٣٢١.

عناصر الجيش الفاطمى فى نُصْرَة الدولة الفاطمية بوضوح فى أثناء ثورة أبى يزيد الخارجى سنة ٣٣٤هـ/٩٤٦م . وتبعًا للقاضى النُّعْمان فإن الجيش الفاطمى كان يتكوَّن فى ذلك الوقت من سبعين ألف رجُل كان بينهم على سبيل التقريب ٥٠ ألف كُتامي والبقية من الصَّقالبة والزُّوَيْليين والمجندين العرب الذين كان عددهم قليلا فى دولة تعتمد أساسًا على البربر [١].

وكان « الصَّقالبة » ، سواء أكانوا خصيانًا أو لا ، يأتون فى معظمهم من بلاد البَلْقان أو من البندقية إثر الغارات التى كان يقوم بها الغزاة العرب فى البحر أو نتيجة الأَسْر أثناء المعارك مع البيزنطيين الذين كان جيشهم يضم عددًا من الصَّقالبة [٢].

وهكذا كان الصَّقالبة من بين الموالى الأوائل للفاطميين ، كما أن حرس الخليفة المهدى كانوا جميعهم من الصَّقالبة ، وكان بعضهم فى خدمة المهدى منذ أن كان فى سَلَمْيَة بالشام قدموا عليه من خُراسان حيث تولَّى بيعهم البلغاريون التابعون لمنطقة الفولجا جيران الصَّقالبة .

وقام الصَّقالبة بدور مهم فى تنظيم الجيش الفاطمى طوال الحملة التى قام بها الخليفة المنصور على صاحب الحمار أبى يزيد الخارجى ، كما قاد أشهر هؤلاء الصقالبة وهو جوهر الصَّقْلِبى الجيوش الفاطمية غربًا وشرقًا لمد نفوذ الفاطميين .

ومما لا شك فيه أن الصَّقالبة كانت تحدوهم روح العصبية والتضامن الجنسى ، ولكن بحكم انعزالهم داخل المجموعة الإفريقية كانت عصبيتهم أقل خطورة من العصبية البربرية أو العربية .

---

[١] القاضى النعمان : المجالس والمسايرات ٥٥٤؛ وراجع عن الكتاميين لقبال محمد موسى : دور قبيلة كتامة فى قيام الخلافة الفاطمية ، الجزائر ١٩٧٩؛ Basset, R., *EI*² art. *Kutâma* V , 544-45 .

[٢] Dachraoui, F., *op. cit*, p. 369-70 .

وهكذا فإن الصّقالبة كانوا ينتمون إلى فئة اجتماعية تابعة للخاصة وكانوا يحتلون فى السلم العسكرى والمدنى مرتبة لا تقل عن مرتبة مشايخ كتامة . ورغم أن دورهم العسكرى كان دون دور المشايخ الكُتاميين ، فيبدو أنهم كانوا يحظون باعتبار كبير راجع إلى روابط الولاء التى كانت تربطهم بشخص الإمام [١].

وإلى جانب الصّقالبة من الموالى كان يوجد مماليك صقالبة كانوا يحاربون على حدة بقيادة أحد أبناء جنسهم هو الحسن بن رشيق الريحانى الملقب بالكاتب والذى انتصر على أبى يزيد الخارجى أمام سُوسَة . وكانت قواتهم تقوم أثناء عمليات الحصار بأعمال شاقة تستدعى كثيرًا من الشجاعة والمهارة مثل أعمال التقويض والهدم [٢].

ويلاحظ أن كلمة العبيد كانت تُطْلَق على الرقيق الأبيض ذوى الأصل المسيحى العاملين فى خدمة الخليفة الفاطمى المنصور بالله ، بينما كان يُطْلَق على بنى جلدتهم الذين ارتقوا إلى رُتْبَة قائد اسم الخادم أو عبد الإمام أو الصَّقْلبي .

أما « الزُّوَيْليون » فينسبون إلى زُوَيْلَة قاعدة إقليم فَزّان بالقرب من بلاد الكانم (تشاد الحالية) . وكانوا يؤلّفون داخل الجيش الفاطمى فَيْلَقًا خاصًا بقيادة واحد من بنى جنسهم اسمه صَنْدَل ، كما كانوا يمثلون العبيد السود داخل الجيش الفاطمى . ويرجع استخدام العبيد الزُّوَيْليين السود إلى مستهل عهد المَهْدى حتى أصبحوا يكوّنون قسمًا هامًّا من مُشاة الجيش الفاطمى ، وشاركت فرقة منهم فى الحملة الفاطمية الأولى على مصر وأوقعهم جيش مُؤْنس الخادم فى الأَسْر [٣].

وأخيرًا فإن « العنصر العربى » كان يُمَثِّل بقايا الجنود الإفريقيين بعد زوال النظام الأَغْلَبى . فقد كان الأغالبة – وهم فى الأساس دولة عربية – لا يعتمدون على الصّقالبة

---

١ Dachraoui, F., *op.cit*, p. 370.

٢ Ibid ., p 368 ولمزيد من التفصيلات عن العنصر الصَّقْلَبى راجع ، Guichard, P. & Mohamed Meouak , *EI*² art. *al-Sakâlilâ* VIII, 902-911

٣ Ibid ., pp . 370-71

أو البَرْبَر ، إنما كان اعتمادهم على العنصر العربى وخاصةً من المضريين ، بينما أهمل النظام الفاطمى الذى تدعمه العصبية القبلية الكُتامية العنصر العربى . وعلى ذلك فقد كان العنصر العربى يُمَثِّل أقلية فى الجيش الفاطمى يطلق عليهم اسم الجنود أو « أهل إفريقية » [١].

ومع ذلك فقد كان عددٌ كبيرٌ من الجنود العرب يعملون فى الجيش الفاطمى فى أوائل عهد الخليفة المهدى ، وتنتمى هذه العناصر بالخصوص إلى جنود بَرْقَة وطرابلس الذين سنجدهم إلى جانب الكتاميين بقيادة أبى القاسم محمد ولى عهد المهدى الذى لُقِّب بعد ذلك بـ « القائم » أثناء الحملتين الفاطميتين الأوليتين على مصر (٣٠١ هـ/ ٩١٣م-٣٠٧هـ/٩١٩م) ثم تحت إمرة المنصور أثناء مطاردة أبى يزيد وفلول الخوارج [٢].

ورغم أن الجيش الفاطمى فى إفريقية كان يرتكز فى الأساس على البربر الكتاميين ، فإنه كان فى حاجة إلى خدمات العناصر العربية لتحقيق الأهداف التى رسمها الفاطميون الحكّام الجدد للبلاد . إلاّ أن هذه السياسة لم تدم طويلا وأصبحت لدى الخلفاء الفاطميين الأوائل قناعةٌ بعدم الاعتماد على هذا العنصر [٣].

* * *

ولعب الجيش الفاطمى فى الفترة الإفريقية دورًا كبيرًا فى إخماد الثورات الداخلية ضد الدولة الفاطمية ، وأهم هذه الثورات حركة أبى يزيد مَخْلَد بن كَيْداد صاحب الحمار التى هَزّت العرش الفاطمى وعَرّضته للسقوط ، وكذلك فى توسيع رُقْعَة الدولة والاستيلاء على أراضى جديدة شرقًا وغربًا ، كان أهمها ما تم فى عهد المعز على يد جَوْهَر القائد الصَّقْلَبى الذى قاد جيوش الفاطميين سنة ٣٤٧هـ/٩٥٨م ضد البربر المناهضين للخلافة فى سِجِلْماسَة وتاهَرْت [٤]، كما قاد حملة مماثلة فى سنة ٣٥٧هـ/٩٦٨م بغرض

---

١ Dachraoui, F., *op. cit.*, p. 372.

٢ *Ibid*., p. 372.

٣ *Ibid*., p. 373.

٤ المقريزى : اتعاظ الحنفا ١: ٩٣- ٩٤.

فرض النظام فى المغرب الأقصى ، وأخيرًا فَتْح مصر سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م والتمهيد لانتقال الخلافة الفاطمية إلى المشرق .

تنظيـــم الجيـــش

كان الجيش الفاطمى فى الفترة الإفريقية – كما رأينا – ذا صبغة بربرية وصَقْلَبية ويتألَّف فى معظمه من « الخَيَّالة » . فقد كان الكُتاميون مقاتلين جبليين تَعَوَّدوا القتال على صهوة جيادهم ، ورغم أن غالبيتهم كانوا يملكون خيولهم الخاصة فإن إدارة الجيش الفاطمى كانت تعتنى بالإضافة إلى تسديد جرايات ورواتب العسكر بعتاد الجنود ، وكانت بالتالى تسهر على إمداد ذلك العدد الضخم من الفرسان بالخيول والسروج والسلاح المناسب [١].

وكان سلاحُ الفارس يتكون عادة من « الرُّمْح » المعد للطعان و « السَّيْف » و « الدَّرَقة » ، وهى عبارة عن درع مستدير مصنوع من الجلد يستعمله الفارس للاحتماء به من ضربات العدو بالسيف أو الرُّمْح [٢].

كما كانت فرق المشاة تقوم بدور رئيسى أثناء عمليات الحصار أو المعارك الواسعة النطاق ، أو أثناء التحام الجنود فى ساحة الوغى . وكانت مهمة الرجّالة المسلحين بالرماح والمحتمين بدروعهم المعروفة بالدَّرَقَة تتمثَّل فى تلقى ضربات العدو فى بداية المعركة والرد عليها بتوجيه الضربات الفتاكة نحو الفارس وجواده على حد سواء . وعندما كان الجندى الراجل يلتحم مع العدو فإنه كان يستعمل « العِتْرَة » أو « الرُّمْح الصغير » [٣].

---

١ Dachraoui , F., *op. cit.,* P. 376.

٢ *Ibid* ., p. 376 .

٣ *Ibid* ., p. 377 .

الفـــــترة المصـــــرية

جَيْشُ مصر قبل الفَتْح الفاطمي

كان الجيشُ على عهد محمد بن طُغْج الإخشيد، مؤسِّس الدولة الإخشيدية فى مصر، يتألَّف من الترك والمغاربة ومماليك من أجناس مختلفة. وبعد وفاة محمد بن طُغْج الإخشيد وتولِّي كافور ضمَّ إلى الجيش عددًا كبيرًا من السودانيين[1].

وانقسم الجيش فى عهد كافور إلى جند ينصرون أبناء الإخشيد عرفوا بـ«الإخشيدية» وآخرون ينصرون كافورًا عرفوا بـ«الكافورية». وبعد وفاة كافور فى سنة ٣٥٧هـ/٩٦٨م دَبَّت الفوضى فى صفوف هذا الجيش وثار كثيرٌ من الجند على رؤسائهم وطالبوا بأرزاقهم، خاصة وأن الجند قد تعَوَّدوا أن يشترى الأُمراء طاعتهم بالمال والعطايا[2].

وقد ذكر المقريزى أن جيش الإخشيديين فى مصر والشام بلغ أربعمائة ألف مقاتل[3]، ورغم المبالغة الواضحة فى هذا الرقم إلا أنها تَدُلُّ على كبر حجم هذا الجيش الذي لم يُخْتَبَر.

وبعد فَتْح جَوْهَر الصَّقْلَبى لمصر ألقى القبض على ثلاثة عشر من رؤساء الكافورية والإخشيدية بعد أن بلغه تآمرهم ضد النظام الجديد[4]. كما أن الفاطميين لم يعملوا على دَمْج بقية فرق الإخشيدية والكافورية كعناصر نظامية فى الجيش الفاطمى مثلما فعلوا فى شمال إفريقيا عندما أدمجوا بقايا الجيش الأَغْلَبى فى جيشهم[5].

---

[1] المقريزى: الخطط ١: ٩٤؛ سيدة إسماعيل كاشف: مصر فى عصر الإخشيديين ٢٤٥، ٢٤٦.

[2] سيدة إسماعيل كاشف: المرجع السابق ٢٤٧.

[3] المقريزى: الخطط ١: ٩٤.

[4] المقريزى: اتعاظ الحنفا ١: ١١٧-١١٨.

[5] Lev, Y., *State and Society in Fatimid Egypt*, Leiden-Brill 1991, p 84.

الجيش الفاطمي في مصر

سبق أن ذكرت كيف جَمَعَ المعز لدين الله فى المحرم سنة ٣٥٨هـ/ديسمبر سنة ٩٦٨م بالقرب من مدينة رَقّادة نحو مائة ألف فارس أغلبهم من القبائل البربرية وخاصة قبيلة كُتامة ومن الزُّوَيْليين ومن الصَّقَالبة . أُعدّ هذا الجيش بعناية فائقة من ناحية العُدَّة والعتاد حتى أن المفاوضين المصريين الذين تفاوضوا مع القائد جوهر الصَّقْلَبى الذى قاد جيوش الفاطميين إلى مصر وكتب لهم « الأمان » وصفوا حجم جيشه بأنه « مثل جَمْع عرفات كثرة وعُدَّة » « حتى قيل إنه لم يطأ الأرض بعد جيش الإسكندر أكثر عددًا من جيوش المعز »[1].

ولم يكن الفتح الفاطمى لمصر نتيجة عمل عسكرى بطولي مشهود لهذا الجيش الكبير الذي قاده جوهر الصَّقْلَبى ، وإنما اجتمعت عوامل أخرى مختلفة جعلت عملية الفتح تتم دون مقاومة تُذْكر . وهكذا دخل جوهر على رأس جيش الفاطميين إلى مصر ، وفور استقراره بدأ فى وضع أساس عاصمة إدارية جديدة فى مصر هى « القاهرة » شمال شرق مدينة الفسطاط ، وهى عبارة عن منشآت ملكية مماثلة لقطائع أحمد بن طولون تضم حارات (أحياء) لسكن فرق الجند[2]. كانت تضم فى أوّل الأمر حارات كُتامَة والرُّوم والرُّوم الجُوّانية وزُوَيْلة والباطلية والبَرْقيّة وهى العناصر التى صحبت جيش جوهر والتى قدمت بعد ذلك مع المعز فى سنة ٣٦٢هـ/٩٧٣م . واعتباراً من خلافة العزيز بالله أضيفت إليها حارتى الأتراك والدَّيْلَم . ولم تكن للسودان أية حارة خاصة بهم فلم يبدأ ظهورهم كجزء هام فى القوات الفاطمية المترجلة إلا اعتبارًا من خلافة المستنصر بالله .

---

[1] فيما سبق ص ١٣٨-١٣٩ .

[2] راجع للمؤلف : التطور العمرانى لمدينة القاهرة منذ إنشائها وحتى الآن، القاهرة ـ الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٧؛ Fu'âd Sayyid, A., *La capitale de l'Egypte*, pp. 172-86.

ووُجِدَ داخل القاهرة كذلك عددٌ من الحارات التى سكنتها طوائف من عسكر الدولة الفاطمية نسبوا إلى بعض الوزراء وقادة الفرق المغربية مثل: حارة المحمودية وحارة الجودرية وحارة الوزيرية وحارة العُطوفية وحارة الميْتاحية وحارة الفَرْحية وحارة [صبيان] الطّوارق وحارة العَدَوِيّة وحارة اليانسية وحارة قائد القُوّاد[١].

* * *

كانت السيطرة على الشام تُمثّل دائمًا أولوية استراتيجية لكل نظام يتولّى حكم مصر. فعلى ذلك فقد أرسل جوهر أحد قادة كُتامة الذين شاركوا فى فتح مصر هو جعفر بن فلاح الكتامى على رأس جيش إلى الشّام. فتمكن من فتح الرّملة ثم دمشق وإقامة الدعوة بهما للخليفة المعز فى سنة ٣٥٩هـ/٩٧٠م. وأتم جعفر فتح الشام فى سنة ٣٦٠هـ/٩٧١م، ولكن القرامطة – الذين استغاثت بهم فلول الأخشيديين – تَصَدّوا للفاطميين.

لم يكتف القَرامِطَة بهزيمة الفاطميين في دمشق بل هاجموا الفاطميين فى مصر مقر خلافتهم، وشَجّع هجوم القَرامِطَة أهالى الفَرَما وتِنّيس على التمرّد على الفاطميين. ولم يعد الهدوء الدائم إلى هذه الأقاليم إطلاقًا بين سنتى ٣٦٠هـ/٩٧١م و٣٦٣هـ/٩٧٤م حتى تمكّن جيشٌ بقيادة أبو محمد بن عَمّار كانت تحت إمرته أكثر من عشرة آلاف مقاتل من القيام بسلسلة من عمليات الردع العنيف لسكان هذه المناطق[٢].

وقد قامت بعض القوات الفاطمية بمتابعة فلول القرامطة ومطاردتهم حتى دمشق فنشروا الفوضى بها مما دفع أهلها إلى الاستنجاد بالقائد التركى أَفْتَكِين – مولى معز الدولة بن بُوَيْه – الذي كان قد خرج منهزمًا من العراق فى أعقاب فتنة الأتراك

[١] راجع، ابن عبدالظاهر: الروضة البهية الزاهرة ٢١–٦٧؛ المقريزى: الخطط ٢: ٢–٢٣.
[٢] فيما سبق ص ١٥١–١٥٢.

واستجاب لنجدة أهالى دمشق وخطب فيها للعبّاسيين وقَطَعَ خُطْبَة الفاطميين سنة ٣٦٤هـ/٩٧٥م .

وبعد وفاة المُعِزّ لدين الله وتولّى ابنه العزيز بالله الخلافة أعد جيشًا بقيادة جَوْهَر الصَّقْلَبى لمنازلة أَفْتَكين التركى بالشام بعد رفضه لمراسلات العزيز ورده عليها ردًّا غليظًا يدل على استهانته بالخلافة الفاطمية فى مصر . وبعد قتال استمر شهرين أظهر فيها جيش أَفْتَكين كفاءة كبيرة ساندته فيه جيوش القرامطة الذين استعان بهم أهل دمشق ضد جيش جَوْهَر ، اضطر الجيش الفاطمى للانسحاب إلى طَبَرِيَّة وعَسْقَلان حيث حاصرته بها قوات أَفْتَكين . ثم نجح جَوْهَر فى عَقْد اتفاق معه لإنقاذ الجيش الفاطمى المحاصر فى عَسْقَلان . وكان الشرط مقابل ذلك هو أن يُعلَّق على باب المدينة سيف أَفْتَكين ورمح القرمطى ويسير الجند الفاطمى من تحتهما .

بعد عودة جَوْهَر إلى مصر اقترح على الخليفة العزيز أن يخرج بنفسه على رأس جيش لمحاربة هذه القوات جَهَّزَه تجهيزًا حسنًا وحمل معه توابيت آبائه على عادة الفاطميين عند القتال . وعند التقاء الجيشين أبدى أَفْتَكين شجاعةً انتزعت إعجاب الخليفة العزيز ، فعرض عليه الأمان مرات لكنه لم يستجب إلاّ بعد أن كسره الجيش الفاطمى وقتل من قواته عددًا كبيرًا . وقد أُخذ أَفْتَكين أسيرًا وحمل إلى العزيز الذى أكرمه وأفرج عن جميع من أسر من أصحابه وضاعف عليه النعمة وأدخله فى صحبته إلى مصر وأنزله مع أصحابه فى حارة اختطت لهم جنوب الجامع الأزهر عرفت بحارة الدَّيْلَم والأتراك [1].

ظُهورُ الأتراك والدَّيالِمَة

هكذا واجه الفاطميون خلال حملتهم على بلاد الشام جيوشًا أكثر تفوقًا من جيشهم الذى كان مكونًا فى أغلبه من القوات البربرية . وكانت الجيوش البيزنطية

---

[1] النويرى: نهاية الأرب ٢٨: ١٥٤- ١٥٨؛ المقريزى : مسودة المواعظ والاعتبار ٣٥٤-٣٥٥.

والإسلامية التى واجهها الجيش الفاطمى فى الشام (على سبيل المثال : القرامطة ذوى الأصول البدوية ، والأحداث - وهم الميليشيات المحلية لدمشق -، وفرق الجنود الأتراك) يلعب فيها رُماة السهام دورًا بارزًا . وكان الكُتاميون والبربر عمومًا لا يستخدمون القوس المُرَكَّبَة كسلاح . فكان غياب رماة السهام من القوس المُرَكَّبَة بين صفوف جيش الفاطميين يعوق كفاءة هذا الجيش العسكرية ويلحق الهزيمة به [١].

وحتى يتغلّب الخليفة العزيز بالله على دونية قواته البربرية لجأ إلى تطعيم جيشه بمجموعات عرقية جديدة ماهرة فى استخدام الأقواس المُرَكَّبَة . وبدأت هذه السياسة فى عام ٣٦٨هـ/٩٧٨م فى أعقاب انتصار العزيز على جيوش أَفْتَكين التركى فى فلسطين . وكانت معاملة أَفْتَكين وجيشه المهزوم جزءًا من سياسة فاطمية طويلة الأجل لتضمين فرق عسكرية ذات أصول عرقية واجتماعية متنوعة من الأحرار والمماليك على السواء فى جيشهم . وهكذا اصطنع العزيز بالله فى الجيش الفاطمى عناصر جديدة من الأتراك والفُرْس الدَّيالمة . وقد أيَّد العزيز فى سياسته وشَجَّعَها وزيره يعقوب بن كِلِّس الذى يرجع إلى أصول عراقية ، فبالنسبة له كانت فكرة الاستعانة بالأتراك - كعنصر عسكرى هام - أمرًا طبيعيًا . وبالرغم من أن الإشارة إلى المماليك العسكريين خلال فترة خلافة العزيز بالله وفيرة ، فإن بدايات تنظيم المماليك العسكريين فى مصر الفاطمية تظل مع ذلك غير واضحة [٢].

ويشير المُسَبِّحى عند وصفه لركوب الخليفة العزيز بالله فى صلاة العيد سنة ٣٨٠هـ/ ٩٩١م إلى طوائف العسكر التى صاحبته ومنها الأتراك والدَّيْلَم والعزيزية ، وهى فرقة منسوبة إليه ، والإخشيدية والكافورية الذين كانت بقاياهم ماتزال تخدم فى الجيش الفاطمى [٣].

---

١ Lev, Y., *op. cit.*, p. 84

٢ Lev, Y., «Army, Regime and Society in Fatimid Egypt 358-487/ 968-1094», *IJMES* 19 (1987), p. 337.

٣ المسبحى : نصوص ضائعة من أخبار مصر ١٣؛ المقريزى : الخطط ١: ٤٥١.

كان أهم ما مَيَّز هذا الإصلاح إدخال عنصر الأتراك والدَّيالمة فى الجيش الفاطمى الذين اصطنعهم العزيز. ونَتَجَ عن ذلك نشوء جنسيات وتخصُّصات عسكرية جديدة ولكن بدون ترابط شامل أو تماثل مع طبيعة الدولة[١].

ونحو سنة ٣٧١هـ/٩٨١م انضم إلى الجيش الفاطمى قواتٌ من الحَمْدانية والبَكْجورية الذين تركوا خدمة الحمدانيين وبَكْجور التركى[٢]. وعندما أنشأ العزيز بالله القصر الغربى الصغير وخَصَّه لسكن ابنته سيدة الملك جعل لها طائفة برسمها كانت تسمى « القَصْرية »[٣].

وأدَّى التَّنَوُّع والتباين فى قوات الجيش الفاطمى إلى نشوء صراع دائم بين مختلف طوائفه ظهر فى أول الأمر بين المغاربة والمشارقة ، فقد خشى المغاربة على فقد مكانتهم فى الدولة وثارت فتنة بينهم وبين المشارقة انتهت بإقصاء زعيمهم أمين الدولة بن عمار سنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م وإحلال بَرْجوان محله . وعندما قُتِلَ بَرْجوان سنة ٣٩٠هـ/١٠٠٠م اعتبر الأتراك ما حدث ضربة لهم من بَرْبَر كُتامة[٤].

وتفيدنا الأمانات التى أصدرها الحاكم بأمر الله فى التعرف على طوائف الجيش فى هذه الفترة فقد كان بينهم الدَّيْلم والغِلْمان الشَّرابية والغلمان المرتاحية والغِلْمان البشارية والرُّوم المرتزقة بالإضافة إلى الزُّوَيْليين والبنَّادين والبطَّالين والبرقيين والعُطوفية والجَوَّانية والجُودَرية والـمُظَفَّرية والصُّنهاجيين وعبيد الشراء والميمونية والفَرَحية[٥].

وقد أظهر الـمُسَبِّحى فى حوادث سنة ٤١٥هـ/١٠٢٥م الوضع الصعب الذى آل إليه الكُتاميون فى خلافة الظّاهر الذى كان ميله إلى الأتراك والمشارقة[٦].

---

١ Lev, Y., *op. cit.*, p. 337

٢ المقريزى : اتعاظ الحنفا ١: ٢٦، ٢: ٢٩؛ Lev, Y., *op. cit.*, p. 343

٣ المقريزى: الخطط ١: ٤٥٧.

٤ انظر فيما سبق ص ١٦١– ١٦٣.

٥ المسبحى : نصوص ضائعة ٢١؛ المقريزى: اتعاظ الحنفا ٢: ٥٦.

٦ المسبحى : أخبار مصر ٦٠–٦١، ٨٦.

الجَيْشُ الفاطمى في القرن الخامس الهجري/

الحادي عشر الميلادي

عند مناقشة وضع الجيش الفاطمى فى القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى يجب أن نُمَيِّز بين فترتين: فترة ما قبل الحرب الأهلية وفترة ما بعد الحرب الأهلية التى اندلعت فى أواسط هذا القرن.

الجَيْشُ الفاطمي قبل الحرب الأهلية

فوَصْف العرض العسكرى الذى شاهده ناصر خُسْرو فى القاهرة نحو سنة ٤٤١هـ/١٠٤٩م بمناسبة الاحتفال بركوب فَتْح الخليج، يُعَبِّر عن فرق الجيش الفاطمى وتنظيمها قبل اندلاع هذه الحرب بسنوات قليلة، يقول ناصر خُسْرو:

«وحين يركب السلطان يصطف عشرة آلاف فارس، على خيولهم سروج مذهبة، وأطواق وألجمة مرصعة، وجميع لبد السروج من الديباج الرومى والبوقلمون، نسجت لهذا الغرض خاصة، فلم تفصل ولم تُخط، وطرزت حواشيهم باسم سلطان مصر، وعلى كل حصان درع أو جوشن، وعلى قمة السرج خوذة وجميع أنواع الأسلحة الأخرى.

فى ذلك اليوم، يخرج جيش السلطان كله، فرقة فرقة، وفوجًا فوجًا، فرقة تسمى «الكُتاميين». وهم من القيروان، أتوا فى خدمة المعز لدين الله، وقيل إن عددهم عشرون ألف فارس.

وفرقة تسمى «الباتليين» وهم رجال من المغرب. دخلوا مصر قبل مجيء السلطان إليها. وقيل إن عددهم خمسة عشر ألف فارس.

وفرقة تسمى «المَصامِدَة» وهم سود من بلاد المصامدة، قيل إن عددهم عشرون ألف رجل.

وفرقة تسمى «المشارقة». وهم ترك وعجم. وسبب هذه التسمية أن أصلهم

ليس عربيًا ، ولو أن أكثرهم ولد فى مصر ، وقد اشتق اسمهم من الأصل ، وقيل إنهم عشرة آلاف رجل ، وهم ضخام الجثة .

وفرقة تسمى « عبيد الشِّراء ». وهم عبيد مشترون ، قيل إن عددهم ثلاثون ألف رجل .

وفرقة تسمى « البَدْو » . وهم من أهل الحجاز ، يقال لهم الرماة ، وهم خمسون ألف فارس .

وفرقة تسمى « الأستاذين ». كلهم خدم بيض وسود ، اشتروا للخدمة ، وهم ثلاثون ألف فارس .

وفرقة تسمى « السَّرَائيين ». وهم مشاة جاءوا من كل ولاية ، ولهم قائد خاص ، يتولى رعايتهم ، وكل منهم يستعمل سلاح ولايته وعددهم عشرة آلاف رجل .

وفرقة تسمى « الزُّنوج » يحاربون بالسيف وحده. وقيل أنهم ثلاثون ألف رجل .

ونفقة هذا الجيش كله من مال السلطان ، ولكل جندى منه مرتب شهرى على قدر درجته ، ولا يجبر على دفع دينار منها أحد الرعايا أو العمال . ولكن هؤلاء يسلمون للخزانة أموال ولايتهم سنة فسنة ، وتصف أرزاق الجند من الخزانة فى وقت معين ، بحيث لا يرهق والٍ أو واحد من الرعية بمطالبة الجند »[1].

فالعناصر المغربية الموجودة فى هذا العرض يُمَثِّلها ٢٠ ألفًا من الفرسان الكُتاميين و١٥ ألفًا من الفرسان الباطلية بالإضافة إلى ٢٠ ألفًا من المَصامِدَة المترجلين ، وتتكون العناصر المشرقية من ١٠ آلاف من الأتراك والفُرْس بالإضافة إلى ٥٠ ألفًا من فرسان البدو من أهل الحجاز . ويُمَيِّز نص ناصر خسرو بين فريقين من الجنود السود ، الزنوج وهم ثلاثون ألف رجل يحاربون بالسيف فقط وعبيد الشِّراء الذين يبلغ عددهم أيضًا ثلاثين ألف رجل .

---

[1] ناصر خسرو : سفر نامة ٩٣-٩٥.

ويرجع الفضل فى الإكثار من العناصر السودانية فى الجيش الفاطمى إلى السيدة أم الخليفة المستنصر – وهى فى الأصل جارية سوداء تَحَظّى بها الخليفة الظاهر بأمر الله – والتى كانت صاحبة السُلْطَة فى بداية تولِّى المستنصر بالله فاستكثرت من العناصر السودانية حتى بلغوا نحوًا من خمسين ألف أسود.

والأعداد التى يذكرها ناصر خسرو تبدو عليها للوهلة الأولى المبالغة، ولكنها تَدُلُّ على أنه كان للفاطميين جيشٌ كبيرٌ. والملاحظ أن البدو لم يكونوا أبدًا بين القوات النظامية للجيش الفاطمى، كما أن الجيش الفاطمى كانت به مجموعة كبيرة من القوات المترجلة من السودان وربما يكونون هم الذين أطلق عليهم المَصامِدَة.

لا شك أن هذا الجيش كان يُكَلِّف خزانة الدولة مبالغ طائلة سواء لصرف رواتبه أو لتجهيزه بالعتاد والسلاح، خاصة وأن ناصر خسرو يذكر أن نفقته كانت من مال السلطان وأن كل جندى من هؤلاء الجنود البالغ عددهم ١٨٥,٠٠٠ جندى يتقاضى راتبًا شهريًا على قدر درجته، وإن لم يُحَدِّد لنا مستوى هذه الرواتب. ونحن نعرف من مصادر أخرى أن نظام منح إقطاعات إلى رؤساء الجنود كتعويض كان متبعًا أيضًا[١]. كما أن قوات الفرسان كانت تتقاضى راتبًا أعلى من راتب القوات المترجلة تبعًا لأصلها العرقى، فالعناصر المشرقية (الأتراك والدَّيْلَم) كانت رواتبهم دون شك أعلى من رواتب الجنود السودان المترجلين. وسنجد أن الكتاميين قد تَقَلَّص دورهم ولن يكون لهم دورٌ يذكر فى الحرب الأهلية التى ستندلع بعد سنوات من هذا الوصف.

ويلاحظ على نص ناصر خسرو عند ذكره للمشارقة من الترك والعجم (الدَّيْلَم) أنه ذكر أن أصلهم ليس عربيًا وأن أكثرهم قد ولد بمصر وإن ظلوا يحتفظون بالانتساب إلى بلدهم الأصلى الذى قدم منه أباؤهم فى زمن العزيز بالله. فقد تمكن المشارقة وكذلك

---

[١] انظر فيما يلى ص ٧٠٧-٧٠٩.

الكتاميون من الاندماج فى المجتمع المصرى والتَزَوُّج منه ، بينما وقف وضع السودان والزنج كرقيق حائلاً بينهم وبين الاندماج فى المجتمع المحلى [١]، وكانت لهم « بديار مصر فى كل قرية ومحلة وضيعة مكان مفرد لا يدخله وال ولا غيره » [٢]. هذه الملاحظة التي أوردها المقريزى تدل على أن السودان كانوا يقومون بزراعة الأرض لإعانة أنفسهم ، ولم يكونوا مسئولين عن دفع أى ضرائب [٣].

ظهور الأَرْمَن

كان الجيشُ الفاطمى الذى وصَفَه لنا ناصر خُسْرو فى أواسط القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى قد انحلّ وتشتت تمامًا خلال الحرب الأهلية التى اندلعت فى مصر فى هذه الفترة [٤]. والتى كان إنقاذ البلاد منها بفضل استعانة الخليفة المستنصر بالله بوالى عَكّا القائد الأَرْمَنى بدر الجمالى .

لا شك أن التعديل الذى أُدْخل على الجيش الفاطمى بعد استعانة الخليفة المستنصر بالقائد الأَرْمَنى بدر الجمالى ، يعكس التغيير العنيف الذى حدث للسلطة السياسية فى الدولة الفاطمية . فقد تحوَّلَت الإمامة الفاطمية منذ هذا التاريخ إلى دكتاتورية عسكرية يتحكَّم فيها « أمير الجيوش » ، وهو اللَّقب الذى أصبح يُطْلَق على الوزراء العسكريين الذين تولَّوا السلطة فى القرن الفاطمى الثانى [٥].

لقد كان الجيش الذى صحب بدر الجمالى عند قدومه إلى مصر تلبية لدعوة الخليفة المستنصر هو قبل كل شىء جيش بدر الخاص وأساس قوته . وقد حمل هذا الجيش –

---

[١] Lev, Y., *State and Society in Fatimid Egypt*, p 94 .

[٢] المقريزى : الخطط ٢: ١٩ واتعاظ الحنفا ٣: ٣١٤.

[٣] Lev, Y., *op. cit.*, p. 84

[٤] انظر فيما سبق ص ١٩٩– ٢٠٤.

[٥] فيما سبق ص ٢١٣– ٢١٦، ٣٢١–٣٢٢ .

الذى يتكوّن فى الأساس من القوات الأرْمَنية وبعض عناصر أخرى - إلى مصر مائة سفينة حربية . فقد كتب بدر الجمالى إلى المستنصر يشترط عليه ألَّا يَقْدِم إلى مصر إلّا ومعه عساكره وجنوده وأنه لن يبقى على أحد من عساكر مصر ، ووافقه المستنصر على ذلك[١] .

ونحن لا نعرف على وجه الدقة عدد القوات المصاحبة لبدر الجمالى الذى لم تذكره المصادر ، كما أن نسبة الأرْمَن بين هذه القوات غير محدد كذلك[٢]، كما أنه قد وردت عليه بعد وصوله إلى مصر واستقراره بها طوائف أخرى من الأَرْمَن تَقَوَّى بها[٣].

ويؤكّد أن غالبية القوات المصاحبة لبدر الجمالى كانت من الأَرْمَن ما ذكره المقريزى حيث يقول : « فسار من حينئذ معظم الجيش الأَرْمَن وذهبت كُتامَة وصارت من جملة الرعية بعد ما كانوا وجوه الدولة وأكابر أهلها »[٤]، وأضاف فى مناسبة أخرى وهو يتحدَّث عن بدر الجمالى أنه « أوّل من ولي فى الدولة الفاطمية الوزارة من أرباب السيوف وأقام دولة الأَرْمَن بديار مصر »[٥]. كذلك ما أورده المؤرخ المسيحى موهوب بن منصور الذى عاش فى القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى يقول : « وكان معظم عسكر أمير الجيوش أرْمَن »[٦]، وواضح أن هؤلاء الأَرْمَن كانوا نصارى بما أنه بعد وصولهم بقليل وصل بطركهم واسمه أغريغوريوس الذى أحسن أمير الجيوش استقباله ، وأنزله فى كنيسة مار مريم للنصارى الملكانيين بأرض الزُّهْرى[٧] (السيدة زينب الآن) .

---

[١] المقريزى : المقفى الكبير ٢: ٤٠٢.

[٢] . Lev, Y., *op. cit.*, p. 95

[٣] المقريزى : المقفى الكبير ٢: ٣٩٨.

[٤] المقريزى : الخطط ٢: ١٢.

[٥] المقريزى : المقفى ٢: ٤٠٢.

[٦] ساويرس بن المقفع : تاريخ بطاركة الكنيسة ٢/ ٣: ٢١٩

[٧] نفسه ٢/ ٣: ٢١٩؛ وراجع Canard, M., «Notes sur les Armeniens en Egypte à l'époque fatimite», *AIEO* XIII (1955), pp. 143-751.

وخَصَّص بدر الجمالى حى الحُسَيْنِيَّة شمال القاهرة ليكون سكنًا للعسكر الأَرْمَن . وعندما حاول بعض السُّرْيان مزاحمة الأَرْمَن فى سكن الحىّ أمر أمير الجيوش ألَّا يسكن فى الحُسَيْنِيَّة إلَّا الأَرْمَن فقط وأخرج منها ابن الطويل قائد السُّرْيان والسُّرْيان الذين معه [١] . وفى الوقت نفسه خَصَّص بدر الجمالى للأَرْمَن كنيسة بحىّ الخَنْدَق شمال غرب القاهرة ليقيموا فيها صلواتهم [٢] .

وأوَّل إشارة فى المصادر العربية إلى أن الجنود الأَرْمَن فى مصر كانوا من النَّصارى تقابلنا عند ابن مُيَسَّر فى حوادث سنة ٥٣١هـ/١١٣٦م ، الذى يذكر أن بَهْرام الأَرْمَنى الذى تولَّى الوزارة للخليفة الحافظ أحضر فى هذه السنة إخوته وأهله من تل باشر وبلاد الأرمن حتى صار منهم بمصر نحو ثلاثين ألف إنسان . إلَّا أنهم فى هذه الفترة تمادوا فى الإعلان عن عقيدتهم وفى بناء الكنائس والأديرة حتى صار كل رئيس من أهله يبنى كنيسة وخاف أهل مصر منهم أن يُغَيِّروا ملَّة الإسلام [٣] .

فبعد وفاة بدر الجمالي فى جمادى الأولى سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م خلفه في منصب الوزارة وإمرة الجيوش والإشراف على القضاء والدعوة ابنه الأَفْضَل شاهِنْشاه ، ثم لم يلبث الخليفة المستنصر أن توفى فى ذي الحجة سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م ، وأدَّت وفاته إلى انقسام الدعوة الفاطمية إلى نزارية ومستعلية .

---

[١] ساويرس بن المقفع : تاريخ بطاركة الكنيسة ٢/ ٣: ٢٢٥.

[٢] نفسه ٢/ ٣: ٢٢٦.

[٣] ابن ميسر : أخبار مصر ١٢٤؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا ٣: ١٥٩.

الحَمْلَة الصليبية الأولى
وموقف الأَفضَل بن بَدْر الجَمالي

كانت هذه هى ظروف وأحوال مصر فى الوقت الذي وَصَلَت فيه الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق الأدنى سنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م، وكان صاحب السلطة الفعلية في مصر هو الوزير الأَفْضَل شاهِنْشاه بن بدر الجمالي. وعلينا أن نلاحظ أن الحروب الصليبية في الشام ظَلَّت أحداثُها الكبرى الرئيسية ترتبط حتى سقوط الدولة الفاطمية بشمال الشام لا جنوبه؛ وذلك لأن المقاومة الرئيسية التى قابلها الفِرِنْج (الصليبيون) فى الدور الأول من الحركة الصليبية جاءت من جانب السَّلاجِقَة فى شمال العراق والأتابكيات التابعة لنفوذهم فى المَوْصِل وحَلَب، وأن مصر لم تصبح مسرحًا أساسيًّا لنشاط الفِرِنْج إلّا فى الأحداث التى ارتبطت بسقوط الخلافة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية [١].

ومع ذلك فليس من اليسير أن نَتَبَيَّن كيف كانت ردود الأفعال الأولى للعالم الإسلامى إزاء الغزو الفرنجي طالما أن التاريخ لم يحفظ لنا أية رواية معاصرة للأحداث من جانب المسلمين. ولكن يوجد على الأقل مؤرخون سوريون عاصروا الحدث وكتبوا عنه بعد فترة قصيرة من حدوثه أهمهم: أبو الفوارس حَمْدان بن أبي المُوَفَّق عبدالرحيم بن حَمْدان الأثاربي الحلبي (٤٦٠ - ٥٤٢هـ/١٠٦٨-١١٤٧م) [٢] الذى تولّى أعمال الديوان فى دولة أتابك زنكي آق سُنْقُر وسَيَّرَه رسولًا إلى الفِرِنْج وإلى الآمر بأحكام الله صاحب مصر سنة ٥٢٠هـ/١١٢٦م [٣]، كما سُيِّر رسولًا إلى أتابك طُغْتكين صاحب دمشق، وقد وَضَع حَمْدان بن عبد الرحيم كتابًا عنوانه « سيرة الفِرِنْج الخارجين إلى بلاد

---

[١] سعيد عبدالفتاح عاشور: « شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية »، المجلة التاريخية المصرية ١٦ (١٩٦٩) ١٧-١٨.

[٢] ياقوت: معجم الأدباء ١٠: ٢٨٢-٤٧٢.

[٣] ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق ٢١٥؛ ابن ميسر: أخبار مصر ١٠٥؛ المقريزى: اتعاظ ٣: ١١٧.

الإسلام » لم يصل إلينا ولكن كانت مع ابن العَديم نسخةٌ منه بخط يده نَقَلَ عنها في أكثر من موضع من تاريخه بلفظ :

« قرأت بخط أبى الفوارس حمدان بن عبدالرحيم فى تاريخه الذى جمعه ووَقَعَ إلىّ منه أوراق نقلت منها » أو « قال حمدان فيما نقلته من خطه » أو « قرأت بخط الرئيس حمدان بن عبد الرحيم الأثاربي في أوراق وقعت إلىّ من تاريخه »[١].

كان الفاطميون في ذلك الوقت يعتقدون أنهم مُهَدَّدون من قبل التَوَسُّع السَّلْجوقى ، غير أن الانقسامات التي حدثت بين خلفاء مَلِكْشاه قَلَّلَت من حِدَّة هذا الخطر . وأصبح الفِرِنْج بمثابة الخلاص بالنسبة للفاطميين خلال ثلثى قرن عَلى الأَقل من غير أن تخطر هذه الفكرة على بالهم[٢].

وقد ظنَّ الوزير الأَفْضَل بن بدر الجمالي وزير مصر القوي أن الفِرِنْج جاءا ليفعلوا في بلاد الشام مثلما سبق وفعل البيزنطيون في عهد الإمبراطور نِقْفور فوقاس Nicephore Phocas والإمبراطور حنا الشُّمُشْقيق John Tzimisces حيث لم تتعد أملاكهم في بلاد الشام أنطاكيا[٣]، بل إنه عندما علم أن الفِرِنْج اشتبكوا مع الأتراك السَّلاجِقَة أعداء الفاطميين ، فكَّر في إقامة تحالف بينه وبينهم وأرسل بالفعل سفارة إليهم وصلتهم وهم أمام أنطاكيا في صفر سنة ٤٩٢هـ/يناير ١٠٩٨م ، يعرض عليهم أن يتعاون معهم في سبيل القضاء على السَّلاجِقَة على أن تكون أنطاكيا للفِرِنْج ويكون بيت المَقْدس للفاطميين ، ولم تثمر هذه المحاولات شيئًا[٤]. وعاد سفراء الأَفْضَل ومعهم رُسُلٌ من الصليبيين إلى القاهرة ، ولكنهم لم يكونوا مُفَوَّضين بأية سلطات[٥].

---

١ ابن العديم: بغية الطلب فى تاريخ حلب (التراجم الخاصة بالسلاجقة)، عنى بنشره وعلق عليه على سويم، أنقره - مطبوعات الجمعية التاريخية التركية ١٩٧٦، ١٨-١٩، ١٩٧-١٩٨، ٢٠٢، ٢١٤.

٢ Cahen, Cl., *Orient et Occident au temps des Croisades*, Paris 1986, p. 86.

٣ سعيد عبدالفتاح عاشور:المرجع السابق ٢٠.

٤ ابن ظافر : أخبار الدول المنقطعة ٨٢؛ Runciman, S., *A History of the Crusades*, Cambridge 1957, I, pp. 229-230

٥ قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية، الكويت - عالم المعرفة ١٩٩٠، ١٢٧.

ودَفَعَ هذا الاتصال بعض المعاصرين إلى الظَنّ بأن الفاطميين هم الذين أرسلوا فى استدعاء الفِرِنْج إلى الشام لمهاجمة السّلاجِقَة أو ليكونوا حاجزًا فاصلاً بين السّلاجِقَة من ناحية والفاطميين من ناحية أخرى ، يقول ابن الأثير :

« وقيل إن أصحاب مصر من العلويين لما رأوا الدولة السلجوقية وتمكُّنها واستيلاءها على بلاد الشام إلى غزة ، ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم من دخول الإقسيس إلى مصر وحصرها ، خافوا وأرسلوا إلى الفِرِنْج يدعوهم إلى الخروج إلى الشام ليملكوه ويكونوا بينهم وبين المسلمين »[1].

وهكذا فإن الاختلافات العقائدية بين قادة المسلمين فى ذلك الوقت والنزاعات التوسعية أدت ببعضهم إلى سوء تقدير أسباب حملة الفِرِنْج الأولى ، وبذلك لم تتَّضح أبدًا فكرة التضامن بين المسلمين تجاه ما يحدق بهم جميعًا من أخطار إلَّا بعد ذلك بنحو سبعين عامًا عندما نجح صلاح الدين فى القضاء على الدولة الفاطمية فى مصر وتوحيد الجبهة الإسلامية ، يقول المؤرخ أبو المحاسن :

« وكان أخذ المَعَرَّة فى ذى الحجة بعد أخذ أنطاكيا ولما وَقَعَ ذلك اجتمع ملوك الإسلام بالشام ، وهم رضوان صاحب حَلَب وأخوه دَقّاق وطُغْتكين وصاحب المَوْصِل وسُكْمان بن أُرْتُق صاحب ماردين وأرسلان شاه صاحب سِنْجار ، ولم ينهض الأفضل بإخراج عساكر مصر . وما أدرِى ما كان السبب فى عدم إخراجه مع قدرته على المال والرجال »[2].

ويسترسل أبو المَحَاسِن فيشرح كيف خرجت عساكر المسلمين لصد الفرنج وكيف انكسر المسلمون وكيف كتب الأمراء إلى الخليفة العباسى يستنجدون به .

« كل ذلك وعساكر مصر لم تُهَيّأ للخروج »[3].

---

[1] ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ١٠: ٢٧٣؛ النويرى : نهاية الأرب ٢٨: ٢٥٠ .

[2] أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ٥: ١٤٧

[3] نفسه ٥: ١٤٨

فلا شك أن الفاطميين لم يُدْرِكوا حقيقة أهداف الفِرِنْج وظَنُّوا أن هذه الجيوش القادمة من الغرب الأوربى ليست إلا مجرد مرتزقة فى خدمة البيزنطيين [١]، بل إن الأَفْضَل بن بدر الجمالى انتهز الحرب الدائرة فى شمال بلاد الشام بين الفرنج والسَّلاجِقَة، وقاد حملة لاسترداد بيت المقدس من الأمير سُكْمان والأمير إيلغازى ابنى أُرْتُق، وطلب إليهما في أول الأمر أن يسلماه البلد ولا يحوجاه إلى الحرب. ولما امتنعا عليه حاصر البلد ونَصَب عليها المجانيق وحاصرها اثنين وأربعين يومًا حتى هدم جانبًا من سورها، فاضطر حكّامها إلى تسليمه وتمكينه منها، وملكها في الخامس والعشرين من رمضان سنة ٤٩١هـ/أغسطس سنة ١٠٩٨م. ويُعَلِّق ابن ظافر على ذلك بقوله: «ولو ترك فى أيدى الأُرْتُقية لكان أصْلَح للمسلمين» [٢].

ولم يتمكن السَّلاجِقَة المشغولون بإقامة جبهة شمالية ضد الفِرِنْج، من إرسال نجدة إلى أقربائهم فى بيت المقدس ترد عادية الفاطميين، وفى الوقت نفسه استفاد الفِرِنْج استفادة كبرى من ذلك، فقد سَبَّب تهديد الأَفْضَل لفلسطين وبيت المقدس ارتباكًا للسلاجقة فى أشد الأوقات حرجًا. كما أن الأَفْضَل رَحَّب بنزول الفِرِنْج على الساحل ليحولوا دون نفوذ الترك إلى ديار مصر.

وفى شمال الشام حرص الفِرِنْج على تحييد الأمراء العرب وأن لا يتدخَّل أحدٌ منهم لإنقاذ أنطاكيا، فيذكر ابن الأثير «أن الفِرِنْج كاتبوا صاحب حَلَب وصاحب دِمَشْق بأنهم لم يأتيا إلا لقَصْد البلاد التى كانت بأيدى البيزنطيين مكرًا منهم حتى لا يساعدوا صاحب أنطاكيا» [٣].

---

[١] قاسم عبده قاسم: المرجع السابق ١٢٧.

[٢] ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق ١٣٥؛ ابن الأثير: الكامل ١٠: ٢٨٢- ٢٨٦؛ ابن ميسر: أخبار مصر ٦٥- ٦٦؛ النويرى: نهاية الأرب ٢٨: ٢٤٦- ٢٤٧؛ المقريزى: اتعاظ الحنفا ٣: ٢٢ والخطط ١: ٤٢٧.

[٣] ابن الأثير: الكامل ١٠: ٢٧٥.

وبعد أن ملك الفِرِنْج مدينة أنطاكيا، ساروا إلى مَعَرَّة النُّعْمان فملكوها[١] ثم رحلوا عنها إلى جبل لبنان فقتلوا من به[٢]، ولما وَجَد الفاطميون أن الفِرِنْج لم يقفوا عند حد الاستيلاء على أنطاكيا وغيرها من مدن سوريا الشمالية، وإنما أخذوا يَتَوغَّلون جنوبًا صوب فلسطين، أرسل الأَفْضَل إلى الإمبراطور البيزنطي ألكسيس كومنين يستفسر عما إذا كانت هذه الجيوش تعمل لحسابه، فأنكر الإمبراطور علاقته بها[٣]، هنا أدرك الأَفْضَل أن بيت المقدس هو الهدف الأساسى للفرنج فأرسل إليهم سفارة وصلتهم قرب طرابلس تحمل الهدايا النفيسة لقادة الفِرِنْج ومعهم عرضًا من الخليفة الفاطمى بالسماح لحُجّاج الفرنج بالحج وزيارة كنيسة القيامة في بيت المقدس على شكل مجموعات من مائتين أو ثلاثمائة حاج بشرط ألّا يكونوا مسلحين. وجاء رَدُّ الفرنج على السفارة بأنهم سيتمكنون من الحج فعلا ولكن بإذن الله وليس بإذن الخليفة الفاطمى. وكان معنى ذلك بداية الصِّدام المُسَلَّح بين الفاطميين والفِرِنْج من أجل بيت المقدس[٤].

استمر الفِرِنْج فى تَقَدُّمهم جنوبًا وعندما وصلوا إلى عِرْقَة حاصروها أربعة أشهر وامتنعت عليهم فنزلوا على حِمْص فهادنهم جناح الدولة حسين، ثم ساروا على طريق النواقير إلى عَكّا فلم يقدروا عليها[٥]، ثم أخذوا الرَّمْلَة التى زحفوا منها إلى بيت المقدس. وعندما وَصَل الفرنج إلى الرَّمْلَة وجدوها خالية قد هجرها أهلها فعقدوا فيها مجلسًا للحرب ناقشوا فيه عدة مسائل لعل أهمها البدء بمهاجمة الفاطميين فى مصر، اقتناعًا منهم بأنهم إذا أرادوا أن ينعموا بحياة آمنة فى بيت المقدس فعليهم تأمين ظهرهم بالاستيلاء على الدلتا المصرية، وهى فكرة ربما أوحاها إليهم التجار الإيطاليون[٦]. ولكن

---

١ ابن الأثير: الكامل ١٠: ٢٧٢-٢٧٨؛ النويرى: نهاية الأرب ٢٨: ٢٤٣-٢٥٦.

٢ المقريزى: اتعاظ ٣: ٢٣.

٣ Runciman, S., *op. cit.*, I, p. 272.

٤ سعيد عبدالفتاح عاشور: المرجع السابق ٢٣.

٥ ابن الأثير: الكامل ١٠: ٢٧٨؛ النويرى: نهاية الأرب ٢٨: ٢٥٦.

٦ سعيد عبدالفتاح عاشور: المرجع السابق ٢٣؛ Cahen, Cl., *op. cit.*, p. 88.

ظروفهم وإمكاناتهم لم تسمح لهم بتحقيق هذه الفكرة التى داعبت مخيلتهم إلا فى القرنين السادس والسابع الهجرى .

ورغم أن سيادة الفاطميين امتدت لتشمل فلسطين وسواحل بلاد الشام جنوبى نهر الكلب ، إلا أنهم – فيما يبدو – لم يتركوا قوات كافية لتدعيم نفوذهم والمحافظة على مكاسبهم فى تلك الجهات ، وذلك باستثناء حامية بيت المقدس وبعض المدن الساحلية التى ظَلّ الأسطول الفاطمى قادرًا على إمدادها بالرجال والعتاد من ناحية أخرى . فلم يكن الفاطميون فى مصر أبدًا من الغزاة وكان من المستبعد أن يتمكنوا فى هذه الفترة من الحصول على ما يلزم من الرجال لتأسيس جيش مشابه لجيش دولة السَّلاجِقَة فى آسيا أو بناء أسطول قادر على إلحاق الهزيمة بأسطول الفِرِنْج [١].

وفى الوقت الذى بدأ فيه زَحْف الفِرِنْج تجاه بيت المقدس لتحقيق هدفهم النهائى كان افتخار الدولة حاكم المدينة من قبل الأَفْضَل قد اتَّخَذ كافة الاستعدادات لمواجهتهم ، فسَمَّم الآبار وقَطَعَ موارد الماء وأخفى المواشى ، واعتمد فى الدفاع عن المدينة على حامية كبيرة من الجند المصريين والسودان [٢].

عندما علم الأَفْضَل بن بدر الجمالى بمحاصرة الفرنج لبيت المقدس فى ربيع الآخر سنة ٤٩٢هـ ، خرج على رأس جيش لمحاربتهم ، فلما بلغهم مسيره جَدُّوا في حصار البلد ونجحوا في دخولها بعد حصار دام أكثر من خمسة أسابيع ، واستولوا عليها يوم الجمعة ٢٢ شعبان سنة ٤٩٢هـ/١٥ يولية سنة ١٠٩٩م ، وأعقب ذلك مذبحة راح ضحيتها الكثير من أهل البلد ، كما أحرقوا ما كان ببيت المقدس من المصاحف والكتب ، وأخذوا ما كان بالصخرة من قناديل الذهب والفضة والآلات . وكان افتخار الدولة – حاكم

---

[١] Cahen, Cl., *op. cit.*, p. 88.

[٢] سعيد عبدالفتاح عاشور : المرجع السابق ٢٤.

المدينة الفاطمى — من جملة القلائل الذين « بَذَلَ لهم الفِرِنْج الأمان » وسمحوا لهم بالخروج إلى عَسْقَلان [1].

جاء وصول الأَفْضَل على رأس القوة التى خرج بها من مصر إلى عَسْقَلان فى أوائل رمضان سنة ٤٩٢هـ/أوائل أغسطس ١٠٩٩م، بعد أن استولى الفِرِنْج على بيت المقدس بعشرين يومًا مما أصابه بخيبة أمل كبيرة، خاصةً بعد أن كان يعتقد أن الفِرِنْج كانوا سيقنعون بالاستيلاء على سوريا الشمالية، ويحرصون على التعاون مع الفاطميين بوصفهم حلفاءهم الطبيعيين ضد السَّلاجِقَة عدوهم المشترك. وأرسل الأَفْضَل من عَسْقَلان رسولًا إلى الفرنج « يُنْكر عليهم ما فعلوا ويَتَهَدّدهم » [2].

ولم يلبث الفِرِنْج أن باغتوا الأَفْضَل وجنوده فى عَسْقَلان فهزموهم وقتلوا منهم الكثير، ولجأ من نجا منهم إلى التَعَلُّق بأشجار الجميز المنتشرة هناك فأَضْرَم الفرنج فيها النار حتى احترقت بمن تَعَلَّق فيها، وحاصروا الأَفْضَل فى عَسْقلان حتى كادوا يأخذونه لولا الخلاف الذى نَجَمَ بين جودفرى Gaudefroy صاحب بيت المقدس وريموند الأول – صاحب طرابلس – مما اضطرهم إلى الرحيل عن عَسْقَلان وسنحت الفرصة للأَفْضَل فركب البحر عائدًا إلى مصر [3]، ويقول المقريزى:

« ولم يَعُد بعد هذه الحركة إلى الخروج بنفسه فى حرب ألبتّة » [4].

وهكذا تَكَوّنت مملكة بيت المقدس من بيت المقدس نفسها إلى جانب يافا واللّدّ والرَّمْلة وبَيْت لَحْم والخليل، وكان لها ظهيرٌ ريفيٌ تسكنه أغلبية من المسلمين الذين

---

[1] ابن الأثير: الكامل ١٠: ٢٨٣– ٢٨٤؛ ابن القلانسى: ذيل ١٣٦– ١٣٧؛ ابن ميسر: أخبار مصر ٦٦؛ .النويرى: نهاية الأرب ٢٨: ٢٥٦– ٢٥٨؛ المقريزى: اتعاظ ٣: ٢٣.

[2] ابن الأثير: الكامل ١٠: ٢٨٤.

[3] ابن ميسر: أخبار مصر ٦٧ ؛ .النويرى: نهاية الأرب ٢٨: ٢٦٠.

[4] المقريزى: اتعاظ الحنفا ٣: ٢٤.

رفضوا للتعاون مع الفِرِنْج[1]؛ كما فَرَّ عددٌ كبير من أهل الشام إلى مصر هربًا من الفرنج والغلاء الذى ساد المنطقة[2].

وفى سنة ٤٩٤هـ/١١٠٠م حاول الأَفضل مهاجمة الفِرِنْج انطلاقًا من عَسْقَلان بجيش كان على رأسه سعد الدولة القَوّاسى مقدم العسكر، ورغم ثبات سعد الدولة فإن الجيش الفاطمى لقى هزيمةً كبيرةً وتَمكّن الفِرِنْج من الاستيلاء على يافا وأَرْسُوف وقَيْسارية[3]، ودَخَل أهل هذه المدن التى كانت للفاطميين فى تبعية الفِرِنْج. وفى هذا الوقت قُتل جودفرى ملك بيت المقدس وحَلَّ محله بُلْدوين الأَوّل صاحب الرُّها[4].

وقد استغل الفاطميون مدينة عَسْقَلان كقاعدة يشنون منها هجماتهم على الفِرِنْج، حيث قاموا بمهاجمتهم فى السنوات ٤٩٦هـ/١١٠١م بقيادة شرف المعالى بن الأفضل شاهنشاه، و٤٩٧هـ/١١٠٢م، و٥٠٠هـ/١١٠٥م. وقد كَلَّفت هذه الهجمات (التى عرفت بـ «موقعة الرَّمْلَة») الفِرِنْج الكثير من العتاد والرجال؛ وقد حاول الأَفضل خلال هذه الحملات الاستنجاد بشمس الملوك دَقّاق صاحب دمشق أكثر من مرة ولكنه تقاعس عن ذلك[5]. وبعد سنة ٥٠٠هـ/١١٠٥م لم يشن المصريون أى هجوم خطير على الفرنج وإن ظَلَّت عَسْقَلان مصدر تهديد وإقلاق لهم.

وقد كشفت هذه الاشتباكات للفِرِنْج عن ضعف الدولة الفاطمية ومدى انحلالها، الأمر الذى جعلهم يطمعون فى الاستيلاء على بقية موانئ فلسطين العربية، فاستولوا بالفعل على عَكّا سنة ٤٩٧هـ/١١٠٣م وطَرابُلُس وجُبيل وعِرْقَة وبانْياس سنة

---

[1] قاسم عبده قاسم: المرجع السابق ١٣٠.

[2] ابن ميسر: أخبار مصر ٦٨.

[3] نفسه ٦٨؛ ابن القلانسى: ذيل ١٤٠؛ المقريزى: اتعاظ ٣: ٢٦.

[4] ابن الأثير: الكامل ١٠: ٣٢٤.

[5] راجع عن معركة الرملة Brett, M., *The Battles of Ramla (1099-1105)*, pp. 17-37؛ سعيد عبدالفتاح عاشور: المرجع السابق ٢٦-٣١.

٥٠٢هـ/١١٠٨-١١٠٩م ، وبيروت سنة ٥٠٣هـ/١١١٠م ، وصَيْدا سنة ٥٠٤هـ/١١١٠م ، وتبنين سنة ٥١١هـ/١١١٧م ، وأخيرًا صُور سنة ٥١٨هـ/ ١١٢٤م[1]. بل بلغ الأمر أن بلدوين ملك بيت المقدس وَصَلَ على رأس حملة إلى الأراضى المصرية حتى الفَرَما واضطر الأَفْضَل إلى مهادنته لعجزه عن مواجهة قواته ، كما هَدَّدَت مراكب الروم والبنادقة ثغر الإسكندرية سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م[2].

وفى أعقاب سقوط صُور سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م عاود الفاطميون الاهتمام بعَسْقَلان ، وأخذوا يُجَرِّدون لها العساكر والأساطيل فى شكل أَبْدال تتوالى على حمايتها كل ستة شهور[3].

***

إن أيّة محاولة لتحليل أسباب التواضع العسكرى للجيش الفاطمى فى مواجهة جيوش الفِرِنْج يحول دونها فقدان المصادر العربية المعاصرة للأحداث . وربما تغاضى المؤرِّخون المسلمون عن ذكر الكثير من المعلومات عن الصراع العسكرى بين الفاطميين والفِرِنْج فى هذه المرحلة الحرجة من الصراع بينهما . ولكن هذه المعلومات نستطيع الحصول عليها فى المقام الأول من المصادر اللاتينية التى أَرَّخَت للحرب الصليبية الأولى والتى وضعها مؤلِّفون معاصرون للأحداث كانوا فى بعض الأحيان شهود عيان للمعارك . فعلى سبيل المثال يشير تاريخ Fulcher de Chartres إلى أن الجيش الفاطمى الذى كان يحارب الفِرِنْج فى عَسْقَلان كانت تنقصه الفرسان رماة السهام من الأقواس المركبة . وعند وصفه للمعركة نفسها تَحَدَّث المؤلف المجهول لكتاب Gesta Francorum بسخرية عن القدرة الحربية المتواضعة لمشاة الجيش الفاطمى . ويشير Y. Lev إلى أن R. C. Smail فى

---

[1] ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ٢١١؛ ابن الأثير: الكامل ١٠: ٦٢٠- ٦٢٢؛ ابن ميسر : أخبار مصر ١١١؛ النويرى : نهاية الأرب ٢٨: ٢٦٣- ٢٧٣؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا ٣: ١٢٩-١٣٠.

[2] النويرى : نهاية الأرب ٢٨: ٢٧٢

[3] ابن الطوير: نزهة المقلتين ٣، ٤١.

دراسته عن مرجعية المصادر اللاتينية يقرر أن الجيوش الفاطمية التى حاربت الفرنج بين سنتى ٤٩٢هـ/١٠٩٩م و ٥١٧هـ/١١٢٣م، باستثناء معركة الرَّمْلَة سنة ٤٩٩هـ/١١٠٥م، لم تستخدم الفرسان رماة السهام[١].

كان الأتراك هم الذين يقومون بدور الفرسان رماة السهام من الأقواس المركبة فى الجيش الفاطمى منذ أن استعان بهم الخليفة العزيز بالله فى نهاية القرن الرابع الهجرى. ولكن منذ وصول بدر الجمالى إلى السلطة وقضائه على الجيش المصرى وإحلال الأَرْمَن محله زال دور الأتراك، يقول المقريزى: «وأخذ [بدر] فى القبض على الأتراك وتتبّعهم حتى لم يدع منهم أحدًا يشار إليه»[٢] نظرًا للدور التخريبى الذى قاموا به فى أثناء الحرب الأهلية، وبذلك فَقَدَ الجيش الفاطمى قوةً مهمةً بين صفوفه، وربما وُجِدَ فى الجيش الفاطمى فرسان من رُماة السهام من الأَرْمَن النَّصارى إلَّا أنه من الممكن أن يكونوا قد استبعدوا أثناء مواجهة الجيش الفاطمى للفِرِنْج[٣].

الجَيْشُ الفاطمي في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي والإصْلاحات العسكرية للأَفْضَل بن بدر الجمالى

عرضنا فيما سبق لموقف الوزير الفاطمى الأَفْضَل بن بدر الجمالى من وصول الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق وكيف سقطت بيت المقدس فى أيديهم. يقول ابن الطُّوَيْر إن الأَفْضَل لم يُبْقِ ممكنًا من مال وسلاح ورجال وخيل إلا استعان به، وخرج بنفسه على رأس جيش لاستنقاذ الساحل الشامى بعد أن استناب مكانه فى مصر أخاه المُظَفَّر

---

١ Lev, Y., *op. cit.*, p. 98 ; Brett, M., *The Battles of Ramla (1099-1105)*, p. 18.

٢ المقريزى: اتعاظ الحنفا ٢: ٣١٢

٣ Lev, Y., *op. cit.*, p. 100.

جعفر . وعندما وصل الأَفْضَل إلى عَسْقَلان وزحف عليها خُذِلَ من جانب جيشه وتأكُد من أن هزيمته فى نوبة « النُّصَّة » كانت بسبب جنده ، فحَرَّق جميع ما كان معه من آلات قبل عودته إلى مصر [١]. ويضيف ابن الطُّوَيْر ، راوى هذا الخبر بعد ذلك ، أنه « لم ينتفع أحدٌ من الأجناد بعد هذه النوبة بالأَفْضَل ، وحظر عليهم نعوتهم ، ولم يسمع لأحد منهم كلمة » [٢].

بدأ الأَفْضَل نتيجةً لذلك عملية إصلاح شاملة للجيش الفاطمى للاستعاضة عن قصور قواته الذى تسبَّب فى هزيمتها ، تركَّزت هذه الإصلاحات فى إنشاء سبع حُجَر لإعداد محاربين جدد ، واختار من أولاد الأجناد ثلاثة آلاف رجل وقَسَّمَهم فى هذه الحُجَر ، وجعل لكل مائة منهم زمامًا ونقيبًا ، وجعل على رأسهم أميرًا يقال له « المُوَفَّق » ، وأطلق لهم جميع ما يحتاجون إليه من خيل وسلاح ، واستغنى الأَفْضَل بهؤلاء عن الأجناد وأصبح يُجَهِّزهم للمهمات التى تطرأ له بقيادة أميرهم المعروف بـ « المُوَفَّق » [٣].

وأوضح ابن الطُّوَيْر فى موضع آخر طبيعة هؤلاء « الصِّبْيان الحُجَرِيَّة » ، بمناسبة ذكره لواحد منهم ترقَّى فى الخدم حتى تولَّى الوزارة للخليفة الظافر بأعداء الله سنة ٥٤٦هـ/ ١١٥١م هو العادل بن السَّلار . فذكر أنهم جماعة من الشباب كانوا يكونون فى جهات مفردة كل واحد منهم يُعَلَّم فنًّا من فنون الشجاعة والفروسية التى تحتاج إليها الدولة . فإن كبر منهم الصبى سُلِّم إليه سلاح كامل يكون عنده متى طُلِبَ منه الخروج للقتال لا يجد أمامه ما يمنعه . ثم أضاف أنهم كانوا على نمط « فرسان المعبد» عند الفِرِنْج المعروفين بالـ Templiers ، وهم جماعة أَسَّسَها Hugue de Payns سنة ١١١٩م لحماية طريق الحُجَّاج المسيحيين بين يافا والقدس ، وجماعة الإِسْبِتارية Hospitaliers التى أَسَّسَها سنة

---

[١] ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٣؛ المقريزى: الخطط ١: ٤٤٣.
[٢] نفســه ٤.
[٣] نفســه ١٥؛ المقريزى: الخطط ١: ٤٤٣.

١٠٩٩ Blessed Gerard ، وكانوا إذا شُهِرَ واحدٌ منهم بعقل وشجاعة أصبح أميرًا وولى منصبًا مثل على بن السَّلار الذى أصبح واليًا على إقليم البحيرة وعلى الإسكندرية ثم ولاَّه الظافر بأعداء الله الوزارة[١].

ثم جاء ابن عبدالظَّاهِر بعد ذلك فحَدَّد موضع الحُجَر التى كان يُنَشَّأ بها « الصِّبْيان الحُجَرِيَّة » ، فذكر أنها كانت قريبة من باب النَّصْر فى صف دار الوزارة الفاطمية على يمين الخارج من القاهرة[٢] (شارع الجمالية الآن ، بين خانقاه بيبرس الجاشنكير وباب النَّصْر) .

ولفظ « صِبْيان » و« شباب » المستخدم فى وَصْف الذين يُعَدُّون فى الحُجَر التى أقامها الأَفْضَل شاهنشاه يتطلَّب مزيدًا من المناقشة . فلفظ « صبيان » يشير إلى المماليك . فابن مُيَسَّر يذكر فى حوادث سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م « أن صِبْيان الخاص » ، هم أولاد الأجناد والأمراء وعبيد الدولة الذين يتوفون فيُحْمل أولادهم إلى القصر ويودعوا فى أماكن مخصوصة يُعَلَّمون الفُرُوسية . وقد قضى الوزير العادل بن السَّلار على « صِبْيان الخاص » بعد أن بلغه أنهم اتفقوا على الهجوم على داره وقتله أثناء الليل ، فقبض عليهم وقتل أكثرهم - وكانوا جمعًا كبيرًا - وبعث بمن بقى منهم فركَّزهم فى الثغور[٣].

ولكن ما هى النتائج العسكرية لإصلاحات الأَفْضَل؟ لا توجد أية إشارات إلى أن هذه الإصلاحات أسهمت فى تحسين الفعالية القتالية للجيش الفاطمى . فلم يرد ذِكرٌ للحُجَرِيَّة فى أى سياق للقتال . فكل الإشارات الخاصة بهم توجد فى سياق احتفالات البلاطِ والقصر[٤].

وعلى ذلك فإن إصلاحات الأَفْضَل العسكرية لم تُطَوِّر قدرة الفاطميين القتالية للتجاوب مع التحدِّيات العسكرية التى فرضها الفِرِنْج ، يدلُّ على ذلك ما حدث فى عام

---

١ ابن الطوير : نزهة المقلتين ٥٨- ٥٩؛ ابن ميسر : أخبار مصر ١٤٣.
٢ ابن عبد الظاهر : الروضة البهية الزاهرة ٥١.
٣ ابن ميسر: أخبار مصر ١٤٣
٤ Lev, Y., *op. cit.*, p. 101؛ ابن المأمون: أخبار مصر ٥٤، ٧٠، ٩٦ .

٥١٧هـ/ ١١٢٣م[١]. ففى هذا العام وَقَعَ الملك بُلْدوين الثانى ملك بيت المقدس فى أسر الأمير بُلُك الأرتقى في خَرْتَبِرْت. ووصلت إلى مصر رُسُلُ ظهير الدين طُغْتكين صاحب دمشق وآق سُنْقُر صاحب حَلَب تطلب إلى الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله ووزيره المأمون البطائحى أن تستثمر الدولة الفاطمية هذه الفرصة وما صاحبها من قِلَّة الفِرِنْج بالأعمال الفلسطينية والثغور الساحلية وتُجَهِّز جيشًا وأسطولاً للانقضاض على الفرنج والقضاء عليهم[٢].

وقد حَشَدَ الفاطميون حملةً كبيرةً قَدَّم لنا ابن المأمون وَصْفًا لتجهيزها وإعدادها وخروج الخليفة لوداعها. خرجت الحملة إلى عَسْقَلان ومنها اتجهت لحصار يافا، في الوقت الذى ساندها فيه الأسطول الفاطمى فى البحر، وكانت الحامية الصليبية فى يافا صغيرة، فاشترك نساء الصليبيين مع رجالهم فى الدفاع عنها، وفى الوقت الذى أوشكت فيه يافا على التسليم وصلت إليها نجدة من الفِرِنْج لإنقاذها مما جعل القوات الفاطمية تنسحب إلى يَبْنى على الطريق بين يافا وعَسْقَلان، وفى المعركة التى دارت فى ٢ ربيع الآخر سنة ٥١٧هـ/ مايو سنة ١١٢٣م عند يَبْنى (إيبلين) بين الفاطميين والصليبيين هُزِمَ الفاطميون ووَلَّوا الأدبار واقتفى أثرهم الصليبيون يقتلون ويأسرون وينهبون ما يصل إلى أيديهم[٣]. وقد حَمَّل ابن مُيَسَّر ملوك الشرق جانبًا من هذه الهزيمة لتخاذلهم عن مؤازرة الجيش الفاطمى[٤]. أما Fulcher de Chartres الذى قَدَّم لنا وَصْفًا لهذه المعركة فيذكر أن جيش الفاطميين كان يتكوَّن من ١٦ ألف جندى وأن الفرسان قد فَرُّوا من المعركة تاركين ستة آلاف من السودان المترجلين لقوا حتفهم أثناء مطاردة الفِرِنْج لهم. كما أن

---

[١] Lev, Y., *op. cit.*, p. 101.

[٢] ابن المأمون: أخبار مصر ٦٠؛ ابن ميسر: أخبار مصر ٩٤- ٩٥؛ المقريزى: اتعاظ الحنفا ٣: ٩٩-١٠٠.

[٣] سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق.

[٤] ابن ميسر: أخبار مصر ٩٥.

الفرنج استولوا أيضًا على أمتعة وعتاد الجيش الفاطمى . ويؤيد وصف Fulcher de Chartres للأسلاب التى وجدت فى المعسكر الفاطمى تمامًا رواية ابن المأمون للتجهيزات العسكرية الضخمة لهذا الجيش[١].

نخلص من ذلك أن الفاطميين كانوا يملكون موارد اقتصادية كبيرة مع مهارة تنظيمية فى تجهيز الجيوش والأساطيل، إلّا أن الجيش الفاطمى نفسه كان يفتقر إلى أية قدرة قتالية معقولة . فهزيمة سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م[٢] التى حدثت بعد عشرين عامًا من بداية إصلاحات الأَفْضَل العسكرية لا تختلف عن ما حدث للجيش الفاطمى أمام الفرنج عام ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م[٢]. ولكنها نَبَّهَت الفاطميين إلى ضرورة وجود حامية قوية فى عَسْقَلان عن طريق « الأَبْدال » التى كانوا يرسلونها إليها كل ستة أشهر .

---

١ . Lev, Y., *op. cit.*, p. 102

٢ .*Ibid.*, p. 103

تَرْتيبُ الجَيْش الفاطمي

قَسّم القلقشندى الجيش الفاطمى إلى ثلاثة أصناف (جـ. صنف)، ولكن هذا التقسيم العام لا يفيدنا في التعرُّف على العصر الذى ينطبق عليه هذا التقسيم. فالدولة الفاطمية امتد حكمها أكثر من مائتى عام، كما أُدخل على جيشها العديد من التعديلات والإصلاحات التى ذكرتها فيما سبق، وأغلب الظن أن هذا التقسيم ينطبق على الجيش الفاطمى فى القرن السادس الهجرى، ويعتمد فيه القلقشندى على ما أورده ابن الطُّوَيْر فى كتابه «نزهة المقلتين» مع عقد مقارنة بين كل طائفة وما يقابلها فى العصر المملوكى، رغم أن نظام الجيش المملوكى يختلف كثيرًا من حيث البنية والإعداد مع الجيش الفاطمى، وربما أراد بذلك تقريب وضع الجيش الفاطمى إلى معاصريه.

والأصناف الثلاثة التى ذكرها القلقشندى هى:

١ - الأُمَـــــراء وجعلهم ثلاث مراتب

«الأمراء المُطَوَّقون» الذين يخلع عليهم بأطواق الذهب فى أعناقهم وشبَّهَهم القلقشندى بالأمراء مقدمِى الألوف فى العصر المملوكى.

«الأُمَراء أرباب القُضُب» الذين يركبون فى المواكب بالقُضب الفضة (أى الرّماح الفضية) التى يخرجها لهم الخليفة من خزانة التَجمُّل، وشَبَّههم القلقشندى بأمراء الطبلخاناه فى العصر المملوكى.

«أَدْوان الأُمَراء» الذين لم يؤهلوا لحمل القُضُب (الرماح) وشبههم القلقشندى بأمراء العشرات والخمسات فى العصر المملوكى[1].

---

[1] القلقشندى: صبح الأعشى ٣: ٤٧٦.

٢ - خَـــواصّ الخليفة ، وجعلهم ثلاثة أنواع :

« الأستاذون » : الذين يكون منهم أرباب الوظائف الخاصة بالخليفة ، وأجلهم « الأستاذون المُحَنَّكون » الذين يُدَوِّرون عمائمهم على أحناكهم ، وشبَّهَهم القلقشندى بالخدام والطَّواشية فى العصر المملوكى .

« صِبْيان الخاص » وهم جماعة من أخصاء الخليفة عددهم خمسمائة نفر منهم أمراء وغير أمراء ، وشبههم القلقشندى بالخاصكية فى العصر المملوكى .

« صِبْيان الحُجَر » وهم الطائفة التى استجدها الأفضل بن بدر الجمالى والتى سبق ذكرها [١].

٣ - طوائف الأَجْناد

وهم طوائف كثيرة تنسب كل طائفة منهم إلى من بقى من الخلفاء الماضين مثل : الآمرية والحافظية ، أو إلى من بقى من بقايا الوزراء الماضين مثل : الجيوشية والأفضلية ، أو إلى القبائل والأجناس مثل : الأكراد والديلم والغُزّ والروم والصَّقالبة ، أو من السودان أو من عبيد الشراء وفيهم الفرحية والمرتاحية والميمونية [٢].

وكان لكل طائفة منهم قُوّاد ومقدمون يحكمون عليهم ، كما كان يتولّى قيادة الأجناد « الإسْفَهْسَلار » أو « إسفهسلار العساكر » الذى وصفه ابن الطُّوَيْر « بأنه زمام كل زمام وإليه أمر الأجناد والتحدث فيهم » [٣] ويأتى فى ترتيبه بعد « صاحب الباب » مباشرة . وإذا كنّا لا نعرف الكثير عن شاغلى هذه الرتبة فقد أشار عمارة اليمنى إلى شخص يدعى يحيى بن الخياط كان « إسفهسلار العساكر » فى زمن بنى رُزِّيك [٤].

---

[١] القلقشندى : صبح الأعشى ٣: ٤٧٧.
[٢] نفسه ٣: ٤٧٨؛ المقريزى: الخطط ٢: ١٤.
[٣] المخزومى : المنهاج ٧١؛ ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٢٣؛ القلقشندى : صبح ٣: ٤٧٨، ٤٧٩.
[٤] عمارة اليمنى : النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية ٦٩.

أما القائد الأعلى للجيش الفاطمى فكان فى القرن الفاطمى الأول هو الإمام الفاطمى نفسه، فقد خرج الخليفة العزيز بالله على رأس الجيش الفاطمى لمواجهة أَفْتكين التركى سنة ٣٦٨هـ/٩٧٩م، كما قاد الخليفة المستنصر بالله الجيش الفاطمى لمواجهة تَغَلُّب الأتراك على الدولة.

ولكن بعد وصول العسكريين إلى السلطة، ابتداء من استعانة الخليفة الفاطمى المستنصر بالله ببدر الجمالى سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٤م، أصبح «أمير الجيوش» – وهو اللقب الذي اتخذه العسكريون منذ هذا التاريخ – هو القائد الأعلى للجيش الفاطمى. وفى آخر عصر الدولة اتخذ شيركوه لقب «سلطان الجيوش»[١].

أما «طوائف الأجناد» فكانوا كما ذكرت سابقًا يتكونون من عناصر عرقية مختلفة: الكُتاميون والزُّوَيليون والصَّقالِبَة فى أول عهد الدولة، الأتراك والديالمة وعبيد الشراء ابتداء من عهد العزيز بالله، السودان والمصامدة فى عهد المستنصر بالله، بالإضافة إلى بعض عناصر الأكراد والغُزّ، وأخيرًا الأَرْمَن ابتداء من وصول بدر الجمالى إلى قمة السلطة فى مصر.

وكانت هذه الطوائف تنتسب أحيانًا إلى الخلفاء مثل: العزيزية والآمرية والحافظية، أو إلى الوزراء مثل: الجيوشية المنتسبون إلى أمير الجيوش بدر الجمالى والأَفْضَلية المنتسبون إلى الأَفْضَل بن بدر الجمالى، واليانسية المنتسبون إلى يانس الأَرْمَنى.

ومثلما أنشأ الوزير الأَفْضَل بن بدر الجمالى «الصِّبْيان الحُجَرِيَّة» بغرض تحديث الجيش الفاطمى، فقد قام بعض الأمراء بإنشاء قوات خاصة بهم ولكن فى هذه المرة لحمايتهم ومؤازرتهم، مثل الأمير حسن بن الخليفة الحافظ الذى أنشأ فى أثناء صراعه على ولاية عهد والده الحافِظِ فرقة تسمى «صِبْيان الزَّرْد»، ذكر ابن الطُّوَيْر أنهم كانوا

---

[١] أبو شامة: الروضتين ١/ ٢: ٤٠٢.

من خليط الأجناد ومن جميع الطوائف تقوّى بهم وساعدوه فأنعم عليهم وأقطعهم البلاد وولاهم الولايات وجعلهم أمراء دولته وأجناده [١].

ومن أهم فرق الجيش الفاطمى التى لعبت دورًا فى القرن السادس الهجرى : الطائفة الجيوشية والطائفة الرَّيْحانية ، وأصول هاتين الطائفتين غير واضحة تمامًا . وتوجد إشارات خاطئة فى بعض المصادر إلى أن الجيوشية كانت طائفةً من المشاة السودانيين . ولكن يبدو أن أصولهم ترجع إلى الحملة التى شَنَّها بدر الجمالى ضد طوائف السودان فى صعيد مصر . فقد قطع هذه الحملة هجوم السَّلاجِقَة على حدود مصر الشرقية ، ويبدو أن بدر الجمالى توصَّل إلى نوع من التسوية مع السوُدان بقدر ما يحاربون معه السَّلاجِقَة ، وقد ميَّزوا أنفسهم فى هذه الحرب وأصبحوا يعرفون بـ « الجيوشية » نسبة إليه [٢]. أما « الرَّيْحانية » فطائفةٌ مكونة من السودان ترجع أصولهم فيما يبدو إلى العقد الرابع من القرن الخامس الهجرى . ففى هذا الوقت كان هناك خَصيٌّ يُعرف بعزيز الدولة رَيْحان كان له نفوذٌ فى البلاط الفاطمى انتسبوا إليه [٣]، وكانوا يقيمون بحارة بهاء الدين بالقرب من باب الفُتُوح وجامع الحاكم [٤].

وكان هناك طائفةٌ من الجنود يعرفون بـ « المركزية » استخدمتهم الدولة الفاطمية للمحافظة على الثغور والمراكز الحدودية فى الفَرَما وتنِّيس والقُلْزُم وأسوان [٥].

كذلك فإن حِراسَة القصر الفاطمى كان يتولاَّها بالمناوبة كل ليلة كما يذكر ناصر خُسْرو ألف رجل ، خمسمائة فارس وخمسمائة راجل ، أو خمسون فارسًا يرأسهم أميرٌ

---

[١] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٥٩، ١٦٥؛ المقريزى: اتعاظ الحنفا ٣: ١٤٩؛ ساويرس بن المقفع: تاريخ بطاركة الكنيسة ٣/١: ٢٨.

[٢] Lev, Y., *op. cit.*, p. 127.

[٣] *Ibid.*, p. 128.

[٤] المقريزى: مسودة المواعظ والاعتبار ٣٦٣-٣٦٤.

[٥] ابن المأمون : أخبار مصر ١٣؛ المقريزى : الخطط ١: ١٩٨، ٢١٢، ٢١٣.

يقال له « سِنانُ الدولة ابن الكَرْكَنْدي » [يقوم مقام « أمير جانْدار » فى العصر المملوكي] ، تبدأ نوبتهم بعد صلاة العشاء الآخرة حيث يأمر ابن الكَرْكَنْدى بضرب نوبات من الطبل والبوق وتوابعهما بطرائق مستحسنة ثم يقوم بغرس حربة على الباب ويرفعها فيُغْلَق الباب ، ويسير الحرس حول القصر سبع دورات ، فإذا انتهت جعل على الباب البياتين والفراشين[١] .

ورغم الأخطار التى كانت تُهَدِّد حدود الدولة الفاطمية وعلى الأخص خطر الفِرِنْج والتى كانت تتطلَّب دائمًا وجود جيش قوى للدولة ، فإن الصراعات الداخلية والحروب الأهلية تكرَّرت كذلك فى القرن السادس الهجرى مما أدَّى إلى تشتيت جهود الدولة والتعجيل بسقوطها أهمها : الفتنة التى صاحبت مقتل الخليفة الآمر بأحكام الله سنة ٥٢٤هـ/١١٣٠م دون وريث وتَسَلُّط الوزير أبو على الأَفْضَل كُتَيْفات على مجريات الأمور حتى نجاح الفرقة المناصرة للخليفة الحافظ فى قَتْل أبى على الأَفْضَل وتوليته الإمامة[٢]. والصراع بين الأمير حسن وَلِيّ العَهْد وأبيه الخليفة الحافظ سنة ٥٢٨هـ/١١٣٤م الذي انتهى بقتل الحسن وتولية بَهْرام الأَرْمَنى الوزارة للحافِظ كأول وزير سيف نَصْرانى فى الدولة الفاطمية ، الأمر الذى أدّى إلى ازدياد نفوذ الأَرْمَن فى مصر والصِّراع بينهم وبين السُّنَّة بقيادة رِضْوان بن وَلَخْشى[٣]. وأخيرًا الصِّراع بين شاوَر وضرغام الذى أدَّى إلى تَطَلُّعُ القوى الخارجية ممثلة فى الزَّنْكيين والفِرِنْج للسيطرة على مصر وانتهى بسقط الدولة الفاطمية[٤].

* * *

وإذا كان عدد أفراد الجيش الفاطمى فى أول عهد الدولة قد بَلَغَ كما يذكر المؤرخون مائة ألف جندى ، ثم تزايد فى عهد المستنصر ليتعدى المائة وخمسين ألف جندى كما

---

١ ناصر خسرو: سفرنامة ٨٨؛ ابن الطوير : نزهة المقلتين ٢١٠- ٢١١؛ القلقشندى: صبح ٣: ٥١٨.
٢ فيما سبق ص ٢٤٢-٢٤٨ .
٣ فيما سبق ص ٢٥٦-٢٥٨ .
٤ فيما سبق ص ٢٨٧-٢٩٠ .

فى رواية ناصر خُسْرو؛ فقد تضاءل عدد الجيش فى نهاية الدولة، ولدينا نوعين من الأرقام حيث بلغت عدة العسكر فى عرض ديوان الجيش فى أيام الوزير رُزِّيك بن الصَّالح طَلائِع، نحو سنة ٥٥٧هـ/١١٦٢م، أربعين ألف فارس ونيفًا وثلاثين ألف راجل من السودان [١]. وأضاف المقريزى أيضًا أنه فى أيام ضرغام وشاور سنة ٥٥٩هـ/١١٦٤م وقت الاستعانة بجيوش نور الدين كان بمصر عشرة آلاف فارس ومائة شينى فيها عشرة آلاف مقاتل وأربعين ألف عبد [٢].

ويدلنا هذا النَّصّ على أن السودان كانوا ما يزالون يُكَوِّنون معظم مشاة الجيش الفاطمى، وكانوا يسكنون فى حارة مخصصة لهم خارج باب زُوَيْلَة على يمنة الخارج منه تجاه بركة الفيل تعرف بـ «الحارة المَنْصُورية» [٣]. وقد قام هؤلاء السودان - الذين بلغ عددهم تبعًا للمصادر خمسين ألفًا - عندما تولّى صلاح الدين الوزارة سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م بمكاتبة الفِرِنْج يُحَرِّضونهم على محاربة صلاح الدين. وقد وَقَعَ كتابهم هذا فى يد صلاح الدين الذى قتل رئيسهم مُؤْتَمن الخلافة فى ذى القعدة من نفس العام، ثم هاجمهم فى الحارة المَنْصُورية وأحرقها عليهم وخَرَّبها وتَتَبَّع فلولهم فى الصعيد حتى قضى عليهم تمامًا وأصبح أمر السودان كأن لم يكن حسب تعبير المقريزى [٤].

وهكذا فمع نجاح السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فى القضاء على الدولة الفاطمية فى مصر سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م فإنه:

> «أزال جند مصر من العبيد السود والأمراء المصريين والعربان والأَزْمَن وغيرهم، واستجد عسكرًا من الأكراد والأتراك خاصة» [٥].

---

[١] المقريزى: الخطط ١: ٨٦، ٩٤.

[٢] نفسه ١: ٨٦، ٩٤ واتعاظ الحنفا ٣: ٢٦٦-٢٦٧.

[٣] نفسه ٢: ١٩؛ ابن عبد الظاهر: الروضة البهية ١٣٧.

[٤] أبو شامة: الروضتين فى أخبار الدولتين ١: ٤٥٠-٤٥٢؛ المقريزى الخطط ٢: ٣، ١٩ واتعاظ ٣: ٣١١-٣١٢.

[٥] المقريزى: الخطط ١: ٩٤.

وكان استبعاد السودان ، نظرًا لوضعهم الاجتماعى وأصلهم العرقى . أما الأَرْمَن فبسبب ديانتهم لأنهم لم يعتنقوا أبدًا الإسلام كما أوضحت ، وهكذا قُضِيَ على التركيب العرقى والعنصرى للجيش الفاطمى ، وحَلَّ مكانه تركيبٌ اجتماعى جديد كان أساسه : الأكْراد والأتراك الذين تميزوا بقدرتهم القتالية الكبيرة ، واعتناقهم جميعًا للإسلام الأمر الذى قلب الموازين فى الصراع العربى - الصليبى .

ورغم أن صناعة النَّسيج (الطِّراز) قد عَرَفَت تقدُّمًا كبيرًا فى العصر الفاطمى وكانت منتشرة فى مصر فى أماكن كثيرة : تنِّيس وشَطا ودِمْياط والإسكندرية والدَّلْتا والقاهرة والفيوم وطحا والأشمونين وأسيوط بمصر العُلْيا ، كما يُقَدِّم لنا كُلٌّ من ابن المأمون وابن الطُّوَيْر أوصافًا هامة عن دور الطِّراز المختلفة والكسوات التى كان يمنحها الخلفاء للوزراء وكبار رجال الدولة فى الأعياد والمناسبات المختلفة [١] ، فإننا لا نكاد نظفر ، للأسف الشديد ، بأية أوصاف لأزياء الجنود ، وقُوّاد الجيش فى العصر الفاطمى . وفى المقابل فإن المصادر أمدَّتنا بتفاصيل كثيرة عن أزياء الجنود وملابسهم فى العصر المملوكى ولكنها لا تصلح أن تكون نموذجًا يقاس عليه [٢] .

وَداعُ الجيش

كان الخلفاءُ الفاطميون يحرصون على وَدَاع الجيش عند رحيله للقتال فى احتفال رسمى ، سواء فى العاصمة نفسها أو خارجها ؛ ويعود هذا التقليد إلى الخليفة الفاطمى الرابع المعز لدين الله الذى حرص على الخروج بنفسه ومعه ولى عهده وكبار رجال دولته لوَداع جيش جَوْهَر الذى خرج من رَقَّادَة لفتح مصر [٣] .

وفى القاهرة كان ميدان بين القصرين الواقع بين القصر الفاطمى الكبير والقصر

---

[١] راجع ، المخزومى: المنهاج ٣٢- ٣٣؛ ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٠١- ١٠٤، وفيما سبق ص ٤٧٣-٤٨٩.

[٢] انظر ، Mayer, L.A., *Mamluk Costume*, Genéve 1952 .

[٣] المقريزى : الخطط ١: ٣٧٨.

الفاطمى الصغير الغربى يُسْتَخْدَم لاستعراض الجيش الفاطمى وكان يَتَّسِع لعشرة آلاف جندى بين فارس وراجل. وقد شَبَّه المقريزى هذا الاستعراض بما كان يفعله سلاطين المماليك بعد ذلك فى استعراض جيشهم فى ميدان الرُّمَيْلَة تحت قلعة الجبل[1].

وقد حَفِظَ لنا ابن المأمون وصفًا لوداع الخليفة الآمر للجيش الذى خَرَجَ إلى سواحل الشام سنة ٥١٧هـ استجابةً لرسل صاحبى دمشق وحَلَب وما تم فيه، يقول:

« وتقدَّم إلى الأزمة بإحضار الرجال الأقوياء، وابتدأ بالنفقة فى الفرسان بين يدى الخليفة فى قاعة الذهب، وأحضر الوزّانون وصناديق المال وأفرغت الأكياس على البساط، واستمر الحال بعد ذلك فى الدار المأمونية، وتردَّد الرأى فيمن يتقدَّم فوقع الاتفاق على حسام الملك البرنى وأحضر مقَدَّم الأساطيل الثانية، لأن الأساطيل توجَّهت فى الغزو، وخُلع عليه وأمر بأن ينزل إلى الصناعتين بمصر والجزيرة، ويُنْفق فى أربعين شينيًا ويُكْمل نفقاتها وعُدَدها، ويكون التوجه بها صُحْبَة العسكر، وأنفق فى عشرين من الأمراء للتوجه صحبته، فكَمُلَت النفقة فى الفارس والراجل وفى الأمراء السائرين وفى الأطباء والمؤذنين والقرّاء، ونَدَب من الحجّاب عدَّة وجعل لكل منهم خدمة، فمنهم من يتولى خزانة الخيام، وسير معه من حاصل الخزائن برَسْم ضعفاء العسكر ومن لا يقدر على خيمة خيم، ومنهم حاجب على خزائن السلاح، وأنفق فى عدَّة من كتّاب ديوان الجيش لعَرْض العساكر وفى كتاب العربان، وأحضر مقدمو الحراسين بالجفار وتقدَّم إليها بأنه من تأَخر عن العَرْض بعسقلان وقبض النفقة فلا واجب له ولا إقطاع، وكتبت الكتب إلى المستخدمين بالثغور الثلاثة: الإسكندرية ودِمْياط وعَسْقَلان بإطلاق وابتياع ما يستدعى برسم الأسمطة على ثغر عسقلان للعساكر والعربان من الأصناف والغلال. ووَقع الاهتمام بنجاز أمر الرسل الواصلين، وكتبت الأجوبة عن كتبهم، وجُهز المال والخلَع المذهبات والأطواق والسيوف والمناطق الذهب والخيل بالمراكب الحلى الثقال وغير ذلك من التجملات، وخُلع على الرسل وأطلق لهم للتسفير، وسُلمت إليهم الكتب والتذاكر، وتوجّهوا صحبة العسكر.

وركب الخليفة الآمر بأحكام الله إلى باب الفتوح ونَظَر بالـمَنْظَرَة، واستدعى

---

[1] المقريزى: الخطط ٢: ٢٨.

حسام الملك وخَلَع عليه بدلة مذهبة ، وطوّقَه بطوق ذهب ، وقلده ومنْطَقَه بمثل ذلك ، ثم قال الوزير المأمون للأمراء ، بحيث يسمع الخليفة : هذا الأمير مقدّمكم ومقدّم العساكر كلها وما وَعَد به أنجزته ، وما قرّره أمضيته ، فقبّلوا الأرض ، وخَرجُوا من بين يديه ، وسَلّم متولى بيت المال وخزائن الكسوة لحسام الملك الكتب بما ضُمّنته الصناديق من المال وأعدال الكسوات ، وحملت قدّامه ، وفُتحت طاقات المنظرة ، فلما شاهد العساكر الخليفة قبّلوا الأرض ، فأشار بالتوجّه فساروا بأجمعهم ، وركب الخليفة وتوجّه إلى الجامع بالمَقْس وجَلَسَ بالمنظرة واستدعى مقدّم الأسطول وخَلَع عليه وانحدرت الأساطيل مشخونة بالرجال والعُدّة »[1].

تَمْوِينُ الجَيْش

أما أَمْتِعَة الجيش الضرورية مثل : الخيام والأسلحة والأدوات المختلفة فكانت تُحْمَل أثناء المعارك على ظهور الجمال . وكان تموين الجيش يُشَكِّل عمومًا مشكلةً فى تعبئتها ؛ لصعوبة المواصلات ، والاعتماد فى حَمْل المواد على حيوانات النقل البطيئة الحركة مما يؤدّى إلى تلف المؤن ، وكذلك صعوبة الاتصال بالمراكز لطلب التزويد بالمؤن حين نفادها . ولهذا فكثيرًا ما كانت مسألة التموين تحدد مصير الحملات وتسرع فى حَسْم نتائج المعركة لصالح الطرف الذى أخذ احتياطه الكافى من الزاد والماء ، فكان على القائد أن يُمَوِّن جيشه بالكمية اللازمة التى تكفى المدة التى يقضيها فى الطريق وفى حالة الحرب حتى العودة ، وأن يضع فى حسابه استمرارالتزوُّد بالمؤن عند الحاجة وأن لا يُقْطَع عنه خط التموين قدر استطاعته ، وكانت مواد التموين تُحمل فى مؤخرة الجيش عادةً ، أى فى الساقة ، وكانت تسمى بـ « الثُّقَل » ، كما أن الجنود كانوا يحملون معهم بعض مواد التموين الضرورية فى مخالى الخيل أو فى الجراب (الصَّوْلَق) المعمول من الجلد الذى يُعَلَّق على الكتف وكانت لا تتعدى الخبز والجبن والبصل وبعض اللحوم المُقَدَّدَة[2].

---

[1] ابن المأمون : أخبار مصر ٦٠-٦١.

[2] محسن محمد حسين : الجيش الأيوبى فى عهد صلاح الدين ١٢٦-١٢٧.

ويذكر ابن الطُّوَيْر أن الخليفة الآمر عندما فَكَّر فى السفر إلى المشرق والإغارة على بغداد استعمل للسفر سروجًا خالية القرابيص (م. قَرَبوص) مُجَوَّمَة وبَطَّنها بصفائح قصدير فجعل فيها ماءًا وفى كل منها مفتوح مقدار جواز صفارة فيه، فإذا دعت حاجة فارسه إلى الشرب شرب وجعله يحمل مقدار سبعة أرطال[1].

أسلِحَةُ الجَيْش

كانت أسلحةُ الجيش الفاطمى تُحْفَظ فى « خزانة السِّلاح » التى كان موضعها يقابل « الإيوان » بالقصر الفاطمى الكبير[2]. وقد جَمَعَ الفاطميون فيها أسلحةً عظيمة القيمة التاريخية كالسيف المسمى « ذى الفِقَار » وهو السيف المشهور الذى غنمه النبى ﷺ فى غزوة بَدْر. وقد ذاع صيت هذا السيف حتى قيل « لا سيف إلا ذى الفِقَار » وهى العبارة التى نراها منقوشة على السيوف الأثرية. وقد آل هذا السيف إلى علىّ بن أبى طالب بعد وفاة النبى ﷺ ثم إلى الخلفاء العَبّاسيين من بعده، ولسنا ندرى كيف حصل عليه الخلفاء الفاطميون. ويقال أيضًا أن خِزَانَة السِّلاح الفاطمية كانت تحوى بين جدرانها صِمْصامَة عمرو بن معدى كرب، وسَيْف عبد الله ابن وَهْب الرَّاسِبى، وسَيْف كافور، وسَيْف المعز ودِرْعه، وسَيْف أبى المعز، وسَيْف الحسن بن على بن أبى طالب، ودَرَقَة حمزة بن عبد المطلب، وسَيْف جعفر الصّادق. وكان يوجد بها أيضًا الكَزاغَنْدات والجَواشِن والزَّرْديات والخُوَذ والرِّماح والقُنْطاريات والأَسِنَّة البَرْصانية وقِسِىّ الرماية والنُّشاب والسيوف المحلاة بالذهب والفضة والسيوف الحديدية وصناديق النصول وجعاب السهام الخِلَنْج، وكان من كل صنف منها

[1] ابن الطوير: نزهة المقلتين ١٩.
[2] نفسه ٣٤ .

عشرات الألوف[١]. وكان الخليفة الفاطمى يُكْثر من زيارتها والطواف بها ويتأمّل حواصلها من الأسلحة[٢].

وإذا كانت المصادر لم تصف لنا ما كان يدور فى ساحات القتال وكيفية استخدام هذه الأسلحة وأنواعها المختلفة ، فإن وَصْف الاحتفالات الموكبية للخلفاء الفاطميين وعلى الأخص فى القرن السادس الهجرى ، يمدنا بمعلومات غنية سواء عن طوائف العسكر القريبين من الخليفة أو أنواع الأسلحة التى كانت تُسْتَخْدَم فى العروض العامة والاحتفالات الموكبية . وأهم الاحتفالات الفاطمية التى وصل إلينا تفصيلات هامة عنها هى احتفال « ركوب أول العام الهجرى »[٣]، وقدّم لنا ابن الطُّوَيْر تفصيلات غنية عن هذا الاحتفال وغيره من الاحتفالات التى كانت تتم طوال العام (ركوب أول شهر رمضان - ركوب أيام الجُمَع الثلاث من شهر رمضان - ركوب صلاة عيد الفطر - ركوب صلاة عيد الأضحى - ركوب فَتْح الخليج - ركوب تَخْليق المقياس - ركوب عيد الغَدير)[٤]. وينطبق وَصْف ابن الطُّوَيْر خاصة على الاحتفالات التى كانت تتم فى القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى وعلى الأخص فى زمن الخليفة الآمر بأحكام الله ووزارة المأمون البطائِحى (٥١٥-٥١٩هـ/١١٢١-١١٢٥م) .

ويعد كتاب « تَبْصِرَة أرْباب الألْباب فى كيفية النَّجاة فى الحُروب من الأَسْواء . . . .» لمَرْضى بن على بن مَرْضى الطَّرَسُوسى المتوفى سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م والذى ألّفه للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أقدم كتاب يصل إلينا يتناول وَصْف أسْلِحَة الجيش الإسلامى وكيفية صنعها . ورغم أنه أُلِّف للسلطان صلاح الدين فإننا لا نعرف إذا كانت قد تَمَّت كتابته قبل موقعة حِطِّين سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م أو بعدها ، إلا

---

[١] المقريزى : الخطط ١: ٤١٧؛ زكى محمد حسن: كنوز الفاطميين ٥٤-٥٥.

[٢] ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٣٣-١٣٤.

[٣] نفســه ١٤٧-١٦٣وفيما سبق ص ٤١٥-٤٣٢ .

[٤] نفســه ١٦٨-٢٠٣ وفيما سبق ص ٤١٥-٤٦٤.

أننا نستطيع من خلاله التعرف على الكثير من أنواع الأسلحة التي استخدمت فى الدولة الفاطمية واستمر استخدامها بعد ذلك.

* * *

فى وَصْفه لاحتفال ركوب أوَّل العام يذكر ابن الطُّوَيْر من بين الأسلحة التى كانت تخرج من خِزانَة السِّلاح، الأسلحة التى كان يحملها «صِبْيان الرِّكاب» الذين يُقال لهم أيضًا «الرِّكابية» و «صِبْيان الرِّكاب الخاص» حول الخليفة أثناء الموكب، كان عددهم فى الدولة الفاطمية يزيد على ألفى رجل ولهم اثنا عشر «مُقدَّم» يأتى على رأسهم «مُقَدَّم المقدمين» وهو صاحب الركاب اليمين، وكان لكل من هؤلاء المقدمين فى كل شهر خمسون دينارًا، بينما ينقسم الركابية أنفسهم جوقًا (= مجموعات) على قدر ما يجرى عليهم، فجُوقَة لكل منهم خمسة عشر دينارًا، وجُوقَة لكل منهم عشرة دنانير، وجُوقَة لكل منهم خمسة دنانير[1]. وقد شَبَّههم القلقشندى بالسلاح دارية والطُّبْردارية فى العصر المملوكى[2]. وهذه الأسلحة هى:

الصَّماصم المصقولة المذهبة مكان السيوف المُحَدَّبة لغيرهم، وعلى ذلك فإن الصَّمْصام (جـ. صماصم) يعنى سيفًا مستقيمًا وهو سلاح هجومى يستعمل باليد[3].

الدَّبابيس الملبَّسة بالكيمُخْت الأحمر والأسود ورءوسها مُدَوَّرة مُضَرَّسة أيضًا. والدبوس (ويسمى العمود) آلة من حديد ذات أضلاع ينتفع بها فى قتال لابس البيضة ومن فى معناه. والبيضة آلة من حديد توضع على الرأس لوقاية الضرب ونحوه[4].

---

[1] ابن الطوير: نزهة المقلتين ١٢٤.

[2] القلقشندى: صبح الأعشى ٣: ٤٨٠.

[3] عن تاريخ صناعة السيف العربى وأنواع سقايته راجع، عبدالرحمن زكى: «السيوف وأجناسها - رسالة يعقوب بن إسحاق الكندى فيلسوف العرب»، مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٤ (ديسمبر ١٩٥٢) ١-٣٦؛ عبدالرحمن زكى: السيف فى العالم الإسلامى، القاهرة ١٩٥٧؛ أونصال يوجل: السيوف الإسلامية وصناعتها، ترجمة تحسين عمر طه أوغلى، استانبول - مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية ١٩٨٨.

[4] القلقشندى: صبح الأعشى ٢: ١٤٢.

والكيمُخْت ضربٌ من الجلود المدبوغة كان يستخدم فى عمل الدروع والجواشن.

اللُّتوت (جـ. لُتّ) ذات الرءوس المستطيلة المضرسة أيضًا، وهى اسم فارسى معرب يعنى القدوم أو الفأس العظيمة.

آلات يقال لها «المستوفيات» عبارة عن عُمُد من حديد طولها ذراعين (نحو متر) مربعة الأشكال بمقابض مُدَوَّرة فى أيديهم.

وكانت هذه الأسلحة والآلات تخرج من خِزَانَة السِّلاح بعدد معلوم من كل صنف يتسلَّمها نقباء صِبْيان الرِّكاب فى ضمانهم وعليهم إعادتها مرة أخرى إلى الخزائن بعد انتهاء الخدمة بها [١].

وكذلك الأسلحة التى كانت تخرج لـ «أرباب السِّلاح الصغير» وهم ثلاثمائة عبد من العبيد الأقوياء السودان الشباب، لكل واحد: حربتان بأسنَّة مصقولة تحتها جِلَب فضة كل اثنتين فى شرَّابة.

دَرَقَة بكوابج فضة والدَّرَقَة هى الدِّرْع الذى يُحْتَمى به، والكوابج كلمة تركية göbek بمعنى سُرَّة، أى أن فى وسطها حلية أو زخرفة مُحَدَّبَة أو مُقَعَّرَة ويتسلم هذه الأسلحة عُرَفاء العبيد بضمانهم يسلمون لكل عبد حربتان ودَرَقَة [٢].

وكان من حقوق خزانة السِّلاح خزانة تعرف بـ «خزانة التَّجَمُّل» كان يخرج منها فى هذه المناسبة «القُضُب الفضة»، وهى رماح مُلَبَّسة بأنابيب الفضة المنقوشة بالذهب إلا ذراعين يوضع فى هذه المنطقة الخالية عدة من المعاجر (جـ. مَعْجَر) الشَّرَب، أى قطعة من نسيج الحرير الملونة وتترك أطرافها المرقومة، أى المنقوشة، مسبلة كالسناجق (جـ. سَنْجَق) أى الرايات، وبرءوسها رمامين منفوخة فضة مذهبة (أى على شكل الرمان

---

[١] ابن الطوير: نزهة المقلتين ١٤٨، القلقشندى: صبح ٣: ٤٧٠.

[٢] نفسه ١٤٨- ١٤٩؛ نفسه ٣: ٤٧٠.

الفاكهة المعروفة) وأهلّة (جـ. هلال) مجوّفة كذلك وفيها جلاجل لها حِسّ إذا تحركت، يكون عدد هذه الرماح ما يقرب من المائة[١].

وبالإضافة إلى ما كان يُشَرَّف به الوزير والأمراء، كان يخرج لقوم يقال لهم «السَّبَرْبرية» نسبة إلى السَّبَرْبرات – وهى جنس من الرِّماح أسنتها عراض طوال – سلاحٌ، كل قطعة منه طولها سبعة أذرع برأسها طلعة مصقولة من خشب القُنطاريات (نوع من الرماح المصنوعة من الخشب الزان أسنتها قصار عراض كهيئة البلطة) وعقبها من الحديد مدور أسفله، تكون فى كف حاملها الأيمن يفتلها فتلاً متدارك الدوران، ويحمل فى يده اليسرى نَشّابة كبيرة يخطر بها (أى يرفعها مرة ويضعها أخرى) وعدد هؤلاء ستون رجلاً يسيرون رَجّالة فى الموكب يمنة ويسرة[٢].

ثم يخرج لقوم متطوعين بغير جار ولا جراية يقارب عددهم مائة رجل لكل واحد دَرَقَة من درق اللَّمْط (نسبة إلى قبيلة من البربر بأقصى المغرب) وسيف، ويسيرون أيضًا رَجّالة فى الموكب[٣].

ومن بين سائر الأسلحة المحفوظة بخزائن السِّلاح كانت:

الكزاغَنْدات (ومفردها كزاغَنْد) المدفونة بالزرد المغشاة بالديباج المحكمة الصنعة، وهى لفظ فارسى الأصل معناه المعطف القصير الذى يلبس فوق الزردية، وهى زرديات دفاع يلبس عليها ثياب قد بسط فوقها مشاقة الحرير والمصطكا وتكسا بالثياب الديباج أو غيرها وتخاط عليها وتُحَشّن بالتنبيت بالحرير ونحوه، وتلبس للوقاية من السيوف والسهام[٤].

---

[١] ابن الطوير: نزهة المقلتين ١٤٩.

[٢] نفســه ١٥١.

[٣] نفســه ١٥١– ١٥٢؛ القلقشندى: صبح ٣: ٤٣٠.

[٤] نفســه ١٣٣.

الجَوَاشِن المُبَطَّنَة المذهبة . مفردها جَوْشَن وهو الدرع .

الذَّرديات السابلة برءوسها وقُلْنسُواتها . وهى نوع من الملابس الدفاعية التى يلبسها الفارس .

الخُوَذ المُحَلاَّة بالفضة ، وهى التى تنسج من الدروع على قدر الرأس وتلبس تحت القُلْنسوة و المِغْفَر وهو آلة من حديد توضع على الرأس لها أطراف مسدولة على قفا اللابس وأذنيه .

السُّيوف العربيات والقَلُجوربات أى التركية .

الرِّماح القَنا مفردها رُمْح وهو آلة الطعن ، والقنا قصب مسدود الداخل ينبت ببلاد الهند ويوصف بالخطى نسبة إلى الخطّ بلدة بالبحرين يجلب إليها الرماح من الهند ويقال للحديد الذى فى أعلى الرمح السنان والذى فى أسفله الزُّج والعَقب [١].

القُنْطاريات ومفردها قُنْطارية وهى من اليونانية Kontarion جنس من الرِّماح يصنع من الخشب الزان وأسنتها قصار عراض كهيئة البلطة [٢].

القِسِيّ التى ترمى باليد المنسوبة إلى صُنّاعها مثل الخطوط المنسوبة إلى أربابها . والقِسِيّ على ضربين : أحدهما العربية وهى التى من خشب فقط والأخرى الفارسية وهى التى تركب من أجزاء من الخشب والقرن والقصب والغراء ولأجزائها أسماء لكل جزء منها اسم [٣].

الأسنَّة الخَرْصانية من الخرص بالكسر بمعنى السنان والرمح اللطيف القصير يتخذ من خشب منحوت .

---

[١] القلقشندى : صبح الأعشى ٢: ١٤٠-١٤١.

[٢] Cahen, Cl., Un *traité d'armurerie*, p. 113

[٣] القلقشندى : صبح الأعشى ٢: ١٤١-١٤٢.

نِشابُ القِسِيّ وكانت نصولها مثلثة الأركان على اختلافها وهى ما يرمى به عن القسى الفارسية .

قِسِيّ الرِّجْل والركاب . « وهى التى تُوَتَّر بدفع رجلى الإنسان لها مع جذب ظهره ، لأن جَرّها يحوج الإنسان أن يحمل فى وسطه حزامًا من الجلد البقرفى طرفيه كلايين من الحديد يجعل وتر القوس فيهما ويجعل الإنسان رجليه فى بطن القوس جذبًا بظهره الحزام الذى فيه الكلايين إلى أن يجعل الوتر فى القفل الذى فى المجراة وينزل المفتاح فيها ثم يأخذ القوس بيديه ويجعل النبلة فى المجرى ... »[١] .

قِسِيّ اللَّوْلَب الذى يقال له الجراد وطوله شبر يرمى به عن قسى معمولة برسمه فلا يدرى به الفارس أو الراجل إلا وقد نفذ لهم[٢].

ومن بين الأسلحة والآلات التي كانت تستخدم فى القتال كذلك آلات الحصار ومنها : المَنْجَنيق (جـ . مَنْجَنيقات) . آلة قاذفة ترمى بها الحجارة أو السهام الضخمة أو قدور النفط والكرات الملتهبة . وهو سلاحٌ قديم شاع استخدامه عند المسلمين ، وفى عهد العباسيين أصبح سلاحًا من أهم أسلحة الجيش ، وذكر الطرسوسى أنواعًا مختلفة من المجانيق (العربى - الفارسى والتركى - الرومى أو الأفرنجى) . وهو عبارة عن عدة من القوائم الخشبية تتصل فى أعلاها بعارضة وعلى هذه العارضة يركب عمود خشبى طويل يقال له « السهم » ويكون قصيرًا من جهة وطويلاً من جهة أخرى (نسبة ربع إلى ثلاثة أرباع وأحيانًا خمسة إلى أربعة أخماس) ويحمل هذا السهم من جهته القصيرة ثقلاً عاكسًا يسمى « الصندوق » إذا كان كتلة واحدة و « القواعد » إذا كان جملة أثقال ، كما يحمل من جهته الطويلة « الكفَّة » التى تحمل المقذوف سواء أكان حجرًا أو برميل نَفْط أو غير ذلك . ويتّصل « السهم » من جهته الطويلة بحبل من الشعر يسمى « زيّار »

---

١ Cahen, Cl., *op. cit.*, p. 110 .

٢ *Ibid*, pp. 110-111 .

يمكن شده (تزييره) بواسطة « دولاب » كان يطلق عليه أحيانًا اسم « القوس » لأنه كان يتصل بقوس يزيد انحناءًا كلما دار الدولاب فى حالة الشد (قسى الزيار) . فإذا أراد السَّدَنَة الرمى على المنجنيق قاموا بشد السهم وتزييره مما يؤدى إلى رفع الجانب القصير من السهم والثقل المعاكس الذى يحمله إلى الأعلى وعند ذلك يكفى تحرير السهم من تأثير شد الزيار بالطَّرْق على مفتاح أو رُزّة طرقًا خفيفًا فيقوم الثقل المعاكس بالهبوط نحو الأسفل مما يرفع الجهة الأخرى التى تحوى الكفّة نحو الأعلى بقوة مما يؤدى إلى اندفاع المقذوف بنفس اتجاه الثقل المعاكس ولمسافة قد تصل إلى أربعمائة متر تقريبًا ويختلف مدى الرمى باختلاف زاوية انحناء المنجنيق وطول السهم ومرونته وثقل الحجر[١].

و « قوارير النِّفْط » وهى القدور وما ماثلها التى يُجْعَل فيها النِّفْط ويُرْمى بها على الحصون والقلاع للإحراق . وقد استخدمت كميات كبيرة من هذه «القوارير» فى حرق الفسطاط بلغت نحو عشرين ألف قارورة بعث بها الوزير شاور لهذا الغرض سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م[٢].

و « الستائر » وهى آلات الوقاية من الطوارق وما فى معناها مما يُستر به على الأسوار والسفن التى يقع فيها القتال ونحو ذلك[٣].

ورغم هذه التفصيلات الغنية التى أمدّنا بها المؤرخون عن « خزانة السّلاح » عند الفاطميين وما كان فيها من الزَّرْد والدروع والحراب والسيوف وغير ذلك من الأسلحة المصنوعة من الصُّلْب والذى كان بعضها مرصّعًا بالأحجار النفيسة ، فإنه لم يصل إلينا منها أى نماذج تعيننا على دراسة أسرار هذه الصناعة وأساليبها الفنية ؛ فأقدم الأسلحة التى وصلت إلينا يرجع تاريخها إلى عصر المماليك[٤] .

---

[١] أرنبغا الزردكاش: الأنيق فى المناجيق، دراسة وتحقيق إحسان هندى، حلب ١٩٨٥، المقدمة ص ٢٣.
[٢] المقريزى : الخطط ١ : ٣٣٩ .
[٣] القلقشندى : صبح الأعشى ٢: ١٤٥.
[٤] زكى محمد حسن : كنوز الفاطمين ٢٥٠- ٢٥١.

رواتب الجند

وطبيعة الإقطاع الفاطمي

كان الإقطاع[١] نظامًا معمولاً به فى العراق أوجده البويهيون ، ثم تمّمَه السَّلاجِقَة وخلفاؤهم من الزنكيين والنوريين . أمّا فى مصر فقد كان الوضع مختلفًا تمامًا ، يقول المقريزى فى نص هام :

« لم يكن فى الدولة الفاطمية بديار مصر ولا فيما مضى قبلها من دول أمراء مصر لعساكر البلاد إقطاعات بمعنى ما عليه الحال اليوم فى أجناد الدولة التركية [المملوكية] ، وإنما كانت البلاد تُضَمَّن بقبالات معروفة لمن شاء من الأمراء والأجناد والوجوه وأهل النواحى من العرب والقبط وغيرهم »[٢].

ويضيف فى موضع آخر :

« وأما منذ كانت أيام صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى يومنا هذا ، فإن أراضى مصر كلها صارت تُقْطَع للسلطان وأمرائه وأجناده »[٣].

و« الإقْطاعُ » هو « أن يُقْطِعَ السلطان رجلاً أرضًا فتصير له رقبتها »[٤]، أى أن الأرض تصبح مِلْكًا لصاحب الإقطاع . كان هذا النظام معمولاً به فى الدولة الإسلامية ، ولم

---

[١] حول الإقطاع عمومًا والإقطاع فى مصر خصوصًا راجع ، عبدالعزيز الدورى : « نشأة الإقطاع فى المجتمعات الإسلامية » ، مجلة المجمع العلمى العراقى ٢٠ (١٩٧٠) ، ٣-٤٢ وعلى الأخص الصفحات ١٤-٢٠؛ Cahen, Cl., «L'évolution de l'iqtâ^c de IX^e ou XIII^e siècle. Contribution à une histoire Comparée des sociétés médiévales» , *Annales ESC* (1953), pp. 25-52; id., *EI*^{2} art. *Iktâ*^{c} III, 1175-1118; Rabie, H., «The Size and Value of the Iqtâ^c in Egypt 564-741 A. H./1169-1341 A. D.» , in Cook, M. A. (ed), *Studies in the Econonic History of the Middle East,* London 1970, pp. 129-38 ؛ نزار يونس حسن : نظام الإقطاعات الحربية فى مصر المملوكية ، القاهرة ١٩٩٨ .

[٢] المقريزى : الخطط ١: ٨٥.

[٣] نفســه ١: ٩٧.

[٤] الخوارزمى : مفاتيح العلوم ٣٩.

تكن على أصحاب الإقطاعات فى الفترة المبكرة واجبات عسكرية ، ولكن كان عليهم دَفْع بعض الضرائب للدولة ، وإصلاح القنوات والجسور التى تقع فى أراضيهم ، ويُطْلَق على هذا النوع من الإقطاع «إقْطاع التمليك» ، ويكون فيه الإقطاع ملكية تامة لصاحبه ، وقد يكون وراثيًا أيضًا ، وعلى صاحب هذا الإقْطاع دفع «العُشْر» إلى بيت المال . وعادةً ما يكون هذا الإقْطاع من الأرض الموات لإحيائها أو من الأراضى التى توفى أصحابها دون وريث . ويرى الفقهاء أنه لا يجوز مصادرة إقطاع التمليك حيث يصير المُقْطَع بالتمليك مالكًا لرقبتها [1] .

أما النوع الثانى من الإقطاع فهو المعروف بـ «إقطاع الاسْتِغْلال» ، وقد نشأ نتيجة لتَسَلُّط الجند والعسكر ، وكان يُمنح لهم من أرض الخَراج ، بحيث يفيد المُقْطَع منه مقابل دَفْع مبلغ مُتّفَق عليه دفعة واحدة أو على أقساط متعددة . ولم تكن الإقْطاعات العسكرية وراثية كما أنها لا تدوم مدى الحياة ولا تعتبر ملكًا لصاحبها ، وإنما كانت تُمْنَح لهم ليُعَوِّضهم إيرادها عن الراتب الذى قد تعجز خزانة الدولة عن الوفاء به . لذلك فإنها كانت بمثابة امتيازات ومنح إضافية ولم تكن بديلاً عن الرواتب [2] .

ومع ظهور دولة السَّلاجِقَة التى حَلَّت محل البُوَيْهيين فى التحكم فى الخلافة العَبّاسية ، بدأت ظاهرةُ إحلال الإقْطاع محل العَطاء أو الرَّواتب لرجال الجيش ، فقد تطلَّبت الطبيعة الحربية لدولة السَّلاجِقَة أن ينتقل التنظيم المالى فيها انتقالاً حتميًا من نظام الرَّواتب والأُعْطية النقدية إلى نظام المكافأة والتعامل على قاعدة إقطاعية [3] . فقد كانت العادة جارية كما يقول البُنْدارى ، بجباية الأموال من البلاد وصرفها إلى الأجناد ، ولم

[1] عبد العزيز الدورى:تاريخ العراق الاقتصادى فى القرن الرابع الهجرى ٣٩- ٤٠؛ راشد البراوى: حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ٥٤- ٥٩؛ Cahen, Cl., *L'évolution de l'iqṭā'*, p. 239 .

[2] عبد العزيز الدورى : المرجع السابق ٤٣ - ٤٤؛ Cahen, Cl., *op. cit.*, pp. 235-39 .

[3] حسنين محمد ربيع: النظم المالية فى مصر زمن الأيوبيين ٢٥.

يكن لأحد من قبل إقطاع ، ثم إن الوزير نِظام المُلْك – وزير السلطان ملك شاه – رأى أن الأموال لا تُحَصَّل من البلاد لاختلالها ، ولا يَصِحّ منها ارتفاع [أى إيراد] لاعتلالها ففرّقها على الأجناد إقْطاعات ، وجعلها لهم حاصلاً وارتفاعًا ، فتوافرت دواعيهم على عمارتها [١].

وانتقل هذا النظام إلى الزَّنْكيين حيث لجأ عمادُ الدين زَنْكى بعد أن أَسَّسَ دولته فى المَوْصِل وحَلَب إلى تعميم نظام الإقْطاع العسكرى ، واستمر على ذلك ابنه نور الدين محمود صاحب دمشق ، ثم وَرَثَه عنه الأيوبيون فى مصر بعد ذلك . ويقوم هذا النظام الإقْطاعى على أساس فكرة الحقوق والواجبات المتبادلة بين الأمير أو السيد الإقْطاعى من ناحية ، وأفْصالِه المُقْطَعين من ناحية أخرى ، أى أن الأرض أو المدن أو القلاع والحصون التى يتم إقْطاعها للأفْصال والأتْباع تكون مقابل خدمات حربية يلتزم هؤلاء الأفْصال بتقديمها لسادتهم الإقْطاعيين متى طُلِبَ منهم ذلك [٢].

كان الوضع فى مصر فى زمن الدولة الفاطمية مخالفًا لذلك كما ذكر المقريزى فى النَّصّ الجامع الذى أوردته منذ قليل . ولا نملك أية معلومات مُنَظَّمة حول الطريقة التى كانت تُدْفَع بها رواتب الجنود فى العصر الفاطمى ، ولكن من خلال معلومات متناثرة فى بطون المصادر نستطيع القول بأن الجيش الفاطمي كان يتقاضى رواتبه نقدًا وعلى دفعات مختلفة منتظمة خلال العام . فعند الاحتفال بتنصيب الخليفة الحاكم بأمر الله سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م اتَّفَقَ الحسن بن عَمّار مع الكُتامِيين على أن يُطْلِق لهم ثمانى « إطْلاقات » كل سنة على أساس ثمانية دنانير لكل رجل منهم ، وذلك بالإضافة إلى « الفَضْل » ، وهو عشرون دينارًا لكل واحد دُفعت بحضرة الخليفة بواسطة عُرَفائهم (جـ . عريف) [٣].

---

[١] البندارى : تاريخ دولة آل سلجوق ، القاهرة ـ مطبعة الموسوعات ١٩٠٠، ٥٥، للمقريزى : الخطط ١ : ٩٥.
[٢] سعيد عبدالفتاح عاشور: « البنية البشرية لجيوش صلاح الدين » ، المجلة العربية للعلوم الإنسانية ١٠ (١٩٩٠) ١٣.
[٣] ابن ميسر : أخبار مصر ١٧٨.

وأصبح تقليدًا بعد ذلك مَنْح مال « الفَضْل » للجند كافة ، وتَكَرَّر ذلك أثناء تنصيب الخليفة الظاهر والخليفة المستنصر[١].

ولدينا معلوماتٌ أخرى تؤكد أن رواتب الجيش كانت تُدْفَع نقدًا ، ففى سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٤م طالب الرجال السودان الذين أُرْسِلُوا لحِفْظِ مدينة تِنّيس « أرزاقهم »[٢]، كما أن الوزير الأجَلّ أبو سَعْد منصور المعروف بابن زُنْبور - أحد وزراء المستنصر - أقام فى الوزارة أيامًا قلائل طالبه خلالها الجند بـ « أرزاقهم » فوعدهم ثم فَرَّ هاربًا[٣].

هذه النصوص هى الوحيدة التى نعرف منها كيفية دَفْع رواتب الجيش فى العصر الفاطمى الأول . ويبدو أن نظام دَفْع الرَّواتب نَقْدًا على أساس دورى خلال العام قد استمر إلى زمن الحرب الأهلية أثناء خلافة المستنصر ، حيث يذكر ناصر خُسْرو عند وَصْفه للجيش الفاطمى أن « نَفَقة هذا الجيش كلّه من مال السلطان ، ولكل جندى منه مرتب شهرى على قدر درجته »[٤]، ثم انهار هذا النظام تمامًا خلال هذه الحرب .

والوضع العام خلال القرنين الرابع والخامس للهجرة/ العاشر والحادى عشر للميلاد أن النِّظام الإقْطاعى لم يكن شائعًا أو معتادًا فى مصر الفاطمية . ولكن كان هناك نوعٌ من الإقطاع الذى يُمْنَح إلى الموظفين المدنيين ، فكان القضاة وأصحاب الوظائف الإدارية وكبار الأمراء يُمْنَحون إقْطاعات عوضًا عن رواتبهم أو كجزء من تعويضهم ، واتَّسَعَت دائرة من يُمْنَحُون هذه الإقْطاعات فى فترة خلافة الحاكم بأمر الله لتشمل كذلك الجنود وعبيد الشِّراء . وأمامنا عدد من الأمثلة تؤيد ذلك :فقد جعل الخليفة العزيز بالله لوزيره يعقوب بن كِلِّس « إقْطاعًا » فى كل سنة بمصر والشام مبلغه مائة (ثلاثمائة) ألف دينار[٥].

---

[١] المقريزى : اتعاظ الحنفا ٢: ١٢٥، ١٨٤-١٨٥.

[٢] المسبحى: أخبار مصر ٥٧.

[٣] ابن الصيرفى: الإشارة إلى من نال الوزارة ٩٣.

[٤] ناصر خسرو : سفرنامة ٩٥ ، وانظر فيما سبق ص .

[٥] النويرى: نهاية الأرب ٢٨: ١٦٥؛ المقريزى: الخطط ٢: ٦ و اتعاظ الحنفا ١: ٢٦٩.

وكان مبلغ « إقْطاع » قاضى القضاة مالك بن سعيد فى السنة خمسة عشر ألف دينار [١]، كما يذكر ابن سعيد المغربى أن الحاكم تَوَسَّع فى الإقطاعات حتى أنه أقْطَع النواتية الذين يُجَدِّفون به فى العُشارى، وأقْطَع المشاعلية وكثيرًا من الوجوه والأقارب وبنى قُرَّة فكان مما أقْطَع الإسكندرية والبحيرة ونواحيها [٢]. وفى أعقاب انتصاره على ثورة أبى رَكْوَة التى هدَّدت النظام الفاطمى « أقْطَع [الحاكم] الفَضْل بن صالح إقْطاعات كثيرة » [٣]، كما أنه عندما انقلب على الكُتاميين أمر بالقبض على جميع ما لهم من الإقطاع من ضياع ورِباع وغير ذلك [٤]. وعندما تآمرت سيدة الملك أخت الحاكم مع الحسين بن دَوّاس للقضاء على أخيها وَعَدَتْه بأن يكون هو مُدَبِّر الدولة وأن تزيد فى إقْطاعه مائة ألف دينار [٥].

ويبدو من العرض السابق أن الكُتاميين كان لهم إقْطاعات إلى جانب رواتبهم المنتظمة، ولكن لا نعلم على وجه التدقيق إلى أى حَدٍّ كان هذا النظام منتشرًا بينهم، كما أن حقيقة منح الإقْطاع إلى كبار رجال الدولة يُوَضِّحه الوعد الذى قطعته سيدة الملك للحسين بن دَوّاس [٦].

ويُوَضِّح نَصٌّ أورده المُسَبِّحى أن الإقْطاعات كانت تُمْنَح إلى الموظفين المدنيين كمنحة من الخليفة، فعندما تولَّى القائد عِزّ الدولة مِعْضاد نظَر « ديوان الكُتاميين » سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م، عِوَضًا عن الأمير شمس الملوك مسعود بن طاهر الوَزّان، كَتَبَ هذا الأخير إلى الخليفة الظّاهر لإعزاز دين الله ليسأله فى تسليم إقْطاعه، فأجابه الخليفة بأنه « نِعْمَة » من أمير المؤمنين عليه وعلى أمثاله لا تُنْزَع منهم [٧]. وواضح أن المُقْطَع فى هذه

---

[١] المقريزى: الخطط ٢: ٢٨٨.

[٢] ابن سعيد: النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة ٦٦، المقريزى: اتعاظ الحنفا ٢: ١٠٩ والخطط ٢: ٢٨٨.

[٣] أبو المحاسن: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ٤: ٢١٧.

[٤] ابن سعيد: النجوم الزاهرة ٦٨.

[٥] ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ٩: ٣١٦، ٣١٩.

[٦] Lev, Y., «Army, Regime and Society in Fatimid Egypt 358-487 968-1094», *IJMES* 19 (1987), pp. 355-56.

[٧] المسبحى: أخبار مصر ٢٨-٢٩.

الحالة غير مُكَلَّف بأية خدمة عسكرية ولكنه يخضع لدفع « العُشْر » من عائد الإقْطاع إلى بيت المال [١]. كما أن حَسّان بن جَرّاح الطائى - متولّى حرب فلسطين - أرسل إلى الخليفة الظّاهر فى نفس العام يطلب إضافة بيت المَقْدس ونابُلُس إلى إقْطاعه ليَكُفّ عن القتال، فأجابه الخليفة بإضافة إقْطاع نابُلُس فقط إليه [٢].

وللتدليل على الفرق بين نظام الإقْطاع فى مصر الفاطمية ونظيره فى العراق ذكر ابن مُيَسَّر، وهو يتحدَّث عن واقعة البساسيرى الذى أقام الدعوة الفاطمية للخليفة المستنصر بالله فى بغداد، أنه كان له ببغداد إقْطاعٌ لا يمكن أن يكون له بمصر مثله [٣].

واضح أن هذه الأمثلة جميعها ترجع إلى فترة الحاكم بأمر الله وبداية فترة الظّاهر لإعزاز دين الله، وهى فترة شهدت إلى حَدٍّ بعيد اضطرابات داخلية وثورات وصعوبات اقتصادية تأثَّرت فيها قُدْرَة الدولة على المحافظة على دَفْع رواتب الجيش على أساس نقدى على قاعدة منتظمة. فهل تحويل الإقْطاع إلى إقْطاع شبه عسكرى والمحافظة عليه استمر بعد تَغَيُّر هذه الظروف وعودة الاستقرار الداخلى وانتهاء الصعوبات الاقتصادية؟ لقد كانت الأزمات الاقتصادية فى زمن الظّاهر قاسيةً إلى حَدٍّ بعيد ولكنها لم تستمر طويلاً وبالتالى لم تكن لها أهمية كبيرة [٤]. ويرى كلود كاهن أن فترة الفوضى الداخلية والحروب الأهلية التى شهدها عصر المستنصر هى نقطة التَّحَوُّل فى طبيعة نظام الإقْطاع فى العصر الفاطمى حيث أوجدت الظروف الملائمة لإمكانية تحويله إلى إقْطاع شبه عسكرى [٥].

ففور وصول بدر الجمالى إلى مصر وعمله على التَّخَلُّص من الأمراء المصريين جعل لكل واحد من أصحابه قَتَلَ أحد الأمراء المصريين « سائر ما بيد ذلك الأمير من إقْطاع

---

١ Rabie, H., *The Financial System of Egypt A. H. 564-642 / A.D. 1159-1341*, London 1972, p. 27.

٢ المسبحى: أخبار مصر ٥٧- ٥٨؛ المقريزى: اتعاظ ٢: ١٥٧.

٣ ابن ميسر: أخبار مصر ٢١.

٤ Lev. Y., *op. cit.*, p. 326.

٥ Cahen. Cl., *op. cit.*, p. 243.

وجار ودار ومال وجوار وغير ذلك »[١]. ويبدو أن الدولة الفاطمية بدأت منذ هذا التاريخ تستخدم نوعًا من الإقْطاع فى تدبير شئون جزء من جيشها الكبير، فمنذ وصول بدر الجمالى إلى السلطة أخذ العسكريون يَحِلُّون تدريجيًا محل أرباب القَلَم فى جباية الخَراج، وجُعِلَت لكل من أولئك الجباة العسكريين جهات ذات قيمة ضرائبية يؤدونها للدولة أُطْلِق عليها « إقْطاع » عبارة عن منطقة زراعية مُؤَجَّرة مقابل مبلغ اتفاقى يطلق عليه (قَبالَة جـ. قَبالات)، ويسمى المزارع المقيم فى البلد « فلاحًا قرّارًا »، فيصير عبدًا لمن أُقْطِعَ تلك الناحية، كما أُطْلِق على القيمة الضرائبية « عِبْرَة »[٢]، بمعنى أن يتعَهَّد كل مُقْطَع من أولئك المُقْطَعين بدفع مقادير معينة من المتحصلات الضرائبية السنوية للإنفاق منها فى أوجه نفقات الدولة ومصالحها، ويحتفظ لنفسه ببقية عائد الإقْطاع[٣]. ويبدو أن هذا الاتجاه استمر أيضًا فى زمن الخليفتين: الآمر بأحكام الله، والحافظ لدين الله فى القرن السادس الهجرى.

لم يكن هذا الإقْطاع الذى أدخله بدر الجمالى بحال من الأحوال إقْطاعًا عسكريًا، بل وسيلةً ماليةً لإعادة زيادة إنتاجية الأرض الزراعية بعد سنوات الجفاف التى صاحبت الحرب الأهلية والأزمة الاقتصادية التى سادت فى عقدى الستينات والسبعينات من القرن الخامس الهجرى[٤]. فقد ذكر المخزومى فى كتاب « المِنْهاج فى علم الخَراج » أنه وقف على مقايسة عُملت لأمير الجيوش بدر الجمالى سنة ٤٨٣هـ/١٠٩٠م بلغ فيها ارتفاع خراج

---

[١] المقريزى: المقفى الكبير ٢: ٣٩٦.

[٢] العِبْرَة. هى مقدار المربوط من الخراج أو الأموال على كل إقطاع من الأراضى وما يُتَحَصَّل من كل قرية من عين وغَلَّة وصنف (ابن مماتى: قوانين الدواوين ٣٦؛ المقريزى: الخطط ١: ٨١، ٨٧، Cahen. Cl.,. «Le régime des impôts dans le fayyûm ayyubide», *Arabica* III (1956). p. 12-13.

[٣] المقريزى: الخطط ١: ٨٦ والاتعاظ ٣: ٨٠ - ٨١، Cahen, Cl., *L'évolution de l'Iqtâ'*, p. 249, id., «L'Administration financiére de l'armée fatimide d'aprés al-Makhzûmî, *JESHO* 15 (1972), p. 172; id., *EI* [2] art. *Kabâla* IV, pp. 337-38; Brett, M., «The Origins of the Mamluk Mlitary System in the Fatimid Period» in Vermeulen, U. and D. de Smet, editors *Egypt and Syria in the Fatimid, Ayyubid and Mamluk Eras*, OLA 73 (Leuven 1995), p. 40.

[٤] Rabie, H. , *op. cit.*, p. 29; Brett M., *op. cit.*, p. 43.

البلاد ثلاثة آلاف ألف ومائة ألف دينار ، فى حين كان ارتفاع خراج البلاد قبل وصول بدر الجمالى إليها سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٣م لا يتعدّى ألفى ألف وثمانمائة ألف دينار [١].

ويتّضِح هذا الغَرَض المالى من عدد من الإصلاحات المالية والزراعية التى قام بها الوزير الأَفْضَل بنُ بدر الجمالى بعد ذلك بثلاثين عامًا فى سنة ٥٠١هـ/١١٠٧م. فمعروف أن التفاوت بين السنة الشمسية والسنة القمرية أحد عشر يومًا تقريبًا ، وكانت كل ثلاث وثلاثين سنة قمرية تعادل اثنتين وثلاثين سنة شمسية ، لذا فقد كان « التوفيق بين السنتين الشمسية والقمرية » أمرًا ضروريًّا ؛ لأن استحقاق الخَرَاج وجبايته منوطان بالزروع والثمار ، وهى مرتبطة بالشهور والسنين الشمسية وما يقابلها من التقويم القبطى [٢]. ونتيجة للأزمة التى اجتاحت مصر فى أواسط القرن الخامس الهجرى أُغْفِل نَقْل السنين فى الديار المصرية « حتى كانت - كما يقول المخْزُومى - سنة تسع وتسعين وأربعمائة للهلال تجرى مع سنة سبع وتسعين الخراجية ، فنُقلَت سنة سبع وتسعين الخراجية إلى سنة إحدى وخمسمائة ، هكذا رأيت فى تعليقات أبى رحمه الله [٣]» . ويضيف المؤرخ ابن المأمون البطائحى أنه حدث فى سنة ٥٠١هـ/١١٠٧م تفاوت بين السنة الشمسية والعربية أربع سنين ، ففاتح القائد أبو عبدالله محمد بن فاتك البطائحى الوزير الأَفْضَل فى ذلك . فأمر الوزير بإنشاء سِجِلٍّ بنَقْل سنة تسع وتسعين وأربعمائة إلى سنة إحدى وخمسمائة لتكون موافقة لها ... ويستمر الوفاق بين السنين الهلالية والخراجية إلى سنة أربع وثلاثين وخمسمائة [٤].

---

[١] المقريزى. الخطط ١: ١٠٠.

[٢] ابن مماتى : قوانين الدواوين ٣٥٨- ٣٥٩؛ على بن خلف: مواد البيان ٥٥٨- ٥٦٢؛ القلقشندى : صبح الأعشى ١٣: ٥٤؛ المقريزى : الخطط ١: ٢٧٥.

[٣] المخزومى : المنهاج فى أحكام الخراج - خ ق ٣٨؛ القلقشندى: صبح ١٣: ٦٠؛ المقريزى: الخطط ١: ٢٧٦.

[٤] ابن المأمون : أخبار مصر ٣- ٨؛ ساويرس بن المقفع : تاريخ بطاركة الكنيسة ٣/ ١: ٤- ٥؛ النويرى : نهاية الأرب ٢٨: ٢٧٧؛ المقريزى: الخطط ١: ٢٧٩-٢٨١ واتعاظ ٣: ٤٠.

وفى الوقت نفسه قام الوزير الأَفْضَل ، بناءً على مخاطبة القائد أبى عبدالله محمد ابن فاتك البَطائِحى أيضًا ، بحَلِّ جميع الإقْطاعات وإعادة رَوْكِها[١] فى سنة ٥٠١هـ/ ١١٠٧م بغرض المحافظة على قيمة العائد والخدمات بعد أن تَضَرَّر كثيرٌ من العَسْكَرِيَّة والمُقْطَعين من كون إقْطاعاتهم قد قَلَّ ارتفاعها ، وساءت أحوالهم لقِلَّة المتحصَّل منها ، وأن إقْطاعات الأمراء قد تضاعف ارتفاعها وازدادت عِبْرَتَها ، بحيث صار فى كل ناحية للديوان جملة تجبى بالعَسْف . فحُمِّلَت الإقْطاعات كلها على أملاك البلاد ودُعِىَ الأُمراء والأجناد والطوائف للمزايدة عليها فى دار الوزارة ، ووعدهم الأَفْضَل بترك أملاكهم التى لهم فيها يتصرَّفون فيها بالبيع والإيجار ، ثم حَلَّ جميع الإقْطاعات ووَقَعَت المزايدة عليها ، وتَمَيَّز لكل منهم إقْطاع وكَتَبَ لهم السِّجِلاّت بأنها باقية بأيديهم لمدة ثلاثين عامًا ما يقبل منهم فيها زائد ، وحصلت بذلك للديوان « بلاد مُقَوَّرَة »[٢] بما كان مُفَرَّقًا فى الإقْطاعات بما مبلغه خمسون ألف دينار ، وهو ما عُرِف بـ « الرَّوْك الأفضلى »[٣].

وتَدُلُّنا هذه النصوص الهامة أنه خلال العصر الفاطمى كله كانت « الإقْطاعات »

---

[١] الرَّوْك. كلمة قبطية، استمد منها الفعل العربى راك ، يروك، تعنى فى مصر إجراءً زراعيًا يتم خلاله القيام بعملية قياس الأرض وحصرها فى سجلات وتثمينها، والغرض من هذا الإجراء هو تعديل ما هو مفروض على البلاد من الأموال الخراجية نتيجة لما يطرأ على حال الأرض من تغيير بنقص أو زيادة فى مساحاتها بين وقت وآخر. ويؤكد المقريزى أنه فى بداية الفترة الإسلامية كان يتم « الروك » كل ثلاثين سنة من أجل التوفيق بين السنة الهلالية والسنة الخراجية، وواضح أن ما يذكره المقريزى لا يعكس إلا وضعًا نظريًا. ففى الواقع أنه طوال ثمانية قرون ونصف تفصل الفتح العربى عن الفتح العثمانى لمصر لا تذكر المصادر سوى ست مرات تمت فيها عملية « الروك » والروك الأفضلى هو الروك الثالث للأرض فى مصر والروك الوحيد الذى تم فى العصر الفاطمى. (المقريزى: الخطط ١: ٨٢، السلوك ١: ٨٤١هـ٣؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٨: ٨٧؛ Rabie, H., *op. cit.*, pp 50-56; Halm, H., *EI* ². art. *Rawk* VII, pp. 483-84).

[٢] فى بعض المصادر ، « بلاد (ضياع) مفردة » والبلاد المُقَوَّرَة هى الأماكن والأراضى المتسعة التى لا نبات فيها. (إبراهيم طرخان: النظم الإقطاعية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى ٥٠٥).

[٣] ابن المأمون : أخبار مصر ٩ - ١٠؛ النويرى: نهاية الأرب ٢٨: ٢٧٦ - ٢٧٧؛ المقريزى : الخطط ١: ٨٣، اتعاظ الحنفا ٣: ٤٠؛ Brett, M., *op. cit.*, pp. 42-43; id., «The Way of the Peasant», *BSOAS* 47 (1984), pp. 52-55 .

تُمْنَح للعسكريين والمدنيين على شكل «قَبالات» (جـ. قَبالَة) وهو عملٌ ماليّ بحت الغرض منه: تسهيل جباية الخَراج، ولا علاقة له بملكية الأرض مطلقًا، حيث ضَمِنَت الحكومة الفاطمية الخَراج، وسائر الضَّرائب الأخرى مقابل مبالغ محدَّدة، واعتبر الفائض بعد ذلك أرباحًا للضامنين. وكانت البلادُ يَتَقَبَّلَها متقبِّلوها بالأربع سنوات؛ لأجل الظمأ والاستبحار وغير ذلك[1]. وكان المُتَقَبِّل يحمل ما عليه من خَراج على أقساط، وتُحْسَب له من مبلغ قَبالَته وضمانه لتلك الأراضى ما يُنْفِق على عمارة جسورها وسَدّ تُرَعِها وحَفْر خُلجها بضرابة مُقَدَّرة فى ديوان الخَراج. وقَسَّم المَخْزومى القَبالات إلى نوعين: «القبالات المُقَرَّرة الأسعار»، وهى التى تعنى عقدًا يتضمن سعرًا ثابتًا غير قابل للمناقشة، و«قَبالات المُناجَزَة» بالعَيْن والحَبّ، وهى تعنى اتفاقًا بالمزايدة، بحيث إن لفظ «القَبالَة» بإطلاقه يصبح مماثلاً للفظ «المُناجَزَة»[2].

وكان ديوانُ الإقْطاع إذا طَلَبَ منه شخصٌ أن يُقْطِع إقْطاعًا من الإقْطاعات مع تعهده بزيادة العِبْرَة الإقْطاعية، تَسلَّم الطالب ذلك الإقْطاع، وفُسِخَ عَقْد الضَّمان السابق دون اعتبار لما بذله مقطعها الأول فى إصلاحها ووسائل زيادة عِبْرَتها، فأمر الوزير المأمون البَطائِحى فى سنة ٥١٦هـ/ ١١٢٢م بقراءة مَنْشُور بالجامع الأزهر بالقاهرة، وجامع عمرو بالفُسْطاط بإنكار ذلك ومنعه وأعفى كافة الضُّمَناء المعاملين من قبول الزيادة فيما يتصرفون فيه ما داموا قائمين بأقساطهم[3].

وواضحٌ، من المعلومات المتوفرة لدينا، أنه حَدَثَ تطورٌ فى نظام الإقْطاع الفاطمى فى القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى، حيث أصبح قسمٌ من الجيش الفاطمى

---

[1] ابن الطوير: نزهة المقلتين ٨٦؛ المقريزى: الخطط ١: ٨٢؛ القلقشندى: صبح ٣: ٤٨٩ وفيما سبق ص ٥١٨- ٥٢١.

[2] المخزومى: المنهاج ٦٠؛ Cahen, Cl., «Contribution à l'étude des impôts dans l'Egypte medivale», *JESHO* V (1962), p. 261.

[3] ابن المأمون: أخبار مصر ٢٩ - ٣١؛ المقريزى: الخطط ١: ٨٣ واتعاظ ٣: ٨١؛ Rabie. H., *op. cit.*, p. 28.

يتقاضى مكافأته على قاعدة إقْطاعية ، وأصبح الجند المُقْطَعون يقيمون فى الأقاليم التى توجد فيها إقْطاعاتهم . وتعد عملية إقامة المُقْطَعين فى الأقاليم تطوُّرًا فى هذا النظام [١] ، ففى القرن السابق كان الجنود الفاطميون المقيمون فى الأقاليم لا يحصلون على إقْطاعات ، بل إن المقيمين منهم فى مصر العُلْيا ومصر السُّفْلَى كانوا تحت قيادة « متولى السَّيارات » ويتقاضون رواتبهم نقدًا ، فيذكر المُسَبِّحى فى حوادث سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م رِفْق الخادم « متولِّى السَّيارات بأسْفَل الأرض » وَسَنِىّ الدولة حَمَد بن أخى التاهرتى الذى قُلِّد « جميع سَيّارات أسفل الأرض » التى كانت فى يد رِفْق الدولة الخادم الأسود [٢] . ويدل على التطور الذى حَدَثَ فى القرن السادس ما ذكرته المصادر عن الصَّالح طَلائِع بن رُزِّيك أنه عندما جاء لنجدة الخلافة الفاطمية من الأُشْمُونيين والبَهْنَسا فإنه استعان فى ذلك بـ « العُرْبان والأجناد مُقْطَعى البلاد » [٣] .

وإلى جانب دَفْع رواتب الجند على أساس قاعدة إقْطاعية ، فإنه كان هناك أيضًا دَفْعٌ لرواتب الجند على أساس نقدى . فقد كانت « الأبْدال » التى تُجَهَّز كل ستة أشهر للمحافظة على عَسْقَلان يكون على رأسها أميرٌ يُعرف بـ «أمير المُقَدَّمين» كانت تُسَلَّم إليه الخريطة ، وهى تشتمل على أوراق العَرْض الخاصة بالجنود ليَتَّفق مع والى عَسْقَلان على عرض العسكر بمقتضاها ، ويُسَلَّم إليه مبلغٌ من المال لنفقته معونة لمن فاتته النفقة من العسكر ، لأن نقباء الطوائف كانوا يُجَرِّدون من كان حاضرًا من الطوائف ، ومن كان مسافرًا فى إقْطاعه ، فيأخذ صاحب الخريطة أوراقًا بمن سافر وهو فى إقْطاعه ليُوَصِّل إليه نفقته . وكانت نفقة الأمراء مائة دينار لكل أمير ، وللأجناد ثلاثين دينارًا لكل جندى [٤] .

* * *

---

[١] . Lev, Y., *State and Society* pp. 125-126; Brett, M., *The Origins of the Mamluk* p. 44

[٢] المسبحى : أخبار مصر ٢٠، ٥٠؛ Lev, Y., *op. cit.*, p. 126 وانظر فيما سبق ص ٣٢٨-٣٢٩ .

[٣] ابن ظافر : أخبار الدول المنقطعة ١٠٨؛ النويرى : نهاية الأرب ٢٨: ٣١٩؛ المقريزى: اتعاظ الحنفا ٣: ٢١٥ - ٢١٦.

[٤] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٤١- ٤٢؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا ٣: ١٩٠.

لا شك أنه قد حدَث تطَوُّرٌ تدريجىٌ لنظام الإقْطاع الفاطمى قبل زوال الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية ، فعندما أصبح شاوَر وزيرًا للعاضد - آخر خلفاء الفاطميين - بمعاونة جيوش نور الدين محمود ، استفسد جماعةً من عسكر أسد الدين شيركوه - الذى قاد جيوش نور الدين محمود لنجدة شاوَر فى مصر - منهم خَشْتَرين الكردى وأقطعه شَطَنُوف الواقعة بإقليم الغربية [١]. كما أن شيركوه فور تولِّيه الوزارة للعاضد «أَقْطَع البلاد للعساكر التى قدمت معه» [٢]، ولما خَلَفَه صلاح الدين فى الوزارة «شرع فى نقض إقْطاع المصريين . . . من أجل من معه من العساكر» [٣] و «أبعد أهل مصر وأضعفهم» [٤] فأَقْطَع أخاه الأمير شمس الدولة توران شاه فى سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م قوص وأُسْوان وعَيْذاب ، وكانت عِبْرَتها يومئذ فى تلك السنة مائتى ألف وستة وستين ألف دينار [٥]. واتَّبَع صلاح الدين فى ذلك الطريقة نفسها التى اتَّبَعَها قبل نحو مائة عام أمير الجيوش بدر الجمالى عندما أَحَلَّ جنوده من الأَرْمَن محل جيوش الدولة الفاطمية ، فاستولى عساكرُ صلاح الدين على ما كان بأيدى الجند المصريين من مال ودور وإقْطاع ، ثم قَبَضَ عليهم واعتقلهم [٦]. يقول العماد الكاتب الأصفهانى :

« وشَرَعَ صلاحُ الدين فى نَقْض إقطاع المصريين ، فَقَطع منهم الدابر من أجل من معه من العساكر » [٧].

كما يذكر ابن الأثير أن صلاح الدين : « أخذ إقْطاعات الأمراء المصريين فأعطاها أهله والأمراء الذين معه ، وزادهم ، فازدادوا له حُبًّا وطاعةً » [٨] .

---

[١] أبو شامة: الروضتين ١/ ٢: ٤٢٤؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا ٣: ٢٧٩.
[٢] نفسه ١/ ٢: ٣٠٢؛ ابن خلدون: تاريخ (بولاق) ٤: ٧٩.
[٣] نفسه ١/ ٢: ٤٥٠؛ المقريزى : اتعاظ ٣: ٣٢٢.
[٤] المقريزى : اتعاظ الحنفا ٣: ٣١١.
[٥] نفسه ٣: ٣١٧.
[٦] نفسه ٣: ٣٢١.
[٧] أبو شامة : الروضتين ١/ ٢: ٤٥٠.
[٨] ابن الأثير : الكامل ١١: ٣٤٤.

ويضيف المقريزى وهو يتحدَّث عن وصول صلاح الدين إلى قمة السلطة فى مصر

« أزال السلطان صلاح الدين بن أيوب جند مصر من العبيد السود والأمراء المصريين والعربان والأَرْمَن وغيرهم واستجد عسكرًا من الأكراد والأتراك خاصة »[١]

وأصبحت أراضى مصر كلها منذ هذا التاريخ تُقْطَع للسلطان وأمرائه وأجناده[٢].

هكذا عَرَفَ نظام الإقْطاع الفاطمى (إقطاع القَبالَة) تعديلاً فى نهاية عصر الدولة، ثم تعديلاً جِذْرِيًا على يد الأمراء الزِّنْكيين المصاحبين لجيش أسد الدين شيركوه والذين تعَوَّدوا على رَبْط مَنْح الإقطاع بالخدمة العسكرية[٣]. وبذلك أصبح « الإقْطاع الجَيْشى (أو العسكرى)» هو المصدر الرئيسى لدخل الجيش الأيوبى، وخاصة فى الشام، عن طريق إقْطاع الأراضى لكبار أمراء الدولة، ومنحهم حرية التصرف فى إدارة شئونها وصرف عائدها مقابل إسهام المُقْطَع فى المعارك التى يُعْلنها السلطان. أما فى مصر، فبرغم ارتباط الإقْطاع الأيوبى فيها بالتقاليد السَّلْجوقية والفاطمية على السواء، فإنه لم يتَّفق تمامًا مع أىٍّ من النموذجين، فمن الناحية الاقتصادية كان أكثر تحررًا من إقْطاع القَبالَة الفاطمى، بحيث إن المُقْطَع لم يعد مُلْزَمًا بدفع أى خَراج، ولكن بمقارنته بالإقْطاع الزِّنْكى - السَّلْجوقى فإن المُقْطَع لم يكن له فيه أىّ حق إدارى حقيقى ولكنه يضمن له عائدًا محددًا، وبرغم أن بعض الإقْطاعات كانت تُمْنَح للمستفيدين على الدوام وتبقى وراثية فى عائلاتهم، فإن حالات استردادها وإعادة توزيعها تقابلنا كذلك بكثرة، وذلك دون أن نتحدث عن عملية الرَّوْك التى كانت تتم فى مصر وما يترتب عليها، وكان هذا العائد يُحْسَب على أساس تقديرى يُعرف بـ « العِبْرَة » على أساس وحدة حسابية تُعرف بـ « الدينار الجيشى » تتكوَّن فى بعض التدبيرات المالية من عَيْن وغَلَّة وأصناف[٤].

---

[١] المقريزى: الخطط ١: ٩٤.

[٢] نفسه ١: ٩٧.

[٣] Rabie. H., *op. cit.*, p. 28.

[٤] Cahen, Cl., *Le régime des impôts*, pp. 12-13; id., *EI*^{2} art. *Ayyûbides* I, 825; id., *EI*^{2} art. *Iktâ‘* *III*, 1116; id., *EI*^{2} art. Kabâla iv, 338.

ديوان الإقْطاع [الإقْطاعات]

كانت الإقْطاعات التى تُمْنَح للجُنْد فى العصر الفاطمى مسئولية « ديوان الإقْطاع [الإقْطاعات] » (أحد أقسام ديوان الجيش) الذى كان يتولّى تحديد ارتفاع (عِبْرَة) كل إقْطاع وصنفه، يقول ابن الطُّوَيْر:

« إذا خَلَت ناحية من ضامن أو كانت محلولة ورُسم إقْطاعها، عُمل من « ديوان المَجْلِس»[1] ارتفاعها لأربع سنين، سنتين لغاية رخائها وسنتين لغاية جدبها بالتنقيب عن ذلك، ثم يُجْمَع هذا الارتفاع لهذه المدة. ويعتمد أسعار ما بيع فيها من الغَلاّت وغيرها، فإذا اجتمع من ذلك مبلغٌ معلومٌ أُخِذَ ربعه، وإذا أراد ضامن أن يَضْمَن ناحية كانت مُقْطَعَة عمل فى معدلها كذلك على أصل عِبْرَتها بربعه وما يريد على هذا النحو من البَذْل»[2].

أما نَصُّ معاصره المَخْزومى حول كتابة الجيش وديوان الإقْطاعات فيتّسم فى العموم بالصعوبة فى الفهم؛ لأنه موجَّهٌ فى الأساس إلى المشتغلين بالأعمال الديوانية، فهو يستخدم مصطلحات خاصة وتعابير مركَّزة وفى غاية الاختصار، أرهقت كل الذين تعاملوا مع نصه من قبل ولم يستطيعوا برغم كل الجهد المبذول أن يُقَدِّموا لنا نتائج واضحةً[3]، يقول المَخْزومى:

« وأما جرائد الإقْطاعات فهى على خلاف ذلك، وهو أن يُقام العمل وتذكر ناحية منه وعِبْرَتها وأسماء مقطعيها، وما انساق فاضلا فيها للديوان ويشطب بما تجدده من الأحوال فى ذلك. وأما إخراجات الأموال - والذى جرت به العادة أن يُوَقَّع على رقعة السؤال بإخراج الحال - فيُجاب من « ديوان الجيش » بحال السائل والمستقر من واجبه، والمقطع منه والمحلول له، ويوقع تلوه فى ديوان الإقطاعات، فيجاب منه بما يدل عليه من حال الإقْطاع؛ خاصة لأن « ديوان الجيوش » أقعد بعلم

---

[1] انظر فيما سبق ص ٣٤٩-٣٥٠.

[2] ابن الطوير: نزهة المقلتين ٨٦؛ القلقشندى: صبح ٣: ٤٨٩.

[3] Cahen. Cl., *L'armée fatimide*, p. 164.

الواجبات و « ديوان الإقطاعات » أولى بعلم العِبْرَة والمقطع وما ينساق من الفواضل من النواحى ، ثم يذكر ما يدل عليه « ديوان المجْلِس » ؛ لأن فى هذا الديوان مجلسًا يقابل على ما يجرى فى « ديوان الإقطاعات » من أحوال الجند وما ينساق من الفاضل ، ويُوَقَّع تلو ذلك بما يراه مَنْ إليه النظر من إقطاعهِ بمحلول واجبه للاستقبال الذى يراه »[1].

وكانت الإقْطاعات تُمْنَح فى العصر الفاطمى الأول عن طريق مناشير (مفردها مَنْشور) ، أما فى نهاية العصر الفاطمى فكانت تُمْنَح عن طريق السِّجِلَّات (مفردها سِجِلّ)[2]؛ وقد أورد على بن خَلَف المتوفى سنة ٤٣٧هـ/١٠٤٥م صاحب كتاب « مواد البيان » نَصَّ مَنْشور بمَنْح إقْطاع فى العصر الفاطمى الأول لأفراد غير عسكريين ، وعادة ما يكون هذا الإقْطاع ناحية (ضَيْعَة) أو دار أو أرض ، أو « تسويغ [المُقْطَع] ما يجرى عليه من خراج ملكه وما يجرى هذا المجرى »[3].

كذلك أورد القلقشندى نَصَّ « مَنشورٍ » و « سِجِلَّيْن » من إنشاء القاضى الفاضل : المَنْشور الأول لأحد أولاد الخلفاء [ربما الخليفة العاضِد] اسمه حسن ولَقَبُه حسام الدين ، يوعز فيه إلى ديوان الإنشاء بإقْطاع ناحية كذا بحدها والمعتاد من وصفها المعاد وما يدل عليه الديوان [ديوان الإقْطاع] من عِبْرَتها ويتحصل له من عينها وغلتها . . . إقطاعًا لا ينقطع حكمه » . وأحد السجلين نسخة بإقْطاع عن الخليفة العاضِد لبعض أمراء الدولة ، والثانى كتب به لبعض وزراء الفاطميين لم يحدد اسمه[4].

---

[1] المخزومى: المنهاج ٧١.

[2] منشور (جـ . مناشير) . كل وثيقة أو مكتوب لا تحتاج إلى ختم أى منشورة غير مطوية. أما السجل (جـ. سجلات) فهى المكاتبات الصادرة من ديوان الإنشاء باسم الخليفة وموجهة إلى أرباب الوظائف الكبار أو ملوك الدول الأجنبية أو كبار رجال الدعوة الإسماعيلية لإبلاغ حادثة من الحوادث أو بمنح لقب لأحد أرباب الوظائف أو بمنح إقطاع. (ابن الصيرفى : القانون فى ديوان الرسائل ١٦ هـ).

[3] على بن خلف: مواد البيان ٦٣١- ٦٣٢؛ القلقشندى : صبح ١٣: ٣١-١٣٢.

[4] القلقشندى : صبح الأعشى ١٣: ١٣٢-١٣٨..

ديــوانُ الجَيْش

عُهِدَ بإدارة الجيش الفاطمى إلى ديوان عرف بـ «ديوان الجَيْش»[١]، وقَسّم الفاطميون هذا الديوان إلى ثلاثة أقسام: قسم يختص بالأجناد وعددهم وشيات دوابهم، وقسم يختص بضبط إقْطاعاتهم، وقسم ثالث يختص بمعرفة رواتب وجَوامِك كل موظف فى الدولة[٢]. كان القسم الأول وهو المعروف بـ «ديوان الجَيْش» يتولاّه مُسْتَوْف أصيل لا يكون إلّا مسلمًا ويكون فى خدمته نقباء الأمراء الذين يُنْهون إليه أخبار الجند من حياة وموت وصحة ومرض[٣]. والقسم الثانى المعروف بـ «ديوان الإقْطاعات» كان مختصًّا بتحديد ارتفاع (عِبْرَة) كل إقطاع وصنفه، وكان صاحب «ديوان المجْلِس» - الذي يُعَدّ أصل الدواوين - هو المتحدث فى الإقْطاعات ويُخْلَع عليه وينشأ له سجلّ بذلك[٤]. والقسم الثالث: هو «ديوان الرَّواتب» وكان يشتمل على أسماء كل مرتزق فى الدولة، وفيه كاتب أصيل ونحو عشرة من الـمُعينين والـمُبَيِّضين وفيه ثمانية عروض تحوى جميع أرباب الدولة[٥].

ولا نجد عند ابن الطُّوَيْر مصدر هذه المعلومات، تفاصيل عن طبيعة العمل داخل ديوان الجيش، ولكن معاصره الـمَخْزومى - الذى عاصر نهاية الدولة الفاطمية وخدم فى دولة الأيوبيين - يمدنا ببعض التفاصيل التى لا نستطيع للوهلة الأولى أن نُحَدِّد إن كانت تتعلّق بالنِّظام الفاطمى المنقضى أم بالنظام الأيوبى الجديد. فهو يذكر صراحةً أن «كتابة الجيش التى كان كُتّاب المصريين يعتمدون عليها .. فيها من الرسوم والتقسيمات

---

[١] المخزومى: المنهاج ٦٤- ٧٢؛ ابن الطوير: نزهة المقلتين ٨٢ - ٨٣؛ المقريزى: الخطط ١: ٩٤، ٤٠١؛ واتعاظ الحنفا ٣: ٣٣٩- ٣٤٢؛ القلقشندى: صبح الأعشى ٣: ٤٨٨-٤٨٩، ٥٢١.

[٢] القلقشندى: صبح ٣: ٥٢١.

[٣] ابن الطوير: نزهة المقلتين ٨٢.

[٤] القلقشندى: صبح ٣: ٤٨٩-٤٩٠.

[٥] ابن الطوير: نزهة ٨٣-٨٥؛ القلقشندى: صبح ٣: ٤٩١، ٥٢١- ٥٢٣؛ المقريزى: الخطط ١: ٤٠١-٤٠٢ والاتعاظ ٣: ٣٣٩-٣٤٢.

والأحكام والإقطاعات ما قد دَرَسَ رسمه وذهب حكمه إلا يسير ...»[1]. وبعد ذلك يذكر المَخْزُومى أن رسوم ديوان الجيش بالديار المصرية تجتمع فى أربع جهات، ولا شك أن حديثه يربط بين النظام القديم والنظام الأيوبى الجديد، فمن المؤكد أن مصطلحات مثل الصِّبْيان الحُجَرِيَّة والرَّهَجِيَّة وديوان المَجْلِس الوارد ذكرها فى نَصّ المَخْزومى تتعلّق بالعصر الفاطمى، كما أن الإقْطاع الجيشى يتعلّق دون جدال بالعصر الأيوبى.

وتنحصر الطرق الأربع التى ذكر المَخْزومى أنها تجمع رسوم ديوان الجيش بالديار المصرية فى: الإنْفاق الواجب، وإيجاب المُشاهَرَة، والإقْطاع الجَيْشى، وإقطاع الاعْتداد[2]. ولا يهتم المَخْزُومى فى هذا النَّصّ بذكر أصل الراتب بل حرص فقط على ذكر نسبة الاقتطاعات منه - وهو الغرض من هذا الباب - ولا نستطيع أن نجزم إن كان هذا الاقتطاع نتيجة لتدابير مالية غير معروفة أو متعلّق بواجب الزكاة التى يتعين على المسلمين دفعها، فالمؤلِّف لا يذكر أى شيء عن ذلك.

يكون «الإنْفاق الواجب» للحُجَرِيَّة المرسومين بالحُجَر[3]، ويقتضى هذا الإنفاق خصم أو اقتطاع من رواتبهم يتم بطرق ثلاث: الأول من الوزن وهذا النوع لا نقص فيه ولعل المقصود به أنهم يتقاضون رواتبهم وزنًا وليس عَدًّا. والثانى اقتطاع من «العدد النقيل (أو الثقيل)» - وهو مصطلح غير واضح ولم يشرحه المَخْزومى - وهذا الاقتطاع بنسبة ٥٪ على حساب قيراط وخُمْس عن كل دينار[4]، وعادة ما يجبر كُتّاب الجيش الكَسْر فى هذا الحساب. والثالث اقتطاع شبيه بالنوع الثانى ولكن مع تطبيق قاعدة حسابية أخرى، فالنسبة المقتطعة هنا هى ستة دنانير وثلثان من المائة ٦ ٢,٣ من حساب

---

[1] المخزومى: المنهاج ٦٤.

[2] نفســه ٦٤.

[3] انظر فيما سبق ص ٦٨٢-٦٨٣.

[4] ينقسم الدينار إلى ٢٤ قيراطًا، والقيراط مُمثلّة حسابية نظرية لمعرفة القيمة الحقيقية لمختلف السلع تساوى حبتى شعير مقلومة الأطراف، والحبة تساوى ثلاثة دوانق.

قيراط وثلاثة أخماس من كل دينار . ويذكر المَخْزومى أن هذا النوع من الاقتطاع كان يُطَبَّق على الطائفة المعروفة بـ « الرَّهَجيّة » ومن يجرى مجراهم – وهم جماعة كانت تخدم أمام الخليفة فى المواكب الاحتفالية ، وأحيانًا كانت تخدم أمام الوزير فى بعض الاحتفالات . كما كانت تقوم بنفس العمل إذا رَكِبَ الخليفة عُشارى فى النيل ، كما كانوا يتولَّوْن حراسة القصر الفاطمى ومنظرة اللُّؤْلُؤة عندما يتواجد بها الخليفة[1]. وكان لهم زمام يعرف دائمًا بسنان الدَّوْلَة بن الكَرْكَنْدى كان يتلقى الخِلَع فى المناسبات عن زَمّ الرَّهَجيّة والمبيت على أبواب القصور[2].

وأحيانًا ما كان أرباب الإنفاق يحصلون على رواتب عينية سَمّاها المَخْزومى « الجِرايَة » و « القَضيم » . ويمكن أن تكون « الجِرايَة » خبزًا أو قمحًا . وفى حالة دفعها خبزًا لم تكن متساوية لجميع أرباب الإنفاق ، فقد كان هناك جماعة لها الحق فى « وظيفتين » – أى حصَّتَيْن – وجماعة لها الحق فى « وظيفة واحدة ونصف » ومنهم مَن له « وظيفة واحدة » ويطلق على ذلك فى الديوان « قَدْر الجِرايَة » . أما من تطلق جرايته قمحًا فتكون فى الشهر التام ثُلْث أردب ، أما فى الشهر الناقص فتكون رُبع ونصف ثمن أردب . أما « القَضِيم » (الشعير) فكان يوزَّع كل يوم على شكل أنصبة يبلغ كل منها نصف وَيْبة[3].

و« أرباب الإيجاب » هم ، كما ذكر المَخْزومى « أرباب الخِدَم التى لا تستقر على حال لما يتخلَّل ذلك من التولية والصَّرْف والزيادة والنقص » ، أى إنهم جنود مؤقتون كانوا يؤدّون بعض الخدمات لفترات محدَّدة ، فكان يوجب لهم فى كل شهر استحقاقهم بقدر المباشرة ، مثلهم مثل أرباب الرَّواتب . كانت هذه المعاملة تجرى أساسًا فى ديوان الجيش ،

---

[1] ابن المأمون : أخبار مصر ٥٤، ٥٧، ٥٨، ٧٢، ٨٤، ٩٦، ٩٩.

[2] نفســه ٥٤؛ المقريزى الخطط ١: ٤١٢، ٤٦٢؛ ٢: ٢٨، ٣٨.

[3] المخزومى: المنهاج ٦٨.

ثم انتقلت إلى ديوان خُصِّصَ لذلك هو « ديوان الرَّواتب » الذى أصبح فرعًا لديوان الجيش ثم انتقل ، فى تاريخ نجهله ،وأصبح فرعًا لديوان المجْلِس الذى كانت تجرى فيه معاملات الأموال[١]. وكل ذلك دون شك فى العصر الفاطمى .

وكان ديوانُ الجيش يدفع راتبًا شهريًّا للأجناد المستخدمين فى المراكز والمعروفين بـ « المرْكَزِيَّة »[٢]، وقد ذكر ابن المأمون هؤلاء المرْكَزِيَّة فى حوادث عام ٥٠٩هـ/ ١١١٥، وكان يتولَّى أمرهم والى الشرقية ، وذلك لمواجهة بُلْدوين ملك الفِرِنْج الذى وَصَلَ إلى الفَرَما فى هذه السنة[٣]. كما كان هناك كذلك جنودٌ من المرْكَزِيَّة فى القُلْزُم[٤] وفى عَسْقَلان لمواجهة الفِرِنْج[٥]، أما أُسْوان فقد رابط فيها رجال من العسكر مستعدون بالأسلحة لحفظ الثغر من هجوم النوبة والسودان ، وذكر المقريزى أن ذلك أُهْمل بعد زوال الدولة الفاطمية[٦]. ويضيف المَخْزومى إنه كان بكل مركز نائب عن ديوان « العَرْض » – الذى ربما كان فرعًا لديوان الجيش – كانت مهمته إثبات صلاحية هؤلاء الأجناد المستخدمين أمام مجلس الحرب واستمرار خدمتهم وذلك فى سِجِلٍّ مفرد يثبت فى آخره عدد المستمرين منهم يعتمده متولِّى الحرب ويرفع بعد ذلك إلى متولِّى ديوان الرواتب لصرف استحقاقه ، أما الأجناد المرْكَزِيَّة التى كانت تجب لهم رواتب عينية فى شكل « جِرايَة » فكان لهم « خَرْجٌ » مفرد إلى جانب « خرج الإيجاب » يشتمل على ما يجِب اقتطاعه منسوبًا إلى ستة (؟) . أما الأجناد الذين كانوا يُجَرَّدون إلى الثغور الشامية – وذلك فى العقود الأخيرة من عمر الدولة الفاطمية – فكان يُطَبَّق عليهم نفس

---

١ المخزومى: المنهاج ٦٨-٦٩.
٢ نفســه ٦٩ وفيما سبق ص ٦٤.
٣ ابن المأمون : أخبار مصر ١١٣؛ المقريزى: الخطط ١: ٢١٢.
٤ المقريزى: الخطط ١: ٢١٣ س ٨.
٥ ابن الطوير: نزهة المقلتين ٤١.
٦ المقريزى: الخطط ١: ١٩٨.

نظام الاقتطاع السابق ولكن يستعيضون عن ذلك ببدَل قيمته عشرة دنانير عدد مقابل إقامتهم فى هذه الثغور[١].

أما « الإقطاع الجَيْشى » فيذكر المَخْزومى أن له حُكْمين: حُكْم هلالى وحُكْم خراجى. وواضح أن نصّ المَخْزومى يرتبط بالعصر الأيوبى، فالإقطاع الجَيْشى عرف فى مصر مع وصول الجيش التركى الكُرْدى المصاحب لشيركوه وصلاح الدين، فمصر فى العصر الأيوبى كان لها وَضْعٌ خاصٌ يختلف عما كان سائدًا فى الشرق فى هذه الفترة[٢].

والجهة الأخيرة من رسوم ديوان الجيش التى ذكرها المَخْزومى هى « إقْطاع الاعْتداد »[٣] الذى يذكر ابن الطُّوَيْر أنه مختص بالعُرْبان وكان يقع عادة فى أطراف البلاد، وهو مائة دينار على كل ألف دينار مقبوضة[٤]، وهو فى الوقت نفسه إقْطاعًا جماعيًّا ويعنى طريقة فى دفع الرواتب لمجموعة من العربان بواسطة زعيم لهم[٥].

---

[١] المخزومى: المنهاج ٦٩.
[٢] فيما سبق ص ٨٧-٨٩.
[٣] المخزومى: المنهاج ٦٩.
[٤] ابن الطوير: نزهة المقلتين ٨٦.
[٥] Cahen, Cl., *op. cit.*, pp. 171, 178.

الفصل التاسع عشر

البَحرية الفاطميّة

في دراسته عن دور المسلمين في حوض البحر المتوسط إلى الحروب الصليبية ذكر حسين مؤنس أن الفاطميين كانوا أعظم دول الإسلام اهتمامًا بشئون البحر بعد الأمويين، وأن بحريتهم بلغت درجةً هائلةً من القوة والانتظام قبل أن ينتقلوا إلي مصر[1].

البحرية الفاطمية في شمال إفريقيا.

فقد كان للفاطميين منذ وصولهم إلى شمال إفريقيا سياسةً تَوَسُّعيةً تعتمد علي أطماعهم فى شرق وغرب البحر المتوسط، وقد أكسبت هذه السياسة دولتهم من أول الأمر نزعةً بحريةً. فمنذ أن دَخَلَ الداعى أبو عبدالله الشيعى إلى رَقَّادة قبل قيام الخلافة الفاطمية، حرص على أن يُعْلن باسم الإمام المهدى عن هذه النوايا التوسعية في نسخة «الأمان» التى وَجَّهَها إلى أهل صِقِلِّيّة[2].

وورث الفاطميون هذه النزعة البحرية عن أسلافهم الأغالبة الذين كانوا يملكون أسطولاً حربيًا تعَزَّز أكثر فأكثر بفضل صِقِلِّيّة والجهاد ضد بيزنطة ورعاياها في صِقِلِّيّة وجنوب إيطاليا. وقد ظَلَّ الأسطول الأغْلَبى الراسى على الأخص فى سُوسَة وتونس ويَلِزم سليمًا بعد هروب زيادة الله آخر ملوك الأغالِبَة[3].

وما لبثت صقِلِّيّة أن ثارت على حكام إفريقية الجدد، ولكن الخليفة المَهْدى حرص منذ إعتلائه عرش رَقَّادَة على تنظيم الأسطول الحربى الذى كان تحت تصرفه فى سواحل

---

[1] حسين مؤنس: «المسلمون في حوض البحر الأبيض المتوسط إلى الحروب الصليبية»، المجلة التاريخية المصرية ٤ (مايو ١٩٥١)، ١٠٦.

[2] Dachraoui, F., *op. cit.*, p. 382.

[3] *Ibid*., p. 382-83.

إفريقية ، وانتهج ضد صِقِلِّيَة سياسةً هجوميةً أدّت فى النهاية إلى إخضاعها [١].

فلأول مرة أنشئ حوض سفن ضخم فيه قسمان جافان على الأقل فى العاصمة المَهْدِيّة . وبعد وقت قصير جدًا كان فيه ٩٠٠ سفينة حربية ، وسرعان ما انشغل هذا الأسطول القوى بهجمات واسعة النطاق بعيدة الأثر على الموانئ الإيطالية حتى جنْوا وعلى الأنحاء الغربية للبحر المتوسط . وتجدر الإشارة إلى أن الأسطول الفاطمى لم يصطدم بأسطول الأندلس القوى مثله ، فقد كان الفاطميون يحاولون عند قيام دولتهم أن يصلوا إلى السوق الإيطالية مباشرةً على حساب صِقِلِّيَة وبدون الدخول فى أى صراع لا لزوم له مع الأندلس [٢].

وقد تابع الخلفاء الفاطميون - بعد المهدى - سياسته البحرية ، وخاصة فيما يتعلق بإنشاء القواعد البحرية فى حوض البحر المتوسط ، فقد رأى المعز لدين الله أن قاعدة المهدية ودار الصناعة بها لا تفيان بمطالب الأسطول الفاطمى فعمل على تجديد قاعدة مدينة سوسة التى يحيط بها البحر من ثلاث جهات وتكثر بقربها الحجارة التى تحميها من الأمواج . وغَدَت سوسة بفضل إصلاحات المعز قاعدة ثانية للأسطول الفاطمى فى إفريقية .

هكذا أصبح للفاطميين بإفريقية فى عهد المعز ميناءان هامان يعتمدان على دور الصناعة فيهما فى صناعة السفن وتعميرها؛ كما كان للأسطول الفاطمى فى عهد المعز وحدات ترابط فى موانئ صِقِلِّيَة ويُشْرف عليها ولاتها[٣].

والوصف الوحيد الذى وَصَلَ إلينا للأسطول الفاطمى وضعه شاعران هما ابن هانئ الأندلسى ومعاصره الإيادى . وقد جاء هذا الوصف فى غاية العموم يتضمن معلومات

---

[١] Dachraoui , F., *op. cit.*, p . 383 .

[٢] Shaban, A., *Islamic History*, Cambridge 1976, p. 192-93 .

[٣] صابر دياب : سياسة الدول الإسلامية فى حوض البحر المتوسط ١٠١ - ١٠٢.

غامضة جدًا وغير كافية. فيصف ابن هانئ الأندلسى الأسطول الفاطمى الذى فَرَضَ سيطرته على الحوض الغربى للبحر المتوسط من قصيدة يمدح فيها المُعِزّ بقوله[1]:

لَكَ البَرُّ والبحر الخِضَمُّ عُبابُه فسيّان أغمارٌ تخاض وبيد
أما والجوارى المنشآت التى سَرَتْ لقد ظاهرتها عُدّةٌ وعديد
قبابٌ كما تُزجَى القباب على المها ولكنّ ما انضمّت عليه أسود
ولله مما لا يَرَوْنَ كتائبٌ مُسَوَّمَةٌ تحدو بها وجنود
وما راعَ مَلْكَ الروم إلا اطّلاعُها تُنَشَّرُ أعلامٌ لها وبُنود
عليها غمامٌ مُكْفَهِرٌّ صَبيرُه له بارقاتٌ جَمّةٌ ورُعود
مَواخرُ فى طامى العُباب كأنه لعَزمك بأسٌ أو لكَفِّك جُود
أنافَتْ لها أعلامُها وسما لها بناءٌ على غَير العراء مَشيد
إذا زَفَرَتْ غَيظًا ترامت بمارج كما شُبَّ من نار الجحيم وُقُود
فأنفاسُهُنّ الحامياتُ صواعق وأفواهُهُنّ الزافراتُ حديد

وتدلنا الرسائل والتوقيعات المتبادلة بين الخليفة المعز وكاتبه جَوْذَر الصَّقْلَبى والتى حُفِظَت فى «سيرته» على مدى الاهتمام بأمر الأسطول. فيدور قسمٌ كبيرٌ منها حول تدبير حاجيات ولوازم الأسطول والعمل على مَرَمَّة حصون السواحل وتعمير أو صيانة موانئ ودور صناعة المَهْدِيّة وسُوسَة والمَنْصُورية، وطلب تشديد الحراسة فى البحر لحماية سواحل الدولة فى إفريقية من غارات الأعداء ومفاجآتهم خاصة الدولة البيزنطية والأمويين بالأندلس[2].

وكان المشرف على قاعدة المهدية البحرية يسمى «صاحب البحر» أو «متولى البحر»، ويرجع إليه جميع القُوّاد المشرفين على وحدات الأسطول الذى كان هو ذاته

---

[1] ديوان محمد بن هانئ الأندلسى، تحقيق محمد اليعلاوى، بيروت ـ دار الغرب الإسلامى ١٩٩٤، ٩٢-٩٣.
[2] سيرة الأستاذ جوذر ٩٥-٩٧، ١٠٢، ١٠٥، ١٠٨؛ صابر دياب: المرجع السابق ١٠٣-١٠٥.

تحت إمرة الأستاذ جوذر كاتب المعز لدين الله[١].

وقد أدت سيطرة الفاطميين على جزيرة صقلية إلى تيسير حصولهم على الحديد ولوازم السفن من مناجم ومصانع بلرم، كما حصلوا على الحديد والفضة والرصاص من مناجم مدينة مجانة بالمغرب[٢].

ورغم أن الجيش الذى فَتَحَ مصر بقيادة جَوْهَر الصَّقْلَبى سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م كان جيشًا بريًا، فإن الحملة التى هاجمت مصر سنة ٣٠٧هـ/٩٢٠م كان يغلب عليها الطابع البحرى وكانت بقيادة أحد أمراء البحر فى الأسطول الفاطمى. فاشتركت فيها قوات بحرية من أسطول شمال إفريقيا وأسطول صِقِلِّيَّة الفاطميين[٣].

البحرية فى مصر والشام

قبل العصر الفاطمي

كانت صناعةُ السُّفُن فى مصر وخاصة السُّفُن الحربية من أهم الصناعات فى فجر الإسلام. وكان للمصريين الفضل الأكبر فى عظمة البحرية الإسلامية وكانت تعتمد عليهم الخلافة فى إنشاء أسطولها الحربى.

ويرجع إلى الخليفة الأموى الأول معاوية بن أبى سفيان الفضل فى إعادة افتتاح دور الصِّناعَة المصرية والتى طَوَّرَها ونَمَّاها بعد ذلك ولاة مصر المستقلين ابتداء من القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى[٤]. وأقيمت أول دار للصناعة فى مصر الإسلامية على ضفاف جزيرة مصر (الروضة) سنة ٥٤هـ/ ٦٧٤م تبعًا لما يؤكده الكِنْدى[٥]. وأصبحت الجزيرة

---

١ Dachroui, F., *op. cit.*, p. 392-93.

٢ صابر دياب: المرجع السابق ١٠٧.

٣ نفســه ١٠٦.

٤ Colin, G. S et Cahen, Cl., *EI²*., art. *dâr al-sinâʿa* II, p. 33.

٥ ابن دقماق: الانتصار ٤: ١٠٩؛ القلقشندى، صبح الأعشى ٣: ٣٣٥؛ المقريزى: الخطط ٢: ١٧٨، ١٩٦.

تعرف منذ هذا التاريخ بـ « جزيرة الصِّناعة » جنبًا إلى جنب مع اسمها الأول « جزيرة مصر » . وقد أنشئت هذه الدور فى أعقاب هجوم الأسطول البيزنطى على مدينة البُرُلُّس فى العام السابق ومُنِىَ فيه المسلمون بخسائر كبيرة[١].

كانت صِناعَةُ بناء السفن فى أول الأمر تتم فى مصر ، وكان لِقبْط مصر الفضل فى بنائها وتشييد دور الصِّناعَة فى مصر وتونس والشام ، فقد استعان حَسّان بن النعمان ، والى إفريقية من قبل عبدالملك بن مروان ، بألف من أقْباط مصر لإنشاء دار صِناعَة فيها .

وبما أن العرب عند ظهور الإسلام لم يكونوا شعبًا بحريًّا ، فإنهم استخدموا فى غزواتهم البحرية شعوب الأمم التى فتحوها والتى كانت لها خبرة بركوب البحر ، وقد أفاد العرب من خبرة المصريين البحرية ومن العمال المصريين استفادة كبيرة فأصبحت مصر عقب الفَتْح مركزًا لصناعة السُّفُن اللازمة لأسطول الخلافة وأصبحت تمد هذا الأسطول بخيرة الملاحين والعمال المصريين[٢].

ولكن الأسطول المصرى بمعنى الكلمة لم ينشأ إلاَّ فى عصر الوالى عَنْبَسَة بن إسحاق (٢٣٨-٢٤٢هـ/٨٥٢-٨٥٦م) بعد أن تَغَلَّب البيزنطيون على دِمْياط فى سنة ٢٣٩هـ/ ٨٥٤م ، فأمره الخليفة العَبّاسى بإنشاء الشَّوانى برسم الأسطول ، فى نفس الوقت الذى أخذ يَدْعَم فيه جميع موانئ ساحل البحر المتوسط[٣]. وفى سنة ٢٦٣هـ/ ٨٣٧م أمر الخليفَة العَبّاسى المُعْتَمَد والى مصر أحمد بن طولون بتوسيع دار صِنَاعَة الجزيرة وتحصين الجزيرة نفسها ببناء حصن بها . وقد حفظ لنا ابن سعيد المغربى نَصًّا يأمر فيه أحمد بن طولون متولى دار الصِّناعَة بأن لا يدَّخِر وسعًا فى سبيل إنشاء السفن القوية[٤].

---

١ المقريزى: الخطط ٢: ١٩٠.

٢ سيدة إسماعيل كاشف: مصر فى فجر الإسلام ٩٢- ٩٣؛.

٣ المقريزى : الخطط ١: ٣٤٦: ٢. ١٢٠-١٩١.

٤ نفسه ٢: ١٧٨، ١٨٠ - ١٨١؛ ابن سعيد : المغرب ٩٤-٩٥.

وفى أعقاب سقوط الدولة الطولونية تأكّد أبو موسى تكين، أحد ولاة العبّاسين الذى تولّى حُكْم مصر أربع مرات بين سنتى ٢٩٧هـ/٩١٠م و٣٢١هـ/٩٣٣م، فى خلال صراعه ضد محاولات الفاطميين الأولى فَتْح مصر التى وصلت إلى الشاطئ الغربى للنيل فى مواجهة الفُسْطاط، أن المقاومة الحربية التى تقع قيادتها فى الفُسْطاط يمكن أن يُقْضَى عليها بفَقْد دار الصِّناعَة الرئيسية الواقعة فى وَسَط النيل حيث أن هذه الدار لم تكن مُحَصَّنَة بما يكفى بسبب وضعها علَى شاطئ الجزيرة[١].

وقد تَحَقَّقَت توقُّعات تكين سريعًا فى سنة ٣٢٣هـ/٩٣٥م عندما أصبح محمد بن طُغْج الإخشيد واليًا على مصر. فقد قامت مجموعة من المتمردين بالاستيلاء على أسطول ابن طُغْج فى الفيوم واستخدموه فى الهرب إلى الإسكندرية ومنها إلى بَرْقَة وإحراق دار صِناعَة الجزيرة[٢]. وأمر ابن طُغْج ببناء دار صِناعَة جديدة على الشاطئ الشمالى للفُسْطاط فى الموقع المعروف بدار بنت الفَتْح. وافتتح ابن طُغْج دار الصِّناعَة الجديدة سنة ٣٢٥هـ/٩٣٧م[٣].

فى العصر الفاطمى

وفور انتقال الخليفة الفاطمى المُعِزّ لدين الله إلى مصر بدأ اهتمام الفاطميين بأمر الأسطول وذلك بغرض مواجهة خطر القَرامِطَة على الشام ومصر ولحماية سواحل الدولة الفاطمية من أنطاكيا إلى الإسكندرية من غارات البيزنطيين[٤]؛ كما أن المُعِزّ لدين الله كان ينوى الدخول فى مغامرات جديدة مع البيزنطيين فى النصف الشرقى من حوض البحر المتوسط بعد أن ضمن التفوق الفاطمى فى النصف الغربى من هذا الحوض.

---

١ المقريزى: الخطط ١: ٣٢٧-٣٢٨.
٢ ابن سعيد: المغرب ١٦-١٦١.
٣ نفســه ١٢٣، ١٦ ؛ امقريزى: الخطط ٢: ١٨١، ١٩٧.
٤ حسين مؤنس: المرجع السابق: ١٠٤.

يقول ابن الطُّوَيْر وهو يتحدَّث عن عناية الفاطميين بالأساطيل وحفظ الثغور :

« أما اهتمامهم بالأساطيل والأجناد وحفظ الثغور ، واعتناؤهم بأمر الجهاد فكان من أهم أمورهم ، وأجلّ ما وقع الاعتناء به عندهم ، وكانت أساطيلهم مرتبة بجميع بلادهم الساحلية كالإسكندرية ودمياط من الديار المصرية ، وعسقلان وعكا وصور وغيرها من سواحل الشام حين كانت بأيديهم قبل أن يغلبهم عليها الفرنج »[١].

وقد بَلَغَ عددُ مراكب الأسطول الفاطمى فى خلافة المُعِزّ ما يزيد على ستمائة قطعة بحرية ما بين شَواني ومُسَطَّحات وحَمّالات ومراكب نيلية[٢]، وذكر الرَّحالة الفارسى ناصر خُسْرو الذى زار مصر سنة ٤٤١هـ/١٠٤٦م أنه شاهد السفن التى حضر بها المعز إلى مصر سنة ٣٦٢هـ/٩٧٣م فى مكان قرب القاهرة ، وهى سبع سفن طول الواحدة مائة وخمسون ذراعًا وعرضها سبعون[٣].

دور الصَّناعَة في العصر الفاطمي

كان بمصر فى العصر الفاطمى خمس دور للصناعة ، منها دور كانت موجودة قبل قدوم الفاطميين إلى مصر (فى دِمْياط والإسكندرية والفُسْطاط) وأخرى استحدثت فى العصر الفاطمى ، فيذكر المؤرِّخ الشيعى يحيى بن أبى طَىّ أن المُعِزّ لدين الله هو الذى أنشأ دار الصَّناعَة التى بالـمَقْس[٤](موضع ميدان رمسيس الآن) وأنه أنشأ بها ستمائة مركب لم ير مثلها فى البحر فى ميناء »[٥]. ويذكر ابن زولاق – معاصر المُعِزّ – أن الخليفة المُعِزّ لدين الله ركب فى شوال ٣٦٢هـ/ ٩٧٢م إلى الـمَقْس وأشرف على أسطوله وقرأ عليه وعَوَّذَه وخَلْفُه القائد جَوْهَر والقاضى النُّعْمان ووجوه أهل البلد ثم عاد إلى قصره[٦].

---

[١] ابن الطوير : نزهة المقلتين فى أخبار الدولتين ٩٥.
[٢] القلقشندى : صبح الأعشى ٣: ٥١٩.
[٣] ناصر خسرو : سفرنامة ٨٧.
[٤] المقريزى : الخطط ٢: ١٩٥، اتعاظ الحنفا ١: ١٣٩، ٢٩: ٢٩٥.
[٥] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٩٤.
[٦] المقريزى : الخطط ١: ١٣٩.

كان المَقْس ميناءً قديمًا على النيل، عُرف بالمَقْس لأن العاشر - وهو صاحب المكْس - كان يجلس به فقيل له المكْس ثم قلبت الكاف قافًا فقيل المَقْس[1]. ولا نعرف شيئًا كثيرًا عن دار صناعة المَقْس بعد المُعِزّ لدين الله، ويبدو أن الموضع استخدم كميناء للقاهرة لجلب ما يحتاج إليه القصر الفاطمى، فيذكر المؤرخ المُسَبِّحى فى حوادث ربيع الآخر سنة ٤١٥هـ/ يونية سنة ١٠٢٤م أن مراكب مملوءة قمحًا وصلت إلى ساحل مصر الفسطاط، فرئى نَقْل ما فيها إلى القصر الفاطمى، فأُمر بأن تصل إلى المَقْس مما أدَّى إلى ارتفاع الأسعار وزيادة الغلاء فى هذا العام[2].

أما دار صناعة الفسطاط التى أقامها محمد بن طُغْج الإخشيد فى سنة ٣٢٥هـ/ ٩٣٦م فقد استمرت تعمل طوال العصر الفاطمى. وقامت هذه الدار بصناعة أسطول ضخم سنة ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م ليرسله الخليفة العزيز بالله إلى طرابلس الشام بقصد عَرْقَلَة البيزنطيين ومنعهم من التوغل فى بلاد الشام. ولكن هذا الأسطول الكبير الذى كان على أهبة الاستعداد للرحيل إلى هدفه لم يلبث بعد أيام قليلة من إعداده وشحنه فى ربيع الأول سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م أن تَعَرَّض لحريق مدمر. وقد أورد لنا خبر هذه الواقعة مؤرِّخان متعاصران هما المُسَبِّحى ويحيى بن سعيد الأنطاكى[3]. وفى الوقت الذى ذكر فيه الأنطاكى أن الحريق أصاب الأسطول فى صناعة مصر وَهِمَ المُسَبِّحى وجَعَلَ ذلك فى صناعة المَقْس. وقد شَبَّت النار فى دار صناعة مصر فى ٢٤ ربيع الآخر سنة ٣٨٦ هـ فاحترقت خمس عُشاريات امتدت ألسنة النيران منها إلى بقية سفن الأسطول، فأتت النار على ما فى الأسطول من العدد والسلاح، ولم تنج من هذا الحريق سوى ست سفن فارغة. واتهم بالتسبب فى هذا الحريق مجموعة من الروم من تُجّار مدينة أمالفى Amalfi

---

[1] المقريزى: الخطط ٢: ١٢١.

[2] المسبحى: أخبار مصر ٣٩.

[3] المسبحى: نصوص ضائعة من أخبار مصر ١٥- ١٦؛ يحيى بن سعيد الأنطاكى: تاريخ ١٣٨-١٧٩.

الإيطالية كانوا يقيمون مع بضائعهم فى الفسطاط فى مبنى مخصص يعرف بـ « دار مانك » كان يقع فى خُطّ الرقّائين . وقد نهبت العامة هذه الدار بما فيها من ثروات وقتلوا منهم أكثر من مائة رجل طرحوا جثثهم فى الطرقات وقبضوا على الباقين وحبسوهم بدار صناعة مصر . وقد اعترف هؤلاء الروم فى محضر من الوزير عيسى بن نَسْطورس ويانس الصَّقْلَبى ومسعود الصَّقْلَبى متولّى الشُّرطَة بأنهم أحرقوا الأسطول [١].

وقد أمر عيسى بن نَسْطورس الصُّنّاع فى دار الصناعة بإعداد عشرين مركبًا جديدة فى الحال وطَرَحَ لهم الأخشاب اللازمة ، وأصدر أمره باستحضار الأخشاب الموجودة عند التجار ، ولم يدع عند أحد خشب علم به إلا أخذه منه . ولم تمض على حادث الحريق المذكور شهر ونصف حتى تم صناعة مركبين جديدين فى غاية الكبر طرحها الصُّنّاع بين يدى الوزير فى ٧ جمادى الآخر ، وفى غرة شعبان طرحوا بين يديه أربع مراكب كبار من المنشأة نفسها ، غير أن هذا الأسطول الجديد الذى أبحر إلى أنطرسوس بقيادة رشيق العزيزى لنجدة القائد الفاطمى مَنْجوتَكين ، لم يلبث أن تعرّض لعاصفة عاتية حطّمته بالقرب من ميناء طرابلس الشام وأسر الروم بعض رجال [٢].

ويبدو من نَصٍّ لابن المأمون أن السفن كانت تُنشأ كذلك فى صناعة الجزيرة إلى أيام الخليفة الآمر بأحكام الله فى مطلع القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى ، فيذكر أن وزيره المأمون البَطائِحى (٥١٥ - ٥١٩هـ) أنكر ذلك وأمر أن يكون إنشاء الشّواني والمراكب النيلية الديوانية بصناعة مصر وأضاف إليها دار الزيب وأنشأ بها مَنْظَرة لجلوس الخليفة يوم استعراض الأسطول ، وأقرّ بأن الحرابى والشَّلِنْديات هى التى تنشأ فقط فى الصناعة بالجزيرة [٣].

---

[١] يحيى بن سعيد الأنطاكى : تاريخ ١٧٨.

[٢] نفســه ١٧٨.

[٣] ابن المأمون : أخبار مصر. ١٠٠- ١٠١؛ المقريزى : الخطط ١: ٤٨٢، ٢: ١٩٧.

توفير الأخشاب اللازمة لصناعة السُفُن

اهتمت الدولة الفاطمية بتوفير الأخشاب الضرورية لصناعة السفن اللازمة للأسطول من الحَراج، وهى أشجار السّنْط الكثيرة التى كانت تنمو فى أعمال البَهْنَساوية وسَفْط والأُشمونيين والأسيوطية والأخميمية والقوصية. كما كانت تَتَّخِذ لها حُرّاسًا يحمونها، وكانت الدولة تستغل أخشاب هذه الأشجار فى صناعة الأساطيل، وتحفظها فى حواصل خاصة بآلات السفن، وبسبب ذلك ارتفعت أثمان أعواد السّنْط حتى إن العود الواحد منها كان يصل ثمنه إلى مائة دينار. وفرضت الدولة على سكان النواحى المذكورة ضريبة يقال لها «رَسْم الحَراج» نظير ما كان يُسْمَح لهم به من قَطْع أطراف أشجار السّنْط التى لا تصلح لعمل مراكب الأسطول، والتى كان ينتفع بها فقط فى الوقود[1].

وكان قَطْعُ أخشاب السّنْط وجرها إلى السواحل لصناعة السفن يتم فى شهر برمودة (مايو) من كل سنة[2]. ولم تكن الأخشاب المحلية تكفى وحدها لصناعة السفن اللازمة للأسطول الفاطمى، ولذلك اعتمدت مصر الفاطمية على ما كان يرد إليها من أخشاب الصنوبر الصقلية أو المغربية، بالإضافة إلى ما كانت تحمله منه سفن البنادقة إلى الإسكندرية، ولقد احتج الإمبراطور البيزنطى على دوق البندقية لإمداده المصريين بالأخشاب، فأمر الدوق بوقف بيع الأخشاب التى تصلح لصناعة السفن والاكتفاء ببيع أشجار اللَّبخ والسنديان، على ألا يتجاوز طول اللوح خمسة أقدام وعرضه نصف القدم[3].

---

[1] المقريزى: الخطط ١: ١٦٦.

[2] ابن مماتى: قوانين الدواوين: ٢٥.

[3] السيد عبد العزيز سالم: تاريخ البحرية الإسلامية ٩٣-٩٤.

دور الأسطول الفاطمي في مصر والشام

لم تذكر المصادر أن الأسطول الفاطمى شارك فى عملية فَتْح مصر سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م ، فلم يصل الأسطول الفاطمى إلى مصر من إفريقية إلا فى رمضان سنة ٣٦١هـ/ يولية ٩٧٢م[١]، وأقلع عن مصر إلى سواحل الشام بغرض المساهمة فى المعارك البرية التى كان يخوضها الجيش الفاطمى هناك بقيادة سعادة بن حَيّان . وتمكن الفاطميون بفضل هذا الأسطول من استرداد يافا فى أواخر سنة ٣٦١هـ/٩٧٢م . ومن ذلك الحين لم تتوقَّف السفن الحربية الفاطمية عن الإقلاع من تِنِّيس ودِمْياط والإسكندرية إلى صُور وطَرَابُلُس لحفظ ثغور الشام والدفاع عنها[٢].

وكان إقلاع المراكب فى البحر يبدأ من شهر برمهات من كل سنة (يقابل هذا الشهر شهر إبريل) ، يقول ابن مَمَّاتى ، وفى هذا الشهر تجرى هذه المراكب « فى البحر المالح من الأعمال المصرية والمغربية والرومية ، وفيه الاهتمام بتركيز الأجناد بالثغور المحروسة ومراكب الأساطيل لحفظها »[٣]. ويستمر نشاط السفن الحربية فى البحر حتى حلول فصل الشتاء فتأوى السفن إلى قواعدها ويَتَوقَّف نشاطها طوال هذا الفصل .

واستطاعت الدولة الفاطمية فى عهد الخليفة المُعِزّ لدين الله أن تصل بفضل أسطولها إلى أقصى ما وصلت إليه من قوة ونفوذ فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، فصَدَّت قُوّاتُها البحرية هجومًا بيزنطيًا على طَرابُلُس الشام سنة ٣٦٤هـ/٩٧٧م ، كما استطاع الفاطميون بفضل هذا الأسطول من الاحتفاظ بسيطرتهم على سواحل مصر والشام[٤].

---

[١] المقريزى : اتعاظ الحنفا ١: ١٦١.

[٢] نفسه ؛ السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ٩٦.

[٣] ابن مماتى : قوانين الدواوين ٢٤٨.

[٤] يحيى بن سعيد الأنطاكى : تاريخ ٣٦٨-٣٧٩.

ورغم أن الفاطميين قد وقّعوا في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله معاهدة صلح مع الإمبراطور البيزنطى باسيل الثانى سنة ٣٨٩هـ/١٠٠٩ م . فقد واصلوا العناية بأساطيلهم لاعتقادهم أن البيزنطيين غير جادين فى صلحهم ، فعملوا على تدعيم قواعدهم البحرية فى الشام مع العناية بأسطولهم طوال فترة الهُدْنَة (٣٨٩-٤٠٩هـ/١٠٠٠-١٠٢٩م) التى سادها هدوء نسبى بسبب تلك المعاهدة[١].

كما أن معلوماتنا عن نشاط الأسطول الفاطمى فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى مجزؤة . ونجد الرحالة الفارسى ناصر خسرو عندما يذكر جزيرة تِنِّيس يشير إلى أنه يرابط حولها دائمًا ألف سفينة منها ما يخص التجار وأغلبها يخص السلطان ، كما أنه يقيم بها جيش كامل السلاح احتياطيًا حتى لا يستطيع أحدٌ من الفرنج أو الروم أن يغير عليها[٢].

البحرية الفاطمية فى زمن الحروب الصليبية

لعل أحد الحقائق الهامة فى الصراع البحرى بين أوربا المسيحية والشرق الإسلامى خلال فترة الحروب الصليبية ، أن الفاطميين كانوا هم الدولة الإسلامية الوحيدة فى شرق البحر المتوسط التى لها أسطول بحرى وتَحَمَّلَت بمفردها العبء الأكبر فى المواجهة البحرية ضد الفِرِنْج وحلفائهم[٣].

ويمكننا التمييز فى المواجهة بين الفاطميين والفِرِنْج بين فترتين : الفترة الحاسمة الواقعة بين سنتى ٤٩٢-٥٠٤هـ/ ١٠٩٩-١١١٠م والتى تَمكّن فيها الفِرِنْج الصليبيون من السيطرة على العديد من المدن الساحلية فى فلسطين والشام . والفترة الثانية الواقعة بين

---

[١] صابر دياب : المرجع السابق ١٧٧.

[٢] ناصر خسرو : سفرنامة ٧٩.

[٣] Lev, Y., *State and Society* p. 104 .

سنتى ٥٠٤-٥٦٤هـ/١١١٠-١١٦٨ والتى تَمكَّن فيه الفِرِنْج الصليبيون من إحكام سيطرتهم على الساحل الشامى بعد سقوط صور سنة ٥١٨هـ/ ١١٢٤م وعَسْقَلان سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م.

ولم يوجد أىّ نشاط بحرى ضد الفِرِنْج انطلاقًا من مدن الشام الساحلية نفسها، فرغم أن طَرابُلُس كان لها نشاطٌ تجارى ضخم فيبدو أن أسرة بنى عَمّار حُكّام طرابُلُس فى هذا الوقت لم يكونوا يملكون مراكب حربية تحت تصرفهم، وعلى كل فلم يكن ذلك وضعًا استثنائيًا، ففى هذا العصر لا تعنى وجود تجارة بحرية ضرورة وجود قوة بحرية إلى جانبها. ويوضِّح وَضْع الفاطميين فى البحر الأحمر هذه النقطة، فرغم أن الفاطميين كانت لهم شبكة تجارية عريضة ذات أهمية اقتصادية ضخمة عبر البحر الأحمر، فإن الفاطميين لم يكن لهم أى تواجد عسكرى بحرى فى هذه المنطقة. ففى سنة ٥١٢هـ/ ١١١٧م هاجم الشريف قاسم بن على بن أبى هاشم بن فُلَيْتَة أمير مكة سفنًا تجاريةً مصريةً فى ميناء عَيْذاب على البحر الأحمر فنهبوها وقتلوا جماعة من التجار الموجودين على متنها. وردًا على هذا الموقف فقد أمر الوزير الأَفْضَل بن بدر الجمالى والى قوص (فى مصر العُلْيا) أن ينشئ فى ميناء عَيْذاب (نهاية طريق التجارة البحرية القادمة من الهند) حَراريق (نوع من السفن الحربية ترمى بالنيران) لمواجهة مثل هذه المواقف[١].

ويذكر القلقشندى أنه كان للفاطميين بعَيْذاب أسطولٌ يُتَلَقَّى به الكارم فيما بين عَيْذاب وسواكن وما حولها، خوفًا على مراكب الكارم من قوم كانوا بجزائر بحر القُلْزُم (البحر الأحمر) يعترضونه، وكان يتولَّى الإشراف عليه والى قوص[٢].

ومن ناحية أخرى تُقَدِّم لنا الحوليات الفرنجية معلومات وفيرة عن الظواهر البحرية للحرب الصليبية الأولى وهى تدرك تمامًا تَفَوُّق البحرية الفرنجية، ورغم أن البحرية

---

[١] النويرى: نهاية الأرب ٢٨: ٢٧٨- ٢٧٩؛المقريزى: اتعاظ الحنفا ٣: ٥٨.

[٢] القلقشندى: صبح الأعشى ٣: ٥١٩- ٥٢٠؛ وانظر فيما سبق ص ٤٩٩.

الفاطمية كانت موجودة فى معركة عَسْقَلان سنة ٤٩٣هـ/١٠٩٩م إلاَّ أنها بقيت غير مشاركة فى القتال . وكانهاستيلاء الفرنج على سائر الساحل الفلسطينى (حيفا ٤٩٤هـ/ ١١٠٠م وأَرسوف ٤٩٩هـ/١١٠١م وقَيسارية ٤٩٤هـ/١١٠١م) بمعاونة الأساطيل الإيطالية التى لم تواجه أية مقاومة بحرية إسلامية . وفى صيف عام ٤٩٥هـ/ ١١٠٢م وصلت قواتُ الفاطميين البحرية والبرية إلى فلسطين ، وتمكّنت من حصار يافا وأحرزت قواتهم البرية انتصارات مرموقة ضد الصليبيين . ولكن وصول السفن المسيحية وهزيمة الجيش الفاطمى وضع نهاية لحصار يافا[1] . ويذكر مؤرّخ دمشق ابن القَلانِسى أن الأُسطول المصرى حمل معه مواد غذائية ساعدت على خفض الأسعار وتوفير الأقوات . ولاشك أن انكسار الأسطول الفاطمى راجعٌ لعدم التنسيق بين القوات البرية والقوات البحرية وبذلك لم تُحقّق الحملة الفاطمية أىّ نجاح[2].

لا شك أن سبب إخفاق القِوات الفاطمية فى مواجهة الفرنج راجع إلى عدم تقدير الوزير الأَفْضَل - صاحب السلطة الفعلية فى مصر فى هذا الوقت - لحقيقة أهداف الفِرنْج ، لذلك فإن الفاطميين لم يقوموا فى بدايةِ الأمر بأى عمل حاسم ضد الفِرنْج . فقد كان الفاطميون ينظرون إلى الفِرنْج على أنهم حُلفاء لهم ضد خصومهم السياسيين والمذهبيين السَّلاجِقَة وأدّى تلكُّؤ الفاطميين فى مواجهة الفِرنْج إلى حصار هؤلاء لبيت المقدس ثم سقوطها فى أيديهم فى شعبان ٤٩٢هـ/١٠٩٨م .

وهكذا توالى سقوط مدن الساحل الشامى والفلسطينى فى أيدى الفِرنْج حيث سقطت أنْطَرْسوس سنة ٤٩٥هـ/١١٠١م واستولوا على عَكّا قهرًا سنة ٤٩٧هـ/١١٠٣ بعد أن حاصروها من البحر فى أكثر من تسعين مركبًا ومن البر بجيوش كثيفة ، وفى سنة

---

[1] Lev, Y., op. cit. pp. 107-108 .

[2] ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ١٤٢-١٤٣.

٥٠٢هـ/١١٠٨م استولوا على طَرابُلُس وجَبَلَة ، وفى العام الثانى سقطت بيروت وجُبيل وبانياس ، وفى سنة ٥٠٤هـ/١١١٠م سقطت صَيْدا[١].

أما عَسْقَلان فكانت المدينة الوحيدة التى تَحَصَّن بها الفاطميون وظلَّت مصدر إقلاق دائم للفِرِنْج حتى سَقَطَت بدورها فى سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م.

[١] سيد عبدالعزيز سالم : المرجع السابق ١٠٨.

ديـوان الجِهـاد أو ديـوان العَمَـائِـر

كان الإشراف على الأسطول الفاطمي يتولاه ديوان يعرف بـ « ديوان الجِهاد » ويقال له أيضًا « ديوان العَمَائِر » كان محله بدار الصِّناعة بالفسطاط. وكانت جريدة قُوّاد الأسطول فى آخر عهد الدولة الفاطمية، كما يذكر ابن الطُّوَيْر، تزيد على خمسة آلاف مُدَوَّنة، منهم عشرة أعيان يقال لهم « القُوّاد » (واحدهم قائد) تتراوح جامكيتهم بين عشرين دينارًا وديناربن، وله إقْطاعات تعرف بـ « أبواب الغزاة ». ويُخْتار من يقع عليه الإجماع من القواد العشرة لرئاسة الأسطول المتجه للغزو فيكون معه « المُقَدَّم » و«الفانوس» فتهتدى به بقية المراكب تقلع بإقلاعه وترسو بإرسائه. كما يُقَدَّم على الأسطول أمير كبير من أعيان الأمراء يعرف باسمين بـ « المقدم والرئيس »[1].

وذكر ابن المأمون أن الباقى من استيمار سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م، والذى حمل إلى الصناديق الخاصة برسم المهمّات بما يتجدّد من تسفير العساكر وما يُحمل إلى الثغور عند نفاد ما بها من مؤن، ثمانية وتسعين ألف ومائة وسبعين دينارًا (٩٨،١٩٧) وربعًا وسدسًا[2].

كان ديوانُ العَمائِر يضمُّ عددًا كبيرًا من الحواصل لعمارة المراكب، لكل حاصل منها نفر من الصُّنّاع من مختلف المهن كالنجّارين والحدّادين والمُقَلْفطين والمُزَوِّقين، ويتولّى الديوان الإنفاق على إنشاء السفن، فإذا لم يف اتفاقه بما تحتاج إليه هذه السفن استدعى له مزيد من المال من بيت المال لسد النقص[3].

ويصف لنا ابن الطُّوَيْر فى نصٍّ نادر كيفية الاحتفال بوداع الأسطول واهتمام الخليفة

---

[1] ابن الطوير: نزهة المقلتين ٩٤- ١٩٥؛ المقريزى: الخط ١: ٤٨٣، ٢: ١٩٣.

[2] ابن المأمون: أخبار مصر ٧١؛ للقريزى الخطط ١: ٣٩٩.

[3] سيد عبدالعزيز سالم: المرجع السابق ١٢٨-١٢٩.

الفاطمى بذلك ، يقول :

« ويُقَدَّم على الأسطول أميرٌ كبيرٌ من أعيان الأمراء وأقواهم نفسًا وجنانًا ، ويتولّى النفقة فيهم للغزو الخليفة بنفسه بحضور الوزير ، فإذا أراد النفقة فيما تعيّن عليه من عدّة المراكب السائرة ، فيتقدم إلى النقباء بإحضار الرجال وهم يهيمون من أرباب المعايش ، ويسمع بذلك من هو خارج مصر والقاهرة فيدخل إليها ، ولهم الـمُشاهرة والجرايات الـمُستقرة مدة أيام السفر ، وهم معروفون عند عشرين نقيبًا ولا يعترض أحدٌ أحدًا إلا من رغب فى ذلك من نفسه . فإذا اجتمعت العدة المغلقة للمراكب المطلوبة فى تلك السنة أعْلم النقباء الـمُقدم فاعلم بذلك الوزير فطالع الوزير الخليفة بالحال فقرر يوم النفقة ، فحضر الوزير بالاستدعاء من الإنشاء على العادة فيجلس الخليفة على هيئته فى مجلسه ويجلس الوزير فى مكانه ، ويحضر صاحبا ديوان الجيش وهما : المستوفى والكاتب ، والمستوفى هو أميزهما فيجلس من داخل عتبة المجلس ، وهذه رتبة له يتميز بها ، ويجلس لجانبه تحت العتبة على حُصْر مفروشة بالقاعة كاتب الجيش الأصل ولا يخل ، المستوفى أن يكون عَدْلا أو من أعيان الكُتّاب المسلمين ، وأما كاتب الجيش فيهودى فى الأغلب ويُفْرش أمام المجلس أنطاع تُصب عليها الدراهم ويحضر الوزانون ببيت المال لذلك . فإذا تهيأ الإنفاق أُدخل القابضون مائة مائة فيقفون فى آخر الوقوف بين يدى الخليفة من جانب واحد نقابة نقابة ، وتكون أسماؤهم قد رُتبت فى الأوراق لاستدعائهم بين يدى الخليفة . فيستدعى مستوفى الجيش من تلك الأوراق المتفق عليها واحدًا واحدًا ، فإذا خرج اسمه عبر من الجانب الذى هو فيه إلى الجانب الخال ، فإذا تكمّلت عشرة رجال وزن الوزّانون لهم النفقة وكانت لكل واحد خمسة دنانير صرف كل دينار ستة وثلاثون درهماً فيسلمها لهم النقيب وتكتب بيده وباسمه وتمضى النفقة كذلك إلى آخرها ، فإذا تمّ ذلك اليوم ركب الوزير من بين يدى الخليفة وانقضى ذلك الجمع فيحمل من عند الخليفة مائدة يقال لها غداء الوزير وهى سبع مخفيات أوساط إحداها بلحم دجاج وفُستق والبقية من شواء مكمورة بالأزهار فيكون ذلك عدة أيام متوالية مرة ومتفرقةمن بعضها بعضًا مرة .

فإذا تَكَمّلَت النفقة وتَجَهَّزَت المراكب وتهيأت للسفر ، وركب الخليفة والوزير إلى ساحل النيل بالمقس ، وكان هناك على شاطئ البحر بالجامع منظرة يجلس فيها الخليفة برسم وداع الأسطول ولقائه إذا عاد . فإذا جلس هو والوزير للوداع جاءت

القُواد بالمراكب من مصر إلى هناك للحركات فى البحر بين يديه وهى مزينة بأسلحتها ولبوسها وفيها المنجنيقات تلعب فتنحدر وتقلع بالمجاديف كما يُفْعل فى لقاء بالمجاديف كما يُفعل فى لقاء العدو بالبحر المالح .

ثم يحضر بين يدى الخليفة « المقدم » و« الرئيس » فيوصيهما ويدعو للجماعة بالسلام والنصر ، ويُعطى المُقدَّم مائة دينار والرئيس عشرين دينارًا ، وينحدر الأسطول إلى دمياط فيخرج إلى البحر المالح فيكون له ببلاد العدو هيبة وصيت . فإذا وقع لهم مركب وكسبوه لا يسألون عما فيه سوى الشخوص الكبار والصغار والنساء والسلاح وما كان سوى ذلك كان للأسطول »[١].

---

[١] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٩٦-٩٨.

قِطَعُ الأسطول الفاطمى الحربى

قسّم المقريزى فى الخطط السفن المصرية إلى نوعين :

١ - السُّفُن الحربية . وهى سُفُن الأسطول التى تُصْنَع خصيصًا لغزو العدو ، وكانت تُشْحَن بالسلاح وآلات الحرب والمقاتلة . وكانت تنطلق من ثغور الإسكندرية ودمياط وتِنِّيس والفَرَما فى مصر ، ومن ثغور طَرابُلُس وصَيْدا وصُور فى الشام لجهاد أعداء الدولة من البيزنطيين والفِرِنْج .

٢ - السُّفُن النيلية . وهى إما سُفُنٌ تجارية تنشأ لحمل الغلال والأحطاب وغيرها ونَقْل هذه البضائع فى النيل صاعدة إلى أعلى الصعيد ومنحدرة إلى أسفل الأرض ، أو سُفُنٌ تخصص للاحتفال بتخليق عمود المقياس وكسر الخليج ولتَنَزّه الخلفاء الفاطميين كالعُشاريات اللطاف التى يُقال لها السُّميريات والعُشاريات الخاص الكبار[1] .

ويمكننا أن نضيف إلى هذين النوعين نوعًا ثالثًا مخصصًا للملاحة فى البحر الأحمر والمحيط الهندى لنقل تجارة الكارم أو لنقل الحجاج ما بين مينائى عَيْذاب على الشاطئ المصرى وجَدَّة على الشاطئ الحجازى تسمى الجُلاّب أو الجُلاّبات (م . جلبة)[2] .

وقد تَعَدَّدَت أنواعُ قطع الأسطول الحربى الفاطمى التى كانت تُصْنَع على الأخص فى دار صناعة مصر ودار صناعة الجزيرة ، أما السفن التجارية فكانت تُصْنَع فى أول الأمر فى مدينة الصَّالحية حيث شاهد بها الرحالة الفارسى ناصر خسرو نحو أواسط القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى سفنًا تجاريةً مُعدة لنقل البضائع إلى مدينة مصر .

وأهم قطع الأسطول الحربى الفاطمى هى :

---

[1] المقريزى : الخطط ، السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ١٣١.

[2] درويش النخيلى : السفن الإسلامية على حروف المعجم ٢٧-٢٩ .

الشِّينى جـ. شَوانى (ويقال أيضًا شانى أو شينية أو شونة) . ذكر الزَّبيدى أنها لغة مصرية (أى أنها من أصل مصرى) وهى السفينة الحربية الكبيرة تطلق عليها أحيانا أسماء مثل الغراب الذى ذكر ابن مماتى أنه كان يُجدف بمائة وأربعين مجدافا ، والطريدة ، والجفنة ، والحراقة. وكانت الشوانى مزودة بأبراج وقلاع تستخدم للدفاع والهجوم ، وهى لعظمها كانت تحتوى على أهراء لخزن القمح وصهاريج لخزن الماء العذب .

وكان يرمى منها النار والنفط على العدو ، كما كانت مجهزة بالفأس الذى يقال له اللجام ، وهو حديدة طويلة محددة الرأس جدًا وأسفلها مجوف كسنان رمح يدخل عند الحرب فى اسطام المركب – وهو الخشبة التى فى مقدم الشينى – وإذا أمكنتهم الفرصة تأخروا به قليلا ثم قذفوا قذفة واحدة قوية فينطح المركب المواجه فيخرقه ويدخل الماء فيه فتطلب الأمان[1].

الشَّلَنْدى جـ. الشَّلَنْديات. ذكر ابن مماتى أنه مركب مسقف تقاتل الغزاة على ظهره والمجدفون يجدفون تحتهم ، ذكر الحموى أنها تعادل فى أهميتها الشونة والحراقة . وهى فى اللاتينية تعرف بـ Chelandium وحرّفها العرب عنهم فقالوا صندل . وقد عرف المسلمون هذا النوع من المراكب الحربية ونقلوه عن البيزنطيين[2].

المُسَطَّح (جـ. المُسَطَّحات) نوع من السفن الحربية الكبيرة يُشبه بالشلندى كان يسع نحو خمسمائة راكب . وقد ذكر المقريزى أن عدد مراكب الأسطول الفاطمى فى آخر عهده بلغت خمسة وسبعين شينيا وعشر مسطحات وعشر حمالات . وقد عرف المسلمون والفرنج فى العصور الوسطى هذا الضرب من السفن واستعملوه فى مياه البحر المتوسط[3].

---

[1] درويش النخيلى : السفن المرجع السابق ٨٣-٨٥.

[2] نفســه ٧٨-٨١.

[3] نفســه ١٤١-١٤٣.

البطسة ويقال أحيانًا البطشة والجمع البطسات والبُطس والبطشات والبُطش. سفينة عظيمة الحجم كثيرة القلوع قد يصل عدد القلوع في البطسة الواحدة إلى أربعين قلعا. كانت تستخدم لنقل الأزواد والميرة، كما كانت تستخدم فى نقل جموع كبيرة من المحاربين قد يصل عددهم إلى سبعمائة. واشتهر هذا النوع من السفن فى زمن الحروب الصليبية وكانت وظيفتها مشتركة لدى المسلمين والفرنج إذ كانت تقوم بشحن الغلال والأقوات والمير والأموال والنفقات خاصةً للمدن الساحلية المحصورة، علاوة على آلات الحرب والقتال وذخائر وأدوات الحصار[1].

الحَرَبى والحَرَبية. (جـ. حرابى وحربيات). استخدمها الفاطميون وهم مازالوا فى إفريقية ولما انتقلوا إلى مصر استمروا فى الاهتمام بها، فقد أورد المقريزى نصوصًا كثيرة تشير إلى عناية الفاطميين بالمراكب الحربية طوال فترة حكمهم فى مصر[2].

حَرَّاقة (ج. حراريق وحراقات). نوع من السفن الحربية التى تستخدم للرمى بالنيران والنفط بغرض إحراق سفن العدو، وهى تلى الشّوانى فى الأهمية وكانت من لواحق المراكب الحربية الكبيرة التى لا تسير بدونها حماية لها. وكان هذا النوع من السفن الحربية يستعمل بكثرة فى مياه البحر المتوسط فى زمن الحروب الصليبية[3].

الطَّريدة (جمع الطرائد). ذكر ابن مماتى أنها سفينة برسم حمل الخيل، وأكثر ما يُحمَل فيها أربعون فرسا. كانت تفتح عادة من الخلف حتى يتيسر للخيل أن تصعد إلى ظهرها أو تنزل منها إلى اليابسة[4].

الغيطانى والعَجُزى. نوع من المراكب المصرية كانت تصنع بدار صناعة مصر استعملت فى حمل الركاب، يقول ابن القطان فى حوادث سنة ٥٣٢هـ: وفيها كان

---

[1] درويش النخيلى: السفن الإسلامية على حروف المعجم ١٤-١٧.
[2] نفسه ٣٧-٤٠.
[3] نفسه ٣٢-٣٧.
[4] نفسه ٨٩-٩٢.

غزو المراكب المصرية التى وصلت من الإسكندرية ، منها المركب الغيطانى والمركب العجزى . وكانت عظيمة الجرم جدًا وكانت فيها أموال عظيمة وخلق كثير »[١].

الغُراب (جـ. أغْرِبَة وغَرابِن). اسم من أسماء الشينى أو نوع منه يسير بالقلاع والمجاديف ، منها الصغير والكبير ويحدد حجمه وضخامته عدد مجاديفه ، فأحفله ما كان يجره مائة وثمانون مجدافًا وأصغرهم تجدف به عشرة مجاديف . كان يحمل نحو مائتى مقاتل وكان من خصائصه أنه مزود بجسر من الخشب يهبط على مركب العدو ويمر على ظهره الجند فيتقاتلون بالأساليب البرية[٢].

عُشارى (جـ. عُشاريات). اسم مُعَرَّب ، وهو نوع من المراكب كان يستعمل فى البحرين المتوسط والأحمر وكذلك فى النيل . وهو نوعٌ من القوارب الصغيرة التى تلحق بالأسطول أو بالمراكب الكبيرة . وتفيض المصادر الفاطمية فى ذكر هذا النوع من المراكب كأحد القطع النهرية التى تعددت أغراض استعمالاتها . ومع ذلك فيمكننا القول أنه كاد أن يكون موقوفًا فى استعماله على الخلفاء والوزراء وولاة الأعمال .

وكان العُشارى العامل فى البحر المتوسط يجر بعشرين مجدافا ، وهو الذى يُعَدّى بالبضائع والرجال من الساحل لأن القراقر (م . قَرْقورة) لا تقف إلا فى المكان الغزير من الميناء ، أى أنه يدخل فى قائمة المعديات ، كما كان يستخدم كزورق من زوارق الإنقاذ فى حالات الأخطار التى تدهم مراكب المسافرين حين هياج البحر وإشرافه على الغرق[٣].

ويُستفاد من بعض النُّصوص أن العُشارى كان يستعمل فى نيل مصر – فى عصر الدولة الفاطمية – لنقل المسافرين على طول مجراه .

---

[١] درويش النخيلى : السفن الإسلامية على حروف المعجم ١١٤ .

[٢] نفسه ١٠٤-١١٢.

[٣] نفسه ٩٥-١٠١ وراجع فى الموضوع كتاب سعاد ماهر : البحرية فى مصر الإسلامية وآثارها الباقية ، القاهرة – دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ١٩٦٧، ٩٥- ١٠٠.

خَاتِمَة

الدولة الفاطمية نموذجٌ منفردٌ فى التاريخ الإسلامى لم يتكرّر على الإطلاق . فقد كانت دولة ذات طابع دينى فَلْسَفى وحضارة متميِّزة أرادت بَسْط نفوذها على كل العالم الإسلامى المعاصر . وجاء فتحهم لمصر سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م ممثلًا المرحلة قبل الأخيرة فى سبيل تحقيق هدفهم البعيد وهو الإحلال مَحَلّ الخلافة العَبّاسية كحُكّام وحيدين للعالم الإسلامى .

ولكن آمال الفاطميين تحطَّمت فى الشام التى كانت ستُسْتَخْدم كنقطة انطلاق للهجوم النهائى الذى كان سيحمل جيوش الفاطميين إلى بغداد لتضع نهايةً لحكم البُوَيْهيين وللخلافة العَبّاسية . فقد استغرقت محاولةُ إخضاعهم لسوريا الشمالية وقتًا طويلًا ولم تخلص لهم أبدًا ، وقبلوا فى النهاية أن يتقاسموا نفوذهم فى الشام مع البيزنطيين – الشريك التجارى الأهم للفاطميين – بينما كانت بغداد – التى استولى عليها السَّلاجِقَة نحو أواسط القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى – تتولّى حركة نشطة للجهاد الإسلامى .

وهكذا – إذا استثنينا محاولة البَساسيرى وداعى الدُّعاة المؤيِّد فى الدين الشِّيرازى – فإن فكرة مواجهة العَبّاسيين ظَلّت فى إطار الهدف ولم تخرج على الإطلاق إلى حَيِّز السياسات العملية . وبدلًا من أن يحافظ الفاطميون على حدود إمبراطوريتهم فى الغرب فقدوا ممتلكاتهم فى صِقِلِّيَة وفى إفريقية ، كما لم يلبثوا أن فقدوا ممتلكاتهم فى سوريا الوسطى والجنوبية أمام السَّلاجِقَة والفِرِنْج . وبعد فشلهم فى مواجهة العَبّاسيين تبنّى الفاطميون استراتيجيةً شرقيةً حيث مَدُّوا نفوذهم على جنوب وشرق الجزيرة العربية (اليمن وعُمان) ، وعملوا على نَشْر دعوتهم على طول طرق التجارة الشرقية التى تخلّى

عنها العَبّاسيون ، ونجحوا فى إحلال البحر الأحمر مَحَلّ الخليج الفارسى كطريق رئيسى للتجارة من الهند إلى البحر المتوسط ، وبذلك أصبحت مصر ملتقى حركة التجارة الدولية .

وأنشأ الفاطميون فى مصر لأول مرة قصرًا خلافيًا وبلاطًا للخلفاء ، لم يكتف فقط بمنافسة بلاط خلفاء بغداد وأباطرة بيزنطة ، بل تفوّق عليهما بمظاهر الترف والبذخ والأُبَّهَة التى استغلّ الفاطميون فى إضفائها عليه كل إمكانات مصر الحضارية وما تميّز به مذهبهم العقائدى الخاص . كذلك فقد أدخل الفاطميون تغييرًا جذريًا على نظم الحكم والإدارة فى مصر تمثّل فى استحداث مناصب الوزارة وقاضى القضاة وداعى الدعاة ، والعديد من الدواوين الإدارية والحربية التى لم تعرفها مصر من قبل .

ولم تكن مدينة القاهرة التى أسَّسَها الفاطميون فى مصر عاصمة لخلافتهم فحسب ، بل كانت كذلك مَسْرحًا لجميع الأعمال الدينية التى كان يقوم بها الخليفة الفاطمى باعتباره إمام الطائفة الإسماعيلية . كذلك فإن القصر الفاطمى - مقرّ إقامة الإمام الفاطمى وبلاطه - لم يكن فقط مركز الإدارة والطقوس الاحتفالية الفاطمية ، وإنما كان على عكس أىّ قصر حاكم آخر فى العالم الإسلامى مسرح الطقوس الدينية الأكثر قداسة ، وبالتالى كان مركز النشاط الروحى للمدينة . فجامع القاهرة (الجامع الأزهر) كان حجمه متواضعًا بالنسبة للجوامع التى سبقته فى مصر أو فى إفريقية نفسها ، ولم يكن يُحْتَفَل فيه سوى بصلاة جمعة واحدة فى رمضان من كل عام وبليالى الوقود الأربع ، أما سائر الاحتفالات والطقوس الدينية فكانت تتم فى القصر الفاطمى نفسه باستثناء صلاة عيدى الفِطْر والنَّحْر التى كانت تتم فى « مُصَلَّى العيد » خارج باب النَّصْر . وتأكَّدَ التَمَيُّز الدينى للقصر الفاطمى بعد الملابسات التى صاحبت نَقْل رأس الحسين من عَسْقَلان إلى القاهرة سنة ٥٤٨هـ/١١٥٤م حيث رفض أهل القصر أن تُدْفن الرأس خارج القاهرة فى الجامع الذى شَيَّده الوزير الصالح طلائع بن رُزّيك وحرصوا على تخصيص موضع لها فى قُبَّة الدَّيْلم جنوب شرق القصر الفاطمى .

وكانت سياسة الفاطميين الاقتصادية ونظامهم الضّرائبى من أهم التطورات التى شهدها القرنان الخامس والسادس للهجرة / الحادى عشر والثانى عشر للميلاد . فقد تَبَنَّى الفاطميون مبدأ حرية المشاريع ، ولم يسلم فى وقتهم أىّ إنتاج أو أيّة مهنة أو أيّة حرفة من الضريبة أو المكوس . وقد استفاد خلفاؤهم الأيوبيون والمماليك فيما بعد من سياسات الفاطميين الاقتصادية ونظامهم الضّرائبى .

ولعل من أهم إنجازات فترة الحكم الفاطمى لَفْت الانتباه إلى وضع مصر الاستراتيجى فى قلب العالم الإسلامى - وهو الوضع الذي حاول الطولونيون إظهاره من قبل . وأبرزوا كذلك دور مصر السياسى وقدرتها على قيادة العالم الإسلامى ، لو تمتّعت حكومتها بتأييد هذا العالم ، وهو الأمر الذى استثمره بنجاح خلفاؤهم الأيوبيون والمماليك .

ثبت المصادر والمراجع وبيان طبعاتها

المصادر

ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن على بن محمد) المتوفى سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٣م.

« التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية »، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات، القاهرة ١٩٦٣.

« الكامل فى التاريخ »، ١-١٣، بيروت - دار صادر ١٩٦٥-١٩٦٧.

« اللُّباب فى تهذيب الأنساب »، ١-٣، تصحيح حسام الدين القدسى، القاهرة - مكتبة القدسى ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م.

أُسَامَة بن مُنْقِذ (مؤيد الدولة المُظَفَّر أسامة بن مُرْشِد الشَّيْزَرى) المتوفى سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م.

« الاعتبار »، تحقيق وتقديم قاسم السامرائى، الرياض - دار الأصالة ١٩٨٧.

ابن أبى أصيبعة (أبو العباس أحمد بن القاسم بن يونس السعدى) المتوفى سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م.

« عيون الأنباء فى طبقات الأطباء »، ١-٢، بعناية أوغست موللر، القاهرة ١٨٨٢.

استتار الإمام = النَّيْسابورى.

ابن إياس (أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس الحنفى) المتوفى سنة ٩٣٠هـ/١٥٢٤م.

« بدائع الزهور فى وقائع الدهور »، الجزء الأول - القسم الأول، تحقيق محمد مصطفى، النشرات الإسلامية ٥/١-آ، القاهرة ١٩٧٥.

ابن أَيْبَك الدَّوادارى (أبو بكر عبد الله بن أَيْبَك) المتوفى بعد سنة ٧٣٦هـ/١٣٣٥م.

« كنز الدُّرر وجامع الغُرر » - الجزء السادس المسمى « الدرة المضية فى أخبار الدولة الفاطمية »، تحقيق صلاح الدين المنجد، الجزء السابع المسمى « الدر المطلوب فى أخبار ملوك بنى أيوب »، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة - المعهد الألمانى للآثار ١٩٦١، ١٩٧٢.

---

* ليس هذا ثبتًا بجميع المؤلفات المستخدمة فى كتابة هذا المؤلف، وإنما أذكر فقط المؤلَّفات المستخدمة دائمًا أثناء البحث. أما المصادر والمراجع التى استخدمت لشرح واقعة معينة أو للرجوع إليها لمزيد من التفصيل فقد ذكرت جميع المعلومات البيليوجرافية الخاصة بها فى موضعها.

ابن بَعْرَة (منصور الذهبى الكاملى) القرن السابع الهجرى/الثالث عشر الميلادى.

«كَشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية»، تحقيق عبد الرحمن فهمى، القاهرة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٦٥.

البَكْرى (أبو عُبَيْد عبد الله بن عبد العزيز) المتوفى سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م.

«جغرافية مصر من كتاب الممالك والمسالك»، بحث وتحقيق عبد الله يوسف الغنيم، الكويت - مكتبة دار العروبة ١٩٨٠.

البَلَوى (أبو محمد عبد الله بن محمد بن عُمَير بن محفوظ المدينى) من علماء القرن الرابع/العاشر.

«سيرة أحمد بن طولون»، حَقَّقها وعلَّق عليها محمد كُرد على، دمشق - مطبعة الترقى ١٣٥٨هـ.

البُنْدارى (أبو إبراهيم الفتح بن على بن محمد الأصفهانى) المتوفى سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م.

«تاريخ دولة آل سلجوق»، القاهرة - مطبعة الموسوعات ١٩٠٠.

«سَنا البَرْق الشّامى» اختصره من كتاب «البَرْق الشّامى» للعماد الكاتب الأصفهانى، تحقيق فتحية النبراوى، القاهرة - مكتبة الخانجى ١٩٧٩.

ابن تَغْرى بِرْدى = أبو المحاسن.

ابن جُبَيْر (أبو الحسين محمد بن أحمد الكنانى) المتوفى سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م.

«الرِّحلة»، بيروت - دار صادر ١٩٦٧.

الجَزيرى (زين الدين عبد القادر بن محمد بن عبد القادر الأنصارى) المتوفى نحو سنة ٩٧٧هـ/١٥٦٩م.

«الدُّرَر الفَرائد المُنَظَّمة فى أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة»، ١-٣، أعده للنشر حمد الجاسر، الرياض - دار اليمامة ١٩٨٣.

الجَواليقى (أبو منصور موهوب بن أحمد) المتوفى سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م.

«المُعَرَّب من الكلام الأعْجَمى»، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة - دار الكتب المصرية ١٣٦١هـ.

الجَوْذَرى (أبو على منصور العزيزى) المتوفى بعد سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م.

«سيرة الأستاذ جَوْذَر» تقديم وتحقيق محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادى شعيرة، القاهرة - دار الفكر العربى ١٩٥٤.

ابن الجَوْزى (أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد القرشى البغدادى) المتوفى سنة ٥٩٧هـ/١٢٠١م.

«المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم»، ٥-١٠، الهند - دائرة المعارف العثمانية ١٣٥٧-١٣٥٩هـ.

ابن حَجَر العَسْقلانى (شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على) المتوفى سنة ٨٥٢هـ/١٤٤٨م.

«ذيل الدرر الكامنة»، تحقيق عدنان درويش، القاهرة - معهد المخطوطات العربية ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

«رَفْع الإصر عن قضاة مصر» الجزء الأول فى قسمين تحقيق حامد عبد المجيد وآخرين، القاهرة - الإدارة العامة للثقافة، وزارة التربية والتعليم ١٩٥٧- ١٩٦١.

«لِسان الميزان»، ١-٦، حيدرآباد الدكن ١٣٢٩هـ/١٩١١م-١٣٣١هـ/١٩١٣م.

ابن حَزْم (أبو محمد على بن أحمد بن سعيد الأندلسى) المتوفى سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٤م.

«جمهرة أنساب العرب»، تحقيق وتعليق عبد السلام محمد هارون، القاهرة - دار المعارف ١٩٧٧.

ابن حَمّاد (أبو عبد الله محمد بن على بن حماد بن عيسى) المتوفى سنة ٦٢٦هـ/١٢٣٠م.

«أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم»، تحقيق وتعليق جلال أحمد البدوى، الجزائر - المؤسسة الوطنية للكتاب ١٩٨٤.

الحَمَوى (شمس الدين محمد بن إبراهيم بن محمد بن ظهير الحنفى) المتوفى بعد سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٦م.

«رَوْضة الأديب ونُزْهَة الأريب»، عَرَّف به ونشر قسمًا منه محمد الحبيب الهيلة باسم «النظم الإدارية بمصر فى القرن التاسع الهجرى من خلال كتاب روضة الأديب ونزهة الأريب لمحمد بن إبراهيم ابن ظهير الحنفى الحموى»، أبحاث الندوة الدولية لألفية القاهرة، القاهرة - دار الكتب المصرية ١٩٧١، ١٠٤١-١٠٩٥.

ابن حَوْقَل (أبو القاسم محمد بن على) المتوفى بعد سنة ٣٦٦هـ/٩٧٧م.

«صورة الأرض»، نشرة كريمرز، ليدن ١٩٣٨.

ابن خَلْدون (ولىّ الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد الحضرمى الإشبيلى) المتوفى سنة ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م.

«العِبَر وديوان المبتدأ والخبر فى تاريخ العرب والعجم والبربر»، ١-٧، بولاق ١٢٨٤هـ.

«المُقَدِّمَة»، ١-٣، تحقيق على عبد الواحد وافى، القاهرة - دار نهضة مصر ١٩٧٩.

ابن خَلِّكان (شمس الدين أبو العبّاس أحمد بن محمد) المتوفى سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م.

« وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » ، ١ - ٨، تحقيق إحسان عبّاس ، بيروت - دار الثقافة ١٩٦٩- ١٩٧٢.

الخُوارَزْمى (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف) المتوفى سنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م.

« مفاتيح العُلوم » ، تصحيح محمد منير الدمشقى ، القاهرة ١٩٢٣.

ابن دُقْماق (صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أَيْدُمُر العلائى) المتوفى سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٦م.

« الانتصار لواسطة عقد الأمصار » ، ٤ - ٥، نشرة فولرز ، القاهرة ١٨٩٤.

الذَّهَبى (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز) المتوفى سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٧م.

« العِبَر فى خبر من غبر » ، ١ - ٥، تحقيق صلاح الدين المنجد وفؤاد سيّد ، الكويت - سلسلة التراث العربى ١٩٦٠- ١٩٦٥.

الرّاوندى (نجم الدين أبو بكر محمد بن على بن سليمان بن محمد) المتوفى بعد سنة ٦٠٣هـ/١٢٠٧م.

« راحَة الصدور وآية السرور فى تاريخ الدولة السلجوقية » ، ألفه بالفارسية الراوندى ونقله إلى العربية إبراهيم أمين الشواربى وعبد النعيم حسنين وفؤاد عبد المعطى الصيّاد ، القاهرة - دار القلم ١٩٦٠.

الرَّشيد بن الزُّبير (رشيد الدين أبو الحسين أحمد بن على بن إبراهيم الأسوانى) المتوفى سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م.

« الذَّخائر والتحف » ، تحقيق محمد حميد الله ، الكويت - سلسلة التراث العربى ١٩٥٩.

ابن رِضْوان (أبو الحسن على بن رضوان بن على بن جعفر الطبيب المصرى) المتوفى سنة ٤٥٣هـ/ ١٠٦١م.

« دَفْع مضار الأبدان بأرض مصر » ، دراسة وتحقيق عبد المجيد دياب ، الكويت - مكتبة ابن قتيبة ١٩٩٥.

الرُّوذْرَاورى (ظهير الدين أبو شجاع محمد بن الحسين بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم) ، المتوفى سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م.

« ذيل تجارب الأمم وتعاقب الهِمَم لابن مَسْكويه » ، اعتنى بنشره هـ. ف. آمدروز ، مصر ١٣٣٤هـ/١٩١٦م.

ابن زولاق (أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن الحسين الليثى) المتوفى سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م.

« أخبار سيبويه المصرى » ، نشره محمد إبراهيم سعد وحسين الذيب ، القاهرة ١٩٣٣.

« فضائل مصر وأخبارها » ، مخطوطة باريس رقم Paris B.N. nº 1817.

ابن الزيّات (شمس الدين أبو عبد الله محمد الأنصارى) المتوفى سنة ٨١٤هـ/١٤١١م.

« الكواكب السّيّارة فى ترتيب الزيارة » ، نشره أحمد تيمور باشا ، بولاق ١٣٢٥هـ.

ساويرس بن المُقَفَّع ، أسقف الأشمونين.

« تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية » المعروف بـ « سِيَر البِيَعَة المقدّسة » (المنسوب إلى) ، ٢- ٤ ، نشره : يَسّى عبد المسيح وعزيز سوريال عطية وأزولد بورمستر وأنطوان خاطر ، القاهرة - جمعية الآثار القبطية ١٩٥٩- ١٩٧٤.

سِبْط ابن الجَوْزى (شمس الدين أبو المُظَفَّر يوسف بن قِزْأوغلى) المتوفى سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م.

« مِرْآة الزمان فى تاريخ الأعيان » ، المجلد الثامن ، حيدرآباد الدكن - الهند ١٣٣٧-١٣٣٩هـ.

السُّبْكى (تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن على) المتوفى سنة ٧٧١هـ/١٣٦٩م.

« طبقات الشافعية الكبرى » ، ١- ١٠ ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناحى ، القاهرة - دار إحياء الكتب العربية ١٩٦٣- ١٩٧٦.

السّجِلّات المستنصرية.

« سِجِلّات وتوقيعات وكتب لمولانا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، إلى دعاة اليمن وغيرهم قَدَّس الله أرواح جميع المؤمنين » ، تحقيق عبد المنعم ماجد ، القاهرة - دار الفكر العربى ١٩٥٤.

السّخاوى (نور الدين أبو الحسن على بن أحمد) المتوفى بعد سنة ٨٨٧هـ/١٤٨٢م.

« تحفة الأحباب وبغية الطلاب فى الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات » ، نشره محمود ربيع وحسن قاسم ، القاهرة ١٩٣٧.

السّخاوى (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد) المتوفى سنة ٩٠٢هـ/١٤٩٧م.

« الإعلان بالتوبيخ لمن ذَمّ أهل التاريخ » ، فى كتاب « علم التاريخ عند المسلمين » لفرانز روزنتال ، ترجمة صالح أحمد العلى ، بغداد ١٩٦٣.

« الضوء اللامع لأهل القرن التاسع » ، ١- ١٢ ، القاهرة - مكتبة القدسى ١٣٥٣-١٣٥٥م.

ابن سَعِيد (على بن سعيد المغربى) المتوفى سنة ٦٨٥هـ/١٢٨٦م.

«المُغْرب فى حُلَى المَغْرب»، القسم الخاص بالفسطاط، حقَّقه زكى محمد حسن وسيدة إسماعيل كاشف وشوقى ضيف، القاهرة - جامعة فؤاد الأول ١٩٥٣.

«النجوم الزَّاهرة فى حُلَى حضرة القاهرة»، تحقيق حسين نصَّار، القاهرة - مركز تحقيق التراث ١٩٧٢.

سيرة المُؤَيَّد فى الدين = المُؤَيَّد فى الدين.

السُّيوطى (جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد) المتوفى سنة ٩١١هـ/١٥٠٥م.

«بُغْية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة»، ١-٢، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة - دار إحياء الكتب العربية ١٩٦٦.

«تاريخ الخلفاء»، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٧٦.

«حُسْن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة»، ١-٢، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٦٧.

ابن شاكر الكتبى (صلاح الدين محمد بن شاكر بن أحمد) المتوفى سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٢م.

«فوات الوفيات»، ١-٥، تحقيق إحسان عباس، بيروت - دار صادر ١٩٧٣-١٩٧٤.

أبو شامَة (شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى) المتوفى سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٧م.

«الرَّوْضتين فى أخبار الدولتين»، الجزء الأول فى قسمين، تحقيق محمد حلمى محمد أحمد، القاهرة ١٩٥٦-١٩٦٢.

أبو شجاع = الروذراورى.

ابن شَدَّاد (بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم) المتوفى سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٩م.

«النَّوادِرُ السُّلْطانية والمَحَاسِنِ اليوسفية» أو «سيرة صلاح الدِّين»، تحقيق جمال الدين الشَّيال، القاهرة الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٤م.

الشَّهْرستانى (أبو الفتح محمد بن عبد الكريم) المتوفى سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م.

«المِلَل والنِّحَل»، ١-٢، تخريج محمد بن فتح الله بدران، القاهرة - مكتبة الأنجلو ١٩٥٦.

أبو صالح الأرْمَنى = أبو المكارم سعد الله.

الصَّفَدى (صلاح الدين خليل بن أيْبَك) المتوفى سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٣م.

« الوافى بالوفيات »، ١-١٨ و ٢٢، تحقيق مجموعة من العلماء (النشرات الإسلامية- ٦)، استامبول-بيروت ١٩٤٩- ١٩٨٨.

ابن الصَّيْرَفى (تاج الرِّئاسة أبو القاسم على بن منجب بن سليمان) المتوفى سنة ٥٤٢هـ/١١٤٨م.

« القانون فى ديوان الرَّسائل والإشارة إلى مَنْ نال الوزارة »، حققهما وكتب مقدمتهما وحواشيهما ووَضعَ فهارسهما أيمن فؤاد سَيِّد، القاهرة - الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٠.

الضَّبِّى (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عُمَيْرة) المتوفى سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٢م.

« بُغْيَة المُلْتَمِس فى تاريخ رجال الأندلس »، مجريط ١٨٨٤.

الطَّرَسُوسى (مَرْضى بن على بن مَرْضى) المتوفى سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م.

« تَبْصِرَة أرباب الألباب فى كيفية النجاة فى الحروب من الأسواء ونَشْر أعلام الأعلام فى العُدَد والآلات المعينة على لقاء الأعداء » (ألّفه لصلاح الدين الأيوبى)، عُنى بتحقيقه ونشره كلود كاهن فى مجلة *BEO* XII (1947-48), pp. 103-163.

ابن الطُّوَيْر (أبو محمد المرتضى عبد السلام بن الحسن الفِهْرى القيسرانى) المتوفى سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م.

« نُزْهَة المقلتين فى أخبار الدولتين »، أعاد بناءه وحققه وقدّم له أيمن فؤاد سيد، النشرات الإسلامية - ٣٩، شتوتجارت ١٩٩٢.

ابن ظَافِر (جمال الدين أبو الحسن على بن أبى منصور ظافر الأزْدى) المتوفى سنة ٦١٢هـ/١٢١٥م.

« أخبار الدُّوَل المنقطعة »، دراسة تحليلية للقسم الخاص بالفاطميين مع مقدّمة وتعقيب أندريه فرّيه، القاهرة - المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ١٩٧٢.

ابن عبد الظَّاهِر (محيى الدين أبو الفضل عبد الله بن عبد الظاهر المصرى) المتوفى سنة ٦٩٢هـ/١٢٩٣م.

« الرَّوْضَة البَهِيّة الزَّاهِرَة فى خطط المعزية القاهرة »، حققه وقدّم له وعلّق عليه أيمن فؤاد سيد، بيروت - أوراق شرقية ١٩٩٦.

ابن العَديم (كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد) المتوفى سنة ٦٦٠هـ/١٢١٦م.

« بُغْيَة الطَّلب فى تاريخ حلب »، التراجم الخاصة بتاريخ السلاجقة، عنى بنشره على سويم، أنقرة - مطبوعات الجمعية التاريخية التركية ١٩٧٦، ومخطوطة مكتبة أحمد الثالث رقم ٢٩٢٥.

« زُبْدَة الحَلَب من تاريخ حلب »، ١-٣، تحقيق سامى الدهان، دمشق - المعهد العلمى الفرنسى للدراسات العربية ١٩٥١-١٩٦٨.

ابن عِذارىّ (أبو عبد الله محمد بن محمد المرّاكشى) المتوفى نحو سنة ٦٩٥هـ/١٢٩٥م.

« البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب »، ١-٤، تحقيق ج. س. كولان وإ. ليڤى بروڤنسال، ليدن ١٩٤٨.

على بن خَلَف (أبو الحسن على بن خَلَف بن على بن عبد الوهاب) المتوفى بعد سنة ٤٣٧هـ/١٠٤٥م.

« مواد البيان »، تحقيق حسين عبد اللطيف، طرابلس - جامعة الفاتح ١٩٨٢.

عماد الدين إدريس بن الحسن بن عبد الله الأنف المتوفى سنة ٨٧٢هـ/١٤٦٧م.

« تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب »، تحقيق محمد اليعلاوى، بيروت - دار الغرب الإسلامى ١٩٨٥.

« عيون الأخبار وفنون الآثار »، ٤-٦، تحقيق مصطفى غالب، بيروت - دار الأندلس ١٩٨٤. الجزء السابع، مخطوطة المكتبة الهمدانية.

« نزهة الأفكـــار وروضة الأخبار فى ذكر من قام باليمن من الملوك الكبار والدعاة الأخيار »، مخطوطة عباس همدانى.

عماد الدين الأصفهانى من علماء القرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى.

« البُسْتَان الجامـع لجميع تواريخ أهل الزمان »، حققه كلود كاهن Cahen, Cl., « Une chronique syrienne du VI°-XII° siècle», *BEO* VII-VIII (1937-38), pp. 113-158.

ابن العماد (عبد الحىّ بن أحمد بن محمد الحنبلى) المتوفى سنة ١٠٨٩م/١٦٧٨م.

« شذرات الذهب فى أخبار من ذهب »، ١-٨، نشره حسام الدين القدسى، القاهرة - مكتبة القدسى ١٣٥٠-١٣٥١هـ.

العماد الكاتب الأصفهانى (أبو عبد الله محمد بن صفى الدين أبو الفرج) المتوفى سنة ٥٩٧هـ/١٢٠٠م.

« خريدة القصر وجريدة العصر »، قسم شعراء الشام، ١-٣، تحقيق شكرى فيصل، دمشق - المجمع العلمى العربى ١٩٥٥-١٩٦٤.

عُمارة اليمنى (نجم الدين أبو محمد عمارة بن أبى الحسن على الحكمى) المتوفى سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م.

« تاريخ اليمن »، نشره حسن سليمان محمود، القاهرة - مكتبة مصر ١٩٥٧.

« النُكَت العصرية فى أخبار الوزارة المصرية »، تحقيق هرتويج درنبرغ، شالون ١٨٩٧.

الفاسى (تقى الدين محمد بن أحمد المكى) المتوفى سنة ٨٣٢هـ/١٤٢٩م.

« العِقْد الثمين فى تاريخ البلد الأمين » ، ١- ٨، تحقيق فؤاد سيّد ، القاهرة ١٩٥٩- ١٩٦٨.

أبو الفِدا (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن على صاحب حماة) المتوفى سنة ٧٣٢هـ/١٣٣١م.

« المختصر فى أخبار البشر » ، ١- ٤، مصر ١٣٢٥هـ.

ابن الفُرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم) المتوفى سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٤م.

« تاريخ الدول والملوك » ، مخطوطة مكتبة ڤينا رقم ٨١٤، الجزء الرابع/ ١- ٢، تحقيق حسن محمد الشماع ، البصرة ٦٧- ١٩٦٩.

ابن فَرْحون (برهان الدين إبراهيم بن على بن محمد) المتوفى سنة ٧٩٩هـ/١٣٩٧م.

« الدِّيباج المُذْهب فى تراجم أعيان المذهب » ، ١- ٢، تحقيق محمد الأحمدى أبو النور ، القاهرة ١٩٧٩.

ابن أبى الفَضَائِل (مُفَضَّل بن أبى الفَضائل) المتوفى بعد سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م.

« النَّهْج السديد والدر الفريد فى ما بعد تاريخ ابن العميد » ، نشره وترجمه إلى الفرنسية E. Blochet ، PO XII (1919); XIV (1920), XX (1929).

ابن فَهْد (النجم عمر بن محمد بن محمد المكى) المتوفى سنة ٨٨٥هـ/١٤٨٠م.

« إتحاف الورى بأخبار أم القرى » ، تحقيق فهيم محمد شلتوت ، مكة - جامعة أم القرى ١٩٨٣.

« فى نَسَب الخلفاء الفاطميين - أسماء أئمة المستورين كما وردت فى كتاب أرسله المهدى عبد الله إلى ناحية اليمن » ، تقديم حسين فيض الله الهمدانى ، القاهرة - الجامعة الأمريكية ١٩٥٨.

ابن قاضى شُهْبَة (بدر الدين أبو الفضل محمد بن أبى بكر بن أحمد الأسَدى الدمشقى الشافعى) المتوفى سنة ٨٧٤هـ/١٤٧٠م.

« الكواكب الدُّرِّيَّة فى السِّيرة النُّوريَّة » ، تحقيق محمود زايد ، بيروت - دار الكتاب الجديد ١٩٧١م.

القاضى عبد الجبّار (أبو الحسن عبد الجبّار بن أحمد الهَمَذانى) المتوفى سنة ٤١٥هـ/١٠٢٥م.

« تثبيت دلائل النبوة » ، ١- ٢، تحقيق عبد الكريم العثمان ، بيروت ١٩٧٠.

القاضى النُّعمان بن محمد بن حَيّون المتوفى سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م.

« دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام عن أهل بيت رسول الله عليه وعليهم أفضل السلام »، ١-٢، تحقيق آصف بن على بن أصغر فيضى، القاهرة - دار المعارف ١٩٦٥.

« رسالة افتتاح الدَّعْوَة، (رسالة فى ظهور الدعوة العبيدية الفاطمية)»، تحقيق وداد القاضى، بيروت - دار الثقافة ١٩٧٠.

« المجالس والمسايرات »، تحقيق الحبيب الفقى، إبراهيم شبّوح، محمد اليعلاوى، تونس - الجامعة التونسية ١٩٧٨.

ابن القَطّان (أبو محمد الحسن بن على بن محمد بن عبد الملك الكُتامى) منتصف القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى.

« نَظْم الجُمان لترتيب ما سَلَف من أخبار الزمان »، درسه وقدّم له وحققه محمود على مكى، بيروت - دار الغرب الإسلامى ١٩٩٠.

القِفْطى (جمال الدين أبو الحسن على بن يوسُف) المتوفى سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٧م.

« إنباه الرواة على أنباه النحاة »، ١-٤، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة - دار الكتب المصرية ١٩٥٠-١٩٧٤.

ابن القَلانِسى (أبو يعلى حمزة بن أسد التميمى) المتوفى سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م.

« ذيل تاريخ دمشق »، تحقيق آمدروز، بيروت ١٩٠٨.

القَلْقَشَنْدى (شهاب الدين أبو العبّاس أحمد بن على) المتوفى سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م.

« صُبْح الأعشى فى صناعة الإنشا »، ١-١٤، طبعة دار الكتب المصرية - القاهرة ١٩١٢-١٩٣٨.

القُمّى (أبو القاسم سعد بن عبد الله الأشعرى) المتوفى سنة ٣٠٠هـ/٩١٣م.

« المقالات والفِرَق »، تحقيق محمد مشكور، طهران ١٩٦٣.

الكِنْدى (أبو عمر محمد بن يوسف) المتوفى سنة ٣٥٠هـ/٩٦١م.

« كتاب الولاة وكتاب القضاة »، نشره رفن جست، سلسلة جب التذكارية - بيروت ١٩٠٨.

المالكى (أبو بكر عبد الله بن أبى عبد الله محمد بن عبد الله) المتوفى سنة ٤٣٨هـ/١٠٤٧م .

« رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وإفريقية » ، ١ - ٣، تحقيق بشير البكوش ومراجعة محمد العروسى المطوى ، بيروت - دار الغرب الإسلامى ١٩٨٣.

ابن المأمون (الأمير جمال الدين أبو على موسى) المتوفى سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م .

« أخبار مصر - نصوص من » ، حقَّقها وكتب مقدمتها أيمن فؤاد سيّد ، القاهرة - المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ١٩٨٣.

الماوَرْدى (أبو الحسن على بن محمد بن حبيب) المتوفى سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م .

« الأحكام السُّلْطانية » ، عنى بتصحيحه السيد محمد بدر الدين النعسانى الحلبى ، القاهرة ١٩٠٩.

أبو المحاسن (جمال الدين يوسف بن تغرى بردى) المتوفى سنة ٨٧٤هـ/١٤٧٠م .

« النجـوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » ، ١ - ١٦، نشرة دار الكتب المصرية - القاهرة ١٩٢٩ - ١٩٧٢.

محمد بن محمد اليمانى ، عاش فى أواسط القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى .

« سيرة الحاجب جعفر بن على وخروج المهدى صلوات الله عليه وآله الطاهرين من سَلَمْية إلى سِجِلْماسة وخروجه منها إلى رَقّادة » . تحقيق و . إيفانوف ، مجلة كلية الآداب - الجامعة المصرية ٤ (١٩٣٦) ١٠٧ - ١٣٣.

المَخْزومى (القاضى السعيد ثقة الثقات ذو الرياستين أبو الحسين على بن أبى عمرو عثمان بن يوسف) المتوفى سنة ٥٨٥/ ١١٨٩.

« المِنْهاج فى علم خراج مصر » ، مخطوطة المتحف البريطانى رقم Add. 23 483، ونشره كلود كاهن ، القاهرة - المعهد العلمى الفرنسى للآثار ١٩٨٦ (منتخبات) وانظر .Cahen, Cl.

المُسَبِّحى (الأمير المختار عِزّ الملك محمد بن عبيد الله بْن أحمد) المتوفى سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م .

« أخبار مصر » ، الجزء الأربعون ، حققه أيمن فؤاد سيّد وتيارى بيانكى ، القاهرة - المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ١٩٧٨.

« نصوص ضـائعة من أخبار مصـر » ، اعتنى بجـمعها أيمن فؤاد سيّد *An. Isl.* XVII (1981), pp. 1-54.

المَسْعودى (أبو الحسن على بن الحسين) المتوفى سنة ٣٤٦هـ/٩٥٦م .

« مروج الذهب ومعادن الجوهر »، ١-٧، طبعة بربيه دى منار وبافيه دى كرتاى، عنى بتحقيقها وتصحيحها شارل بلّا، بيروت - الجامعة اللبنانية ١٩٧٠- ١٩٨٠.

مُصْعَب الزُّبيرى (أبو عبد الله المُصْعَب بن عبد الله) المتوفى سنة ٢٣٦هـ/٨٥٠م.

« نَسَب قُرَيْش »، عنى بنشره إ. ليفى بروفنسال، القاهرة - دار المعارف ١٩٧٦.

المقّدسى (محمد بن أحمد البشّارى) المتوفى بعد سنة ٣٧٧هـ/٩٨٧م.

« أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم »، نشر دى خويه، ليدن - بريل ١٩٠٦.

المقّريزى (تقى الدين أحمد بن على) المتوفى سنة ٨٤٥هـ/١٤٤١م.

« اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا »، ١-٣، الأول تحقيق جمال الدين الشّيال، الثانى والثالث تحقيق محمد حلمى محمد أحمد، القاهرة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٦٧- ١٩٧٣.

« إغاثة الأمة بكَشْف الغُمّة »، تحقيق محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيّال، القاهرة ١٩٥٧.

« الخِطَط » = « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار »، ١-٢، بولاق ١٢٧٠هـ.

« السُّلُوك لمعرفة دُوَل الملوك »، ١-٤، تحقيق محمد مصطفى زيادة وسعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة - لجنة التأليف والترجمة والنشر ودار الكتب المصرية ١٩٣٤- ١٩٧٢.

« مُسَوَّدة كتاب المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار »، حققها وكتب مقدمتها ووضع فهارسها أيمن فؤاد سيد، لندن - مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامى ١٩٩٥.

« المُقَفَّى الكبير »، ١-٨، تحقيق محمد اليعلاوى، بيروت - دار الغرب الإسلامى ١٩٩١.

« النقود الإسلامية »، نشرة القاهرة ١٩١٤.

أبو المكَارِم (المؤتمن أبو المكارم سعد الله بن جرجس بن مسعود) عاش فى القرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى.

« تاريخ الكنائس والأديرة »، ١-٢، إعداد وتعليق الراهب صمويل السريانى، القاهرة ١٩٨٤، والجزء الثانى بتحقيق B. T. A. Evetts لندن ١٨٩٥. عندما نشر Evetts الجزء الثانى، اعتمادًا على نسخة باريس، نسب هذا الكتاب إلى أبى صالح الأرمنى. ولكن نسخة خطية مؤرخة فى سنة ١١٩١م، كانت فى ملك أحد أقباط طنطا، أُطْلَع عليها على مبارك الذى استفاد منها كثيرًا فى الجزء السادس من خِطَطِه وهو يتكلّم عن كنائس

القاهرة، تثبت أن مؤلّف الكتاب هو المؤتمن أبو المكارم سعد الله Iscarus, T., «Un nouveau manuscrit sur les églises et monastères de l'Egypte au XII⁰ siècle» dans *Congrès International de Géograhie*, Avril 1925, Le Caire 1926, V. pp. 207-208.

وقد نشر الراهب صمويل الكتاب اعتمادًا على صورة لهذه المخطوطة التى أُخْرِجت للأسف خارج مصر. وهذه النشرة، التى كتبها ناشرها بخط يده، لا تتناسب مع قيمة الكتاب وأهميته وفى حاجة إلى إعادة نشر بمنهج علمى.

ابن ممّاتى (أبو المكارم الأسعد بن مُهَذّب الخطير أبو سعيد بن مينا) المتوفى سنة ٦٠٦هـ/١٢٠٩م.

« قوانين الدواوين »، حقّقه عزيز سوريال عطية، القاهرة - الجمعية الملكية الزراعية ١٩٤٣.

المُنْذِرى (زكى الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوى) المتوفى سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م.

« التكملة لوفيات النَّقَلَة »، ١- ٤، حقّقه وعَلّق عليه بشار عوّاد معروف، بيروت - مؤسسة الرسالة ١٩٨١.

المهدى عبد الله = فى نسب الخلفاء الفاطميين.

مؤلّف مجهول.

« أخبار الدولة المصرية » نشره كلود كاهن Cahen, Cl., «Un récit inédit du vizirat de Dirghâm», *An. Isl.* XIII (1969), pp. 27-46.

« الاستبصار فى عجائب الأمصار »، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، جامعة الإسكندرية ١٩٥٨.

« العيون والحدائق فى أخبار الحقائق »، الجزء الرابع/١- ٢، تحقيق عمر السعيدى، دمشق - المعهد العلمى الفرنسى للدراسات العربية ١٩٧٤.

المُؤَيّد فى الدين هبة الله بن موسى الشّيرازى المتوفى سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م.

« سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة - ترجمة حياته بقلمه »، تقديم وتحقيق محمد كامل حسين، القاهرة - دار الكاتب المصرى ١٩٤٩.

ابن مُيَسّر (تاج الدين محمد بن على بن يوسف بن جَلَب راغب) المتوفى سنة ٦٧٧هـ/١٢٧٨م.

« أخبار مصر - المنتقى من »، حقّقه وكتب مقدمته وحواشيه أيمن فؤاد سيّد، القاهرة - المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ١٩٨١.

النابُلُسى (علاء الدين أبو عمرو عثمان بن إبراهيم) المتوفى بعد سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م.

« تجريد سيف الهمة لاستخراج ما فى ذِمَّة أهل الذِّمَّة »، نشره كلود كاهن Cahen, Cl.,

. «Histoires coptes d'un Cadi médiéval», *BIFAO* LIX (1960), pp. 133-150

« لُمَع القوانين المُضِيَّة » ، نشره كلود كاهن ، *BEO* XVI (1958-60) .

ناصر خسرو ، قام برحلته بين سنتى ٤٣٧/١٠٤٥-٤٤٤/١٠٥٢.

« سَفَرْنامَة » رحلة ناصر خسرو إلى لبنان وفلسطين ومصر والجزيرة العربية فى القرن الخامس الهجرى ، نقلها إلى العربية يحيى الخشّاب ، بيروت - دار الكتاب الجديد ١٩٧٠.

ابن النَّديم (محمد بن إسحاق) المتوفى نحو سنة ٤١٢هـ/١٠٢١م.

« الفِهْرِست » نشره رضا تجدُّد ، طهران ١٩٧١.

النَّوْبَخْتى (أبو محمد الحسن بن موسى بن الحسن) المتوفى سنة ٣١٠هـ/٩٢٢م.

« فِرَق الشِّيعَة » ، تحقيق هيلموت ريتر ، استامبول ١٩٣١.

النُّويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) المتوفى سنة ٧٣٣هـ/١٣٣٣م.

« نهاية الأرَب فى فنون الأدب » ، الجزء الثامن ، القاهرة - دار الكتب المصرية ١٩٣١؛ الأجزاء ٢٣ و٢٨ و٣٠ تحقيق حسين نصار ومحمد محمد أمين ومحمد عبد الهادى شعيرة ، القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠- ١٩٩٢.

النَّيسابورى (أحمد بن إبراهيم) كان يعيش فى أواخر القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى.

« استتار الإمام عليه السلام وتفرّق الدعاة فى الجزائر لطلبه » ، نشره و. إيفانوف فى مقاله « مذكرات فى حركة المهدى الفاطمى » ، مجلة كلية الآداب - الجامعة المصرية ٤ (١٩٣٦) ٩٣- ١٠٧.

« الهداية الآمرية فى إبطال الدعوى النِّزارية » ، نشرها آصف على أصْغَر فيضى فى كلكتا سنة ١٩٣٨، وجمال الدين الشيّال فى « مجموعة الوثائق الفاطمية » ، القاهرة - ١٩٥٨، ٢٠٥- ٢٣٠.

ابن واصِل (جمال الدين محمد بن سالم الحَمَوى) المتوفى سنة ٦٩٧هـ/١٢١٧م.

« مُفَرِّج الكروب فى أخبار بنى أيوب » ، ١- ٣، تحقيق جمال الدين الشيّال ، القاهرة ١٩٥٣- ١٩٦٠، ٤- ٥، تحقيق حسنين محمد ربيع ، القاهرة ١٩٧٢- ١٩٧٧.

ياقوت الحموى (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله) المتوفى سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م.

« معجم الأدباء » ، ١- ٢٠، نشره أحمد فريد رفاعى ، القاهرة - دار المأمون ١٩٣٦- ١٩٣٨.

« معجم البلدان » ، ١- ٦، نشره وستنفلد ، ليبتسج ١٨٦٦- ١٨٧٠.

يحيى بن سعيد الأنطاكى المتوفى سنة ٤٥٨هـ/١٠٦٦م .

« تاريخ » ، نشره لويس شيخو مع كتاب « التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » لابن البطريق ، بيروت ١٩٠٨، واستخدمت فى بعض المواضع نشرة كراتشكوفسكى وفازيلييف *Patr. Or.* XVIII (1924), pp. 699-833; XXIII (1932), pp. 347-504 .

المراجــع العَرَبِيّة والمُعَرَّبَة

آدم متز : « الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى » أو « عصر النهضة فى الإسلام » ، نقله إلى العربية محمد عبد الهادى أبو ريدة ، ١- ٢، تونس - الدار التونسية للنشر ١٩٨٦.

إبراهيم شَبّوح : « حول منارة قصر الرباط بالمُنَسْتير وأصولها المعمارية » ، مجلة إفريقية ٣-٤ (١٩٧١) ٥- ١٥.

ــــــــــ : « سجل قديم لمكتبة جامع القيروان » ، مجلة معهد المخطوطات العربية ٢ (١٩٥٦) ، ٣٣٩- ٣٧٢.

إبراهيم طَرْخان : « النُّظُم الإقطاعية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى » ، القاهرة - دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ١٩٦٨.

أحمد السيد الصاوى ، مجاعات مصر الفاطمية - أسباب ونتائج ، بيروت - دار التضامن ١٩٨٨.

أحمد فكرى : « خصائص عمارة القاهرة فى العصر الأيوبى » ، الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ١٦١- ١٩٢.

ـــ : « مساجد القاهرة ومدارسها » ، الجزء الأول - العصر الفاطمى ، القاهرة - دار المعارف ١٩٦٥.

أيمن فؤاد سيّد : « تاريخ المذاهب الدينية فى بلاد اليمن حتى نهاية القرن السادس الهجرى » ، القاهرة - الدار المصرية اللبنانية ١٩٨٨.

ـــ : « التطور العمرانى لمدينة القاهرة منذ إنشائها وحتى الآن » ، القاهرة - الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٧.

ـــ : « تَحَوُّل القاهرة إلى مركز اقتصادى فى أواخر العصر الفاطمى وفى العصر الأيوبى » ، فى كتاب الخان الخليلى وما حوله ، مركز تجارى وحرفى للقاهرة من القرن الثالث عشر إلى القرن العشرين ، القاهرة - المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ١٩٩٩، ١٥٧- ١٦٠.

ـــــ : « تنظيم العاصمة المصرية وإدارتها فى زمن الفاطميين » ، حوليات إسلامية ٢٤ (١٩٨٨) ، ١- ١٣.

ـــــ : « خزانة كتب الفاطميين هل بقى منها شيء ؟ » ، مجلة معهد المخطوطات العربية ١/٤٢ (١٩٩٨) ، ٧- ٣٢.

ـــــ : « دراسة نقدية لمصادر تاريخ الفاطميين فى مصر » ، دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى محمود محمد شاكر ، القاهرة ١٩٨٢، ١٢٩- ١٧٩.

ـــــ : « الكتاب العربى المخطوط وعلم المخطوطات » ، ١- ٢، القاهرة - الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٧.

ـــــ : « المدارس فى مصر قبل العصر الأيوبى » فى كتاب تاريخ المدارس فى مصر الإسلامية ، سلسلة تاريخ المصريين ٥١، القاهرة ١٩٩٢، ٨٧- ١٣٦.

ـــــ : « مصادر تاريخ اليمن فى العصر الإسلامى » ، القاهرة - المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ١٩٧٤.

وانظر : ابن الصَّيْرَفى ، ابن الطُّوَيْر ، ابن عبد الظاهر ، ابن المأمون ، المُسَبِّحى ، المقريزى ، ابن مُيَسَّر ، Fu'âd Sayyid, A. .

البَرّاوى = راشد .

جمال محمد محرز : « الخزف الفاطمى ذو البريق المعدنى فى مجموعة الدكتور على إبراهيم باشا » ، مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة ٧ (١٩٤٤) ١٤٣- ١٦٧.

حسن إبراهيم حسن : « تاريخ الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب » ، القاهرة - مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨.

ـــــ : « الفاطميون فى مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص » ، القاهرة - المطبعة الأميرية ١٩٣٢.

حسن الباشا : « التصوير الإسلامى فى العصور الوسطى » ، القاهرة - دار النهضة العربية ١٩٥٩.

ـــــ : « الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية » ، ١- ٣، القاهرة - دار النهضة العربية ١٩٦٥- ١٩٦٦.

حسن عبد الوهاب : « تاريخ المساجد الأثرية » ، ١- ٢، القاهرة دار الكتب المصرية ١٩٤٦.

حسنين محمد ربيع : « حجة تمليك ووقف » ، المجلة التاريخية المصرية ١٢ (١٩٦٤-٦٥) ، ١٩١- ٢٠٢.

حسنين محمد ربيع: «النُّظُم المالية فى مصر زمن الأيوبيين»، القاهرة - مطبعة جامعة القاهرة ١٩٦٤.

ـــــ: «وثائق الجنيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادى لموانئ الحجاز واليمن فى العصور الوسطى»، مصادر تاريخ الجزيرة العربية، الرياض ١٩٧٩، ٢: ١٣١- ١٤٤.

حسين مؤنس: «المسلمون فى حوض البحر المتوسط إلى الحروب الصليبية»، المجلة التاريخية المصرية ٤ (مايو ١٩٥١).

درويش النُّخيلى: «السفن الإسلامية على حروف المعجم»، جامعة الإسكندرية ١٩٧٤.

الدورى، عبد العزيز: «تاريخ العراق الاقتصادى فى القرن الرابع الهجرى»، بيروت - دار المشرق ١٩٧٤.

راشد البَرّاوى: «حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين»، القاهرة - مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨.

زكى محمد حسن: «الفن الإسلامى فى مصر»، القاهرة - دار الآثار العربية ١٩٣٥.

ـــــ: «كنوز الفاطميين»، القاهرة - دار الآثار العربية ١٩٣٧.

سعاد ماهر محمد: «النسيج الإسلامّى»، القاهرة ١٩٧٧.

سعيد عبد الفتاح عاشور: «شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية»، المجلة التاريخية المصرية ١٦ (١٩٦٩) ١٥- ٦٦.

ـــــ: «البنية البشرية لجيوش صلاح الدين»، المجلة العربية للعلوم الإنسانية ١٠/٣٧ (١٩٩٠) ٩- ٣٦.

سلام شافعى محمود سلام: «أهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى الأول»، سلسلة تاريخ المصريين ٧٥، القاهرة - الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٥.

ـــــ: «أهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى الثانى والعصر الأيوبى»، القاهرة، دار المعارف ١٩٨٢.

السيد عبد العزيز سالم، أحمد مختار العبادى: «تاريخ البحرية الإسلامية فى مصر والشام»، ١- ٢، بيروت - جامعة بيروت العربية ١٩٧٢.

سيدة إسماعيل كاشف: «مصر فى عصر الإخشيديين»، القاهرة - دار النهضة العربية ١٩٧٠.

ـــــ: «مصر فى فجر الإسلام»، بيروت - دار الرائد العربى ١٩٨٦.

الشيّال، جمال الدين: «أوّل أستاذ لأول مدرسة فى الإسكندرية الإسلامية»، مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية ١١ (١٩٥٧) ٣- ٢٩.

ـــــ: «مجموعة الوثائق الفاطمية»، القاهرة - الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٥٨.

صابر محمد دياب: «سياسة الدول الإسلامية فى حوض البحر المتوسط من أوائل القرن الثانى الهجرى حتى نهاية العصر الفاطمى»، القاهرة - عالم الكتب ١٩٧٣.

صلاح الدين البحيرى: «ديوان الجيش فى الدولة الأيوبية»، الموسم الثقافى - الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة ١٩٨٧، ١٦٩- ١٩٠.

صلاح الدين المُنَجِّد: «ولاة دمشق فى العهد السلجوقى» - نصوص مستخرجة من تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر، دمشق ١٩٤٩.

طه السيد أبو سديرة: «الحِرَف والصناعات فى مصر الإسلامية منذ الفتح العربى حتى نهاية العصر الفاطمى»، الألف كتاب الثانى ٩٥، القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩١.

عبد المنعم سلطان: «المجتمع المصرى فى العصر الفاطمى - دراسة تاريخية وثائقية»، القاهرة - دار المعارف ١٩٨٥.

عثمان الكَعّاك: «مَسْلَك القاهرة»، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، القاهرة ١٩٧١، ٧٧٧- ٨٣٢.

على مبارك: «الخطط التوفيقية الجديدة»، ١- ٨، القاهرة - دار الكتب المصرية ١٩٦٩- ١٩٩٠.

عمر السعيدى: «انتقال الفاطميين إلى مصر»، ملتقى القاضى النعمان للدراسات الفاطمية - الدورة الثانية - تونس ١٩٨١، ١٣٩- ١٤٩.

فريد شافعى: «مميزات الأخشاب المزخرفة فى الطرازين العبّاسى والفاطمى فى مصر»، مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٦ (مايو ١٩٥٤) ٥٧- ٩٤.

ڤييت، جاستون: «دليل موجز لمعروضات دار الآثار العربية»، ترجمه بتصرف زكى محمد حسن، القاهرة ١٩٣٩.

قاسم عبده قاسم: «ماهية الحروب الصليبية»، الكويت - عالم المعرفة (١٤٩) ١٩٩٠.

كوهن، مارك: «المجتمع اليهودى فى مصر الإسلامية فى العصور الوسطى»، جامعة تل أبيب ١٩٨٧م.

لويس، برنارد: «النقابات الإسلامية»، ترجمة عبد العزيز الدورى، مجلة الرسالة ٨ (١٩٤٠) ٦٩٦-٦٩٨، ٧٣٥-٧٣٧، ٧٨٦-٧٨٨، ٩٧٣-٩٧٥.

ماجد، عبد المنعم: «أصل حفلات الفاطميين فى مصر»، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد ٢ (١٩٥٤)، ٢٥٣-٢٥٧.

ـــــ : «ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر»، القاهرة - دار الفكر العربى ١٩٩٤.

ـــــ : «نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر»، ١-٢، القاهرة - مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٣-١٩٥٥.

محسن محمد حسين: «الجيش الأيوبى فى عهد صلاح الدين»، بيروت - مؤسسة الرسالة ١٩٨٦.

محمد جمال الدين سرور: «الدولة الفاطمية فى مصر - سياستها الداخلية ومظاهر الحضارة فى عهدها»، القاهرة - دار الفكر العربى ١٩٧٠.

محمد أبو الفرج العُشّ: «مصر - القاهرة على النقود العربية الإسلامية»، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، القاهرة - دار الكتب المصرية ١٩٧١، ٩٠٥-٩٩٥.

محمد رمزى: «القاموس الجغرافى للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥»، ١-٥، القاهرة - دار الكتب المصرية ١٩٥٣- ١٩٦٨.

محمد عبد العزيز مرزوق: «الزخرفة المنسوجة فى الأقمشة الفاطمية»، القاهرة - دار الآثار العربية ١٩٤٢.

محمد كامل حسين: «طائفة الإسماعيلية، تاريخها، نظمها، عقائدها»، القاهرة - مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩.

ـــــ : «فى أدب مصر الفاطمية»، القاهرة - دار الفكر العربى ١٩٧٠.

محمد محمد أمين: «الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر ٦٤٨- ٩٢٣/١٢٥٠-١٥١٧- دراسة تاريخية وثائقية»، القاهرة - دار النهضة العربية ١٩٨٠.

محمد محمود إدريس: «تاريخ الحضارة الإسلامية - العصر الفاطمى»، القاهرة - مكتبة نهضة الشرق ١٩٨٦.

المناوى، محمد حمدى: «الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى»، القاهرة - دار المعارف ١٩٧٠.

نزار الصَّيّاد : « المدن والعمران فى صدر الإسلام »، المنامة - بيت القرآن ١٩٩٦.

وليم الصورى : « الحروب الصليبية »، ١-٤، ترجمة وتعليق حسن حبشى، القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب (تاريخ المصريين) ١٩٩١- ١٩٩٥.

يحيى الخشّاب : « وصف مصر من كتاب السفرنامة لناصر خسرو »، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، القاهرة - دار الكتب المصرية ١٩٧١، ١٣٠٧-١٣١٢.

المراجع الأجنبية

Allouche, A., «The Establishment of Four Chief Judgeships in Fatimid Egypt», *JAOS* 105 (1985), pp. 317-320.

Ashtor, E., *A Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages,* London, Collins 1976.

Bacharach, J. L., «African Military Slaves in the Medieval Middle East, The Cases of Iraq (869-955) and Egypt (869-1171)», *IJMES* 13 (1981), pp. 471-95.

Behrens Abouseif, D., «The Façade of the Aqmar Mosque in the Context of Fatimid Ceremonial», *Muqarnas* 9 (1993), pp. 29-38.

Beshir, B.I., «Fatimid Military Organization», *Der Islam* LV (1978), pp. 37-56.

————, «New Light on Nubian Fatimid Relations», *Arabica* XXII (1975), pp. 15-24.

Bianquis, Th., *Damas et la Syrie sous la domination fatimide (359-468/969-1076),* I-II Damas IFD 1986 - 89.

————, «Al-Hâkim bi amr Allâh ou la folie de l'unité chez un souverain fatimide», *les Africains* XI (1978), pp. 107-133.

————, «La prise du pouvoir par les Fatimides en Egypte», *An. Isl.* XI (1972), pp. 49-108.

————, «Une crise frumentaire dans l'Egypte fatimide», *JESHO XXIII* (1980), pp. 67-101 .

————, «Le fonctionnement des dîwân financiers d'après al-Musabbihi», *An. Isl.* 26 (1992), pp. 47-61 .

Blachère , R., «La fondation du Caire et la renaissance de l'humanisme Arabo-Islamique au IV° siècle», *CIHC*, pp. 95-96 .

Blake, H., Hutt, A. and Witehouse, D., «Ajdâbiyah and the Earlest Fâtimid Architecture», *Lybya Antique* VIII (1971), pp. 105-120.

Bloom, J.M., «The Blue Koran : an early fatimid kufic manuscript from the Maghrib», dans *Les Manuscrits du Moyen Orient*, Paris 1989, pp. 95-99.

Brett, M., «The Battles of Ramla (1099-1105)», in *Egypt and Syria in the Fatimid Ayyubid and Mamluk Eras*, Leuven 1995, pp. 45-59.

———, «The Origins of the Mamluk Military System in the Fatimid Period», in *Egypt and Syria in the Fatimid Ayyubid and Mamluk Eras*, Leuven 1995, pp. 39-52.

———, «The Way of the Peasant», *BSOAS* 47 (1984), pp. 52-55.

Brockelmann, C., *GAL = Geschichte der arabischen Litteratur* Bd I-II Leiden 1943-49; Suppl. I-III, Leiden 1937-42 .

Cahen, Cl., «L'administration financière de l'armée fatimide d'après al-Makhzûmî», *JESHO* XV (1973), pp. 163-182.

———, «Le commerce d'Amalfie dans le Proche-Orient musulman avant et après la Croisade», *Comptes rendus d'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres* (1977) pp. 292-294 .

———, «L'évolution de *l'iqtâ*ᶜ du IXᵉ au XIII siécle, contribution à une histoire comparée des sociétés médiévales», *Annales ESC* VIII (1953), pp. 25-52.

———, «Les marchands étrangers au Caire sous les Fatimides et les Ayyoubides», *CIHC*, pp. 97-101 .

———, *Makhzûmiyyât-Etudes sur l'histoire économique et financière de l'Egypte médiéval*, Leiden-Brill 1977 .

———, *Orient et Occident au temps des Croisades*, Paris- Aubier-Montaigne 1986.

———, «Quelques chroniques anciennes relatives aux derniers Fatimides», *BIFAO* XXXVII (1937-38), pp. 1-27.

———, «Un récit inédit du vizirat du Dirghâm», *An. Isl.* VIII (1969), pp. 27-46 .

————, «Un texte peu connu relatif au commerce oriental d'Amelfie au X° siècle», *Archivio storico per le provencio napolitane* (1953-54), pp. 3-8 .

————, «Un traité d'armurerie composé pour Saladin», *BEO* XII (1947-48), pp. 103-163.

————, «Y'a-t-il eu des corporations dans le monde musulman médiéval», in *The Islamic City*, ed, S.M. Stern & A. Hourani, Oxford 1970, pp. 51-63 .

Canard, M., «Le cérémonial fatimide et le cérémonial byzantin, Essai de comporaison», *Byzantion* XXI (1951), pp. 355-420.

————, «L'imperialisme des Fatimides et leur propogande», *AIEO* VI (1947), pp. 156-193 .

————, «Notes sur les Arméniens en Egypte à l'époque fatimite», *AIEO* XIII (1955), pp. 143-157 .

————, «La procession du nouvel an chez les Fatimides», *AIEO* X (1952), pp. 364-395.

————, «Un vizir chrétin à l'époque fatimide : l'Arménien Bahram», *AIEO* XII (1954), pp. 84-157 .

————, «Une lettre du calife al-Hâfiz à Roger II» dans *Atti del convegno Internazionale di Studi Ruggeriani*, Palerme 1955, pp. 125-146 .

Constantin VII Porphyrogénéte, *Le Livre de Cérémonies*, I-II, texte établi et traduit par Albert Vogt, Paris 1935-39.

Contadini, A., *Fatimid Art at the Victoria and Albert Museum*. London- V & A Publications 1998.

Cooper, R.S., «The Assessment and Collection of Kharaj Tax in Medieval Egypt», *JAOS* 96 (1976), pp. 365-382 .

Creswell, K.A.C., *MAE : The Muslim Architecture of Egypt*, I. Ikhshids and Fatimids, Oxford 1952 .

Dachraoui, F., *Le califat fatimide au Maghreb 296-362/909-973. Histoire politique et institutions*, Tunis STD 1981 .

————, «Le commencement de la prédication ismâ^cilienne en Ifriqiya», *SI* 20 (1964), pp. 89-102.

Dadoyan, Seta B., *The Fatimid Armenians: Cultural and Polititcal Interaction in the Near East,* Leiden - Brill 1997.

Daftary, F., «The Earliest Ismâᶜilis», *Arabica* XXXVIII (1991), pp. 214-245.

———, *The Ismâᶜilis, Their history and doctrines,* Cambridge University Press 1995.

———, «A Major Schism in the Early Ismâᶜili Movement», *SI* 77 (1993), pp. 123-139.

———, *Mediaeval Ismâᶜili History and Thought,* (ed.by), Cambridge University Press 1996.

———, «Hasan Sabbâh and the Origins of the Nizâri Ismâᶜili movement», in *Mediaeval Ismâᶜili History and Though* (ed.by F. Daftary), pp. 181-204.

Daghfous, R., «Aspects de la situation économique de l'Egypte au milieu du V° siècle/ milieu du XI° siècle : Contribution à l'étude des conditions de l'immigration des tribus arabes (Hilâl et Sulaym) en Ifriqiya», *CT* XXV (1977), pp. 23-50 .

Den Heijer, J., «Coptic Historiography in the Fatimid, Ayyubid and Early Mamluk Periods», *Medieval Encounters.* 2/1 (1996), pp. 67-98.

———, *Mawhûb Ibn Mansûr Ibn Mufarrig et l'Historiographie Copto-Arabe,* Lovanii 1989.

De Smet, D., «Comment déterminer le début et la fin du jeûne de Ramadan? Un point de discorde entre sunnites et ismaéliens en Egypte fatimide», in *Egypt and Syria in the Fatimid Ayyubid and Mamluk Eras,* pp. 71-81.

———, «Les interdictions alimentaires de calife fatimide al-Hâkim: marques de folie ou annonce d'un régne messianique?» in *Egypt and Syria in the Fatimid, Ayyubid and Mamluk Eras,* pp. 53-70.

Dozy, R., *Supplément aux Dictionnaires Arabes* I-II, Paris 1927 .

Eche, Y., *Les bibliothèques publiques et semi-publiques en Mésopotamie, en Syrie et en Egypte au Moyen Age,* Damas IFD 1967 .

Egypt and Syria in the Fatimid, Ayyubid and Mamluk Eras, voir Vermeulen, U., editor.

Ehrenkreutz, A.S. & Heck, G.W., «Additional Evidence of the Fatimid Use of Dinars for Propaganda Purposes», in Sharon, M. (ed.) *Studies in Islamic History and Civilization in Honour of Professor David Ayalon,* Brill-Leiden 1986, pp. 145-151.

Ehrenkreutz, A.S., «Arabic dinars struck by the Crusaders», *JESHO* V (1964), pp. 167-182 .

———, «Contributions of the Knowledge of the fiscal administration of Egypt in the Middle Ages», *BSOAS* XVI (1954), pp. 502-514 .

———, «The Fiscal Administration of Egypt in the Middle Ages», *BSOAS* XVI (1954), pp.

———, *Saladin,* N.Y. Albany 1972 .

———, «Saladin coup d'état in Egypt», in *Medieval and Middle Eastern Studies in honour of Aziz Suryal Atiya,* edited by Sami A. Hanna, Leiden 1972, pp. 144-157.

Eisenstein, H., «Die Wezire Ägyptens unter al-Mustansir A.H. 452-466», *WZKM* 77 (1987), pp. 37-50.

Elisséeff, N., *Nûr al-Din, un grand prince musulman de Syrie au temps des Croisades,* I-III, Damas IFD 1967 .

Espéronnier, M., «Les fêtes civiles et les cérémonies d'origine antique sous les Fatimides d'Egypte», *Der Islam* 65 (1988), pp. 46-59.

Ettinghausen, R., «Painting in the Fatimid Period : A Reconstruction», *Ars Islamica* IX (1942), pp. 112-124 .

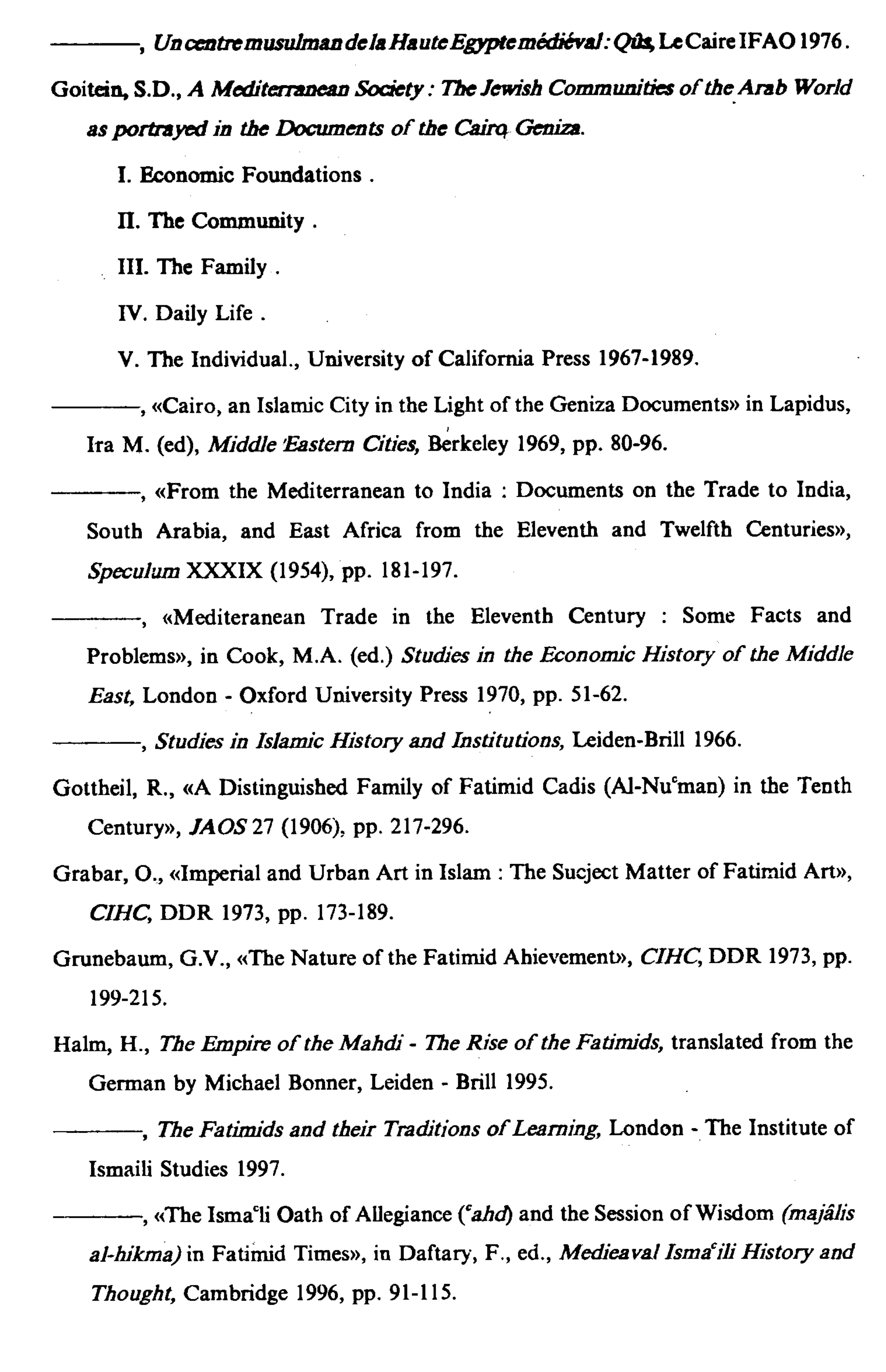
Fischel, W.J. *Jews in the Economic and Political Life of Mediaeval Islam,* N.Y. 1969.

Fu'âd Sayyid, A., *La capitale de l'Egypte jusqu'à l'époque fatimide (al-Qâhira et al-Fustât) - Essai de reconstitution topographique,* Beirut, BTS 48, 1998.

———, «L'évolution de la composition du genre des Khitat en Egypte musulmane», *An. Isl.* XXXIII (1999), pp. 1-11.

———, «Lumières nouvelles sur quelques sources de l'histoire fatimide en Egypte», *An. Isl.* XIII (1977), pp. 1-41.

Garcin, J.-Cl., «Habitat médiéval et histoire urbaine à Fustat et au Caire» dans *Palais et Maisons du Caire* I. Epoque Mamelouke, CNRS Paris 1982, pp. 145-217 .



———, *Un centre musulman de la Haute Egypte médiéval : Qûs*, Le Caire IFAO 1976.

Goitein, S.D., *A Mediterranean Society : The Jewish Communities of the Arab World as portrayed in the Documents of the Cairo Geniza.*

I. Economic Foundations .

II. The Community .

III. The Family .

IV. Daily Life .

V. The Individual., University of California Press 1967-1989.

———, «Cairo, an Islamic City in the Light of the Geniza Documents» in Lapidus, Ira M. (ed), *Middle Eastern Cities,* Berkeley 1969, pp. 80-96.

———, «From the Mediterranean to India : Documents on the Trade to India, South Arabia, and East Africa from the Eleventh and Twelfth Centuries», *Speculum* XXXIX (1954), pp. 181-197.

———, «Mediteranean Trade in the Eleventh Century : Some Facts and Problems», in Cook, M.A. (ed.) *Studies in the Economic History of the Middle East,* London - Oxford University Press 1970, pp. 51-62.

———, *Studies in Islamic History and Institutions,* Leiden-Brill 1966.

Gottheil, R., «A Distinguished Family of Fatimid Cadis (Al-Nuᶜman) in the Tenth Century», *JAOS* 27 (1906), pp. 217-296.

Grabar, O., «Imperial and Urban Art in Islam : The Sucject Matter of Fatimid Art», *CIHC,* DDR 1973, pp. 173-189.

Grunebaum, G.V., «The Nature of the Fatimid Ahievement», *CIHC,* DDR 1973, pp. 199-215.

Halm, H., *The Empire of the Mahdi - The Rise of the Fatimids,* translated from the German by Michael Bonner, Leiden - Brill 1995.

———, *The Fatimids and their Traditions of Learning,* London - The Institute of Ismaili Studies 1997.

———, «The Ismaᶜli Oath of Allegiance (*ᶜahd*) and the Session of Wisdom *(majâlis al-hikma)* in Fatimid Times», in Daftary, F., ed., *Medieaval Ismaᶜili History and Thought,* Cambridge 1996, pp. 91-115.

Hamdani, A., «Byzantine-Fatimid Relations before the Battle of Manzikert», *Byz. St.* 1/2 (1974), pp. 169-179 .

———, «Some Considerітions on the Fatimid Caliphat as a Mediterranean Power, Including an Interpretation of the Fatimid Split with the Qarmatians» in *Atti del Terzo Congresso di Studi Arabi E Islamici,* Ravello-Napoli 1967, pp. 385-396.

Hamdani, A. S de Blois, F., «A Re-examination of al-Mahdi's Letter to the Yemenites on the Genealogy of the Fatimid Caliphs», *JRAS* (1983), pp. 173-207.

Hassan, Z.M. *Les Tulunides, études de l'Egypte musulmane à la fin du IX*[e] siècle 868-905, Paris 1937.

Hawwari (al-), H., «Trois minarets fatimides à la frontière nubienne», *BIE XV,* (1934-35), pp. 141-153.

Idris, H.R., *La Berbérie Orientale sous les Zirides X*[e]-XII[e] siécles, I-II, Paris 1962.

Imad (al-), Leila Sami, *The Fatimid Vizierate 969-1172,* Berlin - Klaus Schwarz 1990.

Khan, G., *Arabic Legal and Administrative Documents in the Cambridge Genizah Collection,* Cambridge University Press, 1993.

———, «A Copy of a Decree from the Archives of the Fatimid Chancery in Egypt», *BSOAS* 49 (1986), pp. 439-458.

Köhler, M.A., «Al-Afdal und Jerusalem - was versprach sich Ägypten vom ersten Kreuzzug», *Saeculum* 37 (1986), pp. 228-239.

Kubiak, W., «The Burning of Misr al-Fustat in 1168. A Reconsideration of Historical Evidence», *Africana Bulletin* XXV (1976), pp. 51-64.

———, *Al-Fustat, Its Foundation and Early Urban Development,* Cairo AUC 1987.

Lapidus, I., «Ayyubid Religious Policy and the Development of the Schools of Law in Cairo», *CIHC,* pp. 283-84.

Leiser, G., «The Madrasa and the Islamization of the Middle East- The Case of Egypt», *JARCE* XII (1985), pp. 29-47.

———, «Notes on the Madrasa in Medieval Islamic Society», *MW* LXXVI (1986), pp. 3-27.

Lindsay, J.E., «Prophetic Parallels in Abu ʿAbd Allah al-Shiʿi's Mission among the Kutâma Berbers, 893-910», *IJMES* 24 (1992), pp. 39-56.

Lev, Y., «Army, Regime and Society in Fatimid Egypt 358-487/968-1094», *IJMES* 19 (1987), pp. 337-366.

———, «The Fatimid Conquest of Egypt-Military, Political and Social Aspects», *Isr. Or. St.* IX (1979), pp. 315-328.

———, «The Fatimids and Egypt 301-358/914-969», *Arabica* XXXV (1988), pp. 186-196.

———, «Fatimid Policy Towards Damascus (358/968-386/966)-Military, Political and Social Aspects», *Jersusalem Studies in Arabic and Islam* III (1981-82), pp. 165-183.

———, «The Fatimid Princess Sitt al-Mulk», *JSS* XXXII (1987), pp. 319-328.

———, «The Fatimid Vizier Yaʿqûb Ibn Killis and the Beginning of the Fatimid Administration in Egypt», *Der Islam* 58 (1981), pp. 237-249.

———, «Regime, Army and Society in Medieval Egypt, 9 TH-12 TH Centuries in Lev, Y. (ed.), *War and Society in the Eastern Mediterranean, 7TH-15TH Centuries,* Leiden-Brill 1997, pp. 115-152.

———, *Saladin in Egypt,* Leiden-Brill 1999.

———, *State and Society in Fatimid Egypt,* Leiden-Brill 1991.

Lewis, B., «An Interpretation of Fatimid History», *CIHC,* DDR 1973, pp. 287-295.

———, «The Fatimid and the Route to India», *Revue de la Faculté des Sciences économiques-Université d'Istanbul* XI (1949-50), pp. 50-54.

Lombarb, M., «L'or musulman du VIIᵉ au XIᵉ siècles», *Annales ESC* II (1947), pp. 143-160.

Miles, G., *Fatimid Coins,* N.Y. 1952.

Pellat, Ch., *Cinq Calandriers Egyptiens,* Le Caire- IFAO 1986.

Poonawala, I.K., *Bibliography of Ismāʿīlī Literature,* Malibu, Calif., 1977.

Quatremère, E., «Mémoires historiques sur la dynastie des khalifes fatimites», *JA* 3ᵉ série II (1936), pp. 97-142.

Rabie, H., *The Financial System of Egypt A.H. 564-641 A.D. 1169-1341,* London 1972.

Ragib, Y., «Un épisode obscure d'histoire fatimide», *SI* XLVIII (1978), pp. 125-132.

Runciman, S., *A History of the Crusades,* I. The First Crusade and the Foundation of the Kingdom of Jerusalem, Cambridge University Press 1951 (Reprinted 1988).

Sanders, P., «Claiming the Past: Ghadir Khumm and the Rise of Hâfizi Historiography in Late Fatimid Egypt», *SI* 75 (1992), pp. 81-104.

————, «From Court Ceremony to Urban Language: Ceremonial in Fatimid Cairo and Fustât» in *The Islamic World from Classical to Modern Times (Essay in Honor of Bernard Lewis*), Princeton NJ; Darwin Press 1989, pp. 311-321.

————, «A New source for the History of Fatimid Ceremonial: The *Rasâ'il al-ʿAmidi», An.Isl.* XXV (1991), pp. 127-131.

————, *Ritual, Politics, and the City in Fatimid Cairo,* State University of New York Press, Albany 1994.

Sayad, H.I., «The Development of the Cairene Qâ'a: Some Considerations», *An. Isl.* XXIII (1987), pp. 31-53.

Schlumberger, G., *Campagnes du Roi Amaury Ier de Jérusalem en Egypte au XIIe* siécle, Paris 1906.

Serjeant, R.B., *Islamic Textiles. Material for a History up to the Mongol Conquest,* Beirut-Librarie du Liban 1972.

Shaban, M. Ab., *Islamic History A.D. 750-1055 (A.H. 132-448). A New Interpretation,* Cambridge 1976.

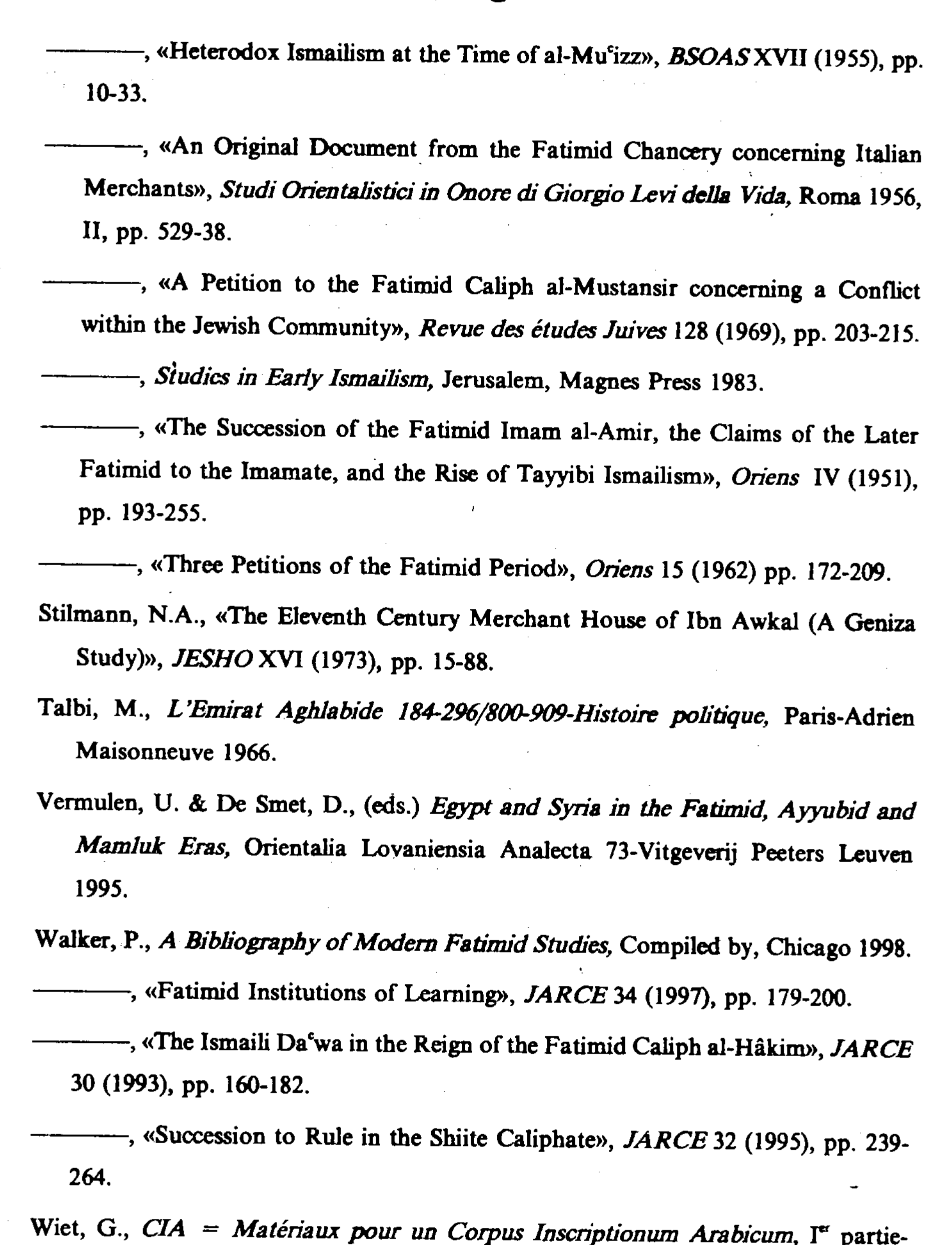
Smoor, P., «The Master of the Century: Fatimid Poets in Cairo» in *Egypt and Syria in the Fatimid, Ayyubid and Mamluk Eras,* pp. 139-163.

Stern, S.M., «Cairo as the Centre of the Ismaʿli Movement», *CIHC,* pp. 437-450.

————, «Epistle of the Fatimid Caliph al-Amir (*al-Hidâya al-Amiriyya*) - Its Date and its Purpose», *JRAS* (1950), pp. 20-31.

————, «A Fatimid Decree of the Year 524/1130», *BSOAS* 23 (1960), pp. 439-455.

————, *Fatimid Decrees-Original Documents from the Fatimid Chancery,* London 1964.



———, «Heterodox Ismailism at the Time of al-Muᶜizz», *BSOAS* XVII (1955), pp. 10-33.

———, «An Original Document from the Fatimid Chancery concerning Italian Merchants», *Studi Orientalistici in Onore di Giorgio Levi della Vida,* Roma 1956, II, pp. 529-38.

———, «A Petition to the Fatimid Caliph al-Mustansir concerning a Conflict within the Jewish Community», *Revue des études Juives* 128 (1969), pp. 203-215.

———, *Studics in Early Ismailism,* Jerusalem, Magnes Press 1983.

———, «The Succession of the Fatimid Imam al-Amir, the Claims of the Later Fatimid to the Imamate, and the Rise of Tayyibi Ismailism», *Oriens* IV (1951), pp. 193-255.

———, «Three Petitions of the Fatimid Period», *Oriens* 15 (1962) pp. 172-209.

Stilmann, N.A., «The Eleventh Century Merchant House of Ibn Awkal (A Geniza Study)», *JESHO* XVI (1973), pp. 15-88.

Talbi, M., *L'Emirat Aghlabide 184-296/800-909-Histoire politique,* Paris-Adrien Maisonneuve 1966.

Vermulen, U. & De Smet, D., (eds.) *Egypt and Syria in the Fatimid, Ayyubid and Mamluk Eras,* Orientalia Lovaniensia Analecta 73-Vitgeverij Peeters Leuven 1995.

Walker, P., *A Bibliography of Modern Fatimid Studies,* Compiled by, Chicago 1998.

———, «Fatimid Institutions of Learning», *JARCE* 34 (1997), pp. 179-200.

———, «The Ismaili Daᶜwa in the Reign of the Fatimid Caliph al-Hâkim», *JARCE* 30 (1993), pp. 160-182.

———, «Succession to Rule in the Shiite Caliphate», *JARCE* 32 (1995), pp. 239-264.

Wiet, G., *CIA = Matériaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicum,* Iᵉʳ partie-Egypte II, Le Caire-IFAO 1929-30.

———, *L'Egypte Arabe* dans «Histoire de la Nation Egyptienne» publié sous la direction de G. Hanotaux t. IV, Paris 1937.

Wiet, G. Combe, E., & Sauvaget, *J., RCEA = Répertoire chronologique d'Epigraphie Arabe* I-XVI, Le Caire - IFAO 1931-64.

Williams, C., «The Cult of ʿAlid Saints in the Fatimid Monuments of Cairo»

Part I : «The Mosque of al-Aqmar», *Muqarnas* I (1983), pp. 37-52.

Part II : «The Mausolea», *Muqarnas* III (1985), pp. 39-69.

الرموز والاختصارات

ABRÉVIATIONS

AIEO	= *Annales de l'Institut des Études Orientales* (Alger).
AION	= *Annali del Istituto Orientale di Napoli* (Naple).
Annales ESC	= *Annales, Economies - Sociétés - Civilisations* (Paris).
An. Isl.	= *Annales Islamologiques* (Le Caire).
BEO	= *Bulletin d'Études Orientales* (Damas).
BIE	= *Bulletin de l'Institut d'Egypte* (Le Caire).
BIFAO	= *Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale* (Le Caire).
BSAC	= *Bulletin de la Société d'Archéologie Copte* (Le Caire).
BSOAS	= *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* (London).
BTS	= *Beiruter Texte und Studien* (Beirut).
Byz. St	= *Byzantine Studies.*
CIA	= *Corpus Inscriptionum Arabicum.*
CIHC	= *Colloque International sur l'Histoire du Caire,* DDR 1973.
CNRS	= *Centre National de Recherches Scientifiques* (Paris).
CT	= *Les Cahiers de Tunisie* (Tunis).
EI[1]	= *Encyclopédie de l'Islam* (Ière édition).
EI[2]	= *Encyclopédie de l'Islam* (2ème édition).
GAL	= *Geschichte der arabischen Litteratur.*
GAS	= *Geschichte des arabischen Schrifttums.*
IC	= *Islamic Culture.*
IFAO	= *Institut Français d'Archéologie Orientale* (Le Caire).
IF(EA)D	= *Institut Français (d'Études Arabes) de Damas* (Damas).

IJMES	= *International Journal of Middle Eastern Studies* (U.S.A.)
Isr.Or.St.	= *Israil Oriental Studies* (Tel-Aviv).
JA	= *Journal Asiatique* (Paris).
JAOS	= *Journal of the American Oriental Society* (U.S.A.).
JARCE	= *Journal of the American Research Center in Egypt* (Cairo).
JBBRAS	= *Journal of the Bengal Branch of the Royal Asiatic Society.*
JESHO	= *Journal of the Economic and Social History of the Orient* (Leiden).
JNES	= *Journal of Near Eastern Studies* (U.S.A.).
JRAS	= *Journal of the Royal Asiatic Society* (London).
JSS	= *Journal of Semitic Studies.*
MAE	= *Muslim Architectur of Egypt.*
MUSJ	= *Mélanges de l'Université Saint-Joseph* (Beirut).
MW	= *Muslim World.*
PO	= *Patralogia Orientalis.*
RCEA	= *Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe.*
REI	= *Revue des Études Islamiques* (Paris).
REJ	= *Revue des Études Juives* (Paris).
RSO	= *Rivista degli Studi Orientale* (Rome).
SI	= *Studia Islamica* (Paris).
WZKM	= *Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes.*
ZDMG	= *Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft.*

الكشافات

١- الأعـــــلام

٢- الخطط والمحال الأثرية

٣- الأماكن والمواضع والبُلدان

٤- الألقاب والمُصْطَلَحات وأسْماء الدّواوين

٥ - القبائل والجماعات والفرق والأسرات الحاكمة

الكَشّاف البيليوجرافى

al-Dawla al-fāṭimiyya fī Miṣr: Tafsīr jadīd. 2nd ed. By AYMAN FU'ĀD SAYYID. Cairo: AL-DĀR AL-MIṢRIYYA AL-LUBNĀNIYYA, 2000. Pp. 817.

The first edition of Ayman Fuad Sayyid's *The Fatimid State in Egypt: A New Interpretation*, which appeared in 1992, was at the time the most important new general study of the Fatimids in Arabic, especially on Egypt and in Egypt. Nothing as comprehensive had been published for many years. An older generation of Egyptian scholars was more active in Fatimid studies, but in the present Ayman Fuad Sayyid is one of only a few and is clearly far and away the leading authority. For the past two decades he has edited or re-edited most of the basic sources. Those editions have often been models of erudition, with a wealth of detail in the explanatory notes along with numerous citations to additional sources. His *Fatimid State* is, however, a work of synthesis, what he calls in the subtitle *tafsīr jadīd*, "a new interpretation." "New" here applies more precisely to the context of modern writing about the Fatimids in Arabic.

This second edition is far more than a reissue of the original, which ran to a mere 478 pp. in contrast to 817 pp. in the second. In the latter, the author has taken note of many significant developments in the field that he either had not seen previously or that have appeared since. He has inserted at the beginning (pp. 29–92) a lengthy essay on the sources and on recent work. Many chapters have been modified or otherwise changed but there are several that are new altogether—for example, those on official ceremonies (pp. 373–410) and processions (pp. 411–63), on culture and educational institutions (pp. 573–609), and the Fatimid army (pp. 657–724) and navy (pp. 725–46).

PAUL E. WALKER
UNIVERSITY OF CHICAGO

الدَّوْلَةُ الفَاطميّة في مصر ـ تَفْسيرٌ جَدِيد ، الطبعة الثانية ، تأليف أيمن فؤاد سيد ، القاهرة ـ الدار المصرية اللبنانية ٢٠٠٠، ٨١٧ صفحة .

كانت الطَّبْعَة الأولى من كتاب «الدَّوْلَة الفاطمية في مَصر ـ تفسير جديد» لأيمن فؤاد سيد ، التي ظهرت سنة ١٩٩٢ ، أهمّ دراسة شاملة جديدة عن الفاطميين باللغة العربية في هذا الوقت ، على الأخصّ عن مصر وفي مصر . فلا توجد أيّة دراسة شاملة مماثلة نُشِرت منذ سنوات عديدة . فقد كانت هناك جيلٌ مُتَمَرِّسٌ من الدَّارسين المصريين أكثر نشاطًا في الدراسات الفاطمية ، غير أنّ في الوقت الحاضر فإنّ أيمن فؤاد سيد واحدٌ من أفضل القلائل في هذا المجال ، وبجلاء فإنّه المرجع الأوّل بغير منازع . فقد نَشَرَ في العَقْدين الأخيرين أو أعاد نَشْر معظم المصادر الأساسية . وهذه النَّشَراتُ أنموذج للمعرفة الواسعة مع تفاصيل غنية في التعليقات الهامشية على امتدادها وإشارات متعددة إلى مصادر إضافية . وكتابه «الدَّوْلَة الفاطمية» ، مع ذلك ، عملٌ تركيبي وهو ما سمَّاه في العنوان الفرعي «تفسير جديد» . وتنطبق كلمة «جديد» هنا على وَجْه الدِّقَّة على سياق الكتابة الحديثة عن الفاطميين في اللغة العربية .

وهذه الطبعة الثانية أكثر من مجرّد طبعة جديدة للكتاب الأصْلي الذي جاءَ في ٤٧٨ صفحة مقابل ٨١٧ صفحة في الثانية . فقد اهتمّ المؤلف في هذه الطبعة الثانية بالعديد من التوسعات ذات المغزى التي لم يتناولها من قبل أو التي تراءت له فيما بعد . فقد أدمج في بداية الكتاب (صَفحة ٢٩ـ٩٢) مقالًا مطوّلًا عن المصادر والوضْع الراهن للدراسات الحديثة . وتم تعديل العديد من الفصول أو صياغتها بطريقة مختلفة بحيث بدت مغايرةً تمامًا ـ على سبيل المثال تلك المتعلّقة بالرُّسُوم الفاطمية (٣٧٣ـ٤١٠) والمواكب الاحتفالية (٤١١ـ٤٦٣) ، والمتعلّقة بالتعليم والثقافية (٥٧٣ـ٦٠٩) والجيش الفاطمي (٦٥٧ـ٧٢٤) والبحرية الفاطمية (٧٢٥ـ٧٤٦) .

بول ولكر
جامعة شيكاغو

مجلة JAOS (الجمعية الشرقية الأمريكية)
المجلد ١٢٢/٣ (يوليو ـ سبتمبر ٢٠٠٢)، ٦٥٩ ـ ٦٦٠ (عرض الكتب Reviews of Books).

Je me suis tout particulièrement intéressé à bien présenter les évolutions et les changements idéologiques et sociaux qui se sont succédés dans cette période, et je me suis efforcé aussi d'expliquer la politique économique et le système de taxation imposés dans le royaume, car cela a determiné la phase finale du règne fatimide.

Puisse ce travail contribuer à mieux présenter et à interpréter d'une manière nouvelle cette période de la «manifestation» *(al-zuhûr)* dans l'histoire de la «prédication» *(da'wa)* ismâ'ilienne, qui constitue une des pages importantes de l'historie de l'Égypte. Ayant utilisé pour cette recherche des sources nouvelles - textes originaux et résultats d'études récentes - j'ai l'espoir que mon livre permettra à de nombreux historiens de mieux connaître cette importante période de l'histoire musulmane.

Ayman FU'ÂD SAYYID

Le Caire, le 19 Octobre 1999

siècle grâce au soutien des différents groupes militaires. Cette militarisation aboutit à des violences entre les différents groupes de l'armée mais, sans conduire pour autant à une nouvelle guerre civile.

Sous la protection de ce régime, les *imâms* (califes) fatimides devinrent des chefs sans puissance réelle pour toute une série de dictateurs militaires, comme cela s'était passé pour les califes ʿabbâsides de Bagdâd qui étaient devenus des jouets impuissants entre les mains de leurs protecteurs Buwayhides et Saldjûqides.

* * *

Cette étude se divise en trois grandes parties, un préambule et une introduction. Le préambule renferme une étude des sources de l'histoire fatimide et une présentation de l'état actuel des études fatimides et ismâʿiliennes. L'introduction (*al-madkhal*) étudie l'époque pré-fatimide jusqu'à la proclamation du califat fatimide en Ifriqiyya.

La première partie traite en neuf chapitres «*al-daʿwa-al-dawla*», c'est-à-dire l'histoire politique de l'État fatimide depuis son apparition en Ifriqiyya en 297/909 jusqu'à la prise de pouvoir par les Ayyûbides en Égypte en 567/1171. Dans la deuxième partie a été developpée en huit chapitres l'étude des institutions et de la civilisation de l'Égypte à l'époque fatimide. La troisième partie présente en deux chapitres l'histoire de l'armée et de la marine fatimides.

Dans cette étude, je me suis tenu à l'écart du détail des événements et je me suis contenté de présenter une analyse des différentes phases de l'histoire fatimide. J'ai mis en lumière les grandes lignes et les aspects principaux de cette histoire, en expliquant la stratégie qui a dominé la politique fatimide et les buts qu'elle visait, essayant en outre de montrer leurs échecs et leurs succés.

furent les dictateurs militaires qui dirigèrent l'État fatimide en usurpant le pouvoir politique des *Imâms*.

Tout au long du premier siècle fatimide, les Califes fatimides n'avaient pris aucune mesure pour établir l'empire mondial auquel ils avaient songé. Dans la première moitié du règne du calife al-Mustansir, l'Égypte connaît la plus grâve crise économique de son histoire médiévale, et elle entra dans une période aiguë de crises du pouvoir administratif.

Cependant, les Fatimides restèrent pour une longue période la plus grande force du monde musulman. L'empire fatimide atteignit au début de l'époque d'al-Mustansir son extrême extension: il comprend l'Égypte, la Palestine, la Syrie, l'Afrique du Nord, la Sicile, les côtes africaines de la Mer Rouge, le Hidjâz, le Yémen, le ʿOmân, le Bahrayn et le Sind, de telle sorte qu'on peut l'appeller *«l'âge d'or de l'Ismâʿilisme»*. Mais leur effondrement fut rapide, surtout après l'avènement des Saldjûqides et leur création d'un nouvel et puissant empire militaire en Orient. Au moment du décès d'al-Mustansir en 487/1094, la *daʿwa* fut subdivisée de façon permanente en deux grandes factions: les *Nizârites* et les *Mustaʿlites*.

Quoique nous ne sachions pas exactement les raisons immédiates qui ont conduit à la guerre civile, on peut supposer qu'elle fut le résultat indirect de l'instabilité administrative interne qui avait suivi l'exécution du puissant vizir al-Hasan b. ʿAlî b. ʿAr. al-Yâzûrî (442-450/1050-1058). Cette guerre eut une grande influence sur le reste de l'histoire fatimide, elle plongea l'État, la société et la dynastie fatimide dans un état de souffrance et d'anarchie.

L'homme qui sauvé l'État de cette anarchie fut l'*émir al-djuyûsh* Badr al-Djamâlî, un commandant d'origine arménienne, auquel le calife al-Mustansir avait fait appel. Il établit en Égypte une dictature militaire qui continua avec son fils et successeur al-Afdal Shâhinshâh. La dictature de la maison de Badr al-Djamâlî fut un point tournant dans la militarisation de la politique fatimide ou plusieurs vizirs avaient assumé le pouvoir au VIᵉ/XIIᵉ

commandant Djawhar partit pour l'Orient afin de réaliser la grande œuvre des Fatimides: la conquête de l'Égypte.

La conquête fatimide de l'Égypte ne signifiait point qu'un régime s'était substitué à un autre, mais elle était presque un coup d'état religieux, politique, économique et social. Elle créait une situation entièrement nouvelle. Pour la première fois, dans l'histoire musulmane, l'Égypte était régie par une dynastie qui ne reconnaissait même pas nominalement le calife de Bagdâd. C'est avec l'arrivée des Fatimides que le rôle de l'Égypte dans le monde musulman fut transformé et devint rapidement prépondérant. Les Fatimides représentaient un phénomène nouveau - bien qu'il ne fut pas unique dans l'histoire - qui était simultanément un régime impérial et révolutionnaire. Ils étaient les chefs d'un grand mouvement religieux qui ne visait à rien moins que la transformation et le renouvellement de tout l'Islam. Ils se voyaient les vrais *imâms* dignes de régir le monde musulman selon le principe du droit divin, car ils font remonter leur origine à ʿAlî et à Fâtima, la fille du Prophéte. Ces prétentions étaient-elles fondées, ou étaient-elles purement imaginaires? Cela n'est pas important. Ce qui est sûr, c'est qu'un grand nombre de partisans croyaient à l'authenticité de leur généalogie et soutenaient leur cause politique.

* * *

L'histoire de l'État fatimide en Égypte se divise en deux grandes périodes: la première commence avec l'arrivée du *qâ'id* Djawhar et l'achèvement de la conquête de l'Égypte en 358/969 et se termine avec l'éclatement de la guerre civile au milieu du V^e^/XI^e^ siècle, à l'époque du calife al-Mustansir (452-466/1060-1073). La deuxième est l'époque des vizirs - dictateures militaires (466-567/1073-1171). Dans la première période - avec quelques courtes exceptions - les souverains (*imâms*) fatimides avaient dans leurs mains une autorité politique absolue. Dans la deuxième période, ce

AVANT - PROPOS

Il y a vingt ans, j'ai lancé un projet d'édition de sources nouvelles concernants l'histoire des Fatimides en Égypte, ainsi que celui de la réédition d'autres textes en s'appuyant sur des manuscrits nouvellement découverts, ou en les comparant avec de nouvelles informations (de Musabbihî, Ibn al-Sayrafî, Ibn al-Ma'mûn, Ibn al-Tuwayr, Ibn Muyassar, Ibn ʿAbd al-Zâhir et al-Maqrîzî). Ces textes nouveaux m'ont offert l'opportunité d'approfondir les différents domaines de l'histoire fatimide, surtout dans sa période égyptienne. Ceci m'a conduit à écrire une nouvelle histoire de l'État fatimide en Égypte qui s'appuie surtout sur ces sources et sur les études modernes qui ont traité certaines questions concernant la longue histoire des Fatimides.

Le bon accueil réservé par les chercheurs à cette étude ainsi que son rapide épuisement m'ont encouragé à faire paraître une nouvelle édition qui prenne en compte les textes nouvellement édités et les études récentes. Dans cette édition, j'ai modifié des chapitres, en ai ajouté de nouveaux (sur les rituels, les cérémonials, l'enseignement, la culture et l'histoire de l'armée et de la marine fatimides) avec un préambule qui traite des sources de l'histoire fatimide et de l'état actuel des études ismâʿiliennes et fatimides.

*
* *

Après que les Fatimides eurent proclamé leur État (Califat) en Ifriqiyya, ils ont réalisé que cette province ne pouvait pas être la base de l'empire dont ils rêvaient. La terre propice à la réalisation d'un tel but, comme il est prouvé dans l'histoire ancienne, est l'Égypte et la Mésopotamie. Ce n'est que sous le règne du quatrième calife (*imâm*) fatimide al-Muʿizz li Dîn Allâh que son

LES FATIMIDES EN ÉGYPTE

NOUVELLE INTERPRETATION

par

AYMAN FU'ÂD SAYYID

Docteur d'état-es-lettres

de la Sorbonne

طبعة خاصة تصدرها

الدار المصرية اللبنانية

ضمن مشروع مكتبة الأسرة ٢٠٠٧